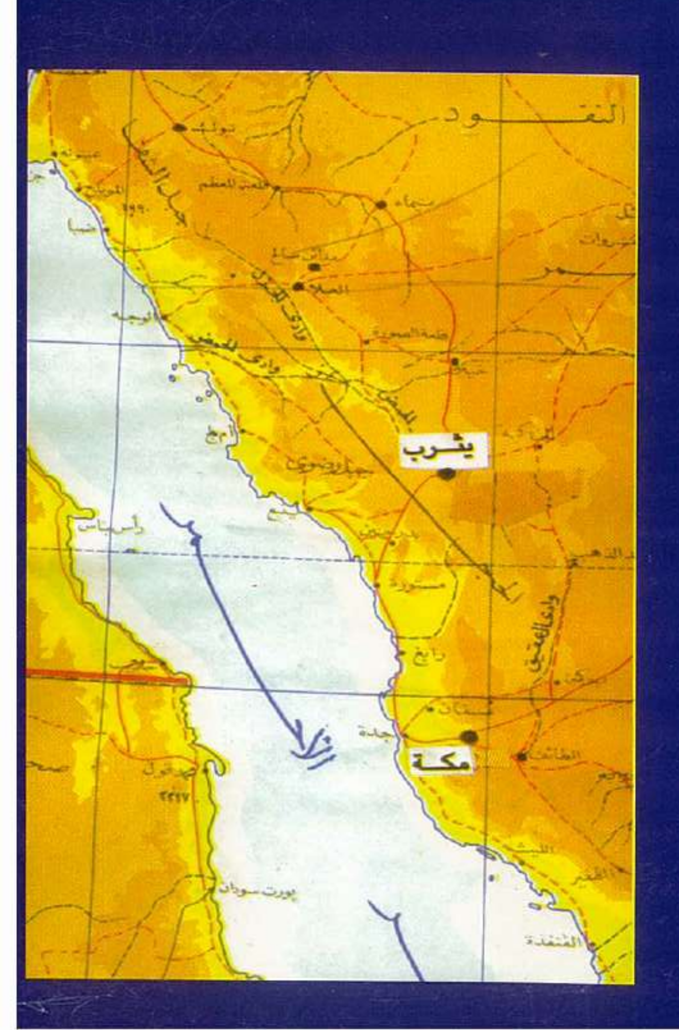
خاتم الأنبياء

محمد

صلى الله عليه وسلم



قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء السابع

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهرة

خاتم الأنبياء

محمد

عليه الصلاة والسلام

قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء السابع

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الأستاذ بجامعة القاهره

قصص الأنبياء والتاريخ. الجـزء السابع
خاتم الأنبياء « محمد » صلى الله عليه وسلم
د . رشدى البدراوى

يناير ٢٠٠٤

طبع بمطابع
مكتبة و مطبعة المجلد العربى
تليفون : ٢٥٩١٢٥٢٤ ـ فاكس : ٢٥٨٩٢٢٣١
الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٠م



رقـم الإيـداع : ٢٠٠٣/١٢٥٨٩
الترقيم الدولى : 5 - 0376 - 17 - 977

المحتويات

الأشكال والخرائط

صفحة

فهرس السور

مقدمـــة

بعد أن انتهيت من كتابة الجزء السادس من هذه السلسلة أخذت أفكر فى الجزء السابع وهو يختص بسيرة خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وترددت وساءلت نفسى: ماعساى أكتب فى سيرة سيد الخلق وقد كتب فيها الأولون والآخرون، منهم من كتب بتفصيل ومنهم من أوجز. ففى العصر الحديث كتب شيوخ أفاضل مثل: الشيخ محمد أبو زهرة والشيخ محمد الغزالى والشيخ محمد سيد طنطاوى والشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم الكثير، ومن الكتاب الأساتذة: توفيق الحكيم، العقاد، محمد حسين هيكل، طه حسين، عبد الرحمن الشرقاوى وكثيرون غيرهم. ومن القدامى: ابن هشام وابن سعد وابن كثير وابن إسحق وعشرات آخرون. فما عساى أضيف! وإذا لم أضف شيئا فما جدوى الكتابة. وهنا قفز السؤال: كيف أكتب سلسلة عن «قصص الأنبياء والتاريخ» دون أن أشرُف بالكتابة عن خاتم الأنبياء. وهل تكتمل السلسلة دون أثمن حلقة فيها. وتمثلت الحديث الشريف: «مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمَّله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وُضِعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». وقدَّرت أن القراء لابد سيتساءلون: هلاَّ كتب عن سيد الخلق وخاتم النبيين كما كتب عن الأنبياء قبله؟ وهكذا استقر الرأى على أن أتوكل على الله وأتوِّج السلسلة بهذا الجزء وأنا على يقين من أن الله سبحانه وتعالى سيوفقنى فيه كما وفقنى فى الأجزاء السابقة.

وقد رأيت أن أتابع سيرة الرسول الكريم يوما بيوم وسنة بسنة منذ مولده وشبابه وزواجه، ثم تلقِّيه النبوَّة فى سن الأربعين، فبدأ يدعو قريشا إلى عبادة الله الواحد الأحد. وكان القرآن الكريم هو وسيلته إلى الدعوة إلى الله. ويسجِّل القرآن أقوال المشركين وجدالهم مع النبى ويلقنه الوحى الرد على اعتراضاتهم وافتراءاتهم، كما يرد على أسئلة المسلمين ويوضح لهم أحكام شريعتهم: وهكذا تردد لفظ «قالوا» ٣٣١ مرة ولفظ «يقولون» ٩٢ مرة ولفظ «يسألونك» ١٥ مرة وتكرر لفظ «قل» ٣٣٢ مرة.

والقرآن – كما هو معروف – نزل منجماً أى مفرقًا حسب مقتضيات الأحوال: كانت الآيات فى مكة تنزل تسفِّه عبادة الأصنام وتدعو المشركين إلى عبادة الله الواحد الأحد وتحث المسلمين على الصبر على إيذاءات قريش وفى المدينة نزلت الآيات التى ترسى أسس المجتمع الإسلامى الوليد، وتحذِّر من المنافقين وتفضح مؤامراتهم. كما كانت السور تنزل تعلِّق على الأحداث المختلفة: فسورة الأنفال تعلق على معركة بدر وسورة آل عمران فيها تعليق على

معركة أحد وسورة الأحزاب تعلق على معركة الخندق وسورة الفتح نزلت بعد صلح الحديبية. وقد أُلِّفت كتب كثيرة فى أسباب النزول أشهرها كتاب جلال الدين السيوطى «لباب النقول فى أسباب النزول» وقد رأيت أن أتوسع فى هذا المجال. فما من آية نزلت إلاَّ وهناك سبب أو هدف لنزولها ، ووضح لى الطريق الذى أسلكه فى كتابة السيرة العطرة.

وعند ذكر السور اتبعت الأسلوب الذى نهجه ابن كثير وهو تقسيم السورة إلى فقرات. وزدت بأن أضفت إلى الفقرات عنوانا يُعبِّر عن مضمون الفقرة . ولكن فى كثير من الأحيان لا يكون مضمون الفقرة قاصرا على ما جاء فى العنوان إذ أن أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم أن الفقرة الواحدة بل إن الآية الواحدة قد تحتوى على أكثر من موضوع.

وقد ضمَّنتُ الكتاب عددا من الصور التوضيحية والخرائط الجغرافية تبين خط سير السرايا والغزوات ورسومات تبين مراحل المعارك الكبرى : بدر وأحد والخندق وفتح مكة ليسهل على القارئ تصور ما حدث بالفعل.

أملى أن أكون قد وُفِّقت فى النهج الذى نهجت وأضفت شيئا ما إلى الكثير الذى كتب من قبل فى سيرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

يناير ٢٠٠٤ المؤلف

جغرافية شبه الجزيرة العربية

تقع شبه الجزيرة العربية فى الطرف الجنوبى الغربى من قارة آسيا. ويطلق البعض عليها تجاوزا اسم «الجزيرة العربية» اعتمادا على أن نهر الفرات كمجرى مائى - يفصلها من ناحية الشمال عن باقى أراضى آسيا. ويحدها من الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب المحيط الهندى وخليج عدن وشرقا الخليج الفارسى. وهى مستطيل غير متوازى الأضلاع يبلغ طوله أكثر من ٢٠٠٠كم وعرضه أكثر من ١٥٠٠كم.

ومع الايجاز الشديد يمكن وصف بلاد العرب بأنها هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أي جزء منها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر. وهذه الهضبة تنحدر ناحية الغرب انحدارا شديدا تاركة بينها وبين ساحل البحر الأحمر واديا ضيقا لا يزيد عرضه عن ٣٠كم وأحيانا يتسع إلى ٧٥كم. أما الانحدار الشرقى فهو تدريجي وكذلك الانحدار ناحية الجنوب. وعليه يمكن تقسيم شبه الجزيرة العربية بطريقة مبسطة إلى (شكل ١):

أ - **وسط** : ويشمل من الشمال إلى الجنوب: بادية الشام ثم صحراء النفود الشمالية ثم نجد ثم الربع الخالى.

ب - **جنوب** : ويشمل من الغرب إلى الشرق: اليمن، حضرموت وكندة والأحقاف ثم الشحر.

جـ - **شريط ساحلى غرب الخليج الفارسى** ويشمل عمان فى الجنوب - ثم دولة الإمارات المتحدة، ثم الإحساء ثم جنوب العراق.

د - **الجزء الغربى المجاور للبحر الأحمر** ويشمل من الشمال إلى الجنوب: بلاد العرب الصخرية ثم مدين ثم الحجاز ثم تهامة وعسير وتنتهى سلسلة الجبال الموجودة به إلى أن تندمج مع جبال اليمن. وأهم مدن هذا الجزء هما مكة ويثرب.

العـــــرب

يرجع علماء الأجناس أصل العرب إلى سام بن نوح أى أنهم ساميون، كما يُجمع المؤرخون على تقسيم الشعوب العربية من ناحية الامتداد الزمنى إلى قسمين: عرب بائدة وعرب باقية:

العرب البائدة :

وهى التى هلكت واندثرت من قديم الزمان وتناقل الناس أخبارها شفاها فتشكك البعض فى وجودها. وقد ذكر مؤرخو العرب أسماء عدد من قبائل العرب البائدة مثل طسم وجديس وأميم وعبيل وعمليق وجاسم. وانفرد القرآن الكريم بذكر قبيلة عاد ونبيهم هود والتى كانت

شكل ١ – الأقسام الجغرافية لشبة الجزيرة العربية .

تسكن الأحقاف (انظر الجزء الأول ص ١٤١) وكذلك قبيلة **ثمود** ونبيهم صالح والتى كانت تسكن الحجر فى الشمال (جـ ١ ص ١٥٨). وأنكر المستشرقون وجود هاتين القبيلتين اعتمادا على أن التوراة لم تذكر شيئا عنهما. إلا أن الكشوف فى أواخر القرن التاسع عشر أماطت اللثام عن آثار لقبيلة **ثمود** عبارة عن شواهد لبعض القبور. ثم وجد أن بعض مؤرخى اليونان والرومان قد أشاروا إليها فى كتاباتهم. ونشطت الاستكشافات فى هذه المنطقة وأهم ما عُثر عليه هو قصر البنت وقصر الباشا والقلعة والبرج (تاريخ العرب. عصر ما قبل الإسلام. محمد مبروك نافع.عام ١٩٤٨).

وكذلك حظيت **الأحقاف** بنصيب من الاستكشافات، ويُرجِّح كثير من العلماء أن تحت الكثبان الرملية فى الأحقاف والمناطق المجاورة آثارا لم تُكشَف بعد. وقد كشفت كاميرا مركبة على مكوك فضاء – لها خاصية اختراق سطح الأرض – عن عدد من المجارى المائية الجافة المدفونة تحت رمال الربع الخالى فى المملكة العربية السعودية. واستنتج الباحثون أن حضارة ما قد وجدت فى هذا المكان يرجع تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. وكان هذا مؤيِّدا لما كتبه الجغرافيون القدامى مثل بللينى (من علماء الرومان ٢٣–٧٩ ميلادية) وبطليموس الإسكندرى (١٠٠ – ١٧٠م) اللذين وصفا زيارتهما للمنطقة قبل أن تطمرها الرمال. ووصف كل منهما دولة ذات حضارة كانت تعيش فى المنطقة. بل إن الأخير قام برسم خريطة لأنهار المنطقة ومدنها. وكان علماء التاريخ ينظرون إلى كتاباتهم على أنها نوع من الأساطير. وبدأ الأثريون يركزون حفرياتهم فى المنطقة. فعُثر على ألواح من الصلصال أمكن فك رموز الكتابة التى عليها وأمكن التعرف على أسماء عاد وإرم. وفى عام ١٩٩٨ كشفت الحفريات عن قلعة سميكة الجدران مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاع الواحد منها إلى ٩ أمتار وقطره ٣ أمتار. ويرى الدكتور زغلول النجار (الأهرام ٢٠٠٢/١٠/٧ ص ١٢) أنها بقايا مدينة **«إرم ذات العماد»** الوارد ذكرها فى القرآن الكريم (٧ – ٨ – سورة الفجر). واكتُشف سور يحيط بالمدينة سمكه يزيد عن ٥ أمتار. وكتب كثير من الأثريين الغربيين عن هذه الحضارة المفقودة وما كانت عليه من عظمة وفخامة فى مبانيها تدل على نعمة وسعة فى الرزق مصداقا لقوله تعالى **«التى لم يخلق مثلها فى البلاد»** أى لم يكن فى وقتهم أحد يضاهيهم فى عظمة مبانيهم. وأكّدوا أنها هلكت بطريقة غير مألوفة.

أما **طسم وجديس** فكل ما ورد عنها مختلف ولا يعدو – حتى الآن – أن يكون مجرد أساطير. وإن كانت قصة زرقاء اليمامة – وهى من طسم – مشهورة فى كتب الأدب العربى القديم لدرجة لا يمكن تجاهل احتمال اشتقاقها من قصة حقيقية وقعت فى قديم الزمان بالرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنها ميثولوجيا من النوع الموجود لدى كثير من الشعوب.

العـرب الباقيــة :

وهم الذين ينتسب إليهم عرب الجاهلية وعرب ما بعد الإسلام. وينقسم العرب الباقية من حيث التوزيع الجغرافى إلى عرب الجنوب وعرب الشمال:

أ- عرب الجنوب أو العرب القحطانية :

وهم الذين سكنوا اليمن. ويُرجع المؤرخون نسبهم إلى يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح (جـ ١ ص ١٣٨) وأهم دولها حسب الترتيب الزمنى هى:

١ – **دولة بونت أو بُنط** : وكانت لها علاقات تجارية مع مصر إذ كان فراعنة مصر يقودون حملات فى البحر الأحمر إلى أرض البخور أشهرها الرحلة التى سيَّرتها الملكة حتشبسوت وقصتها مدوَّنة على جدران معبد الدير البحرى. وانتهت دولة بنط وتلتها.

٢ – **دولة المعينيين** : والتى استمرت قرابة ١٠ قرون أعقبتها.

٣ – **دولة سبأ** : والتى حكمت حوالى ٩ قرون (من ١٠٠٠ إلى ١١٥ ق.م.) وكلنا يعرف قصة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام (جـ ٥ ص ٢٣١). وكانت دولة سبأ على درجة كبيرة من الثراء لتجارتها الواسعة ولخصوبة أرضها وما بنَوه من سدود تحجز مياه الأمطار ليستفاد بها طول العام. وكان أشهرها «سد مأرب». ولما تصدَّع ونتج عنه «سيل العرم» الذى أغرق الأرض تفرق أهلها ونزحوا إلى الشمال كما سيجئ فيما بعد (ص ٢٨٦–٢٨٧). بعد ذلك قامت فى جنوب اليمن

٤ – **دولة حِمْيَر** : وقد استمرت حوالى ٤ قرون وكانت عاصمتها «ظفار» . ومن ملوكهم «تُبَّع» المذكور فى القرآن الكريم:

«أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم» (٣٧ – الدخان).

«وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كلٌّ كذَّب الرسل» (١٤ – ق).

وملك من بعده ١٣ ملكا هم ملوك التبابعة وكان ثانيهم «ذو القرنين» وسمى كذلك لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على جانبى رأسه. والمعتقد أنه هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم (الآيات ٨٣ – ٩٨. سورة الكهف).

وكان آخر الملوك التبابعة «ذانواس» الذى اعتنق اليهودية وتعصَّب لها وبالغ فى اضطهاد النصارى وحارب أهل نجران الذين كانوا يعتنقون النصرانية وقبض على عدد كبير منهم وحفر أخدودا عميقا ملأه بالحطب والأخشاب وأشعله نارا وصار يلقيهم فيها. وقد أشار القرآن الكريم إلى قصتهم فى سورة البروج: **«قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»** (٤–٧–البروج).

وقد أدى هذا الاضطهاد إلى استنجاد النصارى بالإمبراطور جوستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية التى أعطت لنفسها حق حماية النصارى في كل مكان. فأرسل إلى ملك الحبشة بصفته مسيحيا ولقربه من اليمن. فأغارت الحبشة على اليمن وأسقطت دولة التبابعة حوالى عام ٥٢٥م. وحاول ذو نواس الفرار على فرس له ولكنه غرق فى البحر.

٥ - **اليمن تحت حكم الحبشة** : كان جيش الأحباش الذى أرسل إلى اليمن يتكون من ٧٠,٠٠٠ جندى. وكان قائد الجيش هو «أرياط» يساعده القائد الثانى «أبرهة الأشرم». وظل أرياط يحكم اليمن باسم نجاشى الحبشة ثم نازعه أبرهة وانحاز إلى كل جانب فريق من الجنود وعدد من القبائل. ثم بدلاً من حرب شاملة بين الفريقين اتفقا على أن يتبارزا وأيهما انتصر صار حاكما للبلاد. وانتصر أبرهة وقُتل أرياط. فلما بلغ ذلك النجاشى فى الحبشة غضب ولكن أبرهه كتب إليه معتذرا ومُستَرْضيا وأوضح أن سياسة أرياط الخرقاء كانت ستؤدى إلى ضياع حكم الأحباش لليمن. فرضى عنه الملك وثبَّته فى حكم اليمن.

ثم بدأ ملوك الحبشة فى التطلع إلى القضاء على ديانات العرب وصرفهم إلى النصرانية حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام وتصبح الجزيرة العربية كلها على ديانة النصرانية. وصادف ذلك هوى فى نفس أبرهة الذى بنى فى العاصمة ظفار كنيسة كبيرة Eglise وعرِّبت إلى «القليس» وهى التى كانت بداية محاولة أبرهة لهدم الكعبة كما سيجئ فيما بعد (ص ٢٦).

وتكملة لتاريخ اليمن نقول إن الحكام الأحباش بعد أبرهة زاد ظلمهم للناس فخرج سيف بن ذى يزن من اليمن قاصدا كسرى ملك الفرس ورغَّبه فى فتح بلاده لطرد الأحباش منها. ففعل كسرى بعد تردد وأصبحت اليمن تدين بالولاء لفارس ويحكمها سيف بن ذى يزن من قبل كسرى. وكان خامس ولاة الفرس على اليمن - وآخرهم - هو باذان الذى اعتنق الإسلام فى سنة ٦٢٨م. وهى السنة السادسة للهجرة وظل واليا عليها حتى سنة ٦٣٢م وهى السنة التى دخلت فيها اليمن فى حوزة الدولة الإسلامية وانتهت تبعيتها لفارس.

كندة : وكندة بطن من كهلان بن سبأ. وهم أصلا من البحرين أُجلوا عنها إلى حضرموت واستعملهم التبابعة ملوك اليمن فى مصالحهم وكانوا ينافسون المناذرة فى التقرب إلى الفرس وإن كان بعض المؤرخين يرجع أصلهم إلى اليمن ثم سكنوا كندة إلى الشمال من حضرموت ثم حدث خلاف بينهم وبين الحضرميين فهاجروا إلى الشمال وسكنوا غرب الخليج الفارسى.

ب - عرب الشمال :

ويسمون أيضا العرب المستعربة أو العرب العدنانية أو عرب الحجاز أو العرب الإسماعيلية ويغلب عليهم اسم العرب العدنانية نسبة إلى عدنان من سلالة إسماعيل عليه السلام (جـ ٢ ص ٣٨٧).

وتغلب البداوة على عرب الشمال. فهم يسكنون بيوتا من الشَعر أو الجلد يضربونها حيث يطيب لهم المقام. ولهم لغة تختلف عن لغة الجنوب. إلا أن الشعبين كانا يشتركان فى الوثنية وعبادة الأصنام.

وقامت فى الشمال عدة دويلات كانت بمثابة «دول حاجزة» بين الدولتين العظميين – فارس وروما – تحمى ظهرها من غارات بدو الصحراء. وولاءها يكون للدول العظمى المجاورة. هذه الدويلات هى (شكل ٢):

١ – دولة الأنباط :

وهى أقدم الدويلات الشمالية أقامها عرب هاجروا من وسط شبه الجزيرة العربية حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. وسكنوا المنطقة التى تفصل بين الشام وبلاد العرب والتى تمتد من نهر الفرات إلى شرق البحر الميت. وقد ذكرنا نبذة عنهم فى الجزء الخامس (ص ٤٨٨) إذ بلغت دولتهم آنذاك أقصى توسعاتها التى ما لبثت أن أفلت باستيلاء الرومان على كل منطقة الشرق الأدنى فى عام ٦٣ ق.م. وآثار عاصمتهم «البتراء» لاتزال تجذب السائحين والمستكشفين.

٢ – دولة تدمر (پالميرا) :

تذكر التوراة أن سليمان عليه السلام بنى تدمر فى البرية على أنقاض مدينة صغيرة كانت موجودة من قديم الزمن. وأصبحت تدمر محطة هامة للقوافل التى تجتاز الصحراء الشاسعة من دمشق إلى بابل. وبعد سقوط الامبراطورية البابلية تجمع حولها بعض القبائل العربية وكوّنوا شبه دويلة لم تستمر كثيرا.

٣ – دولة الحيرة أو دولة المناذرة :

وتسمى أيضا «دولة لخم».. ويقال إنه بعد تصدع سد مأرب هاجرت بعض القبائل من اليمن وأخذت تغير على أطراف الدولة الفارسية فى العراق ورضخ الفرس للأمر الواقع وسمحوا لهذه القبائل بالسكنى فى منطقة الحيرة ومُنحوا شبه استقلال ذاتى حتى يكونوا حاجزا يحمى الفرس من غارات البدو المنتشرين فى الصحراء. كما أنهم كانوا يمدون العون للفرس فى معاركهم ضد الرومان.

وتقع مدينة الحيرة على نهر الفرات على مقربة من أنقاض مدينة بابل وعلى بعد ٥ كم جنوبا من الكوفه ومن ملوكهم: النعمان الأول ثم المنذر الأول فغلب عليهم اسم المناذرة. وكانت دويلتهم تشمل المنطقة الواقعة غرب الفرات ابتداء من مجراه الأوسط إلى جزء من الخليج الفارسى وكان نفوذها يشمل كافة القبائل الساكنة فى هذه المناطق.

الفرس الساسانيين
الحيرة
سوريا
لبنان
دولة المناذرة
تدمر
بيروت
دمشق
البحر المتوسط
صيدا
دولة تدمر
صور
حيفا
بادية الشام
روم
فلسطين
الخليج الفارسي
دولة الأنباط
الغساسنة
بترا
بصرى
معان
أيلة
الطرف الشمالى
لخليج العقبة

شكل ٢ – دويلات شمال شبه الجزيرة العربية.

٤ – دولة الغساسنة :

وقد لعبت دولة الغساسنة للروم نفس الدور الذى كانت تلعبه الحيرة بالنسبة للفرس بمعنى أنها كانت دولة حاجزة اتخذ منها الروم حاجزا يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء. ولإمدادهم بالرجال فى حروبهم مع الفرس. ولا يستطيع المؤرخون تحديد متى قامت هذه الدويلة ولكنهم يرون أن بعض قبائل قضاعة نزلت فى إقليم شرق الأردن وانضم إليهم قبائل من أزد اليمن والذين كانوا يقيمون فى تهامة حول ماء يُسمَّى «غسَّان» فعرفوا بالغساسنة وغلبوا على قبائل قضاعة وصارت لهم اليد العليا فى الدويلة الناشئة. وقامت حروب بين الغساسنة والروم وأخيرا خضعوا لحكم الرومان ودفع الجزية ودانوا بالنصرانية واستقروا فى صحراء الشام جنوب دمشق وشرق نهر الأردن حتى الطرف الشمالى لخليج العقبة (شكل ٢). ثم قامت حرب بين الغساسنة والروم وجاء الغساسنة مددٌ من عرب شمال شبه الجزيرة العربية فانتصروا واضطر قيصر للصلح معهم معترفا بسيادتهم على الأرض التى فى حوزتهم على أن يقوموا بنصرته عند الحرب وتقديم نصيب من الحبوب كل عام.

وقد اختلف المؤرخون فى عدد ملوك الغساسنة وسنى حكمهم وأسمائهم ويُعَدُّ الحارث الأكبر (٥٢٨ – ٥٦٩م) أول أمير منهم يُعرف له تاريخ واضح. وهو فى نظر مؤرخى الغرب كان عاملا للروم. وهناك ما يشير إلى نشوب حروب بينه وبين المنذر الثالث أمير الحيرة. وكانت الحرب التي دارت سنة ٥٢٨م أكبرها وانتصرفيها الحارث ومن ثم فقد منحه جستنيان قيصر الروم لقب ملك. وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عُمَّالهم فى سورية من قبل. كما سمحوا له ببسط نفوذه على القبائل العربية المجاورة بغية أن يجعلوا منه خصما قويا لأمير الحيرة. ويرى بعض المؤرخين أن الروم لم يخلعوا عليه لقب «ملك» وإنما هو الذى أطلقه على نفسه.

وقد اشترك الحارث فى المعركة التى نشبت بين الفرس والروم وانتهت بهزيمة الروم ثم وقعت معركة ثانية بعد ٨ سنوات انتصر فيها الروم. وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: **«الم. غلبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين»** (١–٣– الروم) وهو ما سنشرحه مستقبلا (ص ٣٩٥). وكان الغساسنة يدينون بالنصرانية وعاصمتهم «بُصرى» التى كانت مركزا تجاريا هاما. وكان الفرس والروم يصلون بالأموال من يرونهم قادرين على تنفيذ سياستهم. كما كانت الدولتان الكبيرتان تبذلان الجهد كى تظل الدويلتان التابعتان على عداء حتى لا تتوحد كلمتهما.

الحجاز ونجد :

هذا هو الجزء المتبقى من شبه الجزيرة العربية. وقد ظل هذا الجزء قرونا طويلة وهو فى شبه عزلة تامة عن العالم المتمدين بينما الجنوب والشمال قد سجَّل لنا التاريخ من أخبارهما

الكثير. والسبب أن جدب الحجاز ونجد وجفاف تربته ووعورة المسالك إليه كانت تحول دون توغل الفاتحين العظام في أرضه ومن حاول منهم فتحه عاد خائبا. فبعُدت الحجاز عن الاحتكاك بالدول المجاورة وكان نشاطه داخليا مما أبقى على حالة البداوة التي نشأ عليها أهله. ولم يخرج عن هذه البداوة إلا مكة ويثرب وبعض المدن التي كانت على طريق القوافل من الجنوب إلى الشمال - من اليمن إلى الشام - وبالعكس. وأثر في يثرب عامل آخر وهو هجرة اليهود إليها بعد إجلائهم عن فلسطين عند إخماد ثورتهم على حكم الرومان عام ٦٣م.

مكــة :

تقع مكة في واد منحصر بين الجبال تربطه عدة طرق بالشمال والجنوب. فكانت محطة لرجال القوافل يضربون فيها خيامهم للراحة. وكانت أرضا قفرا ليس بها زراعة. ويخبرنا القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام - لما حدث خلاف بين زوجتيه سارة وهاجر - أخذ هاجر وولدها إسماعيل وسار بهما حتى وصل إلى مكة فتركهما هناك وعاد إلى حبرون. وقد ذكرنا في الجزء الثاني (ص٢٩٦ - ٣٠٣) كيف تفجَّر ماء زمزم ببركة إسماعيل فارتوت هاجر وسقت وليدها. وجاءت جماعة من جرهم واستأذنوها في الإقامة بجوار البئر فأذنت لهم. ثم جاء جماعة من العماليق فنزلوا أيضا بالوادي. وفاضت ماء زمزم وإذا بالوادي القفر ينبض بالحياة ويعمر وتصبح مكة أهم محطة على طريق القوافل وأصاب أهلها الخير الكثير وزادت مكانتها بعد بناء الكعبة - بيت الله الحرام - وتولى العماليق أمر الكعبة. ثم أجلت جرهم العمالقة عن مكة وتولوا هم أمر الكعبة وظلت في أيديهم زهاء ١٠٠٠ سنة. ثم غلبت خزاعة جرهم. ولكن جرهم - طمرت بئر زمزم وغيَّبت مكانها فكانت خزاعة تضطر إلى جلب الماء من الآبار خارج مكة مع ما في ذلك من مشقة. وظلت خزاعة قائمة على أمور البيت والحج حوالي ٢٠٠ سنة حتى وصلت إلى قريش.

وكثيرا ما كانت الكعبة تُدَمَّر بفعل السيول التي كانت تجتاحها. وتعيد قريش بناءها في كل مرة. وكان قصيّ بن كلاب هو أول من جعل لها سقفا وكانت حتى زمنه مكشوفة لا سقف لها. وكان لقريش شرف خدمة حجاج بيت الله الحرام وهي تتكون من:

١ - **الحجابة** : أي خدمة الكعبة وفتح بابها.

٢ - **السقاية** : أي توفير الماء لسقي الحجيج .

٣ - **الرفادة** : أي إطعام من لا زاد معه أو من نفد زاده من الحجيج.

وأضافت قريش إلى ذلك :

٤ - **رئاسة دار الندوة** : وهي الدار التي أنشأها قصي كبير قريش ليجتمع فيه شيوخ قريش للتشاور في المسائل الهامة.

٥ – **اللواء** : وهو رمز الجيش .

يثـرب :

وهى المدينة الثانية فى الحجاز بعد مكة وتقع على خط القوافل المتجهة من مكة إلى الشام. وسنرجئ الكلام المفصل عنها من ناحية تركيبها السكانى إلى ص ٢٢٥ لارتباط ذلك وما كان له من تمهيد لهجرة رسول الله إليها .

الديانـة فـى جزيـرة العـرب

ظل العرب من ذرية إسماعيل – على الحنيفية – دين إبراهيم عليه السلام. ولما انتشر أبناء قيدار بن إسماعيل فى أنحاء الجزيرة العربية ظلوا على ديانة التوحيد وخاصة الفروع التى أقامت حول البيت الحرام فى مكة يعظمون الكعبة ويطوفون بها .

وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أن أهل قريش – عند سفرهم – كانوا يحملون حجرا من حجارة الحرم وحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تعظيما للبيت وانتهى بهم الأمر إلى أن كانوا يطوفون بحجارة يستحسنونها إلى أن عبدوا الأوثان وهم مع ذلك يعظمون الكعبة ويطوفون بها. ثم استحبوا الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح وهى: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وأشركوا مع الله آلهة أخرى فكانت نزار تقول فى طوافها: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك. إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وكانت «عك» إذا خرجوا حجاجا قدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم فكانا أمام ركبهم يقولان: نحن غرابا عك ويرد عليهم الناس قائلين: عك إليك عانية عبادك اليمانية كيما تحج ثانية. وكانت ربيعة إذا حجّت وقضت المناسك نفرت فى النفر الأول ولم تبق بمنى إلى آخر أيام التشريق.

أما أول من أدخل الأصنام إلى قريش فهو لُحيّ بن حارثة بن عمرو الأزدى وهو أبو خزاعة. وهو الذى غلب جرهم على أمرها فأجلاهم عن مكة وتولى أمر الكعبة: الحجابة والسقاية والرفادة. وكان أن مرض مرضا شديدا فقيل له إن بالبلقاء بأرض الشام عينا إن أتاها برأ. فأتاها واستحم فيها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام فأخذ واحدا من أصنامهم وقدم به إلى مكة ونصبه بجوار الكعبة.

وانتشرت عبادة الأصنام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية. كل قبيلة لها صنم تعبده وتتبرك به وتذبح له القرابين. وكانت كل القبائل تجد شرفا لها أن يوضع نموذج لمعبودها داخل الكعبة أو بجوارها. وقد روى أن ما وجد داخل الكعبة من تماثيل عند فتح مكة بلغ أكثر من ٣٦٠ تمثالا. كسرها النبى كلها وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وكان لكل أهل دار فى مكة صنم يعبدونه. فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه قبل خروجه من داره أن يتمسَّح بصنمه. وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل داره هو أن يتمسَّح به أيضا. وإذا سافر ونزل منزلا في الطريق فتَّش عن أربعه حجارة حسناء الشكل واختار أحسنها فيتخذه ربًا وجعل ثلاثة أثافى لقدره يوقد تحته النار.

وكان بنو مليح – من خزاعة – يعبدون الجن وفيهم نزل قوله تعالى: **«إن الذين تعبدون من دون الله عباد أمثالكم»** (١٩٤ – الأعراف).

وفيما يلى أهم الأصنام التى عبدت فى الجزيرة العربية وشكل ٣ يبين أماكن عبادتها وللتسهيل جعلنا الرقم فى المتن هو نفس الرقم على الخريطة وشكل ٤ يبين أهم القبائل العربية وأماكنها:

١ – **هُبَل**: كان أعظم أصنام قريش وكان مقاما فى جوف الكعبة وقيل إنه كان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى فجعلوا له يدا من ذهب. وكان أول من نَصبهُ خزيمة ابن مدركة ولذا كان يسمى «هُبل خزيمة» وكان قُدَّامه ٧ قداح كانوا يضربون عليها أى يقترعون لتخبر عن مشيئة الإله وهذا هو الاستقسام بالأزلام الذى نهى عنه القرآن الكريم. ولم يكن يسمح للحيض من النساء بالدنو من الأصنام أو التمسُّح بها.

٢ – ٣ **إساف ونائلة**: وكانا عاشقين من أرض اليمن أقبلا حاجين فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة ففجر بها فى البيت فمسخا حجرين وأصبح الناس فوجدوا التمثالين فأخرجوهما ووضعوهما بجوار الكعبة وعبدتها قضاعة وقريش.

٤ – **اللات**: وكانت تُعبد فى الطائف. وكانت صخرة مربعة ويقال إن الناس كانوا يلتُّون عندها السويق فاتخذوها إلها. وكان سدنتها من ثقيف الذين بنوا عليها بناء يطوفون حوله. وكانت قريش تعظِّمها.

٥ – **العُزَّى**: كانت فى وادى نخلة على طريق مكة العراق وتبعد عن مكة ٤٠كم تقريبا. واسم عبد العزى من الأسماء المشهورة عند قريش وثقيف. وكانت العزى من أعظم الأصنام عند العرب وكانت قريش تحج إليها. وحرَّمت ثقيف جزءا من وادى حراض يضاهئون به حرم الكعبة وجعلوا لها منحرا ينحرون عنده قرابينهم.

٦ – **يعوق**: وكانت قبيلة خيوان تعبده وبنوا له بنيانا وهو على بعد ليلتين جنوب مكة.

٧ – **ذو الخلصة**: وهو صنم عبارة عن صخرة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج. وكان منصوبا فى قرية «تبالة» على طريق مكة اليمن وعلى بعد سبع ليال من مكة. وكانت خثعم تعظِّمها وكذلك القبائل المجاورة: بجيلة وأزد السراة. ولما أقبل امرؤ القيس يريد الثأر من بنى أسد لقتلهم أبيه مرَّ بذى الخلصة وكان له ثلاثة قداح: الآمر والناهى والمتربِّص. فاستقسم عنده

ثلاث مرات وفي كل مرة يخرج الناهى فسبه وكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال: لو كان أبوك ما عوقتنى، ثم غزا بنى أسد وظفر بهم وكف الناس عن الاستقسام بذى الخلصة حتى جاء الإسلام وكان امرؤ القيس أول من أسلم من قومه.

٨ – **مناة**: وسُميت كذلك لأن دماء القرابين كانت تُمنى أى تراق عندها : وكان تمثالها منصوبا على ساحل البحر بمحاذاة القديد والمشلل على طريق مكة المدينة. وكان الناس يتسمُّون «عبد مناة» و «زيد مناة»، وكانت العرب كلها تعظِّمها وخاصة الأوس والخزرج وما حول المدينة من قبائل ويذبحون عندها القرابين. وكان عُبادها يحجون إلى مكة فيقفون مع الناس بالمواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم حتى يأتوها فيحلقون عندها ويقيمون عندها ثلاث ليال ولا يرون للحج تماما إلا بذلك.

٩ – وكان لبني كنانة بساحل جدة صنم يسمى **«سعداً»** وكان عبارة عن صخرة طويلة ملساء.

١٠ – وكان صنم بنى لحيان يسمى **«نهم»**.

١١ – وكان لدوس صنم يقال له. **«ذو الكفين»**.

١٢ – **«باجر»** صنم الأزد شمال المدينة.

١٣ – **«عبعب»** كان يعبد فى مدين وأيلة.

١٤ – أما قضاعة وجذام فى شرق الأردن فقد عبدوا **«الأقيصر»**.

١٥ – وعبدت قبيلة كلب بدومة الجندل **«ودا»** – أحد آلهة قوم نوح.

١٦ – وكان لطيىء صنم يقال له **«الفلس»** من حجر أسود بهيئة إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويذبحون عنده ذبائحهم ولا يطارد أحدهم طريدة فتلجأ إليه إلا تركت له. ثم إن عدى بن حاتم الطيئ تنصَّر ولم يعد يعبد صنمه حتى جاء الإسلام فأسلم.

١٧ –أما بنو زيد بن درام فى برية الشام فكان صنمهم يسمى **«أسيد»**.

١٨ – وعبدت جديلة طيئ **«اليعبوب»**.

١٩ – وشيبان قرب البصرة عبدت **«سعير»**.

٢٠ – وبكر بن وائل عبدت **«عوض»**.

٢١ – وعبد القيس وبنو حنيفة عبدوا **«ذو اللبا»**.

٢٢ – والقطيف فى البحرين عبدوا **«رضى»**.

٢٣ – وفى اليمامة عبدوا **«رحمن»**.

٢٤ – أما تميم فقد عبدوا **«ذا الكعبات»**.

٢٥ – وربيعة عبدت **«المحرق»**.

٢٦ - «الضيزنان» عُبد فى عمان.

٢٧ - و «مرحب» فى شرق حضرموت وكندة.

٢٨ - «ذريح» عبد في غرب حضرموت.

٢٩ - أما حمير فقد عبدت «نسراً».

٣٠ - وكان لخولان فى اليمن صنم يقال له «عميانس» وكانوا يقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسما بينه وبين الله - عز وجل - فما دخل فى حق الله من حق عميانس ردُّوه عليه وما دخل فى حق الصنم من حق الله تركوه وفيهم نزل قوله تعالى:

«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون» (١٣٦ - الأنعام)

٣١ - وفى صنعاء عبد «ذو رئام» وكان له بيت كبير.

٣٢ - أما قبيلة مراد فقد عبدت طائر النسر.

٣٣ - أما مذحج وجرش فقد عبدا «يغوث».

٣٤ - وأزد السراة عبدوا «عائم».

٣٥ - أما «ذو الشرى» فقد عبد فى شمال نجران.

وقامت قبيلتا خثعم وبجيلة باليمن ببناء كعبة سموها **الكعبة اليمانية** - يضاهئون بها الكعبة التى بمكة - ووضعوا بها تمثال ذى الخلصة.

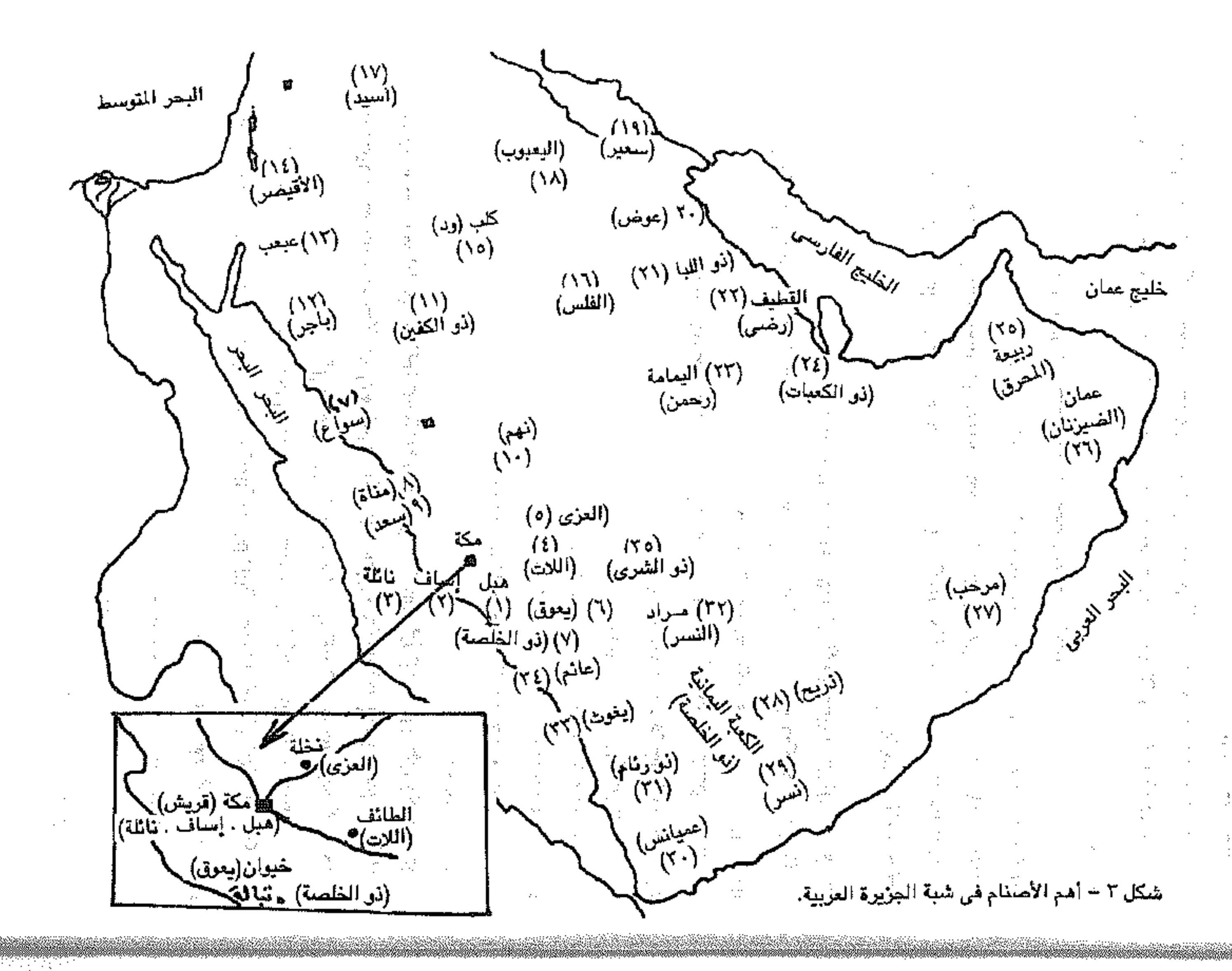
وهناك - غيرما ذكر - عشرات من الأصنام عبدها الناس فى أطراف الجزيرة العربية فقد كانت الوثنية منتشرة فى كل مكان ولكل قبيلة صنمها.

سياسة قريش التجارية:

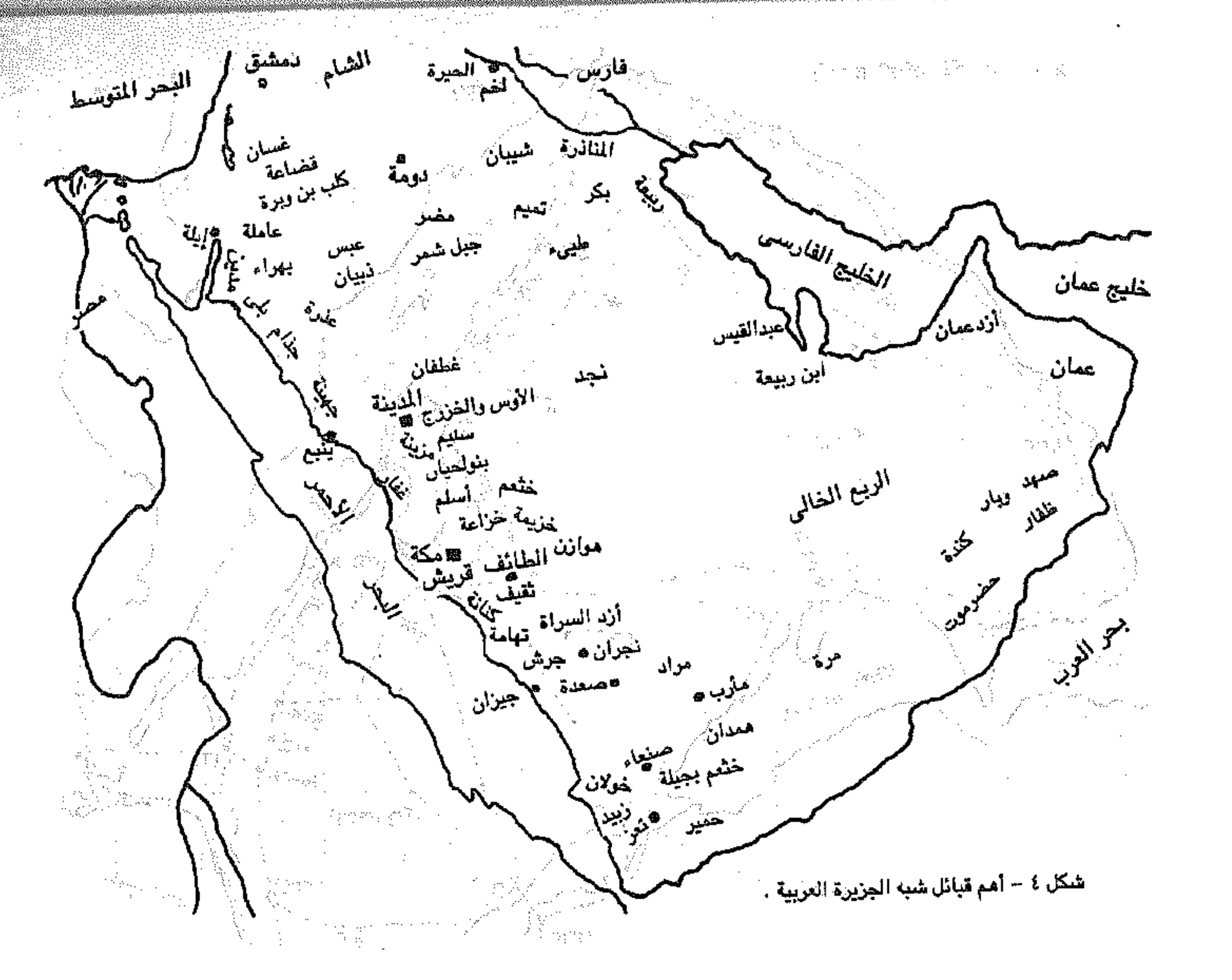
لما كانت الزراعة فى الجزيرة العربية نادرة - فيما عدا اليمن - لذلك كانت التجارة هى مصدر الرزق المتاح. فكانت القوافل تخرج من مكة: جنوبا إلى اليمن وشمال شرق إلى البصرة والعراق وشمالا إلى الشام وفلسطين ثم تعبر سيناء غربا إلى مصر.

وحرصت قريش على تأمين تجارتها فعقدت اتفاقيات مع الدول المجاورة (تاريخ الطبرى ١٢/٢):

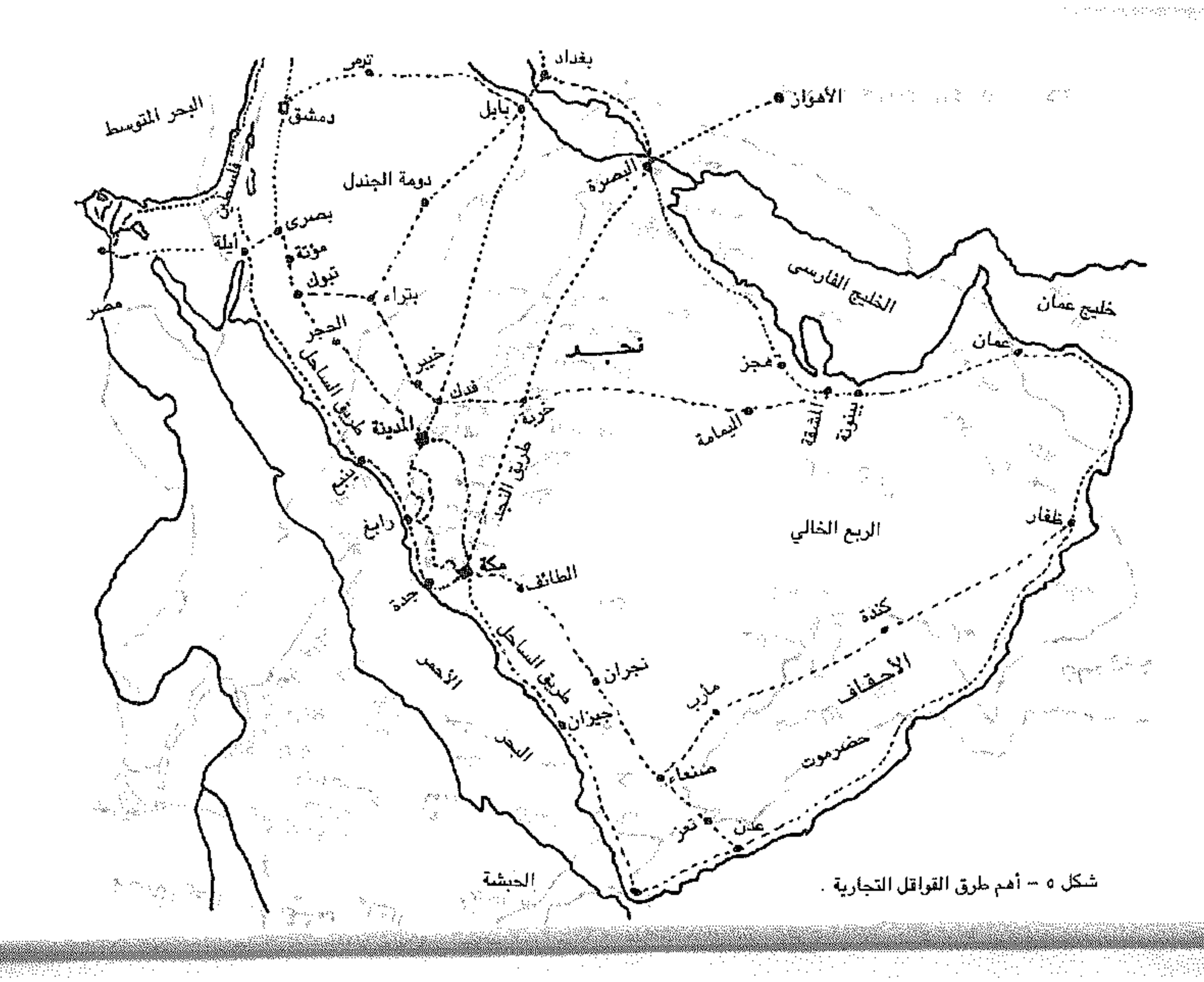
١ - **مع الامبراطورية الرومانية**: عقدها هاشم بن مناف. وهى تعتبر اتفاقية سياسية اقتصادية حصلت قريش بموجبها على امتياز التجارة والانتقال بسلام فى الأراضى الخاضعة للإمبراطورية الرومانية.



شكل ٣ – أهم الأصنام فى شبة الجزيرة العربية.



شكل ٤ - أهم قبائل شبه الجزيرة العربية .



شكل ٥ – أهم طرق القوافل التجارية .

٢ – **مع فارس:** عقد نوفل بن عبد مناف اتفاقية مماثلة وأعطت الدولة الساسانية (الفارسية) لقريش امتيازا فى الأراضى الخاضعة لها.

٣ – **مع الحبشة:** عقد عبد شمس اتفاقية ثالثة مع النجاشى امبراطور الحبشة حصلت بموجبه قريش على الامتيازات التجارية وحسن الجوار وتعزيز عرى الصداقة.

٤ – **مع اليمن:** عقد المطلب بن عبد مناف اتفاقية مع ملوك حمير تضمن لقريش حرية التنقل والتجارة فى بلاد اليمن والأراضى التابعة لها.

وبهذا استطاع القرشيون تعزيز موقعهم السياسى والاقتصادى مع الدول المجاورة مما مكنهم من نمو تجارتهم وأصبحوا مسيطرين على طرق التجارة بين الشمال (الشام) والجنوب (اليمن والحبشة) والشرق (العراق). وعرفت هذه الاتفاقيات بالإيلاف أى التحالف. وبها ازدادت قريش مكانة ورفعة بين العرب وعلَّمت الأسفار سادة قريش كثيرا من أمور الحضارة والثقافة وكانت أهم القوافل تتجة إلى الشام فى الصيف وإلى اليمن فى الشتاء. وإلى هذا أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى: «**لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف**» (١ – ٢ قريش) وسيجئ ذلك فيما بعد (ص ٦٨) ويبين شكل ٥ أهم الطرق التجارية فى ذلك العصر.

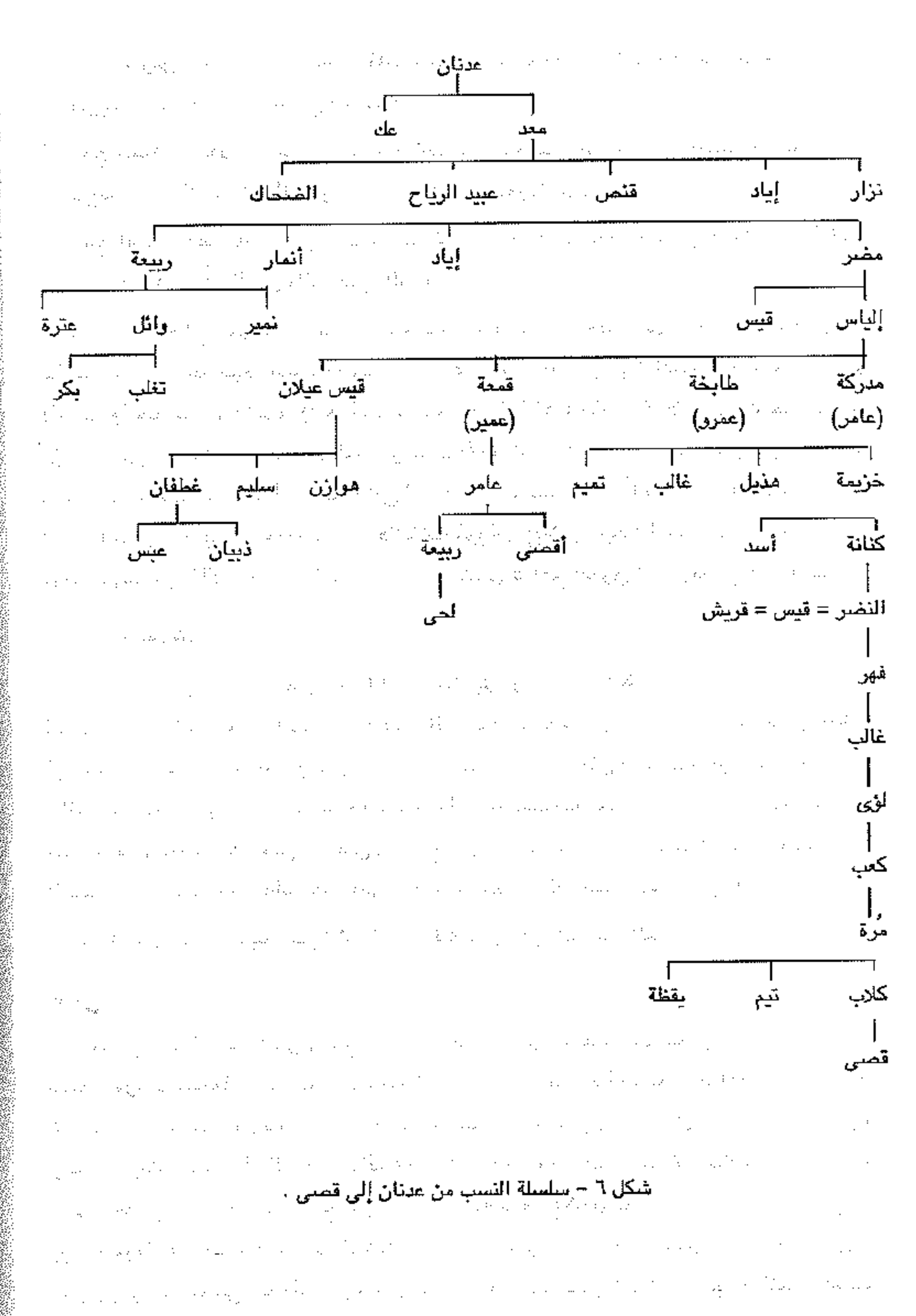
بنو إسماعيل:

قلنا فى الجزء الثانى (ص ٣٧٠) إن إسماعيل تزوج من عاتكة ابنة عمرو الجرهمى ومنها أنجب أبناءه الاثنى عشر الذين هم أجداد العرب الإسماعيليين. ولم يلبث أولادهم أن انتشروا فى شمال الجزيرة العربية. وأشهر أعقاب إسماعيل هو عدنان والمشهور أن عدنان وابنه معد كانا معاصرين لمولد المسيح عليه السلام. ولكن لم يستطع المؤرخون تتبع الأجيال منذ عهد إسماعيل وابنه قيدار حتى عدنان والمرجح أن بينهما حوالى ٣٠ جيلا. وبعد عدنان توالت الأجيال على مدى ٥٧٠ عاما كان فيها ٢٠ جيلا حتى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

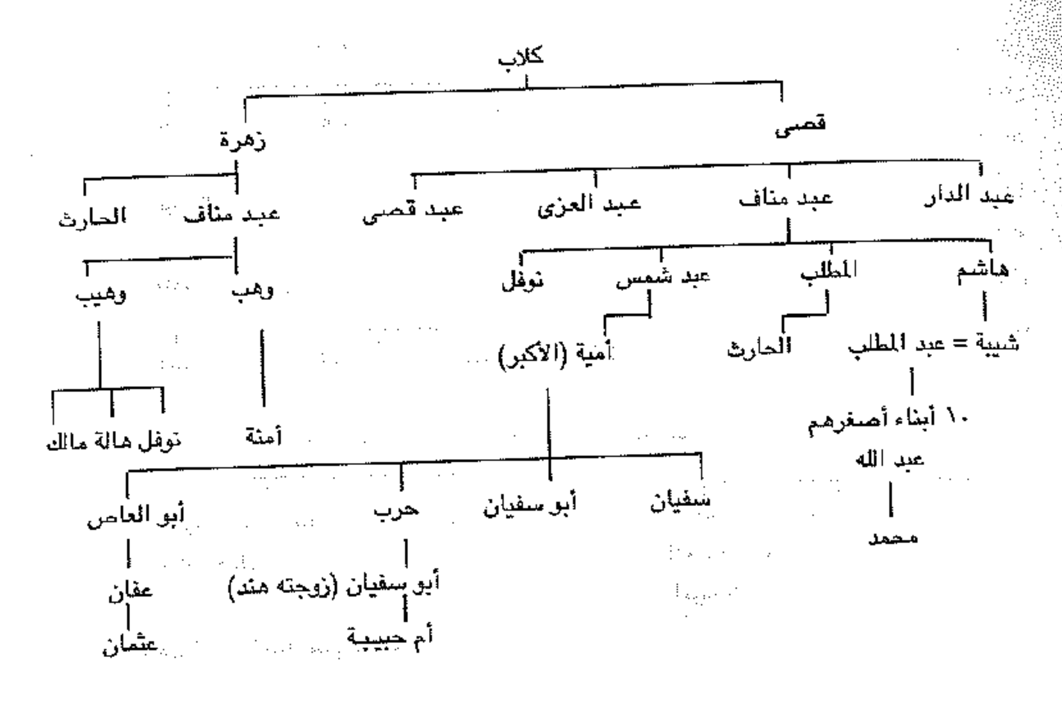
وسلاسل النسب المبينة فى الأشكال التالية تغنى عن كثير من الشرح:

قصىّ:

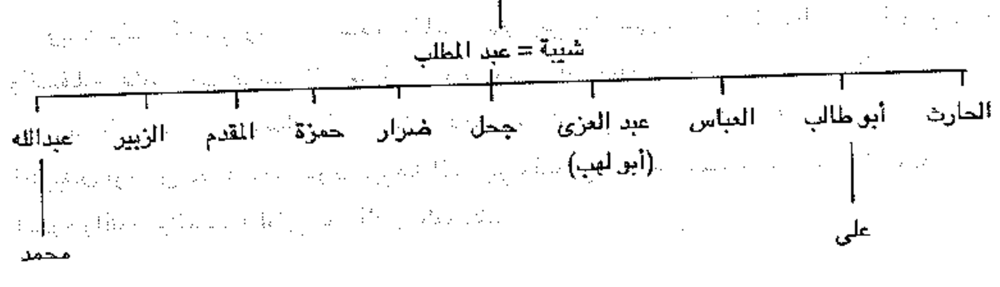
وقصى هو الزعيم الذى وضع أسس أمجاد قريش. فقد كانت قبله بطونا متفرقة فجمع شملها ووحّد صفوفها. وكانت السيادة السياسية والدينية قبله لقبيلة خزاعة فاستطاع بقوة شخصيته وحنكته أن ينتزع هذه السيادة فنصبته قريش زعيما على مكة فكان قصى أول رئيس لقريش وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة واللواء فحاز شرف مكة كله. ولذلك سمّت العرب قصى «مُجمّعا» لما جمع أمرها. وتيمّن به قومه فكانوا يعقدون الزواج دائما فى داره ويستشيرونه فى مهام أمورهم. فأنشأ دار الندوة وفيها كان يجتمع كبار قريش يتباحثون فى شئونهم. ووضع قصى لمكة ولقريش قوانين تنظم العلاقات وتضمن للتجار وللحجاج الأمن والسلام.



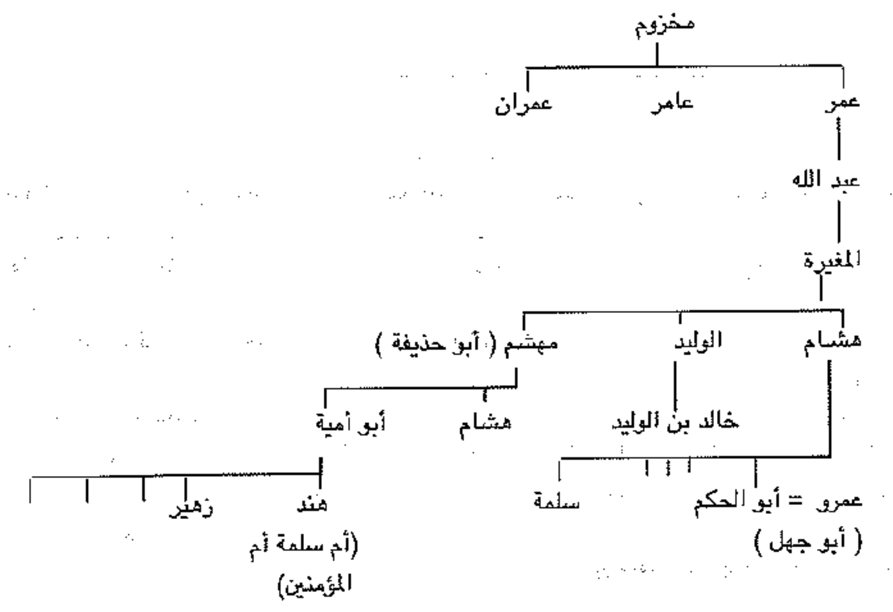
شكل ٦ - سلسلة النسب من عدنان إلى قصى .



شكل ٧ – بعض قرابات النبي .



شكل ٨ – أولاد عبد المطلب (أعمام النبي) .



شكل ٩ – سلسلة نسب مخزوم

أنجب قصىّ أربعة أبناء: عبد الدار أكبرهم، وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصىّ. وبرغم أن عبد الدار كان أكبرهم سنا إلا أن عبد مناف كان أقوى شخصية. وقد أوصى قصىّ لعبد الدار – بكره – بمفاتيح الكعبة لا يدخلها أحد إلا بإذنه وأعطاه دار الندوة والحجابة والسقاية والرفادة. وولد لعبد مناف أربعة أولا هم: هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل.

وبعد وفاة قصى رأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة والرفادة والسقاية. فانقسمت قريش إلى فريقين : بنو عبد مناف وانضم إليهم بنو زهرة والفريق الآخر بنو عبد الدار يرون التمسك بكل ما كان قصى قد أوصى لهم به وكادت الحرب أن تنشب بين الفريقين لولا أن تم تقسيم شرف خدمة الحجيج فأعطى بنو عبد مناف السقاية والرفادة وظلت الندوة واللواء والحجابة لبنى عبد الدار كما كانت.

هاشـم :

كان عبد شمس رجلا كثير الأسفار فتولى أخوه هاشم الرفادة والسقاية وهو الذى سنَّ لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام. وكان هاشم جوادا يطعم ابن السبيل ويؤدى الحقوق ويتلألأ النور فى وجهه فأحبه الجميع. فحقد عليه أمية بن أخيه عبد شمس وكانت عداوة . فحكم شيوخ مكة بأن يخرج أمية وبنوه من مكة عشر سنين منعا الحرب. فرضخ أمية – كارها – لهذا الحكم.

وفى رحلة له إلى الشام من هاشم بيثرب ونزل على عمرو بن زيد بن عدى بن النجار – وكان سيد قومه – وأعجبته ابنته سلمى فخطبها إلى أبيها فزوّجها منه واشترط عليه مقامها عنده. فحملت وسافر هاشم إلى الشام فمات بغزة ووضعت سلمى ولدها وفى شعره خصلة بيضاء فسمّى «شيبة» أو «شيبة الحمد» وأقام عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين. ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف – ولم يكن له ولد – إلى يثرب وأقنع والدة شيبة وأخواله بالسماح له بأخذ ابن أخيه ليتولى رئاسة قريش فى مكة من بعده. وعاد المطلب وقد أردف شيبة خلفه على راحلته. ولما دخل مكة ظن الناس أنه عبد اشتراه فسمّوه عبد المطلب واشتهر بهذا الإسم ونُسِىَ اسم شيبة وكان يعتبر ابنا للمطلب.

وخرج المطلب فى قافلة إلى اليمن ومات هناك فأراد نوفل أخوه أن يتولى رئاسة قريش بعد أخيه ولكن شيبة بن هاشم أى عبد المطلب رأى أن الرئاسة تؤول إليه بحكم الإرث. واستعان بأخواله بنى النجار لمقاومة أطماع عمه فأمدوه بثمانين رجلا جاءوا إلى مكة وطلبوا من نوفل أن لا ينازع شيبة فى حقه وانضمت خزاعة إلى هذا الحلف. وبالرغم من أن عبد شمس وقف إلى جانب أخيه نوفل إلاّ أن هذا الأخير آثر السلام وبذلك أصبح عبد المطلب هو سيد قريش. وسافر نوفل فى قافلة إلى العراق وتوفى هناك.

إعادة حفر زمزم

جاء أوان الحج فخرج كل غنى فى قريش عن جزء من ماله إلى عبد المطلب مساهمة فى إطعام الفقراء من حجاج بيت الله فى مكة. وراح عبد المطلب يصنع أحواضا بفناء الكعبة وملأها بماء من آبار خارج مكة ليشرب منها الحجيج. ومر موسم الحج بسلام ولكن مشقة السقاية وجلب الماء من خارج مكة فى قِرَب على ظهور الإبل جعلت عبد المطلب يفكر كثيرا فيما تكون عليه الحال لو زاد الحجيج إلى أعداد كبيرة.

وفى ذات يوم وهو يتفيؤ فى حجر إسماعيل بجوار الكعبة أصابته غفوة وأتاه آت فقال له احفر طيبة فقال عبد المطلب وهو لايزال فى نومه: وما طيبة؟ فلم يجبه الهاتف واستيقظ عبد المطلب من غفوته ولكن ما رآه فى منامه لم يبارح ذهنه.

وفى اليوم الثانى ذهب إلى بيته ونام فجاءه الهاتف وقال له: احفر برّة. فقال عبد المطلب: وما برّة ؟. ولم يجبه الهاتف أيضا واستيقظ عبد المطلب وهو يعجب من ذلك الهاتف الذى يطلب منه حفر طيبة أو برّة ولا يبين له ماهيتها. وفى الليلة التالية عندما آوى إلى مضجعه أتاه الهاتف وقال له: احفر المضنونة. وسأل عبد المطلب وما المضنونة؟ ولثالث مرة ذهب عنه الهاتف ولم يجبه. واستيقظ عبد المطلب وهو فى حيرة من أمره. وجعل يتساءل فيما بينه وبين نفسه. أهى أضغاث أحلام ليس لها معنى أم أمر من السماء. وإذا كانت أمرا من السماء فلماذا لا يبين لها الهاتف ماهية ما يطلب.

وفى اليوم الرابع أوى إلى مضجعه وكله أمل أن يبين له الإله مطلبه. ولما نام جاءه الهاتف وقال له: احفر زمزم. ورد عبد المطلب: وما زمزم؟ فأجابه: لا تنزف أبدا ولا تزم. تسقى الحجيج الأعظم وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعظم عند قرية النمل. واستيقظ عبد المطلب وأخذ معه ابنه الحارث – وليس له يومئذ غيره – فحفر فى المكان الذى تنحر فيه قريش قرابينها للآلهة. بين تمثالى إساف ونائلة ووجد الغراب ينقر عندها فعرف أن الهاتف قد صدقه. وبدأ يحفر فارتطم المعول بالحجارة التى كانت البئر قد طُمِرَت بها. فصاح صيحة عظيمة اجتمع على أثرها أشراف مكة فحسدوا عبد المطلب أن يعاد حفر بئر زمزم على يديه وجده وطلبوا منه أن يشركهم فى هذا الشرف. ولكنه رفض وأوضح لهم أن هذا الشرف قد اختُصَّ به هو وابنه. ولم يقدر ابنه الحارث أن يذود عنه حتى يستمر فى الحفر. وأحسَّ عبد المطلب قهرا إذ لو كان معه ولد كثير لما قدرت عليه قريش. فوجَّه وجهه ناحية الكعبة ونذر لئن أكمل الله عشرة ذكور يمنعونه ويشدون أزره ليذبحن أحدهم قربانا لربه.

وتم الرأى على أن يحتكموا إلى كاهنة بنى سعد بأرض الشام. فركب عبد المطلب وركب من كل بطن من بطون قريش نفر وخرجوا طالبين الكاهنة. وكانت المسافة طويلة ونفد الماء وأيقنوا بالهلاك وظلوا فى أماكنهم ينتظرون الموت. ثم استقر رأيهم على أن يسيروا علَّهم يجدون ماء وركب كل واحد راحلته وسار. ولما ركب عبد المطلب راحلته وسارت انفجر الماء من تحت خُفِّها فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه وشربوا جميعا حتى ارتووا. وقالوا لعبد المطلب: قد والله قُضِيَ لك علينا ووالله ما نخاصمك فى زمزم أبداً. إن الذى سقاك بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشدا ولم يكملوا السير إلى الكاهنة وعادوا إلى مكة وتركوه يكمل حفر زمزم.

ولما عمق الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب كانت جرهم قد دفنتها ووجد أسيافا وأدرعا. وتنازعوا فيها. ثم استقر رأيهم على ضرب القداح عليها فخرج الغزالان للكعبة والأسياف والأدرع لعبد المطلب ولم يخرج قدح قريش بشيئ. فضرب عبد المطلب الأسياف والأدرع بابا للكعبة وضرب فى الباب الغزالين من الذهب. فكان ذلك أول حلية ذهب للكعبة. وأقام حوضا للماء حول زمزم لسقاية الحجيج. فانصرف الناس كلهم إليها لمكانها فى المسجد الحرام ولعذوبة مائها ولأنها بئر اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وقد روى عن رسول الله أنه قال: ماء زمزم لما شرب له. وقال أيضا: اللهم إنى لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حِلٌّ وبلّ. تنزيها للمسجد الحرام عن دخول الجُنُب فيه.

وظلت السقاية لعبد المطلب طول حياته ثم صارت لابنه أبى طالب وفى إحدي السنين لم يكن معه مال لإطعام الحجيج فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم. وفى الموسم الثانى استدان عشرة آلاف أخرى من أخيه العباس إلى الموسم الذى يليه واشترط العباس أنه إذا لم يدفع دينه يتنازل له عن السقاية. فلما جاء العام لم يستطع أبو طالب الوفاء بدينه فآلت السقاية إلى العباس.

نذر عبد المطلب ذبح ولده :

ومرت السنون وولد لعبد المطلب بنون حتى اكتملوا عشرة هم: الحارث، الزبير، حجل، ضرار، المقدم، أبو لهب، العباس، حمزة، أبو طالب وعبد الله. وتذكّر عبد المطلب نذره الذى نذر عندما بدأ حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر ليذبحنّ أحدهم لله عند الكعبة. فجمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى معاونته على الوفاء بنذره. فأخذهم إلى الكعبة وضرب القداح عند هبل فخرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغرهم وأحبهم إليه فأخذه بيده ليذبحه. وعلمت قريش فاستنكروا ما ينوى فعله وحالوا بينه وبين ذبح ولده وأشاروا بالإحتكام إلى عرّافة فى الحجاز علّه يجد عندها مخرجا. فركبوا حتى جاءوها. وقص عليها عبد المطلب خبره. فسألتهم: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الأبل. فقالت ارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم بالإبل عوضاً عن صاحبكم. فعادوا إلى مكة. وقدّموا عشرا من الإبل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا. ولم يزالوا يزيدون عشرا عشرا ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل ويقال إن عبد المطلب لم يقتنع برضا ربه إلا بعد أن خرجت القداح ثلاث مرات متتالية على الإبل فنحرها. فكان هذا أعظم فداء لرجل فى العرب.

زواج عبد الله :

خرج عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة وخطب ابنته آمنة لابنه عبد الله (انظر سلسلة النسب شكل ٧ ص ١٩).

ويقال إنه وهو فى طريقة إلى الكعبة مر على امرأة يقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ١ ص ١٧٨) إنها كاهنة اسمها فاطمة بنت مر الخثعمية. ويقول ابن هشام (السيرة النبوية جـ١ ص١٠٠) إنها أخت ورقة بن نوفل. فنظرت فى وجهه وقالت لك مثل الإبل التى نحرت لك وتتزوجنى فقال لها أنا مع أبى ولا أستطيع مخالفته. وخرج عبد الله مع أبيه عبد المطلب قاصدين قبيلة زهرة وخطب آمنة كما ذكرنا آنفا وتزوجها عبد الله ويقال إنه بعد الزواج مرَّ بالمرأة فقال لها مالك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت علىَّ بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة!

وهذه القصة – قال ابن كثير فى تقديمها «فيما زعموا» أى أنه يتشكك فيها. وفى رأينا أنها مرفوضة إذ أنها لا تتفق مع التقاليد العربية التى تمنع المرأة من أن تعرض نفسها هكذا مباشرة وصراحة على رجل مما يزرى بكرامتها فيما لو رُفض عرضها. ثم إنه من المقطوع به أن هذا العرض كان بين عبد الله والمرأة ولا ثالث معهما. ولا يعقل أن تكون هى التى حدّثت به

بعد ذلك لما فيه من مساس بكرامتها. وكذلك لن يكون عبد الله هو المتحدَّث به إذ فيه تعريض بامرأة من بيت عريق من قريش سواء كانت فاطمة الخثعمية أو أخت ورقة بن نوفل. واختلاف الرواة فى تحديد شخصية المرأة يؤيد الشك فى صحتها.

وفاة عبد الله :

حين دخل عبد الله بآمنة بنت وهب وأفضى إليها حملت. وبعد شهر من زواجه خرج فى قافلة لقريش إلى الشام. ولما فرغوا من تجارتهم وفى أثناء عودتهم مروا بيثرب وهناك مرض عبد الله. فتخلَّف عند أخواله بني عدى بن النجار فأقام عندهم مريضا شهرا ومضى أصحابه فوصلوا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فأخبروه بمرضه وتخلُّفه عند أخواله بيثرب. فبعث إليه بالحارث أكبر أبنائه فوجده قد توفي ودفن. فرجع إلى أبيه فأخبره فحزن عليه إخوته وأخواته ووالدهم عبد المطلب. حزنا شديدا. وكان عمر عبد الله عند وفاته ٢٥ سنة وكانت آمنة حاملا فى رسول الله.

اسم « محمد » :

كان قد شاع أن نبى آخر الزمان – الذى تنبأ به أهل الكتاب – قد اقترب موعد ظهوره. وشاع كذلك أن اسمه سيكون «محمدا». فقام بعض الناس بتسمية أبنائهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبى المنتظر. وقد سمى باسم محمد ستة أشخاص غير «محمد» بن عبد الله الهاشمى وهم:

١ – محمد بن سفيان بن مجاشع وهو جد الشاعر الفرزدق.

٢ – محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى.

٣ – محمد بن جسان الجعفى.

٤ – محمد بن مسيلمة الأنصارى وقد ولد بعد النبى ولكن قبل مبعثه.

٥ – محمد بن براءة البكرى.

٦ – محمد بن خزاعى السلمى .

ومعروف أن اليهود كانوا يرحبون بالنبى المنتظر لو كان منهم. ولكنهم كانوا يتربصون به لو كان من العرب. وكان من السهل الكيد للنبى لو كان هو الوحيد الذى تسمى باسم محمد لذلك فإن وجود هؤلاء الستة كان فيه حماية للنبي إذ جعل الأمر يختلط على اليهود: أيهم هو النبى المنتظر؟

حمل آمنة بنت وهب :

روى عن النبى أنه قال عن نفسه: «ورؤيا أمى الذى رأت حين حملت بى كأنه خرج منها نور

أضاءت له قصور الشام». وقال محمد بن اسحق إن آمنة بنت وهب كانت تحدّث أنها أُتِيَتْ حين حملت فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد من كل عبد رائد يذود عني ذائد. وقيل لها أيضا: فإذا وقع فسمِّيه «محمدا» فإن اسمه في التوراة «أحمد» يحمده أهل السماء والأرض. واسمه في الإنجيل «أحمد» يحمده أهل السماء والأرض واسمه في القرآن «محمد». (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ١ ص٢٠٦).

ويروى أيضا أن آمنة بنت وهب قالت لقد حملت به (تعنى رسول الله) فما وجدت له مشقة حتى وضعته. فلما فصل مني خرج معه نور أضاء ما بين المشرق إلى المغرب وعن آخرين أنها قالت: فما شيئ أنظره في البيت إلا نورٌ وإني أنظر إلى النجوم حتى إني لأقول ليقعُنَّ عليَّ.

أما قابلته «الشفاء أم عبد الرحمن» فيروى أنها حين سقط على يديها سمعت قائلا يقول: يرحمك الله. وأنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم. فلما دثرته بعد ولادته بعثت إلى جده عبد المطلب وقالت قد ولد لك غلام فانظر إليه. فلما جاءها أخبرته آمنة بما رأت حين حملت به وما قيل لها وما أمرت أن تسميه. فأخذه عبد المطلب وشكر الله عز وجلَّ. ووجد الوليد مختونا فقال: ليكونن لابني هذا شأن. ويروى أن النبي قال فيما بعد: من كرامتي على الله أني قد ولدت مختونا ولم ير سوأتي أحد.

فلما كان اليوم السابع ذبح عنه عبد المطلب ودعا قريشا فلما أكلوا قالوا: ياعبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سمَّيتَه؟ قال سميتُه محمدا. قالوا فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض. وكانت العرب تسمي كل جامع لصفات الخير محمَّدا.

ومما يروى عن حسان بن ثابت أنه قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أعقل ما رأيت وسمعت. إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غداة: يامعشر يهود. فلما اجتمعوا إليه قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة. وروى عن زيد بن ثابت قوله: كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي وأنه لا نبي بعده واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب.

وقال زيد بن عمرو بن نفيل – وكان في رحلة في الشام – أنه قابل حبرا من أحبار اليهود فقال له: قد خرج في بلدك نبي قد خرج نجمه فارجع فصدِّقه واتبعه.

وروى عن مخزوم بن هاني المخزومي عن أبيه قوله: لما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام. وغاضت بحيرة ساوة ورأى ملكُها رؤيا أن إبلاً صعابا تقود خيلا مرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم، ووجد تفسير ذلك عند حبر من اليهود الذي أخبره أن الملك سيخرج

من عائلته بعد أربعة عشر ملكا. وقد حدث أن فتحت فارس فى عهد عثمان رضى الله عنه وكان قد ملك ١٤ ملكا فى فارس منذ ذلك الوقت.

تاريخ مولد الرسول :

طبقا لأغلب المصادر الإسلامية كان مولد الرسول فى عام الفيل. غير أن عام الفيل نفسه غير معروف على وجه التحديد إذ تتراوح تقديرات العلماء له بين أعوام ٥١٣ – ٥٥٢ – ٥٦٢ – ٥٧٠ – ٥٧١ ميلادية . ويرى توسان دى پريسيڤال أن مولد الرسول كان فى ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠. أما محمود باشا الفلكى فقد حدده بيوم ٩ ربيع الأول الموافق ٢ أبريل عام ٥٧١م. ويتفق ذلك مع تقديرات سلفستر دى ساس. وكان الإمام السهيلى (١١١٤ – ١١٨٥م) قد سبقهما فى تحديد تاريخ المولد النبوى بيوم ٢٠ أبريل. على أن أغلب المؤرخين يُجمعون على أن النبى وُلِدَ يوم الاثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول من عام الفيل. ويذهب جمهور كبير من العلماء على أن هذا التاريخ يوافق العام ٥٣ قبل الهجرة أى عام ٥٧١م حيث حددوا أن الهجرة كانت فى عام ٦٢٤م.

وإن كان لنا أن ندلى بدلونا فى هذا الموضوع فإننا نبدأ حساباتنا من حدث أشار إليه القرآن الكريم فى سورة الروم: «**الم غلبت الروم فى أدنى الأرض**». وكما سيجئ تفصيل ذلك فيما بعد. (ص ٣٩٤) أن كسرى أنوشروان حفيد كسرى الأول كان قد تولى عرش الامبراطورية الفارسية فى عام ٥٩٠م. وفى عام ٦١٨م استولى على القدس واستولى على الصليب الذى يعتقد المسيحيون أن يسوع قد صلب عليه وحمله معه إلى عاصمته المدائن. وفى العام التالى أى عام ٦١٩م هزم الروم واستولى على مصر وكان هذا هو أقصى توسع وصلته الامبراطورية الفارسية فى الشرق الأدنى «**فى أدنى الأرض**» ولما كانت سورة الروم مكية وقد نزلت فى العام الثامن لمبعث النبى أى كان عمره ٤٨ سنة فيكون مولده ٦١٩ – ٤٨ = عام ٥٧١م. ولعل هذا الحساب المستند إلى حدث أشار إليه القرآن الكريم يضع حدا للجدل الذى أثير حول تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم.

عـام الفيل :

ذكرنا سابقا (ص ٥) كيف احتلت الحبشه اليمن وكيف تولى أبرهة الأشرم الحكم بعد إزاحته لأرياط قائد الجيش. وذكرنا تطلع ملوك الحبشة إلى القضاء على ديانات العرب وهدم بيوت عبادتهم حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام. وكان أن بنى أبرهة فى العاصمة ظفار كنيسة كبيرة هى «القليس» وكتب إلى النجاشى يقول: إنى بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك من قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى تُجمع كتب التاريخ على أن أحد العرب أغضبته نية أبرهة فى صرف

العرب عن كعبتهم وانتقاما منه أحدث في القليس. فلما سمع أبرهة بذلك غضب غضبا شديدا. وإن كنا نشك في حدوث هذه الواقعة ونرجِّح أن غضب أبرهة إنما كان لأنه رأى أن أحدا من العرب لم يحج إلى القليس. فقرر هدم بيوت عبادتهم.

وانطلق أبرهة في جيش عظيم يقدمه فيل ضخم يخيف كل من رآه ويهدم ما يستعصى على الجند من مباني. وهزم كل من تصدى له من قبائل العرب. فلما بلغ الطائف وأراد هدم بيت اللات تلقى أهل الطائف الجيش بالولاء والخضوع وزيَّنوا له هدم البيت العتيق بمكة فهو البيت الذي تهوى إليه قلوب العرب جميعا وهو الذي يربط بينهم وإن اختلفوا في الآلهة التي يعبدونها. وقدموا إليه «أبا رغال» ليكون دليلا له يدله على طريق في شعاب الجبال يوصله إلى مكة ليباغت أهلها. فلما وصلوا إلى المغمس وهو مكان يبعد عن مكة ٥ كم مات «أبو رغال» ودفن هناك فرجمت العرب قبره. وتوقف أبرهة عند المغمس وبعث واحدا من رجاله مع بعض الجند حتى انتهى إلى مكة واستولى على ما في مراعيها من إبل وغنم وأصاب مائتى بعير لعبد المطلب وهو يومئذ كبير قريش وسيدها. وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن حالفهم من القبائل أن يقاتلوا. ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك. ثم أرسل أبرهة أحد رجاله إلى سيد قريش يقول له: إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم. كما طلب منه أن يأتي به ليقابل أبرهة. وتعرف الرجل إلى عبد المطلب وبلَّغه كتاب أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة وانطلق عبد المطلب معه إلى أبرهة. فلما رآه أبرهة أجلَّه لوسامته وعظمته ونزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه. ثم سأله عن طريق الترجمان عن حاجته فقال له: حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتى بعير أصابها جنوده. فلما قال ذلك قال أبرهة: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلِّمني في مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه. قال أبرهة: ما كان يمتنع عني. فقال عبد المطلب: أنت وذاك.

فلما عاد عبد المطلب إلى مكة أمر أهلها بالخروج منها والتحرُّز في شعاب الجبال ثم أخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله واستنصره على أبرهة وجنده.

فلما كان صباح اليوم الثاني تهيأ أبرهة لدخول مكة وسار بجيشه حتى صار البيت على مرأى البصر. فلما وجَّهوا الفيل نحوه أبى أن يسير فضربوه بعمود من حديد فأبى أن يتقدم وكان يهرول بعيدا عن البيت. ثم إن الله أرسل عليهم أسرابا من طيور تحمل في مناقيرها أحجاراً صغيرة قدر الحمِّص والعدس. أمطرتهم بها فكان الحجر لا يصيب أحداً إلا هلك. وخرج الباقون فارين إلى طريق اليمن. ومن لم يصبه حجر أصابته حمى ويقال إن أبرهة أصيب في جسده وأصبح كله خراريج ترشح قيحا ودما. وساروا به حتى وصل صنعاء فمات. وهلك الجيش كله. إلا قلة عادت لتروى ما حدث.

وعن ابن اسحق أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب كانت ذلك العام. فحمى الله بيته وأهلك عدوه. وعلت مكانة عبد المطلب الدينية والأدبية كما علت فى نفس الوقت مكانة قريش بين القبائل العربية. وقالت العرب عنهم: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة الفيل:

«ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول».

فكأن هذا النصر العظيم على أبرهة كان إرهاصا بما ينتظر البيت الحرام من تشريف وتكريم. وأصبح العرب بعد ذلك يؤرخون بعام الفيل. وعلى أثر هلاك جيش أبرهة قام عرب اليمن بطرد الأحباش من بلادهم. وفى هذا العام ولد النبى عليه الصلاة والسلام كما سبق أن ذكرنا.

حواضنه ومراضعه :

كانت «بركة» أو «أم أيمن» تحضنه وهو فى بيت أمه آمنة. وكانت «ثويبة» جارية أبى لهب بن عبد المطلب أول من أرضع النبى بعد أمه آمنة وظلت ترضعه بلبنها مع ابنها «مسروح» أياما حتى قدوم حليمة السعدية. ولما كبر النبى وتزوج كان يكرمها كلما زارته. كما كانت خديجة تحسن استقبالها ولا تنقطع عن إكرامها. وأرادت خديجة أن تشتريها من أبى لهب لتعتقها ولكن أبا لهب رفض. وظلت كذلك حتى أعتقها بعد هجرة النبى إلى يثرب. فكان النبى يرسل إليها من المدينة الكسوة وما يسد حاجتها حتى توفيت سنة ٧ من الهجرة.

إلا أن أشهر من أرضعه هى حليمة السعدية التى قدمت مكة فى عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء فى سنة جدب. وقد جاءت على أتان ومعها صبى لها قد لا يجد فى ثديها قطرة لبن تبل ريقه ومعها شاة مُسنَّة عجفاء ولضعف الأتان جاءت متأخرة عن صويحباتها وعلمت أن مولود عبد المطلب قد عرض عليهن جميعا فكن يتركنه إذا علمن أنه يتيم قائلات: إنما نرجوا المعروف من أبى الولد فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا؟ فكن يأخذن رضيعا غيره. فلما لم تجد حليمة رضيعا غيره قالت لزوجها الحارث بن العزى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع؛ لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم ولآخذنَّه. فقال: لا عليك أن تفعلى فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة. فذهبت وأخذته.

وكما روت هى بعد ذلك. فما هو إلا أن أخذته حتى امتلأ ثدياها باللبن فشرب حتى روى وشرب ابنها حتى روى كذلك. وقام زوجها إلى الشاة فوجد ضرعها مملوء لبنا فحلب وشرب وشربت زوجته حتى ارتويا فقال لها زوجها: يا حليمة والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة. ثم خرجا راجعين ولحقا بمن خرجوا قبلهما وسبقتهم الأتان وصواحبها يتعجبن وقلن لها: ويلك يا بنت أبى ذؤيب. أهذه أتانك التى خرجت عليها معنا؟ فتقول نعم والله إنها لهى فقلن: والله إن

لها لشأنا . وتستكمل حليمة قولها: حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضا من أراضي الله أجدب منها فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعا فنحلب لبنا ما شئنا وما حولنا أحد يحلب قطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعا حتى إنهم يقولون لرعاتهم: ويحكم، انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعا فنحلب لبنا ما شئنا. فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شبا لا تشبه الغلمان في مثل سنِّه. فلما تمت السنتان عادا به إلى أمه في مكة فلما رأته أمه فرحت به وبنموه وأجزلت لحليمة العطاء ولكن حليمة قالت لها: دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإننا نخشى عليه وباء مكة ومازالت بها حتى وافقت فرجعت حليمة به.

شق الصدر :

تقول حليمة السعدية إنه بعد مرور شهرين أو ثلاثة وبينما هو خلف بيوتهم مع أخ له من الرضاعة جاء أخوه مسرعا ومنزعجا وقال: ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقَّا بطنه! فخرجت حليمة وزوجها مسرعين نحوه فوجداه قائما ممتقع اللون. فاعتنقه «أبوه» وقال يا بني ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقَّا بطني ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه. ثم ردَّاه كما كان. فأخذته حليمة وعادا به. وقال زوجها: يا حليمة. لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يحدث له ما نتخوف. فاحتملاه وقدما به على أمه فقالت آمنة: ما ردكُما به؟ فقد كنتما عليه حريصين. فقالا لا والله إلا أن الله قد أدَّى عنا وقضينا الذي علينا ونخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى أهله. فقالت ما ذاك بكما فاصدقاني ما شأنكما؟ فلم تدعهما حتى أخبراها بما حدث. فقالت أخشيتما عليه الشيطان؟ فلا والله ما الشيطان عليه من سبيل، والله إنه لكائن لابني هذا شأن.

ويروى شق الصدر بروايات مختلفة، فقد رواه ابن عساكر عن خمسة آخرين (البداية والنهاية. ابن كثير . جـ ١ ص ٢٥٧) أن عروة بن الزبير حدَّث عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: يا أبا ذر. أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال هو هو. قال زنه برجل فوزنني برجل فرجحته وذكر شق الصدر وخياطته وجعل خاتم النبوة بين كتفيه وقال: فما هو إلا أن وليَّا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة.

وعن ابن عساكر أيضا عن آخرين آخرهم أنس بن مالك أن النبي قال إن جبريل أتاه وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشق عن قلبه واستخرج منه علقه سوداء وقال هذا حظ الشيطان ثم

غسله فى طشت من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - أى إلى حليمة - فقالوا إن محمداً قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره!

ورواية ثالثة عن ابن عساكر أيضا عن آخرين أن ملكين أتيا النبى فذهبا به إلى زمزم فشقا بطنه فأخرجا حشوته فى طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم ملأ جوفه حكمة وعلما.

وفى الصحيحين عن طريق شريك بن أبى نمر عن آخرين عن النبى فى حديث الإسراء أنه تم شق الصدر وغسل القلب بماء زمزم ويقول ابن كثير: ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين مرة وهو صغير ومرة ليلة الإسراء ليتأهب للوفود إلى الملإ الأعلى للمثول بين يديه تبارك وتعالى.

ولا بأس من مناقشة هذه الأقوال فهى ثلاث روايات عن ابن عساكر كل واحدة بصيغة مختلفة. فمرة يذكر أن ذلك حدث فى أرض بنى سعد ومرة أنه حدث فى مكة. وإذا كان شق الصدر قد حدث فى الصغر واستُخرج من القلب «حظ الشيطان» فلا داعى لتكرار ذلك. كما أن الادعاء بأن أثر الجرح كان يُرى فى صدر الرسول يتنافى مع ما هو معروف من أن أثر الجروح يتلاشى تدريجيا مع مرور السنين. ومع التقدم فى جراحات التجميل والعناية بخياطة الجروح فقد لا يُرى الجرح بعد سنين قلائل ولا شك أن جرحا تحدثه الملائكة وترده يكون أرقى من أى خياطة بشرية. بقى اعتراض له وجاهته فقد يقال: هذا رسول الله أخرج منه «حظ الشيطان» فلا تثريب علينا - نحن عامة الناس - إن أخطأنا!

وفاة آمنة والدته :

بقى النبى مع والدته بعد أن أعادته حليمة السعدية. يرعاه جده عبد المطلب فلما كان سنه ٦ سنوات أخذته والدته لتزيره أخواله بنى النجار. فخرجت إلى يثرب ومعها أم أيمن. ولاشك كان معهما بعض الرجال من أقاربهما ومحارمهما يحرسونهم ويدلون على الطريق. وفى طريق العودة عند الأبواء توفيت آمنة بنت وهب ودفنت هناك. والأبواء تقع على طريق مكة يثرب فى الثلث الأقرب إلى يثرب (شكل ٢٨ ص ٤٦٩).

كفالة جده وعمه :

بعد موت أمه انتقل النبى لبيت جده عبد المطلب. وكان جده يحبه حبًا جمًا وكان يُقربه ويُدنيه ويجلسه بجواره على فراشه الذى يوضع له فى ظل الكعبة فلما حضرت الوفاة عبد المطلب أوصى أبا طالب برعاية رسول الله وكانت سنه وقتئذ ثمان سنوات.

خروجه مع عمه أبى طالب إلى الشام وقصة بحيرا الراهب :

لما بلغ النبى ١٢ عاما خرج مع عمه أبى طالب فى قافلة للتجارة متجهة إلى الشام وفى

بصرى من أرض أدوم كان هناك راهب يقال له بحيرا فى صومعة له وكان عنده علم أهل النصرانية يتوارثونه كابرا عن كابر. وكان كثير من الناس يلجأون إليه يستشيرونه فى أمر حاضرهم ومستقبلهم. ويقال إنه أبصر القافلة قادمة ورأى الغمام يظلّل أولها ويسير معه أينما سار. فأدرك أن فى القافلة شخصا ترعاه السماء. فلما مرت القافلة بصومعته دعا رجالها إلى وليمة ثم تفرّس فيهم واحدا واحدا ولما وصل إلى النبى توقف عنده ثم نظر فى ظهره فوجد شامة كبيرة بين كتفيه وهى التى أشارت إليها كتب الأقدمين عندهم أنها خاتم النبوة. فسأل عمه أبا طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال ابنى. قال بحيرا. ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا. فقال أبو طالب هو ابن أخى مات أبوه وأمه حبلى به. قال صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم.

ولما فرغ أبو طالب من تجارته أسرع عائدا بمحمد إلى مكة.

شبابه :

شب «محمد» يكلؤه الله برعايته ويحفظه. وأدَّبه ربه فأحسن تأديبه كما جاء فى الحديث الشريف فكان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم جواراً وأعظمهم حلما وأصدقهم حديثا وأشدهم أمانة حتى أسموه – الصادق» و «الأمين».

وكان النبى يُحدِّث – فيما روى ابن اسحق – عمَّا كان من حفظ الله به فى صغره أنه قال: لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان كلُّنا قد تعرَّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة وإنى لأُقبل معهم وأُدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال: شدَّ عليك إزارك. قال فأخذته فشددته علىَّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ من بين أصحابى.

ومن دلائل حفظ الله له مما قد يحدث فى فترة الشباب حديث شريف رواه البيهقى عن آخرين عن على بن أبى طالب قال: سمعت رسول الله يقول: ما هممت بشيئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما. ذلك أن النبى طلب من صاحبه فى رعى الغنم أن يُبصر له غنمه حتى يدخل مكة ويسمر فيها كما يسمر الفتيان. وكانت ليلة زفاف أحد الرجال ولكن الله ضرب على أذنه فنام وما أيقظه إلا مسُّ الشمس فرجع إلى صاحبه وأخبره أنه لم يفعل شيئا. ولما همَّ أيضا فى الليلة التالية بمثل ذلك ضرب الله على أذنه فما أيقظه إلا مس الشمس. فما همَّت نفسه بعدهما لشيئ من ذلك. وقد وصف ابن كثير هذا الحديث بأنه غريب جدا. مع أنه ليس بمستبعد.

كذلك يُروى أن النبى لم يستلم صنما قط أثناء طوافه بالكعبة بل وكان ينهى أصحابه عن مس الأصنام أو التمسح بها. وكان لا يشهد مشاهد القوم ولا يحضر أعيادهم وما فيها من طقوس وثنية إلا أنه كان يقف بعرفات فى أيام الحج فى الجاهلية.

شهود النبى حرب الفجار :

ولما كان عمر النبى ٢٠ سنة حدثت حرب الفجار بين قريش وكنانة فى جانب وقيس وعيلان فى الجانب الآخر. وسميت حرب الفجار لما استحل فيها من المحارم ولأنها نشبت فى أحد الأشهر الحرم. وظل القتال دائرا أربعة أيام وكان الظفر أولا لقيس على قريش وكنانة ولكن فى النهاية انتصرت قريش وكنانة على قيس. وقال النبى: كنت أنبّل على أعمامى أى أرد عنهم نبل عدوهم. ثم تواعد الفريقان إلى لقاء فى العام التالى فى عكاظ. فلما توافوا الموعد قام عتبة بن ربيعة وحثهم على الصلح فتصالحوا وهدأت العداوة .

حلف الفضول :

قيل أن رجلا قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل. وأخذها ولم يدفع ثمنها. فلجأ صاحب البضاعة إلى مخزوم وعبد الدار وعدى فأبوا أن يعينوه. فلما لجأ إلى قريش مستنجدا بهم ليأخذ حقه اجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان فتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه. فقال الناس لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر فسمُّى «حلف الفضول» ومشوا إلى الظالم وانتزعوا منه ثمن السلعة ودفعوها إلى صاحبها. وقد روى عبد الرحمن ابن أبى بكر أن النبى فيما بعد قال: لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت. تحالفوا أن يردُّوا الفضول على أهلها وألا يعزَّ (أى يغلب) ظالم مظلوما.

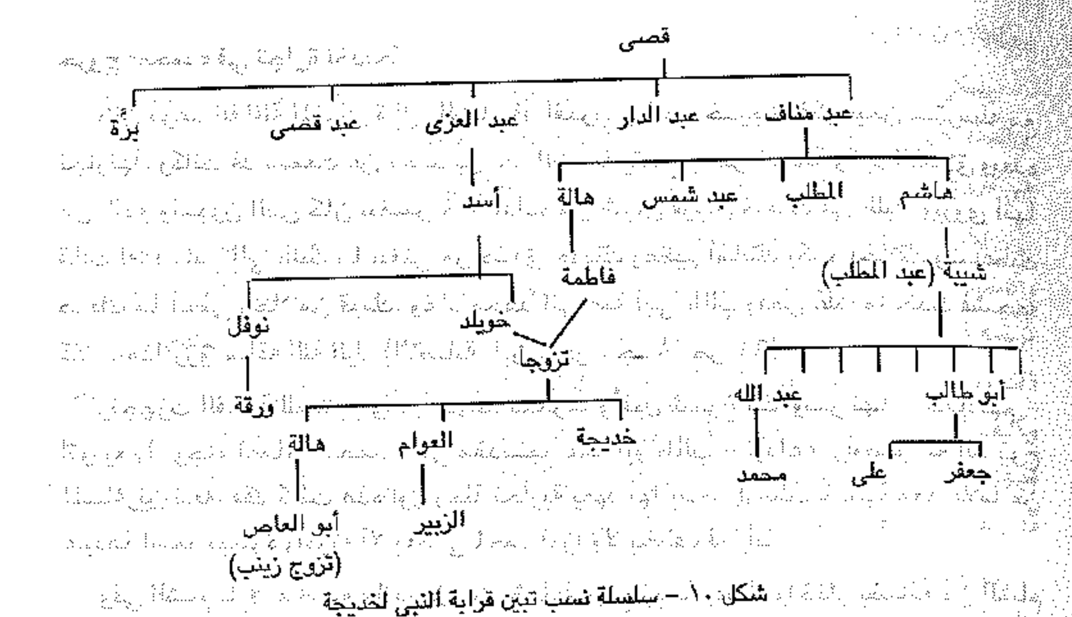
وكان بين حرب الفجار وحلف الفضول ٤ أشهر.

ومرت ثلاث سنوات ونصف كان «محمد» مقيما فى بيت عمه أبى طالب ويتكسَّب رزقه من بعض الأعمال التجارية. ولما بلغ ٢٤,٥ سنة حدث أن تولى أمر قافلة لخديجة بنت خويلد فكانت نقطة تحوُّل فى حياته.

خديجــة :

هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى أخى عبد مناف. فنسبها يلتقى مع «محمد» عند جدِّه الرابع «قصى». وأمها فاطمة بنت هالة أخت هاشم والمطلب وعبد شمس أولاد عبد مناف (انظر شجرة النسب شكل ١٠).

وكان ورقة بن نوفل – ابن عم خديجة – أحد أربعة نفر أصدقاء من رجال قريش – هم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش – لم يرضوا عما كان حول الكعبة من أصنام يعبدها الناس ويخرُّون لها ساجدين فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيئ. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع. يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شيئ.



شكل ١٠ - سلسلة نسب تبين قرابة النبي لخديجة

فتفرقوا في البلاد وبعد بحث طويل تنصَّروا كلهم إلا أن زيد بن عمرو رأى في كتاب النصرانية تحريفا كثيرا فتراجع عن نصرانيته. وبشَّره الأحبار والرهبان بوجود نبى قد أزف زمانه واقترب أوانه فرجع يتطلَّب ذلك واستمر على فطرته إلا أنه توفى قبل البعثة المحمدية. أما ورقة بن نوفل فقد اعتنق النصرانية وأكبَّ على دراسة كتبها حتى صار من أعلم الناس بها في عصره.

يتضح من هذا أن خديجة بنت خويلد كانت من أعرق نساء قريش نسبًا، وأعلاهم حسبًا. نبتت في بيت واسع الثراء ملتزم بالأخلاق الفاضلة ومعروف بالتدين والبعد عما كان يفعله بعض القرشيين من مجون وانغماس في الشهوات. وقد ولدت قبل عام الفيل بـ ١٥ سنة. ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها تزوجها أبو هالة النباشي بن زرارة التيمي فولدت له ولدين: هند وأخيه هالة وهما اسمان من أسماء الإناث ولكن العرب كانت تسمى الذكور أحيانا بأسماء الإناث كما يحدث أحيانا في أيامنا هذه للتدليل أو منعا للحسد. ولكن لم تمض إلا سنوات قليلة حتى توفى الزوج تاركا لخديجة ولديها ثروته الطائلة. ثم تزوجت خديجة من بعده من عتيق بن عائذ المخزومي ورزقت منه ببنت سمتها هند. ولكن ذلك الزواج لم يدم طويلا. فتفرغت خديجة لرعاية ولديها وابنتها. وكانت تُعرف بحسن سيرتها وجمال خلقها حتى أطلق عليها لقب «الطاهرة» وتقدم الكثيرون يطلبونها للزواج ولكنها رفضت كل من تقدم لها من سادات قريش وآثرت أن تتفرغ لرعاية أولادها وأن تشرف بنفسها على أموالها وتنميها بالتجارة. وكانت من الثراء بحيث أن تجارتها كانت تقرب من نصف القوافل الخارجة من مكة. وكانت تختار للخروج بتجارتها من رجال قريش من اشتُهر عنهم الصدق والأمانة.

خروج «محمد» فى تجارة لخديجة :

كان موعد القافلة المسافرة إلى الشام قد اقترب وراحت خديجة تفكر فيمن سترسله مع تجارتها. وكانت قد سمعت عن محمد بن عبد الله وما يتمتع به من الأمانة وكرم الأخلاق وبعده عن اللهو والمجون الذى كان ينغمس فيه أنداده من شبان قريش فبعثت فى طلبه. ويروى أنها قالت له: دعانى إلى طلبك ما بلغنى من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك. وعاد محمد إلى عمه أبى طالب وقصَّ عليه ما حدث فشجَّعه قائلا: هذا رزق ساقه الله إليك (الإصابة. ابن حجر . جـ ٨ ص ٦١).

وتجهزت القافلة للمسير وحان موعد سفرها وأقبل شيوخ مكة وسراتها – كعادتهم – لتوديعها. وجاء أعمام «محمد» وفى مقدمتهم عمه أبو طالب – لوداعه. وأوصوا به الشيوخ المسافرين معه. فقد كانت هذه أول رحلة تجارية يعهد بها إليه. وأرسلت خديجة معه غلاما من عبيدها اسمه ميسرة وأمرته ألا يعصى لمحمد أمرا ولا يخالف له رأيا.

وفى الشام باع «محمد» ما يحمل من بضاعة فربح ربحا وفيرا. واختار بضائع من الشام تكون مطلوبة فى أسواق مكة. ثم عادت القافلة. فلما وصلوا إلى ما يعرف الآن بوادى فاطمة – شمال مكة بـ ٥ كم – قال له ميسرة: يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما فتح الله عليها من ربح على يديك. فى حين سارت القافلة الهوينى حتى أناخت خارج مكة وخرج رجال قريش لاستقبالها. وخرج التجار لشراء ما يريدون من بضاعة.

وكان «محمد» قد قصد فور رجوعه إلى الكعبة فطاف بها كما كان يفعل أى قادم إلى مكة. ثم قصد دار خديجة فأحسنت استقباله وأطلعها على توفيقه فى بيع ماكان يحمله فى الشام بأعلى سعر وأعلمها بما اشتراه لتبيعه فى أسواق مكة ولما باعته ربحت ربحا وفيرا يكاد يصل إلى ضعف ما كانت تربح من قوافلها السابقة فأجزلت لمحمد العطاء وأعطته ضعف ما كانت قد اتفقت عليه. وقصَّ عليها ميسرة ما لاحظه من أن الغمام كان يظلِّل «محمداً» وهو راكب على بعيره ويسير معه أينما سار. وأن محمدا نزل يوما يستظل تحت شجرة قريبة من صومعة راهب يسمى «نسطورا» فلما رآه الرهب سأل ميسرة عنه فأخبره أنه فتى من أشراف قريش. فسأله الراهب: أفى عينيه حمرة؟ قال ميسرة نعم. فقال الراهب: إن هذا الرجل الجالس تحت الشجرة نبى من الأنبياء. كذلك ذكر لها أن رجلا من أهل الشام اختلف مع محمد أو بالأحرى تعمَّد أن يختلف معه على أمر من التجارة وطلب من محمد أن يحلف باللات والعزى على ما يقول. فرد عليه محمد قائلا: ما حلفت بهما قط وإنى لأمرُّ فأُعرض عنهما. فقال الرجل: القول قولك ثم انتحى الرجل بميسرة وقال له: هذا والله نبى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم.

وانطلقت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وأخبرته بما سمعته من ميسرة فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبىُّ هذه الأمة. فقد عرفتُ أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنتظر هذا زمانه. فعادت خديجة إلى دارها وقد رغبت فى الزواج من محمد.

زواجه من خديجة :

يحكى عمار بن ياسر أنه خرج ذات يوم مع «محمد» فمراً على هالة أخت خديجة وهى جالسة على أدم تبيعها. فنادت عمارا فذهب إليها وحده فقالت له: أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزوج خديجة. قال عمار فرجعتُ إليه فأخبرته. فقال بلى لعمرى.

ولكن المشهور رواية أخرى تقول إن خديجة اختارت صديقة لها هى نفيسة بنت أمية وأفضت إليها برغبتها وأوفدتها إلى محمد لتحقيق أمنيتها. وذهبت نفيسة إلى محمد وبدأت تُرَغِّبه فى الزواج. ثم سألته عما يمنعه من الزواج فقال: ما بيدى ما أتزوج به. فقالت فإن كُفِيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب؟ قال فمن هى؟ قالت خديجة. قال: وكيف لى بذلك؟ قالت دعنى وأنا أفعل. وعادت نفيسة إلى خديجة وطمأنتها إلى رغبة محمد فيها وما يمنعه إلا فقره. فأرسلت مولاتها إليه ليوافيها. فلما جاءها قالت له: يا ابن العم. إنى قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك.

فرجع محمد إلى عمه أبى طالب وأخبره بما كان فجاء محمد وأعمامه أبو طالب وحمزة والعباس ودخلوا على عمرو بن أسد وابن عمها ورقة بن نوفل وقام أبو طالب فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضِئْضِئ معد (الضئضئ الأصل ويقال من ضئضئ كريم. المعجم الوسيط جـ ١ ص ٥٣٤) وعنصر مُضَر. وجعلنا حضنة بيته وسُوَّاس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا أحكام الناس. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونُبلا وفضلا وعقلا. وإن كان فى المال قلّ فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة. وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة. فقام ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت. فنحن سادة العرب وقادتهم. فأنتم أهل ذلك كلّه لا ينكر العرب فضلكم. ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم. ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله. فطلب أبو طالب أن يُشرك عمها فى الأمر ففعل. ونحر محمد جزورين وأطعم الناس وضربت الدفوف.

كان محمد إذ ذاك عمره ٢٥ سنة وخديجة – فى أغلب الأقوال – فى الأربعين من عمرها وتم الزواج بعد عودة «محمد» من الشام بشهرين ونصف. وابتهاجا بزواجه من خديجة أعتق محمد حاضنته بركة وكانت جارية حبشية ورثها عن أبيه. حضنته وسهرت على خدمته وراحته بعد وفاة أمه آمنة فكانت أما ثانية له ولا يناديها إلا بقوله «يا أمَّة» وكان حفيا بها ويعتبرها من أهله. فلما أعتقها تزوجت وأنجبت ابنها البكر «أيمن» وأصبحت تعرف بـ «أم أيمن».

«محمد» الزوج :

عاش الزوجان عيشة راضية مستقرة فى بسطة من الرزق وبحبوحة من العيش ولمست

خديجة عن قرب ما يتحلى به زوجها من الإخلاص والمحبة ونبل العشرة وأيقنت أن كل ما سمعته عنه قبل الزواج لم يكن إلا جزءا يسيرا مما يتحلى به من كريم الأخلاق والحلم والجود.

واستمر محمد بعد الزواج فى ممارسة التجارة. وعهدت إليه خديجة بكل أمورها التجارية وأراحت نفسها من تحمل أعبائها وألقت عن كاهلها مشاقها. والحقيقة أنه - بعد الزواج - لم يعد هناك فرق بين مالها وماله. وكان جوادا كريما يكثر من الصدقات للفقراء والمحتاجين ويصل ذوى القربى.

كذلك كان «محمد» متواضعا لا يأنف من أن يخدم نفسه بنفسه وأُثِرَ عنه أنه كان يخصف نعله ويساعد الخدم والعبيد فى أعمالهم ولا يكلفهم من العمل ما هو فوق طاقتهم.

زيد بن حارثة :

كان زيد بن حارثة قد خرج مع أمه ليزوروا أهلها فأصابته خيل من البادية فأخذوه وباعوه بيع الرقيق واشتراه حكيم أخو خديجة. وفى إحدى زيارات خديجة لأخيها حكيم وهبها هذا الغلام. واستراح زيد فى بيت خديجة إذ كانت تعامله كأنه أحد أبنائها. وبعد زواجها من محمد وهبته هذا الغلام فأعتقه. وكان زيد سعيدا أن يخدم أصدق الناس وأكرمهم.

إكرامه لحليمة السعدية :

جاءت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية. مرضعة «محمد» لزيارة «ابنها» بعد زواجه فأكرمها واستضافتها خديجة فى البيت ضيفة عزيزة مكرّمة. ولما شكت من القحط الذى أصاب البادية وأهلك الزرع والضرع. رأى محمد - بأدبه وحكمته - أن يوصى بها خديجة خيرا. فلما أزمعت حليمة العودة أهدتها خديجة ٤٠ رأسا من الغنم وبعيرا (ابن سعد، الطبقات، جـ١ص ٧١).

مولد القاسم :

كانت خديجة تتوق إلى أبناء يزيدون رابطة المحبة بينها وبين زوجها. ولكن مضى عامان دون أن تحمل وبدأ القلق يساورها. صحيح أنها قد جاوزت الأربعين ولكن كثيرا من السيدات حملن وهُنَّ فوق الأربعين بل وحتى فوق الخمسين وخاصة أنها كانت تبدو أقل من سنها بكثير. وخافت أن يلجأ زوجها إلى اختيار زهرة قرشية تلد له البنين والبنات. فهو فى الثامنة والعشرين من عمره أى فى عز الشباب ومن حقه أن يتمتع بالولد. ولكنها كانت مقتنعة أن الله سبحانه وتعالى هو الذى هيأ لها الزواج من محمد ولابد أنه أيضا سيهيئ الأسباب لنجاح هذا الزواج إلى النهاية. فظلت تضرع إلى الله أن يهبها الولد. ومرت بضعة أشهر من العام الثالث فإذا بها تشعر بما تشعر به النساء فى بداية الحمل فخافت أن تكون واهمة. ولكن بعد بضعة أشهر بدأ الجنين يتحرك فى بطنها فكادت أن تطير من الفرحة وسارعت تزف البشرى إلى

زوجها الحبيب. وتلقى محمد النبأ مسرورا وشكر الله على هذه النعمة. ومرت الأيام وولدت خديجة وجاء المولود ذكرا فأجزل العطاء للقابلة التى بشرت به وسماه «القاسم» ومنذ ذلك اليوم صار محمد يُكنّى «أبا القاسم». وفى اليوم السابع لمولد القاسم أمر محمد بحلق شعر رأس المولود وتصدق على الفقراء بمثل وزن شعره من الفضة، كذلك ذبح ذبيحة وتصدق بلحمها على الفقراء وهذه هى العقيقة.

مولد زينب :

وكانت خديجة – مثل باقى نساء قريش – ترى فى كثرة الأولاد سعادة وعزا. ولذلك كانت القرشيات يعهدن بما يلدنه للمرضعات حتى يفرغن للإنجاب السريع. وتمشيا مع هذا عهدت خديجة إلى مرضعة بتولى أمر القاسم وراحت تضرع إلى الله أن يهبها الكثير من الأبناء. ومن عام وظهرت بوادر الحمل على خديجة. ولما وضعت جاءت أنثى فرح بها «محمد» وسمَّاها زينب.

وفاة القاسم :

ومرّ عام ولم تحمل خديجة ولكنها كانت تسرُّ إذ ترى القاسم ينمو ويمشى إذ بلغ عمره سنتين. ولكن لم تلبث أن نزلت بها كارثة زلزلت كيانها إذ مرض القاسم مرضا قصيرا ثم اختطفه الموت فكان مصابها فيه فادحا وفجيعتها شديدة. وتحمل «محمد» المصاب فى صبر وتسليم لقضاء الله ولم يُظهر حزنه بل راح يواسى زوجته ويخفف من وقع الحادث عليها.

مولد رقية :

ويمر عامان آخران وعدة أشهر وتشعر خديجة ببوادر الحمل. وبعد ٩ أشهر تلد أنثى وتقبلها محمد قبولا حسنا وهنأ زوجته على سلامتها وأطلق على المولودة اسم «رقية».

مولد أم كلثوم :

وتتحمل خديجة الام الحمل الرابع عن طيب خاطر يحدوها الأمل أن تهب لها السماء مولودا ذكرا يعوضها عن فقد القاسم. حتى إذا جاء موعد الولادة فإذا هى بنت. وتخوفت من وقع الخبر على زوجها. ولكنها رأته يتهلل ويفرح بما جادت به السماء وأطلق على المولودة «أم كلثوم» فهدأت نفس خديجة واطمأن بالها.

كان هند ابن خديجة من زواجها الأول يعيش مع أمه بعد زواجها من محمد. وكان هند سعيدا أن يشب فى كنف أصدق الناس وأكرمهم. أما هالة ابنها الثانى. وهالة ابنتها من زواجها الثانى فكانا قد تزوجا واستقل كلٌ فى بيته.

إعادة بناء الكعبة

كان عمر «محمد» ٣٥ عاما – أى بعد ١٠ سنوات من زواجه – وجاء الشتاء بأمطار غزيرة هطلت على جبال مكة فجرت سيولا جرفت الحجارة والردم الذى كانوا قد وضعوه لحماية البيت الحرام وتدفقت المياه إلى الكعبة فأوهنت بنيانها. وزاد الأمر سوءاً أن شب بعد ذلك حريق فى ستائر الكعبة وأمسك بأخشابها وبدأت حجارة الداميك العليا فى التساقط. وتملك القلق قريشا فقد كانوا على علم بأن ذلك البيت لو ذهب لذهبت مكة وذهبوا هم أيضا. واجتمع أشراف مكة فى دار الندوة يتشاورون وانتهى الرأى إلى ضرورة هدم الكعبة وإعادة بنائها. وكانت المشكلة هى الحصول على الأخشاب اللازمة بدلا من تلك التى احترقت. وتصادف أن كانت سفينة محملة بالأخشاب وتحمل تجارة للروم إلى الحبشة وقامت عاصفة هوجاء دفعتها وحطمتها على الشاطئ قرب المكان المعروف حاليا بجدة. وجاء الخبر إلى مكة فابتاعت قريش حمولتها من الخشب ونقلوه بالجمال إلى مكان الكعبة. وكانوا حريصين على ألا يدخل فى نفقة البيت مال حرام من بيع ربا أو خلافه ولا شيئا أصابوه من قطع رحم أو انتهاك حرمة أو مال مغتصب.

وتهيّب الناس من هدم الكعبة خوفا من عقاب تنزله الآلهة المقامة حولها ولكن الوليد بن المغيرة تصدّى بشجاعة لهذا الأمر ورفع معوله وبدأ الهدم وقد كتم الناس أنفاسهم إشفاقا عليه لما قد يصيبه من انتقام الآلهة ولكن شيئا ما لم يحدث له. وفى الصباح رأوا الوليد يحمل معوله ويتجه ناحية الكعبة ليتم ما بدأه بأمسه. فأطمأن الناس وراحوا يهدمون معه حتى وصلوا إلى الأساس الذى وضعه إبراهيم عليه السلام. ويقال إن معاولهم لم تستطع أن تخلع حجرا واحدا ولو صغيرا من هذا الأساس فتوقفوا.

وخف شباب مكة ورجالها وشيوخها ليُسهموا فى بناء الكعبة حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا أىُّ القبائل ترفعه واشتد الخلاف حتى أصبحوا على وشك القتال. وأخيرا اتفقوا على أن يُحكِّموا بينهم أول داخل من أحد أبواب فناء البيت وهو باب بنى شيبة والمعروف حاليا بباب السلام.

وساد سكون عميق. وأخذ القوم يترقبون وقد حبسوا أنفاسهم وتعلقت أبصارهم بباب بنى شيبة. ولم يطل انتظارهم فقد هلَّ عليهم محمد بن عبد الله. فصاحوا جميعا: هذا الأمين. هذا محمد. رضينا به حَكَماً. وتقدم محمد وقد هداه الله إلى فكرة يرضى بها جميع الأطراف المتنازعة. فخلع رداءه وبسطه على الأرض وحمل الحجر الأسود ووضعه عليه ثم طلب من رؤساء كل قبيلة أن يمسكوا بطرف من أطراف الرداء فحملوه جميعا فى وقت واحد حتى إذا وصلوا إلى مستوى الحجر أخذه بيده ووضعه فى مكانه وسوى عليه فطابت النفوس وساد السلام. وعاد محمد إلى داره شاكرا الله تعالى أن وفّقه إلى منع الفتنة. وأكملوا البناء. وكانوا يبنون مدماكا من حجارة ومدماكا من خشب يربط الحجارة بعضها ببعض وهكذا حتى انتهوا

من بنائها وجعلوا لها سقفا من الخشب وكذلك رفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم فأصبحوا يتحكمون فيمن يدخلها ومن لا يدخلها. ثم راح الرسامون يرسمون على حيطان الكعبة من الداخل صورا دينية. فصوروا إبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام وإسماعيل وفي يده الأزلام. وصوروا الملائكة حول مريم وهي تحمل المسيح بين ذراعيها. وأغلب الظن أن من قاموا بهذا الرسم كانوا من الروم النصارى الذين تكسرت سفينتهم في البحر الأحمر واستعانت بهم قريش في البناء والطلاء.

مولد فاطمة :

كانت خديجة قد حملت للمرة الخامسة. وما لبثت بعد بناء الكعبة بقليل حتى وضعت وكانت بنتا. وكما قالت خديجة بعد ذلك كانت أشبه أخواتها بوالدها محمد. وفرح بها النبي كما فرح بأخواتها من قبل وسماها « فاطمة» ونفح القابلة مكافأة سخية. كان عمره الآن ٣٥ سنة وكانت خديجة في الخمسين من عمرها.

زيد بن محمد :

كان موسم الحج على وشك الابتداء فذهب محمد إلى عرفة ومعه زيد بن حارثة فعرفه الحجيج من قومه وبعد انتهاء موسم الحج عادوا إلى بلادهم وأخبروا حارثة بأن ولده موجود في مكة عند محمد بن عبد الله. فشد حارثة وأخوه الرحال إلى مكة حتى إذا ما بلغوها انطلقا إلى دار خديجة وسألا عن محمد فقيل لهما إنه في البيت الحرام. فهرعا إلى الكعبة وقابلاه وقالا له: يا ابن عبد المطلب أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون الأسير العاني وتطعمون الجائع جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن في فدائه فإنا سندفع لك فقال محمد وماذاك؟ قالوا: زيد بن حارثة: فقال محمد في هدوء أو غير ذلك؟ قالوا وما هو؟ قال: ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على الذي اختارني فداء. فقالا: زدت على النصف وأحسنت. وبعث محمد في طلب زيد فلما جاء تعرف على والده وعمه. وقال له محمد: أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. أنت مني مكان الأب والعم. وصعق الأب والعم لهذا الاختيار الذي لم يخطر لهما على بال. فقالا: ويحك يازيد. أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ ورد زيد قائلا: نعم لقد رأيت من هذا الرجل ما أنا بالذي أختار عليه أحد أبدا. فلما رأى محمد ذلك أخذه إلى محل جلوس قريش وقال: يا معشر من حضر. اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه. وطابت نفس حارثة والده واطمأن على ولده وتركه في كنف محمد وعاد إلى أرضه وأصبح زيد يدعى بعد ذلك «زيد بن محمد بن عبد الله الهاشمي» وهو نسب من أرفع الأنساب قدرا وأكثرها مدعاة للفخر والاعتزاز. وظل كذلك حتى أبطل الإسلام التبني بنزول قوله تعالى **«ادعوهم لآبائهم»** (٥ - الأحزاب) وسيجيء تفصيل ذلك فيما بعد (ص ٥٩٥).

ضم على بن أبى طالب :

كان أبو طالب – عم محمد ﷺ – قد بلغ من العمر ٦٥ عاما وقعدت به السن عن الخروج فى القوافل للتجارة وإن كان قد ظل يتاجر فيما تحضره القوافل من بضاعة. وقل ماله. ومع ذلك ظل بيته مفتوحا للضيف وعابر السبيل فأتى كرمه على ماله فنزل به الفقر ولكنه ظل سيد بنى هاشم. كان أخوه العباس فى غنى عريض من تجارته وكان أبو لهب أيضا يعيش فى بحبوحة من العيش بما يكسب من أموال من التجارة ولكنه كان مغرما بالشراب ولعب الميسر وينفق فيهما الكثير.

ومرت الأيام وأصابت قريش أزمة اقتصادية عاتية. لم يذكر المؤرخون أسبابها ولكن من المرجح أن القحط والجدب أصاب البلدان المجاورة فلم تعد القوافل تسير وتمر بمكة كالمعتاد. فأصاب الكساد أسواق مكة. فعانى القرشيون منها وأكلت الأزمة ما ادخروه وكان من أكثرهم تأثرا أبو طالب. فقد ورث عن أبيه السقاية والرفادة وكان هذا يكلفه الكثير.

وفطن محمد إلى ضيق عمه أبى طالب وتذكر أيام أن كان يتيما فى داره يرعاه ويحنو عليه كأحد أبنائه. وأراد أن يرد له الجميل فذهب إلى عمه العباس وقال له: ياعم.. إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه عياله. آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه. فوافق العباس وانطلقا حتى أتيا أبا طالب وقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه فوافق أبو طالب وأخذ محمد عليا وكان فى السابعة من عمره وكان محمد حينئذ فى السابعة والثلاثين من عمره. وأخذ العباس جعفرا.

وفرحت خديجة بعلى إذ رأت فيه أخا لبناتها وكذلك فرحت به البنات إذ وجدن فيه أخا عطوفا على صغر سنه إذ كان فى سن زينب التى كانت هى الأخرى فى السابعة من عمرها أما فاطمة فكانت لاتزال تعنى بها مرضعتها فقد كانت قد بدأت العام الثانى من عمرها.

زواج زينب :

كان النبى قد بلغ من العمر ٣٩ سنة وكانت زينب قد بلغت العاشرة من عمرها وبدأت عيون الهاشميين ترنوا إليها كل واحد يطمع أن ينال شرف مصاهرة هذا البيت الكريم وكان ابن خالتها أبو العاص بن الربيع (انظر سلسلة النسب شكل ١٠ ص ٢٣) أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا. فقد كانت رحلاته التجارية. صيفا وشتاء تدر عليه ربحا وافرا. وكانت قرابته لخديجة – خالته – تتيح له التردد على بيتها بدون حرج ويرى زينب ويجلس مع الجميع يحكى لهم عن مشاهداته فى أسفاره. وكانت زينب تأنس لحديثه. وكان أحيانا يحضر لها هدية من البلدان التى يمر بها. ومرت الأيام وأسرَّ أبو العاص بن الربيع لخالته برغبته فى خطبة

زينب وأفضت خديجة لمحمد بذلك فطلب منها أخذ رأى زينب، ولما سئلت كان سكوتها – حياء – علامة الرضا، وذاع النبأ السعيد فى مكة.

ولكن أغلب فتيان بنى هاشم كانوا يرون أن أبا العاص ليس أحق من شبان بنى هاشم بزواج زينب، فإن أبناء العم فى عرفهم – وفى عرف العرب –أحق ببنات أعمامهم، وأن زينب كانت ماتزال صغيرة وأن أبا العاص قد اغتنم الفرصة ونالها قبلهم بمساعدة خالته خديجة. ومن وجهة نظر خديجة فإنها رأت فى هذا الزواج تدعيما للروابط بين العائلتين، كما أن موافقتها على أبى العاص لم يكن مرجعه قرابته لها أو كثرة ماله بل كان أهم عنصر بنت عليه رأيها هو الخلق الكريم الذى امتاز به وجعل الناس فى مكة يحبونه ويحترمونه ولم يكن المال والخالة إلا عاملا مساعداً.

وعجَّل أبو العاص فى طلب الإسراع بالزفاف واستجاب له محمد، وازدادت فرحة خديجة، وأهدت خديجة – بين ما أهدت إلى ابنتها – قلادة كانت تتزين بها وكانت تفضلها على غيرها مما كانت تقتني من حلى وأوصت ابنتها بالحرص عليها، وسنرى فيما بعد (ص ٥١٦) أن هذه القلادة كانت سببا فى إطلاق سراح أبى العاص لما وقع أسيرا فى يد المسلمين فى غزوة بدر.

زواج رقية وأم كلثوم :

كان عمر النبى قد بلغ ٣٩,٥ سنة ولم يكن قد مضى على زواج زينب إلا سته أشهر، وكان عمر رقية ٧ سنوات وأم كلثوم ٦ سنوات – حين جاء وفد من بنى هاشم لزيارة «محمد» وقال شيخهم أبو طالب: إنك يا ابن أخى قد زوَّجت زينب أبا العاص بن الربيع وإنه لنعم الصهر غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة وليسوا دونه شرفا ونسبا. فقال محمد: صدقت ياعم. واستطرد الشيخ يقول: وقد جئناك نخطب ابنتيك رقية وأم كلثوم وما أراك تضنُّ بهما على ابنى عمك عتبة وعتيبة ابنى عبد العزى – أبى لهب – ولم ير محمد مانعا فالشابان من أكفأ فتية قريش، واستطلع محمد رأى خديجة التى رأت أن أبا لهب هو عم محمد وهو من أغنى بنى هاشم وله مكرمة سابقة، فإنه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله حتى أعتق جاريته ثويبة التى حملت إليه البشرى السعيدة، ولكن خديجة تخوفت على ابنتها من أم جميل زوجة أبى لهب، فهى امرأة متعجرفة سريعة الغضب والانفعال، سليطة اللسان تفرض سلطانها على أولادها وحتى على زوجها، ولكنها خافت إن هى عارضت هذا الزواج أن تتهم بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وأعمامه من أواصر القربى كما أن أم جميل تنتمى إلى بيت قرشى كبير ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قريشا عليها لذلك فإن خديجة تركت الأمر لزوجها محمد الذى أعلن موافقته ولم تمر أيام حتى تم زواج عتبة من رقية وعتيبة من أم كلثوم وانتقلت العروسان للعيش مع زوجيهما فى بيت أبى لهب ومع حماتهما أم جميل.

بدء النبوة

اشتُهر عن « محمد» أنه لا يقرب الأصنام ولا يتوسل أو يقسم بها. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٣٤) كيف أنه فى رحلته إلى الشام حينما طلب منه أحد التجار أن يقسم باللات والعزى قال: ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما.

وتمر السنون وتتوالى الأحداث ويبلغ «محمد» السابعة والثلاثين من عمره فنراه يخبر زوجته خديجة أنه يريد أن يخلو إلى نفسه ليفكر فى هذا الكون ويتأمَّل فى عظمة الخالق وجمال خلقه بعيدا عن مظاهر الشرك والتماثيل المنتشرة حول الكعبة وأنه سوف يقصد لذلك غار حراء يتعبَّد هناك لمدة شهر. ولم تعجَب خديجة حين أخبرها زوجها بذلك فهى منذ أخبرها ميسرة – غلامها – بحديث الراهب نسطورا من أن نبيا قد اقترب زمانه (ص ٣٤) وهى ترى ببصيرتها أن محمداً هو أصلح رجل لذلك. ولكنها تعلم أيضا أن مثل هذا الأمر مرجعه إلى الله سبحانه وتعالى. وراحت تتساءل فى نفسها: هل هذا التعبد فى غار حراء هو المقدِّمات لذلك؟ فما أحراها إذن بتقديم العون ما وسعها له. فراحت تعد له الزاد اللازم. وكان اقتراب سنها من الواحدة والخمسين مساعداً لها على عدم التذمر من بعده عنها طوال هذا الشهر. وعاد محمد إلى مكة بعد انقطاعه للعبادة شهراً كاملاً فى غار حراء. وبدأ بالطواف حول الكعبة ثم انصرف إلى بيته فاستقبلته زوجته فرحة مستبشرة.

وفى العام التالى انقطع محمد فى غار حراء للعبادة طوال شهر رمضان ثم عاد إلى مكة. وفى العام الذى يليه فوجئت خديجة أن محمدا قد حُبِّبَ إليه الخروج إلى الصحراء المحيطة قبل شهر رمضان – يتأمل فى ملكوت الله تعالى فى ليالٍ كثيرة ثم يعود إلى بيته فيتزوَّد بما هو فى حاجة إليه ثم يعود إلى الصحراء يتأمل ويفكرٍ حتى إذا جاء شهر رمضان اعتكف طوال الشهر فى غار حراء للعبادة والتفكُّر فى خلق السموات والأرض وخالقهما وعاد إلى مكة بعد انقضاء رمضان.

وحين بلغ «محمد» ٣٩,٥ سنة من عمره بدأ يرى الرؤيا الصادقة. عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله من النبوَّة الرؤيا الصالحة. لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. وكانت الرؤيا الصادقة ستة أشهر قبل نزول الوحى. وقد بُدئ بها كتمهيد للنبوة حتى لا يُفاجأ بالوحى فلا يتحمله العقل البشرى. فالرؤيا الصالحة تعطى صاحبها انطباعا بأن عنده نوعا من المكاشفة وقربى من الله وهذا يعطى استعدادا نفسيا لمرتبة أعلى وهى نزول الوحى.

أول ما نزل من القرآن :

وفى شهر رمضان. خرج «محمد» إلى غار حراء كما كان يخرج فى كل عام. وكان قد بلغ الأربعين من عمره. وفى إحدى الليالى – وقد جزم الإمام أبو حنيفة أنها ليلة الاثنين السابع

والعشرين من رمضان – وفي سحر تلك الليلة أتاه جبريل الأمين. وجاء في البخاري أن الملك جاءه فغطَّه أي ضمَّه وعصره حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ فأخذه وغطَّه الثانية حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال اقرأ. قال ما أنا بقارئ فأخذه وغطَّه الثالثة ثم أرسله وقال:

«اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان مالم يعلم» (١ – ٥ العلق).

وكما قال النبي فيما بعد: قرأها وكأنها نقشت بحروف من نور على قلبه.

ويقول ابن هشام (السيرة النبوية جـ١ ص ١٤٨) إن النبي كان يقول لجبريل ماذا أقرأ؟ ويقول الألوسي (تفسيره جـ ٣٠ ص ١٧٨) إن قول «ما أنا بقارئ» ما نافية بمعنى لست أعرف القراءة. ويقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٩٢) إن النبي كان يرد على جبريل قائلاً: ما أرى شيئاً أقرأه وما أقرأ وما أكتب. ونفى ابن كثير أن تكون «ما» استفهامية وقال إن الباء لا تزاد في الإثبات. المهم أن النبي بعد ما حدث خرج مذعوراً من الغار حتى إذا كان في وسط الجبل سمع صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فرفع رأسه إلى السماء ينظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقف ينظر إليه لا يتقدم ولا يتأخر. وجعل يصرف وجهه عنه في آفاق السماء فلا ينظر في ناحية منها إلا رآه كذلك.

وكانت خديجة قد صنعت طعاماً وأرسلته إلى زوجها. فلما جاءوا إلى الغار لم يجدوا به أحداً فعادوا إليها وقالوا في خوف إنهم لم يجدوه ثم بعد نحو ساعة جاء يرتجف. فقالت يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله بعثت رسلي في طلبك ورجعوا إليَّ. فقال وهو يرتجف. زمِّلوني زمِّلوني. فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع. ثم أخبر خديجة بما حدث وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق.

وانطلقت به خديجة حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل فقالت له خديجة أن يسمع من محمد فقص عليه محمد ما حدث فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى. يا ليتني فيها جَذَعاً. ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك. فقال النبي أوَ مُخرِجيَّ هم؟ فقال: نعم. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ولكن ورقة بن نوفل توفي بعد قليل من هذا الحديث ولم تدركه دعوة الإسلام وفي رواية أخرى أن خديجة ذهبت وحدها إلى ورقة ابن نوفل وأخبرته بما حدثها به زوجها فقال لها ورقة: قُدُّوس قُدُّوس. والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتني يا خديجة. لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة وقولي له فليثبت. فرجعت خديجة إلى محمد

فأخبرته بقول ورقة. وراح النبي ليطوف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل وقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت فأخبره فقال له ورقة ما سبق أن ذكرناه في الرواية الأولى.

نعود إلي أول ما نزل من القرآن وهو صدر **سورة العلق أو سورة اقرأ :**

«**اقرأ باسم ربك**» ومن هنا كان الإستفتاح في قراءة القرآن الكريم «باسم الله» ثم لما نزلت الفاتحة صار الاستفتاح «بسم الله الرحمن الرحيم». وهو وإن كان خطابا للنبي إلا أنه ينطبق على جميع من يسلم.

«**الذي خلق**» أي خلق كل شيئ. ثم خَصَّ الإنسان بعد ذلك ببعض التفصيل «**خلق الإنسان من علق**» وقال الألوسي (تفسيره جـ ٣٠ ص ١٨٠) العلق قطعة من الدم الجامد ويقال علقت المرأة أي حبلت وقال الأقدمون هي قطعة الدم التي يتكون منها الجنين ولعلهم قالوا ذلك لملاحظتهم أن المرأة إذا أجهضت في الأشهر الأولي من الحمل تنزل قطعة حمراء هي أشبه بالدم المتجمد. كما أن العلقة طور من أطوار الجنين لقوله تعالى: «**فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة**» (٥ - الحج). والعلقة دود أسود يكون في الماء الآسن إذا شربته الدابة علق بحلقها ليمتص دمها ليتغذى عليه. ويرى المفسرون العصريون في «**خلق الإنسان من علق**» إعجازا علميا إذ علم مؤخرا أن البويضة بعد إخصابها بالحيوان المنوي تعلق بجدار الرحم من الداخل كما تعلق العلقة بحلق الدابة كما أن كتلة الأنسجة الجنينية تكون في مبدئ الأمر معلقة داخل الكيس الأمنيوسي (شكل ١١) .

ثم كان الأمر «**اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان مالم يعلم**». أمر بالقراءة باسم الرب العظيم الذي لا يدانيه أحد في كمال كرمه. ومن كرمه أنه علَّم العباد مالم يعلموا من العلوم والمعارف فألهمهم الكتابة بالقلم وعلَّمهم المعارف والعلوم وألهمهم من المخترعات مالم يخطر على بال السابقين وقيل (صفوة التفاسير جـ١ ص ٥٥٥) إن في ذلك إشارة إلي أن الله سيعلِّم نبيه وإن كان أُمِّيا لا يقرأ ولا يكتب.

سورة القلم :

وبينما كان النبي راجعا إلي بيته جعل لا يمر على شجر ولا حجر إلا سمعه يسلِّم عليه. وظن النبي بنفسه مسا من الجن حتى إنه أراد أن يلقي نفسه من شاهق الجبل على ما رواه الطبري (جـ٢ ص ٤٩) فنزلت الآيات من **سورة القلم** تطمئنه وتنفي ما ظنه وخشي منه وهو أن يكون ما رآه وما سمعه هو مس من الجن:

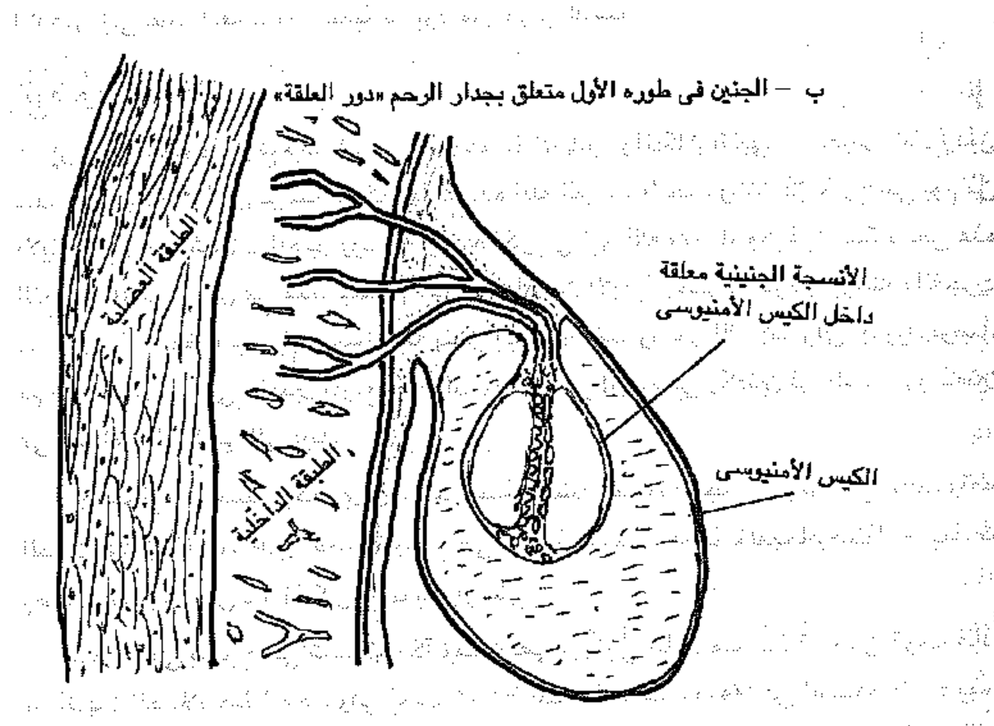
«**ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجرا غير ممنون. وإنك لعلى خلق عظيم**» (١ - ٤ سورة القلم).

الطبقة العضلية

الطبقة الداخلية
(غنية بالأوعية الدموية)

جدار الرحم

أ- البويضة الملقحة تعلق بالطبقة الداخلية لجدار الرحم



ب – الجنين فى طوره الأول متعلق بجدار الرحم «دور العلقة»

شكل ١١ – «خلق الإنسان من علق»

وتبدأ السورة بقسم بالقلم الذى يكتب به الناس العلوم والمعارف وهو ما اختُصَّ به الإنسان من بين سائر المخلوقات. فالقسم هنا بشيئ عظيم دلالة على صدق جواب القسم وهو يطمئن النبى على أن ما رآه وما سمعه ليس نوعا من الجنون. ثم توكيد لما سيكون له من أجر عظيم لما سيتحمله فى سبيل إبلاغ رسالته ثم توكيد ثانٍ بأنه «**على خلق عظيم**». والمعنى أن من كانت له هذه الأخلاق العظيمة لا يكون هناك مجال لمسِّ الجن له أو لسيطرة الشياطين عليه.

أما عن ابتداء السورة بحرف متقطع من حروف الهجاء وهو «**ن**» فيقول علماء اللغة إن من معانى النون، الدواة والحوت وعليه فإن معنى الدواة يتمشى مع ما بعدها «**والقلم وما يسطرون**» ويكون داخلا في القسم بهما. وأغلب الظن أن الصحابة لم يسألوا رسول الله عن معناه إذ لم يرد حديث صحيح يوضح المقصود منها أو من الحروف غيرها التى بدأت بها كثير من السور فيما بعد. ويرجح البعض أنها مما استأثر الله بعلمه وقال البعض إن فى هذه الحروف إشارة إلى أن القرآن مكون من الحروف العربية التى يعرفونها ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله. وقال آخرون إنها جاءت للتنبيه واسترعاء الأسماع لما بعدها وخاصة أن كثيرا من هذه الحروف يجئ بعدها قَسَم بأن القرآن وحى منزل من عند الله فيكون المراد لفت الأذهان إلى عِظَم المقسم به وأهمية ما يرد من جواب القَسَم.

الوضوء والصلاة :

إن أهم شعيرة من شعائر الأديان هى عبادة الخالق. ولما كان النبى قد اختير لإبلاغ دين جديد أصبح لزاما أن توضَّح له كيفية عبادة الله الواحد الأحد. وكان أن خرج فى يوم من الأيام يتنقل بين شعاب الجبل ووديانه وهو يتفكر فى نعم الله وفضله وكيفية شكره على هذه النعم، فوافاه جبريل فى هيئة بشرية وهو فى واد من الأودية وضرب الأرض برجله فانفجرت منه عين ماء فتوضأ جبريل ورسول الله ينظر إليه ثم توضأ رسول الله كما رأى جبريل توضأ. ثم قام جبريل فصلى ركعتين بأربع سجدات وأمر النبى أن يصلى ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء وعاد النبى إلى بيته.

وتوضأ النبى وصلى ركعتين ورأته خديجة فصلَّت بصلاته وجاء على بن أبى طالب وتعلم الصلاة فكان إذا قام النبى للصلاة وقف علىٌّ خلفه ثم وقفت خديجة خلفهما وصلوا جميعا. ثم بعد أن أسلم زيد بن حارثة كان يقف بجوار علىّ.

وكان النبى يخرج إلى شعاب مكة ومعه على بن أبى طالب مستخفيا من قومه فإذا أدركتهما الصلاة صلَّيا معا. وفى إحدى المرات بينما كانا مستغرقين فى الصلاة عثر عليهما أبو طالب ووقف يراقبهما وهما يركعان ثم يسجدان. فلما انتهيا من صلاتهما قال أبو طالب: يا ابن أخى ما هذا الدين الذى تدين به؟ فقال لعمه: أى عم. هذا دين الله ودين أبينا إبراهيم.

يعثنى الله به رسولا إلى العباد وأنت ياعم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه. وساد الصمت والترقب فترة. ثم تكلم أبو طالب فى صوت غلب عليه الحنان والحب قائلا: يا ابن أخى. إنى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى وما كانوا عليه. لكن والله لا يخلُص إليك أحد بشيئ تكرهه ما حييت. ثم التفت إلى علىّ بنظرة تسائل فقال علىّ يا أبت آمنت بالله وبرسوله وصدقت بما جاء به وصلّيت معه واتبعته. فردّ عليه أبوه: إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه (تاريخ الطبرى جـ٢ ص ٣١٣).

وعاد «محمد» إلى بيته وأخبر خديجة بما كان فاطمأنت بهذه الحماية التى أسبغها شيخ بنى هاشم على ابن أخيه فلاشك أن أبا طالب بنفوذه وجاهه سوف يحمى محمدا من أذى أى شخص من البطون القرشية الأخرى.

سورة المزمّل :

فى إحدى الليالى كان النبى يسير فرأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها يملأ ما بين السماء والأرض فخاف وعاد إلى بيته يرتجف وقال زملونى زملّونى . ولما هدأ روعه نزل قوله تعالى:

«يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا. إن لك فى النهار سبحا طويلا. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (انقطع إليه فى العبادة)**. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا»** (١-٩).

والمزمّل هو المتدثر بثيابه. **«قم الليل»** وقيام الليل يكون بالصلاة. فكان الأمر بقيام الليل معناه تكرار الركعتين مرات ومرات. كما نفعل الآن فى صلاة التراويح فى رمضان. ركعتين ركعتين سواء كانت ٨ ركعات أو ٢٠ ركعة . ولو حسبنا أن طول الليل فى المتوسط هو ١٢ ساعة فإن زيد عن النصف قليلا كان ٧ ساعات وإن قل عنه قليلا أصبح ٥ ساعات. فكأن الرسول فى هذه الآية قد أمر بالقيام ٥ أو ٧ ساعات كل ليلة. ومن منا يطيق ذلك؟ إن المرء حاليا إذا صلى العشاء والشفع والوتر وركعتى القيام بالليل – ظن أنه قد أدى فرض الله وأتى ما يوجب الإثابة مع أن كل ذلك لم يستغرق سوى ربع ساعة أو أقل. ناهيك عن كثرة الوساوس التى تُفرغ الصلاة من محتواها التعبُّدى! **«ورتل القرآن»** والترتيل بمعنى التمهل والتجويد فى القراءة. وقد استنتج البعض من هذا الأمر أن هذا الجزء من سورة المزمل لابد قد نزل متأخرا بعد أن نزل عدد من السور لينطبق عليها «القرآن» ولكن جمهور الصحابة أجمع على أن هذه السورة هى ثالث ما نزل من القرآن بعد أول سورة العلق والآيات من سورة القلم وعليه يمكننا أن نستنتج أن المقصود بترتيل القرآن فى هذه الآية هو قراءته فى الصلاة وهذا يكون بتلاوة

مانزل منه فى ركعات صلاة القيام بالليل. سواء كان نصفه أو أقل من النصف قليلا أو أزيد منه قليلا. ثم تنتقل الآيات لبيان سبب ذلك الأمر **«إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»** أى سينزل على النبى كلام جليل له هيبة وروعة فالثِقل هنا عِظمُ قدره. فكثرة الصلاة تجعل النفس مستعدة لهذا القول العظيم والصبر على ما سيتبع هذا من مشاق وأخطار. **«إن ناشئة الليل»** أى النفس التى تقوم من مضجعها وتنشأ من مكانها إلى العبادة فى جوف الليل **«هى أشد وطأ»** أى أكثر وقعا وقيل أثقل على النفس لأن الليل جعل للنوم والراحة. **«وأقوم قيلا»** والقيل هو القول أى أثبت لما يُقرأ لهدوء الأصوات فى الليل فيكون القلب حاضرا ومتفرغا من مشاغل الدنيا. **«إن لك فى النهار سبحا طويلا»** أى هناك مجال طويل بالنهار للعمل واشتغال المرء بأمور المعيشة أما صلاة الليل فتجعل المرء أقرب ما يكون إلى ربه وعلى كلٍّ فعلى النبى أن يكثر من ذكر الله والانقطاع لعبادته من كل شيئ فهو رب العالم كله مشرقه ومغربه ولا إله غيره وعليه أن يتوكل عليه فى كل شئونه.

صدر سورة المدثر :

حتى هذه اللحظة كان النبى يجتهد فى العبادة ويقوم أكثر من نصف الليل يتعبد ويذكر الله. صحيح أنه قد قيل له **«إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»** ولكنه لم يكن يدرى ما هو ذلك القول الثقيل ولا ماهية هذه المهمة الجليلة التى سيُكلَّف بها. وبينما هو فى إحدى الليالى متدثر فى ثيابه مضطجع فى مخدعه نزل قوله تعالى:

«يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهِّر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر» (١ - ٧ المدثر)

وفى الآيات أمر للنبى بأن يقوم من مضجعه وينذر الناس بأن عذابا ينتظر من لا يؤمن. **«وربك فكبِّر»** والصيغة تفيد أمرا باختصاص الرب وحده بالتكبير والأمر فى حقيقته موجه إلى من سينذرهم النبى أى إلى قريش بأن يجعلوا التكبير له وحده. ثم أمر بأن تكون الثياب التى تؤدى فيها الصلاة طاهرة. والرجز هى المعاصى وقيل هى الأصنام فكان الأمر بهجرها والبعد عنها. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى **«ولا تمنن تستكثر»** أى ولا تعط الناس عطاء وتستكثره أى لا تكلّ عن دعوتهم إلى الله مهما أكثرت من دعوتهم ومهما أكثروا من إعراضهم وليصبر إذا ما تعرضوا له بالأذى **«ولربك فاصبر»**.

بدء الدعوة :

عزم النبى على أن يدعو قريشا وينذرهم كما أمره ربه. فقام على الصفا وقال: يا معشر قريش فقالت قريش: محمد على الصفا يهتف. وجعل النبى ينادى: يابنى فهر. يابنى عدى. وعدد بطون قريش. فلما اجتمعوا قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير

عليكم أكنتم مُصدِّقِيّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد. وما نظن أن مقالته اقتصرت على هذه الجملة. فلا شك أنه بعد ذلك أوضح لهم - وإن لم تذكره كتب السيرة - أنه نبى مرسل من رب العالمين وطلب منهم الإيمان بالله وحده ونبذ عبادة الأصنام وأن عذابا شديدا ينتظر المكذِّبين. فقال أبو لهب: تبًا لك سائر الأيام. ألهذا جمعتنا؟

ولاشك أن البعض سأل عن هذا الإله الذى يدعو إليه. وكيف لهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم. ويُروى أن أبا لهب - عند انصرافه - قال لمن حوله: إن محمدا يعدنا بأشياء لا نراها كائنة ويزعم أنها كائنة بعد الموت؟ مما يدل على أن النبى ذكر فى مقالته - البعث بعد الموت والحساب فى الآخرة.

وعاد أبو لهب إلى بيته وأخبر زوجته أم جميل بما قال محمد فأيدته فى رفضه لدعوة محمد وملأ الحقد قلبها أن يُختص «محمد» بشرف النبوة دون سادات قريش ودون زوجها بالذات. فضلا عن أنها كانت تحقد على خديجة ولقب «الطاهرة» الذى لقبته بها قريش. وكان فى جيد أم جميل عقد ثمين من ذهب لا يوجد فى مكة مثله جمالاً أو غُلواً فأعلنت أنها ستبيعه وتنفق ثمنه فى الكيد لمحمد لمنعه من إبلاغ دعوته.

سورة المسد :

لم تكن التقاليد العربية تسمح للنبى أن يردَّ على عمه أبى لهب حين قال: تبا لك سائر الأيام. ولا الرد على زوجته أم جميل التى راحت فى كل مجالسها تهجوه وتُسفِّه دعوته. إلا أنه لم يكن مستحبا أن تترك هذه الإهانات بدون رد. ولرفع الحرج عن النبى تولى الوحى الرد على أبى لهب فنزلت سورة المسد:

«تبت يدا أبى لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد» (١ - ٥).

وهكذا فى بلاغة وإيجاز شديد جاء الرد قويا ومُفحما. فمقابل قول أبى لهب «تبًا لك يا محمد» جاء قوله تعالى **«تبت يدا أبى لهب وتب»** أى هلكت يداه وخاب وخسر وضلَّ عمله وهلك هو الآخر. وأن كثرة ماله لن تغنى عنه ولن تمنع عنه العذاب وأنه فى الآخرة سيصلى نارا ذات لهب أى أن كنيته التى كان يُسمَّى بها لاحمرار وجهه ستصبح لهبا حقيقيا يوم القيامة. ثم كانت الإشارة إلى القلادة التى باعتها زوجته لتنفق ثمنها فى إيذاء محمد فسيُطوَّق جيدها فى الآخرة بقلادة من نار. وقيل **«حمالة الحطب»** أنها ستحمل حطبا لتزيد النار اشتعالا. وقيل أيضا إنها كانت تنفخ روح العدواة فى زوجها كلما رأت منه جنوحا إلى التروى والفتور بسبب ما كان يربطه بالنبى من قرابة أو على الأقل رابطة العصبية. وليس بعيدا أن يكون تأثيرها

أحد عوامل شذوذ هذا العم عن سائر أفراد بنى هاشم الذين كانوا ينصرون النبى ويحمونه بالرغم من أنهم لم يكونوا قد استجابوا لدعوته.

ويلغت هذه الآيات أبا لهب وزوجته ولاشك أنهما بهتا من شدة ما توعدهما به الوحي من عذاب في الآخرة وتعجبًا من قوة الرد وعنفه وبلاغته وشدة إيجازه.

طلاق رقية وأم كلثوم :

وذاعت سورة المسد فى مكة كلها وتناقلها الناس فاربد وجه أبى لهب واستبد به الحنق والغضب فبعث فى طلب ولديه عتبة وعتيبة وقال لهما إن محمدا قد سبه وسب أم جميل والدتهما ثم حرضهما على طلاق زوجتيهما ابنتى محمد. فذهب عتبة إلى محمد وهو جالس فى المسجد وسبه وسب إلهه ورد عليه ابنته رقية أى طلقها فقال النبى: اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك. وكان أبو طالب حاضرا فوجم وقال: ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة. وقام عتيبة هو الآخر بتطليق أم كلثوم.

ويروى أن عتبة بعد أن بلغه هذا التهديد أصبح لا يمشى إلا ومعه عصا غليظة ويتلفت كثيرا خلفه خشية أن يتبعه كلب فيعقره. كما أنه امتنع بعض الوقت عن متابعة قوافله التجارية خشية الحيوانات الضارية. ولكنه بعد فترة تشجع وخرج فى قافلة وكان أصحابه يحيطون به ليحموه من أى عدوان. وفى إحدى الليالى خرج لقضاء حاجته مع اثنين من أصحابه فقفز عليه أسد انتزعه من بنى أقرانه وفتك به.

والحقيقة أن قريشا كانت قد مهدت الطريق لطلاق ابنتى النبى إذ كانوا قد قالوا لأبى لهب وابنيه: إنكم قد فرغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته واشغلوه بهن. ومشوا إلى أصهار الرسول الثلاثة وقالوا لهم واحدا بعد الآخر: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت. فأما أبو العاص فأبى. وأما ابنا أبى لهب فلم يكونا فى حاجة إلى سعى قريش فى هذا الشأن فقد تكفلت أم جميل والدتهما بالأمر حين أقسمت ألا يظلها وابنتى محمد سقف واحد. ومازالت بأبى لهب تحرضه حتى قال لولديه: رأسى من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد. ولعل أبا لهب ارتأى أيضا أن لا تكون هناك مصاهرة تمنعه من تنفيذ ما كان يدور فى رأسه من تدابير لإيذاء النبى. فما رؤى أحد أشد عداوة منه ومن زوجته أم جميل للنبى ولا بلغ أحد من أذاه ما بلغا ولا سمع أن أحدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم مثل ما فعل أبو لهب.

إسلام أبى بكر :

قلنا سابقا (ص ٤٦) إن أول من أسلم كان خديجة ثم على بن أبى طالب من أهل بيت النبى ثم أسلم بعدهما زيد بن حارثة أو زيد بن محمد. ولاشك أن مقالة النبى عند الصفا قد بلغت أبا بكر وراح يفكر فيها فمحمد هو أصدق أصدقائه ولم يعهد عليه كذبا قط فى جد أو

فى مزاح. وراح يفكر فى النفر القليل من قريش الذين نبذوا عبادة الأصنام وراحوا يبحثون عن دين آخر أقرب إلى العقل والمنطق. ووسط هذه الدوامة من الأفكار التى كانت تجول بخاطره قابله محمد وقال له إنه رسول الله ونبيه بعثه الله ليبلغ الناس. ودعا أبا بكر إلى الله وحده وأن لا يعبد أحدا غيره فأسلم أبو بكر فى الحال. وقد قال رسول الله فيما بعد: ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر. ما عكم (أى ما تلبث) عنه حين دعوته ولا تردد فيه.

دعوة بنى عبد المطلب للإسلام :

ثم نزل قوله تعالى : **«وأنذر عشيرتك الأقربين»** (٢١٤ - الشعراء) . فبعث النبى إلى بنى عبد المطلب للغذاء عنده. فحضروا وكان فيهم أبو لهب. فقام رسول الله وخطبهم قائلا: إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم. ولو غررت بالناس جميعا ما غررتكم. والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. والله لتموتُنَّ كما تنامون ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون ولتحاسبُنَّ بما تفعلون. ولتجزوُنَّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو النار أبدا. والله يابنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة.

فتكلم القوم كلاما لينا إلا أن أبا لهب قال: يابنى عبد المطلب، هذه والله السوءة. خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم. فقالت له أخته صفية، أى أخى. أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟ فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ أى من صلب عبد المطلب نبى فهو هو. فقال أبو لهب فى ضيق: هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى المجال. إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس. وقال أبو طالب: فوالله لنمنعَنَّه ما بقينا. وأحسَّ «محمد» صدق تأييد عمه أبى طالب فبعد أن انفضَّ الاجتماع ذهب معه إلى داره وخاطب بنيه قائلا: إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة فقال: «وأنذر عشيرتك الأقربين» وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله. ولم يردَّ عليه أحد إيجابا أو سلبا فانصرف النبى إلى داره. ولم يؤمن به إلا علىّ وكان - كما سبق أن ذكرنا سابقا - يعيش فى دار محمد ولكنه كتم إيمانه عن إخوته.

أبو لهب وأبو جهل :

ومرت الأيام ويكرر محمد الدعوة لدين الله ويسير خلفه أبو لهب يخبر الناس أنه عمه ويحذِّرهم من تصديق ما يقول ويزعم لهم أنه مجنون أو أنه مسحور. وكان ينضم إليه آخرون من سادات قريش وأغنيائها. فقد تصوروا أن ترك ديانة الآباء ستجعل العرب ينصرفون عن البيت الحرام فتبور تجارتهم وهى مصدر ثرائهم.

وكان عمرو بن هشام أو أبو الحكم بن هشام بن المغيرة المخزومى (انظر سلسلة النسب شكل ٩ ص ٢٠) – والذى يعرف فى التاريخ الإسلامى بأبى جهل – من كبار الزعماء وأشد أعداء النبى والمؤلبين عليه. وقد رُوِىَ أنه تصدى للنبى وأغلظ له ونهاه عن دعوة الناس لدين الله فتوعده محمد بعذاب من الله. وروى أن أبا جهل قال: علام يتوعَّدنى محمد وأنا أكثر أهل الوادى ناديا؟ ثم قال: واللات والعزَّى لئن رأيته يصلى ثانية لأطأنَّ عنقه ولأعفِّرنَّ وجهه. ولكن النبى لم يأبه لهذا التهديد واستمر على الصلاة فى فناء الكعبة فرآه أبو جهل وتقدم نحوه ليطأ عنقه ولكنه لم يلبث أن نكص على عقبيه رافعا يديه كأنما يقى بهما نفسه. فقيل له مالك؟ فقال إن بينى وبينه خندقا من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله: لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا.

وتصف بقية سورة العلق هذا المشهد:

«كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. إن إلى ربك الرجعى. أرأيت الذى ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذَّب وتولَّى. ألم يعلم بأن الله يرى. كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدع ناديه. سندع الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب» (٦ – ١٩ العلق).

وهنا – مرة أخرى – تولى القرآن الكريم الرد على أبى جهل بقوة وحزم شديدين بادئا بتحدٍّ عنيف «كلاً» ثم تنديد بغنى أبى جهل الذى جعله يطغى. ثم تذكير بأن هناك رجعة إلى الله وبالطبع سيكون هناك حساب. ثم تساؤل استنكارى لما يفعله من نهى محمد «عبدا» عن الصلاة. وقيل فى الكلام حذف والمعنى: هل أمِنَ من العقوبة. ثم سؤال مُوجَّه إلى أبى جهل مفاده: فما قولك إن كان محمد على الهدى ويأمر بالتقوى. ثم ينتقل الخطاب إلى النبى – ومعه كل السامعين – فى صيغة سؤال لتقرير واقع وهو أن أبا جهل كذَّب وتولى معرضا ثم سؤال توبيخ عن إنكار أبى جهل لهذه الحقيقة **«ألم يعلم بأن الله يرى»** والمعنى أن الله يراه وسيحاسبه على أفعاله هذه. ثم تهديد فى غاية الشدة وتحذير من التمادى فى هذا المسلك **«كلا لئن لم ينته»** وهو قسم والمعنى: والله لئن لم ينته. **«لنسفعا بالناصية»**. وفى اللغة سفعت الشيئ أى قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا. والمعنى أن أبا جهل سيُجذب من ناصيته يوم القيامة ويُسحب إلى النار وهى ناصية رأس مكذِّبة بالحق خاطئة أى متعمِّدة الخطأ فى فعلها. ثم ردٌّ على قول أبى جهل أنه أكثر ناديا فى صورة دعوة له ليدعو عشيرته وأهل مجلسه الذين يستنصر بهم وفى مقابلهم سيدعو الله الزبانية وهم ملائكة العذاب والمفهوم أن الملائكة هم الأقوى. ثم يأتى تحذير ثان **«كلا»** أى ليس الأمر كما يظن أبو جهل. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى **«لا تطعه واسجد واقترب»** أى لا تطعه فى ترك الصلاة وصلِّ لله واسجد إذ أنه بذلك يزداد قربا من الله. روى عن أبى هريرة أن النبى قال: أقرب ما يكون العبد من ربه وأحبُّه إليه جبهته فى الأرض ساجدا له.

وهذه الآيات - وإن كانت قد نزلت بصدد حادثة معينة إلا أنها تنطبق على كل من ينهى شخصا عن الصلاة أو أى نوع من العبادات - وأمر النبى بأن توضع هذه الآيات بعد آيات «اقرأ باسم ربك الذى خلق» وبهذا اكتملت سورة العلق. ولاشك أن أبا جهل لما بلغته هذه الآيات تزلزل كيانه من هذا التهديد العنيف وزاد من الخوف الذى انتابه حين رأى نارا تحول بينه وبين إيذاء النبى. فكان بعد ذلك إذا رأى النبى يصلى الله عند الكعبة لا يتعرض له.

من أسلموا على يد أبى بكر :

كان أبو بكر رجلا مألوفا لقومه محبا سهلا وكان تاجرا ذا خلق ومعروفا بين الناس بالصدق. وكان أعلم الناس بأنساب قريش. وكان رجال قومه يأتون مجلسه ويأنسون لحديثه. فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به ويتوقع منه الاستجابة فأسلم على يديه كثيرون أهمهم خمسة من رجالات قريش هم: الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وانطلق بهم إلى رسول الله فأسلموا على يديه وقرأ عليهم ما كان قد نزل من القرآن الكريم.

ويروى طلحة بن عبيد الله عن إسلامه أنه كان فى سوق بصرى فإذا راهب فى صومعته يقول: سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال ومن أحمد؟ قال هو آخر الأنبياء وهذا شهره الذى يخرج فيه. مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ. فإياك أن تُسبَقَ إليه. قال طلحة فخرجت مسرعا حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا. نعم محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ وقد اتبعه أبو بكر. قال فخرجت حتى قدمت على أبى بكر. فقلت: اتَّبعت هذا الرجل؟ قال نعم فانطلق إليه واتبعه فإنه يدعو إلى الحق. وخرج أبو بكر بطلحة إلى رسول الله وأسلم طلحة.

سورة الفاتحة :

علم الله سبحانه وتعالى أن الناس يتفاوتون فى قدراتهم الذهنية. وسيكون بين المسلمين العالم والجاهل. وسيكون بينهم البليغ ومن لا يستطيع أن يُعبِّر عما فى نفسه فكان من رحمة الله بعباده أن أنزل هذه السورة - سورة الفاتحة - وأوجب تلاوتها فى كل ركعة فى الصلاة ليتساوى الناس فى القراءة ويكون التفاضل فى تدبُّر معانيها والقدر الذى يُقرأ بعدها من القرآن الكريم.

وبالرغم من أن السورة تعتبر من قصار السور إلاَّ أن معانيها من العظم بحيث أنها تسمى **«أم الكتاب»** و **«السبع المثانى»** لقوله تعالى: **«ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم»** (٨٧ - الحجر). ولكن الغالب على تسميتها هو **«الفاتحة»** لأنها مفتتح السور القرآنية فى ترتيب المصحف ثم إنها مفتتح التلاوة القرآنية فى كل ركعة من ركعات الصلاة. ويرى البعض أنها

أول سورة نزلت تامة وأنها احتوت رموزا لكل ما جاء فى القرآن من مواضيع ففيها التوحيد وفيها الثناء على الله وفيها حث على قصر العبادة لله وحده والاستعانة به. وفيها إشارة إلى اليوم الآخر وإشارة إلى الأمم السابقة على اختلافها من مهتدين ومغضوب عليهم وضالين وفيها إشارة إلى ملكوت الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (١ - ٧).

والبسملة فى أول الفاتحة آية معدودة وفى حديث روى عن أبى هريرة أن النبى قال: إذا قرأتم أم القرآن فلا تَدَعُوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها. ثم جُعلت البسملة فى أوائل السور الأخرى تُفتح بها السورة وكفاصلة بين السورة والسورة التالية لها ولذلك لا يجهر بها الإمام عند قراءة السورة التى تلى الفاتحة. وعن ابن عباس أن النبى كان إذا جاءه جبريل فقرأ **«بسم الله الرحمن الرحيم»** علم أنها سورة جديدة. ويروى عن ابن مسعود قوله: كنا لا نعلم فصلا بين سورتين حتى نزلت «بسم الله الرحمن الرحيم» ولما نزل بعد ذلك قوله تعالى: **«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم»** (٩٨ - النمل) وجب قول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قول بسم الله الرحمن الرحيم عند البدء بقراءة القرآن الكريم.

وفى حديث بإسناد عن أبى هريرة أن النبى عليه الصلاة والسلام قال: يقول الله عز وجلّ قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فإذا قال **بسم الله الرحمن الرحيم** قال الله تعالى: مجّدنى عبدى. وإذا قال **الحمد لله رب العالمين** قال الله حمدنى عبدى وإذا قال **الرحمن الرحيم**. قال أثنى علىّ عبدى فإذا قال **مالك يوم الدين** قال الله تعالى فوّض إلىّ عبدى. وإذا قال **إياك نعبد وإياك نستعين**. قال الله تعالى هذا بينى وبين عبدى. وإذا قال **اهدنا الصراط المستقيم** قال الله تعالى هذا لعبدى ولعبدى ما سأل. (تفسير الألوسى جـ ١ ص ٤٠). ويستحب التأمين على هذا الدعاء بقول «آمين» فى نهاية السورة سواء كان الإنسان مأموما فى صلاة أو يقرأ القرآن تعبُّدا فى غير الصلاة.

بعد ذلك تتابع نزول عدد من السور القصيرة التى تعكس خصائص **القرآن المكى** من قصر الآيات وكثرة المحسِّنات اللفظية من سجع وجناس وطباق. وكان المقصود من ذلك تحدى العرب فيما برعوا فيه من اللغة العربية مما جعل بلغاءهم يحتارون فى تصنيفها. فلا هى شعر ولا هى نثر عادى مرسل. ولها جرس يجذب الأسماع. كما أن السجع فى القرآن يحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق. ذلك أن سجعاته متعانقة مع ما قبلها تحقق روعة المعنى وجمال الصورة وتجانس الجرس وحلاوة الوقع بريئة من التكلف. فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع.

ولما كان العرب – فى مجملهم – فى ذلك الوقت – لا يؤمنون ببعث ولا حياة أخرة لذلك كان التركيز فى السور المكية على ذكر يوم القيامة والتأكيد على البعث بعد الممات. وبعد البعث سيكون حساب على الأفعال وجزاء: فإما جنة أبدا أو عذاب مقيم فى نار جهنم. ووُصف يوم القيامة فى السور المختلفة بأوصاف مختلفة وسُمِّى بأسماء مختلفة. وكثير من السور جاء فيها وصف لما سيحدث من تغير واختلاف فى نواميس الكون عما هى عليه فى الحياة الدنيا وصفًا تقشعر منه الأبدان وتخشع له القلوب وتجعل السامع يفكر مرات ومرات قبل أن يفعل ما يغضب الله فينزل به العذاب الأليم فى ذلك اليوم المهول.

سورة التكوير :

والسورة تتكون من فصلين. الأول فى صدد يوم القيامة وما يصاحبه من انقلاب وتبدل فى نواميس الكون ويذكر هذا الفصل اثنى عشر حدثا تلابس ذلك اليوم. أما الفصل الثانى ففيه توكيد صدق ما أخبر به النبى من صلته بوحى السماء ونفى الجنون عنه أو صلته بالشيطان:

١ – «**إذا الشمس كُوِّرت**» أى سُتِرت وتوقف إشعاعها وساد الظلام.

٢ – «**وإذا النجوم انكدرت**» أى اختل نظامها وتساقطت.

٣ – «**وإذا الجبال سُيِّرت**» أى نُسفت وتفتّتت بعد أن كانت جبالا راسيات.

٤ – «**وإذا العشار عُطِّلت**» أى جفَّت السحب وامتنع مطرها. وقيل النوق العشار تركت مهملة من شدة الهول.

٥ – «**وإذا الوحوش حُشرت**» أى جمعت من كل ناحية.

٦ – «**وإذا البحار سُجِّرت**» تفجَّرت والتهبت نارا.

وقد أثبت العلم الحديث عن طريق دراسات الموجات السيزمية التى تحدث مع الزلازل أن لب الأرض فى حالة شبه سائلة تحت القشرة اليابسة Crust (شكل ١٢) وفى المركز لب صلب هو الذى ينتج عنه المجال المغناطيسى للكرة الأرضية. والطبقة شبه السائلة ثقيلة الكثافة فهى أشبه بالقطران السائل أو العسل الأسود السميك وترتفع درجة حرارته كلما اتجهنا إلى المركز. وذلك مشاهد عند حدوث البراكين إذ تندفع الحمم البركانية السائلة المرتفعة الحرارة وترتفع ألسنة اللهب من فوهة البركان الثائر. وهذه المعلومات العلمية الحديثة تؤكد صدق الحديث الشريف القائل: إن تحت البحر نارًا.

٧ – **وإذا النفوس زُوِّجت**» أى عادت الأرواح إلى الأبدان بعد مفارقتها.

٨ – «**وإذا الموءودة سئلت. بأى ذنب قتلت**» وهو تنديد بالعادة الجاهلية التى كانت تمارس فى ذلك الوقت من دفن الإناث أحياء خشية جلبهن العار لقومهن.

شكل ١٢ – قطاع طولى فى الكرة الأرضية .

٩ - «وإذا الصحف نُشرت» وهو توكيد بأن هناك ملائكة كَتَبة يكتبون أفعال البشر في صحف لا ترى ولكنها ستنشر في ذلك اليوم ويحاسب الإنسان على أعماله.

١٠ - «وإذا السماء كُشِطت» أي تمزقت وأزيلت معالمها، ونزعت نجومها كما ينزع الجلد من الشاة.

١١ - «وإذا الجحيم سُعِّرت» أي أوقدت وتوقدت نارها بشدة لاستقبال المجرمين.

١٢ - «وإذا الجنة أُزلفت» أي قُرِّبت بنعيمها من الصالحين.

«علمت نفس ما أحضرت» وهذا هو جواب الشرط «إذا» الذي تكرر ١٢ مرة والمعنى أنه في ذلك الوقت تطّلع كل نفس على ما عملت لأنه مكتوب في صحيفتها، والحساب سيتم على أساس هذه الأعمال.

بعد ذلك جاء قسم لم تعهده العرب من قبل فقد كان العرب يقسمون بآلهتهم فيقولون واللات والعزى فجاء القرآن بقَسَم بالكواكب والليل والصبح وغيره من مظاهر الكون. وجاء مسبوقا بحرف «لا»، وتقول بعض كتب التفاسير إن «لا» زائدة، ويرى الشيخ متولي الشعراوي أنه لا توجد في القرآن حروف زائدة بل كل حرف له معنى يؤديه، ويرى البعض أنه اختصار لـ «ألا» التنبيهية أو حرف ابتداء بمعنى إني لأقسم أو يكون حرف نفي ليفيد أن الأمر المذكور صحيح وواضح لا يحتاج إلى قسم لتوكيده، وجاء القسم بثلاثة أشياء:

١ - «فلا أقسم بالخُنَّس، الجوار الكُنَّس» والخُنَّس جمع خانس من خَنَس الشيئ إذا سكن واستخفى والمراد النجوم التي تختفي بالنهار كما تستتر الجواري، وتقول العرب أوى الظبي إلى كناسه والوحوش عامة حين تختفي في بيوتها، وقيل هي الكواكب تخفى عن العيون نهارا كأنها كُنِست.

٢ - «والليل إذا عسعس» إذا أقبل ظلامه أو إذا أدبر وانقضى عند طلوع الفجر.

٣ - «والصبح إذا تنفَّس» أي إذا امتد حتى صار نهارا بيِّناً.

ثم يأتي جواب القَسَم ليؤكد على خمس حقائق:

١ - «إنه لقول رسولٍ كريم، ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين، مُطاعٍ ثَمَّ أمين» (١٩ - ٢١).

وجواب القسم فيه تأكيد أن ما يقوله النبي هو من كلام رب العالمين ذي العرش، نزل به رسول كريم هو جبريل عليه السلام «ذي قوة» أي شديد، وقد وُصف في مكان آخر (٥ - سورة النجم - ص ١٩٨) «علمه شديد القوى» وله مكانة رفيعة عند الله ذي العرش، ومطاع في الملإ الأعلى، وهو أمين فيما استؤمن عليه من كلام الله.

٢ - «وما صاحبكم بمجنون» وهي نفي لما اتهم المشركون به النبي من جنون.

٣ – **«ولقد رآه بالأفق المبين»** وهو تأكيد على أن النبى قد رأى جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها. رآه فى الأفق كما سبق أن ذكرنا ص ٤٣.

٤ – **«وما هو على الغيب بضنين»** أى أن النبى لا يَضِنُّ ولا يُخفى شيئا من الغيب الذى يوحى إليه. وكان الكهان لا يطلعون الناس على ما يزعمون معرفته من غيب إلا بعد أخذ الحلوان أى أجر الكهانة.

٥ – **«وما هو بقول شيطان رجيم»** وهو نفى أن يكون القرآن من سجع الكهان الذى يوحَى إليهم من الشياطين التى تسترق السمع.

ثم تُختتم السورة بسؤال فيه استنكار وتوبيخ للكفار لتوقعهم أن يكون هناك طريق آخر للنجاة فى ذلك اليوم غير التصديق بالنبى وتقرير ثان بأن الهداية راجعة إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى. وقيل كان ذلك ردا على قول أبى جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم.

«فأين تذهبون. إن هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين» (٢٦ – ٢٩).

ثم نزلت **سورة الأعلى** :

والسورة فيها عرض عام للدعوة وأهدافها ومهام النبى :

«سبح اسم ربك الأعلى» أمر للنبى بتقديس اسم الله. ولما نزلت هذه الآية قال النبى: اجعلوها فى سجودكم ولما نزل بعد ذلك قوله تعالى «فسبح باسم ربك العظيم» (٧٤ – الواقعة)جُعلت فى الركوع فاكتملت كيفية الصلاة من قراءة الفاتحة وما يقال عند الركوع وما يقال عند السجود.

«الذى خلق فسوَّى. والذى قدَّر فهدى. والذى أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى» (٢ – ٥).

وفيها تقرير بأن الله هو خالق كل شيئ. وقد أتقن كل شيئ خلقه وجعل الأشياء على مقادير مخصوصة ومناسبة ووجَّه كل شيئ إلى الوجهة المطلوبة منه. وكمثال أخرج فى المراعى نباتا غضا خضرا ترعاه الحيوانات ثم يصير جافا أسمر اللون يجرفه السيل فيطفو على سطح الماء ويلقيه على جانب الوادى وهو يصلح لإيقاد النار.

«سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى. ونُيسِّرك لليسرى» (٦ – ٨).

وكان النبى يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل خوف النسيان فطمأنته الآيات بأنه لن ينسى شيئا مما يوحى إليه من الله إلاَّ إذا أراد الله أن ينسخ حكما. إن الله يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوال وأفعال وسيوفقه الله الطريقة البالغة اليسر لتبليغ رسالته.

«فذكر إن نفعت الذكرى، سيذّكر من يخشى، ويتجنّبها الأشقى، الذى يصلى النار الكبرى، ثم لا يموت فيها ولا يحيى» (٩ - ١٣).

وعلى النبى أن يُذكرِّ الناس بما فى القرآن من تعاليم وعظة فيستجيب من يخشى الله. أما الشقىَ فيتجنب هذه الهداية وسيكون جزاؤه نارا كبيرة يخلد فيها أبداً فلا هو يموت فيستريح وحياته مع العذاب ليست بحياة.

«قد أفلح من تزكّى، وذكر اسم ربه فصلى، بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفى الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى» (١٤ - ١٩).

وتقرر الآيات أن من طهّر نفسه من الكفر والمعاصى وتابع ما يدعو إليه الدين من الأخلاق الكريمة وذكر ربه وعبَدَه وصلَّى فقد أفلح وفاز. إلا أن غالبية البشر يحبون الحياة الدنيا الفانية فى حين أن الآخرة خير منها ولها صفة الدوام. وليس المطلوب هو الانقطاع إلى العبادة وترك أمور الدنيا ولكن يمكن للمؤمن الاستمتاع بما أحله الله من طيبات الدنيا دون جعلها شغله الشاغل فى سبيلها يرتكب الآثام ويظلم غيره ويعتدى عليهم.

ثم تختم السورة بتقرير أن ما يدعو إليه النبى ليس شيئا جديداً بل هو نفس ما جاء به الأنبياء السابقون وضُرِبَ مثل باثنين هما: إبراهيم والصحف التى أنزلت عليه وموسى وما أنزل عليه من توراة.

ثم نزلت **سورة الليل** :

وقد بدأت السورة بالقَسَم بثلاثة أشياء :

«والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثى» (١ - ٣)

قَسَم بالليل إذا غشى الخليقة بظلامه وبالنهار إذا أشرق وملأ الدنيا بضيائه فأصبح كل شيئ واضحا متجليا. ثم أقسم الله بذاته العلية فهو خالق الذكر والأنثى مثل قوله تعالى: «والسماء وما بناها» أى ومن بناها.

ثم يجئ جواب القسم **«إن سعيكم لشتى»** (٤) والمعنى أن أعمال الناس مختلف بعضها عن بعض، فهناك فريقان من الناس:

«فأمّا من أعطى واتقى، وصدّق بالحسنى، فسنيسّره لليسرى، وأمّا من بخل واستغنى، وكذّب بالحسنى، فسنيسِّره للعسرى، وما يغنى عنه ماله إذا تردّى» (٥ - ١١).

فالفريق الأول يتقى الله ويعطى الصدقات وصدَّق بأن لا إله إلا الله. فهؤلاء سيرشدهم الله للخير وييسر لهم عمل الصالحات. أما الفريق الثانى فهو يضن بما عنده وكذَّب بالله ولم يؤد حق الله فى ماله فسييسِّر له طريق الشر. ولن يغنى عنه ماله الذى بخل به ولن ينفعه إذا تردَّى فى النار فى الآخرة.

«إن علينا الهدى، وإن لنا للآخرة والأولى، فأنذرتكم نارا تلظّى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذى كذّب وتولى، وسيجنّبها الأتقى، الذى يؤتى ماله يتزكّى» (١٢ – ١٨).

وتوضح الآيات أن الله يبين للناس طريق الهداية والمفهوم أنهم إما أن يتبعوه أو يسيروا فى طريق الغواية ولله الآخرة وهو يوم القيامة والحياة الآخرة، والأولى هى الحياة الدنيا. ثم تقرر أن الله أنذرهم على لسان نبيه نارا تلتهب وتتوقد ويرتفع لهيبها وشديدة حرارتها وسيدخلها الشقى الذى كذّب النبى وأعرض عن الإيمان. وسيكون بعيدا عنها التقى الذى ينفق من ماله راجيا زكاته عند ربه. عن أبى هريرة قال قال رسول الله «لا يدخل النار إلا شقى قيل له ومن الشقى؟. قال الذى لا يعمل بطاعة ولا يترك معصية» والأتقى صيغة المبالغة من التقىّ أى المبالغ فى اتقاء المعاصى وتجنبها.

«وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى» (١٩ – ٢١):

وختام السورة فيه بيان أن لا يكون المتصدِّق متوقعا لنعمة مقابل تصدقه بل يجب أن يبتغى وجه الله تعالى فى إنفاقه. وقيل إن فى الآية إشارة إلى ما فعل أبو بكر من شرائه سبعة عبيد – منهم بلال – لينجيهم من العذاب الذى كان ينزله بهم سادتهم، ثم أعتقهم. كل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى. «ولسوف يرضى» أى أن الله سوف يرضى عنهم وعن أعمالهم. وقيل إن الضمير عائد إلى الأتقى الذى سيرضى بما أعد الله له من ثواب ولكن القول الأول أجمل لأن رضا الله عن العبد أعظم من رضا العبد عن ربه (تفسير الألوسى، جـ ٣٠ – ص ١٥٣).

ثم نزلت سورة الفجر :

«والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر» (١ – ٤) :

والفجر معروف وقيل صلاة الفجر – والليال العشر هى العشر الأولى من ذى الحجة، وقالوا الوتر يوم عرفة لأنه التاسع والشفع يوم النحر وهو اليوم العاشر. أما قول البعض بأن المقصود الصلوات منها شفع والمغرب وتر فيضعفه أن الصلوات بكيفيتها وعددها لم تفرض إلا فى ليلة الإسراء فى السنة العاشرة للبعثة، وسورة الفجر نزلت قبل ذلك بكثير. ثم القسَم الخامس بالليل الذى يُسرى فيه أو يسرى أى يذهب فيأتى الفجر الذى بدأ به القسَم.

ثم يأتى جواب القسم «هل فى ذلك قسم لذى حجر» (٥) ووضع فى صيغة سؤال لتقرير عِظَم الأشياء المقسم بها والمعنى: هل فيما ذكر من أشياء ما يراه العاقل «ذى حجر» قسما مقنعا؟

ثم تأتى إشارة إلى أقوام سابقين كذبوا رسلهم فنالهم من الله عذاب عظيم:

«ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد، الذين طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد» (٦ – ١٤).

وفى الآيات إشارة إلى ما حاق بالمكذبين من الأمم السابقة: عاد وثمود وفرعون. ولاشك أن قصص هؤلاء الأقوام كانت معروفة لدى العرب في ذلك الوقت مما سمح بذكر أهم صفة اتَّسمت بها كل أمة. فعاد كانوا من الطول بحيث فاقوا غيرهم من الأمم (انظر الجزء الأول ص ١٤٨). وقد ذكرنا سابقا (ص ٣) ما أسفرت عنه الاستكشافات الحديثة من آثار تدل على حضارة سابقة اندثرت. وثمود كانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ويقطعون الصخور ويجلبونها فى الوادى لمبانيهم. (جـ ١ ص ١٦١). أما فرعون مصر - رمسيس الثانى - فقد أقام من المسلات وهى الأوتاد (انظر الجزء الرابع ص ٧٧٧) عددا يفوق ما أقامه الفراعين الآخرون مجتمعين. ثم ذكرت الآيات أن الله أنزل بهم عذابا جزاء لهم على تكذيبهم رسلهم. وفى هذا تحذير خفى لقريش من عذاب مماثل إذا أصروا على تكذيبهم للنبى.

ثم تستمر الآيات تُبيِّن حال الإنسان الكافر الذى يُقيِّم كل شيئ بما يناله فى هذه الدنيا. فإذا أكرمه الله يفرح ولا يحمد الله وإذا ضُيِّق عليه فى رزقه ظن أن ذلك لهوانه عند الله. وتنفى الآيات هذا الاعتقاد ثم تبين أن ما أصابهم من ضيق رزق كان بسبب سوء أفعالهم: فقد كانوا يمنعون اليتيم ميراثه ولا يحسنون معاملته. ولا يتصدَّقون بالطعام على المساكين ويأكلون بجشع مال مورثيهم فيستولون على نصيب النساء والصبيان مع نصيبهم ويحبون المال كثيرا دون تفرقة بين حلاله وحرامه:

«فأمَّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعَّمه فيقول ربى أكرمن. وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن. كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمًّا. وتحبون المال حبا جمًّا. كلا » (١٤ - ٢١).

ثم يأتى زجر «كلا» وتنبيه إلى ما سوف يكون فى يوم القيامة إذ تندك الأرض اندكاكا شديدا ويجيئ الله لمحاسبة الناس والملائكة واقفين صفا صفا وتتهيأ جنهم لمستحقيها وحينئذ يتذكر الإنسان الذى اقترف أفعالا سيئة ما فعل ولكن الذكرى لن تنفعه لأنه أضاع وقتها ويندم على أنه لم يقدم لحياته الآخرة شيئا من عمل صالح فيصير إلى العذاب ولن يكون له مفلت منه. ولن يحل محله شخص آخر يتحمل العذاب عنه. كما أنه سيوثق بالأغلال ولن يكون له بديل يوثق بدله. أما المؤمنون الصالحون ذوو النفوس الطيبة المطمئنة لما قدمت من صالح الأعمال فى الدنيا فَيُهتف بهم أن لهم من ربهم رضوان ومكانهم بين عباد الله الصالحين ومنزلتهم الجنة:

«كلا إذا دكت الأرض دكًا دكًا. وجاء ربك والملك صفًا صفًا. وجيئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى. يقول يا ليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد. يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى. وادخلى جنتى» (٢١ - ٣٠).

إبطاء الوحى :

كان الكفار ينتظرون كل يوم ما ينزل على النبى من الآيات ويسألون المسلمين عما نزل من القرآن. ولعلهم لاحظوا ما فى السور الأربع السابقة: التكوير والأعلى والليل والفجر من وصف لبعض مشاهد من يوم القيامة جعلتهم - وهم المكذبون بالبعث - يتخيلونه كحقيقة ماثلة أمامهم. كذلك لاحظوا صيغًا من القسم لم يعهدوها من قبل مما جعلهم يتحيَّرون. فهم مقتنعون بأن هذا الكلام لا يماثل كلام البشر ولكنهم فى نفس الوقت لا يريدون الاعتراف بأن «محمدا» نبى يوحى إليه من رب السماء الأرض.

ثم إن الوحى أبطأ على النبى. قالوا ١٢ يوما وقال ابن عباس ١٥ يوما وقيل ٢٥ يوما وقال مقاتل ٤٠ يوما. فقال المشركون إن رب محمد ودَّعه وقلاه ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كانوا قبله من الأنبياء. وكانت دار أبى سفيان قريبة من دار محمد. فجاءت امرأة أبى سفيان وقالت: يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك. لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثة؟

ولما امتدت فترة الوحى إلى أسبوعين أو ثلاثة أو أكثر حسب ما رووا ثار القلق فى نفس النبى من أن يكون الله قد تخلَّى عنه بالرغم من أنه لم يقصِّر فى الدعوة إلى الله. ولعل النبى زاد من اجتهاده فى العبادة والتضرع إلى الله فنزلت سورة الضحى تنفى ما تقوَّل به الكفار من تخلِّى الله عنه:

سورة الضحى :

«والضحى. والليل إذا سجى. ما ودَّعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى» (١ - ٥).

وقد افتتحت السورة بقسمين يعبران عن وقتى النشاط والسكون: الضحى وهو وقت ارتفاع الشمس والنشاط فى العمل والليل إذا سكن وامتد ظلامه وخلد الناس للنوم والراحة. ثم يأتى جواب القَسَم ليؤكد أن رب محمد لم يتركه ولم يبغضه. وتُقرأ «ما ودَّعك» من ودَّع كتوديع المفارق. وتقرأ أيضا بالتخفيف «ما وَدَعَكَ» من ودع يدع أى يترك.. ثم تؤكد الآيات على أن ما يُعدَّه الله له فى الآخره من منازل الرفعة خير مما يكرمه به فى الحياة الدنيا. وأن الله سوف يعطيه من النعم ما يرضيه.

ثم راحت الآيات تُعدِّد نعم الله عليه فيما سبق:

«ألم يجدك يتيما فآوى» وهى إشارة إلى يتمه وكفالة جده المطلب ثم عمه أبى طالب من بعده. **«ووجدك ضالا فهدى»**. وضالاً بمعنى غافلا لقوله تعالى فيما بعد **«وإن كنت من قبله لمن الغافلين»** (٣ - يوسف).

وقد روى أنه أخذ ينشأ فى بيئة النبى قبل مبعثه – عدد من العقلاء ساورهم الشك فى صواب ما عليه قريش والعرب من عبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن السبيل الحق ومنهم من اعتزم الطواف فى الأرض للبحث عن ملة إبراهيم ليسير عليها وأن النبى التقى ببعض هؤلاء وأنه راح هو الآخر يبحث ليتعرَّف إلى ملَّة إبراهيم ليسير عليها. ثم كان له من صفاء النفس وذكاء العقل وقوة القلب وعظيم الخلق ما أهلَّه للاصطفاء للنبوَّة وانتدابه للمهمة العظمى.

«ووجدك عائلا فأغنى» هى إشارة إلى تواضع حالته المالية فى شبابه حتى إنه كان يرعى الغنم لبعض سادات قريش لقاء أجر. ثم كان أن وفَّقه الله للزواج من السيدة خديجة التى أغنته بمالها فتمكن من التفرغ للاعتكافات الروحية التى مهَّدت الطريق إلى النبوة.

ثم تُختم السورة بثلاثة أوامر للنبى ولكنها قواعد عامة لكافة المسلمين:

«فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدِّث» (٩ – ١١).

وتكملة للنعم التى أنعم الله بها على نبيه جاءت سورة الشرح حتى إن بعض الروايات تذكر أن بعض الصحابة كانوا يتلون سورة الضحى والشرح معا بدون فاصل بالبسملة. غير أن الترتيب المأثور عن النبى أنهما سورتان منفصلتان.

سورة الشرح :

«ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك. فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا. فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب» (١ – ٨).

وأسلوب السورة فيه تذكير للنبى بما أنعم الله عليه من شرح الصدر بما أودع الله فيه من الهدى والإيمان. وخفف الله عنه ما أثقل ظهره من أعباء الدعوة بمساندته وتيسير أموره. كما أن الله رفع ذكره باختصاصه بالنبوة وجعل اسمه مقرونا باسم الله تعالى فى الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» اللتين تتكرران فى الأذان لكل صلاة. وتدل الآيات أن النبى كان يلقى من قريش صداً وعسرا شديدين وكان يعتلج فى نفسه بسبب ذلك هم وغم شديدان. فتكرر التوكيد على أنه سيكون بعد العسر يسرا أى أن الأمر سينتهى إلى اليسر والنجاح. وتختم السورة بأمر النبى – إلا أنه توجيه مندوب لكل فرد من أمته – وهو إذا فرغ من أمور الدنيا ومشاغلها فعليه أن ينصب إلى العبادة ويتجه إلى الله وحده بمسألته وحاجته.

جزء من سورة المزمِّل :

أخرج الحاكم أنه بعد نزول صدر سورة المزمِّل – والذى ذكرناه ص ٤٧ – بسنة تقريبا نزل باقى السورة إلا الآية الأخيرة فإنها مدنية على قول الجمهور (تفسير الألوسى . جـ ٢٩ . ص ١٠٠).

«واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا. وذرنى والمكذبين أولى النَعمة ومهِّلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعامًا ذا غُصَّة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا» (١٠ – ١٤).

والآيات فيها أمر للنبى بالصبر على ما يقوله المشركون وأن يهجرهم ولا يحاول الرد على أقوالهم وأفعالهم بل يغضى عنهم برفق. **«وذرنى»** أى يترك أمرهم لله – ومعظم المكذبين هم من الأغنياء المترفين الذين يتمتعون فى نعم الله – وأن يخبرهم أن الله يمهلهم زمنا قليلا. حتى يرتدعوا فيؤمنوا أو يمهلهم مدة الحياة الدنيا ثم بعد ذلك لهم عذاب أليم متمثل فى **«أنكالا»** والنكل هو القيد الثقيل الشديد و **«جحيما»** أى نارًا شديدة الإيقاد. **«وطعاما ذا غصة»** أى طعاما يقف فى الحلق لمرارته وعدم إستساغته. والطعام إذا وقف فى الحلق سبَّب شبه اختناق أى غُصَّة. **«وعذابا أليما»** أى أنواعا أخرى من العذاب لم توضَّح لعجز العقل البشرى عن تصوُّر ماهيتها. وسيكون ذلك كله يوم القيامة. يوم تهتز الأرض وتصبح الجبال – على صلابتها – رخوة مثل تل من الرمال إذا وطئته الأقدام انهال من تحتها. وهذه الإشارة إلى بعض المشاهد الكونية التى ستحدث يوم القيامة قصد بها التدليل على قدرة الله الذى خلقها وسواها أول مرة وهو قادر على تغيير حالها وفى هذا إنذار للمكابرين المعاندين بسوء العاقبة إن ظلوا على جحودهم فهم ليسوا أعظم من الجبال.

«إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا. فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء مُنفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» (١٥ – ١٩ المزمل).

والخطاب موجَّه إلى سامعى القرآن الكريم وبالأخص إلى المكذبين يقرر لهم أن الله قد أرسل لهم رسولا شاهدا على أفعالهم وتكذيبهم كما سبق أن أرسل موسى إلى فرعون. فلما كذَّب فرعون الرسول أخذه الله أخذًا شديدًا وأغرقه. ثم سؤال عن الوسيلة التى سيتقون بها – إذا أصروا على كفرهم – هول يوم القيامة الذى يشيب الأطفال من هوله وتتصدَّع فيه السماء وهذا وعد من الله مؤكدٌ حدوثه. ثم تختم هذه الفقرة بالتأكيد على أن القرآن هو تذكرة وإنذار والناس بعد ذلك موكولون إلى اختياراتهم فمن شاء أن يتعظ صدَّق الرسول وآمن والمفهوم أن من لم يفعل سيكون عليه أن يتحمل تبعة اختياره وما يستتبعه من عذاب أليم. والإشارة المقتضبة إلى قصة فرعون مصر وموسى – الرسول الذى أرسل إليه – تدل على أن العرب كانوا على دراية بها إما ممَّا ذكر فى كتب أهل الكتاب من يهود ونصارى وكانوا يتحدثون به أو مما سمعوه من أهل مصر أثناء رحلاتهم التجارية. فكان التركيز على أن فرعون كذَّب موسى فأخذه الله أخذا أليما وأُغرِق فى اليم وهى ميتة شنيعة.

إسلام عدد آخر :

بعد نزول هذه السور – وخاصة سورة الشرح التي وعد الله بها بأن بعد العسر يسرا وتكررت مرتين – وحث النبي على الصبر على أذى الكفار نشط المسلمون الأوائل في الدعوة إلى الإسلام فدخل كثير من الناس في دين الله ومن بين من أسلم من القرشيين: أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة المخزومي والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة. وجعفر بن أبي طالب. ومن النساء: أسماء بنت أبي بكر وهند المخزومية وفاطمة أخت عمر بن الخطاب وأمنية بنت خلف وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب. ومن العبيد الذين أسلموا: بلال بن رباح وياسر وابنه عمَّار وصهيب الرومي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر. ومن نسائهم: بركة أم أيمن مولاة النبي وسُمية أم عمَّار وغيرهن كثيرات.

وبدأ الحديث يكثر بين الناس في بيوتهم وأنديتهم عن الدين الجديد الذي لا يسجد أتباعه للأصنام. وكان رؤساء قريش وسادتها يسمعون ذلك ولكنهم كانوا لا يبدونه اهتمامًا. وكانوا إذا مرُّوا بالرسول وهو جالس بجوار الكعبة قالوا هازئين: إن غلام بني المطلب ليُكلَّم من السماء.

واستمرت الدعوة الإسلامية تنتشر ببطء. ورأى النبي بسامي حكمته أن يتخذ مقرا يجتمع فيه مع المسلمين ليعلمهم مبادئ الدين الحنيف ويتلو عليهم ما ينزل عليه من سور القرآن الكريم ويعيدون تلاوتها أمامه حتى يتأكد من أنهم حفظوها وينطقها الذي أنزل عليه. واختار النبي هذا المقر في بيت عند الصفا يملكه عبد الله الأرقم بن أبي الأرقم. وظلت تلك الاجتماعات سرية لا يعلم غير المسلمين عنها شيئا.

ثم نزلت السور تباعًا. فنزلت أحد عشرة سورة من قصار السور:

سورة العصر :

«والعصر. إن الإنسان لفي خُسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» (١ – ٣).

والسورة – على قصرها – جاءت بأسلوب حاسم قوي تؤكد للناس أن لا فلاح ولا نجاح إلا بالإيمان بالله وحده. وبدأت السورة بقَسَم بالعصر وهو آخر ساعات النهار وقيل العصر هو الزمان على إطلاقه تقع فيه حركة الإنسان خيرا كانت أم شرا. وجواب القَسَم أن كل انسان في نوع من الخسران لما يغلب عليه من الأهواء والشهوات واستُثنيَ من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا على الطاعات وأوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق وهو الخير كله وتواصوا بالصبر على المشاق التي تعترض من يعتصم بالدين. فهؤلاء ناجون في الدنيا والآخرة.

سورة العاديات :

«والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعًا. فوسطن به جمعا. إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد. أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور. وحُصِّل ما فى الصدور. إن ربهم بهم يومئذ لخبير» (١ - ١١).

يقسم الله تعالى فى هذه السورة بالخيل. التى تعدو مسرعة فيسمع لأنفاسها صوت هو الضبح. كما أنها إذا أسرعت على الصخر فإنها تورى شرر النار بوقع حوافرها. وهى تغير على العدو عند الصبح فتثير النقع وهو الغبار الكثيف كناية عن كثرة الكرّ والفرّ وشدة العدْو حتى يتوسط الغبار القوم الذين أُغير عليهم. وهذه الصورة البلاغية تُجسِّد إغارة عدو على بعض القوم. وهو ما كان العرب دوما يخشونه فهو أمر عظيم يستحق القسم به. ثم يجئ جواب القسم ليقرر حقيقةً هى من طباع البشر وهو الكفر بنعمة الله. وقد روى حديث شريف أن الكنود هو الذى يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده. وأن ذلك الإنسان الجاحد سيشهد على نفسه بذلك ويعترف بذنوبه. كذلك من طباع البشر الحب الشديد للمال بحيث لا يهتم من أى طريق جمعه وحريص عليه وبخيل به.

وتختتم السورة بسؤال تقريرى عن يوم القيامة معناه: أجَهِلَ عاقبة أمره فلا يعلم إذا نُشر ما فى القبور من أجساد ونشر ما كان خافيا فى الصدور وقد سُجِّل فى الصحف ؟ وجواب الاستفهام تقرير بأن الله عليم بكل شيئ والمفهوم أن الحساب الذى سيتم على أساس من هذا العلم سيكون حسابا عادلا. فالسورة فيها زجر للإنسان عن الكفر بنعمة الله أو التكالب على جمع المال والتيقن من أن الحساب فى الآخرة سيكون حسابا دقيقا وعادلاً.

مولد عبد الله ووفاته :

كانت قد مرت سنتان من مبعث النبى ووضعت خديجة ولدا ذكرا هو عبد الله وفرحت به خديجة أيما فرحة واعتبرته عوضا عن القاسم الذى توفى قبل ١٢ عاما (ص ٣٧) وفرح به النبى أيضا وحمد الله على نعمائه. ولكن بعد أشهر قليلة مرض عبد الله ولم يمهله القدر فلحق بأخيه القاسم وحزنت عليه خديجة حزنا شديدا إذ كانت تتمنى أن ترزق بولد تقر به عين زوجها. ولا شك أن النبى حزن أيضا لوفاة عبد الله ولكنه صبر واحتسب مصابه عند ربه.

وفرح المشركون لوفاة ابن النبى وقال بعضهم: إن محمداً أبتر - أى ليس له ولد ذكر - فإذا مات انقطع ذكره واسترحنا منه. وواضح أن هذا القول أحزن النبى فنزل الوحى بسورة فيها رد على قول الكافرين وهى:

سورة الكوثر :

«إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر» (١ - ٣).

وروى حديث أن النبى قال لأصحابه: أتدرون ما الكوثر؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة. وقيل إن الآية الثانية نزلت فى الحج. قال أنس كان النبى ينحر ثم يصلى فأُمِرَ أن يصلِّى ثم ينحر.

ثم نزلت سورة التكاثر :

«ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين. لَتَرَوُنَّ الجحيم. ثم لترونّها عين اليقين. ثم لتُسألُنَّ يومئذ عن النعيم» (١ – ٨).

والسورة تعيب على المشركين أن شغلتهم المباهاة بكثرة المال والولد عن طاعة الله حتى ماتوا ودفنوا فى المقابر وعبِّر عنه بـ «**زرتم المقابر**» لأن الإقامة فى القبر إقامة مؤقتة فالقبر ليس إلا برزخا لما وراءه من حياة آخرة. ثم تنفى الآيات اعتقاد المشركين بأن الموت هو نهاية المطاف بل تقرر لهم أنهم سوف يعلمون. ثم يتكرر اللفظ توكيدا له. ثم تحذير لهم من أنهم لو يعلمون حقا ما ينتظرهم يوم القيامة. ثم تأكيد بأنهم سيشاهدون الجحيم وسيرونها عيانا وتأكيدا آخر بأنهم سيسألون عما فعلوا بالنعم التى أوتوها فى الحياة الدنيا.

ثم نزلت سورة الماعون :

«أرأيت الذى يكذِّب بالدين. فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين. فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراءون. ويمنعون الماعون» (١ – ٧).

وبدأت السورة باستفهام أريد به تشويق السامع إلى تعرف ذلك المكذِّب ليتجنَّب فعله. كما أن فيه تعجب من أمر ذلك الذى يكذب بيوم القيامة والمعنى أن تلك حقيقة لا يجوز التكذيب بها. والجواب المضمر هو أليس مستحقا للعقاب؟ كما أنه يتصف بصفتين: نهر اليتيم وقيل نزلت فى أبى جهل وكان وصيا على يتيم وسأله شيئا من ماله فنهره. كذلك من صفات ذلك المكذب أنه لا يحث على إطعام المساكين وقيل قُصد بها أبو سفيان. كان ينحر جزورين كل أسبوع ولا يعطى المساكين منها شيئا. وعلى العموم فهو تنديد بكل من أتى أيًا من هذه الأفعال. وأضيف إليهم فريق آخر أعلنوا إسلامهم ولكن أفعالهم لا تدل على إيمان حقيقى. وذكرت الآيات ثلاثة من أفعالهم:

١ – الذين يغفلون عن صلاتهم. وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله قال: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا.

٢ – «**الذين هم يراءون**» أى ما دفعهم إلى الصلاة إلا مراءاة الناس. كما أنهم يبالغون فى إظهار أعمالهم لينالوا المنزلة فى قلوب الناس والثناء عليهم.

٢ – «**ويمنعون الماعون**» أى يضنُّون بما عندهم عن الناس حتى ولو بإعارة ما يُنتفع به مع رجوع عينه إليهم فهؤلاء بالمثل يمتنعون عن مساعدة الناس أو إسداء المعونة لهم.

ثم نزلت **سورة الكافرون** :

عن ابن عباس أن قريشا كررت الدعوة لرسول الله إلى أن يعطوه من أموالهم حتى يكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء وقالوا هذا لك يا محمد وتكفُّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فنزل قوله تعالى:

«قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولى دين» (١ – ٦).

وفى السورة أمر من الله للنبى بأن يقطع أطماع الكافرين فى مساومتهم إياه فى دعوة الحق. وجاء التكرار ليفيد أن ما يطمعون فيه لن يحدث حاليا ولن يحدث فى المستقبل. كما أن الآيات فيها تهديد مستتر إن أصرُّوا على عقيدتهم الفاسدة والمعنى أن لكم دينكم وعليكم أن تتحملوا تبعة تمسككم به.

ولما لم يرعَوِ زعماء قريش عن عنادهم ولم يتعظوا حين ذُكِّروا بالأقوام السابقين: عاد وثمود وفرعون الذين ورد ذكرهم فى سورة الفجر (آية ٦ – ١٤ ص ٦٠) رؤى أن يُذَكَّروا بحدث قريب منهم وهو ما حدث فى عام الفيل من هلاك جيش أبرهة الذى أراد سوءا بالبيت العتيق وقد سبق أن ذكرناه (ص ٢٧) والحدث كان قد مر عليه حوالى ٤٢ أو ٤٣ سنة وكان هناك عدد من كبار السن الذين حضروه وكثيرون سمعوا عنه من آبائهم. والمعنى أن الله الذى صبَّ بلاءه على الأحباش ومزَّقهم شر ممزَّق قادر على أن يصب بلاءه على الكفار والمكذبين للنبى من قريش.

فنزلت **سورة الفيل** :

«ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول» (١ – ٥).

ثم تلتها **سورة قريش** وهى أيضا التالية لها فى ترتيب المصحف :

«لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء الصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (١ – ٤).

وكثير من المفسرين يرون السورتين مرتبطتين ولا فاصل بينهما وإن كان المشهور أنهما سورتان منفصلتان. والمعنى أن الله سبحانه وتعالى فعل ما فعل بأصحاب الفيل نعمة منه على قريش لكى تأمن ويستمروا على الخروج كعادتهم فى رحلتى الشتاء والصيف – شتاء إلى اليمن وصيفا إلى الشام – فلا يجترئ عليهم أحد أو يهدد تجارتهم.

معتقدات العرب في الكائنات الخفية والسحر والحسد:

كان العرب يخافون من الظلام ويعتقدون أن الجن يظهرون ويتعرضون الناس فيه حتى إنهم كانوا إذا نزلوا واديا بالليل هتفوا مستعيذين ومستجيرين بسكان الوادى من الجن ليكونوا فى جوارهم فلا يضرونهم بل يعملون على حمايتهم. كذلك كان هناك سحرة وساحرات يعتقد الناس أن لهم قدرات خارقة ولهم مقدرة على تسخير قوى خفية تقضى لهم ما يريدون قضاءه من حاجات فكان الناس يلجأون إليهم ليحققوا لهم رغباتهم سواء كانت للحصول على منفعة لأنفسهم أو لإنزال أذى بعدو لهم. وكان مما يفعله هؤلاء السحرة هو عقد العقد فى الخيوط والنفث فيها وتلاوة التعاويذ عليها. وكان الناس يؤمنون بنفع ذلك وضرره. ويوجد فى عصرنا الحالى من يؤمن بما يدّعيه البعض من قدرة على تسخير الجان أو تحضير الأرواح لقضاء الحاجات.

كذلك كان العرب يؤمنون بتأثير الحسد وهناك الكثيرون فى عصرنا الحالى ممن يعتقدون فيه ويؤمنون بقدرة الحاسد على إيقاع الأذى بالمحسود فكان الأعرابى إذا كان له ولد أو بستان أو دابة وأصيب بعارض مفاجئ فسَّره بعين أصابته وحسودٍ حسده. ولم تكن مسببات الأمراض – من ميكروبات وفيروسات – فى ذلك الوقت معروفة. فأرجعوا كل وعك أو مرض إلى نوع من الحسد أو تسلط الجن أو الشياطين على الجسد البشرى ولا بأس من ذكر نبذة قصيرة عن المرض ومسبباته حسب معارف العلم الحديث.

فقد عرف مؤخرا أن الجهاز المناعى فى جسم الإنسان هو العامل الأساسى فى حمايته من الأمراض. والأمراض منها ما هو عضوى ومنها ما هو نفسى فالمرض العضوى غالبا ما ينتج من الميكروبات التى تُحدث الإلتهابات أو ينتج عن تكاثر خلايا مَعِيبة فيحدث السرطان. ولم يكن من الممكن – فى ذلك الوقت – الكلام عن الميكروبات ودورها فى إحداث المرض ولكن الله برحمته حمى الإنسان منها حين حرَّم الميتة والدم والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع أى ما نهشته الوحوش المفترسة لأن كل هذه تكون الميكروبات قد تكاثرت فيها وترعرعت بحيث حتما تصيب آكلها بالمرض. كذلك شُرِع غسل اليدين قبل الأكل وكان اليهود من جماعة الفريسيين يتشددون في هذا الأمر حتى إنهم استنكروا من أتباع المسيح أن يقطف أحدهم ثمرة من بستان فيأكلها دون أن يغسل يديه (جـ ٦ ص ٧٧). وجاء الإسلام وجُعل غسل اليدين واحدا من فرائض الوضوء قبل الصلوات وهكذا قلَّ فرصة انتقال الميكروبات عن طريق الأيدى.

نأتى بعد ذلك إلى الأمراض النفسية وهى – باختصار شديد – إما أن تكون ناتجة عن أسباب داخلية أو عوامل خارجية. فالناتجة عن أسباب داخلية أى نابعة من ذات المرء نفسه

كأن يشتد به الحزن على فقدان شخص عزيز عليه أو ضياع أى عرض من أعراض الدنيا كمالٍ أو جاهٍ فيصاب باكتئاب شديد يُضعف جهاز المناعة فيصاب بالأمراض العضوية الميكروبية أو حتى السرطان وقد ثبت مؤخرا أن نسبة كبيرة من مرض السرطان تبدأ بعد الإصابة بحالة إحباط شديد. ولمنع ذلك كان الحث على التوكل على الله والإيمان بأن ما من شيئ يحدث في الكون إلا وقد قدَّره الله عز وجل «**لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم**» (١٥٣ - آل عمران). «**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**» (١٥٦ - البقرة). فهذا التسليم بقضاء الله يمنع الإكتئاب الشديد المضعف للجهز المناعي.

أما المرض النفسى الناتج عن عوامل خارجية فقد شرحنا فى الجزء الرابع (ص ٨٦١ - ٨٦٢) الأساس العلمى المحتمل لظاهرة السحر فى مجال الكلام عن السحر الذى قام به سحرة فرعون «**فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**» (١١٦ - الأعراف) «**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**» (٦٦ - طه). وقلنا إن الساحر يملك قوة تأثيرية على شكل موجات كهرومغناطيسية تنبعث من الجسم الصنوبرى فى المخ وعن طريقها يستحوذ الساحر على أفكار الناظرين وينقل إلى ذهنهم الصورة التى خلقها فى خياله أن العصى أصبحت ثعابين تتلوَّى فيرونها كذلك. ويروى من زاروا الهند أن الحواة والسحرة هناك برعوا فى هذا المجال إذ يمكنهم التأثير على المشاهدين فيرون أن حبلا مُكوَّما على الأرض قد امتد وارتفع إلى السماء وصعد عليه غلام ثم يتسلقه غلام ثان ومعه مسكين فيذبح الغلام الأول ويلقى برأسه وجسده إلى الأرض ثم ينزل وسكينه يقطر دما. ثم يعيد الساحر كل شيئ كما كان من قبل. إذ لم يحدث قتل ولا الحبل المكوَّم على الأرض قد تغير وكلها من تأثير القوى المؤثرة للساحر ومقدرته على السيطرة على أذهان المشاهدين.

ومن الظواهر التى يدرسها الغرب حاليا ظاهرة التحريك عن بُعد Tele - Kinesis كذلك ظاهرة التخاطر عن بعد Tele - Pathy . وخير دليل على صحة الرؤية والسمع عن بعد هو ما حدث من عمر بن الخطاب وهو يخطب يوم جمعة إذ صاح: يا سارية الجبل يا سارية الجبل ولما سُئل عن ذلك قال إنه أُرِيَ جيش المسلمين فى موقف سيئ فقدَّر أنه لو لجأ إلى الجبل لتحسَّن الوضع. وأفاد سارية بعد رجوعه أنه سمع صوت أمير المؤمنين يهتف به أن يلجأ إلى الجبل ففعل وتحسَّن وضعه العسكرى.

وهناك بعض الأشخاص لهم من قوة الانبعاث ما يمكنهم من التأثير على أشخاص آخرين وإنزال الضرر بهم وهذا هو الحسد. والمرجَّح أنهم يؤثرون على الجهاز المناعي فيضعفونه فيصبح المحسود فريسة للمرض. وليس كل شخص قابل للحسد فهناك من عندهم قوة فى

جهازهم المناعى تحميهم من تأثير الحاسد، وهناك نفوس رقيقة يسهل على الحاسد اختراقها وإنتاج الأثر السيئ الذى يريده، وهؤلاء إذا استعاذوا بالله أمدهم الله بعون من عنده ومنع عنهم الحسد أو أزال أثره الضار.

لم يكن هدف القرآن الكريم – عند نزوله – التصدى لأسباب ومسببات الأمراض وإنما كان الهدف الذى استهدفته الآيات التى ذكرت الحسد والمس هو تثبيت فكرة القدرة الإلهية وشمولها وكون الله عز وجل وحده هو النافع والضار ووجوب عدم الاستعانة بغيره عندما ينبعث فى النفس خوف أو هاجس أو اضطراب أو اكتئاب أو يصيب الجسد وعك أو مرض وتلقين كون الله سبحانه وتعالى هو القادر وحده على تسكين الروع وإدخال الطمأنينة إلى القلب ودفع الضرر وشفاء المرض وتحقيق النفع ووجوب الالتجاء إليه وحده والاستعاذة به وحده. وهذا مبدأ أساسى من مبادئ الإسلام وهو الإيمان بالله وحده ونبذ ما سواه خضوعا وعبادة ودعاء ورجاء، وعدم اللجوء إلى الكهان فى هذا الشأن ولكن هذا لا يمنع من استخدام ما توصل إليه العلم من وسائل الشفاء بالمضادات الحيوية عند حدوث الأمراض البكتيرية أو العلاج بالإشعاع للأورام، مع الإيمان الكامل بأن الشفاء من الله أولا وأخيرا وخير مثال على ذلك ما نراه من استجابة بعض الأشخاص للعلاجات بسرعة وتأخر البعض الآخر وذلك حسب ما قدره الله ليعلم الناس أن المسأله ليست «أوتوماتيكية».

وللحد من تأثير الحسد أو إزالة آثاره نزلت المعوذتان. وفى صحيح مسلم أن النبى قال عنهما أنهما من خير السور :

سورة الفلق :

«قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد» (١ – ٥).

وتبدأ السورة بأمر النبى – وهو أمر لكل مسلم – بأن يستعيذ بالله من رب الفلق. والفلق هو فلق الصبح أى الفجر إذ ينفلق من ظلمة الليل ويستعيذ أيضا من ظلام الليل إذا خيم وانتشر «**غاسق إذا وقب**» ويستعيذ أيضا مما قد يكون من أثر لنفث السحرة فى العقد أو للحاسد بنظرة المسموم وما انتواه من إحداث الضرر.

سورة الناس :

ثم نزلت بعدها سورة الناس وهى التالية لها أيضا فى ترتيب المصحف :

«قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس. من شر الوسواس الخناس. الذى يوسوس فى صدور الناس. من الجنة والناس» (١ – ٦).

وكسابقتها تبدأ بأمر للنبى – وهو لكافة المسلمين – بالاستعاذة بالله من وسوسة الإنس والمقصود بهم ذوو الأخلاق السيئة الذين يعملون على الإغراء والإغواء والحث على ارتكاب الشرور والمنكرات، أما وسوسة الجن فالمقصود منها تلك الكائنات الخفية التى توسوس فى صدور الناس وتغريهم بالشر والفساد والكفر. ووصفت بالخناس لأنها تأتى وتعود وتخنس وتذهب إذا استعذنا بالله منها. والسورة تحذِّر من خطر الهواجس النفسية. فبزعم العلم والعلمانية ينكرون وجود الله وبزعم التقدمية لا يؤمنون ببعث أو حساب أو حياة آخرة.

ثم نزلت **سورة الإخلاص :**

قيل إن بعض كفار قريش قال للنبى: صف لنا ربك فنزلت السورة :

«قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد» (١ – ٤).

والسورة تجيب على تساؤل الكفار بأسلوب حاسم وقطعى. وتخبر بأنه واحد أحد. يُصمد إليه فى الحاجات. وأيضا من معانى الصمد الدائم الباقى والمستغنى بنفسه عن غيره. لم يلد ولم يولد وليس له مماثل أو نظير.

قريش تقاوم الدعوة :

فى المراحل الأولى من الدعوة – حين كانت لاتزال قاصرة على أهل بيت النبى – لم تعرها قريش اهتماما ولعلها رأت فيها صراعا داخليا حول زعامة بنى هاشم واكتفت بما أبداه أبو لهب – عم النبى – وزوجه أم جميل ومن حولهما من معارضة للنبى. ولكن لما بدأت أعداد المسلمين تتزايد بدأ القلق يساور قريشا. ولما رأوا أن كثيرا من العبيد اعتنقوا الإسلام – لما ينادى به من مساواة بين البشر – اعتبروا ذلك تمردا على سلطانهم واعتبروا «محمدا» مثيرا للفتن. كما أنهم خشوا على مكانة البيت الحرام لو نبذوا عبادة الأصنام إذ ظنوا أن قبائل العرب التى كانت تحج إليه ستنصرف عن مكة فتبور تجارتهم ويفقدون المال الذى يجنونه من ورائها. وأخيرا فإن قريشا لم تستوعب الفكرة القائلة أن الإنسان يعود للحياة بعد الموت ويحاسب على أفعاله.

ولما بدأ المسلمون – وهم جلوس فى ساحة الحرم – يقرأون القرآن بصوت يسمعه كل من يطوف بالبيت. ورأت قريش كيف كان أفراد القبائل الوافدة يتحلَّقون حول النبى يستمعون له وهو يرتل القرآن فى خشوع. فخشوا من ازدياد أعداد المؤمنين وبدأوا فى محاولة وقف انتشار الإسلام بأساليب مختلفة باللين تارة وبالشدة تارة أخرى. وبالإغراء مرة وبالتهديد مرة أخرى.

وأخذ بعض رجالات قريش يتهمون النبى بأنه مفتون ضال خارج عن دين آبائه وتقاليدهم. وتولى الوحى الرد عليهم فنزلت بعض آيات من **سورة القلم** (وقد نزل أولها ص٤٤).

«فستُبصِر ويُبصِرون، بأيكُم المفتون، إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (٥ – ٧ – القلم).

ثم اقترح بعضهم على النبى أن يلاين فيلاينوا بالمقابل، فيكف عن تسفيه وسب آلهتهم وهم بالمثل يتركونه ولا يؤذونه ولا يؤذون أتباعه. وكان بعضهم يقسم على ذلك فنزل الوحي ينهى عن مسايرتهم:

«فلا تُطِع المكذبين، ودُّوا لو تُدهن فيدهنون، ولا تطع كل حلاَّف مهين، همَّاز مشَّاء بنميم، منَّاع للخير معتد أثيم، عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين، سنسمه على الخرطوم» (٨ – ١٦ القلم).

والمشار إليه فى هذه الآيات هما الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث وإن كان الخطاب ينطبق كذلك على غيرهما ممن كانوا يفعلون فعلهما. ومما هو جدير بالذكر أن أولهما تلقى – فى معركة بدر – ضربة سيف على أنفه تركت ندبة واضحة فكان فيها مصداق لقوله تعالى **«سنسمه على الخرطوم»** مع مافى كلمة «الخرطوم» من تحقير إذ هى تطلق على أنف الفيل وأنف الخنزير.

حث على الصدقة :

فى هذا الوقت المبكر من الدعوة والمسلمون لايزالون قلة، ولكن كان فيهم الغنى نسبيا والفقير مثل العبيد الذين أسلموا فنزلت آيات تحبب الصدقة وتنهى عن البخل، وتضرب المثل برجل من ثقيف كان له بستان وكان يترك ما يسقط من ثمر للفقراء فلما مات عقد أبناؤه النية على حرمان الفقراء من هذه الصدقة، فسلَّط الله على الثمر بلاء أفناه عقابا لهم، وراح بعضهم يلوم الآخرين على ما دبَّروه، وقال أوسطهم إنه كان قد نبهم إلى سوء ما انتووه وطلب منهم أن يسبحوا الله ويستغفروه، فاعترفوا بخطئهم وأنهم كانوا طاغين لعل الله يقبل توبتهم ويعيد لهم ثمر البستان خيرا مما كان، وكان هذا عقابهم فى الدنيا ولو لم يتوبوا لكان لهم عقاب أكبر فى الآخرة:

«إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمُنَّها (يجمعون ثمرها) **مصبحين** (وقت الصباح)، **ولا يستثنون** (لا يقولون إن شاء الله). **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم** (كالمجموع ثمرها). **فتنادوا مصبحين، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين، فانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا على حرد قادرين، فلما رأوها قالوا إنا لضالون، بل نحن محرومون، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون،**

قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» (١٧ - ٣٣).

موقف جدل مع المشركين :

وكان المشركون يدَّعون أن ما هم عليه هو دين إبراهيم فنزلت الآيات تنفى هذا الزعم وتقرر أنه لا يستند إلى كتاب سماوى وأنهم لم يُعطوا من الله عهدا بما يفعلون - وصيغ ذلك فى صيغة أسئلة موجهة إلى المشركين. ثم تحذير لهم من يوم القيامة وما فيه من اشتداد الخطب فقيل **«يوم يكشف عن ساق»** كما يقال شمَّر عن ساعده:

«إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم. أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون. أم لكم كتاب فيه تدرسون. إن لكم فيه لما تخيُرون. أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون. سلهم أيهم بذلك زعيم (كفيل أو ضامن) **. أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين. يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون»** (٣٤- ٤٣).

والآيات تبدأ بتبشير المتقين بأن لهم جنات النعيم. يليه سؤال يستنكر مساواة المسلمين بالكافرين. ثم سؤال ثانٍ عن السند الذى يستندون إليه ككتاب سماوى أو عهد من الله. ثم سؤال ثالث عن وكيلهم فى هذا الزعم وهل لهم شركاء. وتحدٍّ لهم بدعوة هؤلاء الشركاء وطلب نصرتهم يوم القيامة يوم يشتد الخطب وعبر عنه بكشف الساق - وقد أضاعوا الفرصة فى الحياة الدنيا حينما كانوا يدعون إلى السجود وهم فى متسع من الوقت والسلامة أما الآن فلا تقبل توبتهم ولا سجودهم.

تهديد الكافرين :

«فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملى لهم إن كيدى متين. أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون. أم عندهم الغيب فهم يكتبون» (٤٤ - ٤٧).

والآيات فيها أمر للنبى بأن يترك أمر الكافرين إلى الله الذى سيعمل على استدراجهم - بما يعطيهم من مال وقوة - ليزدادوا طغيانا فيحق عليهم العذاب وما ذلك إلا جزاء مكافئ لما بدأوه من تكذيب للنبى. ثم يأتى استنكار لعدم إيمانهم فى صيغة سؤال إلى النبى عما إذا كان يطلب منهم أجرا على دعوته فأثقلهم الأجر فلا يستجيبون. أم أنهم مُطَّلعون على الغيب أم بيدهم أمر المستقبل المكتوب فجعلهم هذا أكثر اجتراء على التكذيب.

أمر بالصبر :

«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين» (٤٨ – ٥٠).

وصاحب الحوت هو يونس. وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٨٩ – ٢٩٨) وهو معروف عند أهل الكتاب بـ «يونان» وزيدت سين فى الآخر علامة الرفع فى اليونانية فصارت يونس وبهذا عرف عند العرب. ولا شك أن قصته كانت معروفة مما كان يقصه أهل الكتاب مما هو مدون فى التوراة. وقد ذكرنا كيف أن يونس لم يصبر لحكم ربه باختياره نبيا إلى أهل نينوى وحاول التملص بالسفر بحرا إلى مكان بعيد فكان – كما هو معروف – أن هاج البحر وألقى فى الماء فالتقطه الحوت فظل يدعو ربه حتى أنقذه واجتباه نبيا. وقد أمر النبى بالصبر ولا يكن مثل يونس.

ثم يجئ ختام السورة : **«وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون. وما هو إلا ذكر للعالمين»** (٥١ – ٥٢).

فقد كان الكفار حين يسمعون النبى يقرأ القرآن ينظرون إليه شزرا حتى لكأنهم يكادون يلتهمونه بأبصارهم أو يتهمونه بأنه مجنون ورداً عليهم يأتى توكيد بأن القرآن هو هدى للعالمين.

قول الوليد بن المغيرة فى القرآن :

كان الوليد بن المغيرة سيدا عالى الصوت فى مكة ولما نزلت الرسالة على «محمد» قال أهل مكة: كيف تكون الرسالة فى يتيم بنى هاشم ولو نُزِّلت على الوليد بن المغيرة لكان أنسب لثرائه وقوته وعظمته فى قومه:

«وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريًا ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٣١ – ٣٢ الزخرف).

ويروى أن الوليد سمع النبى وهو يقرأ أول سورة السجدة:

الٓمٓ. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون. الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولىٍ ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شيئ خَلَقَه وبدأ خَلْق الإنسان من طين. ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون» (١ - ٩ السجدة).

فعاد إلى قومه وقال لهم: لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وما منكم رجل أعرف بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا. والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق. إنه ليعلو ولا يُعلى عليه. وخافت قريش أن يُسلِم الوليد فقام ابن أخيه أبو جهل وراح يُذكِّره بأن الاعتراف بنبوّة محمد سترفع مكانة بنى هاشم على سائر القبائل. فتأثر الوليد بهذه العصبية. وقال له أبو جهل لن يرضى عنك قومك حتى تقول فيه (أى تذمّه) فقال قف عنى حتى أفكرٍّ برهة ثم قال: إن هو إلا ساحر. أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟

فنزل الوحى بجزء من **سورة المدثر**

«ذرنى ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهّدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صَعودا. إنه فكرَّ وقدّر. فقُتل كيف قدّر. ثم قُتل كيف قدّر. ثم نظر. ثم عَبَس وبَسَر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر. وما أدرك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لوّاحة للبشر. عليها تسعة عشر» (١١ - ٣٠ المدثر).

وقيل المقصود بهذا التهديد هو الوليد بن المغيرة المخزومى والأمر «ذرنى ...» هو من أشد ما يمكن أن يهدّد به شخص إذ فيه معنى الوقوف أمام الله وفيه توعّد بأقصى أنواع العذاب. وقد سبق مجيئ هذا التهديد فى الآية ١١ من سورة المزمّل (ص ٦٤) **«وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً. إن لدينا أنكالا وجحيما».**

أما **«عليها تسعة عشر»** فالمراد ١٩ ملاكا. فلما نزلت قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم. أسمع أن ابن أبى كبشة (أى النبى) يخبركم أن خزنة النار عليها تسعة عشر وأنتم الدهم. أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم. فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة وكان شديد البطش. أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين. فنزل قوله تعالى:

«وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة الذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيمانا ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقولَ الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يُضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر. كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر. إنها (أى سقر) **لإحدى الكُبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس**

بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون عن المجرمين. ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذّب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين (أى الموت)» (٣١ – ٤٧ المدثر).

وفى هذه الآيات إقامة حجة على أهل الكتاب من اليهود والنصارى إذ هم يعلمون من كتبهم أن لله ملائكة ينفذون ما يأمرهم به ربهم فكان الواجب أن يؤمنوا برسوله «محمد». أما المؤمنون فهم يزدادون إيمانا وأما الكفار والذين فى قلوبهم مرض أى المتشككون والمترددون فيقولون ماذا يريد الله بهذا العدد المستغرب عن خزنة جهنم. ويريد الله بهذا المثل أن يُصدِّقه من يشاء فيهتدى وينكره من يشاء فيضل. وما يعلم جنود الله – لكثرتهم – إلا هو سبحانه وتعالى. وما سقر إلا تذكرة للبشر وتخويف لهم.

ثم يأتى قسم بالقمر والليل والصبح أنّ سقر التى يتنذّر الكفار على ملائكتها هى حقيقة كبرى وأنها نذير للبشر كافة. فمن شاء بعد ذلك فليتقدم للإيمان واتباع الرسول فينجو ومن شاء أن يتأخر عن ذلك هلك. وفى الآخرة كل نفس مسئولة عن اختيارها وعملها ومرتهنة به. إلا أن أصحاب اليمين – وهم فى الجنات – يسألون الكفار عما فعلوه ليكونوا فى النار فيقولوا إنهم لم يكونوا يُصَلون ولا يعبدون الله. ولم يكونوا يتصدقون بالطعام على المساكين. وكانوا يجادلون بالباطل فى آيات الله ويشتركون مع من كذَّبوا الرسول. ولم يصدقوا أن هناك بعث للحساب. حتى جاءهم الموت. وهذه كانت سبب إلقائهم فى النار. ثم تستمر الآيات:

«فما تنفعهم شفاعة الشافعين. فما لهم عن التذكرة مُعرضين. كأنهم حُمُر مستنفرة. فرَّت من قَسْوَرة. بل يريد كل امرئ منهم أن يوتى صحفا مُنشَّرة. كلا بلا لا يخافون الآخرة. كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره. وما يذكُرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة»

(٤٨ – ٥٦ المدثر).

والقسورة اسم من أسماء السبع والمعنى أنهم مثل الحمر البرية التى تفر خائفة من أسد يهاجمها. ويريد كل واحد منهم أن تنزل عليه صحيفة من السماء منشورة ومكتوبة تثبت صدق الرسول. كلا. أى لن يحدث هذا. فهم يعرضون عن أى تذكرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. ثم تأتى «كلا» مرة ثانية ردعا لهم فالقرآن فى نظمه وبلاغته فيه الكفاية وهو تذكرة فمن شاء أن يتعظ بما جاء به آمن. وما يذكّرون إلا بمشيئة الله فهو الذى يقبل التقوى من عباده فيغفر لهم.

محاولات قريش لصرف النبى عن الدعوة :

١ – لما أعلن أبو طالب حمايته للرسول وإصراره على رد أى عدوان قد يتعرض له سار وفد من قريش إلى أبى طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا فإما أن تكُفَّه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه. فقال

لهم أبو طالب قولا ليِّنا وردَّهم ردًا جميلا فانصرفوا عنه. ولكن أبا طالب لم يثن «محمدا» عن السير في مهمته وظل «محمد» في دعوته للإسلام ونبذ عبادة الأصنام.

٢ – فعاد الوفد إلى أبي طالب مرة ثانية وقالوا له في حزم: يا أبا طالب إن لك فينا سنا وشرفا ومنزلة وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا فإما أن تكفَّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الطرفين.

وأدرك أبو طالب حرج الموقف فهو لا يحب أن يثير عداوة قومه وليس معه من بني هاشم أحد يعضده كما لا يريد خذلان ابن أخيه فأرسل إلى محمد وقال له: يا ابن أخي. إن قومك قد جاءوني بما علمت فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تُحمِّلني من الأمر ما لا أطيق. ولمس «محمد» ما في هذا القول من ضعف عمه عن نصرته ولكنه أعلن أنه ماضٍ في طريقه غير عابئ بتهديد قريش سواء نَصَره عمه أو تخلَّى عنه فقال قولته الشهيرة: «يا عم. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». ويقول ابن هشام إن النبي ذرف دمعة وقام متجها إلى بيته فناداه أبو طالب وقال له: يا ابن أخي. اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أُسلمك أبداً.

٣ – وفي محاولة ثالثة مع أبي طالب ذهب وفد من قريش ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان يوصف بأنه أعظم فتى في قريش قوة وفكرا وقالوا لأبي طالب: خذ عمارة ولدا فلك عقله ونصره وأسلم إلينا ابن أخيك لنتخلَّص منه فهو رجل برجل. فغضب أبو طالب وصاح فيهم: بئس ما تساومونني. أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه. فانصرفوا غير راضين وعندما أحس أبو طالب بتجمع القوم ضده وضد محمد دعا بني هاشم وبني المطلب يحثهم على حماية محمد فوعدوه أن يكونوا معه ضد من عادى محمدا ولم يشذ من بني هاشم إلا أبو لهب.

٤ – وفي محاولة رابعة اتبعت قريش اللين والسياسة إذ أرسلوا أبا الوليد عتبة بن ربيعة والد هند زوجة أبي سفيان الذي راح إلى النبي وقال له: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب. وإنك قد أتيت قومك بأمر جلل فرَّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم فاسمع منِّي أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها. فقال له محمد: قل يا أبا الوليد أسمعْ لك. قال: يا ابن أخي. إن كنت تريد بما جئت مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا ثراء. وإن كنت تريد به ملكا ملَّكناك علينا. وإن كان بك مسٌّ من الجن طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك. فقال له النبي: أوَقد فرغت يا أبا الوليد: قال نعم. قال فاسمع مني. ثم تلا عليه صدر **سورة فصلت** :

«بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فُصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون. قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم. فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» (١ - ١٣ ، فصلت). فلما وصل إلى ذلك وضع عتبة يده على فم النبي وقال له: ناشدتك الله والرحم أن تكفّ. وقام يجر رجليه وعاد إلى أصحابه. فقالوا له ما وراءك يا أبا الوليد. قال: لقد سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط. ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعونى وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. فقال القوم. سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

المغالاة فى الطلب :

لما فشل الإغراء اتجهت قريش اتجاها آخر فقالوا للنبي: يا محمد إنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق منّا بلداً ولا أقل ماء ولا أشقّ عيشا. فسل ربك فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليُفجِّر بها أنهارا. فقال لهم النبي: ما بهذا بعثت إليكم من الله. إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم. وتمادوا فى طلباتهم التى سجلها القرآن الكريم فى آيات من سورة الإسراء مع الرد عليها:

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تُفجِّر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرُقيِّك حتى تُنزِّل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا. قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا. قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيراً».

(٩٠- ٩٦ الإسراء).

ولكن قريشا ظلت على تصوُّرها أن لو كان الله مرسلا رسولا لوجب أن يكون ملاكا أو على الأقل يكون معه ملك يساعده على تبليغ رسالته أو يُلقَى إليه كنز فيكفيه التردد على الأسواق

لكسب عيشه كما يفعل سائر البشر وأخيرا اتهموا النبي بالسحر. فردت عليهم آيات من سورة الفرقان:

«وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا» (٧ - ١٠ الفرقان).

التعذيب والإيذاء :

لما رأت قريش أن محاولاتها مع «محمد» لم تنجح فى صرفه عن الدعوة للإسلام راحوا يفكرون في العنف. فبدأ سادة قريش بإنزال العذاب بعبيدهم الذين دخلوا فى الإسلام. ولعل سادة هؤلاء العبيد لاحظوا عليهم ما يدل على إسلامهم كعدم انحنائهم أمام تماثيل الآلهة الموجودة فى البيت أو إعراضهم بوجوههم عند مرورهم أمامها أو تمتمتهم ببعض آيات مما يتلوه «محمد» أو ضبطهم وهم يركعون أو يسجدون. وسنكتفى بذكر أشهر من نزل بهم عذاب من العبيد وهم بلال وآل ياسر:

بلال : وكان سيده يخرجه إذا اشتدت الظهيرة إلى بطحاء مكة ثم يأمر بصخرة عظيمة توضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتي تموت أو تكفر بدين محمد وتعود إلى عبادة اللات والعزى. فلا يرد بلال إلا بقوله: أحدٌ أحد. ومرَّ به أبو بكر الصدِّيق يوما وهم يعذبونه فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ فأجابه أمية: أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعلُ. فاشتراه وفي رواية أخرى قال عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى وهو ثابت على دينك أعطيكه به. فقال أمية قد قبلت. وتم التبادل وأخذ أبو بكر بلالا فأعتقه.

ومما يذكر أن أبا بكر أعتق ستة من المستضعفين غير بلال.

آل ياسر: كان ياسر وزوجته وابنه عمَّار قد أسلموا فلما علم سيدهم بإسلامهم أنزل بهم أقسى أنواع العذاب من ضرب وحرمان من الطعام. كما كانوا يُخرجونهم إلى الرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة الثقيلة الساخنة ويغرى الصبيان للعبث بهم فكانوا يشدون ياسر من لحيته ويجذبون زوجته من شعرها وهم موثقو الأيدى لا يستطيعون دفعا عن أنفسهم. ومرَّ رسول الله عليهم وهم يعذبون فقال لهم: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. ومات ياسر وهو يُعذَّب ولما صرخت امرأته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها.

لم يقتصر التعذيب على العبيد والضعفاء بل امتد إلى من أسلم من أبناء سادة قريش والقبائل الأخرى. إذ اتفقت القبائل على أن ينزلوا بمن أسلم من أفرادها - أيا كانت مكانتهم ومكانة آبائهم - أشد العذاب. ونكتفى بذكر أشهر من نالهم الإيذاء أو التعذيب:

أبو بكر وطلحة بن عبيد الله :

عندما أسلم أبو بكر وطلحة وكلاهما من بنى تيم تقدم نوفل بن خويلد وهو حينئذ زعيم بنى تيم فربطهما فى حبل واحد ونكَّل بهما معا ولذلك كانا يسميان «القرينين» وكان طلحة يفخر بأنه قُرِنَ مع أبى بكر.

وعن عائشة قالت: لما قارب عدد المسلمين حوالى الأربعين رجلا ألحَّ أبو بكر على النبى فى الظهور فقال يا أبا بكر إنا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى خرج المسلمون وضُرِبَ أبو بكر ضربا شديدا وجاء بنو تيم فخلصوه من أيديهم وحملوه حتى أدخلوه منزله وهو مغمى عليه. وكان أول ما تكلم به بعد أن أفاق أن سأل إن كان أحد قد نال رسول الله بأى أذى وتحامل على نفسه وسار إلى حيث رسول الله ليتأكد من سلامته.

سعد بن أبى وقاص :

لما أسلم سعد بن أبى وقاص غضبت أمه وهى من بنى أمية فنهته عن هذا الدين الجديد فلم يأبه فقالت له: لتدعنَّ هذا الدين أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت وحينئذ يُعيِّرك الناس بى فقال لها سعد: والله يا أمى لو كانت لك سبعة أرواح وفى رواية أخرى مائة روح وخرجت كلها واحدة إثر أخرى ما تركت دينى فكلى إن شئت أو لا تأكلى. ونزل قوله تعالى:

«ووصينا الإنسان بوالديه حسنا، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم فى الصالحين» (٨ - ٩ العنكبوت).

مصعب بن عمير :

كان مصعب من أهل جاه وغنى وكان زينة المجالس والندوات ويلبس أحسن الثياب ويضع أطيب العطور. ولما أسلم حاول قومه إقناعه بالعودة إلى دينهم ففشلوا ثم حبسته أمه فى حجرة من حجرات البيت ولكنه أفلح فى الفرار من سجنه وهاجر إلى الحبشة ضمن الهجرة الأولى (ص ١٦٢) ولكنه بعد فترة عاد إلى مكة وأعلنت عشيرته التخلِّى عنه طالما بقى على إسلامه. فكان بالكاد يتكسب قوته من أعمال بسيطة يقوم بها لبعض وجهاء مكة.

أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة :

كان عتبة بن ربيعة سيدا فى قريش وهو والد هند زوجة أبى سفيان. وكان ابنه أبو حذيفة مُنعَّما فى بيت والده الذى كان يُعِدُّه للزعامة من بعده. فلما أسلم أبو حذيفة قام والده بطرده من البيت فراح يتكسب رزقه فى أسواق مكة.

عثمان بن عفان :

لما أسلم عثمان بن عفان قام عمه الحكم بن العاص بحبسه فى حجرة مظلمة وقيده بسلاسل ثقيلة ولكن إزاء إصرار عثمان على إسلامه قام والداه بفك قيده.

الزبير بن العوام :

وخالته هى خديجة أم المؤمنين. قام عمه نوفل بن خويلد بحبسه فى حجرة مظلمة مكتوف الأيدى وأطلق دخانا كثيفا فى الحجرة ليجعله يرجع عن إسلامه. فلم ينقذه من الموت سوى أمه رقت لحاله وعملت على إطلاق سراحه.

إسلام قبيلتي غفار وأسلم :

غفار وأسلم قبيلتان تقعان بين مكة والمدينة (انظر شكل ٤ ص ١٥). غفار على ساحل البحر الأحمر وأسلم مقابلها فى الداخل. وكما هو مبين في الشكل فإنهما تقعان على طريق القوافل المتجهة شمالا من مكة سواء إلى المدينة أو بطريق الساحل إلى أيلة. وكان أبو ذر الغفارى غير مقتنع بعبادة الأصنام فلما بلغه مبعث رسول الله أرسل أخاه أنيس إلى مكة ليأتيه بالخبر. وأعجب أنيس بما سمعه من قرآن وعاد إلى أخيه بهذه الأنباء فأسرع أبو ذر بالرحيل إلى مكة ليرى بنفسه. فلما قابل النبى قال له: أنشدني مما تقول فأجابه الرسول: ما هو بشعر حتى أنشدك. إنه قرآن كريم قال أبو ذر: فاقرأ عليّ. فقرأ الرسول بعضا من القرآن. فنطق أبو ذر بالشهادتين ودخل فى الإسلام.

وكان أبو ذر – مثل جميع أفراد قبيلة غفار – شجاعا جريئا فراح إلى الكعبة وصاح بأعلى صوته لا إله إلا الله محمد رسول الله. فتجمع عليه القوم وأوسعوه ضربا ولكما حتى خرّ من فرط الضرب ولم ينقذه من بين أيديهم إلا العباس عم النبى الذي قال: يا معشر قريش إن الرجل من غفار، وإن استعدى قومه الذين يعيشون فى طريق تجارتكم فالويل لكم فخلوا عن أبى ذر. فتركوه.

ورأى الرسول أن يبعد أبا ذر عن مكة منعا لتحديه قريش ومنعا لما قد يناله من أذاهم فطلب منه أن يعود إلى قومه وينشر الإسلام بينهم. وفعلا عاد أبو ذر إلى غفار وبدأ يعرّفهم بالإسلام فاستجابوا له حتى أسلمت غفار كلها تقريبا. ثم سار أبو ذر إلى مساكن قبيلة أسلم ونشر الإسلام بينهم. ويروى حديث عن رسول الله: غفار غفر الله لها. وأسلم سلّمها الله.

إيذاء الرسول نفسه :

كان سادات قريش – وسادات العرب عموما – وخاصة إذا كانوا كبار السن وأغنياء – يتمتعون بنفوذ سيادى فى قبائلهم يأمرون فيطاعون ولهم الكلمة الفاصلة فى القضايا. فلما

أخذ النبي يدعو إلى الإسلام عظم عليهم أن يكون نبيا يهتدى به الناس فيسلبهم السيادة. من هنا كان موقف زعماء مكة من النبي ودعوته سلبيا - بل وعدوانيا - منذ الخطوات الأولى للدعوة. بدأوا بالرفض ثم الإستنكار. ثم إتهموه بالجنون والسحر والشعر والكهانة والاتصال بالجان. ثم بدأت عمليات مساومة لصرفه عن الدعوة أو للوصول إلى حل وسط. كل ذلك وهو صامد لا يلين ولا يرضيه إلا أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وينبذوا عبادة الأصنام. فبدأوا بإيذائه جسديا آملين أن يجعله ذلك يلين أو يكف عن دعوته. وبالرغم من أن أبا طالب قد أسبغ حمايته على ابن أخيه فإن النبي لم ينج من المعتدين.

يروى أنه كان مرة يتعبّد بالحجر فاجتمع عليه مجموعة من المشركين وقالوا له: أنت الذى تعيب آلهتنا وتسخر من عقولنا؟ فقال نعم. فوثبوا عليه وأخذ واحد منهم بمجمع ردائه حتى كاد يخنقه ولم ينقذه منهم إلا أبو بكر.

وكان أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - عم رسول الله - وأم جميل زوجته من أعدى أعداء الدين الجديد. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٩) سبب نزول سورة المسد. وغاظ أم جميل أن تذكر فى السورة بأنها «حمالة الحطب» فأخذت حجرا ثقيلا لتقذف به النبي وذهبت إلى حيث يجلس فى الحرم وكان معه أبو بكر. فصاحت يا أبا بكر. أين صاحبك فقد بلغنى أنه يهجونى فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ثم انصرفت. فقال أبو بكر للرسول أما تُراها تَراك؟ فقال النبي: ما رأتنى. لقد حجب الله بصرها عنى.

أما أبو جهل - وهو عمرو بن هشام - وعمه المغيرة ابن شعبة الذى كان يأمل فى يوم من الأيام أن يكون ملكا على قومه - فلم يقنع بعدوانه على الضعفاء والعبيد بل تمادى وكان يلقى بالقاذورات فوق الرسول وهو يصلى. وفى مرة قرر أبو جهل أن يلقى حجرا كبيرا على النبي وهو يصلى. فلما سجد أسرع أبو جهل بالحجر واتجه نحو الرسول ولكنه سرعان ما عاد ممتقع اللون مرعوبا وقد يبست يداه على الحجر ثم رمى به فسألوه عما جرى له فقال: قمت إليه حتى إذا ما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل. لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل عنقه ولا مثل أنيابه لفحل قط فهمَّ بى أن يأكلنى. وانتشر الخبر بسرعة البرق فى أرجاء مكة كلها وفرح المؤمنون وعلموا أن الله يحمى رسوله من غدر المشركين. وازدادت كراهية أبى جهل للنبي ولمن تبعه.

وحدث أن وفد على مكة تاجر إراشى (فرع من قبيلة خثعم) ومعه قطيع من الإبل. فاشتراها منه أبو جهل فلما استولى على الإبل أخذ يماطله فى دفع ثمنها. فذهب الإراشى إلى المسجد الحرام وأخذ يستجير بالمجتمعين فى أندية قريش راجيا أن يدلوه على رجل يستطيع أن يأخذ له حقه من أبى جهل. وظن بعض المشركين أنهم يستطيعون أن يسخروا من النبي

وكان جالسا فى المسجد فأشاروا إليه وقالوا للإراشي: إن هذا الرجل هو الذى يستطيع أن يأخذ لك حقك منه، وأسرع الإراشى إلى النبى وسرد عليه حكايته. فنهض النبى وهو يقول: انطلق إليه وخرج قاصدا بيت أبى جهل ومعه الإراشى واستولت الدهشة على المشركين فقالوا لرجل منهم اتبعهما فانظر ماذا يصنع. وضرب الرسول باب أبى جهل، فقال من هذا؟ فقال: محمد، فأخرج إليَّ، فلما خرج قال له الرسول بصوت الآمر: اعط هذا الرجل حقه. فقال أبو جهل وقد امتقع لونه واستولى عليه الذعر: نعم ، لا يبرح حتى أعطيه الذى له. ودخل المنزل وخرج بحقه فدفعه إليه. وعندئذ انصرف رسول الله وقال للإراشي: الحق بشأنك. وقبل أن ينصرف الإراشى عرج على نادى المشركين وقال لهم: جزاه الله خيرا فقد والله أخذ لى حقى. وجاء الرجل الذى بعثوه خلفهما فروى لهم ما رأى وما سمع وكيف استجاب أبو جهل فى الحال لأمر النبى واستولى العجب على المشركين. ولما جاء أبو جهل قالوا له: ويلك ما رأينا مثل ما صنعت قط. قال: ويحكم. والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا. ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط. والله لو أبيت لأكلنى. وانتشر الخبر فى مكة كلها وازداد المسلمون إيمانا بأن الله سيخزى الظالمين ويرد كيدهم فى نحورهم كما أخزى وأذل أبا جهل.

إسلام حمزة :

ازدادت عداوة أبى جهل لرسول الله واشتد بغضه له. فمر به يوما عند الصفا فوقف قبالته وأخذ ينهره ويهزأ به ويعيب دينه ويحقر من شأنه. والنبى جالس تحف به المهابة ولم يشأ أن يرد عليه. وانصرف أبو جهل إل المسجد ليقابل أقرانه وعاد النبى إلى بيته. وكانت جارية لعبد الله بن جدعان ترى وتسمع سفاهة أبى جهل وعدوانه على النبى. ولم يلبث أن مرَّ بها حمزة بن عبد المطلب عائدا من رحلة للصيد وقد تقلد قوسه وحمل سهامه. فقالت له: يا أبا عمارة. لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام (أبى جهل). وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف ولم يكلمه محمد. واستولى الغضب على حمزة، وأسرع نحو الحرم ليطوف بالبيت كعادته إذا عاد من الصيد. وبعد الطواف أخذ يجول ببصره باحثا عن أبى جهل حتى وجده جالسا فى قومه فسار نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجَّه ثم قال: أتشتم محمدا وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فردَّ علىَّ إن استطعت. وبهت قومه – بنو مخزوم – لهذه المفاجأة ثم هبُّوا لنجدة أبى جهل. ولكنَّ أبا جهل احتمل الألم والإهانة وخشى نشوب صراع دموى بين قومه وبنى عبد مناف فقال لأصحابه: دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا. وسرى الخبر بسرعة فى أرجاء مكة أن حمزة بن عبد المطلب قد ثأر لابن أخيه من أبى جهل وأن حمزه أعلن إسلامه على مرأى ومسمع من الجميع.

ولما خلا حمزة إلى نفسه جعل يفكر في أمره وكيف غلبه الحماس لابن أخيه فجعله يعلن إسلامه وترك دين آبائه. ويقول حمزة في ذلك: لما احتملني الغضب وقلت ما قلت أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله أن يشرح صدري للحق. فامتلأ قلبي يقينا. فغدوت إلى محمد وأسلمت. وأصبح إسلام حمزة حديث الناس في بيوتهم إذ كان حمزة أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة وأَنَفَة وانتصارا للحق. فأدركت قريش أن رسول الله قد عزَّ وامتنع. ولم يكتف حمزة بذلك بل راح يدعو علانية للإسلام.

وخافت قريش أن تقوى نفوس المستضعفين فيسلموا. فقرر سادة قريش أن يشتطوا في تعذيب كل من علموا بتركه عبادة الأصنام ليكون ذلك رادعا لمن تشاوره نفسه من العبيد والضعفاء بالإسلام. وقابل المسلمون هذا الطغيان الجديد بالعودة إلى إخفاء إسلامهم وإخفاء اجتماعاتهم التي كانوا يلتقون فيها برسول الله يؤمهم للصلاة ويتلو عليهم ما نزل من القرآن.

كان العام الخامس من بعثة النبي قد بدأ. وخاف طغاة المشركين من انتشار الإسلام فاجتمعوا في ساحة الحرم واتفقوا على أنه عند دخول «محمد» الحرم يلتفوا حوله وينهالوا عليه ضربا وطعنا حتى يخر قتيلا. وتصادف أن كانت فاطمة الزهراء في مكان قريب منهم فسمعت بمؤامرتهم وعادت مسرعة إلى البيت وأخبرت أباها فتوضأ وخرج متوجها ناحية الكعبة ودخل عليهم. ولعلهم ظنوا أن الله أخبره بمؤامرتهم فامتقعت وجوههم وأفقدتهم الدهشة ما تعاقدوا عليه فلم يتحرك أحد من مكانه.

كان هذا الفريق المكون من أبي جهل ومن على شاكلته يعارضون النبي حقدا وحسداً ولذلك لم يكونوا يتفكرون في الآيات التي تنزل على النبي فقد كانت قلوبهم مملوءة بالكفر وقد خُتِمَ عليها فلا سبيل لنفاذ الإيمان إليها. إلاَّ أن فريقا آخر من المشركين كانوا يستمعون إلى ما ينزل على النبي ولعلهم كانوا يودون معرفة نواياه تجاههم. لذلك كانوا يجلسون إليه وهو يتلو القرآن عند الكعبة بل إن بعضهم كان دائم السؤال عما أنزل حديثا من آيات القرآن الكريم وكان عدد من أشراف مكة جالسين إلى النبي وقد طمع في إسلامهم فأقبل عبد الله بن أم مكتوم وهو رجل أعمى رقيق الحال. فكره النبي أن يقطع عليه كلامه مع سادات قريش وأعرض عنه فنزلت سورة عبس:

سورة عبس :

«عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذَّكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزَّكَّى. وأمَّا من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهَّى. كلا إنها تذكرة. فمن شاء ذكره. في صحف مكرَّمة. مرفوعة مطهَّرة. بأيدي سفرة. كرام بررة» (١ - ١٦).

وفى الآيات عتاب من الله لنبيه لإعراضه عن ابن أم مكتوم وتفضيله صناديد قريش عليه وكان النبى بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى، ويقول هل من حاجة؟ ، ثم تأتى الآيات بعد ذلك بسؤال إلى النبى عما أدراه لعل هذا الأعمى ينتفع ويتطهر بما يتلقاه عن النبى أو يتعظ فتنفعه العظة فى حين أن من استغنى بثروته وقوته فإن النبى أقبل عليه يرجو إيمانه مع أنه غير مسئول عنه إذا لم يؤمن فى حين أن الأعمى جاءه يطلب الهداية وهو يخشى الله فتشاغل عنه. ثم تأتى «كلا» مبالغة فى العتاب ثم بيان أن من أراد ذكر الله فليتلو القرآن الكريم المكتوب عند الله فى صحف مكرَّمة كتبت بأيدى الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله.

وكتنديد بهؤلاء الصناديد من قريش الذين طمع النبى فى إسلامهم فى حين أن الله قد علم سريرتهم تأتى الآيات بدعوة بالهلاك لهذا الإنسان الجاحد لأنه يكفر بنعم الله عليه. ثم تساؤل تقريرى عن كيفية خلق الإنسان ويأتى الجواب أنه خُلق من نطفة. وبتقدير الله وقدرته جعله بشرا سويا ثم يسَّر له سبيل المعيشه فى الحياة الدنيا وأمدَّه بكل ما يلزم. ثم أماته وكرَّمه بأن علَّمه كيف يدفن موتاه ولا يترك أجسادهم فى العراء تعبث بها الوحوش الضارية والطيور الجارحة. وعندما يشاء الله ينشره ويبعثه. ثم تأتى «كلا» هنا كلمة ردع لعدم وفاء ذلك الإنسان بما أمر به فما من إنسان يخلو من تقصير:

«قتل الإنسان ما أكفره. من أى شيئ خلقه. من نطفة خلقه فقدَّره. ثم السبيل يسَّره. ثم أماته فاقبره. ثم إذا شاء أنشره. كلا لما يقضِ ما أمره» (١٧ – ٢٣).

ثم تأتى تذكرة بفضل الله على الإنسان فى توفير مختلف أنواع الطعام له وللأنعام التى تخدمه:

«فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنَّا صببنا الماء صبًّا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبًّا (عشبا للبهائم). **متاعا لكم ولأنعامكم»** (٣٢ – ٤٤).

ثم تختم السورة بتذكرة بيوم القيامة والصيحة التى تصم الآذان ومن هوله ينشغل الإنسان بنفسه ويفر من أقرب الناس إليه ثم تأتى مقارنة بين حال المؤمن وحال الكافر فى ذلك اليوم:

«فإذا جاءت الصاخَّة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبَرة. ترهقها قتَرة (أى تغشاها ظلمة). **أولئك هم الكفرة الفجرة»** (٣٣ – ٤٢).

سورة القدر :

والسورة تقرر أن القرآن نزل فى ليلة القدر

«إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر. تَنَزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر» (١ - ٥).

وقال بعض المفسرين إن القرآن نزل دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم أخذ ينزل مُنجَّما أى مُفرقًا حسب الأحداث ومقتضيات الأحوال. وقال بعض المفسرين بدأ إنزاله فى ليلة القدر. وسُمِّيت ليلة القدر للشرف الذى نالته بنزول القرآن فيها. ثم تساؤل عنها للدلالة على أن علو قدرها خارج عن دراية الخلق. ثم جواب موجز يبين أنها تعدل فى الخير والبركة أكثر من ألف شهر. وما احتوته السورة من الإشارة إلى نزول الملائكة وعلى رأسهم جبريل - الروح الأمين - وشمولها بالسلام حتى مطلع الفجر - دعوة ضمنية إلى المسلمين بإحيائها فى كل عام تحصيلا للبركة الإلهية وتكريما للذكرى التى انطوت عليها. وقد رويت أحاديث كثيرة عن النبى فى خير هذه الليلة وبركتها وهى تحث على تحريِّها وإحيائها. ووردت أحاديث كثيرة فى صدد تعيين وقتها. بعضها يفيد أنها فى العشر الأخيرة من رمضان. وأخرى تفيد أنها فى الوتر من العشر الأواخر. وفى بعضها أنها تحديدا ليلة السابع والعشرين منه. وقالوا إن الحكمة فى إخفائها أن يجتهد من يطلبها فى العبادة فى غيرها ليصادفها كأن يحيى ليالى شهر رمضان كله أو العشر الأواخر منه كما دأب السلف. وفى سبب تخصيص أمة محمد بهذه الليلة روى أن النبى ذكر يوما أن أربعة من بنى إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاما لم يعصوه طرفه عين فعجب المسلمون من ذلك وصَغُرت أعمالهم فى أعينهم فأتاه جبريل فقال يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك. وقرأ عليه سورة القدر (تفسير الألوسى. جـ ٣٠ ص ١٩٢) وألف شهر تزيد عن ثمانين عاما.

ثم نزلت سورة الشمس :

وتبدأ السورة بسبعة أقسام ستة منها ببعض مظاهر الكون ونواميسه:

١ - «والشمس وضحاها» قَسَمٌ بالشمس وضوئها فى أول النهار.

٢ - «والقمر إذا تلاها» قسم بالقمر إذا تبعها وخلفها فى الإنارة. ويقول علماء الفلك المعاصرين إن القمر يتلو الشمس فى ظهوره فى السماء ويتأخر عن موعده كل يوم ما بين ٤٠ إلى ٥٠ دقيقة لأن القمر عندما يتم دورته الظاهرية حول الأرض تكون الأرض قد انتقلت إلى نقطة أخرى فى مدارها حول الشمس فيتلوها القمر ويقطع مسافة أخرى ليصبح منها فى نقطة مثل النقطة التى بدأ دورانه منها.

٣ - «والنهار إذا جلاَّها» أى النهار إذا أظهر الشمس واضحة غير محجوبة. واختلف المفسرون فى «جلاَّها» فبعضهم جعل الضمير عائد إلى البسيطة فالنهار يجعلها واضحة والليل كما سيجئ فى الآية التالية يغشاها. وفريق آخر من المفسرين يجعل الضمير عائد

إلى الشمس لجريان ذكرها، أى أن النهار كلما تقدم فى الوقت ازدادت الشمس ارتفاعا فى السماء وزاد جلاء ضوئها أى أن النهار هو الذى يزيد الشمس جلاء.

٤ - **«والليل إذا يغشاها»**: قسم بالليل الذى يحل بظلامه فيغطى ضوء الشمس بحسب ما هو ظاهر لنا.

٥ - **«والسماء وما بناها»** قسم بالسماء وبالذات العلية لأنه هو الذى خلقها وأحكم بناءها.

٦ - **«والأرض وما طحاها»** قَسَم بالأرض والله الذى بسطها من كل ناحية.

٧ - **«ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها»**: وهو قَسَم بالنفس وبالله الذى خلقها وأنشأها وأودع فيها من الإمكانات ما يجعلها قابلة للتقوى والصلاح أو تجرى وراء شهواتها من الفسق والفجور.

ثم يجئ جواب القسم **«قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسَّاها»** أى أن من يزكى نفسه بطاعة الله يُفلح أما من دنَّس نفسه بالمعاصى وأفسدها بسيئ الأعمال فقد خاب وخسر.

ولبيان جزاء من أفسد نفسه بسيئ الأعمال ضُرِب مثل بما نزل بثمود من عذاب حين كذبوا رسولهم وعقروا الناقة والمعنى أن المكذبين من قريش قد ينالهم العذاب أيضا:

«كذَّبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها. ولا يخاف عُقباها» (١١ - ١٥).

زيادة تعذيب ضعفاء المسلمين :

راح طغاة قريش ينزلون العذاب بالعبيد الذين أسلموا وتمادوا فى ذلك فكانوا - كما سبق أن ذكرنا (ص ٨٠) يربطون عبيدهم بالسلاسل الحديدية الثقيلة ويلقونهم فى الصحراء الحارقة وقت الظهيرة أو يضعون على صدورهم الصخور الساخنة. ومن أنواع العذاب كذلك كان الضرب بالسياط ومنع الطعام والكى بالحديد المحمى. وأراد الله ردع هؤلاء الطغاة. فلفت نظرهم إلى ما فعله ذو نواس من اضطهاد النصارى فى اليمن بإلقائهم فى النار وهو ما ذكرناه سابقا (ص ٤) وتحذيرهم من مغبَّة ذلك فنزلت

سورة البروج :

«والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود» (١ - ٣).

وقد أجمع علماء الفلك قديما وحديثا على تقسيم الحزام المحيط بوسط الكرة السماوية إلى اثنى عشر برجا بعدد شهور السنة ورأوا فيها تجمعات للنجوم البعيدة. ولتبسيط التعرف عليها والتمييز بينها تصوروها على هيئة أشكال معينة وأعطوها أسماء محددة. فكانت البروج بالترتيب هى: الحمل. الثور. الأسد. الجوزاء. السرطان. العذراء. الميزان . العقرب. القوس.

الجدى، الدلو، الحوت، وكانوا يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ولكن المنجمين ألصقوا بها تأثيرات على طباع ومستقبل بنى البشر ومن هنا ظهرت – للتسلية – طريقة معرفة الحظ عن طريق معرفة البرج الذى ولد فيه.

ثم يأتى قَسَم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وبمن سيشهدون ذلك اليوم إذ سيشهدون فيه أهوالا جساماً.

ثم يجئ جواب القسم: **«قتل أصحاب الأخدود»** أى لُعِن هؤلاء الطغاة الذين حفروا الأخدود (كما ذكرنا سابقا، ص٤) وأوقدوا فيه النيران وقعدوا يتفرجون على المؤمنين وهم يُلقَون فى النار **«النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»**. ثم تذكر الآيات سبب هذا التعذيب وهو أنهم آمنوا بالله وهو نفس السبب الذى من أجله أنزل طغاة قريش العذاب بالمسلمين. **«وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيئ شهيد»** ثم أوردت الآيات ما ينتظر هؤلاء الطغاة – أصحاب الأخدود – من نار جهنم وبالطبع لن يختلف عن ذلك مصير الطغاة من كفار قريش. ثم تأتى الآيات بتبشير للمؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. وبالطبع فإن ذلك يشد من عزائم المعذّبين ويقويهم على تحمل ما ينزل بهم من عذابات قريش:

«إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات (حاولوا بالتعذيب صرفهم عن الإيمان) **ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير»** (١٠ – ١١).

ثم يأتى تهديد هو فى غاية القوة وتأكيد على شدة بطش الله :

«إن بطش ربك لشديد، إنه هو يبدئ ويعيد، وهو الغفور الودود، ذو العرش المجيد، فعَّال لما يريد» (١٢ – ١٦).

والمعنى أن الله إذا أخذ الظالم أخذه أخذا شديدا وانتقامه من المجرمين انتقام رهيب، وهو الذى بدأ الخلق وقادر على إعادتهم وبعثهم يوم القيامة أو على إعادة خلق آخر لو قرر إفناء هذا العالم. ومع شدة بطشه فهو **«الغفور الودود»** أى كثير الغفران لمن جاءه مستغفرا وكثير الود والمحبة لمن جاءه تائبا ومودته سبحانه وتعالى للخلق بإنعامه عليهم، وهو **«ذو العرش المجيد»** أى صاحب العرش العظيم وقد وُصِف العرش فى مكان آخر بـ **«وسع كرسيه السموات والأرض»** فعرشه هو الكون كله وهو مالكه وهو المجيد فى ذاته وصفاته ويفعل ما يريد لا يتخلف عن إرادته شيئ.

ثم تختم السورة بتذكرة عابرة بما حدث لفرعون وثمود وتكذيبهم لأنبيائهم فكان بطش الله بهم شديدا فأغرق الأولين ودمَّر الآخرين، ثم تحذير للكافرين من قريش بأن الله محيط بكل

أفعالهم والمعنى أنه سيجازيهم عليها، ثم تقرير بأن ما يوحى به إلى الرسول هو قرآن مجيد مسطور فى اللوح المحفوظ:

«هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود. بل الذين كفروا فى تكذيب. والله من ورائهم محيط. بل هو قرآن مجيد. فى لوح محفوظ» (١٧ - ٢٢).

وقد وضعت التذكرة فى صيغة تساؤل **«هل أتاك»** للفت الانتباه ولتقرير أن السامع لابد وأن يكون على دراية بهذا الأمر، أما عن اللوح فهذه أول مرة يأتى ذكره فى القرآن الكريم، واللوح فى اللغة هو الشيئ الممهد المنبسط الذى يصلح عليه النقش والكتابة، ولما كان الناس قد اعتادوا أن يكتبوا ما يريدون حفظه من الأحداث على الألواح فالمعنى أن القرآن الكريم محفوظ حفظا تاما لا يمكن أن يطرأ عليه تبديل أو تغيير.

سورة التين :

ثم نزلت سورة التين وفيها تحذير للمشركين من إفساد فطرتهم بالكفر فينزلون بها إلى أسفل سافلين، وبدأت السورة بأقسام أربعة:

«والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين» (١ - ٣).

قسم بشجر التين الذى يأكلون وبشجر الزيتون الذى يعصرون، وبالطور وهو الجبل فى سيناء الذى كلّم الله عليه موسى، وأخيرا بمكة هذا البلد الآمن لمن دخله. ثم يأتى جواب القسم:

«لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» (٤ - ٦).

وفى هذه الفقرة تأكيد على أن الله قد خلق الإنسان فى أحسن تكوين خَلقا وخُلُقا بما أودعه فيه من مواهب وقوى وعقل يمكنه به التمييز بين الخير والشر والجميل والقبيح . ثم هو يرتد إلى أسفل سافلين لعدم قيامه بموجب ما خلق له فيكذّب الرسل ولا يعمل الصالحات. واستثنى من هذا الارتداد الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات، فلهؤلاء عند ربهم أجر غير مقطوع عنهم ولا ممنون به عليهم. وتختم السورة بتساؤل: فإذا كان الأمر كذلك فما الذى يجعل الكافر يكذّب بيوم الدين وبتساؤل ثان يقرر أن الله هو أحكم الحاكمين والمعنى أنه لن يظلم أحدًا لأنه يجازى كل واحد حسب عمله:

«فما يكذبك بعدُ بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين» (٧ - ٨).

سورة القارعة :

وسورة القارعة تصف بعض مظاهر يوم القيامة وتقرر أن الله أحكم الحاكمين ويجازى كل واحد حسب أعماله:

«القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش. فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدراك ما هيه. نار حامية» (١ - ١١).

والقارعة هي التي تقرع الآذان لشدتها وتعني نفخة البعث يوم القيامة الذي يقرع الخَلْق بأهواله. تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة. ثم يأتي استفهام عن ماهية القارعة تعظيما وتفخيما لشأنها ثم وصف لحال الناس في ذلك اليوم فهم من الكثرة والضعف كالفراش ومعروف أن الفراش من أضعف المخلوقات ثم هو يحوم حول النار مُتخبِّطا حتى يقع فيها ويحترق. ثم وصف الجبال الصلبة وقد أصبحت مثل الصوف المنفوش في تفرقها وتطايرها هنا وهناك. وكم يكون مهولا أن نرى الجبال العظيمة تتطاير فيخشى الناس أن تحط عليهم أجزاؤها فتسحقهم. ثم تأتي مقارنة بين جزاء المؤمن الذي تثقل موازينه من كثرة أعماله الصالحة فهو في الجنة يعيش فيها عيشة راضية هنية. أما الكافر فموازينه خفيفة لقلة حسناته فمأواه هاوية تحتضنه كما تحتضن الأم وليدها. ثم يأتي شرح الهاوية بأنها نار جهنم الحامية.

يوم القيامة:

كان العرب في ذلك الوقت - مثل كثير من شعوب الشرق الأدنى القديم - لا يؤمنون ببعث بعد الموت ولا بيوم يُحاسَب فيه المرء على ما فعل في حياته الدنيا فيثاب إن كان قد أحسن العمل ويلقى جزاءه من العذاب إن كان قد كفر وطغى وتجبَّر. كان الناس يظنون أنها هي الحياة الدنيا ولا شيئ بعدها. فكان التكالب على الدنيا وزينتها. وجاء الإسلام ليلفت النظر إلى ما غفل عنه الناس ويؤكد لهم أن البعث بعد الموت حقيقة لا مراء فيها. وبعد البعث سيكون هناك حساب على كل ما فعل المرء في حياته الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وبهذا نزلت كل الكتب السماوية ولما كان القرآن هو آخرها لذلك كان التأكيد على هذا المعنى واضحا وصريحا. ويتكرر في أكثر من سورة بل ويتكرر عدة مرات في السورة الواحدة وحتى السور التي نزلت بصدد حادثة معينة نراها تذكر يوم القيامة والبعث في بعض آياتها. وتكرر في القرآن الكريم وصف جانب من أهوال ذلك اليوم وتغير مظاهر الكون فيه وكذلك تكررت المقارنة بين الجنات التي وُعد بها المتقون وبين نار جهنم التي يُقذف فيها المكذِّبون الضالون. ومن هذا المنطلق

نزلت **سورة القيامة:**

والسورة تتحدث عن بعث الناس وحسابهم وعن القيامة وأهوالها ووازنت بين وجوه المؤمنين الناضرة ووجوه الكافرين الباسرة. وتحدثت عن حال المحتضر وما كان من تقصيره في الواجبات حتى كأنه يظن أن لا حساب عليه وختمت بالأدلة التي توجب الإيمان بالبعث.

«لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة. أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوى بنانه» (١ - ٤).

وتبدأ السورة بقَسَم بيوم القيامة. وحرف النفى «لا» – كما سبق أن ذكرنا – هو لتوكيد القَسم. ثم أعقب ذلك قَسَمُ بالنفس البشرية ومن طبيعتها الندم على ما فاتها والتلوُّم على كل شيئ: فنفس المؤمن – يوم القيامة – تلومه على التقصير فى العبادة وعدم استكثاره من الصلاة. والكافر يلوم نفسه يوم القيامة على عدم إيمانه وانسياقه فى فعل الشر ويندم على النعيم الذى فاته. قال رسول الله: ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة. إن عملت خيرا قالت كيف لم أزد منه. وإن عملت شرا قالت ليتنى قصَّرت (تفسير الألوسى جـ ٢٩ ص ١٣٦). وجواب القَسَم مركب من سؤال وجوابه: السؤال فيه تعجب من قصور فهم الإنسان وشكّه فى قدرة الله على جمع عظامه. ويأتى جواب السؤال نافيا هذا الفهم ومؤكدا قدرة الله على إعادة الجسد إلى حالته الأولى حتى فى أصغر دقائقه. والبنان هو العقلة الأخيرة من الأصابع ومفرده بنانة وقد فهم الأقدمون منها أن الله قادر على أن يعيد خلق السلاميات على صغرها. وفى العصر الحديث عرف أن أطراف الأصابع لها بصمة لا يشترك فيها اثنان من البشر وهى حاليا تستخدم لتحقيق الشخصية ويكون بعث كل شخص حتى بالخطوط الدقيقة التى فى أطراف أصابعه كما كانت فى الحياة الدنيا. وهو إعجاز دال على قدرة الله العلى العظيم.

«بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيَّان يومُ القيامة» (٥ – ٦).

أى أن الإنسان الكافر يختار طريق الفجور لأنه لا يؤمن ببعث ويسأل مستنكرا: متى يكون يوم القيامة؟ ويجئ الجواب على هذا التساؤل:

«فإذا بَرِق البصر. وخَسَف القمر. وجُمِع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر» (٧ – ١٠).

فهذه من علامات يوم القيامة: يتحيَّر البصر فزعا ودهشا. ويذهب ضوء القمر وجمع بين الشمس والقمر بعد أن كان لكل منهما فلك يسبح فيه – وقيل سيصطدمان. ويرى بعض علماء الفلك المعاصرين (د. زغلول النجار. الأهرام ٢٠٠٢/٩/٣٠) أن القمر يتباعد عن الأرض بمعدل ٣سم فى كل عام وهذا التباعد التدريجى للقمر سوف يخرجه يوما ما من نطاق أسر الأرض له فينطلق بفعل جاذبية الشمس الأقوى ويرتطم بها وتبلعه. تلك حتمية علمية ستحدث بعد آلاف الملايين من السنين. وليس معنى ذلك أننا عرفنا متى تقوم الساعة. فقيام الساعة غيب لا يعلمه إلا الله ولن يكون بسنن أو قوانين الدنيا بل بقول: كن فيكون. ولكن الله أبقى لنا فى الكون شواهد تدل على حتمية انتهاء الدنيا فمن لم يؤمن بيوم القيامة جاء العلم ليؤكد أن للكون نهاية. وهذا أيضا ما أثبتته نظرية النسبية من أن الكون فى اتساع دائم **«والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون»** (٤٧ – الذاريات) وحتما ستأتى لحظة يتوقف فيها هذا التوسع ويبدأ الكون فى الانكماش حتى يعود إلى نقطة الصفر التى بدأ منها مصداقا لقوله تعالى: «يوم

تطوى السماء كطى السجل للكتب. كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا إنا كنا فاعلين» (١٠٤ - الأنبياء).

وحينئذ - أى فى يوم القيامة - يتأكد الإنسان من صدق ما أُخبر به فى الدنيا ويبدأ فى البحث عن مخرج ومفر من هذا الموقف ولكن لا ملجأ ولا مفر:

«كلا لا وزر، إلى ربك يومئذ المستقر، ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر» (١١ - ١٣).

والوزر فى اللغة ما يُلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرها للمَنَعة. والمعنى أنه فى يوم القيامة لا ملجأ يحمى من أمر الله.والمستقر والمنتهى هو إلى الله. وسيُخبرُ الإنسان بكل ما عمل وتكون أعمالهُ ماثلة أمام بصره ويصبح هو شاهدا على نفسه

«بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره» (١٤- ١٥).

ثم يأتى موضوع اعتراضى. ذلك أن النبى كان إذا نزل عليه القرآن يُعجِّل بتلاوته يريد أن يحفظه ولا يفوته منه شيئ فنزل الأمر:

«لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه» (١٦- ١٩).

ثم تعود السورة إلى الموضوع الأصلى وهو يوم القيامة فتذكر الناس بأنهم يحبون الحياة الدنيا ويهملون الآخرة: والناس فيها فريقان. فريق ناضر الوجه لما يشعر به من الرضا والطمأنينة وينال غاية ما يتمناه البشر وهو النظر إلى وجه ربه الكريم. وفريق عابس لما يتوقعه من الهول الذى يكسر فقرات الظهر:

«كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يُفعل بها فاقرة» (٢٠- ٢٥).

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى **«إلى ربها ناظرة»** حيث قال فريق بإمكان الرؤية وقال الفريق الآخر بعدم إمكانها استنادا إلى قوله تعالى: **«لا تدركه الأبصار»** وفسروا قول: **«إلى ربها ناظرة»** أى منتظرة أوامر ربها وثوابه. والأولى بالمسلم أن يقف من هذه المسألة موقف التحفظ المؤمن مع التنزيه المطلق الواجب لله عز وجل عن المكان والحدود والجسمانية.

ثم تأتى كلمة «كلا» ردعا لحب الدنيا هذا المنسى للآخرة. ثم تذكرة بلحظة الموت وخروج الروح من الجسد:

«كلا إذا بلغت التراقِىَ. وقيل من راقٍ. وظن أنه الفراق. والتفّت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق» (٢٦ - ٣٠).

والتراقى جمع ترقوة وهى العظمة المعروفة فى أعلا الصدر. وتصف الآيات حال الإنسان حين يحضره الموت ووصلت روحه إلى أعلا الصدر - فى مستوى الترقوة - فى طريقها إلى

الخروج، وتساءل الحاضرون عن راقٍ يرقيه ليخفف عنه ما به من سكرات الموت. وظن بمعنى تأكد المحتضر أن الذى نزل به هو فراق الدنيا وبلغت به الشدة أقصاها حتى التفَّت إحدى ساقيه بالأخرى من الهلع. وتأكد له أنه مسوق إلى ربه وقُدِّم الخبر للدلالة على أن المساق لله وحده لا إلى أحد غيره.

«فلا صدَّق ولا صلَّى، ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطَّى. أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى. أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى. ألم يك نطفة من مَنِىٍّ يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوَّى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» (٣١ - ٤٠).

أى أن الكافر يتذكر فى ذلك اليوم أنه لم يصدِّق الرسول ولم يصلِّ. بل كذَّب وتولَّى عنه ثم ذهب إلى أهله متبخترا متثاقلا. وتتوعده الآيات بالهلاك. وأى هلاك. ثم يأتى سؤال استنكارى إلى هذا الإنسان المنكر للبعث عما إذا كان يظن أن يُترك «سدى» أى مُهملا فلا يُكلَّف ثم يموت ولا يبعث حتى يحاسب على عمله؟ والإجابة على هذه السؤال جئ بسؤال تقريرى عن أن الإنسان كان نطفة ثم علقة ثم تخلَّق فى الرحم إلى أن صار بشرا سويا وجعل الله منه الذكر والأنثى. ثم تختم السورة بسؤال ليس من جواب له إلا الإقرار بأن ذلك الخلاَّق العظيم قادر على إحياء الناس بعد مماتهم.

الكفار يسخرون من المؤمنين :

كان كفار مكة وأثرياؤها يعقدون المجالس اللاهية ويتناولون فيها النبى والمسلمين بالسخرية والهمز واللمز بالقول والإشارة. وقيل كان أشدهم فى ذلك أبو جهل الذى كان يغتاب النبى ويقدح فيه وقد جاراه فى فعله أُبَىُّ بن خلف وغيرهم من الكفار.

فنزلت **سورة الهمزة :**

«ويل لكل همَزة لُمَزة. الذى جمع مالا وعدَّده. يحسب أن ماله أخلده. كلا لينبذن فى الحطمة. وما أدراك ما الحطمة. نار الله الموقدة. التى تطَّلع على الأفئدة. إنها عليهم مؤصدة. فى عمد ممددة» (١ - ٩).

والسورة فيها وعيد شديد لكل مَن كان دأبه أن يعيب الناس وخصَّت بالذكر ذلك الثرى الذى غرَّه ماله وظن أن المال سيجعله يخلد فى الدنيا ويأتى حرف الزجر «كلا» لنفى هذا الظن ثم تأكيد على أنه سيلقى فى النار التى تحطِّم كل ما يلقى فيها «الحطمة». ثم تساؤل عن هذه النار الشديدة. والجواب أنها نار أوقدها الله لتصل إلى قلوب الكافرين فتحرقها. وهى مغلقة الأبواب عليهم فلا فرار منها. فضلا عن أنهم مربوطون إلى أعمدة ممدودة فيها فلا حركة لهم ولا خلاص لهم منها.

ازدياد السور طولا :

لقد رأينا أن معظم السور السابقة كانت من قصار السور وكانت تُركز بشدة على مسألة

البعث ويوم القيامة ووصف أهواله وتبدل نواميس الكون فيه مع التوكيد على وحدانية الله ومقابلات سريعة بين ثواب المؤمنين وعذاب الكافرين في الآخرة.

ثم بدأت السور تزداد طولا وبدأت مواضيعها تتعدد. فأصبحت السور تحتوى على:

١ – التأكيد على وحدانية الله وأنه هو وحده الجدير بالعبادة.

٢ – بيان قدرته عز وجل فى خلق السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات وجميع مافى الكون.

٣ – التذكير بيوم القيامة وأهواله ووصف بعض مشاهده.

٤ – تسفيه عبادة الأصنام وبيان أنها لا تضر ولا تنفع.

٥ – وبعد أن كان ذكر الأمم السابقة يقتصر على ذكر أمتين أو ثلاث وباقتضاب شديد كما جاء فى سورة الشمس (الآية ١١ ص ٨٨) والتى اقتصرت على ذكر ثمود. وسورة الفجر (الآية ٩ و ١٠ ص ٦٠) والتى ذكرت فيها عاد وثمود. بدأ ذكر الأمم السابقة يأتى مطولا وذاكرا أقواما عدة وبتفصيلات لعل الهدف منها تصحيح بعض المعلومات التى وردت محرفة فى قصص أهل الكتاب. وعند تكرر ذكر الأقوام السابقين فى أكثر من سورة لا يكون ذلك تكرارا بل نجد أن كل سورة تذكر جانبا لم تذكره السورة الأخرى. مع التركيز على ماقاله الأنبياء لأقوامهم وما قالته الأقوام لرسلهم لتوضيح تشابه كفار اليوم بكفار الأمس. ثم ختام بذكر أنواع العذاب الذى نزل بالكفار السابقين.

٦ – ولما كان المسلمون قد ازداد عددهم نوعا ما وأسلم عدد من فتيان قريش الأقوياء مثل حمزة وغيره فاعتز المسلمون نوعا ما فقد جاءت الآيات توجه الإنذار المباشر إلى كفار قريش والتهديد القوى بالعذاب جزاء تكذيبهم.

٧ – كل ذلك مع احتفاظ السور بطابع القرآن المكى من قصر الآيات وكثرة المحسنات اللفظية من سجع وجناس وطباق كما لم يمنع أن تأتى بعض سور قصار بين هذه السور متوسطة الطول.

سورة المرسلات :

«والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا. عذرا أو نذرا. إنما توعدون لواقع» (١ – ٧).

تبدأ السورة بخمسة أقسام اختلف فى معناها ويتبدى فيها نوع من الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم إذ بالرغم من الاختلافات فى تفسيرها فإن هدفها واحد. بعض المفسرين (تفسير الألوسى جـ ٢٩ ص ١٦٩) قال هى خمس طوائف من الملائكة:

١ – المرسلات يرسلن متتابعات كعرف الفرس .

٢ – فيعصفن فى مُضيِّهن عصف الريح .

٣ – وبعضهن نشرن أجنحتهن فى الجو.

٤ – وبما نزلت به من الشرائع فرقن بين الحق والباطل .

٥ – إعذارا للناس وإنذارا فلا تكون لهم حجة.

وقال أخرون هى أربعة أقسام بالريح والخامس بالملائكة :

١ – الرياح المرسلة التى تتتابع كعرف الفرس .

٢ – والعاصفة الشديدة .

٣ – والناشرات أى التى تنشر السحب .

٤ – والفارقات التى تبدد السحب وتفرقها أو السحب الممطرة تشبيها بالناقة الفارقة وهى الحامل.

٥ – وأخيرا قسم بالملائكة التى تلقى الذكر والآيات من الله إلى الأنبياء بالعذر أى التوبة لأوليائه ونذرا بالعذاب لأعدائه.

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (ص ٨٧٤) أنه قسم بالآيات:

١ – الآيات المرسلة على لسان جبريل إلى النبى للعرف والخير.

٢ – والآيات التى تعصف بالأديان الباطلة .

٣ – وتنشر الحكمة والهداية.

٤ – وتفرق بين الحق والباطل.

٥ – وتلقى على الناس تذكرة تنفعهم إعذارا أو إنذارا حتى لا تكون لهم حجة عند الله.

بعد هذه الأقسام الخمسة يجئ جواب القسم وهو أن ما يتوعدهم به النبى من مجئ يوم القيامة آت لا ريب فيه **«إن ما توعدون لواقع»**.

وتكملة لذلك تأتى الآيات بمشهد مما سيحدث فى ذلك اليوم من اختلال السنن الكونية:

«فإذا النجوم طُمست. وإذا السماء فُرجت. وإذا الجبال نُسفت. وإذا الرسل أُقِّتت. لأى يوم أُجِّلت» (٨ – ١٢).

ففى ذلك اليوم تنطفئ النجوم وتنطمس ويذهب ضوؤها . والسماء يصبح فيها فروج أى تتشقق وتفتح فيها أبواب. والجبال تصبح هشة كالحب الذى يُنسف بالمنسف. وإذا الرسل قد

عين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم. ثم تساؤل عن هذا اليوم الذى أُخِّرت هذه الأمور العظيمة لتقع فيه. ويأتى جواب الشرط وجواب التساؤل وهو:

«ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين. ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين. كذلك نفعل بالمجرمين. ويل يومئذ للمكذبين» (١٢ - ١٩).

أى أن هذه الأمور العظيمة أُجِّلت لتحدث فى يوم فيه الفصل بين الخلائق وتساؤل لتعظيم شأن ذلك اليوم. إنه يوم الويل والهلاك للمكذبين. ثم يأتى تساؤل لتأكيد أن الله قد أهلك المكذبين من الأمم السابقة والأمم المتأخرة أيضا. وأن هذا سيكون مصير المجرمين من كفار قريش. ثم تكرار الإنذار بالويل والهلاك للمكذبين.

بعض نعم الله على العباد :

١ - ثم يأتى تساؤل تقريرى لبيان قدرة الله فى الخلق يعقبها إنذار بالويل والهلاك للمكذبين:

«ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه فى قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين» (٢٠ - ٢٤).

ويرى العلماء المعاصرون أن القرار المكين هو الرحم الذى يُمكِّن النطفة الأمشاج من أن تنمو داخله ويتضاعف حجمه فى نهاية الحمل عدة مئات من المرات ليتسع للجنين. وعنقه مزود بعضلات قوية لا تنفتح إلا وقت الولادة.

٢ - ثم بيان لنعمة أخرى وهى جعل الأرض من الاتساع بحيث يعيش عليها الأحياء وتضم فى بطنها الأجداث. والجبال راسيات وعاليات تنبع منها الأنهار لتسقى ماء عذبا فراتا وتختم الفقرة بدعوة الهلاك على المكذبين:

«ألم نجعل الأرض كفاتا. أحياء وأمواتا. وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا. ويل يومئذ للمكذبين» (٢٥ - ٢٨).

عود إلى مشاهد من يوم القيامة :

أ - تقرر الآيات أن الكافرين فى ذلك اليوم سيؤمرون بالسير إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به فى الدنيا وأن يسيروا إلى دخان نار جهنم وهو يرتفع ويتشعَّب إلى ثلاث شعب ويظن الكافر أنها قد تُظِلُّه وتدرأ عنه شيئا من حر اللهب. ولكن ظنه يخيب ويجد أنها ترمى بشرر عظيم مثل القصر ومفردها قصرة وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ. والجمالات الحبال الغلاظ وعند اشتعال كل هذا تبدو النار صفراء اللون. وتختم الفقرة بدعوة الهلاك على المكذبين والتى تتكرر فى آخر كل فقرة:

«انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب. لا ظليلٍ ولا يغنى من اللهب. إنها ترمى بشرر كالقصر. كأنه جِمالات صفر. ويل يومئذ للمكذبين» (٢٩ - ٣٤).

ب - ثم تصف الفقرة التالية ما سوف يكون عليه حال المكذبين من سوء وحرج. فهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئا ولا يسمح لهم بالاعتذار عما بدا منهم:

«هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين» (٣٥ - ٣٧).

جـ - وفى فقرة ثالثة تتحداهم بسخرية فيقال لهم هذا يوم الفصل - الذى يَفصل بين الحق والباطل أو يُفصل فيه بين الحق والباطل - وقد جُمع فيه الأوَّلون والآخرون وتتحداهم إن كان باستطاعتهم أى حيلة للخلاص. ثم الويل للمكذبين.

«هذا يوم الفصل. جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد (حيلة فى دفع العذاب) **فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين»** (٣٨ - ٤٠).

د - وفى الفقرة التالية يُؤَكِّد على أن ثواب المصدقين المؤمنين جنات فيها فواكه من كل ما يشتهون فذلك هو جزاء المحسنين ثم تأتى دعوة الهلاك على المكذبين:

«إن المتقين فى ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزى المحسنين. ويل يومئذ للمكذبين» (٤١ - ٤٤).

هـ - ثم يؤمر الكافرون - تهكُّما - بأن يستزيدوا من متع الحياة الدنيا أكلا وشربا فهى قليلة ولن تغنى عنهم شيئا لأنهم مجرمون ثم تأتى دعوة الهلاك على المكذبين. ثم يستأنف تأنيب الكفار بتذكيرهم بأنهم كانوا إذا طلب منهم الركوع والخشوع لله رفضوا. ثم الدعوة بالويل والهلاك على المكذبين:

«كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون. ويل يومئذ للمكذبين. وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون. ويل يومئذ للمكذبين» (٤٦ - ٤٩).

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة تتساءل عن أى شيئ أو أى حديث يجعلهم يؤمنون إذا لم يؤمنوا بالقرآن مع إدراكهم بأنه معجزة من رب العالمين:

«فبأى حديث بعده يؤمنون» (٥٠).

ولاشك أن كفار قريش قد ارتعدت فرائصهم وهم يسمعون التحذير الشديد الذى تضمنته هذه السورة بتكرر دعوة الهلاك **«ويل يومئذ للمكذبين»** عشر مرات. ولعل بعضهم بدأ يراجع موقفه المتصلِّب والمناوئ للرسول وهو ما هدفت إليه السورة. إلا أن الغالبية العظمى من قريش ظلت على موقفها المعادى للإسلام والمكذب بالبعث فقد كان الفكر السائد وقتئذ هو أن الحياة الدنيا يعقبها الموت ولا شيئ بعد ذلك. لا بعث ولا حساب ولا حياة آخرة. فنزلت سورة ق.

سورة ق :

والسورة فى مجملها تدور حول البعث وتأكيد وقوعه .وبدأت السورة بحرف «ق» وهى ثانى السور التى نزلت مبتدئة بحرف من حروف الهجاء إذ سبقتها سورة القلم التى بدأت بحرف «ن» (ص ٤٤). وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الحروف المقطعة قصد بها التحدى وتنبيه الأذهان لما بعدها . أما القول بأنها من أسماء الله الحسنى أو أن كل حرف يشير إلى اسم من أسمائه أو صفة من صفاته عز وجلّ فهو افتراض لا دليل عليه. كما أن بعض الباحثين المعاصرين – استنادا إلى إحصاءات بآلات الكمبيوتر – قالوا إنها تشير إلى أكثر الحروف تكرُّرًا فى السورة. وغيرهم قال إن لها ارتباطا بعدد آيات السورة أو عدد حروفها . وأرقامهم فيها كثير من التجوز وإن تصادف وصدقت فى سورة لم تصدق فى غيرها . والأولى التسليم بأنها سر استأثر به الله سبحانه وتعالى فى علمه وعلينا أن نتلوها هكذا كما وردت:

«ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيئ عجيب. أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد. قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ. بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج» (١ – ٥).

بدأت السورة بقسم بالقرآن العظيم، وجواب القسم محذوف وتقديره أن ما يتعجَّب الكافرون من إنذارهم به – صدق لا ريب فيه. فالكفار تعجبوا من أمرين:أولا أن يأتيهم نبى منهم . ثم تعجبوا ثانية مما أنذرهم به فقالوا إن البعث بعد الممات وبعد أن تصير الأجساد ترابا والقول بأن هناك عودة إلى الحياة أمر بعيد الوقوع. وطبعا تعجُّبهم يدل على إنكارهم لما تعجبوا منه فكان الرد عليهم أن قدرة الله ليس لها حدود فالله سبحانه وتعالى يعلم ما تأكل الأرض من أجسادهم فكل شيئ مكتوب فى اللوح المحفوظ فلا تتعذَّر الإعادة ولكنهم كذبوا بالحق سواء كان المقصود تكذيبهم للرسول أو تكذيبهم بالبعث فهم فى تخبط واختلاف من أمرهم: مرة يقولون عن النبى إنه ساحر ومرة يقولون هو كاهن **«فهم فى أمر مريج»**.

ثم يأتى تساؤل فيه تعجب من غفلتهم عن أن يلاحظوا ما هو أعظم من البعث: وهو رفع السماء وما بها من نجوم تزينها . وبسط الأرض والجبال فيها رواسى. وإنبات الأرض بعد نزول المطر أزواجا تتكاثر منها أنواع مختلفة من النباتات بهجة للناظرين. وحَبا يُحصد فيتغذَّى عليه الأحياء وخُصَّ النخل بالذات لما له من أهمية لأهل الصحارى. وقياسا على قدرة الله هذه يكون البعث أمرا يسيرا:

«أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج» (٦ – ١١).

ثم ذكرت الآيات أقواما سابقين كذَّبوا رسلهم فحق عليهم وعيد الله وعقابه والمعنى أن المكذبين من قريش سينالهم أيضا عذاب. وتنكر الآيات عليهم عدم تصديقهم بالبعث مع أن الله هو الذى خلق فى البداية فلا تعجزه الإعادة:

«كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة (وهم قوم شعيب) **وقوم تُبّع كل كذَّب الرسل فحق وعيد. أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد»** (١٢ – ١٥).

ثم تذكر الآيات بعد ذلك كيف أن الله خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وأن الله أقرب إليه من حبل الوريد. ثم تذكر أن هناك ملكان موكلان بكل إنسان. ما يتكلم بشيئ أو يفعل فعلا إلا كتبوه. فإذا جاءه الموت – وهو الأمر الذى كان يهرب منه – ثم ينفخ فى الصور نفخة البعث. فيتأكد له أن البعث حقيقة وتأتى الأنفس ومعها سائق يسوقها إلى الحساب وشاهد يشهد عليها بما عملت. ثم يُذكر الجدل الذى سيحدث بين الإنسان وقرينه:

«ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد. وقال قرينه هذا ما لدىَّ عتيد. ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد. منّاع للخير معتد مريب. الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد. قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدىَّ وقد قدَّمت إليكم بالوعيد. ما يُبدَّل القول لدىَّ وما أنا بظلاَّم للعبيد. يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» (١٦ – ٣٠).

ثم يذكر ما يثاب به المتقون فى جنات النعيم :

«وأزلفت الجنة (أى قُرِّبت) **للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أوَّاب حفيظ. من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد»** (٣١ – ٣٥).

ثم تأتى تذكرة بمن أهلكهم الله من المكذبين من الأمم السابقة وأنهم كانوا أكثر قوة من كفار قريش وأكثر تسلُّطاً. فلما نزل بهم العذاب ساروا فى الأرض يبحثون عن مهرب. وفى ذلك عظة لمن كان له قلب يدرك الحقائق أو يستمع إلى ما ينزل به الوحى من هداية:

«وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقَّبوا فى البلاد هل من محيص. إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» (٣٦ – ٣٧).

وللتدليل على عظم قدرة الله تذكر الآيات أن الله قد خلق السموات والأرض في ستة أيام وما أصابه عز وجل من إعياء أو تعب:

«ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» (٣٨).

وتأتي الفقرة الخاتمة للسورة بأمر إلى الرسول بالصبر على تكذيب الكافرين له، وأن يداوم على ذكر الله نهارا وليلا وفي كل وقت وأن ينتظر يوم القيامة حين يبعثون فيعلمون أن ما سبق ذكره عن البعث كان حقا. وفي ذلك اليوم تنشق الأرض عنهم للبعث وذلك أمر يسير بالنسبة لقدرة الله عز وجل. وليس من مهمة الرسول أن يجبرهم على الإيمان وكل ما عليه هو تذكيرهم بما ينزل من آيات القرآن فيؤمن من وعى وخاف ما جاء به من وعيد:

«فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود (أي عقب الصلاة)**. واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب. يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير. يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد»** (٣٩ – ٤٥).

سورة البلد :

آتى تكرار الإشارة إلى يوم القيامة والبعث بعد الموت والحساب في الآخرة أثره في نفوس الكفار وخاصة أن الأسلوب القرآني لم يكن أسلوبا عاديا بل كان به بلاغة لم يعهدوها. فله جرس يجذب الأسماع، ليس له أوزان الشعر ولا هو مثل النثر المسجوع. بل كان شيئا فريدا في ذاته. وبدأت أعداد المسلمين تتزايد ببطء وخشي كفار قريش على مكة إن انتشر الإسلام وأزيلت الأصنام من حول الكعبة وهي التي كان العرب يحجون إليها وعليها تقوم تجارتهم وثرواتهم. فنزلت سورة البلد لتطمئنهم من هذه الناحية. فها هو رب محمد يقسم بالبلد. والقسم لا يكون إلا بشيئ عظيم. وتؤكد الآيات أن وجود النبي يزيد البلد تكريما وتشريفا. ولعل قريشا اطمأنت بعض الشيئ إلى أن الدين الجديد لن يقلل من أهمية مكة:

«لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد» (١ -٢).

وقيل إن في هذا تنديدا بما كانوا يفعلونه من إيذاء النبي والعمل على إخراجه إذ أن وجوده فيه يزيد من مكانة هذا البلد:

«ووالد وما ولد» (٣).

قسم ببني آدم كلهم إلى أن تقوم الساعة فما منهم إلا هو والد أو ولد.

ثم يأتي جواب القسم يقرر أن الإنسان خلق ليكون في الحياة الدنيا في مشقة وتعب :

«لقد خلقنا الإنسان في كبد» (٤).

ثم يأتى تساؤل استنكارى: هل يظن ابن آدم أن أحداً لن يحاسبه على أفعاله وهو يكتسب المال وينفقه فى أوجه كثيرة. حلالاً أو حراما. ظانًا أن أحداً لم يره. ثم تأتى تذكرة للإنسان بأن الله هو الذى أعطاه نعمة البصر والقدرة على الكلام وأوضح له طريق الخير والشر. فكان الأولى به أن ينفق ماله فيما ينفعه. مثل خلاص عبد يعتقه من الرق أو إطعام مساكين وخاصة لو كان قريبا يتيما أو مسكينا فى وقت مجاعة وليس له شيئ فكأنه لُصِق بالتراب «ذا متربة» ولو فعل ذلك لكان قد تخطًى العقبة التى تحول بينه وبين النجاة ولكان من المؤمنين أصحاب الميمنة والمفهوم أن لهم الجنة. أما الذين كفروا بآيات الله فهم أصحاب المشئمة ولهم النار. أبوابها مغلقة عليهم فلا يستطيعون الخروج منها:

«أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لُبدا. أيحسب أن لم يره أحد. ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين. فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فك رقبة. أو إطعام فى يوم ذى مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة. والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة. عليهم نار مؤصدة» (٥ – ٢٠).

ثم نزلت **سورة الطارق :**

«والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب. إن كل نفس لما عليها حافظ» (١ – ٤).

وتبدأ السورة يقسَم بالسماء والطارق ثم تساؤل عن ماهية الطارق لتعظيم شأنه. ثم توضيح بأنه النجم الثاقب. والعرب تقول ثقب الطائر إذا ارتفع وعلا أى أنه نجم مرتفع فى السماء. وروى عن على بن أبى طالب أنه قال إنه نجم فى السماء السابعة. وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص ٨٩٨) أنه النجم الذي ينفذ ضوءه فى الظلام. وفى الوقت الحالى يرى الفلكيون أن ذكر «النجم الثاقب» هو إعجاز علمى سبق إليه القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا من الزمان ذلك أنهم وجدوا أن النجوم فى المرحلة الأخيرة من تطورها يخمد ضوءها ويصغر حجمها وتزداد جاذبيتها حتى إن النجم يجذب أى كتلة تمر به ويبتلعها ويجذب أيضا أشعة الضوء فيبدو وكأنه ثقب أسود فى السماء.

ثم يجئ جواب القسم مؤكدا على وجود ملائكة حفظة على الإنسان يراقبون ويحصون أعماله. وكان الكفار لا يصدقون بأن هناك حساب على أقوالهم وأفعالهم. وللتدليل على قدرة الله العظيمة فى هذا الشأن جاءت دعوة للإنسان للتفكر فى كيفية خلقه:

«فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر» (٥ – ١٠).

وصلب الرجل ظهره والترائب جمع تريبة وهى موضع القلادة من المرأة أو عظام صدرها

وقيل المعنى أن الرجل والمرأة حين يلتقيان يصيران كالشيئ الواحد كالتصاق الصلب بالترائب. ويرى العلماء المعاصرون أن فى هذه الآية إعجازا علميا. ذلك أن الإنسان يتخلق من التقاء الحيوان المنوى الذى يخرج من خصية الرجل ببويضة المرأة التى تتكون فى المبيض. وكما هو مبين فى شكل ١٣ فإن الخصية والمبيض فى الجنين يكونان فى المكان المبين بعلامة x وهو مكان يقع بين الصلب أى العمود الفقارى والترائب وهى الضلوع. ثم يهاجر المبيضان ليستقرا فى حوض المرأة. أما الخصيتان فى الرجل فيكملان رحلتهما لتستقرا خارج الجسم فى الكيس الصفنى. والله القادر على هذا الخلق قادر على إعادة خلقه وإرجاعه كما كان يوم القيامة وهو اليوم الذى تُختبر فيه النفوس ويُخرج منها ما كانت قد أخفته فى الدنيا. والإنسان فى ذلك اليوم ليس له قوة تمنعه ولا ناصر ينصره ويحميه مما قد ينزل به.

ثم يجئ قسمان ، واحد بالسماء والثانى بالأرض:

«والسماء ذات الرجع» (١١) :

ويقول أهل اللغة الرجع المطر. فالسماء تُرجع كل سنة بمطر بعد مطر. ويرى علماء الجغرافيا أن فى هذه إشارة إلى الدورة التى تقوم بها المياه إذ يتبخر الماء من البحار والمحيطات مكونا السحاب وتسوقه الرياح ويرتفع فى طبقات الجو فيبرد ويتكثف إلى قطرات ماء تنزل مطرا إلى الأرض (أ – شكل ١٤). ويرى علماء الفلك فى وصف السماء بذات الرجع إعجازا علميا يحتوى على معان كثيرة إذ ثبت أن السماء ترجع وترد عن الأرض – بواسطة السحب والغلاف الجوى – كميات هائلة من حرارة الشمس أثناء النهار وفى الليل ترجع إلى الأرض ما امتصته من حرارة أثناء النهار وبذلك يمتنع حدوث تفاوت كبير بين درجة الحرارة فى الليل والنهار مما قد يضر بالأحياء. كما أن طبقة الأوزون (جـ شكل ١٤) تعكس معظم الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس والتى ثبت أنها تسبب سرطان الجلد. كذلك وُجد أنه على ارتفاع ١٠٠ – ٢٠٠ كم فوق سطح البحر توجد طبقة متأينة تسمى «حزام ڤان آلن» يعكس الإشارات الراديوية ويرجعها إلى الأرض فتنعكس مرة ثانية إلى الحزام المتأين وهكذا فتصل إلى أجزاء بعيدة من الأرض فيمكننا أن نسمع إذاعات النصف الآخر من الكرة الأرضية ولولا ذلك لضاعت الموجات فى الفضاء (د شكل ١٤) ولم تصل إلا إلى الأماكن المحيطة بمحطة البث الإذاعى.

«والأرض ذات الصدع» (١٢) :

والصدع فى اللغة هو الشق وقالوا هو انشقاق الأرض عند بروز النبات من سطحها وقالوا هو ما تتشقق عنه الأرض من عيون الماء. ويرى علماء الجغرافيا المعاصرون أن هذا الوصف فيه إعجاز علمى فقد ثبت أن هناك ما يسمى بالصدوع العملاقة فى القشرة الصلبة للأرض (شكل ١٥) تمتد بعمق يتراوح بين ٦٥ – ٧٠كم تحت قيعان المحيطات فتقسم الطبقة الصخرية

الصلب

الترائب

الترائب

مكان الخصية والمبيض
في جنين عمره ٥ أشهر.

المبيض يهاجر حتى
يستقر فى مكانه فى الحوض

الخصية تهاجر حتى
تستقر فى الكيس الصفنى .

عظام الحوض

الرحم

المبيض

الكيس الصفنى
وبه الخصيتان

شكل ١٢ – «من بين الصلب والترائب»

ب - الرجع الحرارى

جـ - رجع معظم الأشعة الكونية الضارة

فى النهار ترجع السحب كثيرا من الحرارة

طبقة الأوزون

وفى الليل تحفظ حرارة الأرض من التسرب

المطر يرجع الماء إلى الأرض .

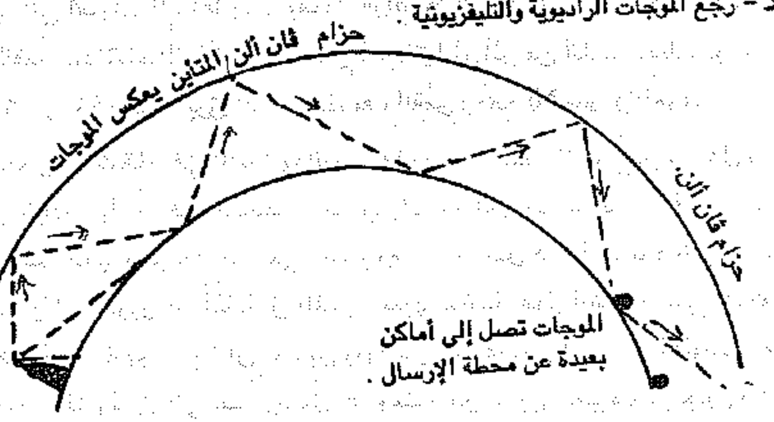
بخار الماء يصعد من البحار والأنهار

أ - رجع الماء.

الموجات لا تصل إلى أبعد من هذه النقطة

موجات الراديو تتشتت فى الفضاء .

د - رجع الموجات الراديوية والتليفزيونية .



شكل ١٤ – والسماء ذات الرجع .

إلى «ألواح» تطفو فوق الطبقة شبه المنصهرة من باطن الأرض ودليلهم على ذلك حدوث إزاحة تدريجية في القارات بعضها عن بعض. وقبل مئات الملايين من السنين كانت أمريكا الجنوبية ملاصقة للساحل الغربي لأفريقيا ولكن صدعا هائلا حدث بينهما وبدأت القارات تنزلق متباعدة فنتج المحيط الأطلنطي. وقس على ذلك جميع المحيطات. وكانت أستراليا ملتصقة بغرب أمريكا الجنوبية ولكن صدعا فصلهما. والبحر الأحمر نشأ عن صدع فصل الجزيرة العربية عن الجزء الشمالي من أفريقيا. ويرى العلماء أنه بعد مئات الألاف من السنين سيمتد هذا الصدع من خليج العقبة حتى البحر الميت ثم إلى البحر المتوسط ليفصل قارة آسيا كليًّا عن أفريقيا.

بعد هذا القَسم بالسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع يجئ جواب القسم:

«إنه لقول فصل. وما هو بالهزل. إنهم يكيدون كيدا. وأكيد كيدا. فمهِّل الكافرين أمهلهم رويدا» (١٧).

أي أن هذا القرآن يفصل بين الحق والباطل وليس فيه شائبة هزل ولا باطل. وقد وصف رسول الله القرآن بقوله: كتاب فيه خبر ما قبلكم. وحكم ما بعدكم. هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله. وتستمر الآيات تثبت كيد الكافرين بالنبي وأصحابه وأن الله يرد كيدهم بكيد هو قطعا أشد من كيدهم. وتنتهي السورة بأمر للنبي بأن يمهلهم والمعنى أن لا يسأل الله التعجيل بهلاكهم. وأن يوكل أمرهم إلى الله.

ثم نزلت **سورة القمر** :

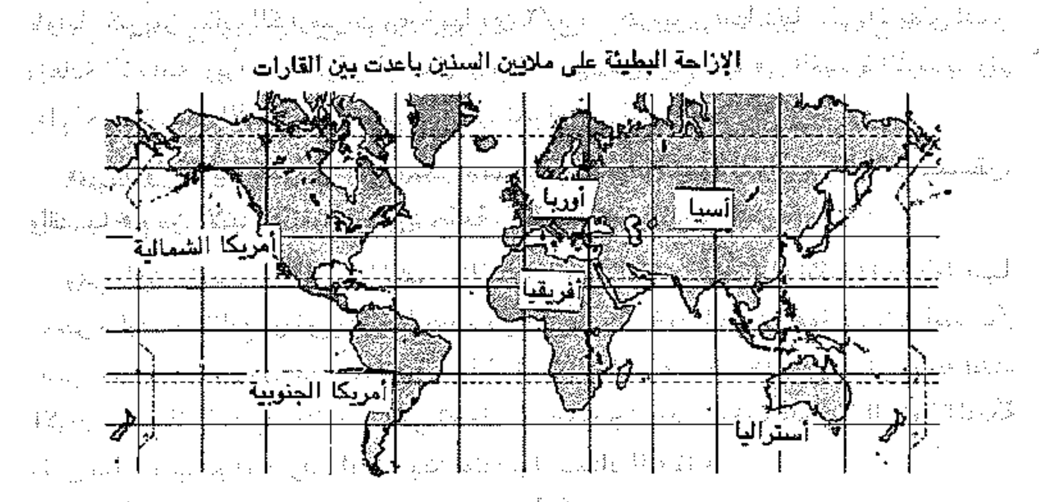
وهي تبدأ بقوله تعالى : **«اقتربت الساعة وانشق القمر»** (١).

والآية تنبه إلى اقتراب الساعة ودنو وقتها. **«وانشق القمر»** وفيه أقوال كثيرة أولها وأقواها أنه انشقاقٌ للقمر عند قيام الساعة كعلامة من علاماتها أو أثر من آثارها. مثلما جاء في سورة القيامة (آية ٩ ص ٩٢) **«فإذا برق البصر وخسف القمر وجُمع الشمس والقمر»**.

وأنكر البعض الانشقاق في الدنيا وقالوا لو وقع هذا الحدث لما اختُصَّ به أهل مكة ولرؤى في عديد من البلدان ولخُلِّد هذا المشهد الغريب ولذكره أهل الأرصاد في بلدان مثل العراق ومصر وكان علم التنجيم فيهما غاية في التقدم وما كانت مثل هذه الظاهرة الفريدة من نوعها لتفوت عليهم. وقال آخرون إن انشقاق القمر معنوي مثلما نقول انشق الصبح فيكون معناه انشقاق الظلمة عند ظهوره. إلا أن آخرين رووا عن ابن عباس (تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ٧٤) قال اجتمع المشركون على عهد رسول الله ومنهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن وائل وغيرهم من سادات قريش المكذبين فقالوا للنبي: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبي قبيس ونصفا على قينقاع. فقال لهم النبي إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا نعم وكانت

أوربا
أسيا
أمريكا الشمالية
أفريقيا
أستراليا
اليابسة كانت كتلة واحدة .
الصدوع الأرضية العملاقة .

الإزاحة البطيئة على ملايين السنين باعدت بين القارات



شكل ١٥ - «والأرض ذات الصدع» .

ليلة بدر فسأل رسول الله ربه عز وجل أن يعطيه ما سألوه فأمسى القمر نصفا على أبى قبيس ونصفا على قينقاع. وجاء فى رواية البخارى عن ابن مسعود: كنا مع رسول الله بمنى فانشق القمر وما صح عن أنس أن ذلك كان والرسول بمكة والأحاديث المروية كثيرة ومختلف فى صحتها. والمؤيدون لوقوع انشقاق فعلى للقمر يستندون إلى الآية التى تلت ذلك «**وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**» أى أن الآية وقعت وأعرضوا وقالوا سحر مستمر. ولكن من سنن الله فى كونه - وما حدث مع جميع الأمم السابقة - أن القوم إذا طلبوا من رسولهم آية وحققها لهم ولم يؤمنوا جاءهم عذاب يهلكهم. والمؤكد أن أهل مكة لم يؤمنوا وقتئذ. ولم يهلكوا دلالة على أن الآية إن كانوا قد طلبوها لم تتحقق. وقد جاء فى القرآن بعد ذلك «**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون**» ويمكننا أن نخلص إلى أن الأحاديث المروية فى هذا الشأن قد وضعت لاعتقاد واضعيها بانشقاق فعلى للقمر.

وقد احتج بعض العلماء المعاصرين بأن انشقاق القمر - لو حدث - سيغير من جاذبيته وأن هذا سيؤثر على مداره وحركته وقد يؤدى إلى ضَعف القوة الطاردة المركزية الناتجة عن دورانه مقابل جاذبية الأرض وقد يؤدى إلى سقوطه. إلا أن ذلك مردود عليه أن انشقاق القمر - لو شاء الله له أن يحدث - لحدث ولالتأم ثانية ولم يسقط. وذكر أحد علماء الفلك المعاصرين (دكتور زغلول النجار. الأهرام ٢٣/١٢/٢٠٠٢) أن تصوير القمر عن قرب أظهر شقوقا هائلة طولها أكثر من مئات الكيلومترات وعرضها بين ١/٢ و٥ كم ويرى أنها دليل على انشقاق القمر وإعادة التحامه. ويُردُّ هذا الرأى أن مثل هذه الأخاديد موجود مثلها فى القشرة الأرضية ولم يقل أحد بانشقاق الأرض. نعود بعد هذا الاستطراد إلى السورة:

«**وإن يروا آية يُعرِضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغن النذر**» (٢ - ٥).

وفى الآيات تنديد بالكافرين المكذبين الذين إذا رأوا آية من آيات الله أنكروها وقالوا إنها سحر مألوف ومتتابع. وتقرير لواقع أمرهم من تكذيبهم للرسول اتباعًا لأهوائهم وإعراضا عن الحق. ثم إنذار بأن لكل أمر مُستَقَر ونهاية. ثم توبيخ لهم على أن جاءهم القرآن وفيه أنباء الأولين ومصائر المكذبين والعبرة التى تحمل على الازدجار وفيه أيضا الحكمة البالغة المقنعة ولكن بماذا تفيدهم الإنذارات إذا لم يكن عندهم استعداد للاقتناع.

«**فتولَّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيئ نكر. خُشَّعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر**» (٦ - ٨).

والآيات تأمر النبى ألا يأبه بتكذيب المكذبين وأن ينتظر ليرى ما سوف يلقونه يوم القيامة حين يدعوهم داعى الله فيخرجون من قبورهم كأنهم - فى الكثرة والسرعة - جراد منتشر وأبصارهم خاشعة من الخوف والفزع وشدة الهول ويتيقنون أنه يوم شديد الصعوبة.

العبرة من الأقوام السابقين :

ثم يأتى ذكر بعض الأقوام السابقين وهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون. وكان العرب على علم بقصص هؤلاء الأقوام ويتداولونها بينهم. فضلا عن أن قصص نوح ولوط وفرعون جاءت فى التوراة وسمعها العرب من اليهود والنصارى المقيمين بينهم أو الذين كانوا يلتقون بهم فى رحلاتهم التجارية أما عاد وثمود فلم يرد أى ذكر عنها فى التوراة ولكن قصتهما كانت معروفة للعرب كما ذكرنا سابقا (ص ٣).

١ – «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر. فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدِر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر. ولقد تركناها آية فهل من مُدَّكر. فكيف كان عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر». (٩ – ١٧).

٢ – «كذبت عاد فكيف كان عذابى ونُذُر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزِع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر» (١٨ – ٢٢).

٣ – «كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتَّبعه إنَّا إذا لفى ضلال وسعر. أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب مُحتَضَر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظِر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر» (٢٣ – ٣٢)

٤ – «كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسَحَر. نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُذُر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونُذُر. ولقد صبَّحهم بكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر» (٣٣ – ٤٠).

٥ – «ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر» (٤١ – ٤٢).

ويلاحظ فى هذه الآيات :

١ – البدء بذكر تكذيب القوم تأكيدا عليه. مع ذكر ما قالوه أو فعلوه تعبيرا عن تكذيبهم.

٢ – الاختصار الشديد فى ذكر هؤلاء الأقوام السابقين .

٣ – تكرار آية **«فكيف كان عذابى ونذر»** وهو تساؤل فيه توبيخ للمكذبين لأنهم لم يصدقوا أن ينزل بهم العذاب.

٤ – تكرار آيتى: **«فذوقوا عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»** فى نهاية قصة كل قوم. وفيه إمعان بإذلال المكذبين إذ يُؤمروا بأن يذوقوا العذاب وما أنذروا به وهو ما كانوا ينكرونه، ثم التأكيد على أن القرآن مُيسَّر لمن يريد أن يتعظ بما جاء فيه.

واستكمالا لهذا المعنى تأتى الآيات بسؤال استنكارى عما إذا كان كفار قريش يظنون أنفسهم خيرا من السابقين الذين قصّت الآيات كيف كان النكال بهم، أم أنهم حصلوا من الكتب المنزلة على براءة تقيهم هذا النكال؟ أم يظنون أن كثرتهم ستنصرهم، ثم تقرر الآيات أن جموعهم ستنهزم ويفرون، وموعدهم يوم القيامة وهى أعظم داهية وأقسى مرارة وسيكونون فى جحيم مستعرة ويسحبون فى النار على وجوههم ليقاسوا شدة حرارة النار. ثم تقرر الآيات أن الله قد خلق كل شيئ بحساب وتقدير دقيقين، وإذا أراد شيئا فإنه ينفذ فى الحال كطرفة عين. وتعود الآيات للتذكير بأن الله أهلك أشباههم من الأمم السابقة فهل اتعظوا؟ والجواب طبعا سيكون بالنفى. وكل ما فعلوه – صغيرا أم كبيراً – مسطور ومُسَجَّل عليهم. ثم تنتهى السورة ببشرى بما ينتظر المتقين من جنات كثيرة الأنهار – أى كثيرة الثمار والفاكهة ويكفى أنهم سيكونون فى حضرة الله سبحانه وتعالى:

«أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر. أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولُّون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر. إن المجرمين فى ضلال وسعر. يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر. إنا كل شيئ خلقناه بقَدَر. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر. ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مُدَّكر. وكل شيئ فعلوه فى الزبر. وكل صغير وكبير مُستَطَر. إن المتقين فى جنات ونَهَر. فى مقعد صدق عند مليك مُقتدِر» (٤٣ – ٥٥).

وقد تكرر نعت الكفار بالمجرمين. لأنهم لم يكتفوا بالكفر والتكذيب بل أضافوا إلى ذلك جريمة اضطهاد المسلمين وتعذيبهم ومحاولة صدهم عن الدين.

ثم نزلت **سورة ص** :

والسورة تنذر الكفار وتندد بهم وتتحداهم فى قوة وحزم مثل سابقاتها من السور. وكانت هذه أول سورة تخاطب اليهود والنصارى المقيمين بمكة وما حولها. وتصحح برفق بعض ما حُرِّف فى التوراة:

«ص. والقرآن ذى الذكر. بل الذين كفروا فى عزة وشقاق» (١ – ٢).

وحرف «ص» من الحروف المقطعة بدأت به السورة كما بدأت قبلها سورة النجم بحرف «ن» وسورة «ق». يلى ذلك قَسَم بالقرآن الكريم. وجواب القَسَم محذوف وتقديره: إن هذا القرآن هو الصدق والحق. ولكن الكافرين يكذِّبون فى عناد وشقاق واعتزاز بمكانتهم.

ثم تقرر الآيات أن الله قد أهلك قبلهم من الأقوام من كانوا أمنع منهم وأقوى ولما نزل بهم الهلاك رفعوا أصواتهم بالنداء والاستغاثة ولكن لا مهرب حينئذ ولا خلاص:

«كم أهلكنا من قبلهم من قرن. فنادوا ولات حين مناص» (٣).

وكان عدد من سادات قريش قد مشوا إلى أبى طالب فى مرضه وقالوا له: أنت سيدنا

وأنصفنا من أنفسنا فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا فأمره أن يكف عنا. فبعث إليه. فلما جاء النبى أخبره أبو طالب بما طلبت قريش. فقال النبى: يا عم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية. فقالوا: نعم وأبيك وعشرا. وما هى؟ قال: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا أجعل الآلهة إلها واحدا. وانطلق أشرافهم وقالوا لعامتهم استمروا واصبروا على آلهتكم:

«**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيئ عُجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيئ يراد** (أى يراد به زوال النعمة التى هم فيها) **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة** (ملة عيسى لأنها آخر الأديان قبل الإسلام) **إن هذا إلا اختلاق. أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لَمَّا يذوقوا عذاب** (ولو ذاقوا العذاب لما بقوا على الشرك). **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب. أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما** (فإن ادَّعوا ذلك فليصعدوا إلى السماء) **فليرتقوا فى الأسباب. جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** (أى هم لا محالة فريق مهزوم مثل من تحزَّبوا على أنبيائهم)» (٤ - ١١).

ثم تأتى إشارات خاطفة إلى هؤلاء الأحزاب الذين كذَّبوا أنبياءهم وحق على كل منهم العذاب. وكيف أن قريشا استخفوا بالرسول وطلبوا منه - فى تحدٍ وسخرية - أن يعجِّل لهم نصيبهم وقسطهم من العذاب فى الدنيا ولا يُنظِرهم إلى الآخرة:

«**كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد** (أى صاحب المسلات. انظر جـ ٤ ص ٧٧٧ - ٧٨٧) **وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب. إن كلٌ إلا كذَّب الرسل فحق عقاب. وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق** (لا تحتاج لتكرار). **وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب**» (١٢ - ١٦).

ويلاحظ أنه عند ذكر الأقوام السابقين لم يلتزم القرآن بالترتيب الزمنى بينهم فهو ليس كتاب تاريخ يلتزم بالتسلسل التاريخى بل هو كتاب هداية وموعظة وما ذِكر بعض هؤلاء الأقوام إلا للعبرة والتذكرة بمواقفهم من أنبيائهم.

أمر بالصبر وتصحيح لقصة داود:

ثم يأتى أمر للنبى بالصبر ويأتى ذكر داود بشيئ من التفصيل كمثال للصبر ولتصحيح ما روى عنه محرفا فى التوراة. والمعنى أن يصبر النبى على ما يقوله الكفار عنه فقد قيل عن داود أكثر منه فصبر. وقد ذكرنا فى الجزء الخامس (ص ١٢٨ - ١٣٣) ما اتُّهِم به داود فى التوراة من أنه ارتكب الفاحشة مع امرأة أوريا الحثى وأنه دبَّر مقتله ليتزوج امرأته. وقد نفينا ذلك وبيَّنا أن خطأه كان أنه تمنى لنفسه امرأة أحد جنوده فلما قتل فى الحرب أسرع وخطبها فقطع الطريق على أوليائها الذين هم أحق بالزواج منها. والآيات تقرر أنه كان من عباد الله

الصالحين. ومن دلائل صلاحه وتقواه أن الجبال والطير كن يسبِّحن معه ويُرجعن صدى تسبيحاته:

«اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب (يرجع إلى الله فى جميع أحواله). **إنا سخرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشى والإشراق. والطير محشورة كل له أواب. وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»** (١٧ – ٢٠).

ثم تذكر الآيات ٢١ إلى ٢٤ قصة الملكين اللذين تمثلا فى صورة خصمين ليبيِّنا لداود خطأه وتنتهى بقول: **«وظن داود أنما فتنَّاه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب. ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتَّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»** (٢٤ – ٢٦).

ثم تختم هذه الفقرة عن داود بأن ما جاء به القرآن هو الحق وعليهم أن يتدبَّروا آياته ويتعظ به ذوو العقول الحصيفة، ولن يتساوى الذين كفروا مع المتقين ثم يُذكر أن الله قد خلق السموات والأرض بالحق وغير ذلك مما يقوله الكفار باطل وويل لهم من النار:

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار. كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب» (٢٧ – ٢٩).

تصحيح لقصة سليمان :

ثم تذكر الآيات جانبا من قصة سليمان موضحة حبه للخيل وقد فصَّلنا ذلك فى الجزء الخامس (ص١٦٠ – ١٦٨) ثم تصحح بعض ما حُرِّف عنه فى التوراة مثل اتهامه بالزيغ عن التوحيد وأن نساءه أملن قلبه فبنى المعابد للأوثان. وقد نفينا ذلك فى الجزء الخامس من خلال «فتنة سليمان» (ص ١٨٦ – ١٩٠). ثم تذكر الآيات تَسخير الريح والشياطين وهو أمر لم تذكر التوراة عنه شيئا. وقد ذكرناه بتفصيل من قبل (جـ ٥ ص ١٦٩):

«ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوَّاب. إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد. فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب. ردوها علىَّ فطفق مَسحًا بالسوق والأعناق. ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب. قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب. فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب. والشياطين كل بَناء وغوَّاص. وآخرين مقرنين فى الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحُسنَ مآب» (٣٠ – ٤٠).

وقد ادَّعى بعض المستشرقين أن تسخير الجن والشياطين هو اختراع من القرآن الكريم إستنادا إلى عدم ذكره فى التوراة المتداولة اليوم. والرد على هذا الاتهام هو ما جاء فى

التوراة: (٩ – أخبار أيام ثاني : ٢٩) ونصه: «وبقية أمور سليمان الأولى والأخيرة أما هي مكتوبة في أخبار ناثان النبي وفي نبوّة أخيا الشيلوني وفي رؤى يعدو الرائي على يربعام بن ناباط». وهذه الأسفار ليست من الأسفار المتداولة اليوم. ولاشك أن تسخير الجان كان مذكورا فيها إذ لم يُذكر اعتراض اليهود في عصر النبي على ما جاء في هذه الآيات. وقد ذكرنا في الجزء الخامس (ص ١٧٠) احتمالا لعدم ذكر ذلك التسخير في التوراة وهو أن الجان كانوا يتشكلون في صورة رجال من الشعوب المقهورة وكان بنو إسرائيل يتخذونهم عبيدا لهم. وقد جاء في التوراة (ملوك أول ٩ : ٢٠) «جميع الشعوب الباقين من الأموريين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين الذين ليسوا من بني إسرائيل. أبناؤهم الذين من بعدهم في الأرض الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يحرموهم (أي يقتلوهم أو يطردوهم) جعل عليهم سليمان تسخير عبيد. وأما بنو إسرائيل فلم يجعل سليمان منهم عبيداً».

ذكر سريع لقصة أيوب :

ويركز هذا الجزء على كيفية شفاء أيوب بعد طول مرضه مكافأة له على صبره. وقد فصلنا ذلك من قبل (الجزء الثالث ص ٥٩٤ – ٦٣٣):

«واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنِيَ الشيطان بنُصْبٍ وعذاب. اركض برجلك هذا مُغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضِغثًا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب» (٤١ – ٤٤).

وقد أيد القرآن في هذه الفقرة ما ذكرته التوراة (إصحاح ٤٢ أيوب): «ورد الله كل ما كان لأيوب. وزاد الرب على ما كان ضعفا». وهو نفس معنى قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم».

ذكر خاطف لعدد من الأنبياء :

«واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار. إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار. وإنهم عندنا لمن المصطَفَينَ الأخيار. واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار» (٤٥ – ٤٨).

ما أُعِد للمتقين من ثواب :

«هذا ذكرٌ وإن للمتقين لحُسنَ مآب. جنّاتِ عدنٍ مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف (غاضّات البصر حياء وخفراً) **أتراب** (ملازمات لهم ومثلهم في السن لكون ذلك أدعى للوفاق). **هذا ما توعدون ليوم الحساب. إن هذا لرزقنا ماله من نفاد»** (٤٩ – ٥٤).

ما ينتظر الكافرين من عذاب :

في مقابل ما ذكر من ثواب المتقين ذكر ما ينتظر الكافرين من أنواع العذاب كما ذكر تخاصمهم ومحاولة بعضهم إلقاء اللوم على البعض الآخر:

«هذا وإن للطاغين لشر مآب. جهنم يصلونها فبئس المهاد. هذا فليذوقوه حميم وغسَّاق (ماء شديد الحرارة وصديد). **وآخر من شكله أزواج** (وأنواع أخرى من العذاب أزواجا أزواجا). **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار. قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار. قالوا ربنا من قدَّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار. وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار»** (٥٥ – ٦٤).

مهمة الرسول :

بعد هذا الوصف لما ينتظر الكافرين من عذاب يأتي أمر للنبي بأن يبلغ الناس أنه منذر بعذاب مثل هذا لمن يعبدون الأصنام لأنه ليس هناك إله إلا الله الواحد الأحد وينبههم إلى أنه ليس له من علم بما دار في السموات من حديث وقت اختصام الملائكة في شأن آدم وأنه لا يعلم إلا ما يُوحَى إليه لينذر الناس:

«قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السموات والأرض وما بينهما العزيزُ الغفار. قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون. ما كان لِيَ من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون. إن يوحى إليَّ إلاَّ أنَّما أنا نذير مبين» (٦٥ – ٧٠).

مسألة خلق آدم :

وإذ ذكرت الآيات أن النبي ليس له علم بما دار في السموات من حديث بين الملائكة حول خلق آدم جاءت الآيات التالية لتذكر كنه ما دار من خلاف. ولاشك أن العرب كانوا يعرفون أن الإنسان خلق من تراب لأنه بعد الموت يتحول إلى تراب. كذلك كان اليهود والنصارى يعرفون هذه الحقيقة إذ جاء في العهد القديم (تكوين ٢ : ٧): «وجَبَل الرب آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية. وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها».

«إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ استكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين. قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم. قال فبعزتك لأغوينَّهم

أجمعين. إلا عبادك منهم المخلَصين. قال فالحقُّ والحقَّ أقول. لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» (٧١ - ٨٥).

وفى الآيات تصحيح لمفهوم القصة التى وردت فى التوراة والتى ذكرت عداوة بين الحيَّة وبين حواء. إذ جاء فى سفر التكوين (٣ : ١٣): «فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذى فعلت. فقالت المرأة: الحية غرَّتنى فأكلتُ. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلتِ هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلها ونسلك هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه». وجاء القرآن الكريم ليبين أن العداوة كانت بين إبليس وآدم وستظل أبدا بين بنى آدم وذرية إبليس. وسيجئ فى سور لاحقه بيان أن إبليس - لا الحية - هو الذى وسوس لآدم وحواء ليأكلا من الشجرة التى أمرهما ربهما ألاَّ يأكلا منها.

ثم تُختم السورة بأمر للنبى لتوجيه الكلام للكفار وتنبيههم إلى أنه لم يطلب منهم أجرا لقاء هدايته لهم كما أنه ليس بمتصنِّع يدَّعى النبوة.وأن القرآن تذكرة لجميع الناس وأن المكذبين سيتأكد لهم - ولو بعد حين - أن ما جاء فيه من الوعد والوعيد هو الحق المبين:

«قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلِّفين. إن هو إلا ذكر للعالَمين. ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين» (٨٦ - ٨٨).

سورة الأعراف :

كان التعذيب الذى ينزله سادات قريش بالعبيد الذين أسلموا - بل وببعض الأحرار الذين أعلنوا إسلامهم - حائلا دون انتشار الدعوة الإسلامية بالسرعة المأمولة. بل وكان هناك تخوُّف من أن يرتد بعض من أسلموا ولَمَّا يتمكن الإيمان من قلوبهم.

فنزلت «سورة الأعراف» تُقوى من عزائمهم وتشد أزرهم إذ فيها حملات على المشركين وتصوير لمصائرهم فى الآخرة تصويرا فيه إرهاب ووعيد.

وقد جاء ذكر الأمم السابقة وأنبيائهم مفصَّلا. ولعل القصد كان أن يستغنى المسلمون بما جاء فى القرآن عما كان اليهود والنصارى يقصونه من قصص مدوَّنة فى كتبهم محتوية على كثير من الأحداث التاريخية دون التطرق إلى الموعظة الكامنة فيها. ولعل الهدف أيضا كان تصحيح بعض ما ورد فى هذه القصص من تحريف.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول التوحيد الخالص لله وحده بغير شريك والعبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى.

وسورة الأعراف هى أولى السور التى تبدأ بأكثر من حرف منفرد من حروف الهجاء فقد سبق أن جاءت أحرف «ن» و «ق» و «ص» كبدايات لبعض السور أما سورة الأعراف فقد بدأت

بأربعة أحرف، ولا ندرى كيف استقبل كفار قريش هذه الحروف الأربعة كبداية للسورة. ولكنها ولاشك شدَّت انتباههم وجعلتهم يصغون لما بعدها.

كذلك فإن سورة الأعراف هى أطول السور المكية، وهى رابعة السور القرآنية طولا بعد سور البقرة وآل عمران والنساء.

«المَص. كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين. اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكّرون. وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون. فما كان دعواهم (قولهم واعتذارهم) **إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين. فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين. فلنقصنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين. والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون. ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون»** (١ – ١٠).

والآيات فيها تطمين للنبى حتى لا يضيق صدره بتكذيب الكفار. وفيها تثبيت للمؤمنين حتى لا يتأثروا بذلك التكذيب، ثم تهيب بالنبى أن يدعو الكفار إلى الإيمان بما أنزل إليه وألا يتخذوا من دون الله أولياء وشركاء. ثم يأتى تذكير بما حدث للأمم السابقة الذين نزل بهم عذاب فى الدنيا ليلا «**بياتا**» أو وقت القيلولة وهو النوم وقت الظهيرة «**أو هم قائلون**» ولما نزل بهم العذاب اعترفوا بخطئهم وأنهم كانوا ظالمين. ثم تؤكد الآيات أن الله سيسأل الأقوام وسيسأل الرسل وسيخبرهم بما أجيب به المرسلون فما ذلك بغائب عن علمه. وفى يوم القيامة ستوزن الأعمال فمن ثقلت موازينه لكثرة حسناته كان من المفلحين ومن خفت موازينه لقلة أعماله الصالحة فأولئك هم الخاسرون. ثم يتوجَّه الخطاب إلى كفار مكة ويذكرهم بأن الله قد هيأ لهم وسائل العيش فلم يشكروا الله على هذه النعم.

قصة خلق آدم :

ثم تأتى فى الآيات ١١ – ٢٧ قصة خلق آدم ووسوسة الشيطان له حتى أخرجه من الجنة وهذه هى المرة الثانية التى تذكر فيها قصة خلق آدم. فقد ذكرت فى السورة السابقة سورة ص (الآيات ٧١ – ٨٥ ص ١١٤) وهنا جاءت تفاصيل جديدة عن الكيفية التى سيتبعها إبليس فى غواية بنى آدم. فذُكر أنه سيأتيهم من كل جهة: من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم. وكذلك ذكرت تفاصيل عن إسكان الله لآدم وزوجه الجنة. ثم ذُكرت وسوسة إبليس وما حدث من استجابة آدم وزوجه لها فنُزع عنهما ما كان يدارى عورتهما. ثم تحذير لكافة بنى آدم حتى لا يستجيبوا لفتنة الشيطان التى نتج عنها خروج آدم من الجنة. ثم تنبيه بأن الشيطان وذريته يرون بنى آدم فى حين أن بنى آدم ليس فى استطاعتهم رؤية الشياطين. ومن يتبع وسوسة الشيطان ويتخذه وليا أصبح من الكافرين:

«ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظرنى إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين. قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين. ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدىَ لهما ما وُورِىَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتُهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيَون وفيها تموتون ومنها تُخرجون. يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذَّكرون. يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» (١١ - ٢٧).

مغالطات الكافرين :

ثم تأتى آيات تندد بالكافرين الذين كانوا يعلِّلون إشراكهم بالله وفعلهم الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها أو يقولون إن الله أمرهم بها. وتأمر الآيات النبى بأن يرد عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وأنهم يفترون على الله الكذب. فالله يأمر بالعدل كما أمر أن يخصوه بالعبادة ويخلصوا فيها لأنه كما خلقهم سيعودون إليه بعد الموت والبعث وسيكون الناس حينئذ فريقين: فريق وفَّقه الله فاختار طريق الهدى والإيمان وفريق اختار طريق الضلال والكفر والعصيان واتبعوا الشيطان ومن غفلتهم يظنون أنهم على الهدى:

«وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون. قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون. فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة. إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون» (٢٨ - ٣٠).

الزينة المباحة :

توحى آيات الفقرة التالية أن نفراً من المسلمين كانوا يذهبون للصلاة فى المسجد فى ثياب

رثة ظانين أن ذلك من دواعي الزهد. فنزلت الآيات تحث على لبس أحسن الثياب وأطهرها عند الذهاب للمساجد. وبيّنت المباح في المأكل والمشرب والزينة. فقد أباحت الطيبات دون إسراف. ثم تساؤل استنكاري عمّن حرّم ما يسّر إله في الدنيا من أسباب التجمل والتزيّن وطيبات الرزق ثم تقرر أن الله إنما حرّم الأعمال الفاحشة في السر والعلن والعدوان على الناس والشرك بالله والافتراء على الله:

«يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون» (٣١ – ٣٣).

الناس يوم القيامة :

تذكر الآيات أن الناس يوم القيامة سيكونون ثلاث فرق:

أ – المكذبون : في جهنم . ب – المؤمنون : في الجنة. ج – فريق بين الجنة والنار.

أ – فريق المكذبين : تبين الآيات أن لكل أمة أجل وقبل هذا الأجل يرسل الله إليهم رسلا منهم يتلون عليهم آياته ويبينون لهم طريق الهدى. فالذين يستجيبون ويتقون ينجون من العذاب. أما الذين يكذبون الرسل ويستكبرون عن عبادة الله فجزاؤهم النار خالدين فيها. ثم تندد الآيات بهؤلاء المكذبين إذ ليس هناك أظلم ممن يفتري على الله الكذب ويكذّب بآياته. ثم يأتي وصف لهؤلاء المكذبين لحظة الموت وما ينتظرهم بعد البعث من عذاب في النار. وكيف تلعن كل أمة أختها التي سبقتها إلى النار وتتهمها بأنها هي التي أضلّتها. ويأتي تيئيس للمكذبين من دخول الجنة بتشبيه غاية في الاستحالة وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة. ثم تصف أن لهم في جهنم فراش من نار. وغطاء من النار أيضا جزاءا على ظلمهم وكفرهم:

«ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفّونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلّوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا إدّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من

فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون. إن الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخِياط وكذلك نجزى المجرمين. لهم من جهنم مِهاد ومن فوقهم غَوَاش وكذلك نجزى الظالمين» (٣٤ - ٤١).

ب - **فريق المؤمنين** : وفى مقابل النار التى يلقى فيها المكذبون هناك جنات الخلد للمؤمنين. وتوضح الآيات أن المؤمنين يومئذ سيتأذون على الكفار فى النار ويسألونهم عما إذا كانوا قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقا فيقرون بذلك.

«والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وَعَدَنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذَّن مؤذِّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين. الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجًا وهم بالآخرة كافرون» (٤٢- ٤٥).

ج - **فريق بين الجنة والنار** : وبين الجنة والنار جدار. والأعراف جمع عُرف وهو كل مرتفع ومنه عرف الديك وعرف الفرس. وهنا بمعنى جدار مرتفع بين الجنة والنار يجلس عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم ولم يدخلوا الجنة أو النار. وهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار بعلامتهم وهى بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين. وألقوا السلام على أهل الجنة وطمعوا أن يدخلوا الجنة معهم. ولما نظروا إلى الكافرين فى النار تعوَّذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم. ثم نادوا على من يعرفونهم من أصحابها وسألوهم سؤال تشفٍّ عما أغنى عنهم استكبارهم وكثرتهم. ثم يتوجَّه خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى أهل النار يسألهم عن أصحاب الأعراف وتأكيدهم أن رحمة الله لا يمكن أن تنزل عليهم. ويخيب الله ظنونهم فيعلن شمولهم برحمته ويأمر بدخولهم الجنة. ثم تذكر الآيات كيف ينادى أصحاب النار على أصحاب الجنة أن يعطوهم شربة ماء أو شيئا ولو قليلا من رزق الله ويجيبهم أهل الجنة بأن هذه النعم محرَّمة على الكافرين. ثم تمضى الآيات تندِّد بعصيانهم وأن الحياة الدنيا غرتهم حتى نسوا يوم الحساب فكان عدلا أن ينساهم الله أيضا ولأنهم كذَّبوا بآياته. ثم تعيب عليهم الآيات أن الله قد أرسل إليهم على يد نبيه كتابا هو القرآن. فيه الهدى والطريق المستقيم بتفصيل ولو آمنوا لكان لهم رحمة ولكنهم لم يؤمنوا بالغيب وانتظروا أن يأتيهم شيئ ملموس ليتبين لهم صدق ما جاء فى القرآن من وعد ووعيد ولن يحدث ذلك إلا فى يوم القيامة ويومئذ يعترفون بأن الرسول قد جاءهم بالحق ويعلنون ندمهم ويتمنَّون لو عادوا إلى الحياة الدنيا ليعملوا عملا صالحا:

«وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يَعرِفون كُلاًّ بسيماهم. ونادوا أصحاب الجنة أن

سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون. ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويلُه يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُردُّ فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» (٤٦ - ٥٣).

مظاهر من قدرة الله فى الكون :

وتشرح الفقرة التالية بعضًا من مظاهر قدرة الله فى الكون فتقرر أنه هو الذى خلق السموات والأرض. ثم لأول مرة يأتى ذكر **«ثم استوى على العرش»** والاستواء على العرش هو قيُّومية الله على ثبات هذا الكون وما روى عن الإمام مالك حين سئل عن كيفيته فقال: الاستواء غير مجهول (أى مؤكد) والكيف غير معقول (أى لا تستطيع عقولنا أن تدركه) والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

ثم توضح الآيات استمرارية تعاقب الليل والنهار وثبات أفلاك الشمس والقمر والنجوم. ومن رحمة الله بعباده أن يرسل الرياح بالمطر إلى الأرض الميتة فتنبت الثمار المختلفة وما ذلك إلا مثال على قدرة الله فى بعث وإخراج حياة بعد الموت:

«إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين. وهو الذى يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلَّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات. كذلك نُخرج الموتى لعلكم تذكرون. والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكِدًا كذلك نصرِّف الآيات لقوم يشكرون» (٥٤ - ٥٨).

وفى الآيات إهابة بالناس أن يدعوا ربهم **«تضرُّعًا»** أى جهرا **«وخفية»** أى سرا. وقيل الإخفاء أفضل عند خوف الرياء أو إذا كان الجهر فيه تشويش على مصلٍّ أو قارئ أو نائم لأن ذلك اعتداء على الآخرين. ومن الاعتداء أيضا طلب ما لايليق كالدعاء على شخص بشرٍّ أو بنزع نعمة أو بما شابهه.

سلسلة من قصص بعض الأنبياء السابقين :

وتحتوى هذه السلسلة جوانب من قصص ستة من الأنبياء هم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وأخيرا موسى. وقد ركَّز السرد القرآنى على بيان أن الأسس التى يدعو إليها الأنبياء جميعا واحدة وأن جميع الأقوام قد استغربوا أن يرسل الله أحد البشر لإبلاغ دعوته وكذلك بيان أن من آمنوا بالرسل كانوا من المستضعفين. أما الأغنياء والسادة فقد استكبروا واتهموا الرسل بالسحر أو السفه أو الجنون. وأخيرا بيان أن المكذبين نالهم عذاب فى الدنيا وينتظرهم فى الآخرة عذاب أقسى. وأن النصر كان للأنبياء والذين آمنوا.

١ - وما جاء عن **نوح** هو :

«لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين. قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون. أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون. فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين» (٥٩ - ٦٤).

فقد دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وحذَّرهم من عذاب عظيم فاتهمه قومه بالضلال. واستنكر تعجبهم من أن يكون النذير لهم رجلا منهم. ولكنهم كذبوه وفى اختصار شديد يُذكر أن الله أنجاه والذين آمنوا معه فى الفلك وأغرق المكذبين.

٢ - قصة عاد قوم هود :

وكان هذا أول ذكر لهم فى القرآن الكريم. ولم يَرِد ما يدل على أن العرب قد أظهروا استغرابا أو استنكارا عند ذكرها مما يدل على أن قصتهم كانت معروفة لدى العرب وكانوا يتداولونها بالرغم من أنها لم تذكر فى كتب أهل الكتاب:

«وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين. قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين. أبلِّغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين. أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون. قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزَّل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين. فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذَّبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين» (٦٥ - ٧٢).

٣ – قصة ثمود وصالح :

وكان أول ذكر لهم فى سورة الشمس (الآيات ١١ – ١٥ . ص ٨٨) وقد ذكرت مختصرة جدا فقد اكتفى بذكر تكذيبهم ثم عقر الناقة. ثم أشير إليهم فى سورة القمر (الآيات ٢٣ – ٣٢ ص ١٠٩) وفيها استنكروا أن يبلِّغ بشر رسالة رب العالمين واتهموه بالكذب ثم ذُكر عقر الناقة وإهلاكهم بالصيحة. وجاء ذكر القصة هنا – فى سورة الأعراف – مختصرا أيضا ولكن زيد على ما سبق ذكرُ ما كانوا فيه من نعمة وما كانوا يبنون من قصور فى السهول وما كانوا ينحتون فى الجبال من بيوت :

«وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم. هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون. فعقروا الناقة وعتَوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين» (٧٣ – ٧٩).

٤ – قصة لوط مع قومه :

وقد سبق ذكر جانب منها فى سورة القمر (آية ٣٣ – ٤٠ ص ١٠٩) وكان فيها ذكر تكذيبهم والعذاب الذى نزل بهم. وفى السورة الحالية ذُكر ما كانوا يفعلونه من الفاحشة:

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهَّرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين» (٨٠ – ٨٤).

٥ – قصة شعيب وأهل مدين :

وهذه أول مرة يذكر فيها القرآن اسم «شعيب» النبى وإن كان قد أشير إلى قومه فى السورة السابقة (سورة ص آية ١٣ ص ١١١) بـ «**أصحاب الأيكة**» ضمن أقوام كذبوا رسلهم. وجاء ذكره فى سورة الأعراف الحالية بإسهاب. ولم يستغرب العرب – كفارا ومسلمين – ذكر قصته ولم ينكروه دلالة على أنهم كانوا يتناقلون قصته ويعرفونها. فأرض مدين تقع شرق

خليج العقبة فى طريق قوافل قريش المارة إلى فلسطين ومصر. ومن الضرورى أنهم سيمعوا من أهلها قصته. والعجب أن لا تذكر التوراة شيئا عن النبى شعيب مع أن موسى قد أمضى فى أرض مدين ١٠ سنوات (انظر الجزء الثالث ص ٦٤٢) وتزوج من ابنة كاهنها «يثرون» وهو فى المراجع الإسلامية «شعيب» ومن المرجح أنه تسمى بهذا الاسم تَيَمُّنًا بجده الأكبر «النبى شعيب» والذى كان يسبقه بثلاثة أجيال وهى مدة ليست بالطويلة ولابد أن التوراة الأصلية كان بها ذكره ولكن هذا الجزء أُسقط عند إعادة كتابة التوراة. ومن المرجح أن تكذيب قوم شعيب وما حلَّ بهم من نقمة الله وعذابه اعتبره اليهود سُبَّة فى قوم هم أصهار نبيهم فتجاهلوا الأمر كله. فجاء القرآن ليعيد لهذا النبى مكانه بين سلسلة الأنبياء:

«وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عِوَجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثَّركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين. وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ فى ملَّتنا قال أوَلَو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلاَّ أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيئ علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين» (٨٥ - ٩٣).

وقد ذكرت الآيات أن شعيبا دعا قومه إلى عبادة الله وحده. وجاءهم ببيِّنة تثبت رسالته عن ربه ولم توضح ماهية هذه البينة وإن كان بعض المفسرين (تفسير الألوسى جـ ٨ ص ١٧٦) ذكروا أشياء لاشك أنها تصورات ليس عليها دليل فلم نجد مجالا لذكرها. ثم راح شعيب يعدِّد عليهم الشرور التى يرتكبونها من نقصان الميكال وبخس الناس أشياءهم وصدهم عن سبيل الله وحذَّرهم من مصير مثل مصير المفسدين من الأمم السابقة فكان أن هدَّدوه بالإخراج من بلدتهم وأخيرا لجأ شعيب إلى الله ليحكم بينه وبين هؤلاء المكذبين المعاندين فنزل بهم العذاب على هيئة زلزلة شديدة أهلكتهم.

فقرة اعتراضية عن مسلك الجاحدين من كل الأمم :

فى هذه الفقرة تُوضِّح الآيات تشابه مسلك الجاحدين فى كل الأمم إذ جاءتهم رسلهم فجحدوا. وامتحنهم الله بالشدة فغفلوا عن مغزى هذا الامتحان وظنوا أن ما نزل بهم هو من

تصاريف الدهر التى تتراوح بين الشدة والرخاء وأن آباءهم قد أصابهم مثل ذلك. فأنزل الله بهم عذابه فجأة. وتذكر الآيات أنهم لو وعوا وتنبهوا للإختبار وآمنوا بالله واتقوه بصالح العمل لفتح الله عليهم أبواب الرزق والبركة من السماء والأرض ولكنهم كذبوا فحلّ بهم العذاب جزاء على أعمالهم. ثم تأتى أربعة تساؤلات هى فى حقيقتها استنكار لمسلكهم عمًا إذا كانوا يظنون أنهم فى مأمن من نزول عذاب الله بهم ليلا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون وهل جهلوا تدبير الله فى عقاب المكذبين وأخيرا عما إذا كان قد غاب عنهم ما حاق بالأمم السابقة. ثم تُختم الفقرة بتقرير أن هذه القرى السابقة جاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم كذبوا فطبع الله على قلوبهم ليظلوا كافرين:

«وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفَوْا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون. ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون. أفأمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أوَ أمن أهل القري أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون. تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» (٩٤ – ١٠٢).

قصة موسى وبنى إسرائيل:

بعد هذه الفقرة الاعتراضية تأتى قصة موسى كآخر القصص فى سلسلة الأنبياء السابقين. وقد ذكرت قصة موسى بإسهاب فى ٧١ آية (الآيات من ١٠٣ – ١٧٤) ولعل إطالة السرد كانت تهدف إلى أن يستغنى المسلمون بما جاء فى القرآن عمًا جاء فى كتب أهل الكتاب وعما كان يتلوه أحبارهم ورهبانهم من قصص. كما هدفت أيضا إلى تصحيح بعض المعلومات التى حُرّفت أو سقطت سهوا عند إعادة كتابة التوراة. وفى هذا نفى لما كان يتقوّله كفار قريش من أن النبى ينقل عن أهل الكتاب إذ لو كان الأمر كذلك لتطابقت القصتان فى حين أن هناك اختلافات كثيرة فصّلناها فى الجزء الرابع (ص ٨٥٤) ونوجز بعضها فيما يلى:

١ – كاتبو التوراة جعلوا العصا هى عصا هارون إذ جاء فى سفر الخروج (١٠:٧) «طرح هارون عصاه أمام الفرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا».فى حين أن من فعل ذلك هو موسى والعصا عصا موسى.

٢ – معجزة اليد – حسب رواية التوراة – لم تُجرَ أمام فرعون فى حين أن القرآن قرر حدوثها: **«فألقى (موسى) عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا بيضاء للناظرين»**.

٣ – أدمجت التوراة المقابلة الأولى مع فرعون مع تحدى السحرة يوم الزينة فقالوا بعد الفقرة التى ذكرناها سابقا من سفر الخروج «فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم». والمعروف أن جمع السحرة والماهرين منهم من أقاصى البلاد يستغرق عدة أسابيع وهذا ما قرره القرآن الكريم في قولهم لفرعون: **«أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم»** (١١١ – ١١٢).

٤ – أغفلت التوراة أو أن كاتبيها أسقطوا مسألة إيمان السحرة بموسى وما هددهم به فرعون من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل وهو ما ذكره القرآن فى الآيات ١٢٠ – ١٢٦.

٥ – وبالمقابل أوجز القرآن البلاءات التى أنزلها الله بفرعون وأهل مصر فى قوله تعالى: **«فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات»**. (الآية ١٢٣) فى حين أنه فى سورة الإسراء (الآية ١٠١ وسيجىء فيما بعد) جاء قوله تعالى: **«ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات»**. وذكرت التسع آيات بإسهاب فى التوراة. ولعل القرآن لم يشأ الإطالة فيها ولا حتى أن يذكر أسماء التسع آيات واكتفى بذكر أسماء خمس منها إذ هى متشابهة فى تحذير موسى لفرعون وقومه بوقوع الآية فإذا وقعت وعد فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل ثم بعد رفع الآية ينكث وعده ويعود إلى سابق عناده. وتكرر ذلك فى كل آية فاكتفى القرآن بإجمال تصرفهم **«ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون. فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»** (١٣٤ – ١٣٦). وهكذا فى اختصار تذكر حادثة غرق الفرعون.

وفى الآيات التالية يذكر مرور بنى إسرائيل على قوم يعبدون أصناما وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلها مثلهم واستنكار موسى لهذا الطلب بعد أن أنجاهم الله من تسخير الفرعون وتعذيبه لهم. ثم تذكر موعد موسى مع ربه أربعين ليلة وطلب موسى رؤية ربه وما حدث عندما تجلى ربه للجبل. وفى هذه الأثناء كان بنو إسرائيل قد اتخذوا العجل وعبدوه. وتستمر الآيات تذكر تأنيبه لأخيه هارون وتعنيفه للسامرى واختيار ٧٠ رجلا لميقات ربه ليعتذروا عن عبادة العجل. وهو ما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ١٠٠٤) وحتى هؤلاء طلبوا رؤية الله جهرة فأخذتهم صاعقة أهلكتهم فدعا موسى ربه أن يغفر لهم ويرد لهم الحياة فاستجاب الله له **«ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون»** (٥٦ – البقرة).

رحمة الله :

بعد توبة الله على من ارتكبوا معصية عبادة العجل راح موسى يدعو ربه أن يكتب له

ولقومه حسنة فى الدنيا وفى الآخرة فأخبره الله أن رحمته وسعت كل شيئ وسينالها المتقون الذين يؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله. وذكرت الآيات أن من صفات المؤمنين أنهم يتبعون النبى محمدا إذ أن التوراة والإنجيل بهما بشارات عن قرب ظهوره ومكتوب أيضا أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحل لهم بعض ما حرّمته عليهم شرائعهم ويضع عنهم بعض التشريعات التى كانت تمثل قيدا ثقيلا وكمثال على ذلك ما توجبه التوراة من الامتناع عن أى عمل فى يوم السبت سوى العبادة. فجاء الإسلام فأباح العمل فى يوم العبادة - وهو يوم الجمعة - بعد أداء صلاة الجمعة. وتنتهى هذه الفقرة بدعوة الناس جميعا لاتباع النبى لأنه خاتم الأنبياء:

«واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك. قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» (١٥٦-١٥٨).

وفى الآيات دعوة لليهود باتباع النبى والإيمان برسالته. وقد كان يهود المدينة ينذرون العرب بأن نبيا قد جاء زمانه يتبعونه ويذيقون العرب عذابا مثل عذاب عاد وثمود ظنا منهم أن ذلك النبى سيظهر فى بنى إسرائيل. فلما ظهر فى العرب كذّبوه وكفروا به.

ويجمع المفسرون على أن الآيات ١٦٣ - ١٧١ مدنية إذ فيها توجيه للنبى بسؤال يهود المدينة عما حدث لأهل أيلة التى تقع على الطرف الشمالى لخليج العقبة والذين مُسخوا قردة لاعتدائهم على حرمة يوم السبت. وكان الأحبار قد حذفوا كل ما يتعلق بهم من التوراة. وقد فصلنا ذلك فى الجزء الرابع ص ١٠٨٢.

الإيمان فطرة :

ثم تأتى ثلاث آيات (١٧٢ - ١٧٤) يقول الزمخشرى فى تفسيرها إن عبارتها من باب التمثيل وأن معناها أن الله نصب لبنى آدم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم فكأنه أشهدهم بذلك على أنفسهم واستشهد بحديث رسول الله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه. والمعنى أن الله خلق الناس على فطرة التوحيد فلا يقبل من أحد أى حجة لانحرافه أو الاحتجاج بأنه وجد آباءه وأجداده على الضلال فاتّبعهم:

«وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون» (١٧٢- ١٧٤).

ورويت أحاديث أخرى في تفسير هذه الآيات منها ما روى عن ابن عباس أن النبى قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قائلا ألست بربكم قالوا بلى شهدنا.. الخ الآية. وحديث آخر عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله أخذ من ظهر آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم.. الخ الآية. وقد توصل أحد علماء الوراثة إلى أن هناك - على أحد الكروموسومات فى الخلايا البشرية - أحد الجينات له علاقة بالإيمان. ولو صحّ هذا يمكننا أن نضع تصوّرا لما حدث وهو أن آدم بعد خلقه تعرّضت خلاياه للحضرة الإلهية فوُجِد هذا الجين الخاص بالإيمان والشاهد على وحدانية الله. وطبقا لعلم الوراثة فإن هذا الجين يتسلسل فى كل ذرية آدم فكأن كل فرد منذ عهد آدم حتى اليوم قد حضر ذلك المشهد وأُخِذ عليه نفس العهد الذى أُخِذ على آدم.

حكم إساءة استخدام المواهب الإلهية :

ثم تقص الآيات قصة رجل من بنى إسرائيل آتاه الله آيات من عنده فلم يقم بحقها بل انحط واتبع هواه واستغرق فى الحياة الدنيا وشهواتها وتسلط عليه الشيطان وجعله يتبعه فصار كالكلب دائما يلهث.

«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلمون. من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» (١٧٥- ١٧٨).

وقد روى المفسٍّرون روايات كثيرة فى اسم الشخص الذى عنته هذه الآيات فقالوا إنه أمية بن الصلت الشاعر وروى أنه أبو عامر الراهب وكلاهما كان عنده موهبه الشعر فاستغلاها فى محاربة الإسلام. وقيل هو بلعام بن باعور (انظر جـ ٤ ص ٩٦-١٠). وقد رجَّحنا (جـ٥ ص ٥٩) أنه شمشون الذى أعطاه الله قوة جسمانية خارقة وكان المفروض أن يستغلها لتخليص بنى إسرائيل من تسلط أعدائهم عليهم ولكنه استغل موهبته فى إحداث الشغب واستعراض القوة والجرى وراء شهواته فكانت حياته كلها لهثا مثل الكلب. وقد تجاهل القرآن ذكر اسمه حتى يعتبر كل صاحب موهبة. قد تكون الموهبة شعرا أو رسما أو أدبا قصصيا أو غير ذلك من

المواهب. فالشاعر الموهوب قد يوسوس له الشيطان فيقول الشعر الفاضح المكشوف وقد تكون الموهبة فى الرسم فيرسم الصور العارية. وقد يكون أديبا قصصيا فيكتب القصص المملوءة بالتعبيرات والتشبيهات المثيرة للغرائز. فعلى كل صاحب موهبة أن يستغل الموهبة التى وهبها الله له فى تعميق الإيمان بالله ونشر الخير والأخلاق الحميدة. ومن اهتدى يزده الله هدى ومن يَضِل فهو الخاسر. وتختم هذه الفقرة بإيضاح أن الله قد خلق كثيرا من الجن والإنس مآلهم إلى النار يوم القيامة لأنهم لم يُحسنوا استغلال مَلَكاتهم: فمع أن لهم قلوب فهم لا يفقهون وعميت أبصارهم وصُمَّت آذانهم عن الحق:

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون» (١٧٩).

أسماء الله الحسنى :

«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلحدون فى أسمائه سيُجزون ما كانوا يعملون» (١٨٠).

وهو توجيه للمؤمنين لكيفية ذكر الله تعالى. والأسماء هي الألفاظ الدالة على المعانى والصفات المختلفة. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله: إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا وهو وتر يحب الوتر. غير أن هذا لا يعنى أنه ليس هناك أسماء أخرى لله تعالى بدليل حديث عن ابن مسعود قال: قال رسول الله: ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حَزَن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك. ماضٍ فىَّ حكمك. عدلٌ فىَّ قضاؤك. اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علَّمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حُزنى وذهاب همِّى. إلا أذهب الله حزنه وهمَّه وأبدله مكانه فرحا. أما الأمر بترك الذين يلحدون فى أسمائه فهو ترك ماكان الكفار يقولونه من أن اسم «الله» مشتق من «اللات» و«العزيز» من «العزى» أو ما كان أهل البدو يقولونه من أسماء مثل «يا أبا المكارم» أو «يا أبيض الوجه» أو نحو ذلك مما لا يليق بذاته العليَّة. وأنهم سيجازون على ما اختلقوه من أسماء.

تنديد بالمكذبين :

«وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (أى يعملون). **والذين كذَّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأُملي لهم إن كيدى متين. أوَلَم يتفكروا ما بصاحبهم** (أى النبى) **من جنة إن هو إلا نذير مبين. أوَلَم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون. من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** (العمه هو عمى القلب)» (١٨١– ١٨٦).

وتقرر هذه الفقرة أن هناك فئة من الناس يدعون إلى الحق وبه يعملون، ثم تحذير للمكذبين بألا يغتروا بما هم فيه فإن ذلك استدراج لهم وسيُمَهِّل الله لهم من أسباب الغنى والنعمة حتى يصلوا إلى أقصى غاياتهم ولكن تدبير الله محكم «**إن كيدى متين**» أى سينالون جزاءهم فبأس الله ونقمته شديدان. ثم يأتى تساؤل فيه تعجب من عدم إعمالهم عقولهم ليقتنعوا بأن النبى ليس بمجنون وأنه منذر لهم من عاقبة شركهم. ثم تساؤل ثان عما يمنعهم من النظر فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات ليتأكدوا من كمال قدرة الله ويدركوا أنهم لا يدرون فى أى ساعة يموتون، وقد يكون هذا أقرب مما يتصورون فماذا ينتظرون من آية - بعد أن جاءهم القرآن - ليؤمنوا! ثم تقرر الآيات أن من يطلب الضلال يكتبه الله له ولا هادى له ويتركهم فى ضلالهم يتخبَّطون.

الكفار يسألون عن موعد الساعة :

«يسألونك عن الساعة أيان مُرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجلِّيها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنِيَ السوءُ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»

(١٨٧ - ١٨٨).

وسؤال الكفار عن الساعة هو سؤال إنكار، إذ فى مفهومهم أنه مادام نبيا فلاشك أنه يعلم موعدها، فجاء الجواب ينفى ما قام فى أذهان السائلين من أن النبى يعلم الغيب وتقرر أنه لا أحد يعلم موعد الساعة إلا الله وحده وأن النبى ما هو إلا بشر لا يملك جلب منفعة لنفسه ولا دفع ضرر عنها وما هو إلا نذير بالعذاب للمكذبين وبشير بالثواب للمؤمنين.

تنديد بالشرك بالله :

«هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون، أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يُخلقون، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم، سواء عليكم أدَعوتموهم أم أنتم صامتون، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظِرون، إنَّ وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» (١٨٩ - ١٩٨).

وتبدأ الآيات بالتذكير بأن الله هو الذى خلق الناس جميعا من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها. فلما حملت وثقل حملها وعدا الله أن يكونا من الشاكرين فلما وضعت حملها أشركا بالله. وتستنكر الآيات عبادتهم لأصنام لا تخلق ولا تنصر عُبَّادها ولا تستجيب للدعاء. وتلفت النظر إلى أن هذه الأصنام أقل من البشر فى التكوين فهى لا تستطيع المشى ولا البطش إذ ليس لها أيدى تتحرك لتبطش. كما أنها لا تبصر ولا تسمع. ثم تطلب منهم الآيات أن يدعوها لتنزل الضُرَّ بالنبى إن كان ذلك فى إمكانها - وكان الكفار يحذِّرون النبى من ضرر تنزله به آلهتهم لكثرة تسفيهه لها - وليس ذلك فى استطاعتها فهى عاجزة ولأن الله هو وليُّه وهو الذى أنزل القرآن وهو يحمى عباده الصالحين. أما الشركاء فلا يستطيعون نصر الكفار ولا حتى نصر أنفسهم. وإذا دعوهم لهدايتهم لا يسمعوا. وهم لا يبصرون.

وفى الآيات تبكيت لاذع وتسفيه لعبادة الأصنام والأوثان. وكان العرب يظنون أنها قادرة على جلب المنفعة ودفع الضرر.

وصايا:

ثم تأتى الآيات فى ختام السورة بوصايا هى فى ظاهرها أوامر للنبى ولكنها توجيهات تشمل كافة المسلمين:

١ - **«خذ العفو»** حثٌ على الأخذ بظواهر الناس وأعذارهم.

٢ - **«وأمر بالعرف»** : والعرف هو كل ما تعورف الناس على أنه خير.

٣ - **«وأعرض عن الجاهلين».**

٤ - **«وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون. وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يُقصِرون. وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»** (٢٠٠ - ٢٠٣).

وهو توجيه للاستعاذة بالله من وساوس الشيطان ليبعده الله عنهم. أما الشياطين فهم لا يُقصِرون فى إضلال إخوانهم الكفار. ويطلب الكفار من النبى أن يأتى بمعجزة وليس على النبى إلا أن يتبع ما يوحى إليه من ربه.

٥ - **«وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون»** (٢٠٤).

٦ - **«واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين. إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون»** (٢٠٥ - ٢٠٦).

الجــنّ :

فى اللغة الجِن والجِنة تعنى الاستتار والخفاء. فالجن مخلوقات غير مرئية للبشر. وهى مخلوقة من النار والإنسان مخلوق من طين والملائكة مخلوقون من نور. والملائكة كلهم مؤمنون

ولا يعصون الله ما أمرهم وهم مصدر خير وطمأنينة للبشر. والجن فيهم المؤمن وفيهم الكافر، ومنهم طبقة إبليس وذريته الذين يوسوسون للناس ويزيّنون لهم طريق الشر والإثم وعصيان أوامر الله. ومن الجن من كان يصعد إلى السماء ويحاول استراق السمع لما تتحدث به الملائكة من أقدار البشر وأحداث الدنيا وكانوا يلقون بما يسمعونه إلى الكهان من البشر فيخبرون به فترسخ مكانتهم عند الناس لمعرفتهم بأحداث مستقبلية. كما أن بعض البشر كانوا يستعينون بأفراد من الجن لتنفيذ بعض أغراضهم التي غالبا ما يكون فيها إيذاء لبعض الناس ولكن الجن في هذه الحالات كانوا كثيرا ما ينالون بالأذى البشر الذين يستعينون بهم. وكان الكهان بما يتلونه من كلمات وما يأخذون به أنفسهم من تمرينات جسدية وروحية قاسية يمكنهم الاتصال بالجن. وكان بعض الناس – اتقاء لشر الجن – يعبدونهم أو يشركونهم مع الله في العبادة وبعضهم جعلوا بينهم وبين الله نسباً. وعليه فإن غالبية الجن من غير المؤمنين. إلا أن بعضهم لما سمع القرآن أسلم.

سورة الجن :

نزلت هذه السورة لتذكر إيمان فريق من الجن عند استماعهم للقرآن الكريم :

«**قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنه تعالى جدُّ ربنا** (أي تعاظم ربنا) **ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. وأنه كان يقول سفيهنا علي الله شططا** (قولا بعيدا عن الحق). **وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا. وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا. وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** (مترصِّدا له). **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. وأنَّا منا الصالحون ومنَّا دون ذلك كنا طرائق قِددا** (أي مذاهب متفرقة). **وأنا ظننَّا** (بمعنى تيقَّنَّا) **أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا. وأنَّا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رَهَقا. وأنَّا منا المسلمون ومنا القاسطون** (الجائرون) **فمن أسلم فأولئك تحرَّوْا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وألو استقاموا على الطريقة** (طريق الحق) **لأسقيناهم ماء غَدَقا** (أي كثيرا – من أغدق) **لنفتنهم فيه** (أي لنختبرهم) **ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صَعَدا. وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا. وأنه لم قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا** (متزاحمين). **قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا. قل إنى لا أملك لكم ضَراً ولا رَشَدًا. قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا** (ملجأ). **إلا بلاغا من الله ورسالاته** (أي لا أجد ملجأ من الله إلا بإبلاغ وحيه ورسالاته) **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا. حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا. قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً. عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً. إلا من**

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيئ عدداً» (١ - ٢٨).

والآيات توضح أن الجن الذين كان بعض الكفار يعبدونهم - هؤلاء حين استمعوا إلى القرآن اعترفوا بما فيه من الهداية فآمنوا به. وفي هذا حث للكفار أن يحذوا حذوهم ويؤمنوا. كما أن فيه شد لأزر المسلمين إذ يعلمون أن هناك من الجن من يقفون في صفهم. ثم أوامر ربانية للنبي بإبلاغ الناس أنه يدعو إلى الله ولا يشرك به. وأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا وأنه - حتى النبي نفسه - لا يجيره من الله إلا إبلاغ رسالته ووحيه. وأن النبي نفسه لا يعلم ما قد ينزل بهم من وعيد ولا متى لأن ذلك متروك لله وحده فهو عالم الغيب ولا أحد يطلّع على غيبه. وحتى الرسل فإن الله يجعل عليهم رقباء ليعلم - وهو أعلم - أنهم قد أبلغوا رسالته على أكمل وجه. ومن باب أولى أن يكون على كل إنسان رقيب يحصى عليه حركاته وأفعاله. حسنات أو سيئات. وعليها يُثاب أو يجازَى.

سورة يس :

كان قد مضى على الدعوة ما يزيد عن أربعة أعوام ولاتزال قريش على موقفها المعاند للإسلام وتصدٌ عنه فكان لابد من إنذار قوى لهم لعلَّهم يفيقوا من غفوتهم فنزلت «سورة يس» وفيها:

١ - توكيد لرسالة النبي وتنويه بالقرآن.

٢ - تقريع للكفار وتنديد بعقائدهم وشدة غفلتهم وعنادهم.

٣ - تنوية ببعض نِعم الله على العباد.

٤ - إنذار بيوم القيامة وذكر بعض مشاهده.

٥ - ذكر مصائر المؤمنين والكافرين في يوم القيامة .

٦ - قصة موجزة عن قرية جاءتها رسلهم فكذبوهم وتذكر ما حاق بهم من عذاب.

٧ - إشارة إلى الكون وانسجامه مما يدل على عظمة خالقه.

وعن عائشة أن النبي قال: إن في القرآن لسورة تدعى «العظيمة» عند الله تعالى ويدعى صاحبها (أي من يحفظها) «الشريف» عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة «يس». وقال بعض المفسرين إن من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسَّره الله تعالى. ولذلك تقرأ عند الموتى والمحتضرين لتنزل الرحمة والبركة ويسهل خروج الروح.

وتبدأ السورة بحرفي الياء والسين «يس» كما جرى العرف ببدء بعض السور بحروف

مقطعة. ونفى البعض أن تكون من أسماء النبى وإن كان قد جرى العرف فى العصور المتأخرة التسمية باسم «ياسين».

« يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيلَ العزيز الرحيم. لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. إنما تنذر من اتَّبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم. إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدَّموا وآثارهم وكل شيئ أحصيناه فى إمام مبين» (١ - ١٢).

بعد الياء والسين» يأتى قسم بالقرآن الكريم **«يس. والقرآن الحكيم»** مثلما جاء فى سور سابقة: **«ص. والقرآن ذى الذكر»** و**«ق. والقرآن المجيد»**. ثم يأتى جواب القسم توكيد بأن النبى مرسلٌ من رب العالمين على صراط مستقيم وأن القرآن مُنزَّل من الله سبحانه وتعالى. ثم يذكر أن قريشا لم يأتهم نبى من قبل فبعد أن أوتى إسماعيل النبوة قبل ٥ , ٢٤ قرنا من الزمان لم يأتهم نبى آخر مع أن أولاد عمومتهم - بنى إسرائيل - جاءهم ما يزيد عن ٣٠ نبيا ورسولا (انظر الجزء الخامس) آخرهم عيسى (الجزء السادس) ولذلك قيل عن قريش **«ما أنذر آباؤهم فهم غافلون»** وهذه الغفلة كانت سببا فى أنهم شبوا على الوثنية التى تغلغلت طقوسها فى نفوسهم بحيث أصبحت كأنها أغلال فى أعناقهم واستمرأوا الظلم وعبادة الأصنام. ولما جاءهم الرسول بالهداية كذَّبوه كأنَّ بينهم وبين الهداية سدا منيعا. ثم تقرر الآيات أنه مهما أنذرهم الرسول لن يؤمنوا. وأن من يستجيب لإنذار الرسول هو من يخشى الله وإن كان لا يراه أى يخشاه بالغيب. ويُبشِّره بمغفرة من الله وثواب عظيم. ثم تقرير بأن الله هو الذى يحيى الموتى وكل شيئ فعلوه مكتوب عنده فى كتاب شامل والمعنى أنهم سيجازون بما عملوا.

أصحاب القرية :

والقرية هى أنطاكية عاصمة السلوقيين فى الشام. وقد ورد فى سفر أعمال الرسل الملحقة بالأناجيل وصف لنشاط تلاميذ المسيح من بعده فى أنطاكية وغيرها من المدن. وقد ذكرنا فى الجزء السادس (ص ١١١) أن بطرس ويوحنا كانا يعلِّمان معا وبشَّرا بالمسيحية فى أنطاكية. ولكن أهلها لم يصدِّقوهما فكان الثالث هو بولس ولما اشتد تكذيب القرية للرسل واشتد إيذاؤهم لهم جاءهم رجل من أقصى المدينة يقول ابن كثير إن اسمه حبيب وكان يعمل نجارا وراح يحث قومه على الإيمان بالرسل. وقال ابن اسحق إن القوم رجموه بالحجارة حتى مات. وقد حدث زلزال شديد دمَّر أنطاكية وأهلك أهلها المكذِّبين وعُبِّر عنه بالصيحة. ولعل ما يؤيد أن أنطاكية هى القرية المقصودة أن القرآن لم يصف هؤلاء المرسلين بأنهم «أنبياء» والحديث الشريف يقول عن عيسى «ليس بينى وبينه نبى».

«واضرب لهم مثَلا أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذَّبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيئ إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إنا تطيَّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنَّكم وليمسنَّكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذُكّرتم بل أنتم قوم مسرفون. وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون. ومالِيَ لا أعبد الذى فطرنى وإليه تُرجَعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بِضُر لا تُغنِ عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون. إنى إذا لفى ضلال مبين. إنى آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين. وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون. ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون. وإن كلٌّ لمَّا جميع لدينا محضرون» (١٣ – ٣٢).

وأسلوب القصة يوحى بأن المقصود من سردها هو التذكير والعبرة إذ أن الحوار بين الرسل وأهل القرية يتشابه مع حال كفار قريش وموقفهم من النبى والمسلمين سواء فى تكذيبهم أو تهديدهم بالعذاب والأذى إذا لم يكفوا عن دعوتهم. وفى هذا تحذير لكفار مكة من عذاب مماثل لماَ نزل بأهل هذه القرية إذا استمروا على عداوتهم وإيذائهم للمسلمين.

مظاهر من قدرة الله فى الكون :

ثم تستمر الآيات فى معرض البرهنة على قدرة الله بإنزال العذاب بالكافرين فتذكِّرهم وتنبِّههم إلى نعم الله عليهم فى هذا الكون:

١ – «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون. سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون» (٣٣– ٣٦).

وتتجلى قدرة الله سبحانه وتعالي فى خلق النبات والحيوان من ذكر وأنثى فعن طريق التزاوج يحصل التكاثر واستمرارية الخلق وتنتقل الصفات بنسب متفاوته فيحدث التنوّع الذى يعطى للحياة متعة وبهجة.

٢ – «وآية لهم الليلُ نسلَخ منه النهار فإذا هم مظلمون» (٣٧).

٣ – «والشمسُ تجرى لمستقر لها ذلك تقير العزيز العليم» (٣٨).

٤ – «والقمرَ قدَّرناه منازل حتى عادَ كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابقُ النهار وكل فى فلك يسبحون» (٣٩ – ٤٠).

والعرجون هو عرق النخلة عندما يجف ويتقوّس ويصغر حجمه. والقمر في آخر الشهر يشبهه. فالقمر في أول الشهر يبدو ضئيلا ثم يزداد ليلة بعد ليلة إلى أن يكتمل بدراً ثم يأخذ في النقصان حتى يعود لما كان عليه من ضآلة. والدورة الواحدة هي الشهر القمري. والقمر والشمس كلٌ له مدار وفلك يسبح فيه ولا يلتقيان. إلا أنه في يوم القيامة عندما تتغير نواميس الكون يجتمعان كما جاء في سورة القيامة (آية ٩ ص ٩٢) «**وجمع الشمس والقمر**». وقد اتخذ بعض المفسرين المعاصرين من قوله تعالى: «**ولا الليل سابق النهار**» دليلا على كروية الأرض لأن الشكل الكروي هو الشكل الوحيد الذي يجعل الليل والنهار موجودين في آن واحد.

٥ – «وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون. وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون. إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين» (٤١ – ٤٤).

وحمل الذرية في الفلك المشحون إشارة إلى سفينة نوح. وقد وفّق الله الإنسان لصنع السفن التي يركبها ليعبر البحار. ولو شاء الله لأغرقهم بأعمالهم السيئة وليس لهم حينئذ من مغيث ولا ناصر. ولكن الله لا يغرقهم رحمة منه وإمهالا منه لهم إلى أجل مقدَّر وفي ذلك حث لهم على اغتنام الفرصة والإيمان.

مكابرة الكافرين :

وقد ذكرت الآيات مثلين لهذه المكابرة :

١ – «وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين» (٤٥ – ٤٦).

فإذا دعاهم النبي إلى أن يتقوا مصيرا مثل مصير الأمم السابقة «**ما بين أيديكم**» وليتقوا عذاب الآخرة «**وما خلفكم**» أجابوا بالإعراض. بل إنهم يعرضون كذلك عن أي آية تأتيهم من الله.

٢ – «وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين» (٤٧).

قيل إن الكفار امتنعوا عن مساعدة أقاربهم الفقراء لما أسلموا فلما طولبوا بالإنفاق عليهم – مما رزقهم الله – للتذكرة بأن الغنى الذي يتنعّمون فيه هو منحة من الله – رفضوا قائلين: أيفقرهم الله ونطعمهم نحن!

إنكار الكفار للبعث :

كان الكفار ينكرون البعث والحقيقة أنهم كانوا يخشونه أيضا خوفا من أن يكون هناك حساب على ما ارتكبوا من طغيان في الحياة الدنيا. ولذلك تساءلوا منكرين ومستهزئين.

«ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» (٤٨).

ويرد الوحى بأن الساعة ستأتيهم بغتة فتأخذهم وهم يختصمون فلا يجدون حتى وقتا ليرجعوا إلى أهلهم لكتابة وصيّتهم:

«ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصِّمُون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون» (٤٩ – ٥٠).

وفى الحديث الشريف: لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان بينهما ثوبا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة ولقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة الحلوب غزيرة اللبن) فلا يطعمه. ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

ثم تنتقل الآيات لتصف مشهد البعث :

«ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا مُحضرون. فاليوم لا تُظلم نفس شيئا ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون» (٥١ – ٥٤).

الجزاءات فى الآخرة :

وتذكر الآيات جزاء المتقين فى جنات النعيم وجزاء الكفار فى نار جهنم :

١ – **«إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون** (فرحون وفى سرور) **هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدَّعون. سلام قولا من رب رحيم»** (٥٥ – ٥٨).

٢ – أما الكفار فيُميَّزون عن غيرهم ويلقون فى نار جهنم. أو يكون من باب السخرية بمعنى أن هذا امتياز لهم كما امتازوا فى الدنيا بالجاه والغنى. ثم تبكيت لهم على ضلالهم وقد وضع فى صيغة تساؤل إلى جميع بنى آدم أى وكان الواجب ألا يشذوا عن باقى بنى آدم الذين عبدوا الله:

«وامتازوا اليوم أيها المجرمون. ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم. ولقد أضلَّ منكم جِبلاً كثيرا (خَلقا وأجيالا) **أفلم تكونوا تعقلون. هذه جهنم التى كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستَبَقُوا الصراط فأنَّى يُبصِرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضِيًا ولا يرجعون. ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون»** (٥٩ – ٦٨).

ولا تعارض بين قوله تعالي **«اليوم نختم على أفواههم»** وبين آيات أخرى تحكى ما يجادلون به عن أنفسهم يوم القيامة. إذ المقصود أن الختم على أفواههم حتى لا ينكروا أنهم فعلوا كذا وكذا لأن أيديهم وأرجلهم هى التى ستتكلم وتقر بالحقيقة. كذلك أشارت الآيات إلى الصراط الممدود فوق جهنم ولا يكاد المبصرون يجتازونه فكيف إذا طمست الأعين ! فهو توكيد

بسقوطهم فى نار جهنم. وإن كان ابن كثير قد فسرّ الصراط بطريق الحق فى الحياة الدنيا. ثم تلفت الآيات نظر الكفار إلى واقع ماثل أمامهم وهو أن من يطول عمره يزداد ضعفًا فعليهم أن يعتبروا بما يحدث للمرء ليتأكدوا أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة هى دار البقاء.

القرآن ليس شعرا :

عندما رأى الكفار أن عديدًا من الآيات المتتابعة تلتزم بقافية واحدة كما فى سورة النجم والأعلى والليل والشمس وغيرها قالوا إن النبى شاعر وأن ما يتلوه نوع من الشعر. ونزل الوحى ينفى أن يكون ذلك شعرا ويؤكد أنه قرآن كريم فيه إنذار للناس جميعا **«من كان حيًا»** وهو حجة على الكافرين.

«وما علَّمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حيا ويَحِقَّ القول على الكافرين» (٦٩ – ٧٠).

بعض نِعَم الله :

١ – ثم تستمر الآيات تندِّد بالكافرين وتعدِّد بعضا من نعم الله عليهم وكان الواجب أن يشكروا الله عليها ولكنهم بدلا من ذلك عبدوا آلهة ليس فى قدرتها نصرهم. بل إنها فى الآخرة ستكون جندا من جنود الله تحضر لتشهد على عُبَّادها بالكفر والضلال. ثم تأتى تسرية عن النبى حتى لا يحزن لما يقوله الكافرون أو يُسِرُّونه فى أنفسهم عنه. وبالطبع فإن علم الله بذلك يعنى مجازاتهم به:

«أوَ لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها رَكوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون. واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند مُحضَرون. فلا يحزنك قولهم. إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» (٧١ – ٧٦).

٢ – ثم تنبه الآيات إلى ما فى خلق الإنسان نفسه من معجزة ومن ثم فإن البعث شيئ يسير بالنسبة إلى قدرة الله :

«أوَ لَم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم (شديد الخصومة) **مبين. وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم»** (٧٧ – ٧٩)

وروى المفسرون أن أحد الكفار – قالوا هو أبى بن خلف أو العاصى بن وائل – فى موقف جدل بينه وبين النبى – أخذ عظمة بالية وفتّتها ثم قال للنبى: كيف تزعم أن ربك يبعث الناس وقد صارت عظامهم رميما. فقال النبى: نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار. وعلى العموم فالآيات تعنى كل من أنكر البعث وليس شخصا بعينه.

٣ – ثم تذكر الآيات نعمة الله فى خلق الشجر الذى حين يجف يمكن استخدامه وقودا لطهى الطعام أو الإنارة ليلا أو غير ذلك من المنافع :

«الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون» (٨٠).

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن تعبير **«الشجر الأخضر»** فيه إعجاز علمى إذ أن فيه إشارة إلى ما كشف عنه العلم الحديث من أن الكلوروفيل – وهو المادة الخضراء فى النبات – تمتص أشعة الشمس والطاقة الكامنة فيها ويحولها مع ثانى أكسيد الكربون المأخوذ من الجو والعناصر التى يمتصها من التربة ويكوّن المركبات العضوية التى تتكون منها خلايا النبات وأليافه الخشبية. وعندما يجف النبات ويوقد خشبه تنطلق منه الطاقة التى اختزنها من أشعة الشمس على هيئة نار نستعملها فى مختلف الأغراض.

ختام السورة :

ثم تجئ الفقرة الخاتمة بسؤال يستنكر تجاهلهم للحقيقة الواضحة من أن الله الذى خلق السموات والأرض – وهى أعظم من خلق الإنسان – قادر على أن يعيد خلقهم يوم القيامة وما شأنه فى الخلق إلا أن يقول للشيئ كن فيكون:

«أوَ ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. بلى وهو الخلاّق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيئ وإليه تُرجعون» (٨١ – ٨٣).

إعجاز القرآن :

استمر نزول القرآن وقريش تعجب من أسلوبه ولفظه الذى يعطى الصورة المتخيلة صدقا كأنها قد وقعت فعلا وإذا بالصورة كأنها منحت حياة فدبّت فيها الحركة وأصبحت المعانى مجسّمة. ويضفى جرس الكلمات عليها رونقا خاصا يزيد المعنى جمالا. وعجبوا كيف تأتّى لـ «محمد» هذه البلاغة والفصاحة فجأة. وما عهدوه من قبل يقول الشعر ولا حتى قام خطيبا فى أىٍ من أسواق اللغة فى عكاظ أو ذى المجاز ولم يبق أمامهم إلا أن يدّعوا بأن هذا وحى من عند الله. ولكنهم ظلوا على عنادهم وتكذيبهم.

ونزلت سورة الفرقان :

وفى السورة مواضيع عديدة :

١ – تأكيد أن القرآن وحى من عند الله.

٢ – بعض أقوال الكفار وتعنتهم فى طلب الآيات وحملة توبيخية لهم.

٣ – براهين على قدرة الله وعظمته وربوبيته.

٤ – تذكير ببعض الأمم السابقة وما حاق بهم.

٥ – حُسن ثواب المؤمنين يوم القيامة.

«تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالَمين نذيرا. الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيئ فقدَّره تقديرا. واتخذوا من دونه آلهة لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا» (١ – ٣).

وتبدأ السورة بلفظ **«تبارك»** أى تزايدت بركته وتكاثر خيره وفيه تنزيه لله تعالى عن مشابهة أحد له فى ذلك. ثم تقرير بأنه هو الذى نَزَّل القرآن على نبيه محمد لينذر الناس جميعهم ثم تقرير ثان بأن الله هو مَلِك السموات والأرض ونفيٌ لأن يكون له ولد أو شريك فى مُلكه. ثم تقرير ثالث بأنه خلق كل شيئ بحساب وحكمة وقدر ولكن الكافرين عبدوا آلهة ليس لها حول ولا قوة.

ثم راحت الآيات تعدد **أقوال الكفار والمشركين** وتدحض ما جاء بها:

١ – **«وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا. قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما»** (٤ – ٦).

وكان الكفار قد طعنوا فى القرآن وقالوا إنه من اختراع «محمد» وساعده على ذلك جماعة من أهل الكتاب كان يختلف إليهم فيطلعونه على سير الأولين ويملونها عليه وهو يعيد كتابتها. وترد الآيات هذه الشبهة فتقرر أن القرآن مُنزَّل من عند الله الذى يعلم أسرار السموات والأرض، وهو واسع المغفرة والرحمة. وهاتان الصفتان تفتحان باب التوبة أمام من قالوا هذه الافتراءات علّهم يتوبوا. ومن العجب أن كثيرين فى الغرب لايزالون يوجهون هذا الاتهام إلى القرآن ناسين أن القرآن والإنجيل والتوراة كتب سماوية لابد أن تتشابه فى الكثير إلا أن القرآن ركّز على النواحى الإيمانية ولم يلق بالا إلى الأحداث التاريخية التى أطالت التوراة فيها.

٢ – كان الجدل الثانى الذى أثاره الكافرون هو **استنكارهم لبشرية الرسول** وأنه يأكل الطعام مثلهم وأنه يعمل بيديه ويتاجر وأنه لو كان نبيا حقيقة لأرسلَ معه مَلَك أو يُلقى إليه مال حتى لا يضطر للعمل بيديه أو على الأقل تكون له حديقة ذات أشجار يأكل منها فلا يضطر إلى المشى فى الأسواق وزادوا بأن اتهموه بأنه مسحور يتخيَّل ما لا حقيقة له:

«وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا» (٧ – ١٠).

ويرد عليهم القرآن بأن ضربهم هذه الأمثلة المتعددة يدل على أنهم قد ضلوا طريق الحق والمحاجّة الصحيحة. والحقيقة أن بشرية الرسل لازمة إذ لو كان الرسل ملائكة وصاموا لاحتج الناس بأن طبيعتهم المختلفة تمكنهم من الصيام في حين أن البشر بطبيعتهم يحتاجون إلى الطعام. وقس على ذلك في جميع العبادات والتكاليف. ثم تقول لهم الآيات إن الله لو شاء لجعل لرسوله خيرا مما طلبوا. جنات تجرى من تحتها الأنهار ويكون له فيها قصور كثيرة. والمعنى أن الله قد ادّخر له ذلك في الآخرة التي كذبوا بها.

٣ – وكان الجدل الثالث هو أنهم كذبوا بالساعة وأنكروا وقوعها ووردت عليهم الآيات بأنها حقيقة وأعد الله لمن يكذّب بها نارا:

«بل كذّبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظا وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مُقرَّنين دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا. قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وُعِد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا. لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا» (١١ – ١٦).

وفي الآيات تصوير حي لجهنم. فكأن لها عينين ترى بهما الكفار وتغلى من الغيظ ويزداد صفيرها لاضطرام نارها استعدادا لاستقبال الكفار. ولا يملك من يسمع هذا الوصف إلا أن يتعوذ بالله من نارها. ويزيد من تجسيد الموقف وصف إلقاء الكافرين في النار في مكان ضيق مُقيدين ومقرون بعضهم إلى بعض. فلا يملكون إلا أن يتمنوا الهلاك الخلاص من العذاب. ويزيدهم ألما أن يعرفوا أنهم حتى لو أكثروا من تمنّي الهلاك فلن يجابوا إليه وسيخلدون في النار وستزيد حسرتهم حين يُسألون عما إذا كان ما هم فيه خير أم جنة الخلد التي يتنعم فيها المؤمنون خالدين فيها كما وعدهم ربهم.

٤ – المعبودات تتبرّأ من عابديها: واستكمالا لتجسيد ما يحدث يوم القيامة تذكر الآيات ما فيه من إفحام للمكذبين المشركين وتسفيه عباداتهم. فالله تعالى سيحشرهم يوم القيامة مع معبوداتهم ويسأل المعبودات عما إذا كانوا هم الذين أضلوا العباد وزينوا لهم الشرك أم هم الذين زاغوا باختيارهم فيجيبونه بأنهم لا يمكنهم أن يجرأوا على فرض عبادتهم على الناس ولكن الضالين استغرقوا في متع الحياة الدنيا هم وآباؤهم فنسوا ذكر الله وضلوا. حينئذ يتوجه الخطاب إلى الكفار بأسلوب فيه تبكيت يخبرهم أن معبوداتهم قد تبرأوا منهم وكذّبوهم فليس في إمكانهم دفع العذاب عنهم أو نصرتهم. وتنتهي الفقرة بإنذار عام للناس بأن من يظلم نفسه أو غيره له عذاب كبير. ثم تعود الآيات إلى تفنيد اعتراضهم على بشرية الرسول فتقرر أن تلك هي سنة الله في المرسلين من قبله إذ كانوا كلهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ثم توضّح أن الله جعل بعض الناس فتنة للبعض الآخر: فالأغنياء فتنة للفقراء. والزعماء فتنة للعامة والأقوياء فتنة للضعفاء وهكذا لينظر الله هل

يمتثل الناس ويصبروا على قَدَره ومشيئته وحكمته فالله بصير بما يُصلح العباد ويصير بصالحهم، فمنهم من يطغيه الغنى ومنهم من يزداد به حسنات لكثرة تصدقه على الفقراء.

ومنهم من يستعمل قوته فى البطش بالناس ومنهم من يستخدمها لنصرة المظلوم وهكذا:

«ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلُّوا السبيلَ. قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (مستحقين الهلاك). **فقد كذَّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا. وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً»** (١٧ – ٢٠).

٥ – ثم تذكر الآيات **صورة من تعنت المشركين فى مطالبهم :**

«وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا. لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا (طغوا وتكبَّروا) **عتُوًا كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا. وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا. أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا»** (٢١ – ٢٤).

وقال الذين لا يعتقدون فى البعث لماذا لا تُنزَّل عليهم الملائكة لتخبرهم بصدق «محمد» أو يروا الله فيخبرهم بذلك. والحقيقة أنهم بلغوا فى التكذيب مبلغا لا ينفع فيه أى آية ليؤمنوا. وتمكَّن الكبر من نفوسهم حتى ظنوا أنهم قادرون على رؤية الله سبحانه وتعالى. والعتوّ تجاوز الحد فى الظلم. وترد عليهم الآيات بأنهم حين يرون الملائكة – وذلك لا يكون إلا فى يوم القيامة – سيكون ذلك مصدر تعاسة لهم **«لا بشرى» «ويقولون حجرا محجوراً»** وهى كلمة كانت تقولها العرب إذا لقوا عدوا أو نزلت بهم نزلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة كما نقول فى أيامنا هذه «ياساتر استر». أى أنهم يومئذ سيطلبون من الله أن يجعل بينهم وبين العذاب سدا وحاجزا. ولكن الله سيُحبط أعمالهم ويجعلها كالهباء المنثور لأنها لم تكن خالصة لوجه الله تعالى. ثم تختم الفقرة بذكر أن أصحاب الجنة يومئذ يكونون مستقرين فى أحسن منزل **«أحسن مقيلا»**.

٦ – ثم تأتى الآيات **بوصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة** حين تتشقق السماء وينزل الملائكة. ويعض الظالم على يديه ندما على أنه لم يؤمن:

«ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلا. الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا. ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلَّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا. وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا. وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا» (٢٥ – ٣١).

والآيات الأخيرة تقرر أن الرسول يشكو إلى ربه ما يلاقيه من تعنت قومه وأنهم هجروا القرآن وتمادوا في عدائهم. وتسرِّي عنه الآيات بذكر أن كل الأنبياء السابقين كان لهم أعداء من المكذبين المجرمين ويكفيه أن يكون الله له هاديا ونصيرا.

٧ – ثم تذكر الآيات صورة أخرى من تعنت المشركين في طلباتهم :

«وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنُثَبِّت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمَثَل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيراً. الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكانا وأضلُّ سبيلاً» (٣٢ – ٣٤).

وكان الكافرون قد قالوا – على سبيل الإنكار والتحدِّى – هلاَّ أنزل القرآن على النبى جملة واحدة. وكان الرد عليهم أنه نُزِّل هكذا رتلا بعد رتل وجزءا بعد جزء ليسهل على الناس استيعابه وحفظه وأكثر من ذلك أنه نزل بنطقه الذى يُقرأ به بما فيه من مَدٍّ ووقف وإدغام وطريقة تلاوته وترتيله. وأنهم لا يأتون بجدل يظنون فيه تعجيزا إلا رُدَّ عليهم بحجة أقوى وأكثر إفحاما. وسيُحشر الكافرون إلى جهنم على وجوههم لأنهم مشوا مُكبين على وجوههم في طريق الضلال.

والحقيقة أنه ليس هناك دليل تاريخى أو دينى يُوثَق به يؤكد أن الكتب السماوية السابقة كالزبور والإنجيل نزلت مكتوبة جملة واحدة. وحتى التوراة فإن ما نزل مكتوبا هى الألواح التى بها الوصايا العشر. أما باقى التوراة وهى تزيد عن الألف صفحة فلا يمكن أن تكون قد نزلت مكتوبة. ومن المؤكد أنها نزلت وحيا إلى موسى كما أنزل القرآن.

٨ – ثم تأتى بعد ذلك فقرة فيها **إشارات مختصرة عن الأقوام السابقين** وأنهم كذَّبوا رسلهم فوجب هلاكهم :

«ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا. فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذَّبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا. وقومَ نوح لمَّا كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما. وعادا وثمودا وأصحاب الرّس وقرونا بين ذلك كثيرا. وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبَّرنا (أى أهلكنا) **تتبيرا. ولقد أتوا على القرية التى أُمطرت مطر السوء** (قوم لوط) **أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجُون نشورا»** (٣٥ – ٤٠).

ويقال إن أصحاب الرس قوم كانوا يعبدون الأصنام وكانوا يعيشون فى وادى الرس شرقى خليج العقبة وهم ممن بعث إليهم النبى شعيب بالإضافة إلى مدين أصحاب الأيكة (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص ٥٣٦). وقوم لوط كانوا يسكنون خمس قرى فى السهل جنوبى الطرف الجنوبى للبحر الميت (الجزء الثانى ص ٣١٠ – ٣٣٢) وكانت فى طريق تجارة قريش إلى فلسطين فكانوا يرون آثار ما حاق بأهلها من دمار. وجاء

التساؤل «أفلم يكونوا يرونها» للتوبيخ على عدم الاتعاظ بمصيرهم ولكنهم كانوا لا يؤمنون ببعث ولا بيوم يُنشرون فيه إلى الحساب.

استخفاف الكفار بالنبى :

كان الكفار يتخذون من النبى - حين يرونه - موضوع هزء واستخفاف ويتساءلون تساؤل الهازئ المستخف: هل هذا هو الذى بعثه الله رسولا؟!. ثم يأخذون يتفاخرون بما أبدوه من صبر وثبات على معبوداتهم ويقولون إنه كاد أن يُضِلَّهم عن عقيدتهم لولا صبرهم وتمسُّكهم بها. وترد الآيات عليهم بأنهم - يوم القيامة حين يأتيهم العذاب - سيعلمون من هو الضال. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى فى تساؤل يحثه أن لا يعتبر نفسه وكيلا عمَّن سار وراء أهوائه وجعلها مقصده ومعبوده. وتساؤل ثان ينفى عنهم السمع والعقل ويقرر أنهم فى درجة أدنى من الأنعام لأن الأنعام تعرف بالغريزة ما يضرها فتحذره.

«وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا. إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا. أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» (٤١ - ٤٤).

آية الله فى الظل والليل والنهار :

«ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا. وهو الذى جعل لكم الليل لباسا (ساترا كاللباس) والنوم سباتا (راحة بقطع الأعمال) وجعل النهار نشورا» (٤٥ - ٤٧).

ولاشك أن هذه الآية هى من الآيات التى أمسك الرسول عن تفسيرها لذلك كثرت فيها التفاسير. يروى أن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وغيرهم من الصحابة كانوا يعتبرون أن «الظل» هو الوقت من أوقات النهار الذى لا ظل فيه! أى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ولو شاء الله لجعله ساكنا دائما ولكن حينما تشرق الشمس يزول ذلك الوقت أى يزول الظل وبهذا كانت الشمس دالة عليه ثم تغيب فيعود الظل ثانية (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ٣٢٠). وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (ص ٥٣٧) أن الله قد بسط الظل وجعله ساكنا أول النهار ثم سلط عليه الشمس فتحل أشعتها محله فكانت الشمس دالة عليه ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا مطبقا على الناس فتفوت مصالحهم ومرافقهم. وفى الحاشية كتب أن الظل يدل على دوران الأرض. ولو أن الأرض سكنت دون دوران ليسكن الظل لظلت الشمس مسلطة على نصف الأرض المواجه لها ولاحترقت الأشياء ولظل نصف الأرض الآخر فى ظل دائم وساكن ولتجمدت الأحياء من البرودة. ولو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولانعدمت

فرص الحياة أمام الكائنات التى لا تعيش إلا فى الظل. أما صفوة التفاسير (جـ ٢ ص ٣٣٤) فقد جاء فيه: أى ألم تنظر إلى بديع صنع الله كيف بسط الظل ومدّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس. ولو أراد الله لجعله دائما ثابتا فى مكان لا يزول ولا يتحول عنه ولكنه ينقله من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة فوجود الظل دليل على وجود الشمس. ثم أزاله شيئا فشيئا وقليلا قليلا لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح. وهذا التفسير هو ما نميل إليه. ونزيده إيضاحا بأن معظم الناس قديما كانت مهنتهم رعى الأغنام. وقد يسير أحدهم بغنمه عدة كيلو مترات بعيدا عن قريته وراء الكلأ. ولم تكن هناك ساعات يتمكن بها من تحديد كم بقى من الوقت قبل غروب الشمس ليستطيع العودة إلى بيته قبل أن يدهمه الليل وما فيه من وحوش ضارية. لذلك كان الناس يعتمدون على ظل الأشياء لمعرفة الوقت وحينما تكون الشمس فى كبد السماء يكون الظل أقصر ما يكون ويطول فى أول النهار وفى الأصيل قبل مغرب الشمس. لذلك كانت الدعوة للتدبّر فى **«كيف مدّ الظل»** لا التدبر فى الظل نفسه. **«ولو شاء لجعله ساكنا»** أى تكون الشمس ثابتة فى مكان ما من السماء تضىء ليكون نهار ثم تنطفئ كأن يحجب ضوءها نجم ما فيكون ليل ولكن فى هذه الحالة – حيث أن الظل ساكن وطوله ثابت لثبات الشمس فى مكانها – لا يعرف الراعى كم بقى من الوقت على قدوم الليل الذى قد يدهمه فى الطريق. لذلك كان من رحمة الله بالبشر أن جعل الشمس تسير سيرها المعتاد أو بالأصح أن الأرض تدور دورتها المعتادة فيكون الظل طويلا أول النهار ثم هو يتحرك بحركة الشمس الظاهرية فهو ليس ساكنا. ثم يطول ثانية فى آخر النهار. ويبهت بخفوت ضوء الشمس كأنما قد قُبض **«ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا»**. ثم يأتى الليل للراحة. ولذلك قيل **«وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا»**. وتتكرر دورة الليل والنهار إلى ما شاء الله.

بعض مظاهر الكون الدالة على قدرة الله :

وقد ذكرت هذه الفقرة ثلاثة مظاهر: ١ – الرياح ودورها فى نزول المطر. ٢ – مجارى المياه العذبة وعدم طغيان ماء البحر المالح عليها. ٣ – خلق البشر من التزاوج.

١ – **«وهو الذى أرسل الرياح بُشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طَهورًا. لنحيىَ به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا. ولقد صرّفناه بينهم ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلا كُفورا. ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا»** (٤٨ – ٥٢).

وفى هذه الآية تذكير بآية الله فى سوْق الرياح المحملة بالمياه لتنزل المطر فتحيا به الأرض ويشرب منه الأنعام والناس. ثم تقرر الآيات أن الله يصرف المطر حسب مشيئته. فقد يصيب بعض الناس بالقحط ليذكّروا. ومع هذا فقد غفل أكثر الناس عن ذلك وظلوا على كفرهم. وروى

عن ابن مسعود قول النبى: ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل القوم بالمعاصى صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار. ويقول دكتور زغلول النجار (الأهرام ٢٠٠٢/٦/٣) إن ما يتبخر من سطح البحار والمحيطات يقدر بـ ٣٨٠٠٠٠ كم مكعب من الماء فى العام. وماء البحار مالح لا يصلح للشرب ولا للزراعة ولكن ماء المطر عذب صافٍ طهور وليس به رواسب. ثم تأتى آية لتسرِّى عن النبى حزنه لعدم تصديق كثير من الناس برسالته فتخبره بأن الله لو شاء لأرسل فى كل قرية نذيرا فيخفف عنه أعباء الرسالة ولكن الله شاء أن يكون هو النذير للعالمين جميعا. ثم يأمره بعدم إطاعة الكافرين فيما كانوا يدعونه إليه من حلول وسط وأُمِر بأن يجاهدهم بالقرآن إذ فى الآيات موعظة وعبرة وهذا كفيل بمن أراد الله له الهداية أن يؤمن.

ثم تنتقل الآيات إلى مظهر آخر من مظاهر الكون:

٢ - **«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا»** (٥٣).

والماء العذب الفرات هو الذى يجرى فى الأنهار. ومجارى الأنهار فى مجملها أعلى من سطح البحر ومن ثم فالنهر العذب يصب فى البحر الملح الأجاج ولما كان الماء العذب أقل كثافة من ماء البحر فعند مصبات الأنهار يطفو الماء العذب فوق ماء البحر ولا يختلط به - وكأن بينهما حاجزا - ولكن فى النهاية يختلطان ويصبح الكل مالحا. ومن رحمة الله أن لا يطغى ماء البحر على مياه الأنهار فتجعلها مالحة لأن الماء المالح لا يروى العطش ولا يصلح للزراعة.

٣ - **«وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا»** (٥٤).

فمن قدرة الله أن خلق الإنسان من نطفة صغيرة وجعلهم ذكورا وإناثا لتكون بينهم قرابات بالنسب والمصاهرة والله قدير فى خلقه.

بعد سرد بعض مظاهر الكون الدالة على قدرة الله: إرسال الرياح. ومرج البحرين وخلق الإنسان. كان الواجب على الإنسان أن يعبد الله وحده. ولكن الكفار راحوا يعبدون من دونه أصناما لا تضر ولا تنفع وبهذا يكون الكافر قد ظاهر ربه وجاهره بالعداوة:

«ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا» (٥٥).

ثم يتوجه الخطاب إلى النبى للتسرية عنه لإعراضهم عن دعوته بإخباره أن مهمته هى تبشير المؤمنين (بالجنة) وإنذار المشركين (من النار) وإخبارهم أنه لا يطلب على دعوته أجراً ويكفيه أن يهتدوا ويسلكوا سبيل الحق. كما تأمر النبى بأن يتوكل على الله ويسبحه فهو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وعليه ألا يهتم برفض المشركين عبادة الله. ثم يأتى تنزيهٌ لله الذى جعل فى السماء الشمس والقمر وبروج الكواكب وجعل الليل والنهار يتعاقبان وهى آيات تدعو من يتدبرها إلى شكر الله على نعمائه:

«وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا. قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا. وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبِّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا. الذي خلق السموات الأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا. وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا. تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا. وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شُكورا» (٥٦ – ٦٢).

ومن دقة التعبير القرآني وصف الشمس بأنها «سراج» والسراج يحترق ويضيئ بذاته ووُصِف القمر بأنه «منير» لأنه لا يضيئ بذاته بل يعكس أشعة الشمس فينير. وهي حقائق لم تعرف إلا في العصر الحديث.

عباد الرحمن :

ثم تأتي الفقرة الخاتمة للسورة لتسرد ١٢ صفة من صفات عباد الرحمن:

١ – **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»**(٦٣). فمن صفات عباد الرحمن التواضع. إذا مشوا على الأرض مشوا في سكينة ووقار وإذا سابَّهم السفهاء لم يردوا عليهم بالمثل.

٢ – **«والذين يبيتون لربِّهم سُجَّدا وقياما»** (٦٤) متعبدين ذاكرين الله.

٣ – **«والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مُستقرا ومُقاما»** (٦٥ – ٦٦). فشأن الأتقياء أن يُغلِّبوا الخوف على الرجاء فيخافون عذاب الآخرة ويدعون الله أن ينجيهم من عذاب جهنم لأن عذابها شديد ومستمر وهي أسوأ مكان لمن يستقر ويقيم فيه.

٤ – **«والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما»** (٦٧). فدأبهم الاعتدال في الإنفاق على أنفسهم وأسرهم فلا تبذير ولا تضييق.

٥ – **«والذين لا يدعون مع الله إلها آخر**

٦ – **«ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق.**

٧ – **«ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يُضاعَف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما. ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا»** (٦٩ – ٧١).

٨ – **«والذين لا يشهدون الزور».**

٩ – **«وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراما»** (٧٢).

١٠ – **«والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صمًّا وعُميانا»** (٧٣).

١١ – **«والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ».**

١٢ – «**واجعلنا للمتقين إماما**» (٤٧): أى يجعلهم من أئمة الخير يقتدى بهم.

فهؤلاء هم عباد الرحمن حقا وجزاؤهم غرف الجنة العالية وتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام. ولهم خير مقام ومستقر فى الجنة خالدين فيها:

«**أولئك** (أى عباد الرحمن) **يُجزون الغرفة بما صبروا ويُلقَّون فيها تحية وسلاما. خالدين فيها حسنت مستقرا ومُقاما**» (٧٥ – ٧٦).

وتختم السورة بإعلان الكفار بأن الله تعالى لا يبالى إذا لم يعبدوه وأنه لولا دعاؤهم لأهلكهم فى الدنيا ولكن عذابهم سيكون واقعا ولزاما فى الآخرة:

«**قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما**» (٧٧).

ثم نزلت **سورة فاطر** :

« **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أُولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير. ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون**» (١ – ٣).

وهذه السورة هى ثانى سورة – بعد الفاتحة – تبدأ بحمد الله.ثم تقرر أن الله خلق السموات والأرض وخلق الملائكة وجعل لهم أجنحة متعددة ويستطيع أن يخلق ما يزيد عن ذلك فهو قدير على كل شيئ وهو وحده الرزاق فلا مانع لما أعطى ولا مُعطى لما منع. وتستمر الآيات تهيب بالناس أن يذكروا نعمة الله فليس هناك من يرزقهم غير الله وتتعجَّب من إشراكهم بالله.

ثم تأتى آية للتسرية عن النبى بإخباره أن الأنبياء السابقين قد كُذِّبوا مثله:

«**وإن يكذبوك فقد كُذِّبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور**» (٤).

ثم تأتى آيات تؤكد للناس أن وعد الله بالآخرة حق وعليهم ألا يغتروا بالحياة الدنيا وأن الشيطان عدو لبنى آدم ويحاول جاهدا أن يستميل الناس إلى حزبه فيكونوا فى النار مثله. ثم تخبر أن من إتبعوه وكفروا لهم عذاب عظيم فى حين أن الذين آمنوا سيغفر الله ذنوبهم ولهم ثواب كبير. ثم تتعجب من هؤلاء الذين خدعهم الشيطان وزيَّن لهم سوء العمل فظنوه حسنا وفعلوه وتهيب بالنبى ألا يحزن عليهم لأنهم ارتضوا سبيل الضلال فزادهم الله ضلالا والله يعلم ما يصنعون:

«**يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير. أفمن زُين له سوء عمله**

فرآه حسنا فإن الله يُضِل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون» (٥ – ٨).

بعض مظاهر الكون الدالة على قدرة الله :

وقد سبق أن ذكرت السورة السابقة – سورة الفرقان – فى الآيات ٤٨ – ٥٤ (ص ١٤٤–١٤٥) ثلاثة من هذه المظاهر. وجاءت الفقرة الحالية من سورة فاطر لتذكر أربعة من هذه المظاهر تأكيدا على أن من يتأمل فى مظاهر الكون لابد أن يهديه عقله إلى الإيمان بأن لهذا الكون خالقا مبدعا خلقه على هذا القدر البالغ من الإحكام والدقة. ومظاهر الكون التى ذكرت حاليا هى: ١ – الرياح ودورها فى إنزال المطر. ٢ – خلق البشر من تراب ٣ – التمايز بين مجارى المياه العذبة والبحار المالحة وما فى كل من ثروات وإمكان طفو السفن وسيرها فى كل منها. ٤ – تعاقب الليل والنهار.

١ – «**والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** (أى البعث). **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه** (أى يقبله) **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** (يحبط)» (٩ – ١٠)

ويلاحظ أنه قد تكرر فى أكثر من سورة نعمة الله فى سوق السحاب يحمل الأمطار التى تحيى الأرض الميتة. ففى السورة السابقة (الفرقان. آية ٤٨ ص ١٤٤) جاء «**وهو الذى أرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته**». وفى سورة الأعراف (آية ٥٧ ص ١٢٠) جاءت نفس الجملة ولكن بصيغة المضارع «**وهو الذى يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته**». وليس ذلك بمستغرب إذ أن وادى مكة ليس به أنهار ويعتمد أهله على المطر لزراعة ما يحتاجونه لغذائهم ولإنبات المرعى لإبلهم وأغنامهم فكان المناسب تكرار لفت نظرهم إلى قدرة الله فى إنزال المطر ولو شاء لأمسكه عنهم فهلكوا. ثم تخبر الآيات الناس أن من يريد الشرف والقوة فليستمدها من الله بالطاعة فالله يقبل الدعاء الصالح ويُرفع العمل الصالح إليه والمفهوم أنه سيثيب عليه.

وهذا الإحياء للأرض بعد موتها يلفت النظر إلى قدرة الله فى إحياء البشر بعد موتهم لذلك كان ذكر قدرة الله فى خلق البشر:

٢ – «**والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا. وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يُعمَّر من مُعمَّر ولا يُنقص من عُمُره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير**» (١١).

فإن من مظاهر قدرة الله خلق البشر من تراب ثم تكاثرهم من نطفة بعد أن جعلهم ذكرا وأنثى. والكل متعلق بمشيئة الله وإرادته فى الحمل والولادة أو طول العمر وقصره وكل ذلك مسجَّل فى كتاب هو اللوح المحفوظ.

٣ – «**وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**» (١٢).

وقد سبق – في سورة الفرقان (الآية ٥٣ ص ١٤٥) بيان قدرة الله في فصل المياه العذبة عن المياه المالحة. أما السورة الحالية فقد لفتت النظر إلى ما يصاد منهما من سمك وما يستخرج من البحار من اللؤلؤ والمرجان ومن مصاب بعض الأنهار يستخرج الذهب. والسفن تجرى في كل منهما حاملة البضائع للتجارة. فمن الواجب شكر الله على هذه النعم.

٤ – «**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجل مُسمًّى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**» (١٣ – ١٤).

وقد جاء التذكير بآية تعاقب الليل والنهار وآية الشمس والقمر في سور كثيرة سابقة وكان الواجب شكر الله على ذلك ولكن الكفار راحوا يدعون من دونه شركاء ما يملكون من قطمير وهو قشرة النواة وهو أتفه شيئ لدى العرب. ولا يسمع الشركاء دعاء من يعبدونهم ولو سمعوهم ليس في استطاعتهم الاستجابة لدعائهم، وفي يوم القيامة يتنصلون منهم ويتبرأون من عبادتهم. ويكفى أن الله هو الذى يخبر بهذه الأمور لنتأكد من صدقها.

الله هو الغنى :

ثم تأتى فقرة توضّح للناس أن الله ليس في حاجة إليهم وإنما هم الذين في حاجة إلى الله. وهو غنى عن المنصرفين عنه حميد للمستجيبين إليه. ثم تنذرهم بقدرة الله على إبادة البشر جميعا والإتيان بقوم آخرين وليس ذلك بأمر صعب لأن الله هو الذى خلق الأول. وهو على الخلق الثانى قدير:

«**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز**» (١٥ – ١٧).

الأعمال أساس الجزاء :

ثم تأتى آيات تقرر أن كل فرد مؤاخذ بعمله وليس لأحد أن يحمل عن شخص آخر ذنبه. وللتدليل على هذا المعنى يؤتى بصورة امرأة حامل فمن غير المستطاع أن يقدر أحد التخفيف من ثقل حملها حتى ولو كان يمت لها بصلة قرابة. وعلى ذلك فالمكذبين سيتحملون وزر تكذيبهم. ومن طهّر نفسه وزكّاها بالتقوى والعمل الصالح فثواب ذلك عائد عليه. ثم تهيب الآيات بالناس أن يتفكروا فالأعمى والبصير لا يستويان، وكذلك لا يستوى الظلام والنور ولا

الظل يستوى مع الحر الشديد ولا الأحياء مع الأموات فكل هذه أشياء واضحة ويستحيل الخلط بينها وكذلك الفرق واضح بين الذين يستجيبون لدعوة الحق والذين لا يستجيبون لها. فالله يعين الذين يسمعون الدعوة ويتقبلونها أما الذين كفروا فهم كالأموات ولن يسمعوا دعوة الحق. ثم تأتى آيات تخفف عن النبي حزنه لتكذيبهم له فتُذكِّره بأنه ما هو إلا نذير مثل غيره من الرسل السابقين وكُذِّب كما كُذب المرسلون قبله. وقد أخذ الله الكافرين السابقين بعذاب. ثم يسأل الله بما معناه : ألم تكن هذه عقوبة رادعة ؟ وفي هذا تحذير لمن كذبوا النبى من عذاب مماثل:

«ولا تزر وازرة وزر أخرى. وإن تدعُ مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيئ ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير. وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور. إن أنت إلا نذير. إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير. وإن يكذبوك فقد كذَّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير. ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير» (١٥ – ٢٦).

التنوية بفضل العلماء :

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ. إن الله عزيز غفور. (٢٧ – ٢٨).

جُدَد تعنى طرائق أو خطوط وهو إشارة إلى الطبقات الرسوبية فى قطاعات الجبال ومنها يستدل الجيولوجيون على الحقب التى مرت بها ويعرفون مابها من معادن. والعلماء هم أكثر الناس خشية لله لأنهم بتعمقهم فى دراسة الكائنات يتوصلون إلى حقائق تتوه فيها العقول فيوقنون أن لا بد وراءها خالق حكيم عليم. فالعالم الذى يدرس علم الأحياء يذهل إذ يرى الخلية التى لا ترى إلا بالميكرسكوب فيها مولدات للطاقة ومركبات لتبادل المعلومات وإصدار الأوامر وتنفيذها لتكوين المركبات الكيميائية التى تحتاجها الخلية أو مركبات تحتاجها خلايا بعيدة فى الجسم. وكمثال ثان فإنه عند انقسام الخلية تكون الخلايا الجديدة بها نفس عدد كروموسومات الخلية الأصلية إلا أنه عند انقسام خلايا الخصية أو المبيض تنتج خلايا بها نصف العدد الأصلى للكروموسومات. وعند تكون الجنين تكون نصف خلاياه من الأب والنصف الثانى من الأم فيرث خصائص الأبوين. ناهيك عن الطاقة الكامنة فى الذرة على صغرها فإذا انشطرت انطلقت منها طاقة هائلة. فمن الذى حبس هذه الطاقة داخل الذرة! وكم من عالم فى الغرب هتف بقلبه وعقله قائلا: سبحان الله!

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن النص على إختلاف الألوان بالنسبة إلى الثمار والناس والدواب فيه إعجاز علمى. إذ فيه إشارة إلى قوانين الوراثة التى اكتشفها «مندل» عام ١٩٠٠ وتنبأ بوجود الجينات والكروموسومات وأن التزاوج بين الذكر والأنثى ينتج عنه فى السلالة صفات تختلف حسب نسبة ما يرثه الفرد من كل من الأبوين. والتباين فى السلالة الذى ينتج عن اختلاف ٩ جينات يساوى ٢^٩ أى ٥١٢ فردا مختلفا. ولنا أن نتصوركم يكون الاختلاف عند احتساب مافى الخلية من آلاف أو مئات الآلاف من الجينات. فكلمة «ألوانه» - بمفهومها الأوسع - تشمل جميع صفات الكائن الحى والتى هى مجال لكثير من «ألوان» الاختلافات.

جزاء المؤمنين :

«إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور. ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور. والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير. ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَن إن ربنا لغفور شكور. الذى أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب (تعب أو إعياء) (٢٩ - ٣٥).

جزاء الكافرين :

«والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضَى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كَفُور. وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أوَلَم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير» (٣٦ - ٣٧).

أى أن الذين كفروا سيكونون فى عذاب شديد دائم لا يموتون فيستريحون من العذاب ولا يُخفف منه شيئ وحينئذ يندمون على ما فاتهم ويستغيثون بالله ليعيدهم ثانية إلى الدنيا ليؤمنوا بما رفضوه سابقا وليعملوا عملا صالحا فيقال لهم لقد مُنحتم الفرصة الكافية بطول العمر ودعوة الرسل فأضعتموها فليس للظالمين يومئذ من نصير.

ثم تستمر الآيات توضح للكافرين أن الله يعلم غيب السموات والأرض ويعلم سرائر النفوس وعليهم أن يتحملوا تبعة كفرهم. ثم تعود الآيات لتذكّر بمظهر من مظاهر قدرة الله فى الكون فى إمساكه السموات والأرض حتى لا تزولا. ولو حدث ذلك لن يستطيع أحد غيره أن يمسكهما. والسموات هى كل ما علانا وعلا أرضنا وهى مكونه من ملايين المجرات وكل مجرة

بها ملايين الشموس مثل شمسنا وتدور حولها كواكب مثل كوكبنا، وكلها تسير بسرعات هائلة في مدارات محددة حتى لا يصطدم بعضها ببعض:

«إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور. هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرُهم إلا خساراً. قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات، أم آتيناهم كتابا فهم على بيِّنة منه بل إن يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضًا إلا غرورا. إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا» (٣٨ – ٤١).

ثم تمضي الآيات:

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم. فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكرَ السيئ ولا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله. فهل ينظرون إلا سنة الأولين ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا» (٤٢ – ٤٣).

قيل إن قريشا – قبل بعثة النبي – بلغهم أن طائفة من أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم. فوالله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من هذه الأمم. فلما جاءهم النبي كذبوه وازدادوا كفرا ونفورا واستكبارا عن اتباع النذير وراحوا يمكرون به وتأتي جملة **«ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله»** لتدل على أن مكرهم سيرتد إليهم. وليضرب بها المثل بعد ذلك في كل موقف مشابه. ثم يأتي تحذير من أن ينالهم مثل ما نال الأمم السابقة من عذاب لأن سنة الله لن تتبدَّل ولن تتحوَّل.

ثم يأتي تساؤل يستنكر غفلتهم وعدم اعتبارهم. فلو ساروا في الأرض لرأوا آثار الأمم السابقة وما حاق بها جزاء تكذيبهم لرسلهم مع أنهم كانوا أشد قوة من كفار قريش وما استعصوا على الله. ثم تقرر الآية الأخيرة في السورة أن الله لو عجَّل للناس حسابهم على كل شيئ يفعلونه لما بقي أحد من البشر لكثرة أخطائهم ولأنهم مُقصِّرون دائما عن القيام بواجباتهم ولكن الله يمهلهم فقد يتوب بعضهم. فإذا جاء وقت الحساب فإن الله بصير بالعباد ولا يخفى عليه شيئ منهم والمعنى أنه لو شاء عذب وإن شاء غفر:

«أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيئ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا. ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمًّى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا» (٤٤ – ٤٥).

ثم نزلت **سورة مريم:**

وقد سميت بهذا الإسم لورود قصة مريم ابنة عمران والدة المسيح بها. وقد تعرضت

السورة لقصة عدد من الأنبياء، بدأت بقصة زكريا ويحيى، ثم قصة مريم وولادة المسيح ثم قصة إبراهيم. بعد ذلك تأتى إشارات قصيرة إلى موسى وإسماعيل وإدريس.

«كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيًا..»

وتبدأ السورة بخمسة حروف مقطعة. ويعدها تأتى قصة زكريا ويحيى فى الآيات ٢ - ١٥. وقد فصّلناها فى الجزء السادس (ص ١٥ - ٢١، ٤٣ - ٤٧). ثم ذكرت قصة مريم وولادة المسيح فى الآيات ١٦ - ٣٦ وقد فصلناها فى الجزء السادس ص ٢٢ - ٢٩.

إلى قوله تعالى: **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربى وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم»** (٣٤ - ٣٦).

ولاشك أن هذه الآيات جاءت ردا على مجادلة بين النبى وعدد من النصارى جاءوا إلى مكة فى تجارة أو جاءوا ليستطلعوا ما سمعوه عن ظهور نبى بمكة. فلما قابلوه كان من الطبيعى أن يسألوه رأيه فى مريم والمسيح.

ونلاحظ هنا الرفق الشديد فى تناول معتقد النصارى فى بنوة عيسى لله فتقرر الآيات أن جلال الله وعظمته لا يتفق مع اتخاذه من البشر ولدا وينزهه عن ذلك بقول «سبحانه» ثم تقرير مطلق قدرة الله وطلاقة مشيئته فإذا أراد خلق شيئ قال له كن فيكون ولعل المقصود بإيراد هذا المعنى فى هذا الموضع هو لفت النظر إلى أن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يتخذ ولدا لخلقه من لدنه ولا ينتظر حتى تلد مريم ثم يتخذ ابنها ولدا له. ثم يأتى تسجيل لقول عيسى **«وإن الله ربى وربكم فاعبدوه»** متفقا مع نفى الألوهية عن نفسه بل هو يدعو إلى عبادة الله وحده.

وتختم هذه الفقرة عن مريم والمسيح بتسجيل ما حدث من اختلاف فرق النصارى حول طبيعة المسيح. وهو ما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء السادس ص ١٣٦ - ١٤١. ثم آيات فيها تحذير للمنحرفين عن الحق مما سوف ينالهم يوم القيامة حين يرجع كل شيئ إلى الله «نرث الأرض» فيتحسرون على غفلتهم.

«فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون. إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون» (٣٧ - ٤٠).

قصة إبراهيم عليه السلام :

ذكرت هذه القصة فى الآيات ٤١ - ٥٠ وكانت تلك هى أول إشارة لقصته فى القرآن الكريم:

«واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صِدِّيقا نبيا. إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا. يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عَصِيًا. يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا. قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مَلِيًّا. قال سلام عليك سأستغفرلك ربى إنه كان بى حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عَلِيا» (٤١ – ٥٠).

وقد ذكرنا قصة إبراهيم بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٢١٦ – ٣٠٦).

ومما يلاحظ أن الآيات الحالية قد ركَّزت على تسفيه عبادة الأصنام وبيان أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع. ويكون تخوُّف إبراهيم على والده أن يمسَّه عذاب من الله بسبب عبادة الأصنام يعنى أيضا تخوُّف من أن يمسَّ قريشا عذاب لعبادتهم الأصنام. وتنتهى الفقرة بتوضيح أن إبراهيم لما فارق أباه وقومه وآلهتهم أكرمه الله بالذرية الصالحة: إسحق ويعقوب وكلاً كان نبيا.

ثم تأتى قصة موسى. ولما كانت قد وردت مفصلة فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ – ١٧٤ ص ١٢٤). فقد اكتُفِىَ هنا بإشارة خاطفة:

«واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مُخلَصًا وكان رسولا نبيا. وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا. ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا» (٥١ – ٥٣).

ثم إشارة سريعة إلى **إسماعيل** وقد سبق ذكر اسمه فى سورة ص (آية ٤٨ ص ١١٣) فى سياق عدد من الأنبياء وصفوا بأنهم أخيار وزيد هنا وصفه بالصدق وأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة. وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٣٦٩):

«واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا» (٥٤ – ٥٥).

وكذلك جاءت إشارة قصيرة إلى **إدريس**. وهذه أول مرة يجئ ذكره فى القرآن. ولاشك أن العرب حدَّسوا أنه هو النبى الذى يسميه أهل الكتاب «أخنوخ» إذ جاء فى التوراة (٦ تكوين ٢٤): وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه وهى نفس النهاية التى ذكرها القرآن:

«واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صِدِّيقا نبيا. ورفعناه مكانا عَليا» (٥٦ – ٥٧).

وقد ذكرناه بالتفصيل فى الجزء الأول (ص ٤٥).

تنويه بالأنبياء وبيان مسلك أتباعهم :

«أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدا وبُكِيا. فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غَيا. إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا. جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا. لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا. تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا» (٥٨ – ٦٣).

وقد قررت الآيات أن هؤلاء الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم خشعوا وخروا ساجدين لله متضرعين إليه باكين من خشيته. وأن فريقا من أتباعهم ضلوا الطريق وفريقا آخر عمل الصالحات وسيدخلون الجنة.

نــزول الملائكــة :

قيل أبطأ الوحى على النبى عدة أيام مما جعل النبى يقلق ويحزن، وراح المشركون يشمتون ويسخرون من سبب إبطائه كما سبق أن فعلوا عندما أبطأ الوحى مدة ٤٠ يوما والتى نزلت بعدها سورة الضحى (ص ٦٢). ويروى أن النبى سأل جبريل عن سبب إبطائه وعما إذا كان فى إمكانه أن يزوره أكثر مما يفعل فأجابه:

«وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نَسيًّا. ربُّ السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سَمِيًّا» (٦٤ – ٦٥).

وفى هذا الرد يوضح جبريل حدود الملائكة إزاء العزة الإلهية وأنهم – وجبريل منهم – لا ينزلون إلا بأمر الله وأن تأخره عليه لم يكن نسيانا من الله سبحانه وتعالى فهو رب السموات والأرض. ثم يأمر النبى بمداومة العبادة فليس له نظير يستحق العبادة.

قضيــة البعــث :

كانت قضية البعث بعد الممات من القضايا الكبرى التى تصدى الإسلام لاقناع الناس بها فجميع بلدان الشرق الأدنى كانت وثنية وتنكره – إلا من كانوا على النصرانية – فلم يملّ الإسلام من تكرار التذكير بها وإيراد مشاهد مما سيحدث فى يوم القيامة ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من هذا الموضوع:

«ويقول الإنسان أإذا ما مِت لسوف أُخرج حيا. أوَلاَ يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئا. فوربك لنحشرنَّهم والشياطينَ ثم لنُحضِرنهم حول جهنم جِثِيا. ثم لننزِعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عِتِيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلِيا. وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيا» (٦٦ – ٧٢).

وفى هذه الآيات يتساءل الإنسان المنكر للبعث عما إذا كان حقا سيبعث بعد موته، ويُرَدُّ عليه بتساؤل عما إذا كان يجهل أن الله تعالى خلقه من العدم فيشك فى قدرته على إحيائه بعد موته. ثم يأتى قَسَم بالله فيه تكريم للنبى «فوربك» وجوابه وعيد للمكذبين بأن الله سيحشرهم ومعهم شياطينهم جاثين حول جهنم أذلاء صاغرين وسيختص بالعذاب الأشد أكثرهم عصيانا وتمردا على الله فالله أعلم بمن يستحق أن يصلى النار أكثر من غيره. وكل الناس يَرِدون عليها حين يمرون على الصراط ولكن الله ينجى المتقين فى حين يسقط الظالمون فى النار.

تعالى الكفار على المؤمنين :

أ – جاءت الآيات التالية تندد بتعالى الكفار على المؤمنين واعتزازهم بمالهم وجاههم ثم تُذكِّر بهلاك الكفار من الأقوام السابقين مع أنهم كانوا أكثر ثراء وأبهى منظرا وترد عليهم بأن الله يمهل من كان فى الضلال وجزاؤه عذاب فى الدنيا أما إذا أدركه الموت – ومن مات قامت قيامته – فسيدرك حينئذ أن له شر مقام ولن ينصره أحد. أما المؤمنون فيزيدهم الله هدى ويوفقهم للعمل الصالح ولهم خير ثواب عند الله :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نَدِيًّا (مجلسًا فى ناديهم)**. وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورِئياً** (منظرا)**. قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مَداً حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مَرَدًّا** (عاقبة)**»** (٧٣ – ٧٦).

ب – ويروى أنه كان لأحد المسلمين دين على أحد زعماء الكفار فطالبه به فقال له لا أؤديه لك حتى تكفر بمحمد. فقال له لن أكفر حتى تموت ثم تبعث فقال له على سبيل التهكم: إذن سيكون لى حينئذ مالٌ وولد فأوفيك دينك فنزلت الآيات:

«أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا. أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا. كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً. ونرثه ما يقول ويأتينا فردا» (٧٧ – ٨٠).

جـ – ثم تستمر الآيات تسجل جانبا من أقوال المشركين وأفعالهم :

«واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضِدا. ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا. فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً. يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا. ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردا. لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا» (٨١ – ٨٧).

والآيات تندد بالكافرين الذين عبدوا من دون الله آلهة وتخبر بأنهم يوم القيامة سيكفرون بعبادتهم ويتبرأون منها. وقد جاء هذا المعنى نفسه فى سورة فاطر (الآية ١٤ ص ١٤٩) فى

قوله تعالى: «ويوم القيامة يكفرون بشرككم». ولا شك أن المشركين قد بدأوا يراجعون موقفهم ويسألون أنفسهم إن كانت هذه الأصنام ستنصرهم ولكنهم لإنكارهم البعث لم يصلوا إلى الإجابة الصحيحة. والأزُّ هو الهز بشدة والمعنى تجرهم إلى الإغواء جرا يصاحبه ضجيج. وتأمر الآيات النبى بعدم تعجُّل العذاب لهم لأن الله يمهلهم ويحصى عليهم أعمالهم ويعدها عملا عملا ليجازيهم بها يوم القيامة حين يحشر المتقون إلى الجنة ويساق المجرمون إلى جهنّم وفدا ونصيبا لها منهم.

نفى أن يكون لله ولد :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدًّا. تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدّهم عدًّا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا» (٨٨ – ٩٦).

وقد نعت الآيات فى أول السورة على النصارى قولهم إن عيسى ابن الله وردّت عليهم بقوله تعالى (الآية ٣٥ ص ١٥٣) **«ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه»**. وجاءت الآيات الحالية تنعى على المشركين – أيًّا كانوا – نسبتهم الولد إلى الله فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله والكفار قالوا الملائكة بنات الله. وهذا شيئ فظيع ومنكر «**شيئا إدًّا**». ولا يستقيم مع العقل أن يكون لله ولد إذ أن كل من فى السموات والأرض هم عبيد الله وسيحشرهم إليه يوم القيامة منفردين عن النصراء والولد والمال وسيضفى الله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات حبا من عنده «**ودًّا**».

ويجئ ختام السورة :

«فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لُدًّا. وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (٩٧ – ٩٨).

والآيات تقرر أن القرآن إنما أنزل بلسان النبى أى باللسان العربى ليسهل على العرب فهمه. ليبشر به النبى الذين آمنوا وينذر به الكافرين الذين لدُّوا فى الخصومة «قوما لُدا» ليرتدعوا. وها هى الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم قد نزل بهم هلاك جارف حتى لم يبق منهم أحد ولا تسمع لهم صوتا ولو خفيفا. والركز فى اللغة هو الصوت الخفى.

ثم نزلت سورة طـه :

وسورة طه تلت سورة مريم فى النزول وهى أيضا التالية لها فى ترتيب المصحف وقد بدأت السورة بحرفين من حروف الأبجدية هما الطاء والهاء «طه» وهما ولاشك – مثل الحروف المقطعة التى بدأت بها سور كثيرة سابقة – جاءا للتنبيه واسترعاء الانتباه. ورأى البعض أن

«طه» اسم من أسماء النبى وعليه فقد تسمى به كثير من الناس كما تسموا باسم «ياسين»، ويرى بعض المفسرين أن معناها «يارجل» فى لهجة قبيلة عك. وقيل معناها طأها أى الأرض إذ كان النبى يطيل الوقوف على مقدم قدميه وهو يصلى حتى ورمت قدماه مستدلين على هذا المعنى بما جاء بعدها من أمر للنبى بأن القرآن لم ينزل عليه ليشقى أو ليرهق نفسه وإنما ليكون تذكرة لمن يخاف الله. أنزله الله خالق السموات والأرض له ما فيهما وما بينهما وما هو مختف تحت سطح الأرض. ومن قدرته أنه يعلم الجهر ويعلم ما يُسِرُّه بعض الناس لبعض وحتى ماهو أخفى من ذلك وهو حديث النفس. هو الله لا إله إلا هو له الأسماء والصفات الحسنى:

«طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلاَّ تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش أستوى. له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى. الله لا إله إلاَّ هو له الأسماء الحسنى» (١-٨).

وقد سبق ذكر معنى الاستواء على العرش فى سورة الأعراف (الآية ٥٤ ص ١٢٠).

قصة موسى وفرعون :

وقد ذكرت القصة باستفاضة فى ٨٩ آية من الآية ٩ إلى ٩٨ وفيها تكملة لبعض النقاط التى لم تذكر في سورة الأعراف (ص ١٢٤ - ١٢٥).

ففى الآيات ٩ - ٢٣ يُذكر خروجه من مدين ورؤيته للنار المقدسة فى جانب الطور واصطفاؤه نبيا ثم عرض لآيتى العصا واليد.

وفى الآيات ٢٤ - ٣٦ طلب موسى العون من الله لإتمام مهمته على خير وجه وكذلك طلب إشراك أخيه هارون فى الرسالة معه واستجابة الله لطلبه.

وفى الآيات ٣٨ - ٤١ يُذكر مولده وإلقاؤه فى النهر.

وفى الآيات ٤٢ - ٤٥ الأمر بالذهاب إلى فرعون .

وفى الآيات ٤٦ - ٥٨ المقابلة الأولى مع فرعون .

وفى الآيات ٥٩ - ٧٦ لقاء يوم الزينة وإيمان السحرة بموسى وتهديد فرعون لهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل.

وفى الآيات ٧٧ - ٧٩ خروج بنى إسرائيل من مصر ومطاردة فرعون لهم وغرقه.

وفى الآيات ٨٠ - ٩١ يذكر ميقات موسى مع ربه واتخاذ بنى إسرائيل العجل.

وفى الآيات ٩٢ - ٩٨ التحقيق فى حادثة العجل وسؤال هارون وسؤال السامرى.

ثم تأتي ٣ آيات توضح سبب إدراج هذه القصة. وهو التذكير والعظة وأن من يعرض عن ذكر الله - كما فعل فرعون وقومه - فله عذاب شديد يوم القيامة:

«كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا. من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا» (٩٩ - ١٠١).

بعض مشاهد يوم القيامة :

ثم تأتى الآيات ١٠٢ - ١١٤ تصف بعض مشاهد من يوم القيامة ومسالك الخلق فى ذلك اليوم الرهيب وحوار بين الكفار عن مقدار مالبثوا فى قبورهم قُصِد به تصوير قوة المباغتة التى سيباغتون بها وقِصَر موعد الوعد الربانى الذى كانوا يرونه مستحيلا. مما يثير الخوف فى نفوسهم من ذلك اليوم فيؤمنوا :

«**يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا** (عُميا أو عطاشا). **يتخافتون بينهم** (يتحاورون محاورة خافته) **إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة** (أوفرهم عقلاً) **إن لبثتم إلا يوما. ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** (تتفتت وتطير ذراتها). **فيذرها قاعا صفصفا** (سهلا مستويا) **لاترى فيها عوجا ولا أمتا** (انحناء ولانتوءا). **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** (اتباعا تاما لا تلكؤ فيه) **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا. يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما. وعنت** (ذلت وخضعت) **الوجوه للحىِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلما** (اقترف خطيئة وظلما). **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** (تضييعا لحقه). **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا. فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما**» (١٠٢ - ١١٤).

ونلمح فى الآيات قوة الوصف والتعبير وقوة الوعيد والإنذار والترغيب والترهيب.. وهو ما يثير الخوف لدي الكفار. ثم تقرر الآيات أن القرآن نزل بلسان عربى مبين حتى لا تكون للعرب حجة بأنه نزل بلغة لا يفهمونها أو لا يجيدونها فكان نزوله بالعربية توكيداً لحسن استيعابهم لما جاء فيه من الوعيد فيتقوا الله. وفى الآية الأخيرة أمر للنبى بألا يعجل بتلاوة القرآن قبل أن يتم وحيه. وقد سبق ذكر هذا المعنى فى سورة القيامة (آية ١٦ ص ٩٣) فى قوله تعالى: «**لا تُحرِّك به لسانك لتعجل به**».

قصة خلق آدم :

ثم تذكر الآيات قصة خلق آدم ورفض إبليس السجود له. وقد سبق ذكر هذه القصة فى سورة ص (الآيات ٧١ - ٨٥ ص ١١٤) مع التركيز على عداوة إبليس لبنى آدم وتوعُّدهم بالغواية والإضلال. كذلك جاءت فى سورة الأعراف (آية ١١ - ٢٦ ص ١١٧) مع ذكر تفاصيل أكثر عن وسوسة الشيطان لآدم وزوجه فى الجنة حتى أخرجهما منها. وهنا - فى سورة طه - أعيد ذكر وسوسة الشيطان لآدم حتى أخرجه من الجنة تأكيدا على عداوة الشيطان لبنى آدم.

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسِيَ ولم نجد له عزمًا، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدمُ ربه فغوى، ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتَّبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» (١١٥ – ١٢٧).

والجديد هنا هو ما ذكر عن توبة آدم بعد عصيانه أمر ربه . وما ينتظر بنى آدم العاصين المعرضين عن ذكر الله من معيشة لا سعادة فيها لضيق الرزق ثم يأتى يوم القيامة أعمى كما كان فى دنياه أعمى البصيرة وعَمِىَ عن النظر فى آيات الله، وعذاب الآخرة أشد مما قد ينزل به من عذاب فى الحياة الدنيا.

تبكيت للكفار :

وتأتى الآيات بهذا التبكيت بسؤال الكفار كيف يتعامون عن آيات الله وقد تبين لهم إهلاك الله لكثير من الأمم السابقة بسبب كفرهم، وكيف أنهم لم يتعظوا مع أنهم يمشون فى ديارهم ومساكنهم مع ما فى ذلك من عظة لمن كان له عقل راجح، والعقل ينهى عن المعاصى وسُمِّى العقلاء «أولوا النهى»، ولولا أن الله قد حكم مسبقا بتأخير العذاب عن قريش لكان العذاب لازما لهم كما لزم السابقين:

«أفلم يهدِ لهم كما أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى، ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا وأجلٌ مُسمًّى» (١٢٨ – ١٢٩).

حث على الصبر والاجتهاد فى العبادة :

ثم يجئ أمر للنبى بأن يصبر وأن يتحمل ما قد يؤذيه من أقوال الكافرين، ثم دعوة بالاجتهاد فى العبادة والصلاة وذكر الله فى كل الأوقات: فى الفجر قبل طلوع الشمس وفى الآصال قبل غروبها وفى ساعات الليل وآنائه وفى أطراف النهار لتقر عينه وترضى نفسه بما أعده الله له من ثواب، وألا يتعدى بنظره إلى ما متَّع الله به بعض فئات الكفار من متع الحياة الدنيا لأن هذه ما هى إلا ابتلاء واختبار من الله لهم وقد ادَّخر الله له ما هو خير وأكثر دوامًا من هذا المتاع، ثم أمر بحث الأهل على الاجتهاد فى العبادة:

«فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى. ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى. وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى» (١٣٠ – ١٣٢).

المشركون يطلبون معجزة :

تذكر الآيات أن المشركين طلبوا أن يأتيهم النبى. بآية معجزة دليلا على نبوته ويجئ الرد فى صيغة سؤال استنكارى مضمونه أنهم قد جاءتهم الكتب السماوية السابقة ولم يؤمنوا. ولو أن الله أهلكهم قبل إرسال النبى لاعتذروا يوم القيامة بأن الله لم يرسل لهم نبيا حتى يتبعوه ويؤمنوا. ثم أمر النبى بأن يقول لهؤلاء المعاندين أن ينتظروا ويتربصوا وسيتبين لهم يوم القيامة من كان على الصراط المستقيم:

«وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أوَ لم تأتهم بينةُ مافى الصحف الأولى. ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتّبع آياتك من قبلِ أن نّذِلَّ ونخزى. قل كلٌّ متربصٌ فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السَّوِىِّ ومن اهتدى» (١٣٣ – ١٣٥).

الهجرة إلى الحبشة :

نحن الآن فى رجب من السنة الخامسة لبدء دعوة النبى للإسلام وكان ما نزل من القرآن كافيا لإقناع قريش بصدق رسالته وكان عليهم أن يُسلموا ولكنهم استمروا على كفرهم وبدأوا فى إيذاء من أسلم فى محاولة منهم لردِّهم إلى دين الآباء ولإرهاب من يفكر فى أن يسلم. كان النبى فى منعة بما أضفاه عليه بنو هاشم من حماية كما كان المسلمون ذوو المكانة فى حمى عشائرهم إلا من بعضهم الذين جاءهم الأذى من عشائرهم أنفسهم. أما المستضعفون من المسلمين فقد كانت قريش تنزل بهم من صنوف العذاب مالا يتحمله بشر كما سبق أن ذكرنا (ص ٨٠).

وبدأ النبى يفكر فى بلد يرسل إليه أصحابه لإنقاذهم من تعذيب قريش. كان الجزء الأكبر من اليمن خاضعا الفرس الذين يدينون بالمجوسية ولا يحترمون الأديان السماوية وكانوا يطمعون فى فرض نفوذهم على الحجاز حتى يتصل نفوذهم من العراق إلى اليمن. وكذلك كان الشام مكانا غير آمن للمسلمين لما لقريش من نفوذ هناك بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها. هذا بجانب نفوذ الروم الذين كانوا يطمعون فى فرض النصرانية على الحجاز ليتصل نصارى الشام بنصارى نجران. وكانت الحبشة يحكمها النجاشى وكان مشهورا بالعدل وليس لقريش نفوذ هناك فقال النبى لأصحابه: لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

الفوج الأول من المهاجرين :

لاشك أن المسلمين تخوفوا من تغربهم فى أرض جديدة لا يعلمون ما قد يلاقونه فيها من شظف العيش ولا كيف تكون إقامتهم. فرأى النبى أن يكون أحد أهل بيته ضمن هؤلاء المهاجرين الأول وتشجع عدد قليل من المسلمين وعزموا على الهجرة فكان الفوج الأول يتكون من:

١ - عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى ومعهما أم أيمن.
٢ - الزبير بن العوام .
٣ - مصعب بن عمير .
٤ - عبد الرحمن بن عوف .
٥ - عثمان بن مظعون .
٦ - أبو سلمة المخزومى بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة.
٧ - عامر بن ربيعة ومعه امرأته .
٨ - سهيل بن وهب من بنى الحارث .
٩ - أبو حاطب بن عمرو من بنى عامر .
١٠ - أبو سبرة من بنى عامر .

فكان هؤلاء أول من هاجر إلى الحبشة وأمَّر عليهم النبى عثمان بن مظعون.

وسرى الخبر فى مكة أن فريقا من المسلمين يزمعون الخروج إلى الحبشة وبلغ الهمس مسامع عمر بن الخطاب فانطلق مسرعا إلى دار صديقه عامر بن ربيعة فرأى امرأته وقد تجهزت للرحيل فيمن سيرحلون تنتظر عودة زوجها ليلحقوا بالجماعة المهاجرة. وحزَّ فى نفس عمر أن علم أن صديقه عامر سيهاجر فسأل زوجته: إلى أين يا أم عبد الله؟ قالت: آذيتمونا فى ديننا. نذهب إلى أرض الله حيث لا نؤذى. فأطرق عمر برأسه وقال صحبكم الله ثم ذهب. ولما رجع زوجها عامر أخبرته بما رأت من عمر وأسفه لرحيلهما ورقته فى كلامه فقال: ترجين أن يسلم عمر. والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!

وودَّع كل بيت أبناءه المهاجرين. وفى سكون الليل انطلقوا. منهم الراكب ومنهم الماشى إلى شاطئ البحر عند الشعيبة وهى ميناء مكة فألفوا سفينتين متجهزتين للسفر فحملهم أصحابها وكان القمر بدرا فقد كان خروجهم فى نصف رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية. وكان الهمس قد بلغ مسامع قريش فخرجوا فى أثرهم ليعيدوهم ولكنهم وصلوا بعد أن أقلعت السفينتان.

ومرت الأيام والشهور. وكان أبو بكر يلاقى من عنت المشركين ما ينال باقى المسلمين حتى ضاقت عليه مكة فاستأذن رسول الله فى الهجرة إلى الحبشة فأذن له. فخرج أبو بكر قاصدا

ميناء الشعيبة حتى إذا كان في منتصف الطريق لقيه ابن الدغنة بن عبد مناة من كنانة وسأله إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيّقوا عليَّ. قال ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف. ارجع فأنت في جواري. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قال ابن الدغنة: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضنَّ له أحد إلا بخير. فكفّوا عنه. وكان لأبي بكر مكان يصلي فيه عند باب داره وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى فيقف عليه المارون يستمعون إليه. فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة وقالوا له: يا ابن الدغنة إنك لم تُجِر هذا ليؤذينا. إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي فنحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم. فمُره أن يدخل في بيته فليصنع فيه ما شاء. فمشى ابن الدغنة إلى أبي بكر وأخبره ما قال له رجال قريش. فقال له أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. وردَّ عليه جواره. فقال ابن الدغنة: يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد ردَّ عليَّ جواري فشأنكم بصاحبكم. وحدث أن سفيها من سفهاء قريش لقي أبا بكر وهو يصلي عند الكعبة فحثا على رأسه ترابا. فمر به الوليد بن المغيرة وقال له: أنت فعلت هذا بنفسك (لرده جوار ابن أبي الدغنة) ولكن أبا بكر لم يزد إلا عن قول: أي رب ما أحلمك ردّدها ثلاثا وانصرف.

الفوج الثاني من المهاجرين إلى الحبشة :

لما بلغ المسلمين في مكة ممن وفدوا في موسم الحج، أن إخوانهم الذين هاجروا إلى الحبشة قد استقروا بها ولم يلاقوا صعوبات وتخلّصوا من عذابات قريش تشجعوا على الهجرة وبعد عدة أشهر من الهجرة الأولى – أي في حوالي ربيع الأول من السنة السادسة للبعثة النبوية – كانت الهجرة الثانية وكان في هذا الفوج أيضا أحد أفراد بيت النبي : جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي وبلغ عدد أفراد الفوج الثاني من المهاجرين ٨٣ رجلا عدا النسوة نذكر منهم :

١ ، ٢ – جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس.

٣ ، ٤ ، ٥ – عمرو بن سعيد بن العاص ومعه أمه وامرأته فاطمة بنت صفوان.

٦ ، ٧ – خالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف ،

٨ ، ٩ ، ١٠ – عبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش وامرأته حبيبة بنت أبي سفيان.

١١ ، ١٢ – قيس بن عبد الله من بني أسد وامرأته بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان.

١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ – عبد الله بن سهيل بن عمرو وسليط بن عمرو وأخوه السكران ومعه زوجته سودة بنت زمعة.

١٧ ، ١٨ ، ١٩ – قدامة وعبد الله أخوا عثمان بن مظعون رئيس الفوج الأول ومعهما السائب بن عثمان بن مظعون.

٢٠ ، ٢١ – عبد الله بن مسعود وأخوه عتبة .
٢٢ – معيقيب بن أبى فاطمة من موالى سعيد بن العاص .
٢٣ – جهم بن قيس العبدوى ومعه أم حرملة بنت عبد الأسود بن خزيمة.
٢٤ – عامر بن أبى وقاص أخو سعد .
٢٥ – المقداد بن الأسود .
٢٦ ، ٢٧ – ويشك فى هجرة عمار بن ياسر وأبى موسى الأشعرى فقد اختلف الرواة فيهما.

وهاجر غيرهم الكثير ممن يضيق المكان عن ذكر أسمائهم فقد بلغ المهاجرون – كلما قلنا سابقا – ٨٣ رجلا عدا أبنائهم ونسائهم. وفى تلك اللحظات الأخيرة قبل الفراق لم ينس رسول الله توجيههم فقال: إذا خرج ثلاثة فليؤمِّروا أحدهم. وأمَّر النبى عليهم جعفر بن أبي طالب يرجعون إليه في شئونهم ويكون قوله الفصل إذا تحرجت الأمور.

إسلام عمر بن الخطاب :

كان خروج المهاجرين ليلا – وقد حملوا معهم ما قد يحتاجونه من متاع فى الغربة وتركوا وراءهم أهلهم وديارهم وأموالهم – قد أثر فى نفوس كثير من أهل قريش ومن بينهم عمر بن الخطاب. وحزن لهذه الفُرقة التى أصابت أهل مكة. فجلس وفكَّر فى أن يقتل «محمدا» إذ لولاه ما رحل هؤلاء عن ديارهم ولولاه ما وقعت هذه الفُرقة. فتوشح سيفه وذهب يريد رسول الله. وفيما هو فى طريقه لقيه نعيم بن عبد الله – أحد أصدقائه – وسأله وجهته فقال أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسبَّ آلهتنا فأقتله. فرد عليه نعيم: والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟ ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال عمر: وأى أهل بيتي؟ قال ختنك (كل قرابة من جهة المرأة) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما.

فرجع عمر واتجه إلى بيت أخته وزوجها وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة يقرئهما ما فيها من القرآن. فلما دنا عمر من البيت سمع قراءة خباب. فدق الباب ولما سمعوا صوت عمر اختبأ خباب فى ركن من أركان البيت ودخل عمر وقال: ما هذه الهينمة التى سمعت؟ فقالت فاطمة: ما سمعتَ شيئا. فقال بلى والله. لقد أُخبرتُ أنكما بايعتما محمدا على دينه. ولطم سعيد ابن زيد فقامت فاطمة لتدافع عن زوجها فضربها عمر فشجَّها فلما رأت الدم قالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمنا.

ولما رأى عمر دم أخته على وجهها رق قلبه لها ودخل وجلس على السرير ونظر فإذا بالصحيفة فى ناحية من البيت فقال ما هذه الصحيفة. أعطنيها. فقالت فاطمة: لا أعطيكها فلست من أهلها فنظر إليها فى دهش مستفسرا فقالت يا أخى إن الشرك نجس وهذه

الصحيفة لا يمسُّها إلا المطهَّرون. فقام عمر واغتسل ثم قال اعطيني الصحيفة فقالت: إنا نخشاك عليها. فأقسم لها باللات والعزى أنه سيردُّها فدفعتها إليه فراح يقرأ ما بها من صدر سورة طه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى. الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى».

فاغرورقت عينا عمر بالدموع وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فخرج خباب من مخبئه وقال: يا ابن الخطاب أبشر. والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: الحكم عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب. فالله الله ياعمر! فقال عمر: فَدُلَّني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب وقد لمس الصدق فى قول عمر: هو فى بيت بأسفل الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه وتوشحه ثم سار إلى حيث رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب. فلما سمعوا صوته قام رجل فنظر من ثقب فى الباب فرجع إلى رسول الله وهو فزع وقال: يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب. إأذن له فإن كان يريد خيرا بذلناه له وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه فقال رسول الله إأذن له. فأذن له الرجل فدخل عمر ونهض إليه رسول الله حتى لقيه فى صحن الدار وأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يارسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله. فكبَّر رسول الله تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم.

ويقول ابن اسحق: لما أسلم عمر سأل أىُّ قريش أنقل للحديث. فقيل له جميل بن معمر الجمحى. فراح إليه عمر وقال له: أعلمت ياجميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد؟ فقام جميل على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش. ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ. فرد عمر كذبت ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فتكاثر عليه شبان قريش ورجالها يريدون ضربه فتصدى لهم العاص بن وائل السهمى وسأل ما شأنكم؟ قالوا صبأ عمر قال: فمه. رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون. أترى بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلُّوا عن الرجل. فخلوا عنه.

وراح عمر يفكر فى أى أهل مكة أشد عداوة لرسول الله فتذكر أبا جهل فانطلق إليه ودق عليه الباب. فخرج أبو جهل وقال: مرحبا وأهلا بابن أختى. ماجاء بك؟ قال جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدَّقت بما جاء به. فضرب أبو جهل الباب فى وجهه وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به.

كان المسلمون لا يستطيعون أن يُصلُّوا بالكعبة آمنين. فلما أسلم عمر قال لرسول الله: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ فقال النبى بلى، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم. فقال عمر: ففيم الاختفاء، والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام، والذى بعثك بالحق لنخرجَنَّ ولن يعبد الله سرا بعد اليوم. وخرج المسلمون فى صفين حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد وطاف رسول الله والمسلمون معه وصلُّوا مطمئنين ثم رجعوا إلى دار الأرقم وقد علت قريش كآبة لم يصبهم مثلها، ونظر النبى إلى عمر الذى فرق الله به بين الحق والباطل وقال له فى رضا واستبشار: الفاروق، فأصبح يُلقب بالفاروق عمر.

وفد قريش إلى النجاشي :

لما رأت قريش أن المهاجرين قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين إلى النجاشى ليخرجهم من أرضه ويردَّهم، فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشى وليطارقته ثم بعثوهما إليه، فخرجا حتى قدما إلى الحبشة، ودفعا أولا إلى كل بطريق هدية وقالا لهم إنه قد لجأ إلى بلد الملك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بَعَثنا إلى الملك أشراف قومهم ليردَّهم إليه وطلبا منهم أن يشيروا على الملك بتسليمهم إليهما ولا يكلمهم، فقالوا لهما: نعم، نحن نفعل، ثم إنهما قدَّما هدايا قريش إلى النجاشى وقالوا له: أيها الملك إنه قد لجأ إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بَعَثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم فهم أعلم بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. وأمَّن البطارقة على كلامهما وأشاروا بتسليمهم إليهما، فغضب النجاشى وقال: لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادي واختارونى على من سواى حتى أسمع منهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم، ثم أرسل إليهم فحضروا وسألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من الملل؟ فكلَّمه، جعفر بن أبى طالب وقال: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيئ الجوار ويأكل القوى الضعيف فبعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم، فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا

عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. فقال النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله من شيئ؟ فقال له جعفر. نعم. وقرأ عليه صدر سورة مريم: «**كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا. ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليًا. يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا. قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيِّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا. قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً. فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا. يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيًا. وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيًا. وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا**» (١ - ١٥ مريم).

ونلاحظ أن جعفر بن أبى طالب قد اختار قصة زكريا ويحيى وهما النبيان اللذان عاصرا المسيح ولا اختلاف بين ما قصته التوراة عنهما وما جاء فى القرآن الكريم من قصتهما. قيل فبكى النجاشى حتى اخضلَّت لحيته وقال إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم وجَّه الخطاب إلى المبعوثين وقال لهما. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لآتينه غدا عنهم بما يستأصل به جماعتهم. ثم غدا على الملك فى الغد وقال: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه. فأرسل النجاشى إليهم. فلما جاءوا قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم. فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ثم قرأ «**واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربُّكِ هو علىَّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيًا**» (١٦ - ٢١ مريم).

فقال النجاشى: والله ماعدا عيسى ابن مريم ما قلت. قيل فتناخرت بطارقته حوله فقال: وإن نخرتم والله. ثم وجه كلامه إلى جماعة المسلمين قائلا: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى. من سبَّكم غرم وما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم. ثم قال لحجَّابه: ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها. فخرجا من عنده عائدين إلى مكة وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار.

عودة بعض المسلمين من الحبشة :

جاء إلى الحبشة أحد المسلمين وراح يقص على المهاجرين نبأ إسلام عمر وكيف أن الله أعزّ به الإسلام وكيف أصبح المسلمون يُصلون بالكعبة ويجهرون بقراءة القرآن. فخرج بعضهم راجعين إلى مكة ظنا منهم أن الأمر قد استتبّ للإسلام. فلما وصلوا ميناء الشعيبة أسرعوا السير إلى مكة حتى إذا اقتربوا منها لقوا ركبا فسألوهم عن قريش فأجابوهم أنها ازدادت عداوة للمسلمين. فلم يدخل أحد من العائدين مكة إلا مستخفيا أو في جوار أحد من المشركين ذوى المكانة يمنعه من السفه عليه. وكان من تقاليد العرب ألا يردُّوا أحدا استجار بهم. وكان جملة من عادوا من الحبشة ٣٣ فردا نذكر منهم:

١ ، ٢ – عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله .

٣ ، ٤ – أبو حنيفة ابن عتبة بن ربيعة وامرأته سهلة بنت سهيل .

٥ – الزبير بن العوام .

٦ – سودة بنت زمعة وقد توفي زوجها السكران بن عمرو بن عبد شمس .

٧ ، ٨ – أم سلمة بنت زاد الركب بن المغيرة هي وزوجها أبو سلمة .

٩ – عبد الله بن جحش بن رئاب .

١٠ – مصعب بن عمير .

١١ – عبد الرحمن بن عوف .

١٢ إلى ١٥ – عثمان بن مظعون وأبناؤه الثلاثة : السائب وقدامة وعبد الله.

وقد دخل عثمان بن مظعون بجوار من الوليد بن المغيرة. ويروى عثمان بن مظعون أنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان بجوار الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوى ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني لنقص كبير في نفسي. فرد جوار الوليد. ثم حدثت مشاحنة بينه وبين لبيد بن ربيعة – أحد المشركين – الذى قام بلطم عثمان بن مظعون على عينه فاحمرت. فقال له الوليد بن المغيرة: أما والله يا ابن أخى كانت عينك عما أصابها لغنيَّة لقد كنت في ذمة منيعة . فقال عثمان. بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة لمثل ما أصاب أختها في الله. وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر (يقصد جوار الله عز وجل) فقال له الوليد هلم إن شئت فعد إلى جوارك فرفض.

وكان أبو سلمة قد دخل مكة في جوار أبى طالب. فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له: يا أبا طالب. لقد منعت منا ابن أخيك محمداً فما بالك ولصاحبنا تمنعه منّا؟ قال إنه استجار بى وهو ابن أختي. فقام أبو لهب فقال:: يا معشر قريش. والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ماتزالون تتواثبون عليه في جواره من بنى قومه. والله لتنتهُنّ عنه أو لنقومَنّ معه في كل مقام

فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. إذ خشوا أن تبلغ الحمية بأبي لهب لأبعد من هذا.

المقاطعة والصحيفة :

اجتمع كفار قريش في دار الندوة وقلوبهم تنزف حقدا وغضباً فأمرُ «محمد» يشتد وأتباعه يزيدون ولا ينقصون. ويتحملون ما ينزلونه بهم من تعذيب في صبر عجيب. وينالونهم بالأذى والمضايقات فلا يزيدهم ذلك إلا تمسكًا بالدين الجديد. وراح رؤوس الكفر يتشاورون. وفكروا في قتل «محمد» ولكنهم خشوا انتقام بنى هاشم وبنى المطلب - من آمن منهم بمحمد. ومن لم يؤمن - أخذا بالثأر مما يشعلها نارا توسع شقة الخلاف في مكة. واقترح النضر بن الحارث أن يقاطعوا بني هاشم وبني المطلب فلا يناكحوهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وهذا ما يسمى فى عصرنا «الحصار الاقتصادى» أو «العقوبات الاقتصادية» التي تفرضها الدول الكبار على من لا ترضى عنهم من الدول الصغيرة . واتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة ويعلقوها في الكعبة توكيدا على أنفسهم وأن تستمر هذه المقاطعه حتى يرضخ بنو هاشم وبنو المطلب ويسموا إليهم «محمداً» ليقتلوه. وقيل كان مضمونها: يتعهد ويتحالف الموقعون على هذا أنهم هم وأبناؤهم وأهلوهم يقاطعون بنى هاشم وبنى المطلب فلا يُزوجوهم ولا يتزوجون منهم ولا يكلمونهم ولا يبيعونهم شيئا أو يبتاعون منهم. ولا يزورون مرضاهم أو يشيعون موتاهم.

ورأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على عشيرته فجمع بني هاشم وبنى المطلب وأمرهم بأن يدخلوا برسول الله إلى الشعب ويمنعوه. والشعب يمكن تشبيهه بشارع ضيق عليه مساكن العشيرة وليس له إلا مدخل واحد إذا تم تأمينه أصبح سكانه فى مَنَعة. وكان دخول بنى هاشم فى شِعب أبي طالب فى محرم من السنة السابعة للنبوَّة (عبد الحميد جودة السحار - جـ ١٠ - ص ١٤٣) وضرب كفار قريش حول شعب أبي طالب نطاقا من الحراس يمنعون من فيه من الخروج كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بمن قَبِلوا مصاحبة رسول الله. وكان عديد من المسلمين قد قبلوا طواعية أن يدخلوا الشِعب مع رسول الله - للاشتراك فى حمايته مع أنهم لم يكونوا من بني هاشم أو بني عبد المطلب.

ومر عام وبنو هاشم وبنو المطلب في ضيق فقد نفذ ما كان عندهم من قوت مخزون وقريش ترفض أن تبيعهم شيئا. وجاءت الأشهر الحرم وقامت الأسواق واستطاع بعض المسلمين مغافلة الحراس وورود الأسواق. وعرفهم أبو لهب فكان إذا ذهب أحدهم ليشترى شيئا من الطعام حرَّض أبو لهب التجار على أن يُغالوا في الثمن حتى لا يقدروا على شراء إلا الشيئ القليل. وراح الجوع يطارد بنى هاشم وبنى المطلب ولكن لم يَفُلّ ذلك منهم بل ازدادوا إصرارا على نصرة «محمد» وعدم تسليمه لأعدائهم وعمدوا إلى الحجارة يشدونها على بطونهم تخفيفا لألم الجوع. وانقضت سنة ثانية أكلوا فيها أوراق الشجر عندما استبد بهم الجوع.

وكان هشام بن ربيعة ذا شرف في قومه وذا مروءة وكرم فأتى ببعير وحمّله طعاما وساقه حتى أول الشعب ثم ضربه على جنبه فدخل الشعب يعدو. فأمسك به المسلمون وساقوه إلى رسول الله مستبشرين فأعطى منه أصحابه حتى شبعوا. وكرر هشام بن ربيعة فعله هذا عدة مرات أخرى وذات مرة لقى أبو جهل حكيما بن حزام وهو يحمل قمحا يريد به عمته خديجة أم المؤمنين فحاول منعه وقامت مشادة بينهما وانتصر بعض رجال قريش لحكيم فساق القمح إلى الشعب. وكان ذلك بداية تصدع الحلف المعادي للرسول.

وفي الشعب – أثناء الحصار – وضعت زوجة العباس وليدها وسمّاه الرسول عبد الله. وذاع في قريش أن عبد الله بن العباس قد وُلِد في شعب عمه أبي طالب. ففرح أناس لذلك الهوان الذي نزل بالعباس صاحب السقاية والرفادة والصيت العريض. وشق ذلك على من كان هواهم مع بني هاشم وبني المطلب وأطرقوا يفكرون في الظلم الذي نزل بأحفاد هاشم العظيم وعبد المطلب الذي بذل نفسه لخير قريش وخدمة حجيج البيت.

وامتدت فترة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات كانت وسائل الاتصال بين النبي وبين كفار قريش تكاد تكون معدومة وقريش في قمة عداوتها للنبي ودعوته. وفتر الوحي ولم تنزل إلا أربع سور هي: الواقعة والشعراء والنمل والقصص. وكان فيها ما يناسب حالهم فقد احتوت على:

١ – حث المسلمين – المحاصرين – على الثبات على دين الله والاجتهاد في العبادة.

٢ – التسرية عنهم بسرد قصص عن الأمم السابقة ورسلهم وكيف نصر الله المؤمنين وخذل الكافرين. وفي هذا إيحاء بأن الخذلان سيكون أيضا من نصيب كفار قريش رغم سطوتهم الحالية.

٣ – وفي المقابل كان الكفار أيضا يتوقون لمعرفة ما ينزل من آيات القرآن. ولعلهم كانوا يتوقعون أن الحصار والمقاطعة ستكون دافعا للنبي على مهادنتهم أو على الأقل اللين معهم ولكن جاءت السور والآيات على حالتها من القوة في مهاجمة الشرك والمشركين وتُذكّر بالبعث وتَعِدُ الكافرين بنار جهنم في مقابل الجنة ثوابا للمؤمنين ثم تُحذّر كفار قريش من مصير مماثل للمكذبين من الأمم السابقة.

سورة الواقعة

ويدور المحور الرئيسي لهذه السورة حول موضوع البعث. والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة. وبدأت السورة بذكر بعض مشاهد من ذلك اليوم ثم تضمنّت تصنيف الناس في ذلك اليوم إلى ثلاث فرق :

١ – أصحاب اليمين وهم المؤمنون.

٢ – أصحاب الشمال وهم الكفار أصحاب المشئمة.

٣ – السابقون إلى الإسلام أصحاب الدرجات العالية وهم المقربون.

«إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة (لا كذب فى وقوعها). **خافضة** (للكفار) **رافعة** (للمؤمنين). **إذا رُجَّت الأرض رجا. وبُسَّت** (فُتِّتت) **الجبال بسا. فكانت هباء منبثا. وكنتم أزواجا ثلاثة. فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون»** (١ – ١١).

والسابقون هم الذين سبقوا إلى الإيمان بالنبيين من كل الأمم. ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف الثلاثة وأقدمهم فى الفضل يرجع إلى بيان ثوابهم ومحاسن أحوالهم قبل حال الصنفين الآخرين:

١ – **«والسابقون السابقون. أولئك المقربون. فى جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين. على سرور موضونة** (محبوكة حسنة الصنع). **متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدَّعون** (لا تسبب لهم صداعا) **عنها ولا ينزفون** (لا تذهب عقولهم ولا تنزف أنوفهم). **وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلاً سلاما سلاماً»** (١٠ – ٢٦).

و **«ثلة من الأولين»** أى جماعة لأن مجموع مؤمنى الأمم السابقة كان كبيرا. فى حين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا قليلين **«قليل من الآخرين»**.

٢ – ثم جاء تفصيل ثواب أصحاب اليمين ووصفوا بأنهم **«ثلة من الأولين وثلة من الآخرين»**. ولعل فى ذلك بشارة بأن المسلمين سيزدادون عدداً بحيث يصبحون **«ثلة»**:

«وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر (السدر شجر فاكهة) **مخضود** (منزوع الشوك). **وطلح** (نوع من الثمر) **منضود** (مصفوف). **وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا. عربا أترابا. لأصحاب اليمين. ثلة من الأولين وثلة من الآخرين»** (٢٧ – ٤٠).

٣ – ثم جاء وصفت منازل الكافرين وهم أهل الشمال أصحاب المشئمة:

«وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. فى سموم (الريح الشديدة الحرارة) **وحميم** (الماء شديد الحرارة). **وظل من يحموم** (الدخان الشديد السواد). **لا بارد ولا كريم** (لا يحمى من الحرارة). **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يُصِرُّون على الحنث العظيم** (الإثم والنكث بالعهد). **وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون. أوَآباؤنا الأولون. قل إن الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم. ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون من**

شجر من زقوم (شجرة معروفة بكثرة شوكها ومرارة ثمرها). **فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم** (الإبل العطاش). **هذا نزلهم يوم الدين»** (٤١ – ٥٦).

تبكيت للكفار بتعداد نعم الله عليهم :

بعد ذلك تأتي الآيات بتبكيت وتقريع للكافرين وتعداد لبعض نعم الله عليهم ومع ذلك يكفرون بالله. وذكر من هذه النعم خمس :

١ – نعمة الخلق : **«نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون»** (٥٧) .

٢ – نعمة الذرية : **«أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون»** (٥٨ – ٥٩) .

وكان من المناسب بعد نعمة الخلق أن يذكر الموت والبعث :

«نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين (بعاجزين أو مغلوبين). **على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون** (ننشئكم في البعث في صورة غير صوركم). **ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكَّرون»** (٦٠ – ٦٢) .

٣ – نعمة الزرع : **«أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون** (تعجبون وتتحسَّرون). **إنا لمغرمون** (تقولون إنا لخاسرون) . **بل نحن محرومون»** (٦٣ – ٦٧) .

٤ – نعمة الماء : **«أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن** (السحاب) **أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا** (شديد الملوحة) **فلولا تشكرون»** (٦٨ – ٧٠) .

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن في هذه الآية إعجازا علميا يبين قدرة الله في إنزال المطر وهو ماء عذب سائغ للشرب. ولو شاء الله لجعل الأملاح تتصاعد مع بخار الماء من سطح البحر فيسقط المطر مالحا لا يصلح للشرب. كما يحدث أحيانا من سقوط أمطار حمضية في مناطق بها نشاط بركاني وتتصاعد منها الأبخرة الحامضية مثل بخار حامض الكبريتيك والنيتريك وغيرها.

٥ – نعمة النار : **«أفرأيتم النار التي تورون** (توقدون). **أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين** (منفعة للسائرين في القفار). **فسبح باسم ربك العظيم»** (٧١ – ٧٤)

وقد سبق ذكر هذا المعنى في الآية ٨٠ سورة يس (ص ١٣٨) عند قوله تعالى: **«الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون».**

ثم يقسم الله تعالى :

«فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسُّه إلا المُطهَّرون. تنزيل من رب العالمين» (٧٥ – ٨٠) .

وقال مجاهد (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٨) مواقع النجوم فى السماء هى مطالعها ومشارقها وقال الضحاك أى الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا أمطروا قالوا مطرنا بنوء كذا.

ويرى علماء الفلك المعاصرون (د. زغلول النجار - الأهرام ٢٠٠١/٧/١٦) أنه نظر للأبعاد الشاسعة التى تفصل نجوم السماء عنا فإننا لا نرى النجوم ذاتها من على سطح الأرض. وكل الذى نراه هو مواقعها التى مرت بها ثم غادرتها إما بالجرى فى الفضاء الكونى بسرعات مذهلة أو بالانفجار أو بالانكدار والطمس.

فالشمس وهى أقرب النجوم إلينا تبعد عنا بمسافة ١٥٠ مليون كيلو متر يقطعها الضوء الذى يسير بسرعة ٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية فى ٨ دقائق تقريبا وحينما يصل إلينا شعاع الشمس الذى انطلق منها تكون الشمس نفسها التى تجرى فى الفضاء بسرعة ١٩كم / ثانية. قد تحركت لمسافة ١٠,٠٠٠كم عن الموقع الذى انبثق منه الضوء. وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس هو نجم «القنطورى» ويبعد عنا ٤,٣ سنه ضوئية. وحينما يصل إلينا شعاع الضوء الذى انطلق منه يكون النجم نفسه قد تحرك عدة ملايين الكيلومترات عن مكانه الذى انطلق منه شعاع الضوء. وعلى ذلك فإننا نرى موقع النجم قبل ٤,٣ سنة. كذلك فبما أن ضوء النجوم ينحنى عند مروره فى نطاق جاذبية نجم آخر (النظرية النسبية تسمى ذلك انحناءات الفضاء) فإننا نرى النجوم فى أماكن غير مواقعها الفعلية (شكل ١٦).

وجواب القسم هو أن القرآن الكريم مصون فى اللوح المحفوظ لا يمسه من البشر إلا المطهَّرون أى من الجنابة. وهو منزَّل من عند الله رب الخلق أجمعين ثم تمضى الآيات.

«أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذِّبون» (٨١ - ٨٢).

فبعد القسم بعِظَمِ قدر القرآن الكريم جاء تساؤل يتعجب من استهانة الكفار به وبدلا من شكر الله على أنه رزقهم القرآن راحوا يكذِّبونه. وتحذِّرهم الآيات من أن يأتيهم الأجل ويصبحوا بين يدى الله سبحانه وتعالى ولا عودة للحياة الدنيا.

«فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين» (٨٣ - ٨٧).

والآيات تصور حالة شخص يحتضر وقد بلغ الغرغرة أى وصول الروح إلى الحلقوم أثناء خروجها من الجسد وهى مرحلة نهائية لا رجعة منها. والله أقرب إليه من ذويه الملتفين حوله. وقيل أقرب إليه بملائكته الذين يتولون أمر البشر حين الوفاة. ثم تحدى بأنهم ماداموا غير مصدقين ببعث أو حساب وإدانة فليردُّوا هذه النفس وقيل أيضا إنهم إن كانوا غير خاضعين لربوبية الله تعالى فليردُّوا روح المحتضر.

وبعد الوفاة يُجَازَى الناس حسب وقوعهم فى إحدى الفئات الثلاث التى ذكرت فى أول السورة:

الشمس

الأرض

٨ دقائق

موقع الشمس لحظة وصول
شعاعها إلى الأرض

الشمس تحركت فى مدارها حول مركز المجرة مسافة ١٠,٠٠٠كم

موقع الشمس لحظة خروج
شعاعها إلى الأرض

أ - تحرك الشمس لموقع آخر فى الفترة التى يستغرقها ضوؤها
للوصل إلى الأرض .

الموقع الظاهرى للنجم

الأرض

نجم

الموقع الحقيقى للنجم

انحناء شعاع الضوء عند مروره فى نطاق جاذبية نجم ثان

شكل ١٦ - اختلاف الموقع الظاهرى للنجوم عن مواقعها الفعلية .

«فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما أن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم. وتصلية جحيم. إن هذا لهو حق اليقين. فسبّح باسم ربك العظيم» (٨٨ - ٩٦)

ولما نزلت الآية الأخيرة قال النبي لأصحابه: اجعلوها في صلاتكم. فوجب على من يصلي أن يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم» ثلاثا.

ثم نزلت ثلاث سور وترتيب نزولها هو نفس ترتيبها في المصحف: الشعراء والنمل والقصص.

سورة الشعراء :

« طسم. تلك آيات الكتاب المبين. لعلك باخع (مهلك) نفسك ألا يكونوا مؤمنين. إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين. وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (جديد) إلا كانوا عنه معرضين. فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون. أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١ - ٩) .

وبدأت السورة بثلاثة حروف مقطعة هي طاء. سين. ميم ثم تأكيد على أن آيات القرآن الكريم واضحة. ثم تسرية عن النبي بألا يحمل نفسه فوق طاقته حزنا أنهم لم يؤمنوا. ثم تقرر الآيات أن لو يشاء الله لأنزل على الكفار معجزة تجبرهم على الإيمان ولكن مشيئة الله هي أن يأتي الناس إليه باختيارهم مؤمنين. ولكن الكفار كلما جاءتهم آية جديدة من الله كذّبوا بها وسيأتيهم عاقبة ماكذبوا واستهزأوا به. ثم تساؤل فيه تعجب من غفلتهم عن رؤية المعجزة المتمثلة في الأرض وما تنبته من مختلف أنواع النباتات أزواجا لتتكاثر وتنتج رزقا كريما وكثيرا يكفي العباد على كثرتهم. وفي هذا آية عظيمة ولكن معظمهم لم يلتفتوا إليها ويؤمنوا. وقد أصبحت الآيتان الأخيرتان لازمة تأتي في نهاية قصة كل قوم من الأقوام الذين سيأتي ذكرهم.

قصة موسى :

تأتي قصة موسى في الآيات ١٠ - ٦٨ وفيها بعض تفاصيل لم ترد في سورة الأعراف وسورة طه عن المقابلة بين موسى وفرعون مصر :

«وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون. قال رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون. قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون. فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل. قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك

التى فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين. وتلك نعمة تمنُّها علىَّ أن عبَّدت بنى إسرائيل. قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» (١٠ - ٢٨).

ثم تستمر الآيات فتصف إتيان موسى لمعجزتى العصا واليد ثم تحدى فرعون بأن سحرته يمكنهم الاتيان بسحر مثله وتحديد يوم الزينة. وركزت الآيات على إيمان السحرة وثباتهم على الحق رغم ما هددهم به فرعون من عذاب:

«قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين. قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين» (٤٩ - ٥١).

ولاشك أن هذه الآيات قد شدَّت من عزائم المسلمين المحاصرين فى الشعب إذ كانوا هم أيضا أول المؤمنين وما نزل بهم من عذاب يقل كثيرا عما أنزله فرعون بالسحرة.

أما عن إنجاء بنى إسرائيل من يد فرعون وغرقه أثناء مطاردتهم فقد جاءت مختصرة فى سورة الأعراف (آية ١٣٦) واكتُفِىَ بالقول: **«فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»**. وفى سورة طه قيل فى الآية ٧٨: **«فأتبعم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم»**.

أما هنا فى سورة الشعراء فقد جاءت تفصيلات أكثر :

«فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معىَ ربى سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (٦٠ - ٦٨).

فالآيات تذكر كيف كان بنو إسرائيل محاصرين وفى موقف أكثر يأسا فالبحر أمامهم والعدو خلفهم. ولكن رحمة الله تداركتهم ولم تكتف بإنجائهم بل وأهلكت عدوهم. وفى هذا تسرية للمحاصرين فى الشعب. وتؤكد لهم أن فرج الله قد يكون أقرب مما يتصورون.

قصة إبراهيم عليه السلام :

وقد سبق ذكر جانب من قصة إبراهيم فى سورة مريم (الآيات ٤١ - ٥٠ ص ١٥٣). وكان فيها تركيز على تسفيه عبادة الأصنام. وهنا أيضا - فى سورة الشعراء - ذُكر استنكار إبراهيم لعبادة الأصنام وزيد عنها إيضاحه لحقيقة الإله الذى يدعو إليه. ثم إشارة سريعة لاستغفار إبراهيم لأبيه وإشارة مقتضبة إلى يوم القيامة:

«واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق (ثناء حسنا) **في الآخرين** (الأجيال التي تجئ بعده). **واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم»** (٦٩ – ٨٩) .

ولاشك أن كفار قريش بهتوا . فرغم الحصار – الذي استمر للآن ما يزيد عن عامين. فإن «محمداً» لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه ولايزال يجئ بآيات فيها تسفيه لعبادة الأصنام. وهي – وإن كانت في معرض محاجّة بين إبراهيم وقومه وأبيه – إلا أنها تنطبق عليهم كذلك. بل وتكاد تكون تقصدهم في المقام الأول. ثم ما هو يثبت عجز الأصنام في حين يمجّد إلهه ويوضح أنه القادر على كل شيئ. فهو الذي خلق ابتداء وفي يده الهداية وهو الذي يرزق الطعام والشراب وبيده الشفاء من المرض والإماتة والإحياء وغفران الذنوب. وقد رأى المفسرون واللغويون بلاغة في ذكر الضمير «هو» في الهداية والإطعام والسقاية والشفاء من المرض إذ أن هذه الأفعال قد يبدو في ظاهرها أن للبشر دوراً في وقوعها. وذكر «هو» تأكيد على أن الله هو الفاعل الحقيقي. أما ما لا شبهة لتدخل البشر فيه مثل الخلق والإماتة والإحياء فلم يكن هناك داع لذكر كلمة «هو» ونُسِبَ الفعل إلى الله مباشرة.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

واستكمالا لما دعا به إبراهيم ربه في آخر الفقرة السابقة **«ولا تخزني يوم يبعثون»** أي يوم القيامة جاءت الآيات تفصّل ما يحدث في ذلك اليوم من تقريب الجنة للمتقين ونَصب جهنم للضالين. ويُسأل الكافرون عما كانوا يعبدون من دون الله وعما إذا كان في مقدور معبوداتهم نصرهم أو الدفاع عنهم. وتبين الآيات أن آلهتهم ستُكَبُّ في النار على وجوهها ومعها من استطاع إبليس أن يغويهم. ويعترف الكافرون أنهم كانوا في ضلال مبين لإشراكهم بالله ويتمنون أن لو عادوا إلى الدنيا مرة ثانية لكي يؤمنوا. ثم تختم الفقرة باللازمة الفاصلة:

«وأزلفت الجنة للمتقين. وبُرِّزت الجحيم للغاوين. وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون. فكبكبوا فيها هم والغاوون. وجنود إبليس أجمعون. قالوا وهم فيها يختصمون. تالله إن كنا لفي ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون. فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم. فلو أن لنا كَرة فنكون من المؤمنين. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (٩٠ – ١٠٤) .

قصة نــوح :

ثم تأتى قصة نوح فى الآيات ١٠٥ - ١٢٢. وقد سبق ذكر جانب من قصته فى سورة الأعراف (الآيات ٥٩ - ٦٤ ص ١٢١). وهنا فى سورة الشعراء - ذُكر نفس دعوته للإيمان وزيد عليها توضيح أنه لم يسأل قومه أجرا فيحتجُّون بأن ليس معهم مال يدفعونه. وكذلك ذُكر ما عابوه عليه من أن أتباعه كلهم من أراذل الناس والخاطئين والفقراء والمساكين وكذلك تهديد قومه له بالرجم ولجوؤه إلى الله ليحكم بينه وبينهم فكان مصيرهم الغرق. ثم تختم كالمعتاد باللازمة الفاصلة.

«كذبت قوم نوح المرسلين. إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين. فاتقوا الله وأطيعون. قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون. قال وما علمى بما كانوا يعملون. إنْ حسابهم إلا على ربى لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلا نذير مبين. قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكوننَّ من المرجومين. قال رب إن قومى كذبون. فافتح بينى وبينهم فتحا ونجِّنى ومن معى من المؤمنين. فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعدُ الباقين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٠٥ - ١٢٢).

قصة عـاد ونبيهم هـود :

وقد سبق ذكر جانب من قصة عاد فى سورة الأعراف (الآيات ٦٥ - ٧٢ ص ١٢١) وكان من تكذيب قومه له أن اتهموه بالسفه وتعجبوا من أن يرسل الله بشرا رسولا. ولما عاب عليهم عبادة الأصنام وحذَّرهم من عذاب الله أصروا على تكذيبه فأنجاه الله وأهلكهم. أما سورة الشعراء الحالية فقد أضافت أنه لم يطلب منهم أجرا لقاء هدايتهم ثم عاب عليهم ضخامة مبانيهم وذكَّرهم بنعمة الله عليهم فى كثرة المال والولد وانتقد قسوتهم فى البطش بأعدائهم. ثم كرر تذكيرهم بما يسَّره الله لهم من أسباب الثروة وما حباهم الله به من عيون الماء التى يزرعون حولها البساتين والجنات. فلما أصروا على تكذيبه وجب هلاكهم. ثم تختم الفقرة باللازمة الفاصلة:

«كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين. أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوَعَظْتَ أم لم تكن من الواعظين. إنْ هذا إلا خُلُقُ الأولين. وما نحن بمعذَّبين. فكذبوه فأهلكناهم. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٢٣ - ١٤٠).

قصة ثمود وصالح :

وقد جاء ذكر جانب من القصة مختصراً فى سورة الشمس (آية ١١ – ١٥ ص ٨٨) وفى سورة الأعراف (الآيات ٧٣ – ٧٩ ص ١٢٢). وأضافت سورة الشعراء النصَّ على أنه لم يطلب منهم أجراً. واتهامهم له بالسحر وأنه بشر مثلهم وتحدّوه بأن يأتى بمعجزة فأرسل الله الناقة آية لهم وبيَّن أن لها يوم للشرب ولهم يوم مثله. فعقروها فنزل بهم العذاب:

«كذبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِىَ إلا على رب العالمين. أتُتركون فى ما هاهنا آمنين. فى جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين. فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون. قالوا إنما أنت من المسحَّرين. ما أنت إلا بشر مثلنا فأْت بآية إن كنت من الصادقين. قال هذه ناقة لها شِرب ولكم شِرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم. فعقروها فأصبحوا نادمين. فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٤١ – ١٥٩).

قوم لـوط :

وقد سبق ذكر جانب من قصتهم فى سورة القمر (الآيات ٣٣ – ٤٠ ص ١٠٩). وفى سورة الأعراف (الآيات ٨٠ – ٨٤ ص ١٢٢) وذكرت الفاحشة التى كانوا يرتكبونها وتهديدهم لوط بالإخراج من قريتهم. وفى السورة الحالية – الشعراء أعيد التذكير بهذه النقاط ثم ذُكِر نزول العذاب بهم وهلاكهم. ونجاة آل لوط إلا امرأته التى كانت تمالئ الفاسقين:

«كذبت قوم لوط المرسلين. إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِىَ إلا على رب العالمين. أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون. قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين. قال إنى لعملكم من القالين. رب نجنى وأهلى مما يعملون. فنجيناه وأهلَه أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين. وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٦٠ – ١٧٥).

قصة شعيب وأصحاب الأيكة :

وقد ذكرت هذه القصة من قبل مرتين: فى سورة الأعراف (الآيات ٨٥ – ٩٣ ص ١٢٢) وقد أشير إلى قومه بـ « **أصحاب الأيكة** » وبذلك أيضا جاءت تسميتهم فى سورة ص (الآية ١٣ ص ١١١). والأيكة هو الشجر الملتف. وقالوا كان أصحابها يقطنون غيضة على ساحل البحر بجوار مدين وكانوا ممن بعث إليهم شعيب وكان أجنبيا عنهم ولذلك لم يوصف بأنه «أخوهم»

(تفسير الألوسى. جـ ١٩ ص ١١٧). والجديد الذى جاءت به سورة الشعراء هو استنكارهم أن يكون الرسول بشرا ثم تحديهم له بأن يسقط عليهم كسفا أى قِطَعًا من السماء. ووصف عذابهم بيوم الظلة إذ نزل بهم حر شديد من الشمس. ثم جاءت سحابة فلما استظلوا بها نزل منها شرر من نار بالإضافة إلى زلزلة الأرض الشديدة التى ذكرت فى سورة الأعراف «الرجفة» – فزهقت أرواحهم:

«كذَّب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيب ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِيَ إلاَّ على رب العالمين. أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين. قالوا إنما أنت من المسحَّرين. وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كِسَفا من السماء إن كنت من الصادقين. قال ربى أعلم بما تعملون. فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٧٦ – ١٩١).

تنويه بالقرآن الكريم :

ثم تمضى الآيات لتنوِّه بالقرآن الكريم :

«وإنه لتنزيلُ رب العالمين. نزل به الروح الأمين (جبريل). على قلبك لتكون من المنذِرين. بلسان عربى مبين. وإنه لفى زبر الأولين (كتب الرسل السابقين). أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل. ولو نزلناه على بعض الأعجمين. فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين. كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين. لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم. فيأتِيَهم بغتة وهم لا يشعرون. فيقولوا هل نحن مُنظَرون (مؤخرون أو ممهلون). أفبعذابنا يستعجلون. أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون. وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون. ذكرى وما كنا ظالمين. وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغى لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون. فلا تدع من الله إلها آخر فتكون من المعذَّبين. وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم. الذى يراك حين تقوم. وتقلبك فى الساجدين (أى وهو يصلى مع الناس). إنه هو السميع العليم» (١٩٢ – ٢٢٠).

فقرة عن الشعراء :

«هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين. تنزل على كل أفاك (كذاب ومفترى) أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون. والشعراء يتبعهم الغاوون (الضالون). ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» (٢٢١ – ٢٢٧).

وكثير من المفسرين يرون أن هذه الآيات مدنية وأنها نزلت فى الشعراء الذين كانوا يهجون النبى فى المدينة واستثنى منهم الشعراء المسلمون الذين كانوا يدافعون عن النبى وعن الإسلام مثل حسان بن ثابت.

ثم نزلت سورة النمل :

وهى تلى سورة الشعراء فى ترتيب المصحف كما تلتها فى النزول :

«طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين. هدًى وبشرى للمؤمنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (العمه شدة عمى القلب). **أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون. وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم»** (١ - ٦).

وقد بدأت السورة بحرفين من الحروف المقطعة هما الطاء والسين. تلاهما تأكيد على أن ما يتلوه النبى هو من آيات القرآن وهو كتاب مبين لما جاء به. وفيه بشرى للمؤمنين. ووصفوا بأنهم «يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة» وتأتى هنا كلمة الزكاة للمرة الأولى. مما يدل على أن المسلمين ولو أنهم كانوا قلة إلا أنهم أُمروا أن يخرج الغنى زكاةً للفقراء. ثم وصف الكفار بأنهم لا يؤمنون بالآخرة. والحقيقة أن إنكار البعث - وبالتالى إنكار الجزاء على الأفعال - هو أساس كل مفسدة فى الحياة الدنيا ومنه ينبع طغيان الطاغين فيظنون أن أعمالهم حسنة ولا يرون قبحها لشدة عماهم. وإسناد التزيين إلى الله هو مجازى وكناية عن أن الله أرخى لهم العنان فازدادوا انغماسا فى مفاسدهم فاستحقوا سوء العذاب والخسران فى الآخرة. والأخسر صيغة المبالغة من الخاسر.

جانب من قصة موسى :

وقد سبق ذكر جوانب من قصة موسى بشيئ من التطويل فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ - ١٦٠ ص ١٢٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ - ٩٨ ص ١٥٨) وفى سورة الشعراء (الآيات ١٠ - ٦٨ ص ١٧٥) ولذلك جاء ذكرها هنا - فى سورة النمل - موجزا:

«إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون. فلما جاءها نودى أن بورك من النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولَّى مدبرا ولم يُعقِّب ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدىَّ المرسلون. إلا من ظَلَمَ ثم بدَّل حُسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم. وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين» (٧ - ١٤).

والآيات تقرر أن آل فرعون علموا صدق الآيات التى أتى بها موسى وأنها من عند الله ومع ذلك كفروا بها وقالوا إنها سحر. وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين أيقن كثير منهم أن ما ينزل على «محمد» ليس من قول البشر ومع ذلك كفروا به واتهموه بالسحر أو بالجنون. واكتُفى بذكر أن البلاءات التى ابتلى الله بها المصريين كانت تسعا ولم يُذكر ماهيتها. كذلك اكتُفى بالحث على التفكرُ فى عاقبة المفسدين. إذ كان فى الجوانب التى ذكرت فى السور الأخرى – الكفاية.

قصة سليمان :

وقد سبق ذكر جانب من هذه القصة فى سورة ص (الآيات ٣٠ – ٤٠ ص ١١٢) وفيها ذُكر حبه الشديد للخيل أما فى السورة الحالية (النمل الآيات ١٥ – ٤٤) فقد ذكرت قصته مع النملة والهدهد وملكة سبأ. وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٣٣ – ٢٣٨). واختلفت رواية القرآن الكريم عما جاء فى التوراة فى عدة نقاط:

١ – لم تذكر التوراة شيئا عن النملة ولا الهدهد.

٢ – فى قصة ملكة سبأ لم يُذكر فى التوراة الخطاب الذى أرسله سليمان مع الهدهد إلى الملكة ولا ردها عليه ولا نقل عرشها ولا الصرح الزجاجى. وكل ما جاء فى التوراة (سفر ملوك أول ١٠ : ١) أن ملكة سبأ سمعت بخبر سليمان وحكمته فجاءت لتتأكد بنفسها. ولم تذكر التوراة صراحة أنها آمنت بسليمان كما نصَّ القرآن **«قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»** (آية : ٤٤).

قصة ثمود قوم صالح :

وقد ذكرت جوانب من هذه القصة فى سور كثيرة سابقة: الشمس – القمر – الأعراف – الشعراء. وما أضيف إلى القصة فى السورة الحالية هو الإشارة إلى التسعة رجال الذين ائتمروا لقتل صالح. وقد ذكرنا قصتهم فى الجزء الأول (ص ١٦٥ و ١٦٦):

«ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون. قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا اطَّيَّرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتنون. وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يُصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيِّتنَّه وأهله ثم لنقولن لوليِّه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون» (٤٥ – ٥٣).

قصة لوط :

وهي قد ذكرت قبلا في سور القمر والأعراف والشعراء ولذلك جاءت هنا مختصرة:

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين» (٥٤ – ٥٨).

تقريع للكفار :

ثم تأتي فقرة تبدأ بحمد الله يعقبها تقريع للكفار في صيغة أسئلة عن بعض نعم الله على الناس ثم تساؤل عما إذا كان في مقدور إله آخر أن يأتي بمثل هذه النعم ولا يكون الجواب إلا بالنفي:

«قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى».

١ – «آلله خير أمَّا يشركون» (٥٩).

٢ – «أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها. أإله مع الله. بل هم قوم يعدلون» (٦٠). أي أن الكفار يعدلون عن الحق ويميلون للباطل والشرك.

٣ – «أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا. أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون» (٦١).

٤ – «أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكَّرون» (٦٢).

٥ – «أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته. أإله مع الله. تعالى الله عما يشركون» (٦٣).

٦ – «أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض. أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (٦٤).

وفي هذه الأسئلة الستة الموجهة إلى الكفار تقريع وتحد واستنكار لكفرهم وجحودهم وشركهم مع وضوح الدلائل البيِّنة على وجود الله وشمول قدرته. وأنه وحده هو خالق ومالك هذا الكون وله مطلق التصرف فيه ونعمه ظاهرة في الأرض والسماء. فهو منزل المطر من السحاب ومنبت النبات والزرع مختلف في لونه وطعمه. وجعل الأرض مستقرا للإنسان وبها الأنهار والجبال. كما أنه هو الذي يغيث المستغيث به ويكشف الضر عنه. وهو الذي بدأ الخلق وهو على إعادته قدير. كل ذلك ينفي أي احتمال بأن يكون مع الله عز وجل إله آخر وهذا

ماتكرر بعد ذكر كل نعمة. وتنتهى الفقرة بتحدى الكفار وتقرير عدم قدرتهم على إقامة البرهان على صواب شركهم.

والأسلوب الذى اتبع فى هذه الفقرة من روائع الأسلوب القرآنى. ويجعل السامع يرسم صورة للكفار وهم يتلقون هذه الأسئلة القوية النافذة إلى الأعماق بالغة الإفحام. ولاشك أنهم لو تدبروا الآيات والنعم التى ذُكرت - حق التدبر - لن يملكوا أنفسهم من الإقرار بأن لا إله إلا الله.

عـن الغيـب والآخـرة :

هذه الفقرة تؤكد أن الله وحده هو الذى يعلم الغيب. كما تؤكد على أن البعث حقيقة :

«قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ وما يشعرون أيَّان يبعثون. بل إدَّارك علمهم فى الآخرة (عجز علمهم عن إدراك) **بل هم فى شك منها بل هم منها عمون** (شدة العمى)**. وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون. لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين. ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعضُ الذى تستعجلون. وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون. وإن ربك ليعلم ماتكن** (تخفى) **صدورهم وما يعلنون. وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين»** (٦٥ - ٧٥).

ثم تأتى آيتان موجَّهتان إلى اليهود ولعل القصد كان إبلاغهم بموقف الإسلام منهم وأن القرآن يصحح لهم بعض ما اختلفوا فيه .

«إن هذا القرآن يقصُّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين. إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم» (٧٦ - ٧٨).

ثم تلت ذلك آيات تدعو النبى إلى التوكل على الله وعدم الالتفات إلى اعتراضات الكفار وسفاهاتهم لأنهم - الكفار واليهود - كالموتى لن يسمعوا له ولن يهتدوا:

«فتوكل على الله إنك على الحق المبين. إنك لا تُسمِع الموتى ولا تُسمِع الصم الدعاء إذا ولَّوا مدبرين. وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (٧٩ - ٨١).

من علامات الساعة :

ثم تصف الآيات إحدى علامات الساعة وهو خروج دابة تكلمهم وتقول لهم إن الكفار لا يؤمنون بمعجزات الله:

«وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يُكذِّب بآياتنا فهم يوزعون (يُجمعون ثم يُساقون). **حتى إذا جاءوا قال أكذَّبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أمَّاذا كنتم تعملون. ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا. إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٨٢ - ٨٦).

وقد احتوت كتب التفسير بيانات كثيرة عن الدابة التى جاء ذكرها وهيئتها (تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٣٦) ولاشك أن الخيال لعب دوره عند كثير من الذين أفاضوا فى وصفها. وقيل إنها فصيل (ولد) ناقة صالح الذى هرب عند قتل أمه فانفتح له حجر فدخل فى جوفه ثم انطبق عليه فهو فيه حتى يخرج فى الوقت الذى يشاء الله. وعن حذيفة أن النبى قال: ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانُها: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض. وعليه يكون خروج الدابة من علامات الساعة وليس لنا أن نبحث فى كنهها لأنها معجزة لا تحيط بها العقول. المهم أن الكافرين وقتئذ سيتأكد لهم أن الآخرة التى كذَّبوا بها هى حق ويُحشر أفواج المكذِّبين ويُجمعون ويسألهم الرحمن عن سبب تكذيبهم فلا يجدون عذرا ولا حجة فلا ينطقون. ثم ذُكرت آية اختلاف الليل والنهار لكونهم كانوا يلمسونها كل يوم فى حياتهم الدنيا وكانت فى حد ذاتها كافية لإقناعهم بقدرة الله فيؤمنوا.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تأتى الآيات بوصف لمشهد من مشاهد هذا اليوم :

«ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (صاغرين). **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيئ إنه خبير بما تفعلون. من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون. ومن جاء بالسيئة فكُبَّت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون»** (٨٧ - ٩٠).

وقد فهم الأقدمون - فى ذلك العصر الذى كان يُعتقد فيه أن الأرض ثابتة والشمس هى التى تتحرك مشرقة وغاربة - أن ذلك الوصف - مرُّ الجبال كمرِّ السحاب - هو ما يكون عليه الحال يوم القيامة وقالوا إنه عند النفخة الأولى ترجف الأرض ثم تنفصل الجبال عن الأرض وتسير فى الجو مثلما يسير السحاب ثم تسقط كثيبا مهيلا (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ٣٥) ولكن العلماء المعاصرين يرون أن ذلك وصف لما عليه الحال فى الدنيا. وأن الجبال مادامت تتحرك فهذا دليل على أن الأرض هى التى تدور أمام الشمس. وإن كان هذا التفسير لم يوضع إلا بعد أن أثبت العلم هذه الحقيقة. والقرآن كتاب هداية ووعظ وإيمان ولم يوضع لاستنباط نظريات علمية من آياته وإن كان لا يتعارض ما يستجد من معارف علمية.

حث بالثبات على عبادة الله :

يبدو أن الكفار انتهزوا فرصة الحصار والجوع وما يحدثانه فى النفس من آلام ويجعلانها أقرب إلى قبول المهادنة لذلك راحوا يساومون النبى على الوصول إلى حل وسط فنزلت الآيات تأمر النبى أن يخبرهم أنه أُمِرَ بعبادة الله وحده وأن يتلو عليهم القرآن فمن آهتدى به وآمن، فلنفسه ومن ضلَّ فعليه وزر ضلاله وما الرسول إلاَّ منذر. ثم تختم السورة بحمد الله وتقرير أنه سيكشف لهم عن بعض مظاهر قدرته فيعرفون أن وعد الله حق.

«إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرَّمها وله كل شيئ وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلُوَ القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين. وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون» (٩١ – ٩٣).

ثم نزلت **سورة القصص :**

وهى أيضا التالية لسورة النمل فى ترتيب المصحف :

«طسم. تلك آيات الكتاب المبين» (١ – ٢).

وقد بدأت السورة بثلاثة حروف مقطعة هى طاء سين ميم. ثم تُقرر أن ما يوحى إلى النبى هو آيات من القرآن تبين الحق فيما يحدِّث به. ولم تحتو السورة على قصص أحد من الأنبياء السابقين إلا على قصة موسى.

قصة موسى :

وقد جاءت هذه القصة مطوَّلة فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ – ١٦٠ ص ١٢٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ – ٩٨ ص ١٥٨) وفى سورة الشعراء (الآيات ١٠ – ٦٨ ص ١٧٥) وفى سورة النمل (الآيات ٧ – ١٤ ص ١٨١). وفى السورة الحالية سورة القصص جاء قوله تعالى:

«نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يُذبِّح أبناءهم ويَستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استُضعِفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون» (٣ – ٦).

وهذه الآيات وإن كانت عن بنى إسرائيل إلا أنها تشد من أزر المسلمين المحاصرين فى الشعب إذ هم مستضعفون. ومن المحتمل أن وعداً مماثلا قد يشملهم فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكِّن لهم فى الأرض ويُرِىَ كفار قريش وسادتها منهم ما يخافون من سيطرة الدين الجديد.

ثم راحت الآيات تتلو قصة موسى – وهى مفصلة فى الجزء الرابع – وقد صحح السرد القرآنى بعض النقاط التى وردت محرفة فى التوراة كما أضاف نقاطا جديدة:

١ – نصت التوراة على أن من التقط موسى من النهر هى ابنة فرعون وقد صحح القرآن ذلك بالنص على أن من التقطه هى امرأة فرعون **«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون»** (٩).

٢ – كان تحريم المراضع هو التدبير الإلهى لإرجاع موسى إلى أمه: **«وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت** (أخته) **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون»** (١٢ – ١٣).

٣ – حادثة قتل المصرى لم تذكر فى السور السابقة ولذلك ذكرت فى هذه السورة بالتفصيل وأوضحت أن اللذين كانا يقتتلان فى اليوم التالى كانا الإسرائيلى الذى كان يتشاجر فى اليوم السابق ومصرى ثانٍ **«فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما»** فى حين ذكرت التوراة أنهما كانا اثنين من بنى إسرائيل.

٤ – تحذير موسى من انتقام فرعون لم يذكر فى السور السابقة: **«وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين»** (٢٠).

٥ – ذكرت الآيات من ٢١ – ٢٩ حياة موسى فى مدين وزواجه والآيات ٢٩ – ٣٥ خروجه من مدين واتجاهه إلى جبل الطور فى سيناء ورؤيته النار المقدسة وتكليم الله له واختياره نبيا ورسولا إلى فرعون. وطلب موسى إشراك أخيه هارون معه فى الرسالة. كل ذلك بتفصيل إذ لم يذكر فى السور السابقة، وصحح القرآن ما ورد فى التوراة من عودة موسى – بعد أن كلمه ربه – إلى أرض مدين ليستأذن حماه فى العودة إلى مصر. وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الرابع (ص ٨٢٩).

٦ – ادعاء فرعون الألوهية وبناء الصرح وهو أمر لم تذكره التوراة:

«وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلي أطَّلِعُ إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين» (٣٨).

٧ – وتأتى قصة **قارون** فى الآيات ٧٦ – ٨٣ وقد ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٨٧٠ – ٨٧٧) وهى أيضا من النقاط التى لم تذكرها التوراة.

ثم تختم قصة موسى بملخص فيه تذكرة وعبرة:

«واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجَعُون. فأخذناه وجنودَه فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنْصَرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين» (٣٩ – ٤٢).

ثم يأتى توكيد على أن هذا كله من وحى الله إذ تقول الآيات :

«وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العُمُرُ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» (٤٤ – ٤٦).

تحذير لقريش :

من رحمة الله بعباده أنه لا يعذب قوما قبل أن يرسل إليهم رسولا يُذكّرهم ويدعوهم إلى عبادة الله ويحذرهم من عذابه. ولما كان العرب لم يظهر فيهم نبى منذ عهد إسماعيل أى ما يقرب من ٢٣٥٠ عاما فى حين أن أبناء عمومتهم – بنى إسرائيل – جاءهم مايزيد عن ثلاثين نبيا آخرهم عيسى عليه السلام – لذلك فقد أرسل الله إلى العرب «محمداً» رسولا. فلما جاءهم النبى احتجوا بأن القرآن لم ينزل عليه جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى. وردَّ عليهم الوحى بأنهم لم يؤمنوا بما جاء به موسى فكان رد قريش أن موسى ومحمد كلاهما ساحران وأنهم بكل منهما كافرون. وتستمر الآيات ترد عليهم تعنتهم وتقرر لهم أنهم إنما يجادلون لأنهم يريدون أن يسيروا على أهوائهم:

«ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى. أوَ لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل. قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتَّبعه إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين. ولقد وصَّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون» (٤٧ – ٥١).

وفد من نصارى نجران :

كان نصارى نجران قد سمعوا عن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ولجأوا إلى النجاشى الذى لم يجد فيما تلوه عليه من القرآن ما يتعارض مع المسيحية فأجارهم وأسبغ عليهم حمايته ولم يسلمهم إلى وفد قريش. فأراد نصارى نجران أن يستوثقوا بأنفسهم من نبوّة «محمد» والاطلاع على ما جاء به فقدم إلى مكة فى السنة التاسعة للنبوة وفد منهم مكون من ٢٠ رجلا وفى موسم الحج كان حصار قريش للمسلمين فى الشعب يخف قليلا فكان النبى يخرج ويلاقى الوفود عند الحرم. ولكن قريشا كانت تلاحقه وتحذر الوفود من الاستماع إليه بدعوى أنه ساحر أو أنه صابئ. وجاء وفد نجران ووجدوا «محمداً» عند الكعبة فجلسوا إليه وكلموه وسألوه عن عدة أمور فأجابهم وأقنعهم ثم دعاهم إلى الله عز وجل وتلا عليهم بعضاً

من القرآن، وأيقنوا أنه النبى الذى تحدثت به كتبهم فأسلموا. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش وقالوا لهم: خيّبكم الله من ركب. بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال. ما نعلم ركبا أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. ونزلت الآيات تشير إلى إسلام هذا الوفد من نصارى نجران فتقول:

«الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يُؤتَون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين. إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» (٥٢ - ٥٦).

خوف قريش على أرزاقهم :

وقابل الحارث بن عثمان بن نوفل النبى وقال له: إنا لنعلم أن الذى تقول هو الحق ولكن إذا اتبعناك نخشى أن يخرجنا العرب من أرض مكة ولا طاقة لنا بهم. فردَّت عليهم الآيات:

«وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتخطَّف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يُجبَى إليه ثمرات كل شيئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٥٧).

دعوة للاعتبار بمصائر الأمم السابقة :

فهذه الأمم كفرت بالله وبنعمه فأهلكهم الله وها هى مساكنهم خاوية تدعو إلى الاعتبار بمصير أهلها. ولكن من حكمة الله أنه لم يكن ليهلكهم إلا بعد أن يرسل إلى أهلها رسولا يبلغهم آيات ربهم وشرائعه. ولما ظلموا واستمروا على كفرهم أهلكهم الله. وعلى الناس ألا يظنوا أن ما فيه بعض الظالمين من نعيم دليل على رضا الله لأن ذلك مجرد متاع زائل من متع الحياة الدنيا:

«وكم أهلكنا من قرية بَطِرت معيشَتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها (مدينتها الرئيسية) **رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون. وما أوتيتم من شيئ فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون. أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمَن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة فى المحضَرين»** (٥٨ - ٦١).

وفى الآية الأخيرة توضيح أنه لا يستوى من آمن وعمل صالحا فاستحق وعد الله بالثواب الحسن فى الجنة - ومن كفر وعمل سيئا وفتنته الدنيا بمتاعها الزائف وفى يوم القيامة يجد نفسه من المحضرين للحساب على سوء أعماله.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

وتصف الآيات موقف الكفار حين يناديهم الله نداء توبيخ ويطلب منهم إحضار الآلهة الذين زعموهم شركاء لينصروهم ويدافعوا عنهم ويقول رؤساء الكفر إنهم لم يُكرِهوا أتباعهم على الكفر أو على عبادتهم بل هم الذين اختاروا الكفر وعبدوا أهواءهم وأطاعوا شهواتهم، ويتبرأون منهم ومن عبادتهم، وينادى الحق سبحانه وتعالى المشركين ويسألهم سؤال توبيخ عما أجابوا به الرسل الذين أرسلوا إليهم، فلا يدرون ماذا يقولون ولا يسأل بعضهم بعضا لتساويهم فى العجز عن الإجابة. أما من تاب وآمن إيمانا صادقا وعمل الصالحات فهو يرجو أن يكون عند الله من الفائزين.

«ويوم يناديهم فيقول أين شركائِىَ الذين كنتم تزعُمون. قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا. تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون، وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون. ويوم يناديهم فيقولُ ماذا أجبتم المرسلين. فعَمِيت عليهم الأنباء (التبس عليهم الأمر) **يومئذ فهم لا يتساءلون. فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين»** (٦٢ – ٦٧).

تمجيد لله :

ثم تقرر الآيات الوحدانية المطلقة لله خَلْقا لما يشاء واختيارا لما تصلح به شئونهم وعلما بالسر والجهر وهو وحده الجدير بالحمد فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة وإليه يرجع كل الخلائق فهو وحده صاحب الحكم والفصل بين العباد:

«وربك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخِيَرة سبحان الله وتعالى عما يشركون. وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون» (٦٨ – ٧٠).

تذكير الكفار ببعض نعم الله :

وجاء ذلك فى صيغة أسئلة إلى الكفار فيها تحدى وتوبيخ لهم وإثبات عجز ما أشركوا من دون الله عن نجدتهم:

«قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا (دائما) **إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه** (أى الليل) **ولتبتغوا من فضله** (وهو النهار) **ولعلكم تشكرون، ويوم يناديهم فيقول أين شركائِىَ الذين كنتم تزعمون، ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ماكانوا يفترون»** (٧١ – ٧٥).

قصة قارون :

تأتى قصة قارون فى الآيات ٧٦ - ٨٤ وقد سبق أن ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٨٧٠ - ٨٧٧). وتُختتم بالعظة والحكمة المستفادة:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون عُلواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون» (٨٣ - ٨٤).

توجيهات للنبى :

وتأتى هذه التوجيهات كختام للسورة :

«إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين. وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين. ولا يصدنُّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونَنَّ من المشركين. ولا تدع مع الله إلها آخر. لا إله إلا هو كل شيئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجَعون» (٨٥ - ٨٨).

ولقد روى المفسرون أن الآية الأولى - أو بالأحرى نصفها الأول - نزلت فى طريق الهجرة إلى المدينة وفى مكان يقال له الجحفة حيث حزَّ فى نفس النبى أن يخرج من وطنه على النحو الذى خرج به فأُنزلت عليه الآية تسرية عنه وتوكيدا على أن الله رادُّه إلى بلده ثانية . وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ص ٥٨٩) أن الله راده إلى موعد وهو يوم القيامة ليفصل بينه وبين مكذبيه. ومن المحتمل أيضا أن النبى وقد أخرج من داره وألجأه الكفار وحاصروه فى الشعب فيكون فى الآية وعد برده إلى داره أى بشرى بانتهاء الحصار. وأن يقول للكفار بأن الله أعلم بـ **«من جاء بالهدى»** أى به وبالمؤمنين **«ومن هو فى ضلال مبين»** وهم الكافرون. ثم يُخبر النبى أنه لم يكن يتوقع أن ينزل عليه القرآن ولكنها رحمة الله شملته. وبعد ذلك تنهاه الآيات عن أن يكون عونا للكافرين ومجيبا لما يطلبون. ولاشك أن الكفار - وقد طال الحصار بالمسلمين وساءت حالهم - كانوا يأملون أن يلين موقف النبى بعض الشيئ فنهته الآيات عن مسايرتهم. وأن يثابر هو وأصحابه على عبادة الله فهو الحى الباقى وله القضاء النافذ فى الدنيا والآخرة وإليه يرجع الخلائق أجمعون.

نقض الصحيفة وإنهاء الحصار :

كان هوى هشام بن عمرو مع بنى هاشم والمطلب فمشى إلى زهير بن أبى أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال له: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح منهم؟ أما إنى أحلف

بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا. قال: ويحك ياهشام. فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها. قال قد وجدت رجلا. قال فمن هو؟ قال أنا. قال له زهير: ابغنا ثالثا. ثم إنهم ضموا إليهم المطعم بن عدى بن نوفل وأبى البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود. وهكذا التقت إرادة هؤلاء الخمسة على نقض الصحيفة وإنهاء الحصار.

وفى الغد وقف زهير بن أبى أمية ونادى فى الناس حول الكعبة. يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة (أى القاطعة للرحم). فقال أبو جهل وكان فى ناحية من المسجد. كذبت والله لاتشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت وقال البخترى: صدق زمعة. لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقِرُّ به. وقال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل. تشوور فيه بغير هذا المكان. وظل القوم يتجاذبون الرأى.

وكان رسول الله قد قال لأبى طالب: ياعم إن الله قد سلَّط الأرضة على صحيفة قريش فلم تَدَعْ فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان. فقال أربك أخبرك بهذا؟ قال نعم. فخرج إلى قريش وقال: يا معشر قريش. إن ابن أخى أخبرنى كذا وكذا فهلم إلى صحيفتكم. فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وإن كان كاذبا دفعته إليكم قتلتموه أو استحييتموه قالوا قد أنصفتنا. وامتدت العيون واشرأبت الأعناق وفتحت الصحيفة فى حرص فإذا بالأرضة قد لحست ماكان فيها من جور وظلم ولم يبق فيها إلا اسم الله. فسُقط فى أيديهم. وقال الكافرون: هذا سحر مبين. وقال أبو طالب: علام نُحبس ونُحاصر وقد بان الأمر. ثم دخل هو وبعض أصحابه بين أستار الكعبة وقال: اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا وانطلق أبو طالب إلى الشعب وصاح بأعلى صوته: مُزِّقت الصحيفة. وهرع المسلمون إلى رسول الله وهم يهتفون الله أكبر الله أكبر. وخرج بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم وكان زهير والذين معه قد وقفوا شاهرين سيوفهم مستعدين لملاقاة من يتصدى لهم.

وفاة أبى طالب :

كان أبو طالب قد بلغ به السن مبلغه واشتد به الهزال من طول الحصار ورقد مسجًى فى فراشه وقد أيقن الجميع أنه يمضى آخر أيامه والتف حوله أهل بيته.

وكان أمر «محمد» قد فشا فى قبائل العرب كلها. وخشى كفار قريش أن تُعَيِّرهم العرب إن قتلوا محمدا بعد موت عمه فيقولوا: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه. فلما بلغ قريشا ثقل

المرض على أبى طالب مشوا إليه ليكلموه فى أمر ابن أخيه.قيل من مشوا كانوا عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وآخرين من أشراف قريش. فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ماترى وتخوفنا عليك. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا ليكف عنَّا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه. فبعث عبد المطلب إلى «محمد» فلما جاءه قال له: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله: نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم العجم. فقال أبو جهل. نعم وأبيك وعشر كلمات. قال النبى: تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم استياء ثم قالوا: أتريد يامحمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا أن أمرك لعجب. وقال بعضهم لبعض. إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون. فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم فانصرفوا من عند أبى طالب.

وقال أبو طالب لمحمد: والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا. فلما قالها طمع رسول الله فى إسلامه فقال: أى عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. فقال أبو طالب: يا ابن أخى والله لولا مخافة السبَّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها. لا أقولها إلا لأسُرَّك بها. وكان العباس حاضرا فنظر أبا طالب يحرك شفتيه وقيل أصغى إليه بأذنه وقال: يا ابن أخى. والله لقد قال الكلمة التى أمرته أن يقولها. وقيل إن رسول الله قال: لم أسمع (سيرة ابن هشام، جـ ٢ ص ٤٧).

وهكذا توفى أبو طالب – الرجل الذى كان يحوط النبى برعايته فكان يغدو ويروح وهو يدعو إلى دين الله مستظلا بحمايته.

وفاة خديجة :

كانت خديجة قد قاربت الخامسة والستين من عمرها ونال منها هى الأخرى الحصار فى الشعب وبدأ المرض يتسلل إليها والضعف يتمكن منها يوما بعد يوم. حتى حمَّ القضاء وانتقلت إلى جوار ربها فى ١٠ رمضان من السنة العاشرة لبدء الدعوة بعد شهر وخمسة أيام من موت أبى طالب. فكان ذلك العام – كما يسميه المؤرخون – عام الحزن. وكانت فرحة الكفار لا تعد لها فرحة وشماتة سفهائهم لاتعدلها شماتة وأخذوا يتربَّصون برسول الله ويُسرفون فى الكيد له.

الرسول بعد وفاة أبى طالب وخديجة :

كان أبو لهب – عم النبى – من أشد المظهرين لعداوتهم للنبى. وكان – كما قلنا سابقا – يلاحقه فى الأسواق والمجتمعات يحذِّر الناس من الاستماع إليه. وكثيرا ما كانت زوجته «أم

جميل» تلقى بالقاذورات أمام بيت محمد. كان أبو لهب يحقد على أبى طالب المكانة التى كان فيها من قريش. فلما مات أبو طالب وأصبح أبو لهب أكبر من بقى على قيد الحياة من أولاد عبد المطلب طمع فى أن يلتف حوله بنو هاشم وبنو المطلب حتى ينال المركز المرموق الذى كان لأبى طالب. لذلك رأى ما كان يصنع أخوه وأن ينهض فى حماية ابن أخيه «محمد» فيكسب بذلك احترام بنى هاشم وبنى المطلب فجاء إلى محمد وعرض عليه حمايته. ومما يؤثر أنه قال للنبى: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه. لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت.

وحدث أن ابن الغيطلة - أحد سفهاء قريش - تصدى للنبى وسبَّه دون حياء أو خجل فغضب أبو لهب وانهال عليه يؤذيه حتى نال منه فولَّى ابن الغيطلة هاربا وهو يصيح: يا معشر قريش، صبأ أبو عتبة. فذعرت قريش لهذا الخبر وأقبلوا على أبى لهب مستفسرين فقال لهم: ما فارقت دين عبد المطلب ولكنى أمنع ابن أخى أن يُضام حتى يمضى لما يريد. وتنفَّس المشركون الصعداء وراحوا يستثيرون فيه نزعة الخيلاء والعظمة فقالوا له: قد أحسنت ووصلت الرحم. وكَفُّوا عن إيذاء رسول الله. فمكث عدة أيام يخرج من بيته ويذهب إلى الحرم ويقول ما يريد ولا يتعرض له أحد.

ورأى دهاة قريش أن يحتالوا حتى يُبْعِدُوا أبا لهب عن حماية محمد. فذهب اثنان منهم - هما عقبة بن معيط وأبو جهل بن هشام - فقالا له إن محمدا يزعم أن هناك حياة أخرى يلقى الناس فيها جزاء ما قدَّموا فى هذه الدنيا. فمن آمن به يكون جزاؤه الجنة ومن لم يصدِّق برسالته سيق إلى جهنم. فهل أنبأك ابن أخيك أين مقام أبيك عبد المطلب أهو الآن فى الجنة أم فى النار؟ فذهب أبو لهب إلى النبى وسأله عن ذلك. ورأى النبى أن لا يجرح كبرياء عمه وأن يحتاط فى الرد عليه فقال له: هو مع قومه. فخرج أبو لهب راضيا مرضيًا وأخبر مُحرِّضيه بذلك. فقالا له إن معنى ما ذكره محمد هو أن قوم أبى طالب فى النار وأنه معهم فى النار. فغضب أبو لهب وعاد إلى النبى وقال له: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فردَّ النبى: نعم ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار (ابن سعد الطبقات. جـ ١ ص ١٤١) فاشتد غضب أبو لهب وظهر ما كان يخفيه فى قرارة نفسه من كراهية قديمة وحقد دفين فقال للنبى: والله ما برحت لك عدوا أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار. وخرج مغيظا محنقا وعاد إلى سيرته الأولى من إيذاء النبى بل واشتد عليه هو وسائر قريش يتصدُّون له مستهزئين ويرمونه بالسباب وفحش القول ويؤذونه.

ثم جاء حدث زلزل أركان مكة كلها. وجعلها تتحدث ليل نهار عنه. وازداد الكفار عنادا وتكذيبا بل إن بعض ضعاف الإيمان ارتدوا عن إسلامهم. ذلك الحدث هو الإسراء والمعراج.

الإسراء والمعراج :

بعد وفاة خديجة خلا البيت على النبى فكان أحيانا يقصد بيت عمته أم هانئ يبيت عندها، وفي إحدى الليالى بينما هو نائم جاءه جبريل وأخذ بيده فأخرجه إلى البيت الحرام وهناك أركبه البراق وأسرى به إلى المسجد الأقصى بمدينة القدس بفلسطين ثم عرج به جبريل إلى السموات العلا. ثم استوى جبريل بالأفق على هيئته التى خلقه الله عليها – قيل وله ٦٠٠ جناح – لقد رآه النبى أول مرة على هيئته هذه عند غار حراء فخرَّ مغشيا عليه من الخوف. أما هذه المرَّة فكان مطمئنا. تملك فؤاده بهجة ونشوة وينسكب مزيد من الإيمان فى أعماق ذاته واستشعر أنه قد دنا من رب العزة. ليس دنو مكان. فالله في كل مكان. ولكن رفعة منزلة وإشراق نور. حتى وصل إلى سدرة المنتهى وهناك فرض عليه الله عز وجل خمس صلوات فى اليوم والليلة (عبد الحميد جودة السحار جـ ١١ ص ١١) وانتهت الرحلة عند بيت المقدس ثانية. فدخل النبي فوجد الأنبياء السابقين مجتمعين فصلَّى بهم ركعتين لله ثم أعاده البراق إلى مكة.

وكانت أم هانئ قد قامت فى الليل تطمئن على النبي فلم تجده فى فراشه فخافت أن يكون عرض له عارض وعادت إلى فراشها. وبعد فترة عادت تتفقده فوجدته مسجًى فى فراشه فاطمأنت وعادت إلى فراشها ونامت. وفى الصباح سألته عن تغيبه عن فراشه بعض الوقت فقال لها إنه أُسرِىَ به إلى بيت المقدس فقالت فى دهشة: من ليلتك! ثم تأهب للخروج فسألته عن وجهته وهى تظن أنه محموم. فأخبرها أنه يريد أن يخرج إلى قريش فيخبرهم بمسراه إلى بيت المقدس. فقالت له: أنشدك الله ألا تُحَدِّث بهذا قريشا فيكذِّبك من صدَّقك. كانت أم هانئ لاتزال على دين قومها ولم تصدِّق كلمة مما حدَّثها به «محمد» فخافت أن يجر ذلك عليه المتاعب ولكن النبى لم يأبه بتخوفها وخرج.

ولما وصل إلى البيت الحرام قعد بجوار الكعبة وهو مهموم يفكرٌ فمر به أبو جهل وقال مستهزئا: هل كان من شيئ؟ كان النبى يعلم أن أبا جهل سيُكذِّب حديث الإسراء ويتخذ منه مادة للتشفِّى منه. ولكنه كان أيضا لا يستطيع أن يكتم ما شرَّفه به الله فقال لأبى جهل: نعم أُسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. فرد أبو جهل. ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم ير أن يكذِّبه مخافة أن ينكر الحديث إن أخبر قومه بما قال فقال للنبى: أرأيت إن دعوتُ قومَك أتحدثهم بما حدثتنى. قال نعم. فوقف أبو جهل فى الحرم ينادى يا معشر قريش. فجاء الناس إليه والتفُّوا حولهما. فقال أبو جهل للنبى: حدِّث قومك بما حدثتنى به. فقال النبى: أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. وراح يقصُّ عليهم ما رأى من آيات. فضجَّ الناس وصاحوا مكذبين: أتزعم أنك أتيت بيت المقدس الليلة وعدت من ليلتك؟ فلما أجاب بالإيجاب أنكر بعض ضعاف الإيمان من المسلمين مقالته وعادوا فى إيمانهم. وسعوا إلى أبى بكر فى داره وقالوا له: هل لك فى صاحبك. يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس. فسأل: أَوَ قال ذلك؟ قالوا نعم. فقال

أبو بكر في هدوء: لئن قال ذلك فقد صدق. فوالله إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك. أصدّقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. وانطلق أبو بكر إلى البيت العتيق فإذا برسول الله وقد التف حوله أبو جهل والمطعم بن عدى وكثير من المشركين وقال المطعم بن عدى للرسول: إن أمرك قبل اليوم كان يسيرا. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مُصعدين شهرا ومُنحدرين شهرا وتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة. واللات والعزى لا أصدقك. وما كان هذا الذى تقوله قط.

كان بين المطعم بن عدى وأبى بكر صداقة وثيقة قبل الإسلام وقد خطب المطعم لابنه جبير عائشة بنت أبى بكر، وعلى الرغم من تلك الصداقة لم يستطع أبو بكر أن يسكت على تكذيب المطعم للنبى. فقال أبو بكر: يا مطعم. بئس ما قلت لمحمد. جبهته بالمكروه وكذَّبته. أنا أشهد أنه صادق. كانوا يعلمون أن «محمدا» لم يزر فلسطين فى أى من الرحلات التجارية التى قام بها قبل البعثة وبالتالي فهو لم ير بيت المقدس قط. وكان فى القوم كثيرون يعرفون بيت المقدس فقالوا له: صفه لنا. فَجُلِىَ له (أى رأى صورته أمامه) فطفق ينظر إليه ويصفه فقالوا أما الوصف فقد أصاب. فقالوا: أخبرنا عن عيرنا فهى أهم إلينا. هل لقيت منها شيئا؟ قال: نعم مررت بعير بنى فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح ماء فعطشت فأخذته وشربته ووضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا. وقال مررت بعير بنى فلان وفلان راكبان قعودا فنفر بعيرهما منى فانكسر فاسألوهما عن ذلك. ثم سألوه عن العدة والأحمال والهيئات فمُثِّلت له العير فأخبرهم عن كل ذلك. وقال تقدمُ يوم كذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق (فى لونه بياض إلى سواد أى رمادى) عليه غرارتان مخيطتان. فخرجوا ذلك اليوم الذى حدده يشتدون نحو الثنية وجعلوا ينظرون فرأوا العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق وعليه الغرارتان كما قال وتأكدوا من صدق العلامات الأخرى ولكنهم لم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين!

لقد بنى المشركون تكذيبهم على المفهوم السائد فى عصرهم عن سرعة الانتقال عبر الصحراء. فلم تكن هناك وسيلة إلا الإبل وهى تأخذ شهرين أو ثلاثة ذهابا إلى بيت المقدس ومثلها إيابا. وعليه فيستحيل على أى شخص أن يذهب ويعود من ليلته. وما دروا أن أحفادهم – فى عصرنا الحالى – يستطيعون الانتقال بالطائرات النفاثة بسرعة ٩٠٠كم / ساعة والمسافة من مكة إلى بيت المقدس حوالى ١٢٥٠ كيلو مترا تقطعها الطائرة النفاثة فى ساعة ونصف ذهابا ومثلها إيابا. فإذا أخذنا طائرة حربية وسرعتها ٤ ماك أى أربعة أضعاف سرعة الصوت لأمكنها أن تقطع المسافة ذهابا وإيابا فى ١/٢ ساعة. وإذا أخذنا الصواريخ المعدة لإطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وسرعتها حوالى ٨ كم / ثانية لأمكنها قطع المسافة إلى بيت المقدس فى دقيقتين ونصف ومثلها إيابا. وعليه فإن ما استند إليه الكفار فى تكذيبهم

الحادثة ليس قائما لأننا بإمكانياتنا البشرية أمكننا أن نحقق هذه السرعات العالية. ولاشك أن البراق - وهى دابة من صنع الله عز وجل - قيل تضع حافرها عند مدى بصرها - لاشك كانت تطير - برسول الله بجسده وروحه - بسرعة هائلة. ولذلك قال الله تعالى : **«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»** وكلمة «بعبده» تلهم أنه كان إسراءً بالجسد لأنه لو كان فى المنام لما اعترض المشركون. فالإنسان فى الأحلام قد يرى نفسه وقد طار فى السماء وذهب شرقا وغربا وإلى أبعد من بيت المقدس ولا غرابة فى ذلك. فاعتراض المشركين يدل على أنهم فهموا أنه كان إسراء بالجسد وهذا ما عناه الرسول.

أما المعراج - وقد جاء بشأنه فى القرآن الكريم: **«وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس»** وفى اللغة تختص الرؤيا بالنوم إلا أن الرؤية قد تقع فى اليقظة أيضا وقد ذهب الجمهور إلى أن العروج إلى السماء كان فى اليقظة بالجسد والروح معًا. والحقيقة أن القائلين بأن العروج كان بالروح فقط دون الجسد تجابههم مشكلة وهى: أين كان جسد النبى فى ذلك الوقت! هل كان على البراق بدون روح؟ أم ترك ظهر البراق وجلس على الأرض وانطلقت روحه فى رحلة المعراج؟ ولما كان هذان الافتراضان غير مقبولين وجب التسليم بأنه كان معراجا بالروح والجسد معا. وهنا تلهمنا المعارف العلمية الحالية. بما يُقَرِّب هذا الحدث من أذهاننا. فنظرية النسبية تقضى بأن أى شيئ يتحرك بسرعة الضوء يتحول إلى موجات. ولاختراق السماء الدنيا والوصول إلى السموات العلا - وهى تبعد آلاف الملايين من السنوات الضوئية - فكان على جبريل أن ينطلق برسول الله بسرعة هائلة تفوق سرعة الضوء فتحول جسده الشريف إلى موجات ويسميه أخصائيو علماء ما وراء الطبيعة تحول الجسد المادى إلى جسد أثيرى وهو يقرب من الروح فى طبيعتها واتخذ الاثنان معا وانطلق جبريل بهما - الروح والجسد - فى رحلة المعراج ولما انتهت الرحلة وعاد النبى إلى الغلاف الجو وانخفضت السرعة عاد الجسد الأثيرى إلى طبيعته البشرية. وكان الأنبياء السابقون قد سبقوه إلى ساحة بيت المقدس فأمَّهم فى صلاة جامعة ثم ركب البراق وعاد إلى مكة.

بعضهم قال إن الصلاة بالأنبياء كانت قبل العروج إلى السماء. ولو كان الأمر كذلك لتعرَّف النبى على الأنبياء ولما كان هناك مجال لسؤال جبريل عن النبى الذى كان يقابله فى كل سماء كما جاء فى حديث المعراج.

وقد اختلف العلماء فى تحديد يوم الإسراء فقالوا ١٧ أو ٢٧ ربيع الأول أو رجب إلا أن الجمهور فى وقتنا الحالى يحتفل بها ليلة ٢٧ رجب.

أما حديث المعراج نفسه وما رآه النبى من آيات فهو حديث طويل يضيق عنه المكان ولمن يريد الاستزادة يمكنه الرجوع إلى الكتيبات التى تتحدث عن الإسراء والمعراج وهى كثيرة. وما رواه النبى عن مشاهد كثيرة رآها فى السموات المختلفة - ولاشك أن رؤيتها استغرقت وقتا

طويلا فى حين أنها بزمن الأرض لم تيستغرق إلا دقائق قليلة وهذا ما يسميه الصوفيه «نشر الزمان» أى إطالته.

وقد فُرِضت الصلاة بالكيفية التى نعرفها الآن وعدد ركعات كل صلاة فى هذه الليلة عند سدرة المنتهى إيحاء مباشرا من الله عز وجل إلى نبيه ولم ينزل بها جبريل بالوحى كسور القرآن الكريم. ومن ذلك استدلوا على عظم قدر الصلاة وأهميتها البالغة وكونها الركن الأساسى من أركان الإسلام بعد الشهادتين. وهى أول ما يُسأل عنه المرء يوم القيامة.

ولاشك أن الآية الأولى من سورة الإسراء نزلت وقتئذ مؤكدة الإسراء ومؤيدة لما قال رسول الله:

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» (١ - الإسراء).

ثم نزلت سورة النجم لتؤكد المعراج:

سـورة النجـم :

تبدأ السورة بتوكيد ربانى عبارة عن قَسَم بالنجم إذا مال للغروب أو لاختفاء ضوئه مع طلوع الفجر. وقيل هو الثريا وصار «النجم» بالغلبة علَماً لها. وقيل هو قسم بالنجوم إذا تهاوت يوم القيامة. ثم يأتى جواب القسم مقررا أن «صاحبكم» أى «محمداً» ما حاد عن الحق وما تكلم بالباطل أو عن هوى فى نفسه وأن ما يتلوه من القرآن هو من وحى السماء نزل به جبريل الأمين وهو ملك شديد القوى ذو حصافة فى الرأى واعتلى الأفق ثم نزل من العلو واقترب من النبى حتى كان منه ما بين قوس الحاجبين من التقارب أو بمقدار قوسين من قِسِيِّ الحرب فقد كانت العرب تقيس بالقوس والرمح والذراع. وقاب القوس ما بين وترها ومقبضها وكان العرب إذا تحالفوا أخرجوا قوسين وألصقوا أحدهما بالآخر فيكون القاب ملاصقا للقاب الآخر حتى كأنهما قاب واحد لقوسين **«قاب قوسين»** كناية عن شدة تقاربهما وقوة تحالفهما. فأوحى جبريل إلى النبى - عبد الله ورسوله - ما أُوحى إليه من رب العزة:

«والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى. علَّمه شديد القوى. ذو مِرَّة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى» (١ - ١٠).

ثم تستمر الآيات لتؤكد أن النبى رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين: المرة الأولى عند بدء نزول الوحى بغار حراء وهو ما ذكرناه سابقا (ص ٤٣) والمرة الثانية عند سدرة المنتهى فى رحلة المعراج:

«ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى.

عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. مازاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى» (١١ - ١٨).

وعن «سدرة المنتهى» قالوا هى شجرة عن يمين العرش فى السماء السابعة. وسميت سدرة المنتهى إذ ينتهى عندها علم كل عالم. وما وراءها لا يعلمه إلا الله وعندها قال جبريل لرسول الله: تقدم يارسول الله فأنت إذا تقدمت اخترقت أما أنا إذا تقدمت احترقت. وفى حديث آخر قال والله لو تقدمت قيد أنمله لاحترقت. وعندها «جنة المأوى» التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة وقالوا غير ذلك (تفسير الألوسى جـ ٢٧ ص ٥٠). وللتعظيم قيل «إذ يغشى السدرة ما يغشى» وأبهم ما يغشاها لأن عقول البشر لا تستطيع الإحاطة به «مازاغ البصر وما طغى» فلم يزغ البصر ولا تجاوز حينما أخبر النبى بما رآه فلم تكن تخيُّلات بل كان ما رآه آيات كبرى أو أن ما رآه هو الآية الكبرى. أما قولهم إن النبى رأى ربه فهو تجاوز للحد إذا أن الله سبحانه وتعالى هو القائل «لا تدركه الأبصار» (١٠٣ - الأنعام). وحينما سُئل النبى عن هذه المسألة قال: نور. أنَّى أراه!

بعد هذا التوكيد بصدق ما أخبر به الرسول عن مشاهد رآها فى رحلة المعراج تمضى سورة النجم متضمنة الموضوعات التالية:

١ - تنديد بالكفار والمشركين وعبادتهم للأصنام.

٢ - إنذار باليوم الآخر والوقوف بين يدى الله ليثاب الذين أحسنوا العمل ويجازى الذين أساءوا.

٣ - تذكير بقدرة الله .

٣ - إشارة إلى بعض الأقوام السابقين وما كان من تنكيل الله بهم بسبب تكذيبهم لأنبيائهم.

٥ - إنذار أخير للمشركين بأن يوم الحساب قد اقترب.

٦ - ختام السورة بأمر بالسجود لله وعبادته.

تنديد بالأصنـام :

فى الآيات تنديد بالأصنام التى كانت قريش تعبدها:

«أفرأيتم اللات والعُزى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضِيزَى. إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى. أم للإنسان ما تمنَّى. فلله الآخرة والأولى. وكم من مَلَك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا

الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا. فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى» (١٩ – ٣٠).

وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها القرآن أسماء الآلهة التي كانت قريش تعبدها – ويندد بها بقوة وحزم. فيستنكر إدعاءهم أنها بنات الله باعتبار أن العرب كانوا يفضلون الذكر على الأنثى ومن غير المعقول أن ينسبوا لأنفسهم الأولاد الذكور وينسبوا لله البنات. فتلك قسمة جائرة. وقد سبق ذكر أماكن عبادة هذه الأصنام (ص ١١ – ١٤) ووصفت مناة بأنها «مناة الثالثة الأخرى» تحقيرا لها لكونها صخرة (تفسير الألوسي جـ ٢٧ ص ٥٦).

واستمرت الآيات تندد بآلهة قريش وتنفي أن في إمكانها أن تشفع لأحد. ففي السماء ملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئا إلا إذا أذن الله ورضي عن المشفوع له. ثم يأتي أمر النبي بأن يُعرض عمَّن أعرضوا عن ذكر الله واستغرقوا في حب الدنيا فهذا هو أقصى ما يريدونه. والله على دراية بمن ساروا في طريق الضلال ومن اهتدوا.

شمول علم الله

ثم تأتي آيات تقرر شمول علم الله وإحاطته. بكل شيئ فهو مالك السموات والأرض ويعلم أعمال العباد وسيجازي كل واحد حسب عمله: العذاب لمن أساءوا ومن أحسنوا العمل فلهم ثواب حسن. وهؤلاء هم الذين يجتنبون الذنوب الكبيرة أما الهفوات الصغيرة فإن الله يغفرها لأنه واسع المغفرة. والله أعلم بالعباد لأنه هو الذي خلقهم وهم لايزالون في الأرحام أجنة فلا يدَّعين أحد الطهارة والبراءة **«فلا تزكُّوا أنفسكم»** فالله أعلم بالمتقين:

«ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم (صغائر الذنوب) **إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم. هو أعلم بمن اتقى»** (٣١ – ٣٢).

لا تزر وازرة أخرى :

قيل إن الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة النبي للقرآن وأعجب به وهفت نفسه للإسلام وطمع رسول الله في إسلامه. ثم لما عاد إلى قومه عاتبوه وقالوا له: أتترك ملة آبائك. ارجع إلى دينك واثبت عليه ونحن نحمل عنك كل شيئ تخافه من الآخرة. وقيل إن ابن أخيه هشام بن المغيرة – أبا جهل – هو الذي أثناه عن أن يؤمن. وذُكر سبب آخر لنزول الآيات فقيل إن النضر بن الحارث أعطى خمس إبل لفقير من المسلمين ليرتد عن دينه ووعده بمال يدفعه له كل شهر وأنه يحمل عنه وزر ارتداده. ففعل ولكنه بعد فترة أمسك عنه وشحَّ فنزلت الآيات تسجِّل ذلك:

«أفرأيت الذى تولى. وأعطى قليلا وأكدى (أى توقف). **أعنده علم الغيب فهو يرى. أم لم يُنبأ بما فى صحف موسى. وإبراهيم الذى وفّى. ألاّ تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأن إلى ربك المنتهى»** (٣٣ – ٤٢) .

قدرة اللـه :

ثم تستمر الآيات تبين جانبا من قدرة الله فى خلق الإنسان والكون :

«وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى. وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشّاها ما غشّى. فبأى آلاء ربك تتمارى» (٤٣ – ٥٥) .

فالله هو الفاعل لكل شيئ فهو خالق أسباب الضحك وأسباب البكاء. ويقضى بالموت ويسمح باستمرار الحياة وأنه خلق الذكر والأنثى لتستمر الحياة على الأرض وهو الذى يعيد الحياة فى الآخرة. وأنه هو الذى يرزق المال والرضا أو يُغنى من يشاء ويُفقر من يشاء. وكانت حمير وخزاعة يعبدون كوكب الشعرى فأراد الله أن يُذكرهم بأنه هو الذى خلق الشعرى ومن خطل الرأى عبادتها. وأنه هو الذى أهلك الأقوام السابقة التى كذبت رسلها: عاد وثمود وقوم نوح والمؤتفكة أى القرى التى قُلبت – وهم قوم لوط – فأحاط بهم العذاب. ثم يتوجه الخطاب إلى الإنسان المكذب بجميع هذه النعم وتسأله: بأى من هذه النعم يرتاب **«فبأى آلاء ربك تتمارى»**.

ثم تختم السورة **بإنذار هو فى غاية القوة :**

«هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة (أى قربت الساعة). **ليس لها من دون الله كاشفة. أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون** (مُعرضون). **فاسجدوا لله واعبدوا»** (٥٦ – ٦٢) .

وفى الآيات توكيد على أن القرآن نذير مثل النذر التى أنذرت بها الأمم السابقة. وأن الساعة قد اقتربت ولا أحد يكشف عن وقتها إلا الله. ثم تساؤل ينكر على الكفار جحودهم للقرآن وأنهم يضحكون استهزاء به والمفهوم أن سيكون لهم عذاب شديد يوم القيامة. ثم تختم السورة بأمر بالسجود لله وعبادته. وهو موضع سجود لمن كان يقرأ القرآن فى الصلاة أو فى غيرها.

وأيقن رسول الله أن قريشا – بإصرارها على التكذيب والكفر – لم تعد تربة صالحة لتنمو فيها عبادة الله الواحد الأحد. وأن قريشا تحرص على أن تبقى القبائل على وثنيتها وتظل قريش هى راعية الوثنية وكل قبيلة تضع لها وثنا عند الكعبة وتأتى الجموع لتحج إلى البيت الحرام فتصيب قريش من وراء ذلك الخير والرزق الوفير. ويبقى لها الاحترام لما لها من ريادة دينية.

أيقن رسول الله هذا وراح يبحث عن بيئة أخرى تصلح لاستقبال هذا الدين وتؤمن به وتعمل على نشره بين الناس. لذلك رأى أن يخرج إلى بعض القبائل فى منازلهم حتى تتاح له الفرصة لدعوتهم بعيدا عن سفهاء قريش الذين كانوا يحرِّضون ضده. وكانت أول القبائل التى اتجه إليها النبى هم ثقيف الذين يسكنون الطائف.

دعوة أهل الطائف :

فى شوال سنة ١٠ من النبوَّة خرج النبى إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة على أمل أن يُجد فيها من يشرح الله صدره للإسلام. وكان فيها الحارث بن كلدة زوج خالته. فأمل أن يصدقه وينصره ولكنه لم يلق إليه سمعا. وكان بها أمية بن أبى الصلت الذى كان يؤمل أن يكون هو النبى الذى تنبأ به أهل الكتاب فلما جاءت النبوة محمداً بن عبد الله حسده وبالطبع لم يتبعه وراح يصدُّ عنه. وكان بها أولاد عمرو بن عمير الثقفى. وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرافها. فكلمهم فيما جاء به وأخبرهم أنه رسول الله وعرض عليهم الإسلام ونصرته على من كذَّبه فلم يجيبوه واستهزأوا به قائلين: ما وَجَد الله أحدا يرسله غيرك! فخرج رسول الله من عندهم وقد يئس من ثقيف وخشى أن يبلغ قريشا مالقى من ثقيف من خذلان فيشمتوا فيه ويشتدوا عليه فالتفت إلى أولاد عمرو الثقفى وقال: اكتموا علىَّ. فقالوا اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض وأغروا به سفاءهم وعبيدهم وأطفالهم يرمونه بالحجارة وزيد بن حارثة يحاول الدفاع عنه بتلقى الحجارة بدلا منه حتى شجَّ رأسه وسالت الدماء من رجليه. وكذلك أصيبت رجلا رسول الله وسالت منهما الدماء.

ولما خرجا من المدينة كان التعب والجهد قد بلغ منهما مبلغا كبيرا فاستند النبى إلى حائط بستان وراح يناجى ربه: اللهم إليك أشكو ضعف قُوَّتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهَّمنى؟ أم إلى عدو ملَّكته أمرى؟ إن لم يكن بك علَّى غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحلَّ علىَّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

فلما رآه ابنا ربيعة – عتبة وشيبة – وما لقى من أذى تحركت فيهما الرحمة فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى ذلك الرجل. ففعل عداس ووضع الطبق بين يدى رسول الله فلما وضع رسول الله يده قال «بسم الله» فنظر عداس فى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له النبى. ومن أهل أى بلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى. فقال النبى: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس فى دهش: وما يدريك ما يونس بن متى. والله لقد

خرجت منها وما فيها عشرة يعرفون ما متّى. فمن أين عرفت أنت متّى وأنت أمّي وفي أمّة أميّة؟ فقال رسول الله: ذاك أخي. كان نبيا وأنا نبي. ولاشك أن النبي قد تلى عليه الآيات الثلاثة من سورة القلم الخاصة بيونس والتي تحث النبي على الصبر: **«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين»** (٤٨ – ٥٠ القلم).

فأكبَّ عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه وزيد ينظر وقد اغرورقت عيناه بالدمع تأثرا. ورأى عتبة وشيبة ابنا ربيعة ما يفعل عداس بمحمد فالتفت أحدهما إلى الآخر وقال: أما غلامك فقد أفسده عليك. ولما عاد عداس إليهما قالا له: ويلك. مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟ فقال عداس: يا سيدي ما في الأرض شيئ خير من هذا. لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي. فقالا له لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع ودينك خير من دينه.

ويئس رسول الله من أن يسلم أحد من ثقيف فانصرف من الطائف راجعا إلى مكة ونزلا – هو وزيد – بوادي نخلة وأقاما أياما حتى يلتقط النبي أنفاسه بعد ما لقي من سفهاء ثقيف ثم سارا حتى وصلا غار حراء فنزل به رسول الله ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ولكن الأخنس اعتذر بأنه حليف والحليف لا يجير. فبعث النبي إلى سهيل بن عمرو. فقال إن بني عامر لا يجير على بني كعب. ثم أرسل إلى مطعم بن عدى الذي وافق ودعا بنيه وأمرهم بحماية «محمد» لأنه قد أجاره ثم قام مطعم بن عدى ونادى: يا معشر قريش. إني قد أجَرتُ محمدا فلا يؤذه أحد منكم. ودخل رسول الله الحرم وصلّى ركعتين لله ثم انصرف إلى بيته.

النبي يعرض نفسه على القبائل :

كان موسم الحج قد بدأ فراح النبي يعرض نفسه على منازل القبائل من العرب يدعوهم إلى الإسلام. فأتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله ويقول ابن اسحق فلم يكن من العرب أقبح عليه ردا منهم، ثم أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض نفسه عليهم فقال رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال النبي: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال الرجل: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. لا حاجة لنا بأمرك. وأبَوْا عليه. وعاد بنو عامر إلى ديارهم وفيها شيخ لهم سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش. أحد بني عبد المطلب. يزعم أنه نبي يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا وأنهم لم يوافقوه. فقال الشيخ: يا بني عامر هل لها من مستدرك؟ وإنها لحق. فأين رأيكم كان عنكم؟

وكان النبي ما إن يعلم بمنزل قبيلة إلا وذهب إليهم وعرض عليهم أمره ولكن قريشا كانت تسبقه إليهم وتحذرهم منه فكانت القبائل تعرض عنه.

قريش تسأل اليهود عن «محمد»:

لما اشتد الخلاف بين النبى وقومه استقر رأى قريش على أن يبعثوا رسلا إلى أحبار اليهود بيثرب يسألونهم عن «محمد». فبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط. وكانا من أشد الرجال عداوة للإسلام وقالوا لهما: اسألاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا. فانطلق الرجلان حتى وصلا يثرب وقابلا أحبار اليهود الذين سألوهما عن أوصاف محمد فوصفاه لهم وقرأ عليهم بعض ما أنزل عليه من القرآن. فراح الأحبار يتشاورون فيما بينهم ثم قالوا لهما: سلوه عن ثلاث. فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هى فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى.

ورجع النضر وعقبة إلى قريش وقالا لهم: لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. ثم جاءوا إلى النبى وسألوه عن الثلاثة أشياء كما طلب أحبار يثرب فقال لهم الرسول: أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل إن شاء الله. فانصرفوا عنه وراح النبى يترقب الوحى ليلتين والوحى لا ينزل عليه فراح الكفار يسخرون منه ويستهزئون به وراحت أم جميل زوجة عمه أبى لهب تدور على البيوت وتقول أبطأ عليه شيطانه! وفيما هو فى قمة أحزانه نزل عليه الوحى. قيل بعد ١٢ يومًا وقيل بعد ٤٠ يوما.

نزل الوحى بسورة الكهف فيها الاجابة على أسئلة اليهود الثلاثة. وفى الآية ٢٣ منها تنبيه للنبى بأن يعلِّق عزائمه دائما بمشيئة الله تعالى. وهو أيضا تنبيه لكل مسلم أن يتذكر دائما أنه لا يملك من أمر المستقبل شيئا إذ قد تجدُّ ظروف لم تكن فى الحسبان تحول دون تحقيق ما وعد به ولكن عليه أن يبذل أقصى جهده على أن يوقن أن مشيئة الله فوق كل تخطيط يعمله:

«ولا تقولَن لشيئ إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله. واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا» (٢٣ – ٢٤الكهف).

سورة الكهف :

بدأت السورة بحمد الله الذى أنزل القرآن على عبده «محمد» مستقيما لا عوج فيه لينذر الناس ببأسه وقوته ويبشر المؤمنين بأن لهم عند الله ثوابا هو الجنة خالدين فيها أبدًا. وينذر على وجه الخصوص الذين نسبوا لله الولد. فليس عندهم بذلك علم ولا عند آبائهم وليس قولهم هذا إلا كذبا. ولعل هذا الإنذار كان موجها إلى اليهود الذين ادعوا أن عزيرا ابن الله. ثم أمر للنبى ألاَّ يهلك نفسه أسفا وحزنا لعدم إيمان الكفار به فقد خلق الله كل ما على الأرض من متاع ليختبر الناس ليظهر الأحسن عملا. وبعد انتهاء الدنيا ستعود أرضا مستوية لا نبات فيها.

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيِّمًا لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا. ماكثين فيه أبدا. وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا. مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا» (١ – ٨).

ثم يأتى الجواب على السؤال الأول من الأسئلة الثلاثة التى نصح بها اليهود وهو السؤال عن «فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجب». فقصّت الآيات من ٩ – ٢٦ قصة أهل الكهف:

«أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا. إذ أوى الفتية إلى الكهف......» (٩ – ٢٦).

ثم كان السؤال الثانى هو عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها فجاء الجواب:

«ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا. إنا مكّنّا له فى الأرض وآتيناه من كل شيئ سببا فأتبع سببا...» (٨٣ – ٩٨).

وكان السؤال الثالث عن الروح فجاءت الإجابة عليه فى الآية ٨٥ من سورة الإسراء **«ويسألونك عن الروح. قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».**

واقتنع الناس بأن فى هذه الآيات الإجابة الشافية عما سألوا فآمن كثيرون وقال آخرون إنه لم يخبرهم عن الروح وظلت قريش على كفرها.

ولم تكن سورة الكهف لتقتصر على الإجابة عن أسئلة اليهود بل احتوت على غيرها من المواضيع. فبعد سرد قصة أصحاب الكهف جاءت توجيهات للنبى:

«واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا (ملجأ). **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا»** (٢٧ – ٢٨).

فالآيات تحث النبى على تلاوة ما أوحى إليه من القرآن الكريم فهو الحق الذى لا يتبدَّل والله وحده هو القادر على حمايته. ثم توجيه ثان بمداومة صحبة المؤمنين الذين يدعون ربهم فى الصباح وفى العشى يريدون رضوانه وأن لا ينصرف قلبه إلى من غفل قلبه عن ذكر الله وسار وراء أهوائه فكان ماله ضياعًا وهلاكا. والتوجيهات – ولو أنها للنبى – إلا أنها أوامر لعامة المسلمين عليهم أن يتقيدوا بها.

حرية العقيدة :

ثم تأتى آيات تقرر حرية العقيدة فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وقد أعدَّ الله لكل من الفريقين ما يناسب اختياره من شديد العقاب أو النعيم المقيم:

«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا (منزلا أو متنفعا). إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خُضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا» (٢٩ - ٣١).

مَثل لعاقبة الكفر بالنعمة :

ولبيان ذلك ضُرب مثل برجلين أحدهما كافر وله بستان على أحسن حال من الزرع والثمار فكان له المال والأولاد والأنصار فداخله الزهو وأخذ يتبجّح أمام صاحبه المؤمن ويدّعى أن ما هو فيه لن يزول وأنكر قيام الساعة فقال له صاحبه مؤنبا له على زهوه وكفره بالله أن عليه أن يحمد الله ويشكره حتى يضمن دوام النعمة ففى قدرة الله أن يرسل عليها بلاء أو صاعقة من السماء فتصبح أرضا يابسة تنزلق عليها القدم أو يغيض الماء فى آبارها فلا يستطيع ريّها. وحدث ما حذّر منه المؤمن وهلكت الثمار فراح الكافر يقلب كفيه حسرة على ما أنفق فى غرسها وندم على أنه أشرك بالله ولم يجد أحدا يناصره وما كان فى قدرته أن ينصر نفسه:

«واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أكُلها ولم تظلم منه شيئا وفجّرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدتُ إلى ربى لأجدن خيرا منها مُنقلبا. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا. لكنّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقل منك مالا وولدا. فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره (أحاطت به المهلكات فأهلكته) فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا» (٣٢ - ٤٦).

والآيات تصوِّر عاقبة الكفر بنعمة الله ونسيان فضل الله فيها. وسواء كانت القصة تقديرية أو كانت قصة حقيقية - قيل كانا رجلين من بنى مخزوم - ففيها العبرة والعظة.

مثل لتفاهة الحياة الدنيا :

«واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما (جافا مُكسّرًا) تذروه الرياح وكان الله على كل شيئ مقتدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً » (٤٥ - ٤٦).

والآيات تضرب مثلا للحياة الدنيا فى نضرتها وبهجتها ثم سرعة فنائها بأنها كماء نزل من السماء فارتوى به نبات الأرض فاخضرّ وأينع ثم لم يلبث طويلاً حتى جف وصار يابسا متكسرا تفرقه الرياح. والله قادر على كل شيئ إنشاءً وإفناءً. ثم تقرر أن المال والبنون متعة فى الحياة الدنيا ولكن لا دوام لها وحتى لو دامت فالحياة الدنيا نفسها قصيرة فانية أما الأعمال الصالحة فهى خير للمرء عند الله يجزل الثواب عليها وهو خير ما يأمله الإنسان.

وليس المقصود من الآيات تنفير المؤمنين من الحياة الدنيا وزينتها من مال وولد فقد سبق أن جاء فى سورة الأعراف (الآية ٣٢ ص ١١٨) **«قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»**. والمقصود أن يكون الاستمتاع بهذه النعم باعتدال وعدم إسراف مع إتيان حق الله فيها.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تجئ الآيات التالية تصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة توكيدا على حقيقة البعث وأن الناس سيحشرون إلى ربهم ويحاسبون على أعمالهم ويندم الكافرون لأنهم يجدون أعمالهم كلها حتى الصغيرة منها مدونة فى كتابهم:

«ويوم نُسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة (مكشوفة) **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا. وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا. ووضع الكتاب** (كتاب أعمالهم) **فترى المجرمين مشفقين** (خائفين) **مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا»** (٤٧ – ٤٩).

تنديد بالشرك والمشركين

وتبدأ هذه الفقرة بإشارة سريعة عن بدء عداوة إبليس لبنى آدم منذ خلق آدم ورفض إبليس السجود له مخالفا بذلك أمر ربه فطُردَ من رحمة الله. ثم يأتى سؤال يستنكر اتخاذ المشركين لإبليس وذريته أولياء من دون الله. ثم تقرر أن الله لم يشهد إبليس وذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فلا يعقل أن يتخذ الله من هؤلاء المضلين أعوانا وأعضادا ومن ثم فلا يصح أن يُتَّخَذُوا شركاء لله. ثم تذكر الآيات ما سوف يخاطب الله به المشركين يوم القيامة إذ يتحداهم بأن يدعوا من جعلوهم لله شركاء لنصرتهم فيدعونهم فلا يستجيبون لهم إذ يكون الله قد جعل بينهم بغضا وعدواة ويرى الكافرون النار ويتيقنون أنهم واردوها وواقعون فيها ولا مصرف لهم عنها:

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا. ما أشهدتهم خلق السموات

والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا. ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا. ورأى المجرمون النار وظنوا (بمعنى تيقنوا) أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا (٥٠ - ٥٣).

ولقد اعتبر بعض المفسرين المعاصرين (الشيخ محمد متولى الشعراوى) الضمير فى «ما أشهدتهم» راجعا إلى الإنسان ومن ثم استنتجوا أن الآيات تنهى عن التفكير فى كيفية خلق السموات والأرض وكيفية خلق الإنسان. وينفى هذا الرأى أن الآية ٢٠ من سورة العنكبوت تحث صراحة على النظر والتفكير فى كيفية بدء الخلق «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق».

طبيعة الإنسان الجدالية :

«ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيئ جدلاً. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا. وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا. ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدًا. وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا. وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا» (٥٤ - ٥٩).

والآيات تقرر أنه بالرغم من أن الله قد ضمّن القرآن من الأمثال ما يكفى لتذكير الناس وإنذارهم إلاّ أن طبيعة الجدل الغالبة فى البشر تتحكم فيهم وخاصة فى الكافرين فتصرفهم عن تدبر آياته. وكما طلب السابقون من رسلهم أن يأتوهم بعذاب الله إن كانوا من الصادقين - وطلب كفار قريش من النبى مثل هذا الطلب - ولكن رحمة الله اقتضت أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولكن الكفار راحوا يجادلون بالباطل فى محاولة منهم لدحض الحق وراحوا يستهزئون بآيات الله. وليس أظلم ممن وُعظ بآيات الله فلم يتدبّرها. فهؤلاء قد جعل الله على قلوبهم حجابا فلا يصل النور إليها وصُمّت آذانهم فلا تسمع كلمة الحق وبهذا لن يهتدوا البتة. ومع هذا فإن الله - المتصف بالغفران والرحمة - لا يُعجّل لهم العذاب بما اقترفوا من سيئات ولكنه يؤجلهم لموعد ليس لهم ملجأ منه. وفى ذكر هذا الإمهال دعوة للكافرين لينتهزوا الفرصة فيؤمنوا حتى لاينزل بهم العذاب وهاهى ذى القرى السابقة دمّرها الله لما ظلموا أنفسهم بتكذيبهم رسلهم.

قصة موسى والخضر :

والقصة تأتى فى الآيات ٦٠ - ٨٢ وقد ذُكرت بالتفصيل فى الجزء الرابع ص ١٠٦٨ - ١٠٨٠.

قصة ذى القرنين :

وقد ذكرت فى الآيات ٨٣ – ١٠١ وكان فيها الإجابة عن السؤال الثانى من الأسئلة الثلاثة التى اقترحها اليهودعلى كفار قريش، وكان عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها .

«ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيئ سببا . فأتبع سببا . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يُردّ إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا . ثم أتبع سببا . ثم حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا . ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين... إلى الآية ١٠١».

مصير الكافرين فى الآخرة :

«أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلا . قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا» (١٠٢–١٠٦).

والآيات فيها تعجب من غفلة الكفار وتنديد بظنهم أنهم يستطيعون إضلال الناس باتخاذ آلهة من عباده كالملائكة وتقرر الآيات أن الله أعدّ جهنم لتكون منزلا لهم فى الآخرة، وأشد خسرانا منهم هؤلاء الذين بطلت أعمالهم لفساد عقيدتهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا ، فهم قد كفروا بربهم وأنكروا لقاءه يوم القيامة فكان جزاؤهم أن يلقوا فى جهنم لكفرهم وسخريتهم بآيات الله ورسله.

ختام السورة :

ثم يجئ ختام السورة يقرِّر أنه فى مقابل مصير الكافرين فى جهنم فإن الله أعدّ للمؤمنين جنات الفردوس لتكون لهم منزلا خالدين فيها لا يتحولون عنها . ثم تقرر أن آيات الله ومشاهد عظمته وواسع علمه لو أريد كتابتها وكان البحر مدادا لَمَا كان كافيا ولو جئ ببحر مثله. ثم يأتى تقرير بأن الرسول بشر يوحى إليه أن الله واحد أحد فمن أراد النجاة فليُسلم وليعمل الصالحات ولا يشرك مع الله أحدا فى العبادة:

«إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىّ أنَّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» (١٠٧ – ١١٠).

سورة الإسراء :

كان حادث الإسراء والمعراج والأسئلة التى اقترحها اليهود امتحانا للنبى هما الموضوعان المستحوذان على أذهان أهل مكة وتدور حولهما المناقشات فى مجالسهم وأنديتهم. فجاءت سورة الإسراء وتسمى أيضا «سورة سبحان» مبتدئة بحادث الإسراء لتؤكد صدقه. ثم تذكر بعد ذلك فى آياتها الكثيرة طلب المشركين معجزات مادية وتذكر رد النبى على طلباتهم. كذلك فقد رؤى إخبار اليهود بأحداث مهمة مرّت عليهم فى ماضى أيامهم وكانوا يتحاشون ذكرها لأنها كانت «نكسات» عظيمة فى تاريخهم ورغبوا فى تناسيها فجاء القرآن ليذكّرهم بها. ولم يهتم القرآن - كعادته - بذكر أسماء الملوك الذين وقعت فى عهدهم هذه الأحداث ومن ثم كان اختلاف المفسرين فى تحديد زمنها. ولكثرة ما ذكر عن بنى إسرائيل فى هذه السورة سماها البعض «سورة بنى إسرائيل» (تفسير الألوسى جـ ٥ ص ٢).

وتبدأ السورة بتمجيد الله وتنزيهه وتعظيم قدرته «سبحان»، ثم إشارة مقتضبة إلى حادث الإسراء يليها ذكر إرسال موسى بالتوراة إلى بنى إسرائيل ثم إلى ما قضاه الله على بنى إسرائيل من العلو فى الأرض مرتين يعقب كل واحدة منهما انتكاسة يهزمهم فيها أعداؤهم ويدمرون ما أعلوا من بنيان :

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير. وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا. ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا. وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتُفسدن فى الأرض مرتين ولتعلُنّ عُلُوًا كبيرا. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا (ساروا منقّبين) خلال الديار وكان وعدا مفعولا. ثم رددنا لكم الكَرَّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعد الآخرة لِيَسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا تتبيرا. عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا» (١ - ٨).

ويتفق جمهور المفسرين على أن المرة الأولى كانت أيام الملك البابلى نبوخذنصر فى عام ٥٩٧ ق.م. فقد حاصر أورشليم مدة سنتين وأخيرا دخلها ودمّرها ودمّر المعبد الذى كان سليمان قد بناه واستولى على الذهب والنحاس الذى غشيت به الأبواب والأعمدة وأحرق الكل بالنار وسبى ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ من اليهود ونقلهم إلى بابل (انظر الجزء الخامس ص ٣٧٢). ونرى أن المرة الثانية كانت عام ١٣٥م. حين قام اليهود بالثورة ضد الرومان فأرسل الامبراطور جيشا تمكن من إخماد الثورة بعنف دموى وقدّر عدد اليهود الذى لقوا حتفهم وقتئذ بما يقرب من ١/٢ مليون يهودى وأسر ما يقرب من هذا العدد أيضا وإن كان بعض

المؤرخين يرون أن هذه الأرقام فيها مبالغة كبيرة. ودمر معبد أورشليم الذى كان هيرودس قد جدده (الجزء السادس ص ٨ ، ١٣٠).

إلا أن بعض المفسرين المعاصرين يرون أن **«وعد الآخرة»** لم يأت بعد وأنّ تباشيره قد بدأت فهاهم اليهود قد عادوا إلى فلسطين **«رددنا لكم الكرّة عليهم»** وتتقاطر عليهم الأموال من يهود أمريكا وتعويضات الألمان وزاد عددهم بفضل المهاجرين من دول عديدة **«وأمددناكم بأموال وبنين»**. والدكتور مصطفى محمود من معتنقى هذه النظرية وهو يفسر **«وجعلناكم أكثر نفيرا»** بأنها تعنى أعلى صوتا. ولا يخفى على أحد عُلوّ صوت اليهود فى جميع البلدان الغربية بل وفى كثير من البلدان الأخرى وسيطرتهم على وسائل الإعلام فى هذه الدول غير خافٍ على أحد. ويرى أن اليهود ستقوى شوكتهم أكثر فأكثر ويبنون معبدهم. ويعقب ذلك صحوة للمسلمين بحيث يهبوا لتحرير الأرض المحتلة والمسجد الأقصى **«وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة»** ويدمروا ما أعلى اليهود من بنيان **«وليتبروا ما علوا تتبيرا»**.

عـن القـرآن :

بعد أن ذُكِر فى الآيات السابقة أن الله تعالى قد جعل الكتاب الذى أنزل على موسى – وهو التوراة – هدى لبنى إسرائيل تقرر الآيات أن القرآن يهدى لما هو أقوم وأصلح ويبشر المؤمنين بالأجر العظيم وينذر الكفار بالعذاب الأليم:

«إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما» (٩ – ١٠).

ويبدو أن الكفار حينما استمعوا ما احتوته هاتان الآيتان من بشرى للمؤمنين وإنذار بعذاب للكافرين تحدوا النبى بتعجيل العذاب لهم فكان الرد عليهم تنديدا باستعجالهم بالشر وكأنه خير وبيان أن العجلة من طبائع البشر:

«ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا» (١١).

ثم ذُكرت آية تعاقب الليل والنهار:

«وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيئ فصلناه تفصيلا» (١٢).

الجزاء مساوٍ للعمل :

وهذا مبدأ عام وثابت وسنة من سنن الله فى الأرض. ينطبق على الإنسان كما ينطبق على الأمم.

أ – أما عن انطباقه على الإنسان فقد جاء فى قوله تعالى:

«وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك

كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا» (١٣ – ١٥).

ب – أما على مستوى الأمم فقد قضت سنة الله أن يمهد الطريق لأثريائها ليتولوا أمرها فيغترون بما لهم من مال وجاه ويكفرون بنعمة الله ولا يردعهم أهل القرية فيحق العذاب على الجميع فيدمِّرهم الله تدميرا والله خبير بذنوب عباده:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمَّرناها تدميرا. وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا» (١٦ – ١٧).

وقد تعددت القراءات لكلمة «أمرنا» ومن ثم تعددت التفسيرات. فقد قرئت «آمرنا» أى أكثرنا أو جعلناهم أمراء وسادة وفسَّرها بعضهم بمعنى أغدقنا عليهم نعمنا فبطروا وفسقوا. ومن قرأ «أمرنا» أى طلبنا منهم قال إن هناك حذف بمعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا بسبب ترفهم وانحرافهم لأن الله – كما جاء فى سورة الأعراف (الآية ٢٨ ص ١١٧) **«قل إن الله لا يأمر بالفحشاء»**.

واستكمالا لهذا المعنى جاءت الآيات بعد ذلك تقرر أن الله يحقق لكل إنسان ما يريده: فمن أراد متع الحياة الدنيا عجَّلها الله لمن يشاء ثم جعل له جهنم فى الآخرة. ومن أراد الآخرة وعمل ما يقربه منها فالله يثيبهم على سعيهم والله يعطى كل فريق حسب عمله. وعطاء الله لهؤلاء فى الدنيا ولهؤلاء فى الآخرة ليس له حدود. وقيل إن الله يرزق الناس فى الدنيا حسب ما اتخذوا من الأسباب وهو ما يسمِّيه البعض عطاء الربوبية. وفى هذا قد يفضل بعض الأفراد بعضا آخر وقد يفضل الكفار المسلمين. ولكن التفاضل فى الآخرة هو الأعظم والمفهوم أن الجنة هى من نصيب المؤمنين:

«من كان يريد العاجلة عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا. كُلاًّ نُمِد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» (١٨ – ٢١).

ثلاث عشرة وصية

بالرغم مما كان يواجه المسلمين الأوائل من إيذاءات المشركين فإن القرآن الكريم لم يهمل الحياة الاجتماعية فجاء بمجموعة رائعة من الوصايا فيها – بعد عقيدة التوحيد – توضيح لواجب الإنسان تجاه والديه وأقاربه والمساكين وأبناء السبيل. ثم واجب احترام أعراض الناس ودمائهم وعهودهم وأسرارهم واجتناب الإثم والفحش والبغى والكبر والخيلاء والحث على عدم تدخل المرء فيما لا يعنيه. كل ذلك بأسلوب الترغيب والتحذير والترهيب ومبينا فى بعض الحالات أسباب التحسين أو التقبيح بأسلوب مقنع ومؤثر مما يجعل الأمر محبَّبا إلى النفس

فتستجيب له. ورغم أنها جاءت فى صيغة أوامر للنبى إلا أن هذه الوصايا هى أوامر إلى جميع المسلمين وقد شبهها بعض المفسرين بالوصايا العشر التى أنزلت على موسى:

١ - **«ولا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا. وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه.**

٢ - **«وبالوالدين إحسانا. إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا. ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين (الراجعين إلى الله) غفورا»** (٢٢ - ٢٥).

٣ - **«وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تُعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا»** (٢٦ - ٢٨).

والآيات تحث على التزكي والتصدق على هذه الفئات دون تبذير. وإذا ما أرغمته أحواله المادية على عدم إعطائهم لضيق ذات اليد مرجئا إعطاءهم لحين سعة من الرزق فعليه أن يطيب خاطرهم بالقول الحسن.

٤ - **«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك...»** وشُبِّه البخل هنا كأن اليد مربوطة بسلسلة من حديد إلى الرقبة فلا يقدر أن يمدَّها بصدقة. وفى الوصية التالية ينهى عن الإسراف الذى يبدد المال فيفتقر ولا يجد ما ينفق ويلوم نفسه على التبذير ويتحسر على الأيام الخالية:

٥ - **«ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا»** (٢٩ - ٣٠).

٦ - **«ولا تقتلوا أولادكم خَشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خِطئا كبيرا»** (٣١). فقد كان العرب فى أوقات الأزمات الغذائية يقتلون أطفالهم تخلصا من كثرة النفقة. وهذا بالطبع غير عادة وأد البنات.

٧ - **«ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا»** (٣٢).

٨ - **«ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا»** (٣٣).

٩ - **«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . . .**

١٠ - **«وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا»** (٣٤).

١١ - **«وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا»** (٣٥).

١٢ - **«ولا تقفُ ما ليس به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا»** (٣٦). والقيافة هى تتبع الأثر. والمعنى لا تتدخل فيما ليس لك به شأن ولا تنظر أو تتسمَّع من

أمور أخيك إلى مالا شأن لك به أو تختلق شيئا فتقول سمعت ولم تسمع أو رأيت ولم تر. فالمرء يوم القيامة مسئول عن سمعه وبصره وجميع حواسه وهى شاهدة عليه.

١٣ - **«ولا تمش فى الأرض مرَحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. كل ذلك كان سيئُه عند ربك مكروها»** (٣٧ -٣٨). وفى هذا نهى عن الكبر والخيلاء بالزهو فى النفس ودب الأرض بالرجلين ورفع الذقن إلى الأمام.

وتختم الوصايا بتكرار الوصية الأولى الخاصة بتوحيد الله:

«ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتُلقى فى جهنم ملوما مدحوراً» (٣٩).

تنزيه الله عن الولد والشريك:

ثم تمضى الآيات تستنكر ما يقوله الكفار من أن الملائكة بنات الله. إذ كان العرب ينظرون إلى الولد أنه أفضل من الأنثى ومن غير المعقول أن يفضِّل الله الكفار ويخصهم بالبنين ويتخذ هو من الملائكة بنات فهذه فرية عظيمة. وقد سبق أن ورد هذا المعنى فى سورة النجم (آية ٢٢ ص ١٩٩) فى قوله تعالى: **«ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضِيزى»** ثم تمضى الآيات لتوضح للكفار أنه لو كان مع الله آلهة أخرى لما قبلوا أن يكونوا فى مقام أدنى ولنافسوه ونازعوه الملك وتنزَّه الله عن ذلك فكل شيئ يسبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن:

«أفأصفاكم (أى فضلكم) **ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما. ولقد صرفْنا** (بيَّنا) **فى هذا القرآن ليذكَّروا وما يزيدهم إلا نفورا. قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عمَّا يقولون عُلوًا كبيرا. تُسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا»** (٤٠ - ٤٤).

وهذه أول مرة يُذكر فيها أن السموات سبعٌ. وفى ضوء المعارف الفلكية الحالية فإن الكون يتكون من ملايين الملايين من المجرات تفصل بعضها عن بعض مسافات تقدر بآلاف الملايين من السنين الضوئية وكل مجرة فيها عشرات الملايين من النجوم مثل الشمس تدور حولها ملايين الملايين من الكواكب السيارة. وأن كل هذا ما هو إلا السماء الأولى. ويقول بعض علماء اللغة إن عدد ٧ ، ٧٠ ، ٧٠٠ يُورَد أحيانا للتعبير عن الكثرة وليس بقصد تقرير حقيقة عددية. وإن كان المقصود حقيقة عددية فهى غيب لا يعلمه إلا الله وعلينا أن نؤمن بأن السموات سبع دون الدخول فى كيفيتها. وعلى كلٍّ فالمقصود هو التنويه بأن جميع ما خلق الله فى الكون يُسَبح بكيفيات لا نفهمها نحن البشر. وقيل إن تسبيحها هو خضوعها لسنن الله وانقيادها لمشيئته. وفى آخر الفقرة يُفتح باب الأمل أمام الكفار المنكرين لقدرة الله بأن جاء وصف الله بالحلم والمغفرة. فهو لا يُعجل بالعقوبة وهذا هو الحلم و«غفور» يغفر لمن تاب وآمن.

إعراض الكفار عن القرآن :

«وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلا» (٤٥ – ٤٨).

ففى خطاب موجَّه إلى النبى تقرر الآيات أن الله عز وجل يحجب الكفار عن القرآن ويجعل على قلوبهم غشاوة وفى آذانهم صمم فلا يستوعبون معانيه وأن ذلك كان عقابا لهم لأنهم كانوا – لشدة غلظة قلوبهم – إذا ذكر الله وحده نفروا ويتسارُّون فيما بينهم حينما يرون شدة تأثر المؤمنين حين يسمعون القرآن فيقولون إن النبى مسحور ويقوم بسحر أتباعه والحقيقة أنهم بقولهم هذا قد عبَّروا عن ضلالهم فلا يستطيعون الوصول إلى الطريق المستقيم.

إنكـار البعث :

واستكمالا لموقف الكفار المنكر للنبوة فإنهم ينكرون البعث ويستنكرون أن يكون هناك خلق آخر بعد أن تبلى العظام وتصبح رفاتا وترد عليهم الآيات بأنهم لو كانوا حجارة – لا تقبل فى ظنهم الحياة – أو حتى حديدا – وهو أصلب من الحجارة. أو حتى ما هو فى مفهومهم أقسى من هذين فإن الله الذى خلقهم قادر على إعادتهم للحياة. ويتعجَّب الكفار ويهزُّون رؤوسهم استنكارا ويسألون استهزاء: متى يحدث هذا؟ ويأتى الجواب يخبرهم أن ذلك قد يكون فى وقت أقرب كثيرا مما يظنون وأنهم حين يُبعثون يظنون أنهم لم يلبثوا إلا وقتا قليلا وحينئذ يستجيبون لنداء البعث ويسبحون بحمد ربهم رغم أنوفهم:

«وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا» (٥٠ – ٥٢).

والآيات تحكى صورة من صور الجدل الذى كان كثيرا ما يحتدم بين الكفار وبين النبى وخاصة حول البعث والحساب وفيها التأكيد على أن الذى خلق ابتداء قادر على إعادة الخلق. كل ذلك فى أسلوب رائع فيه تبادل بين قالوا ويقولون وقل بانسجام محبب وسهولة لفظية وجرس موسيقى يجذب الأسماع.

توجيه للمؤمنين عند جدال المشركين :

«وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان

عدوا مبينا. ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا. وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا» (٥٣ - ٥٥).

وفى الآيات أمر المؤمنين - عند جدالهم مع المشركين - أن يقولوا العبارات التى هى أحسن للإقناع ويتركوا الكلام الخشن الذى يتسبب عنه النزاع والخصام لأن الشيطان يحاول أن يفسد بين المؤمنين والكافرين. والله أعلم بما فى نفوس العباد ومحاسبهم عليه إن شاء رحم وإن شاء عذّب والنبى ليس مسئولا عنهم. والله عليم بكل ما فى السموات والأرض وبأحوال العباد الظاهرة والباطنة فيختار للنبوة من يشاء ومن هو أهل ويَفْضُلُ بعضُ الأنبياء بعضًا وبعضهم أوتى كتبا سماوية وفُضِّلَ داود بنزول الزبور عليه وفى هذا إشارة إلى تفضيل النبى بنزول القرآن عليه.

تحـدى للكفـار :

«قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا» (٥٦ - ٥٧).

وفى الآيات تحدى للكفار إذ تطلب منهم أن يدعوا من أشركوهم فى العبادة - مثل الملائكة وغيرهم وزعموا أنهم شركاء لله - ليكشفوا عنهم ضُرًّا نزل بهم ولكن يثبت عجزهم ولا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله. بل إنّ هؤلاء من فرط خشيتهم لله يتحرون الطريقة المثلى التى تقربهم إلى الله ويطمعون فى رحمته ويخافون عذابه فعذابه ينبغى أن يُحذَر ويُخاف لشدته.

الموقف من طلب المعجزات المادية :

كان كفار قريش كثيرا ما يطلبون من النبى أن يأتى بمعجزة مادية حتى يقتنعوا ويؤمنوا، وتوضح الآيات أن سنة الله قد جرت - ومسطور فى كتاب علمه المحيط - أن القوم إذا طلبوا معجزة ولم يؤمنوا وجب هلاكهم، وهذا ما حدث للأقوام السابقين مثل قوم ثمود الذين أظهر لهم الله الناقة آية واضحة فكفروا بها. والآيات تُرسَل من الله لردع الناس وتخويفهم والمعنى أنه من رحمة الله بقريش أنه لم يستجب لهم فى طلبهم الإتيان بمعجزة مادية:

«وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا. وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مُبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا» (٥٨ - ٥٩).

تذكرة بمعجزة الإسراء والمعراج :

واستكمالا لهذا المعنى تذكر الآيات أن الله قد آتاهم معجزة مادية وهى معجزة الإسراء والمعراج ولكنها لم تكن معجزة تحدى بحيث يجب إهلاكهم إذا لم يؤمنوا. فقد أحاط الله بما فى قلوبهم. وجعل من معجزة الإسراء والمعراج اختبارا للناس يزداد به إيمان المؤمن وكفر الكافر:

«وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً» (٦٠).

والرؤيا لا تعنى – كما سبق أن ذكرنا المنام فقط وإنما تشمل مشاهدات اليقظة أيضا وعلى ذلك وصفت معجزة الإسراء والمعراج بأنها رؤيا. أما الشجرة الملعونة فهى شجرة الزقوم السابق ذكرها فى سورة الواقعة (آية ٥٢ ص ١٧٢).

عداوة إبليس لآدم وذريته :

ثم تمضى الآيات توضح للكفار أن كفرهم وعنداهم هو من أفعال إبليس وإضلاله لبنى آدم فتذكر أن أصل هذه العداوة يرجع إلى وقت خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له فرفض إبليس تنفيذ أمر ربه فلعنه الله فأقسم إبليس أن يعمل على إضلال ذرية آدم فتوعده الله – هو ومن اتبعه – بنار جهنم:

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا. قال أرأيتك هذا الذى كرّمتَ علىَّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنِكن ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلِب عليهم بخيلك ورَجِلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا» (٦١ – ٦٥).

والآيات تتحدى إبليس فتهيب به أن يستخف بمن يشاء من بنى آدم ويدعوهم إلى المعصية وأن يفرغ كل ما فى جعبته من أنواع الإغراء ويشاركهم فى كسب المال الحرام ويساعدهم على إنفاقه فى ارتكاب المعاصى. والمشاركة فى الأولاد هو الإغراء بالزنا أما ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن الشيطان يشارك بعض بنى آدم فى مأكلهم ومشربهم ومعاشراتهم الجنسية فهذا دخول فى ماهيات غيبية لا طائل من ورائها.

قدرة الله وفضله :

ثم تمضى الآيات فتذكّر الكفار بأن الرب الجدير بالعبادة هو الله الذى ييسّر لهم أسفار البحر ليتكسّبوا من ورائها. وإذا مسّهم أثناءها الخطر من الغرق استغاثوا بالله ثم يعودون لكفرهم بعد أن يتأكدوا من نجاتهم كأنما قد أمنوا انتقام الله منهم فى البر خسفا بالأرض من

تحتهم أو ريحا شديدة تقذفهم بالحصى والحجارة أو فى البحر إغراقا حين يعودون إليه مرة أخرى:

«ربكم الذى يُزجِى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما. وإذا مسكم الضّر فى البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا. أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا. أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (٦٦ – ٧٠).

تذكير بالحساب يوم القيامة :

«يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يُظلمون فتيلا. ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلا» (٧١ – ٧٢).

محاولة الكافرين استمالة الرسول :

«وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا» (٧٣ – ٧٥).

وفى الآيات تنبيه للنبى بأن الكفار كادوا أن يصرفوه عما أُوحِىَ إليه ويحملوه على مسايرتهم بوعد اتباعه وبأنه كاد أن يستجيب لهم لولا أن ثبته الله، وتحذير من أنه لو كان قد فعل لاستحق من الله عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا وبعد الممات. وقد تعددت الروايات التى وردت فى كتب التفسير بصدد هذا الموقف: قالوا إن فريقا من الكفار اقترح على النبى السكوت عن شتم آلهتهم نظير أن يكفوا عن إيذائه وإيذاء أتباعه. وقيل إنهم اقترحوا الإبقاء على بعض طقوسهم مدة من الزمن. وقيل إنهم اقترحوا أن يسمح لهم بتكريم آلهتهم. وقالوا إنهم أرادوا أن يمنعوه من الحجر الأسود والطواف بالكعبة مالم يُلِمَّ بآلهتهم التى كانت فى فناء الكعبة. وذكر تفسير الطبرى (جـ ١٠ ص ٢٩٩) رواية عن ابن عباس أن الآية نزلت فى وفد ثقيف قالوا للنبى: متِّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا. وحَرِّم وادينا كما حُرِّمت مكة حتى تعرف العرب فضلنا عليهم. وقالوا إنهم اقترحوا إعفاءهم من الصلاة أو الزكاة أو إباحة الربا لهم. وتثبت الآيات أن الله تعالى ثبَّت النبى فى هذه المواقف لأنه لا يصح أن تكون هناك مساومة ولا حل وسط فى دين الله. لما فشل الكفار فى ذلك حاولوا أن يضيِّقوا على النبى ليخرجوه من مكة. ويأتى توكيد للنبى بأن الأمر لو كان قد وصل إلى هذا الحد لكان معناه التعجيل بالهلاك الذى كان سينزل بهم بعد إخراجه بقليل **«وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا»** لأن هذه سنة الله مع الرسل والأمم من قبل ولا تبديل ولا

تحويل لهذه السنة. ثم يأتي أمر للنبي بأن يزيد من عبادته لله بالصلاة في الليل والنهار وفي كل وقت عسى الله أن يثيبه يوم القيامة مقاما يحمده فيه جميع الخلائق وأن يطلب من الله أن يدخله في جميع أموره مدخلا مرضيا كريما وأن يخرجه في كل المواقف منصورا. كما أمر النبي أن ينذر الكفار أن الحق سيعلو وأن الباطل سيزهق ويخزى فالباطل مضمحل وزائل:

«وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا. أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا. وقل رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا. وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» (٧٦ - ٨١).

وقالوا إن المقام المحمود هو الشفاعة يوم القيامة وهناك بعض الأحاديث في صدد ذلك. وقالوا هو إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة. وعلى كلٍ فمن المسلم به أنه سيكون للنبي أعظم مقام في الآخرة.

وكيف لا يزهق الباطل والله ينزل من القرآن ما يشفي النفوس الصالحة من الحيرة خلافا للظالمين الذين يزدادون عنادا فيزدادون خسرانا.

«وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً» (٨٢).

ثم توضح الآيات ما في طبع الإنسان من جحود فإذا أنعم الله عليه بالصحة والمال مثلا نسي الله وبعد عنه وإذا مسه الضر كالمرض والفقر كان شديد القنوط وكل إنسان يتصرف حسب اختياره. والله يعلم من يسير في طريق الهدى ومن يسير في طريق الضلال:

«وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا. قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا» (٨٣ - ٨٤).

سؤال عن الروح :

قلنا سابقا (ص ٢٠٤) إن أحبار اليهود اقترحوا على كفار قريش اختبار النبي بأسئلة ثلاثة. وكان السؤال الثالث عن الروح:

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (٨٥).

وتقرر الآيات أن الروح سر من الأسرار التي استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها ولا يستطيع البشر إدراكها لأن عقولهم قاصرة عن الإحاطة بماهيتها وعلمهم مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى علم الله المحيط الشامل.

عن القرآن :

«ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا. إلا رحمة من ربك إن

فضله كان عليك كبيرا. قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا» (٨٦ - ٨٩).

وتقرر الآيات أن لو شاء الله أن يذهب بما أوحى إلى النبي من قرآن فلا يملك أحد أن يحول دون ذلك ولكن الله أبقاه رحمة بالعباد وفضلا منه على نبيه. ثم يأتي تحدى للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن. ولن يستطيعوا حتى لو عاون بعضهم بعضا. ولقد أدرج في القرآن من الموضوعات والمناهج والعظات ما يحمل الناس على الإيمان ولكن أكثر الناس ظلوا على عنادهم وكفرهم.

وقد كتب المفسرون الكثير في وجوه إعجاز القرآن، فقد شهد العرب ببلاغة أسلوبه وروعة نظمه وسمو طبقته وما احتواه من المبادئ والأسس التي فيها للناس هدى. ناهيك عن إيجازه المعجز وهو ما يظهر في ضخامة كتب التفسير. وكان القرآن هو المعجزة الكبرى للنبي وكان فيه غنًى عن إظهار معجزات مادية.

الكفار يطلبون معجزة مادية :

ولكن الكفار استمروا في تعنتهم وطالبوا النبي بمعجزات مادية يدلل بها على صدق رسالته. ويأتي الرد بأنه بشر مثلهم أرسله الله لهدايتهم. وأن الرسل يجب أن يكونوا من جنس من أرسلوا إليهم. ولو كان في الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم ملكا رسولا:

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفجُرَ لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا (نقابلهم ونعاينهم)**. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّل علينا كتابا نقرؤه. قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا. قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا. قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا»** (٩٠ - ٩٦).

الهداية والضلال :

«ومن يهد الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا. ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا. أوَلَمْ يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا» (٩٧ - ٩٩).

والآيات وإن كانت تنسب الهداية والإضلال إلى الله تعالى إلا أن ما يليها يبين أن ذلك كان جزاء لهم على كفرهم وإنكارهم للبعث . ثم يأتى تخويف للكافرين من سوء المصير إذ يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما. وهى صورة تبث الرعب فى سامعيها ولو كانوا يعقلون لأدركوا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيد خلقهم فى الآخرة.

كرم الله وحلمه :

«**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا** (أى بخيلا)» (١٠٠).

ولعل بعض الكفار احتج بأنهم يتمتعون بمتع الدنيا ونعيمها ولا يتفق هذا مع عدم رضا الله عنهم فكان أن أوضحت الآيات أن طبيعة البشر التقتير خشية الفقر وأنهم أكثر إمساكا لأيديهم عمَّن لا يرضون عنهم. ولكن خزائن الله واسعة وكرمه أوسع ومن رحمته أن يرزق الكافر ولا يعنى ذلك رضاه عنه فالله يرزق الكافر ويمهله عسى أن يهتدى.

وكمثال على ذلك ذكرت الآيات ما حدث بين موسى وفرعون فقد أمهل الله الفرعون - المرة بعد المرة - حتى تسع آيات ولكن فرعون لم يؤمن واتهم موسى بالسحر فكان جزاؤه الغرق وأسكن الله بنى إسرائيل الأرض المقدسة:

«**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا. قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا**» (١٠١ - ١٠٤).

وفى معنى الآية الأخيرة الخاصة ببنى إسرائيل قال المنتخب فى تفسير القرآن الكريم الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (ص ٤٢٤): حتى إذا جاء وقت الحياة الآخرة جاء الله بهم جميعا من قبورهم ليحكم بينهم. وبذلك أيضا قال الألوسى (تفسيره جـ ١٥ ص ١٨٧) إلا أنه من المحتمل أن يكون المعنى هو: حتى إذا جاء وقت العلوّ الثانى الذى قررته الآية ٧ من السورة (ص ٢١٠) فى قوله تعالى: «**فإذا جاء وعد الآخرة**» فيكون المعنى حتى إذا اقترب وعد الآخرة جاء الله بهم جماعات جماعات إلى الأرض مصداقا لقوله «**وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا**» ليكون العلو الثانى الذى وُعدوا به وبعد ذلك يجئ المؤمنون «**ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرُوا ما علوا تتبيرا**» (نفس الآية ٧ من سورة الإسراء). ونكرر ما سبق أن ذكرناه سابقا من أن بعض المفسرين المعاصرين يرون أن «وعد الآخرة» لم يتحقق بعد وأن بنى إسرائيل يتجمعون الآن فى فلسطين تمهيدا للمعركة الكبرى التى تبيدهم - والله أعلم.

موقف أهل الكتاب من القرآن :

«وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا. وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا. قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سُجَّدًا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا» (١٠٥ - ١٠٩).

وتقرر الآيات أن القرآن نزل بالحق. وأُكِّد المعنى بتكراره. ثم توضح أن الرسول ماهو إلا مبشر ومنذر. وأن القرآن نزل مُنجَّما حسب الأحداث ليقرأه النبى على الناس على مهل ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم تأمر الآيات بعدم الاهتمام بموقف الكفار سواء آمنوا أو لم يؤمنوا - وتذكر ما حدث من إيمان بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى عند سماعهم للقرآن. وقد سبق أن ذكرنا تصديق النجاشى وجريان دموعه حينما تلى عليه جعفر بن أبى طالب الآيات من سورة مريم (ص ١٦٧) كذلك أسلم بعض أحبار اليهود وبعضهم كان يحث من يستشيرهم فى أمر محمد بالإيمان به لأنه هو النبى الموعود فى آخر الزمان. والآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة القصص (ص ١٨٩) تذكر هذا المعنى أيضا: **«الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا»** إلا أن الغالبية العظمى من اليهود والنصارى كانوا يتمنون أن يكون النبى منهم لا من العرب فرفضوه واتخذوا منه موقف العداوة.

آداب الدعـاء :

أ - «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» (١١٠).

عن ابن عباس أن المشركين سمعوا النبى يدعو ويقول: يا الله، يارحمن. فقالوا كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين. وقيل إن القائل هو أبو جهل. وتوضح الآيات أن تعدد الأسماء هو لتعدد لصفات والله واحد له الأسماء الحسنى كما جاء فى سورة الأعراف (آية ١٨٠ ص ١٢٨): **«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها»**.

ب - «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا» (١١٠).

وقد سبق إيراد هذا المعنى فى سورة الأعراف (آية ٢٠٥ ص ١٣٠) فى قوله تعالى: **«واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول»** وفى الآيتين توجيه لعامة المسلمين بخفض الصوت عند الدعاء منعا للاتهام بالمراءاة فى حالة الجهر بالصوت المرتفع. كما أن الإسرار التام يهيئ الفرصة لزيادة وساوس الشيطان. وقيل كان أبو بكر إذا صلَّى خفض صوته جدا قائلا: أناجى ربى وقد عرف حاجتى. أما عمر بن الخطاب فكان يرفع صوته كثيرا قائلا: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان. وبلغ ذلك رسول الله فقال: يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئا. وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئا.

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة :

«وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولٌى من الذل وكبٌره تكبيرا» (١١١).

وهو أمر بحمد الله الذى لم يتخذ ولدا لعدم حاجته إليه ولم يكن له شريك لأنه وحده هو الذى خلق الكون كله ولم يكن له ناصر يعطيه عِزٌة مثل البشر الذين يتخذون وليا يمنع عنهم الذل ثم أمر أخير بتكبير الله تكبيرا يليق بجلاله.

الزواج بعد خديجة :

ذكرنا سابقا (ص ١٩٣) وفاة خديجة عن عمر يناهز الخامسة والستين. ومضت الأيام برسول الله ثقيلة مشحونة بالذكريات بعد رحيل خديجة أول من صدٌق وآمن به. وخلا البيت عليه وعلى ابنتيه أم كلثوم وفاطمه. فقد كانت زينب فى بيت زوجها أبى العاص بن الربيع، ورقية متزوجة من عثمان بن عفان وهما مهاجران فى أرض الحبشة. أما أم كلثوم فبعد طلاقها من عتيبة بن أبى لهب فإنها ظلت فى بيت أبيها. أما فاطمة صغرى بنات النبى فكان عمرها ١٥ عاما ولم يتقدم أحد للزواج منها إذ كان المفهوم لدى شباب قريش أنها من نصيب على بن أبى طالب.

وكان النبى كلما أجهده أذى قريش وتكذيبهم خلا إلى وحدته فى بيته. ولم تكن البنتان لتخففا عنه كما تخفف المرأة عن زوجها. ويرى الصحابة آثار الحزن على نبيهم ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على اقتراح الزواج من جديد. حتى كانت «خولة بنت حكيم السلمية» هى التى سعت ذات يوم إلى داره. وكما روت هى فيما بعد قالت: يارسول الله. كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة. قال: أجل. كانت أم العيال وربة البيت. فاقترحت عليه أن يتزوج وسألها النبى من؟ قالت بنت أحب الناس إليك - تقصد أبا بكر - فقال لها: إنها لاتزال صغيرة. فقالت تخطبها اليوم ثم تنتظر حتى تنضج وكان معنى ذلك أن الزواج لن يتم إلا بعد ٣ سنوات فقد كانت عائشه فى ذلك الوقت فى السادسة من عمرها. وسأل النبى عمٌن يرعاه ويرعى البيت خلال هذه المدة. فأخبرته عن سودة بنت زمعة العامرية.

وأطرق الرسول فترة تذكر فيها سودة بنت زمعة. فأمها من بنى عدى النجار وكانت متزوجة من ابن عمها السكران بن عمرو بن عبد شمس. وكانا من أوائل من أسلموا وتحملا أذى قريش ثم هاجرا فى الفوج الثانى من المهاجرين إلى الحبشة وهناك قاسيا ألم الغربة. ثم توفى زوجها فقاست ألم الترمل بالإضافة إلى ألم الغربة. ثم عادت إلى مكة فى الفوج المكون من ٣٣ فردا الذين عادوا فى السنة العاشرة للبعثة كما سبق أن ذكرنا (ص ١٦٨). وعاشت سودة

فى مكة وحيدة تجتر أحزانها . ولاشك أن ذلك كله قد أحزن النبى. فلما ذكرتها خولة رأى أن خير مواساة لهذه المرأة المسلمة التى كان نصيبها من الحياة قليلا هو أن يتزوجها فأذن لخولة فى خطبتها هى وعائشة بنت أبى بكر.

الزواج من عائشة :

دخلت خولة بنت حكيم بيت أبى بكر وقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة، قالت أم رومان: وماذاك؟ قالت أرسلنى رسول الله أخطب عائشة – ولما جاء أبو بكر وعلم بالأمر قال: وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخيه. فرجعت خولة إلى رسول الله فذكرت له ما قال أبو بكر فقال: ارجعى إليه فقولى له أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام وابنتك تصلح لى. فرجعت وذكرت ذلك لأبى بكر. فقال انتظرى. فقد كان مطعم بن عدى – وكان لايزال على شركه – وهو صديق لأبى بكر – قد خطبها لابنه. وما وعد أبو بكر وعداً وأخلفه فسار أبو بكر إلى دار مطعم. فقالت زوجة مطعم أم الفتى: يا ابن أبى قحافة لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه. ولم يرد عليها أبو بكر بل التفت إلى زوجها المطعم بن عدى وقال: ما تقول هذه؟ فأجاب المطعم: إنها تقول الذى سمعت وكان معنى ذلك رغبة المطعم وزوجته فى فسخ الخطبة فخرج أبو بكر وقد شعر بارتياح لما أحلَّه الله من وعده. وعاد إلى بيته وقال لخولة: ادعى لى رسول الله. فمضت خولة إلى بيت رسول الله ودعته إلى بيت أبى بكر الذى زوَّجه من عائشة وهى يومئذ – كما قلنا – بنت ٦ أو ٧ سنوات. وكان صداقها ٥٠٠ درهم. ولم يعد هناك من حرج فى استمرار زيارات النبى لأبى بكر فى بيته فى أى وقت من ليل أو نهار كما كان يفعل فقد أصبحت عائشة زوجا لرسول الله وإن لم يدخل بها.

الزواج من سودة :

بعد ذلك راحت خولة إلى بيت سودة فدخلت عليها وقالت: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة. فسألت سودة: وما ذاك ياخولة؟ قالت أرسلنى رسول الله أخطبك إليه. فقالت سودة فى حياء: ادخلى إلى أبى فاذكرى له ذلك. فدخلت سودة عليه وهو شيخ كبير وقالت له إن النبى أرسلها يخطب سودة. فقال الشيخ: كفء كريم. فماذا تقول صاحبتك – يعنى سودة – فقالت خولة: تحب ذاك. فطلب منها الشيخ أن تدعو «محمدا» فدعته وتم زواجه من سودة.

وشاع فى مكة أن «محمداً» قد خطب سودة بنت زمعة فكاد أناس لايصدقون الخبر. فكل عائلات مكة ترحب بالنبى صهرا لبناتها اللاتى يفقن سودة جمالا وشبابا وما فى مثل سودة من مآرب فهى أرملة مسنة غير ذات جمال. وأيقن الجميع أن النبى ما تزوجها إلا جبرا لخاطرها وتعويضا لها عما ذاقته من قسوة الحياة ومداً ليد الرحمة يسند بها شيخوختها.

يثرب = المدينة :

تقع يثرب كما هو معروف (شكل ٥ ص ١٦) على طريق القوافل من مكة إلى الشام والأرض المحيطة بها خصبة ولذلك كثرت فيها الزراعة وخاصة بساتين النخيل إلا أنها تقع فى مكان خفيض من السهل تتجمع فيه المياه فى الشتاء وتكون بركا راكدة تتكاثر فيها الحشرات الطائرة مثل الناموس وغيره ولذلك كانت تتفشّى فيها الحميات.

وكان أول من سكنها العماليق ثم جاء إليها العرب نزحوا إليها من اليمن بعد سيل العرم (انظر فيما بعد شكل ١٨ ص ٢٨٧) وهم قبيلتا الأوس والخزرج. أما اليهود فقد جاءوا إلى يثرب فى عدة مراحل. فبعد استيلاء نبوخذنصر على بيت المقدس وتدمير الهيكل عام ٥٨٦ ق.م. بدأت أعداد منهم تتجه إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ليلحقوا باليهود المقيمين فى اليمن التى كانت الديانة اليهودية قد انتشرت فيها منذ أن اتبعت ملكة سبأ سليمان عليه السلام. إلا أن أعدادا منهم تخلفت فى الطريق فى خيبر ويثرب. وبعد تدمير أورشليم على يد القائد الرومانى تيتوس عام ٧٠ م (جـ ٦ ص ١٣٠) زادت أعدادهم فى خيبر ويثرب بوصفهما أقرب مدينتين بهما أعداد من اليهود فتكونت جالية يهودية كبيرة فى كل منهما. وإن نزلوا أيضا فى أماكن أخرى مثل وادى القرى وفدك وتيماء.

ولاشك أن اليهود قدَّموا أنفسهم للعرب كأبناء عمومة لهم فإسماعيل أبو العرب - هو أخو إسحق والد يعقوب أبو بنى إسرائيل. وإبراهيم والدهما هو الذى بنى الكعبة. فنالوا بذلك ترحيب العرب فضلا عن كونهم أهل كتاب سماوى وأهل علم بالأمم السابقة مما جعل العرب يُجلُّونهم. وأحيانا كانوا يحتكمون إلى أحبارهم الذين اعتكفوا فى الصوامع وكانوا يعيشون عيشة الزهّاد بعيدين عن مباهج الحياة وزخرفها. وعاش اليهود بين العرب كفئة مستقلة مترفِّعة عنهم. ولم يحاول اليهود محاربة الأصنام ولا دعوا العرب إلى الله ولكنهم نأوا بأنفسهم وظنوا أن الدين امتياز لهم لا ينبغى أن يشاركهم فيه أحد. واستراحوا إلى هذا المنطق فهم «شعب الله المختار»!

ولم يلبث اليهود الذين نزحوا إلى المدينة أن استغلوا ذكاءهم المعهود وبراعتهم فى التجارة فاقتنوا الضياع والأموال وأصبحت تجارة يثرب فى أيديهم وكانت أشهر قبائلهم: بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع. وصار لليهود اليد العليا فى يثرب وسامُوا العرب الإذلال والهوان. واستعان عرب يثرب بالتبابعة حتى عزُّوا وصاروا على قدم المساواة مع اليهود. وكانت أشهر قبيلتين عربيتين فى يثرب هما الأوس والخزرج. وأدرك اليهود ما يتهدد مركزهم إذا ما اتحد الأوس والخزرج لذلك فإنهم عملوا على الوقيعة بينهما وكانوا يؤجِّجون نار العداوة خصوصا أن كلا منهما كان يتطلع إلى مركز الزعامة فى المدينة. وانحاز بنو قريظة والنضير للأوس وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج ولعل ذلك كان باتفاق بين طوائف اليهود حتى يتمكنوا من

الإيقاع بين القبيلتين وتأجيج نار الحرب بينهما. وكان الشعراء يلعبون دورا خطيرا في تلك الحروب. فحسَّان بن ثابت شاعر الخزرج يفخر بعشيرته وما تأتي به من ضروب البطولات. وقيس بن الخطيم شاعر الأوس يجاريه ويرد عليه بقصائد أقسى من ضرب السيوف. فكانت الحروب بينهم تقوم لأتفه الأسباب. وأشهر معاركهم حرب داحس والغبراء وحرب بعاث.

حرب داحس والغبراء :

كان قد أقيم سباق بين خيول عبس حلفاء الأوس وخيول ذبيان حلفاء الخزرج. وداحس اسم فرس يملكه زعيم عبس والغبراء اسم لفرس يملكها شيخ ذبيان. وكادت الغبراء تسبق لولا أن كمن لها فتيان من عبس في أحد الشعب فعطَّلوها ففازت داحس واختلف القوم وقامت الحرب بين القبيلتين وانضم إليهما حلفاؤهما من الأوس والخزرج.

حرب حاطب :

قتل حاطب الأوسي يهوديا كان جارا وحليفا للخزرج فخرج إليه نفر من بني الحارث بن الخزرج فقتلوه وقامت الحرب بين الأوس والخزرج واقتتلوا قتالا شديدا.

قوة العلاقة بين مكة والمدينة :

قلنا إن يثرب تقع على طريق القوافل بين مكة والشام ولذلك كانت هناك صلات تجارية بين البلدين. وفضلا عن ذلك كانت هناك أواصر نسب بين عشائر من قريش وعشائر من يثرب. فقد رأينا كيف أن هاشم بن عبد مناف القرشي تزوج من بني عدى بن النجار من يثرب وأنجب شيبة الذي سُمِّيَ فيما بعد «عبد المطلب» (ص ٢١). وذكرنا كذلك كيف أعان بنو النجار ابن أختهم في مقاومة أطماع عمه حينما أراد نوفل أن يتولى رئاسة قريش بعد أخيه المطلب. ولم تكن هذه صلة النسب الوحيدة بين المدينتين فقد كان مثلها كثير الحدوث. وكانت أخبار مكة سرعان ما تصل يثرب وأخبار يثرب سرعان ما تصل إلى مكة.

وظهر النبي في مكة وبدأ يدعو قريشا. وسمع به الأوس والخزرج ورغبوا في التعرُّف على مزيد من أخباره فقدم بعضهم إلى مكة.

قدوم سويد بن الصامت من الأوس :

وأمه من بني النجار فهو ابن خالة عبد المطلب جد النبي. وكان قومه يسمونه «الكامل» لشرفه ونسبه. وكان كثير الأسفار واطلع على حكمة الأمم المجاورة: فارس والروم ومصر وحفظ كثيرا من أدبهم. فقدم إلى مكة حاجًا للبيت الحرام فتصدى له رسول الله حين سمع بقدومه ودعاه إلى الإسلام فقال له سويد فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له النبي: وما الذي معك؟ قال حكمة لقمان. فقال النبي اعرضها عليَّ فعرضها. فقال له النبي: إن هذا الكلام

حسن والذى معى أفضل منه. قرآن أنزله الله علّى هو هدى ونور. وتلا عليه بعضا من القرآن. فقال سويد إن هذا القول حسنٌ وأسلم. فلما عاد إلى يثرب وعرف قومه بإسلامه قتلوه.

وفد بنى الأشهل من الأوس :

قدم إلى مكة جماعة من بنى الأشهل يلتمسون التحالف مع قريش على الخزرج. فلما سمع بهم رسول الله أتاهم فجلس إليهم وقال لهم: هل لكم فى خير مما جئتم له؟ قالوا وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا. وأنزل علىَّ الكتاب. ثم تلا عليهم بعضا من القرآن وذكر لهم الإسلام. وكان فى الوفد غلام حدث هو إياس بن معاذ. فقال لهم: ياقوم هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ كبير الوفد حفنة من تراب وضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا فى غير هذا. فصمت إياس وانصرف رسول الله. ولما قامت حرب بعاث بين الأوس والخزرج قتل فيها إياس بن معاذ.

حرب بُعاث :

أشعل الأوس مع حلفائهم يهود بنى النضر وبنى قريظة الحرب على الخزرج الذين انضم إليهم أشجع وجهينة وانضم إلى الأوس حلفاؤهم من مزينة. ودارت المعركة عند «بُعاث» على طريق مكة غرب المدينة. فلما بدأ القتال دارت الدائرة على الأوس ولكن حُضير بن سماك سيد الأوس جمع فلولهم وشجَّعهم فاستأنفوا القتال وهزموا الخزرج هزيمة منكرة. وقام اليهود بالاستيلاء على غنائم الخزرج.

المهادنة بين الأوس والخزرج :

تنبه الأوس والخزرج إلى أن تطاحنهم فى غير مصلحتهم وأن الفائز فى هذا الاقتتال هم اليهود وفطنوا إلى أن اليهود هم الذين يؤججون نار الفتنة لتبقى لهم مكانتهم فى يثرب وتظل لهم السيطرة على تجارتها. وفكَّر الأوس والخزرج فى اتحاد وإقامة ملك عليهم يجمع شملهم تشبهًا بدويلات الحيرة والشام وتعزيزا لمكانتهم بين العرب. وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول هو المرشح لهذا المنصب لما رؤى فيه من الحلم والكياسة وبدأوا يجهزون لهذا التتويج. وكانت وقعة بعاث آخر الحروب بين الأوس والخزرج. واستشعر اليهود الخطر على مكانتهم المتميزة فى يثرب.

ومن ناحية أخرى كان اليهود يفخرون على العرب بأنهم أهل كتاب ويعبدون الله فى حين أن الأوس والخزرج وثنيون يعبدون الأصنام وكان اليهود يقولون للعرب: لقد اقترب موعد نبى آخر الزمان يخرج فنتبعه ونسوقكم سوق الإبل. ونقاتلكم به فنقتلكم قتل عاد وإرم.

وفـد الخـزرج :

فى موسم الحج وبينا النبى عند العقبة لقى ستة نفر من أهل يثرب فقال لهم من أنتم؟ قالوا من الخزرج. قال: أمِن موالى اليهود؟ قالوا نعم. قال أفلا تجلسون أكلمكم قالوا بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وتلا عليهم بعضا من القرآن وعرض عليهم الإسلام. وتذكر الرجال ماكان اليهود يتوعدونهم به من ظهور نبى قد أظلَّ زمانه يتبعونه ويقاتلوهم به قتل عاد وإرم. فقال بعضهم لبعض. ياقوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعّدكم به يهود فلا يسبقُنّكم إليه.وأجابوا رسول الله فيما دعاهم إليه وأسلموا وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلٌ أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى يثرب وأسلم بإسلامهم عدد آخر من الخزرج وحذا حذوهم نفر من الأوس. وأرسلوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم رجلا يفقههم فى الدين فبعث إليهم مصعب بن عمير فنزل على أسعد بن زرارة وراح يدعو إلى الإسلام ويصلى بهم حتى لم تبق دار فى يثرب إلا وفيها ذكر رسول الله.

عود إلى مكـة :

نترك يثرب والإسلام ينتشر فيها حثيثا ونعود إلى مكة حيث رسول الله. فقد نزلت عليه بعد ذلك **ثلاث سور** هى يونس وهود ويوسف وترتيب نزولها هو نفس ترتيبها فى المصحف. والثلاث تبدأ بنفس الحروف المقطعة الر والثلاث مسماة بأسماء ثلاثة من الأنبياء.

سورة يونس :

«الر. تلك آيات الكتاب الحكيم. أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنَّ هذا لساحر مبين. إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُدبِّر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون. إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون» (١ - ٤).

وقد بدأت السورة بثلاثة حروف متقطعة هى الألف واللام والراء. وقد سبق الكلام عن هذه الأحرف المتقطعة فى سور سابقة. بعد ذلك تأتى إشادة بآيات القرآن الكريم. ثم سؤال استنكارى لاستغراب الناس - والمقصود الكفار - لاختيار الله لرجل مثلهم لينذرهم ويبشر المؤمنين أن لهم منزلة رفيعة عند ربهم ولكن الكافرين اتهموا النبى بأنه ساحر. ثم تأتى تذكرة بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض. وقد سبق ذكر كيفية الاستواء على العرش فى سورة

الأعراف (آية ٥٤ ص ١٢٠) وقلنا إن معناه هو قيوميته على الكون ليسير وفق سننه وقوانينه. ثم تقرر الآيات أن لا أحد من الخلق يستطيع أن يشفع عند الله إلا بإذنه. ثم تذكير بأن الناس جميعا يرجعون إلى الله يوم القيامة وهو قادر على ذلك فهو الذى خلقهم ابتداءً ويعيدهم ليكافئ الذين آمنوا بما يستحقونه من ثواب لعملهم الصالح أما الكافرون فلهم عذاب أليم لكفرهم بالله.

بعض آيات الله فى الكون :

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق. يفصِّل الآيات لقوم يعلمون. إنَّ فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون» (٥ - ٦).

ولعل الأقدمين لم يلحظوا الفرق بين ما وصف الله به الشمس والقمر حيث أن الضياء والنور لا يختلفان كثيرا فى معنيهما. فتفسير الجلالين (ص ١٧٠) يقول جعل الشمس ضياء أى نوراً. أما تفسير ابن كثير (جـ ٢ ص ٤٠٧) فيقول جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل. أما تفسير الألوسى (جـ ١٠ ص ٦٧) فقال: الشمس ضياء أى ذات ضياء والقمر نورا أى نور. واقترب من الحقيقة فيقول: ولكون الشمس نيِّرة بنفسها نسب إليها الضياء ولكون نور القمر مستفادا منها نسب إليه النور. وذكر أن نور القمر على سبيل الانعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيرا. وفى ضوء المعارف الحالية فإن الشمس فيها عمليات احتراق نووى ينتج عنها إشعاع ضوء وحرارة أما نور القمر فهو انعكاس لأشعة الشمس على سطحه ولذلك يخلو ضوؤه من الحرارة. وبديهى أن الشمس هى التى تحدد الليل والنهار والقمر هو الذى يحدد الشهور. واختلاف مكان الأرض من الشمس يحدد فصول السنة وفى هذا التعاقب دليل على قدرة الخالق يعقلها من يتقون الله ويخافونه.

مقابلة بين جزاء الكافرين وثواب المؤمنين :

«إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم. دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» (٧ - ١٠).

وقد وُصف الكافرون بأنهم لا يؤمنون بالبعث **«لا يرجون لقاءنا»** و **«رضوا بالحياة الدنيا»** وظنوا أنها هى كل شيئ واطمأنوا بها فلم يعملوا لما بعدها وغفلوا عن آيات الله الدالة على البعث والحساب. وهؤلاء لهم النار. ووُصف المؤمنون بأنهم يعملون الصالحات فى دنياهم. ويثبتهم الله على الهداية بسبب إيمانهم ويدخلهم جنات النعيم دعاؤهم فيها تسبيح وتمجيد لله.

بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق. يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون» (٢١ - ٢٣).

فمن طبائع البشر أنهم يلجأون إلى الله فى الضيق والشدة ويدعونه لكشف الغُمَّة فإذا كشفها كفروا به. وتضرب لهم المثل بما يحدث منهم إذا كانوا فى سفينة فى البحر تدفعها ريح هادئة ثم هبَّت عاصفة وأشرفوا على الغرق دعوا الله مخلصين ونذروا لئن نجوا ليشكرنَّ الله. فلما أنجاهم الله نسوا وعدهم وبغوا فى الأرض. وتلفت الآيات نظرهم إلى أن بغيهم هذا - لينالوا من متع الحياة الدنيا - سيعود وبالا عليهم لأنهم سيرجعون إلى الله فى الآخرة فيخبرهم بما عملوا.

مثل الحياة الدنيا :

وتضرب لهم الآيات مثلا للحياة الدنيا التى اغتروا بها ونسوا وعودهم لله بسببها - والتى يتكالبون عليها - بماء نزل من السماء فازدهرت الأرض واخضرت ثم جاءها أمر الله فجفت وزالت. وعلى كل من عندهم تفكير ألا يغتروا بهذه الدنيا الفانية.

«إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (٢٤).

ولاشك أن هذا المثل الذى ضُرب للحياة الدنيا قُصد به كفار قريش الذين بغوا فى الأرض حتى ظنوا أنهم ملكوها. فانغمسوا فى ملذاتها ومتعها فكان المثل لتحذيرهم من زوالها. وهم يرون ذلك يحدث أمام أعينهم فى الصحراء إذ يسقط المطر على بقعة فتخضرُّ وتزدهر بالزرع ويفرح أهلها ثم يأتى أمر الله فتجف ويصبح ماكان بها هشيما تذروه الرياح.

الإيمان بالله فيه الأمن والسلام :

وتستمر الآيات تبين أن الله يدعو عباده إلى الأمن والسلام ويدعو مَن حَسُنَ استعدادهم للخير إلى الطريق المستقيم ولهم أحسن الأجر فى جنات الخلد أما الذين اقترفوا السيئات فلهم عذاب النار فى جهنم خالدين فيها وذلك جزاء مكافئ لسوء أعمالهم:

«والله يدعوا إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَر ولا ذِلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذِلة مالهم من الله من عاصم كأنما أُغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٢٥ - ٢٧).

والآيات فيها إنذار بسوء مصير الكفار: لهم ذل وهوان ويغطى وجوههم قتر النار وتتلوث

بسخامها فتسوّد كأنما أسدل عليها سواد من ظلمة الليل. وهى صورة بشعة تبعث الخوف فى النفس وتدعو إلى الإرعواء والاتعاظ.

الشركاء يتنصلون من عبادة الكفار لهم :

«ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم (أى قفوا مكانكم) **أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ماكنتم إيانا تعبدون. فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين. هناك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردُّوا إلى الله مولاهم الحق وضلَّ عنهم ماكانوا يفترون»** (٢٨ - ٣٠).

والآيات تصوِّر مشهدا لما سيحدث يوم القيامة إذ ستقع فرقة بين الكافرين وبين من كانوا يشركونهم فى العبادة مع الله ويتنصّل الأخيرون من الكافرين ويستشهدون بالله على براءتهم من عبادتهم لهم ويعلنون أنهم لم يعلموا بهذه العبادة. وحينئذ ترى كل نفس نتيجة عملها وتتحمل تبعة ماعملت فى سالف الأيام. وسيرد الجميع إلى الله فهو الحق وهو وحده الجدير بالعبادة أما من كان الكفار يشركونهم فى عبادة الله فإنهم سيغيبون عنهم **«ضل عنهم»** فلا يستطيعون نصرهم.

واستمرارا لهذا المعنى تمضي الآيات **تستنكر الإشراك بالله** . ويأتى ذلك فى صورة عدة أسئلة تقريرية واستنكارية لايكون الجواب عليها إلا الإقرار بأن الله وحده هو القادر على ذلك.

١ - **«قل من يرزقكم من السماء والأرض...»** مطرا ينبت به الزرع.

٢ - **«أمَّن يملك السمع والأبصار ....»** وهما من أهم الحواس للإنسان.

٣ - **«ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .....»** وهذا أمر ماثل ويتكرر أمام أعينهم إذ يرون الأرض الجافة وكأنها ميتة فإذا نزل عليها المطر يخرج منها الزرع. وكما أن بعد حياة الإنسان ممات ففى الآخرة حياة ثانية.

٤ - **«ومن يدبِّر الأمر ....»** أى يُصرِّف جميع أمور العالم كله.

ويأتى الجواب : **«فسيقولون الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون. كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون»** (٣١ - ٣٣).

وهذه الآيات تقرر أن الفاسقين الذين تعمدوا الانحراف وفسدت أخلاقهم هم الذين استحقوا بأفعالهم لعنة الله وغضبه فحال بينهم وبين الإيمان.

٥ - **«قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده. قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنّى تؤفكون»** (٣٤). أى فلماذا تكذّبون وتنصرفون عن الحق.

٦ - **«قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق. قل الله يهدى للحق. أفمَنْ يهدى إلى الحق أحقُّ**

أن يُتبع أمَّن لا يَهِدِّى إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون. وما يَتَّبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون» (٣٥ - ٣٦).

ويَهِدِّى أصلها يهتدى وادغمت التاء فى الدال ونقلت حركة الدال إلى الهاء. وفى السؤال الأخير تنديد برؤساء الكفر والأحبار والرهبان الذين اتخذهم المشركون أربابا من دون الله. فهم أنفسهم لم يهتدوا وبالتالى فهم لا يستطيعون هداية غيرهم لأنهم فى حاجة إلى من يهديهم. فإذا كان الحال كذلك فكيف تأتى لهم أن يطيعوهم ويعصوا الله وهم لا يتبعون كتاب الله بل يتبعون ما يرونه فى ظنهم حقا. وهو فى الحقيقة غير ذلك ولن تفيدهم أعمالهم.

إعجاز القرآن :

وتتحدث الآيات عن إعجاز القرآن فتقول :

«وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه. قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله (قبل أن يتدبَّروه) **كذلك كذَّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين. وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون. ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العُمْىَ ولو كانوا لا يُبصرون. إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسَهم يظلمون»** (٣٧ - ٤٤).

والآيات فى أسلوبها القوى النافذ تنفى أن يكون القرآن مفترى لأنه فى إعجازه وإحكامه لا يمكن أن يكون من عند غير الله. وقد جاء مصدِّقًا للكتب التى سبقته وفيه تفصيل مبدأ التوحيد مما يقطع بصدوره من الله عز وجل وتتحدى الكافرين أن يأتوا بسورة مثل سوره إن كانوا صادقين فى دعواهم أنه من صنع محمد وأن يستعينوا بكل من يستطيعون من أساطين اللغة. وقد ورد مثل هذا التحدى فى سورة الإسراء (الآية ٨٨ ص ٢٢٠) فى قوله تعالى: **«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»** مما يدل على أن الكافرين ما فتئوا يخوضون فى القرآن وينسبون للنبى تأليفه أو اقتباسه من أساطير الأولين أو الاستعانة بأناس فى كتابته. وقد أشير إلى ذلك فى سورة الفرقان (آية ٥ ص ١٣٩): **«وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا»**.

ثم مضت الآيات تخبرهم أنهم سارعوا إلى تكذيبه دون أن يتدبَّروا محتوياته ويحيطوا بما جاء فيه. وهكذا كان شأن الذين كذبوا الرسل من قبلهم. ثم تلفت النظر إلى عاقبة هؤلاء المكذبين الظالمين الذين سبقوهم. ثم تقرر أن من الناس فريق آمن بالقرآن وفريق آخر لم يؤمن به ويعلن هؤلاء الأخيرين أن عليهم أن يتحملوا تبعة عملهم والنبى ليس مسئولا عما يعملون.

فهؤلاء المكذبين يسمعون القرآن حين يتلى عليهم كأنهم صم ولن يستطيع النبى إسماعهم. ومنهم من ينظر إليه ويرون دلائل نبوته ولكنهم كالعمى لا يبصرون. وسيجازى الله الناس بأعمالهم ولا يظلم أحداً منهم شيئا بل إنهم هم الذين يظلمون أنفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان.

عن يوم القيامة :

«ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين. وإما نُرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيدٌ على ما يفعلون. ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قُضِىَ بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون. أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون. ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون. ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين. ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لافتدت به وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب وقُضِىَ بينهم بالقسط وهم لا يظلمون. ألا إن لله مافى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون. هو يحيى ويميت وإليه ترجعون» (٤٥ – ٥٦).

كان الكفار لا يؤمنون بالبعث فجاءت الآيات تؤكد لهم وقوعه وأنهم سيحشرون إلى الله ومهما مرَّ عليهم من قرون بعد موتهم فإنهم سيشعرون أنهم لم يغيبوا عن الدنيا إلا ساعة من الزمن ويتعارفون فيما بينهم. ذلك أن الزمن يتوقف بالنسبة لمن مات فلا يشعر بمرور الأيام والسنين أو حتى آلاف السنين. ويشعر الذين كذبوا بالآخرة أنهم قد خسروا. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى ليخبره أنه سواء أراه الله تحقيق بعض ما وعدهم من عذاب الدنيا أو توفاه الله قبل ذلك فلا مناص من عودتهم إلى الله وهو شهيد على أفعالهم ومجازيهم عليها. ويحاسب الله كل أمة بحضور رسولهم ليشهد عليهم ويحكم الله بالعدل ولا يُظلمون. وتحكى الآيات سؤال الكفار عن موعد البعث سؤال المنكر له. والإجابة أن يقول الرسول لهم أنه لا يعرف موعده ولا حتى يملك لنفسه ضرا ولا نفعا. وأن لهم – كما لكل أمة غيرهم – أجل مُحدَّد ثم يُجازَى الظالمون بالخلود فى العذاب. ويعود الكفار لسؤال النبى مستهزئين عما إذا كان البعث والحساب حقيقة وتأمر النبى بتوكيد ذلك وأنهم لن يعجزوا الله ولن يخرجوا عن شمول قدرته. وفى هذا اليوم – يوم البعث – يتمنى الواحد منهم لو أن له جميع مافى الأرض ليقدمه فدية عن نفسه لينجو. ويعمهم الأسف والندم حين يرون العذاب الذى قُضِىَ به عليهم جزاء وفاقا لعملهم. ثم تهيب الآيات بالناس معلنة أن لله مافى السموات والأرض وأن وعد الله حق وهو الذى يحيى ويميت وجميع الناس إليه راجعون.

القرآن فيه الهدى وهو المرجع فى الحلال والحرام :

فى هذه الفقرة تهيب الآيات بالناس أنهم قد جاءهم كتاب – هو القرآن – فيه موعظة من الله وفيه هداية وجواب لما قد يعتمل فى بعض النفوس فى بعض الأوقات من أسئلة محيرة أو دواء لما قد يصيب بعض القلوب من شك إذ فيه هداية إلى الطريق المستقيم فيزداد إيمانهم ويفرحوا بفضل الله عليهم:

«يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (من متاع الدنيا). **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا. قل آلله أذِن لكم أم على الله تفترون. وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة. إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون»** (٥٧ – ٦٠).

وفى الآيات إشارة سريعة تندد بما كان العرب يفعلونه من تحريم ذبح بعض النوق وادعوا أن هذا من دين الله. وتنعى عليهم الآيات هذا التحريم لأن الله لم يشرعه وتخبرهم أنهم سيُسألون يوم القيامة عن هذا الافتئات على الله.

إحاطة علم الله بكل شيئ :

ثم تمضى الآيات لتثبت إحاطة علم الله بكل شيئ صغيرا أو كبيرا. ومن هذه الإحاطة الشاملة يكون الحساب عادلا : الثواب للمؤمنين والعقاب للمشركين:

«وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه. وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم. ولا يحزنك قولهم. إن العزة لله جميعا هو السميع العليم. ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض. وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون. هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون» (٦١ – ٦٧).

والآيات تقرر شمول علم الله تعالى وإحاطته بكل شيئ. فما من شأن يكون فيه النبى وما من مجلس يتلو فيه القرآن وما من عمل يعمله الناس ولا حديث يتحدثون به إلا أحاط الله به فكل شيئ فى السموات والأرض حتى لو كان مثقال ذرة أو أصغر أو أكبر إلا وهو مسجَّل فى اللوح المحفوظ. ثم يأتى تطمين لأولياء الله – وهم المتقون – بأنه لا خوف عليهم ولا حَزَن. ولهم بشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولم تُوضَّح نوع البشارة حتى تشمل كل شيئ يتمناه

المرء. ثم تعود الآيات للتسرية عن النبي وتطلب منه ألا يحزن لتكذيب المشركين له. فالعزة لله وله جميع الخلائق في السموات والأرض وعُبِّر بضمير العاقل «من» ومن باب أولى أن ما هو أدنى ويعبر عنه بالضمير «ما» يدخل فيه. وأما الكفار فهم يتبعون الظن في إشراكهم بالله واكتُفِيَ بضرب مثال بسيط من نعم الله وهو الليل للسكون والراحة والنهار للعمل واكتساب الرزق.

وفي الآيات تعريف **لأولياء الله** بأنهم هم «الذين آمنوا وكانوا يتقون». ولكن الناس بعد عصر النبي جعلوا «أولياء الله» طبقة خاصة لهم «كرامات» وأوردوا أحاديث متنوعة الرتب منها المرسل ومنها الضعيف والموقوف والمنقطع تبين مقدرتهم على قضاء مصالح العباد أو معرفة بعض الأمور المستقبلية أو الإتيان بغرائب الأفعال التي تصل إلى حد المعجزات ويخرجها عن نطاق العقيدة الإسلامية الصحيحة.

تنزيه الله عن الولد :

كان العرب يعتقدون أن الملائكة بنات الله واليهود يقولون إن عزيرا ابن الله والنصارى يدعون أن المسيح ابن الله. فجاءت الآيات تنزه الله عن الولد فهو غني عن الولد لأن له كل ما في السموات والأرض. وليس لهم دليل أو حجة على قولهم هذا بل هو افتراء على الله سبحانه وتعالى. وإذا كانوا يُمتَّعون في الدنيا فإن لهم عذابا شديدا حين يرجعون إلى الله يوم القيامة:

«قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون. قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» (٦٨ – ٧٠).

قصة نــوح :

وقد ذكرت قصة نوح قبلا في سورة الأعراف (الآيات ٥٩ – ٦٤ ص ١٢١) وذكر فيها دعوته لقومه لعبادة الله واتهامهم له بالضلالة ثم في اختصار شديد ذكر هلاكهم. كذلك ذكرت القصة في سورة الشعراء (الآيات ١٠٥ – ١٢٢ ص ١٧٨) وفيها اعتراضهم بأن من اتبعه هم من الفقراء والمساكين. وفي السورة الحالية – سورة يونس – ذُكرت دعوته لهم إلى التفكير بإمعان فيما يدعوهم إليه :

«واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تُنظِرون. فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجريَ إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين. فكذبوه فنجّيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين» (٧١ – ٧٣).

ثم تذكر الآيات أن الله قد أرسل رسلا بعد نوح إلى أقوام آخرين وأن هؤلاء الأقوام قد كذبوا رسلهم وتشابه اللاحقون بالسابقين:

«ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين» (٧٤).

قصة موسى :

وقد سبق ذكر قصة موسى بتفصيل كبير فى عدة سور سابقة مثل: سورة الأعراف (الآيات ١٠١ – ١٦٠ ص ١٢٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ – ٩٧ ص ١٥٨) وفى سورة الشعراء (الآيات ١٠ – ٦٧ ص ١٧٥) ومختصرة فى سورة النمل (الآيات ٧ – ١٤ ص ١٨١).

وقد ركزت السورة الحالية – سورة يونس – على استكبار فرعون واتهامه لموسى بالسحر:

«ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملإه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحر مبين. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحرٌ هذا ولا يفلح الساحرون. قالوا أجئتنا لتلفتنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين. وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم. فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يُصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون»(٧٥ – ٨٢).

ولا يخفى تشابه موقف كفار قريش مع موقف فرعون فى استكبارهم واتهام النبى بالسحر. وفى ختام الفقرة تطمين للنبى والمسلمين بأن الحق سينتصر ويعلو ولو كره الكافرون. ثم تذكر الآيات موقف القلة التى آمنت بموسى:

«فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين. وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين. ونجنا برحمتك من القوم الكافرين. وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين» (٨٣ – ٨٧).

فى الآيات حث على التوكل على الله. والاجتهاد فى العبادة وإقام الصلاة وبشرى والمفهوم أنها بالنصر على الكافرين.

ولما استمر فرعون وقومه على عنادهم وكفرهم دعا موسى عليهم:

«وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتُكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » (٨٨ – ٨٩).

ولا شك أن كفار قريش قد خافوا من أن يدعو عليهم النبى كما دعا موسى على قوم فرعون.

وتستمر الآيات ٩٠ – ٩٣ تسرد عبور بنى إسرائيل البحر وغرق الفرعون.

نهى عن الشك فى صدق النبى :

تأتى الآيات بهذا النهى فى صورة خطاب موجه إلى النبى مع أن المقصود هم المسلمون:

«فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين. ولا تكونَنَّ من الذين كذَّبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين. إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم» (٩٤ – ٩٧).

وتنصح الآيات المسلمين – إذا ساور بعضهم شك فى نزول الوحى بالقرآن على النبى – أن يسألوا أهل الكتب السماوية السابقة من اليهود والنصارى ليتأكدوا من صدق النبى فيما يخبر به عن ربه ثم تؤكد الآيات أن ما جاءه هو الحق من ربه. وقد تكرر فى القرآن الكريم توجيه الخطاب إلى النبى مع أن المقصود هم المسلمون. كما جاء فى سورة القصص (آية ٨٦ – ٨٨ ص ١٩١) **«ولا تكونن من المشركين. ولا تدع مع الله إلها آخر...»** وهل يعقل أن يكون النبى من المشركين؟ أو أن يدعو مع الله إلها آخر؟ فالمقصود هو حث المسلمين – فى شخص النبى – على تنفيذ الأمر الصادر له.

أمل فى النجاة مثل قوم يونس :

«فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين. ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون» (٩٨ – ١٠٠).

وفى الآيات ترغيب لكفار قريش بأن يؤمنوا حتى يرفع الله عنهم وعده بالعذاب الذى جاء قبل آيتين: **«إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم»**. ثم تدعو الآيات هؤلاء المعاندين النظر إلى مافى السموات والأرض من دلائل تؤكد وحدانية الله. ولكن هذه الآيات على كثرتها لا تفيد الجاحدين. ثم يأتى تساؤل فيه تعجب من تصرفهم ومن غفلتهم: فهل هم ينتظرون أن يصيبهم عذاب مثل الأقوام السابقين حتى يؤمنوا. فإن كانوا يريدون ذلك فلينتظروا والنبى سينتظر أيضا. والله قد وعد – ووعده الحق – بأن ينجى رسله ومن آمنوا بهم:

«قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. فهل

ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين» (١٠١ - ١٠٣).

دعوة للتمسك بالدين :

ويأتى ذلك فى صيغة توجيهات للنبى - والمقصود عامة المسلمين كما سبق أن ذكرنا - وفى الآيات أمر للنبى بأن يقول للمشركين أنهم إذا كانوا يشكون فى صحة الدين الذى بُعث به فليعلموا أنهم مهما تشككوا فيه فلن يعبد الأصنام التى يعبدونها من دون الله ولكنه يتمسك بعبادة الله الذى بيده مصيرهم وهو الذى يتوفاهم. ثم أمر للنبى - وللمسلمين - بالتمسك بالدين الحنيف وألا يلجأوا بالدعاء لغير الله مما لا يملك نفعا ولا ضررا وليعلموا أن ما يصيب المؤمن من أذى فلا كاشف له إلا الله وإن أراد له خيرا فلا أحد يستطيع منعه عنه.ثم إعلان أخير بأن ماجاء به النبى هو الحق فمن شاء أن يهتدى فلنفسه ومن ضل فضلاله عائد عليه والرسول ليس مسئولا عنهم. ثم دعوة للنبى بالثبات على دين الله حتى يقضى الله بينه وبين أعدائه:

«قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين، ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم، قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل، واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» (١٠٤ - ١٠٩).

ثم نزلت **سورة هود :**

وكما سبق أن ذكرنا هى أيضا التالية لسورة يونس فى ترتيب المصحف، ويروى حديث عن أبى بكر قال: سألت رسول الله: ما شيَّبك؟ قال: شيبتى هود وأخواتها وعن أنس" شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت، ويرى الشيخ محمد الغزالى (تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم، ص ١٦٧) أن ما عناه الرسول بهذا الرد كثرة التوجيهات التى تمس شخص الرسول وتتناوله بضمير المخاطب المفرد بين الفينة والفينة كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ. إلا أن الألوسى (تفسيره جـ ١١ ص ٢٠٣) يرى أن السبب أعم من هذا مما عظم أمره على النبى بمقتضى مقامه الرفيع ولذلك لم يسأله أصحابه عن الأمر الذى شيبه منها بل اكتفوا بما قال.

وقد بدأت السورة بالثلاث حروف المقطّعة: ألف لام راء. ثم حديث عن إحكام القرآن الكريم ثم دعوة المشركين لعبادة الله واستغفاره والتوبة إليه وتحذير من عذاب يوم القيامة الذى يرجعون فيه إلى الله القادر على كل شيئ:

«آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. ألا تعبدوا إلاَّ الله إننى لكم منه نذير وبشير. وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير. إلى الله مرجعكم وهو على كل شيئ قدير. ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور» (١ - ٥).

وقد روى أن الآية الأخيرة نزلت فى بعض المشركين الذين كانوا يظهرون الود للنبى وصدورهم مشحونه بالبغضاء له. وبعضهم روى أنها نزلت فى بعض الكفار الذين كانوا يلوون ثيابهم على أنفسهم إذا رأوا النبى مقبلا حتى لا يراهم فيدعوهم إلى الإسلام. وبعضهم قال إن الضمير فى «ليستخفوا منه» عائد إلى الله بدليل ماجاء بعده من نصٍّ على أن الله «يعلم ما يسرون وما يعلنون » فكأنهم يريدون أن يخفوا عن الله مافى صدورهم من بغض للنبى وتكذيب له.

عن قدرة الله :

«وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين. وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلُوَكم أيكم أحسن عملا. ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولَنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين. ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولَن ما يحبسه. ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» (٦ - ٨).

وتبدأ الآيات بتنبيه إلى قدرة الله وتكفُّله برزق كل ما يدب على الأرض وإحاطة علمه بكل شيئ. إذ أن كل ذلك مدون فى اللوح المحفوظ. ثم نصٌّ على أن الله خلق السموات والأرض وأن عرشه كان على الماء. وقد ذكر ذلك أيضا فى التوراة (١ تكوين : ١) فى البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وعلى وجه الغمر (الماء) ظلام وروح الله يرف على وجه الماء. ولا محل ولا طائل من البحث فى الكيفية التى كان بها العرش على الماء فهذا غيب أخبر به القرآن الكريم وعلينا أن نؤمن بحقيقته ولا نبحث فى كيفيته. وقد خلق الله الناس ليختبرهم ليظهر من يُقبل على الله بالطاعة والعمل الحسن. وفى هذا تقرير لحرية الإنسان فى الاختيار بين الهدى والضلال وهو أساس الحساب. ولكن الكافرين عندما أخبرهم النبى أنهم مبعوثون بعد الموت للحساب قالوا إنَّ هذا سحر. ولَّما اقتضت حكمة الله تأخير عذابهم تحدوا مستهزئين وتساءلوا: لماذا لم ينزل؟ وتجيب الآيات أنه حين ينزل بهم - ولن يُخلفهم أو يُصرَف عنهم - سيتأكدون من صدق ما وعدهم به النبى.

بعض طبائع البشر :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير» (٩ - ١٠).

والآيات تذكر نوعا من طبائع البشر وهو التأرجح بين اليأس الشديد إذا أصابته مصيبة والفرح الشديد والفخر إذا أصابته نعمة وينسى الله فى الحالتين فلا يصبر على قضائه ولا يشكر نعماءه ولكن الصابرين الذين يعملون الصالحات لهم ثواب كبير عند الله.

صور من تكذيب الكافرين وتعنتهم:

«فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيئ وكيل. أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون» (١٢ - ١٤).

ولعلَّ تفيد توقع حدوث شيئ ولكنها جاءت هنا لنفى ترك النبى لبعض ما أُنزل عليه. فقد كان النبى يستشعر بعض الضيق حين يطلب الكفار منه - تدليلا على صدق نبوته - أن يُلقى إليه مال يغنيه عن ارتياد الأسواق أو يأتى معه ملك من السماء يؤيده. والآيات تُسرِّى عن النبى بإخباره أنه ما هو إلا نذير والأمر بعد ذلك موكول إلى الله. وإن قالوا إن القرآن من تأليفه فليتحداهم بأن يؤلفوا عشر سور من مثله وليستعينوا بمن يريدون من أساطين اللغة. فإن لم يستجيبوا لهذا التحدى - وهم لن يستجيبوا - فليعلموا أنه أُنزل من عند الله وليُسلموا.

وقد جاء مثل هذا التحدى للكفار فى سور سابقة. ففي سورة الإسراء (آية ٨٨ ص ٢٢٠) كان التحدى للإنس والجن جميعا: **«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»**. وفى سورة يونس كان التحدى لكفار قريش بأن يأتوا بسورة واحدة (الآية ٣٨ ص ٢٣٤): **«قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم»**.

مقارنة بين طالب الدنيا وطالب الآخرة :

وتمضى الآيات فى بيان الاختلاف بين الفريقين عملا وجزاء :

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون. أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة. أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا

يؤمنون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون. أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون. أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ماكانوا يفترون. لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكُّرون» (١٥ - ٢٤).

ثم تذكر الآيات جوانب من قصص عدد من الأنبياء هم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام جميعا.

قصة نوح :

وقد سبق ذكر جوانب من قصته فى سورة الأعراف (آية ٥٩ - ٦٤ ص ١٢١) وفى سورة الشعراء (آية ١٠٥ - ١٢٢ ص ١٧٨) وفى سورة يونس (الآيات ٧١ - ٧٣ ص ٢٣٧). وقد أضافت سورة هود إلى ما سبق ذكره استهزاء الكافرين لما رأوا نوحا يصنع سفينة بهذه الضخامة التى لا يتسع لها النهر. كما أضافت تفاصيل نداء نوح لابنه كى يركب معهم السفينة وكيف رفض الابن نداء أبيه واعتصم بأعالى الجبال فكان من المغرقين ثم تنتهى القصة بقوله تعالى: **«تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين»** (٤٩). وقد أثارت هذه الآية الأخيرة إشكالية لدى المفسرين إذ أن قصة نوح مذكورة فى التوراة التى كانت متداولة بأيدى يهود الجزيرة العربية وكان العرب على علم بها. لذلك رأوا أن ما عنته الآية هو هذه الإضافة الجديدة عن موقف ابن نوح والتى لم تذكر إطلاقا فى التوراة وغير ذلك من تفاصيل أخرى جاء ذكرها فى الجزء الأول (ص ١٠٦ - ١١٠).

قصة عاد قوم هود :

وقد ذكر جانب من هذه القصة فى سورة الأعراف وسورة الشعراء، وذكرت هنا بتفصيل أكثر فاستحقت السورة أن تسمى «سورة هود»:

«وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون. ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرِيَ إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون. وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا (مطرا كثيرا ومتتابعًا) **ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين. قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من**

دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون. إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم. فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيئ حفيظ. ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد. وأُتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. ألا إن عادا كفروا ربهم. ألا بُعدا لعاد قوم هود» (٥٠ – ٦٠).

وقد توسعت الآيات فى ذكر الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو لا يختلف كثيرا عما كان كفار قريش يقولونه للنبى وفى هذا تحذير ضمنى من مصير مثل مصيرهم.

قصــة صــالح وثمود :

وجاءت فى الآيات ٦١ – ٦٨. وقد سبق ذكرها مختصرة أو مفصلة فى سور القمر والشمس والأعراف والشعراء والنمل. وكان ذكرها فى سورة هود مختصراً. وقد أضيف فيها ذكر الإمهال ثلاثة أيام قبل نزول العذاب بعد قتل الناقة: «فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إنَّ ثمودا كفروا ربهم ألا بُعداً لثمود» (٦٥ – ٦٨).

قصــة لــوط :

ثم تمضى الآيات تذكر جانبا من قصة لوط وقد سبق ذكر جوانب منها فى سورة القمر (الآيات ٣٣ – ٤٠ ص ١٠٩) وكان هذا أول ذكر لها فى القرآن الكريم واكتفى بذكر نبذة عن تكذيب قوم لوط له وإنذاره لهم بالعقاب وتماديهم فى معاصيهم فنزل بهم العذاب. وذُكر جانب ثان فى سورة الأعراف (الآيات ٨٠ – ٨٤ ص ١٢٢) وفيها عاب عليهم ماكانوا يمارسونه من رذيلة. وفى سورة الشعراء (الآيات ١٦٠ – ١٧٥ ص ١٧٩) ذُكر تهديدهم له بالإخراج من قريتهم فنجاه الله إلا امرأته. وهو تقريبا ما جاء فى سورة النمل (الآيات ٥٤ – ٥٨ ص ١٨٣). ثم تأتى السورة الحالية – سورة هود – لتذكر تفاصيل عن الرسل الذين أُرسلوا لإنزال العقاب بقوم لوط ومرورهم على إبراهيم لتبشيره بالولد – إسحق ومن ورائه يعقوب – ومحاولة إبراهيم دفع العذاب عن قوم لوط وإبلاغه أن الأمر قد فُرغ منه وأن العذاب غير مردود. ثم تفاصيل عن محاولة قوم لوط الاعتداء على الرسل ظنا منهم أنهم بشر فكان إصرارهم على ذلك إثباتا على سوء طويتهم فاستحقوا نزول العذاب بهم:

«ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ.

فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب. قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيئ عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود. ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يُهرَعون إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم (أى فتزوجوهن) **فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد. قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** (عشيرة تنصره)**. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقِطْع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوَّمة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد»** (٦٩ – ٨٣).

أما عن جدال إبراهيم عن قوم لوط فقد فصلناه فى الجزء الثانى ص ٣٢٤ وملخصه أن الله عز وجل قَبِلَ ضراعة إبراهيم لرد العذاب عن قوم لوط لو وُجد فيها خمسون باراً ثم إن إبراهيم نزل بالعدد خمسا خمسا حتى وصل إلى عدم هلاكهم لو وُجِد فيها عشرةُ بارُون. ولم يكن فيهم حتى مثل هذا العدد فنزل بهم العذاب.

قصــة شعيب وأهل مدين :

وقد سبق ذكر جوانب منها فى سورة الأعراف وسورة الشعراء وجاءت هنا فى سورة هود فى الآيات ٨٤ – ٩٥. والإضافة التى جاءت بها سورة هود هى استنكارهم لترك ماكان يعبد آباؤهم مثلما فعل كفار قريش ورفضهم التزكى ببعض أموالهم وتهديدهم له بالرجم. ووُصف عذابهم بالصيحة فاكتملت صورة العذاب: سحابة استظلوا بها من شدة الحر فنزل منها شرر من نار مصحوبا بصيحة شديدة من السماء ورجفة شديدة فى الأرض فهلكوا من ساعتهم: **«.... وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها. ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود»** (٩٤ – ٩٥).

قصــة موســى :

جاء ذكر سريع لقصة موسى فى الآيات ٩٦ – ٩٩ .

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملإه فاتَّبعوا أمر فرعون وما أمر

فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود. وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود».

ختام لهذا الفصل عن قصص الأنبياء :

ويختم هذا الفصل بقوله تعالى :

«ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيئ لمَّا جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب (هلاك وخسران)**. وكذلك أَخْذُ ربك إذا أَخَذَ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد. إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وما نؤخره إلا لأجل معدود. يوم تأت لا تَكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد. فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاَّ ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ. فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنَّا لَموفُّوهم نصيبهم غير منقوص»** (١٠٠ – ١٠٩).

والآيات تحمل تهديدا للكافرين وإنذاراً لهم بالعذاب فها هى الأمم السابقة منها باق «قائم» والآخر دُمِّر واندثر «حصيد» وتقرير بأن الله لم يظلمهم ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ولم تُفدهم آلهتهم التى عبدوها من دون الله شيئا **«وما زادوهم غير تتبيب»** أى إلا خسارا وضياعا. ولعل فى هذا عبرة لمن يخاف يوم القيامة الذى يؤخره الله لوقت لا يعلمه إلا هو وحده. ثم تشرح الآيات أن الناس فى ذلك اليوم فريقان: فريق شقى خالد فى النار وفريق سعيد فى الجنة خالد فيها أيضا ثوابا من عند الله. ثم تطمين النبى بألا يكون عنده شك فى مصير هؤلاء المشركين من قريش لأنهم سينالون نصيبهم من العذاب لا يُنقص منه شيئ.

نهى عن الاختلاف كبنى إسرائيل :

وقد ضُرب المثل ببنى إسرائيل إذ آتى الله نبيهم موسى التوراة فاختلفوا فيها من بعده حسب أهوائهم وشهواتهم فتفرقوا شيعا وسوف يجازيهم الله حسب أعمالهم فهو خبير بها. ثم يأتى أمر إلى النبى بالتزام الطريق المستقيم هو ومن آمن معه وألاَّ يطغوا ويتفرقوا كالأمم السابقة وألا يركنوا أى يميلوا بصداقة إلى أعداء الله فينزل بهم عذاب لا يستطيع أحد أن ينقذهم منه. ثم حث للنبى والمؤمنين بإقامة الصلاة فى أول النهار وآخره وجزء من الليل لأن الحسنات تمحو أثر السيئات وحث آخر على الصبر على تكذيب الكفار وإيذاءاتهم:

«ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب. وإن كُلاً لَمَّا ليوفِّينَّهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير. فاستقم كما أُمِرت ومن

تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (١١٠ - ١١٥).

وكان ينبغى أن يكون فى هؤلاء الأقوام السابقين فئة ذات عقل ينهون الناس عن الفساد ولكنهم كانوا قلة فلم يستمع الناس لهم وأنجى الله المؤمنين أما الذين ظلموا فقد أجرموا وكان حقا على الله إهلاكهم:

«فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلاَّ قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» (١١٦ - ١١٩).

وقد يبدو أن هناك تعارض بين ماجاء فى هذه الآيات **«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين»** وبين ما جاء فى سورة يونس (الآية ١٩ ص ٢٢١) **«وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا»** فآية سورة يونس تقرر فطرة الله التى فطر الناس عليها قبل تفرقهم، وآية سورة هود تقرير لواقع الناس بعدما اختلفوا وتفرقوا ولو شاء الله لظلوا أمة واحدة كما كانوا ، ولكن اختلاف طبائع البشر جعلهم يختلفون. فريق منهم كفر وسيملأ الله جهنم من هؤلاء المخالفين سواء كانوا من البشر أو من الجن الذين تسببوا فى إغوائهم.

ثم تنتهى السورة ببيان أن ذكر قصص الأنبياء السابقين كان القصد منه تثبيت قلب النبى إذ يعلم أن ما حدث له من تكذيب حدث لمن سبقه من الأنبياء. ثم تأكيد له - وللمؤمنين - بأن ما جاءه هو الحق. يعقب ذلك تهديد للكافرين فى صورة أمر لهم بأن يظلُّوا على موقفهم الرافض والمكذِّب. والنبى والمؤمنون سينتظرون أيضا والمفهوم أن هذا الانتظار هو حتى يحكم الله بين الفريقين. ومن الطبيعى أن الحكم سيكون بإنزال العذاب بالمكذبين فهو المطلع على ما خفى فى السموات والأرض وليس بغافل عما يعملون:

«وكُلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين. وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم (أى ابقوا على حالكم) إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون. ولله غيب السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون» (١٢٠ - ١٢٣).

ثم نزلت **سورة يوسف :**

وهى ثالث السور التى ذكرنا سابقا (ص ٢٢٨) أنها سميت بأسماء ثلاثة من الأنبياء ونزلت بنفس ترتيبها فى المصحف وتبدأ بنفس الأحرف المتقطعة .

«آلر. تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (١ – ٣).

ولعل بعض المسلمين سألوا النبى عن قصة يوسف فنزلت قصته مفصلة فى الآيات ٤ – ١٠٢ وجاء فى الآية ٧: «لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين...» ثم تمضى الآيات تسرد القصة بالتفصيل وتصحح بعض النقاط التى حُرِّفت فى التوراة أو سقطت أو أغفلت. وقد ذكرناها فى الجزء الثالث (ص ٤٣٤ – ٥٢٠) فلا داعى لتكراره.

وتختم السورة بآيات فيها تسرية عن النبى حتى لا يلوم نفسه لأن كثيرا من الكفار لم يؤمنوا بالرغم من أنهم يرون آيات الله فى السموات والأرض ولا يلتفتون إليها. يعقب ذلك تحذير لهم من عذاب الله. ثم تذكرة بالرسل السابقين ومسلك أقوامهم معهم. وهو نفس مسلك قريش مع النبى – ولكن فى النهاية يأتى نصر الله فينَجِّى الذين آمنوا وينزل بالمكذبين عذاب أليم. ثم تختم السورة ببيان أن القصد من سرد قصص الأقوام السابقين هو العبرة والعظة وأن القرآن فيه تصديق لما جاء فى الكتب السماوية السابقة مع ذكر تفاصيل لم تذكر من قبل:

«وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين. وكأيِّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون. قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين. وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون. حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنُجِّىَ من نشاء ولا يرد بأسُنا عن القوم المجرمين. لقد كان فى قصَصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (١٠٢ – ١١١).

بيعة العقبة الأولى :

كان موسم الحج فى السنة الحادية عشرة للمبعث النبوى قد حلَّ موعده وقدم وفد من يثرب به عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وعزموا على الاجتماع برسول الله فلقوه عند العقبة وبايعوه وسميت هذه «**بيعة العقبة الأولى**» ويروى ابن اسحق عن عبادة بن الصامت قوله: بايعنا رسول الله على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نعصيه فى معروف. وأن النبى قال لهم: فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله إن شاء عذَّب وإن شاء غفر. ثم عاد الرجال إلى يثرب وكما سبق أن ذكرنا (ص ٢٢٨) كان مصعب بن عمير قد أقام فى المدينة يفقه المسلمين ويعلمهم أمور دينهم.

انتشار الاسلام فى يثرب :

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير من سادة بنى الأشهل وكلاهما مشرك وسمعا بما يفعل مصعب فأراد أسيد أن ينهاه عما يفعل فسار إليه وأمره أن يكف عن أقواله فقال مصعب لأسيد: أوَ تجلس فتسمع؟ قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس فقرأ عليه مصعب بعضا من القرآن وعرض عليه الإسلام فأشرق وجهه وقال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأسلم ثم انصرف إلى قومه وهم جلوس فى ناديهم. فلما نظر إليه سعد مقبلا قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمته فوالله ما رأيت بأسا. فأراد سعد بن معاذ أن يستوثق فانطلق ومعه أسيد إلى حيث يجلس مصعب وسمع منه القرآن فأسلم هو الآخر وعادا إلى قومهما وقال سعد: يابنى عبد الأشهل. كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا. قال فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلاَّ أسلم. بل إن الاسلام فشا فى يثرب كلها إلا دار بنى واقف إذ ثبَّطهم شيخهم أبو قيس بن الأسلت بتحريض من عبد الله بن أُبىّ بن سلول مع أن أبا قيس كان شاعرا وقوّالا بالحق ومعظّما لله إلا أن عبد الله بن أُبىّ غلبه الرأى.

هجرة أبى سلمة إلى يثرب :

كانت بنو مخزوم قد زادوا من إيذاء أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد وكان قد عاد لتوه من الحبشة. ففكرَّ أن يعود إليها. ولكنه رأى يثرب – وقد أصبح فيها عدد غير قليل من المسلمين – أقرب وأنسب للهجرة من الحبشة. فجهّز بعيره وأركب زوجته عليه وهى من بنى المغيرة ومعها ابنها سلمة. فلما رآه رجال بنى المغيرة قالوا له: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ثم نزعوا خطام البعير من يده وأخذوا زوجته إلى خيامهم فجاء بنو عبد الأسد وقالوا. والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا (زوجها) وتنازعوا الطفل بينهم حتى خلعوا يده ثم أخذوه معهم. فانطلق أبو سلمة وحده إلى يثرب. وكانت أم سلمة تخرج وتجلس فى العراء تبكى زوجها وابنها كل يوم من الصباح حتى المساء. فرقّ لها أهلها وخلُّوا عنها وقالوا لها الحقى بزوجك. وردّ بنو عبد الأسد عليها ابنها فارتحلت بعيرا وسارت إلى يثرب واستدلّت على بيت زوجها فى قباء فقد كان نازلا فى بيت مبشر بن عبد المنذر.

وحذا حذو أبى سلمة ثلاثة آخرون هم: ابن أم مكتوم (الذى نزلت فيه سورة عبس) ثم عمَّار بن ياسر ثم بلال فكان هؤلاء هم أول المهاجرين إلى يثرب.

عـود إلى مكـة :

نترك الآن يثرب والإسلام ينتشر فيها حثيثا وأنصاره يزيدون يوما بعد يوم . ونعود إلى

مكة والنبى يُثبِّت الذين آمنوا ويحاول جهده مع كفار قريش لعلهم يؤمنوا. وفى خلال عام حتى بيعة العقبة الثانية فى موسم الحج التالى نزلت ١٦ سورة هى: الحجر. الأنعام. الصافات. لقمان. سبأ. الزمر. غافر. فصلت. الشورى. الزخرف. الدخان. الجاثية. الأحقاف. الذاريات. الغاشية. وباقى سورة الكهف.

سورة الحجر :

والسورة فيها ردع للكفار وحث على أخذ العبرة مما حلَّ بالأمم السابقة. وفيها إشارة إلى الأنبياء السابقين وتأييد الله ونصره لهم. ثم إشارة إلى آيات الله فى الكون يعقبها سرد لقصة خلق آدم وبدء عداوة إبليس له واستمرار المعركة بين الخير والشر إلى يوم القيامة.

وتبدأ السورة بثلاثة حروف مقطعة هى الألف واللام والراء ثم نصٌ على أن ما يأتى هو قرآن مبين مثلما جاء فى مطلع السور الثلاث السابقة. يتبع ذلك تقرير بأنه سيأتى على الكفار يوم يتمنون فيه لو كانوا قد أسلموا ويندمون على ما كان من تكذيبهم للنبى ثم أمر للنبى بأن يتركهم يأكلون ويشربون ويتمتعون وتُلهيهم الآمال وسوف يعلمون نتيجة أفعالهم فإن هلاك الأمم يأتى فى الأجل الذى يحدده الله لا قبل ولا بعد:

«آلر. تلك آيات الكتاب وقرآن مبين. ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» (١ – ٥).

اتهام النبى بالجنون وطلب الكفار رؤية الملائكة :

«وقالوا يا أيها الذى نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين. ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا منظَرين. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (٦ – ٩).

وقد تكرر نعت الكفار للنبى بأنه مجنون. كما تكرر تحديهم للنبى بطلب الإتيان بالملائكة كدليل على صلته بالله تعالى. كما جاء فى سورة الفرقان (آية ٨ ص ١٣٩) **«لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا»**. وفى سورة هود (آية ١٢ ص ٢٤٢) **«لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك»**. وتنفى الآيات إمكانية الاستجابه لطلبهم هذا لأن نزول الملائكة هو من اختصاص الله تعالى. كما أنه لو استُجيب لطلبهم وأُنزل الملائكة لوجب إهلاك المكذبين ولكن الله يمهلهم لعلهم يتوبون. ثم تأتى آية تنص على أن الله هو الذى أنزل القرآن وسيتولى حفظه. ونحن نعرف الآن كيف تم حفظ القرآن الكريم فى مصحف واحد ورسم واحد وترتيب واحد فى مشارق الأرض ومغاربها فحُفظت آياته من التبديد أو التغيير أو التحريف بزيادة أو نقص. وها نحن قد رأينا اجتراء أصحاب الأهواء فى عهود الفتن والخلافات التى تلت عهد النبى – فوضعوا الأحاديث التى تؤيد

موقفهم واجترأوا فوضعوا التفاسير والروايات لصرف آيات القرآن إلى ما فيه تأييد مذهبهم السياسي. ولو لم يكن القرآن قد جمع في عهد أبي بكر - فلاشك في إصابته ببعض التحريف كما حُرِّفت الأحاديث النبوية. ولكن ذلك كله لم يكن في أذهان المسلمين الأوائل الذين فهموا أن المقصود هو حفظه في صدورهم فاجتهدوا في حفظ ما ينزل من سور القرآن الكريم فور نزول الوحي بها.

إصرار الكفار على كفرهم :

«ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خَلَت سنة الأولين. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» (١٠- ١٥).

بعض مظاهر قدرة الله في الكون :

«ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استَرَق السمعَ فأتبعه شهاب مبين. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيئ موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإن من شيئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقَدَر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين. وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون. ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين. وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم» (١٧ - ٢٥).

ووصف الرياح باللواقح فيه إعجاز علمي. فاللواقح جمع لاقح أي حامل والناقة اللاقح أي الحامل. والرياح اللواقح المحملة بالسحب والمطر وعكسها الريح العقيم أي الجافة وقال ابن كثير (تفسيره . جـ ٢ ص ٥٤٩) الرياح اللواقح أي تلقح السحاب فتدر المطر وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وقد توسع العلماء المعاصرون في هذه المعاني في ضوء ما عرف من أن الرياح تحمل حبوب اللقاح فيتم تلقيح النباتات وتتكون الثمار وكذلك فُهِم مؤخرا أن الرياح تلقح السحاب بنويَّات التكاثف أو الذرات التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكوِّن نقطا دقيقة من الماء تنمو داخل السحب الركامية فتثقل وتنزل مطرا. وهذه النويات مكونة من أملاح متطايرة وما تذروه الرياح من سطح الأرض من أتربة.

كذلك تسجل الآيات أن الإنسان ليس له فضل ولا في استطاعته تخزين الماء في الأرض لأن ذلك من صنع الله بما عرف من أن الماء يتجمع في طبقات الأرض المسامية ويكون تحتها طبقة من الحجارة الصلدة لا تسمح بنفاذ الماء فيتجمع مكونا خزانا مائيا نسترجعه بحفر الآبار.

قصة خلق آدم :

وكان أول ذكر لقصة آدم هو ما جاء في سورة ص (الآيات ٧١ - ٨٥ ص ١١٤) وجاءت

مفصلة وتشمل خلق آدم من طين وأمر الملائكة بالسجود له ورفض إبليس لأمر ربه ومن ثَمَّ فقد طُرِدَ من رحمة الله فتوعد بنى آدم بالغواية وتوعده الله بعذاب جهنم. ثم جاءت سورة الأعراف (الآيات ١١ – ٢٥ ص ١١٦) فأضافت كيف أسكن الله آدم وزوجه فى الجنة وكيف وسوس لهما الشيطان حتى جعلهما يعصيان الله فأُهبطوا إلى الأرض. ثم جاءت سورة طه (الآيات ١١٥ – ١٢٦ ص ١٦٠) وذكرت تحذير الله لآدم من الشيطان لأنه عدو له ولزوجه، ثم ذكرت وسوسة الشيطان له حتى أخرجه من الجنة وأضافت توبة آدم وعفو الله عنه. أما فى سورة الكهف (الآية ٥٠ ص ٢٠٧) وسورة الإسراء (الآية ٦١ ، ٦٥ ص ٢١٧) فقد احتويتا على إشارة سريعة لتوعد إبليس لبنى آدم بالوسوسة والإضلال. وتأتى سورة الحجر الحالية – وفيها آخر ما نزل عن قصة آدم فتذكر القصة كاملة ومتضمنة لجميع النقاط وزادت بأن ذكرت أن الجان خلق من نار.

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون. والجان خلقناه من قبلُ من نار السَمُوم. وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صَلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فَقَعُوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال ياإبليس مالك ألاَّ تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رَب فأنظرنى إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم. قال رَب بما أغويتنى لأزيِّنَنَّ لهم فى الأرض ولأغوينَّهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلَصين. قال هذا صراط علىَّ مستقيم. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (٢٦ – ٤٤).

وقد اكتُفِىَ بما جاء فى سورة الأعراف من إسكان الله لآدم وزوجه فى الجنة فلم يذكر فى سورة الحجر. وقيل عن جهنم **«لها سبعة أبواب»** لكثرة المستحقين لها ولكل باب طائفة تتماثل فى شرورها وتتكافأ مع العذاب الذى يفضى إليه هذا الباب. وعلى العموم فهذا غيب يجب الإيمان به دون التفكير فى كنهه وماهيته. وعلى العموم فالقصد منه تخويف الكفار من أنهم فى صحبة إبليس وسيَلقونَ نفس مصيره وهو الإلقاء فى نار جهنم. وفى مقابل هذه الصورة يجىء تصوير للنعيم الذى يُمتَّع فيه المؤمنون فى الجنة :

«إن المتقين فى جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين. لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمُخرَجين. نبِّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم» (٤٥ – ٥٠).

وهو إعلان من الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه أنه كثير الغفران والعفو والرحمة لمن تاب وعمل صالحا وأن العذاب الذى ينزله بالعصاة الجاحدين هو عذاب أليم حقا.

جوانب من قصص الأنبياء السابقين :

١ – تسرد الآيات من ٥١ – ٧٧ **قصة ضيف إبراهيم** وهم رسل الله الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط وحملوا إليه البشرى بابنه إسحق:

«ونبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه...» وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في الجزء الثاني (ص ٣١٨ – ٣٣٣).

٢ – إشارة خاطفة إلى **قصة شعيب مع أصحاب الأيكة:**

«وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين. فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين» (٧٨ – ٧٩).

وقد سبق ذكر شعيب وقومه – أهل مدين – في سورة الأعراف (الآيات ٨٥ – ٩٣ ص ١٢٢) وفي سورة هود (الآيات ٨٤ – ٩٥ ص ٢٤٥). وهنا في سورة الحجر جاء ذكر سريع لقصته مع أصحاب الأيكة.

٣ – ثم يأتي ذكر سريع **لأصحاب الحِجر** ومنهم اكتسبت السورة اسمها ويُجمع المفسرون على أن أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح وقد جاء ذكرهم في سور القمر والشمس والأعراف والشعراء والنمل وهود وكلها تكمل بعضها بحيث تعطى صورة واضحة عن مسلكهم تجاه نبيهم وتكذيبهم له وما نزل بهم من عذاب.

«ولقد كذَّب أصحاب الحجر المرسلين. وآتيناهم آياتنا (متمثلة في الناقة) **فكانوا عنها مُعرضِين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين. فأخذتهم الصيحة مصبحين. فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون»** (٨٠ – ٨٤).

السبع المثاني :

«وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعةَ لآتية فاصفح الصفح الجميل. إن ربك هو الخلاق العليم. ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم» (٨٥ – ٨٧).

والآيات تأمر النبي بالصفح عن المشركين وذلك بالنسبة للعقاب الدنيوي. واللهُ هو الخالق العظيم وله أمرهم في الآخرة. ثم نصَّ على أن الله قد آتى النبي سبع آيات من القرآن الكريم هي الفاتحة التي تتكرر في كل ركعة في الصلاة وقد ذكرت في صفحة ٥٣. وفي حديث عن أبي هريرة: أم القرآن هي السبع المثاني.

توجيهات للنبي :

أ – **«لا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين. وقل إني أنا النذير المبين. كما أنزلنا على المقتسمين. الذين جعلوا القرآن عِضين. فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون»** (٨٨ – ٩٣).

وفى الآيات أمر للنبى بألا ينظر نظرة تمنٍّ ورغبة إلى ما أعطى الله بعض الكفار من نعم الدنيا وألا يحزن لتكذيبهم وأن يكون رفيقا بالذين آمنوا معه وأن يقول للكافرين إنه نذير مبين. وهو نذير أيضا لأولئك الذين قسَّموا القرآن إلى شعر وكهانة وأساطير فجعلوا القرآن قطعا متفرقة وقيل أيضا قسَّموه إلى حق وباطل. والحق فى نظرهم هو ما وافق التوراة والإنجيل أما ما خالفهما فهو فى عرفهم باطل.. أو الذين وصفوا القرآن بالسحر إذ قالوا العِضة فى لغة قريش السحر. ويروى عن عكرمة أن بعض الكفار كان يقول سورة كذا لى ويقول الآخر سورة كذا لى استهزاء. ويقسم الله بذاته العليَّة ليسألنهم يوم القيامة عن فعلهم هذا.

ب - «**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون**» (٩٤ - ٩٦).

وهو أمر للنبى بأن يستمر فى الدعوة إلى الله ولا يلتفت إلى ما يقوله المشركون أو يفعلونه ولن يستطيع المستهزءون أن يحولوا دون إبلاغه دعوته. وهم قد جعلوا مع الله إلها آخر وسوف يدركون خطأهم.

جـ - «**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**» (٩٧- ٩٩).

وفى الآيات تسرية عن النبى لما كان يصيبه من ألم نفسى بما كان الكفار يقولون عنه واتهامه بالسحر أو الجنون. ولتفريج هذا الضيق فعلى النبى أن يفزع إلى الله ويتجه إليه بالعبادة والسجود والمداومة على عبادة الله حتى يأتيه اليقين أى الموت (تفسير ابن كثير. جـ٢ ص ٥٦٠).

ثم نزلت سورة الأنعام :

وهى إحدى السور السبع الطوال: البقرة. وآل عمران. والنساء. والمائدة. والأنعام. والأعراف. والتوبة. حسب ترتيبها فى المصحف. وهى مدنية ماعدا الأنعام والأعراف. وقد سبق ذكر سورة الأعراف (ص ١١٥ - ١٣١). وسورة الأنعام فيها مواضيع متنوعة:

١ - تنديد بالكفاروخاصة زعمائهم - على مواقف المكابرة والعناد.

٢ - استشهاد باليهود والنصارى على صحة رسالة النبى.

٣ - تقريرات عدة على عظمة الله وقدرته وبديع نواميسه فى الكون.

٤ - صور عن عقائد العرب وتقاليدهم فى الأنعام والحرث والذبائح.

٥ - مجموعة من الوصايا فى التوحيد ومكارم الأخلاق.

والسورة من أمهات السور الجامعة الرائعة وقد روى المفسِّرون أنها نزلت دفعة واحدة وأرفقت بسبعين ألف ملك لخطورة شأنها. والحقيقة أن نزول هذه السورة دفعة واحدة هو فى

حد ذاته معجزة إذ هى تشغل ٣٠ صفحة وكان هذا كفيلا بإقناع قريش أن القرآن ليس من تأليف النبى، ولكنهم - استكباراً وعنادا - ظلُّوا على كفرهم وجحودهم.

ويظهر واضحا فى هذه السورة ما يسميه الفقهاء «أسلوب التلقين» أى تلقين النبى الحُجج والبراهين التى يَرد بها على الكفار إذ تردد لفظ «قل» فى السورة أكثر من ٤٠ مرة.

وتبدأ السورة بحمد الله وذكر بعض مظاهر قدرته:

«الحمد لله الذى خلق السمواتِ والأرضَ وجعل الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (أى يساوونه بما يشركون). **هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون** (تجادلون فى قدرة الله على البعث). **وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون. ألم يروا كم أهلكنا مِن قبلهم مِن قرنٍ مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين»** (١ - ٦).

الكفار يطلبون كتابا مكتوبا :

«ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» (٧).

وقد تكرر طلب المشركين أن ينزل عليهم القرآن فى كتاب يقرأونه حتى يؤمنوا وأشير إلى هذا فى سور عديدة. فقد جاء فى سورة المدثر (آية ٥٢ ص ٧٧) **«بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة»** وفى سورة الإسراء (آية ٩٣ ص ٢٢٠) **«أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه».**

الكفار يطلبون نزول ملَك :

وقد رُفض هذا الطلب أيضا لأنهم لو أجيبوا إلى طلبهم ولم يؤمنوا لوجب هلاكهم والله - رحمة منه بهم - يريد أن يمهلهم ليؤمنوا. كما أن الملائكة أجسام نورانية لا يستطيع البشر رؤيتهم إلا أن يتشكلوا فى صورة ما. ومن البديهى أن يتشكلوا فى صورة رجال وفى هذه الحالة يجب إلباسهم لباسا كما يلبس الناس. وعندئذ يلتبس الأمر عليهم فلا يدرون إن كان ملكا أم بشرا.

«وقالوا لولا أُنزِل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا يُنظَرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون» (٨ - ٩).

والحقيقة أن الكفار تكرر منهم طلب نزول الملائكة كما جاء فى سور سابقة: ففى سورة الفرقان (آية ٧ ص ١٣٩) قالوا: **«لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا»**. وفى سورة الإسراء

(آية ٩٣ ص ٢٢٠) قالوا: **«أو تأتى بالله والملائكة قبيلا»** وفى سورة هود (آية ١٢ ص ٢٤٢) **«أو جاء معه ملك»**. وفى سورة الحجر (آية ٧ ص ٢٥٠) قالوا **«لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين»**.

إذ كلما كانت تنزل آيات القرآن الكريم تفحمهم كانت وسيلتهم للهروب من الموقف هى أن يطلبوا من النبى أن ينزل عليهم ملكا حتى يصدقوه ويؤمنوا به.

تأكيد على وحدانية الله وشمول قدرته :

«ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين. قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم. قل أغير الله أتخذ وليا فاطِرِ السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم. قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين. قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم. من يُصرَف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيئ قدير. وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. قل أى شيئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى. قل لا أشهد. قل إنما هو إله واحد وإننى برئ مما تشركون. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون» (١٠ - ٢٠).

وتنص الآية الأخيرة على أن أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - كانوا يعرفون النبى معرفة يقينية كما يعرفون أبناءهم إذ جاءت البشارات به فى كتبهم ومعنى هذا أنهم يعرفون صدق دعوته وصحة الوحى القرآنى وكان الواجب عليهم الإيمان به واتباعه ولكنهم لم يؤمنوا فقد خسروا أنفسهم. وقد جاء فى سورة الأعراف (الآية ١٥٧ ص ١٢٦) **«الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل»** ويروى المفسرون أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام اليهودى لما أسلم: إن الله قد أنزل على نبيه هذه الآية وتلاها عليه وسأله كيف هذه المعرفة فقال له: عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى وإنى أشهد أنه رسول الله حقا.

حال المشركين فى الآخرة وندمهم على مافات :

«ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته إنه لا يفلح الظالمون. ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول الذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون. ومنهم

من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين. وهم ينهَوْنَ عنه وينئَوْنَ عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون. ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين. ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرَّطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون. وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو والدار الآخرة خير الذين يتقون أفلا تعقلون» (٢١ – ٣٢).

والآيات تقرر أنه ليس أحد أظلم ممن كذب على الله فادَّعى أنَّ له شركاء ثم تحذر الآيات المشركين من أن الله سيحشرهم إليه يوم القيامة ويسألهم عن الشركاء الذين ادَّعوهم فيسقط فى أيديهم ويأخذون يحلفون الأيمان على أنهم لم يكونوا مشركين وهكذا فإنهم يُكذِّبون أنفسهم محاولين التنصل من جريمتهم كما أن الشركاء سيتهرَّبون منهم. ثم تذكر الآيات حال المشركين فى الدنيا وما كان منهم حينما يستمعون إلى النبى وهو يتلو القرآن فيعرضون عنه وكأنهم قد جعلوا غشاوة على قلوبهم أو صمما فى آذانهم فلا يسمعونه فلم يؤمنوا وحتى لو جاءتهم آيات ومعجزات فلن يؤمنوا وسيدَّعون أنها أساطير الأقدمين. وهم بهذا يهلكون أنفسهم دون أن يدروا . ثم تذكر الآيات حالهم حينما يوقفون على النار ويتيقنون من مصيرهم الرهيب فيتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم فلا يكذبون بآيات الله ويكونوا من المؤمنين ولو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى ارتكاب ما نهوا عنه من كفر ومعاص لأنهم إنما يتصرفون بنيَّة خبيثة وطوية فاسدة. ويسألهم المولى عز وجل عما أنكروه فى الدنيا من بعث وآخرة فيقرُّون بخطئهم فيأمرهم بأن يذوقوا العذاب جزاء لهم على كفرهم. وحينئذ يندمون على إضاعتهم فرصة الحياة الدنيا فلم يؤمنوا وغفلوا عن الآخرة مع أن الحياة الدنيا تشبه اللعب فأمدُها قصير ومتعتها فانية.

تسرية عن النبى :

وآيات الفقرة موجهة إلى النبى تسرى عنه حتى لا يحزن من تكذيب الكافرين واتهامهم له بأنه شاعر أو مجنون أو ساحر ويخبره الله أن الكفار فى قرارة أنفسهم لا يكذبونه ويعرفون أن آيات الله حق ولكنهم يجحدونها حسداً وعنادا ومكابرة. وهذا التكذيب حدث مع الرسل قبله. وأنه حتى لو فعل المستحيل بمعجزة مادية – فمثلا لو حفر نفقا فى الأرض أو وضع سلَّما إلى السماء وصعد ليأتيهم بآية – فلن يؤمنوا فالذين يستجيبون هم الذين يسمعون أما الكفار فهم كالموتى لا يسمعون ولن يؤمنوا وسيبعثهم الله يوم القيامة ويجازيهم بما يستحقون:

«قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون. فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مُبدِّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين. وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلَّما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون. والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون. وقالوا لولا نزِّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٣٣ – ٣٧).

قدرة الله :

«وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرَّطنا فى الكتاب من شيئ ثم إلى ربهم يحشرون. والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشإ الله يُضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم. قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين. بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون» (٣٨ – ٤١).

وفى الآيتين الأخيرتين سؤال موجَّه إلى الكافرين عمَّن يدعون فى الشدة. ثم يأتى الجواب أنهم ينسون ما يشركون ويدعون الله. وتستمر الآيات فتقول:

«ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيئ حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (يائسون ومحبطون) فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» (٤٢– ٤٥).

وفى الآيات تذكير بما كان من أمر الأمم السابقة. فقد أرسل الله إليهم رسله بالبينات فلم يؤمنوا فأخذهم الله بشيئ من الشدة فلم يتعظوا وظلوا سادرين فى غيهم متساقين إلى غواية الشيطان الذى زين لهم أعمالهم.وزاد الله من امتحانهم بأن يسَّر لهم كل أسباب التمتع الدنيوى ففرحوا ولم يشكروا الله وزادوا بعداً عنه وانصرافا عن رسله ففاجأهم الله بعذابه وأهلكهم.

إقامة الحجة على الكفار :

وتستمر الآيات ويتوجه الخطاب إلى الكفار ثانية :

«قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به. انظر كيف نُصرِّف الآيات ثم هم يصدفون. قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يُهلك إلا القوم الظالمون. وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يمسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون. قل لا أقول لكم

عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى مَلَك إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون» (٤٦ - ٥٠).

ولاشك أن الكفار حينما سمعوا هذه الآيات أيقنوا صدقها. فلو أصابهم صنم أو عمى فلن تستطيع أصنامهم أن ترد عليهم سمعهم ولا أبصارهم. وتذكر الآيات أن الرسل ماهم إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن فهو آمِنٌ من العذاب ومن كذَّب سيصيبه العذاب. ثم أمر النبى بأن يخبرهم بأنه بشر مثلهم وليس مَلَكا ولا يعلم الغيب ولكنه يتبع ما يوحى إليه من ربه. وقد سبق ورود هذا المعنى فى سورة الأعراف (الآية ١٨٨ - ص ١٢٩): «**قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**». وتكرر فى سورة يونس (الآية ١٥ ص ٢٢٠) «**إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ...**» مما يدل على أن الكفار ما فتئوا يتعنتون فى طلباتهم من النبى.

لمن الوعظ والإرشاد :

ثم تستمر الآيات تقول :

«**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون. ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه. ما عليك من حسابهم من شيئ وما من حسابك عليهم من شيئ فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم. وكذلك نفصلُ الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**» (٥١ - ٥٥).

وقد روى المفسرون أن زعماء الكفار كانوا إذا مروا بالنبى وحوله فقراء المسلمين سخروا وقالوا أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم من بيننا فهداهم ويجعلون من ذلك حجة حتى لا يؤمنوا. وفى بعض الروايات أنهم طلبوا من النبى أن يطردهم إذا جلسوا إليه حتى لا يكونوا فى مستوى واحد مع هؤلاء الفقراء. ومضمون الآيات يوحى بأن هذا كان يحز فى نفس النبى بعض الشيئ وقد يجعله يتشاغل عن هذه الطبقة أملا فى اهتداء زعماء الكفر فكان التنبيه «**ولا تطرد..**». كما سبق أن عوتب على مثل هذا الموقف فى سورة عبس. (آية ١ ص ٨٥) «**عبس وتولى أن جاءه الأعمى...**» وكذلك جاء فى سورة الكهف (آية ٢٨ ص ٢٠٥) «**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم**» مما يدل على أن هذا الأمر كان مما يكثر زعماء الكفار طلبه من النبى.

ردود على بعض طلبات الكفار :

«**قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا**

من المهتدين. قل إنىٌ على بيٌنة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا الله يقصُ الحق وهو خير الفاصلين. قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين» (٥٦ – ٥٨).

لا يعلم الغيب إلا الله :

«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين. وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم (اقترفتم) **بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطون. ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين»** (٥٩ – ٦٢).

والآيات تقرر أن جميع أمور الغيب لا يعلمها إلا الله وحده. وقد أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة فى السموات والأرض والبر والبحر. وهو الذى يملك الأنفس فى نومها ويعلم ما كسبت فى النهار ويمدهم بأسباب الحياة وعندما تنتهى آجالهم يُتَوفون ثم يُبعثون للحساب.

ويرى أحد العلماء المعاصرين (د. صبرى الدمرداش. الأخبار ٢٠٠١/١١/١٦) أن كلمتى البر والبحر جاء ذكرهما فى القرآن الكريم مرات عديدة: البر ١٣ مرة والبحر ٣٢ مرة والنسبة بينهما هى ٢,٤٦:١. ولما كان البر يشغل ٢٨,٩٪ من مساحة الكرة الأرضية البالغ مساحتها ٥١٠ مليون كم٢ والبحر ٧١,١٪ من مساحتها والنسبة بين المساحتين هى أيضا ٢,٤٦:١ أى نفس نسبة ذكرهما فى القرآن الكريم. ويراها مفارقة تستحق الإشادة والتسجيل.

من رحمة الله بالعباد :

وتستمر الآيات لتسرد جانبا من قدرة الله تعالى ورحمته بالعباد ومع ذلك فإن الكفار يجحدون نعمة الله:

قل من يُنَجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله يُنَجِّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون. قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا (أى يلتبس عليهم الأمر فيصبحون شيعاً يعادى بعضهم بعضا) **ويذيق بعضكم بأس بعض. انظر كيف نصرِّف الآيات لعلهم يفقهون. وكذَّب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل. لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون»** (٦٣– ٦٧).

أمر بترك مجالس الطعن فى القرآن :

والأمر موجَّه للنبى والمقصود المسلمون كافة، إذ كثيرا ماكانوا يمرون على الكفار فى

مجالسهم فيشاركونهم فيها، بحكم الصداقة أو القرابة. وفى الآيات نهى عن مجالسة الكفار حينما يخوضون بالباطل فى آيات الله ويجادلون فيها لمجرد التكذيب والاستهزاء. وإذا فرض وكانوا فى مجلس من مجالسهم وبدأ الكفار يديرون الحديث على هذا النحو فعليهم ترك مجلسهم حتى لا يتحملوا وزر الكفار فى خوضهم. ثم أمر ثانٍ للنبى بألا يهتم بالذين غرتهم الحياة الدنيا وما تيسر لهم فيها من مال وقوة ورغد عيش وعليه أن يُذكِّرهم بآيات القرآن حتى يؤمنوا ولا يهلكوا ولن يكون لهم شفيع من دون الله ولا يؤخذ منهم فدية مهما عظمت ولهم عذاب عظيم:

«وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره. وإما يُنسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين. وما على الذين يتقون من حسابهم من شيئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون. وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرَّتهم الحياة الدنيا وذكِّرْ به أن تبسل (تهلك) **نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل** (أى تقدم أى فدية ولو عَظُمت) **لا يؤخذ منها. أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون»** (٦٨ - ٧٠).

وقد سبق التنبيه إلى أن هذه المجالس التى يخوض فيها المتكلمون بالباطل هى سبب من أسباب الإلقاء فى النار كما جاء فى سورة المدثر (آية ٤٥ ص ٧٧): **«وكنا نخوض مع الخائضين»**.

تسفيه عبادة غير الله :

ثم تمضى الآيات تطلب من النبى أن يستنكر عبادة غير الله:

«قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين. وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون. وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير» (٧١ - ٧٣).

وفى الآيات أمر للنبى بسؤال الكفار بلهجة استنكارية عما إذا كان من العقل أو المنطق أن يدعو هو والمسلمون أحداً غير الله - مما لا يملك جلب نفع ولا رفع ضرر ويرتدُّوا ضالين بعد إذ هداهم الله فيكون مثلهم فى ذلك مثل ما كان العرب يعتقدونه من أن الجن إذا رأوا إنسانا يسير وحده فى القفر ينادونه فيتبعهم ويُضلُّونه الطريق وله رفاق مهتدون يحاولون تخليصه من الضلال قائلين له إرجع إلينا وإلى الطريق الصحيح. وأمر ثان للنبى بأن يخبرهم بأن هدى الله هو الهدى الحق. يتبع ذلك دعوة إلى عبادة الله فإليه يُحشر الناس جميعا فهو خالق السموات والأرض وله مطلق القدرة والمشيئة وهو مالك يوم القيامة وعلمه محيط بالغيب والحاضر المشاهد «الشهادة».

جانب من قصة إبراهيم مع قومه :

وقصة إبراهيم عليه السلام مع قومه من أكثر القصص ذكرا فى القرآن الكريم فقد ورد اسم إبراهيم فى القرآن ٦٩ مرة وذُكرت جوانب من قصته فى ٣ سور سابقة: سورة مريم (الآيات ٤١ - ٥٠ ص ١٥٢) وفيها مناشدة إبراهيم لأبيه ليؤمن وتهديد والده له بالرجم ووعد إبراهيم بالاستغفار له واعتزاله له ولقومه. ثم فى سورة الشعراء (الآيات ٦٩ - ٨٩ ص ١٧٦) وكان التركيز فيها على تسفيه عبادة الأصنام وتوضيح أنها لا تسمع ولا تضر ولا تنفع. أما سورة هود (الآيات ٦٩ - ٧٦ ص ٢٤٥) فقد ذَكَرت رسل هلاك قوم لوط ومرورهم بإبراهيم. وفى سورة الأنعام الحالية ذكر اسمٍ آزر على أنه اسم والد إبراهيم. وكذلك ذُكرت مسايرته لقومه فى تصوراتهم عن الإله والتدرج بهم حتى وصل بهم إلى النتيجة التى كان يهدف إليها منذ البداية وهى بطلان ربوبية ما كانوا يعبدونه من كواكب ونجوم وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى ص ٢١٧ و ٢٢٦:

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين. وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برئ مما تشركون. إنى وجهت وجهِىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. وحاجَّه قومه قال أتحاجُّونِّى فى الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيئ علما أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم يُنَزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يَلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم» (٧١ - ٨٣).

ولاشك أن الآيات فيها كثير ينطبق على كفار قريش. فى اتخاذ الأصنام آلهة أو عبادة بعضهم للكواكب مثل الشعرى. وكان الكفار يخوفون النبى من أن آلهتهم قد تصيبه بسوء فردت عليهم الآيات بأنهم هم الأحق بالخوف من الله لإشراكهم به. وأن الأحق بالأمن هم الذين آمنوا ولم يخالطوا إيمانهم بشرك وهؤلاء لهم الدرجات الرفيعة عند ربهم.

أسماء ١٧ نبيا :

ثم فى آيتين يأتى ذكر ١٧ نبيا ويُذكر أن الله اختارهم وهداهم إلى صراطه المستقيم ليقوموا بهداية العباد :

«ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلاً هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب

ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين. (٨٤ - ٩٠).

ولصلة العرب بإبراهيم وافتخارهم بأنهم من نسله فإنهم أكثر استماعًا لكل ما يتعلق به وأكثر تجاوبا لما يروى عنه. وتُبيِّن الآيات أن جميع الأنبياء التالين له هم من نسله وهذا مصداق لقوله تعالى: «إنى جاعلك للناس إماما» (من الآية ٢٧ - العنكبوت). ويلاحظ أن ذكر الأنبياء لم يتبع الترتيب الزمنى بينهم. إذ أن القرآن ليس كتاب تاريخ يلتزم بتتابع زمنى بل هو كتاب عظة وإيمان.

إنكار أهل الكتاب لرسالة النبى :

ثم تمض الآيات تروى الحجة التى كثيرا ما أثارها كفار قريش بإدعائهم أن القرآن من تأليف النبى وأن الله لم يُنزل عليه الوحى. وقد جاراهم فى موقفهم هذا بعض أحبار اليهود وترد عليهم الآيات بقوة مؤكدة نزول الوحى بالقرآن على النبى كما أنزلت التوراة على موسى:

«وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيئ. قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلِّمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدقُ الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله. ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون. ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم (أعطيناكم) وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطَّع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون» (٩١- ٩٤).

وتروى الروايات أن النضر بن الحارث قال إنه يستطيع أن يأتى بمثل القرآن وأنه فى هذه الحالة يكون قد أوحى إليه فنزلت هذه الآيات. ثم تنذرهم الآيات جزاء افترائهم على الله بعذاب عند الموت وأرواحهم تنزع منهم فى قسوة وعنف ويقال لهم وقتئذ إن مجازاتهم بالعذاب المذل هى الجزاء على ماكانوا يقولونه على الله وجزاء استكبارهم عن النظر فى آياته والتدبر فيها. وفى الآخرة لن ينجدهم الشركاء الذين عبدوهم من دون الله.

مظاهر من قدرة الله :

وفي مقابل عجز الشركاء الذي وقفت عنده الآية السابقة يجئ تنويه بمظاهر قدرة الله في السموات والأرض:

«إن الله فالق الحب (البذور تُخرِج النبات) **والنوى** (ليخرج النخيل) **يخرج الحيَّ من الميت ومخرج الميتِ من الحي ذلكم الله فأنَّى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيئ فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حبا متراكبا** (مرتب في سنابل صفا فوق صف). **ومن النخل من طلعها قنوان** (قطوف أو ما نسميه سباطة) **دانية** (مدلاَّة) **وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها** (في الشكل) **وغير متشابه** (في الطعم). **انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه** (نضجه) **إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»** (٩٥- ٩٩).

وقد سبق أن جاء هذا المعنى – إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي – في سورة يونس (الآية ٣١ ص ٢٣٣). ويقول العلماء المعاصرون إن بذور النبات تبدو لنا وكأنها ميته وقد تختزن لعدة سنوات أو آلاف السنين كالتي وجدت في مقابر قدماء المصريين، ولما وضعت في الأرض ورويت بالماء دبت فيها الحياة وأنبتت. أما إخراج الميت من الحي فهو موت كل شيئ: النبات والحيوان وتتحلل أجسامها إلى مركبات بسيطة ليس فيها حياة، ودورة الحياة والموت هذه من المعجزات الكبرى في الكون (المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٧٥ و ١٨٨).

التنديد بالشرك بالله :

ثم تأتي آيات موجَّهة إلى الكفار تندد باتخاذهم شركاء من دون الله بالرغم مما وضح لهم من مظاهر قدرته. فالله هو خالق السموات والأرض ولا ينبغي أن يكون له ولد أو زوجة. وهو خالق كل شيئ ولا يمكن رؤيته. ثم يأتي أمر للنبي باتباع مايوحي إليه من ربه وأن يعرض عن المشركين ولا يهتم بهم فهو ليس مسئولا عنهم آمنوا أم لم يؤمنوا:

«وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له (أي اختلقوا له) **بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيئ وهو بكل شيئ عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيئ فاعبدوه وهو على كل شيئ وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ. وكذلك نصرِّف الآيات وليقولوا**

درست ولنبينه لقوم يعلمون. اتبع ما أُوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين. ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل» (١٠٠ – ١٠٧).

نهى المسلمين عن سب الكفار :

وذلك حتى لا يرد الكفار فيسبوا الله سبحانه وتعالى :

«ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدوا بغير علم. كذلك زيَّنَّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون» (١٠٨).

كثرة جدال الكافرين :

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنُنَّ بها. قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيئ قُبُلا ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون. وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. ولتصغى (أى تميل) **إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضَوْه وليقترفوا ما هم مقترفون»** (١٠٩ – ١١٣).

والآيات تصف موقف جدل بين النبى والكفار إذ وعدوا بالإيمان لو جاءهم بآية أى معجزة مادية وجاء فى رواية أنهم طلبوا منه أن يجعل جبل الصفا ذهبا وجاء الرد برفض الإتيان بآية حيث أن موقفهم كان موقف مكابرة وليس موقف رغبة صادقة فى الاقتناع ثم الإيمان ومن ثم فلو أنزل الله عليهم الملائكة أو أحيا لهم الموتى ليكلموهم ولبَّى لهم كل ما يطلبون فرأوه عيانا ماثلا أمامهم **«كل شيئ قبلا»** لما آمنوا لأنهم حينئذ سيتهمون أنفسهم بتوهم الخيالات فيمتلك الشك قلوبهم **«نقلب أفئدتهم وأبصارهم»** فلا يؤمنوا .كما أن الإيمان مرتبط بمشيئة الله. وبما أن أكثرهم مكذبون **«يجهلون»** فهم غير مستحقى الإيمان. وسنة الله أن أعداء الأنبياء هم عتاة الإنس وعتاة الجن الذين يشابهون الشياطين فى طغيانهم ويوسوس بعضهم لبعض بكلام مزخرف مُمَوه لا حقيقة فيه فيغتر به من هم على شاكلتهم ويتبعونهم. وكل ذلك بتقدير الله ومشيئته ولو شاء الله ما فعلوه. ولكنه اختبار من الله ليستمع إليه المنكرون للبعث وليرضوا به ويقترفوا آثامهم التى سيجازون عليها.

سبيـل الله :

كان بعض كفار قريش يطلبون الاحتكام إلى أحبار اليهود ليفصلوا بينهم وبين النبى والآيات تندد بهذا التفكير وتستنكر أن يحتكم النبى لغير الله. ويكفى أن الله أنزل القرآن

مفصلا ليكون حجة عليهم. وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من الله وإن كانوا يخبرون كفار قريش بغير ذلك:

«أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مُفصلا. والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين. وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتَّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (أى يكذبون). **إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين»** (١١٤ - ١١٧).

استنكار بعض ما حرَّم العرب من الذبائح :

وكان العرب فى الجاهلية يحرِّمون بعض الأنعام ويحرمون ذبح ولدها فنزلت هذه الآيات تستنكر هذه المعتقدات وتعلن أنه يكفى أن يذكر اسم الله عند الذبح لتكون لحومها حلالاً. وهذا التحريم الذى ابتدعوه هو من الفسق الذى أوحت به الشياطين إلى الكفار ليجادلوا المؤمنين والله أعلم بأنهم معتدون:

«فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين. وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصَّل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه. وإن كثيرا ليضِلُّون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين. وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون. ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق. وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» (١١٨ - ١٢١).

مثال الهدى والضلال :

فى هذه الآية يضرب الله مثالا للهدى والضلال. فمن كان فى الضلال فهو كالميت وهداية الله له هى إحياء له ويصبح إيمانه كنور ينير له الطريق. وفى مقابله شخص آخر كفر فكأنه يسير فى الظلمات يتخبط فلا يخرج منها ويظن أنه يعمل الصالحات:

«أوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيِّن للكافرين ماكانوا يعملون» (١٢٢).

من هم الضالون :

وسنة الله هى أن سادات القرى هم الذين يكذِّبون رسله ويقول بعض المفسرين إن الآيات نزلت بمناسبة قول الوليد بن المغيرة للنبى: لو كانت نبوة حقا لكنتُ أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر مالا. وقد سبق أن ذكر فى سورة ص (الآية ٨ ص ١١١) **«أأنزل عليه الذكر من بيننا»** مما يدل على أن كفار قريش كانوا دائمى ترديد هذا القول كسبب من أسباب عدم

إيمانهم. وتقرر الآيات أن هؤلاء المعاندين سينالهم ذلة فى الدنيا وعذاب فى الآخرة. والهداية فضل من الله فمن يرد الله أن يهديه يتسع صدره للإيمان ومن يكتب عليه الضلال يجعله يضيق بما يسمع من آيات الله:

«وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها (يصدون عن الإيمان) وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون. وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته. سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعّد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون. وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكّرون. لهم دار السلام (هى الجنة) عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون» (١٢٣ - ١٢٧).

ويرى بعض العلماء المعاصرين فى وصف شعور من يصعد فى السماء بضيق الصدر إعجازا علميا إذ لم يعرف إلا مؤخرا أن الأوكسجين اللازم للحياة يقل كلما ارتفع الإنسان فى الجو وينتابه شعور بضيق الصدر والاختناق لذلك فإن طاقم الطائرات الحربية التى تطير فى طبقات الجو العليا يستعملون أقنعة تزودهم بالأوكسجين اللازم.

الكفار يشهدون على أنفسهم يوم القيامة :

فى هذه الفقرة تصف الآيات موقفا من مشاهد يوم القيامة إذ يُوجِّه الله الخطاب إلى الجن منددا بهم لكثرة ما أضلوا من الإنس ويجيب الضالون من الإنس على سبيل الاعتذار بأن كلا من الطرفين قد انخدع بالآخر واستمتع به غافلا عن المصير. ثم يوجِّه الخطاب إلى الإنس والجن معا منددا بتكذيبهم رسل الله وبإنكارهم ليوم الحشر ويشهدون على خطئهم:

«ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجّلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها إلاَّ ماشاء الله إن ربك حكيم عليم. وكذلك نُوَلى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون. يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا. قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون. ولكلٍّ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون. وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين. إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين. قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» (١٢٨ - ١٣٥).

والآيتان الأخيرتان فيهما إنذار قوى بأسلوب نافذ وتهديد بعذابٍ ما المكذبين مما من شأنه أن يبث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بأنهم على الحق وأنهم فى النهاية هم الفائزون.

بعض عادات العرب فى الأنعام :

«**وجعلوا لله مما ذرأ** (خلق) **من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون. وكذلك زيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤُهم ليُردوهم** (ليوقعوهم فى الإثم) **وليلبسوا عليهم دينهم** (ليشوِّشوا عقيدتهم) **ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون. وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** (أى محجوزة) **لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حُرِّمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون. وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومُحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين**» (١٣٦ - ١٤٠).

والآيات تشرح بعض العادات والتقاليد التى كان العرب يمارسونها ويصبغونها بصبغة دينية. فقد كانوا يَنذُرون شيئا من أنعامهم وزروعهم لله تعالى وشيئا للشركاء الذين كانوا يعبدونها. وكانوا يحابون بين قسم الله وقسم الشركاء فإذا ظهر أن الأول أكثر نتاجا أو غلَّة بدَّلوا فى التقسيم ليكون الكثير من نصيب الشركاء. وكان بعضهم يقتل أولاده - بوسوسة الشيطان - تقرُّبا للأصنام. وكانوا ينذرون تحريم أكل بعض الأنعام وغلات الزرع على أناس دون أناس ويَنذُرون تحريم ركوب بعض الأنعام وتحميلها أى حرَّموا ظهورها ولا يذكرون اسم الله على ما يذبحونه. وكانوا يَنذُرون بعض مافى بطون أنعامهم للذكور دون الإناث هذا إذا وُلِد حيا. فإن كان ميتا يشركون فيه الإناث. ويظنون أنهم - بهذه الممارسات - إنما يتقربون إلى الله. وقد نعت الآيات عليهم هذه الممارسات التى يفعلونها بجهلهم ويحرِّمون أشياء أحلها الله.

بعض ما أحل الله :

ثم تمضى الآيات تنوِّه بما خلق الله للناس ويسَّر منافعه لهم من الأنعام والزروع وحثهم على إفراز ما يُتصدَّق به لأنه حق الفقراء:

«**وهو الذى أنشأ جنات معروشات** (مثل أشجار العنب) **وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه. كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. ومن الأنعام حَمولة** (لحمل المتاع) **وفَرشا** (للذبح واتخاذ الفرش من أوبارها وجلدها) **كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**» (١٤١ - ١٤٢).

تنديد ببعض ما حرَّم المشركون :

ثم تمضى الآيات تندد بما كان المشركون يحرمونه أو يحلُّونه من الأنعام ويدَّعون أن ذلك من الدين:

«ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبِّئونى بعلم إن كنتم صادقين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين. أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين. قل لا أجد فى ما أوحى إلىَّ محرما على طاعم يَطعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس (أى حرام) **أو فسقا أهل لغير الله به** (ما ذبح قربانا لغير الله) **فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم»** (١٤٣ - ١٤٥).

وقبل الدخول فى معنى الآيات يجب توضيح معنى الأزواج فالفرد لحدته يكون واحدا وحينما يكون معه فرد آخر من الجنس المقابل يسمى كل منهما زوجًا. فرجل وامرأة: هو زوج وهى زوجة (أو زوج) وهما زوجان ويقال زوجان سعيدان مثلا وعلى ذلك فإن «ثمانية أزواج» الواردة فى الآية هى: زوجان من الضأن أى ذكر وأنثى من الضأن ومن المعز اثنان ومن الإبل اثنان ومن البقر اثنان فالثمانية أزواج عبارة عن أربعة ذكور وأربع إناث. ثم أوضحت الآيات أن الله أوحى إلى نبيه بتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما لم يذكر اسم الله عليه. ولكنه أباح للمضطر أكلها بمقدار ما يدفع الضرر وحفظا لحياته.

ما حُرِّم على اليهودِ من الأنعام :

«وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذى ظُفُر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شُحومَهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون. فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين» (١٤٦ - ١٤٧).

فقد حرَّم الله على اليهود أكل اللحم والشحم من كل ماله ظفر من الحيوانات. والإبل لها ظفر فهى محرَّمة عليهم. وحرَّم عليهم من البقر والغنم شحومهما فقط إلا الشحوم التى توجد على ظهرها أو التى توجد على الأمعاء (الحوايا) أو ما اختلط بعظم مثل إلية الغنم. وكان هذا التحريم عقابا لهم على ظلمهم وكان هذا صدقا وعدلا فى معاملتهم. فإن كذبوا فالله ذو رحمة واسعة تسع من أطاعه ومن عصاه أيضا فلا يعجِّل لهم بالعقوبة ولكن لا ينبغى لهم أن يغتروا بسعة رحمته لأن عذابه لابد واقع بالمجرمين.

اعتذار المشركين بمشيئة الله :

«سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيئ كذلك كذَّب

الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلاَّ تخرصون. قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين. قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذَّبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون» (١٤٨ - ١٥٠).

والآيات تحكي ما يمكن أن يقوله المشركون إذ سيعمدون إلى المداورة فيقولون إن كل شيئ مرتهن بمشيئة الله وأن ما حرَّمه آباؤهم كان الله قد حرَّمه عليهم وتتحداهم الآيات بإظهار صحة دعواهم هذه وأنهم إنما يتبعون الظن وأنهم كاذبون. ثم يُدعون إلى الإتيان بشهداء يشهدون بصحة قولهم. وحتى لو جاءوا بشهداء زور شهدوا معهم فقد أُمر النبي بعدم اتباعهم في أقوالهم الكاذبة وفي أهوائهم فهم لا يؤمنون بالآخرة ويساوون الله بغيره من المخلوقات **«بربهم يعدلون»**.

بعض ماحُرِّم على المسلمين :

ثم تمضي الآيات تبين بعض ما حُرِّم في الإسلام. وقد شبهها البعض بالوصايا العشر في التوراة:

«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

١ - «ألا تشركوا به شيئا .

٢ - «وبالوالدين إحسانا .

٣ - «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم .

٤ - «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٥ - «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

٦ - «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده .

٧ - «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكلِّف نفسا إلا وسعها .

٨ - «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (نهى عن شهادة الزور)

٩ - وبعهد الله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون .

١٠ - «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» (١٥١ - ١٥٣).

وقد ورد في سورة الإسراء (الآيات ٢٢ - ٣٨ ص ٢١٢) ثلاث عشرة وصية وقد ادعى بعض المستشرقين وجود تعارض بين ما جاء هنا **«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم»** وبين ما جاء في سورة الإسراء **«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم»** إذ الأولى **«نحن نرزقكم وإياهم»** والثانية **«نحن نرزقهم وإياكم»** وقد أوضح الشيخ محمد متولي الشعراوي في أحد أحاديثه سبب هذا الاختلاف اللفظي بين الآيتين فواحدة تنهى عن القتل

خشية الإملاق أى أن العائلة تجد رزقها ولكنها تخاف أن يكون المولود الجديد سببا فى إملاقها فكان التطمين بأن الله سيؤتى هذا المولود رزقه ويزيده ليعم الأبوين أيضا. «**نحن نرزقهم وإياكم**» أما الآية الثانية فتقرر أن الإملاق واقع فعلا ولا تجد العائلة ما يكفيها وجاءها المولود الجديد فكان المنطق أن يُطمئن الوالدان أن المولود سيكون سببا فى رزق سيأتى للعائلة كلها لإزالة الإملاق الواقع ثم يزيد ليشمل المولود «**نحن نرزقكم وإياهم**».

ضرب المثل بالتوراة :

ثم تمضى الآيات تقرر بأن الله قد آتى موسى الكتاب أى التوراة فيها تفصيل كل شيئ ثم تقرر أن القرآن مبارك ثم دعوة للمشركين باتباعه حتى لا يحتجوا بأن الكتب السابقة – التوراة والإنجيل – أنزلت على طائفتين – اليهود والنصارى – ولم تنزل لهم، وأنها كانت بلسان غير لسانهم فلم يفهموها وأنهم لو أنزل عليهم كتاب لكانوا أكثر إيمانا به من اليهود والنصارى. ويُرَدُّ عليهم بأن القرآن قد أنزل عليهم وبلسانهم ولكنهم لم يؤمنوا به:

«**ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنَّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم. فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذَّب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون**» (١٥٤–١٥٧).

وهذا يشبه ما جاء فى سورة فاطر (الآية ٤٢ ص ١٥٢) عن قولهم: «**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا**».

ماذا ينتظر المشركون كى يؤمنوا ؟

«**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتِىَ ربك أو يأتِىَ بعض آيات ربك. يوم يأتِى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون. إن الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيئ (لست مسئولا عنهم) إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون. من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**» (١٥٨ – ١٦٠).

وفى الآيات سؤال استنكارى عما ينتظره الكفار بعدما جاءتهم بينة من الله: رسوله وكتابٌ فيه الهدى. هل ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم الله عز وجل بنفسه، أو تأتيهم معجزة مادية صارخة تجبرهم على الإيمان. وقد سبق أن جاء فى سورة الشعراء (الآية ٤ ص ١٧٥): «**إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**». ولكن الله يريد الناس أن يأتوا إليه مختارين ومؤمنين بالغيب الذى أخبرهم به على لسان أنبيائه. كذلك فإن تأخير

الإيمان إلى أن تبدأ مؤشرات الساعة لا يقبل، ومثله الإيمان عند الغرغرة. ثم تأمر الآيات النبى أن يقول للكفار – على سبيل التهديد – أن ينتظروا كما يشاءون. ثم إخبار للنبى أنه غير مسئول عن الذين اتبعوا الأهواء فى الدين وتفرقوا شيعا وأن أمرهم إلى الله وسيجازيهم بما يستحقون. ومن فضل كرم الله أن من فعل حسنة جوزى بعشر أمثالها ومن اقترف سيئة جوزى بمثلها وهذا منتهى الكرم .

ملة إبراهيم حنيفا :

ثم تأتى آيات يذكر فيها – لأول مرة – أن الملة التى بعث النبى عليها هى ملة إبراهيم ووصف بأنه كان حنيفا غير مشرك. وفى اللغة «الحنف» هو الميل. وحنف الرجل اعوجت قدماه (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٢٠٢) والحنيف المائل عن الشر. والدين الحنيف المستقيم الذى لا عوج فيه. وكان فريق من العرب قبل البعثة يتحدثون عن ملة إبراهيم ويصفونها بالحنيفية ويتعبدون عليها. ولكنها كانت قد حُرِّفت وأدخلت فيها ممارسات وثنية فجاءت هذه الآيات لتقرر أن ملة إبراهيم هى التوحيد الخالى من الشرك ولترد على مزاعم المشركين الذين كانوا يمارسون الشرك ويزعمون أنهم على ملة إبراهيم. ثم أمر للنبى أن يخبر المسلمين أن الصلوات وجميع العبادات يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى. وبذلك أُمِر النبى. وبما أنه سيكون أول المستجيبين لهذا التوجيه فهو أول المسلمين:

«قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قِيَمًا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» (١٦١ – ١٦٣).

ثم تستمر الآيات تستنكر على المشركين دعوتهم إياه لموافقتهم على شركهم فى حين أن الله هو خالق كل شيئ ورب كل المخلوقات. ثم تقرر الآيات أن كل إنسان مسئول عن أعماله ولا تُؤَاخَذُ نفسٌ بذنب نفسٍ أخرى ثم بعد الموت يرجعون إلى الله فيخبرهم بما اختلفوا فيه فى الدنيا من العقائد ويجازيهم بأعمالهم:

«قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيئ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (١٦٤).

ثم يأتى ختام السورة مُذكِّرا بأن الله جعل الناس يخلف بعضهم بعضا فى الأرض وجعلهم متفاوتين فى حظوظهم فى الدنيا: فى المال والصحة والقوة وغير ذلك ليختبرهم فيما أعطاهم ومن كفر بهذه النعم فإن الله قد يعجل له العذاب فى الدنيا وهو أيضا غفور يرحم من تاب وأناب:

«وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم» (١٦٥).

ثم نزلت سورة الصافات :

والسورة تركز على موضوعين أساسيين: التوحيد والبعث.

وقد بدأت السورة – كما يقول الشيخ محمد الغزالي – (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. ص ٣٤٥) بالقسم بوصف لموكب الوحي وهو نازل على قلب خاتم الرسل يقوده جبريل الأمين وتحفه الملائكة الكرام. مصطفة صفوفا صفوفا أو صافةً بأجنحتها في الهواء. وهي إلى جانب ذلك تزجر وتطرد الشياطين المتطفلة على أخبار الوحي. وهي إلى ذلك تسبح الله وتحمده وتمجده. وجواب القسم إقرار بوحدانية الله:

«والصافات صفا. فالزاجرات زجرا. فالتاليات ذكرا. إن إلهكم لواحد. رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق. إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب (شديد ودائم) **إلا من خَطِف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب»** (١ – ١٠).

وقد سبق أن ذكر في سورة الجن (آية ٨ ، ٩ ص ١٣١) تَسمُّع الشياطين إلى أخبار السماء وأنهم ابتداء من البعثة النبوية مُنعوا من ذلك رجما بالشهب.

إنكار المشركين لفكرة البعث :

ثم تمضي الآيات تذكر استنكار المشركين واستهزاءهم بفكرة البعث وحياة ثانية بعد الموت. واستبعادهم لكونهم بعد أن يموتوا ويصبحوا ترابا وعظاما يبعثون مرة أخرى هم وآباؤهم وأجدادهم الذين بادوا. وترد عليهم الآيات بأن البعث حق وستكون صيحة واحدة تزجرهم فإذا هم أحياء ينظرون ماكانوا يوعدون. والذي خلق السموات والأرض قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر لأنهم أضعف فقد خلقوا من طين لازب أي لزج:

«فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب. بل عجبت ويسخرون. وإذا ذُكِّروا لا يَذكرون. وإذا رأوا آية يستسخرون. وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون. أوَآباؤنا الأولون. قل نعم وأنتم داخرون (أي صاغرون). **فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون»** (١١ – ١٩).

حال الكفار يوم القيامة :

ثم تمضي الآيات تصف ندم الكفار يوم القيامة حينما يدركون أن البعث قد أصبح حقيقة واقعة وتصف ما ينتظرهم من عذاب ومحاولتهم إلقاء تبعة كفرهم على غيرهم بدعوى أنهم هم الذين قادوهم إلى الضلال:

«وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين. هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذّبون. احشروا الذين

ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسئولون. ما لكم لا تناصرون. بل هم اليوم مستسلمون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قالوا بل لم تكونوا مؤمنين. وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قومًا طاغين. فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون. فأغويناكم إنا كنا غاوين. فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون. إنا كذلك نفعل بالمجرمين. إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. ويقولون أإنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون. بل جاء بالحق وصدّق المرسلين. إنكم لذائقوا العذاب الأليم. وما تجزون إلا ما كنتم تعملون» (٢٠ – ٣٩).

والآيات قوية نافذة من شأنها إثارة الخوف والرهبة فى السامع. فها هم الملائكة يمتثلون لأمر ربهم ويقومون بجمع الكافرين وأزواجهم الكافرات وآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ويسوقونهم إلى طريق الجحيم ليسلكوه ويصلوا إلى جهنم. كما تقوم الملائكة بإيقافهم لسؤالهم عن عقائدهم وأعمالهم ويسألونهم – سؤال استهزاء – لماذا لا ينصر بعضهم بعضا كما كانوا يفعلون فى الحياة الدنيا. فيعلنون استسلامهم ويبدأ بعضهم يلوم البعض الآخر متهمينهم بأنهم كانوا السبب فى ضلالهم. فينكرون ذلك ويعلنونهم أنهم باختيارهم أعرضوا عن الإيمان. ثم تعلنهم الآيات أن الأتباع والمتبوعين يوم القيامة فى العذاب مشتركون لأنهم كانوا من إجرامهم يستكبرون عن عبادة الله ويستنكرون ترك عبادة آلهتهم متهمين النبى بالجنون وقول الشعر. ثم تختتم الفقرة بإعلانهم بأنهم سيذوقون العذاب الأليم جزاء وفاقا لما كانوا يفعلون فى الدنيا.

جزاء المؤمنين :

وتستثنى الآيات المؤمنين من العذاب الأليم الذى سينزل بالكفار. ثم تمضى تصف النعيم الذى ينتظرهم فى الجنة:

«إلا عباد الله المخلصين. أولئك لهم رزق معلوم. فواكهُ وهم مُكرمون . فى جنات النعيم. على سرر متقابلين. يُطاف عليهم بكأس من معين. بيضاءَ لذة للشاربين. لا فيها غَوْل ولا هم عنها يُنزَفون. وعندهم قاصرات الطرف عِين (غاضات البصر بعيون نجلاء). **كأنهن بَيْضٌ** (حبات اللؤلؤ الكبيرة) **مكنون»** (٤٠ – ٤٩).

وقد سبق أن ذُكِرَ فى سورة الواقعة (الآية ١٩ ص ١٧١) **«لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون»**. وهنا قيل **«لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون»** والغول هو ذهاب العقل الذى يحدث مع شرب خمر الدنيا وهذا لا يحدث من خمر الآخرة.

وتستمر الآيات فتصف ما سيحدث يوم القيامة من جدال بين الكافرين بعضهم مع بعض وبين المؤمنين والكافرين:

«فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قال قائل منهم إني كان لي قرين، يقول أإنك لمن المصدقين، أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون (أي مبعوثون للقضاء والجزاء)، قال هل أنتم مطلعون، فاطَّلع فرآه في سواء (في وسط) الجحيم، قال تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (في العذاب)، أفما نحن بميِّتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين، إن هذا لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون» (٥٠ – ٦١).

والآيات تصف تساؤل أحد المؤمنين عن صاحب له في الدنيا كان ينكر البعث ويهزأ به لتصديقه ببعث بعد أن تبلى الأجساد. فيأتي ملك يسألهم إن كانوا يودون أن يطلعوا على أهل الجحيم. ونلاحظ هنا إيراد أمر الاطلاع بصيغة الجمع مع أن الكلام كان قبل ذلك بصيغة المفرد. دلالة على أن كثيرا من المؤمنين كانوا أيضا يتساءلون عن أصحابهم المشركين الذين كانوا يجادلونهم في الحياة الدنيا وينكرون البعث. ثم يعود النظم إلى صيغة المفرد لوصف ما يشعر به كل مؤمن عند نجاته من النار «فاطلع فرآه في سواء الجحيم» أي نظر فرأى ذلك الصاحب المشرك في وسط الجحيم. فيحمد المؤمنُ الله تعالى على أن هداه إلى الإيمان وإلا كان مصيره الإلقاء في النار هو أيضا. وهذا النجاء من النار هو الفوز العظيم الذي يجب أن يُعمل له ويُهدف إليه.

وتستمر الآيات تصف صورة مفزعة لحال الكفار ومقامهم في الجحيم:

«أذلك خير نُزُلا أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم، إنهم ألفَوْا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يُهرعون، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين، ولقد أرسلنا فيهم منذرين، فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين، إلا عبادَ الله المخلصين» (٦٢ – ٧٤).

والآيات تصف حال الكفار وهم نازلون في جهنم، يأكلون حتى تمتلئ بطونهم من شجرة الزقوم التي تنبت في وسط الجحيم وثمرها قبيح المنظر تنفر منه العيون. وقد انتقد بعض المستشرقين التشبيه بمجهول «كأنها رؤوس الشياطين» إذ التشبيه يكون بما هو معروف، والحقيقة أن العرب استعملوا وجوه الشياطين وأنياب الأغوال وما شابهها للدلالة على تناهي قبح المنظر مثلما شبهوا حسن الصورة بغير مرئي أيضا وهم الملائكة. وتستمر الآيات فتذكر أن الكافرين بعد أن يأكلوا من شجرة الزقوم يشربون ماء حارا يشوي البطون، وتعيب عليهم أنهم تبعوا آباءهم في الضلال وكان واجبا عليهم اتخاذ العبرة مما حدث للأولين إذ أرسل الله إليهم رسلا منذرين فكذبوهم، والأمر بالنظر كيف كانت عاقبتهم يفيد ما هو معلوم من نزول عذاب بهم وقد استثنى من هذا العذاب عباد الله المخلصين في عبادته.

جوانب من قصص الأنبياء السابقين :

ثم تذكر الآيات بعض الجوانب من قصص ستة من الأنبياء السابقين هم: نوح وإبراهيم وموسى وإلياس ولوط ويونس :

١ – جانب من قصة نوح :

وقد ذكرت قصة نوح باختصار شديد إذ تذكر أن الله أنجاه. ثم لازمة تتكرر فى نهاية قصة كل نبى :

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه فى الآخِرين. سلام على نوح فى العالَمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين» (٧٥ – ٨٢).

٢ – جانب من قصة إبراهيم :

بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن إبراهيم فى سورة الأنعام (الآيات ٧١ – ٨٣ ص ٢٦٢) جاءت سورة الصافات تضيف فى الآيات ٨٣ – ٩٩ قيامه بتكسير الأصنام التى كان قومه يعبدونها وردهم على ذلك بمحاولة حرقه فأنجاه الله من النار وهى معلومة لم يرد فى التوراة أى ذكر لها. وقد ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٢٣٣ – ٢٣٨):

«وإن من شيعته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين. فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم. فتولوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضربا باليمين. فأقبلوا إليه يزفون (يسرعون المشى)**. قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين»** (٨٣ – ٩٩).

ثم فى الآيات ١٠٠ – ١١٣ أمر ذبح ابنه والمعروف أنه اسماعيل خلاف ما يدعيه أهل الكتاب من أن الذبيح هو إسحق وقد فنَّدنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٢٥٣ – ٢٦٢):

«رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» (١٠٠ – ١١٣).

٣ – جانب من قصة موسى :

وتذكر أيضا باختصار شديد مركزة على نجاته هو وهارون وبنى إسرائيل من فرعون وجنده:

«ولقد مننا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين (بالغ البيان). وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين» (١١٤ – ١٢٢)

٤ – قصة إلياس :

وكان أول ذكر لاسم إلياس هو ما جاء في سورة الأنعام ضمن أسماء الـ ١٧ نبيا الذين ذكروا فى الآية ٨٥ ص ٢٦٢. وكان ذكره هنا فى سورة الصافات مرتين: مرّة باسم إلياس ومرة باسم إل ياسين:

«وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلا وتذرون أحسنَ الخالقين. الله ربكم وربُّ آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون (للعذاب فى النار). إلا عباد الله المخلصين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين» (١٢٣ – ١٣٢).

وقصة إلياس كانت معروفة لدى العرب إذ كان اليهود يتلون عليهم ما جاء فى التوراة بشأنه فهو «إيليا» وفى اليونانية تضاف سين علامة الرفع فأصبحت إلياس وبهذا الإسم عرف عند العرب. وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٥٦ – ٢٦٥) وذكرنا قتله لكهنة «البعل» الإله الذى كان يعبده أخاب ملك إسرائيل.

٥ – جانب من قصة لوط :

وقد ذُكرت أيضا باختصار شديد:

«وإن لوطا لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمّرنا الآخرين. وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون» (١٣٣ – ١٣٨).

وقوافل العرب إلى فلسطين كانت تمر على أرض سعير التى كانت بها المدن الخمس مدن قوم لوط. ويرون آثار الدمار الذى حاق بهم. فكان الواجب على كفار قريش أن يأخذوا منها العبرة والعظة.

٦ – قصــة يونس :

وقـد سبق الإشـارة إلى يونس فى سورة القلم (الآيات ٤٨ – ٥٠ ص ٧٥) فى قـوله تعـالى «**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت** (يونس) **إذ نادى وهو مكظوم اولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين**» وفي سورة يونس (الآية ٩٨ ص ٢٣٩) ذكر أن أهل نينوى لما آمنوا رفع الله عنهم العذاب. وفي السورة الحالية جاء شيئ من التفصيل عن ابتلاع الحوت له :

«**وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مُليم. فلولا أنه كان من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يوم يُبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين**» (١٣٩ – ١٤٨).

وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٨٩ – ٢٩٨) وذكرنا النقاط التى قام القرآن بتصحيح ما ورد محرفًا فى التوراة بشأنها.

استنكار نسبة الولد لله تعالى:

«**فاستـفتـهم ألربك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون. ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكّرون. أم لكم سلطان مبين. فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين. وجعلوا بينه وبين الجِنة نسبا ولقد علمت الجِنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون. إلا عباد الله المخلصين. فإنكم وما تعبدون. ما أنتم عليه بفاتنين** (مضلين بإغرائهم). **إلا من هو صال الجحيم**» (١٤٩ – ١٦٣).

والآيات تستنكر نسبة البنات إلى الله تعالى. وكان العرب يكرهون البنات ولو كان لله ولد لكان من الجنس المفضَّل أى من البنين. وترد الآيات بقوة فتنفى نفيا قاطعا وحاسما فكرة أن يكون لله أولاد أو بنات. وتمادَى الكفار فى ادعاءاتهم فجعلوا بين الله وبين الجِنة نسبا وقرابة والجِنة يعلمون أن الكفار محضرون إلى الله لينالوا جزاءهم على هذا الادعاء (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. ص ٦٧٢) أو أن الجِنة يعلمون أنهم محضرون للعذاب لو كانوا قد ادعوا استحقاقهم للعبادة (تفسير الألوسى. جـ ٢٣ ص ١٥٢). ثم تنزيه لله عن هذا الادعاء. ثم تقرير بأن الكفار وما يعبدون من دون الله لن يُضلوا أحدا بإغوائهم إلا وسيصلى نار جهنم معهم.

الملائكة يعرفون مكانهم من الله :

ثم تأتى آيات هى من قول الملائكة. وذلك ردا على ادعاء الكفار أن الملائكة بنات الله. إذ يقررون عبوديتهم لله وأن لكل منهم مقام فى المعرفة والعبادة وأنهم مصطفُّون صفوفا للصلاة ومسبحون الله ومنزهونه عن كل مالا يليق بجلاله:

«وما منا إلا له مقام معلوم. وإنا لنحن الصافُّون. وإنا لنحن المسبِّحون» (١٦٤ - ١٦٦).

وقد سبق أن جاء قول الملائكة فى سورة مريم (آية ٦٤ ص ١٥٥): «وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك».

جاءهم الرسول الذى كانوا يتمنونه :

وكان كفار مكة قبل بعثة الرسول يقولون لو أن عندهم كتاباً مثل الكتب التي نزلت على غيرهم - كالتوراة والإنجيل - لأخلصوا فى العبادة ولكانوا أهدى منهم .فلما جاءهم ما تمنوه - وهو الرسول - كفروا به وسوف يعلمون عاقبة كفرهم وما سيحل بهم من عذاب:

«وإن كانوا ليقولون. لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين. فكفروا به فسوف يعلمون» (١٦٧ - ١٧٠).

وعد للنبي بالنصر والهزيمة للكافرين :

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتولَّ عنهم حتى حين. وأبصرهم فسوف يبصرون. أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين. وتول عنهم حتى حين. وأبصر فسوف يبصرون» (١٧١ - ١٧٩).

والآيات تقرر أن حكم الله الذى سبق قضاؤه - وهو نافذ - أن النصر هو لرسله وللمؤمنين. ثم أمر للنبى بأن يعرض عن الكافرين ليرى ما يفعل الله بهم. فإن كانوا يتحدون ويستعجلون عذاب الله إنكاراً له فإنه حين ينزل بهم فيا لسوء صباحهم. وفيه إشارة إلى عادات العرب فى الإغارة على أعدائهم فى الصباح الباكر وهم بعدُ غير مستعدين لقتال.

وتختم السورة بتسبيح الله وتمجيده وتنزيهه عما زعم المشركون له من بنات:

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين» (١٨٠ - ١٨٢).

ثم نزلت سورة لقمان :

وفى السورة تنويه بالمؤمنين المحسنين وتقريع للكافرين المستكبرين. وحكاية لبعض أقوالهم وردود مفحمة عليها. ثم ذكرت قصة لقمان وحكمته وعددا من مواعظه لابنه على سبيل ضرب المثل بالأخلاق الحسنة والمبادئ الكريمة:

الم. تلك آيات الكتاب الحكيم. هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين. وإذا تتلى عليه آياتنا ولَّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم. إن الذين آمنوا

وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم. خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم. خلق السموات بغير عمد ترونها. وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم. هذا خَلقُ الله فأرونى ماذا خَلَقَ الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين» (١ - ١١).

ويقال إن جملة **«ومن الناس من يشترى لهو الحديث...»** عنت النضر بن الحارث الذى كان يرحل إلى بلاد فارس ويعود منها فيقول إن محمدا يحدثكم عن عاد وثمود وأنا أستطيع أن أحدثكم عن رستم واسفنديار. وإن حديثى لأشهى من حديثه.

أما قوله تعالى: **«خلق السموات بغير عمد ترونها»** فهو ينفى الرؤية عن العمد ولكنه يثبت وجود العمد ذاتها وإلا لاكتُفى بقول «خلق السموات بغير عمد». ويرى علماء الفلك المعاصرون (دكتور زغلول النجار. أهرام ٢٠٠١/٩/١٧) أن قوى الجاذبية هى العمد التى تربط أجزاء الكون بعضها ببعض. فالقمر مشدود إلى الأرض بجاذبيتها والأرض والكواكب السيارة الأخرى تدور حول الشمس ولا تفلت من جاذبيتها. والمجموعة الشمسية وآلاف الشموس فى مجرتنا - مجرة درب التبانة - كلها تسير فى أفلاك مُحددَّة وبسرعات هائلة وقوى الجاذبية تمسكها فى نسيج مترابط وآلاف الملايين من المجرات تسبح فى الفضاء اللانهائى دون أن تتصادم ودون أن ينفرط عقدها لأنها مشدودة بخيوط وعمد غير مرئية من الجاذبية.

مواعظ لقمان :

ثم تأتى هذه الفقرة عن لقمان ومواعظه لابنه محتوية على مكارم الأخلاق. وكان بعض العرب - مثل سويد بن الصامت - كثير الأسفار فاطلع على ثقافات الأمم المجاورة. وعند عودته كان يروى للناس بعضا من حكمة لقمان. ويروى أنه لقى النبى فدعاه إلى الإسلام فقال سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى. فقال له الرسول: وما الذى معك؟ قال مجلة لقمان. فقال الرسول: اعرضها علىَّ فعرضها عليه فقال: إن هذا الكلام حسن. والذى معى أفضل منه. قرآن أنزله الله علىَّ هو هدى ونور. وتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه إلى الإسلام فأسلم. ولما عاد إلى يثرب قتله قومه كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٢٦) - أما عن شخصية لقمان فقد بحثناها فى الجزء الخامس (ص ٢٢٨ - ٢٣٠). وأيا كان موطنه فلاشك أن الكفار عجبوا أن يعلم النبى شيئا عنه مع أنه لم يسافر إلى فارس أو مصر. وكان هذا أدعى لهم أن يوقنوا أنه إنما يتكلم بوحى السماء فيؤمنوا ولكنهم ظلوا على عنادهم. ومواعظ لقمان يتخللها استطرادات هى تقرير قرآنى مباشر:

«ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد. وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ

المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يابُنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير. يابُنى أقم الصلاة وأْمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تُصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (١٢ – ١٩).

بعض مظاهر قدرة الله في الكون :

ثم تمضي الآيات تلفت نظر السامعين إلى بعض مظاهر قدرة الله في الكون:

«ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير. ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور. ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور. نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ. ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد. ولو أنَّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نَفِدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم. ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير. ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخَّر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمًّى وأن الله بما تعملون خبير. ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير. ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليرِيَكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور. وإذا غشيهم موج كالظلل دَعَوُا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد (قلَّ من جحوده) **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار** (غدار) **كفور»** (٢٠ – ٣٢).

وقد سبق التنويه بإحاطة علم الله بكل شيئ في الآية ١٠٩ سورة الكهف (ص ٢٠٩): **«قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا»** وفي سورة لقمان زيد المدد إلى سبعة أبحر.

مفاتح الغيب :

ثم تختم السورة بِحَثٍّ على تقوى الله وخشيته وتقرير أن الآخرة حق لامِراء فيه وتحذير للناس من أن تغُرهم الدنيا أو يخدعهم الشيطان فيصرفهم عن عبادة الله. وأخيرا تذكر المغيبات الخمس :

«يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت. إن الله عليم خبير» (٣٣ – ٣٤).

وقد جاء فى حديث شريف أن النبى قال: مفاتيح الغيب خمسة ثم تلا الآية السابقة. وقد جاء المعنى نفسه فى سورة الأنعام (الآية ٥٩ ص ٢٦٠): «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو». ويقول الألوسى (تفسيره جـ ٢١ ص ١٠٨) عن قوله تعالى: «ويعلم مافى الأرحام» أى ذكر أم أنثى. ولاشك أن هذا هو ما فهمه الناس عند نزول الآية. ولا تعارض بين ذلك وما أمكن معرفته الآن بالموجات الصوتية عن جنس المولود هل هو ذكر أم أنثى ابتداء من الشهر الرابع. فجنس المولود يتحدد منذ لحظة الإخصاب فعلم الله شامل لفترات مبكرة من الحمل لم يصل إليها العلم بعد. وحتى لو أمكن معرفة ذلك بتحليل الخلايا لمعرفة احتواء الجنين على XY أو XX وهو ما يحدد جنسه إلا أن علم الله أشمل من مجرد معرفة جنس الجنين. إذ يشمل رزق ذلك الكائن وهل سيكون سعيداً أم شقيا وغير ذلك مما يستحيل على العلم معرفته.

ثم نزلت **سورة سبأ** :

وفى السورة حكاية لأقوال وعقائد الكفار وإنكارهم البعث. وفصول مناظرة بينهم وبين النبى وإشارة إلى اعتداد زعماء الكفر بالأموال والأولاد وتنويه بالمؤمنين المخلصين. ثم ذكر لجوانب من قصة داود وسليمان وما كان من إسباغ الله عليهما من نعمة وشكرهما له. ثم تأتى قصة سبأ – والتى سميت السورة باسمهم – وما كان من رغد عيشهم وعدم شكرهم لله تعالى على هذه النعم فحقت عليهم نقمة الله وعذابه. وفى آخر السورة صورة لما كان عليه الموقف بين النبى وزعماء الكفر.

والسورة تبدأ بحمد الله مالك السموات والأرض وتنويه بعلمه المحيط بكل ما فيهما:

«الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير. يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور» (١ – ٢).

إنكار الكافرين للساعة :

«وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالِم الغيب لا يعزب (لا يغيب) عنه مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا فى كتاب مبين. ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم. والذين سَعَوْ فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم» (٣ – ٥).

والارتباط وثيق بين ماجاء فى هذه الآيات عن علم الله بالغيب وبين ما ذكر عن استئثار الله وحده بعلم الغيب الذى جاء ذكره فى آخر السورة السابقة وتستمر الآيات تقرر أن أهل الكتاب يعرفون أن ما ينزل على النبى حق ولكن الكفار مستمرون على إنكارهم للبعث ويسخرون من فكرته ويتهمون النبى بالكذب أو الجنون. وكان يكفيهم أن ينظروا فى السموات والأرض ليعلموا قدرة الله وأن فى إمكانه أن يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم قطعا من السماء تسحقهم:

«ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد. وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد. أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب» (٦ - ٩).

جانب من قصة داود :

وقد سبق ذكر جوانب من قصته فى سورة ص (الآيات ١٧ - ٢٦ ص ١١٢) وفيها ذكر تسبيح الجبال والطير معه، ثم ذكر الملكان اللذان تسورا المحراب ليبيِّنا له خطأه. وفى سورة الإسراء (آية ٥٥ ص ٢١٦) ذُكر أن الله آتى داود الزبور. وفى الآيات من السورة الحالية زيد إلانة الحديد:

«ولقد آتينا داود منَّا فضلا ياجبال أوِّبى معه والطير وألنَّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير» (١١).

وقد فصلنا ذلك كله في الجزء الخامس (ص ١٠٣ وما بعدها).

جانب من قصة سليمان :

وقد سبق ذكر حُبِّه للخيل وتسخير الريح والجن فى سورة ص (آية ٣٠ - ٤٠ ص ١١٢). وفى سورة النمل (آية ١٥ - ٤٤ ص ١٨٢) ذكرت قصة النملة والهدهد وملكة سبأ. وفى السورة الحالية - سورة سبأ - جاء ذكر تسخير الريح وإسالة عين القطر وتسخير الجن وموت سليمان. وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ١٩٤ - ٢٣٦)

«ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر (النحاس المذاب) **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور. فلما قضينا عليه الموت مادلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين»** (١٢ - ١٤).

سيل العَرِم :

تصف الآيات حادثة انهيار «سد مأرب» والذى تسبَّب فى حدوث «سيل العرم» الذى أهلك جنات سبأ ونتج عنه نزوح أهلها إلى أماكن متفرقة من شبه الجزيرة العربية وكان ذلك عقابا من الله لهم على كفرهم بنعمة الله:

«لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكَفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل مُمَزق إن فى ذلك لآيات لكل صبَّار شكور» (١٥ – ١٩).

من المعروف أن شبه الجزيرة العربية ليس بها أنهار دائمة الجريان ولكن تنزل أمطار غزيرة فى بعض الفصول فتُخلِّف الأمطار سيولا عظيمة تنساب فى الأودية بين الجبال فيجرى بعضها إلى البحر وينساب بعضها فى الصحارى وأحيانا تكون من الغزارة فتكوِّن سيولا تدمِّر الزراعات الموجودة وتجرف المساكن. فإذا ولَّى فصل المطر جفَّت الأرض وظمئ القوم وماتت المزروعات. ودفعا لخطر الغرق وخطر الجفاف أقاموا خزانات لتخزين المياه فتحميهم من مخاطر السيول ويأخذون منها فى فصل الجفاف فتظل بساتينهم مخضرةً. وبنوا عدة سدود كان أعظمها سد مأرب. وتقع مدينة مأرب إلى الشرق من صنعاء وعلى بعد ١٥٠كم باتجاه شمال شرق. وقد وصف الهمدانى فى كتابه «الإكليل» ما كان باقيا قبل عشرة قرون ونصف من آثار السد وكانت لاتزال بحالة جيدة. وفى العصر الحديث تمكن المستشرق الفرنسى «أرنو» عام ١٨٤٣م من اكتشاف بقايا السد ورسم له خرائط. فعلى مسافة ١٤٥كم شمال شرق صنعاء (شكل ١٧) يوجد سهل تحيط به الجبال من الشمال والغرب والجنوب ويضيق السهل من ناحية الشرق لوجود جبل «بليق الأيسر» فى الشمال وجبل «بليق الأيمن» جهة الجنوب والمسافة بين الجبلين لاتزيد عن ٥٠٠ مترا وتتجمع السيول التى تسقط على الجبال فتكون خزانا مائيا كبيرا ينساب منه الماء بين جبلى بليق من مضيق لايزيد عرضه عن ١٥٠ مترا. وفى هذا المكان تم بناء السد الذى سُمِّى «سد مأرب» لوجود مدينة مأرب إلى الشمال الشرقى منه وعلى بعد حوالى ٥كم. وكان السد سداً ركاميا أى ردم من الحجارة فى عرض المجرى المائى بقاعدة اتساعها ٦٠ مترا. ويقل سمك السد كلما ارتفع وبذلك يكون له جانبان مائلان تم تثبيتها بطبقة من الحصى. وكان به منافذ ينصرف منها الماء إلى حيث يريدون ويتحكمون فى فتحها وغلقها بعوارض ضخمة من الخشب والحديد. ولما توافرت المياه قاموا بزراعة السهول بعد أن حفروا الترع والقنوات. وكانت الأرض خصبة. فكانت لهم جنات عن

شكل ١٧ – سد مأرب .

يمين السد وجنات عن شماله فضلا عن البساتين الكثيرة المنتشرة فى السهول والشعاب المجاورة فزادت محاصيلهم وصارت لهم تجارة واسعة إلى الشمال. **«القرى التى باركنا فيها»** قالوا هى الشام. وقالوا هى فلسطين لأنها وصفت بالبركة فى القرآن الكريم. وقد تكون مكة فهى أقرب وهي أيضا أرض مباركة. وقد تعنيها كلها.

وكان فى الطريق قرى كثيرة ظاهرة يستريحون فيها ويتزوّدون منها للطريق فكان الكلُّ يتاجر أغنياء وفقراء. وأبطرتهم النعمة وظهرت الشرور والمفاسد وكفروا بنعمة الله وأراد الأثرياء والسادة الاستئثار بأرباح التجارة. فدعوا الله **«فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا»** بإزالة القرى الصغيرة حتى يشق الأمر على الفقراء ويحتكروا هم وحدهم التجارة بما لهم من إمكانيات تمكنهم من تجهيز القوافل الكبيرة. وكان هذا زيادة فى الظلم. فحق عليهم غضب الله فهيأ الأسباب لتدمير السد فاندفعت المياه المختزنة فى سيل جارف هو «سيل العرم» اكتسح كل ما أمامه من جنات فهلك كل شيئ ولم ينبت إلا قليل من أشجار الخمط والأثل والسدر وهى أشجار كثيرة الشوك وطعمها مر. **«فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم»** وسيل العرم من الحوادث التى أطنبت العرب فى وصفها فى أدبهم القديم وكانوا يتناولون روايته فى مجالسهم. فكان ضرب المثل به وهلاك السبئيين تحذيرا لكفار قريش من سيول تهلكهم لكفرهم وتكذيبهم للنبى. وقيل كان تصدُّع السد فى عام ١٢٠ ق.م. كما قال العالم «سيدبو» وكان فى تصدُّعه نهاية لملكة سبإ وتفرقت القبائل إلى أماكن شتى طبقا لقوله تعالى: **«ومزقناهم كل ممزق»** (شكل ١٨).

١ – بنو ثعلبة بن عمرو بن عامر ومنهم الأوس والخزرج: رحلوا إلى يثرب وسكنوها.

٢ – بنو حارثة بن عمرو وهم خزاعة: ساروا إلى مكة وأجلوا عنها جرهم وسكنوا مكانهم.

٣ – بنو عمران بن عمرو ومنهم أزد بن عمان: ساروا إلى شرق البحر الميت.

٤ – بنو حنيفة بن عمرو: ساروا إلى الشام وهم الغساسنة وبقى بعضهم فى تهامة.

٥ – بنو لخم بن عدى: ساروا إلى العراق ومنهم الملوك المناذرة بالحيرة.

٦ – طيئ: توجهوا إلى جبلى أجاد وسلمى وسكنوا الخصب الذى حولهما.

٧ – كلب بن وبرة بن قضاعة رحلوا إلى شمال نجد.

٨ – لم يبق فى المنطقة إلا قبائل «حمير» وبمضى الوقت صارت لهم السيادة وكونوا «الدولة الحميرية».

ثم تستمر الآيات :

«ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شيئ حفيظ» (٢٠ – ٢١).

شكل ١٨ – تفرق قبائل سبأ بعد سيل العرم .

والمعنى أن إبليس توسم فيهم قابلية الانحراف فوسوس لهم فتحقق ظنه فاتبعوه باستثناء فريق قليل من المؤمنين لم يستطيعوا منعهم من الانحراف والحقيقة أن إبليس لم يكن له عليهم سلطان نافذ وإنما كانت وسوسته امتحانا ربانيا ليظهر من يؤمن بالآخرة ومن يشك فى وقوعها. ولتظهر نتيجة الامتحان للمرء عيانا حتى تسقط حجته لأن الله عليم بالنتيجة مسبقا فعلم الله شامل لكل ماكان وما هو كائن وما سيكون.

ولاشك أن إيراد قصة سيل العرم وهلاك السبئيين - وكان العرب يعرفون ويتناقلون قصتهم - قصد منه تحذير قريش من قدرة الله على إهلاكهم لو استمروا فى عنادهم وتكذيبهم للنبى.

تحدى المشركين وآلهتهم :

«قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا فى الأرض ومالهم فيها من شرك وما له (لله تعالى) **منهم من ظهير** (معين)**. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ وهو العلى الكبير»** (٢٢ - ٢٣)

ولبيان مدى عجز آلهتهم طُلِبَ من المشركين أن يدعوهم لكى تنفعهم. ويأتى الرد أنهم لا يملكون شيئا على الإطلاق لا فى السموات ولا فى الأرض لأن مثقال الذرة هو أصغر شيئ. ولم يتخذ الله منهم مساعدا أو ظهيرا. ثم تنفى الآيات ماكان يدعيه المشركون من أن الأصنام ستكون شافعا لهم عند الله إذ تقرر الآيات أن الشفاعة عند الله لن تكون إلا لمن يأذن له الله بالشفاعة. وفُزِّع بالتضعيف تفيد السلب كما فى مَرِضَ أى أصابه المرض ومَرَّض أى عمل على إزالة المرض والمعنى أنه حين يكشف الله عن قلوبهم الفزع من أهوال يوم القيامة يتساءلون عما قال الله فى شأن الشفاعة لهم فيجابون بأن قول الله هو الحق. والمفهوم أنَّ شفاعة ما أشركوهم من دون الله مرفوضة.

إفحام المشركين :

فى هذه الفقرة تتكرر كلمة «قل» خمس مرات فى تتابع بليغ يجذب الأسماع:

«قل من يرزقكم من السموات والأرض. قل الله وإنا أو إيَّاكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تعملون. قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم. قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم. وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون. وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه...» (٢٤ - ٣١).

١ - فالأمر الأول «قل من يرزقكم» فيه سؤال للكفار عمَّن يأتيهم برزقهم - مطرا من السماء

ونباتا من الأرض – ويلقّن النبى الجواب «قل الله» لأنه لا أحد سواه يفعل ذلك. ثم تقرير بديهية وهو أن أحد الطرفين: إما النبى أو الكفار – على هدى والآخر على الضلال. والمفهوم طبعا أن النبى هو الذى على الهدى فيكون الكفار على ضلال.

٢ – ثم أمر ثانٍ ليخبرهم أن كل فريق مسئول عن عمله فقط وليس عن عمل الفريق الآخر. ويرى المفسرون أن نسبة الإجرام إلى الفريق المهتدى هو من قبيل الملاينة فى الخطاب بغرض كسب الود – كما أن فيه نوعا من السخرية المستترة.

٣ – ثم إخبار بأن الكل مجموع إلى الله يوم القيامة وسيحكم بينهم.

٤ – ثم تحدى بدعوتهم للإتيان بهؤلاء الشركاء الذين أشركوهم مع الله. ثم تقرير بأنه ليس هناك من إله إلا الله العزيز الحكيم.

٥ – ويتساءل الكفار عن موعد يوم القيامة مستبعدين أو منكرين وقوعه. ويؤمر النبى بأن يقول لهم بأن لهم موعداً محدداً لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون.

وينتهى الحوار بأن يقول المشركون صراحة أنهم لن يؤمنوا بالقرآن ولا بالكتب التى سبقته من توراة وإنجيل وبالتالى لن يؤمنوا بما جاء فى القرآن من أن هناك بعث وآخرة وحساب.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

إزاء هذا الإنكار الصريح من الكفار بيوم القيامة كان الرد هو التأكيد على حدوثه بإيراد وصف لمشهد من مشاهده. وفى هذا المشهد يحاول ضعفاء الكفار إلقاء مسئولية كفرهم على سادتهم وكبرائهم الذين يتنصلون من تهمة إغوائهم وينتهى المشهد بوضع الأغلال فى أعناق الاثنين جزاء لهم على أعمالهم. ولن يكون بعد ذلك إلا الإلقاء فى النار:

«.. **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله ونجعلَ له أندادا. وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يُجزون إلا ماكانوا يعملون**» (٣١ – ٣٣).

وفى الآيات تحذير المستضعفين من كفار قريش الذين يرضخون لضغوط سادتهم ويظلون على الكفر وإخبارهم بأنه لن يقبل منهم الاعتذار بأن سادتهم هم الذين أجبروهم على الكفر وتخبرهم بأن سادتهم سيتبرءون منهم بل ويتهمونهم بالإجرام. وفى هذا تبصرة لهؤلاء المستضعفين بحقيقة موقفهم وأن عليهم أن يبادروا بالإيمان إنقاذا لأنفسهم من عذاب الآخرة.

تحذير لسادة قريش وأغنيائها :

ثم توضح الآيات أن الغنى والسلطان هما سبب تكذيب الكافرين لرسلهم فى كل وقت وأنهم يغترون بأموالهم وأولادهم ويظنون أن كثرة المال والولد دليل الكرامة وينسون الآخرة. وهذا ما فعله كفار قريش فأُمِر النبى بأن يوضح لهم أن الله هو الذى يوسِّع الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء، فقد يوسِّع على العاصى ويضيق على المؤمن أو يوسع أو يضيق على كل منهما حسب ما تقتضيه مشيئته. وأن أموالهم وأولادهم التى يزهون بها فى الدنيا لن تقربهم من الله. وأن القربى من الله والثواب المضاعف هما من نصيب المؤمن الذى يعمل الصالحات. أما الذين يقفون موقف الإنكار والصد والمكابرة فلهم عذاب أليم. ثم تعود الآيات لتذكر أن بسط الرزق وتضييقه هو من شأن الله وحده وعلى المؤمنين ألا يخشوا الفقر وعليهم أن ينفقوا ويتصدقوا فالله سيرزقهم خيرا منه فهو خير الرازقين:

«وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذَّبين. قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لايعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون. والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب مُحضرون. قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيئ فهو يُخلِفه وهو خير الرازقين» (٣٤ - ٣٩).

الملائكة يتبرأون من عُبَّادهم :

«ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون. فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون» (٤٠ - ٤٢).

وفى هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة يجمع الله بين المشركين والملائكة ثم يسأل الملائكة عما إذا كان المشركون قد عبدوهم من دون الله، فيجيبون منزهين الله عن الشركاء قائلين إنه هو وليهم وأن المشركين كانوا يعبدون الجن الذين زينوا لهم الشرك وأكثرهم صَدَّقوا إغواءاتهم وحينئذ يقول الله عز وجل للمشركين إن أحداً منهم - هم ومَن عبدوهم - لا يملك للآخر ضرا ولا نفعا وعليهم أن يتحملوا تبعة ضلالهم عذابا فى النار التى كانوا يكذبون بها فى الحياة الدنيا.

إصرار الكفار على كفرهم :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم

وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إنْ هذا إلا سحر مبين. وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير. وكذَّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير» (٤٣ – ٤٥).

والآيات تسجل أقوال الكفار: فمرة يتهمون النبي بأنه يريد أن يصرفهم عن دين آبائهم ومرة يقولون إن النبي يؤلف القرآن ويفتريه على الله وادّعوا أن ما جاءهم به النبي هو نوع من السحر مع أنه حق من عند الله. وهم في ادّعاءاتهم هذه لا يستندون إلى كتاب سماوي سبق أن أنزل إليهم. وتُذكِّرهم الآيات بالأمم السابقة التي كذبت رسلهم فنكَّل الله بهم وكفار قريش لا يبلغون عُشر قوتهم.

دعوة للتفكُّر:

«قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكَّروا ما بصاحبكم (أى النبى) من جِنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد. قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرِيَ إلا على الله وهو على كل شيئ شهيد. قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب. قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد. قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىَّ ربى إنه سميع قريب» (٤٦ – ٥٠).

وفى هذه الفقرة تكرر لفظ «قل» خمس مرات أيضا. فهى خمسة أوامر للنبى تحمل فى طياتها دعوة للكافرين للتدبر والتفكر:

١ – أن يخبر الكفار أنه لا يطلب منهم إلا شيئا واحدا. وهو أن يخلصوا النية لله ويتجردوا عن الهوى ثم يتفكروا كل واحد فيما بينه وبين نفسه أو كل اثنين لحدتهما – معا فيما يدعو إليه النبى حتى يتأكدوا أنه ليس مجنونا وإنما هو نذير لهم من عذاب شديد. والحكمة فى أن يتفكروا فرادى أو مثنى هو أن الاجتماعات العامة تسود فيها الأهواء وتضعف فيها قوة المنطق ولا يؤدى الجدل فيها إلى نتيجة سليمة دائما. إذ يعمد المبطلون إلى التشويش على الرأى الصحيح المخالف لضلالهم وتسود العصبيات ويميل المرء إلى تأييد رأى العشيرة حتى لو كان باطلاً.

٢ – الأمر الثانى يخبرهم أنه لا يطلب منهم أجرا وإنما أجره على الله.

٣ – أن يخبرهم أن الله سيرمى بالحق فى وجه الباطل فيمحقه فالله هو علام الغيوب. والمعنى أن الباطل زاهق وعليهم اتباع الحق.

٤ – وعلى النبى أن يخبرهم أن الحق قد أصبح واضحا جليا وأن الباطل لا يخلق أصلا ولا أن يعيده أى لا دوام له.

٥ – وآخر الأوامر أن يخبرهم أنه لو كان ضالا فضلاله عائد عليه وإن كان على هدى فهذا فضل من الله بما يوحيه إليه.

ويجئ ختام السورة قويا كعادته :

«ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب. وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد. وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب» (٥١ – ٥٤).

والآيات تصف مشهد الكافرين حين ينزل بهم العذاب فيفزعون ولن يفلت منهم أحد **«لا فوت»**. وحينئذ يقولون آمنا ولكن كيف يكون لهم تناول الإيمان أو التمسك به **«التناوش»** من مكان بعيد عن الدنيا التى انقضى وقتها وهم قد كفروا به من قبل واندفعوا وراء الظنون بالباطل والرجم بالغيب والتكذيب مذهبا بعيدا وسيحال بينهم وبين ما يشتهون من إيمان ينفعهم كما حدث مع الكافرين أمثالهم من الأمم السابقة لأنهم جميعا كانوا فى شك شديد من البعث.

ثمان سور :

ثم نزلت ٨ سور ترتيب نزولها هو نفس ترتيبها فى المصحف وهى: الزمر – غافر – فصلت – الشورى – الزخرف – الدخان – الجاثية – الأحقاف.

سورة الزمر :

وتبدأ السورة بالنص على أن القرآن منزل من الله تعالى ثم أمر للنبى – وهو أمر لعامة المؤمنين – بعبادة الله والإخلاص فى العبادة :

«تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين. ألا لله الدين الخالص...» (١ – ٢).

تقريع الكفار لإشراكهم بالله ونسبتهم الولد إلى الله :

«.... والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار. لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء. سبحانه هو الله الواحد القهار». (٢ – ٤).

والآيات فيها توبيخ وتقريع للكفار لأنهم اتخذوا شركاء لله بزعم أنهم يتقربون بهم إلى الله. وإضافة إلى هذا فقد نسبوا لله الولد. ورداً على هذا الافتراء تأتى حجة جدلية وهى أن الله لو أراد أن يتخذ ولدا لاختاره بنفسه لا أن يختاروا هم له الولد ثم تنزيه له عن ذلك **«سبحانه»** فهو الواحد القهار الغنى عن الولد.

مشاهد من الكون تدل على عظمة الخالق :

ثم تأتى الآيات بمشاهد من الكون تدل على عظمة الخالق. وتتمثل فى :

١ - خلق السموات والأرض .

٢ - خلق البشر كلهم من نفس واحدة .

٣ - خلق الأنعام .

٤ - خلق الجنين .

١ - **«خلَق السموات والأرض بالحق يكوِّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مُسَمًّى. ألا هو العزيز الغفار»** (٥).

ويرى ابن كثير (تفسيره جـ ٤ ص ٤٥) أن تكوير الليل على النهار وعكسه أى يجريان متعاقبين ولا يفترقان. أما تفسير الجلالين (ص ٣٨٥) فيرى أن تكوير أحدهما على الآخر يعنى دخوله فيه فيزيد هذا وينقص هذا. وقال آخرون هو تداخل الليل والنهار فى الفجر قبل شروق الشمس وفى الأصيل قبل غروبها إذ يكون الضوء خافتا فلا هو نهار ساطع ولا هو ليل دامس. ويرى بعض الفلكيين المعاصرين أن الآية فيها إعجاز علمى إذ لا يحدث هذا التكوير إلا إذا كانت الأرض كروية وإن كان هذا التفسير لم يوجد إلا بعد أن أثبت العلم كروية الأرض.

٢ - ثم تأتى إشارة إلى أن الخلق كلهم هم من نسل آدم وحواء:

« ... خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها... »(٦).

٣ - ثم إشارة إلى خلق الأنعام :

« ... وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج...».

٤ - ثم إشارة إلى خلق الجنين يليه تمجيد لله تعالى :

«يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون» (٦).

وقد قرر بعض المفسرين (الألوسى . جـ ٢٣ ص ٢٤١) أن الظلمات الثلاث هى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. ورأى آخرون أنها ظلمة صلب الرجل حيث تكون النطفة أولا ثم ظلمة رحم المرأة ثم ظلمة المشيمة. ولكن المشيمة لا تحيط بالجنين فهى لا تعتبر ظلمة. ويرى أخصائيو أمراض النساء والولادة أن الظلمات الثلاث هى بطن المرأة والرحم والمحفظة الجنينية Amniotic Sac ويعتبرون ذلك إعجازا علميا من القرآن الكريم.

الله غني عن العباد :

«إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور» (٧).

والمعنى أن الناس لو كلهم كفروا فلن ينقص ذلك من ملك الله شيئا فالله غني عن العباد ولكنه لا يرضى لهم الكفر لما يؤدى إليه من عذاب لهم في الآخرة. ومن يشكر نعمة الله فالله يرضى منه هذا الشكر ويثيبه عليه عند الرجوع إليه في الآخرة. وفى حديث قدسي (الإتحافات السنية فى الأحادث القدسية. محمد المدني. ص ٤٨): ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا. ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا.

جحود الإنسان :

ثم تمضى الآيات تندد بما طبع عليه البشر من جحود متمثلا في اللجوء إلى الله في الضيق حتى إذا زالت الضيقة نسوا الله. وينطبق هذا بالأخص على الكفار ويستثني منه المؤمنون الذين يذكرون الله في كل وقت وخاصة أثناء الليل.

«وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله (أى منحه) **نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار. أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب»** (٨ - ٩).

وقالوا المقصود بمن هو **«قانت آناء الليل..»** هو عثمان بن عفان (عبد الرحمن الشرقاوي. على إمام المتقين ص ١٥٦) والمقصود بـ **«الذين يعلمون والذين لا يعلمون»** هم المؤمنون والكافرون حيث علم الأولون حقائق الأمور فاتبعوا طريق الهدى وعميت أبصار الآخرين فاتبعوا الباطل.

إباحة الهجرة لمن ضيِّق عليه في دينه :

«قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» (١٠).

والنص على أن أرض الله واسعة يحتوى إذنا لضعفاء المؤمنين بالهجرة من مكة إلى أرض يأمنون فيها على دينهم. وكانت الهجرة إلى الحبشة قد تمت قبل ذلك كما سبق أن ذكرنا (ص ١٦١) وكان نفر قليل قد هاجر إلى يثرب. ولعل المسلمين في مكة تساءلوا عن موقف الدين من هؤلاء المهاجرين فجاءت الآيات تطمئنهم على سلامة موقفهم كما أن الصابرين على أذى قريش الذين لم يهاجروا لهم أيضا أجر عظيم.

حث على عبادة الله وتحذير المشركين :

«قل إنى أُمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (أى خالصا من الشرك) .وأمرت لأن أكون أول المسلمين. قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم. قل الله أعبد مخلصا له دينى، فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين» (١١ – ١٥).

والآيات تحث المسلمين على إخلاص العبادة لله. يلى ذلك تهديد شديد للكافرين فى قوله تعالى: «فاعبدوا ماشئتم من دونه» وبيان أنهم هم الأخسرون يوم الحساب. ثم تُوَضح الآيات جزاءهم وفى مقابله الثواب الذى أعد للمؤمنين:

«لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلل. ذلك يُخوِّف الله به عباده ياعباد فاتقون. والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب. أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار. لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد» (١٦ – ٢٠).

قدرة الله فى إنزال المطر وإنبات الزرع :

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مُصفراً ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب» (٢١).

والآيات تلفت النظر إلى قدرة الله فى إنزال المطر من السحاب فبعضه يروى النبات مباشرة والبعض الآخر يجرى أنهارا وبعض آخر يختزن فى طبقات الأرض ليكون خزانات جوفية ثم يخرج عيونا أو تحفر الآبار للوصول إليه ويستفاد منه فى رى الأنواع المختلفة من النباتات التى تيبس بعد نضارتها ثم تصبح حطاما. وهذا التنقل من حال إلى حال كفيل بتذكير أصحاب العقول المستنيرة ولفت نظرهم إلى أن بعد الحياة موت وبعد الموت حياة ثانية. ويرى بعض المفسرين فى الآيات تحذيرا مستترا للكفار بعدم الاغترار برغد العيش الذى هم فيه فكل مايبدو بهيجا قد يعقبه زوال. وكذلك الحياة الدنيا مآلها الانتهاء. كما يرى بعض العلماء المعاصرين فى الآيات إعجازا علميا لما فيه من إشارة إلى دوران الماء فى الطبيعة والذى لم يُفهم إلا مؤخرا. ويتكون من تبخر الماء من سطح البحار والمحيطات ليكون السحاب الذى يتكثف إلى مطر ينزل فيجرى أنهارا تصبُّ فى البحار والمحيطات ويستمر الماء فى دورته هذه إلى ما شاء الله.

أيهما أحسن الإيمان أم الكفر ؟

«أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله

أولئك فى ضلال مبين. الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشـون ربهم ثم تلين جلودهـم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد. أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون» (٢٢ – ٢٤).

وعن وصف القرآن بأنه متشابه قيل متساوقا فى النظم والمحتوى و «مثانى» قيل هو ذكر الشيئ وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين أو الجنة ثم النار والحياة والموت. وقيل جمع مثنى لما فيه من تكرار الدعوة إلى الله وتكرار تحذير المشركين من العذاب وتكرار التذكير بيوم القيامة وهكذا.

والآية الأخيرة فيها تساؤل عن الكافر الذى لا يجد شيئا يتقى به سوء العذاب – وهو النار – إلا وجهه لأنه لم يقدم عملا صالحا. وهناك حذف وتقديره: أم المؤمن الذى عنده من الأعمال الصالحة ما يقى وجهه يوم القيامة؟ ثم يقال للظالمين ذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون واختصرت إلى «ذوقوا ما كنتم تكسبون» وفيها تقريع لأنهم كانوا يظنون أنهم يكسبون خيرا.

وفى نفس هذا المعنى تستمر الآيات وتضرب المثل بأمم سابقة :

«كذَّب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون. قرآنا عربيا غير ذى عِوَج لعلهم يتقون. ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَلَما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» (٢٥ – ٢٩).

والمثل يُشبه المشركين فى تعدد آلهتهم وحيرتهم كعبد مملوك لشركاء عديدين متنازعين عليه كل واحد يجذبه إليه فلا يُنتفع به. أما المؤمن فهو كالعبد الذى له مالك واحد لا ينازعه فيه أحد لأن المؤمن عرف أن له ربا واحداً فأسلم نفسه إليه وجعل العبادة خالصة له وحده.

حتمية البعث بعد الموت :

قيل إن بعض الكفار كانوا يتحدثون فيما بينهم أن هذا الدين الجديد سيزول بعد أن يموت محمد وتزول الخصومة القائمة فى قريش فنزلت الآيات تؤكد على أن كل بنى آدم محكوم عليه بالموت حتى النبى نفسه وهم أيضا. وأنه فى يوم القيامة ستكون الخصومة قائمة أيضا وبالطبع سيقضى الله وينصر رسوله:

«إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» (٣٠ – ٣١).

ثم تجئ الآيات بعد ذلك تحذر الظالمين الذين ظنوا ذلك الظن وكذَّبوا الرسول وكذبوا على الله بأنهم قد بالغوا فى ظلم أنفسهم:

«فمن أظلم من كَذَبَ على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين. والذى جاء بالصدق (أى النبى) وصدَّق به (الذين آمنوا) أولئك هم المتقون. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليُكفِّر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسنِ الذى كانوا يعملون. أليس الله بكافٍ عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد. ومن يهد الله فما له من مُضِل. أليس الله بعزيز ذى انتقام» (٣٢ - ٣٧).

وكان الكفار يُحذِّرون النبى من غضب آلهتهم وأنها قد تضره لكثرة ما يُسفِّه من أمرها. وذلك من ضلالهم. ومن يختار الضلالة يزده الله ضلالا وليس هناك من يهديه. أما من يهديه الله فليس من قوة تستطيع أن تضله. فالله عزيز الجانب وذو انتقام شديد يحفظ أولياءه.

واستمرارا لهذا المعنى تمضى الآيات تشرح مكابرة الكافرين وأن النبى لو سأل المشركين عمَّن خلق السموات والأرض لاعترفوا بأنه الله ومع ذلك يجعلون له شركاء لا يضرون ولا ينفعون. وتأمر الآيات المشركين - تحدِّيًا لهم - أن يظلوا على عنادهم وسوف يعلمون على من يقع العذاب:

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنِيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون. قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم» (٣٨ - ٤٠).

وقد سبق أمر المشركين بالبقاء على تكذيبهم وكفرهم - فى الآية ١١ من نفس السورة (ص ٢٩٥) فى قوله تعالى: **«فاعبدوا ما شئتم من دونه»**. وأمر الكافر بالبقاء على حاله فيه تهديد خفى وتعبير عن نفاذ الصبر من كثرة النصح لمن لا يستجيب له.

ثم تمضى الآيات تشرح أن مهمة النبى تنحصر فى الدعوة أما الهداية أو الكفر فعائدها راجع إلى صاحبها. ثم تشرح حقيقة الموت الذى ظنوا أنه نهاية المطاف وأنه يماثل النوم. والبعث يشبه الاستيقاظ من النوم:

«إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل. الله يتوفى الأنفسَ حين موتها والتى لم تَمُت فى منامها فيمسكُ التى قضى عليها الموتَ ويرسلُ الأخرى إلى أجل مسمًّى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (٤١ - ٤٢).

وقد جاء نفس هذا المعنى فى سورة الأنعام (آية ٦٠ ص ٢٦٠): **«وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مُسمًّى»** فالله يقبض الأنفس عند النوم قبضا مؤقتا ثم يرسلها عند الاستيقاظ ليستكمل المرء عمره. وحين الوفاة يقبضها وتظل حتى تعود إلى الأجساد عند البعث.

تنديد بالإشراك بالله:

ثم تأتى آيات فيها توبيخ للكفار الذين اتخذوا شركاء ليكونوا شفعاء لهم عند الله. وتجيب الآية على هذا التساؤل بتساؤل ثانٍ يفيد أن هؤلاء الشركاء لا يصح أن يكونوا شفعاء لأنهم أصنام لا تعقل ولا تملك أن تفعل شيئا فالشفاعة لله وحده:

«أم اتخذوا من دون الله شفعاء، قل أوَلَو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه تُرجَعون» (٤٣ - ٤٤).

تمادى الكافرين فى الكفر:

«وإذا ذُكر الله وحده اشمـأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِر الذين من دونه إذا هم يستبشرون. قل اللهم فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون. ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» (٤٥ -٤٨).

وتمضى الآيات تقرر واحدا من طباع البشر يظهر أكثر وضوحا فى مسلك الكفار:

«فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه (أى أعطيناه) **نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون. قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون. فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين. أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٤٩ - ٥٢).

وقد جاء هذا المعنى نفسه فى الآية ٨ من نفس السورة (ص ٢٩٤) فى قوله تعالى: **«وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل»**. كما جاء فى سورة يونس (الآية ١٢ ص ٢٣٠): **«وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه»**. وفى سورة الإسراء (آية ٦٧ ص ٢١٨) **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم»**. كما جاء فى سورة الأنعام (الآية ٦٣ ص ٢٦٠) **«قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون»**.

والحقيقة أن الإنسان وقت الشدة يتخلى عن عناده وكبريائه ويعود إلى فطرته فيعترف بالإله الحق ويلجأ إليه طالبا النجاة ولكن الإنسان الكافر - بعد أن تزول الشدة - ينسى ذلك ويعود

إلى عناده وكفره. وتكرر الإشارة إلى هذا المعنى فى سور متعددة قصد به إطلاع الكفار إلى حقيقة ما يدور بأنفسهم لعلهم يفيقون من غفوتهم ويعودوا إلى الفطرة فيؤمنوا.

فتح باب التوبة :

وتأتى الآيات التالية تفتح باب التوبة للعاصين :

«قل ياعبادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكُم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أُنزِل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرَّطتُ فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين. أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كَرة فأكونَ من المحسنين. بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين» (٥٢ - ٥٩).

وقيل إن الآيات نزلت فى حق أناس أسلموا فأوذوا فارتدوا وكبر عليهم ذنبهم فأنزلها الله لتفتح باب التوبة. وقيل أيضا نزلت فى حق أناس من المشركين اقترفوا آثاما كثيرة وكانوا يتساءلون عن حالتهم إذا أسلموا. وقيل إنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة فى معركة أحد (وسنذكر ذلك فيما بعد) والآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤ يجمع المفسرون على أنها مدنية ووضعت فى مكانها الحالى بتوقيف من النبى. ويعتبر المفسرون هذه الآية أرجى آية فى القرآن الكريم إذ تفتح باب التوبة على مصراعيه لقوله تعالى **«إن الله يغفر الذنوب جميعًا»**. والآيات بعد ذلك تقرر حرية الإنسان فى الاختيار بين الهدى والضلال وبمسئوليته عن اختياره إذ تندد الآيات بمن يدَّعى بأن الله لم يهده وترد عليه بأن الله قد أراه طريق الهدى بآياته التى أنزلها على رسوله ولكنه كذَّب واستكبر وكفر فحق عليه العذاب. وحينئذ يتمنى لو عاد إلى الدنيا ليعمل صالحا. وتخبره الآيات أن ذلك غير ممكن **«بلى»** فقد مضى وقت العمل وجاء وقت الحساب.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تمضى الآيات توضح مصير الكافرين الذين كذبوا على الله إذ تسودَّ وجوههم وتكون جهنم مثوى لهم. وبالمقابلة يُنجى الله المؤمنين لاختيارهم الهدى ففازوا برضائه وبالجنة لا يمسهم فيها أذى.

«ويوم القيامة ترى الذين كَذَبوا على الله وجوههم مسودةٌ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين. ويُنجِّى الله الذين اتقوا بمفازتهم (بفوزهم) لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون. الله خالق كل شيئ وهو على كل شيئ وكيل. له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون» (٦٠ - ٦٣).

استنكار عبادة غير الله :

«قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطَن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» (٦٤ – ٦٦).

والآيات تأمر النبى بتوجيه سؤال استنكارى للكفار عما إذا كانوا يريدونه أن يعبد غير الله كما يفعلون بجهلهم فى حين أن الله قد أوْحى إليه وإلى الأنبياء من قبله أن الشرك يحبط الأعمال. والآيات تحمل معنى توبيخ الكفار لعبادتهم غير الله. وتنتهى الفقرة بحث النبى على الثبات على عبادة الله وحده وأن يشكره على هذه النعمة. ثم تمضى الآيات فيها تعنيف للمشركين لعدم إدراكهم حقيقة عظمة الله وقدرته واستحقاقه وحده للعبادة:

«وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويَّات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون» (٦٧).

مشهد ثان من مشاهد يوم القيامة :

وكما سبق أن ذكرنا أن كفار قريش – وغالبية شعوب المنطقة – كانوا لا يؤمنون ببعث أو حياة آخرة لذلك فإن كثيرا من الآيات نزلت تؤكد البعث ليرسخ مفهومه فى الأذهان، ومن وسائل التأكيد على حدوثه هو إبرازه كحقيقة واقعة ماثلة أمام الأعين وتكرار وصف مشاهد مختلفة مما سيحدث فى ذلك اليوم – ليس بصيغة المستقبل – بل بصيغة الماضى كما فى هذه الفقرة، أو بصيغة الحاضر – كما فى الفقرة السابقة – ليرسخ فى الأذهان تأكد حدوثه. فعند النفخة الأولى يموت كل من فى السموات والأرض ثم ينفخ فيه مرة أخرى فيُبعث الخلق جميعا ويقومون من قبورهم ينتظرون ما يُفعل بهم. **«وأشرقت الأرض»** أى أرض المحشر **«بنور ربها»** فلا شمس ولا قمر بل بتجلِّيه عز وجل للقضاء بين العباد، ويوضع الكتاب المسجلة فيه أعمال البشر ويُقضى بينهم بالحق، ويُساق الكفار إلى جهنم أما المؤمنون فيُساقون إلى الجنة:

«ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجِئ بالنبيين والشهداء وقُضِىَ بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووُفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذى صَدَقَنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين» (٦٧ – ٧٥).

وقد أثار بعض المستشرقين شبهة فى اختلاف التركيب اللغوى فى وصف جزاء الكافرين «**حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها**» وفى وصف جزاء المتقين: «**حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها**» بزيادة حرف الواو قبل فتحت. ورد الشيخ متولى الشعراوى فى أحد أحاديثه بأن جهنم سرعان ما تفتح أبوابها لابتلاع الكافرين. أما المؤمنون فالجنة تجعلهم ينتظرون قليلا ليتمتعوا بطيب ريحها ثم تفتح الأبواب ببطء وسكينة ليدخلوها فى وقار وتستقبلهم الملائكة بالسلام. ويتمتمون هم بحمد الله على نعمه. ثم تختم السورة بوصف رائع لمجد الله وعظمته يصوِّر عرش الرحمن والملائكة محيطين به ليس لهم من عمل إلا التسبيح بحمد ربهم وتمجيده والكل يهتف بحمد الله.

الحواميم السبعة :

قلنا سابقا (ص ٢٩٢) إنه توجد ثمان سور نزلت بنفس ترتيبها فى المصحف. وسبع منها تبدأ بحرفى الحاء والميم ولذلك تسمى بالحواميم السبعة. هذه السور السبع هى: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف. وقال ابن مسعود عن الحواميم إنها ديباج القرآن. وقال إن لكل شيئ لبابا ولباب القرآن الـ «حم». وتشترك كلها فى أنها - بعد الـ «حم» تأتى بتنويه أن القرآن مُنزَّل من عند الله وبعد ذلك تأتى المواضيع الأخرى.

سورة غافر :

وتسمى أيضا سورة المؤمن اقتباسا من ذكر مؤمن آل فرعون فيها.

«**حمٓ. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطَّوْل لا إله إلا هو إليه المصير**» (١ - ٣).

مقابلة بين جزاء الكافرين وثواب المؤمنين :

تبدأ الآيات ببيان جزاء الكافرين :

«**ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلُّبهم فى البلاد** (أى تنعمهم بالمال والسلطان). **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب** (الأمم التى تحزبت ضد رسلهم) **من بعدهم وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليُدحِضوا به الحق فأخذتُهم فكيف كان عقاب. وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار**» (٤ - ٦).

أما المؤمنون فإن الملائكة يطلبون من الله المغفرة لهم ويسألونه أن يدخلهم الجنة. ولاشك أن طلبهم مجاب لأنهم أقرب الملائكة إلى الله إذ هم حملة العرش ولا يكفون عن التسبيح بحمد الله وتمجيد عظمته:

«**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وَسِعتَ كل شيئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا**

وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم. وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم» (٧ - ٩).

ثم تعود الآيات إلى الكافرين فتذكر توبيخهم يوم القيامة واعترافهم بخطئهم محاولة منهم الخروج من النار:

«إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون. قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل. ذلك بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلىّ الكبير» (١٠-١٢).

بعض مظاهر قدرة الله فى الدنيا والآخرة :

ثم تصف الآيات بعضا من مظاهر قدرة الله وعظمته وإحاطة علمه ثم إنذار وتذكير بهول يوم القيامة:

«هو الذى يريكم آياته وينزّل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب. فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق. يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب. وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيئ إن الله هو السميع البصير» (١٣ - ٢٠).

وفى الآيات إسمان من أسماء يوم القيامة: «يوم التلاق» أى يوم اجتماع الخلق وتلاقيهم عند الله. و«يوم الأزفة» من أزف دنا واقترب وتآزف القوم تدانى بعضهم من بعض كما عند الحشر. وفى الآية الأخيرة بيان لقدرة الله فهو الذى يقضى. وإثبات لعجز آلهة الكفار إذ ليس فى استطاعتهم أن يقضوا بشيئ.

ثم يأتى تساؤل يندد بعدم اتعاظ الكفار بما يرونه من آثار هلاك الأمم السابقة نتيجة تكذيبهم لرسلهم مع أنهم كانوا أكثر قوة من قريش وفى هذا تحذير الكفار من مصير مماثل بسبب تكذيبهم للنبى:

«أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق. ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب» (٢١ - ٢٢).

جانب من قصة موسى :

وتذكر الآيات من ٢٣ - ٤٦ جانبا من قصة موسى وفرعون مركّزة على رجل من آل فرعون

آمن سرا بموسى وراح ينهى قومه عن إيذاء موسى ويدعوهم إلى الإيمان بالله. وقد سبق أن ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٨٨٠). ومن المرجح أن بعضا من رجال قريش قد حذوا حذو مؤمن آل فرعون فآمنوا وكتموا إيمانهم درءا لإيذاءات قومهم فتكوَّن فريق يخفف من غلواء المتشددين ويحاولون إثناءهم عن التمادى فى الكيد للمؤمنين. وقد رأينا بعضهم يُحمِّلون بعض الدواب بالغذاء ويسوقونها ناحية شعب أبى طالب أثناء الحصار (ص ١٧٠).

كذلك تصف الآيات مغالاة فرعون فى الكفر وطلبه من وزيره هامان أن يبنى له بناء عاليا يصعد عليه ليرى إله موسى:

«وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب. أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا. وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب» (خسار عظيم) (٣٦ - ٣٧).

ثم تعود الآيات إلى مؤمن آل فرعون فى استجداء أخير منه لقومه كى يؤمنوا:

«وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. وياقوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار. فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد. فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» (٣٨ - ٤٦).

ولاشك أن مناشدة مؤمن آل فرعون لقومه كى يؤمنوا تنطبق أيضا على كفار قريش وكأنها مناشدة لهم وحث على نبذ عبادة الأصنام ودعوة للإيمان بالله. ثم هذا النداء الأخير: **«فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّض أمرى إلى الله»** وكيف أن الله أنجاه وأنزل عذابه بآل فرعون فى الدنيا وفى حياة البرزخ وفى الحياة الآخرة.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تمضى الآيات تصف مشهداً مما سيحدث يم القيامة من مُحاجَّة ضعفاء القوم الكافرين محاولين إلقاء تبعة كفرهم على زعمائهم:

«وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد. وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم

بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال. إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار» (٤٧ – ٥٢).

وقد ورد فى سورة سبأ (آية ٣١ ص ٢٨٩) محاجة مماثلة وفيها يحاول الضعفاء إلقاء مسئولية كفرهم على سادتهم فى حين يحاول هؤلاء التنصل من ذلك وينتهى المشهد بأن توضع الأغلال فى أعناق الاثنين والمفهوم أنه ليس بعد ذلك إلا الإلقاء فى النار.

ثم تصف الآيات استجداء الكفار للملائكة خزنة جهنم أن يدعوا الله أن يخفف عنهم العذاب ولو قليلا فترد الملائكة عليهم موبخين بسؤال يستنكر تكذيبهم للرسل عندما جاءوهم بالآيات البينة. وعند إقرارهم بذلك يطلب منهم الملائكة بأن يدعوا فمهما أكثروا من الدعاء فلن يقبل منهم.

حث على الصبر :

ثم تأتى آيات فيها ذكر لموسى وما نزل عليه من التوراة فيها هدى لبنى إسرائيل ولكنهم سرعان ما ضلُّوا وتكرر ذلك منهم ولكن موسى صبر على ضلالهم ومن هنا جاء حث النبى على الصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله والاستعاذة به من كل ضيق:

«ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولى الألباب. فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى (ما بعد الزوال) والإبكار (فى أول النهار). إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كِبْرٌ ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير» (٥٣ – ٥٦).

تأكيد على قيام الساعة :

ثم تأتى هذه الآيات لتذكِّر بأن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس. ولا يستوى الذى يتعامى عن هذه الحقيقة مع من يبصرها. وعليه فإن قيام الساعة مؤكد لاشك فيه ولكن كثيرا من الناس لا يصدِّقون:

«لَخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيئ قليلا ما تتذكرون. إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (٥٧ – ٥٩).

حث على الإكثار من الدعاء :

«وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (صاغرين)**. الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس**

ولكن أكثر الناس لا يشكرون. ذلكم الله ربكم خالق كل شيئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون. كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون» (٦٠ - ٦٣).

والآيات واضحة فى حث المؤمنين على الدعاء فيُستجاب لهم. ثم تهديد الكفار بدخول جهنم أذلاء صاغرين. ثم تذكير بنعمة الله على البشر بليل يسكنون فيه ونهار مضئ يعملون فيه. ثم تعجب ممن تغيب عنهم هذه الحقائق أو ينكرونها.

قدرة الله فى خلق الإنسان :

ثم تأتى آيات فيها تذكير بجانب من نعم الله على العباد وتيسيره لمعاشهم فى الدنيا مما يوجب استحقاقه وحده للعبادة. ثم لفت نظر البشر إلى تغير حالهم من ضعف إلى قوة ثم من قوة إلى ضعف ومن حياة إلى ممات ولعل القصد هو لفت نظر الكفار إلى عدم الاغترار بما هم فيه حاليا من قوة وثروة وجاه وأن يتفكروا فى المستقبل حين تدب الشيخوخة ثم يعقبها الموت وما بعد الموت من بعث وحياة آخرة.

«الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين. هو الحى لا إله إلا هو فادعوه (بمعنى اعبدوه) **مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين. قل إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنِىَ البينات من ربى وأُمرت أن أسلم لرب العالمين. هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يُتوفى من قبلُ ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون. هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»** (٦٤ - ٦٨).

جزاء المكذبين :

«ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يُصرفون. الذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون. إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يُسحبون. فى الحميم ثم فى النار يُسجرون. ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله. قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبلُ شيئا كذلك يُضل الله الكافرين. ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون. ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين» (٦٩ - ٧٦).

والصورة مرعبة حقا تصور الكفار والقيود فى أعناقهم ويسحبون بالسلاسل إلى ماء شديد الحرارة ثم يلقون فى النار. ثم يسألون توبيخا وتبكيتا - عن معبوداتهم التى أشركوها فى العبادة مع الله فيجيبون بأنهم غابوا عنهم ويعترفون أنهم لم يكونوا يدعون من قبلُ فى الدنيا إلا سرابا ووهما.

حث ثانٍ على الصبر :

ثم تمضى الآيات بعد ذلك تحث النبى على الصبر وأن يتمثّل بمن سبق من الرسل. ثم يأتى تذكير ببعض نعم الله على البشر :

«فاصبر إن وعد الله حق. فإما نُرينَّك بعض الذى نعدهم أو نتوفَّينك فإلينا يُرجعون. ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك. وما كان لرسولٍ أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضِيَ بالحق وخسر هنالك المبطلون. الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون. ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تُحملون. ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون» (٧٧ – ٨١).

ثم يأتى ختام السورة بتساؤل استنكارى عما إذا كان الكفار لم يسيروا فى الأرض فيروا آثار الأمم السابقة التى أهلكها الله وكانوا أكثر منهم قوة فاغتروا بما عندهم من قوة. حتى إذا بدأت نقمة الله تنزل بهم آمنوا ولكن هذا الإيمان لم يكن ليفيدهم شيئا بعد فوات الفرصة. وواضح أن هدف الآيات هو تحذير كفار قريش بألا يغتروا هم أيضا بما عندهم من قوة ومال وألا يؤخروا إيمانهم إلى حين لا ينفعهم ويكونوا من الخاسرين:

«أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون. فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون» (٨٢ – ٨٥).

ثم نزلت سورة فصلت :

وهى ثانى سور الحواميم .

«حمٓ. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتابٌ فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» (١ – ٨).

بعد الافتتاحية بـ «حم» تنص الآيات على أن القرآن أنزل بلسان عربى مبين حتى يلمس العرب ما احتواه من أنواع البلاغة المعجزة فيقتنعوا أنه غير كلام البشر ويتأكد لهم أنه من وحى السماء. ثم يأتى تنديد بمن أعرضوا عنه وأصروا على كفرهم بل وسدُّوا المنافذ التى يمكن أن يتسرب الإيمان من خلالها إليهم: وهى حواس السمع والبصر والفؤاد. ثم أعلنوا عن

إصرارهم على موقفهم بقولهم «إننا عاملون» ويلقن الرسول الرد عليهم فيخبرهم أنه بشر مثلهم والمعنى أنه لا يملك أن يجبرهم على الإيمان وحذّرهم من مغبة إشراكهم «ويل المشركين» وهو تهديد بعذاب قد ينزل بهم فى حين أن المؤمنين لهم أجر غير مقطوع.

آية خلق السموات والأرض :

ثم تمضى الآيات تستنكر كفرهم بالله الذى خلق السموات والأرض، فقد خلق الله الأرض فى يومين وجعل فيها الجبال رواسى وأودع فيها أرزاق الناس فى أربعة أيام ثم خلق السموات فى يومين:

«قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم» (٩ - ١٢).

وقد أثار بعض المستشرقين شبهة أن مجموع الأيام المذكورة هو ثمانية أيام فى حين أن المعروف أن خلق السموات والأرض تم فى ستة أيام. ولم يفطن هؤلاء المستشرقون أن الأربعة أيام المنصوص عليها لتقدير أرزاق الأرض يدخل فيها يوما الخلق فالمجموع ستة لا ثمانية كما فهموا.

ويرى علماء الچيولوچيا أن العصور التى مرت على الأرض والتقلبات والتغيرات التى حدثت فى القشرة الأرضية جعلت أجزاء من البحار تدفن فى الأرض، وعلى مدى ملايين السنين تحللت الأحياء المائية التى كانت بها وتحولت إلى بترول. كما أن غابات بأكملها دفنت أيضا تحت سطح الأرض فتحولت إلى مناجم الفحم. ثم إن اندفاع الصهارة البركانية الموجودة فى باطن الأرض فى شقوق القشرة الأرضية أنتج عروق المعادن المختلفة. ثم لما برد سطح الأرض إلى درجة الحرارة المناسبة ظهرت النباتات ثم الحيوانات البدائية ذات الخلية الواحدة ثم الأسماك والزواحف ثم الثدييات. كل ذلك كان لتهيئة الأرض لمقدم خليفة الله فيها وهو الإنسان. وكانت مقادير الثروات فى كل جزء بحيث تكفى أعداد من سيعيشون عليها من البشر **«ذلك تقدير العزيز العليم»**.

كما يرى علماء الفلك المعاصرون أن النص على أن السماء كانت دخانا هو إعجاز علمى من القرآن الكريم سبق به المعارف العلمية بأربعة عشر قرنا من الزمان. إذ أن أحدث النظريات لبداية الكون هى نظرية الدخان أو السديم الأولى ومنه تشكّلت المجرات والنجوم وما حولها من كواكب.

إنـذار لكافريـن :

ثم تمضي الآيات تندد بالكافرين وتنذرهم بأنهم إذا لم يؤمنوا فقد ينزل بهم عذاب مثل عذاب عاد وثمود:

«فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون. فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولَم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون» (١٣ – ١٨).

أحد مشاهد يوم القيامة :

ثم يأتى وصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة حين تشهد الجوارح على الناس بما كانوا يفعلون:

«ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يَستعتِبوا فما هم من المعتبين. وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين» (١٩ – ٢٥).

ولاشك أن الآيات قد أثارت الخوف والفزع فى نفوس الكافرين إذ يعلمون أن كل أفعالهم تُحصى عليهم وأن جوارحهم فى يوم القيامة ستشهد عليهم بما كانوا يفعلون ولن تنفعهم أى أعذار يقدمونها وليس لهم إلا أن يصبروا على النار. ذلك لأنهم استمعوا إلى وسوسة الشياطين من الجن والإنس فزيّنوا لهم طريق الكفر والضلال.

الكفار يصدون عن الدين :

تذكر الآيات كيف كان الكافرون يحضُّون على عدم الاستماع للقرآن الكريم ثم تذكر عذابهم يوم القيامة. وفى المقابل تذكر النعيم الذى سيُمتَّع فيه المؤمنون:

«وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تَغلِبون. فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينَّهم أسوأ الذى كانوا يعملون. ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار

الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون. وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين. إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون. نزلا من غفور رحيم. ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعَمِل صالحا وقال إننى من المسلمين» (٢٦ - ٣٣).

الحسنات تذهب العداوات :

تقرر الآيات أفضلية فعل الحسنات وأثرها فى إزالة العداوات :

«ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم» (٣٤ - ٣٦).

التنديد بعبادة الكواكب :

كانت عبادة الكواكب منتشرة فى كل بلاد الشرق الأدنى القديم وفى الجزيرة العربية. وكانت قبيلة تميم تعبد الشمس وقبيلة كنانة تعبد القمر وكان الناس يُسمُّون عبد شمس ومنهم جد بنى أمية. فنزلت الآيات توضح أن الكواكب خلق من مخلوقات الله وآية من آياته وتنهى عن عبادتها:

«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون. فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبِّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون» (٣٧ - ٣٨).

دليل منطقى على البعث :

ثم تلفت الآيات النظر إلى قدرة الله وما أودعه فى البذور من حياة كامنة وما أودعه فى التربة من مقومات الحياة بحيث إذا سقطت عليها البذور وطالها الماء أنبتت ونبضت بالحياة بعد أن كانت ميتة. وعلى الكفار ألا يستبعدوا إحياء الموتى فقدرة الله ليس لها حدود:

«ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيئ قدير» (٣٩).

القرآن آية كبرى :

ثم تمضى الآيات تندد بالكافرين الذين يجحدون آيات الله - والقرآن آية كبرى - وما كان يجب على الكفار أن يكذبوه:

«إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يَخْفَوْن علينا. أفمن يُلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم

القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير. إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلت آياته. أأعجميٌّ وعربيٌّ. قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد. ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب» (٤٠ – ٤٥).

وتفيد الآيات أن الذين يميلون عن الصراط السوي ولا يؤمنون بآيات الله ويجحدونها لا يغيب أمرهم على الله وسيجازيهم بما يستحقون ويلقون في النار. ثم يأتي سؤال عن أيهما أحسن: هذا المصير أم المؤمن الذي سيكون يوم القيامة مطمئنا إلى حسن الثواب بما قدم من صالح العمل. ثم يأتي تهديد للكفار بأن يفعلوا ما يشاءون فالله بصير بأعمالهم. وحُذف ما ينتظر المكذبين وتقديره أن لهم عذابا أليما. ثم يأتي تأكيد على أن القرآن كتاب لا نظير له لا يأتيه الباطل. ثم تسرية عن النبي بإخباره أن ما قيل له من تكذيب هو مثل ما قيل للرسل الذين سبقوه. والحجة قائمة على الكفار فالقرآن نزل بلسان عربي مبين حتى لا يحتجُّوا بأنه نزل بلسان أعجمي فلم يفهموا آياته. وقد ازداد المؤمنون به هدى أما الكافرون فقد ازدادوا بتكذيبهم له ضلالا فكأنهم لم يستمعوا له كأن في آذانهم صمما أو أنهم ينادون من مكان بعيد. ثم يُضرب المثل بموسى إذ آتاه الله التوراة فاختلف بنو إسرائيل عليها ولولا قضاء من الله سبق بأن يؤجل عذاب المكذبين لنزل بهم عذاب يهلكهم.

مسئولية كل فرد عن عمله :

ثم تقرر الآيات أن كل امرىء مسئول عن عمله صالحا كان أم سيئا وسيحاسب على ما عمل دون ظلم أو إجحاف. وفيه معنى مستتر وهو أن على الكفار أن يتحملوا تبعة تكذيبهم:

«من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلاّمٍ للعبيد» (٤٦).

ثم تمضي الآيات توضح أن يوم القيامة لا أحد يعلم موعده إلا الله. ثم تبين جانبا من قدرة الله وعلمه:

«إليه يُرَد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها (براعمها) **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنَّاك** (أي أعلمناك) **ما منا من شهيد. وضلَّ عنهم ماكانوا يدعون من قبلُ وظنوا ما لهم من محيص»** (٤٧ – ٤٨).

ويوم القيامة ينادي الله المشركين ويسألهم – توبيخًا لهم – عن الشركاء الذين كانوا يدعونهم من دونه فيقولون معتذرين إنه ليس منهم من يشهد أن لله شريكا وغاب عنهم ماكانوا يعبدون من شركاء وأيقنوا أنه لا مهرب لهم.

إعادة تذكير بجحود البشر :

إذ يلجأ الناس إلى الله فى الشدة ويعرضون عنه عند الرخاء :

«لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسَّه الشر فيئوس قنوط. ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنَّهم من عذاب غليظ. وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر فذو دعاء عريض» (٤٩ – ٥١).

ختـام السـورة :

ثم يأتى سؤال استنكار إلى الكفار عما يكون حالهم إذا كان القرآن حقا من عند الله وكفروا به. ثم إنذار أن الله سيريهم آيات فى أنفسهم وفى الآفاق بحيث يتيقن لهم أن الله حق ومع ذلك سيظلون فى شك من البعث مع أن علمه سبحانه وتعالى محيط بكل شيئ:

«قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد. سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيئ شهيد. ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيئ محيط» (٥٢ – ٥٤).

وفى معنى قوله تعالى : **«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم»** يرى المفسرون المعاصرون أن الإنسان سيكشف فى الكون ونواميسه وفى تركيب جسم الإنسان من العجائب ما يؤكد وجود الخالق العظيم. ويكفى ما أثبته العلم من وجود ملايين الملايين من المجرات وبها بلايين النجوم وكلها تتحرك فى أفلاكها بسرعات هائلة ولا تتصادم ولا ينفرط عقدها. ناهيك عن إعجاز عمليات تكاثر الخلايات وانقسام الكروموسومات وما عليها من چينات فقد حشدت إمكانيات آلاف العلماء ومئات من الحاسبات الإليكترونية العملاقة لعدة سنوات لتتمكن من حل الشفرة الوراثية لخلية لاتزيد فى الحجم عن ٧ أو ٩ من ألف من الملليمتر وهو ما سُمّى بمشروع الچينوم البشرى.

ثم نزلت سورة الشورى :

وتبدأ مثل باقى الحواميم بحرفى الحاء والميم وزيد عليها ثلاثة أحرف أخرى:

«حم. عسق. كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. له مافى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم» (١ – ٤).

تعظيم جرم الإشراك بالله :

«تكاد السموات يتفطرن (يتشققن) من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل» (٥ – ٦).

والمعنى أن السموات - مع عظمهن وتماسكهن تكاد أن تتشقق من فظاعة ما يدعيه الكفار من شريك مع الله. لولا أن الملائكة يسبحون الله وينزهونه عما لا يليق به ويطلبون المغفرة لأهل الأرض ولولا أن الله تعالى قد اتصف بالغفران والرحمة. ثم تقرير بأن الله رقيب على أفعال المشركين وأن النبى ليس مسئولا عنهم وأن الله هو الذى سيتولى حسابهم.

ولاشك أن هذا التصوير لعظم جرم الإشراك بالله زلزل قلوب المشركين وجعلهم أو على الأقل جعل بعضهم يراجع موقفه المكذب للقرآن وخاصة بعد أن يعلم أن الله يحصى أعمالهم ورقيب عليهم «حفيظ عليهم» وهو الذى سيتولى حسابهم.

تحذير من يوم القيامة وتمجيد لله تعالى :

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى (مكة) ومن حولها وتنذر يوم الجمع (يوم القيامة) لا ريب فيه. فريق فى الجنة وفريق فى السعير. ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير. أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شيئ قدير. وما اختلفتم فيه من شيئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب. فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير. له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيئ عليم» (٧ - ١٢).

الدين عند الله واحد :

«شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب. وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب» (١٣ - ١٤).

والآيات تقرر أن الدين واحد. ما شرعه الله على نبيه محمد وما جاء به نوح وما أنزل على إبراهيم وموسى وعيسى كلها مِلَّة واحدة فى محتواها التوحيدى. ثم تأتى إشارة إلى استعظام المشركين لما يدعو إليه النبى من عبادة الله وحده وعدم الإشراك به. ثم تقرير بأن الله يختار ويقرب إليه من يشاء. ثم توضيح أن ما حدث من الاختلافات بين أهل الديانات السماوية المختلفة راجع إلى سوء التأويل والتفسير وإلى المآرب والأهواء. ولولا وعد سابق من الله بتأجيل الفصل بينهم إلى يوم القيامة لأهلكوا. وأن الذين ورثوا الكتاب من أسلافهم وأدركوا عهد النبى لفى شك من كتابهم الذى به بشارة بالنبى وفى شك من النبى فلم يتبعوه. وتمضى الآيات تأمر

النبى «فلذلك» أى لأجل وحدة الدين وعدم التفرق – أن يدعوهم إلى ما أمر به الله ولا يساير أهواء الذين اختلفوا على دينهم وانحرفوا عن شريعتهم وأن يخبرهم أنه أُمِرَ أن يؤمن بجميع الكتب التى أنزلها الله من قبل على رسله وأن يقيم العدل بينهم فالله خالقه وخالقهم، وهو مسئول عن عمله وهم مسئولون عن أعمالهم ولا حجة لهم عليه لوضوح الحق. والله سيجمع بينه وبينهم فى الآخرة وهو الذى سيفصل بينهم بالعدل. أمَّا الذين يجادلون فى دين الله بعدما استجاب الناس للدعوة فهؤلاء ليس لهم حجة عند الله وعليهم غضبه ولهم عذاب شديد:

«فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حَجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير. والذين يُحاجُّون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد» (١٥ – ١٦).

عــن الساعــة :

«الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان (أى العدل) **وما يدريك لعل الساعة قريب. يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق. ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد. الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز. من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب»** (١٧ – ٢٠).

وفى الآيات تأكيد على أن القرآن منزل من عند الله. أما من يتساءلون عن الساعة فالآيات تخبرهم أن النبى نفسه لا يعرف موعدها ولكنها قد تأتى فى موعد أقرب مما يتصوَّرون. ويستعجل وقوعها من ينكرونها استهزاء فى أنفسهم. أما الذين يُصدِّقون بها فهم على خوف من وقوعها ومتأكدون من حدوثها أما الذين يتشككون فى وقوعها فهم فى ضلال ووهم كبير. ثم يأتى تقرير بأن الله هو الرزاق وأن من يريد ثواب الآخرة فسيزيده الله من الثواب ومن كان يريد متع الدنيا أعطاه الله فيها ولكن ليس له نصيب فى الآخرة. والمعنى هو أن لا يظن الكفار أن ماهم فيه من قوة وغنى هو علامة على رضا الله عنهم.

تنديد بالشــرك :

«أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقُضِىَ بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم. ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير. ذلك الذى يُبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسنا إن الله غفور شكور» (٢١ – ٢٣).

والآيات فيها تساؤل استنكارى عما إذا كان آلهة الكفار قد شرعوا لهم دينا قائما بذاته غير دين الله. وقد قضت حكمة الله أن يؤجل الفصل بين المؤمنين والكفار إلى يوم القيامة. ثم تتطرق الآيات إلى حال الظالمين يوم القيامة يوم ينزل بهم العذاب الأليم. وحال المؤمنين فى روضات الجنات. وفى تفسير قوله تعالى: **«قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى»** روى الطبرى عن ابن عباس قوله إن النبى لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة فلما كذبوه استحلفهم باسم القرابة وقال: يا قوم إذا أبيتم أن تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيكم. لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظى ونصرتى منكم.

نفى الافتراء عن القرآن الكريم:

«أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور. وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون. ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد» (٢٤ - ٢٦).

وكان الكفار يقولون إن النبى هو الذى يؤلف القرآن وينسبه إلى الله. وجاء الرد على ذلك بأن الله قادر - لو كان قولهم صحيحا - أن يختم على قلب النبى ويمحو الباطل المفترى ويحق الحق فهو العليم بما فى الصدور. ثم تبين أن باب التوبة مفتوح لهم ليتوبوا عما يقولون. وأن الذين آمنوا يستجيبون للحق ويتبعونه ويعملون الصالحات ويزيدهم الله من فضله. أما الكافرون فلهم عذاب شديد.

جانب من حكمة الله وقدرته فى الكون:

«ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدَر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير. وهو الذى يُنَزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد. ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير. وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير. وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نصير. ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير. ويعلَمَ الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص. فما أوتيتم من شيئ فمتاعُ الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» (٢٧ - ٣٦).

وفى الآيات تنبيه إلى خُلُق من أخلاق الناس بصفة عامة وهو ميلهم إلى الظلم والبغى إذا ما بسط الله لهم الرزق ووسَّع عليهم. ثم تنبيه إلى أن ما يصيب الناس من مصائب هو من كسب أيديهم ونتيجة لأعمالهم وجزاء عليها فليس لهم أن يلوموا غيرهم والله منزَّه عن الظلم

والكفار ليسوا بقادرين على منع نزول عذاب الله بهم في الدنيا. ويُضرب مثل بالسفن في البحر وقدرة الله في سيرها أو توقيفها وهو ما يَعتبر به المؤمنون، ثم حث الكفار على عدم الاغترار بما آتاهم الله من متاع الدنيا لأن ما أعدَّه الله من نعيم الجنة للذين آمنوا خير وأكثر دواما.

عن المؤمنين وأوصافهم :

تذكر هذه الفقرة عددا من أوصاف المؤمنين وأفعالهم :

«والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ماغضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون. والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» (٣٧ – ٤٣).

فقرة عن الكافرين :

«ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردٍّ (عودة إلى الدنيا) **من سبيل. وتراهم يعرضون عليها** (على النار) **خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي** (يسترقون النظر خوفا) **وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم. وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل»** (٤٤ – ٤٦).

دعوة إلى الإيمان :

ثم تأتي دعوة إلى السامعين – والمقصود الكافرون – تدعوهم إلى الاستجابة إلى الرسول والإيمان بالله قبل فوات الأوان:

«استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردٌّ له من الله مالكم من ملجإٍ يومئذ وما لكم من نكير (بمعنى نصير). **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ. وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور. لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير»** (٤٧ – ٥٠).

طرق الوحي المختلفة :

«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم. وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان

ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور» (٥١ – ٥٣).

وتوضح الآيات أن إبلاغ كلام الله إلى أنبيائه يكون إما وحيا بالإلقاء مباشرة فى القلب، يقظة أو مناما. أو بسماع الكلام الإلهى دون أن يرى السامع من يكلمه أو يرسل الله ملكا يُسمع صوته – وقد تُرى صورته – فيوحى بما يشاء الله. وقد أوضحت سورة الشعراء (الآية ١٩٢ ص ١٨٠) أن الوحى للنبى كان عن طريق جبريل الأمين **«وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين»**.

وقد رُوِىَ أن الحارث بن هشام سأل النبى كيف يأتيه الوحى فقال: أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه علىَّ فينفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال. وأحيانا يتمثل لى رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول. وتقول عائشة: ولقد رأيته (النبى) ينزل عليه الوحى فى اليوم شديد البرودة فينفصم عنه وإن جبينه يتفصَّد عرقا.

ثم نزلت **سورة الزخرف** :

«حم. والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. وإنه فى أم الكتاب لدينا (اللوح المحفوظ) **لعلىٌّ حكيم. أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين. وكم أرسلنا من نبى فى الأولين. وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين»** (١ – ٨).

وقد بدأت السورة بحرفى حم فهى رابع السور الحواميم. ثم قَسَم بالقرآن الكريم. يليه تنويه بأنه نزل بلسان عربى حتى يستطيعوا فهمه وإدراك إعجازه وتدبر معانيه. وكان الكفار قد أسرفوا فى عنادهم وتكذيبهم للنبى ولعلهم تمنوا لو أن النبى ييأس ويتركهم لشأنهم فنزلت الآية بسؤال فيه تعجب من تفكيرهم هذا. فكثرة الإعراض تستدعى تكرار الدعوة وتكرار التذكير لا أن يتركهم لحالهم. ولقد ضرب النبى مثلا رائعا فى الإصرار على الدعوة رغم إعراض قريش إذ استمر لثلاثة عشر عاما فى مكة يعيد التذكير بقدرة الله ونعمه وإعادة التذكير بالبعث والحساب. وذكَّرهم بما حدث للأمم السابقة الذين كانوا يستهزئون بأنبيائهم فأهلكهم الله مع أنهم كانوا أشد قوة من قريش. وفى هذا تحذير لقريش من هلاك مثلهم.

اعتراف الكفار بقدرة الله :

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن خلقهن العزيز العليم. الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذى نزَّل من السماء ماء بقَدَر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تُخرجون. والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون.

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون» (٩ – ١٤).

تفنيد الإشراك بالله :

ثم تتطرق الآيات لتفنِّد – على أساس من المنطق – الإشراك بالله :

«وجعلوا له من عباده جزءًا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم (أى آثركم) بالبنين. وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مُسودًا وهو كظيم.أَوَ من يُنَشَّؤُ فى الحِلية وهو فى الخصام غير مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويُسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون. أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون. بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة (مِلَّة) وإنا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين» (١٥ – ٢٥).

وفى هذه الفقرة تنديد بعقيدة الإشراك بالله ويدَّعى الكفار أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله فى حين أن العرب كانوا يُجلِّون الذكور فكأنهم جعلوا لله الصنف الأضعف والذى يقضى جزءا كبيرا من حياته فى التزين ولا يقوى على القتال والخصام. وخصُّوا أنفسهم بالذكور. وكذلك ندَّدت الآيات بادعاء الكفار أن كفرهم قد كتبه الله عليهم. يليه تساؤل على سبيل الاستنكار والنفى عما إذا كان قد أُنزل عليهم قبل القرآن كتاب فهم يتمسكون به. ثم راح الكفار مرة ثانية يتنصلون من ذنب الكفر بادعائهم أنهم وجدوا آباءهم على هذه العبادات وهم ماضون على طريقهم. وردَّ على هذه الحجة بأن هذا دأب الأمم السابقة التى كانت رسلهم ينذرونهم فكان «مترفوها» أى الزعماء وأصحاب الوجاهة والقوة هم المتمسكون بعبادات الآباء الفاسدة مع أن الرسل جاءوهم بما هو أهدى فكان الواجب اتباع الرسل ولكنهم كفروا فانتقم الله منهم. وتختم الفقرة بدعوة للسامع أن يتأمل فى عاقبة أمرهم كى يدرك كم كان عظيما انتقام الله منهم.

وفى الآيات تسرية للنبى بإخباره بأن ما يلقاه من قومه هو نفس ما كان يلقاه الرسل من قبله وإنذار للكفار بعاقبةٍ مثل ما حاق بالأولين ولاتزال آثارهم باقية – يمكن رؤيتها – شاهدة على ما حدث لهم.

رفض إبراهيم لشرك قومه :

لما تحجَّج الكفار بأنهم إنما يتابعون آباءهم فى عبادتهم ضُرب لهم المثل بإبراهيم ورفضه للآلهة التى كان أبوه وقومه يعبدونها:

«وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون. إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية فى عقبة (أى فى ذريته) لعلهم يرجعون» (٢٦ - ٢٨).

ولما كان العرب يفخرون بأنهم ذرية إبراهيم فكان ضرب المثل به فى رفضه لشرك قومه مناسبا لتفنيد حجة الكفار بوجوب اتباع الآباء.

ادعاء الزعماء بأنهم أحق بالنبوّة :

ثم تذكر الآيات أن الله قد يسَّر لقريش الرزق على مر القرون. ولما جاءهم النبى بالدين الحق قالوا إنه سحر وكفروا به وأنكروا أن يُنزَّل القرآن على «محمد» فى حين أن فى مكة والطائف من هو «أعظم» منه. ويُردّ على ذلك بسؤال استنكارى عما إذا كانوا هم الذين يتحكمون فى قسمة رحمة الله وتوزيعها واختيار من هو الأحق برسالة الله. ثم تقرر بأن الله هو الذى يقسم المعيشة بين العباد ليخدم بعضهم بعضا.

«بل متعتُ هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين. ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون. وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا. ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٢٩ - ٣٢).

وكان بعض زعماء الكفار يرون أنفسهم أحق بالنبوة لأنهم أصحاب الحول والقوة فى قومهم. ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة فى مكة وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف فقد كانا يرون أنفسهم أحق بنزول الرسالة عليهم. كما أن بعض أفراد من قريش كانوا على شيئ من العلم وظنوا أنهم أحق بالنبوة. وقد رُوى أن النضر بن الحارث بن كلدة - أحد زعماء الكفر - كان يعرف كثيرا من تاريخ الفرس وكان واقفا على الأديان السابقة فكان يقول فى سبيل الصدّ عن النبى : هو يحدثكم بأساطير الأولين فتعالوا إلىّ وأنا أحدثكم عن رستم واسفنديار بحديث أطلى.

تهوين أمر الدنيا التى ينعم بها الكافرون :

«ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون. وزخرفا وإن كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين. ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون. أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين. فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط

مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون. واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون» (٣٣ - ٤٥).

والآيات توضحُ أن الله قادر على أن يعطى الكافرين بيوتا فاخرة وأثاثا محلى بالذهب والفضة ولكن كل هذا متاع الحياة الدنيا الزائلة والآخرة هي الأبقى. يلى ذلك تنبيه إلى أن الذى يتعامى عن ذكر الله وآياته يجعل الله له رفيقا من الشياطين يتسلط عليه ويصده عن طريق الهدى. ويوم القيامة يندم ويود لو كان قرين السوء هذا بعيدا عنه. ثم تقرر الآيات أنه لن يخفف عنهم من العذاب كونهم مشتركين فيه. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى يخبره بأنه ليس من شأنه أن يجبرهم على الإيمان لأنهم مثل العمى والصم. ثم دعوة للنبى بأن يسأل أهل الكتاب - من يهود ونصارى - هل أمر الله بعبادة آلهة سواه سبحانه وتعالى. وفى هذا استنكار لما كانت قريش تعبده من آلهة.

جانب من قصة موسى :

وفى هذا الجانب من قصة موسى يذكر كيف أن قوم فرعون كانوا يسخرون من آيات الله:

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه فقال إنى رسول رب العالمين. فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون. وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون. وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عَهِدَ عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون» (٤٦ - ٥٠).

وفى الآيات إشارة للأوبئة التى أنزلها الله بقوم فرعون لعلهم يرجعون إلى الله وكل آية من هذه الآيات هى أكبر وأعظم من الأخرى. ولكنهم كانوا إذا نزل بهم البلاء طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليرفع عنهم مانزل بهم ويَعِدونه بأن يهتدوا ويطلقوا سراح بنى إسرائيل. فإذا رفع البلاء عادوا إلى عنادهم وكفرهم.

ثم تمضى الآيات تذكر كيف كان فرعون - فى سبيل الصد عن موسى - يتيه بما هو فيه من غنى وتسلط على ملك مصر ويطلب من الناس أن يقارنوا بين هذا وما عليه قوم موسى من ذلة ومهانة الاستعباد. ويلمِّح إلى ماكان فى لسان موسى من ثقل عند الكلام. ثم يبلغ به السفه أن يدَّعى أن الله لو كان قد أرسل موسى حقيقة لألقى إليه أسورة من ذهب كعادة الملوك فى ذلك الوقت عند تقليد وزرائهم. أو أرسل معه ملائكة يخدمونه. وكان هذا منتهى الاستخفاف بعقول المصريين ولكنهم أطاعوه لأنهم كانوا فاسقين فجعلهم الله أمثولة لمن بعدهم:

«ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مَهين ولا يكاد يُبين. فلولا ألقى عليه أسوِرَة من ذهب أو

جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين» (٥١ – ٥٦).

عن عيسى ابن مريم :

«ولما ضُرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدُّون. وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خَصِمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل. ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون. وإنه لعلم الساعة فلا تمترُنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم. ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين. ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون. إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» (٥٧ – ٦٤).

وكان الكفار حينما يذكر عيسى ابن مريم يزدادون إعراضا ويتساءلون عما إذا كان هو أجدر بالعبادة – حيث أن النصارى يؤلهونه – أم آلهتهم التى يعبدونها. وكانوا يحتجون بأن النصارى وهم أهل كتاب يقولون إن المسيح ابن الله. أما قولهم إن الملائكة بنات الله فهو أكثر اتساقا لأن الملائكة مخلوقات نورانية. وقد ردت الآيات على هذا الجدل بأن عيسى ليس إلا عبدا من عباد الله وأراد الله أن يجعل من خلقه – بدون أب – آية ومعجزة لبنى إسرائيل. وللتدليل على طلاقة قدرته أخبرهم أن الله لو شاء لجعل من نسلهم ملائكة يخلفونهم فى الأرض وينتهى ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله. وفى تفسير **«وإنه لعلم للساعة»** قالوا إنها تشير إلى نزول عيسى قبل نهاية الدنيا كعلامة من علاماتها. ولاشك أن مسألة نزول عيسى ثانية إلى الأرض كانت متداولة بين أهل الكتاب فى زمن النبى. ثم تقرر الآيات أن عيسى قال للناس إنه عبد من عباد الله وأن الله ربُّه وربُّهم وأمرهم بعبادة الله.

وتمضى الآيات تثبت اختلاف الفرق المسيحية من بعد عيسى :

«فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم. هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. الأخِلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» (٦٥ – ٦٧).

والمتبادر للذهن أن اختلاف الأحزاب هو اختلاف فرق النصارى حول طبيعة المسيح وهو ما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء السادس ص ١٣٦. ثم يأتى إنذار للظالمين من عذاب أليم وأن الساعة قد تأتيهم فجأة ويصبح بعضهم لبعض عدو. وقد ذكرنا سابقا محاولة ضعفاء الكفار إلقاء تبعة كفرهم على سادتهم ومحاولة هؤلاء التنصل من تهمة إضلالهم فتدب العداوة بينهم والذين كانوا أخلاء وأصدقاء فى الدنيا يصبح بعضهم لبعض عدوا.

الجنة للمؤمنين وجهنم للكافرين :

والآيات توضح ثواب المؤمنين فى الجنة وفى مقابلة تعذيب المجرمين فى النار :

«يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون (من الحبور وهو السرور). **يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون. إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون. لا يُفتَّر** (لا يخفف) **عنهم وهم فيه مُبلسون** (يائسون من النجاة). **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مَالِكُ ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون. أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون»** (٦٨ – ٨٠).

وهذه أول مرة يذكر فيها اسم أحد الملائكة وهو «مالك» خازن جهنم وحارسها. إذ يطلب الكفار منه أن يدعو ربه ليخفف عنهم من عذاب جهنم ولو شيئا قليلا فيرد عليهم بأنهم مقيمون فى العذاب ولم يوضح إلى متى – والمفهوم طبعا إلى ما شاء الله. ويُوضِّح سبب هذا العذاب المقيم أن الله قد أرسل لهم رسوله بالحق فكانوا له كارهين ولم يؤمنوا به. ثم يأتى تحدى لهم فإن كانوا قد بيتوا مناوأة النبى فإن الله قد أحكم تدبيره وبيت أمرا. وقد أبهم هذا الأمر ليشمل كل شيئ: حماية النبى من مكائدهم وظهور الدين برغم مناوأتهم وصدِّهم وغير ذلك. وإذا كانوا يظنون أن الله لا يسمع تدبيرهم وما يبيتون فهم مخطئون لأن لله رقباء يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم.

تمجيد الله ونفى الولد عنه سبحانه وتعالى :

«قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين. سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون. وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم. وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجعون. ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤفكون. وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون. فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» (٨١ – ٨٩).

«قل إن كان للرحمن ولد» – وهذا مستحيل – ولكن تمشيا مع هذا الفرض – فسيكون النبى أول من يعبده لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. ثم جاءت **«سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون»** لتنفى هذا الولد وتنزه الله عن هذا الوصف. ثم أمر للنبى بأن يتركهم فى ضلالهم حتى يُفاجأوا بيوم القيامة ولن يملك الشركاء الذين أشركوهم فى العبادة أن يشفعوا لهم. ثم تخبر الآيات النبى أن المشركين – رغم تكذيبهم له – لو سألهم عمن خلقهم فسيعترفون بأن الله هو الذى خلقهم. ثم يأتى تعجب من انصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة غيره **«فأنى يؤفكون»** وإذ يئس الرسول من إيمانهم فإنه يلتجئ إلى الله مستغيثا **«يارب»**

ومخبرا أنهم قوم لا يُنتظر منهم إيمان. فيؤمر النبي بالاستعلاء عليهم والصفح عنهم والدعوة لهم بالسلام بما يعني أن ينفض يده منهم ويُفوِّض أمرهم إلى الله وأنهم سوف يعلمون. وأبهم مضمون ماسوف يعلمون ليشمل كل شيئ: يعلمون أن النبي كان على حق وأن البعث حق وأن الحساب على الأعمال حقيقة وأن عاقبة أمرهم هو الخسران المبين.

ثم نزلت **سورة الدخان** :

«حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يُفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم. رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين» (١ - ٨).

وتبدأ السورة بحرفي حم فهي خامسة سور الحواميم. ويعقب ذلك قسم بالقرآن الكريم. وجواب القسم أن الله أنزله في ليلة مباركة هي ليلة القدر التي أوضحتها سورة القدر (ص ٨٦).

الدخان أحد علامات يوم القيامة :

«بل هم في شك يلعبون. فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. أنَّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا مُعلَّم مجنون. إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون. يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» (٩ - ١٦).

والآيات تندد بالكفار لأنهم يتلقون ما يسمعون من الوحي بالشك ويتهمون النبي بالجنون ثم تتوعدهم الآيات بيوم هو من مقدمات يوم القيامة. يملأ الجو فيه دخان كثيف. ويروى حذيفة بن اليمان حديثا أن النبي قال: إن أول الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من عدن تسوق الناس إلى المحشر والدخان. فسأله حذيفة. وما الدخان؟ فتلا رسول الله: **«فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم»** ثم قال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة وأما الكافر فتكون منه بمنزلة السكران ثم تكون البطشة الكبرى أى يوم القيامة.

جانب من قصة موسى وفرعون :

تركز الآيات في هذا الجزء على حادث إغراق فرعون وإنجاء بني إسرائيل وما في ذلك من تلميح بعذاب قد ينزل بكفار قريش جزاء تكذيبهم:

«ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدُّوا إليَّ عباد الله إني لكم رسول أمين. وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين. وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون. وإن

لم تؤمنوا لى فاعتزلون، فدعا ربه أنَّ هؤلاء قوم مجرمون، فأسرِ بعبادى ليلاً إنكم مُتّبعون، واترك البحر رهوا إنهم جند مُغرقون، كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوما آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظَرين، ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين، من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين، ولقد اخترناهم على علم على العالمين، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين» (١٧ – ٣٣).

إنكار الكافرين للبعث :

«إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمُنشرين، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين، أهم خير أم قوم تُبَّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين» (٣٤ – ٣٧).

والآيات تذكر إنكار الكافرين للبعث واعتقادهم أن الموت هو نهاية المطاف وكيف راحوا يتحدُّون النبى طالبين منه التعجيل بإحياء آبائهم إن كان صادقا فى دعواه عن البعث. وترد الآيات عليهم بسؤال عما إذا كانوا هم أقوى من قوم تُبَّع و الأمم التى سبقتهم وكانوا أكثر قوة من كفار قريش وقد أهلكهم الله بتكذيبهم. وتُبَّع المشار إليه هو أول الملوك الذين حكموا اليمن فى الدولة الحميرية الثانية والتى تعرف عند العرب بدولة التبابعة (٣٠٠ – ٥٢٥ م). وقد سبق أن ذكرنا ذلك من قبل (ص ٤) وكانت عاصمتها ريدان وهى حاليا ظفار. وقامت بضم القبائل المجاورة فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن وتهامة. وفى عهده انتشرت اليهودية فى اليمن بعد أن كانت قاصرة على الجزء الشمالى منذ عهد بلقيس ملكة سبأ فى عهد سليمان. ودخلت النصرانية إلى نجران وبقيت الأجزاء الأخرى وثنية تعبد النجوم والكواكب. ويقال إن تُبع خرج بجيوشه حتى وصل إلى العراق وعاد مارا بالشام ثم سار فى طريق القوافل عائدا إلى اليمن ولما اقترب من مكة أشيع أنه ينوى هدم الكعبة فحذَّره الأحبار من ذلك لأن مكة هى مبعث نبى آخر الزمان وسيكون للكعبة شأن فى دينه فعظَّمها ويقال إنه اعتنق الحنيفية دين إبراهيم. ولما عاد إلى اليمن أنكر عليه قومه مفارقته لدين آبائهم وهادنوه حتى إذا مات عادوا إلى كفرهم. وعن ابن عباس أنه قال: لا تقولوا فى تبع إلا خيرا فإنه قد حجَّ البيت. وكانت عائشة تقول: لا تسبُّوا تُبَّعا فإنه كان رجلا صالحا. وقال كعب عن تبع: نعم الرجل الصالح. ذمَّ الله تعالى قومه ولم يذمَّه.

ثم تمضى الآيات تؤكد على البعث فتذكر أن الله لم يخلق السموات والأرض عبثا بل خلقهما بحكمة وهذه الحكمة تتمثل فى أن يكون هناك يوم الفصل والحكم بين الناس بحسب أعمالهم ولا يفيد أن يشفع قريب لقريبه أو أن يتحمل عنه شيئا من العذاب:

«وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، يوم لا يُغنى مولًى عن مولًى شيئا ولا هم ينصرون، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم» (٣٨ – ٤٢).

ثم تصور الآيات العذاب الذى ينتظر الكافرين فى أبشع صورة: فطعامهم من شجرة الزقوم وهى شجرة طعمها مر وريحها خبيث. ويُسقى الكافر ماء حارا كمعدن صهرته الحرارة الشديدة فتغلى منه بطنه ويؤمر الملائكة بأن يصبوا فوق رأسه ماء يغلى زيادة فى التعذيب ويقال له - تهكما - ذق. فإنك أنت العزيز فى قومك الكريم فى حسبك. وفى المقابل يأتى وصف النعيم الذى يتقلب فيه المؤمنون فى الجنة خالدين فيه أبداً:

«**إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم. كالمهل يغلى فى البطون. كغلى الحميم. خذوه فاعتلوه** (فقودوه بغلظة وعنف) **إلى سواء الجحيم** (وسطه) **. ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم. إن هذا ماكنتم به تمترون. إن المتقين فى مقام أمين. فى جنات وعيون. يلبسون من سندس واستبرق متقابلين. كذلك وزوَّجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين. لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم. فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم** (٤٣ - ٥٧).

ختام السورة :

«**فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون. فارتقب إنهم مرتقبون**» (٥٨ - ٥٩).

والآيات تنص على أن الله أنزل القرآن بلسان العرب حتى يمكن أن يفهموه ويتعظوا بما جاء فيه. فإن لم يتعظوا فلينتظروا - ولينتظر النبى أيضا - ما يحل بهم من عذاب. وقد تكرر مثل هذا التهديد للكفار بأن ينتظروا أمر الله وقضاءه وما يحل بهم من نقمة وعذاب - فى عدة سور سابقة ففى سورة الأعراف (آية ٧١ - ص ١٢١) «**فانتظروا إنى معكم من المنتظرين**». وفى سورة هود (آية ١٢٢ ص ٢٤٧) «**وانتظروا إنا منتظرون**».

ولاشك أن شدة عناد قريش هى التى استدعت تكرار مثل هذا التهديد.

ثم نزلت **سورة الجاثية :**

وتبدأ السورة بحرفى الحاء والميم فهى سادسة الحواميم. يلى ذلك تأكيد بأن القرآن مُنزَّل من عند الله :

«**حمٓ. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إن فى السموات والأرض لآياتٍ للمؤمنين. وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق** (كناية عن المطر) **فأحيا به الأرض بعد موتها. وتصريف الرياح** (أى تسييرها) **آيات لقوم يعقلون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون**» (١ - ٦).

وإذا كان علماء الأرصاد الجوية قد حددوا للرياح اتجاهات معينة حسب وقتها من السنة وحسب موقعها من خطوط العرض إلا أنها لا تفعل هذا بذاتيها بل بقدرة الله الذى يصرِّفها كيفما يشاء فتحمل المطر إلى هذه البلدة لا إلى تلك . وكم من إعصار توقع الخبراء مروره بمنطقة معينة وحذَّروا أهلها من مخاطره ثم صرفه الله فى آخر لحظة إلى وجهة أخرى.

إنذار للمكذبين :

بعد ذلك يأتي إنذار شديد للمكذبين :

«ويل لكل أفّاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يُصِر مُستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مُهين. من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ماكسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم. هذا هُدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم» (٧ - ١١).

والرجز هو العذاب الشديد. ولاشك أن كفار قريش قد ملأ الخوف قلوبهم لدى سماع هذا الإنذار لما فيه من قوة ولما عددته الآيات من مظاهر كفرهم كتجاهل آيات الله عند سماعها أو الهزء بها أو اتخاذهم شركاء من دون الله.

بعض مظاهر قدرة الله في الكون :

وتمضى الآيات تلفت النظر - وخاصة نظر الكفار - إلى مظاهر قدرة الله في الكون واستحقاقه وحده للعبادة :

«الله الذي سخّر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله (لا يتوقعون الحساب) **ليجزى قوما بما كانوا يكسبون. من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم تُرجعون»** (١٢ - ١٥).

وفى الآيتين الأخيرتين أمر للمؤمنين ليكظموا غيظهم ويصفحوا عن الإيذاء الذى يصيبهم من الكفار الذين لا يصدّقون فى بلاءات الله التى ينزلها ببعض العباد جزاء لهم على ما اقترفوا من سيئات فالقاعدة هى أن من عمل صالحا فلنفسه الأجر ومن أساء فعليه وزر ما عمل من سوء.

ضرب المثل باختلاف بنى إسرائيل :

«ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين. هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون» (١٦ - ٢٠).

فمع أن الله قد آتى بنى إسرائيل الكتاب أى التوراة وآتاهم أيضا النبوة والرزق الوفير وفضلهم على جميع أهل زمانهم. إلا أن هذا لم يمنعهم من الاختلاف والتنازع فيما بينهم

ولسوف يقضى الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه. ثم جاء النبى محمد مبعوثا على منهج واضح أُمر أن يتبعه هو والمؤمنون ولا يتبع أهواء الذين لا يعلمون طريق الحق فهؤلاء بعضهم أولياء بعض والله ولىٌّ الذين يتقونه. وفى الآيات تنديد ببنى إسرائيل وإعلانهم أنهم فقدوا باختلافهم وتحريفهم لكتابهم – مزية التفضيل التى كانت لهم.

عدم تساوى الكافر مع المؤمن :

«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون. وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتُجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون. أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون» (٢١ – ٢٣).

والآيات تنبه الكفار إلى خطإ ما ذهبوا إليه من المساواة بين الذين ارتكبوا السيئات واتبعوا الهوى وأنكروا البعث وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء فى الحياة الدنيا أم بعد الممات فهذا سوء حكم منهم على الأمور. والله هو الذى خلق الكون بالحق ومن الحق أن تجازى كل نفس بما عملت ولن يظلم الله أحدا. فمن جعل إلهه هواه واتبعه فى كل ما يأمر به زاده الله ضلالا على ضلاله وأغلق سمعه وقلبه وأعمى بصره عن الحق وليس هناك من يهديه.

إنكار الكفار البعث :

«وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلاَّ يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٢٤ – ٢٦).

والآيات تنعى على الكفار إنكارهم للبعث واعتقادهم أنها ماهى إلا هذه الحياة الدنيا وأنهم يموتون بفعل الزمن. وما يقولون ذلك عن علم بل ظنا وتخمينا. وإذا قرأ النبى عليهم آيات تذكر البعث طلبوا منه – إنكاراً وتحدِّيا – أن يأتى بأبائهم وأجدادهم ليؤكد صدق ما يقول. ويؤمر النبى بالرد عليهم بتوضيح أن الله هو الذى خلقهم ابتداء ثم هو الذى يميتهم ثم يبعثهم ويجمعهم ليوم القيامة وهذا مالاشك فيه ولكن الناس ينكرون هذه الحقيقة.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

والآيات واضحة وفيها توبيخ للكفار على ماكانوا يفعلون من آثام، يلى ذلك وصف لثواب المؤمنين وفى مقابله ما ينتظر الكفار من عذاب:

«ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية

(من هول الموقف) كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ (أى الملائكة يكتبون) ما كنتم تعملون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين. وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين. وإذا قيل لهم إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين. وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون. وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يُستعتبون» (٢٧ – ٣٥).

ثم تختم السورة بحمد الله وتمجيده :

«فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين. وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (٣٦ – ٣٧).

ثم نزلت سورة **(الأحقاف)** :

«حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (١ – ٣).

والسورة تبدأ بحرفى الحاء والميم إذ هى آخر الحواميم السبعة. يلى ذلك تنويه بأن القرآن منزل من عند الله ولكن الكافرين يعرضون عما فيه من إنذارات.

تسفيه الإشراك بالله :

«قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة (شيئ ولو قليل) من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين» (٤ – ٦).

والآيات تسأل الكفار – فى تحدى – عما إذا كان شركاؤهم قد خلقوا شيئا فى الأرض أم اشتركوا فى خلق السموات حتى يستحقوا العبادة مع الله أو أن رفضهم للدين يستند إلى تمسكهم بكتاب إلهى سبق إنزاله إليهم أو حتى إلى علم ولو كان قليلا. ثم تقرر الآيات أنه ليس هناك من هو أكثر ضلالة ممن يعبد من دون الله معبودات لا تستجيب له حتى لو استمر يدعو إلى يوم القيامة لأنهم غافلون عن عبادتهم ولا يشعرون بها ويوم القيامة يكونون لهم أعداء بدل نصرتهم وينكرون بل ويستنكرون عبادتهم لهم.

جدال الكافرين ودحض حججهم :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين. أم يقولون

افتراه. قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم. قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلاَّ ما يوحى إلىَّ وما أنا إلا نذير مبين. قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين» (٧ - ١٠).

والآيات تفند الحجج التى أثارها الكفار ضد القرآن وضد النبى. فقد وصفوا الآيات بالسحر واتهموا النبى باختلاق القرآن ويُردُّ عليهم بأنه لو كان اختلقه لعاجله الله بعقوبة لا يستطيعون ردَّها. والله عليم بما يخوضون فيه من طعن فى آياته. ثم تخبرهم الآيات أن النبى ليس أول الرسل حتى ينكروا نبوَّته وأنه ماهو إلا نذير ولا يعلم ما سيفعله الله بهم أو به. ثم يُوجَّه سؤال إلى الكفار عما يكون حالهم إن كان القرآن من عند الله وكفروا به وشهد بعض اليهود على نزول مثله من عند الله وآمنوا به.

ثم راح الكافرون. يتحجَّجون بأن السابقين إلى الإسلام كانوا من الفقراء والعبيد ولو كان ما جاء به النبى خيرا لكانوا هم - أصحاب السيادة - أسبق الناس إلى اتباعه لما لهم من مكانة وعقول راجحة. ثم راحوا يطعنون في الدين ويقولون إن هذا إلا أساطير الأولين. مع أنهم يؤمنون أن الله أنزل التوراة من قبله والقرآن مُصدِّق لما جاء بها وقد جاء بلسان عربى ليفهموه ولينذر الذين يكذبونه ويبشر الذين آمنوا به بالجنة ثوابا على حسن عملهم:

«وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم. ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدِّق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين. إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون» (١١ - ١٤).

بر الوالدين وطاعتهما :

«ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كُرها ووضعته كُرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين. أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون. والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أُخرجَ وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقولُ ما هذا إلا أساطير الأولين. أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين. ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون. ويوم يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون» (١٥ - ٢٠).

والآيات تحث على بر الوالدين والإحسان إليهما وخاصة الأم فقد تحملت مشقة كبيرة أثناء الحمل والولادة. ثم قررت الآية أن مدة الحمل والرضاعة حتى الفطام ثلاثون شهرا. وقد سبق أن ذكر في سورة لقمان (آية ١٤ ص ٢٨٠) **«حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين»** ومن ثم فقد استنتج الفقهاء أن أقصر مدة للحمل هي ٦ أشهر (٣٠ - ٢٤). ثم تصف الآيات حال بعض شباب مكة المفتونين الذين ظلوا على كفرهم وأنكروا البعث في حين أن آباءهم آمنوا وكانوا يدعونهم إلى الإيمان فيتضجَّر الابن من دعوتهما ويستنكر البعث ويستشهد بأن أحدا ممن مات قبلا لم يخرج من قبره ويصف البعث بأنه من أساطير الأولين. وتقرر الآيات أن القائلين بذلك هم الخاسرون ولكل واحد ما يستحقه دون ما ظلم. ويوم القيامة يوقف الكفار على النار ويجرى توبيخهم على أنهم اغتروا بالحياة الدنيا واستمتعوا بها ولم يعملوا شيئا طيبا ينفعهم في الآخرة فكان نصيبهم عذابا مهينا في النار.

جانب من قصة عاد قوم هود :

وقد سبق ذكر جوانب من هذه القصة في سور سابقة: سورة الأعراف (آية ٦٥ - ٧٢ ١٢١) وسورة الشعراء (آيات ١٢٣ - ١٤٠ ص ١٧٨) وسورة هود (الآيات ٥٠ - ٦٠ ص ٢٤٤). وفي السورة الحالية - الأحقاف - وهو اسم المنطقة التي تقع شرق اليمن وشمال حضرموت (شكل ١ ص ٢) وهو المكان الذي كان يسكنه قوم هود - ومنه أخذت السورة اسمها - وركزت الآيات على ما حاق بهم من هلاك نتيجة تكذيبهم لنبيهم هود:

«واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال إنما العلم عند الله وأبلِّغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون. فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا. بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمِّر كل شيئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين» (٢١ - ٢٥).

وقد كان رد قوم هود على دعوته هو نفس ما كانت تقوله قريش للنبي وهو إنكارهم محاولته صرفهم عن آلهتهم وكذلك تحديهم له بإنزال ما يعدهم من عذاب. وكان جواب هود عليهم - وهو أيضا جواب النبي على قريش - أن العلم بوقت العذاب عند الله وحده وأن النبي ماهو إلا مُبلِّغ لما أرسل به من الله. فأتاهم العذاب في صورة سحاب ظنوا أنه سحاب ممطر وفرحوا به ولكن اتضح لهم أنه هو ما استعجلوه من عذاب. ريح دمرت كل شيئ فأهلكتهم وبقيت مساكنهم المدمَّرة لتكون شاهدا عليهم.

ثم يتوجه الخطاب إلى كفار قريش مبينا لهم أن الله قد مكَّن لعاد من السعة والقوة مالم

يُمكِّن لهم وجعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ولكنها لم تغن عنهم شيئا إذ جحدوا آيات ربهم واستهزأوا بها فنزل بهم عذاب الله. ثم تخبرهم الآيات أن الله قد أهلك ما حول مكة من القرى – والمرجح أن المقصود قوم صالح – ولم تنصرهم الآلهة التى أشركوا بها بل خذلتهم ونالوا جزاء تكذيبهم وافترائهم:

«ولقد مكناهم (آتيناهم من أسباب القوة) **فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون. فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون»** (٢٦ – ٢٨).

الجن يؤمنون بالقرآن :

ثم تذكر الآيات ماكان من استماع جماعة من الجن للقرآن فآمنوا وأسرعوا إلى قومهم يخبرونهم أن هناك كتابا سماويا أنزل بعد موسى – وهو القرآن – مصدِّقا لما سبقه من الكتب وراحوا يحثونهم على الإيمان ليغفر الله ذنوبهم ويمنع عنهم العذاب. أما من أعرض فلن يستطيع الهرب من الله وليس هناك من ولىّ يحميه من العذاب :

«وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِىَ ولَّوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعِىَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين» (٢٩ – ٣٢).

تأكيد على أن البعث حق :

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة بتساؤل عما إذا كان الكفار لم يدركوا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى. ويوم القيامة سيقف الذين كفروا على النار ويُسألون – توبيخا لهم – هل لم يدركوا بعدُ أن البعث حق؟ فيعترفون بأنه كذلك فيؤمرون بأن يذوقوا العذاب جزاء لهم على كفرهم. وفى النهاية تحث الآيات النبى على الصبر كما صبر غيره من الرسل وألا يستعجل للكفار العذاب فهو واقع بهم لا محالة وحين يلاقونه – فى الآخرة – سيشعرون كأنهم لم يتركوا الدنيا إلا منذ فترة وجيزة قرابة الساعة:

«أوَلَمْ يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعىَ (ولم يتعب) **بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيئ قدير. ويوم يُعرَض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق**

قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يُهلك إلا القومُ الفاسقون» (٣٣ - ٣٥).

ثم نزلت **سورة الذاريات** :

«**والذاريات ذروا** (الرياح التى تذرو التراب). **فالحاملات وقرا** (السحاب الحامل الماء) **فالجاريات يسرا** (الريح التى تسيِّر السفن فى البحار بيسر) **فالمقسِّمات أمرا** (تقسم المطر على أجزاء مختلفة من الأرض). **إنَّما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع**» (١ - ٦).

وقد بدأت السورة بقسم من الله بالرياح وأنواعها المختلفة على أن ما يوعد به الناس من البعث والحساب هو أمر صادق وواقع. والحقيقة أن موضوع البعث كان هو الشغل الشاغل للنبى لاقناع الكفار به إذ كما سبق أن ذكرنا كانت شعوب الشرق الأدنى فى معظمها لا تؤمن به. لذلك تكرر التأكيد عليه فى آيات كثيرة فى سور عديدة من سور القرآن. ثم يأتى قَسَم ثانٍ:

«**والسماء ذات الحُبُك. إنكم لفى قول مختلف. يؤفك عنه من أُفِك. قُتل الخرَّاصون. الذين هم فى غمرة ساهون. يسألون أيَّان يوم الدين. يوم هم على النار يُفتنون. ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون. إن المتقين فى جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم. وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم أفلا تبصرون. وفى السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**» (٧ - ٢٣).

والقسم الثانى كان «**والسماء ذات الحبك**» وحبك معناها شدَّ وأحكم. وحبك النسَّاج الثوب أى أجاد نسجه. والسماء ذات الحبك أى ذات الصنع المحكم والروابط الشديدة. ويرى العلماء المعاصرون فى هذا الوصف إعجازا علميا. إذ عُلِمَ مؤخرا أن الكون فيه بلايين المجرات وكل مجرة فيها ملايين النجوم مثل وأكبر من شمسنا وكل شمس تدور حولها كواكب سيارة وكل هذه النجوم والكواكب تسبح فى الفضاء بسرعات هائلة ومع ذلك لا يتصادم بعضها مع بعض لأن لكل كوكب مدار محدد يحكمه توازن مذهل بين قوى الجاذبية وقوى الطرد المركزية. فلا تتصادم الكواكب أو ينفرط عقدها. وجواب القسم أن الناس إزاء هذا الأمر - البعث - مختلفون. ففريق قد أُفِك وصُرِف عن الحق وجزاؤهم النار. أما المتقون فهم فى الجنات بما صدَّقوا وقاموا الليل واستغفروا وتصدَّقوا. ثم دعوة للتأمل فى الكون لنرى قدرة الله فى الأرض وفى الإنسان نفسه وفى السماء وما تنزله من رزق مقسوم للعباد. ثم يقسم الله بذاته العليَّة «**فوربِّ السماء والأرض**» على أن البعث حق لا يصح الارتياب فيه مثلما الناس متأكدون من قدرتهم على الكلام.

بعد ذلك يأتى ذكر **جوانب من قصص الأنبياء السابقين :**

أ – جانب من قصة إبراهيم :

وقد سبق ذكر جوانب من قصته فى سور عديدة سابقة: فى سورة الأنعام (الآيات ٧٤ – ٨٤ ص ٢٦٢) وسورة الصافات (الآيات ٨٣ – ٩٩ ص ٢٧٦). ثم جاءت السورة الحالية فى الآيات ٢٤ – ٣٧ تضيف ما حدث من مرور رسل هلاك قوم لوط بإبراهيم وتبشيرهم له بإسحق. ثم إشارة إلى مجادلة إبراهيم لربه فى محاولة لمنع نزول العذاب وهو ما سبق ذكره فى الجزء الثانى ص ٢٢٤. وتقرر الآيات «**فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**» فنزل بهم العذاب المهلك.

ب – إشارة سريعة لقصة موسى :

«**وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين. فتولًى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم**» (٣٨ – ٤٠).

وقد لخصنا فى ص ٢٣٨ ما ذكر عن موسى فى سور الأعراف وطه والقصص والشعراء ويونس.

جـ – إشارة سريعة لقصة عاد :

«**وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** (التى لا خير فيها)**. ما تَذَر من شيئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم** (كالعظم البالى)» (٤١ – ٤٢).

وكان هذا آخر ما نزل عن عاد فى القرآن الكريم. وقد لخصنا فى ص ٣٢٩ ما سبق نزوله عنهم من آيات فى سور الأعراف والشعراء وهود والأحقاف.

د – إشارة سريعة لثمود :

«**وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين**» (٤٣ – ٤٥).

وثمود هم أصحاب الحجر الذين ذكروا فى سورة الحجر (آية ٨٠ ص ٢٥٣). وكان ذكرهم فى السورة الحالية – سورة الذاريات – هو آخر ما نزل عنهم فى القرآن الكريم.

هـ – إشارة خاطفة لقوم نوح :

«**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين**» (٤٦).

وقد ذكرت جوانب من قصته في سور الأعراف والشعراء ويونس وهود. وبه تنتهى هذه الفقرة عن الأنبياء السابقين.

مظاهر من قدرة الله :

١ – «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون» (٤٧).

وكلمة «موسعون» تعنى أن الله قد خلق السماء بأبعاد واسعة أى مُوَسَّع فيها عند خلقها وهذا ما فهمه الأقدمون عندما لاحظوا بعد الشمس والقمر والنجوم. وفى العصر الحديث توصل علماء الفلك إلى أن المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعات أكبر كثيرا من سرعة الضوء وخلصوا إلى نظرية «تمدد الكون» أى أن الكون فى تمدد دائم، واعتبروا لفظ «موسعون» إعجازا علميا لأنه لا يتعارض مع هذه النظرية.

٢ – «والأرض فرشناها فنعم الماهدون» (٤٨).

والتمهيد هو التهيئة، أى لتكون مكانا صالحا لسكنى البشر. ويتوسع الفلكيون المعاصرون فيقولون إن الأرض بعد انفصال كتلتها عن الشمس نزلت عليها أمطار فبرد سطحها وتصلب وبذلك تكونت القشرة الخارجية للأرض ثم انكمشت فتعرجت فنشأت الجبال وامتلأت المنخفضات بالماء فتكونت البحار والمحيطات. ثم تفتّتت أجزاء من صخور الجبال بفعل عوامل التعرية على مدى ملايين السنين وحملت الأمطار الذرات المتفتتة فتكونت سهول الأنهار وتربتها الصالحة للزراعة وأصبحت الوديان طرقا للمواصلات. ثم نبتت النباتات من كل شكل ونوع.

٣ – «ومن كل شيئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» (٤٩).

قالوا نوعين ذكرا وأنثى. وتوسع مجاهد فقال هى إشارة إلى المتقابلات المختلفة كالليل والنهار والهدى والضلال والصحة والمرض. ويتوسع العلماء المعاصرون فى بيان الزوجية فى كل شيئ: ففى الكيمياء يوجد حامض وقلوى، والزوجية موجودة فى كهربية الجزيئات Anion - Cation وازدواجية المغناطيس معروفة: شمال وجنوب. والكهرباء: موجب وسالب. وازدواجية شحنات الجسيمات المكونة للذرة إلكترون وبوزيترون. وهناك من يعتقدون بوجود نقيض المادة Antimatter فى مقابل المادة Matter. والجاذبية ونقيض الجاذبية وهكذا.

دعوة الكفار إلى الإيمان :

«ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين. ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين» (٥٠ – ٥١).

والآيات تدعو الكفار إلى الإسراع بالإيمان بالله وعدم الإشراك به. ثم إنذار لمن يفعل ذلك وتكرر الإنذار للتأكيد على شدة العذاب المنذر به. وإزاء إصرار الكفار على كفرهم مضت الآيات :

«كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون. فتولّ عنهم فما أنت بملوم» (٥٢ – ٥٤).

وتذكر الآيات أن التكذيب والاتهام بالسحر أو الجنون كان أيضا من نصيب الرسل السابقين كأن الأمم السابقة قد أوصت كفار قريش به. ثم يجئ أمر للنبى بالإعراض عن الكفار وإخباره أنه غير ملوم عن عدم إيمانهم. وتستمر الآيات تأمر النبى بدوام ذكر الله فذلك يزيد المؤمن بصيرة وقوة. ولم يخلق الله الجن والإنس لنفع يعود عليه منهم فهو غنى عن العالمين بل خلقهم ليعبدوه فيثيبهم على ذلك بأحسن مما صنعوا رحمة منه وفضلا:

«وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (٥٥ - ٥٨).

ختام السورة :

ثم يأتى ختام السورة بتهديد قوى للكفار فى صيغة تؤكد أن لهم «ذَنوبا» أى نصيبا والمفهوم أنه نصيب من العذاب مثل نصيب أقرانهم من الأمم السابقة. ولهذا العذاب أوان محدد وعليهم ألا يستعجلوا وقوعه قبل أوانه إذ سيكون فى ذلك هلاكهم وويل لهم من ذلك اليوم الذى يوعدون به ولا يصدقونه:

«فإن للذين ظلموا ذَنوبا مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون» (٥٩ - ٦٠).

ثم نزلت سورة الغاشية :

«هل أتاك حديث الغاشية» (١).

والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة لأنها تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها. وبدأت السورة بسؤال يشوّق السامع إلى متابعة ما يجئ بعد ذلك ليعرف الإجابة. والسؤال موجّه إلى النبى إلا أنه يقصد سؤال كفار قريش عما إذا كانوا قد علموا ما سيكون عليه الناس فى يوم القيامة. ثم تمضى الآيات توضح أنهم سيكونون فريقين:

١ - الكافرون :

«وجوه يومئذ خاشعة (ذليلة). **عاملة ناصبة** (مجهدة متعبة). **تصلى نارا حامية. تُسقى من عين آنية** (شديدة الحرارة). **ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغنى من جوع** (لا يُشبع ولا يزيد الجسم نمواً)**»** (٢ - ٧).

وقيل الضريع شجرة ذات شوك أمرُّ من الصبر. لا يقدر أحد على أكله. وقيل هو شجرة الزقوم المذكورة فى سورة الدخان (الآية ٤٣ ص ٣٢٤).

٢ - المؤمنون :

وفى مقابل عذاب الكافرين يُذكر النعيم الذى يرفل فيه المؤمنون فى الجنة:

«وجوه يومئذ ناعمة (متنعمة وذات نضارة)، لسعيها راضية، في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية (لغوا)، فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق (وسائد) مصفوفة، وزرابى (نوع من الأبسطة) مبثوثة» (٨ – ١٦).

دعوة للتأمل فى الكون ومخلوقات الله :

«أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت، وإلى السماء كيف رُفعت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الأرض كيف سُطحت» (١٧ – ٢٠).

واختار الله من الحيوانات ألصقها بالبدوى وهى الإبل وطلب من الكافرين التدبر فى كيفية خلقها لتتحمل الجوع والعطش أثناء مسيرتها فى الصحراء وكيف خلقت أقدامها بحيث لا تغوص فى الرمال، ثم دعوة للنظر إلى السماء كيف رفعت بغير عمد وإلى الجبال الشامخات كم هى مرتفعة وقد أثبت الجيولوجيون أن الجبال لها مثل كتلتها ممتدة فى أعماق القشرة الأرضية لتكون ركيزة لها فلا تميل، كما أن توزيع الجبال محسوب بدقة بالغة بحيث يحفظ توازن الأرض أثناء دورانها فتدور بسلاسة دون ارتجاج، ثم اختيير لوصف الأرض لفظ «سطحت» وهو ما يتفق مع ما كان يعتقده الأقدمون من أن الأرض مسطّحه وفى نفس الوقت لا يتعارض مع معطيات العلم عندما ثبتت كروية الأرض ولكنها – لكبر حجمها – تبدو مسطحة.

ثم تأمر الآيات النبى بأن يُذكّر الكفار، أنّ مهمته هى التبليغ وليس مسيطرا عليهم بحيث يجبرهم على الإيمان، ومن كفر فإنهم راجعون إلى الله وهو الذى يتولى حسابهم.

«فذكّر إنما أنت مُذكّر، لست عليهم بمصيطر، إلا من تولى وكفر، فيعذبه الله العذاب الأكبر، إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم» (٢١ – ٢٦).

بيعة العقبة الثانية :

كان قد مرّ عام على بيعة العقبة الأولى (ص ٢٤٨) وجاء موسم الحج التالى، وفى خلال هذا العام كانت ١٦ سورة قد نزلت على رسول الله فيها أكثر من دعوة لقريش للإيمان وتحذير للكفار من سوء عاقبة تكذيبهم وعشرات الآيات كان فيها من الوعيد ما تنخلع له القلوب، ولكن قريشا أصمّت آذانها وعميت عيونها عن الذكر وبقيت على عبادة الأوثان إلا من النفر القليل الذى آمن وبدا كأن الدعوة بمكة قد وصلت إلى طريق مسدود.

وفى هذه الأثناء كان الإسلام ينتشر حثيثا فى يثرب، فإذا أسلم رجل ما لبث أهل بيته كلهم حتى يتابعوه فى الإسلام حتى لم تبق دار إلا وفيها عدد من المسلمين، ثم تشاوروا وقالوا: حتى متى يُترك رسول الله يطوف ويُطارد فى جبال مكة! فرحل إليه فى موسم الحج ٧٠ رجلا حتى قدموا مكة ليقابلوه وأرسلوا مندوبا عنهم فضرب لهم مكانا للقاء عند شعب العقبة فناموا حتى

إذا مضى ثلث الليل قاموا لميعاد رسول الله وراحوا يتسللون فرادى إلى حيث هو خفية عن عيون قريش حتى توافوا ٧٣ رجلا وامرأتان وقيل ٧٠ رجلا وامرأة واحدة.

وكان مع النبى عمه العباس وهو على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلسوا كان أول المتكلمين العباس بن عبد المطلب فقال: إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا فهو فى عزة ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة فى قومه وبلده. قالوا قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قالوا فتكلم رسول الله فتلا شيئا من القرآن ورغَّب فى الإسلام ثم قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة والعسر واليسر. وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأن تقولوا فى الله لا تخافون لومة لائم. وعلى أن تنصرونى وتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم. فقام أسعد بن زرارة وأخذ بيد رسول الله وقال: رويدا يا أهل يثرب. فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله. وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه. فبيِّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. فقالوا له. أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نُسلبها أبداً. وأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله وقال: نعم فوالذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع عنه أزرنا (نساءنا) فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر. فقاموا إلى رسول الله وبايعوا جميعا.

وأعاد العباس القول: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فذروه. فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا. قال الجنة. فلما انتهوا من البيعة قال النبى أخذت وأعطيت.

قال أبو الهيثم بن التيهان: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) حبالا إنا نحن قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. ثم قال رسول الله أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم فأخرجوا إليه ٩ من الخزرج و ٣ من الأوس :

أ – من الخزرج : ١ – أبو إمامة أسعد بن زرارة.
٢ – سعد بن الربيع .
٣ – عبد الله بن رواحة .
٤ – رافع بن مالك بن العجلان .
٥ – البراء بن معرور بن صخر بن خنساء .
٦ – عبد الله بن حرام بن ثعلبة .
٧ – عبادة بن الصامت .
٨ – سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن خزيمة .
٩ – المنذر بن عمرو بن خنيس .

ب – ومن الأوس : ١ – سعد بن الخيثمة بن الحارث .
٢ – رفاعة بن عبد المنذر .
٣ – أبو الهيثم بن التيهان .

وقيل إن رسول الله قال لهؤلاء الاثني عشر : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل عن قومي.

ورجع الأوس والخزرج إلى خيامهم فناموا فلما أصبحوا غدت عليهم جماعة من قريش وقالوا لهم: يامعشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فانبعث من مشركي يثرب قوم يحلفون ما كان هذا وما علموه. وكانوا صادقين فهم لم يشهدوا البيعة.

وانتهى موسم الحج ونَفر الناس من منى متأهبين للعودة إلى ديارهم وكانت قريش قد تتبعت الخبر فوجدته صحيحا. فخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وهما من النقباء، وأفلح المنذر فى الإفلات منهم فأخذوا سعد بن عبادة وربطوا يديه إلى عنقه وأتوا به إلى مكة يضربونه ويجذبونه من شعر رأسه. فقال له رجل من قريش ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال بلى لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تُجَّاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى وكذلك للحارث بن أمية. فقال له: ويحك اهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما. ففعل فجاءا وخلصاه من أيديهم فانطلق إلى قومه.

فى يثرب :

لما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله بيعة العقبة الثانية إلى يثرب وأظهروا إسلامهم

أسلم كثير من أهلهم وكانوا يُصلون خلف أسعد بن زرار وخافوا أن تعود نعرة الجاهلية فيكره الأوس أن يؤمه خزرجي أو العكس فرأوا أن يكون إمامهم من أصحاب رسول الله فأرسلوا إليه يقولون: إن الإسلام قد فشا فينا فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا فى الدين ويؤمنا فى صلاتنا. فبعث الرسول إليهم مصعب بن عمير فنزل فى بيت أسعد بن زرارة.

وأخذ مصعب وأسعد يدعوان الناس سرا إلى الإسلام. وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدين فى قومهما - بنى عبد الأشهل - ولما مصعب وأسعد يجلسان إلى جماعة من قومهما فسار إليهما أسيد وقال لهما. ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفائنا. اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة فقال أسعد بن زرارة. أوَ تجلس فتسمع. فجلس فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه شيئا من القرآن فقال أسيد. ما أحسن هذا وأجملَه! وأسلم. وقال لهما إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه. سأرسله إليكما الآن. فجاءهما سعد بن معاذ وقال لأسعد بن زرارة: يا ابن أمامة. والله لولا ما بينى وبينك من القرابة مارمت هذا منى. هذا (يقصد مصعب بن عمير) يغشانا فى دارنا بما نكره. فقال له أسعد بن زراره. أوَ تقعد فتسمع. فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهت عزلنا عنك ما تكره. فقال أنصفت. فراح مصعب يقرأ صدر سورة الزخرف: **«بسم الله الرحمن الرحيم. حم. والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىٌّ حكيم..»** إلى آخر الآية ١٤. فقام سعد وعاد إلى قومه وحثهم على الإسلام فأسلم بنو الأشهل كلهم. ثم أسلم بنو سلمة كلهم بإسلام سيدهم عمرو بن الجموح.

بدء هجرة المسلمين إلى يثرب :

نعود إلى مكة وقريش لاتزال على عداوتها لرسول الله والمسلمين. وكان النبى قد قال للمسلمين: قد أُريت دار هجرتكم. أريت سبخة ذات نخل بين لابتين. وهذا الوصف لايكاد ينطبق إلا على يثرب. وقال لهم أيضا: إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها. فبدأ المسلمون يتجهزون للهجرة إلى يثرب فخرجوا إليها أفرادا وجماعات ومنهم نفر ممن عادوا من الحبشة.

قلنا سابقا (ص ٢٤٩) إن أبا سلمة كان أول المهاجرين إلى يثرب بعد بيعة العقبة الأولى. ثم تتابع المهاجرون بعد ذلك :

- عامر بن ربيعة ومعه زوجته ليلى بنت أبى حثمة العدوية.
- عبد الله بن جحش بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية بن عبد شمس وزوجته.
- أخوه عبيد الله بن جحش وزوجته الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب وقد ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ أن سمها «رملة» (تراجم سيدات بيت النبوة ص ٣٨٠).

ولما هاجر عبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله أغلقت دار بني جحش فمرَّ بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل فقال عتبة:

وكل دار وإن طالت سلامتها ∴ يوما ستدركها النكباء والحوب

فقال أبو جهل للعباس: هذا من عمل ابن أخيك، فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا.

وقال ابن اسحق. ونزل هؤلاء الثلاثة عامر وبنو جحش بقباء على مُبشّر بن عبد المنذر الذى كان أبو سلمه نازلا عنده.

وتتابع المهاجرون من مكة وكانوا عند وصولهم إلى يثرب ينزلون ضيوفا على أحد الأنصار (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله. جـ ١١ ص ٩٤) :

– فنزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة.
– وأنسة وأبو كبشة موليا رسول الله على كلثوم بن عمر بن عوف بقباء.
– ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وخباب مولى عتبة بن غزوان هؤلاء نزلوا على عبد الله بن سلمة.
– عبد الرحمن بن عوف نزل على سعد بن الربيع.
– الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى نزلوا على منذر بن محمد بن عقبة.
– ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعتبة بن غزوان على عباد بن بشر.
– ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار.
– ونزل العُزّاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة وذلك أنه كان أعزبا.

عود إلى مكة :

كانت بيعة العقبة الثانية فى أواسط أيام التشريق في موسم الحج أى في يوم ١٢ ذى الحجة فى آخر السنة الثانية عشر للبعثة النبوية. وقد بقى الرسول بعد ذلك فى مكة عاما كاملا نزلت فيه باقى السور المكية وهى ٢١ سورة من السور متوسطة الطول.

سورة الكهف :

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا. قَيِّما (مستقيما) **لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجر حسنا. ماكثين فيه أبدا. وينذرَ الذين قالوا اتخذ الله ولدا. مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوَهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صَعيدا جرزا»**(لا حياة ولا نبات فيها) (١ – ٨).

والسورة – مثل عديد من السور – بدأت بحمد الله. ثم تمضى الآيات واضحة لتقرر أن الله أنزل الكتاب - أى القرآن – على النبى لينذر الذين ادعو أن لله ولداً فهذا افتراء كبير على الله سبحانه وتعالى وليس عندهم علم ولا سند لقولهم هذا. ولا عند آبائهم وهو محض كذب. ثم تمضى الآيات تواسى النبى بألا يحزن لأن قومه لم يؤمنوا. ثم تبين أن الله قد خلق الدنيا بما فيها من زينة وبهجة ليختبر الناس. فمن استهوته الدنيا وغفل عن الآخرة ضلّ. ومن آمن بالآخرة وأحسن العمل فاز. وعند انقضاء الدنيا ستصبح أرضا مستوية لا نبات فيها. وفى هذا تحذير للكفار من الاغترار بالدنيا وإنكار الآخرة.

قصة أصحاب الكهف :

سبق أن ذكرنا (ص ٢٠٤) ما كان من سؤال كفار قريش للنبى – بتحريض من يهود المدينة – عن «فتية ذهبوا فى الدهر الأول وما كان من أمرهم» فنزلت الآيات من ٩ – ٢٦ تحكى قصة أصحاب الكهف وترد على سؤالهم. ثم نزل الآن باقى سورة الكهف. وكان النبى يقول لأصحابه ضعوا هذه الآيات فى الموضع كذا من سورة كذا لتكتمل السورة بوصفها وترتيبها التى هى عليه فى المصحف.

وتتخلَّل القصة مواقف تتطابق مع موقف قريش من النبى مثل قول الفتية:

«هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بَيِّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا» (الآية ١٥).

وكذلك يتخللها مواعظ مثل الآية ١٧ : **«من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا».**

وجاء فيها التأكيد على قيام الساعة: **«ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها** (من الآية ٢١).

ويرى بعض العلماء أن فى قوله تعالى: **«ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا»** إعجازا علميا لأن ٣٠٠ سنة ميلادية أى شمسية تساوى ٣٠٩ سنة قمرية أى هجرية.

وتنتهى هذه الفقرة عن أهل الكهف بأمر للنبى أن يتلو ما أوحى إليه فى هذا الشأن: **«واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** (أى ملجأ)» (٢٧). وأمر ثان وهو الالتزام بصحبة المؤمنين: **«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تَعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»** (٢٨).

حرية الإنسان فى الإيمان أو الكفر :

ثم تمضى الآيات تأمر النبى أن يخبر الكفار أن ما جاءه هو الحق من عند الله وأن لهم

حرية الإيمان أو الكفر مع تحذيرهم بأن الذين يظلمون أنفسهم ويظلون على الكفر أعد الله لهم عذابا شديدا فى حين أن الذين آمنوا لهم ثواب عظيم عند الله:

«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا» (٢٩ - ٣١).

الكفر بنعمة الله قد يؤدى إلى زوالها :

وتضرب الآيات على ذلك بمثل :

«واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجَّرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربى لأجدن خيرا منها مُنقلبا. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلا. لكنَّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنِ أنا أقل منك مالا وولدا. فعسى ربى أن يؤتينَ خيرا من جنتك ويرسل عليها حُسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا (ملساء لا نبت فيها). أو يصبح ماؤها غورا (غائرا عميقا) فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره فأصبح يقلِّب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا» (٣٢ - ٤٤).

والآيات تضرب المثل برجلين أحدهما غنى وله جنتان من الفواكة والآخر فقير. الأول كان كافرا لم يشكر نعمة الله بل وأنكر البعث وزعم أن لو كان هناك آخرة فسيكون له فيها خير مما كان له فى الدنيا لأنه من أهل النعيم فى الحالين. أما الثانى فكان مؤمنا. وقيل إنهما رجلان من بنى مخزوم. وقيل رجلان من بنى إسرائيل وقيل إنها قصة تصويرية تقديرية.

وكتكملة لهذا جاء تشبيه يبين ضآلة شأن الحياة الدنيا :

«واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيئ مقتدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا أملا» (٤٥ - ٤٦).

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

لما كان الكافر في المثل الأول قد أنكر البعث وقال «**وما أظن الساعة قائمة**»، جاءت الآيات تُعقِّب على هذا القول وتؤكد على قيام الساعة بإيراد مشهد من مشاهدها:

«**ويوم نُسَيِّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعُرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة. بل زعمتم ألَّن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا**» (٤٧ – ٤٩).

عداوة إبليس لبني آدم :

بعد ذلك تشير الآيات إشارة قصيرة جدا لقصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتبين أصل العداوة بينهما، ثم سؤال استنكاري يتعجب من هؤلاء الذين يوالونه مع أنه عدو لهم:

«**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً**» (٥٠).

واستكمالا لهذا المعنى يوضح الحق سبحانه وتعالى أنه لم يُشهد إبليس ولا ذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ولم يتخذ من هؤلاء المفسدين المضلين أعوانا حتى يتخذهم الكفار شركاء يعبدونهم من دون الله.

«**ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا**» (٥١).

وقد أرجع بعض المفسرين (الشيخ متولي الشعراوي في أحد أحاديثه) الضمير في «**ما أشهدتهم**» إلى البشر. وبناء على عدم رؤيتهم لهذا الحدث فهو غيب واتخذ من ذلك ذريعة للنهي عن البحث في خلق السموات والأرض. ويُضعف هذا التفسير أن الله عز وجل قد حث على البحث في كيفية خلق الكون «**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**» (٢٠ – العنكبوت). وأحدث النظريات التي توصل إليها العلماء في هذا المجال هي نظرية الانفجار العظيم Big Bang الذي حدث منذ ١٥,٠٠٠ مليون سنة والتي انبعثت عنه كل مادة الكون من مجرات ونجوم وشموس وكواكب – من نقطة متناهية في الصغر أي من «عدم» وهو مبحث لا يتعارض مع الإيمان.

مشهد ثانٍ من مشاهد يوم القيامة :

تذكر الآيات أن الله في يوم القيامة سيأمر الكفار بأن ينادوا على من أشركوهم مع الله في العبادة فيدعونهم فلا يستجيبون لهم. ويتأكد الكفار أنهم مُلقون في النار ثم تؤكد الآيات أن القرآن به الأمثلة الكثيرة التي تحض على الإيمان ولكن الإنسان – والمقصود الكافر – من

طبعه كثرة الجدل فطلبوا من الرسول - أن لو كان صادقا - أن ينزل بهم العذاب كما نزل بالأمم السابقة :

«ويوم يقول نادوا شركائِىَ الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (حاجزا وعداوة)**.ورأى المجرمون النار فظنوا** (بمعنى فتأكدوا) **أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرِفا. ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيئ جدلا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاَّ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلا** (عيانا أمامهم)**»** (٥٢ - ٥٥).

ثم توضّح الآيات أن الله يرسل رسله للتبشير والإنذار ولكن الكفار يجادلون في آيات الله واستهزاءً يتحدون الرسل بإنزال العذاب بهم. وليس هناك أشد ظلما وحمقا ممن تليت عليه آيات الله فأعرض عنها فزادهم الله غفلة فى قلوبهم وصمما فى آذانهم حتى لا يفقهوا دعوة الحق. ثم تقرر أنه من حكمة الله ورحمته أن لم يعجل لهم بالعذاب والهلاك عسى أن يتوبوا ويؤمنوا:

«وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليُدحِضُوا به الحق واتخذوا آياتى وما أُنذروا هزوا. ومن أظلم ممَّن ذُكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونَسِىَ ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا. وإن تدعُهُم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبداً. وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجلَ لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا. وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا» (٥٦ - ٥٩).

قصة موسى والعبد الصالح :

ثم تذكر الآيات من ٦٠ إلى ٨٢ قصة موسى والعبد الصالح وهو الخضر. وقد فصّلنا القصة فى الجزء الرابع (ص ١٠٦٨ - ١٠٨١).

قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج :

ثم فى الآيات ٨٣ - ١٠١ تأتى قصة ذى القرنين. وقد جاءت بناء على سؤال من الكفار إذ بدأت بقول: **«ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا»**. مما يدل على أن قصته كانت متداولة فى عصر النبى ولكن البعض أراد الاستيثاق من أن النبى يعرف «كل شيئ». ويرى الدكتور محمد مبروك نافع (تاريخ العرب - عصر ما قبل الإسلام - ص ٦٧) أن ذى القرنين هو ثانى ملوك حِمْيَرَ المسمون التبابعة وسمى كذلك لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على قرنيه أى على جانبى رأسه (انظر أيضا ص ٤). أما عن يأجوج ومأجوج فإن كتب التفسير تروى عنهم حكايات هى أقرب إلى الخيال. وقصة يأجوج ومأجوج مذكورة أيضا فى

التوراة (سفر حزقيال ٣٨ : ١). ولاشك أن العرب سمعوا قصتهم من اليهود. وقد أورد المفسرون أحاديث نبوية مختلفة الرتب عن خروج الدجال فى آخر الزمان ونزول عيسى ثم خروج يأجوج ومأجوج وأن هذه كلها من علامات الساعة.

تنديد بالكافرين :

ثم تمضى الآيات تندد بالكفار الذين اتخذوا من عباد الله آلهة يعبدونهم وتخبرهم أن الله أعد لهم منزلا فى جهنم، وأن أكثر الناس خسرانا هم الذين كانوا يعملون الشر فى الحياة الدنيا ويظنون أنهم يعملون حسناً. وهؤلاء هم الذين كفروا بدلائل قدرة الله وأنكروا البعث. فبطلت أعمالهم واستحقوا التحقير يوم القيامة. وهذا جزاء عادل لكفرهم واستهزائهم بآيات الله وبرسله. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فجزاؤهم جنات الفردوس ينزلون فيها وينعمون أبداً ولا يريدون التحوُّل عنها:

«أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلا. قل هل ننبِّئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبِطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا. خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً» (١٠٢ - ١٠٨).

واسع علم الله :

ولتقرير مدى سعة علم الله ضُرِب هذا المثل :

«قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا» (١٠٩).

ولا تعارض بين هذه الآية والآية الواردة فى سورة لقمان (آية ٢٧ ص ٢٨١) والتى تقول **«... والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر»** لأن القصد فى الحالين هو تعظيم مقدار علم الله وكلماته وتقرير كونها أعظم من أن يحدها حصر.

ثم تأتى الآية الأخيرة لتقرر أن الرسول بشر مثلهم :

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» (١١٠).

ثم نزلت سورة النحل :

والسورة نزلت فى أخريات العهد المكى وتحديداً فى أوائل السنة ١٣ من بدء النبوة أى بعد

ما طال الصراع بين المشركين والنبي ونزلت سور كثيرة فيها تهديد للمشركين بعذاب جزاء كفرهم. وكأن المشركين – لما طال الوقت قالوا: أين ما تتوعدنا به من عذاب. فردت الآيات:

«أتى أمر الله فلا تستعجلوه. سبحانه وتعالى عما يشركون» (١).

وقد ادعى بعض المستشرقين تعارضا بين **«أتى»** فعل ماضي ثم **«لا تستعجلوه»** للمستقبل. ولعل بعض كفار قريش في الماضي قد آثاروا مثل هذا الاعتراض كذلك. والحقيقة أن الحدث إذا كان وقوعه مؤكدا ١٠٠٪ يمكن الإشارة إليه بفعل الماضي. كما تقول لابنك: جاء الامتحان وسنرى هل تنجح أم لا. فالآية تؤكد أن أمر الله آت لا ريب فيه. وعلى السامعين أن يتأكدوا من مجيئه فلا يستعجلوه. ثم تنزيه لله عن أن يكون له شريك في مُلكه.

بعض نعم الله ومظاهر قدرته في الكون :

ثم تمضي الآيات تذكر بعضا من مظاهر قدرة الله عز وجل وتُعدِّد بعضا من نعمه على العباد :

١ – وأول النعم هو إرسال الرسل لهداية البشر وإنذارهم بعذاب حتى يؤمنوا فيتقوا عذاب الله:

«يُنَزِّل الملائكة بالروح (أى بالوحى) **من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون»** (٢).

٢ – **«خلق السموات والأرض بالحق. تعالى عما يشركون»** (٣).

٣ – **«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين»** (٤). فخلق الإنسان معجزة ماثلة تبدأ من نطفة سائلة وتنتهي إلى بشر يقدر على الخصومة بل واللدد فيها.

٤ – **«والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين»** (٥ – ٩).

والمعنى أنه كما كان من رحمة الله تسهيل وسائل انتقالهم كذلك شاءت رحمته أن يبين للناس الطريق المستقيم الذي يوصل للحق. لأن من الطرق ما هو منحرف وجائر لا يوصل للحق. ولو شاء الله لهدى الناس جميعا قسرا ولكن شاءت إرادته أن يترك ذلك لاختياراتهم ليكون لهم ثواب عليها.

٥ – **«هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون** (أى ترعون أنعامكم)**. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون»** (١٠ – ١١).

٦ - «**وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخَّرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**» (١٢).

٧ - «**وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكَّرون**» (١٣).

٨ - «**وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**» (١٤).

٩ - «**وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون**» (١٥).

ويرى الجغرافيون المعاصرون (دكتور زغلول النجار، الأهرام ٢٠٠٢/١٢/٩) أن فى هذه الآية عدة نقاط تعتبر من الإعجاز العلمى للقرآن، فوصف الجبال بأنه «**إلقاء**» فيه إشارة إلى طريقة تكوينها، فبعضها - الجبال البركانية - تتكون من الطفوح البركانية التى تحدث أثناء ثورات البراكين التى تلقى بملايين الأطنان من الحمم والصخور البركانية التى تتراكم حول فوهة البركان وترتفع لتكون جبلا، ومن هذا النوع جبال أرارات فى تركيا وبركان فيزوف فى إيطاليا، وطريقة أخرى لتكوين الجبال هى الثنيات التى تحدث فى القشرة الأرضية فتلقى بأجزاء منها إلى أعلى مكونة سلاسل من الجبال تسمى بالجبال المطويَّة. أما كلمة «**رواسى**» للتعبير عن الجبال ففيه أيضا إعجاز إذ علم مؤخرا أن الجزء من الجبال البارز فوق سطح الأرض ليس إلا القمة الظاهرة لكتلة هائلة من الصخر تمتد فى عمق القشرة الأرضية وتعمل على تثبيت الجبال فى أماكنها، كما أن توزيع الجبال فى أنحاء العالم قد تم بمنتهى الدقة حتى يحقق عدم اهتزاز الأرض أو ترنحها أثناء دورانها «**أن تميد بكم**». أما الأنهار فتتكون من نزول ماء المطر وجريانه فى السهول والمنخفضات بين الجبال، وتوفر الماء الذى يشرب منه البشر والدواب ويروى به الزرع، كما أنها مع الأرض المنبسطة على جوانبها تُكوِّن طرقا وسبلا لمسير البشر وانتقالاتهم «**وأنهارا وسبلا**».

١٠ - «**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**» (١٦).

ولقد كانت الأجرام السماوية منذ فجر الحضارة - وما تزال - عاملا يهتدى بها الإنسان فى سفره برا وبحرا، ويستعان برصد الشمس والقمر والنجوم الثوابت على الأخص فى تعيين موقع المسافر وتحديد اتجاهه، ومع تقدم العلم أصبحت الملاحة البحرية والجويِّة فنا دقيقا يعتمد على أجهزة رصد وجداول معقدة ولكنها تعتمد فى المقام الأول على رصد الأجرام السماوية.

١١ - «**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكَّرون**» (١٧).

ثم تختم هذه الفقرة بتقرير عجز الإنسان عن تعداد نعم الله وإحصائها فضلا عن شكرها ولكن الله غفور يغفر للإنسان تقصيره فى هذا المجال:

«وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم» (١٨).

ولقد جاء تعداد نعم الله على العباد في سور كثيرة سابقة إلا أن حكمة التنزيل اقتضت تكراره لتكرر المواقف وتنوعها. وهي في السورة الحالية من أطول الفقرات التي تلفت أنظار الناس إلى نعم الله عليهم والتفكر في هذه النعم يؤدي إلى التيقن من أن وراء هذه المشاهد الكونية والنواميس العظيمة المتقنة الصنع إله قادر حكيم يجب الخضوع له والإيمان برسله وكتبه والتزام حدود شرائعه. وفي الفقرة مواءمة - يضيق المجال عن التوسع فيها ويكفي الإشارة إليها - بين النعمة التي ذكرت وبين ما ختمت به كل آية من الآيات ١١ - ١٥: يتفكرون - يذكّرون - تشكرون - يهتدون.

إثبات عجز آلهة الكفار :

بعد هذا التعداد لنعم الله الموجبة لعبادته وحده، يجئ تقرير لإحاطة علم الله بكل شيئ حتى بسرائر النفوس. ثم يجئ إثبات عجز الآلهة والأصنام التي يعبدها الكفار. فهي لا تخلق شيئا بل إنها هي نفسها مخلوقة وقد صنعها الناس بأيديهم من حجارة أو خشب فهي جماد ميت ولا تدري متى تكون القيامة. أما وقد وضح بكل الدلائل أن الله واحد. ولايزال الكفار ينكرونه ويستكبرون. ولاشك أن الله يعلم ما تكنه نفوسهم وما يعلنونه من رفض للدين والله لا يحب هذا الاستكبار منهم والمفهوم أنه سيجازيهم عليه:

«والله يعلم ما تسرون وما تعلنون. والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون. لا جرم (لاشك) أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين» (١٩ - ٢٣).

موقف الكفار من آيات الله وموقف المؤمنين :

أ - «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يَزِرُون. قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرَّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائِيَ الذين كنتم تُشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم (من الأنبياء والملائكة) **إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين. الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقَوا السَلَمَ ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين»** (٢٤ - ٢٩).

ب – وفى مقابل هذا يُذكر حال المؤمنين :

«وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين. جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين. الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» (٣٠ – ٣٢).

ماذا ينتظر الكافرون ليؤمنوا ؟

أما وقد وَضَح موقف الكفار يوم القيامة وفى مُقابله النعيم الذى ينتظر المؤمنين فيأتى سؤال الكفار يسألهم عما ينتظرون لكى يؤمنوا: هل ينتظرون مثلا أن تأتيهم الملائكة؟ أو ينزل عذاب الله وأمره كما نزل بالذين من قبلهم. ثم تذكر الآيات بعض جدالهم مع النبى ويلقّن الردود عليهم:

«هل ينظرون إلا أن تأتِيَهُم الملائكة أو يأتِىَ أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. فأصابهم سيئاتُ ما عملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون. وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيئ نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين. ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يُضل وما لهم من ناصرين. وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليُبيِّن لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولنا لشيئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» (٣٣ – ٤٠).

تنويه بمن هاجروا إلى الحبشة :

وفى الفقرة التالية تنويه بمن هاجروا إلى الحبشة بسبب ما وقع عليهم من أذى وظلم. فآثروا الاغتراب تمسكًا بدينهم. وتبشرهم الآيات بأن الله سييسر لهم المقام الحسن فى الدنيا ولهم فى الآخرة ثواب أكبر. ولاشك أن هؤلاء المهاجرين كانوا يشعرون بالحزن والأسى لبعدهم عن رسول الله ومفارقتهم لأهلهم ولبلدهم. ولعلهم كانوا يظنون أن أمنهم فى بلد المهجر وعدم تعرضهم لمضايقات قريش قد ينقص من أجرهم عند الله فنزلت الآيات تبث فى نفوسهم الطمأنينة من هذه الناحية.

«والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلِموا لنبوئنَّهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» (٤١ – ٤٢).

قريش تعترض على بشرية الرسول :

ما فتئ كفار قريش يعترضون على بشرية الرسول ويدّعون أن لو كان الله مرسلا رسولا لكان من الملائكة. وترد الآيات بأن الرسل السابقين كلهم كانوا رجالا من البشر وليتأكدوا من ذلك فعليهم بسؤال أهل العلم بالكتب السماوية. وقد أيَّد الله رسله بالمعجزات والدلائل المبينة لصدقهم. وبالمثل أُنزل إلى النبى القرآن ليبين للناس ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام وتدعوهم الآيات إلى التدبر فيه:

«وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسْألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون» (٤٣ - ٤٤).

تساؤلات تندِّد بالكفار :

ثم تجئ الآيات بعدة تساؤلات الهدف منها التنديد بتكذيب الكفار وإصرارهم على عدم الإيمان ومضيهم فى إيذاء النبى والمسلمين وكأنها تسأل: هل أغراهم حِلْمُ الله بهم أن يفعلوا ما يفعلون؟

١ - **«أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون»** (٤٥).

٢ - **«أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين»** (٤٦). أى يهلكهم أثناء تنقلهم فى الأرض للتجارة بعيدين عن مساكنهم ولا يستطيعون الإفلات من عذاب الله.

٣ - **«أو يأخذهم على تخوُّفٍ فإن ربكم لرؤوف رحيم»** (٤٧). أى أن فى قدرة الله إنزال العذاب بهم بالرغم من أنهم كانوا يتخوَّفون من العذاب ويرجون عدم نزوله ولكن اقتضت رأفة الله ورحمته عدم التعجيل لهم به فى الدنيا ويترك لهم المجال لإعادة التفكير لعلهم يؤمنون.

٤ - **«أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيئ يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّدًا لله وهم داخرون»** (٤٨). والآيات تندد بغفلة الكفار عن أن يروا آية الله فى حركة الشمس الظاهرية ومما ينتج عنها من انتقال الظل فهو يمتد تارة يمينا وتارة شمالا وكل ذلك منقاد لإمر الله وتدبيره وهذا هو سجودهم أى لا يخرجون عن إرادته.

«ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (٤٩ - ٥٠).

فإذا كان الأمر كذلك فلا يجب أن يُعبد غير الله. وهذا ما نصت عليه الآية التالية:

«وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد فإياى فارهبون. وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا (ثابتا) **أفغير الله تتقون»** (٥١ - ٥٢).

جحود الكافرين وافتراءاتهم على الله :

وبالرغم من أن كل ما يرفل فيه الكفار من نعم الدنيا هي من الله :

«وما بكم من نعمة فمن الله» إلا أن جحود الكافرين يظهر في بعض تصرفاتهم:

١ - **«ثم إذا مسَّكم الضر فإليه تجأرون. ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون»** (٥٢ - ٥٥). والجحود في هذا المسلك واضح وسبق ذكره في سور سابقة.

٢ - **«ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون»** (٥٦). وكان المشركون يجعلون لأوثانهم نصيبا من الأنعام يتقربون بها إليها وسيسألهم الله عن هذا الافتراء.

٣ - **«ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون. وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مُسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون. الذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السَّوْء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم. ولو يؤاخذ الله الناسَ بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمًّى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مُفرَطُون»** (٥٧ - ٦٢).

لاشك أن النبي كان يتألم مما عليه الكفار من جحود فجاءت الآيات تُسرِّي عنه وتؤكد له أن الله أرسل رسله إلى أمم من قبله ولكن الشيطان زيَّن لهم أعمالهم وتولى أمرهم في الدنيا فأضلهم. وفي الآخرة لهم عذاب أليم. ثم تذكر الآيات أن القرآن لم يُنزل عليه إلا ليبين للناس الحق الذي كان موضع خلافهم وليكون هداية للناس:

«تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيَّن لهم الشيطان أعمالهم (السيئة فرأوها حسنة) **فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم. وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»** (٦٣ - ٦٤).

بعض نعم الله ومظاهر قدرته :

١ - **«والله أنزل من السماء ماء** (هو المطر) **فأحيا به الأرض بعد موتها. إن في ذلك لآية لقوم يسمعون»** (٦٥).

٢ - **«وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين»** (٦٦).

٣ - **«ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَرًا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون»** (٦٧).

٤ – **«وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»** (٦٨ – ٦٩).

والآيات تعدِّد الأماكن التى يتخذ منها النحل مكانا لخلاياه: كهوف الجبال وفجوات الشجر ومن عرائش المنازل والكروم ثم تذكر كيف أن النحل يطير ليمتص رحيق الأزهار المختلفة ثم تعود ثانية إلى مكان خلاياها مع أنها قد تكون بعدت عنها – حسب ما قدَّر علماء الحشرات – مسافة ٢كم أو أكثر ولكنها تعرف سبيلها بما ذلَّل الله لها من حواس تهتدى بها **«فاسلكى سبل ربك ذللا»**. قالوا تسترشد باتجاه الشمس أو بخطوط المجال المغناطيسى للأرض أو بأشياء أخرى لا نعرفها. ثم يخرج منها العسل مختلفا ألوانه حسب أنواع الزهور التى امتصتها. وقد أثبت العلماء المعاصرون لعسل النحل فوائد علاجية تشفى كثيرا من الأمراض.

٥ – **«والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يُرَد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير»** (٧٠).

٦ – **«والله فضَّل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فُضلوا برادِّى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون»** (٧١).

فالله قد جعل رزق السيد المالك أفضل من رزق مملوكه ولن يعطى السادة نصف رزقهم لعبيدهم ليصبح الكل سواء. والمعنى أنه إذا كان الكفار لا يرضون مشاركة العبيد لهم فى الرزق الذى جاءهم من عند الله مع أنهم بشر مثلهم فكيف يرضون أن يشركوا مع الله بعض مخلوقاته ويساوونهم به فى العبادة!

٧ – **«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات. أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون»** (٧٢).

فالله جعل الأزواج سكنا للرجال ومن التزاوج يأتى البنون والحفدة وهم من متع الدنيا. وتتساءل الآيات عما يدعو الكافرين لنكران هاتين النعمتين والجرى وراء الباطل.

وتستنكر الآيات – بعد كل ما عددته من النعم السابقة – أن يعبد الكفار من دون الله أصناما لا تستطيع توفير الرزق لهم لأنها لا تملك شيئا فى السماء أو الأرض.

«ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون» (٧٣).

ولما كان الأمر كذلك فلا يجب أن يجعلوا لله أمثالا وأندادا يعبدونهم. وتضرب الآيات مثلا يوضِّح ما عليه المشركون من فساد رأى: عبد مملوك لا يقدر على فعل شيئ ورجل حر رزقه الله رزقا طيبا فهو ينفق منه فى السر والعلن فهذان لا يستويان:

«فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون. ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر

على شيئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا، هل يستوون، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» (٧٤ – ٧٥).

ثم يضرب الله مثلا آخر: رجلان أحدهما أخرس أصم لا يفهم وكلما كُلِّف بعمل لا يقوم به فهو عبء على سيده والآخر فصيح يأمر بالعدل ويشير بالخير ويفعل ما يؤمر به لأنه يسلك الطريق المستقيم. ومن البديهي أنهما لا يستويان:

«وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيئ وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير. هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم» (٧٦).

ومادام الأمر كذلك فمن البديهي عدم تساوي أحد مع الله سبحانه وتعالى في قدرته فعند الله علم ما خفي عن الناس من شئون السموات والأرض والساعة آتية وما شأنها في سرعة الوقوع إلا كلمح البصر أو أقل لأن قدرة الله ليس لها حدود:

«ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيئ قدير» (٧٧).

ثم تعود الآيات لتستكمل بعضا من نعم الله على العباد وبعض مظاهر قدرته التي بدأتها في الصفحة قبل السابقة.

٨ – **«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»** (٧٨).

٩ – **«ألم يروا إلى الطير مُسخَّرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٧٩).

١٠ – **«والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفُّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين»** (٨٠).

١١ – **«والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تُسلِمون»** (٨١).

بعد هذا التعداد لنعم الله ومظاهر قدرته – وإذ لم يؤمنوا – تأتي تسرية للنبي بإخباره أنه غير مسئول عنهم وكل ما عليه هو البلاغ المبين. لأنهم يعرفون نعمة الله عليهم ومع ذلك ينكرونها وهم بها كافرون:

«فإن تولَّوا (ظلُّوا على إعراضهم) **فإنما عليك البلاغ المبين. يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون»** (٨٢ – ٨٣).

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

«ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يُستعتبون. وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم يُنظرون. وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون. وألقوا إلى الله يومئذ السلم (أى استسلموا لحكمه) **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون. الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون. ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تِبيانا لكل شيئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»** (٨٤ – ٨٩).

والآيات تصف ما سيكون عليه حال الناس يوم القيامة. ففى ذلك اليوم تقف كل أمة للحساب ويؤتى بنبيِّها شهيدا عليها ولا يؤذن بالجدل أو تقبل الأعذار. وحينما يرى الكفار أن العذاب واقع بهم يهتفون قائلين إن الشركاء كانوا سبب ضلالهم ظانين أن ذلك يخفف عنهم بعضا من العذاب ولكن الشركاء يجحدونهم فتتولاهم الخيبة ولا يجدون مناصا من الاستسلام والاعتراف بذنبهم. أما الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مضاعف أولا لضلالهم وثانيا لإفسادهم وحملهم غيرهم على الكفر. وفى ذلك اليوم سيأتى الله بشاهد من كل أمة يشهد عليها ويؤتى بالنبى شاهدا على قريش والعرب وقد آتاه الله القرآن مبينا لكل شيئ وهدى ورحمة وفيه بشرى للمسلمين.

من مكارم الأخلاق :

ثم تجئ آيات فيها من مكارم الأخلاق ما يصلح به أمر العباد فى الدنيا. إذا اتبعها المؤمنون صاروا أكثر ترابطا وأكثر قوة. وإذا سمعها الكافرون فإنهم جديرون باتباعها لأنها من الأخلاق الحميدة والعرب يعظمون من يتحلَّى بها:

«إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تَذَكَّرون. وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى (أقوى) **من أمة. إنما يبلوكم الله به ولَيبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألُن عما كنتم تعملون. ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم. ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون. ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون. من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ماكانوا يعملون»** (٩٠ – ٩٧).

والآيات تؤكد على ضرورة الوفاء بالعهود التى يقطعها الناس على أنفسهم وخاصة إذا أشهدوا الله على الوفاء بها، وتنهى عن الحنث بالأيمان حتى لا يكونوا مثل المرأة المجنونة التى تغزل الصوف غزلا محكما ثم تعود فتنقضه وتتركه محلولا. باتخاذهم من إيمانهم وسيلة لخداع الآخرين فإنه بسبب نقض الأيمان تزل الأقدام وتبعد عن الطريق القويم.

تعظيم القرآن الكريم :

«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. وإذا بدلنا آية مكان آية (لما فيه من مصلحة للعباد) **والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر. لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين. إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم. إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون»** (٩٨ - ١٠٥).

وتبدأ هذه الفقرة بأمر للنبى - ولكنه أمر عام لجملة المسلمين - بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن الكريم وتوكيد على أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين. وفى هذا رد على الكفار إذا ما احتجوا بأن الشيطان هو الذى أضلهم لأنهم هم الذين اتخذوه وليا فأضلّهم. ثم ترد الآيات على ما كان الكفار يقولونه إذا ما سمعوا النبى يقدم آية على آية أو يقول ضعوا هذه الآية فى الموضع كذا من سورة كذا فيقولون إن القرآن من تأليفه وأنه يبدِّل فيه كما يشاء ويفترى على الله بقوله إنه وحي. كذلك ترد الآيات على من تقوّلوا على النبى بأنه كان يستمع إلى غلام عند حويطب بن عبد العزى وكان صاحب كتب وعلم - وجبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وكان يصنع السيوف ويقرأ التوراة والإنجيل. فادعى الكفار أن النبى أخذ منهما. والدليل على فساد هذه الافتراءات أن هؤلاء من الأعاجم الذين لا يحسنون العربية فى حين أن القرآن جاء بلغة عربية وبالغ الفصاحة حتى إن أساطين العرب عجزوا عن محاكاته.

متعمد الكفر والمكره عليه :

«من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون. لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون. ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما

فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم. يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتُوفَّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون» (١٠٦ - ١١١).

وفى الآيات إعلان لغضب الله على الذين كفروا عن عمد بعد إيمانهم وتعفو عمَّن أُكره على الكفر فإن الله غفور رحيم. وقالوا إن هذه الآية نزلت فى حق عمار بن ياسر الذى عذَّبه المشركون حتى نطق بكلمة الكفر فخلوا عنه فجاء إلى النبى واعترف له فسأله النبى: كيف تجد قلبك؟ قال مطمئنا. فقال له: إن عادوا فعُد. ولاشك أنه بعد بدء هجرات المسلمين إلى يثرب بدأ الكفار حملة تعذيب المسلمين الذين تحت أيديهم فبعضهم كفر مُكرها تخلُّصا من العذاب فطمأنتهم الآيات بأن الله غفور رحيم. وطمأنت أيضا الذين هاجروا وتعدهم بالخير فى يوم القيامة.

الكفر بالنعمة يهدد بسلبها :

«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذَّبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون» (١١٢ - ١١٣).

والآيات تضرب مثلا بقرية كان أهلها فى أمن من العدو وطمأنينة من ضيق العيش فجحدوا نعمة الله فعاقبهم الله بضيق العيش وتسليط العدو عليهم فلم يهنأ لهم العيش. وجاءهم رسول منهم وكان الواجب عليهم إطاعته واللجوء إلى الله كى يرفع عنهم البلاء ولكنهم كذَّبوا الرسول فأخذهم العذاب بظلمهم. ويرى بعض المفسرين أن هذا المثل يقصد مكة وكفارها. فهى بلد أنعم الله عليه بالأمن والطمأنينة ورزقها يأتيها وافرا من قوافل الحجاج التى تأتى من كل مكان لحج بيت الله الحرام، ولما جاءهم الرسول كذبوه. وقد روى أن النبى دعا عليهم بعد هجرته بسنين كسنى يوسف فجاعوا حتى أكلوا الجيف. وهذا يقتضى أن تكون الآيات مدنية مع أنها مكية. وفريق آخر يرى أنه طرأ على مكة فى عهد النبى مجاعة فجاء بعض زعماء مكة إلى النبى وطلبوا منه أن يدعو الله يكشف عنهم القحط. وبعد كشفه عادوا إلى موقفهم المناوئ للرسول فالآيات تحذرهم من عذاب يأخذهم بظلمهم.

الحلال والحرام فى المأكل :

«فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم. ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب (ولا تقولوا كذبا من عند أنفسكم) **هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم. وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا**

أنفسهم يظلمون. ثم إن ربك الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» (١١٤ – ١١٩).

وقد جاء الأمر بذكر اسم الله عند ذبح الذبائح للأكل – وبالتالى تحريم مالم يذكر اسم الله عليه – في سورة الأنعام (الآية ١١٨ ص ٢٦٦). وبخصوص تحريم الميتة والدم فقد روى عن ابن ماجة عن ابن عمر أن النبي قال: أُحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال. والحوت يعنى السمك مطلقا.

وكان العرب فى تقريرهم الحرام فى المأكل يزعمون أنهم يتبعون فى ذلك ما أُثِر عن ملة إبراهيم. فجاءت الآيات تقرر أن النبى يتبع ملة إبراهيم وأن ما يحله هو من سنة إبراهيم كذلك:

«إن إبراهيم كان أمة (إماما) قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين. إنما جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» (١٢٠ – ١٢٤).

والآية الأخيرة تشير إلى اختلاف اليهود والنصارى حول يوم الراحة. فالأصل أن موسى عليه السلام جعل السبت هو يوم العبادة. وجاء النصارى فى زمن قسطنطين فتحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود. وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الرابع ص ١٠٨١.

حث على جدال الكفار بالحسنى :

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» (١٢٥ – ١٢٨).

ويرى المفسرون أن النبى – وقد مضى على بدئ الدعوة ما يزيد عن ١٢ عاما – لابد قد ضاق بتكذيب قريش وبدأ يشتد فى جدالهم فنزلت الآيات تأمر بالتزام الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة إلى الله وجدالهم بالحسنى وإيكال الأمر بعد ذلك إلى الله فهو الذى يعلم من سيهتدى ومن سيبقى على ضلاله. ولعل بعض المسلمين فى مكة قالوا أن لو أذن لهم الرسول لانتقموا من الكفار باغتيال بعض زعمائهم انتقاما لما أنزلوه من عذاب ببعض إخوانهم فجاءت الآيات تنهى عن ذلك وتبين أنه فى حالة الانتقام يكون رد الفعل مساويا للفعل والأولى الصبر وترك الأمر لله يدبره كيف يشاء وسيؤيد الله الذين آمنوا. وفى ختام السورة يجئ حث للنبى على الصبر وألاَّ يحزن عليهم لتكذيبهم وألا يضيق بما يمكرون. ولعل مجئ سورة نوح بعد ذلك كانت لبيان مدى صبر نوح على قومه إذ بقى فيهم ٩٥٠ عاما يدعوهم إلى الله.

سورة نــوح :

وهي سورة قصيرة واقتصرت على قصة نوح مع قومه يدعوهم إلى الله وينذرهم بما قد يحل عليهم من انتقام من الله. ولعل أقوال نوح ونصحه لقومه تشبه أقوال النبي لقريش ونصحه لهم وتحذيرهم من عذاب قد ينزل بهم من جراء تكذيبهم. ثم تذكر الآيات فقدان نوح لصبره وتذمره من إعراض قومه ودعائه عليهم بالهلاك لأنهم بلغوا من العناد والكفر حدا لا أمل في إصلاحهم ولا في صلاح نسلهم. وفي هذا دعوة مستترة لكفار قريش أن يحمدوا الله أن «محمدا» لم ينفذ صبره رغم ما أذوه – قولا وعملا – وبقي عنده أمل أن يهتدوا فلم يدعُ عليهم ليهلكوا. ولو فعل لهلكوا مثل قوم نوح. وقد رُوى أنه لما اشتد الأذى بالرسول جاءه جبريل وقال له: لو أردتَ لأطبقتُ عليهم الأخشبين. وهما جبلا مكة فرفض النبي وقال إنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله.

«إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم» (١).

ثم كانت دعوة نوح لقومه وتحذيره لهم من عذاب قد ينزل بهم:

«قال ياقوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون» (٢ –٤).

ثم ضاق بهم نوح ذرعا وشكا إلى الله :

«قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائي إلا فرارا. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم إني دعوتهم جِهاراً. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا» (٥ –٩).

ثم حاول نوح استمالتهم ببيان الخير الذي قد ينالهم إذا آمنوا :

«فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» (١٠ –١٢).

وراح يذكرهم بقدرة الله :

«ما لكم لا ترجون لله وقاراً (لا تعظِّمون الله حق عظمته)**. وقد خلقكم أطواراً. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا. والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا** (واسعة)» (١٣ – ٢٠).

وفي الآيات تفرقة بين الشمس بوصفها سراجا والقمر نورا. كما جاء في سورة الفرقان (آية ٦١ ص ١٤٦) «**وجعل فيها** (في السماء) **سراجا** (الشمس) **وقمرا منيرا**» وكذلك في سورة يونس (آية ٥ ص ٢٢٩) «**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا**» وقلنا إن العلماء

المعاصرين يرون فيها إعجازا علميا إذ أن الشمس فيها احتراق كالسراج عبارة عن عمليات انشطار واندماج نووي ترفع حرارتها إلى ملايين الدرجات المئوية فتشع ضوءا وحرارة أما القمر فنوره انعكاس لضوء الشمس على سطحه وهذا لم يعرف إلاً مؤخرا.

ثم عاد نوح يشكو إلى ربه عصيان قومه وتمسكهم بآلهتهم وأصنامهم:

«قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا. ومكروا مكرا كُبَّارا. وقالوا لا تَذَرُن آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغوث ويَعوقَ ونَسرا. وقد أضلُّوا كثيرا ولا تَزِدِ الظالمين إلا ضلالا» (٢١ – ٢٤).

وتبين الآيات ما حاق بهم بدعوة نوح عليهم :

«مما خطيئاتهم أغرقوا فأُدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا. وقال نوح رب لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا (أى نازل دار والمعنى أحداً)**. إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا. رب اغفر لى ولوالدىّ ولمن دخل بيتِىَ مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا** (أى هلاكا)» (٢٥ – ٢٨).

ثم نزلت **سورة إبراهيم** :

وتبدأ السورة بالأحرف المتقطعة الر بعدها تنويه بالقرآن بوصفه كتابا يُخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ثم تمجيد لله سبحانه وتعالى ثم إنذار شديد للكافرين:

«الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد. الذين يستحبُون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد. وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم» (١ – ٤).

جانب من قصة موسى :

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكِّرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم. وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد. وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد» (٥ – ٨).

وهكذا تطابقت رسالة النبى مع رسالة موسى فى إخراج قومهما «من الظلمات إلى النور» ثم راح موسى يُذكِّر بنى إسرائيل بنعمة الله إذ أنجاهم من تسخير المصريين لهم ومن ذبح

الفرعون وجنده لأبنائهم. ثم تقرير لما يمكن أن يكون قاعدة عامة وسنة من سنن الله تلك هي أن شكر النعمة يزيدها كما أن الناس كلهم لو كفروا فلن يضر ذلك الله شيئا لأنه غنى عن العباد محمود بذاته.

مسلك الأقوام السابقين مع رسلهم :

«ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله. جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى. قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا فأْتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده. وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما لنا ألاَّ نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد. واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يُسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ» (٩ - ١٧).

والخطاب فى «ألم يأتكم» موجه إلى كفار قريش وفيه توبيخ لأنهم كانوا يعرفون أخبار نوح وعاد وثمود وخاصة الأخيرة إذ كانت قوافلهم إلى الشام تمر على مدائن صالح. وتحكى الآيات ما كان بين الرسل وأقوامهم من أخذ ورد وجدال وتحد وتهديد ووعيد. «فردُّوا (أى الكفار) **أيديهم فى أفواههم»** قيل وضعوا أيديهم على أفواههم استغرابا واستنكارا. وقيل وضعوها ليعضوا عليها من شدة الغيظ وأرجع البعض الضمير فى أفواههم إلى الرسل فيكون المعنى أن الكفار حاولوا منع الرسل من الكلام. واحتجاج الكفار بأن الرسل ما هم إلا بشر جاء أيضا على لسان كفار قريش. وكان رد الرسل عليهم أن قرروا بشريتهم ولكن الله اختارهم لتبليغ رسالته. وعاد الكافرون يهددون الرسل بإخراجهم فكان أن أهلك الله الكافرين وخاب تدبيرهم وينتظرهم فى الآخرة عذاب أليم فى جهنم.

وتمضى الآيات تضرب المثل لأعمال الكفار بأنها لا وزن لها ولا جدوى من ورائها وتهددهم بالهلاك وبقدرة الله على الإتيان بقوم آخرين يؤمنون:

«مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيئ ذلك هو الضلال البعيد. ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز» (١٨ - ٢٠).

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

وفى هذا المشهد يدور جدال بين ضعفاء الكافرين التابعين وبين الوجهاء الذين قادوهم إلى الكفر وكل فريق يحاول إلقاء التبعة على الفريق الآخر. كما أن الشيطان سيتنصل من تبعة إضلالهم وسيكون للجميع عذاب أليم فى حين يثاب المؤمنون بجنات النعيم:

«وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجَزِعنا أم صبرنا مالنا من محيص (من مهرب). وقال الشيطان لما قُضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لِىَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بِمُصْرِخِكُم (أى بمغيثكم) وما أنتم بمُصرخِىَّ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم. وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام» (٢١ - ٢٣).

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أُكُلَها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض مالها من قرار. يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويُضل اللهُ الظالمين ويفعل الله ما يشاء» (٢٤ - ٢٧).

والكلمة الطيبة فى هذا المثل تعنى الإيمان والعمل الصالح. أما الكلمة الخبيثة فهى الكفر وكلمة الباطل. ثم تقرر الآيات أن الله يُثَبِّت الذين آمنوا على إيمانهم فى الحياة الدنيا ويلقنهم الحجة فى الآخرة. أما الظالمون المكذبون فيزيدهم الله ضلالا على ضلالهم.

تنديد بزعماء المشركين :

ثم تمضى الآيات تندد بسادة قريش وزعمائها الكفار لصدِّهم عن الدين :

«ألم تر إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كُفرا وأحلُّوا قومهم دار البوار. جهنم يصلَوْنها وبئس القرار. وجعلوا لله أندادا لِيُضِلوا عن سبيله. قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار» (٢٨ - ٣٠).

والآيات - على قصرها - تندد بقوة بزعماء كفار قريش لإعراضهم عن النعمة الكبرى التى أرسلها الله إليهم وهى رسوله الكريم ليهديهم. وبدلا من الإيمان كفروا وقادوا قومهم إلى الكفر. وفى الآيات تقرير لمسئولية الزعماء وقدرتهم على توجيه قومهم فى الطريق الصحيح أو طريق الضلال. وزعماء قريش قادوا قومهم فى طريق الشرك وسيكون مصيرهم إلى النار هم وقومهم.

حث على الصلاة والصدقة وتذكير ببعض نعم الله ومظاهر قدرته :

«قل لعبادِيَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاة ويُنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خِلال. الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار» (٣١ - ٣٤).

وفى الآيات حث على إقام الصلاة والإنفاق على الفقراء والمحتاجين مما يدل على أن المسلمين فى مكة كان منهم ميسورو الحال ومنهم الفقراء. صحيح أن الزكاة كما نعرفها الآن لم تكن شرعت بعد ولكن كان حث على التصدق على المحتاجين من باب التكافل الاجتماعى. و**«يوم لا بيع فيه ولا خلال»** أى لا ينتفع فيه ببيع ولا تنفع فيه صداقة ولا خلة وذلك كناية عن يوم القيامة أى أن هذا الانفاق فى السر والعلن سيكون ذخرا لفاعله يوم القيامة. ثم يأتى تذكير بقدرة الله فى خلق السموات والأرض وإنزال المطر وإنبات الزرع. وعلَّم الإنسان صنع السفن التى تجرى فى البحار وسخر الأنهار وماءها العذب وسخَّر الشمس والقمر دائمين وسخَّر الليل والنهار يتعاقبان. **« وآتاكم من كل ما سألتموه »**. وسؤال الأشياء لا يقتصر على الطلب باللسان بل قد يكون سؤال احتياج كأن يفكر الإنسان فى أشياء تسهل له معاشه فيهديه الله لها. كما فكَّر الإنسان فى وسيلة للانتقال أسرع من الحيوان فهداه الله لاختراع السيارة. وفكَّر فى شيئ يطير فى الجو فهداه إلى قوانين الطيران فاخترع الطائرة وقس على ذلك فى جميع مناحى الحياة . هذا بالإضافة إلى السؤال المباشر كأن يطلب إنسان الصحة أو الولد أو المال فيحقق الله ما يشاء لمن يشاء. ونِعَمُ الله على العباد كثيرة ولن يستطيعوا شكرها.

دعاء إبراهيم لمكة ولذريته :

ثم تذكر الآيات جانبا من قصة إبراهيم عليه السلام مُركَّزة على دعوته لمكة بالأمن والأمان وتجنب الأصنام.ودعاءه لفتح أبواب الرزق لذريته التى أسكنها فى وادى مكة وهى لاتزال أرضا قاحلة قبل تفجر ماء زمزم. وهو ما ذكرناه فى الجزء الثانى (ص ٢٩٧ - ٣٠٣) ثم حمدٌ لله على نعمة الولد. ثم دعاء للتوفيق لحسن العبادة وأخيرا طلب للمغفرة:

«وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبَنِىَّ أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم. ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون. ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيئ فى الأرض ولا فى السماء. الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء. رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء. ربنا اغفر لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» (٣٥ - ٤١).

ولما كان العرب يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم وأنهم من ذريته فإن الآيات توضح لهم أن الرزق الذى ينعمون فيه هو ثمرة لدعائه **«وارزقهم من الثمرات»** وعليهم أن يحققوا الشطر الآخر من دعائه **«واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام»**.

إنذار الكفار :

«ولا تحسبن الله غافلا عما يعملُ الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين (مسرعين) **مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم** (لا تطرف عيونهم من شدة الهلع) **وأفئدتهم هواء** (خواء من شدة الاضطراب)**. وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل. أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال. وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال. وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام. يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار. ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب»** (٤٢ - ٥١).

والآيات فيها تطمين للنبى فلا يظن أن الله غافل عما يفعل الكفار بل هو يحصى عليهم أعمالهم ويؤخرهم إلى يوم القيامة وفيه سوف تزيغ أبصارهم ويأتون منكسين رؤوسهم من الذل ولا تطرف عيونهم من شدة الهلع وقلوبهم خواء مضطربة من الهول. وتحث الآيات الرسول على الاستمرار فى الدعوة وإنذار الناس قبل أن يأتيهم العذاب وحينئذ يطلب الكافرون إمهالهم مدة أخرى يتلافون فيها أمرهم ويؤمنوا. ويُرَدُّ عليهم بتأنيب وتذكرة بما كان منهم من سابق تكذيبهم فى الحياة الدنيا. وحذَّرهم الله بما قصَّ عليهم من قصص الأقوام السابقين فلم يعتبروا وراحوا يكيدون كيدا ويمكرون مكرا تتأثر منه الجبال وتكاد تزول من شدته. ولكن الله حمى رسوله وحمى المؤمنين من مكرهم. ثم يأتى تطمين للنبى بأن الله لن يخلف وعده بالنصر لرسله فهو ذو القوة المتين ولكنه يؤجل عذاب الكفار إلى يوم القيامة حين تتبدَّل الأرض والسموات. ثم يجئ وصف مفزع للكفار فى ذلك اليوم إذ يكونون مشدودين بالقيود مع أقرانهم من الشياطين مطلية جلودهم بالقطران كأنه لباس على أجسادهم وتعلو النار وجوههم. وهذا جزاء كفرهم وسوء أعمالهم.

ثم يجئ ختام السورة يخبر الناس بأن هذا بلاغ للناس ليعلموا أنه إله واحد لا شريك له وعلى ذوى العقول السليمة أن يتدبَّروا ويتذكروا ويتعظوا:

«هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكَّر أولوا الألباب» (٥٢).

ثم نزلت **سورة الأنبياء :**

وقد سميت كذلك لأنها تضمنت أسماء ١٥ نبيا مع إشارة قصيرة إلى تاريخهم وإن كان الكلام قد طال عن إبراهيم وحده.

«اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون. قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» (١ - ٥).

وتبدأ السورة بتنديد وتعجب من غفلة الكفار فبينما يوم الحساب قد اقترب فلا يزالون على إعراضهم عن الإسلام ويعقدون الاجتماعات السرية **«أسرُّوا النجوى»** قائلين إن محمدا ليس إلا بشر ولن يخضعوا لسحره لأنهم ذوو بصيرة. ويَرُدُّ عليهم النبى بأن الله - الذى أرسله - يعلم كل ما يدور فى السماء والأرض. ويعود الكافرون فيقولون إن ما يراه النبى هى أحلام أو أنه هو الذى يؤلف القرآن ثم فى النهاية يتحدُّون النبى أن يأتيهم بمعجزة مادية مثل معجزات الرسل السابقين. وردًا عليهم تمضى الآيات فتقول :

«ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفَهُم يؤمنون. وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر (أصحاب الكتب السابقة) **إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين. ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين. لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون. وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدًا خامدين** (٦ - ١٥).

والآيات تقرر أن الأمم السابقة لم تؤمن بعد أن جاءتهم المعجزات المادية التي طلبوها فأهلكهم الله. ثم يجئ تساؤل عما إذا كانوا سيؤمنون إذا أجيبوا إلى طلبهم. أما عن اعتراضهم على بشرية الرسول فترد عليهم الآيات بأن الرسل السابقين كانوا بشرا رجالا. وليتأكدوا من ذلك عليهم أن يسألوا أهل الكتب السماوية السابقة. وكانوا يأكلون الطعام وسرى عليهم قانون الموت. وعندما كذبتهم أقوامهم صدقهم الله وعده ونجَّاهم وأهلك المكذبين. ثم يتوجَّه الخطاب إلى كفار قريش مخبرا بأن القرآن الذى أنزل إليهم فيه تذكير لهم وموعظة ولو كانوا ذوى عقل لآمنوا. ثم تقرر الآيات أن الله أهلك كثيرا من القرى بسبب كفرهم وخَلَفهم قوم آخرون كافرون أيضا فلما بدأ عذاب الله ينزل بهم وأحسوا شدته حاولوا الفرار من قراهم أملا فى النجاة فحيل بينهم وأُمروا - على سبيل التبكيت - بأن يرجعوا إلى مساكنهم

وما كانوا فيه من ترف لينالهم العذاب ويُسألون عن سببه فيعترفون بخطئهم ويظلون يرددون ندمهم حتى جعلهم العذاب كالزرع المحصود «**حصيدا خامدين**».

تمجيد الله لذاته العلية :

ثم تمضى الآيات تنزه الله تعالى عن العبثية من خلق السموات والأرض. ولو أراد الله اللهو – وهو مستحيل فى حقه – لكان مجاله غير هذا الكون. فالذى يليق بجلاله سبحانه وتعالى أن يُعلِىَ الحق ويزهق الباطل. ثم يأتى تهديد للكفار بالهلاك لافترائهم على الله. ثم تقرير بأن كل من فى السموات والأرض من مخلوقات ومن عنده من ملائكة مِلك لله ولا يستكبرون عن عبادته ولا يملُّون من طول عبادتهم له ليلا ونهارا:

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (لا يتعبون). **يسبحون الليل والنهار لا يفترُون»** (١٦ – ٢٠).

تنديد بالشرك واستحالة الشريك والولد لله :

وتمضى الآيات تستنكر اتخاذ الكفار آلهة شركاء مع الله ونسبتهم الولد إلى الله. وتنفى هذه الادعاءات وتسفِّهها:

«أم أتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معى وذكر من قبلى (القرآن والكتب السابقة) **بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم مُعرِضون. وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون. وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مُكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين»** (٢١ – ٢٩).

آيات فى الكون دالة على عظمة الله :

هذه الآيات تبين عظمة الله وقدرته واستحقاقه وحده للعبادة:

١ – **«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما»**.

والرتق هو الاتصال والفتق هو الانفصال. ويرى علماء الفلك المعاصرون أن فى هذه الآية إعجازا علميا إذ أن أحدث النظريات العلمية عن نشأة الكون تقرر أن مادة السموات والأرض والمجرات والنجوم والكواكب كلها كانت فى الأصل كتلة واحدة متصلة «**كانتا رتقا**» لانهائية فى

الثقل ولا نهائية فى الصغر ثم حدث الانفجار الكبير Big Bang فتناثرت المادة إلى أجزاء وتكونت المجرات والنجوم والشموس والكواكب السيارة وهذا هو «الفتق».

٢ – **«وجعلنا من الماء كل شيئ حى أفلا يؤمنون»**. (٣٠).

وقد أثبت العلم الحديث أن الحياة أول ما بدأت على الأرض بدأت فى الماء، وأن الماء يشكل العنصر الأساسى فى بناء أجسام جميع الكائنات الحية. كما أن جميع الأنشطة الحياتية والتفاعلات الكيميائية اللازمة لإمداد الخلايا بالغذاء لا تتم إلا بوجود الماء. وبالنسبة للإنسان فإن الماء يكون ٨٠٪ من الدم و ٧١٪ من الوزن الكلى للجسم.

٣ – **«وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم»**.

ولما كانت الجبال تحيط مكة من كل جانب ويراها الكفار فى كل لحظة لذلك كثر ذكرها فى القرآن الكريم ووصفها بأنها رواسى. جاء ذلك فى سورة ق (الآية ٧ ص ٩٩) **«والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى»**. وفى سورة المرسلات (الآية ٢٧ ص ٩٧) **«وجعلنا فيها رواسى شامخات»** ثم سورة الحجر (الآية ١٩ ص ٢٥١) **«والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى»** ثم فى سورة لقمان (الآية ١٠ ص ٢٨٠) **«وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم»**. ثم فى سورة فصلت (الآية ١٠ ص ٣٠٧) **«وجعل فيها رواسى من فوقها»**. ثم فى سورة النحل (الآية ١٥ ص ٣٤٦) **«وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم»** وقد أفضنا وقتئذ فى شرح الإلقاء والرواسى. وأخيرا فى السور الحالية.

٤ – **«وجعلنا فيها فجاجا سبلا** (طرقا واسعة) **لعلهم يهتدون»** (٣١) فالوديان بين الجبال تشكل أرضا سهلة للانتقال فيها بدلا من عبور الجبال صعودا وهبوطا فضلا عن وعورة صخورها.

٥ – **«وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون»**. (٣٢).

٦ – **«وهو الذى خلق الليل والنهار»**.

٧ – **«والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون»**. (٣٣).

بشرية الرسول وحديث عن الساعة :

وكان بعض الكفار يقولون فيما بينهم إن الرسول لن يلبث أن يموت وتموت معه دعوته. كذلك كانوا يهزأون به كلما مر بهم ويتندرون بتهديده لهم بيوم القيامة فنزلت الآيات:

«وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا تُرجعون. وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون. خُلق الإنسان من عَجَل سأوريكم (سأريكم) آياتى فلا تستعجلون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن

وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون. بل تأتيـهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم يُنظرون (يمهلون). **ولقد استُهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون** (٣٤ - ٤١).

عجز آلهة الكفار :

ثم تأتى آيات فيها تقريع للكفار بلفت نظرهم إلى أن آلهتهم التى يعبدونها لا تستطيع حمايتهم ولا حتى حماية نفسها. ثم تذكير بيوم القيامة:

«**قل من يكلؤكم** (يحفظكم) **بالليل والنهار من الرحمن** (أى من عذابه) **بل هم عن ذكر ربهم مُعرضون. أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا. لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحَبون** (ليس لهم صاحب مجير لهم من الله). **بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العُمُر، أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفَهُم الغالبون. قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يُنذَرون. ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولُنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين. ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**» (٤٢ - ٤٧).

وفى معنى «**أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**» قيل انتقاص أرض الكفر وأهلها بانتصار المسلمين وهى بشرى للمؤمنين باتساع رقعة الإسلام فيما بعد. ولا بأس برأى أحد العلماء المعاصرين من أن الآية فيها إعجاز علمى لأن فيها تنبؤا بما حدث فى القرون الأخيرة من ارتفاع المياه فى البحار والمحيطات نتيجة لذوبان طاقيتى الجليد القطبى بسبب ارتفاع درجة حرارة الأرض وهو ما تسبب فى غرق الأراضى الساحلية بما فيها من مدن بأكملها يكتشف الغواصون آثارها كما يحدث فى شواطئ الاسكندرية.

ثم تأتى تذكرة بيوم القيامة حين توضع الموازين العادلة حتى لا يُظلم الناس شيئا من أعمالهم ولو كان مثقال ذرة ويكفى أن الله هو الذى يحاسبهم.

يلى ذلك إشارة إلى التوراة التى أنزلت على موسى، وأن القرآن مُنزَّل أيضا من عند الله فلماذا ينكره الكافرون:

«**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون**» (٤٨ - ٥٠).

جوانب من قصص الأنبياء السابقين :

وكما سبق أن ذكرنا - ص ٣٦٣ - أن السورة ذكرت أسماء ١٥ نبيا ولذلك سميت «سورة الأنبياء» كان ذكرهم كما يلى :

١ – ٤ : وفى هذه الفقرة – الآيات ٥١ – ٧٣ – ذكر اسم أربعة أنبياء هم إبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب. وعند سرد قصة إبراهيم ركزت الآيات على تسفيه إبراهيم لعبادة الأصنام ثم تحطيمه ومحاولة قومه إحراقه وإنجاء الله له من النار.

وتنتهى هذه الفقرة **«ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة** (زيادة فضل) **وكلا جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين»** (٧١ – ٧٣).

ثم لمحة سريعة من قصة لوط: **«ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** (الموبقات – وقد ذكرناها فى الجزء الثانى ص ٣١٣) **إنهم كانوا قوم سوْء فاسقين. وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين»** (٧٤ – ٧٥).

٥ – وكذلك ذكر سريع لقصة نوح: **«ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سَوْء فأغرقناهم أجمعين»** (٧٦ – ٧٧).

٦ ، ٧ – وذكر قصير لداود وسليمان: **«وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما. وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين. وعلمناه صنعه لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون. ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيئ عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين** (فلا يتمردون على أمر سليمان)**»**. (٧٨ – ٨٢).

٨ – جانب من قصة **أيوب** : وكان أول ذكر له هو ما جاء فى سورة ص (الآيات ٤١ – ٤٤ ص ١١٣) وذكر فيها كيف شفاه الله. وفى سورة الأنعام ذكر اسمه ضمن الأنبياء الذين وردت أسماؤهم فى الآية ٨٤ (ص ٢٦٢). وفى السورة الحالية ذكر دعاؤه إلى الله واستجابة الله له: **«وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنِىَ الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين»** (٨٣ – ٨٤).

٩ ، ١٠ ، ١١ – ثلاثة أنبياء : **«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين. وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين»** (٨٥ – ٨٦).

١٢ – **يونس** : وقد سمى فى هذه السورة بذى النون أى صاحب الحوت. وذكر باختصار شديد سبب ابتلائه ودعوته وهو فى بطن الحوت ونجاته: **«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين»** (٨٧ – ٨٨).

١٣ ، ١٤ – زكريا ويحيى : **«وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين.**

فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين» (٨٩ – ٩٠).

١٥ – مريم. وإن اختُلف فى كونها من الأنبياء: **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»** (٩١). وقصة مريم ذكرت بإسهاب فى سورة مريم (الآيات ١٦ – ٣٦ ص ١٥٣) وذكر عن حملها: **«إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا»** . أما هنا فى سورة الأنبياء – فقد ذكر **«فنفخنا فيها من روحنا»** ولا تعارض بين الآيتين لأن جبريل – الروح الأمين هو الذى حمل «أمر الله» لها بأن تحمل وهو الذى نفخ فى درعها. وليس كما يقول النصارى إن جزءا من ذات الله قد حل فى مريم فاكتسب عيسى طبيعة إلهية بالإضافة إلى طبيعته البشرية.

وتختم هذه الفقرة عن الأنبياء بقوله تعالى : **«إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»** (٩٢) أى أن الدين عند الله واحد. وهو الإسلام. أى التسليم لله فى كل الأمور وعبادته وحده لا شريك له.

ثم تشير الآيات إلى تفرُّق الناس واختلافهم فى أمور دينهم ودنياهم. فسار فريق على الطريق القويم وآمن وعمل صالحا. فهؤلاء لن يضيع الله عملهم وسعيهم لأن الملائكة – بأمر من الله – يكتبون كل شيئ والمفهوم أن الجنة ستكون من نصيبهم. ولكنها حرام على الفريق الذى انحرف ولم يرجع عن انحرافه فأهلكهم الله:

«وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون. فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون. وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون» (٩٣ – ٩٥).

الساعة ومؤشراتها :

ثم تذكر الايات أنه حين تبدأ مؤشرات الساعة بخروج يأجوج ومأجوج يندم الكفار ويعترفون بخطئهم ويُردُّ عليهم بأنهم – وما كانوا يعبدون من دون الله – سيدخلون النار خالدين فيها:

«حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدب ينسلون. واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين. إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون» (٩٦ – ١٠٠).

والحصب هو الحجارة الصغيرة والمعنى أنهم وقود النار ولهم فيها نفس يخرج من الصدور بصوت مخنوق لما يلاقونه من ضيق وهم فيها لا يسمعون شيئا يسرهم. وفى مقابل هذا تذكر الآيات ثواب المؤمنين:

«إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبعدون. لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون. يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين. ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر (التوراة) **أن الأرض يرثها عبادِىَ الصالحون. إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»** (١٠١ - ١٠٧).

والكون محكوم عليه بالفناء عند قيام الساعة. وحتى الملحدون يؤمنون بلحظة يفنى فيها الكون فقد توصل علماء الفلك الحاليون إلى أن الكون بعد وصوله إلى أقصى تمدد له سيصل إلى لحظة تتفوق فيها قوى الجاذبية على قوى التمدد فتأخذ المجرات فى الاندفاع إلى مركز الكون بسرعات متزايدة ويبدأ الكون فى الانكماش وتتجمَّع كل صور المادة والطاقة المنتشرة فى أرجاء الكون حتى تتكدَّس فى نقطة متناهية فى الضآلة تكاد تصل إلى الصفر أو العدم فيُطْوى الكون. وكما بدأ من الصفر يعود إلى الصفر **«كما بدأنا أول خلق نعيده»**. ولكن المؤمنين موقنون من حدوث النهاية بقول «كن فيكون» عندما تحين الساعة.

وتختم السورة بالتأكيد على وحدانية الله وعلى حدوث الساعة إن قريبا أم بعد وقت طويل.

«قل إنما يوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون. فإن تولَّوْا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون. إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون. وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون» (١٠٨ - ١١٢).

والآيات فيها أمر للنبى بتبليغ الناس أن الله واحد ويدعوهم إلى التسليم بذلك فإن امتنعوا فيقول لهم إنه قد أعلمهم **«آذنتكم»** وصاروا مثله **«على سواء»** فى العلم بوقوع الساعة ولكنه لا يعلم **«وإن أدرى»** موعدها أقريبة هى أم بعيدة. والله يعلم ما يجهرون به وما يكنونه فى صدورهم. ولعل تأخير العذاب هو اختبار يمتحنهم الله به ويمتعهم بمتع الدنيا لفترة وبعدها يحكم بالحق وهو القادر على محق ما يفترون.

نحن الآن فى منتصف السنة الثالثة عشرة من بدء الدعوة النبوية ولايزال هناك ٦ أشهر على موعد هجرة النبى إلى يثرب نزلت فيها حوالى اثنتا عشرة سورة معظمها من قصار السور.

سورة المؤمنون :

وتبدأ السورة بالتنويه بصفات المؤمنين. ومن كلمة «المؤمنون» اشتق اسم السورة :

«قد أفلح المؤمنون» ويلى ذلك ذكر صفاتِهم وجزائِهم.

١ - **«الذين هم فى صلاتهم خاشعون»**.

٢ - **«والذين هم عن اللغو معرضون»**.

٣ – **«والذين هم للزكاة فاعلون»**.

٤ – **«والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون»**.

٥ – **«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون»**.

٦ – **«والذين هم على صلواتهم يحافظون»**.

«أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» (١ – ١١).

خلق الإنسان وأطواره الجنينية :

ثم تصف الآيات خلق الإنسان وأطواره الجنينية يليه ذكر للبعث يوم القيامة. والارتباط بين الموضوعين قائم. فمن له القدرة على هذا الإنشاء المعجز قادر على البعث أيضا :

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» (١٢ – ١٦).

وقد علقنا سابقا فى شرح صدر سورة العلق (ص ٤٤ وشكل ١١) على كلمة العلق بما فيه الكفاية. ويرى بعض العلماء أن النص **«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»** يعنى أن بين مرحلة الطين ومرحلة الإنسان توجد «سلالة» هى «البشر» بدليل قوله تعالى **«إنى خالق بشرا من طين»** (٧١ – ص). وكتب هذا الرأى بالتفصيل عالم الدين الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه «أبى آدم قصة الخلق بين الأسطورة والدين» فى محاولة للتوفيق بين ما هو معروف من أن عمر «الإنسان العاقل» على الأرض لا يزيد عن ٣٥ ألف سنة فى حين أن علماء الحفريات وجدوا جماجم «بشرية» يزيد عمرها عن ٢٥٠,٠٠٠ سنة إلى نصف المليون سنة وهيكلها العظمى يؤكد أنها كانت تمشى منتصبة القامة وخلص من ذلك إلى أن ما خلق من الطين هو البشر **«إنى خالق بشرا من طين»** ثم كانت مرحلة التسوية **«فإذا سويته»** . ثم تحوَّل من بشر إلى إنسان بفضل نفخة الروح الإلهية فيه **«ونفخت فيه من روحى»**. فأضافت إليه حرية الإرادة فى الفعل وإطلاق حرية التفكير ليتعرف على خالقه ويعبده وأخيراً إمكانية التفرقة بين الخير والشر. وبعد إعلانه عن آرائه هذه فى كتابه المشار إليه هاجمه الجميع واتُّهم بمخالفة الثوابت الدينية فأعلن رجوعه عن آرائه.

ويرى علماء التشريح فى هذه الآيات نوعا من الإعجاز العلمى إذ اكتشف العلم الحديث أن البويضة الملقحة تتعلَّق بجدار الرحم مثل العلقة وهذا ما شرحناه سابقا فى سورة العلق ثم تبدأ فى الانقسام إلى خلايا مختلفة الشكل والوظيفة ولكنها مختلطة بعضها ببعض فهى كالمضغة. ثم تترتب الخلايا فى طبقات متمايزة وتبدأ العظام فى التشكل ويترسب فيها الكالسيوم ثم تظهر العضلات ويستمر التطور حتى يكتمل الجنين.

ويروى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب الوحى فأملى عليه النبى قوله تعالى : **«ولقد خلقنا الإنسان...حتى إذا بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر»** فقال عبد الله: فتبارك الله أحسن الخالقين قبل إملائها. فقال له النبى هكذا نزلت. فلما خرج عبد الله من عند النبى قال: إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلىَّ وارتد كافرا. وقد أهدر النبى دمه يوم فتح مكة (كما سيجئ ذكره فيما بعد ص ٧٦٦) ولكن عثمان بن عفان استأمن له من رسول الله فعفا عنه.

بعض نعم الله على العباد :

والآيات تذكر بعض نعم الله مع التركيز على ماء المطر وهو ما يهم بالدرجة الأولى من يعيشون فى الصحارى:

«ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق (سبع سماوات) **وما كنا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون. وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين. وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون»** (١٧ - ٢٢).

وكان العرب يعرفون أن منطقة طور سيناء وما جاورها هى من أغنى المناطق بشجر الزيتون ومنها أتوا بالشتلات التى غرسوها فى بلادهم. ومن هنا وصفت شجرة الزيتون بأنها **«شجرة تخرج من طور سيناء»**.

ويرى علماء الجغرافيا المعاصرون أن الآيات فيها إعجاز علمى إذ أن ماء المطر يشق لنفسه مسارات هى الأنهار. إلا أن جزءا كبيرا يتسرب فى التربة المسامية وطبقات الصخور النفاذية حتى يلاقى طبقة من الصخور الصلدة فلا يستطيع النفاذ منها فيتجمع ويكون خزانات مائية كبيرة ساكنة فى الأرض **«فأسكناه فى الأرض»** وتختزن المياه لعشرات الألوف من السنين حتى يقدر الله لها أن تتفجَّر فى مكان ما عيونا أو يقوم الناس بحفر الآبار لاستخراجها والانتفاع بها فى الشرب ورى المزروعات. وقد يحدث شق فى الصخور الحاجزة للماء فيتسرب الخزان المائى إلى طبقات أعمق ويجف البئر **«وإنا على ذهاب به لقادرون»**.

جانب من قصة نوح :

وقد سبق ذكر جوانب منها فى سور الأعراف والشعراء ويونس وهود والذاريات. وهنا فى سورة المؤمنون ركزت الآيات على دعوته لقومه إلى الإيمان وكيفية نصرة الله له عليهم وإنجائه له وغرقهم. وبالطبع فإنها قصدت أن يعتبر كفار قريش حتى لا يغالوا فى عداوتهم وإيذائهم للنبى والمسلمين:

«ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل

ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين. إن هو إلا رجل به جِنة فتربصوا به حتى حين. قال رب انصرنى بما كذبون. فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون. فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلنى مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين. إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين» (٢٣ – ٣٠).

قصة قوم آخرين وقرون آخرين :

ثم تمضى الآيات تذكر قصة قوم آخرين لم يذكر اسمهم وقصة قرون آخرين لم يرد أيضا ما يحدد مكانهم ولا اسمهم. وجاء فى «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم» (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٥٠٦) إن الأولين هم عاد قوم هود وأن الآخرين هم صالح ولوط وشعيب:

«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون. أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مُخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين. قال رب انصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين. فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غُثاء فبعدا للقوم الظالمين» (٣١ – ٤١).

«ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. ثم أرسلنا رسلنا تترا (تتابع واحدا بعد الآخر) **كل ما جاء أمةً رسولُها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديثَ فَبُعدا لقوم لا يؤمنون»** (٤٢ – ٤٤).

والآيات تبين أن لكل أمة زمنها المعين لها لا تتقدم عنه ولا تتأخر وأنه كلما جاء رسول إلى قومه كذبوه فأهلكهم الله متتابعين وجعل أخبارهم أحاديث يتناقلها الناس ويقولون بعد سماعها بُعدا لهم وهلاكا فقد كانوا كافرين.

ثم تأتى إشارة خاطفة **لموسى وهارون:**

«ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملإه فاستكبروا وكانوا قوما عالين. فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون. فكذبوهما فكانوا من المهلكين. ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون» (٤٥ – ٤٩).

ثم إشارة خاطفة **لعيسى ابن مريم :**

«وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» (٥٠).

ثم يأتى ختام هذه الفقرة عن الرسل :

«يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» (٥١ - ٥٢).

ثم يأتى تنديد باختلاف الناس بعد رسلهم :

«فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون. فذرهم فى غمرتهم حتى حين. أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون» (٥٣ - ٥٦).

وفى الآيات تنديد بما صار إليه الناس من تفرق واختلاف فى الملل والنحل وكل فريق يتمسك بما هو عليه ويظنه الحق. ويؤمر النبى بأن لا يبالى بذلك وأن يترك من لا يريد الارعواء سادرا فى جهالته. ثم سؤال تنديد واستنكار لظن المارقين أن إغداق الله عليهم من المال والولد هو تكريم لهم. واستدراك بأنهم مخطئون ولا يعرفون حقيقة الأمر. أى أن ما ينتظرهم هو أعظم من أن يدركوه **«بل لا يشعرون»**.

مسلك المؤمنين :

«إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون. ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق (هو اللوح المحفوظ) **وهم لا يظلمون»**. (٥٨ - ٦٢).

وقد ذكرت هذه الفقرة أربعا من صفات المؤمنين: ١ - فهم الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه. ٢ - وهم يؤمنون بآياته التى يرونها فى الكون. ٣ - ويعبدون الله وحده لا يشركون به أحدا. ٤ - والذين يعطون مما رزقهم الله وهم خائفون من التقصير لأنهم متأكدون أنهم راجعون إلى الله بالبعث ومحاسبون. وقد روى الترمذى عن عائشة حديثا أنها سألت رسول الله عن الآية: **«والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة»** أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال لا يا بنت الصديق. ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم. والمعنى أن المؤمن الحق يستصغر عباداته بجانب نِعَم الله عليه ويخشى أو هو متأكد أنه لن يستطيع أن يوفى الله حقه من الشكر مهما صلى وصام وتصدق ويخشى ألا يقبل ذلك منه. فيسارع إلى الإكثار من الخيرات **«أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون»** وقيل الخيرات هى الطاعات (تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٤٤) وسابقون أى مسارعون فى فعلها ويتسابقون فى الاستزادة منها. إلا أن الله لا يكلف أحدا إلا بما يستطيع أن يؤديه وما هو فى طاقته. ولا يجب أن يفهم ذلك على أنه ترخيص بالتقصير. بل على المرء أن يبذل أقصى طاقاته ويستفرغ

وسعه. وصحائف الأعمال تسجل كل شيئ بدقة وبحق. فلا يُظلمون بمطالبتهم بما لم يكن حقا في استطاعتهم.

مسلك الكافرين :

«بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون. حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون. قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامرا تهجرون» (٦٣ – ٦٧).

وفي الآيات بيان لمسلك الكفار. فقلوبهم غافلة عن استشعار الخوف من الله. ولا يفعلون الخير. ولهم أعمال أخرى رديئة يرتكبونها. حتى إذا أنزل الله بهم العذاب – وغالبيتهم من المترفين – ضجُّوا وصرخوا مستغيثين. وسيؤمرون حينئذ ألا يضجوا ولا يصرخوا إذ لن يفيدهم ذلك شيئا ولا ناصر لهم من الله لأنهم كانوا إذا تليت عليهم آيات الله أعرضوا وأولوها ظهورهم **«فكنتم على أعقابكم تنكصون»** مستكبرين ويهجرونه إلى مجالس سمرهم.

ثم تأتي الآيات بعدة أسئلة تتضمن تنديدا وتوبيخا للكفار عن أسباب موقفهم الرافض للنبي والمنادئ لدعوته:

١ – **«أفلم يدبَّروا القول»** . ولو تدبَّروا القرآن لعلموا أنه حق .

٢ – **«أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين»** بمعنى هل ما جاءهم به النبي بدعٌ لم يسبق أن أتى مثله لأقوام سابقين!

٣ – **«أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون»** أي هل لم يعرفوا شخص «محمد» وأخلاقه العالية وأنهم لم يعهدوا عليه كذبا من قبل حتى ينكروا ما يدعوهم إليه.

٤ – **«أم يقولون به جنة»** أي يتهمونه بالجنون.

وترد الآيات على هذه التساؤلات بأن النبي قد جاءهم بالحق ولكنهم يكرهون الحق لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم. ولو جرت سنة الله على مسايرة الكافرين فيما يشتهونه لما استقام نظام الكون. ولكن الله أرسل النبي وأنزل القرآن بالحق الذي يجب أن يجتمع عليه الجميع ومع ذلك فهم عنه معرضون :

«بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون. ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون» (٧٠ – ٧١).

٥ – **«أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين»** أي وهل طلب النبي منهم أجرا. فهذا لم يحدث لأن أجره عند الله وهو خير مما عندهم.

ثم تقرر الآيات أن النبي يدعوهم إلى الصراط المستقيم وأن المنكرين للآخرة –أي الكافرين – ينحرفون عن هذا الصراط:

«وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم. (هو الإسلام) وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون» (٧٣ – ٧٤).

وكان الله قد أخذ قريشا بالشدة ونقص المطر فتقرر الآيات أن الله لو رحمهم وكشف عنهم الشدة لتمادوا فى طغيانهم. كما أن الشدة التى أنزلها الله بهم لم تجعلهم يرجعون إلى الله ويدعونه أو يتضرعون إليه. ولو استمروا فى تكذيبهم وطغيانهم لأنزل الله بهم عذابا شديدا يصيبهم باليأس والقنوط.

«ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجُّوا فى طغيانهم يعمهون. ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرَّعون. حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون» (٧٥ – ٧٧).

ثم تلفت الآيات نظر الكفار إلى بعض نعم الله عليهم وإلى بعض مظاهر قدرته:

١ – **«وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون»** (٧٨).

٢ – **«وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون»** (٧٩).

٣ – **«وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون»** (٨٠).

ولكنهم استمروا فى كفرهم وإنكارهم للبعث:

«بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنَّا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين» (٨١ – ٨٣).

ثم تأتى الآيات بثلاثة أسئلة للكفار ليس من إجابة عليها إلا أن يُقرُّوا أن الله هو الذى فعل ما يُسألون عنه:

١ – **«قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكَّرون»** (٨٤ – ٨٥).

٢ – **«قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون»** (أى أفلا تخافون عاقبة الشرك) (٨٦ – ٨٧).

٣ – **«قل من بيده ملكوت كل شيئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنَّى تُسحَرون»** (٨٨ – ٨٧). أى فكيف تنخدعون وتنكرون ما هو حق كأنكم مسحورون.

وما دام الأمر كذلك فلا بد من الإقرار بوحدانية الله. ونفى ما يدعيه الكفار من ولد أو شركاء لله.

«بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون. ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون. عالِم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون» (٩٠ – ٩٢).

تأييد للنبي :

«قل رب إما تُرِيَنِّى ما يوعدون. رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين. وإنا على أن نُرِيَك ما نعدهم لقادرون. ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون» (٩٣ – ٩٨).

والآيات تأمر النبى أن يدعو الله أن يرزقه النجاة إذا ما أراه الله ما ينتظر الكافرين من عذاب أى إذا نزل بهم العذاب الذى يوعدون. وتبين الآيات أن الله قادر على أن يريه ما ينتظرهم من عذاب. ثم يأتى حث للنبى ليستمر فى دعوته وأن يقابل إساءتهم بإحسان وأن يستعيذ بالله من وسوسة الشيطان التى قد تملؤه غضبا لتكذيبهم أو يأسا لعدم إيمانهم.

حال الكفار عند الموت وعند الحساب :

«حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال رب ارجعون. لعلِّى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون. فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون. تلفح وجوهَهم النارُ وهم فيها كالحون» (٩٩ – ١٠٤).

وفى الآيات وصف لحال الكافرين عند الموت إذ يندمون ويلتمس كل منهم إعادته للدنيا ليعمل عملا صالحا ولن يحدث ذلك أبدا لأن حاجزا مانعا يحول دون ذلك وسيظل فى حياة البرزخ إلى يوم القيامة وحينئذ يخرج الناس ولا يسأل واحد آخر أن ينصره مهما كانت صلة النسب بينهما **«فلا أنساب بينهم»** والناس يومئذ صنفان: من كثرت أعمالهم الصالحة فثقلت موازينهم. هؤلاء أفلحوا ونجوا. أما من خفت موازينهم لقلة حسناتهم فقد خسروا وجزاؤهم نار جهنم تكلح وجوههم وتسود من شدة نارها. والإنذار للكفار فى هذه الآيات رهيب يُجسِّد تجسيدا مخيفا ما سيحدث فى الآخرة بحيث يرعوى من هو سادر فى غيه ويثوب إلى رشده فيؤمن قبل فوات الأوان.

ثم يأتى توبيخ للكافرين الذين يعتريهم الندم والحسرة:

«ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شِقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون. إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سِخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون. إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون. قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادِّين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون. أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا تُرجعون» (١٠٥ – ١١٥).

والآيات فيها سؤال توبيخ للكفار لأنهم كانوا يسمعون آيات الله فيكذبونها. وحينئذ يعترفون

بضلالهم ويلتمسون إخراجهم من النار. وتكون الإجابة بالنفى «**اخسأوا فيها**» من خسأت الكلب أى زجرته. ثم أمر بعدم العودة إلى التكلم. ثم يُبيِّنُ لهم سبب رفض طلبهم بأنه كانوا يسخرون من المؤمنين الذين كان جزاء صبرهم أنهم هم الفائزون فى الآخرة. ثم يسأل الله الكفار عن مقدار ما لبثوا فى الحياة الدنيا فيقرون بأنهم لبثوا أمدا قصيرا. ويُرَدُّ عليهم بأنهم لو عقلوا لعرفوا أنهم لم يلبثوا إلا زمنا قليلا جداً فكان الواجب أن يعملوا صالحا ولكنهم ظنوا أنهم لن يرجعوا إلى الله.

ثم يأتى ختام السورة :

«**فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم. ومن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون. وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين**» (١١٦ – ١١٨).

والآيات فيها تنزيه لله فهو الملك الحق ولا إله غيره وهو رب العرش وله مطلق التصرف فى الكون. ثم يأتى إنذار أخير لكل من يدعو مع الله إلها آخر فحسابه عند ربه ولن يلقى فلاحا. ثم أمر للنبى بطلب الغفران والرحمة من الله مشفوعا بالإقرار بأن الله أرحم الراحمين ليكون هذا أدعى لقبول الدعاء ولاشك أن هذا الأمر موجه أيضا إلى المؤمنين كافة.

ثم نزلت **سورة السجدة** :

«**الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون. الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شيئ خَلَقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون**» (١ – ٩).

ويرى المفسرون أن هذه الآيات التسع من سورة السجدة نزلت فى وقت متقدم كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٥) وأن الوليد بن المغيرة سمع النبى وهو يقرأ بها فى الكعبة. ولما نزل باقى السورة أُلحق به أولُها.

إنكار الكفار للبعث والمؤمنون يُصدِّقون به :

ونزلت الآيات التالية من سورة السجدة تبين استبعاد الكفار لحدوث يوم القيامة وترد عليهم بتأكيد حدوثه وتصف حالهم يومئذ:

«**وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنّا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون. ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون. ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنم من الجِنة والناس أجمعين. فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون**» (١٠ – ١٤).

فالكفار – الذين ينكرون البعث يتساءلون مستبعدين أنه – بعد أن تبلى أجسادهم وتتوه ذراتها فى تراب الأرض – سيكون هناك خلق جديد. ثم تقرر الآيات أن مَلَك الموت هو الذى يتوفى الناس عند موتهم وقد سبق أن ذكر في سورة الزمر (آية ٤٢ ص ٢٩٧) نسبة التوفى إلى الله «**الله يتوفى الأنفس حين موتها**» ولا تعارض بين الآيتين إذ أن ملك الموت وأعوانه يتوفون الأنفس بأمر من الله عز وجل.

ثم تمضى الآيات تخبر النبى أنه لو أتيح له رؤية الكافرين يوم القيامة لرآهم مطأطئى الرؤوس خجلا ومستشعرين الندم ويطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا ويتلافوا ما فرط من أمرهم ويقال لهم يومئذ إنهم كذبوا بالبعث ونسوا يوم القيامة ولو شاء الله لهدى الناس جميعا ولكنه ترك لهم حرية الاختيار فكان أن كثيرين اختاروا طريق الضلال فامتلأت بهم جهنم جزاء لهم على نسيانهم وغفلتهم عن يوم القيامة وسيُتركون فى العذاب كأن الله قد نسيهم فيه. وفى مقابل هذا العذاب المعدّ للكافرين تأتى آيات تذكر صفات المؤمنين وما أُعِد لهم من ثواب:

«**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سُجَّدًا وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون. فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**» (١٥ – ١٧).

والآية الأخيرة تتضمن بشرى عظيمة غير محدودة من شأنها أن تثير فى نفوس المؤمنين أشد الغبطة وتحملهم على مضاعفة الجهد فى العبادة. وقد روى المفسرون حديثا قدسيا جاء فيه «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

ثم تأتى آيات تقابل بين ثواب المؤمنين وجزاء الكافرين.

«**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تُكذِّبون. ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون. ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون**» (١٨ – ٢٢).

والعدل يقضي ألا يستوي في الجزاء المؤمن والفاسق: فالمؤمنون لهم الجنات ينزلون فيها جزاء أعمالهم الصالحة أما الكفار فالنار هي منزلهم. ولهم في الدنيا عذاب أقل وهو عذاب الخزي والخذلان أما العذاب الأكبر فهو في الآخرة وهو الخلود في النار. وهم قد ظلموا أنفسهم ظلما بالغا بإعراضهم عن آيات الله فانتقم الله منهم.

ضرب المثل بموسى :

ثم تمضي الآيات تضرب المثل بموسى والكتاب الذي أنزل عليه وهو التوراة:

«**ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل. وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم. إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون**» (٢٣ - ٢٦).

والضمير في «لقائه» يرجع إلى الأقرب وهو كتاب موسى والمعنى تلقيه أي تلقي موسى للكتاب كما تلقى النبي القرآن «**وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**» (٦ - النمل). وكان كتاب موسى هدى لبني إسرائيل. وقد أوتي بنو إسرائيل كثيرا من الأنبياء سُمُّوا في هذه الآية «أئمة» إلا أن تفسير الجلالين (ص ٣٤٩) يرجع الضمير في لقائه إلى موسى ويقول وقد لقيه النبي ليلة الإسراء. ويقول الألوسي (تفسيره جـ ٢١ ص ١٣٧): والمعنى أن الله آتى موسى من الكتاب والوحي مثل ما آتى النبي من القرآن والوحي فلاشك في أنه لقي مثله ونظيره. وذكر الألوسي تفسيرات أخرى فمن أراد الاستزادة يرجع إليها.

ويأتي ختام السورة بِحَثٍّ للكافرين على النظر في آيات الله في الأرض. ثم إنذار أخير لهم:

«**أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز** (اليابسة) **فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون. ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين. قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانُهم ولا هم يُنظرون. فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظِرون**» (٢٧ - ٣٠).

والآيات تلفت نظر الكفار إلى قدرة الله في إنبات الزرع الذي عليه حياة الأنعام والبشر وهي آية لا يقدرها قدرها إلا ساكن الصحراء الذي يرى الأرض الميتة إذا نزل عليها ماء المطر اخضرت وأنبتت الزرع. فأولى بهم أن يؤمنوا بقدرة الله على إحياء النفوس بعد موتها ولكنهم راحوا يتساءلون مستنكرين «**متى هذا الفتح**» أي اليوم الذي يفصل الله فيه بين أهل الحق وأهل الباطل أي يوم القيامة. ويُرَدُّ عليهم أنه إذا حل يوم الفتح أي يوم القضاء لا ينفع الإيمان وقتئذ ولن يُمهلوا. ثم يُطلب من النبي أن يعرض عنهم ويتركهم في ضلالهم والمعنى أن الله هو الذي سيتولى أمرهم.

ثم نزلت **سورة الطور** :

وتبدأ السورة بخمسة أقسام :

١ - «**والطور**» وهو الجبل الذى كلّم الله موسى عنده.

٢ - «**وكتاب مسطور. فى رق منشور**» أى التوراة لأنها هى الكتاب الذى نزل مكتوبا يمكن قراءته.

٣ - «**والبيت المعمور**» أى الكعبة وقيل هو بيت فى السماء بحيال الكعبة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك بالطواف والصلاة لا يعودون إليه أبدا (تفسير الجلالين . ص ٤٤٢).

٤ - «**والسقف المرفوع**» أى السماء المرفوعة بغير عمد.

٥ - «**والبحر المسجور**» أى الممتلئ ماء والمتقد نارا. ويرى الچيولوچيون فى هذا الوصف للبحر إعجازا علميا إذ أثبت العلم الحديث أن تحت قيعان البحار والمحيطات توجد طبقات من المعادن والحجارة المنصهرة والمتوقدة نارا وهى التى تسبب عيون الماء الساخنة التى تتفجر فى بعض الأماكن فى قيعان البحار والمحيطات وفى حديث شريف رواه البيهقى: إن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا. ويوم القيامة ستطغى النار فتتقد البحار نارا كما جاء فى سورة التكوير (آية ٦ ص ٥٥) «**وإذا البحار سُجِّرت**».

ثم يأتى جواب القسم:

«**إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع**» (٧ - ٨).

أى أن العذاب الذى توعَّد الله به الكافرين نازل بهم لا محالة وليس هناك من أحد يستطيع دفعه. ثم تأتى الآيات بمشاهد من هذا اليوم:

«**يوم تمور السماء مورا. وتسير الجبال سيرا**» (٩ - ١١).

أى يوم تضطرب السماء اضطرابا شديدا وتسير الجبال وتنتقل من أماكنها دلالة على تبدل نواميس الكون.

ثم تبين الآيات مصير الكافرين:

«**فويل يومئذ للمكذبين. الذين هم فى خَوْضٍ يلعبون. يوم يُدَعُّون** (أى يُدفعون بعنف) **إلى نار جهنم دعًا. هذه النار التى كنتم بها تُكَذبون. أفسحر هذا أم أنتم لا تُبصرون. اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون**» (١١ - ١٦).

وفى المقابل يُوضح مصير المؤمنين وثوابهم :

«**إن المتقين فى جنات ونعيم. فاكهين** (متلذذين ومتنعمين) **بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتاهم** (نقصناهم)

من عملهم من شيئ كل امرئ بما كسب رهين، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون (يتعاطون ويتجادلون فى ود) فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبلُ فى أهلنا مشفقين. فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السَموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَر الرحيم» (١٧ – ٢٨).

اتهامات الكفار للنبي :

«فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (الموت). قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين. أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون. أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» (٢٩ – ٣٤).

وكلمة كاهن ترد هنا لأول مرة فى مقام تكذيب اتهام الكفار للنبى بأنه كاهن. وقد كان يظهر بين العرب قبل الإسلام – بين الحين والآخر – رجال كان العرب يعتقدون أن لهم صلة بالجان الذين يأتونهم بالغيب وخبر السماء. فكان الناس يلجأون إليهم يستفتونهم فى أمورهم ويستشيرونهم فى حل مشاكلهم. وكانت إجابات الكهان غالبا ماتكون مسجوعة ومطبوعة بطابع من الألغاز والتعمية. وأغلب الكهان كانوا من الرجال. وإن لم يخلُ الأمر من وجود نساء كاهنات. ولاشك أنه كان لبعض الكهان ما يمكن أن نسمية اليوم بالقدرة على قراءة الأفكار والشعور بالأحداث عن بعد والتأثير الروحى فضلا عن المقدرة على الاتصال بالجان. وقد جاء فى سورة الجن (آية ٦ ص ١٣١) «وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا».

وقد اتهم الكفار النبى بأنه كاهن ولا يتلقى وحيا من ربه. وتتحداهم الآيات بأن يحاولوا تأليف مثل هذا القرآن لو كان – كما يقولون – من تأليف «محمد» ففيهم من هو مشهود له بالبلاغة والضلوع فى اللغة فى حين أن النبى لم يكن مشهورا بها.

تسفيه لطريقة تفكير المشركين :

جاء هذا التسفيه فى صورة أحد عشر سؤالا استنكاريا فيها تنديد بطريقة تفكيرهم والتى لو كانت سليمة لقادتهم إلى الإيمان:

١ ، ٢ – «أم خُلقوا من غير شيئ . أم هم الخالقون» (٣٥).

٣ – «أم خَلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون» (٣٦).

٤ ، ٥ – «أم عندهم خزائن ربك. أم هم المصيطرون» (٣٧).

٦ – «أم لهم سُلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين» (٣٨).

٧– «أم له البنات ولكم البنون» (٣٩).

٨ – «**أم تسألهم أجرا فهم من مَغرم مثقلون**» (٤٠).

٩ – «**أم عندهم الغيب فهم يكتبون**» (٤١).

١٠ – «**أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون**» (٤٢).

١١ – «**أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون**» (٤٣).

ثم تصف الآيات استهانة الكفار بما يُنذرون به من عذاب حتى إنهم لو رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم لقالوا إنها ليست إلا سحابا كثيفا. ثم يؤمر النبى بأن يتركهم لشأنهم حتى يلاقوا العذاب يوم القيامة:

«**وإن يروا كِسْفًا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم. فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يُصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم يُنصرون. وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون**» (٤٤ – ٤٧).

وقد تكرر فى سور كثيرة الأمر للنبى بترك الكفار فى عمايتهم تعبيرا عن أن الأمر قد وصل معهم إلى طريق مسدود وعليه أن يتركهم لحكم الله فيهم.

ثم يأتى ختام السورة بأمر النبى بالصبر انتظارا لأمر الله وحكمه ثم تطمين للنبى بأنه موضع عناية الله وحمايته وعليه أن يستمر على عبادة الله وحمده فى كل وقت :

«**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم**» (٤٨ – ٤٩).

ثم نزلت **سورة الملك** :

«**تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيئ قدير. الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور. الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فُطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير. ولقد زيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير**» (١ – ٥).

وقد بدأت السورة بالثناء على الله والتنويه بمطلق قدرته ثم بيان بأن الحياة وما يعقبها من موت قد جُعلت لاختبار الناس فى تفاوت أعمالهم. وقد قيل الكثير فى «**خَلَق الموت والحياة**» فقالوا هو العدم الذى سبق الحياة وقالوا أى خلق أسباب الموت أو أنها إشارة إلى أن الموت ليس نهاية المطاف فهو مرحلة مثل الشباب والهرم والموت والبعث كلها مراحل مخلوقة أو بمعنى «جعل» أى جعل الموت والحياة لاختبار الخلق. ثم تلفت الآيات النظر إلى خلق السموات وما فيها من ملايين النجوم ليس فيها من خلل أو صدوع مهما نظرت مرة أو أعدت النظر مرات. وأن نجوم السماء بضوئها تهدى ولو قليلا فى ظلمات الليل عند غياب القمر. كما أنها زينة فى

قبة السماء حتى لا تكون سوداء كالحة موحشة. وفضلا عن ذلك فإن الشهب ترجم الشياطين التى تسترق السمع كما جاء فى سورة الجن (الآية ٩ ص ١٣١). كما أن الله أعد للشياطين عذاب النار فى الآخرة. وللكافرين عذاب مثله :

«وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير. إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور. تكاد تميَّز من الغيظ كلما أُلقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير. وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسُحقا لأصحاب السعير» (٦ – ١١).

ثم يجئ وصف موجز لأجر المؤمنين ليزداد الكفار حسرة وندما ثم تعود الآيات مُوَجَّهة إلى الكفار تهددهم وتنذرهم بأن الله يعلم ما يقولونه علنا أو سرا، ثم تذكر واحدة من نعم الله فى بسط الأرض وجعلها صالحة للمعيشة ثم تعود لتندد بأفعال الكفار وتحذرهم مما قد يحيق بهم من غضب الله إذا استمروا فى تكذيبهم:

«إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير. وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور. أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور. أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا (رجوما من الحجارة) **فستعلمون كيف نذير. ولقد كذَّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** (نكيرى أى عذابى)**»** (١٢ – ١٨).

ثم تمضى الآيات تذكر قدرة الله فى خلق الطير التى تسبح فى جو السماء. ثم تساؤل استنكارى عمن يمكن أن ينصر الكافرين من دون الله إذا ما جاء عذابه. ثم تساؤل ثان عمَّن يمكن أن يرزقهم إن منع الله رزقه عنهم. ثم تساؤل منطقى عن أيهما أفضل: الذى يمشى منكفئا على وجهه لا يرى طريقه أم المعتدل فى مشيته. ثم تذكير للكفار بأن الله هو الذى خلقهم فى البدء وجعل لهم السمع والبصر وواجب عليهم شكر الله على هذه النعم:

«أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافَّات (باسطات أجنحتهن) **ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيئ بصير. أمَّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور. أمَّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لَجُّوا فى عُتُوٍّ ونفور. أفمن يمشى مُكِبا على وجهه أهدى أمَّن يمشى سويا على صراط مستقيم. قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون. قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون»** (١٩ – ٢٤).

الكفار يسألون عن موعد الساعة :

«ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين. فلما رأوه زُلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تَدَّعون» (٢٥ – ٢٧).

والآيات تثبت تساؤل الكفار عن موعد يوم القيامة ويردُّ عليهم بأن علمه عند الله وأن النبى ما هو إلا نذير . وحين يتحقق وعد الله، وهو أقرب مما يظنون «**زلفة**» تتجهَّم وجوههم هلعا من العاقبة ويقال لهم هذا هو وعد الله الذى كنتم تنكرونه.

وفى ختام السورة تطلب الآيات من النبى أن يسأل الكفار عن موقفهم إذا أماته الله ومن معه من المؤمنين - كما كان الكفار يتمنون - أو أخَّرهم لآجالهم برحمته، فهل هناك أحد يمنع عذابه عن الكافرين؟ ثم تأمره الآيات أن يخبر الكافرين أن الله هو الرحمن آمن به هو ومن معه وعليه توكلوا وسيعلم الكفار يوم القيامة من كان على الهدى ومن كان فى ضلال، ثم يُطلب من النبى أن يسألهم عمَّن يمكن أن يأتيهم بماء إذا نضب الماء الذى يسقيهم. وبالطبع لن يكون جوابهم إلا الإقرار بأن الله هو القادر على ذلك:

«قل أرأيتم إن أهلكنِيَ الله ومن معِيَ أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم. قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غَوْرا فمن يأتيكم بماء معين» (٢٨ - ٣٠).

ثم نزلت **سورة الحاقة** :

والحاقة اسم من أسماء يوم القيامة.

«الحاقة . ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة» (١ - ٣).

وهو استهلال قوى جاذب للانتباه ويحمل إنذارا للسامعين وتذكرة بما فى ذلك اليوم من هول.

يعقب ذلك إشارات مقتضبة إلى ما حل بأمم سابقة من عذاب نتيجة تكذيبهم بيوم القيامة:

«كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (البلاء الطاغى)**، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية»** (٤ - ٨).

والقارعة أيضا اسم من أسماء يوم القيامة، وبدأت سورة القارعة (ص ٩١) باستهلال يماثل استهلال السورة الحالية : **«القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة»**.

ثم تستكمل الآيات فتذكر قوم فرعون وقوم لوط وقوم نوح :

«وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات (قوم لوط) **بالخاطئة. فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية** (شديدة)**، إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية** (سفينة نوح)**. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية»** (٩- ١٢).

وجميع هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم فأهلكهم الله، والآيات استهدفت تذكير كفار قريش بذلك على سبيل الاتعاظ والاعتبار، والإنذار بما يمكن أن يصيبهم هم أيضا من عذاب.

ثم تمضى الآيات تذكر بعض أمارات يوم القيامة :

«فإذا نُفخ فى الصور نفخة واحدة. وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة. فيومئذ وقعت الواقعة. وانشقت السماء فهى يومئذ واهية. والملك (الملائكة) على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية. يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» (١٣ – ١٨).

وقالوا فى حملة العرش وأوصافهم كلاما كثيرا لا يُعَوَّل عليه فتجاوزنا عنه وعلينا أن نؤمن بما جاء فى الآيات دون الدخول فى تفاصيله لأنه غيب لا يعلمه إلا الله.

الناس يوم القيامة فريقان :

أما وقد قيل فى الآية السابقة أنه لا يخفى على الله شيئ من أعمال العباد، والمفهوم أن الحساب عليها سيكون عادلا وينقسم الناس يومئذ إلى فريقين:

«فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابيه. فهو فى عيشة راضية. فى جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية (أى الدنيا)**»** (١٩ – ٢٤).

«وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أُوتَ كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عنى ماليه. هلك عنى سلطانيه (أى ضاع سلطانى)**. خذوه فَغُلوه. ثم الجحيم صلُّوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحضُ على طعام المسكين. فليس له اليوم هاهنا حميم** (أى صديق حميم)**. ولا طعام إلا من غسلين** (صديد)**. لا يأكله إلا الخاطئون»** (٢٥ – ٣٧).

وفى الآيات وصف مبهج لحال المؤمن وما يتنعم به فى الجنة. وفى مقابله وصف لما سيكون عليه الكافر من ندم ثم يطرح فى النار مقيدا بالسلاسل ولن يجد له يومئذ من صديق حميم ينقذه أو ينصره، ولن يكون له طعام إلا الصديد المُعَدُّ للآثمين.

توكيد على أن القرآن وحى :

ثم يأتى قَسَم بكل ما فى الكون – مانبصره وما خفى عن أبصارنا – أن القرآن وحى منزل من عند الله :

«فلا أقسم بما تُبصرون. وما لا تُبصرون. إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين. ولو تقول علينا بعض الأقاويل (ادَّعى قولا لم يوح إليه)**. لأخذنا منه باليمين** (كما يأخذ الآخذ بيمين من يجهز عليه)**. ثم لقطعنا منه الوتين** (وريد القلب كناية عن الإهلاك)**. فما منكم من أحد عنه حاجزين. وإنه لتذكرة للمتقين. وإنا لنعلم أن منكم مكذبين. وإنه لحسرة على الكافرين. وإنه لحق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم»** (٣٨ – ٥٢).

ومن المعلوم أن الكلام موجه إلى الكفار رداً على ماكانوا يتقولونه على النبى من أنه شاعر أو كاهن ثم يأتى تأكيد على أن كل ما يقوله النبى هو من كلام الله عز وجل ويخبرهم أن النبى لو أدخل بعض الكلام من عنده لأخذه الله بقوة وأهلكه ولن يستطيع أحد أن يدافع عنه. ثم تمضى الآيات مؤكدة على أن القرآن تذكرة للمتقين وحسرة على الكافرين المكذبين وتنتهى السورة بأمر النبى بالتسبيح باسم الله العظيم.

ثم نزلت سورة المعارج :

وهى تلى سورة الحاقة نزولا وفى ترتيب المصحف أيضا. وسميت كذلك لوصف الحق سبحانه وتعالى نفسه بـ «**من الله ذى المعارج**» أى ذى العلو والرفعة. والقرآن يسمى الحركة صعوداً إلى السماء بالعروج ومنه آية الإسراء والمعراج.

وعن سبب نزولها يروى عن ابن عباس قوله بأن أحد كفار قريش هو النضر بن الحارث - حين سمع تحذير النبى لقريش من عذاب يقع بهم استبعده وأنكره وسأل متى يقع فنزلت السورة:

«**سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذى المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا**» (١ - ٧).

والآيات تؤكد على حتمية وقوع العذاب ولن تستطيع قوة ما دفعه، فهو من الله ذى الرفعة. فإن تأخر عنهم فذلك لأن يوما عند الله يساوى ٥٠,٠٠٠ سنة من سنى الأرض فهو عند الله قريب ولو أنهم يرونه بعيدا.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

أما وقد تأكد وقوع العذاب. إن لم يكن فى الدنيا فسيكون فى يوم القيامة. فإن الآيات تصف مشهداً من مشاهد ذلك اليوم:

«**يوم تكون السماء كالمهل** (الفضة المذابة أو الزيت العكر) **وتكون الجبال كالعهن** (الصوف المنفوش). **ولا يَسأل حميم حميما. يُبَصَّرونهم** (أى يرونهم) **يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التى تؤويه. ومن فى الأرض جميعا ثم يُنجيه. كلا إنها لظى** (شديدة الإتقاد). **نزاعة للشوى** (الجلد). **تدعو من أدبر وتولى. وجمع فأوعى**» (٨ - ١٨).

والآيات تذكر بعض التغيرات التى ستصيب الكون فى يوم القيامة. إذ تكون السماء مغبرّة ومظلمة كالزيت العكر فى قتامته. والجبال الصلبة تصبح كالصوف المنفوش هشاشة وتناثرا.

وينشغل كل امرئ بنفسه فلا محل للإفتداء بأعز الناس عنده: أبناؤه أو زوجته أو أخيه أو عشيرته، ولن يجديه حتى لو افتدى بمن في الأرض جميعا فلن ينجو. فنار جهنم تتقد بشدة تشوى الجلد بألم يلمسه كل من أصيب بحرق ولسبب ما نزعت القشرة التى تكونت فما بالنا والجلد كله أصبح قشرة تنزع بعنف. ونار جهنم تدعو كل من أعرض عن سماع آيات الله وجمع المال أثناء حياته واختزنه فى أوعية وخزائن ولم يؤد حق الله فيه.

ثم تذكر الآيات بعض طباع البشر السيئة وهى أكثر وضوحا لدى الكفار وهذه الطباع هى الهلع والجزع عند وقوع المصائب وإمساك اليد عن الصدقات فى حال الغنى ولكن المؤمنين مستثنون من هذه الطباع. ثم تستطرد الآيات فى وصف بعض من صفات المؤمنين تحبيذا لها:

«إنَّ الإنسان خلق هَلوعا. إذا مسَّه الشر جَزوعا. وإذا مسّه الخير مَنوعا. إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون. والذين فى أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون. إن عذاب ربهم غيرُ مأمون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك فى جنات مكرمون» (١٩ - ٣٥).

وفى هذه الفقرة تكررت كلمة «والذين» ٨ مرات ذاكرة ٧ صفات من صفات المؤمنين إذ تكررت صفة المحافظة على الصلاة: فى أول الفقرة **«والذين هم على صلاتهم دائمون»** وفى آخرها **«والذين هم على صلاتهم يحافظون»** تأكيدا على أهمية الصلاة كركن من أركان الإسلام.

ثم تأتى الفقرة التالية بسؤال للكافرين يسألهم عما جعلهم يسرعون إلى جهة النبى **«قبلك مهطعين»** ويلتفون حوله عن اليمين وعن الشمال جماعات. كأنهم قد طمعوا وقد سمعوا وعد الله للمؤمنين بالجنة فطمعوا أن يدخلوها بلا إيمان. كما قيل إن الكفار كانوا يلتفّون جماعات حول النبى وهو يقرأ القرآن ويستهزئون بكلامه ويقولون عن المؤمنين إن دخل هؤلاء الجنه لندخلنّها قبلهم. ثم يأتى نفى بزجر ينفى طمعهم فى دخول الجنة ثم تلفت نظرهم إلى أنهم لا امتياز لهم بشيئ لأنهم خلقوا كغيرهم من الناس - من نطفة - ثم يقسم الله بذاته العلية أنه قادر على أن يهلكهم ويأتى بمن هم أطوع منهم له:

«فمالِ الذين كفروا قِبلَكَ مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عِزين. أيطمع كل امرئ منهم أن يُدخل جنة نعيم. كلا إنا خلقناهم مما يعلمون. فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون. على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين» (٣٧ - ٤١).

وقال المفسرون إن ذكر صيغة الجمع فى المشارق والمغارب تعنى مشارق ومغارب الشمس والكواكب والنجوم فلكل كوكب مشرق ومغرب. ويرى علماء الجغرافيا المعاصرون أن دوران الأرض حول محورها يجعل الشمس تشرق باستمرار على نقاط جديدة من سطح الأرض وفى نفس الوقت تغرب عن النقاط المقابلة فتتعدد المشارق والمغرب. كما أن ميل محور الأرض يجعل الشمس تشرق فى الصيف فى مكان غير مكان شروقها فى الشتاء فهذا أيضا تعدد للمشارق والمغارب. ولما كان الله هو ب المشارق والمغارب فهو قسم بذاته العلية على أنه قادر على أن يهلكهم ويأتى بغيرهم وإذا حدث ذلك فلن يستطيعوا الاستباق للهرب منه **«وما نحن بمسبوقين»**.

تهديد أخير :

«فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون. يوم يَخرجون من الأجداث سِراعا كأنهم إلى نُصُب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون» (٤٢ – ٤٤).

وفى الآيات أمر للنبى بتركهم فى تكذيبهم ولهوهم حتى يفاجئهم الأجل أو يوم القيامة. وقد جاء مثل هذا الأمر للنبى وبنفس الألفاظ فى سورة الزخرف (آية ٨٣ ص ٣٢١). وفى سورة الأنعام (آية ٩٢ ص ٢٦٣) **«ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون»** ولاشك أن تكرر هذا الأمر للنبى جعل الكفار يشعرون بالخوف إذ يعنى اليأس من هدايتهم. وما قد يتبع ذلك فى احتمال نزول عذاب بهم. ثم تمضى الآيات تصف حال الكفار حين يخرجون من القبور مسرعين مثلما كانوا فى الدنيا يسرعون إلى أصنامهم التى عبدوها ولكنهم يوم القيامة ستكون أبصارهم ذليلة خاشعة وتغشاهم مهانة مُرهقه ويقال لهم تبكيتا وتوبيخا إن ذلك اليوم هو ماكانوا به يكذِّبون.

ثم نزلت **سورة النبأ :**

وتركز السورة على موضوع البعث. وفيها تذكرة ببعض مظاهر قدرة الله فى الكون كدليل على قدرته على البعث:

«عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذى هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون» (١ – ٥).

وتبدأ السورة بسؤال تعجب: عم يتساءل الناس؟ عن ذلك الخبر العظيم! وهم فيه مختلفون بين مصدِّق ومكذِّب. وهو موضوع البعث بعد الموت. ثم تحذير **«كَلَّا»** لأنهم سيعلمون أنه حق. ويتكرر التحذير للتأكيد عليه.

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون :

وكردٍ على تساؤل الكفار عن البعث تسوق الآيات تسعة من مظاهر قدرة الله فى الكون، للتدليل على أن إله هذه قدراته لاشك قادر على إعادة الخلق فى الآخرة:

«ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سُباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعًا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا . إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا» (٦ – ١٨).

١ – فالأرض جعلها الله وما فيها من خيرات ممهدة لسكنى البشر.

٢ – **«والجبال أوتادا»** فقد أثبت علماء الچيولوچيا أن لكل جبل امتداد داخل القشرة الأرضية بأضعاف ارتفاعه يعمل على تثبيته.

٣ – **«وخلقناكم أزواجا»** حتى يتم التكاثر وتعمر الأرض. وقد سبق ذكر هذا المعنى فى سورة الذاريات (آية ٤٩ ص ٣٣٣): **«ومن كل شيئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»**.

٤ – والنوم جُعِل للراحة من عناء العمل .

٥ – والليل ساتر بظلامه كما يستر اللباس الجسد .

٦ – والنهار للسعى فى الرزق للمعيشة .

٧ – وسبع سموات قوية الصنع محكمة .

٨ – والشمس فيها احتراق وتوهج فتضيئ وتبعث الحرارة والدفء .

٩ – والمعصرات هى السحب المشبعة ببخار الماء وقطيراته ويسميها علماء الأرصاد «السحب الركامية» وهى تتميز بغزارة أمطارها. وثج الماء سال وانصبَّ والثجاج الشديد الانصباب. وإذا نزل المطر على الأرض أخرجت الحبوب والنبات لرعى الماشية. والبساتين ذات أشجار ملتفة متشابكة الأغصان. ولاشك أن الإله القادر على كل ذلك قادر على بعث الناس فى الآخرة للفصل بينهم. وليوم البعث موعد وميقات لا يعلمه إلا الله.

يوم القيامة وجزاء كل من الكافرين والمؤمنين :

ثم تمضى الآيات تصف ما سيحدث فى يوم القيامة. فعند نفخ الصور يهب الناس جميعا من قبورهم ويأتون إلى المحشر جماعات جماعات وتتشقق السماء من كل جانب كأن فيها أبوابا. وبعد أن ذكرت الجبال فى الآية ٧ بأنها أوتاد أى ثابتة فى الأرض تذكر الآيات أنها قد قلعت من مكانها وتحركت وتفتَّتت إلى غبار كثيف فأصبحت كالسراب تراها جبالا وهى لم تعد كذلك. وكما وصفت فى سورة المعارج (الآية ٩ ص ٣٨٦) بأنها تصبح «كالعهن» أى الصوف المنفوش. ثم تمضى الآيات وقد أثارت الخوف فى القلوب من أهوال ذلك اليوم فتشرح ما ينتظر الكافرين من عذاب. وفى مقابله ما ينتظر المتقين من نعيم فى الجنة.

«يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسُيِّرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لابثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغسَّاقا (صديدا). جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذَّبوا بآياتنا كِذَّابا. وكل شيئ أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن للمتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دِهاقا (ممتلئة وصافية). لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذَّابا. جزاء من ربك عطاء حسابا» (١٨ - ٣٦).

ولاشك أن هذا الوصف الذى جسَّد صورة جهنم وكأنها تترصَّد وتنتظر الكافرين لتكون مثوى لهم يلبثون فيها دهورا طويلة - وصف يثير الفزع فى قلوب الكافرين. ثم يأتى وصف الجنة ليزيدهم حسرة وندما على ما فاتهم فى حين أنه يزيد المؤمنين رغبة فيها ويزيدهم تمسكا بالإيمان وصبرا على إيذاءات المشركين.

تمجيد لله :

وفى هذه الآيات تمجيد لله وتقرير أن لا أحد يملك حق مخاطبته سبحانه وتعالى. ولا حتى أن يتكلم إلا بإذنه.

«ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» (٣٧ - ٣٨).

تحذير أخير للكافرين :

ثم يأتى تأكيد على أن يوم القيامة حق. فمن شاء اتخذ إلى ربه مرجعا كريما بالإيمان والعمل الصالح. أما الكافرون فقد حذَّرهم الله من عذاب ينزله بهم فى ذلك اليوم الذى سيرون فيه أعمالهم ويتمنى الكافر أن لو ظل ترابا ولم يُبعث ليحاسب :

«ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مئابا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا» (٣٩ - ٤٠).

ثم نزلت **سورة النازعات :**

وهى تلى سورة النبأ نزولا وفى ترتيب المصحف كذلك :

«والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبِّرات أمرا. يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة» (١ - ٧).

فهذا قسم بخمسة أشياء :

١ - **النازعات** وهى الملائكة التى تنزع أرواح البشر، وتغرق فى نزع أرواح الكافرين أى تجد صعوبة فى نزعها.

٢ – والناشطات أي الخارجات بسهولة وهي أرواح المؤمنين.

٣ – والسابحات: الملائكة في سبحها بين السماء والأرض تنفذ أوامر الله. وقيل إنها النجوم السابحة في الفضاء.

٤ – والسابقات قيل بعض النفوس المؤمنة يسبق بعضها بعضا شوقا إلى عالم الملكوت وقيل الملائكة التي تسبق لأداء ما وكل إليها من أعمال.

٥ – والمدبرات أمرا هي الملائكة تدبر وتنفذ أوامر الله. وقيل النجوم تدبر أمرا من حياة البشر مرتبط بمواقعها وأبراجها.

ولاشك أن مدلولات هذه الأقسام كانت مفهومة في عهد النبي وأنها كانت ذات خطورة في الأذهان. أما جواب القسم فمحذوف وتقديره: إن البعث حقيقة. ثم تذكر الآيات أنه في ذلك اليوم ترجف الأرض مرة ثم تردفها أي تتبعها رجفة ثانية.

«يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة». (٦ – ٧).

وصف لحال الناس يوم القيامة:

«قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أإنا لمردودون في الحافرة. أإذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة» (٨ – ١٤).

وفي ذلك اليوم يستولي الرعب والاضطراب على قلوب الناس وتخشع أبصارهم من الخوف وسوف يتساءلون باستغراب إذا كانوا حقا قد عادوا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن كانوا عظاما بالية. والعرب تقول رجع فلان في حافرته أي عاد من الطريق الذي جاء فيه. ويوم القيامة يقول الكافرون أنه لو كان الأمر كذلك – أي بعث بعد الممات – فهم إذاً خاسرون. فيرد عليهم بأن هذا أمر يسير على الله فما هي إلا صيحة واحدة. أي نفخة في الصور حتى يجدوا أنفسهم على وجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها والعرب تسمي وجه الأرض والفلاة «ساهرة» بمعنى ذات سهر أي يسهر السالك فيها خوفا من أخطارها.

جانب من قصة موسى:

ثم تذكر الآيات جانبا من قصة موسى مع التركيز على أن موسى أرى فرعون الآية الكبرى وهي تحول العصا وهي جماد إلى حية حقيقية تسعى. ولعل في هذا إشارة إلى قدرة الله فلا غرو أن يحيي العظام وهي رميم. ولكن فرعون كذب وزاد طغيانا بأن ادعى الألوهية. فأهلكه الله جزاء على هاتين الجريمتين: الأولى ادعاء الألوهية والآخرة تكذيب موسى **«فأخذه الله نكال الآخرة والأولى».** وقيل أخذه الله ونكل به في الدنيا بإغراقه وله في الآخرة أشد العذاب ليكون عبرة للناس:

«هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالوادِ المقدس طُوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذَّب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (١٥ - ٢٦).

بعض مظاهر قدرة الله في الكون :

ثم توجه الآيات سؤالا إلى الكفار عن تعاميهم عن مظاهر قدرة الله فى الكون. وجواب السؤال أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان وإله هذه قدرته لاشك قادر على البعث بعد الإماتة :

«أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها (سقفها) **فسوَّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم»** (٢٧ - ٣٣).

«وأغطش ليلها» أى جعله ظلاما دامسا. والناظر إلى السماء من فوق طبقة الغلاف الجوى للأرض يرى السماء سوداء تماما. وهذا ما قرره رواد الفضاء وما سجلته الكاميرات المثبتة فى المركبات الفضائية. وإنما تبدو السماء زرقاء لسكان الأرض بسبب تشتت ضوء الشمس على ذرات الغازات والهباءات المنتشرة فى الغلاف الجوى. وتطلع الشمس فيكون ضحى ونهار. **«والأرض بعد ذلك دحاها»** ومن معانى الدحو البسط وهذا ما نراه من بسط الأرض على امتداد البصر وما كان يعتقده الأقدمون من أن الأرض مسطحة. ولما اكتشفت كروية الأرض لم يتعارض ذلك مع ماجاء فى القرآن لأن الدحية هى البيضة فالأرض كروية مثل البيضة.

حال الكفار والمؤمنين يوم القيامة :

«فإذاجاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبُرِّزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هى المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هى المأوى» (٣٤ - ٤١).

ففى يوم القيامة - وسمى بالطامة الكبرى لما فيه من بلاء عام - يتذكر كل إنسان ما عمل فى دنياه وتعرض الجحيم حتى يراها الناس. فمن طغى وفضَّل الدنيا ولم يعمل حسابا للآخرة كان مأواه جهنم. أما الذى استشعر خوف الله وزجر نفسه عن اتباع الهوى فمأواه الجنة.

موعد الساعة :

«يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» (٤٢ - ٤٦).

وتذكر الآيات أن الكفار سألوا النبى عن موعد الساعة، ويُردُّ عليهم بأن النبى نفسه لا يعلم وقتها، وعلمها ينتهى إلى الله وحده، أما واجب النبى فهو إنذار الناس بها حتى يخشوها فيخشون الله، وهم عند البعث يشعرون كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم إلا وقتا قصيرا لأن الزمن يتوقف بالنسبة للميت فلا يشعر بمروره.

ثم نزلت سورة الانفطار :

«إذا السماء انفطرت» (تشققت)، **وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فُجِّرت، وإذا القبور بُعثرت، علمت نفس ما قدَّمت وأخَّرت»** (١ - ٥).

وتصف الآيات صورة لما سيكون من أهوال فى يوم القيامة: فالسماء تنشق وتتشقق والكواكب تتبعثر، والبحار يفتح بعضها على بعض وتتفجر ماء فيغرق كل شيئ، وتفتح القبور ليخرج من فيها من الموتى، ويأتى جواب الشرط بأنه فى ذلك اليوم تعرف النفوس ما عملت فى الدنيا من عمل وما أخرته فلم تعمله.

يلى ذلك خطاب موجه إلى الإنسان عامة وإلى الكافر بصفة خاصة يسأله عن السبب الذى جعله يستهين بإنذارات الله على يد رسله، وتجاهل ما يلمسه من قدرة الله فى خلقه له فى أحسن صوره فهو يمشى سويا معتدل القامة، وكان عليه ألا يُكذِّب بالجزاء يوم القيامة، ثم تؤكد الآيات أن هناك ملائكة كراما يكتبون كل ما يفعله العباد:

«يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم، الذى خلقك فسوَّاك فعدلك، فى أى صورة ماشاء ركَّبك، كلا بل تكذبون بالدين، وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون» (٦ - ١٢).

ثم تتطرق الآيات إلى وصف مصير المؤمنين ومصير الكافرين فى يوم القيامة وتكرر التساؤل عن يوم الدين تعظيما لخطورته، وفيه لا تستطيع نفس أن تنفع نفسا أخرى أو تدفع عنها عذابا لأن الأمر كله لله:

«إن الأبرار لفى نعيم، وإن الفجار لفى جحيم، يصلونها يوم الدين، وما هم عنها بغائبين، وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله» (١٣ - ١٩).

ثم نزلت سورة الانشقاق :

وهى مثل سابقتها من قصار السور :

«إذا السماء انشقت، وأذنت (استجابت) **لربها وحُقَّت، وإذا الأرض مُدَّت، وألقت ما فيها وتخلَّت، وأذنت لربها وحقت»** (١ - ٥).

والآيات تصف مشهدا من مشاهد يوم القيامة حين تنشق السماء استجابة لأمر ربها، وحَقٌّ

عليها أن تستجيب. وتنبسط الأرض وتلفظ ما بداخلها من أجساد الموتى. وحُقَّ لها أن تنقاد لأمر ربها. وجواب الشرط محذوف وتقديره «تكون القيامة قد قامت».

ثم يتوجه الخطاب إلى جنس بنى آدم يخبره أنه ساع فى حياته الدنيا ولابد أن يلقى ربه فى النهاية. فهو ساع إلى ربه فملاقيه للحساب. فمن أعطى كتابه بيمينه – دلالة على أن حسناته أكثر من سيئاته – فسيكون حسابه يسيرا ويعود إلى أهله مسرورا برضاء ربه عنه وعن أعماله. وأما من أوتى كتابه من وراء ظهره كأن الله يمقت رؤية وجهه – كناية على أن سيئاته غلبت حسناته – فسوف يتمنى لنفسه الهلاك حتى لا يصلى النار. فقد كان فى حياته الدنيا مسرورا بما أوتيه من مباهجها ولاهيا عن الآخرة وظن أنه لن يرجع إلى الله ليحاسبه. وظن أن لن تتبدل حاله بعد الموت «**ظن أن لن يحور**» فلا بعث ولا حساب فى حين أن عين الله كانت مراقبة له وتحصى عليه أعماله:

«يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه. فأما من أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حسابا يسيرا. وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبورا. ويصلى سعيرا. إنه كان فى أهله مسرورا. إنه ظن أن لن يحور. بلى إن ربه كان به بصيرا» (٦ – ١٥).

ثم يتوجه الكلام إلى الكفار مؤكدا بقسم من الله بالشفق والليل والقمر أنهم سينتقلون من حال إلى حال: من حياة إلى موت إلى بعث وحياة آخرة. ثم تتساءل الآيات عن سبب عدم إيمانهم وتساؤل ثان عن سبب عدم خشوعهم عند سماع آيات القرآن الكريم مع أن غيرهم يسجدون وهم – أى الكفار – يكذِّبون والله عليم بما يضمرون فى قلوبهم. ثم إنذار لهم بعذاب أليم وقد سمى بشرى تهكما. أما المؤمنون فلهم أجر جزيل غير مقطوع:

«فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق (جَنَّ وستر). **والقمر إذا اتسق** (اكتمل). **لتركبن طبقا عن طبق. فما لهم لا يؤمنون. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون. بل الذين كفروا يُكذبون. والله أعلم بما يُوعُون. فبشرهم بعذاب أليم. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون»** (١٦ – ٢٥).

ثم نزلت **سورة الروم** :

مقدمة تاريخية : فى ذلك الوقت كانت هناك مملكتان تقتسمان العالم القديم فيما بينهما: الامبراطورية الفارسية فى الشرق والامبراطورية الرومانية فى الغرب وكان كسرى الأول الملقب بأنو شروان (٥٣١ – ٥٧٩ م) معاصرا لجستنيان ومكافئا له فى القوة. ثم تولى كسرى الثانى أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨م) حفيد كسرى الأول عرش الإمبراطورية الفارسية وأحرز انتصارات باهرة على امبراطورية القسطنطينية وفى عام ٦١٥م وصلت جيوشه إلى خلقدون وهى المدينة المواجهة للقسطنطينية. وفى عام ٦١٨م استولى على أنطاكية ودمشق والقدس. ووجد فى مدينة

القدس صليبا قيل إنه الصليب الحقيقى الذى يؤمن المسيحيون أن يسوع صُلب عليه فاستولى عليه وحمله معه إلى عاصمته المدائن. وفى عام ٦١٩م استولى على مصر.

وتولى الحكم فى الإمبراطورية الرومانية هرقل الذى ظل ردحا من الزمان يتجنب الدخول فى معركة كبيرة مع الفرس وراح يجمع قواته. ثم تقدم فى معارك أولية انتصر فيها ثم كان أن كلّل انتصاراته بمعركة نينوى عام ٦٢٧م التى انهزم فيها الفرس وفى عام ٦٢٨م خلع ابن كسرى أباه وقتله وتم توقيع صلح غير حاسم بين الامبراطوريتين فى عام ٦٢٧م وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة وأعيد الصليب إلى هرقل فأرجعه إلى أورشليم محوطا بجو من الحفاوة والتقديس.

وكان انتصار الفرس فى عام ٦١٨ مدعاة لفرح مشركى قريش الذين أظهروا شماتتهم بالمسلمين الذين كانوا يميلون إلى الروم لأنهم أهل كتاب وقد شق ذلك الموقف على المسلمين وأحزنهم. فنزلت سورة الروم، وفى الآيات الخمس الأولى بشرى بانتصار الروم فى بضع سنين. والبضع هو ما بين ٣ - ٩. وتم النصر النهائى للروم فى عام ٦٢٨م

«الٓمٓ. غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلبون. فى بضع سنين. لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (١ - ٧).

ويروى أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين وقال: أسرَّكم أن غُلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون فى بضع سنين. فقال له أبى بن خلف وأمية أخوه فلنتراهن فى ذلك. فراهنهم أبو بكر على خمس إبل والأجل ثلاث سنين ثم أتى النبى فأخبره. فقال له: فهلا احتطت فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر. ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل. ففعل أبو بكر فجعلوا الإبل سبعة وقيل مائة والأجل تسعة أعوام. وظهرت الروم على الفرس عام الحديبية. وأخذ أبو بكر الإبل من ورثة أبى بن خلف فقال له النبي تصدَّق به. فتصدق به.

تنديد بالكفار :

بعد الآيات التى بشرت بانتصار الروم جاءت آيات تندد بالكفار لغفلتهم عن الآخرة. ولو فكرُوا بتدبر لهداهم المنطق إلى أن الله سبحانه وتعالى لابُد قد خلق السموات والأرض وما بينهما لغاية ولحكمة جليلة أساسها الحق ولن يدوم ذلك الخلق إلى ما لا نهاية بل لابد له من أجل معين فى علم الله وكان كثير من الناس فى ذلك الوقت - كما سبق أن قلنا - لا يؤمنون بالبعث مع أنهم لو ساروا فى الأرض وتفكَّروا فى مصائر الأمم السابقة الذين كذَّبوا رسلهم واستهزأوا بهم ورأوا كيف جازاهم الله على أفعالهم وأقوالهم لكان هذا خير واعظ لهم:

«أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمًى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون، أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون» (٨ – ١٠).

ثم تأتى آيات تبرهن بالمنطق على حدوث البعث، فالله قد خلق الكون ابتداءً وهذا مالا ينكره المشركون وهو قادر على الإعادة، وليس من هدف للإعادة إلا الرجوع إلى الله للحساب، وحينئذ يصبح الكافرون يائسين إذ لن يجدوا من شركائهم من يشفع لهم بل إنهم يكفرون بشركهم، وينال الكافرين عذاب عظيم، أما المؤمنون فيدخلون الجنة مسرورين:

«الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه تُرجعون، ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين، ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يُحبرون، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب مُحضرون» (١١ – ١٦).

ثم يُضرب للكفار مثل حى على البعث بقدرة الله على إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى، قالوا إخراج الإنسان من النطفة التى فى ظاهرها لا حياة فيها، أو النبتة من البذرة، ويحيى الأرض بعد جفافها، إذا طالها المطر أنبتت الزرع والثمار:

«فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تُظهرون (وقت الظهيرة)**، يُخرج الحى من الميت ويُخرج الميت من الحى ويُحيى الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون»** (١٧ – ١٩).

وقد سبق ذكر إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى فى سورة يونس (آية ٣١ ص ٢٣٣) **«ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى»** وفى سورة الأنعام (آية ٩٥ ص ٢٦٤) **«إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى»**.

مشاهد من قدرة الله ونواميسه فى الكون :

ثم تأتى سلسلة رائعة من مشاهد قدرة الله ونواميسه فى الكون بأسلوب جزل وسهل وتكرار محبب يجذب الأسماع ويفهمه الناس على اختلاف طبقاتهم ويتسق مع المشاهدات الماثلة أمام أعينهم، كما أن النهايات التى انتهت بها بعض الآيات: يتفكرون، يسمعون، يعقلون، تتسق مع ما ذكر قبلها، والآيات تهيب بالسامعين أن يرجعوا إلى أنفسهم ليتدبروا فى خلق الله وآياته فحتما سيقودهم ذلك إلى الإيمان:

١ – **«ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون»** (٢٠).

٢ - «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (٢١).

٣ - «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم (في اللغات واللهجات) وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» (٢٢).

٤ - «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله (من رزقه) إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» (٢٣).

٥ - «ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ويُنَزِّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (٢٤).

٦ - «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» (٢٥).

وتختم هذه الفقرة بالتأكيد على قدرة الله في البعث :

«وله من في السموات والأرض كل له قانتون. وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (٢٦ - ٢٧).

وجملة **«وله المثل الأعلى»** جاءت بمثابة استدراك بمعنى أن ما ذكر من أن الإعادة أهون من البدء إنما هو من قبيل ما اعتاد عليه البشر من أن إعادة الشيئ أهون من ابتداعه. وليس ذلك في حق الله لأن البدء والإعادة سيان بالنسبة لقدرته وعظمته.

مثال لفساد عقيدة الشرك :

«ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعقلون. بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين» (٢٨ - ٢٩).

وضُرِب المثل لتقريب الأمر للأذهان بسؤال عما إذا كان الكفار يرضون أن يكون عبيدهم شركاء لهم في أموالهم وفيما رزقهم الله يقاسمونهم على سواء والجواب طبعا بالنفي. فإذا لم يرضوا هذا لأنفسهم فكيف جعلوا لله شركاء. وكان كفار قريش يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. ثم يأتي توضيح أن الكفار يتبعون أهواء النفس غير مستندين إلى علم. فهم ضالون وزادهم الله ضلالا وليس لهم ناصر من عذاب الله.

حث على الثبات على الدين :

ثم تمضي الآيات تحث النبي على الثبات على دين الله وهو دين الفطرة وبالطبع فإن هذا الأمر ينسحب على المؤمنين كافة ويحذرهم من أن يسلكوا مسلك المشركين في تفرقهم أحزابا:

«فأقم وجهك للدين حنيفا فطرتَ الله التى فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيَعا كل حزب بما لديهم فرحون» (٣٠ - ٣٢).

وقد روى حديث عن النبى جاء فيه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمَجِّسانه.

جحود البشر وخاصة الكفار :

ثم تمضى الآيات تلفت النظر إلى واحدة من طبائع البشر هى أوضح ما تكون عند المشركين الذين إذا أصابهم ضُرٌّ لجأوا إلى الله ثم إذا كشف عنهم الضر جنح فريق منهم إلى الشرك بالله. ويعقب ذلك تساؤل عما إذا كانوا فى شركهم هذا يستندون إلى كتاب أو وحى ربانى والجواب طبعا بالنفى. ثم تعود الآيات إلى ما سبق ذكره من طبيعة البشر: إذا أصابتهم نعمة فرحوا بها. وإذا أصابهم شر - جزاء على ما فعلوا من سيئات - أصبحوا قانطين وكان عليهم أن يدركوا أن الحالين - النعمة أو الضر - من الله وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء:

«وإذا مسَّ الناس ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه (أى راجعين إليه ولائذين به) **ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون. أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون. وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون. أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٣٣ - ٣٧).

حث على الزكاة وتزهيد فى الربا:

ولما كان الله هو الذى يبسط الرزق ويرزق المال فواجبٌ أن يُؤدَّى لله حقه. وإن كان إقراض فلا زيادة عند استيفاء الدين:

«فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون. وما آتيتم من ربا ليربُواْ فى أموال الناس فلا يربُواْ عند الله. وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» (٣٨ - ٣٩).

لم يكن تحريم الربا لينزل فى مكة إذ المسلمون قلة وليس لهم سلطان على غيرهم. ولكن بُدئ فى تزهيد المسلمين فى الربا وبيان أن الله لا يقبله. أما بعد أن انتقل المسلمون إلى المدينة وصارت لهم دولة وسلطان يستطيعون به تنفيذ شريعتهم فقد نزلت الآيات تُحرِّم الربا كما سيجئ فيما بعد (ص ٥٥٨).

تنبية الكفار :

وفى هذه الفقرة يتوجه الخطاب إلى المشركين منبها إلى قدرة الله :

«الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم مَن يفعل من ذلكم من شيئ. سبحانه وتعالى عما يُشركون. ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» (٤٠ - ٤٢).

والآيات توضح للمشركين أن الله هو الخالق وهو الرازق وشركاؤهم لا يقدرون على شيئ من ذلك، والفساد الذى يظهر أحيانا فى الأرض هو نتيجة لآثام أهلها وعقاب من الله لعلهم يفيقوا ويرتدعوا. ولو نظروا فى الأرض لرأوا آثار الأقوام السابقة الذين أهلكهم الله لأنهم كانوا مشركين. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى فيه حث للنبى - والمؤمنين أيضا - على العبادة من قبل أن يأتى يوم القيامة وفيه يُعاقَبُ الكافرون ويُثاب المؤمنون:

«فأقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتى يوم لا مردٌّ له من الله (أى يوم القيامة) **يومئذ يصدَّعون. من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون. ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين»** (٤٣ - ٤٥).

نعمة إرسال الرياح :

ثم تذكر الآيات نعمة إرسال الرياح بالمطر ولتسيير السفن. ثم تأتى جملة اعتراضية فيها تذكير بأن الله تعالى قد أرسل رسلا إلى أمم قبلهم فكذّبهم أقوامهم فانتقم الله منهم ونصر المؤمنين. ثم تعود الآيات لتشرح دور الرياح فى إنزال المطر:

«ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين. الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفا فترى الودْق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين. فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيئ قدير. ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون. فإنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادِ العُمْيِ عن ضلالتهم إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (٤٦ - ٥٣).

وفى الآيات مشهد من قدرة الله. فهو يسوق الرياح فتحرك السحاب ولا يلبث الودق أى المطر أن يتساقط منه ويستبشر الناس ويزول ما كان بهم من يأس وحزن. والله الذى أحيا

الأرض برحمته قادر على إحياء الموتى. وإذا هبت ريح جافة واصفر الزرع ويبس لم يتعظوا وظلوا على كفرهم. فهم كالموتى والعمى والصم لا يحسون بل يفرون إذا دعاهم الرسول إلى الإيمان. والنبى غير مكلف بإسماع الموتى ولا الصم ولا العمى وإنما عليه أن يخاطب من يؤمن بآيات الله وأسلم أمره لله.

تذكير بمراحل حياة البشر :

والآيات التالية تذكر الأطوار التى يمر بها الإنسان من ضعف ثم قوة ثم ضعف ثانية. وهذا التسلسل ينبئ ببعث بعد الموت:

«الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضَعفا وشَيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير. ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله (أى فى حكم الله وقضائه) **إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون. فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتُهم ولا هم يُستعتبون»** (٥٤ - ٥٧).

وحين تقوم الساعة يَذهل الكافرون ويُقسمون أنه لم يمر على مفارقتهم للدنيا إلا ساعة أى وقت قليل فيقول لهم أهل العلم إنهم لبثوا أمواتا طيلة الأمد الذى قدَّره الله وأن هذا يوم البعث الذى وُعِدوا به فى الدنيا. ولن ينفعهم يومئذ ما يقدمونه من أعذار.

القرآن هداية للناس :

«ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولَنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مُبطلون. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون. فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفَّنَّك الذين لا يوقنون» (٥٨ - ٦٠).

وفى الآيات تنبيه إلى أن الله قد ضرب للناس فى القرآن من الأمثلة مايحث الناس على الإيمان. ثم تشرح الآيات كيف كان الكفار يكذبون ويتهمون المؤمنين بأنهم على باطل. وهذا شأن الجاهل الذى اختار الضلال فختم الله على قلبه حتى يظل على ضلاله.

ثم أمر للنبى بالصبر. يقول المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (المجلس الأعلى الشئون الاسلامية ص ٦١٠) معناه أن يصبر النبى على أذاهم وأن وعد الله بإظهار دينه حق ولا يحملونه على القلق فهم لا يؤمنون. ويقول تفسير الجلالين (ص ٣٤٣) فاصبر إن وعد الله بنصرك عليهم حق ولا يحملنك الذين لا يؤمنون بالبعث على الخفَّة بترك الصبر ونفس هذا التفسير قال به الألوسى (تفسيره جـ ٢١ ص ٦٢).

وما نراه هو أن بعض المسلمين - بعد بيعة العقبة الثانية - كانوا يتعجلون النبى الهجرة إلى يثرب فكان الأمر للنبى بالصبر وألاَّ يهاجر حتى يأذن الله له وألا يستجيب لقولهم لأنهم

لا يوقنون. واليقين هو العلم الذى لاشك معه (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٧٩) وهذا يستلزم إحاطة شاملة بكل دقائق الموقف وهذا غير متيسر لهم. ولا يتنافى مع كونهم مسلمين أن يأخذوا بعض الأمور بسطحية واستخفاف وأمر النبى بأن يصبر وأن لا يجاريهم فى استخفافهم **«ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»** لأن موعد هجرته لم يحن بعد.

ثم نزلت سورة العنكبوت :

«الم. أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون. من كان يرجُوا لِقَاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون» (١ – ٧).

وقد بدأت السورة بثلاثة حروف مقطعة الم. تلاها سؤال يحمل معنى الاستنكار والتعجب عما إذا كان الناس يظنون أنهم يكفيهم الإقرار بلسانهم أنهم آمنوا دون أن يتعرضوا الفتنة والاختبار اللذين يثبتان صدق إيمانهم وتلك هى سنة الله فقد امتحن الأمم السابقة ليتميَّز الصادقون عن الكاذبين. ثم سؤال ثانٍ عما إذا كان الذين يرتكبون السيئات يظنون أنهم قادرون على أن يسبقوا الله ويفلتوا منه والجواب أنهم إن ظنوا ذلك فهو من سوء حكمهم على الأمور **«ساء ما يحكمون»**. ثم يأتى تطمين للذين يؤمنون بلقاء الله ويرجون ثوابه بأن لقاء الله آت لاشك فيه – فى يوم القيامة – والذين يجاهدون فى الله فإن جهادهم عائدٌ ثوابه عليهم لأن الله غنى عن العالمين. والجهاد هنا ليس معناه القتال بل هو جهاد النفس ومقاومة إغراءات الكافرين وتحمل أذاهم. ثم إعلان من الله بأنه سيُكفِّر عن المؤمنين هفوات وصغار سيئاتهم ويجزيهم بأحسن مما عملوا.

حث على الثبات على الإيمان :

كان كثير من شباب قريش قد آمنوا رغم بقاء آبائهم على شركهم وكان بعض هؤلاء الكفار من الزعماء البارزين فكانوا يُضيِّقون على أبنائهم أو يحبسونهم فى البيوت لإجبارهم على الكفر ثانية. وقد سبق أن ذكرنا أن عددا من هؤلاء الشباب هاجر إلى الحبشة. إلا أن حوادث الضغط والإكراه على الأبناء تكررت. ولما كانت تعاليم الإسلام تحض على البر بالوالدين وإطاعتهما فقد نزل الوحى يبين حدود هذه الطاعة. وهى فى كل شيئ ماعدا الشرك بالله. وعليهم أن يجاهدوهم ويقاوموهم إذا ألحُّوا عليهم فى العودة للشرك. وقد سبق أن نزل فى سورة لقمان (الآية ١٥ ص ٢٨١) **«وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما»** وعلى ما يبدو أن حوادث الضغط على الأبناء تكررت فاقتضى تكرر التنبيه إلى هذا الأمر وشد أزر الأبناء فى مواجهة ضغوط آبائهم.

«ووصينا الإنسان بوالديه حُسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما. إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُدخلنّهم في الصالحين. ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولُن إنا كنا معكم أوَ ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين. وليعلمَن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين» (٨ - ١١).

كذلك كان بعض الأفراد ضعاف الإيمان قالوا إنهم آمنوا، فلما أصابهم أذى من المشركين جزعوا وفُتنوا عن دينهم ولم يفكروا في عذاب الله فكأنهم جعلوا إيذاء الناس لهم كعذاب الله في الآخرة.

والآيتان الأخيرتان اختلف المفسرون حول وقت نزولهما. قال البعض إنهما مكيتان وفسَّر نصر الله على أنه توقف إيذاءات المشركين. والأرجح أنهما مدنيتان بدليل ذكر «المنافقين» إذ أن النفاق لم يظهر إلا في المدينة. ويكون وضعهما في سورة العنكبوت - المكية - تم بتوقيف من النبي. وفي الآيتين إشارة إلى مسلك بعض المنافقين الذين كانوا يتقاعسون عن القتال. فإذا نصر الله المسلمين في معركة قالوا للمؤمنين إنهم كانوا معهم حتى يشركوهم معهم في الغنائم.

واتساقا مع الآيات التي تحث الشباب على الثبات على الإيمان في مواجهة ضغوط الآباء والأهل جاءت الآيات التالية تحث المؤمنين على الثبات على الإيمان في مواجهة إغراءات الكفار الذين كانوا يطلبون منهم العودة إلى الكفر ويعدونهم أنهم سيحملون عنهم مايخافونه من عقاب وعذاب جزاء ارتدادهم. ويفضح الوحي كذبهم ويقر أنهم لن يحملوا شيئا من خطاياهم. وسيحملون وزر كفرهم ووزر إغراء الآخرين على الكفر:

«وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيئ إنهم لكاذبون. وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألُن يوم القيامة عما كانوا يفترون» (١٢ - ١٣).

جوانب مختصرة من قصص الأنبياء السابقين :

١ - نوح : وتذكر الآيات أنه لبث يدعو قومه ٩٥٠ عاما وأنهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين في السفينة وأغرق الكافرين:

«ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين» (١٤ - ١٥).

٢ - «إبراهيم : يأتي ذكره مختصرا أيضا مع التركيز على تسفيه عبادة الأوثان :

«وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من

دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون» (١٦ - ١٧).

بعد ذلك تأتى ٦ آيات اعتبرها بعض المفسرين من جملة ما قال إبراهيم لقومه ومنهم من قال إنها اعتراضية وأنها خطاب إلى قريش:

«وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين. أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيئ قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون. وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم» (١٨ - ٢٣).

ثم تعود الآيات إلى قصة إبراهيم .

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون. وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. فآمن له لوط. وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» (٢٤ - ٢٧).

ويرى بعض المفسرين أن النص على أن إبراهيم قال «إنى مهاجر إلى ربى» يحمل فى طياته استحسان هجرة المسلمين إلى يثرب كما يرون فيه إشارة إلى قرب هجرة الرسول أسوة بجده إبراهيم.

٣ - لوط : أما قصة لوط فقد ذكرت من قبل فى سور عديدة: القمر. الأعراف. الشعراء. النمل. هود. الحجر. الصافات. وماجاء عنه فى السورة الحالية هو آخر مانزل عنه فى القرآن الكريم لذلك جاء مفصلا بعض الشيئ فى الآيات من ٢٨ إلى ٣٥ منتهية بهلاكهم: «إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون. ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون».

٤ - ٧ - ذكر سريع لمدين وعاد وثمود وفرعون وقارون:

«وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. وعاداً وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين. وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين» (٣٦ - ٣٩).

وتنتهى هذه الفقرة عن الأقوام السابقين بقوله تعالى:

«فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (٤٠).

وهن الرابطة بين المشركين وآلهتهم :

وتضرب الآيات المثل لمدى وهن الرابطة بين المشركين وبين من يتخذونهم من دون الله شركاء – ببيت العنكبوت الذى هو أوهن البيوت. فعقيدة أولئك المشركين هى أيضا أوهى العقائد وكأنهم لا يعبدون شيئا:

«مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيئ وهو العزيز الحكيم. وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون. خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين» (٤١ – ٤٢).

أمر بالاجتهاد فى العبادة :

ثم تمضى الآيات تحث النبى على الاجتهاد فى العبادة بتلاوة القرآن الكريم وإقام الصلاة وبالطبع ينسحب الأمر على كافة المسلمين بدليل ختم الآية بصيغة الجمع.

«اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون» (٤٥).

أمر باللين فى جدال أهل الكتاب :

وكان بعض اليهود والنصارى يفدون إلى مكة للتجارة، وأحيانا كانت تحدوهم رغبة فى تعرُّف حقيقة هذا النبى الذى تناهى خبره إلى أسماعهم. ولاشك أنهم كانوا يجادلون النبى فى بعض ما يقول ويجادلون المسلمين أيضا. فنزل أمر باللين فى الجدل مع أهل الكتاب – باستثناء الذين يتجاوزون حدود الإنصاف – وإعلانهم أنهم متفقون معهم فى العبودية لله وحده. ثم تؤكد الآيات على أن القرآن وحى من عند الله :

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» (٤٦ – ٤٩).

والآيات صريحة وقاطعة بأن النبى لم يكن يكتب أو يقرأ. وبالرغم من ذلك فإن بعض المستشرقين يدَّعون أن النبى كان يقرأ ويكتب ولو كان ذلك صحيحا لعرفته قريش ولعارضوا

هذه الآية يقول يؤثر. والحقيقة أن المستشرقين يقيسون الماضى على الحاضر حيث أن نسبة المتعلمين حاليا هى الغالبة فى حين كان المتعلمون فى الماضى قلة وقد لا يزيدون فى مجتمع ما على أصابع اليدين ويكونون معروفين بالإسم.

المشركون يطلبون معجزة :

ثم راح المشركون يطالبون النبى بالإتيان بمعجزات مادية، وأمَرَه الوحى بإخبارهم أن القرآن – فى حد ذاته – هو آية كبرى ورحمة لهم :

«وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه (وفى قراءة آيات) قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أوَلم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات والأرض. والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون» (٥٠ – ٥٢).

المشركون يتحدَّون ويطلبون تعجيل العذاب :

ثم راح المشركون يتحدَّون النبى طالبين التعجيل لهم بالعذاب الذى ينذرهم به وغرضهم الاستخفاف بوعيده والاستهزاء به، ويَرُدُّ عليهم بأن العذاب له فى علم الله وقت محدد ولولا ذلك لجاءهم العذاب الآن وعلى كلٍّ فسوف يأتيهم فجأة وحينئذ – فى يوم القيامة – ستحيطهم نار جهنم من كل جانب ويُخبرون أن هذا جزاء لما كانوا يعملون من سيئات فى الدنيا:

«ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مُسمًّى لجاءهم العذاب وليأتينَّهم بغتة وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» (٥٣ – ٥٥).

تحبيذ الهجرة :

«ياعبادِىَ الذين آمنوا إن أرضِى واسعة فإياى فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم» (٥٧ – ٦٠).

والنص على أن أرض الله واسعة يعنى أنه إذا ضُيِّق على المسلمين فى مكان فعليهم أن يذهبوا إلى أرض أخرى لا يُضيق عليهم فيها. فهو تحبيذ على الهجرة إلى أرض يستطيع المسلمون عبادة الله فيها بحرية، ولم تكن الآيات لتأمر بالهجرة صراحة حتى لا يندفع المسلمون فى هجرة جماعية تثير ثائرة المشركين فيقاومونها مقاومة جماعية بالسلاح مع ما فى ذلك من خطر على جماعة المسلمين. لذلك كان تحبيذا خفيا حتى يهاجر من يستطيع ويتسلل المسلمون سرا كما فعل الكثيرون أو جهارا كما فعل عمر بن الخطاب.

ولعل بعض المسلمين كان يتخوف من أن يموت فى الغربة فكان النص على أن كل نفس ذائقة الموت بمعنى أنه لا يهم فى أى أرض تموت فالكل راجع إلى الله. والذين آمنوا سيكافؤون بأن لهم الجنة. كذلك لعل بعضهم تخوف من الفاقة فى المهجر فكان تطمينهم بأن الله يرزق الدواب ومن باب أولى أن يرزق البشر.

الكفار يناقضون أنفسهم :

ثم يتوجه الخطاب إلى الكفار يندد بتناقضهم مع أنفسهم إذ يشركون بالله مع أنهم يعلمون أنه هو الذى خلق السموات والأرض والشمس والقمر. وهو الذى يرزق الناس وهو الذى ينزل المطر فتحيا الأرض وينبت الزرع. وإذا ركبوا السفن وهاج البحر دعوا الله فإذا أنجاهم أشركوا. وتنتهى بتهديد بتركهم يكفرون ويتمتعون كما يشاءون فسوف يعلمون فى النهاية عاقبة كفرهم:

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله فأنى يؤفكون. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيئ عليم. ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُن الله. قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون. وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون. فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون» (٦١ - ٦٦).

بركـة البيـت الحـرام :

ثم يأتى سؤال استنكارى يندد بإنكار الكافرين نعمة الله عليهم إذ جعل بلادهم آمنة فى حين أن الدول المجاورة فى حروب ومهالك. ثم سؤال ثانٍ يقرر أنه ليس من أحد أشد بغيا ممن يفترى على الله الكذب أو يكذب بآيات الله. ثم تختم بتنويه بمن جاهد فى الله. والجهاد هنا معناه جهاد النفس والصبر على أذى قريش لأن آيات الجهاد قتالا لم تنزل إلا فى المدينة :

«أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويُتَخَطَّف الناس من حولهم. أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين. والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» (٦٧ - ٦٩).

زيادة أعداد المهاجرين إلى يثرب :

بعد نزول هذه السورة وما فيها من آيات تحبِّذ الهجرة بدأت أعداد المهاجرين إلى يثرب تزداد فهاجر ٢٦ رجلا وامرأة:

١ - ٢ - ٣ - عكاشة بن محصن وعمرو بن محصن وأم قيس بنت محصن.

٤ - ٥ - شجاع وعقبة ابنا وهب .
٦ - أربد بن جميرة ٧ - منقذ بن نباتة .
٨ - ٩ - ١٠ - سعيد بن رقيش وآمنة بنت رقيش وزيد بن رقيش .
١١ - قيس بن جابر ١٢ - ربيعة بن أكثم .
١٣ - ١٤ - ١٥ - مالك بن عمرو وصفوان بن عمرو وثقف بن عمرو.
١٦ - ١٧ - ١٨ - الزبير بن عبيدة وتمام بن عبيده وشخيرة بن عبيدة .
١٩ - ٢٢ - محمد بن عبد الله بن جحش وزينب بنت جحش (بنت عم الرسول وزوجته فيما بعد) وحمنة بنت جحش وأم حبيبة بنت جحش.
٢٣ - سخيرة بنت تميم . ٢٤ - أم حبيب بنت ثمامة .
٢٥ - صهيب بن سنان الرومي . ٢٦ - عمر بن الخطاب .

هجرة صهيب بن سنان : كان صهيب قد أتى مكة فقيرا وتاجر حتى كثر ماله. فقال له كفار قريش، أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب، أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟ قالوا نعم. قال فإنى قد جعلت لكم مالى. فبلغ ذلك رسول الله فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

هجرة عمر بن الخطاب : لما نوى عمر بن الخطاب الهجرة تقلد سيفه ومضى إلى الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا . ثم وقف وصاح بأعلى صوته متحديا: من أراد أن تثكله أمه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقنّي وراء هذا الوادى. وسار عمر فما تبعه أحد.

هجرة أقارب عمر : ولخوف قريش من شجاعة عمر فإن عددا من أقاربه تبعوه ولم يجرؤ أحد من قريش على التصدى لهم وهم:

١ - زيد بن الخطاب أخو عمر . ٢ - عبد الله بن عمر بن الخطاب .
٣ - سعيد بن زيد زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر .
٤ - خنيس بن حذافة السهمى زوج حفصة ابنة عمر.
٥ - واقد عبد الله التميمى .
٦ - ٧ - عبد الله وعمرو ابنا سراقة بن المعتمر .
٨ - ٩ - خولى بن أبي خولى . حليف الخطاب وأخوه مالك .
١٠ - ١٣ - بنو البكير الأربعة: إياس وعاقل وخالد وعامر .

وبرغم هؤلاء الذين هاجروا فإن قريشا منعت الكثيرين من الهجرة، بل إنها لم تيأس من محاولة استمالة بعض من هاجروا فعلا واستعادتهم إلى مكة مستعملين الحيلة والخداع. مثال

ذلك أن أبا جهل ومعه أخوه الحارث خرجا إلى المدينة وقصدا عيَّاش وكان ابن عمهما وقالا له إن أمه نذرت ألا يمس رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراه. فحذّره زملاؤه من أنهما يريدان فتنته عن دينه فأبى إلا أن يعود معهما إلى مكة ليرى أمه. وفى الطريق عَدَوَا عليه وأوثقاه ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن. وظل بمكة كافرا. وبعد سنوات قليلة من هجرة الرسول تاب وأسلم ثانية وهاجر إلى المدينة ورسول الله بها.

كان كثير من المسلمين الذين يهاجرن خفية عن أعين قريش يغلقون دورهم وبها ما لم يستطيعوا حمله من متاعهم ويعطون تفويضا لأحد أقاربهم بتولى بيع الدار وما فيها وإرسال ثمنها إليهم فى يثرب ليستعينوا به فى المعيشة فى غربتهم. وكان آخرون يحتفظون بالدار وما فيها على أمل أنهم يوما ما سيرجعون إليها. وكان كثيرون يبيعون ما يستطيعون بيعه من أثاث بأنفسهم قبل هجرتهم ولذلك كثرت المعروضات وانتهز المشترون الفرصة وبخسوا ثمن الأشياء. فنزلت سورة المطففين تندد بهذا المسلك.

سورة المطففين :

«ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين» (١ - ٦).

وهى ثانى سورة تبدأ بكلمة «ويل» إذ سبقتها فى النزول سورة الهمزة (ص ٩٤) **«ويل لكل همزة لمزة»** . وسورة المطففين - ولو أنها نزلت فى مناسبة خاصة إلا أنها وُضعت فى صيغة تجعل منها قاعدة أخلاقية عامة تصلح لكل زمان ومكان ولكل مجتمع. ففضلا عن عمليات البيع والشراء المعهودة فإن كل معاملات البشر بعضهم مع بعض هى بيع وشراء. وحتى الأجير فإنه يبيع مجهوده لمن استأجره. والطبيب يبيع علمه بأنواع العقاقير وخواصها العلاجية لقاء أجر. والمحامى يبيع خبرته بالقوانين ولباقته وقوة الإقناع فى الدفاع عن المظلوم وهكذا. وعلى كل بائع ألا يغش فى بضاعته فلا يتكاسل الأجير فى عمله ولا يتخلف المحامى عن جلسات المحكمة فيعرض موكله للضياع. وعلى المشترى أن يعدل فى الثمن ولا يبخس الناس أشياءهم.

ثم يلى ذلك تنديد بالكفار الذين يُكذِّبون بيوم القيامة وتبين جزاءهم وعذابهم فى أعماق الجحيم:

«كلا إن كتاب الفُجار لفى سِجين. وما أدراك ما سِجين. كتاب مرقوم. ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذى كنتم به تُكذبون» (٧ - ١٧).

وفى مقابل هذا يذكر النعيم الذى يتنعم به الأبرار فى الجنة :

«كلا إن كتاب الأبرار لفى عِليين، وما أدرك ما عليون، كتاب مرقوم، يشهده المقربون، إن الأبرار لفى نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم، يُسقَوْن من رحيق مختوم، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه من تسنيم، عينًا يشرب بها المقربون» (١٨ – ٢٨).

وتختم السورة بتنديد بما كان الكفار يفعلونه فى الدنيا من سخريتهم بالمؤمنين وتخبرهم بانقلاب الحال يوم القيامة :

«إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون، وما أُرسلوا عليهم حافظين، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون، هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون» (٢٩ – ٣٦).

٤ سـور :

توجد ٤ سور اختلف المفسرون حول مكيتها أو مدنيتها اختلافا كبيرا هى سور الرعد والرحمن والإنسان والزلزلة. قالوا هى مدنية ولكن فيها آيات مكية كثيرة، والبعض قال هى مكية فيها آيات مدنية. ولو احتكمنا إلى الأسلوب نجد أنها – فيما عدا سورة الرعد – فيها خصائص القرآن المكى. فالآيات قصيرة والكلمات تقرع الآذان وفيها تركيز على مشاهد من يوم القيامة ولفت نظر السامعين إلى آيات الله فى الكون، وفى السور مواقف جدل أثارها الكفار مع النبى وردّت الآيات عليها وهو ما كان يحدث كثيرا فى العهد المكى. كذلك إنكار البعث وتجئ آيات تؤكد حدوثه ومشاهد لمحاسبة الخلائق على أعمالهم. فهذه مواضيع كانت تتردد كثيرا فى القرآن المكى. أما سورة الرعد فأسلوبها يقع وسطا بين الأسلوب المكى والأسلوب المدنى ويقول الألوسى عن مجاهد عن ابن عباس وعلى بن أبى طلحة إنها مكية. ويقول قتادة إنها مدنية. ولكن تكفى الآية ٣١ لتقطع بمكيتها إذ فيها – كما سيأتى فيما بعد ص ٤١٥ – طلب المشركين من النبى إزاحة الجبال حتى يتسع الوادى ليزرعوا. وهو ما ينطبق على مكة دون المدينة.

سورة الرعـد :

«المر تلك آيات الكتاب (أى القرآن) والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذى مدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشِى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل

صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» (١ - ٤).

والسورة تبدأ بأربعة حروف مقطعة المر يليها تنويه بالقرآن الكريم ثم قَسَم به وجواب القسم أنه حق ومع ذلك فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون.يلى ذلك مظاهر من قدرة الله فى السماء والأرض:

١ - رفع السماء بغير عمد نراها: وقد سبق ذكر ذلك في سورة لقمان (آية ١٠ ص ٢٨٠) «**خلق السموات بغير عمد ترونها**» وقد شرحنا المعنى سابقا فلا داعى للإعادة.

٢ - وكان أول ذكر للاستواء على العرش هو ما جاء فى سورة الأعراف (الآية ٥٤ ص ١٢٠ وشرحناه بما فيه الكفاية. ثم تكرر ذكره فى سورة الفرقان (آية ٥٩) وسورة يونس (آية ٣) وسورة السجدة (آية ٤) وسورة الحاقة (آية ١٧) وكان ذكره فى سورة الرعد الحالية هو المرة السادسة والأخيرة.

٤ - وتسخير الشمس والقمر ذُكر كثيرا من قبل ولكل منهما فلك يجرى فيه فلا يتصادمان.

٤ - آية مد الأرض والجبال فيها رواسى والأنهار لرى النبات ولشرب الإنسان والأنعام.

٥ - وفى الآيات إشارة إلى ما كان العرب يعرفونه من وجود أنواع مذكرة من النخيل وأنواع مؤنثة فكانوا يقومون بعملية تأبير النخل حتى يثمر. وقد أثبت العلم الحديث أن هناك أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث فى زهور جميع النباتات وأن التزاوج لازم لإنتاج الثمرة «**ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين**»، و«**صنوان**» جمع وهى النخلات يجمعها أصل واحد تتشعب منه السيقان و«**غير صنوان**» أى منفردة. ومعروف أن النخل الصنوان - بالعامية يسمى «بنت جورة» - يتشابه فى الشكل والطعم فى حين يختلف ثمر «غير الصنوان».

٦ - آية الليل والنهار : النهار للسعى والليل للسكون والراحة.

٧ - ويرى علماء الجيولوجيا أن فى قوله تعالى: «وفى الأرض قطع متجاورات...» إعجازا علميا. فقد أثبت العلم الحديث أن التربة فيها أنواع مختلفة حسب أنواع الصخور التى تفتتت عنها وتختلف صفاتها الطبيعية والكيميائية وتركيز المعادن والأملاح المختلفة فيها مما يجعل هذه تجود فيه زراعة نوع معين من الفواكه وتلك تصلح لنوع آخر. وقد يزرع بالقطعة الواحدة أنواع مختلفة من النباتات مثل العنب والنخيل وغيرها وكلها تروى بماء واحد فتذوب الأملاح ويأخذ كل نبات ما يحتاجه منها وهو يختلف عما يأخذه النبات الآخر. وعند اكتمال النمو توجد الثمار التى قد نفضل بعضها على بعض عند الأكل (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. ص ٣٥٣).

إنكار الكفار للبعث :

ثم تأتى فقرة فيها تنديد بالكفار الذين كانوا لا يفتأون يتساءلون تساؤل المنكر عما إذا كانوا حقيقة سيبعثون بعد الموت، وهؤلاء جزاؤهم أغلال فى أعناقهم ويلقون فى النار. ثم هم يستعجلون العذاب الذى هدَّدهم به النبى واستعجالهم يحمل معنى الإنكار والاستخفاف مع أنهم يعرفون ما حاق بالأمم السابقة التى كذبت رسلها. وقد سبق ذكر هذا التحدى من الكفار فى سورة ص (الآية ١٦ ص ١١١) **«وقالوا ربنا عجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب»**. ثم عاد الكفار يتحدون النبى ويطلبون أن تنزَّل عليهم معجزة مادية:

«وإن تعجب فعجبٌ قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت (أى مضت) **من قبلهم المثلات** (الأمم أمثالهم) **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه. إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»** (٥ – ٧).

سعة علم الله وبعض مظاهر قدرته :

وتمضى الآيات لتقرر إحاطة علم الله بكل شيئ. فهو يعلم ما تحمل كل أنثى وما يحدث فى الأرحام من زيادة بالحمل أو نقص عند ولادة الجنين وكل شيئ عنده سبحانه وتعالى بقدر معلوم. وهو عالم الغيب والشهادة ويعلم ما يقوله الناس علنا أو ما يدور سرا فى نفوسهم. وهو الذى يسبب الظواهر التى نراها فى السماء من برق وسحاب مثقل بالمياه وصوت الرعد تسبيح والصواعق يرسلها حارقة على من يشاء من عباده الظالمين. فهو شديد القوة والتدبير:

«الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيئ عنده بمقدار. عالمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. إن الله لا يُغَير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال. هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحَال (القوة أو الأخذ)**»** (٨ – ١٣).

وقد احتوت الفقرة آية تعتبر ناموسا إجتماعيا وهى قوله تعالى: **«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»**. والمعنى أن فردا أو جماعة أصبحوا فى ضيق من الرزق فلابد أنهم كانوا يعملون السيئات ولن يغير الله حالهم حتى يبدأ التغيير من داخل أنفسهم بالإقلاع عن السيئات فيصبحوا مستحقين لنعمة الله وفضله. وكذلك إذا كان قوم فى سعة فلن يتغير حالهم إلى ضيق إلا أن يبغوا فى الأرض فينزع الله عنهم نعمته.

وأما عن تسبيح الرعد بحمده فهو من باب قوله تعالى: **«وإن من شيئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم»** (آية ٤٤ سورة الإسراء). والمعنى انقياد جميع الأشياء لله وخضوعها لسننه وإرادته.

تنديد بالشرك وتمجيد لله :

«له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال. ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال» (١٤ – ١٥).

وتقرر الآيات أن الدعاء لا يكون إلا لله لأنه يملك الاستجابة أما الشركاء أو الأصنام التى يدعوها الكفار فهى لا تستجيب لدعائهم. وشُبِّه ذلك بشخص يريد أن يشرب من نهر فهو يجعل كفه كالمغرفة لتمسك بالماء أما إذا بسط كفه فلن تحمل شيئا. فدعاء الكافرين مثل ذلك وهم فى ضلال. ثم تقرر الآيات أن كل شيئ فى السموات والأرض يسجد لله وخاضع لسلطانه إن طوعا أو كرها وليس هؤلاء فقط بل وظلالهم الخافته فى أول النهار وآخره.

أسئلة إلى الكفار :

وكتكملة لهذا المعنى تأتى الآيات بأسئلة إلى الكفار :

«قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً. قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم. قل الله خالق كل شيئ وهو الواحد القهار» (١٦).

وفى الآيات أمر موجَّه إلى النبى بسؤال الكافرين عمَّن هو رب السموات والأرض ولن يكون الجواب إلا «الله». ويتبعه سؤال تنديدى عن سبب اتخاذهم شركاء من دون الله لا ينفعون ولا يضرون. والفرق شاسع بين إله يملك كل شيئ فى الكون وشركاء لا يملكون شيئا. ثم يجيئ السؤال التالى محتكما إلى المنطق إذ لا يصح أن يستوى الأعمى والبصير. وكذلك لا تستوى الظلمات والنور. ثم تساؤل أخير عما إذا كان الشركاء الذين جعلوهم مع الله قد خلقوا شيئا مثل خلق الله فالتبس الأمر عليهم. ولا جواب على هذا الأسئلة إلا إقرار الكافرين بأن الله هو خالق كل شيئ وهو الإله المتفرد بالألوهية والقهار الذى يخضع لعظمته كل شيئ.

مقارنة بين الحق والباطل :

«أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» (١٧).

وهذه الآيات تعقد مقارنة بين الحق والباطل وتضرب المثل، بشيئ ملموس. فحين ينزل المطر تسيل الوديان بالقدر المقدّر لها من الماء وتتكون الأنهار. وأثناء جريان الماء يعلو سطحه زبد ورغوة ليس له قوة ولا نفع منه. وكذلك عند صهر المعادن كالذهب والفضة لصنع الحلى أو الحديد لصنع المتاع من فؤوس أو النحاس لصنع الأوانى يطفو على سطح المعدن المنصهر خبث لا نفع منه ويلقى جانبا. أما ما يُنتفع به فيبقى. وفى حالة الأنهار تترسب ما تحمله المياه من معادن حسب حجم حبيباتها وكثافة مادتها وتتجمع فى قيعان مصبات الأنهار. فتُستخلص وتُنقّى ليُنتفع بها.

ثلاث مقارنات :

واستكمالا لهذه المقارنة بين الحق والباطل تعقد الآيات ثلاث مقارنات:

١ – بين من يستجيبون لربهم ومن لم يستجيبوا له .

٢ – بين من يعلم ومن لا يعلم .

٣ – بين من يوفى بعهده مع الله ومن ينقضه .

١ – **«للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد»** (١٨).

وقد ذُكر جزاء المكذبين واختُصرَ ثواب الذين استجابوا لربهم فى كلمة واحدة هى الحسنى أى حسن الثواب وجنات النعيم.

٢ – **«أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى. إنما يتذكر أولوا الألباب»** (١٩).

فالذى أدرك أن القرآن هو الحق من عند الله لا يصح تسويته بمن هو أعمى القلب والبصيرة وذوو العقول السليمة تعقل هذا وتتعظ به.

٣ – **«الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** (من الإيمان والرحم) **ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار»** (٢٠ – ٢٥).

والآيات واضحة وتحتوى وصفا محببًا لمن يشع الإيمان فى قلوبهم فيظهر فى تصرفاتهم: وفاء بعهودهم وصلة بالرحم وإقام الصلاة والتصدق فى السر والعلن. فهؤلاء لهم الجنة. والآيات تلهم أن هذه الصفات هى ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى كل وقت وحين. وعكس ذلك الذين ينقضون عهد الله ويقطعون الرحم ويفسدون فى الأرض فعليهم لعنة الله وجهنم دارهم وهى أسوأ دار.

وتمضى الآيات تحذرهم من أن يظنوا أن ما أوتوا من مال وقوة هو دليل رضا من الله لأن الله يبسط الرزق لمن يأخذ بالأسباب مؤمنا كان أم كافرا وعليهم ألا يفرحوا بما عندهم لأن ذلك متاع زائل والآخرة خير وأبقى:

«الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع» (٢٦).

الكفار يطلبون معجزة مادية :

والحقيقة أن الكفار ما فتئوا بين الحين والآخر يتحدُّون النبى ويطلبون منه أن يأتى بآية أى معجزة مادية. فقد طلبوا ذلك من قبل فى سورة يونس (الآية ٢٠ ص ٢٣١) **«ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه»**. وفى سورة الأنعام (الآية ٨ ص ٢٥٥) **« وقالوا لولا أنزل عليه ملك»** وفى الآية ٣٧ (ص ٢٥٨) **«وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه»**. وفى سورة العنكبوت (الآية ٥٠ ص ٤٠٥) **«وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه»**. وفى السورة الحالية سورة الرعد جاء ذلك فى الآية ٧ (ص ٤١١) **«ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه»** وتكرر ذلك ثانية وبنفس اللفظ فى الآية الحالية ٢٧.

وكان الرد عليهم فى كثير من الأحيان أنهم إذا أجيبوا إلى طلبهم ونزلت آية ولم يؤمنوا وجب هلاكهم. فيكون رفض مطلبهم رحمة بهم. وفى هذه الآية أُمِرَ النبى أن يوضح لهم أن السبب فى عدم إيمانهم لا يعود لنقص المعجزة بل لضلال عملهم فزادهم الله ضلالا. أما الذين يتوبون فإن الله يهديهم فيؤمنوا وتطمئن قلوبهم أكثر بذكر الله:

«ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مئاب» (٢٧ - ٢٩).

وقد أصبحت جملة **«ألا بذكر الله تطمئن القلوب»** دعوة إلى ذكر الله وخاصة فى الملمَّات. تجمع للمرء شتات نفسه وتزيل عنه همه وكربه. أما عن كلمة «طوبى» فهذه هى المرة الوحيدة التى تذكر فيها فى القرآن كله. ويقول علماء اللغة إنها مشتقة من طاب أو طيب واسم التفضيل أطيب ومؤنثه طوبى مثل حسن وأحسن وحسنى.

الرحمن من أسماء الله الحسنى :

«كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوَا عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن. قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب» (٣٠).

ويروى أن أبا جهل سمع النبى وهو فى الحجر يدعو: يا الله. يارحمن. فقال لقريش إن محمدا يدعو إلهين. يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن. ولا نعرف الرحمن إلا رحمن

اليمامة. فنزلت الآية ترد عليه وتنبه إلى أنه إله واحد: «**قل هو ربي لا إله إلا هو**». وقد سبق أن ذكرت سورة الإسراء (الآية ١١٠، ص ٢٢٢) «**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعو فله الأسماء الحسني**» مما يدل على أن المشركين كانوا كثيري الجدل بشأن هذا الإسم والظن أنه إله ثان فكان التأكيد على أنه اسم من أسماء الله الحسني.

بعض المعجزات التي طلبها الكفار :

ذلك أن كفار قريش طلبوا من النبي ليؤمنوا أن يُسَيِّر جبال مكة ويزيحها إلى الوراء – كمعجزة – ليتسع الوادي وتصبح لهم رقعة أكبر صالحة للزراعة. كذلك طلبوا أن يحيي الموتى. وكان بعض المسلمين يتمنون أن يجاب المشركون إلى طلبهم أملا في إيمانهم. فجاءت الآيات تعقب على المسلمين تمسكهم ببعض الأمل في هداية المشركين وتخبرهم أن الأمر موكول إلى الله فلو شاء هدى الناس جميعا ولكن أفعال الكافرين تحتم أن يصيبهم عذاب أو ينزل قريبا منهم. ثم تسرية عن النبي وحث على تحمل استهزاء المشركين به إذ أن الرسل الذين سبقوه لاقوا نفس المعاملة فأمهل الله المشركين ثم أنزل بهم عذابا أليما:

«**ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى. بل لله الأمر جميعا. أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد. ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب**» (٣١ – ٣٢).

تسفيه فكرة الشرك بالله

«**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت. وجعلوا لله شركاء قل سَمُّوهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول. بل زُين للذين كفروا مكرُهم وصُدُّوا عن السبيل ومن يُضلل الله فما له من هاد. لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق. مثل الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها. تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**» (٣٣ – ٣٥).

والآيات تبدأ بسؤال استنكاري عما إذا كان الأحق بالألوهية والأجدر بالعبادة الله الرقيب المهيمن على كل نفس والمحصي لما تكسب من خير أو شر. أم من جعلوهم شركاء لله؟ ثم يوجه إليهم أمر بتسميتهم كناية عن أنهم لا وجود لهم. ثم يأتي سؤال تنديدي عما إذا كانوا بسبيل إخبار الله بوجود شركاء له في الأرض لا يعلمهم. أم أن ذلك قول غير محقق وغير ظاهر. والحقيقة أن الشيطان زين لهم هذا المكر في الجدال وصدهم عن السبيل القويم فزادهم الله ضلالا ولهم عذاب في الدنيا وعذاب آخر في الآخرة أشد وأقسى ولن ينقذهم منه أحد. أما المتقون فلهم جنات فيها من كل الخيرات ثم يعاد التأكيد على أن للكافرين النار.

بعض أهل الكتاب يصدّقون بالقرآن :

«والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك، ومن الأحزاب (الكفار المتحزبين ضد النبى) **من ينكر بعضه، قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب. وكذلك أنزلناه حُكما** (آيات محكمة) **عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق»** (٣٦ – ٣٧).

وكما سبق أن ذكرنا أن بعضا من أهل الكتاب آمن بالقرآن وفرحوا به لأنهم أيقنوا أنه من عند الله بالرغم من أن الكفار المتحزبين ضد النبى وبعض الأحزاب من أهل الكتاب ينكرونه أو ينكرون بعضه، ثم تخبر الآيات أن النبى أُمر أن يعبد الله ولا يشرك به وفى هذا دعوة لهم ليقتدوا به فيعبدوا الله وحده ولا يشركوا به. ثم تقرير بأن الله أنزل القرآن آيات محكمة وبلسان عربى حتى يفهموه ويؤمنوا به. ثم نهى للنبى من أن يتبع أهواءهم وإن سايرهم فما له من ناصر ينصره من الله أو يقيه منه. والخطاب للنبى والتحذير للسامعين.

الكفار يريدون النبى راهبا ويطلبون معجزة :

قيل إن بعض أهل الكتاب وكذلك بعض المشركين عابوا على النبي زواجه. ولعل النصارى أرادوه أن لا يتزوج مثل عيسى أو أن يكون حصورا مثل يحيى. فردت الآيات تذكرً بأن الرسل قبله كان لهم أزواج وذرية. وعادوا فطلبوا منه معجزة فكان الرد بأن الآيات لا تأتى إلا بإذن الله ولكل شيئ وقت معين وكل شيئ عند الله في اللوح المحفوظ والله وحده هو الذى يملك تغيير ما فيه. ثم إخبار للنبى بأن الله قادر على أن يريه بعض العذاب المعد للكافرين أو قد يتوفاه الله قبل ذلك فلا يراه فقصارى مهمته هى تبليغ رسالة الله أما الحساب فلله وحده:

«ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وإمّا نُرينّك بعض الذى نعدهم أو نتوفّينّك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» (٣٦ – ٣٧).

ثم يأتى ختام السورة :

«أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا مُعَقّب لحكمه وهو سريع الحساب. وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب» (٤١ – ٤٣).

والآيات تتساءل عما إذا كان الكفار لم يروا أن أرض الكفر تنقص يوما بعد يوم وعدد المسلمين يزداد – ولو ببطء – يوما بعد يوم وهذا حكم الله ولا راد لحكمه. وقد جاء هذا المعنى

قبل ذلك في سورة الأنبياء (الآية ٤٤ ص ٣٦٦) وقد علقنا عليه بما فيه الكفاية. ثم تذكر الآيات أن الأقوام السابقين قد مكروا وائتمروا بأنبيائهم ولكن تدبير الله فوق كل تدبير وسيعلم الكفار أن العاقبة ستكون للمؤمنين. وعاد الكفار يقولون إن النبي ليس مرسلاً من ربه، ويلقن النبي الرد وهو أن يقول لهم إن الله هو الحكم بينه وبينهم وفي هذا الكفاية. ولكن إضافةً إلى ذلك فإن بعض علماء أهل الكتاب يجدون صفات النبي مذكورة في كتبهم ويشهدون بنبوّته.

سورة الرحمن :

في هذه السورة يظهر الطابع المكي واضحا جليا ولذلك يرى معظم المفسرين أنها مكية وقلة هي التي تقول بمدنيتها. وقد سمّاها علي بن أبي طالب «عروس القرآن». والسورة فريدة في أسلوبها النظمي إذ تكررت فيها جملة «فبأي آلاء ربكما تكذبان» ٣١ مرة. فكلما ذكرت نعمة أنعم الله بها على الخلق، وبخهم على التكذيب بها بقوله تعالى «فبأي آلاء ربكما تكذبان». وقيل إن هذا من باب قول الرجل لغيره: أتنكر أني فعلت لك كذا وكذا ويحسن التكرار لاختلاف ما يقرر به. وهذا يسمى «الترديد» وهو معروف في كلام العرب وأشعارهم كقول أحدهم يرثي كليبا (تفسير الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٧):

على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا ما ضيم جيران المجيـر
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا رجف العضاه من الدبـور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا خرجت مخبأة الخـدور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا ما أعلنت نجوى الأمـور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا خيف المخيف من الثغـور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ غـداة تأثل الأمـر الكبيـر
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا مـا خار جأش المستجيـر

ولكن القارئ يصيبه الملل بعد خمسة أو ستة أبيات. وجاء القرآن بهذه السورة يتحدى في هذا المجال. فأورد الجملة ٣١ مرة ولا يشعر القارئ بأي ملل من تكرارها لما في الأسلوب من سلاسة وعذوبة ولو رفعت الجملة من مكانها لافتُقدت.

«الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان» (١ - ٤).

وتبدأ السورة بالرحمن، اسم من أسماء الله. وقد أشرنا في السورة السابقة (الرعد آية ٢٩ ص ٤١٤) إلى ما كان الكفار يثيرونه حول اسم الرحمن. ولعل بدء السورة بهذا الاسم بالذات فيه رد على الكفار وتنديد بما يقولونه. يلي ذلك إخبار بأن الله علّم الإنسان القرآن وأنه خلق الإنسان وعلّمه قدرة التعبير وقوة البيان والاستناد إلى المنطق ويرى فيها العلماء عاملا أساسيا من عوامل تقدم البشرية ونمو الحضارة:

«والشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا فى الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان. والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٥ - ١٣).

والآيات استمرار لتعداد نعم الله وعظمته. فالشمس والقمر كل منهما يجرى فى مدار محسوب بدقة بالغة. إذ لو كانت الأرض أكثر قربا من الشمس لاحترق كل شيئ. ولو كانت أبعد مما هى عليه الآن لتجمد كل شيئ. ولو كان القمر أبعد مما هو عليه الآن لكان ضوءه من الضعف بحيث لا يفيد فى ظلام الليل ولو اقترب أكثر من ذلك لجذبته الأرض فسقط عليها. كما أن مكانه من الشمس والأرض وسرعة دورانه حول الأرض محسوبة بدقة بحيث أن تأخره كل يوم يعطى الأشكال المختلفة للهلال ويمكن من حساب الشهور القمرية. والنجم والشجر - التى كان بعض الكفار يعبدونها - تسجد لله. والله هو الذى رفع السماء ومد الأرض وأنبت فيها الفاكهة والنخل ذات البراعم التى يخرج منها الثمر. والحب كالحنطة والشعير يكون من سيقانه التبن للأنعام وهناك نباتات طيبة الرائحة فيها بهجة للإنسان.

«خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار. فبأى آلاء ربكما تكذبان. رب المشرقين ورب المغربين. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (١٤ - ١٨).

وتقرر الآيات أن الإنسان خُلق من طين والجان خُلق من نار. والإنس والجن هما المخاطبان فى هذه السورة. والسؤال المتكرر هو بأى نعم الله يكذبان. ثم تذكر نعمة تعاقب الفصول والشمس تشرق وتغرب فى الصيف فى أمكنة غير مشرقها ومغربها فى الشتاء فالله هو رب المشرقين ورب المغربين.

«مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (١٩ - ٢٥).

فمن نعم الله وجود شبه حاجز بين المياه العذبة فى الأنهار والمياه المالحة فى البحار متمثل فى ارتفاع منسوب مياه الأنهار فلا يطغى ماء البحر المالح على مياه الأنهار وإلا لأصبح الكل مالحا لكثرة مياه البحر والمحيطات ولما وجد الإنسان ماء عذبا ليشربه. وهذه نعمة كبرى فلزم أن يتبعها السؤال المتكرر عن التكذيب بها. ومن البحر يخرج اللؤلؤ والمرجان وسطح البحار تجرى فيها البواخر المرتفعة كالجبال. وهاتان آيتان أُتبعت كل واحدة منهما بالسؤال: هل يجوز التكذيب بها؟

«كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٢٦ - ٣٠).

فكل كائن مصيره للفناء والله وحده هو الباقى. ويسأله الرزق كل من فى السموات والأرض. وعن ابن عمر عن النبى فى قوله تعالى: «كل يوم هو فى شأن» قال يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا.

«سنفرغ لكم أيها الثقلان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٣١-٣٦)

والثقلان هما الإنس والجن، والسؤال موجه إلى المكذبين منهما ويحمل معنى الوعيد لهما. فسوف يفرغ الله لحسابهم على أعمالهم. وهو أسلوب مجاز فالله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن حتى يصح فى حقه أن يقال إنه سيتفرغ لهذا العمل وإنما المقصود هو الإنذار والتهديد وأن الحساب سيكون دقيقا وعسيرا. ولن يستطيعوا أن ينفذوا من أنحاء السموات والأرض هربا منه ولن يتيسر لهم النجاة إلا بسلطان من العمل الصالح. وهذا ما فهمه الناس عند نزول القرآن. إلا أن بعض المفسرين فى العصر الحديث قالوا إن فيها إشارة إلى محاولات الإنسان غزو الفضاء وفهم أولا استحالتها. فلما توفرت قوة الدفع المطلوبة للصواريخ أمكن السفر فى الفضاء القريب من الأرض وإقامة محطات فضائية. أما النفاذ من أقطار السموات والأرض لأبعد من هذا فمستحيل استحالة مادية إذ إن أقرب نجم لنا يبعد بمقدار ٤ سنوات ضوئية ولما كانت سرعة الضوء هى ٣٠٠,٠٠٠كم فى الثانية فى حين أن سرعة الصواريخ المتاحة حاليا لا تزيد عن ٢٠كم فى الثانية فإن الوصول إلى أقرب نجم لنا يستغرق ١٥٠,٠٠٠ سنة فما بالنا بالنجوم الأبعد. كما أن الشهب بالمرصاد. صحيح أن سفن الفضاء الحالية قد صممت بحيث تتحمل صدمات الشهب الصغيرة ولكن هناك ملايين من الشهب والنيازك الكبيرة الكفيلة بتحطيم أى سفينة فضاء تخرج عن نطاق المجموعة الشمسية.

«فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام. فبأى آلاء ربكما تكذبان. هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٣٧ - ٤٥)

وفى الآيات وصف لبعض أهوال يوم القيامة. إذ تنشق السماء وتكون مائلة للحمرة كالوردة ويتغير لونها كدهن الزيت حينما يغلى من الحرارة. ولا يسأل أحد من الإنس والجان عن ذنبه لأن كل شيئ مدون بدقة. ويعرف المجرمون بعلامات ظاهرة عليهم فيساقون إلى جهنم التى كانوا يكذبون بها حيث يتنقلون فيها بين نار حامية وماء شديدة الحرارة.

«ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ذواتا أفنان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان تجريان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما من كل فاكهة زوجان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان. فبأى آلاء ربكما تكذبان.

فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن (أي لم يطأهن) إنس قبلهم ولا جان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. كأنهن الياقوت والمرجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فبأي آلاء ربكما تكذبان» (٤٧ – ٦١).

ففي مقابل ما ذكر في الفقرة السابقة من عذاب للمجرمين المكذبين تذكر هذه الفقرة – في صورة محببة إلى النفس – ثواب الذين يخافون الله ويتقونه. وتستكمله:

«ومن دونهما جنتان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. مُدهامَّتان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان نضاختان. فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمَّان فبأي آلاء ربكما تكذبان. فيهن خيرات حسان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. حور مقصورات في الخيام. فبأي آلاء ربكما تكذبان. لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» (٦٢ – ٧٨).

وقالوا **«ومن دونهما جنتان»** فيها إشارة إلى تفاوت جنات الآخرة حسب تفاوت أعمال المؤمنين. و **«خيِّرات»** أصلها خيِّرات وخففت إلى خيرات **«حور»** والحور هو شدة بياض العين وشدة سواد إنسانها مما يعطي جمالا زائدا. وهُنّ لا يبارحن خيامهن ولم يطأهن إنس ولا جان من قبل متكئين على وسائد وطنافس خضراء اللون. وقد ثبت أن اللون الأخضر يبعث في النفس الهدوء والسعادة. المهم أنه وصف رائع يملأ النفس بهجة ويحث السامع على العمل بكل ما يقرب من هذا النعيم الدائم. وتختتم السورة بتنزيه لاسم الله فله الجلال والإكرام.

ثم نزلت سورة الإنسان:

وتسمى أيضا سورة الدهر والأبرار والأمشاج. وهي مكية عند الجمهور (تفسير الألوسي. جـ ٢٩ ص ١٥٠) والطابع المكي بارز في لفظها ومعانيها:

«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (١).

ولعل الناس قديما كانوا يظنون أن آدم خلق بعد فترة وجيزة من خلق الأرض فجاءت هذه الآية في شكل سؤال تقريري لتخبر أنه مضى على الأرض دهر لم يكن عليها إنسان. وفي ضوء المعارف الحالية وبالكشف عن أعمار الصخور بقياس الكربون المشع يرجح علماء الجيولوجيا أن الأرض انفصلت عن الشمس منذ ٢٠٠٠ مليون سنة وكانت في مبدئها كتلة ملتهبة بدأت تبرد تدريجيا وتكونت لها قشرة صلبة ونزلت أمطار غزيرة لملايين السنين حتى برد سطح الأرض تماما وأمكن للحياة البدائية أن تظهر وذلك منذ ٢٠٠ مليون سنة. ثم ظهرت النباتات التي أمدت الغلاف الجوي بالأوكسجين ثم ظهرت المملكة الحيوانية. ثم بعد أن أصبحت الأرض عامرة بالنبات والثمار والأنهار والبحار وصالحة للحياة البشرية خلق الله آدم من تراب الأرض وذلك منذ حوالي ٥٠٠٠٠٠ سنة تقريبا. وهكذا نرى أنه مر على الأرض حين من الدهر يبلغ آلاف الملايين من السنين لم يكن الإنسان شيئا مذكورا أي لم يكن قد خلق بعد.

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا» (٢ - ٣).

و «أمشاج» أى أخلاط. وقيل تكوّن الإنسان من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة وقيل هى العروق التى فى النطفة ويرى موريس بوكاى (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. ص ٢٢٩) أن في هذا الوصف إعجازا علميا إذ أن المني يتكون من مكونات أربعة: ١ - إفراز الخصيتين وهو يحتوى على الحيوانات المنوية. ٢ - إفراز الحويصلات المنوية التى يختزن فيها السائل المنوى - ٣ - إفرازات البروستاتا التى تعطى للسائل المنوى قوامه الغليظ ورائحته الخاصة. ٤ - إفرازات الغدد الملحقة بمجرى البول وهى غدة كوبر Cooper وتفرز سائلا جاريا وغدة ليترى Littre وتفرز المخاط.

ثم تذكر الآيات أن الله خلق الإنسان وأمده بنعمة السمع والبصر وجعله حر الإرادة وأودع فيه قابلية التمييز ليختبره وليظهر إما أن يسير في طريق الاستقامة ويكون شاكرا لله أو يسير فى طريق الشر والكفر بالله.

ذكر عذاب الكافرين باختصار وثواب المؤمنين باستفاضة :

«إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شُكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا. وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذُللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدروها تقديرا. ويُسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس (حرير رقيق) **خضرٌ وإستبرق** (الديباج الغليظ) **وحُلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا»** (٥ - ٢٢).

والوصف أخّاذ رائع من شأنه أن يشيع فى نفوس غير المؤمنين الرغبة فى كل هذا النعيم فيؤمنوا وهو ما استهدفته الآيات. ويثير فى نفوس المؤمنين الرغبة فى الاستزادة من هذا النعيم بالاجتهاد فى العبادة والإكثار من العمل الصالح.

وفى تفسير **«ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا»** قيل إن هذه الآيات نزلت فى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة حيث جاءهم فى ثلاثة أيام متوالية مسكين ويتيم وأسير فكانا

يحرمان أنفسهما منها أعداء لغذائهما وهما في أشد الحاجة إليه فيعطيانه لهم ويبيتان على الطوى. ولكن الشك يكتنف هذه الرواية لأن عليا لم يتزوج فاطمة إلا في المدينة بعد معركة بدر. وسورة الإنسان مكية. وعلى كلٍّ فهي تعطي صورة رائعة لما كان يصدر من المؤمنين الأوائل من إيثار المعوزين على أنفسهم – تقربا إلى الله تعالى.

أوامر بالاجتهاد في العبادة :

ثم تمضي الآيات موجهة الخطاب للنبي :

«إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا» (٢٣ – ٢٦).

وفي الآيات تقرير بأن الله عز وجل هو الذي نزّل القرآن على النبي. يليه أمر للنبي بأن يصبر لحكم الله ويمتثل لأمره وأن لا يطيع الكافرين والآثمة، وأن يداوم على ذكر الله صباحًا ومساء. وأن يسجد لله ليلا كناية عن التهجد بالليل. وأن يُسبّح لله وخير التسبيح ما كان في جوف الليل.

ثم تمضي الآيات. بما معناه أن لا يُلقي النبي بالا إلى الكفار لأنهم يحبون الحياة الدنيا ويستغرقون في ملذاتها ويهملون اليوم الآخر ولن يعجزوا الله لأنه هو خالقهم ابتداء ومكّنهم وأعطاهم قوة وهو قادر على محوهم وإبدالهم بغيرهم إذا شاء.

«إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا. نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا» (٢٧ – ٢٨).

ثم تأتي الفقرة الخاتمة :

والفقرة موجزة في لفظها كبيرة في معناها تحمل إنذارا للكفار وتحضهم على الإيمان:

«إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا. وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما. يُدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما» (٢٩ – ٣١).

ثم تأتي **سورة الزلزلة :**

والسورة مكية في قول ابن عباس ويروى عن مجاهد أنها مدنية وإن كان قصرها وأسلوبها يرجّح مكيتها. وفي السورة تذكير أخير لكفار قريش بيوم القيامة. وتحذير من دقة الحساب. ولعلها كانت إنذارا أخيرا لقريش فقد كانت السورة من أواخر سور العهد المكي:

«إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها (أجساد الموتى). وقال الإنسان ما لها. يومئذ تحدث أخبارها. بأن ربك أوحى لها. يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليُروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (١ – ٨).

كان معظم المسلمين قد هاجروا إلى المدينة. وأقام رسول الله وأهل بيته بمكة ينتظر الإذن من الله بالهجرة، ولم يتخلف من المسلمين بمكة إلا من حُبس أو فُتن، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن في الهجرة فيقول له النبي: لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا. فيطمع أبوبكر أن يكون النبي هو ذلك الصاحب. فابتاع راحلتين وحبسهما في داره يعلفهما إعدادا لذلك. وحتى لا يلفت الأنظار فإنه أودع الراحلتين عند عبد الله بن أرقط الذي استأجره ليكون دليلهما في الهجرة.

ولما رأت قريش أن النبي قد صار له أصحاب من غير بلدهم، ورأوا أصحابه يتسللون واحدا بعد الآخر مهاجرين إلى المدينة تخوفوا من خروج رسول الله إليهم لئلا يلحق بهم ويجمع لحربهم. فاجتمعوا في دار الندوة – وكانت قريش لا تقضي أمرا خطيرا إلا فيها – فتشاوروا فيما يصنعون في أمر النبي. ويقال إن إبليس تجسَّد في هيئة شيخ جليل ووقف على باب الدار. فلما رأوه واقفا قالوا: من الشيخ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي عزمتم عليه فحضر ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا. قالوا: أجل فادخل، فدخل وقد اجتمع أشراف وزعماء قريش الكافرون. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل (يعنون محمداً) قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا. فأجمعوا فيه رأيا. قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به. فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم.

ثم قال آخر: نخرجه من بين أظهرنا فإذا خرج فلا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ثم تصلح أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي. ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به. ولو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيتابعوه ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم. قيل فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا ثم نعطي كلا منهم سيفا ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ويتفرق دمه في القبائل جميعها. فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيقبلون الدية فنجمعها لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل. هذا الرأي ولا رأي غيره. وتفرق القوم وهم مجمعون عليه. قيل فأتى جبريل عليه السلام إلى النبي وأمره أن لا يبيت في فراشه الليلة وهذا معناه أمر بالهجرة فبدأ النبي يتخذ التدابير لذلك.

كان النبي يأتي بيت أبي بكر طرفي النهار إما بكرة وإما عشيا حتى إذا كان ذلك اليوم الذي أُذن فيه له بالهجرة صار إلى بيت أبي بكر بالهاجرة في ساعة كان لا يزوره فيها. فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر جلل. ودخل النبي وقال لأبي بكر:

أخرج عني من عندك. قال يا رسول الله إنما هما ابنتاى. وما ذاك فداك أبى وأمى. فقال النبى: إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: الصحبة. وعاد النبى إلى داره حتى يخرج فى عتمة الليل.

فلما كانت عتمة الليل اجتمع شبان قريش الموكلون بقتله على باب الدار يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه. فلما رآهم رسول الله قال لعلى بن أبى طالب: نم على فراشى وتسجَّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم. فلما انتصف الليل كان الله قد ألقى عليهم سباتا فناموا. فخرج رسول الله وأخذ حفنة من تراب فى يده فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو **«يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم...** إلى قوله.. **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»**. ثم مشى إلى دار أبى بكر. وخوفا من أن تكون هناك عيون ترقب بيت أبى بكر فإنهما تسللا من فتحة كانت فى ظهر البيت وسارا حتى بلغا غار ثور فدخلاه.

وكان رسول الله قد أمر عليا أن يتخلَّف حتى يؤدى عن النبى الودائع التى كانت عنده للناس. ولم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند النبى لما هو معروف من صدقه وأمانته.

أما أبو بكر فإنه كان قد أمر ابنه عبدالله أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما ثم يأتيهما بعد العشاء فى الغار يخبرهما بما تقول قريش. وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام بعد العشاء خفية عن أعين الناس. وكان أبو بكر قد أمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره حيث شاء ثم يأتى بها مساء ناحية الغار ليقفى على أثر أقدام ابنه عبدالله وابنته أسماء.

نعود إلى المشركين وقد أحاطوا ببيت النبى ورأوا من فرجة فى الباب عليًا مسجًى فى سريره فظنوه محمدا وظلوا ينتظرون خروجه ليقتلوه وكان ما كان من نومهم وخروج النبى دون أن يشعروا به. ثم أفاقوا وظلوا ينتظرون فلما أبطأ عليهم اقتحموا الباب فوجدوه عليًا فسألوه: أين صاحبك . فقال لا أدرى. وكان رجال قريش قد بكروا للحضور لدار محمد ليروا ما تم من تدبيرهم ورأوا الفتيان وعلى رؤوسهم التراب فلاموهم لغفلتهم وانطلقوا وعلى رأسهم أبو جهل إلى دار أبى بكر. فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر فسألها عن أبيها فقالت لا أدرى. فرفع أبو جهل يده فلطمها ثم انصرفوا.

ويروى عن أسماء قولها إن أباها لما خرج مع رسول الله احتمل معه كل ماله خمسة أو ستة آلاف درهم ولم يترك لهم شيئا. فدخل عليها جدها أبوقحافة وقد ذهب بصره فقال والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت كلا يا أبت. إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا. وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبوها يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوبا وأخذت بيد جدها ووضعتها عليه فقال: لا بأس إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن.

نعود إلى النبي وأبي بكر وقد انتهيا إلى الغار ليلا. فدخل أبو بكر قبل النبي وتحسس الغار لينظر أفيه حية أو عقرب فيقي رسول الله بنفسه. وروى أنه كان في الغار جحر ولم يجد ما يسده به فوضع رجله عليه مخافة أن يخرج منه ما يؤذي رسول الله. أما المشركون فقد اقتفوا أثر أقدام النبي وأبي بكر فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر فصعدوا الجبل ومروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت. وقد ورد أن حمامتين عششتا على بابه أيضا. فقال الكفار: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت. وقال أبو بكر للنبي: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال النبي: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

ومكثا في الغار ثلاثة أيام حتى هدأت ثائرة قريش ويئسوا من العثور عليهما. فجاء عبد الله بن أبي بكر بعبد الله بن أرقط الذي استأجراه ليدلهم على الطريق ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبو بكر، فانطلق بهما في طريق المدينة ومعهم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر. ولما كانا عند قمة الجبل ألقى رسول الله على مكة نظرة وداع أخيرة وقال: والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت أو ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت. كذلك روى أن النبي لما بدأ مسيرته مهاجراً إلى المدينة قال (السيرة النبوية. ابن كثير جـ ص ٢٣٤): الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئا اللهم أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري واخلفني في أهلي وبارك لي فيما رزقتني ولك فذللني. وعلى صالح خلقي فقومني وإليك رب فحببني وإلى الناس فلا تكلني. رب المستضعفين وأنت ربي أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تُحِلَّ عليَّ غضبك، أو تنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نقمتك وتحول عافيتك وجميع سخطك. لك العتبى عندي خير ما استطعت. لا حول ولا قوة إلا بك.

ويقول سراقة بن مالك بن جعشم: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون دية كل واحد منهما عشرة من الإبل لمن قتله أو أسره. ويقول سراقة إنه بينما هو جالس في قومه إذ أقبل رجل وأخبر سراقة أنه رأى بالساحل شبح رجال. فعرف سراقة أنهم هم. فقال للرجل إنهم ليسوا هم ليستأثر وحده بديتهما. ثم بعد ساعة خرج بفرسه يطلبهما. فلما دنا منهم عثرت به فرسه فنزل عنها وأنهضها. ثم ركبها وجدَّ في طلبهما ثانية فساخت رجلا فرسه الأماميتان في الأرض حتى الركبتين. فناداهم وأعطاهم الأمان فوقفوا فركب فرسه حتى أتاهم وقد تأكد أنه لن ينال منهم. فقال للنبي إن القوم قد جعلوا فيه الدية فقال له النبي: أخف عنا. وسأل سراقة أن يكتب النبي له كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتبه له ثم مضى رسول الله ورجع سراقة وجعل لا يلقى أحدا من المطاردين إلا ضلله ورده.

وقد حقق الدكتور حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٢ خريطة ٣٩) الطريق التي

سلكها رسول الله في هجرته إلى المدينة. ومن الطبيعي أن لا يسير في الطريق المعتاد خشية الوقوع في أيدي مطارديه ولذلك كان خط السير يتبع طرقا جانبية وكان دائم التنقل من شرق طريق القوافل إلى غربه وبالعكس سالكا ممرات وأودية غير مطروقة (شكل ١٩). وقد روى أن أبا بكر كان أحيانا يسير أمام النبي ومرات خلفه. فسأله النبي عن ذلك فقال. إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك.

وبعد حوالي يومين مروا على خيمة بها امرأة هي عاتكة أم معبد من بني كعب بن خزاعة وطلبوا منها طعاما وشرابا. فقالت والله ما عندنا طعام وليس لنا إلا شاة حائل لا لبن فيها. فأمر النبي بإحضارها. ومسح ضرعها بيده ودعا الله ثم حلب في القدح وسقى أم معبد ثم حلب وسقى أبا بكر وعامرا والدليل ثم شرب هو. وباتوا ليلتهم ثم انطلقوا. فسمته «المبارك» وكثر غنمها. وقيل جاءت بعد سنوات إلى المدينة لبعض شأنها ومر ابنها بأبي بكر فعرفه فسألت عاتكة أبا بكر: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال هو نبي الله. قالت فأدخلني عليه فلما دخلت أسلمت وكساها الرسول وأعطاها مالاً.

والمشهور أن رسول الله خرج من مكة يوم الاثنين وأمضى ٣ أيام في الغار ثم ١٢ يوما في الطريق فذلك أسبوعان فيكون دخل المدينة يوم الإثنين أيضا. وقلنا إن النبي كان يسلك طرقا جانبية حتى إذا اقترب من المدينة وعند قرية «ملل» سلك الطريق المعتاد المار بذي الحليفة حتى وصل إلى قباء.

فـي قبـاء:

لما وصل رسول الله إلى قباء نزل في دار كلثوم بن الهدم من بني عمرو بن عوف، وكان بالنهار ينتقل إلى دار سعد بن الربيع يقابل فيه الناس. وأقام في قباء - على ما ذكر ابن اسحق - خمس ليال من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة. وفي الحقيقة هي خمسة أيام وأربع ليال. وأثناء إقامته في القرية أسس مسجد قباء. كما أن عليا بن أبي طالب لحق به فيها بعد أن تأخر ثلاثة أيام في مكة ليؤدي الأمانات التي لقريش عند النبي كما سبق أن ذكرنا.

وجاءه في قباء **عبدالله بن سلام** أحد أحبار اليهود وقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بالحق. وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني أسلمت فإنهم إن يعلموا أني أسلمت قالو فيَّ ما ليس فيَّ. فأرسل النبي إلى اليهود فجاءوا. فقال لهم يا معشر اليهود. ويلكم اتقوا الله. فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقا وأني جئتكم بحق فأسلموا. قالوا ما نعلمه. قال فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام قالوا ذلك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال أفرأيتم إن أسلم، قالوا حاش لله. ما كان ليسلم. قال يا ابن سلام اخرج عليهم. فخرج فقال: يا معشر يهود. اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق. فقالوا كذبت. أنت شرُّنا وابن شرنا وتنقصوه فقال يا رسول الله هذا الذي كنت أخاف.

إلى الشام
إلى بابل
المدينة
قباء
ملل
غميس الحمام
الروحاء
الرويثة
الصفراء
وادي سفوان
طريق موازى
الطريق المعتاد
بدر
الأبواء
الجحفة
رابغ الزمل
رابغ البحر
كلية
المشلل
قديد
الطريق المعتاد
خليص
الروضة
كديد
غدير الأشطاط
ثنية الغزال
عسفان
بطن مر
الرجيع
سرف
بطن يأجج
الحديبية
ذى طوى
جدة
مكة
جبل ثور
الطائف
أوطاس
ذات عرق
نخلة
إلى الكوفة
إلى البصرة

الطريق المعتاد
طريق الساحل
طريق الهجرة

شكل ١٩ – طريق الهجرة . كما حققه الدكتور حسين مؤنس.

الخروج من قبـاء :

ثم خرج رسول الله من قباء يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة فصلاها فى بطن الوادى المسمى «وادى رانوناء» فكانت أول جمعة صلاها فى المدينة وفى المكان الذى صلى فيه النبى تلك الجمعة بنى المسلمون «مسجد ذى رانوناء».

وقال ابن جرير عن آخرين أن النبى قال فى خطبة الجمعة هذه (البداية والنهاية. ابن كثير. جـ ٣ ص ٢١١):

الحمد لله. أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه. وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل. وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه. ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى. وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم. وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا. ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد. والذى صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه تعالى يقول **«ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد»** (٢٩ – ق) واتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية فإنه **«من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا»** (٥ – الطلاق). **«ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما»** (٧١ – الأحزاب). وإن تقوى الله توقى مقته وتوقى عقوبته. وتوقى سخطه. وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضى الرب وترفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله. قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم. وعادوا أعداءه. وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىَّ عن بينة ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد الموت فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ورغم بلاغة اللفظ وسمو المعنى إلا أن القارئ يلحظ فارقا كبيرا بين هذه الخطبة وبين سور القرآن الكريم مما ينفى ادعاء الكفار قديما وادعاء المستشرقين حديثا أن القرآن من تأليف النبى وهو ما رد عليه القرآن فى أكثر من موضع.

وقرية ذى رانوناء تقع قريبا من مساكن بنى النضير التى تقع شرقها بمسافة لا تزيد عن ٢كم (شكل ٢٠). ولما علم اليهود بوصول النبى سار أبو ياسر بن أخطب وأخوه حيى بن أخطب ولدا أحد كبار أحبار اليهود وجاءا إلى رسول الله فى ذى رانوناء واستمعا إليه ورجعا إلى قومها وقال أبو ياسر لقومه: يا قوم أطيعون، فإن الله قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرون فاتبعوه ولا تخالفوه ولكن حيي بن أخطب وهو يومئذ سيد يهود بنى النضير عارض دعوة أخيه وتابعه قومه ورفضوا الإسلام وأظهروا عداوتهم لرسول الله. وسنرى فيما بعد أن حيى بن أخطب قتل فى معركة خيبر (ص ٧٣٦) وتزوج رسول الله من ابنته صفية.

ثم سار الركب من ذى رانوناء قاصدا يثرب نفسها التى تقع بعد ١٥ كم تقريبا. وكان المسلمون فيها قد سمعوا بخروج رسول الله من مكة فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة بأطراف المدينة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة. وذات يوم بعد أن طال انتظارهم آووا إلى بيوتهم. وأطل رجل من اليهود من أعلى حصن من حصونهم فرأى رسول الله وأصحابه قادمين عن بعد فصاح بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذى تنتظرونه. فخرج المسلمون والتقوا بالركب والتفوا حوله والنساء والصبيان يرددون ويتغنون:

طلع البدر علينا ∴ من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ∴ مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ∴ جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ∴ مرحبا ياخير داع

ويجمع معظم المؤرخين على أن وصول النبى إلى المدينة كان فى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول وبالرجوع القهقرى من هذا التاريخ نجد أن خروجه من مكة كان فى يوم الإثنين ٢١ صفر.

- الإثنين ٢١ صفر ليلا : الخروج من داره.
- ٣ أيام ٢٢، ٢٣، ٢٤ : فى غار ثور.
- ١٢ يوما فى الطريق : من الجمعة ٢٥ صفر إلى الأحد ٤ ربيع الأول.
- الإثنين ٥ ربيع الأول : الوصول إلى قباء.
- الجمعة ٩ ربيع الأول : الخروج من قباء وصلاة الجمعة فى ذى رانوناء.
- الإثنين ١٢ ربيع الأول : الوصول إلى يثرب.

وسار الركب. وكان كثيرون من مسلمى المدينة لم يروا رسول الله ولا يعرفونه فكان بعضهم يحيى أبا بكر على أنه النبى لكبر سنه. ولكن طريقة معاملة أبى بكر للنبى دلت الناس على النبى. وأمضى النبى الليلة الأولى فى دار أحد أبناء عمرو بن عوف. ثم أرسل النبى إلى بنى

جبل أحد
الجرف
وادي القناة
بنو عبد الأشهل
بنو حارثة
العرصة
النبيت
أطما الشيخين
بنو ظفر
بنو الحارث
بنو سلمة
جبل ذباب
مسجد السيف
السنح
البقيع
مسجد الرسول
بنو النجار
حرة واقم
اللابة الشرقية
حرة وبرة
اللابة الغربية
جبل سالع
ثنية الوداع
بنو زريق
ثنية النور
بنو واقف
وادى مهزور
بنو ساعدة
بنو الحارث بن الخزرج
بنو قينقاع
بنو بياضة
أوس مناة
بعاث
بنو عمرو بن عوف
بنوقريظة
العالية
بنو سالم بن عوف
القوافلة
بنو جحجبا
بنو النضير
وادى مذينب
وادى العقيق
مسجد
ذى رانوناء
أطم كعب
بن الأشرف
بنو عوف بن الخزرج
جبل جمارات
العصبة
الجعابرة
بنو عوف
أطم الضحيان
مسجد قباء
قباء
جبل عير
بنو أنيف
جبل بنى عبير
أطم شنيف
بنو عنيق

شكل ٢٠ – المسيرة من قباء إلى المدينة ومنازل القبائل فى المدينة .

النجار - أخواله - فجاءوا متقلدي السيوف وطلبوا منه أن ينزل عندهم، ولكنه ركب راحلته وتركها تسير حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه كبار رجالها وقالوا: يا رسول الله هلم إلينا وأخذوا بزمام ناقته فقال لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها. وفعل كذلك بنو الحارث بن الخزرج لما مر بديارهم. فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار قالوا له يا رسول الله هلم إلى أخوالك فقال خلوا سبيلها فإنها مأمورة فانطلقت الناقة حتى أتت عند مربد التمر (شونة أو جرن) لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر أسعد بن زرارة وكان يصلي فيه وقتئذ رجال من المسلمين فبركت الناقة عنده. فترجل النبي وقال هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا الغلامين ليشترى منهما المكان فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى وأصر حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً.

ونزل النبي في دار أبي أيوب إلى أن تم بناء المسجد ودور النبي في أحد جوانبه. وكان النبي قد أقام بالسفل (الدور الأرضي) وأبو أيوب وزوجه في العلو (الدور العلوي) فقال أبو أيوب: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره أن أكون فوقك وتسكن تحتي. فكن أنت في العلو وننزل نحن فنكون في السفل. فقال النبي: يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت.

وكان أبو أيوب يصنع الأكل ثم يبعث به إلى النبي أولاً ثم يأكلون بعده. وفي يوم بعثوا إليه عشاء فيه بصل وثوم فرده رسول الله دون أن يأكل منه فجاءه أبو أيوب جزعاً وقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي. رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك. فقال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة (الثوم والبصل) وأنا رجل أناجي (أي يخاطب الناس وكره أن يكون لفمه رائحة) أما أنتم فكلوه. فأكله أبو أيوب وزوجه. ولم يصنعا له بعد ذلك طعاماً فيه ثوم.

وروى عن زيد بن ثابت قوله إنه جاء بأول هدية أهديت لرسول الله حين نزل بدار أيوب وكانت قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن وقال إن أمه أرسلت هذه القصعة. فقال بارك الله فيك. ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد ولحم. وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله الثلاثة أو الأربعة يحملون الطعام.

هجرة أهل البيت:

بعث رسول الله وهو في دار أبي أيوب مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي النبي. وسودة بنت زمعة زوجته وأسامة بن زيد. وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة. وأرسل أبو بكر رسالة إلى ابنه عبدالله يطلب فيها منه أن يلحق به مصطحباً والدته أم رومان - زوجة أبي بكر - وابنتيه - أسماء وعائشة ولم يكن النبي قد دخل بها. أما زينب بنت النبي فبقيت بمكة عند زوجها أبي العاص بن الربيع وكان على كفره. وأما رقية فكانت هي وزوجها عثمان بن عفان في مكة منذ أن عادا من الحبشة. ولحقا بالنبي في المدينة بعد عدة أشهر.

وما كاد ركب أهل البيت يبعد قليلا من مكة حتى طاردهم بعض اللئام من مشركى قريش ولحق الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصى بالبعير الذى يحمل فاطمة وأم كلثوم ونخس البعير فرمى بهما إلى الأرض. وكانت فاطمة ضعيفة نحيلة الجسم فأثرت هذه السقطة عليها وظلت بقية الطريق متعبة إلى أن وصلت إلى المدينة. وسنرى فى المستقبل كيف أن الحويرث كان من ضمن من أهدر النبى دمهم بعد فتح مكة وأمر بقتلهم حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة. وقد قام على بن أبى طالب بقتله كما سيجىء فيما بعد (ص ٧٦٧).

وأغلقت دار النبى بمكة كما أغلقت دور كثير من المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة.

بناء مسجد المدينة :

كان أول ما فعل رسول الله بعد وصوله المدينة هو الشروع فى بناء مسجده بالمدينة واشترك المسلمون كلهم فى بنائه. وكان رسول ينقل التراب واللبن معهم وهو يقول:

لاهُمَّ إن الأجر أجر الآخرة ∴ فارحم الأنصار والمهاجرة

وكان الناس ينقلون لبنة لبنة وعمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنة عنه ولبنة عن رسول الله. فمسح النبى ظهره وقال: ابن سمية. للناس أجر ولك أجران وآخر زادك شربة لبن وتقتلك الفئة الباغية. ويروى الحديث عن طريق آخر وأنه كان أثناء حفر الخندق. وقد قتل أهل الشام عمار بن ياسر فى وقعة صفين وكان عمار بن ياسر مع علىّ بن أبى طالب ضد معاوية وأصحابه.

ولم يكن فى المسجد منبر بل كان النبى يخطب الناس وهو مستند إلى جذع نخلة عند مُصَلَّاه.

الحُمَّى :

كانت المدينة معروفة - فى الجاهلية - بكثرة أوبئتها لكثرة برك المياة التى كانت محلا لتكاثر البعوض. فلما قدم رسول الله المدينة مرض أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة. فدخلت عائشة تمرِّضهم - ولم يكن النبى قد بنى بها بعد. كما لم يكن الحجاب قد فرض على نساء المؤمنين - فوجدتهم يهذون - ويذكرون الموت من شدة الحمى فأخبرت النبى: فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدِّها وانقل وباءها إلى الجحفة وهي بلدة على طريق المدينة مكة ٢٠٠كم جنوب المدينة مقابل رابغ.قيل وأصاب كثير من المسلمين الحمى حتى جهدوا مرضا. وصرف الله المرض عند النبى. وكان المسلمون يصلون وهم قعود من التعب فقال النبى: إعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم. فكان المسلمون يتجشمون عناء القيام على مابهم من ضعف وسقم التماس الفضل.

المعاهدة بين المهاجرين والأنصار واليهود:

قال محمد بن اسحق إن رسول الله كتب في دار أنس بن مالك كتابا هو عبارة عن معاهدة جامعة بينه وبين المهاجرين من ناحية وبين بطون الأوس والخزرج وقبائل اليهود الثلاثة - من آمن منهم ومن لم يؤمن. وكانت المعاهدة تتضمن عدم الاعتداء من أي منهم على الآخر وضمانا للأمن بين الجميع. وقد وضع هذا العهد أسس الحالة السياسية الجديدة التي حدثت في المدينة بقدوم المهاجرين - في صورة واضحة ومستقرة يصعب معها إحداث المؤامرات التي اعتاد اليهود أن يستغلوها في أغراضهم. ولكن كما سنرى فيما بعد - فإن اليهود لم يحترموا المعاهدة وخرقوها أكثر من مرة فكانت النتيجة وبالا عليهم بإجلائهم عن أماكنهم مرة بعد مرة. ولأهمية هذه المعاهدة نوردها فيما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرين من قريش على ربعتهم (الحال التي جاءوا عليها) يتعاقلون (أي يتضامنون) بينهم وهم يفدون عانيهم (الأسير الذي تركه أهله دون فداء) بالمعروف والقسط. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بني ساعدة وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت. إلى أن قال وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحا (كثير العيال المثقل بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم. ولا يَقتل مؤمن مؤمنا في كافر. ولا يَنصُر كافرا على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم. وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزيت معنا يعقب بعضها بعضا. وإن المؤمنين يبيء (يتساوى) بعضهم بعضا بما نال دماءهم في سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه لا يُجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيِّنة فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه. وأنه من نصره أو آواه فإنه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله عز وجل وإلى محمد. وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار وبني الحارث

وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطبة مثل ما ليهود بني عوف. وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يُخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد ولا ينحجز (أي لا يجتمع) على ثأر جرح. وإنه من فتك فبنفسه إلا من ظلم. وإن الله على أثر هذا. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وإن النصر للمظلوم. وإن يثرب حرام جرفها (أي حتى الجرف وهو مكان في شمال غرب المدينة - شكل ٢٠) لأهل هذه الصحيفة. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله. وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره. وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها وإنَّ بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه. وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين. إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم. وإن الله جار لمن بر واتقى.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

لم يشأ الرسول بحكمته أن يترك المهاجرين ليكونوا حزبا مترابطا ويظل الأنصار كحزب ثان. بل أراد دمج الاثنين في كيان واحد فآخى بينهم فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين. ومع معرفته لحرج الموقف لو اتخذ لنفسه أخا من الأنصار إذ أنه شرف كبير قد يجعل من يختاره أخا أن يتيه على الآخرين ولعشيرته أن تفخر على عشائر الأنصار الأخرى. فلو كان من الأوس لفاخرت به الخزرج والعكس أيضا فتثور وتحيا الأحقاد القديمة بين القبيلتين. لذلك فإن النبي أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: هذا أخي. فكانت المؤاخاة كما يلي:

- محمد رسول الله .... - علي بن أبي طالب.
- حمزة عم الرسول. - زيد بن حارثة مولى رسول الله.
- جعفر بن أبي طالب (كان لا يزال بالحبشة). - معاذ بن جبل.
- أبو بكر الصديق. - خارجة بن زيد الخزرجي.
- عمر بن الخطاب. - عتبان بن مالك من الخزرج.
- أبو عبيدة بن الجراح. - سعد بن معاذ.
- عبد الرحمن بن عوف. - سعد بن الربيع من الخزرج.
- الزبير بن العوام. - سلمة بن سلامة بن وقش أو عبد الله بن مسعود من بني عبد الأشهل.

- عثمان بن عفان. - أوس بن ثابت بن المنذر من بني النجار.
- طلحة بن عبيد الله. - كعب بن مالك من بني سلمة.
- سعيد بن زيد. - أبي بن كعب من بني النجار.
- مصعب بن عمير. - أبو أيوب خالد بن زيد من بني النجار.
- أبو حذيفة بن عتبة. - عباد بن بشر من بني عبد الأشهل.
- عمار بن ياسر. - حذيفة بن اليمان العبسي حليف بني الأشهل.
أو ثابت بن قيس من الخزرج.
- أبو ذر بن جنادة. - المنذر بن عمرو من بني ساعدة ابن كعب من الخزرج.
- حاطب بن أبي بلتعة. - عويم بن ساعدة أخو بني عمرو بن عوف.
- سلمان الفارسي. - أبو الدرداء.
- بـلال. - أبو رويحة عبدالله بن عبد الرحمن الخثعمي.
- زيد بن حارثة. - أسيد بن حضير.

ويضيق المكان عن ذكر باقي أطراف المؤاخاة.

ولا بأس من ذكر نبذة عن «القرابات المفتعلة» التي كانت سائدة بين العرب آنذاك:

١ - **التبني** : وقد شرحنا سابقا (ص ٣٩) تبني النبي لزيد بن حارثة وأصبح اسمه زيد بن محمد. وكان للابن بالتبني أن يرث من تبناه. ولما أبطل التبني عاد إلى زيد اسمه الأصلي: زيد بن حارثة.

٢ - **الموالاة** : وهو نوع من التعاقد والتحالف. فكان الرجل يعاقد الرجل فيقول له: «دمي دمك، وهدمي هدمك وثأري ثأرك وحربي حربك وسلمي سلمك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك». فيكون للحليف السدس من جميع المال ثم يقسم بعد ذلك أهل الميراث ميراثهم. وكان الرجل الضعيف يحالف رجلا قويا ليقوى به. ولعل هذا ما ينطبق عليه حاليا المثل العامي «اللي مالوش ظهر يشترى له ظهر». وكانت العشيرة الضعيفة توالي قبيلة قوية. وقد أقر الإسلام ذلك أول الأمر في قوله تعالى: **«والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً»** (٣٣ - النساء).

٣ - **المؤاخاة**: وهي التي استحدثها النبي بين المهاجرين والأنصار ولم تكن معروفة من قبل.

وقد أبطلت جميع هذه «القرابات المفتعلة» فيما بعد بقوله تعالى **«وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله»** (٧٥ - الأنفال).

ولا شك أن المهاجرين كانوا قد حملوا معهم أموالهم: ما ادخروه وثمن ما تمكنوا من بيعه من متاعهم قبل هجرتهم فلم يكونوا عالة على الأنصار. وكان «للأخوة» مع الأنصار فضل تهيئة المسكن للمهاجرين إلى حين يمكنهم الاستقلال بمعيشتهم. فقد عمل بعض المهاجرين في التجارة وربحوا وأمكنهم أن يبنوا أو يشتروا دورا مستقلة لهم. أما فقراء المهاجرين فقد ساعدوا الأنصار في أعمالهم التجارية أو في زراعة بساتينهم أو العناية بأشجار النخيل لقاء أجر.

ويقال إنه لما آخى النبي بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع الأنصاري عرض هذا الأخير على عبد الرحمن بن عوف أن يناصفه ماله وأهله فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّني على السوق، فدلّه. فتاجر وربح ورآه النبي بعد أيام وعليه ثوبا جديداً. فقال: مهيم يا عبد الرحمن؟ قال يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال فما سقت فيها؟ قال وزن نواة من ذهب. قال النبي أَوْلِم ولو بشاة.

وعن أنس أن المهاجرين قالوا للنبي: يا رسول الله. ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا من كثير. لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال النبي: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم. وعن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال لا. فقال الأنصار: أفتكفوننا المؤونة (أي يعملون ما يحتاجه الزرع من خدمة) ونشرككم في الثمر. قالوا سمعنا وأطعنا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إن هذه المشاركة كانت بناء على اقتراح من النبي إذ قال للأنصار: إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم. فقالوا أموالنا بيننا قاطع. فقال النبي: أو غير ذلك؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله. قال يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمر. قالوا نعم.

الأذان :

كان رسول الله في مكة يصلي في مواقيت الصلاة بغير أذان. وحدث ذلك في أول مهاجره إلى المدينة وكان الناس يعرفون مواقيت الصلاة فيحرصون على الصلاة مع رسول الله، ولكن أناسا من المسلمين كانت تفوتهم صلاة الجماعة لانشغالهم في أعمالهم عن تحيّن مواقيت الصلاة. فراح النبي وأصحابه يتشاورون كيف يُجمع الناس للصلاة، فاقترح بعضهم أن تنصب راية عند حضور الصلاة فإذا رآها الناس علموا أنه وقت الصلاة ولكن هذا الاقتراح رُفض. وذكر له البوق كما يفعل اليهود فرفضه واقتُرح الناقوس كما يفعل النصارى ولكنه رفضه. فقال عمر. أوَلاَ تبعثون رجلا ينادي بالصلاة فقال النبي: لقد هممت أن أبثّ رجالا ينادون الناس بحين الصلاة. ثم أمر بلالا أي ينادي للصلاة فقام بلال فقال الصلاة جامعة. الصلاة جامعة. فجاء الناس من الدور والأسواق ليصلوا خلف رسول الله.

ودخل عبدالله بن زيد وهو رجل من الأنصار لينام. فطاف به – وهو بين النوم واليقظة – رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فسأله ابن زيد أن يبيعه الناقوس ليدعو به إلى الصلاة. فقال له: أفلا أدلُّك على ما هو خير لك قال بلي: قال تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله. أشهد أن محمدا رسول الله. حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح حيَّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. وتقول إذا قامت الصلاة: الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله. حي على الصلاة حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

واستيقظ عبدالله ولم ينتظر إلى الصباح بل انطلق إلى رسول الله وقص عليه رؤياه. فقال له النبي: إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى. فقم مع بلال. فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتا منك. فلما حان وقت صلاة الفجر جعل عبدالله يلقى الكلمات وبلال يؤذن بها: وكان عمر بن الخطاب في بيته فلما سمع الأذان أسرع يجر رداءه حتى إذا ما جاء رسول الله وعلم بما رأى عبدالله قال: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى عبدالله بن زيد. فقال النبي: فلله الحمد.

وانشرحت صدور المسلمين لما سمعوا الأذان في الفجر وخرجوا إلى المسجد مستبشرين. أما اليهود فقد انقبضت أفئدتهم ونزل بهم همٌّ ثقيل.

التأريخ بالهجرة :

بدأ الناس في المدينة يؤرخون الأحداث بالهجرة وبالذات بمقدم النبي إلى المدينة فيقولون بعد ستة أشهر مثلا من مقدم رسول الله إلى المدينة. أو بعد أحد عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة. أما الأحداث المتأخرة فقد أصبح عبثا أن يقال بعد ثلاثين أو أربعين شهرا من الهجرة. فعدل عن الشهور إلى السنوات. فيقال بعد سنة أو سنتين من مقدم رسول الله إلى المدينة. وهنا حدث خلاف بين المؤرخين. فبعضهم اعتبر السنة الأولى لمقدم النبي تنتهي بعد اثني عشر شهرا أي في ربيع الأول من العام التالي. ولو اتُّبع هذا كان معناه أن تغير بداية السنة العربية إلى ربيع الأول بدلا من المحرم. وكان الأوفق – والأسهل أيضا – التجاوز عن الشهرين والنصف اللذين مضيا من السنة الأولى قبل وصول النبي إلى المدينة – وهما في الحقيقة شهر وأربعة وعشرون يوما منذ ترك النبي لغار ثور في ٢٤ صفر وهو تاريخ بدء الهجرة – حتى تبقى بداية السنة العربية في الأول من محرم. ولكن بعض كتاب السيرة النبوية ظلُّوا على الحساب الأول. فلو وقع حدث ما بعد ١١ شهرا من مقدم النبي إلى المدينة اعتبروه في السنة الأولى. ولكنه – وقد وقع في صفر – فالأولى أن يحتسب في بداية العام الثاني. وهذا ما سنتبعه في كتابنا هذا.

أحداث السنه الأولى للهجرة

محرم		
صفر	٢١	خروج النبى من داره إلى غار ثور.
	٢٤	ترك الغار والبدء فى المسير إلى المدينة.
ربيع الأول	٥	الوصول إلى قباء.
	٩	ترك قباء وصلاة الجمعة فى ذى رانوناء.
	١٢	يوم الإثنين . الوصول إلى المدينة.
ربيــع الثانـى		قدوم أهل بيت النبى إلى المدينة (ص ٤٣١).
جمـادى الأولى		إتمام زواج النبى من عائشة.
جمادى الثانى		بدء نزول سورة البقرة.
رجـب		الإذن بالقتال فى آيات من سورة الحج.
شعبان		استمرار نزول سورة البقرة.
رمضان		– سرية حمزة بن عبد المطلب.
شـوال	٧	– سرية عبيدة بن الحارث.
	١٢	– سرية سعد بن أبى وقاص.
	١٥	وفاة الصحابى كلثوم بن الهدم.
	٢٠	وفاة أسعد بن زرارة.
	٢٥	مولد عبدالله بن الزبير – أول مولود للمهاجرين فى المدينة.
ذو القعدة		ــــــــ
ذو الحجة		ــــــــ

إتمام زواج النبى من عائشة :

بعد حوالى ثلاثة أشهر من وصول النبى إلى المدينة كانت حياته فيها قد استقرت تحدث أبو بكر إلى النبى فى إتمام الزواج الذى عقده بمكة منذ ٣ سنوات (ص ٢٢٤) فلبّى النبى وذهب مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل أبى بكر الذى كان ينزل فيه مع أهله فى بنى الخزرج. وجاءت أم رومان إلى ابنتها عائشة وكان عمرها ٩ سنوات وزينتها وقادتها إلى حجرة فى بيتهم فيها سرير كان يجلس عليه النبى. فأدخلت عائشة إلى الحجرة وقالت للنبى: هؤلاء أهلك.

بارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك. وبعد أيام قليلة انتقل رسول الله بعائشة إلى حجرة من الحجرات المبنية بجانب المسجد بجوار الحجرة التي كانت فيها سودة بنت زمعة.

في شوال من السنة الأولى للهجرة أي بعد ٧ أشهر من مقدم النبي إلى المدينة **توفي كلثوم بن الهدم** وهو الصحابي الذي نزل النبي في داره في قباء (ص ٤٢٦) وبعده بأيام قليلة في نفس الشهر **توفي أسعد بن زرارة** من بني مالك بن النجار وهو أحد النقباء الاثنى عشر (ص ٣٣٧) وأول من بايع رسول الله ليلة العقبة الثانية. كما أنه كان أول من صلى بالناس جماعة في المدينة قبل أن يجيء مصعب بن عمير موفداً من قبل النبي ليؤم الناس في الصلاة. وراح اليهود يقولون: لو كان نبيا لم يمت صاحبه. فقال النبي: يقولون لو كان نبيا لم يمت صاحبه ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي شيئا من الله. وبعد موت أسعد بن زرارة جاء بنو النجار إلى النبي وسألوه أن يقيم لهم نقيبا بعد أسعد بن زرارة. فقال لهم: أنتم أخوالي وأنا نقيبكم. وكره النبي أن يخصَّ بها بعضهم دون بعض فيثير الأحقاد بينهم. وكان بنو النجار يفتخرون أن رسول الله نقيبهم.

وكان **أول مولود في المهاجرين** في المدينة هو عبدالله بن الزبير في شوال من سنة الهجرة فأتوا به إلى النبي فأخذ تمرة ولاكها ثم وضعها في فم المولود.

موقف اليهود من النبي:

بالرغم من عهد الموادعة الذي عقده النبي مع يهود المدينة والذي سالمهم فيه وأمَّنهم على أموالهم ودورهم. فإنهم بدأوا يتخوفون على مركزهم الاجتماعي والمالي في المدينة. فقد أفزعهم أن تتحالف الأوس والخزرج ويندمج الاثنان في كيان واحد هم الأنصار، وينضم إليهم – في أخوة في الدين – المهاجرون. وزاد حقد اليهود فراحوا يكيدون للنبي يحاولون أن يصدوا عنه ويحاولون أن يوقعوا بين الأنصار بإثارة نعرة الجاهلية من أوس وخزرج.

كفار المدينة والمنافقون:

كان بعض رؤساء الأوس والخزرج لم يؤمنوا وأحسوا بأن الزعامة في قومهم قد أخذت منهم فامتلأت قلوبهم بالحفيظة والضغينة على رسول الله. بعضهم أظهر عداوة صريحة للنبي: مثل أبو عامر بن عمرو من رؤساء الأوس. وبعضهم أسلم ظاهرا مع إبطان العداوة وهؤلاء هم المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول الخزرجي.

أما **أبو عامر** فكان قد ترهَّب وزعم أنه ينتظر النبي المبعوث وصار يذكر للناس كثيرا من صفاته ويقول لهم قد قرب خروجه. فلما هاجر النبي إلى المدينة واتضحت صفاته للأنصار واتبعوه حسده أبو عامر وأنكر نبوّته لأنه كان يتمنى أن يكون هو نفسه النبي. فأتى رسول الله وقال له. ما هذا الذي جئت به؟ فقال النبي: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. قال أبو عامر: فأنا

عليها. قال النبي: إنك لست عليها، فأنا جئتها بيضاء نقية. فقال أبو عامر: الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا. يُعرِّض برسول الله. فقال النبي: أجل. فمن كذب فعل الله تعالى ذلك به. ولما رأى أبو عامر إسلام جميع الأوس تقريبا خرج إلى مكة مباعدا لرسول الله مقسما ألا يقيم بالمدينة وهو بها وراح يُحرِّض عليه. وسنرى فيما بعد أنه بعد فتح مكة خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام ومات هناك غريبا وحيدا كما تنبأ رسول الله.

أما عبدالله بن أبيّ بن سلول فكان دائم التوفيق بين الأوس والخزرج وهو يأمل أن يختاره الطرفان ملكا للمدينة بل أن بعض أعوانه بدأوا في إعداد التاج الذي سيضعه على رأسه. ولكن قدوم رسول الله إلى المدينة صرف الناس عنه فامتلأ حقدا على النبي وعلى المسلمين واضطر إزاء إسلام الغالبية من عشيرته إلى أن يتظاهر بالود والمناصرة بيد أن أعماق قلبه كانت ممتلئة حقدا على النبي. فالتاج الذي كانت تتلألأ خرزاته أمام عينيه طار منه والسلطان الذي كان يُمنِّي نفسه به ليصل إلى مصاف ملوك غسان والمناذرة ذهب فطاش عقله. وبدأ يجمع شتات الذين لم يدخلوا في الإسلام من الأوس والخزرج وضمَّ إليهم يهود المدينة من بني قينقاع وقريظة والنضير. ونجح إلى حدٍّ ما في ايجاد فرقة التجسس بين المسلمين. وراح يحاول إثارة النعرة القبلية ليوقد الفتنة بين الأوس والخزرج. وعمل هو والمنافقون على إثارة الشائعات بغية تفتيت وحدة المسلمين من مهاجرين وأنصار وبين الأنصار أنفسهم من أوس وخزرج. واستطاعت فرقة المنافقين هذه صدَّ كثير من أهل القبائل المجاورة عن الدخول في الإسلام.

وحدث يوما أن كان النبي يركب حماراً مُردفًا خلفه أسامه بن زيد بن حارثة يعود سعد بن عبادة فمرَّ بعبد الله بن أبيّ وفي مجلسه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود. فنزل النبي ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن. حتى إذا فرغ قال ابن أبي: أيها المرء. إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا. فلا تؤذنا به في مجلسنا. ارجع إلى رحلك فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه به ولا تأته في مجلسه بما يكره. فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله. فاغشنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله ما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له. وتبادل المسلمون والمشركون واليهود السباب حتى كادوا يتضاربون بالنعال. فلم يزل النبي يهدئهم حتى سكتوا. ثم ركب النبي دابته وسار حتى دخل على سعد بن عباده وفي وجهه بعض الغضب. فسأله سعد عنه فأخبره بما قاله عبد الله بن أبي. فقال سعد: أرفق به يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه. فوالذي أنزل عليك الكتاب. لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك وقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة. فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك. فذلك فعل به ما رأيت.

وزاد الأمر سوءا على عبدالله بن أبيّ أن ابنه عبدالله أسلم وراح يحاول أن يهدي أباه إلى الإسلام. وكانت تقوم بين الأب وابنه منازعات بين حين وآخر. وفي إحدى المرات سبَّ عبدالله

بن أبيّ النبي. فاستأذن عبدالله (الابن) النبي أن يأتيه برأس أبيه. فقال له النبي: لا ولكن برّ أباك.

كان عبدالله بن أبيّ صريحا فى كفره وصريحا فى عداوته للنبى عند أول قدوم النبى إلى المدينة فلما أظهر الله الإسلام بعد موقعة بدر أسلم وأضمر الكفر فأصبح زعيم المنافقين. كما أن كثيرا من المشركين أسلموا نفاقا خوفا من الأغلبية التى أسلمت. وانضم اليهود إلى المنافقين وبدأوا يكيدون للإسلام والمسلمين.

وبدأت **السور المدنية** تنزل على رسول الله. وكان هدفها يختلف عن الهدف في مكة ولذلك اختلف أسلوب القرآن المدنى عن أسلوبه فى مكة فالهدف أصبح:

١ – تنظيم المجتمع المدنى المسلم فى المدينة.

٢ – دعوة كفار ومشركى المدينة والقبائل المجاورة إلى الاسلام.

٣ – فضح مؤامرات المنافقين والتحذير منهم.

٤ – إبقاء علاقة طيبة مع اليهود طالما التزموا بالعهود.

وكانت سورة البقرة هى أول السورة المدنية.

سورة البقرة :

احتوت سورة البقرة على موضاعات كثيرة ولكنها اختصت اليهود بجزء كبير من أياتها إذ كان الخطاب مُوجَّها إليهم فى ٩٨ آية من آيات السورة الـ ٢٨٦ أى أن ثلث السورة تقريبا يختص ببنى إسرائيل وفيه تذكير لهم بنعم الله عليهم وعلى آبائهم وتنديد بعدم إيمانهم بالرغم مما يعرفونه من أن «محمداً» هو النبى المنتظر ومن ثم كان الواجب عليهم الإيمان به. كذلك فإن ربع الآيات تقريبا كان تشريعات هدفها تنظيم المجتمع المسلم الذى تكوَّن فى المدينة وتنظيم علاقاته التجارية والأسرية. وكان نصيب المنافقين ٣٠ آية والكفار ٢٠ آية. إضافة إلى غير ذلك من المواضيع سنذكرها في حينها.

وقد بدأت السورة بالحروف المقطعة: ألف. لام. ميم. أعقبها تنبيه إلى أن القرآن هو حقا وحى من عند الله:

«الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» (١ – ٥).

والآيات تذكر ستا من صفات المؤمنين:

١ – الإيمان بالغيب.

٢ – إقامة الصلاة.

٣ – التصدق بجزء من رزق الله الذى آتاهم.

٤ – الإيمان بأن القرآن وحى من عند الله.

٥ – الإيمان بالكتب السماوية السابقة.

٦ – الإيمان بالآخرة.

وقد سبق التنويه عن أن الإيمان بالكتب السماوية السابقة من شروط الإسلام فقد جاء فى سورة الشورى (آية ١٥ ص ٣١٢) **«وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب»** وفى سورة العنكبوت (آية ٤٦ ص ٤٠٤) **«وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»** وجاءت الآيات الحالية من سورة البقرة لتفيد التأكيد على هذا الشرط من شروط الإيمان الصحيح. ولعل ذلك كان يهدف إلى منع المسلمين من الدخول مع اليهود فى جدال حول العقيدة ومناقشات قد تؤدى إلى خصام وقطيعة وكان الإسلام حريصا على حسن الجوار مع اليهود.

التنديد بكفر الكفار:

«إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» (٦ – ٧).

والآيات تقرر أن الكفار – أيًا كانوا – من قريش أو كفار المدينة أو كفار القبائل المجاورة. قد تمكن الكفر من قلوبهم كأن قلوبهم قد ملئت كفرا وخُتم عليها. فلا يدخلها غيرما فيها. وكأن أسماعهم مختوم عليها كذلك فلا تسمع دعوة الإيمان. وكأن أبصارهم قد غشيتها غشاوة فهي لا تبصر آيات الله الدالة على قدرته واستحقاقه وحده العبادة – فلن يؤمنوا مهما أكثر النبي من دعوتهم ولهم عذاب عظيم.

عن المنافقين:

ثم تطرقت الآيات للمنافقين – لأول مرة فى القرآن الكريم – وإن لم يذكروا بهذا الإسم ولكنهم وُصفوا بأنهم آمنوا بألسنتهم وقلوبهم غير مؤمنة بقصد خداع المؤمنين وهذا هو النفاق. وتذكر الآيات أنهم يخدعون المؤمنين ويظنون أنهم أيضا يخدعون الله إذ يتوهمون أنه غير مطلع على ما فى قلوبهم وهم فى الحقيقة يخدعون أنفسهم وقلوبهم فيها حقد ومرض وزادهم الله ضلالا ولهم عذاب أليم لتكذيبهم وجحودهم.

« ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يُخادعون الله والذين آمنوا وما يَخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» (٨ – ١٠).

واستمرارا لموضوع المنافقين تذكر الآيات بعض أقوال المنافقين وردودهم على من ينصحهم بانتهاج الطريق القويم:

١ – **«وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»** (١١ – ١٢).

وإفسادهم في الأرض كان يصدهم عن سبيل الله ونشر الفتنة وإيقاد الضغائن.

٢ – **«وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»** (١٣).

٣ – **«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون»** (١٤ – ١٥).

فهؤلاء الذين يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر هم المنافقون. وقال معظم المفسرين إن كلمة «شياطينهم» مصروفة إلى اليهود. وآخرون قالوا هم رؤساء الكفر. والحقيقة أن الاثنين كانا دائما حليفين ضد الدعوة الإسلامية. وأن اليهود كانوا يوسوسون – كما تفعل الشياطين – للمنافقين ويوجهونهم إلى طرق الكيد والمكر والتشكيك. وهكذا وجد اليهود في الطبقة المريضة القلب من منافقي المدينة مجالا لدسائسهم فحالفوهم.

ثم تستمر الآيات تضرب الأمثال للمنافقين:

١ – تمثلهم أولا بتاجر اشترى بضاعة فاسدة وبالطبع لن يربح.

«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين» (١٦).

٢ – وتضرب لهم مثالا ثانيا:

«مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون» (١٧ – ١٨).

والآيات تمثل المنافقين بحال من أوقد نارًا في الظلمة. فلم تكد تضيء ما حوله حتى أطفأها الله فعاد إلى الظلمات لا يبصر شيئا. والظلمات هي الكفر. وقد قدم الله لهم أسباب الهداية فلم يهتدوا فكان عدلا أن يبقوا في الضلال.

٣ – وتضرب مثالا ثالثا:

«أو كصيب (المطر الشديد) **من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا** (بمعنى توقفوا عن السير) **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»** (١٩ – ٢٠).

والآيات تمثلهم بمن يسير في ليلة شديدة المطر والرعد والبرق. قد اكتنفته الظلمات وملأه الخوف من الصواعق. وآلمه صوت الرعد العالي في أذنيه حتى إنه يسدها بأصابعه حتى لا يموت من شدة الصوت. ويتخطف البرق عيونه. فإذا لمع البرق وأضاء ما حوله سار قليلا غير أن البرق لا يلبث أن ينطفيء ويعم الظلام فيقف حائرا. ولو شاء الله لأخذ سمعهم وأبصاهم

فهو القادر على كل شيء. والآيات قوية ورائعة في تمثيلها وتنديدها. كما تقرر أن ما أنزل على النبي هو نور يهتدي به الناس ولكن المنافقين عَمُوا عنه ونافقوا فكأن نورهم قد انطفأ. ويرى بعض العلماء المعاصرين في الآيات إعجازا علميا إذ ثبت أن ذبذبات الصوت شديدة القوة قد تسبب الوفاة نتيجة توقف مفاجيء في القلب أو نزيف في المخ. أو على الأقل تدمر الأذن الداخلية فتذهب بالسمع وينتج الصمم.

بعض مظاهر قدرة الله في الكون:

«يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» (٢١ - ٢٢).

والخطاب موجه أساساً إلى كفار المدينة والمنافقين وإن كان لفت النظر إلى آيات الله في الكون يشمل أيضا المسلمين ولذلك عمّم الخطاب واستعمل لفظ **«ياأيها الناس»** للدلالة على هذا التعميم. والآيات تهيب بالناس أن يعبدوا الله المستحق وحده للعبادة فهو الذي خلقهم وخلق من قبلهم . وهو الذي جعل لهم الأرض مبسوطة مُمهَّدة ميسَّرة للإقامة. وبنى السماء فوقها وأنزل المطر فأخرج به الزرع رزقا للعباد. ثم تنهاهم عن اتخاذ شركاء مع الله.

استحالة محاكاة القرآن:

«وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم (أي شركاءكم) **من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعِدت للكافرين»** (٢٢ - ٢٤).

والآيات تتحدى الكفار والمنافقين إن كانوا يشكون في أن القرآن وحي من عند الله ويعتقدون أنه من وضع «محمد» فليأتوا بسورة مثل سُوَره وليستعينوا بمن يريدون من الشركاء. وهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك وعليهم أن يؤمنوا ليتقوا عذاب النار التي أعدها الله للكافرين. وهذه ثاني مرة يقرر فيها الوحي عجز الناس عن محاكاة القرآن الكريم. فقد سبق أن قررت الآية ٨٨ من سورة الإسراء (ص ٢٢٠) **«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»**. وآية سورة الإسراء تقرر العجز عن الإتيان بمثل القرآن. أما الآية الحالية من سورة البقرة فهي تقرر العجز عن محاكاة سورة واحدة!

ثواب المؤمنين:

وفي مقابل ما ذكر في الآية السابقة عن نار أعدت للكافرين تذكر الآيات ثواب المؤمنين:

«وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. كلما رُزقوا

منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل وأُتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون» (٢٥).

ووُصف ثمر الجنة بأنه فى الشكل يشبه ما كان من ثمر عهدوه فى الدنيا إلا أنه يفوقه كثيرا فى الطعم واللذة. ومن وسائل التنعيم فى الآخرة أن يكون لهم زوجات طاهرة مطهرة، وهم خالدون فى الجنة ونعيمها.

ضرب المثل بالبعوضة:

«إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا. يُضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون. كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم» (٢٦ - ٢٩).

قيل إن اليهود لما سمعوا قوله تعالى فى سورة العنكبوت (آية ٤١ ص ٤٠٤) **«مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت»** قالوا إن الله تعالى أعزُّ وأعظم من أن يضرب المثل بهذه المُحقَّرات. فرد الله تعالى بهذه الآية وفيها تقرير بأن الله لا يَرِد فى حقه الحياء من ضرب الأمثال فى القرآن مهما بدا أنها تافهة كبعوضة أو ما أكبر. والمؤمنون يعلمون وجه التمثيل وأنه الحق من الله. أما الكافرون فيتمحَّلون ويتساءلون - تساؤل المستخف المستهين - عن مراد الله منها. وإن الله ليهدى بالأمثال كثيرين ويضل كثيرين أيضا غير أن الذين يضلون بها هم الفاسقون سيئو النية وخبثاء الطوية الذين من صفاتهم نقض عهد الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رحم وغيره وينشرون الفساد فى الأرض. ثم تساؤل يندد بالكفار وجرأتهم على الكفر بالله وهو الذى خلقهم ابتداء من لا شيء فكأنهم كانوا أمواتا فأحياهم، ثم يميتهم ثم يحييهم ثانية يوم القيامة ليرجع الناس إلى الله للحساب. كما أن الله هو الذى خلق ما فى الأرض جميعا. وكذلك خلق السموات السبع وهو عليم بكل شيء.

ولعل المراد من ذكر نقض العهود فى هذه الآية هو تحذير اليهود من نقض العهد الذى قطعه النبى معهم، وتنبيههم إلى أن الفاسقين هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

قصة خلق آدم:

وقد جاءت قصة آدم فى سور كثيرة سابقة مثل سورة ص (الآيات ٧١ - ٧٦) والأعراف (الآيات ١١ - ٢٥). وطه (١١٥ - ١٢٤) والإسراء (٦١ - ٦٢) والحجر (٢٦ - ٣٦) وذكرت هنا فى سورة البقرة مطوَّلة بعض الشيء فى الآيات ٣٠ - ٣٩ فتذكر رفض إبليس السجود

لآدم ومن ثم وضحت عداوته. وبالرغم من ذلك استجاب آدم لوسوسته وعصى أمر ربه بعدم الأكل من الشجرة فكان نزوله إلى الأرض ليعمل ويشقى . وتاب الله على آدم، واستمرت وسوسة إبليس لبني آدم ليحيدوا عن طريق الله المستقيم، ومن رحمة الله ببني آدم أنه أرسل لهم رسلا يهدونهم فمن اتبع رسله وهداه فهؤلاء في رحمة الله فلا خوف عليهم، أما من كفر فله عذاب النار خالدا فيها:

«قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبعَ هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٣٨ – ٣٩).

وقد يكون إيراد قصة آدم هنا هو لبيان الضعف الذي جبل عليه بنو آدم – وقدرة الشيطان على الوسوسة لهم وإضلالهم – كتمهيد لما بعد ذلك من آيات تدعو بني إسرائيل إلى الإسلام.

عن بني إسرائيل القدامى ويهود المدينة :

وهي سلسلة طويلة من الفقرات مكونة من ٨٤ آية احتوت على ١٨ نقطة.

١ – دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام:

لاشك أن النبي بعد مقدمه المدينة وتوقيع العهد مع اليهود دعاهم إلى الإسلام فأسلم بعض الأفراد ولكن غالبيتهم رفضوا وحاولوا تشكيك الناس في مصداقية النبي مع يقينهم بصدق نبوته وتطابق أسس رسالته مع ما عندهم من كتاب. ثم تحالفوا مع المنافقين واستغلوا حركة النفاق استغلالا كبيرا. من هنا وجهت السورة الكلام إلى بني إسرائيل تذكرهم بنعم الله عليهم وتدعوهم إلى الإسلام فتقول:

«يا بني إسرائيل اذكروا نعمتِيَ التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياى فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون. واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون. يا بني إسرائيل اذكروا نعمتِيَ التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يوما لا تَجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عدل ولا هم يُنصرون» (٤٠ – ٤٨).

والآيات فيها:

١ – تذكير بأفضال الله على آبائهم فهي نِعَم عمَّت آثارها عليهم وواجب عليهم شكرها.

٢ – إهابة باليهود للوفاء بالعهد الذي عاهدهم به النبي باسم الله، حتى يفي الله بوعده بحسن الثواب.

٣ - دعوة إلى الإيمان بما أُنزل على النبى وهو يصدِّق كثيرًا مما في التوراة وأن لا يكونوا أول من يكفر به وألا يصرفهم متاع الدنيا الزائل عن الإيمان بالنبى فكأنهم يشترون القليل بالكثير.

٤ - عدم خلط الحق بالباطل وكتمان ما يعرفونه من أن محمدا هو النبى المنتظر.

٥ - دعوة إلى الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

٦ - تنديد بما يفعلون إذ يأمرون الناس بفعل الخيرات في حين أنهم لا يفعلونها.

٧ - حث لهم على الاستعانة على أداء التكاليف بالصبر والصلاة التى يجدها غير المتقين ثقيلة في حين أن الخاشعين لله والمؤمنين بالبعث لا يجدونها كذلك.

٢ - بعض نعم الله على بنى إسرائيل:

ثم تستمر الآيات في سرد نعم الله على بنى إسرائيل القدماء واستعمل ضمير المخاطب في الكلام مما يفيد قوة الربط بين اليهود القدماء واليهود الحاليين وتشابه المواقف وهو أسلوب مألوف وخاصة في صدد التنديد بأفعال الأبناء المكروهة إذا كانت من نفس ما فعل الآباء والجدود:

١ - **«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم»** (٤٩).

٢ - **«وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون»** (٥٠).

٣ - **«وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون»** (٥١-٥٢).

٤ - **«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون»** (٥٣).

٥ - **«وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم»** (٥٤).

٦ - **«وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون»** (٥٥ - ٥٦).

٧ - **«وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** (٥٧).

٨ - **«وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سُجدا وقولوا حطة** (أعلنوا التواضع والخضوع لله) **نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدَّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون»** (٥٨ - ٥٩).

٩ - «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم. كلوا (من المن والسلوى) واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» (٦٠).

١٠- «وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد (من المن والسلوى) فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير. اهبطوا مصرًا فإن لكم ماسألتم وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (٦١).

وصيغة الآيات تدل على أن ما جاء بها من أمور ووقائع كانت معروفة عند اليهود ومتداولة فيما بينهم. وورد ذكرها في التوراة. متطابقا أحيانا مع ما ذُكر فى القرآن الكريم ومختلفاً حينا آخر فصححه القرآن. وبعض ما جاء فى هذه الآيات سبق ذكره فى القرآن المكى: فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ - ١٧٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ - ١٠١ص ١٥٨) وفى سورة القصص الآيات ٣ - ٢٨ ص ١٨٦). مع اختلاف الأسلوب. حيث وردت فى السور المكية بأسلوب قصصى قُصد به إغناء أهل مكة وما حولها من الأعراب عن قراءة قصص التوراة كما قصد به تصحيح بعض المعلومات التي وردت فى التوراة محرفّة فأورد القرآن الكريم صحتها. أما هنا - فى سورة البقرة - فقد جاءت القصة بأسلوب تقريعى يندد بما فعله بنو إسرائيل فى الماضى من انحرافات وآثام ومكابرة وجحود وكفر وفى ذلك تعليل لما حلَّ بهم من عذاب وذلة وتشتت فى الأرض وفى ذلك تنبيه اليهود الحاليين بعدم تكرار أخطاء الماضى. كما فيه إهابة بالمسلمين بتجنب ما ارتكبه اليهود من أخطاء بتعنتهم فى الطلب من نبيهم ومخالفة أوامر ربهم.

ثم تمضى الآيات تقول:

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٦٢).

والآية تنبه على أن مَن أحسَن من الأمم السابقة وأطاع فله جزاء الحسنى. وهو إعلان للجميع بأن باب التوبة مفتوح لكل من آمن بالله واليوم الآخر من أتباع الديانات السابقة.

ثم تعود الآيات مُخَاطِبة يهود المدينة تُذكِّرهم وتندد بما فعله الأجداد من جحود لنعم الله عليهم وأن من رحمة الله بهم أنه لم يجازهم بما جازى به أمما سابقة أُهلكت. ولم يجازهم أيضا بما جازى به بعض أجدادهم الذين لم يراعوا حرمة يوم السبت فمسخهم الله قردة. وفى هذا تحذير ليهود المدينة من عقاب قد ينزل بهم وليس بالضرورة أن يكون من نفس ما ذكر ولكنه قد يكون فى شكل آخر.

ب - «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين. ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين» (٦٣ - ٦٦).

٣ - قصة البقرة:

ثم تذكر الآيات من ٦٧ - ٧٤ قصة البقرة وقد شرحناها بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ١٦٤) وركز السرد القرآنى على ما دأب عليه اليهود منذ القدم من لجاج وجدال فى كل ما كانوا يؤمرون به وعدم اتعاظهم بما حباهم الله به من نعم وآيات. وتصور أروع تصوير ما طبعوا عليه من قسوة قلب. وفى ذلك ما فيه من تحذير لليهود المخاطبين لعدم تكرار أخطاء جدودهم وتنتهى القصة بتحذير أخير من قسوة قلوبهم وتجرئهم على أوامر ربهم:

«ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة. وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون» (٧٤).

٤ - ضعف الأمل فى إسلام اليهود:

تبدأ هذه الفقرة بسؤال موجه إلى النبى والمسلمين يفيد أن طمعهم فى إسلام اليهود فى غير محله:

«أفتطمعون أن يؤمنوا لكم»

ثم راحت الآيات تعدد أفعال وأقوال اليهود ومواقفهم للبرهنة على ضعف الأمل أو فقدانه فى إيمانهم:

أ - **«وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون»** (٧٥).

وهذا الفريق هم الأحبار الذين كانوا يقرأون كلام الله الوارد فى التوراة ويعلمون منه أن «محمدا» هو النبى المنتظر فحرفوه حتى ينفوا عنه النبوة.

ب - **«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون»** (٧٦ - ٧٧).

وهؤلاء هم المنافقون من اليهود يظهرون إيمانا ولكنهم فى مجالسهم الخاصة يحذر بعضهم بعضا من ذكر أوصاف النبى التى فتح الله عليهم وأكرمهم بإنزالها فى التوراة - حتى لا يكون ذلك حجة عليهم عند الله لعدم إيمانهم. ثم تساؤل يتعجب من ظنهم أن الله فى حاجة إلى مثل هذه الحجة. لأنه يعلم ما يخفون وما يظهرون.

جـ - **«ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»** (٧٨ - ٧٩).

فمن اليهود أميون جاهلون لا يعرفون عن التوراة إلا أكاذيب لفقها لهم أحبارهم لتتفق مع أمانيهم وأغراضهم وأخبروهم أنها حقائق من الكتاب. وتنذر الآيات هؤلاء الأحبار بالويل والهلاك لأنهم يكتبون كتبا بأيديهم ثم يدعون أن هذه هي التوراة التي جاءت من عند الله ليصلوا إلى عرض تافه من أعراض الدنيا وهم بهذا قد باعوا الحقيقة بثمن تافه فويل لهم لما تقولوه على الله وويل لهم مما كسبوا.

د - **«وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة. قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة** (أي استولت عليه فمات مشركا) **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون»** (٨٠ - ٨٢).

والآيات تشير إلى ما كان يروجه الأحبار من أن اليهود هم شعب الله المختار وأن النار لن تمس يهوديا مهما ارتكب من المعاصي إلا أياما معدودة. وتنفي الآيات هذا الزعم بسؤال استنكاري عما إذا كانوا قد أخذوا من الله عهدا بذلك أم أن هذا افتراء على الله. ثم تقرر الآيات أن حكم الله نافذ في جميع خلقه فمن ارتكب خطيئة وأحاطت به سيئاته حتى سدت عليه منافذ الخلاص فهؤلاء مآلهم إلى النار خالدين فيها. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهؤلاء مآلهم إلى الجنة خالدين فيها أبدا.

٥ - نقض اليهود لعهدهم مع الله:

«وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون» (٨٣).

والآيات تقرر أن الله أخذ العهد على بني إسرائيل الأقدمين ألا يعبدوا إلا الله والالتزام بالأخلاق الحميدة من بر الوالدين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. ولكنهم - ما عدا فئة قليلة - نقضوا عهد الله ولم يلتزموا به. وفي هذا تحذير لليهود من نقض العهود التي التزموا بها. وتنبيه المسلمين إلى عادة بني إسرائيل في نقض العهد.

٦ - تحزّب اليهود وظلم بعضهم لبعض:

ثم تمضي الآيات تبين تحزب اليهود ووقوف بعضهم مع بعض القوى الأجنبية ضد إخوانهم بالرغم من أن الله قد أخذ عليهم العهد بالتضامن فلا يقتل بعضهم بعضا ولا يظاهر أحد منهم

الغرباء فتقضوا العهد فأصبح هناك حزب هيلليني - وهم الصدوقيون - يقف مع الإغريق والرومان ضد الفريسيين (انظر جـ ٥ ص ٤٩). وسفك بعضهم دم بعض وأجلى بعضهم بعضاً من أرضه وساعد الرومان وغيرهم على أسر إخوانهم. ثم كانوا يدفعون فدية الأسرى ليحرروهم حسب الشريعة الموسوية فكأنهم يؤمنون ببعض تعاليم شريعتهم ويكفرون بالبعض الآخر مع أن من يفعل ذلك يستحق الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة له عذاب شديد لأنهم قد اشتروا دنياهم بآخرتهم.

«وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض. فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون». (٨٤ - ٨٦).

ويرى بعض المفسرين أن التنديد قصد به يهود بني النضير وبني قينقاع الذين كانوا حلفاء الخزرج في حين كان يهود بني قريظة حلفاء للأوس وكانت الحروب بين الأوس والخزرج تجر إلى حروب بين اليهود حلفاء كل فريق فيقتل بعضهم بعضاً أو يأسره. ثم كانوا عندما تعقد الهدنة يسارعون في فداء الأسرى لتحريرهم حسب الشريعة الموسوية. إلا أن هذا التفسير مستبعد لأن اليهود كانوا حريصين على إثارة الحروب بين الأوس والخزرج فلا يعقل أن ينزلقوا فيكتووا هم بنارها. وكما سبق أن ذكرنا أنه تنديد بما فعل الأجداد صيغ في صورة خطاب للأبناء.

٧ - التنديد بمخالفة اليهود الرسل:

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله (هو القرآن) مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون (أي يستنصرون) على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين» (٨٧ - ٩٠).

والآيات تندد بما فعله بنو إسرائيل القدامى إذ أرسل الله إليهم رسلاً كثيرين وكلما جاءهم رسول لا يجاريهم في أهوائهم استكبروا وكذبوه وقتلوا بعضهم ثم تندد باليهود المعاصرين للنبي إذ لما تلي عليهم آيات القرآن قالوا قلوبنا مغلفة أي محصنة ضد الإيمان أو مملوءة عن

آخرها فلا محل لنفاذ دعوة أخرى لداخلها. والحقيقة أنهم كفروا بما أنزل الله. كذلك فإن اليهود كانوا يفخرون على العرب بما عندهم من كتاب سماوى وبما هم عليه من ديانه سماوية وكانوا يقولون للعرب حينما يشتد الخلاف بينهم إنه سوف يبعث قريبا نبى صفاته مذكورة عندهم وأنهم سيتبعونه ويقتلونهم به قتل عاد وإرم. ويروى عن عباس قوله: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هُزمت يهود فعادت بهذا الدعاء «اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدت أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم» فانتصروا (تفسير الجلالين . ص ١٣). فلما جاءهم النبى الذى عرفوا صفاته كفروا به جريا وراء عرض كاذب من عرض الدنيا فاشتروا الكفر بالإيمان حسدا وسخطا لأن النبى لم يكن من اليهود بل كانت مشيئة الله أن يبعث فى أمة العرب.

ثم تمضى الآيات تندد بمسلكهم وتذكرهم بضلال آبائهم:

«وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم. قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين. ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم. قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يُعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر. والله بصير بما يعملون» (٩١ – ٩٦).

وكان اليهود كلما دعاهم النبى إلى الإسلام قالوا نكتفى بما أنزل علينا ولسنا فى حاجة إلى غيره مع أن ما جاء به النبى مطابق ومصدق لما معهم والمنطق يقضى بالإيمان به لأنه صادر من نفس المصدر. ثم تفسر الآيات سبب تصرفهم هذا: فالانحراف طبعهم فقد جاءهم أنبياء فقتلوهم. ومن قبلهم جاءهم موسى بالمعجزات ولكنهم ما لبثوا أن عبدوا العجل وأخذ الله عليهم العهد والميثاق على أن يتمسكوا بما أنزل الله إليهم بكل قوة ولكنهم قالوا بأفواههم سمعنا ولكن أفعالهم كانت كمن يقول عصينا. لأن عبادة العجل – وبمعنى أوسع الكفر – قد تمكن من قلوبهم. وتندد الآيات بموقفهم هذا. وإن كان هذا فى نظرهم هو الإيمان فبئس الإيمان هو. ثم يذكر القرآن الكريم ما كانوا يقولونه من أن الدار الآخرة ونعيمها وقف عليهم ويتحداهم إذا كان الأمر كذلك فليتمنوا الموت ليصيروا إلى هذا النعيم ولكنهم لن يفعلوا ذلك أبداً لأنهم يعرفون ما اقترفوه من ذنوب وسيكونون حريصين على الحياة بل يفوقون المشركين فى حرصهم على الحياة حتى إن الواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة ولكن حتى لو عمر مثل هذا العمر فلن ينجيه ذلك من العذاب.

٨ – عداوة اليهود لبعض الملائكة:

وقد روى المفسرون أن فريقا من اليهود سأل النبى عمن ينزل عليه بالوحى فقال جبريل.

فقالوا إنه عدوهم وأنه ينزل بالخسف والشدة وأنه حال دون قتل بختنصر (نبوخذنصر) فكان أن خرّب هيكل أورشليم. ولو كان غيره الذى يأتى بالوحى لتابعوه. ويقال أيضا إن محاورة جرت بين بعض اليهود وبين عمر بن الخطاب قالوا فيها إن جبريل ينزل بالدمار والخسف ولذلك فهو عدوهم فى حين أن ميكال ينزل بالخصب والسلام. وأن الأول يقف على يمين العرش والثانى يقف عن يساره وأحدهما عدو للآخر. فنقل عمر كلامهم إلى النبى فنزلت الآيات تقرر أن من كان عدوا لجبريل ومن كان عدوا الله وملائكته ورسله فهو كافر والله عدو له:

«قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله (أى القرآن) على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين» (٩٧ – ٩٨).

ولعل عداوة اليهود لجبريل ترجع أيضا إلى ما ذكرناه فى الجزء الخامس (ص ٢٧٨) من تمكن النبى اليسع (إليشع) من الإيقاع بالجنود الأراميين حتى قادهم إلى السامرة عاصمة إسرائيل الشمالية وأصبحوا فريسه سهلة لجنود إسرائيل ولكن اليسع منع الملك من قتلهم وأشار بإطلاق سراحهم ففعل. وحدث فى العام التالى أن بنهدد ملك أرام حاصر السامرة. وصبّ ملك إسرائيل جام غضبه على إليشع لأنه أشار بإطلاق سراح الجنود الأراميين الذين كانوا فى متناول يده فكانوا قوة للعدو فى حصارهم. ولما كان اليسع لا يتكلم إلا بوحى من جبريل فإن غضب اليهود على اليسع انسحب على جبريل واعتبروه عدوا لهم. مع أن الله – بمعجزة منه – قد جعل العدو يفك الحصار ويغنم بنو إسرائيل كل ما كان فى معسكره من زاد.

٩ – التنديد بنقض اليهود لعهودهم وتكذيبهم النبى:

«ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أوَكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون» (٩٩ – ١٠١).

وفى الآيات تقرير بأن ما أُنزل إلى النبى هى آيات واضحة لا يكفر بمثلها إلا المعاندون الفاسقون، ثم يأتى استنكار لما كانوا يفعلونه من نقضهم ما كانوا يبرمونه من عهود لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد مع غير اليهود. ولما جاءهم النبى الذى كانوا ينتظرون مبعثه أنكر فريق منهم ما ذكر فى التوراة عن النبى وأداروا له ظهورهم كأنهم لا يعلمون صفاته وحقيقته.

١٠ – اتهام اليهود لسليمان بالسحر:

وقد اتهم اليهودُ سليمانَ بالسحر كما اتهموه بالكفر وأنه اتبع ديانات بعض زوجاته الصيدونيات اللاتى كن يعبدن «البعل». وتنفى الآيات هذا الاتهام عن سليمان. وهذا ما

شرحناه بالتفصيل في الجزء الخامس (ص ١٨٨) ثم تنص الآيات على أن نوعا من السحر قد أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل ولكنهما كانا يحذران الذين يريدون تعلم السحر أنهما أنزلا فتنة للناس قد تؤدي بهم إلى الكفر. وبالرغم من ذلك فإن الناس راحوا يتعلمون منهما من أعمال السحر ما يفرقون به بين الرجل وزوجته فكان هذا التعلم ضررا لهم لأنهم ظنوا أنهم به قد اكتسبوا قوة وسلطانا على غيرهم فازدادوا طغيانا وكفرا فكأنهم باعوا آخرتهم وباعوا أنفسهم بثمن زهيد:

«واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمانَ وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر وما أُنزلَ على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمانِ من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمونَ منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لَمَن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون.» (١٠٢ - ١٠٣).

١١ - اليهود يحرفون كلام المسلمين للنبي:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم» (١٠٤).

وكان الأنصار - إذا أرادوا لفت نظر النبي إليهم يقولون: محمد راعنا من المراعاة كما نقول في أيامنا هذه «راعيني» ولكن اليهود كانوا يقولونها مع حذف المد فتصبح: محمد رعن أي أرعن اشتقاق من الرعونة وهو نوع من السباب. فكانوا حينما يسمعون المسلمين يخاطبون النبي به يكررونه ويضحكون فيما بينهم. وروى أن سعد بن عبادة لما سمعه منهم وعرف مقصدهم قال لهم: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي لأضربنَّ عنقه. فقالوا: أولستم تقولونها. فنزلت الآية تنهى المسلمين عن قولها سدا للباب وقطعا للألسنة.

١٢ - تحذير المسلمين مما يُثيره اليهود من شكوك حول النبي:

كان اليهود يغمزون النبي ويثيرون الشك في نفوس المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه ويأتي بحكم ثم ينسخه وإن هذا ليس شأن الأنبياء. فنزلت الآية تنبه المسلمين إلى أن أهل الكتاب والمشركين يريدون ضررهم وترد على ما أثاروه من شبهة بتقرير أن الله أن ينسخ آية بآية أو يبدل حكما بحكم أو يُنسي النبي آية كتمهيد لنسخها ورفعها ولله مطلق الحرية والمشيئة فله ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير:

«ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم. ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير. ألم تعلم أن الله له ملكُ السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير» (١٠٥ - ١٠٧).

١٣ – نهي المسلمين عن محاكاة مسلك اليهود مع نبيهم موسى:

«أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل، ومن يتبدَّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل. ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، إن الله بما تعملون بصير» (١٠٨ ـ ١١٠)

وفي سبب نزول هذه الآيات يروى أن واحدا من المسلمين قال: يا رسول الله لو أن كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل. فقال النبي: اللهم لا نبغها. ما أعطاكم الله خير مما أعطاهم. كان إذا فعل أحدهم الخطيئة ولم يكفرها (بقربان على حسب عظم الخطيئة) كانت له خزيا في الآخرة وقد أعطاكم الله: **«من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما»** وإن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر. ومن المعروف أن بني إسرائيل كانوا كثيري الأسئلة والطلبات. فنُهي المسلمون عن التشبه بهم وخاصة أن كثيرا من هذه الأسئلة كان اليهود هم الذين يقترحونها بقصد التشكيك وهو أول الطريق إلى الكفر. ولذلك قيل: **«ومن يتبدَّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل. ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً»**.

١٤ – اليهود والنصارى يتنازعون الجنة!

كان في المدينة بعض العرب الذين اعتنقوا النصرانية فكانوا يقولون هم واليهود إن الجنة وقف عليهم – أي على اليهود والنصارى – وفي موقف آخر يعادي بعضهم بعضا ويقول أحدهم إن الآخر ليس على حق. وينساق المشركون من العرب «الذين لا يعلمون» وراء أقوالهم ولكن الله سيحكم بينهم يوم القيامة:

«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» (١١١ ـ ١١٣)

حكم الصد عن المساجد:

«ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم

أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولله المشرق والمغرب فأينما تُولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم» (١١٤ - ١١٥).

وقد أورد المفسرون أقوالا كثيرة بصدد ما عنته هذه الآية. قالوا إنها تندد بملك بابل الذى هدم معبد أورشليم أو تندد بأهل قريش إذ منعوا النبى والمسلمين من المسجد الحرام يوم الحديبية. ولكن هدم معبد القدس كان منذ ١٢ قرنا من الزمان. ويوم الحديبية جاء بعد ٤ سنوات من نزول هذه الآية. لذلك نُرجِّح أنها آية عامة تنهى عن الصد عن المساجد أو تخريبها أو منع روادها من دخولها. وحتى لو حدث هذا فالأرض كلها مشرقها ومغربها لله والصلاة فى أى بقعة منها جائزة وكما جاء فى الحديث الشريف «وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا».

١٥ - نفى الولد عن الله:

وتمضى الآيات تندد بمن قالوا إن لله ولدا. فالنصارى قالوا إن المسيح ابن الله واليهود قالوا عزير ابن الله والمشركون قالوا الملائكة بنات الله. والآيات تنزه الله «سبحانه» عن ذلك. فله كل ما فى السموات والأرض. وهو الذى خلق السموات والأرض ولا يستعصى عليه شىء فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

«وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون. بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (١١٦ - ١١٧).

١٦ - التعنت فى المطالب:

«وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون. إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم» (١١٨ - ١١٩).

والآيات تندد بطلب بعض كفار قريش فى تحدى أن يكلمهم الله أو ينزل عليهم معجزة وهم فى هذا يشابهون بعض من سبقوهم من الكافرين. وآيات الله - فى الكون - واضحة لمن يريد أن يهتدى. ثم تنبيه إلى أن مهمة الرسول هى تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين وأنه غير مسئول عمَّن لم يؤمن وأصبح من أصحاب الجحيم.

١٧ - موقف اليهود من الدعوة الإسلامية:

يحق لنا أن نتصدى لهذا الموضوع بشىء من التفصيل حتى نتفهم السبب الذى من أجله أنزلت آيات كثيرة تخاطب بنى إسرائيل:

كان ظن اليهود أن النبى - وقد وصفه القرآن بأنه مصدِّق لما معهم - أن ينضم هو إليهم بوصفه نبيا من أنبيائهم. أو على الأقل يجعلهم النبى خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم

أهدى من أن تشملهم دعوته أو أن ديانتهم مساوية وموازية لدعوته. وهم إذ يسمعوا قوله تعالى في سورة الأنعام (آية ٨٩ – ٩٠ ص ٢٦٣) = «**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**» فظنوا أنهم هم المقصودون بذلك، وأنهم على هدى وأن النبي أُمر باتباعهم. وكذلك قوله تعالى في سورة السجدة (آية ٢٣ ص ٣٧٩): «**ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**» فظنوا أنهم على الهدى. وكذلك قوله تعالى في سورة الجاثية (آية ١٦ ص ٣٢٥) «**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم**».

وهكذا ظنوا أنهم أوتوا العلم وأنهم على حق ونسوا أنهم قد اختلفوا فلم يعد الكتاب الذي بين أيديهم هو نفسه الكتاب الذي أنزل على موسى. بل أصابه تحريف كثير أفقده التوحيد الخالص والمحتوى الإيماني. وخاب ظن اليهود كذلك إذ رأوا النبي يدعوهم من جملة من يدعو إلى الاسلام، وتختصهم الآيات أحيانا بالدعوة وتندد بهم لعدم إسراعهم إلى الاستجابة والإيمان فالآية ٤٠ – ٤١ من سورة البقرة (ص ٤٤٦) تدعوهم صراحة إلى الإيمان: «**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون**». والعهد المذكور في الآية والذي أقروه على أنفسهم هو الإيمان والتصديق بمن يجيء بعد موسى من الأنبياء، ولما كان هذا لا يتفق مع أهوائهم تنكروا لدعوة النبي ووقفوا منه موقف العداء وتحالفوا مع أعدائه. ثم إنهم رأوا الناس تنصرف عنهم. فقد كان العرب – قبل الإسلام – كثيرا ما يحتكمون إلى اليهود بصفتهم أهل كتاب وأعلم منهم، ولكنهم بدأوا الآن يتخذون النبي مرجعهم ومرشدهم وقائدهم المطاع. فاستشعر اليهود بالخطر يحدق بمركزهم المتميز في العرب فاندفعوا في خطة التآمر على النبي والتحالف مع المنافقين ثم مع مشركي قريش والكفار من القبائل المحيطة.

أما من جهة النبي فقد كان ظنه أن يجد في اليهود سندا وعضدا وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله لما بين دعوته وأسس ديانتهم من وحدة ولما نصّ عليه القرآن من أنه مصدق لما معهم ولما رآه من حسن استجابة بعض أحبارهم مثل عبدالله بن سلام (ص ٤٢٦). ولكن الغالبية العظمى من اليهود ظلت منكرة له وتؤلب عليه. وكان تركيزهم على فريق المنافقين يغذّونهم بالجدل المشكّك في الدين وهدفهم صرف الناس عنه.

١٨ – تحذير من مسايرة أهل الكتاب:

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن

اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ ولا نصير. الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون. يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين. واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم يُنصرون» (١٢٠ - ١٢٣).

فالآيات تفضح موقف اليهود والنصارى وإن كان المقصود أساسا هم اليهود لأن النصارى كانوا قلة لا تكاد تذكر. والآيات تنبه إلى أن اليهود يحاولون استمالة النبى إليهم حتى يتبع دينهم. وقد كانت القبلة فى الصلاة - حتى ذلك الوقت - إلى بيت المقدس فكانوا يقولون: هو يتبع قبلتنا وغدا يتبع ديننا. وتأمر الآيات النبى أن يخبرهم أن ما جاءه من الله هو الحق وفيه الهدى. وتحذره من اتباعهم. ولا يجب أن يفهم من هذا أن النبى قد بدأ يميل إلى اتباع ملتهم وإنما هو الأسلوب القرآنى - ورد مثله فى مناسبات كثيرة - يستهدف تثبيت النبى وبث الثقة فى نفوس المؤمنين ليحذروا أقوال اليهود. ثم تخبره الآيات أن الذين يقرأون التوراة «الأصلية» ويفسرونها تفسيرا صحيحا حتما سيؤمنون بالقرآن ثم يتوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل يُذكرهم بآيات الله ونعمه عليهم وأنه قد فضلهم على العالمين فكان الواجب أن يتقوا الله ويعملوا حسابا ليوم القيامة.

الإذن بالقتال:

قال المفسرون إن هذه الآيات من سورة الحج قد نزلت وقتئذ:

«إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور. أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدمت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» (الحج ٣٨ - ٤١).

وكان هذا أول تصريح للمسلمين بالقتال. ذلك أن المسلمين قبل الهجرة كانوا قلة وسط أغلبية كافرة ولم يكن باستطاعتهم قتالهم فلم يكن أمامهم إلا الصبر على آذاهم. ولما جاء وفد أهل يثرب وكانت بيعة العقبة. وكان الوفد نيفا وثمانين رجلا قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادى - يعنون أهل منى ومعظمهم من قريش - فنقتلهم. قال إنى لم أومر بهذا. ولكن لما أصبح للمسلمين - بعد الهجرة إلى يثرب - دارا يأمنون فيها وقويت شوكتهم نزلت الآيات تقرر أنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. وفى ذلك معنى مستتر لمشروعية القتال ردا على ظلم وقع بهم أو لرد حقوق سلبت منهم إذ أن الكفار - بإيذائهم لهم - قد اضطروهم إلى ترك ديارهم والهجرة منها وما كان لهم من ذنب إلا أنهم عبدوا الله. والله يسخر للحق أعوانا

ينصرونه ويدفعون طغيان الظالمين لمنع تفوق الكفر الذي يعمل على إخماد صوت الحق ويقوم بهدم بيوت العبادة. وسينصر الله من يُعز كلمة الحق، وهؤلاء المؤمنون عند انتصارهم سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينشرون العدل.

السرايا القتالية الأولى:

أما وقد نزل الإذن بالقتال لأخذ مقابل ما استلبته قريش من حقوق المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة. فقد بدأ النبي يخطط للاستيلاء على قوافل قريش التجارية. فحين يصل خبر عن قافلة لقريش يأمر النبي عددا من الرجال - يتناسب مع حجم القافلة وعدد الرجال الذين يحرسونها - يخرجون في سرية لتعترض القافلة. كذلك كانت السرايا تخرج إلى المناطق المحيطة بالمدينة - وفيها قبائل مشركة - إظهارا لقوة المسلمين. وهو ما يمكن تشبيهه بالمناورات الحربية التي تجريها الدول حاليا استعراضا لقوتها وما عندها من أسلحة إرهابا لأعدائها. وكان هدف النبي هو تحذير هذه القبائل حتى لا تفكر في الانحياز إلى قريش في أي معارك قادمة. وهدف آخر هو عرض الإسلام عليهم. فإن أسلموا كانوا قوة للإسلام وإلا فإنه يعقد معهم معاهدة عدم اعتداء. وفي هذه الحالة فإنهم يسمحون للسرايا - التي يرسلها النبي لاعتراض قوافل قريش - بعبور أراضيهم وعدم التعرض لها بالمنع أو الأذى. لذلك كان التركيز في أول الأمر على القبائل المحيطة بالمدينة والتي تخترق قوافل قريش أراضيها وهي في طريقها إلى الشام. فكسب إلى جانبه في السنوات الأولى من الهجرة قبائل بني ضمرة وجهينة وخزاعة وغفار وأسلم (شكل ٢١). وروي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: لما قدم رسول الله إلى المدينه جاءه رجال من جهينة وقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأمنك وتأمنا. فأوثق لهم ولبطونهم المختلفة مثل: بني زرعة وبني الدبعة وبني الحرقة وبني الجرمز - وبعضها كان يسلم. إلا أن المواثيق لم تكن تشترط الإسلام بل كانت ذات طابع سياسي تضمن عدم الاعتداء.

وقد نجحت هذه السرايا في أهدافها فأمن القبائل المحيطة وهددت السرايا نشاط قريش التجاري. كما أنها باستيلائها على بعض القوافل الصغيرة والغنائم من بعض القبائل التي كانت تعترض مسيرتهم، نجحت في الحصول على المال اللازم لشراء الأسلحة. كما كانت السرايا مجالا للتدريب العسكري ومعرفة مسالك الصحراء وهي لازمة للجند قبل الخوض في أي معركة كبيرة.

وحرص النبي على أن تكون السرايا - في أول الأمر - قاصرة على المهاجرين وحدهم إذ كان العهد مع الأنصار هو أن يحموه من عدو يهاجمه في المدينة أما الهجمات والسرايا خارج المدينة فلم يكونوا ملزمين بها. إلا أنه بمضي الوقت بدأ بعض الأنصار في الانضمام إلى

غطفان
حزام
المدينة
عنزة
ينبع
غفار
أسلم
لحيان
جهينة
بنو ضمرة
رابغ
خزاعة
كنانة
هذيل
هوازن
قريش
مكة
خزيمة
ثقيف

شكل ٢١ – أماكن بعض القبائل العربية على طريق مكة المدينة.

بعض السرايا. ثم بعد مدة لم تعد هناك تفرقة بين المهاجرين والأنصار في الخروج في هذه السرايا. وقبل البدء في ذكر هذه السرايا يجب أن نشير إلى اختلاف المؤرخين الإسلاميين القدامى في توقيتها فقد ينص مؤرخ على أن سرية ما - أو غزوة - حدثت في السنة الثانية مثلا في حين يذكر مؤرخ آخر أنها حدثت في السنة الثالثة، وقد بينّا سبب ذلك في صفحة ٤٣٧.

١ - سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر (شكل ٢٢):

قال الواقدي إن رسول الله عقد في السنة الأولى - بعد سبعة أشهر من وصوله المدينة - أي في رمضان من السنة الأولى للهجرة - لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض في ٣٠ رجلا من المهاجرين ليعترض عير لقريش كان يحرسها أبو جهل ولكن العير سبقت ولم يكن هناك قتال. بعض الكتب تذكر أن الفريقين اصطفا للقتال ولكن حجز بينهم سيد جهنية وكان حليفا للفريقين فلم يقتتلا. كما أن بعض المراجع تذكر أن عدد رجال القافلة كان ٣٠٠ رجلا فكان من الحكمة ألا يتصدى لهم حمزة وليس معه إلا ثلاثون رجلا..

٢ - سرية سعد بن أبي وقاص:

وفي الشهر التالي - أي في شوال - أوفد النبي سعد بني أبي وقاص في سرية من ٢٠ رجلا إلى الخَّرار (شكل ٢٣) لاعتراض عير لقريش. فلما وصوا إلى الخرار كانت القافلة قد سبقتهم ولم يحدث قتال فعادوا إذ أن النبي لم يسمح لهم بتجاوز الخرار.

٣ - سرية عبيدة بن الحارث (شكل ٢٤):

وقال الواقدي أيضا إنه في نفس الشهر - أي في شوال - عقد النبي لعبيدة بن الحارث لواء أبيض وأمره بالسير إلى بطن رابغ في ٦٠ من المهاجرين. وأنهم التقوا المشركين على ماء يقال له «أحياء» وكان بينهم رمي بالنبال عن بعد ولم تحدث إصابات وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمر وعتبة بن غزوان وكانا مسلمين وقد خرجا مع قريش ليصلا إلى المسلمين وكان هذا من مكاسب هذه السرية.

الإسلام امتداد لحنيفية إبراهيم:

سبق ذكر جوانب من قصة إبراهيم في كثير من سور العهد المكي مثل: مريم والشعراء، والزخرف، والأنبياء والعنكبوت. وكان التركيز فيها على نقطتين: الأولى تسفيه إبراهيم للأصنام التي كان قومه يعبدونها مما يعني تسفيها وتعريضا بعبادة الأصنام التي كانت قريش عليها. أما النقطة الثانية فكانت إظهار العلاقة بين العرب وإبراهيم وتوضيح أن النبي هو الذي يسير على الملة الحنيفية التي جاء بها إبراهيم أما قريش فإنها قد جرفت فيها ومالت إلى الشرك. أما

المدينة
القافلة
ينبع النخل
ينبع البحر
الروحاء
الرويثة
السرية
سيف البحر

شكل ٢٢ – سرية حمزة بن عبد المطلب

الخرار
القافلة اتخذت طريقا
جانبيا وسبقت
المدينة

شكل ٢٣ – سرية سعد بن أبي وقاص

المدينة
ذو الخليفة
الروحاء
الرويثة
ملل
الصفراء
المنصرف
بدر
الأبواء
الجحفة
رابغ البحر
بطن رابغ
المشلل
البحر

شكل ٢٤ – سرية عبيدة بن الحارث.

فى القرآن المدنى فكان التوجُّه هو الرد على إدعاء اليهود أنهم وحدهم هم ورثة إبراهيم فركزت الآيات التالية من سورة البقرة على أن العرب من نسل إسماعيل ولد إبراهيم وأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة وأن النبى والمسلمين هم أولى الناس بإبراهيم:

«وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا. واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً أمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه. ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابَنِىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون. وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين»

(١٢٤ - ١٣٥).

والآيات تناولت عدة موضوعات تتعلق بإبراهيم عليه السلام:

١ - أن الله اختبر إبراهيم بأوامر ففعلها فاستحق رضا الله وكافأه بأن اختاره ليكون للناس إماما وقدوة. فسأل ربه أن يكون هذا الفضل شاملا لذريته أيضا فأجابه الله بأن الظالمين المنحرفين عن شريعته لا يصح أن ينالوا هذا الشرف وبالطبع كلمة ذريتى تشمل ذرية ولديه إسماعيل وإسحق. وكان معروفا أن العرب من نسل إسماعيل واليهود من نسل إسحق وابنه يعقوب. إلاّ أن اليهود اعتقدوا أنهم وحدهم هم ورثة إبراهيم وأنهم شعب الله المختار وأن لهم وضعا متميزا عند الله. فجاءت الآيات تنفى أى أفضلية للظالمين.

٢ - تأكيد الصلة بين إبراهيم وبناء الكعبة. نفيا لما كان يقوله اليهود من أن هاجر وإسماعيل تاها وهلكا فى برية فاران قرب أرض مدين. وهذا ما شرحناه فى الجزء الثانى (ص ٢٩٨ - ٢٩٩). ونفى ادعاء اليهود بأنه لا صلة لإبراهيم ببناء الكعبة.

٣ - التأكيد على أن الحج ومناسكه من طواف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات وغيرها من المناسك قد أرساها إبراهيم وظل العرب فيما قبل الإسلام يفعلونه.

٤ – دعاء إبراهيم بأن يجعل مكة بلدا آمنا.

٥ – دعوة إبراهيم بأن يرسل للعرب رسولا منهم. وفي الحديث الشريف: «أنا دعوة أبى إبراهيم..»

٦ – أن رسالة الإسلام هى امتداد للحنيفية التى جاء بها إبراهيم.

٧ – أن يعقوب – أى إسرائيل أبو اليهود – قبل وفاته – وصّى بنيه وذريته بأن يظلوا على ملة إبراهيم الحنيفية وهى ملة إسماعيل عمه وإسحق أبيه. وفى كل هذا حث لليهود على اتباع النبى.

ثم تتوسع الآيات فى شرح أن الأديان كلها تنبع من ملة إبراهيم:

«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صِبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون. قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون».(١٣٦ – ١٤١).

وفى الآيات:

١ – أمر للنبى والمؤمنين بأن يعلنوا أن عقيدتهم هى الإيمان بالله والتصديق بما أنزل إلى الأنبياء السابقين دون تفرقة بينهم.

٢ – فإن آمن المخاطبون – وهم اليهود – بذلك فقد اهتدوا وساروا على طريق الحق. وإن أعرضوا وتولوا فهم متعنتون وسيحفظ الله نبيه منهم.

٣ – إن ما يدعو إليه النبى هو دين الله وليس هناك ما هو أحسن منه.

٤ – أمر للنبى بتوجيه سؤال إلى اليهود عن سبب كثرة جدالهم ومحاجتهم. فإن أصروا على موقفهم فليخبرهم أن على كل واحد أن يتحمل نتيجة عمله.

٥ – أمر للنبى بتوجيه سؤال ثان – فيه تنديد بزعم اليهود أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى مع أن التوراة والإنجيل التى قامت عليها اليهودية والنصرانية لم تنزل إلا بعد هؤلاء فالمنطق يجزم بأنهم لايمكن أن يكونوا كذلك. ثم نفى فى هيئة تساؤل عما إذا كانوا يعلمون شيئا لا يعلمه الله. ثم يجيء تنديد بما فعلوه إذ جاءت صفات النبى فى كتبهم وأسفارهم فكتموها وكانوا ظالمين.

أحداث السنة الثانية للهجرة

محرم		ــــــ
صفر		غزوة الأبواء = غزوة ودّان.
ربيع الأول		غزوة بواط.
ربيع الثانى		ــــــ
جمادى الأول	١٥	غزوة العشيرة وقضاء شهر فيها.
جمادى الثانى	١٥	العودة إلى المدينة.
	٢٢	غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان.
	٢٩	إسلام جهينة.
رجب		
شعبان	١٥	تحويل القبلة.
		نزول تشريعات تنظيم المجتمع المدنى.
	٢٢	سرية عبدالله بن جحش = سرية نخلة.
رمضان	١٧	موقعة بدر الكبرى.
	٢١	العودة إلى المدينة.
	٢٦	وفاة رقية.
شوال	١	التصرف فى الأسرى ونزول سورة الأنفال.
	٥	غروة بنى سليم بالكدر.
	١٠	عمير بن وهب يدبّر لقتل رسول الله.
	١٥	قدوم زينب إلى المدينة.
	٢٠	زواج على بن أبى طالب من فاطمة.
ذو القعدة		ــــــ
ذو الحجة		غزوة السويق.

كان تأمين المدينة هو الشغل الشاغل للنبى منذ قدومه المدينة. لم يشغله عنه نزول الآيات الكثيرة التى تنظم المجتمع الإسلامى الوليد ولا الآيات الكثيرة التى تدعو اليهود إلى الإسلام أو على الأقل عدم الغلواء فى الصد عن الدين وإنكار نبوته. ولذلك فإن النبى استمر فى إرسال

السرايا تجوب المناطق المحيطة بالمدينة لتتسامع بها القبائل ويدركوا أن المسلمين قوة قادرة على الرد على من يفكر في الاعتداء عليهم. وأطلق اسم «سريه» علي مالم يشترك فيه النبي. أما ما كان الرسول يقودها بنفسه فتسمى «غزوة». وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٦١) ثلاثا من هذه السرايا. وفي السنة الثانية للهجرة بدأت الغزوات.

١ – غزوة الأبواء (ودان):

وقعت في صفر في أوائل العام الثاني للهجرة. إذ خرج رسول الله في ٦٠ رجلا يريد قافلة لقريش فسار في طريق مكة (شكل ٢٥) حتى المنصرف والصفراء. ثم اتخذ طريق بدر. ثم سار حتى بلغ الأبواء في ديار بني ضمرة. وكانت القافلة قد علمت بخروج النبي فأسرعت السير واتخذت طريقا جانبيا فلم يدركها. وانتهزها النبي فرصة لمعاهدة بني ضمرة «على أن لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعا ولا يعينون عليه عدوا. وإذا دعاهم للحرب أجابوه على أن ينصرهم على من رامهم بسوء» ووقع المعاهدة عنهم سيدهم محشي بن عمرو الضمري.

٢ – غزوة بواط (شكل ٢٦):

وقعت – كما قال ابن اسحق – في شهر ربيع الأول من السنة الثانية. إذ قاد النبي بنفسه ٢٠٠ راكبا من المهاجرين وجعل لواءه مع سعد بن أبي وقاص. وكان مقصده أن يعترض قافلة لقريش بها ٢٥٠٠ بعير ويحرسها ١٠٠ رجل بقيادة أمية بن خلف. وسار النبي شمالا حتى بلغ بواط. وكانت القافلة قد سبقته ومرت سالمة فعاد النبي إلى المدينة.

٣ – غزوة العشيرة (شكل ٢٧).

وفي منتصف جمادي الأول خرج رسول الله يتعرض لقافلة لقريش وعقد لواءه لحمزة بن عبد المطلب. ولم يسر في طريق مكة بل سار غربا في طريق فرعي إلى نقب بني دينار ثم إلى فيفاء الخبار ثم عاد ثانية إلى طريق مكة عند ملل ولما لم يقابل القافلة سار من ملل غربا إلى العشيرة وكانت القافلة قد سبقت ولم يدركها فأقام بالعشيرة شهرا – النصف الثاني من جمادي الأول والنصف الأول من جمادى الآخرة – وانتهزها فرصة ووادع بني مدلج – وهم حلفاء بني ضمرة الذين عاهدهم في غزوة الأبواء – ثم عاد إلى المدينة.

٤ – غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان (شكل ٢٨):

قال ابن اسحق: لم يقم رسول الله بالمدينة حين رجع من غزوة العشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى أغار كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة فخرج النبي في ٢٠٠ من أصحابه في طلبه وكان لواؤه مع علي بن أبي طالب وسار في طريق مكة حتى المنصرف والصفراء ثم اتخذ طريق بدر حتي بلغ واديا اسمه «سفوان» قبل بدر بـ ٢٠كم وكان كرز بن جابر قد أفلت فلم يدركه. وعقد النبي معاهدة عدم اعتداد مع قبائل بني ضمرة بن بكر بن كنانة.

قباء
ذو الحليفة
الحفير
ملل
الروحاء
الرويثة
المنصرف
الصفراء
ذفران
جبل سفوان
القافلة
بدر
الأبواء
مساكن بني ضمرة بن بكر
الجحفة
رابغ الرمل
رابغ البحر

شكل ٢٥ – غزوة الأبواء = ودان.

من وإلى غزة
بواط
خط سير القافلة
خط سير النبي
المدينة
قباء
ذو الحليفة
الحفير
ملل
الروحاء
الرويثة

شكل ٢٦ – غزوة بواط.

نقب بني دينار
المدينة
فيفاء الخيار
مساكن بني مدلج
النبي
العشيرة
ذو الحليفة
الحفير
ملل
الرويثة
المنصرف
الروحاء
القافلة
الصفراء
خط سير القافلة
خط سير النبي.

شكل ٢٧ – غزوة العشيرة.

المدينة
ذو الحليفة
الحفير
الروحاء
الرويثة
ملل
المنصرف
الصفراء
طريق الساحل
الطريق المعتاد
وادي سفوان
سفوان
الطريق الموازي
بدر
الأبواء
بنو ضمرة
الجحفة
رابغ الرمل
رابغ البحر
كلية
الشلل
قديد

شكل ٢٨ – غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان

إسلام جهينة :

ذكرنا سابقا (ص ٤٥٩) عهد الموادعة بين النبى وبين جهينة. وعقب عودة النبى من سفوان فى أواخر جمادى الثانية جاء زعماء جهينة إلى النبى فى المدينة وقالوا له. إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك بقومنا. فأوثق لهم فأسلموا جميعا.

تحويل القبلة:

كان النبى فى مكة قد أُمر باستقبال بيت المقدس فكان يصلى بين الركنين وبذلك يستقبل بيت المقدس وفى نفس الوقت يصلى إلى الكعبة. فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فكان يصلى إلى بيت المقدس. وفرح اليهود بذلك وقالوا هو يصلي الآن إلى بيت المقدس وغدا يتبع شريعتنا. وكان النبى يحب التوجه إلى الكعبة. لذلك كان النبى دائم النظر إلى السماء ويدعو الله أن يوجهه إلى البيت العتيق – قبلة إبراهيم – واستمر الحال كذلك حوالى ١٧ شهرا ثم أجيب إلى طلبه وأمر بالتوجه إلى الكعبة فخطب الناس وأعلمهم بذلك. وكانت أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر. وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين. وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلا فى فجر اليوم التالى إذ بينما هم يصلون صلاة الصبح جاءهم آت وأخبرهم بنزول القرآن بتحويل القبلة فاستقبلوا الكعبة. ولما حدث هذا اغتم اليهود وراحوا يشككون وتساءلوا عن سبب تحول المسلمين عن بيت المقدس فكان الرد عليهم أن الأرض – مشرقها ومغربها – لله تعالى. ولله أن يوجه الناس – كما يشاء لعبادته:

«سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها. قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمه وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله. وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. ولكلٍ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام. وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فولٍ وجهك شطر المسجد الحرام. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا

يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» (١٤٢-١٥٢).

والآيات تذكر أن تحويل القبلة كان امتحانا من الله لإظهار الثابت إيمانه من المتشكك حيث قد ارتد بعض ضعيفي الإيمان. ومما رواه المفسرون في صدد ما أثير حول تحويل القبلة إلى الكعبة أن اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة (أي أصبحت تلك الصلوات دينا عليكم) ومن مات عليها فقد مات على ضلالة. ولا نظن أن ذلك كان كل ما قاله اليهود فلا شك أنه ما من يهودي قابل مسلما إلا وكان الكلام منصبا على تحويل القبلة محاولين أن ينفثوا سمومهم بالانتقاد والتشكيك نتيجة لما شعروا به من شدة الضربة المعنوية التي وجهت إليهم بتحويل القبلة إلى الكعبة. كذلك أظهر بعض المنافقين نفاقهم وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرة إلى هاهنا ومرة إلى ههنا. وقال المشركون: تحير محمدا وتساءل بعض المسلمين عن موقف إخوانهم الذين ماتوا وهم على القبلة الأولى وكذلك تساءل الأحبار عن مدى صحة صلاة المسلمين قبل التحول كما ذكرنا آنفا . فنزل قوله تعالى: **«وما كان الله ليضيع إيمانكم»** فالله رؤوف رحيم بعباده. ثم بينت الآيات حقيقة موقف أهل الكتاب - والمقصود أساسا اليهود - وأن انتقادهم صادر عن مكابرة وهوى وعناد. ومثل هؤلاء لن يتبعوا الحق. ولذلك مهما جاءهم النبي بآيات فلن يتبعوه. وهم حتى في خلاف بعضهم مع بعض. ولكل فريق منهم قبلة وطريقة تختلف عن الفريق الآخر ولن يتبع أحدهم قبلة وطريق أي من الفرق الأخرى. ولا النصارى يتبعون قبلة اليهود ولا اليهود يتبعون قبلة النصارى وكل فريق يعتقد أن الآخر ليس على حق وبالتالى فلا يجوز للنبى أن يتبع قبلتهم. وإن أهل الكتاب يعرفون النبى ويعرفون أنه على حق كما يعرفون أبناءهم وقد سبق أن ورد هذا المعنى أيضا في سورة الأنعام (آية ٢٠ ص ٢٥٦) وبنفس اللفظ: **«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»**. ولكنهم يكتمون الحق بالرغم من معرفتهم به. ثم تأمر الآيات النبى والمؤمنين بالتوجه - عند الصلاة - ناحية المسجد الحرام وتكرر هذا الأمر في الآية التالية للتأكيد عليه وحثا للمسلمين باتباعه وألا يخشوا نقدا ولا اعتراضا من أحد بل عليهم أن يخشوا الله. ثم تختتم الفقرة موجهة الخطاب إلى المسلمين تذكرهم بأن الله أرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم القرآن ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون وعليهم واجب الشكر لله على هذا النعمة وألا يكفروا بها **«واشكروا لي ولا تكفرون»**.

والحقيقة أن تحويل القبلة كان حدثا هاما في الدعوة الإسلامية فقد اكتسب الدعوة شخصية مستقلة بعد أن كان استقبال بيت المقدس يحمل نوعا من اللقاء الوسط مع اليهود وكان

يدل على أن بعض المسلمين كانوا يذهبون للحج في موسمه أو يذهبون معتمرين في غير موسم الحج.

التنديد باليهود لكتمانهم الحق:

«إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون» (١٥٩ - ١٦٢).

وفي الآيات تنديد بمن يكتمون ما أنزل الله من بينات ودلائل في الكتاب الذي أنزل عليهم، والمفهوم أن الآيات تقصد اليهود إذ أنزل الله في التوراة (والإنجيل) آيات تبشر بالنبي ولكنهم أخفوها أو فسَّروها على غير وجهها. فهؤلاء يلعنهم الله وملائكة كلفوا بذلك **«اللاعنون»**. وترك باب التوبة مفتوحا فاستثنى من يتوب ويعمل صالحا. أما الذين يصرون على الكفر حتى ماتوا عليه فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولهم عذاب - والمفهوم أنه نار جهنم - خالدين فيه.

وحدانية الله وبعض مظاهر قدرته:

«وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» (١٦٣ - ١٦٤).

حال المشركين يوم القيامة:

«ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حُبًّا لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب. إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (الروابط والمودة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا) **وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار»** (١٦٥ - ١٦٧).

والآيات تندد بمن يتخذون مع الله شركاء وأندادا يحبونهم ويعبدونهم. ثم تنبيه إلى ما سوف يكون عليه الحال يوم القيامة إذ يتنصل المتبوعون من التابعين ويتمنى هؤلاء أن يعودوا إلى الدنيا ليتبرأوا ممن كانوا يشركونهم مع الله. وسيشعرون بالحسرة على سوء عملهم وسيخلدون في النار.

المسلمون يشعرون بشيء من الغضاضة أو عدم الارتياح بسبب زهو اليهود وافتخارهم عليهم بهذا.

واستمرت آيات سورة البقرة في النزول. فيها صلاح أمر المسلمين فنزل فيها:

حث المؤمنين على الصبر:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين. ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»(١٥٤ - ١٥٧).

والآيات تحث على الإستعانة بالصبر والصلاة على ما يمكن أن يصيب المسلمين من مصائب وتطمئنهم بأن الله مع الصابرين يؤيدهم بنصره. وتؤكد لهم أن من يموتون في سبيل الله هم أحياء عند ربهم. كما تنبه الآيات إلى أن الله قد يبتلي المسلمين ببعض المصائب من جوع وضياع أموال ونقص في الطعام وتبشر الذين يثبتون في الاختبار ويقابلون ما يصيبهم بالصبر. فلهم مغفرة من الله ورحمة وهم على طريق الهدى والفلاح.

وقال بعض المفسرين إن الآيات نزلت لتسكين روع المؤمنين وتثبيتهم في فاجعتهم في شهداء بدر وآخرون قالوا في شهداء أحد. ولكن موقعة بدر كانت انتصارا ونزل التعليق عليها في سورة الأنفال واختبار غزوة أحد نزلت في سورة آل عمران. ولم تكن الغزوتان قد وقعتا بعد. لذلك فالمرجح أن الآيات نزلت تحض المؤمنين على الثبات والصبر في السرايا التي قد يرسلهم فيها النبي وما قد يحدث في بعضها من قتال فعليهم ألا يهابوا الموت لأن من مات في سبيل الله حيٌّ عند الله. كذلك قد تكون الآيات تهيئ المسلمين لموقعة بدر التي كان موعدها قد اقترب.

إقرار بعض مناسك الحج كما كانت قبل الإسلام:

كان ذو الحجة قد اقترب وأهلَّ فريق من أهل المدينة بالحج. وكان الحج في الجاهلية به سعي بين الصفا والمروة إذ كان على أحدها صنم «إساف» وعلى الآخر صنم «نائلة» وكان الحجاج المشركون يقدمون عندهما القرابين. وتحرَّج المسلمون من السعي بسبب وجود هذين الصنمين. فنزلت الآيات تقرر أن السعي من شعائر الحج ولا يجوز إسقاطه لوجود الصنمين:

«إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم»(١٥٨)

وكانت هذه أول الآيات الواردة في صدد مناسك الحج وقد تلتها - كما سنرى فيما بعد - آيات أخرى في سورة البقرة وسورة المائدة وسورة آل عمران وكلها نزلت قبل فتح مكة مما

الحلال والحرام فى المأكل:

«يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون. يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم» (١٦٨ - ١٧٣).

والخطاب موجه للناس عامة مبينًا أن الله قد أحل لهم كل طيب فى الأرض ليأكلوه ويأمرهم ألا يستمعوا إلى وساوس الشيطان الذي يزين لهم أكل الحرام لأنه عدو لهم ويوسوس لهم بقول السوء وفعل الفحشاء والافتراء على الله بما لا يعلمون حقيقته. ثم تندد بالكفار لأنهم إذا أمروا باتباع حدود الله أجابوا بأنهم يسيرون على ما سار عليه آباؤهم حتى لو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون. وشبهت حالتهم بحال البهائم التى يصرخ فيها راعيها فتسمع صوته ولا تفهم كلامه فهم صم بكم عمى. ثم يتوجه الخطاب إلى المؤمنين يحثهم على أن يأكلوا مما رزقهم الله من الطيب والحلال. ثم يأتى تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر عند ذبحه اسم غير اسم الله. إلا من اضطر إلى أكل شيئ من هذه المحرمات غير متجاوز القدر الذي يقيم أوده ويقيه من الهلاك.

تنديد ثان باليهود لكتمانهم الحق:

ثم تعود الآيات لتندد بما فعله بعض أحبار اليهود من كتمانهم لصفات النبى التى وردت فى كتبهم حتى لا يتعرف الناس عليه ويتبعوه - يفعلون ذلك جريا وراء مراكزهم الدنيوية وما يكسبونه من مال - بالرغم من قلته - وما يأكلونه من مال ينزل إلى بطونهم كأنه نار وفى الآخرة هم محجوبون عن الله فلا يكلمهم ولهم عذاب أليم:

«إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد»(١٧٤ - ١٧٦).

تشريعات لتنظيم المجتمع الإسلامي بالمدينة:

كوّن المسلمون فى المدينة - أنصارا ومهاجرين - مجتمعا واحدا يختلف عن المجتمع فى مكة - وبالطبع فإن هذا المجتمع الجديد لابد له من تشريعات تحكم حركته وتحل خلافاته.

فنزل الوحي بهذه التشريعات الجديدة لينشر السلام الاجتماعي بين أفراده. ويبلغ عدد هذه التشريعات التي نزلت في سورة البقرة حوالى ٣٣ تشريعا تتخللها بعض الفقرات المتعلقة بالقتال. ويمكننا أن نشبه هذه التشريعات بالمواد التي تتألف منها القوانين الحالية:

١ - ما هو البر:

ليس البر بالعبادة الشكلية وتوجيه الوجوه ناحية المشرق أو المغرب أثناء العبادة. وتشرح الآيات البر الحقيقي:

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» (١٧٧).

٢ - القصاص:

«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون» (١٧٨ - ١٧٩).

وفي أي مجتمع لا يخلو الأمر من خلافات بين الأفراد وقد يتطور الأمر إلى قتل. وكثيرا ما كان يحدث بين القبائل العربية اقتتال. وكانت القبيلة أو الحى الأقوى يقتل من عدوه الحر بالعبد والرجل بالأنثى بل وبالغت بعض القبائل فكانت تقتل الحرين بالحر. وكان قوم من العرب إذا قتل عبد قوم آخرين رجلا منهم لم يرضوا بقتل العبد حتى يقتلوا سيده أيضا. وإذا قتلت امرأة من غيرهم رجلا منهم لم يرضوا بقتل القاتلة حتى يقتلوا رجلا من عشيرتها. فنزل ذلك التشريع ليوقف هذا البغي وحتى لا يستمر الأخذ بالثأر إلى ما لا نهاية فقررت قتل الحر القاتل بالحر المقتول والعبد القاتل بالعبد المقتول والأنثى القاتلة بالأنثى المقتولة. وأوردت احتمال العفو عن القاتل من قبل ولى المقتول مع دفع الدية لأهل القتيل وفق العرف المعمول به. ونص على أن هذا تخفيف من الله ورحمة بالمسلمين. وقيل إن الكلام موجه أيضا إلى أهل الكتاب. فاليهود كانوا يقاصون بدون عفو. وكان النصارى لا يقاصون إلا فيما ندر.

٣ - الوصية عند الوفاة:

«كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا (مالاً كثيرا) الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين. فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن الله سميع

عليم. فمن خاف من موص جنفا (انحرافا عن الحق) أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم» (١٨٠ – ١٨٢).

وفى الآيات وجوب الوصية على كل مسلم إذا أحس بدنو أجله وكان عنده مال كثير فعليه أن يوصى بجزء لوالديه ولأقربائه. ثم بعد ذلك حددت الأحاديث النبوية أن ما يوصى به لا ينفذ إلا فى ثلث الميراث فقط وحددت آيات تالية كيفية توزيع التركة بين الورثة.

٤ – الصيام :

«يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أياما معدودات. فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر. وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين. فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون. شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون. وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون. أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم. فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد. تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» (١٨٣ – ١٨٧).

قال الإمام أحمد (السيرة النبوية لابن كثير جـ ص ٣٧٨) إن الصيام مر بعدة مراحل: عندما قدم النبى المدينة كان يصوم ثلاثة أيام كل شهر. ثم وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عنه فقالوا هذا يوم نجى الله فيه موسى من فرعون. فقال نحن أحق بموسى منكم وصامه. فصام المسلمون. ثم نزل قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم... إلى قوله تعالى وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه. ثم نزل قوله تعالى: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن.... إلى قوله تعالى.. فمن شهد منكم الشهر فليصمه» فأوجب صيامه على المقيم الصحيح ورخّص فيه للمريض والمسافر وأثبت الفدية للكبير الذى لا يستطيع الصيام. ثم إنهم كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا فإذا ناموا امتنعوا. ثم إن رجلا من الأنصار كان يعمل وهو صائم حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى طلع الفجر فأصبح صائما فرآه النبى وقد جهد جهدا شديدا فسأله عن سببه فأخبره:

وكان عمر بن الخطاب قد أصاب النساء بعدما نام فأتى النبى وأخبره. فأنزل الله تعالى: **«أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم»** إلى قوله تعالى: **«ثم أتموا الصيام إلى الليل»** تيسيرا على الناس.

ثم فرضت صلاة الفطر، لم ينزل بها قرآن ولكن النبى خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بها.

٥ – التخفيف فى قيام الليل:

من المرجح أنه مع التيسير على المسلمين فى الصيام والسماح بالفدية لمن له عذر جاء أيضا تخفيف عن المسلمين فى قيام الليل. نزلت به الآية الأخيرة من سورة المزمل والتى تجمع كتب التفسير على أنها مدنية لأن فيها ذكر للقتال الذى لم يشرع إلا بعد الهجرة.

«إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى (أى أقل) **من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن. علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم»** (٢٠ – المزمل).

فالنبى ظل – فى حدود ما أمرت به الآيات الأولى من سورة المزمل – **«ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا»** (١ – ٤ سورة المزمل ص ٤٧) يقوم معظم ساعات الليل يصلى ويقرأ القرآن والتزم المسلمون الأوائل بهذا الأمر اقتداء بالنبى. فلما انتقل المسلمون إلى المدينة وتكون المجتمع الإسلامى. كثرت واجبات المسلمين ومشاغلهم. فاقتضت رحمة الله التخفيف تمشيا مع الظروف الجديدة والمجهود المنوط بالمسلمين فى النهار من سعى فى طلب الرزق فى أرض غربة وهو ما يستلزم مجهودا أكبر وآخرون مرضى. وآخرون يخرجون فى سرايا قتالية. والناس مهما حرصوا واشتدوا فى العبادة فلن يوفوا الله حقه ولن يبلغوا الغاية.

٦ – الزكـــاة :

وقد وردت ضمنا فى الآية السابق ذكرها **«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»** والزكاة هى تلك الفريضة التى تجعل للفقراء والمحتاجين حقا فى أموال الأغنياء قررت السنة مقدارها وأوضحت نصابها. وقُرنت الزكاة دائما بالصلاة وجُعلت دليلا على صدق الإيمان. هذا طبعا بالإضافة إلى الصدقة التطوعية الزائدة عن الفريضة والتى حث عليها القرآن الكريم فى آيات كثيرة.

٧ - النهي عن أكل مال الغير:

«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون» (١٨٨).

وقيل إن هذه الآية نزلت بمناسبة شكاية أحد المسلمين للنبي على آخر اغتصب أرضه فكلفه النبي بإقامة البينة فعجز فكلف المدعى عليه باليمين فهم بأن يحلف فقال النبي: أما إنه إن حلف على ما ليس له ليأكله ظلما لَيلقينّ الله وهو عنه معرض. ثم قال: إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن (أى أحذق فى الكلام) بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئا فإنما أقضي له قطعة من نار فليتحملها أو ليذرها. فارتدع المدّعى عليه عن اليمين وسلّم الأرض لصاحبها. وعلى العموم فإن هذه الآيات تنهى عن شهادة الزور والتزوير والرشوة واغتصاب أرض أو بيوت الغير وكل ما من شأنه أكل أموال الناس بالباطل.

٨ - سؤال عن الأهلة:

«يسألونك عن الأهلة. قل هى مواقيت للناس والحج».

٩ - عود إلى موضوع البر:

- وهو الموضوع السابق ذكره برقم «١» لبيان وجه جديد فيه:

«وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون» (١٨٩).

وكان العرب فى الجاهلية إذا أحرموا بالحج يحرّمون على أنفسهم الاستظلال بسقف ما (مثلما يفعل بعض فرق الشيعة الآن ولذلك يحرصون على ركوب أوتوبيسات ليس لها سقف). فإذا ما احتاجوا إلى شيئ من بيوتهم أو أرادوا أن يدخلوا بيوتهم لا يدخلونها من الأبواب لئلا تظللهم السُّقُف وإنما يصعدون إلى سطح الدار أى ظهرها ثم ينزلون إلى الفناء أو يخرقون خرقا فى جدار الفناء ويدخلون منه. فنزلت الآيات تبين أن البر الحقيقى هو التقوى وليست هذه الشكليات.

١٠ - تشريعُ القتال :

سبق أن ذكرنا أنه أثناء الإقامة بمكة كان بعض المسلمين يسألون النبى الإذن بمقاتلة الكفار رداً على إيذاءاتهم فكان النبى يحثهم على الصبر ويقول لهم إنه لم يؤمر بالقتال. ولكن بعد الهجرة واحتمال تعرض المسلمين لهجوم من قريش فقد وجب رد العدوان ونزلت الآيات من سورة الحج (٣٨ - ٤١ - ص ٤٥٨) فيها إذن مستتر بالقتال **«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير»** ثم نزلت الآيات الحالية فيها الإذن الصريح بالقتال:

«وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم (وجدتموهم) وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين. وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» (١٩٠ – ١٩٥).

١١ – الحج والعمرة:

وتحتوى التشريعات الخاصة بالحج والعمرة على فقرتين:

أ – الفقرة الأولى: وتنص على ضرورة إتمام الحج والعمرة ثم حكم التمتع والقران. فإذا خرج مسلم من منزله قاصدا هذا الواجب الديني ثم منع من الوصول إلى المسجد الحرام فيكتفى بتقريب ما تيسر به من الذبائح وليس له أن يحلق رأسه إلا بعد أن تصل القرابين إلى المكان المقرر شرعا للذبح. ولمن كان به أذى من رأسه أن يتحلل من الإحرام ويفعل ما فيه وقاية له من المرض على أن يقدم فدية صياما أو صدقة أو ذبيحة. أما الحاج الذى يبلغ المسجد الحرام فعليه ذبيحة إن كان قد تمتع فإن لم يستطع فعليه صوم عشرة أيام: ثلاثة منها فى موسم الحج وسبعة بعد الرجوع إلى داره.

«وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة. ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب» (١٩٦).

ب – الفقرة الثانية: وفيها تفصيل مناسك الحج:

«الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج. وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب. ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا. فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أولئك لهم

نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب، واذكروا الله في أيام معدودات. فمنْ تعَجَّل في يومَيْن فلا إثم عليه ومن تأخَّر فلا إثم عليه لِمَن اتقى، واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تُحشرون» (١٩٧ – ٢٠٣).

والآيات تقرر أن للحج أشهرا معينة وأوجبت على من ينوي الحج فيها ألاّ يرفث ولا يفسق ولا يجادل ونبهت على أن الله يعلم كل شيء، ثم أمرت بتقوى الله فهي خير زاد. ثم نبهت إلى أن التكسب أثناء موسم الحج مسموح. ثم أوضحت الآيات ترتيب مناسك الحج فبعد الإفاضة من عرفات يقوم الحاج بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة وذلك بصلاة المغرب والعشاء جمعا والبقاء في المزدلفة حتى الفجر وإن كان كثيرون حاليا يكتفون بالبقاء إلى ما بعد منتصف الليل. وكانت قريش تقف في المزدلفة بدلا من عرفات لامتياز يرونه لأنفسهم بينما باقي الحجيج يقف في عرفات فهدفت الآيات إلى إزالة التفاوت بين الحُجَّاج فالجميع يقفون بعرفة ومنه تكون الإفاضة للحجيج كله. ثم تبين الآيات أن من يدعو في هذا الموقف بخير الدنيا فقط لن يكون له نصيب في الآخرة، ومن يدعو بخير الدنيا والآخرة فسيحقق الله لهم دعاءهم. وأخيرا تأمر بذكر الله في أيام معدودة هي أيام العيد وأيام التشريق. وذكر الله المأمور به هو التكبير عند رمي الجمرات. ورفعت الحرج عمّن يستعجل فيترك منى بعد يومين اثنين ومن يتأنى فيبقى فيها أكثر من يومين فلا حرج عليه. ثم أمرت بتقوى الله الذي يحشر الناس إليه يوم القيامة.

١٢ – فضح ظاهرة النفاق:

والآيات تركز الضوء على ظاهرة النفاق فتوضح بعض أفعال المنافقين:

«ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد. ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله. والله رؤوف بالعباد» (٢٠٤ – ٢٠٧).

وقد روى المفسرون أن المنافق الذي عنته الآيات هو الأخنس بن شريق أحد زعماء المشركين الذي قدم إلى المدينة وجلس إلى النبي وراح يقسم له أنه يريد أن يسلم. ثم حنث في يمينه. أما من شرى نفسه فهو صهيب الرومي الذي فدى نفسه بماله ونجا بدينه وهاجر إلى المدينة كما ذكرنا سابقاً (ص ٤٠٧).

١٣ – تشريع لضمان وحدة المسلمين:

كان من المهم أن يصبح المسلمون كتلة واحدة متماسكة فلا تثور العصبيات الجاهلية وغيرها

من أسباب النزاع. وتنهى عن احتفاظ المسلمين من أهل الكتاب ببعض شرائعهم فتختلف تطبيقاتهم عن باقي المسلمين فتنشأ الأحزاب والفرق المختلفة. فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم. هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور. سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب»

(٢٠٨ – ٢١١).

وعن ابن عباس أنها نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه من اليهود الذين أسلموا إذ ظلوا متمسكين ببعض شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحم الإبل وألبانها فأنكر المسلمون عليهم ذلك فقالوا إنا نقوى على هذا وهذا وطلبوا من النبى أن يعملوا بالتوراة إلى جانب القرآن – فنزل الخطاب يقصدهم ويدعوهم إلى الدخول فى الإسلام بكافة مشاعرهم بحيث لا يبقى مكان لغيره فإن أصروا على موقفهم فإن الله غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منهم. ثم يأتى استفهام فيه معنى الاستنكار والنفى – عما إذا كانوا ليؤمنوا إيمانا خالصا يتوقفون أن يأتيهم الله بذاته. وفى هذا إشارة إلى ما سبق أن طالب به بنو إسرائيل موسى من أن يروا الله جهرة. ثم يأتى أمر للنبى بسؤال اليهود سؤال توبيخ عن الآيات العديدة التى أنزلها الله عليهم ومع ذلك حرفوها وتحذير من عذاب شديد، وفى هذا تحذير لهم من التمسك بما هو ليس من تعاليم الإسلام **«يبدِّل نعمة الله»**.

ثم تمضى الآيات تلفت النظر إلى استغراق الكفار – والمنافقين – فى متع الحياة الدنيا واغترارهم بما تيسر لهم من أسباب اليسر والنعيم ويسخرون من المؤمنين لضعف حالهم ثم تقرر أن الحال سينعكس يوم القيامة ويصبح المتقون هم الأعلون:

«زُين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا. والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب» (٢١٢).

ثم تعود الآيات إلى موضوع وحدة المسلمين فتشرح أن دين الله واحد وأن الناس خلقوا جميعا أمة واحدة على الفطرة فاختلفوا فبعث الله الأنبياء ومعهم الكتب السماوية واختلف الأتباع مع أن الآيات واضحة والصراط واحد وواضح والله يهدى إليه من يشاء:

«كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» (٢١٣).

١٤ – تنبيه المؤمنين بأنهم معرضون للاختبار:

ويأتي ذلك بصيغة سؤال موجه إلى المؤمنين عما إذا كانوا يظنون أنهم سيدخلون الجنة دون أن يختبروا كما اختبر الذين من قبلهم فقد أصابتهم الشدائد والنوازل وبلغ من تزلزل قلوبهم أن تساءلوا وتساءل معهم أنبياؤهم متى نصر الله؟ فيجابون بأن نصر الله قريب:

«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله. ألا إن نصر الله قريب» (٢١٤).

١٥ – الفئات المستحقة الصدقة:

«يسألونك ماذا ينفقون. قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل. وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم» (٢١٥).

١٦ – حث على تحمل آلام القتال:

ثم تعود الآيات لاستكمال موضوع مشروعية القتال الذي ذكر في الآية ١٩٠ (ص ٤٧٨) فتقرر أن القتال آت لا مفر منه وتدعو المسلمين إلى تحمل القتال وعدم النكوص عنه مع كرههم له. فقد يكون فيه خير كثير والعكس أيضا إذ قد يكون فيما يحبون شر كبير والله هو العليم والناس لا يعلمون أين يكمن الخير:

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (٢١٦).

ومع أن القتال قد شرع وسمح به إلا أن الرسول كان حريصا على ألا يشتبك المسلمون في قتال لا داعي له لذلك كان يرسل السرايا تجول في المناطق المحيطة بالمدينة إرهابا للقبائل القاطنة فيها ولكنه كان يحث رجال السرايا على تجنب القتال ما أمكن وخاصة أن عدد أفراد السرايا كان قليلا ولا يعلم عدد القوة التي سيقابلونها. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٦١ و٤٦٧) السرايا والغزوات التي وقعت وكلها لم يكن بها قتال، إذ أن أنباء السرايا كانت تصل إلى القافلة فتأخذ حذرها وتسلك طريقا فرعيا وتسرع السير فتفلت من أيدي المسلمين. وغالبا ما كان النبي – في الغزوات التي قادها بنفسه – يعمد إلى عقد معاهدة عدم اعتداء مع القبائل التي يمر بأرضها فكان ذلك مكسبا كبيرا إذ يؤمن المدينة من ناحية هذه القبائل ويضمن ولاءهم أو على الأقل حيادهم.

سرية عبد الله بن جحش = سرية نخلة:

اتخذ النبي في هذه السرية أسلوبا جديدا يضمن سريتها. ذلك بأن تمضي السرية ولا يعلم أحد بوجهتها. ولا حتى قائدها. حتى يصل إلى مكان معين فيفض كتابا كتبه له النبي فيجد فيه

خط السير ومقصده فيمضى إلى الجهة التى عُيِّنت له فى الكتاب وبذلك تكون السريَّة مضمونة. وهو أسلوب تتبعه أجهزة المخابرات حاليا التعمية على تحركات عملائها. ومعظم كتب السيرة تذكر أن هذه السرية كانت في شهر رجب. إلا أن ما نزل بشأنها من قرآن يقطع بأنها كانت بعد تحويل القبلة وعليه تكون قد وقعت فى أواخر شهر شعبان.

وقالوا كانت سرية عبدالله بن جحش الأسدي مكونة من ٨ من المهاجرين هم:

١ – أبو حذيفة بن عتبة.
٢ – عكاشة بن محصن حليف بني أسد.
٣ – عتبة بن غزوان حليف بني نوفل.
٤ – سعد بن أبي وقاص.
٥ – عامر بن ربيعة حليف بني عدي.
٦ – واقد بن عبدالله بن عبد مناف حليف بني عدي أيضا.
٧ – خالد بن البكير بن سعد بن ليث.
٨ – سهل بن بيضا الفهرى.

ويقول ابن اسحق: وكان النبى قد كتب له كتابا وأمره أن لا يفتحه حتي يسير يومين ثم يمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه. فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه أمر من النبى بالسير إلى نخلة على أول طريق مكة الكوفة (انظر شكل ١٩ ص ٤٢٧) – وبينها وبين مكة حوالي ٢٠كم – ليرصد أخبار قريش. فأخبر عبدالله بن جحش أصحابه بما في كتاب النبى وأن من كره المهمة لخطورتها فليرجع. فمضوا كلهم معه إلا أن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ضل لهما بعير فراحا يبحثان عنه فافترقا عن الجماعة ولم يشتركا فيما وقع من أحداث بعد ذلك وأصبحت السرية ٦ أفراد فقط إضافة إلى قائدها.

وقابلت السرية عيرا لقريش – عدد الإبل فيها أقل من أن يسمي قافلة – يحرسها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة. وقرر أفراد السرية قتالهم وكان ذلك – كما كان اعتقادهم – فى أول شعبان. فقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وأفلت نوفل. وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالأسيرين والعير إلى المدينة وأعطوا الغنائم للنبى فقال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام. وأبى أن يأخذ العير أو الأسيرين وأسقط فى يد رجال السرية وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال والرجال. فرد عليهم من كان بمكة من المسلمين: إن ذلك كان في شعبان. وعلى ما يبدو كان ذلك اليوم من الأيام التي يختلف الناس حولها هل هي تكملة للشهر السابق أم بداية شهر جديد كما يحدث أحيانا في أيامنا هذه.

ولكن المشركين إمعانا في التشنيع على المسلمين ادعوا وأكدوا أنه كان في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم. واشترك معهم يهود المدينة وقالوا: عمرو عمرت الحرب. الحضرمي حضرت الحرب. وواقد وُقدت الحرب. فلما أكثر الناس في ذلك نزل قوله تعالى:

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم» (٢١٧ – ٢١٨).

أي أن مشركي مكة قد استعظموا قتالا حدث في الشهر الحرام – وصحيح أن القتال في الأشهر الحرم أمر عظيم ولكن أعظم منه ما حدث من المشركين من صدٍّ عن سبيل الله والمسجد الحرام وإيذاء المسلمين حتى اضطروهم للخروج من مكة – وهذا كله أكبر إثما من القتل. كما أن فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه إثم آخر. وحذرت الآيات المؤمنين من الاستجابة لإغراءات الكفار فيرتدوا إلى الكفر. فلما نزلت هذه الآيات فرَّج الله عن أعضاء السرية ما كانوا فيه من غم. وبعثت قريش في فداء الأسيرين: عثمان والحكم. فقال النبي: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا (يعني سعد بن أبي وقاص وعتبه بن مروان) فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. وبعد يومين قدم سعد وعتبة فقبل النبي الفدية عن الأسيرين وأطلقهما. وقد أسلم الحكم بن كيسان وحسن إسلامه وأقام بالمدينة (حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا) وأما عثمان بن عبدالله فعاد إلى مكة ومات بها كافرا.

ثم تعود الآيات **لاستكمال التشريعات المنظمة للمجتمع الإسلامي** بالمدينة والتي كان آخرها رقم ١٦ ص ٤٨٢: فتستأنف بتشريع عن الخمر والميسر:

١٧ – «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.....».

١٨ – تشريع عن مقدار الصدقة:

«ويسألونك ماذا ينفقون. قل العفو (مازاد عن الحاجة) **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. في الدنيا والآخرة».**

١٩ – تشريع عن رعاية اليتامى:

«ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم (أرهقكم) **إن الله عزيز حكيم»** (٢٢٠).

والآيات تحث كافل اليتيم على تنمية أموالهم «إصلاح لهم» وإذا خلطوا مال اليتم بمالهم فلا بأس لأنهم إخوانهم في الدين ومن شأن الأخ أن يخالط أخاه. وإن اضطر لفقره لأن يأكل من مال اليتم فعليه أن يأكل بالحسنى وليس بإسراف أو إفساد ولو شاء الله لضيَّق على المسلمين بتحريم المخالطة.

٢٠ – تشريع بشأن تزوج المؤمنين من المشركات:

«ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا. ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم. أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون» (٢٢١)

٢١ – تشريع عن المحيض:

«ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين» (٢٢٢ – ٢٢٣).

٢٢ – تشريع عن الأيمان:

«ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم (الحلف بغير قصد أو عقد نيَّة) ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» (٢٢٤ – ٢٢٥).

٢٣ – تشريع عن الإيلاء:

وإيلاء الزوج على زوجته كان عادة من عادات العرب قبل الإسلام. فقد كان الزوج – إما في ثورة غضب أو بسبب الكراهية أو لابتزاز أموالها – يقسم بعدم الاتصال الزوجي بها فتصبح محرَّمة عليه لا هي زوجة ولا هي مطلقة والرجل بهذا يضمن بقاءها في بيته تخدمه وتخدم أولاده. فنزلت الآية لتمنع هذا الظلم. فأعطت للزوج فرصة أربعة أشهر له أن يقرر خلالها وفي نهايتها إما أن يفيء إلى زوجته وتعود العلاقة بينهما إلى طبيعتها وإلا فليطلقها.

«للذين يؤلون من نسائهم تربُّص أربعة أشهر فإن فاءوا (رجعوا عن القسم) فإن الله غفور رحيم. وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم» (٢٢٦ – ٢٢٧).

٢٤ – في الطلاق والمطلقات:

«والمطلقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروء (ثلاث حيضات) ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق

الله في أرحامهن إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهنّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم. الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به. تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون. فإن طلقها فلا تحل له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلَّقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن (تمنعوهن بالإكراه) أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (٢٢٨ - ٢٣٢).

ويستفاد من هذه الفقرة أن على المطلقات أن ينتظرن ثلاث حيضات لاستبراء الرحم وفسحة لاحتمال المراجعة ولا يحق لهن أن يخفين ما في أرحامهن من أجنة. والزوج في هذه الفترة أحق بمراجعتهن وردهن على أن يكون القصد الإصلاح وليس بقصد الضرر. وللزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من واجبات وللرجال عليهن درجة لما عليهم من القيام بنفقات الأسرة من زوجة وأولاد. والطلاق مرتان يكون للزوج بعد كل طلقة الحق في أن يمسك زوجته بمراجعتها أو بعقد جديد إن كان الطلاق بائناً بينونة صغرى، ويكون أيضاً القصد الإصلاح أو يكون الطلاق بإحسان. وكما يقول المثل العامي: كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف. ولا يحق للزوج أن يأخذ من مهر الزوجة أو مؤخر صداقها أو الهدايا التي أهداها إياها شيئاً إن كان هو الراغب في الطلاق. أما إذا كانت الزوجة هي الطالبة للطلاق فلا عليها إن ردت له المهر والهدايا تفتدي به نفسها لتحصل على الطلاق. وهذا هو أساس قانون الخُلع الذي أخذ به المشرّعون في السنوات الأخيرة والذي كان معمولاً به أيام النبي والحادثة المشهورة المرأة التي أرادت الانفصال عن زوجها فأمر الرسول بأن ترد لزوجها الصداق الذي دفعه وكان بستاناً وأمر زوجها بتطليقها. أما إمساك الزوج للزوجة وعدم طلاقها فتصبح معلَّقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة تستطيع الزواج بآخر يحقق لها الراحة النفسية والجسدية فهذا ظلم لها وظلم من فاعله لنفسه لمخالفته لأوامر الله. وإذا طُلقت امرأة من زوجها وبانت منه بينونة صغرى وأرادا استئناف الحياة الزوجية فلا يحق لولي أمرها إن يمنعها من ذلك. وقياساً عليه لا يحق للزوج المطلِّق أن يمنع مطلقته من الزواج بغيره.

٢٥ - تشريع الرضاعة:

«والوالدات يرضعهن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له

رزقهن وكسوتهن بالمعروف. لا تكلّف نفس إلا وسعها. لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما. وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعلمون بصير» (٢٣٣).

والآية تضمنت تشريعات وتعليمات بشأن رضاعة الأطفال وتنهى عن تعمد المضارة بسبب الولد من قبل الأب للأم بأن يهضم حقها في نفقتها أو حضانة ولدها كما لا ينبغي إلحاق الضرر بالأب بمطالبته بنفقة فوق طاقته أو يُحرم رؤية ولده.

٢٦ – في الأرامل:

«والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير. ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم. علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا. ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم» (٢٣٤ – ٢٣٥).

وللمرأة التي يموت عنها زوجها أن تنتظر أربعة أشهر هلالية وعشر ليال لاستبراء الرحم وحدادا على الزوج. فإذا انتهت هذه المدة فعلى الوليّ ألا يقف ضد محاولتهن التي يرضاها الشرع ليتزوجن مرة ثانية. ثم يتوجه الخطاب إلى الرجال فيبيح لهم التلويح للأرملة بالرغبة في خطبتها بإشارة لا نُكر فيها ولا فحش. كأن يقول لها: رب راغب فيك. أو ومن يجد مثلك وهكذا ولكن لا يتم الزواج حتى تنقضي العدة. ثم تحذير من مخالفة أوامر الله فالله مطّلع على ما في قلوب العباد.

٢٧ – حكم الطلاق قبل الدخول بالزوجة:

«لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن (أي قبل الدخول بهن) أو تفرضوا لهن فريضة. ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين. وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى. ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعلمون بصير» (٢٣٦ – ٢٣٧).

ولا إثم على الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم قبل أن يمسوهن وقبل أن يُتفق على المهر. فلا مهر ولكن الواجب إعطاؤهن عطية يتمتعن بها لتخفيف آلام الطلاق. ويدفعها الغني بقدر وسعه والفقير بقدر حاله. أما إذا كان قد قدّر للزوجة مهراً فقد وجب لها نصف المهر المقدّر إلا إذا تنازلت عنه الزوجة. كما أنها لا تُعطَى أكثر من النصف أو المهر كله إلا إذا سمحت نفس

الزوج. وسماحة كل من الزوجين أكرم وأرضى عند الله وأليق بأهل التقوى إبقاء على المودة بين الطرفين.

٢٨ – في الصلاة:

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. فإن خفتم فرجالا أو ركبانا، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون» (٢٣٨ – ٢٣٩).

وفي الحديث الشريف الصلاة الوسطى صلاة العصر كذلك يروى قول النبي يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى – صلاة العصر – ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا. ثم صلاها بعد العشاء. وأداء الصلاة واجب لا ينبغى تركه حتى فى حالة الخوف والخطر. وعلى المسلمين أداؤها حتى إذا كانوا راكبين أو ماشين.

٢٩ – في محل إقامة الأرملة:

«والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم» (٢٤٠).

وهذه وصية من الله بأن تقيم الأرملة (التي لا ولد لها) في بيت الزوجية عاما كاملا مواساة لها ولا يحق لأحد أن يخرجها، فإن فضلت الخروج قبل إنقضاء العام فلا إثم على الولي أن يتركها تتصرف في نفسها بما لا ينكره الشرع.

٣٠ – نفقة المتعة:

«وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» (٢٤١ – ٢٤٢).

والآية تقرر أن للنساء اللواتي يُطلقن بعد الدخول الحق في أن يعطين ما يتمتعن به من المال جبراً لخاطرهن. وقد تقررت مؤخرا نفقة المتعة فى القوانين المعمول بها فى المحاكم.

عود إلي موضوع القتال:

وكأنما هو تمهيد لقتال قادم. عادت الآيات تذكر القتال من نقاط خمس:

١ – النكوص عن القتال خوفا من الموت لن يُنجي من الموت يأتي ذلك من خلال قصة قوم خرجوا من ديارهم – وهم ألوف كثيرة – فرارا من الجهاد خشية الموت: فلم يقدهم الفرار شيئا إذ أماتهم الله ثم أحياهم ليعلموا أن الموت حاصل بقتال أو بغير قتال:

«ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. وقاتلوا في سبيل واعلموا أن الله سميع عليم» (٢٤٣ – ٢٤٤).

٢ – ثم يأتى حث على الانفاق فى سبيل الله واعتبار ذلك قرضا عند الله يرده أضعافا مضاعفة، وأسباب الرزق كلها بيد الله:

«من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون» (٢٤٥).

٣ – عبرة من قصة قتال طالوت وداود لجالوت:

وتأتى فى الآيات ٢٤٦ – ٢٥١ قصة القتال الذى دار بين طالوت ملك بنى إسرائيل وجالوت قائد جيش الفلسطينيين واشترك فيه داود وقام بقتل جالوت وقد ذكرنا ذلك كله بتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٩٦ – ٩٨). وتتمثل العبرة من القصة فى:

أ – تشابه موقف هؤلاء النفر من بنى إسرائيل مع موقف المسلمين المهاجرين: **«وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا»**.

ب – تنديد بهؤلاء الذين نكصوا عن الخروج للقتال: **«فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين»** (٢٤٦).

جـ – وجوب إطاعة الجنود لأمر قائدهم إذ نهاهم طالوت عن شرب الماء بكثرة **«فشربوا منه إلا قليلا منهم»**.

د – أن النصر ليس بعدد الجنود: **«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين»** (٢٤٩).

هـ – أن القتال فيه دفع لمظالم المفسدين وهذا فضل من الله على العباد: **«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** (٢٥١ – ٢٥٢).

٤ – قتال أهل الكتاب بعضهم لبعض:

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» (٢٥٣).

والآيات تذكر أن الله قد فضل بعض الرسل على بعض بما أنعم الله عليهم من آياته. فقد كلّم الله موسى وأيد عيسى بروح القدس فأتى بالمعجزات المادية. وكان الواجب على أتباعهم ألا يقتتلوا لأن الدين واحد لكنهم اختلفوا – بعضهم آمن وبعضهم كفر فاقتتلوا.

٥ – حث ثان على الإنفاق فى سبيل الله:

«يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون» (٢٥٤).

وفى الآية أمر بالإنفاق فى صيغة عامة لتشمل وجوه الخير كلها. ولكن ورود هذا الأمر بعد آيات القتال تفيد أن المقصود هو الإنفاق فى تجهيز الجيوش المقاتلة إضافة إلى الزكاة والصدقات التطوعية. والآية تحث على انتهاز فرصة الحياة الدنيا لفعل الخير وإنفاق المال. قبل أن يأتى يوم لا يُستطاع فيه تدارك ما فات من عمل الدنيا **«لا بيع»** وليس من صداقة يرجى نفعها **«ولاخلة»** ولاتقبل شفاعة من أحد لأحد **«ولاشفاعة»**.

آية الكرسى:

«الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سِنة (غفوة) **ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده** (يشق عليه) **حفظهما وهو العلى العظيم»** (٢٥٥).

وتُروى أحاديث كثيرة فى فضل آية الكرسى هذه. فعن أبى هريرة أن النبى قال: لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن. آية الكرسى. وعن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله: يا أبا المنذر. أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم . فقال: الله لا إله إلا هو الحى القيوم. فضرب على صدره وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر. وحديث رواه أبو ذر جاء فيه: قلت يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم؟ قال: آية الكرسى. الله لا إله إلا هو الحى القيوم.

لا إكراه فى الدين:

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله واسع عليم. الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٢٥٦ – ٢٥٧).

ويروى المفسرون فى صدد نزول هاتين الآيتين رجالا أرادوا إكراه أبنائهم على الإسلام. ولكن قوة أسلوب الآيتين تلهم أنهما أعم معنى وقصداً من مناسبة فردية وأنهما تقرران مبدأ قرآنيا عاما.

ثلاث قصص :

وقد وردت هذه القصص الثلاث للعبرة:

١ - قصة الملك الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه وقد ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الثانى ص ٢٥٢.

«ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيمَ فى ربه أن آتاه الله الملك. إذ قال إبراهيم ربىَ الذى يحيى ويميت. قال أنا أحييَ وأميت. قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين» (٢٥٨).

٢ - قصة شخص شك في قدرة الله على بعث البشر وإحيائهم ثانية:

«أو كالذى مر على قرية وهي خاوية علي عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم. قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه (لم يفسد أو يتغير طعمه) **وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها** (نجمع بعضها إلى بعض) **ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير»** (٢٥٩).

٣ - والقصة الثالثة عن إبراهيم إذ سأل ربه كيف يحيي الموتي. وقد ذكرنا هذه القصة فى الجزء الثانى (ص ٢٥٩).

«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى. قال فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك (ضمها إليك لتعرفها ثم أذبحها وقطعها) **ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم»** (٢٦٠).

ثم استؤنف نزول التشريعات المنظمة للمجتمع المدنى وقد توقفنا عند رقم ٣٠ صفحة ٤٨٨:

٣١ - فى الصدقات :

وهذه الفقرة واحدة من أطول الفقرات عن الصدقات وهى تحث المسلمين على إنفاق المال فى سبيل الله عموما والتصدق علي الفقراء خِصِّيصا. وأن تكون الصدقة خالصة لوجه الله لا يخالطها رياء أو مَنٌّ وإلا كانت كالأرض الخصبة التى ينزل عليها مطر غزير فيزيل التراب وتنكشف طبقة صخرية لا تصلح للزراعة. أما الذين يتصدقون لا يبتغون إلا وجه الله ورضاه فمثلهم كبستان «بربوة» أى على مرتفع من الأرض - وقد أثبت العلم أن ذلك يبعده عن المياه الجوفية ويزيد أرضه خصوبة - فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين وإن لم يصبه إلا «الطل» وهو القليل من المطر - أثمر أيضا. ثم تمضي الآيات تضرب المثل بشخص له بستان فيه من كل الثمرات ثم طاف به إعصار فيه نار أى حار جداً وجاف - كناية عن المن والأذى - فاحترق البستان والرجل ضعيف لكبر سنه وأبناؤه صغار فهو فى أقصى حالات البؤس. وكذلك حال من يتصدق ويتبع الصدقة بالمن والأذى فيبطل ثوابها:

«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون

ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم. يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان (صخرة ملساء) **عليه تراب فأصابه وابل** (مطر غزير) **فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌ والله بما تعملون بصير. أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلم تتفكرون. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث** (تقصدوا الردىء) **منه تنفقون واستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** (تأخذوه على كره) **واعلموا أن الله غنى حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم. يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار. إن تبدوا الصدقات فنعمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفِّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير. ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله. وما تنفقوا من خير يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون. للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا. وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم. الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»** (٢٦١ – ٢٧٤).

٣٢ – تحريم الربا:

كان الربا نظاما تجاريا معمولاً به فى الجاهلية. إن اقترض رجل مبلغا من المال لبعض شئونه ردَّه ومعه زيادة يُتفق عليها. وإن كان للرجل على الرجل دين فإذا حل الأجل ولم يقضِ طلب المدين من الدائن تأخير الأجل مقابل زيادة فى الدين. وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت فى مناسبة مطالبة العباس بن عبد المطلب وخالد الوليد وغيرهما بديون لهم بالربا عند بعض الثقفيين. وهي وإن كانت قد نزلت فى مناسبة خاصة إلا أنها تقرر تشريعا يقضى بتحريم الربا. وقيل إن هذه الآيات كانت آخر ما نزل من القرآن. وروى ابن كثير أن عمرا قال: إن آخر ما نزل آية الربا وأن النبي مات ولم يفسِّرها وقال: دعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم أو دعوا الربا والريبة. كما يروى أن النبى قال فى حجة الوداع: إن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلمَون. قضى الله أنه لا ربا وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله. وهذا يؤكد أن آيات الربا كانت فعلا آخر ما نزل من القرآن أو على الأقل من آخر ما نزل منه:

«الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويُربِى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تُبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون. وإن كان ذو عُسرة فنظرة إلى مَيسَرة وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون. واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلَمون» (٢٧٥ - ٢٨١).

والأسلوب قوى وقاطع نافذ **«وذروا ما بقي من الربا»** والتهديد شديد ومخيف **«فأذنوا بحرب من الله ورسوله»** ومن يقوى على ذلك! فلا مناص. ولا بد من ترك الربا وإسقاط ما بقي منه. وسارع المسلمون إلى التنفيذ وأعطوا المدين المعسر أجلا بدون زيادة. بل إن كثيرين منهم تنازلوا عن جزء كبير من الدين امتثالا لقوله تعالى **«وأن تصدقوا خير لكم»**.

٣٣ - تشريع فى توثيق المعاملات التجارية = آية الدين (٢٨٢):

وهل أطول آية في القرآن كله إذ تستغرق صفحة كاملة من المصحف. وهى تعلِّم الناس توثيق معلاماتهم التجارية لتوطيد الحق والعدل فيما بينهم وعدم تركها فوضى وما قد ينتج عن ذلك من مشاكل وخلافات وشحناء. إما للنسيان أو رغبة فى اغتصاب حق. ورُفع الحرج عن عدم كتابة التجارة الحاضرة أى المعاملات الفورية من بيع وشراء للسلع. وكذلك أوردت واجبات الكاتب والشاهد وولى السفيه والعاجز والمريض حيث أن أقوال هؤلاء وتوقيعاتهم غير نافذة. وبالطبع فإن القُصَّر داخلون فى شمول هذه العبارة.

وبهذا تنتهى هذه السلسلة الطويلة من التشريعات التى قُصد بها تنظيم المجتمع الإسلامى الذى تكوَّن فى المدينة والتى بلغت ٣٣ تشريعا بدأت فى ص ٤٧٤. ثم تأتى آية تقرر مطلق ملكية الله تعالى لكل ما فى السموات والأرض وتنبه السامعين إلى إحاطته بكل ما يفعلونه أو يقولونه أو يخفونه فى أنفسهم. وأنهم محاسبون عليها إن شاء غفر وان شاء عذَّب:

«لله ما فى السموات وما فى الأرض. وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن شاء ويعذِّب من يشاء والله على كل شيء قدير» (٢٨٤).

ولعل الآية قصد بها تحذير من يرتكب مخالفة لأي من هذه التشريعات. ولو سرا فإن الله بكل شيى عليم ومحاسبه على أفعاله.

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة بإعلات قوى عن أن المسلمين يؤمنون بالله وملائكته والكتب

والرسل السابقين لا فرق بين رسول ورسول. ثم تقرر أن الله قد رحم أمة محمد فلم يكلفها مالا تطيق ورفع عنها النسيان والخطأ كما جاء في حديث رواه ابن عباس قال: قال رسول الله: وُضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. وآخر جملة في الفقرة فيها وعد بالنصر في صيغة دعاء من المسلمين:

«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون. كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا. ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته علي الذين من قبلنا. ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا علي القوم الكافرين» (٢٨٥ - ٢٨٦).

وفي فضل هاتين الآيتين أحاديث نبوية كثيرة منها حديث عن ابن عباس جاء فيه: بينا رسول الله وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح في السماء ما فتح قط. قال فنزل ملك فأتي النبي فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة. لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته. ومنها حديث رواه ابن مسعود عن النبي جاء فيه: من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه. ومنها حديث رواه أبو ذر جاء فيه: قال رسول الله: أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش.

والإصر الذى علَّم الله المسلمين الدعاء بعدم حمله هو ما احتوته الشريعة الموسوية من تشديد في المأكولات والمحظورات وما اشترط من لباس معين لرجال الدين باختلاف درجاتهم، والحدود والعقوبات والنجاسات المادية والمعنوية وكفارات الأخطاء والخطايا وغير ذلك مما ذكرناه في الجزء الرابع (ص ١٠٢٠ - ١٠٣٥). وقد خفف القرآن عن أمة محمد كثيراً من هذه القيود ودعا أهل الكتاب للإيمان بالنبي واتباعه ليخفف عنهم **«ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»**.

وبهذا تكون قد انتهت سورة البقرة. وهي أطول سور القرآن الكريم وأولى السور التي نزلت بالمدينة وقد احتوت - علي طولها أربعة - موضوعات رئيسية:

١ - دعوة بني إسرائيل - أي يهود المدينة - إلى الإسلام.

٢ - تحويل القبلة.

٣ - تشريعات منظمة للمجتمع الإسلامي احتوت ٣٣ بندا.

٤ - موضوع القتال. وقد تدرج القرآن فيه بلطف بدءاً من الإذن به وتقديم المبرر له **«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»** (الآية ٢٨ من سورة الحج ص ٤٥٨). فأرسل النبي السرايا الأولى

(ص ٤٥٩). ثم اشترك بنفسه فى أربع غزوات (ص ٤٦٧). ولم يكن في هذه السرايا والغزوات إلا مناوشات لم تصل إلى حد قتال حقيقى. ثم نزلت الآيات تحث على الصبر وإعلان أن من يقتلون فى سبيل الله هم فى الحقيقة أحياء عند ربهم (الآية ١٥٤ ص ٤٧٢). ثم إعلان فى الآية ٢١٦ (ص ٤٨٢): **«كتب عليكم القتال وهو كره لكم»** أى أن القتال أمر مكتوب أى حتما سيقع وعلى المؤمنين أن يخوضوا غماره. ثم بيان أن النكوص عن الخروج للقتال لا يمنع الموت. وذلك من خلال قصة القوم الذين لم يخرجوا خوفا من الموت فأماتهم الله (الآية ٢٤٣ ص ٤٨٨) ثم تأتى قصة طالوت وداود وجالوت والعبر التي احتوتها (ص ٤٨٩) من وجوب طاعة القائد وأن النصر ليس بالكثرة العددية **«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين»** (آية ٢٤٩). ثم الحث على الإنفاق فى سبيل الله **«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة...»** (الآية ٢٦١ ص ٤٩١).

وبهذا تم شحذ الهمم وأصبح المسلمون مهيئين لخوض معركة كبيرة مع قريش.

موقعة بــدر الكبــرى

نحن الآن فى أواخر شعبان من السنة الثانية للهجرة. وقد أدركت قريش أن تجارتها فى خطر. صحيح أنه للآن قد نجحت قوافلها العائدة من الشام – فى الإفلات من أيدى المسلمين ولكن من يدرى ما قد يحدث فى المستقبل. وبدأت قريش تتحيَّن فرصة للانقضاض على المسلمين فى المدينة للقضاء عليهم وإعادة الأمان لقوافلهم. وفى نفس الوقت كان المسلمون يريدون الإيقاع بقافلة كبيرة لقريش تعوِّضهم عن دورهم وأموالهم التى تركوها وراءهم فى مكة حين اضطرتهم قريش للهجرة.

سعد بن معاذ هو أحد الأنصار. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٣٤) أن النبى آخى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح. وخرج سعد معتمرا فنزل على أمية بن خلف لصداقة حميمة بينهما. وخرجا ليطوفا بالبيت فلقيهما أبو جهل. فقال أبوجهل لسعد: أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصبأة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم. أما والله لولا أنك مع أمية ما رجعت إلى أهلك سالما. فقال له سعد بصوت عالٍ. أما والله لئن منعتنى لأمنعنك طريقك إلى الشام والله لقد سمعت رسول الله يقول إنهم (أى المسلمون) قاتلوك.

وفى المدينة كان رسول الله قد سمع بأن سفيان بن حرب مقبل من الشام فى قافلة عظيمة لقريش فيها ألف بعير تحمل أموالا طائلة وتجارة كبيرة يحرسها أربعون رجلا فقط. وكانت العير لكل رجالات قريش إلا حويطب بن عبدالعزى (ولهذا تخلف عن معركة بدر). فقال النبى للمسلمين. هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

وبدأ الناس يتجهزون. وخفَّ بعضهم وثقل آخرون وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله يلقى

حربا قياسا على ما سبق من سرايا وغزوات. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسأل من لقي من الركبان عن تحركات المسلمين تخوُّفاً على القافلة وما فيها من أموال الناس. وعلم من بعض الركبان أن «محمدا» قد استنفر أصحابه له ولعيره فأخذ حذره واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره أن يسرع إلى قريش ليخبرهم أن «محمدا» قد عرض له فى أصحابه ويستنفرهم لحماية أموالهم.

ننتقل إلى مكة - وقبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال - رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها. ويقول ابن اسحق إنها بعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وتخوَّفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم عليَّ ما أحدِّثك به. فسألها عما رأت فقالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح (مكان فى شمال مكة) ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم فى ثلاث. فأرى الناس اجتمعوا إليه. ثم دخل المسجد والناس يتبعونه. فبينما هم حوله اعتلي به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث. ثم اعتلى به بعيره على رأس أبى قبيس (جبل أبى قبيس يقع في شمال شرق مكة) فصرخ بمثلها ثم أخذ بصخرة وقذفها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها قطعة. قال العباس والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد. وخرج العباس فلقى الوليد بن عتبة. وكان صديقا له فلم يتمالك نفسه حتى ذكرها له وطلب منه أن يكتمها. ولكن الوليد ذكرها لابنه عتبة وفشا الحديث حتى تحدثت به قريش. وغدا العباس ليطوف بالبيت. وأبو جهل ابن هشام فى رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة. فلما رآه أبو جهل ذهب إليه وقال له: يا بنى عبد المطلب. متى حدثت فيكم هذه النبيَّة. فسأله وماذاك؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت عاتكة. قال وما رأت؟ قال أبو جهل. يا بنى عبد المطلب. أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى يتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فسنتربَّص بكم هذه الثلاث. فإن يك حقا ما تقول فسيكون. وإن تمضى الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب.

وفى اليوم الثالث وصل ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة. أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث.

فتجهز الناس سراعا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى - يقصدون سرية عبدالله بن جحش والتي قتل فيها عمرو بن الحضرمى (ص ٤٨٢) - كلا والله ليعلمن غير ذلك. ولكن الناس خافوا مما تعنيه بقية الرؤيا. فكان الناس بين رجلين: إما خارج بنفسه للقتال وإما باعث مكانه رجلا لحماية أموالهم ولم يتخلف أحد من أشراف قريش. إلا أن

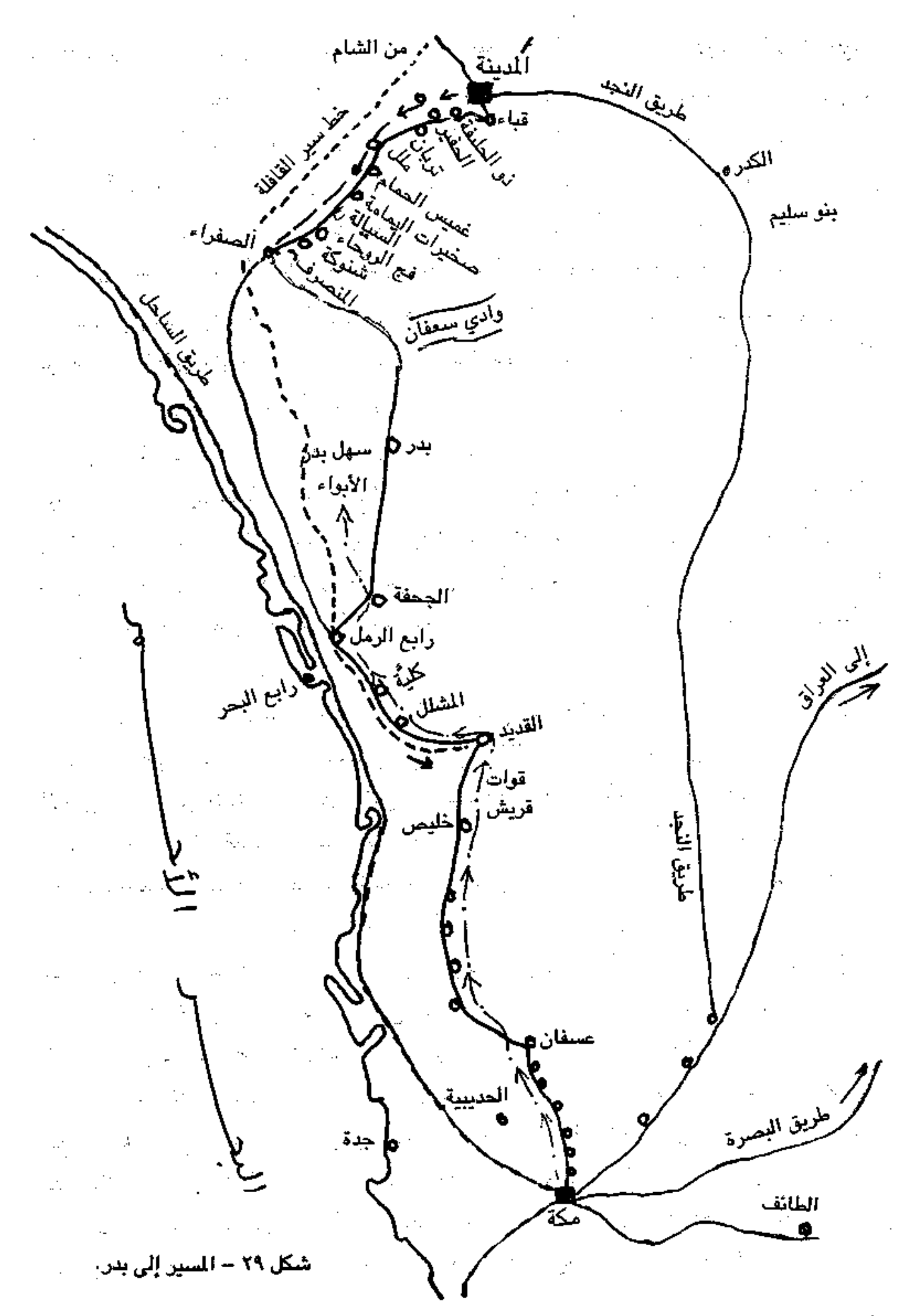
أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة بـ ٤٠٠٠ درهم كانت له عليه.

وتذكر أميه بن خلف ما قاله سعد بن معاذ منذ شهر عندما كان يطوف بالبيت من أن المسلمين قاتلوه (ص ٤٩٥) فانتوى القعود. فأتاه أبو جهل وقال له: إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك. ولكن أمية بقي على موقفه. فأتاه عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين قومه بمجمرة فيها نار وبخور ووضعها بين يديه وقال له: استجمر فإنما أنت من النساء. فتحمَّس أمية بن خلف وقام وتجهز وخرج مع الناس.

وقال ابن اسحق: ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر من عداوة وخافوا أن ينتهز بنو بكر الفرصة ويأتوهم من خلفهم. ولكن أحد أشراف بني كنانة جاء وطمأنهم من ناحية بنى بكر فتشجعوا وساروا لحماية قافلتهم.

خرجتُ قريش فى ٩٥٠ مقاتلا معهم ٢٠٠ فرس حسب قول ابن اسحق (٦٠ فرسا حسب قول آخرين) ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين وأخذوا معهم الإبل والزاد. وكان كل زعيم من زعماء قريش يذبح من إبله ليطعم الجميع يوما. وأول من نحر لهم أبو جهل. نحر عشرا من الإبل. وفى اليوم الثانى نحر لهم أمية بن خلف تسعا. ثم سهيل بن عمرو عشرا. ومالوا من قديد (شكل ٢٩) إلى طريق الساحل إلى رابغ وأقاموا بها يوما ثم ساروا إلى الجحفة. ثم إلى الأبواء.

أما رسول الله فقد استعمل ابن أم كلثوم علي الصلاة بالناس وردَّ أبا لبانة من الروحاء واستعمله على المدينة. وكان من خرج مع النبى ٣١٥ رجلا منهم ٨٤ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج. وسار النبى من المدينة إلى العقيق ثم ذى الخليفة ثم أولات الجيش ثم تربان ثم ملل ثم غميس الحمام ثم صخيرات اليمامة ثم السيالة ثم فجج الروحاء ثم شنوكة ثم سجسج كل ذلك على الطريق المعروف من المدينة الى مكة. حتى إذا وصل المنصرف ترك طريق مكة وسلك ذات اليمين (شكل ٣٠) إلى النازية ثم قطع وادى رُحقان بالعرض بين النازية ومضيق الصفراء. ومن هناك أرسل بسبس بن عمر الجهنى وعدى بن أبى الزغباء يتجَّسسان الأخبار عن عير قريش وأبى سفيان وسار النبى حتي نزل بوادي ذفران ليستريح. فأتاه الخبر عن خروج قريش لحماية قافلتهم. وكان أبو سفيان قد اتخذ طريقا جانبيا ونجا بالقافلة. واستشار النبى الناس. فقام أبو بكر الصديق وأيَّد النبي وكذلك فعل عمر بن الخطاب ثم قام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله. فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (قالوا مكان فى أقصى اليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيرا ودعا له.



شكل ٢٩ – المسير إلى بدر.

ثم قال رسول الله موليًا وجهه نحو الأنصار: أشيروا عليَّ أيها الناس. وذلك أنهم عندما بايعوه بالعقبة بايعوه على حمايته فتخوَّف النبى ألاَّ ترى الأنصار نصره إلا ممن دهمه بالمدينة وأن ليس عليهم السير معه إلى حرب خارج المدينة. فقال له سعد بن معاذ. والله كأنك تريدنا يا رسول الله. قال أجل. قال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك. فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنا لصُبر فى الحرب. صُدُق عند اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر على بركة الله. فسُرَّ النبى بقول سعد ثم قال للجميع سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

كان خوض المعركة على درجة كبيرة من الأهمية إذ لو تراجع المسلمون ليحتموا بالمدينة لكان ذلك كسبا معنويا لقريش يشجعهم على التقدم ومحاصرة المدينة ثم اقتحامها ولا يستبعد أن يتحالف اليهود مع قريش فيعمدون إلى ضرب المسلمين من الخلف. فكان لابد من خوض المعركة خارج المدينة.

يقول ابن اسحق. ثم ارتحل رسول الله من رحقان فسلك على ثنايا الأصافر ثم إلى قرية الدابة ثم الحنان ثم عند العدوة الدنيا شمال كثيب يحجبها عن سهل بدر. فلقوا شيخا من العرب فسألوه عن قريش. فقال: لقد بلغنى أنهم خرجوا يوم كذا فإذا كان الذى أخبرنى صادقا فهم الآن عند خليص.

كانت قافلة أبى سفيان قادمة من الشام ولتجنب المرور على المدينة فإنه سلك طريقا جانبيا يقرب من الساحل. ولم يكن به آبار. فكان لابد أن يستقوا من ماء بدر. وعند المنصرف أخذ أبو سفيان طريقا غير مطروق (شكل ٣٠) وقاد القافلة وأناخها خلف كثيب من الرمل جنوب ماء بدر. وكان النبى قد أرسل بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء ليستطلعا أخبار القافلة. فأناخا قريبا من ماء بدر وأخذا دلوا يستقيان فيه. وسمع بسبس وعمرو جاريتين تتحادثان وفهما من حديثهما أن العير قد تصل بدرا بعد يوم أو يومين. ولعل الجاريتين كانتا مدسوستين إذ أن القافلة كانت جنوب ماء بدر كما ذكرنا آنفا. وعاد بسبس وعمرو إلى رسول الله وأخبراه بما سمعا من الجاريتين. وكان أبو سفيان – بعد انصرافهما – قد تقدم نحو البئر وكان عليه وقتئذ مجدى بن عمرو الجهنى فسأله أبوسفيان: هل أحسست أحدا؟ قال ما رأيت أحدا أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل واستقيا ثم انطلقا. فأتى أبوسفيان إلى حيث أناخا وأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّه فإذا فيه النوى فقال هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه وحثهم على الإسراع بترك البئر والمضى بالقافلة.

كانت قريش فى سيرها من مكة قد وصلت الجحفة ونزلوا بها للراحة. ورأى جهيم بن

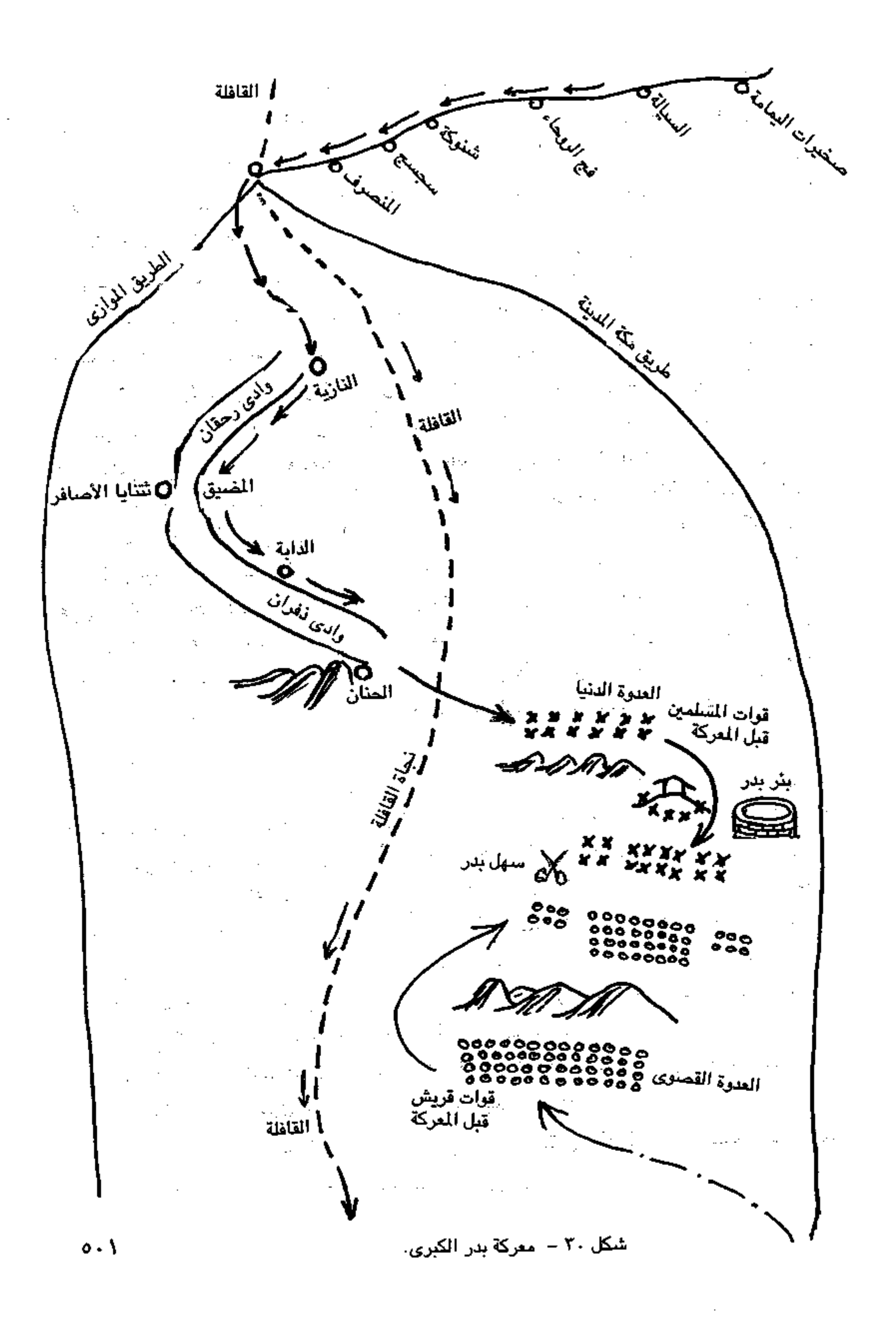
الصلت بن عبدالمطلب فى رؤيا أن رجلا قد أقبل على فرس ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وفلان وفلان ثم ضرب بالسيف عنق بعيره ثم أرسله فى المعسكر فما بقى خباء إلا أصابه رذاذ من دمه. فبلغت أبا جهل فقال: هذا أيضا نبى آخر من بنى المطلب. سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا.

ولما رأى أبو سيفان أنه قد نجا بالبعير أرسل إلى قريش يقول: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام. والله لا نرجع حتى نردَ بدراً - وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثا ننحر الإبل ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا.

وكان في القافلة أموال لبني زهرة فلما رأى رجال بنى زهرة أن تجارتهم قد نجت رجعوا، وكان مع رجال قريش طالب بن أبى طالب ومعه نفر من عشيرته فقال لهم باقي الرجال: والله لقد عرفنا يابنى هاشم. - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد. أى أنهم لن يخلصوا فى القتال. فرجع طالب بن أبى طالب وصحبه إلى مكة مع من رجع. واستمر رجال قريش فى السير من الجحفة حتى نزلوا بالعدوة القصوى جنوب بدر خلف كثيب يحجبه عن سهل بدر. وكان النبى ومن معه قد نزلوا بالعدوة الدنيا شمال بدر.

وفى المساء بعث النبى عليٌ بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر فأمسكوا غلاما لبنى الحجاج اسمه أسلم. وغلاما لبنى العاص بن سعيد اسمه عريض فأتوا بهما إلى المعسكر وسألوها عن أبى سفيان والقافلة فقالا نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء. فضربوها وأعادوا سؤالهما فقالا نحن لأبى سفيان فكفوا عن ضربهما. وكان النبى يصلي فلما فرغ من صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله إنهما لقريش. ثم سألهما عن قريش. قالا وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى. وسألهم كم ينحرون كل يوم؟ قالا يوما تسعا ويوما عشرا. ولما كان البعير يطعم مائة من الرجال قال رسول الله . القوم بين التسعمائة والألف. ثم سألهما: فمن فيهم من أشراف مكة؟ قالا عتبه بن أبى ربيعة وأبو البحترى بن هشام وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسمًى عشرة آخرين من أشراف قريش فقال النبى: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وسار النبى حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به فقام إليه الحباب بن منذر بن الجموح وقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال النبى: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل. فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه ثم نبنى عليه حوضا. ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال النبى. لقد أشرت بالرأى وفعل. كما أشار الحباب.



شكل ٣٠ - معركة بدر الكبرى.

ثم إن سعد بن معاذ قال: يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعدُّ عنده ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءك من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلَّفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ودعا له بخير. فبنوا العريش.

وكانت قريش قد بعثت عمير بن وهب الجمحي وقالوا له احزر لنا أصحاب محمد. فجال بفرسه حول معسكر المسلمين ثم رجع إليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون. ولكن يا معشر قريش رأيت البلايا تحمل المنايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم. فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فانظروا رأيكم. فلما سمع حكيم بن حزام ذلك. مشى إلى عتبة بن ربيعة وقال له: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دية الحضرميّ وهو حليفك فتحمَّل بديته ويرجع الناس. فقام عتبة خطيبا وقال يا معشر قريش. إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه: قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم. وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرِّضوا منه ما تريدون. فرد أبو جهل وقال. والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وإن عتبة رأى ابنه بين أصحاب محمد فخافكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي وقال: قد رأيت ثأرك بعينك فقم وخذ بثأر أخيك. فقام عامر وصرخ: واعمراه. واعمراه فتحمَّس القوم للقتال ولم يرجعوا كما أشار حكيم بن حزام.

وكان النبى فى اليوم السابق للمعركة قد قال لأصحابه: إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لاحاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله. ومن لقى أبا البحترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله. ومن لقى العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله فإنه إنما خرج مستكرها. فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وإخواننا ونترك العباس. والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف. فبلغت رسول الله. ولا يخفى ما فى هذا الرد من تطاول على مقام النبوة فقال عمر. يا رسول الله دعنى أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق. وبلغ أبا حذيفة استنكار النبي لما قال. ويقول عن نفسه: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا إلاَّ أن تكفِّرها عنى الشهادة. وقد قتل أبو حذيفة يوم اليمامة شهيدا. والحقيقة أن العباس كان بقلبه مع المسلمين وكان لوجوده بمكة فائدة كبرى فقد كان بمثابة عين لرسول الله يخبره بما تنوى قريش فعله وبما تدبِّره.

كما يروى أن رسول الله قد تفقد سهل بدر - الذى ستدور المعركة على أرضه - فى اليوم السابق للمعركة وحدد لأصحابه مواضع مصارع رؤوس المشركين.

وجاء يوم المعركة، يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة، وراح رسول الله يَصُفُّ أصحابه صفوفا كما فى الصلاة وفي يده عصا يعدِّل بها القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو متقدم عن الصف فضربه على بطنه بالعصا وقال: استَوِ ياسواد. فقال: يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى (أى آخذ حقى منك). فكشف رسول الله عن بطنه وقال: استقد. فقبَّل سواد بطن رسول الله فقال له: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدى جلدك. فدعا له الرسول بخير. وبعد أن عدَّل النبى الصفوف رجع إلى العريش، يكثر الابتهال والتضرع ويقول فيما يدعو به ربه: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعدها فى الأرض. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تُحادُّك وتكذب رسولك. اللهم أحنهم (أى أهلكهم) الغداة. وجعل يهتف ويقول: اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم نصرك. ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه وأبو بكر يقول له: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.

المعركـــة :

فى صبيحة يوم المعركة تواجه الفريقان، وكانت قوات الجانبيين كما فى شكل ٣٠ ص ٥٠١:

أ – **تشكيل فريق المسلمين:** كان صفوفا متراصة أشبه بالصفوف وقت الصلاة وقسم الرسول الرجال إلى ثلاث كتائب، ولم يكن لدى المسلمين أى احتياطيات سوى الفصيلة التى تحرس مركز القيادة وهو عريش رسول الله والذى كان مقاما على ربوة تشرف على ميدان المعركة.

ب – **تشكيل قوات قريش:** قسم المشركون قواتهم إلى قلب من المشاة وجناحين: ميمنة وميسرة قوام كل منهما حوالى ١٠٠ فارس.

وكانت الخطة التى وضعها النبى وأمر رجاله بتنفيذها هى عدم البدء بالهجوم إنما الثبات وعدم رمى السهام إلا بعد أن تدنو قوات العدو وتصبح على مسافة قريبة فتنهال عليهم السهام بكثافة عالية فتصيب منهم أكبر عدد ممكن قبل الالتحام الفعلى. كما أن بقاء المسلمين فى المكان الذى اختاروه كان لا يسمح بتطويقهم من الأجناب وبذلك تنعدم ميزة فرسان المشركين.

وكانت العادة تلك الأيام – قبل أن تبدأ المعركة الفعلية بين أى جيشين – أن يتبارز قائد أو أكثر من كل جانب مع مناظر له من الجانب الآخر. وكانت الروح المعنوية للفريق الفائز فى هذه المبارزات ترتفع كثيرا مما يكون له أثر إيجابى على أدائه فى المعركة ذاتها. وكان المتبارزون يحرصون على أن يكون خصومهم من نفس طبقتهم الاجتماعية وعلى نفس كفاءتهم العسكرية إذ يرونه حطا من كرامتهم أن يبارز شريف واحدا من العامة.

.. وبرز من جانب المشركين عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد. فقالوا من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار. وأراد الرسول أن يكون المتبارزون من المهاجرين فقال: قم يا حمزة وقم ياعليّ وقم ياعبيدة بن الحارث بن المطلب. وانتهت المبارزة بقتل فرسان المشركين الثلاثة فكانت بداية سيئة لقريش إذ فقدت ثلاثة من خيرة رجالها. وأصيب عبيدة بن الحارث. وقد مات بعد عدة أيام متأثرا بجراحه.

ثم بدأ المشركون بالهجوم فقابلهم المسلمون برشقات كثيفة من السهام وهم ثابتون فى مواقعهم. فألحقوا بالمشركين خسائر فادحة فكانوا يرتدّون للخلف ثم يعيدون الهجوم دون أن يتزحزح المسلمون عن مواقعهم. وأخذ رسول الله كفا من الحصى بيده ثم خرج فاستقبل القوم وقال: شاهت الوجوه ثم نفخ المشركين بها ثم قال لأصحابه احملوا. والتحم الجمعان. وبعد قتال مرير اشترك فيه الرسول وأبو بكر والجماعة التى حول العريش بدأت علامات الفوضى تظهر فى صفوف المشركين. وقال النبى: أبشر يا أبا بكر. هذا جبريل معتجز بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع. أتاك نصر الله الذى وعدته. واقتربت المعركة من نهايتها وعمد بعض القرشيين إلى الفرار. وحاول أبو جهل أن يصمد هو ونفر من رجاله أمام المسلمين ولكنه قتل وقتل معه عدد كبير من المشركين. وتفرق الباقون وولوا الأدبار. وما جاء المساء حتى كانت المعركة قد انتهت بنصر مبين للمسلمين. فلم يقتل منهم غير ١٤ شهيدا: ٦ من المهاجرين و ٨ من الأنصار في حين خسرت قريش ٧٠ قتيلا وأسر ٧٠ آخرين.

وبقى المسلمون – كعادة المنتصر – في بدر بعد المعركة ثلاثة أيام فى حين انسحب القرشيون عائدين إلى مكة يجرّون أذيال الهزيمة. وكانت معركة بدر نقطة تحول هامة فى تاريخ الدعوة الإسلامية فقد ثبتت أقدام المسلمين وانكسرت شوكة قريش.

مقتل أبى البخترى بن هشام: قلنا فى الصفحة السابقة إن رسول الله نهى عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله وهو بمكة. كان لا يؤذيه ولا يقول فيه قولا يكرهه. وكان ممن قاموا فى نقض الصحيفة (ص ١٩١). وفى المعركة لقيه المجذَّر بن زياد حليف الأنصار وحاول جاهداً أن يأسره ولكنه كان يقاتله فقتله ثم أتى رسول الله وقال: والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى فقاتلته فقتلته.

مقتل أمية بن خلف: كان أمية بن خلف من أشد الكفار على المسلمين وكان هو الذى يعذِّب بلالا فى مكة ونجا من الموت فى المعركة. وفى اليوم التالى للمعركة – وقبل أن تبدأ قريش مسيرة العودة – أبصره بلال وهو يمشى فى الجبل منفردا فصاح: رأس الكفر أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا وهجم عليه وقتله.

مقتل أبى جهل: وهو عمرو أبو الحكم بن هشام المخزومى. كان رجال من قريش يلتفون حول أبى جهل وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه.. ويقول معاذ بن عمرو بن الجموح. فلما

سمعتها جعلته من شأني وقصدت نحوه وتحينت فرصة فضربته ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه. فرد ابنه عكرمة وضرب معاذ على عاتقه فطرح يده. ثم إن أبا جهل استمر فى القتال حتى قتله شابان من الأنصار.

أما قتادة بن النعمان الأنصارى فكانت عينه قد أصيب يوم بدر حتى خرجت على وجنته وأشاروا بقطعها. فسألوا رسول الله فمنعهم. ثم وضع كفَّه على العين وأعادها مكانها والتأمت بإذن الله. وقالوا فكانت أحسن عينيه.

وفى اليوم التالى للمعركة تفقد رسول الله أرض المعركة وتعرَّف على من قتلوا من المشركين ثم أمر بطرحهم في قليب عبارة عن بئر جافة مهجورة وأهيل التراب عليهم. إلا أمية بن خلف إذ كان قد انتفخ فى درعه فلم يستطيعوا تخليصها منه للانتفاع بها كما أن لحمه كان قد بدأ يتقطع فتركوه مكانه وغيبوه بالتراب والحجارة.

وفى اليوم الثالث. قبل عودته إلى المدينة وقف النبى على ناقته على حافة القليب وقال: يا أهل القليب. وبعض كتب السيرة تزيد فتذكر أنه نادى على بعض الرجال بأسمائهم فقال: يا أمية بمن خلف. يا أبا جهل بن هشام. ياعتبة بن ربيعة. يا شيبة بن ربيعة. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا. فإني قد وجدت ما وعدنى ربى حقا. فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتنادى قوما بعد ثلاث وقد جُيِّفوا؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

وقيل إن النبى نظر إلى وجه أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعه فلحظ فيه نظرة حزن وأسى على مقتل أبيه. فقال له يا حذيفة. لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله ما دخلنى شيئ فى أبى ولا فى مصرعه ولكنى كنت أعرف عنه رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيت أنه قد مات على الكفر أحزنني ذلك. فدعا له الرسول بخير.

الموقف من الأسرى.

كان الأسرى ٧٠ رجلا فقال الرسول لأصحابه: ما تقولون فى هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله. كذبوك وأخرجوك فمر بهم فاضرب أعناقهم. فقال النبى: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن. وإن الله ليشد رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: **«فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم»** وتضيف بعض كتب السيرة أنه قال أيضا. ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: **«إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»** ولكن هذه الآية جاءت فى سورة المائدة (الآية ١١٨) ولم

تكن سورة المائدة قد نزلت بعد والمرجَّح أنها زيادة من بعض كتاب السيرة. وقال النبى وإن مثلك يا عمر مثل نوح: قال «**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّارا**» (٢٦ - نوح). وإن مثلك يا عمر مثل موسى. قال «**ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**» (٨٨ - يونس).

وأخذ النبى برأى أبى بكر وقَبِل الفداء فى الأسرى. وقال أبو داود إن النبى جعل فداء الأسير ٤٠٠ درهم. وكان العباس قد أسره رجل من الأنصار فأرسل رسول الله عمر بن الخطاب إلى آسره ليحضره. وفى الطريق قال له عمر: يا عباس أسلم (فيطلق سراحه دون فداء). فوالله لئن تسلم أحب إلىَّ من أن يسلم الخطاب (أبو عمر). وما ذلك إلا لأنى رأيت رسول الله يعجبه إسلامك. ولكن العباس رفض. وسنرى فيما بعد (ص ٥١٧) أنه دفع فداء نفسه وفداء ابن أخيه وفداء حليفه.

العودة إلى المدينة:

قلنا إن العادة كانت فى تلك الأيام أن يبقى المنتصر ثلاثة أيام فى أرض المعركة بينما ينسحب المنهزم إلى دياره. ولما كانت معركة بدر قد وقعت يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة فيكون اليوم الثالث هو الإثنين ٢٠ رمضان وفيه غادر النبى بدراً عائدا إلى المدينة ومعه الأسرى والغنائم الكثيرة. وقد بعث رجلين إلى المدينة ليبشرا بالفتح والنصر والظفر هما عبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة. ولما كان النبى عند مضيق الصفراء أمر بضرب عنق أسيرين هما: النضر بن الحارث الذى ضرب على بن أبى طالب عنقه وعقبة بن معيط لشدة عداوتهما لرسول الله وإيذائهما له إيذاء فيها خسة ونذالة. ويقال لما أمر النبي بقتل عقبة قال له عقبة: أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟ قال نعم. ثم التفت إلى أصحابه وقال أتدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ووضع رجله على عنقى وغمزها (أى ضغطها بشدة) فما رفعها حتى ظننت أن عينىَّ ستندران. وجاء مرة أخرى بسلا شاة (أحشائها) فألقاه على رأسى وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى. ويقال إن عليا بن أبى طالب هو الذى قتل عقبة أيضا وقال ابن هشام: كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفرا وعنادا وبغيا وحسداً وهجاءً للإسلام وأهله.

وفاة رقية:

كانت رقية بنت النبى قد مرضت قبل خروج النبى لوقعة بدر بعدة أيام فأمر النبى زوجها عثمان بن عفان أن يتخلف ليرعاها وضرب له بسهمه فى غنائم بدر وأبقى معه أسامة بن زيد. ولكن القدر لم يمهلها فتوفيت ودفنت بالبقيع.

فرح المدينة بالنصر:

ووصل البشيران ساعات قليلة بعد أن ماتت رقية، وراح كل واحد منهما ينادى، ذلك فى أعلى المدينة والآخر فى أسفلها: أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسرهم. وراحا يذكران أسماء من قتل من أئمة الكفر والناس لا يصدِّقون ويقولون إنهما مارجعا إلا هاربين ويهذيان بالنصر من شدة الخوف. وخرج الأنصار إلى مشارف المدينة ينظرون فإذا برسول الله والمسلمين قادمين ومعهم الأسرى والغنائم. فقابله أسيد بن الحضير. وقال له يا رسول الله. الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك. والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوا ولكن ظننت أنها عير. ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت. فقال له النبى: صدقت.

ثم علم النبى بوفاة ابنته رقية ودفنها بالبقيع فذهب إلى قبرها ومعه فاطمة ابنته وعدد من المسلمين وارتمت فاطمة على قبر أختها تبكيها وارتفع نحيب النساء فزجرهن عمر بن الخطاب ولكن الرسول كفَّه قائلا: مهما يكن من العين والقلب فمن الله والرحمن. ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان. ودعا الرسول لابنته المتوفاة ثم انصرف. والمعنى نهي عن لطم الخدود وشق الجيوب والنواح والعويل. أما البكاء بدمع وحزن القلب فلا بأس به.

فى المغانم:

كان أصحاب رسول الله يوم بدر وبعد أن لاحت تباشير النصر كالآتى:-

١ - فرقة سارت وراء المشركين يقتلون منهم ويأسرون.

٢ - فرقة راحت تجمع الغنائم من ساحة القتال.

٣ - فرقة أحاطت بالعريش وفيه رسول الله مخافة أن يرجع أحد من المشركين إليه. وتنازع الرجال حول تقسيم الغنائم التى جمعت. فالذين جمعوها ادعوا أنها من نصيبهم قائلين نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد نصيب فيها. وقال الذين خرجوا فى طلب العدو ومطاردته لستم بأحق بها منا. نحن نفينا عنها العدو فأمكنكم أن تجمعوها. وقال الذين أحاطوا برسول الله: لستم بأحق بها. نحن أحطنا برسول الله وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به. واختلفوا اختلافا كبيرا هدَّد بحدوث صدع فى صفوف المسلمين وكادت تحدث فتنة فبلغ الرسول اختلافهم. ولعل بعضهم سأله حلا لهذا الخلاف فكان أن نزلت سورة الأنفال.

سورة الأنفال:

«يسألونك عن الأنفال. قل الأنفال لله والرسول. فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين» (١).

وهكذا أرجع الله تقسيم الغنائم إلى رسول الله وهو يعمل بأمر ربه فيها. وكما قال عبادة بن الصامت: لما اشتد الخلاف حول توزيع الغنائم نزلت سورة الأنفال فنزع الله النفل من بين أيدينا فجعله إلى رسول الله فقسمه بين المسلمين على السواء.

ولا شك أن نزع الغنائم من المحاربين كان أمرا شديدا عليهم فعهدهم فى كل ما مرُّوا به من حروب في الجاهلية أن للمحارب ما غنم. وكان يُخشى أن يترك هذا الأمر في نفوس مَن نزعت منهم الغنائم شيئا من عدم الرضا فجاء حث على تقوى الله وأمر بطاعة الله والرسول. ثم ركزت بقية السورة على النقاط التالية:

١ - وصف المؤمنين بأنهم هم الذين تخشع قلوبهم لذكر الله فيطيعونه.

٢ - بيان أن الله هو الذى دبَّر لوقوع المعركة.

٣ - بيان تأييد الله لهم بالملائكة.

٤ - إعلان أن النصر كان من عند الله.

٥ - دعوة ثانية بأن يطيعوا الله ورسوله وأن يتقوا الفتنة والخلاف.

٦ - نهى عن خيانة الله ورسوله بإخفاء جزء من الغنائم.

٧ - رسالة إلى كفار قريش بعد المعركة.

٨ - تشريع الخمس فى الغنائم.

١ - وصف المؤمنين:

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا. لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» (٢ - ٤).

والآيات تصف المؤمنين بالخشوع والوجل إذا ذكر الله وجاءتهم أوامر من عنده. ويزدادون إيمانا بطاعته ويتوكلون عليه. ولعل ذكر **«ومما رزقناهم ينفقون»** قصد به أن الأثوب هو الإنفاق والتصدق وليس التكالب على الغنائم.

٢ - ذكر تدبير الله لوقوع المعركة:

«كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحِق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (٥ - ٨).

فى هذه الآيات يبين الله للمسلمين أنه هو الذى دبَّر ظروف المعركة. إذ ألهم نبيَّه الخروج لاعتراض قافلة قريش. وكان المسلمون يودون أن تكون القافلة من نصيبهم لأن الانتصار على حراسها القلائل أمر سهل والغنيمة كبيرة. فلما عرف المسلمون أن القافلة قد نجت وأن جيشا كبيرا قد خرج من مكة قاصدا حربهم كان رأى البعض هو الاشتباك مع العدو. ولكن البعض

الآخر اقترح العودة وعدم الاشتباك وأخذوا يجادلون ويظهرون كراهيتهم للحرب وتهيبهم من نتائجها. ولاشك أن هذا كان رأيا خاطئا كما ذكرنا من قبل إذ لو رجعوا فما هم بمأمن من أن يقتحم جيش المشركين المدينة ويقاتلهم ولا يستبعد أن ينضم اليهود إلى قريش لكراهيتهم المسلمين. كانت نظرة المشيرين بالرجوع نظرة ضيقة إذ أرادوا أولا القافلة ثم لما أفلتت نشدوا السلامة. إلا أن الله كان يريد إعلاء الحق بإلحاق هزيمة بقريش لذلك كان النصُّ على أن هدف الحرب كان هو إحقاق وإبطال الباطل..

٣ – بيان أن الملائكة حاربت إلى جانب المسلمين:

«إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مُمِدُّكم بألف من الملائكة مردفين (متتابعين). **وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يُغشيكم النعاس أَمَنَةً منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثَبِّتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار»** (٩ – ١٤).

ذلك أن المسلمين لما علموا أن الكفار يبلغون ثلاثة أمثالهم عددا ومنهم ٢٠٠ فارس فى حين أن المسلمين ليس لديهم إلا فارس واحد – داخلهم الخوف وراحوا يستغيثون الله قبل المعركة. وبدأت وساوس الشيطان تدخل إلى قلوب فريق منهم. فألقى الله عليهم النعاس حتى لا يستمروا فى قلقهم ووساوسهم. فكان فى النعاس راحة لهم وتطمينا لهم. كما أنزل عليهم مطرا خفيفا ليستقوا ويثبت الأرض تحت أقدامهم. ثم أخبرهم الله أنه – زيادة على ذلك – أمدَّهم بألف من الملائكة لإلقاء الرعب فى قلوب الكفار حتى يتمكن المسلمون من ضرب أعناقهم. وأمر الملائكة من المسائل الغيبية والواجب الإيمان بكل ما يخبر به القرآن الكريم عنهم. وليس صحيحا أن المسلمين رأوا الملائكة تحارب عنهم أو معهم. بل إنهم لما اشتدت المعركة وحمى وطيسها وقطع المسلمون صلتهم بالدنيا واستغرقوا فى الجهاد فى سبيل الله ولم يكن فى ذهنهم إلا الله ورسوله وإعلان دينه. شملتهم العناية الربانية وأيَّدهم بملائكته. فالنصر كان أولا وأخيرا من عند الله ولو تُركوا لقوتهم وحدها ما انتصروا.

٤ – حث المسلمين على الثبات فى أى لقاء قادم:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا (أى زاحفون عليكم بكثرتهم) **فلا تولُّوهم الأدبار. ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»** (١٥ – ١٦).

والآيات تحث المسلمين على الثبات فى المعارك وعدم الفرار من أمام العدو حينما يتزاحفون للقتال. أمَّا من يستدير ويعطى العدو ظهره - بدون قصد حربى مشروع كتقهقر محسوب لاستدراج العدو إلى كمين مثلا - فقد باء بغضب الله واستحق النار. ولما كانت الآيات قد نزلت بعد الموقعة فهى تشير إلى أن بعض المسلمين وقت اشتداء المعركة أصابهم شيء من الاضطراب وكاد بعضهم أن يهم بالفرار ولكن الله أنزل الملائكة فثبَّتتهم. وجاءت هذه الآيات لتحذر من مثل هذا الجزع فى المستقبل فإن فرار واحد من الصف قد يوهن الصف كله ويعرض النصر للضياع.

٥ - بيان أن النصر من عند الله :

«فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنًا إن الله سميع عليم. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين» (١٧ - ١٨).

والآيتان توضحان للمسلمين أنهم فى الحقيقة لم يقتلوا المشركين ولكن الله هو الذى قتلهم. وتكرر هذا المعنى فى إخبار النبى بأن الله هو الذى رمى المشركين ونصر المؤمنين ليكون في ذلك اختبار لهم. ولعل جزءا من هذا الاختبار هو تنازلهم طواعية عن الغنائم التى بأيديهم وخاصة بعد أن أوضح الله لهم أن النصر كان من عنده هو وليس من عندهم.

٦ - تحذير لقريش:

«إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم. وإن تعودوا نعد ولن تغنِيَ عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين» (١٩).

ويُروى أن أبا جهل وقف عند الكعبة قبل خروجه إلى بدر ودعا الله أن ينصر الأهدى والأفضل من الفريقين وأن يفتح عليه وأن يخذل أقطعهما للرحم. فجاءت الآيات تشير إلى ذلك وقيل تهكما إن الفتح قد جاءهم وهو فى الحقيقة خذلان وخزى. ثم تدعوهم الآيات إلى إنهاء عداوتهم لأن ذلك خير لهم. وإن عادوا لقتال المسلمين عاد الله إلى تأييدهم ولن تكون أعدادهم - مهما ضموا إليهم من أحلاف وكثرت أعدادهم - ذات جدوى لأن الله مع المؤمنين.

٧ - دعوة لطاعة الله ورسوله:

«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تَولَّوْا عنه وأنتم تسمعون. ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون. إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون. ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم مُعرضون. يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون. واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب. واذكروا إذ أنتم قليل

مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» (٢١ – ٢٦).

وفى الآيات نداء موجه إلى المؤمنين بإطاعة الله ورسوله وينهاهم عن إهمال أوامره وعدم الاستماع إليها أو الاستماع إليها وعدم العمل بها فيكونوا كغير السامعين ويصبحوا أدنى درجة من الدواب لأنهم صم بكم ولا يعقلون. ثم نداء ثان لهم بالاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما فيه مصلحتهم وحياتهم، ثم يخبرهم أن الله قد يحول بين المرء وقلبه وهو تحذير من أن يتحولوا من الإيمان إلى الكفر. وقد جاء فى الحديث الشريف: إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء. ولا شك أن المقصود بهذين النداءين هو إطاعة الله فيما أمر به من النزول عن الغنائم وإيكال أمر قسمتها إلى الرسول والاستجابة لهذا الأمر حتى يتجنبوا الفتنة التى بدأت بوادرها تبدو فى الأفق من خلاف حول هذا الموضوع. والآيات – وإن كانت قد نزلت فى مناسبة خاصة – إلا أنها وُضعت فى صيغة عامة لتصلح لكل الأزمنة ولكل المناسبات. ثم تعود الآيات لتذكرهم بأن هذه الغنائم هى من فضل الله ورزقه فقد كانوا فى مكة ضعفاء يكاد المشركون أن يتخطفونهم. فآواهم إلى يثرب وأيدهم بنصره والواجب شكره بإطاعة أوامره.

٨ – النهى عن اختلاس بعض الغنائم:

«يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون. واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم. يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (بمعنى هداية) **ويكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم»** (٢٧ – ٢٩).

وهذه الآيات أيضا قد صيغت بحيث تكون أمرا لجميع المسلمين فى كل وقت وفى كل زمان – بعدم خيانه الله والرسول أو خيانة الأمانة. إلا أنها تقصد ماقد يراود نفوس بعض المحاربين من إخفاء جزء من الغنائم ليأخذوه لأنفسهم خلافا لما أمر به الله من رد الغنائم كلها إلى الرسول ليقسمها بين المسلمين بما يريه الله. وقد وصفت الغنائم هنا بـ «أماناتكم». أى أنها أمانة عندهم. ثم كان التنبية بأن الأموال والأولاد فتنة قد تجعل قلب المرء يزيغ عن الحق ولكن الأجر العظيم هو عند الله. ثم حث على تقوى الله حتى يجعل لهم هداية ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم.

٩ – رسالة إلى كفار قريش بعد المعركة:

وقد يثور تساؤل عن جدوى إنزال آيات بالمدينة موجهة إلى كفار قريش. والرد هو أن قريشا كانت تحرص على العلم بكل ما ينزل على «محمد» فهى تعلم أنه والمسلمين يمتثلون لما يمليه عليه الوحى عليه أو أن «محمداً» – حسب معتقدهم – يضع الآيات التى تعبِّر عن سياسته

سياسته تجاهم فكانوا يحرصون على معرفتها. وفي المقابل كان هناك أمل - ولو ضئيل - فى أن تفيء قريش إلى رشدها وتؤمن.

«وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين. وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه. إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون. وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مُكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون. ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون. قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير. وإن تولَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير» (٣٠ - ٤٠).

والآيات تُذَكِّر كفار قريش بما فعلوه مع الرسول فى مكة وما فكروا فيه من أن يحبسوه أو يقتلوه وأخيرا ضيقوا عليه وعلى أصحابه حتي اضطروهم إلى الخروج من مكة. وأنكروا الوحى وقالوا إن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين. ثم تحدُّوا النبى بأن يأتيهم بعذاب أليم. ولم يكن الله لينزل عليهم العذاب لأن النبى كان بينهم ولكنهم كانوا مستحقين العذاب لأنهم كانوا يصدون عن البيت الحرام بدعوى أنهم أولياؤه وأصحابه في حين أنهم ليسوا كذلك. وحتى صلاتهم التى كانوا يصلونها عند البيت وادعوا الولاية عليه بسببها لم تكن إلا صفيرا وتصفيقًا وليس فيها خشوع. ثم تشير الآيات من طرف خفى إلى أن هزيمتهم فى بدر هى نوع من العذاب الذى طلبوا أن ينزل بهم. فقد أنفقوا أموالهم لمحاربة الله ورسوله فكانت عليهم حسرة وهُزموا وسيحشرون إلى الله ليستكملوا العذاب. وأخيرا دعوة إلى الكفار بالانتهاء عن موقف العناد والعداء فيغفر الله لهم ماقد سلف. أما إذا استمروا على موقفهم فليس للمؤمنين مناص من قتالهم - إذ أن هذه هى سنة الله - حتى تختفى الفتنة ويظهر دين الله. ثم يأتى تشجيع للمسلمين إذ يعلمون أن الله يتولاهم وهو خير مولى وأقوى نصير.

١٠ - تشريع الخمس وشرح ظروف المعركة:

«واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خُمُسَه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير. إذا أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى

من حيّ عن بينة وإن الله لسميع عليم. إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلّم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا. ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور» (٤١ - ٤٤).

وفى هذه الآيات تعديل لقاعدة تقسيم الغنائم بأن يكون الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وقيل إن هذه الآية نسخت الآية الأولى من السورة والتى قررت أن الغنائم بأكملها لله وللرسول. فبعد استبعاد الخمس تكون الأربعة أخماس للمقاتلين. وكانت القاعدة التى وضعها الرسول أن للفارس سهمان وللراجل سهم واحد. ولا يخفى أن المقاتلين فى ذلك الوقت كانوا يشترون السلاح من مالهم الخاص وعليهم أن يتركوا لأهلهم نفقتهم أثناء غيابهم. كما أن عليهم أخذ الزاد الكافى للوقت المتوقع للغزوة إذ لم يكن هناك «سلاح إمداد وتموين» كما فى أيامنا هذه. فكان عدلا أن يُعوَّض المقاتلون عن كل هذه النفقات بنصيب من الغنائم. أما الخمس فكان يقسم إلى خمسة أسهم: سهم للنبى وسهم لذوى القربى. بنو هاشم وبنو المطلب المسلمون وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل. أما السهم الذى كان للنبى (خمس الخمس أى ١/٢٥ أى ٤٪) فكان ينفق منه على نفسه وعياله ويصرف الباقى فى المصالح. وقد روى حديث عن النبى قال: لا يحل لى من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم.

وبعد تقرير حكم الخمس فى الغنائم استطردت الآيات لتذكر تدبير الله لوقوع المعركة بالكيفية التى حدثت. إذ كان المسلمون عند طرف السهل الشمالى «العدوة الدنيا» والكفار فى الطرف الجنوبى البعيد عن المدينة «العدوة القصوى». ثم أوضحت الآيات أن الرسول رأى فى منامه المشركين قليلين . ومع أن الرسول كان قد قدَّر عدد المشركين بما بين الـ ٩٠٠ والألف كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٠٠). ولكن الله أراهم له فى منامه أقل من ذلك بكثير لكون ذلك أدعى إلى توقع النصر. وكذلك فعل الله مع المسلمين إذ قلَّل المشركين فى أعينهم لترتفع روحهم المعنوية إذ يقاتلون عدوا قليل العدد. وقلل الله المسلمين فى أعين المشركين ليتهاون المشركون ولا يبذلوا أقصى جهدهم فى القتال. وهكذا تم أمر الله وكتب النصر للمسلمين.

ولرب قارئ يسأل: وهل كان الخلاف حول الغنائم بهذه الدرجة من الخطورة بحيث ينزل فيه ما يوازى نصف السورة؟ والجواب أنه كان كذلك. ويكفى أن الغنائم كانت السبب فيما أصاب المسلمين من هزيمة فى المعركة التالية وهى معركة أحد.

١١ - حث على الثبات فى المعارك القادمة:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين. ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط. وإذ زيَّن

لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب. إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينُهم. ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» (٤٥ - ٤٩).

وفي هذه الآيات أمر إلى المسلمين بالثبات في القتال في أي معركة قادمة مع أعدائهم كما أُمروا أن يطيعوا الله ورسوله وتحذير لهم من التنازع والاختلاف لأن فيه إضعاف لهم وفشلهم. ولاشك أن هذه الآيات كانت تتنبأ بما سيحدث في معركة أحد من عصيان المسلمين لأمر الرسول وتنازعهم ومن ثَمَّ كانت هزيمتهم وشيكة لولا أن الله أنقذهم. وعلى العموم فهو تنبيه ينطبق على أي معركة مع المشركين في أي مكان وفي أي زمان. ثم تحذير من محاكاة مسلك كفار قريش حينما خرجوا من مكة متباهين بقوتهم وحتى حينما أخبرهم أبو سفيان بنجاة القافلة وطلب منهم الرجوع أبوا إلا أن يَرِدُوا بدراً ويُقيموا بها ثلاثة أيام يشربون الخمر وتعزف القيان وتتغنى بقوتهم فكان ذلك من أسباب الاشتباك الفعلي. وقد أخبر القرآن أن الشيطان زيَّن لهم قرارهم ومنَّاهم بأنه سيكون إلى جوارهم ولن يُغلبوا. وقال المفسرون إن قريشا كانت تخشى عند خروجها للحرب أن يهاجمهم بنو كنانة من ظهورهم لما بينهم من عداوة وأن الشيطان تجسَّد في صورة «سراقة بن مالك» سيد بني كنانة وطمأنهم من ناحية قومه. كذلك يروى أن الشيطان كان معهم في المعركة يشحذ هِمَمَهم. فلما بدت بوادر انتصار المسلمين تخلى عن المشركين وقال ما روته الآيات عنه. وبما أن الشياطين لا يمكن للبشر رؤيتهم. فكل ما في استطاعة الشيطان هو الوسوسة في نفوس البشر فكان أن وسوس في نفوس زعماء قريش يحثهم على الخروج للحرب مُضَخِّماً لهم قوتَهم ويمنِّيهم بنصر سهل فلما اشتبك الفريقان تخلَّى عنهم.

أما المنافقون في المدينة فقد أخذهم العجب وتولتهم الدهشة من جرأة المسلمين وخروجهم للقتال مع تفوق قريش في العدد والعتاد وراحوا يقولون إن المسلمين قد اغتروا بدينهم وظنوا أن الله سيؤيدهم. ولم يعلموا أن الله فعلا قد أيَّدهم ونصرهم. ثم تنتهي الفقرة بِحَثٍّ على التوكل على الله فهو العزيز المرهوب الجانب الذي ينصر من يتوكل عليه.

جزاء الكافرين:

ثم تمضي الآيات تصف ما سيكون عليه حال الكافرين عند وفاتهم وفي الآخرة. فأثناء الوفاة تقوم الملائكة بضرب وجوههم وأدبارهم. وفي الآخرة لهم عذاب أليم ثم يسوقونهم إلى جهنم ويخبرونهم أن ذلك جزاء ما فعلوا في دنياهم. ومثلهم في ذلك مثل آل فرعون. ثم تخبر الآيات عن سُنَّة من سنن الله في كونه من عدم تغييره سبحانه وتعالى لنعمة أنعمها على فرد أو قوم إلا ويكون أو يكونوا قد غيَّروا أنفسهم وساروا في طريق الفساد. وضُرب المثل مرة ثانية بمسلك آل فرعون ومن قبلهم:

«ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلاّم للعبيد، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب، ذلك بأن الله لم يك مُغَيِّرا نعمة أنعمها علي قوم حتي يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذَّبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين» (٥٠ - ٥٤).

نقض الكفار واليهود لعهودهم:

«إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تَثقفنَّهم في الحرب فشرِّد بهم مَن خلفهم لعلهم يذَّكَّرون، وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبِذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين، ولا يحسبنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعجزون» (٥٥ - ٥٩).

والآيات تصف الكفار الذين يُصِرونَّ على الكفر بأنهم شر خلق الله. ثم تبين أن من صفاتهم أنهم يعاهدون النبي ثم ينقضون عهدهم، ويتكرر ذلك منهم مرة بعد مرة ولا يخافون العاقبة، وتأمر الآيات النبي بالتنكيل بهم إذا لقيهم في حرب وأن يشرد مَن خلفهم مِن حلفائهم حتى يتذكروا أن الله هو الحق. ثم تأمر النبي إذا ما شعر خيانة من قوم ونقضوا عهدهم معه فعليه أن يفسخ عهدهم فيكونون سواء، وعليه أن يعلنهم بذلك ويحاربهم فالله لايحب الخائنين. ولا يظن الذين كفروا أنهم سبقوا ونجوا من عاقبة خيانتهم وغدرهم ولن يعجزوا الله وسيطولهم عذابه. وكثير من المفسرين يرون أن يهود بني قينقاع هم المقصودون بهذه الآيات لأنهم كانوا أول اليهود الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله، وأن النبي لمَّا رأى أمارات الخيانة والغدر فيهم جمعهم عقب وقعة بدر وأنذرهم، فقالوا: لا يغرنَّك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. وإنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس، وكان معنى هذا الرد أنهم يُضمرون عداوته وأنهم فقط يتحينون الفرصة للانقضاض على المسلمين، فكان النبي على حذر منهم.

السلام المرهوب الجانب:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيئ في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيَّدك بنصره وبالمؤمنين، وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم» (٦٠ - ٦٣).

والآيات تأمر المسلمين بأن يكونوا على أقصى درجة من الاستعداد لمقابلة العدو عددا وعدة.

يرهبون به الأعداء الذين يعرفونهم وهم كفار قريش والخائنين لعهدهم من اليهود وآخرين لا يعلم ما يضمرون ولكن الله يعلم عداوتهم للمسلمين. وإن مال الأعداء إلى جانب السلم فليستجب لهم. أما إذا كان الأعداء يبيتون الخداع بتظاهرهم بالسلام فإن الله سيكفيه أمرهم وينجيه منهم وليتذكر كيف أن الله أيده بالأنصار الذين كانت العداوة بين أوسهم وخزرجهم على أشدها ولكن الله ألَّف بين قلوبهم فأصبحوا قوة تناصره.

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة:

«يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين. يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون. الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. والله مع الصابرين» (٦٤ - ٦٦).

والآيات فيها وعد بنصر الله وتأييده حتي لو كان أعداؤهم عشرة أمثالهم. ثم خفف الله عنهم لضَعفهم فأخبرهم أنهم إن صبروا ينتصرون على أعدائهم حتى لو كانوا ضِعفهم فى العدد.

غزوة بني سليم بالكدر:

قال ابن اسحق: فلما قدم رسول الله المدينة بعد غزوة بدر لم يُقِم بها إلا بضع ليالٍ ثم قاد بنفسه غزوة يريد بها بنى سليم بالكدر على بعد ٦٠كم جنوب شرق المدينة (انظر شكل ٢٩ ص ٤٩٨) على طريق النجد. فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. ولعل الرسول بلغه أن قريشا أرسلت تحالف بني سليم عليه فأراد أن يرهبهم ليرفضوا هذا التحالف ويظلوا على الحياد.

فداء الأسرى:

بعد عودته من هذه الغزوة أقام النبى شوال وذو القعدة. وفى هذه الفترة تم التصرف فى الأسرى. وقد سبق أن ذكرنا أن النبى أخذ برأى أبى بكر وقبل فيهم الفداء ماعدا الاثنين اللذين أمر بقتلهم أثناء العودة من بدر (ص ٥٠٦). ففرَّق الأسرى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيرا. فأسكنوهم معهم وأطعَموهم لحين فدائهم من ذويهم بمكة.

وكان من ضمن الأسرى **أبوالعاص بن الربيع** زوج زينب ابنة رسول الله فأبقاه النبى فى بيته.. وبعد أيام قدم عمرو بن الربيع إلى المدينة بفداء أخيه أبى العاص وقدَّم إلى النبى صُرَّة وقال: بعثتنى زينب فى فداء زوجها أخى. أبى العاص. ولما فتح النبى الصرة وجد فيها مالا ووجد أيضا قلادة خديجة التى كانت أهدتها إلى ابنتها زينب يوم زفافها إلى أبى العاص. فرقَّ لها رقَّة شديدة وخفق قلبه لذكرى الزوجة الراحلة خديجة وأطرق أصحاب رسول الله وقد

أخذوا بجلال الموقف. وبعد فترة صمت قال النبي: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها وقلادتها فافعلوا. فهتفوا جميعا. نعم يا رسول الله.

وأدنى النبى إليه صهره وأخذ عليه العهد أن يُخلِّى عن زينب لتهاجر إلى المدينة. ولعل النبى خشى من أن يعمد بعض سفهاء قريش إلى الانتقام لهزيمتهم وقتلاهم فى بدر فيعمدوا إلى إيذاء ابنته. كذلك لعل أبا العاص بن الربيع زوجها خشى مثل ذلك فتكون سبة فى وجهه أبد الدهر أن لم يستطع أن يحمى زوجته. فلم يمانع فى هجرتها إلى المدينة لتكون تحت رعاية والدها. كثير ممن كتبوا عن السيرة النبوية وأهل البيت يذكرون أن ذلك كان تفريقاً بين الزوجين ويستشهدون بآيات التفريق فى سورة الممتحنه. مع أن تحريم المسلمات على المشركين نزل بعد صلح الحديبية عام ٦هـ أى بعد ٤ سنوات من معركة بدر. وعلى هذا تكون هجرة زينب إلى المدينة حفظا لها من أى عدوان لقريش عليها.

وكان بين الأسرى **العباس** عم النبى. فقال رجل من الأنصار ائذن لنا لنترك للعباس أيضا فداءه. فقال: لا والله لا تذرون منه درهما. فقال له العباس: قد كنتُ مسلما. فقال له النبى: الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا. فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر. فقال ما ذاك عندى يارسول الله. فقال النبى: فأين الذى دفنته أنت وأم الفضل. قلتَ لها أن أُصبت فى سفرى فهذا المال لبنيّ: الفضل وعبدالله وقثم. فقال العباس والله إنى لأعلم أنك رسول الله. إن هذا شىء ما علمه إلا أنا وأم الفضل. وقد كان مع العباس حين خرج من مكة عشرون أوقية من الذهب أُخذت منه بعد أسره. فقال يا رسول الله احتسبها من فدائى. فقال لا. هذا شىء خرجت تستعين به علينا فأعطاناه الله. واضطر العباس لدفع مائة أوقية ذهب فداء لنفسه وابنى أخيه وحليفه.

وكان بين الأسرى **عمرو بن أبى سفيان**. وقد قتل فى المعركة ابنه الثانى حنظلة فقالوا له افتد ابنك فقال: أيجمع علىَّ دمى ومالى؟ قتلوا حنظلة وأفدى عمرا. دعوه فى أيديكم مابدا لكم. وتركه فى المدينة وعاد إلى مكة. وفى هذه الأثناء خرج من المدينة سعد بن النعمان من بنى عوف إلى مكة معتمرا وكان مسلما. فأمسك به أبو سفيان وحبسه مقابل ابنه عمرو. فمشى أقاربه إلى الرسول وسألوه أن يعطيهم ابن أبى سفيان ليفكُّوا به صاحبهم ففعل واستخلصوا صاحبهم به.

وتروى كتب السيرة أن الرسول مَّن على بعض الأسوى الذين لم يكن لهم مال يفتدون به أنفسهم مقابل تعليم بعض أبناء المسلمين القراءة والكتابة. كذلك منَّ على بعض الأسرى الذين لم يرسل ذووهم مالا فداء لهم مقابل تعهدهم بأن لا يظاهروا عليه أحداً.

التنديد بعدم قتل الأسرى:

بعد أن تم فداء الأسرى نزل قوله تعالى:

«ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض. تريدون عرض الدنيا (بأخذ الفداء) **والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم. يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم»** (٦٧ - ٧٠).

والآيات تبين أنه لا ينبغى لنبى أن يستبقى الأسرى من أعدائه أحياء إلا بعد أن يشتد أمره ويقوى سلطانه **«حتى يثخن في الأرض»** لأن قتلهم يوطد الرهبة والهيبة من المسلمين وهو ضرورى لمصلحة الدعوة فى هذه المرحلة الحرجة لأن هؤلاء الأسرى إن عادوا لقتال المسلمين سيكونون أشرس ما يكونون رداً لكرامتهم الجريحة بالأسر والفداء. أما بعد أن تشتد الدعوة وتقوى فالمسلمون مخيرون بين فداء الأسرى أو حتى إطلاق سراحهم بدون فداد منًا منهم كما سيجىء فيما بعد فى سورة محمد (آية ٤، ٥ ص ٦٣٧): **«فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** (أثناء المعركة) **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** (اتخذوا أسرى) **فإما منًا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها».**

وقيل إن عمر بن الخطاب بعد أن نزلت هذه الآيات من سورة الأنفال دخل على النبى وأبى بكر عنده ووجدهما يبكيان فسأل رسول الله عن سبب بكائهما فقال النبى: أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عُرِضَ علىَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة كانت قريبة من النبى).

ثم استمرت الآيات توضح أن حكمة الله ورحمته اقتضت التسامح معهم فى هذا الأمر وإلا لكان أصابهم بما أخذوه من فداء الأسرى عذاب عظيم. ثم كان تمام العفو أن أجاز الله لهم الاستمتاع بما أخذوه **«فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا»**. ثم طلبت الآيات من النبى أن يبشر الأسرى وينذرهم فإن يكن في قلوبهم خير فسيعوِّضهم الله بأكثر منه. وقد روى المفسرون أن العباس بن عبدالمطلب كان يقول إن هذه الاية نزلت فيه حين أُخِذ منه العشرون أوقية من الذهب التى وجدت معه بعد المعركة فقال إن الله أبدله عشرين عبداً كلهم تاجر فى ماله وربحوا. وقيل إنه بعد ما أسلم وانتشر الإسلام قدم على النبى مال من البحرين فقال له العباس إني فاديت نفسي وفاديت عقيلا فقال له رسول الله خذ وبسط ثوبا فيه مال فأخذ العباس ما استطاع أن يحمله. (تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٥٣).

جزاء الخيانة:

«وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم» (٧١).

١ - وقيل إن هذه الآية نزلت فى أحد أسرى بدر وهو أبو عزة بن عمرو بن عبدالله بن جمح: قال يا رسول الله لقد عرفت ما لى من مال وإنى لذو حاجة وذو عيال. فامنن علىَّ. فمن عليه

رسول الله وأطلق سراحه دون فداء وأخذ عليه عهدا ألا يظاهر عليه أحدا. ثم إن أبا عزة هذا نقض عهده وحارب مع المشركين فى معركة أحد وأُسر. فسأل النبى أن يمن عليه أيضا فقال له النبى: لا أدعك تمسح عارضيك (صفحتى الخدين) وتقول خدعت محمداً مرتين ثم أمر به فضُرِبت عنقه. وقيل: قال رسول الله بعدها: لايلدغ المؤمن من جحر مرتين.

٢- ومن الذين أضمروا الخيانة أيضا **عمير بن وهب الجمحي**. أحد من كانوا يؤذون النبى وأصحابه وهم بمكة وكان ابنه «وهب» فى أسارى بدر. وقعد عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر وهو يتلمَّظ حقدا على النبى وقال لصفوان. والله لولا دَيْن علىَّ ليس عندى قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لى فيهم علة. ابنى أسير فى أيديهم. فاغتنمها صفوان فرصة وقال له علىَّ دينك أنا أقضيه عنك وعيالك عيالي. فقال له: فاكتم عنى شأنى وشأنك. ثم إن عميرا شحذ سيفه ثم انطلق إلى المدينة ورآه عمر بن الخطاب فدخل على النبى وحذَّره منه فقال له النبى أرسله. وسأل النبى عميرا عما جاء به فقال جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه فسأله النبى عن السيف الذى فى عنقه. فقال قبَّحها الله من سيوف. وهل أغنت شيئًا! فقال له النبى: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر وقلتم كذا وكذا. وأخبره بما قاله وبما تعهَّد به صفوان على أن تقتلنى والله حائل بينى وبين ذلك. فقال عمير. أشهد أنك رسول الله. فهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان وما أتاك به إلا الله. وأسلم. فقال النبى لأصحابه: فقِّهوا أخاكم فى دينه وعلِّموه القرآن وأطلقوا أسيره. ففعلوا ثم تعهد لرسول الله أن يدعو للإسلام فأذن له بالعودة إلى مكة.

المسلمون الذين لم يهاجروا وبقوا فى مكة:

«إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله (المهاجرون) **والذين آووا ونصروا** (الأنصار) **أولئك بعضهم أولياء بعض** (يتناصرون فيما بينهم) **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم. والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله. إن الله بكل شيء عليم»** (٧٢ – ٧٥).

فهذه الفقرة الخاتمة للسورة تبين صلات المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار بعضهم ببعض – فالمهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا فلا يترتب على المسلمين فى المدينة واجب تجاههم إلا إذا هاجروا ولحقوا بهم. إلا

أنهم إذا استغاثوا بهم من اعتداء وقع عليهم بسبب دينهم فعليهم أن ينصروهم إذا لم يكن بينهم وبين أعدائهم عهد وميثاق. وتقرر الآيات أن الكفار بعضهم أولياء بعض ولا يجب على المؤمنين موالاتهم . وتكرر الآيات أن المهاجرين والأنصار هم المؤمنون حقا. والذين يؤمنون بعد ذلك ويهاجرون ويجاهدون معهم يصبحون منهم. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. والذين تجمع بينهم صلة رحم وقرابة من المهاجرين والأنصار هم أولى ببعض وأن هذا حكم الله والله عليم بكل شيء وبكل ما يُصلح المجتمع الإسلامي. وقالوا إن هذه الآية نسخت التوارث بين المتآخين من المهاجرين والأنصار وقصرته على صلة الرحم. كما منعت التوارث بين المسلم والكافر. وروى البخاري حديثا عن النبي جاء فيه. لا يرث المسلم الكافر ولايرث الكافر المسلم.

وبهذا تنتهي سورة الأنفال التي اختصت في الجزء الأكبر منها بموقعة بدر.

قدوم زينب بنت النبي إلى المدينة:

لما رجع أبو العاص بن الربيع زوج زينب إلى مكة بعد تخلية سبيله بعث رسول الله زيد بن حارثه ورجلان من الأنصار وقال لهما كونا ببطن يأجج (على بعد ثمانية أميال شمال مكة على طريق المدينة انظر الخريطة شكل ١٩، ص ٤٢٧) حتى تمرَّ بكما زينب فتصحبانها وتأتياني بها. كان ذلك بعد بدر بشهر تقريبا. ولما عاد أبو العاص إلى بيته طلب من زينب أن تتجهَّز للحاق بأبيها في المدينة. وجاء كنانة بن الربيع أخو زوجها ببعير فركبته وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهارا وهي في هودج لها. وغاظ ذلك رجالا من قريش فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى. وكان أسبقهم إليها هبار بن الأسود الأسدي الذي كان جنونه قد جن لمصرع إخوته الثلاثة في بدر. فروَّعها برمحه ثم نخس البعير فألقى براكبته على صخرة وكانت زينب حاملا فأجهضت ووقف كنانة بينها وبين المهاجمين وهو يزأر: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما. فتراجعوا. وكان أبو سفيان يقف بعيدا فقال لكنانة :كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك. ثم دنا منه وقال: إنك لم تصب يا ابن الربيع. خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا ضعف ووهن. ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة. ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدَّث الناس أن رددناها فسُلها سرا. وألحقها بأبيها. فعاد بها كنانة إلى دارها بمكة وبقي أبو العاص إلى جانبها أياما يرعاها حتى تماثلت بعض قواها فخرج بها كنانة حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ولم يتبعها في هذه المرة طالب. بل أغمض الذين رأوها أعينهم وقد ركبهم الخزي والعار من قول هند بنت عتبة تعيرهم وتسخر بهم: أمعركة مع أنثى عزلاء؟ فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر. وقالت شعرا:

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظة ∴ وفي الحرب أشباه النساء العوارك!

وأعيار جمع عير وهو الحمار. ويقول العرب عركت المرأة أي حاضت. وهي في حالتها هذه أضعف ما تكون. فكان ذلك أقبح تشبيه وأقذع هجاء لمن هاجموا زينب.

وسار الركب حتى وصلوا يثرب. واستقبلت المدينة بنت رسول الله باحتفال مهيب شابت فيه فرحة اللقاء سورة غضب لما أصابها أول خروجها من مكة. وكان رسول الله يقول: هي أفضل بناتي أصيبت فيَّ. وأرسل سرية وقال لهم إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي سبق معه إلى زينب فاقتلوهما.

زواج علي بن أبي طالب من فاطمة:

هناك بعض اللبس في موعد هذا الزواج. فكثير من المؤرخين يذكر أنه تم في رجب من السنة الأولى للهجرة. والدكتورة بنت الشاطيء (تراجم سيدات بيت النبوة ص ٥٩٢) تقول إنه لم يمضي على دخول عائشة بيت النبي أربعة أشهر حتى كانت الزهراء في طريقها إلى بيت علي بن أبي طالب. والمعروف أن النبي دخل بعائشة بعد شهرين من هجرته إلى المدينة أي في جمادى الأول للسنه الأولى (ص ٤٣٨). ومعنى هذا أن زواج علي من فاطمة كان في شعبان أو رمضان من السنة الأولى للهجرة. ولكن الثابت أن عليا دفع نفقات زواجه من فاطمة من بيعه لدرع غنمها في معركة بدر التي وقعت في رمضان من السنة الثانية للهجرة وعلى ذلك فلابد أن زواجه من فاطمة كان بعد موقعة بدر. فيكون ذلك في ذي الحجة من نفس السنة وكانت فاطمة قد بلغت العشرين من عمرها لأنها عند الهجرة إلى المدينة كانت في الثامنة عشرة. وهنا يثور التساؤل: ولماذا تأخر زواجها إلى هذه السن المتقدمة في مجتمع مشهور بالزواج المبكر. فأختها زينب تزوجت من ابن خالتها وهي في العاشرة من عمرها (ص ٤٠). وأختها رقية كانت بنت ٧ سنوات وأم كلثوم بنت ٦ سنوات عندما عقد قرانهما على عتبة وعتيبة ابني أبي سفيان (ص ٤١).

والحقيقة أن عدة عوامل تضافرت على تأخير زواج فاطمة إلى هذه السن فهي قد ولدت قبل النبوَّة بخمس سنوات. ولما كانت في السادسة من عمرها تم طلاق أختيها رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة وعادتا إلى بيت أبيهما. فكان هذا أحد أسباب عزوفها عن الزواج. كما أن قريشا كانت بالمرصاد لفتيان قريش إغراء وإرهابا حتى لا يتقدم أحد إلى بنات النبي أملا منهم أن ينشغل بمشاكل بناته عن دعوته للدين الجديد. ولكن السبب الأهم هو أن عليا بن أبي طالب - وقد تربى في بيت النبي ويكبر فاطمة بأربع سنوات فهو أحق الناس بها - فكان هذا في حد ذاته حاجزا حال دون أن يتقدم أحد شباب قريش لخطبتها. وهذا يحدث كثيرا في أيامنا هذه حينما يوجد في عائلة شاب وفتاة تربطهما بنوة عمومة أو خؤولة ويفهم أن الشاب هو أصلح من يتزوج الفتاة وتشيع شبه خطبة غير معلنة فلا يتقدم أحد من شباب العائلة أو من خارجها لخطبة الفتاة. ثم جاء الحصار الذي فرضته قريش على المسلمين في السنة السادسة للبعثة وتعاهدوا على ألا يُزوِّجون ولا يتزوجون من بني هاشم. ولما انتهى الحصار بعد ٣ سنوات كانت فاطمة قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها. وكانت السنوات التالية حافلة بالأحداث: وفاة أبي

طالب ثم وفاة خديجة. ثم سير النبي إلى الطائف ثم بيعة العقبة الأولى ثم الثانية ثم الهجرة إلى المدينة ثم غزوة بدر. وهكذا انساب الوقت حتى بلغت فاطمة الثامنة عشرة من عمرها وكان على بن أبى طالب فقيرا معدما. فقد ذكرنا سابقا (ص ٤٠) ما أصاب أبا طالب من شظف العيش وما كان من ضم النبى لعلى بن أبى طالب إلى بيته تخفيفا للنفقة عن أبى طالب. ومات أبو طالب ولم يترك لأبنائه ميراثا. وعاش على فى كنف ابن عمه «محمد» يرعاه كابنه. ولعل عليا كان يشعر بالامتنان للنبي لإعالته له فاستكثر على نفسه أن يتقدم أيضا للزواج من ابنته. ويمر الوقت ويتقدم السن بفاطمة. ولعل أبا بكر وعمر بن الخطاب قد أدركا حرج السن التى بلغتها فاطمة فخطبها كل منهما على حدة. ولكن النبى ردَّهما ردًّا جميلا. ولم يكن بد من أن يلفت أصدقاء علىّ نظره إلى ما سبَّبه من تأخير زواج فاطمة فاقترح عليه أصدقاوه خطبتها: فقال يائسا: بعد أبى بكر وعمر! وهو قول يدل على استصغاره شأن نفسه. فقالوا له يشجعونه: ولم لا. والله ما بين المسلمين بما فيهم أبو بكر وعمر من له مثل قرابتك من رسول الله. وقد كفله أبوك ورعته أمك ثم نشأت فى كنفه ورُبيت فى بيته. وكنت أسبق رجل إلى الإسلام. فتشجعَ على وأخذ طريقه إلى حيث يجلس النبى وجلس قريبا منه على استحياء ولم يتكلم. فأدرك النبى أنه جاء فى أمر ما. فقال: ما حاجة ابن أبى طالب؟ فرد عليه بصوت خفيض وهو مطرق برأسه إلى الأرض: جئت أطلب فاطمة. فقال الرسول: مرحباً وأهلا ولم يزد. فانصرف على. فسأله أصحابه عما فعل فأخبرهم بما ردَّ عليه النبى قائلاً مرحبا وأهلا. فقالوا جميعا. يكفيك من رسول الله إحداهما.

وفى اليوم التالى تحدث على إلى رسول الله فى الموضوع فسأله رسول الله. وهل عندك شيء. فأجاب. لا يا رسول الله. ولكن الرسول ذكرَّه بالدرع التى غنمها من غزوة بدر. وقال له أين درعك؟ فقال هى عندى. فقال النبى فأعطها إياها. فأحضر على الدرع فأمره رسول الله ببيعها ليجهز عروسه بثمنها. فاشتراها عثمان بن عفان بـ ٤٧٠ درهما. وتم تجهيز العروس. وكان كل جهازها عبارة عن خميلة ووسادة حشوها ليف وإناء يغسل فيه ومنشفة وقدح وسقاءين أى جرَّتين ورحوين لطحن الحبوب.

ودعا النبى أصحابه فأشهدهم أنه زوَّج فاطمة من على وبارك العروسين ودعا لهما بالذرية الصالحة ثم قدم إلى الضيوف وعاء تمر. واحتفل بنو طالب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل. وجاء حمزة عم النبى بشارفين (الشارف الإبل المسن) فنحرهما وأطعم الناس. وبعد الحفل دعا النبى أم سلمة وطلب منها أن تمضى بالعروس إلى بيت على ولينتظراه هناك. وأذَّن بلال لصلاة العشاء فصلى الرسول بالمسلمين فى المسجد ثم مشى إلى دار على وبارك العروسين قائلا: اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى نسلهما وانصرف واستجاب الله لدعاء نبيه فكانت ذرية المصطفى مقصورة على أبناء فاطمة وعلى. وكان دخول العروسين فى إحدى حجرات بيت أبيها إلى أن وُفق علىّ – بعد خمسة أشهر – من الحصول على بيت خاص استقل فيه بزوجته.

وكان عليّ من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق مثل طحن الحبوب وعجنها مما استنفذ كثيرا من قواها وخاصة أنها تحملت فى طفولتها شظف الحصار فى شعب أبى طالب. ثم مشقة الهجرة حتى ناءت بحمل متاعب الحياة وكان عليّ تعوزه النفقة ولكنهما كانا يستحيان أن يطلبا من رسول الله جزءا من الغنائم. ولعل رسول الله من جانبه لم يشأ إيثارهما بشيء أكثر مما يعطيه لعامة المسلمين. فكانت حياتهما قاسية مما أثر على نفسية كل منهما وسبب توتر العلاقة بينهما. وتحدَّث الرواة بخلافات كانت تقع أحيانا بينهما وقد تبلغ سمع النبى فيسير إليهما ويحاول جهده الإصلاح بحثّهما على مزيد من الاحتمال. وقد حدثوا أن النبى رؤى ذات مساء وهو يسعى إلى دار فاطمة بادى الهم والقلق وأمضى وقتا ثم خرج ووجهه يفيض بشرا فلما سُئل عن ذلك قال: وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ.

غزوة السويق:

كان أبو سفيان بعد عوته إلى مكة مع فلول قريش المنهزمين قد أقسم أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج فى ذى الحجة - أى بعد معركة بدر بأربعة أشهر - فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه فسلك **النجدية أى طريق النجد** (شكل ٣١) حتى وصل إلى **جبل ثيب**. ثم خرج فى الليل إلى سلام بن شكيم سيد بنى النضير ثم عاد إلى أصحابه وساروا إلى ناحية من المدينة يقال لها **العريض**. فحرقوا ما بها من نخيل ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له فقتلوهما ثم انصرفوا. فخرج رسول الله فى طلبهم وطاردهم حتى قرقرة الكدر. وكان أبو سفيان ورجاله قد تركوا الزاد الذى حملوه معهم ليتخففوا طلبا للنجاة وكان زادهم من السويق وهو عبارة عن حنطة وشعير محمص مطحون ممزوج بعسل وسمن. واستطاع أبو سفيان أن يفر ولم يلحق به رسول الله. وفى أثناء العودة جمع المسلمون السويق الذى تركه المشركون فسميت «غزوة السويق»

أحداث السنة الثالثة للهجرة

محرم	١٥	غزوة ذى أمـر.
صفر		إقامة النبى بنجد.
ربيـع الأول		غزوة الفرع فى بحران.
		زواج النبى من حفصة وزواج عثمان بن عفان من أم كلثوم.
ربيـع الثانى		غزوة بنى قينقاع.

جمادى الأول	سرية زيد بن حارثة إلى القردة.
جمادى الثانى	مقتل كعب بن الأشرف.
رجـــب	زواج النبى من زينب بنت خزيمة (أم المساكين).
	مولد الحسن بن على.
شعبان	وفد نصارى نجران.
رمضان	بدء نزول سورة آل عمران
شـــوال	معركة أحد.
ذو القعدة	ـــ
ذو الحجة	ـــ

غزوة ذى أمر (ب شكل ٣١):

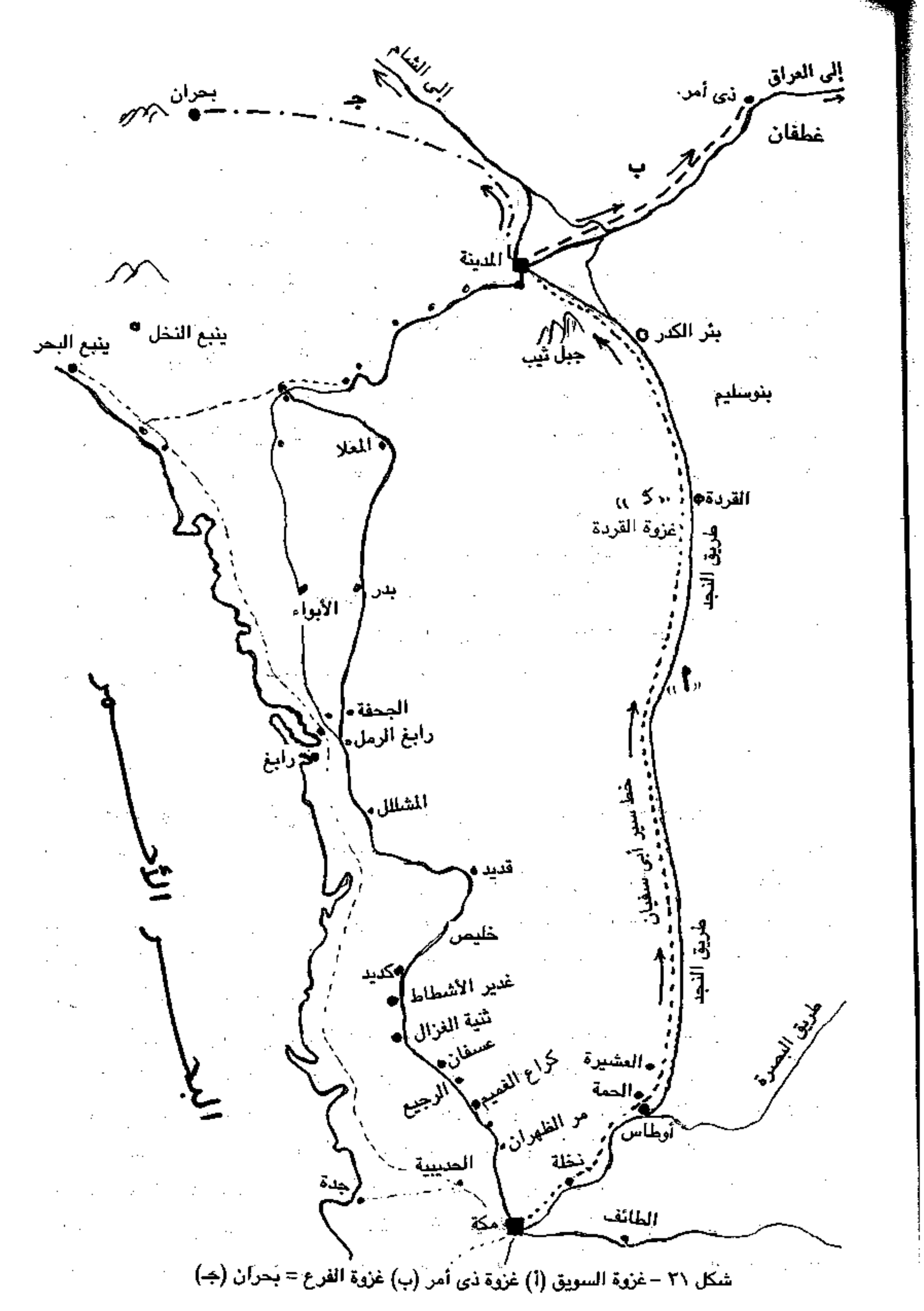
بعد عودته من غزوة السويق أقام النبى بالمدينة بقية ذى الحجة. ثم غزا نجدا يريد غطفان وتسمى غزوة ذى أمر. وقال ابن اسحق إنه أقام بنجد طوال شهر صفر. ولم يلق كيدا فعاد إلى المدينة.

غزوة الفرع من بحران (جـ شكل ٣١):

فى هذه الغزوة سار النبى شمال غرب حتى بلغ بحران من ناحية الفرع. ولم يلق كيدا ثم رجع إلى المدينة.

زواج النبى من حفصة ابنة عمر وزواج عثمان من أم كلثوم:

نحن الآن فى أوائل العام الثالث للهجرة وتحديدا فى ربيع الأول. وقد خف الحزن على موت رقية بعض الشيئ إذ قد مضى الآن خمسة أو ستة أشهر على وفاتها. وفى يوم من الأيام وقد آوى الرسول إلى بيته يستريح فإذا عمر بن الخطاب يدخل إليه مغضبا ليشكو إليه صاحبيه أبا بكر وعثمان. لقد عرض على أحدهما بعد الآخر أن يتزوج ابنته حفصة بعد أن مات عنها زوجها فسكت أبو بكر وقال عثمان: ما أريد أن أتزوج اليوم. ثم سأل عمر النبى: أمثل حفصة فى شبابها وتقواها وشرفها تُرفض؟ فقال النبى: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان. ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة. وكانت أم كلثوم تسمع حديثهما. وفهمت أم كلثوم ما يعنى أباها. فما من امرأة خير من حفصة إلا بنت النبى. وكما تقول الدكتورة بنت الشاطىء (تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٥٦٩) تساءلت: هل تشغل مكان أختها رقية فى بيت عثمان. وإن هى إلا لحظات حتى استدعاها أبوها وأخبرها بما انتواه من عقد زواجها على عثمان. فأبدت



شكل ٣١ – غزوة السويق (أ) غزوة ذى أمر (ب) غزوة الفرع = بحران (جـ)

موافقتها لأم عباس - خادم النبى - وتم عقد زواجها على مثل صداق رقية وخرجت إلى بيت زوجها وسُمِّىَ عثمان بذى النورين لزواجه من ابنتى رسول الله.

وأما ما كان من أمر عمر بن الخطاب فإنه لما سمع قول النبى: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان» أشرقت فى خاطره لمحة مضيئة: أيتزوج النبى من ابنته حفصة؟ ذالك والله شرف لم يخطر له على بال. ونهض إلى الرسول يصافحه متهلّلا وقد زال عنه ماكان يجد من مهانة الرفض وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته وإلى أبى بكر وعثمان وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة. وكان أبو بكر أول من لقيه. فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحه فمد يده مهنئا ومعتذرا يقول: لا تجد (تحقد) علىّ يا عمر. فإن رسول الله ذكر حفصة. فلم أكن لأفشى سر رسول الله ولو تركها لتزوجتها. ومضى كلاهما إلى ابنته. أبو بكر ليهوِّن على عائشة من وقع الخبر وعمر ليبشر حفصة بأكرم زوج. وباركت المدينة كلها زواج النبى كما باركت منذ أيام قلائل زواج عثمان من أم كلثوم.

وجاءت حفصة وفى بيت النبوة سودة وعائشة. أما سودة فرحبت راضية. وأما عائشة فقد غاظها أن تأتى لها ضرة شابة تقية وتضارعها فى عزة نسبها. كانت عائشة تزهو على سودة بشبابها الغض. وأن أباها الصاحب الأول للنبى وحظ حفصة من هذين لا يُنكر. وسكتت عائشة على مضض. أما حفصة فقد أدركت أنه ليس من حقها أن تعامل عائشة كضرَّة إذ هى سبقتها إلى بيت النبوة.

غزوة بنى قينقاع:

كانت دور بني قنيقاع تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من المدينة وعلى بعد حوالى ٨٠٠ متر من مسجد رسول الله (انظر شكل ٢٠ ص ٤٣٠). وكان أن جمعهم رسول الله فى سوق بنى قينقاع وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يامحمد أترى أنَّا قومك؟ لا يغرنَّك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

وكان العهد الذى أعطى الرسول لهم الأمان به يشترط «ألا يعينوا عليه عدوا ولا يؤذوا أحدا من المسلمين». وكان أن امرأة من المسلمين قدمت ببضاعة فباعتها بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ يهودى تشترى منه. فجعل بعض من شباب اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبت. فعمدوا - على مرأى من الصائغ - إلى طرف ثوبها فعقدوه إلى ظهرها. فلما قامت انكشفت عورتها فضجوا بالضحك عليها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم بالمسلمين ويقول ابن اسحق: وعلم رسول الله بما حدث فحاصر دور بنى قينقاع ١٥ ليلة حتى أجهدهم الحصار فنزلوا على

حكمه. وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج. فقام إليه عبد الله بن أبيّ بن سلول وقال: يامحمد، أحسن في مواليّ. وأمسك بثيابه فقال له النبي: ويحك أرسلني. فقال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ أربعمائة حاسر (بدون درع) وثلاثمائة دارع.. قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة. إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله: هم لك وتركهم النبي يرحلون بكل أمتعتهم.

سرية زيد بن حارثة إلى القردة:

خافت قريش على قوافلها إلى الشام أن تمر في طريق المدينة فكانوا يسلكون طريق النجد ثم طريق العراق حتى إذا تجاوزوا المدينة وبعدوا عن الخطر عادوا إلى طريق الشام. وفي جمادى الأول من السنة الثالثة خرجت قافلة فيها سفيان بن حرب وغيره من التجار ورجال قريش واستأجروا رجلا من بني بكر بن وائل ليدلهم على الطريق ووصلت أخبار هذه القافلة إلى النبي فأرسل زيد بن حارثة في ١٠٠ من الرجال فلقيهم عند مياه تسمى «القردة» على طريق النجد (انظر شكل ٣١ ص ٥٢٥) فأعجزه الرجال ولكنه غنم بعض العير وعاد بها إلى النبي في المدينة.

مقتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف من طيئ وأمه من بني النضير ولهذا كان قلبه مع اليهود وكان له حصن يحتمي به اتقاء للخطر (انظر شكل ٢٠ ص ٤٣٠) ولما بلغه خبر انتصار المسلمين في بدر قال: أحق هذا؟ أترون محمدا قتل أشراف العرب. والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. ثم خرج حتى قدم مكة وراح يحرِّض على رسول الله ويهجوه ثم رجع إلى المدينة وراح يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فقال النبي: من لي بابن الأشرف؟ فتعاهد خمسة نفر من بني عبد الأشهل ومن بني وقش - وهما بطنان من الأوس - على قتله. فاستدرجوه حتى خرج من الحصن ولاطفوه في الكلام حتى اطمأن إليهم ولما بعدوا عن الحصن وعن رجاله انقضوا عليه فقتلوه.

ثراء عثمان في خدمة المسلمين:

كان هناك بئر بالمدينة اسمها «بئر رومة» يملكها يهودي يبيع ماءها للمسلمين فقال رسول الله من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين يضرب دلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة؟ فأتى عثمان اليهودي وساومه فأبى بيعه إلا نصفها بإثنى عشر ألف درهم واتفقا على أن يكون لليهودي يوم ولعثمان يوم. فجعل عثمان يومه للمسلمين الذين كانوا يستقون ما يكفيهم يومين. فلما رأى اليهودي ذلك قال لعثمان: أفسدت عليَّ ركيَّتي (الركوة البئر) فاشتر النصف الآخر فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم.

زواج النبي من أم المساكين زينب بنت خزيمة:

يبدو أن قصر مقام هذه الزوجة في بيت النبوة قد صرف عنها كُتاب السيرة فكانت الروايات عنها متضاربة. هي زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ولذلك تسمى زينب بنت خزيمة الهلالية. وسمِّيت أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم. واختلفوا فيمن كانت عنده قبل زواجها بالنبي نختار منها قول ابن الكلبى إنها كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها فخلفه عليها أخوه الذى قتل فى معركة بدر.

وأدرك النبى سوء حظها وسوء حالها فخطبها ولم يمضى على زواجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب إلا أشهر قليلة. وقالوا إنها لم تمكث في بيت النبوة إلا شهرين أو ثلاثة وماتت. والمرجح أنها ماتت وهي في الثلاثين من عمرها كما ذكر الواقدي ويقول: ولعلها ماتت قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبي وأمومة المؤمنين. قانعة بما كانت تقوم به من أمر المساكين. ورقدت فى سلام ودفنها النبى فى البقيع. فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين. ولم يمت من أزواجه بعدها أحد فى حياته وكانت خديجة قد ماتت بمكة ودفنت بالحجون كما هو معروف.

مولد الحسن بن علي:

ولد الحسن بن على وفاطمة بنت النبي فى رجب من السنة الثالثة للهجرة.

فرح النجاش بانتصار المسلمين فى بدر:

وصلت أخبار وقعة بدر وانتصار المسلمين إلى الحبشة ويروى أن النجاشى ذات يوم أرسل إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه من مهاجرى الحبشة وقال لهم: إنى أبشركم بما يسركم. إنه قد جاءني من نحو أرضكم من أخبرني أن الله قد نصر نبيكم وأخزى عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان. وقد التقوا بوادٍ يقال له بدر.

وفد نصارى نجران

لاشك أن خبر انتصار النبى قد علم به أهل اليمن ونجران قبل وصوله إلى الحبشة. ونجران على دين النصرانية مثل الحبشة. ولاشك أن نصارى نجران قد اهتموا بالحدث. وأرادوا الاستيثاق منه والتعرف على شخصية «محمد» والتأكد من نبوته. فقدم منهم وفد مكون من ٦٠ راكبا: منهم حبرهم وإمامهم والباقون من أشرافهم. وقد أنزلهم النبى فى مسجده بالمدينة وسمح لهم بالصلاة فيه وناقشوه وجادلوه فى أمر عيسى وألوهيته وبنوته لله. ولاشك أن النبى تلا عليهم ما كان قد نزل من قرآن بخصوصه:

ففى سورة مريم (الآيات ١٦ - ٣٥. ص ١٥٣) جاء ذكر ظروف حمل مريم بالنفخ فيها من

الروح القدس وتكلم عيسى فى المهد إلى أن ينتهى إلى قول: **«ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»** (٣٤ - ٣٥ - مريم) ويلاحظ الرفق الشديد فى تناول معتقد النصارى فى بنوة عيسى لله فيقرر أن جلال الله وعظمته لا يتفق مع اتخاذه من البشر ولداً وتنزهه عن ذلك بقول **«سبحانه»**.

وفى سورة الزخرف (الآية ٥٩ ص ٣٢٠) جاء قوله تعالى: **«إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه. مثلا لبنى إسرائيل»**.

ونزل فى سورة الأنبياء (الآية ٩١ ص ٣٦٨) قوله تعالى: **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»**.

ولكن وفد نصارى نجران أرادوا الاستزادة من نظرة هذا الدين الجديد إلى المسيح فبقوا فى المدينة عدة أيام. وانضم إليهم يهود المدينة فى مجادلاتهم. وقد أشارت سورة آل عمران إلى هذا الجدل الذى دار مع وفد نصارى نجران. ويجدر الإشارة إلى أن وفداً آخر من نصارى نجران قدم إلى المدينة فى عام الوفود ولكن ما نحن بصدده هو هذا الوفد الذى قدم قبل وقعة أحد. أما الوفد الذى جاء فى عام الوفود فقد جاء بعد فتح مكة وبعد أن قوى ساعد المسلمين وانتشر الإسلام فى كثير من أنحاء الجزيرة وامتد جنوبا وأصبح على مشارف نجران فجاء وفد منهم وعقدوا معاهدة مع النبى أمّنهم فيها على أنفسهم وأموالهم وتعهّدوا له فيها بإمداده بالسلاح إذا ما حاربه أهل اليمن وكانت المجوسية منتشرة هناك لولائهم للفرس. وقلة كانوا على اليهودية. ولا يخفى أن موقف المسلمين بعد وقعة بدر لم يكن من القوة ورهبة الجانب ما يجعل وفد نصارى نجران يطلب المسالمة بمثل هذه المعاهدة. وقد حدث لبس عند كثير من كتاب السيرة فجعلوهما وفدا واحدا. فقد ذكر ابن هشام (السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٦٦) أن الوفد جاء بعد وقعة بدر وهذا هو الوفد الأول الذى ذكرناه. أما ابن كثير فقد وضع وفد نصارى نجران (السيرة النبوية ابن كثير جـ ٤ ص ١٠٠) بعد غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة ضمن الوفود التى جاءت إلى المدينة فى عام الوفود وهو بهذا يشير إلى الوفد الثانى الذى سنذكره فيما بعد (ص ٨١٩).

سورة آل عمران:

وهى من طوال السور. وفى السورة ثلاثة مواضيع رئيسية:

١- جدال وفد نصارى نجران مع النبى.

٢ - موقف اليهود والتنديد ببعض تصرفاتهم ومكائدهم. والحقيقة أن اليهود كانوا طرفا ثالثا فيما جرى من جدال بين النبى ووفد نصارى نجران ولذلك كان الخطاب - فى كثير من الآيات - موجها إلى اليهود والنصارى معا.

٣ - آيات متعلقة بموقعة أحد.

وإضافة إلى ذلك جاءت موضوعات أخرى سنذكرها فى حينها.

«الم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام. إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء. لا إله إلا هو العزيز الحكيم» (١ - ٦).

بدأت السورة بالحروف المتقطعة: ألف. لام. ميم. ثم أعقبت ذلك بذكر بعض صفات الله فهو الإله الواحد الحى القائم بأمر الكون وما فيه. ثم تنويه بأن القرآن منزل من عندالله كما التوراة والإنجيل. وعلم الله واسع ولا يخفى عليه أى شىء فى الأرض ولا فى السماء.. وهو الذى يصوِّر الناس فى أرحام أمهاتهم. والذين يكفرون بآيات الله ويجحدونها أعد لهم عذابا شديدا فهو العزيز المرهوب الجانب المنتقم ممن يجحد ألوهيته.

المحكم والمتشابة من القرآن الكريم:

«هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخَر متشابهات. فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد» (٧ - ٩).

«والآيات تقرر أن القرآن فيه آيات محكمة هى أم الكتاب وجوهره. فيها أساس الدين وأهدافه وهى لا تحتمل تأويلات متعددة. وفى القرآن أيضا آيات متشابهات تحتمل تأويلات عدة. يحاول الذى فى قلوبهم مرض التمسك بها والتمحل فى تأويلها تبريرا لأهدافهم ويقصد فتنة الناس فى حين أن التأويل الصحيح لهذه المتشابهات لا يعلمه إلا الله. والراسخون فى العلم يعرفون حدود علمهم ويؤمنون بأن هذه الآيات هى من عند الله ويدعون الله أن يثبت قلوبهم على الإيمان فلا تزيغ عنه. وذلك هو مسلك ذوى العقول السليمة.

ويرى المفسرون أن وفد النصارى هم المعنيون بهذه الآيات. فإذا كان القرآن قد قرر أن عيسى من روح الله وكلمته فلا يصح أن يستنبط من ذلك أنه ابن الله أو جزء منه أو صورة منه. فهذا تمحُّل فى تأويل الآية التى جاءت لتقرر معجزة الله فى خلق عيسى بدون أب. وخاصة أن تأويلاتهم تخالف الآيات المحكمة والتى لا تحتمل التأويل وتقرر بأن الله واحد وليس له ولد ولذلك فمن التعسف فى التأويل نسبة جزئية إلهية إلى عيسى. أما من كان راسخا فى العلم فهو يكل الأمر إلى الله ويقف عند الأصل المحكم الذى قررته آيات أخرى من عدم جواز بنوة

وإنما هو عبدالله ورسول من رسله وإن كان له خصوصية فى مولده.

ومن الآيات المتشابهات أيضا ما جاء فى القرآن من صفات الله وكرسيه وعرشه. وما ذكر من صفات الجنة وما فيها من نعيم. والنار وما فيها من عذاب. كذلك مشاهد الآخرة والملائكة والجان والشياطين. فكل ذلك غيب يجب على العقل ألا يخوض فيه. وعلى المرء أن يكتفى بقول **«آمنا به كل من عند ربنا»**.. وهكذا فمع أن الآيات نزلت فى مناسبة خاصة إلا أنها تقرر قاعدة عامة تنطبق على عديد من الآيات فى القرآن وردت بغرض التشبيه والترهيب أو الترغيب أو العظة. والآيات فيها تنديد بمن يتلاعب بالألفاظ عن سوء نية وهوى. وقد روى حديث شريف جاء فيه أن رسول الله سمع قوما يتدارءون أى يتمارون فى القرآن فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا. ضربوا كتاب الله بعضه ببعض. وإنما أنزل كتابه ليصدِّق بعضه بعضا فما علمتم به فقولوا وما جهلتم فكِلوه إلى عالمه. وحديث ثان: المراء فى القرآن كفر. قالها ثلاثا. ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم فردوه إلى عالمه جل جلاله.

وعد للكافرين بالهزيمة:

«إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب. قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كانت لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين. والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» (١٠ - ١٣).

والآيات واضحة المعنى تؤكد للكفار أن أموالهم وأولادهم لن تمنعهم من عذاب الله.. مثلهم فى ذلك مثل آل فرعون ومن قبله. ثم أمر للنبى بأن يقول لهم إنهم سيُغلبون فى الدنيا ويحشرون إلى الآخرة فيجازيهم الله بنار جهنم. ثم يذكرهم بما كان من نصر الله فى معركة بدر للفئة القليلة وهم المسلمون وكانوا ٣١٥ رجلا فى حين كان المشركون بين التسعمائة والألف أى ٩٥٠ تقريبا أى ثلاثة أضعاف المسلمين ولكن الله أراهم للمسلمين ضعفا فقط **«يرونهم مثليهم رأى العين»** كما جاء فى سورة الأنفال **«وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا»** (٤٤ - الأنفال ص ٥١٣). وفى ذلك تشجيع للمسلمين إذ يرون أنهم يقاتلون عدُوا قليل العدد.

تزهيد فى متاع الدنيا:

قيل إن وفد نصارى نجران لما جاءوا النبى فى المدينة جاءوا بثيابهم المزركشة والمطرزة بالذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة. وقد سبق أن شرحنا (الجزء الرابع ص ١٠٢٠) أن هذه الثياب وزينتها كانت عندهم من مستلزمات الكهنوت فالكاهن الأعظم له ثياب صفتها كذا وكذا

وتختلف عن ثياب الكاهن العادى وهكذا فلكل درجة فى سلك الكهنوت ثياب خاصة يلتزم بها ولا يتعداها. ولا شك أن منظرهم أثار إعجاب بعض المسلمين ورغبوا أن يكون لهم ثياب مثلها. فنزلت الآيات تعدهم بخير من ذلك، وهو ثواب الله فى الآخرة للمؤمنين الصابرين الصادقين. وكما هو معهود فى لفظ القرآن الكريم صيغ ذلك فى أسلوب يجعل منه توجيها عاما صالحا لكل زمان:

«زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار» (١٤ - ١٧).

دعوة وفد نصارى نجران إلى الإسلام:

بدأت الآيات بإثبات جوهر الدعوة الإسلامية بأن لا إله إلا الله العزيز الحكيم وأن الدين عند الله هو الإسلام. شهد الله بذلك لنفسه وشهد بذلك الملائكة وأولوا العلم ولم يختلف أهل الكتاب على هذا المبدأ إلا بسبب البغى وطلب الدنيا. ثم يوجه الخطاب إلى النبى يأمره - إذا ناقشه وفد نجران وجادلوه فى ذلك - أن يقول لهم إنه أسلم وجهه لله كناية عن إسلام كل نفسه. ثم عليه أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن أعرضوا فعليه أن يعلنهم أن كل ما عليه هو البلاغ والله هو الذى يرى أفعال العباد. والمفهوم أنه يجازيهم بها:

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم. ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب. فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن. وقل للذين أوتوا الكتاب والأُمِّيِّين أأسلمتم. فإن أسلموا فقد اهتدوا. وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» (١٨ - ٢٠).

تحذير لليهود:

«إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط (أى بالعدل) **من الناس فبشرهم بعذاب أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين»** (٢١ - ٢٢).

والمفهوم أن قاتلى الأنبياء هم اليهود. فقد سبق أن ذكرنا (جـ ٥ ص ٢٥٧) أن إيزابل زوجة أخاب بن عمرى ملك إسرائيل الشمالية قتلت عديدا من أنبياء الرب كما أن هيرودس قتل

يوحنا بن زكريا (جـ ٦ ص ٤٦). وأضيف إلى ذلك وصفهم بالكفر وقتلهم من يدعون الناس إلى القسط والعدل. فلهم عذاب أليم وأى أعمال حسنة لهم لن تقبل فى الدنيا ولن يثابوا عليها فى الآخرة. ولعل ذكر قتل اليهود السابقين للأنبياء فيه تحذير لليهود الحاليين من تكرار أخطاء أجدادهم بمحاولة قتل النبى أو التآمر عليه بأى صورة من الصور.

اليهود يحتكمون إلى النبى ثم يعرضون عن حكمه:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون. ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون. فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون. قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتُذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير. تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب» (٢٣ - ٢٧).

وروى عن ابن عباس (تفسير الألوسى جـ ٣ ص ١١١) قوله إن الآية الأولى نزلت فى رجل من اليهود زنا بامرأة ولم تكن آيات الرجم فى القرآن قد نزلت فاحتكم اليهود إلى النبى تخفيفا على الزانيين لشرفهما فقال النبى أحكم بكتابكم فأنكروا الرجم فجىء بالتوراة ووُجد فيها حكم الرجم ورُجما فغضب اليهود. وذكر المفسرون مناسبات أخرى لنزول الآية. وعلى كلٍّ فمضمون الآيات صريح بأنها نزلت لتندد بفريق من أهل الكتاب أعرضوا عن قبول تحكيم كتاب الله فى خلاف قام بينهم واعتمدوا على أنهم لن يُعذَّبوا فى الآخرة. وإن عُذِّبوا فلأيام قلائل وذلك نفس ما قالوه من قبل فى سورة البقرة (الآية ٨٠ ص ٤٥٠): **«وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة»**. ويقال إن اليهود يعتقدون أنهم مهما فعلوا فلن يُعذَّبوا إلا مدة ٤٠ يوما هى مدة عبادة آبائهم للعجل. ثم تمضى الآيات تُذكِّر بقدرة الله فى تتابع الليل والنهار والإحياء والإماتة وفى توزيع الرزق.

نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة. ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير. قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد. قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين» (٢٨ - ٣٢).

ويقول المفسرون (الألوسي جـ ٣ ص ١١٩) إن نفراً من الأنصار كانوا على صداقة حميمة مع نفر من اليهود فنصحهم إخوانهم باجتنابهم لئلا يفتنوهم عن دينهم. وقالوا أيضا نزلت في المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار راجين أن يكون لهم يد عندهم فيما لو ظفروا على المسلمين. فأنزل الله الآية تنهى المؤمنين عن موالاة الكافرين واتخاذهم بطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين. ومع ذلك فمسموح للمسلمين أن يتخذوا من غير المسلمين بعض الأفراد وتوظيفهم في الأعمال والمهام التي لا يتوافر في المسلمين من يقوم بها. ثم يتبع ذلك تحذير لمن يتولى الكافرين سرا موالاة تضر بالمسلمين وتذكير هؤلاء أن الله يعلم مافي الصدور ويعلم كل مافي السماء والأرض ويوم القيامة يجد الناس كل أعمالهم موجودة فيُسر من عمل خيرا. أما من عمل السوء فيتمني لو كان بينه وبين عمله بعداً شاسعا حتى لا يحاسب عليه. ثم تنتهي الفقرة بالحث على طاعة الرسول لأنها من طاعة الله.

جدال وفد نصاري نجران مع النبي:

لاشك أن وفد نصارى نجران أرادوا أن يستوثقوا من النبي عن موقف الاسلام من معتقداتهم. ولاشك أيضا أن الإسلام الوليد في المدينة لم يكن في موقف يسمح له بفتح جبهة عداوة مع نصارى نجران إذ أنهم لو تحالفوا مع قريش لأصبح الموقف خطيرا. لذلك فإن الآيات التي نزلت من سورة آل عمران ذكرت النقاط التي لاخلاف عليها وأرجأت المواضيع الخلافية – مثل مسألة الصلب أو التثليث – إلى مرحلة أخرى. فجاءت الآيات متضمنة النقاط التالية وقد ورد شرحها في الجزء السادس (ص ١٥ وما بعدها):

١ – ولادة مريم:

«إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا (أي خالصا لخدمة بيته) **فتقبل مني إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثي وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفّلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»** (٣٤ – ٣٧).

٢ – ولادة يحيى:

«هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورا

ونبيا من الصالحين. قال رب أنَّى يكون لى غلام وقد بلغنىَ الكبر وامرأتى عاقر قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء. قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار» (٣٨ - ٤١).

٣ - اصطفاء مريم وولادة المسيح:

«وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين. ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون. إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (٤٢ - ٤٧).

وبالنسبة لولادة المسيح تقول الآيات إنه «كلمة من الله» وهو مالا يعترض عليه النصارى. ولذلك لا نوافق على ما تقوله بعض التفاسير (صفوة التفاسير جـ١ ص ١٦٨) من أن وفد النصارى قالوا للنبى: ما لك تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد؟. فذلك جاء فى سورة النساء (الآية ١٧٢ ص ٦٣٦) التى تقول: **«لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله»** ولم تكن سورة النساء قد نزلت بعد إذ هى لم تنزل إلا بعد غزوة الخندق.

٤ - عن المسيح ومعجزاته:

واستمرت الآيات فى ذكر مالا خلاف عليه من النقاط:

«ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه (المولود أعمى) والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبِّئكم بما تأكلون وما تدَّخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومُصدِّقا لما بين يدىَّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» (٤٨ - ٥١).

والآيات تذكر أن عيسى جاء رسولا إلى بنى إسرائيل أرسله الله مصدِّقا بالتوراة ويدعو بنى إسرائيل إلى الإيمان بالكتاب الذى أنزل عليه وهو الإنجيل وفيه تخفيف من الله لبعض المحرمات. وللتدليل على صدق رسالته أيده الله بمعجزات ذكرتها الآيات وهى لا تختلف عما جاء فى التوراة وإن كان القرآن قد زاد معجزة خلق الطير من الطين، وقد ذكرنا ذلك فى الجزء السادس (ص ٦٥ - ٧٢).

٥ – رفع المسيح:

«**فلما أحسَّ عيسى منهم** (من بنى إسرائيل) **الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنَّا بالله واشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين. ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم.إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين**» (أى من الشاكِّين) (٥٢ – ٦٠).

ونلاحظ هنا الدبلوماسية الفائقة فى تجاوز مسألة الصلب التى لا يعترف بها الإسلام فى حين أنها حجر الزاوية فى العقيدة المسيحية فقد ذكرت الآيات رفع المسيح مباشرة وهى نقطة لا خلاف عليها. ثم ذكر أن الذين اتبعوا المسيح – أى النصارى – هم المؤمنون. ومن أنكروه – وهم اليهود – فقد كفروا. وأن النصارى سيظلون ظاهرين بالقوة والسلطان على اليهود إلى يوم القيامة. ثم توضح الآيات أن المعجزة الربانية فى ولادة المسيح كالمعجزة الربانية فى خلق آدم. والنقاط كلها لا يستطيع وفد نصارى نجران الاعتراض على أى منها وعليه يكون القرآن مصدِّقا لما معهم ويتأكد لهم أنَّ «محمدا» نبى من عند الله والواجب أن يؤمنوا به.

٦ – الملاعنة:

وإذ لم يقتنع رجالات الوفد بما سبق ذكره عرض عليهم النبى المباهلة أى يبتهل هو وإياهم – مع من يحبه ويحبونهم من الأبناء والنساء – إلى الله بأن يجعل لعنته على الكاذب من الفريقين المبتهلين. ويقال (تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٤) إن النبى جاء بفاطمة وعلى والحسن وقال لهم إن أنا دعوت فأمِّنوا. واستمهله وفد النصارى ليتدبروا فى الأمر. وفى مشاوراتهم فيما بينهم أخبرهم رئيس الوفد أن النبى قد جاءهم بالقول الفصل فى عيسى وأنه النبى الذى كانوا ينتظرونه وخشى عليهم من المباهلة. وفى الغد جاءوا وقالوا: يا أبا القاسم. رأينا أن لا نلاعنك. وانصرفوا إلى بلادهم:

«**فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين**»(٦١ –٦٣).

بعض المفسرين (صفوة التفاسير ج١ ص ١٨١ – نقلا عن القرطبى جـ ٤ ص ١٠٣

وأسباب النزول للواحدى ص ٥٨) يقول إن وفد نصارى نجران - بعد أن دعاهم النبى إلى المباهلة - قال بعضهم لبعض إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا. فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية. وهذا غريب إذ كان الوفد يعلم أن ليس للإسلام فى ذلك الوقت قوة تمكّنه من هذا التشدد. ولو اختاروا الحرب فإن النبى لا يمكن أن يحاربهم إذ تجدها قريش فرصة لمهاجمته من الخلف. كما أن النجاشى - وهو على النصرانية - لابد ناصرهم. ويصبح المسلمون فى الحبشة - وهم نيف وثمانون رجلا - رهائن أو أسرى. ولا يمكن للنبى أن يفعل ما يؤدى إلى ذلك - ولا شك أن ما قاله المفسرون راجع إلى خلط بين وفد النصارى هذا الذى قدم بعد موقعة بدر وقدوم وفدهم في عام الوفود بعد فتح مكة كما سبق أن أوضحنا ص ٥٢٩.

وقبل انصراف وفد نصارى نجران عائدين إلى بلادهم وجَّه إليهم القرآن دعوتين أخيرتين:

٧ - دعوة أخيرة للإيمان:

«قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (٦٤).

والآية فيها أمر للنبى بأن يدعو أهل الكتاب - يهودا ونصارى - إلى أمر واضح لا مجال للخلاف فيه وهو أن لا يعبد أى منهم أحداً إلا الله وأن لا يشركوا به شيئا. فإن أعرضوا بعد هذه الدعوة الصريحة البسيطة فليشهدهم ويشهد الناس جميعا على أنه هو ومن معه هم المسلمون حقا.

وكدليل على إعراضهم وجدالهم فيما هو واضح ذكرت الآيات خلاف اليهود والنصارى حول إبراهيم عليه السلام.

٨ - دعوة اليهود والنصارى لنبذ الخلاف حول إبراهيم:

«يا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) **لِمَ تُحاجُّون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين»** (٦٥ - ٦٨).

وقد جاء ذكر إبراهيم عليه السلام فى سور كثيرة من سور العهد المكى فعلى سبيل المثال جاء ذكره فى سورة الأنعام (الآية ٧٤) وسورة الأنبياء (الآية ٥١ وما بعدها). وكان تناول القصة فى هذه السور من زاوية تسفيه عبادة الأصنام ودعوته لقومه لنبذها وعبادة الله وحده. وهذا ما كان مناسبا فكأنه كان دعوة إلى كفار قريش إلى الاقتداء به إذ أنهم يفخرون

بالانتساب إليه. أما في المدينة فقد كان النزاع يثور بين النبي واليهود والنصارى كل يقول إنه على ملة ابراهيم فنزلت الآيات تقرر أن رسول الله وحده هو الذي يسير على الحنيفية التي كان عليها إبراهيم. أما ادعاء اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فهو ادعاء باطل لأن إبراهيم كان سابقا بعدة قرون لكل من التوراة والإنجيل. ثم تنبههم الآيات إلى أنهم يُحاجُّون في أمر واضح ومعلوم لهم كهذا الأمر وتسألهم عن سبب جدالهم فيما يجهلون. وتخبرهم أن النبي هو الذي يسير على ملة إبراهيم ومن ثَم فهو أولى به. وقد سبق لليهود أول قدوم النبي إلى المدينة أن أثاروا هذا الجدل وادعوا أنهم هم وحدهم ورثة إبراهيم وجاء الرد عليهم في سورة البقرة (الآية ١٤١ ص ٤٦٥): **«أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أأنتم أعلم أم الله».**

وإلى هنا ينتهي الجدل الذي أقامه وفد نصارى نجران مع النبي وعادوا إلى بلادهم إلا أن اليهود استمروا في مجادلاتهم ومحاولتهم الصد عن دين الله.

محاولة اليهود إضلال المسلمين:

«ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون. يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون. وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم. قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٦٩ - ٧٤).

والآيات تشير إلى ما كان يفعله بعض يهود المدينة من العمل على إضلال بعض المسلمين وتشكيكهم في دينهم أملا في تحويلهم عنه. وتنبه اليهود المضلين إلى أنهم في الحقيقة ما يضلون إلا أنفسهم دون أن يشعروا. ثم يأتي سؤال موجّه إليهم على سبيل التنديد يستنكر كفرهم بآيات الله مع أنهم يشهدون فيما بينهم وبين أنفسهم بصحة نبوة «محمد» وصحة إنزال القرآن من عند الله ولكنهم يكتمون هذه الحقائق ويعمدون إلى الباطل ويلبسونه ثوب الحق. ثم تأتي إشارة إلى ما كان يفعله بعض اليهود من إظهار الإيمان أمام الناس في وضح النهار. وفي الليل حينما يخلو بعضهم إلى بعض يعودن إلى كفرهم ويتآمرون لبث بذور التشكيك في نفوس بعض المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم. كما كانوا يتواصون ألا يأمن بعضهم إلا لبعض وألا يطلعوا غير اليهود على ما جاء في التوراة من صفات النبي حتي لا يُحتج به عليهم يوم القيامة. ثم تقرير بأن الهدى هو من الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وينزل رحمته على من يشاء.

التنديد ببعض تصرفات اليهود المالية:

«ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون علي الله الكذب وهم يعلمون. بلي من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين. إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» (٧٥ – ٧٧).

ويقول المفسرون إن النصارى هم المتصفون برد الأمانات أما اليهود فهم الموصوفون بعدم ردها. وقال آخرون إن الفئتين من اليهود ورووا أن عبدالله بن سلام – قبل إسلامه – أودعه رجل ١٢٠٠ أوقية من ذهب فردها إليه. أما يهودى آخر فقد أودعه رجل دينارا فخانه فيه. كما أن جماعة من الأنصار – قبل إسلامهم. – كان بينهم وبين اليهود معاملات مالية. فلما أسلموا أنكر اليهود مافى ذمتهم لهم. وكانوا يقولون إن شريعتهم لا تُجَرِّم سلب غير اليهود أموالهم وهذا طبعا كذب وافتراء على الله. والآيات تندد بالذين يبيعون عهد الله ويحلفون الأيمان الكاذبة لترويج بضاعة رديئة. فما اكتسبوه من مال قليل بالنسبة لما اكتسبوه من غضب الله فلا يشملهم برحمته ولهم عذاب أليم.

التنديد بتحريف أهل الكتاب لكتبهم:

«وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون». (٧٨ – ٨٠).

والآيات تندد بفريق من أهل الكتاب – وعلى الأرجح هم النصارى وإن كان التنديد يشمل اليهود أيضا – إذ كانوا يلوون ألسنتهم أثناء تلاوة بعض الفقرات التى دسوها على التوراة والإنجيل ليظن الناس أنها من أصل الكتاب وأنها من عند الله وفى الحقيقة أنها ليست كذلك. ومما دسوه على الإنجيل هو ادعاؤهم أن عيسى أخبر الناس أنه ابن الله وأمرهم بعبادته. وتقرر الآيات أنه يستحيل على شخص آتاه الله النبوة والحكمة أن يدّعى ذلك. ومثله لابد أن يأمر بعبادة الرب طبقا لما كانوا يدرسونه فى كتبهم. كما لا يمكن أن يأمر الناس أن يتخذوا الملائكة أو الأنبياء شركاء لله. واليهود داخلون أيضا فى هذا التنديد لقولهم إن عزيرا ابن الله.

أتباع النبى السابق يُؤمرون باتباع النبى اللاحق:

«وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (٨١ – ٨٢).

والآيات تبين أن الله قد أخذ على الأنبياء عهدا بأن يأمر السابق منهم أمته بتصديق ونصر من يأتى بعده من الأنبياء ما داموا مصدِّقين لما جاءوا به ومتطابقين معهم فى الأسس والأهداف. وهذا ينطوى على حجة تلزم أهل الكتاب بالإيمان برسالة «محمد» خاتم النبيين. فضلا عن أن أوصافه مذكورة فى كتبهم فلا يصعب عليهم التعرف عليه. كما سبق أن ذكر فى سورة الأعراف (آية ١٥٧ ص ١٢٦): **«الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل».**

الدين واحد وهو الإسلام:

«أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يُرجعون. قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين» (٨٣ - ٨٥).

التنديد بالارتداد عن الإسلام:

كان بعض الأعراب حول المدينة قد أسلموا ثم استمالتهم قريش فارتدوا كفاراً فجاءت الآيات تندد بهم وتخبرهم أن عليهم لعنة الله ولعنات الملائكة والناس جميعا. لا تفارقهم اللعنة ولا يخفف عنهم عذاب نار جهنم ولا هم يُمهلون. أما من تاب وعاد إلى الإيمان وعمل الصالحات فإن الله يغفر لهم ويرحمهم فهو غفور رحيم. ولكن الذين أصروا على الكفر فلن يقبل منهم أى فدية ليفتدوا بها من عذاب النار حتى لو قدموا ملء الأرض ذهبا ولهم عذاب أليم ولن ينصرهم أحد من دون الله:

«كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم. إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به. أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» (٨٦ - ٩١).

حث على الصدقات:

وتمضى الآيات تبين أن البر ورضا الله يُنال بالإنفاق وخاصة بالطيب الذى تحبه النفس ثم تخبر بأن كل ما ينفقونه - قليلا أو كثيرا - يعلمه الله. والمفهوم طبعا أنه سيثيبهم عليه.

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم» (٩٢).

اليهود ينكرون علي المسلمين أكل لحوم الإبل:

ثم حدث أن عاب اليهود على النبى والمسلمين أكلهم لحم الإبل وادعوا أن ذلك كان محرّما فى ملة إبراهيم وهم يسيرون على ملته ولا يأكلونه. فرد عليهم النبى موضحا أن ملة إبراهيم لم يكن فيها محرمات فى المأكل وبالتالى كان لحم الإبل مباحا. وأن إسرائيل - الذى هو يعقوب - كان يحبه فمرض بألم فى رجله فنذر لله إن شفاه الله منه أن يُحرِّم أحب الطعام إلى نفسه - وهو لحم الإبل - حرَّمه قبل أن تنزل التوراة. واقتدى به اليهود فحرَّموا لحم الإبل. وتحداهم النبى أن يأتوا بنص فى التوراة يحرم لحم الإبل فأفحموا:

«كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيل (الذى هو يعقوب) **على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين»** (٩٣ - ٩٥).

فضل بيت الله الحرام:

قيل إن بعض اليهود ادعوا أفضلية معبدهم على الكعبة فردّت الآيات تقرر بأن البيت الحرام بمكة هو أول بيت وضع للناس وأن الذى بناه هو إبراهيم والدليل على ذلك مقامه أى الحجر الذى كان يقف عليه أثناء البناء وأثر قدمه ظاهر فيه. والبيت أمنٌ لكل من دخله. ثم جاءت الآية التى شرعت الحج كفريضة من فرائض الإسلام. وكانت الآية ١٢٥ من سورة البقرة (ص ٤٦٤) قد ذكرت أن الطواف بالكعبة والصلاة بالبيت الحرام هي من سنة إبراهيم: **«وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهراً بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود»**. وجاءت الآية الحالية من سورة آل عمران تؤكد على فريضة الحج وتجعله أحد أركان الإسلام:

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا. ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين» (٩٦ - ٩٧).

وبكة اسم آخر لمكة. وقيل إن البك بمعنى الازدحام والناس يزدحمون فيها أثناء الطواف. كما أن البكة هى المكان المنخفض. والكعبة تقع فى أخفض بقعة من الوادى الذى تحيط به الجبال من كل ناحية فهى فى بكة من الأرض.

التنديد بصد اليهود عن الإسلام:

«قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوَجا (أى مَيْلا عن الحق) **وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون**(٩٨ - ٩٩).

والمقصود بأهل الكتاب هم يهود المدينة وكانوا يحاولون بجدالهم تشكيك بعض المسلمين فى دينهم ليرتدوا عنه والآيات تندد بهذا المسلك فى صيغة تساؤل عن فعلهم هذا مع أنهم يشهدون فى قرارة أنفسهم بصحة رسالة النبى ونبوته. وتحذرهم من أن الله ليس بغافل عما يعملون. والمفهوم أنهم سيُجازون على ذلك.

اليهود يدسون للوقعية بين المسلمين:

روى أن بعض يهود المدينة كبر عليهم أن يروا النبى يزداد قوة ودعوته تزداد اتساعا. ورأوا أن هذا إنما كان بفضل تآخى قبيلتى الأوس والخزرج فى ظل الإسلام ووقوفهما صفا واحدا وراءه وتناسيهما ما كان بينهما من عداوات وحروب. فتآمر اليهود على إثارة الفتنة بينهما. وأخرج ابن اسحق أن اليهودى شاس بن قيس مرَّ على نفر من الأوس والخزرج فغاظه ما رأى من تآلفهم فأمر شابا معه أن يجلس بينهم ويذكرهم بما كان بينهم من حروب ويروى الأشعار التى قيلت في الوقعات المختلفة فلم تلبث نخوة الجاهلية أن تحركت فى بعضهم وعادت الأحقاد القديمة وتداعوا إلى السلاح ليحكموه فيمن هو الأولى بالأمجاد. وأتى الخبر إلى النبى فسارع هو وكبار المهاجرين إليهم يذكرونهم بالإسلام والأخوة فى الدين وراحوا يهدئون النعرة القبلية الجاهلية حتى هدأت نفوسهم وأدركوا أنها دسيسة من دسائس اليهود ثم تعانقوا وحمدوا الله ورسوله على نجاتهم من هذه الفتنة. ونزلت الآيات تحثهم على التكاتف والاعتصام بحبل الله وعدم التفرق:

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله. ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (١٠٠ - ١٠٣).

ومع أن الآيات نزلت فى هذه المناسبة إلا أنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان توجب على المسلمين التمسك بما يجعلهم كتلة واحدة قوية وتحذرهم من الاستماع لدسائس الأعداء الذين يدعون إلى الفُرقة مما يؤدى إلى الضعف أمام العدو وشبَّهت الفتن بأنها حفرة من النار يوشك المسلمون بالخلاف والتفرق أن يقعوا فيها ولكن الله أنقذهم منها.

قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

واستكمالا للمعنى السابق وما فيه من تحذير من التفرق والضياع جاءت آيتان توجِّهان المسلمين إلى أمر آخر فيه قوتهم وصلاح مجتمعهم. وهو أن يدعوا فيما بينهم بالمعروف

ويتناهوا عن المنكر. ثم تنهاهم عن مشابهة أهل الكتاب الذين تحّولوا إلى فرق وأحزاب. فاليهود كان منهم الصدوقيون والفريسيون (جـ ٥ ص ٤٩٠) والمسيحيون بدورهم تحزبوا إلى نسطوريين ويعاقبة وملكانيين ومارونيين (جـ ٦ ص ١٤٠) وسيعذبهم الله على هذا التحزب يوم القيامة:

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم. يوم تبيضُ وجوه وتسودُ وجوه. فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين. ولله ما في السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور» (١٠٤ – ١٠٩).

وقد قرر العلماء أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مجتمع إسلامى إذا لم يقم به جماعة من المسلمين فى وقت ما أثم جميع أفراده لتقصيرهم فى واجب من واجبات الشريعة الإسلامية. وقد وردت فى هذا الشأن أحاديث نبوية كثيرة نذكر منها: «والذى نفسى بيده لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم. وحديث آخر: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع بقلبه وهذا أضعف الإيمان. ولكن التغيير باليد لا يعني الفوضى. كلٌ يفعل ما بدا له. بل أمر ذلك التغيير متروك لأولى الأمر وبالطرق المتعارف عليها فى زمانهم.

المسلمون خير أمة:

وبناء على قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالإضافة إلى إيمانهم بالله – أصبحوا خير أمة:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (١١٠ – ١١٢).

وكان اليهود يفخرون دائما بأنهم «شعب الله المختار» وأن الله فضلَّهم على العالمين. فجاء الخطاب مُوجَّها إلى المسلمين فيه البشرى بأنهم قد قُدِّر لهم أن يكونوا خير أمة ظهرت على وجه الأرض لإيمانهم بالله وقيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ثم تنديد بأهل الكتاب – والمقصود يهود المدينة – لأنهم لم يؤمنوا. إذ لو آمنوا لكان خيرا لهم ولأصبحوا فى زمرة هذه الأمة الخيِّرة. ولكن القليل منهم هو الذى آمن أما معظمهم فلم يؤمنوا وكانوا

فاسقين. ثم تُطمئن الآياتُ المسلمين بأن هؤلاء لن يضروهم ضررا بالغا فكل ضررهم محصور في الأذى بالدس والوقيعة. ولو تجرأوا على قتال المسلمين لفروا في الميدان ذلك لأنهم أذلاء ولزمتهم المسكنة في كل ظرف باستثناء بعض الأوقات التي كانوا يتمسكون فيها بشريعة الله **«بحبل من الله»** أو يدخلون في عهد مع قوم أقوياء **«وحبل من الناس»**... وذلك لأنهم كانوا يكفرون بالله ويقتلون أنبياءه. ومن يطالع تاريخ بني إسرائيل (في الجزء الخامس) يرى خير تطبيق لذلك في مسلك ملوك بني إسرائيل سواء في المملكة الشمالية أو المملكة الجنوبية. فقد كانوا في فترات قليلة تنتابهم صحوة دينية فيطبقون الشريعة الموسوية ويزيلون عبادة البعل فينصرهم الله على أعدائهم. ولكنهم في فترات الضلال - وما أكثرها - يعودون لعبادة البعل ويقيمون له التماثيل داخل الهيكل. وكانوا دائمي التخبط بين الأمم: فمرة يحالفون مصر ضد الأشوريين ومرة يحالفون بابل ضد مصر. وهكذا. وفي كل مرة ينهزم حليفهم ويدخل المنتصر أورشليم ويقتل منهم الكثير ويخرب الهيكل ويحمل كنوزه المقدسة إلى بلاده.

الخير في بعض أهل الكتاب:

إلا أن أهل الكتاب لم يكونوا كلهم بهذا السوء. فقد أسلم عبدالله بن سلام اليهودي وأسلم بإسلامه عدد كبير من اليهود. كما قيل إن ٤٠ من أهل نجران و٣٠ من الحبشه - وهؤلاء من النصارى - أسلموا. فجاءت الآيات تبين أن فريقا من أهل الكتاب آمن وعددت صفاتهم وأفعالهم وأنهم سيُثابون على أعمالهم. أما الذين بقوا على الكفر فلن تجديهم كثرة أموالهم وأولادهم وفي الآخرة لهم عذاب النار. وقررت الآيات أن أموالهم التي ينفقونها في شراء السلاح واستمالة القبائل لحرب المسلمين مثلها مثل ريح باردة جدا أو ريح السَموم الحارة جدا التي تهب على الزرع فتتلفه أي أنهم لن ينالوا ثمرا من وراء هذا الإنفاق:

«ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين. إن الذين كفروا لن تغنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صِرٌ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» (١١٣ - ١١٧).

عدم إخلاص أهل الكتاب في صداقاتهم للمسلمين:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم

الأنامل من الغيظ. قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعلمون محيط» (١١٨ - ١٢٠).

والآيات تنهى المؤمنين عن اتخاذ أخلاء وأولياء من غيرهم يطلعونهم على أسرارهم حيث أن هؤلاء يتمنون لهم العنت والمشقة وقد ظهرت علامات البغض والكراهية فى كلامهم وما تخفى صدورهم أشد فى حين أن المسلمين يحبونهم ويؤمنون بما أنزل من كتب سابقة إلا أن اليهود لا يحبونهم وإذا قابلوهم تظاهروا بالإيمان كذبا وإذا خلوا إلى أنفسهم عضوا أناملهم من شدة غيظهم وحقدهم على المسلمين وإذا نال المسلمين خير استاءوا. وإذا أصابتهم مصيبة فرحوا وشمتوا. وتُطمئن الآيات المسلمين بأنهم إذا صبروا فلن يضرهم كيدهم وأذاهم شيئا.

معركـة أحـد

كان مصاب قريش فى معركة بدر شديدا. إذ بلغ قتلاهم ٧٠ رجلا ومثلهم من الأسرى. وكان من القتلى ١٧ من قبيلة بنى مخزوم وكان معظمهم من أبناء عمومة خالد بن الوليد أو أبناء إخوته وأسر الوليد أخو خالد.. وعُرِفَ أن على بن أبى طالب قتل ١٨ رجلا وشارك فى قتل أربعة آخرين وأن حمزة قتل أربعة واشترك مع على فى قتل أربعة آخرين ومن هنا كان حقد قريش البالغ على علىّ وحمزة. وعرفت هند زوجة أبى سفيان بموت أبيها عتبة على يدى علىّ وحمزة وموت أخيها الوليد على يدى علىّ وبموت ابنها حنظلة على يدى علىّ أيضا فراحت تلعن حمزة وعليا وأقسمت أن تنتقم منهما.

وعقد أبو سفيان اجتماعا حضره سادة قريش وكلهم قد فقد عزيزا ببدر. كان منهم من فقد أباه ومن فقد ابنه أو أخاه. وكان أكثر الناس صخبا فى هذا الاجتماع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل. كانت ثورة عكرمة بسبب فقده أبيه. صحيح أنه قتل أحد المسلمين وقطع ساعد قاتل أبيه ولكن هذا لم يكن ليشفى غليله وألحّ على قريش ألا تتقاعس عن الانتقام. وكان أول من أجابه إلى ذلك أبو سفيان. وتعاهد الجميع على الانتقام وصمموا على ألا يتخلّف واحد منهم عن الاشتراك فى المعركة القادمة وقرروا إعداد حملة لم تر مكة مثلها. ودعوا غيرهم من القبائل المحيطة للانضمام إليها للقضاء على المسلمين. كما قرروا أيضا تخصيص الـ ٥٠٠٠٠ دينار التى ربحوها من التجارة التى جاءت بها القافلة لتمويل الحملة واختير أبو سفيان بالإجماع قائدا لجيش قريش. وامتنع الناس عن البكاء والنحيب على قتلاهم إلى أن يتم الانتقام. ومما حفز قريش على قرار الحرب هو ما رأوه من خطر على تجارتهم. ويرى بعض المفسرين أن ما جاء فى الآية ١١٧ فى الصفحة السابقة **«مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح.....»** تقصد إنفاق قريش فى الإعداد لمعركة أحد.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٣٩) خروج أبى عامر الفاسق من المدينة وقدومه إلى مكة يحرِّض

قريشا يقول لهم إنهم على حق وأن ما جاء به «محمد» باطل ومنَّاهم بأنه سيحرض قومه - الأوس - على التخاذل عن نصرة «محمد». ثم بدأت قريش المفاوضات مع القبائل المجاورة فبعثت كنانة وتثقيف بفرق من رجالها.

وفى نصف رمضان من السنة الثالثة للهجرة تجمعت الحملة بمكة. وكان العباس - عم النبى - قد كتب إلى «محمد» ابن أخيه - ينبئه بأمرها. وفى ٣٠ رمضان خرج جيش قريش من مكة مكونا من ٣٠٠٠ رجل منهم ٢٠٠ فارس و ٣٠٠٠ بعير وصحب الجيش ١٥ سيدة من سيدات قريش حُملن على محفات وهوادج لبثِّ الحماسة فى نفوس الرجال بالندب وتذكيرهم بقتلى بدر. وكان من هؤلاء النسوة هند زوجة أبى سفيان وقد تزعمتهن، وكان فيهن أيضا زوجة عكرمة بن أبي جهل وزوجة عمرو بن العاص وأخت خالد بن الوليد وأخريات منشدات كن يحملن الدفوف والطبول.

ولما سارت الحملة قال جبير بن مطعم - أحد أشراف قريش - لعبد حبشى له: اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم النبى بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق واغتبط حبشى لما سمع. وكان ضخم الجثة ماهرا فى رمى الحربة. وفيما هو يتقدم في مسيره رأته هند وهي تطل من فرجة في هودجها فقالت له: ويها أبا وسمة (كنيته) اشف واستشف! ووعدته إن هو قتل حمزة انتقاما لقتله أبيها فستعطيه كل الحلى التى كانت تتحلى بها. وكان هذا كفيلا بمضاعفة حماس حبشى لقتل حمزة.

ولم يشأ جيش قريش أن يقتحم المدينة لعلمه بصعوبة القتال فى شوارع ضيقة مما يشل حركة الفرسان. كما أن الحجارة تلقى على الجند من أسطح المنازل. كذلك خططت قريش ألا يحارب المسلمون وظهورهم إلى المدينة إذ أن ذلك يعطيهم فرصة الفرار والاحتماء بالمدينة إذا ما لاحت بوادر هزيمتهم. لذلك عسكر جيش قريش فى السهل المنبسط بين بطن السبخة وجبل الشيخين (شكل ٣٢) في انتظار مكان أفضل من الناحية العسكرية بعد أن يخرج جيش المسلمين من المدينة ويتخذ مكانه للقتال.

تجهيز المسلمين للمعركة:

ننتقل الآن إلى المدينة. وكما قلنا كان العباس قد أخبر النبى بخروج قريش لحربه فبعث النبى عيونا تخبره بتحركات قريش وقوة جيشها وأمر المسلمين بأن يتجهزوا للحرب. ورأى الرسول رؤيا قصها على أصحابه المقربين فقال: قد رأيت والله خيرا. رأيت بقرا تذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ورأيت أنى أدخلت يدي فى درع حصينة فأولتها المدينة. فأما البقر فهم ناس من أصحابى يقتلون وأما الثلم الذى رأيته فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل.

وكان رأى رسول الله أن يقيم فى المدينة فيقاتل المشركين بها. ولكن أناسا لم يكونوا شهدوا بدراً وندموا على تخلُّفهم عنها وكانوا يتوقون لمعركة أخرى يشهدونها فحبذوا الخروج

لقتال قريش عند جبل أحد. وكان رأى عبدالله بن أبى بن سلول مع رأى النبى فى البقاء بالمدينة. ولكن المحبذين للخروج قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا. لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا. وعاد عبدالله بن أبىّ بن سلول يقول: يا رسول الله أقم بالمدينة. لا تخرج إليهم. فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه. فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. ولكن الذين اقترحوا الخروج لم يزالوا برسول الله حتى دخل بيته ولبس عدة الحرب.

وندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله. فلما خرج عليهم قالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد. فقال: ما ينبغى لنبى لبس لأمته (أى عدة الحرب) أن يضعها حتى يقاتل.

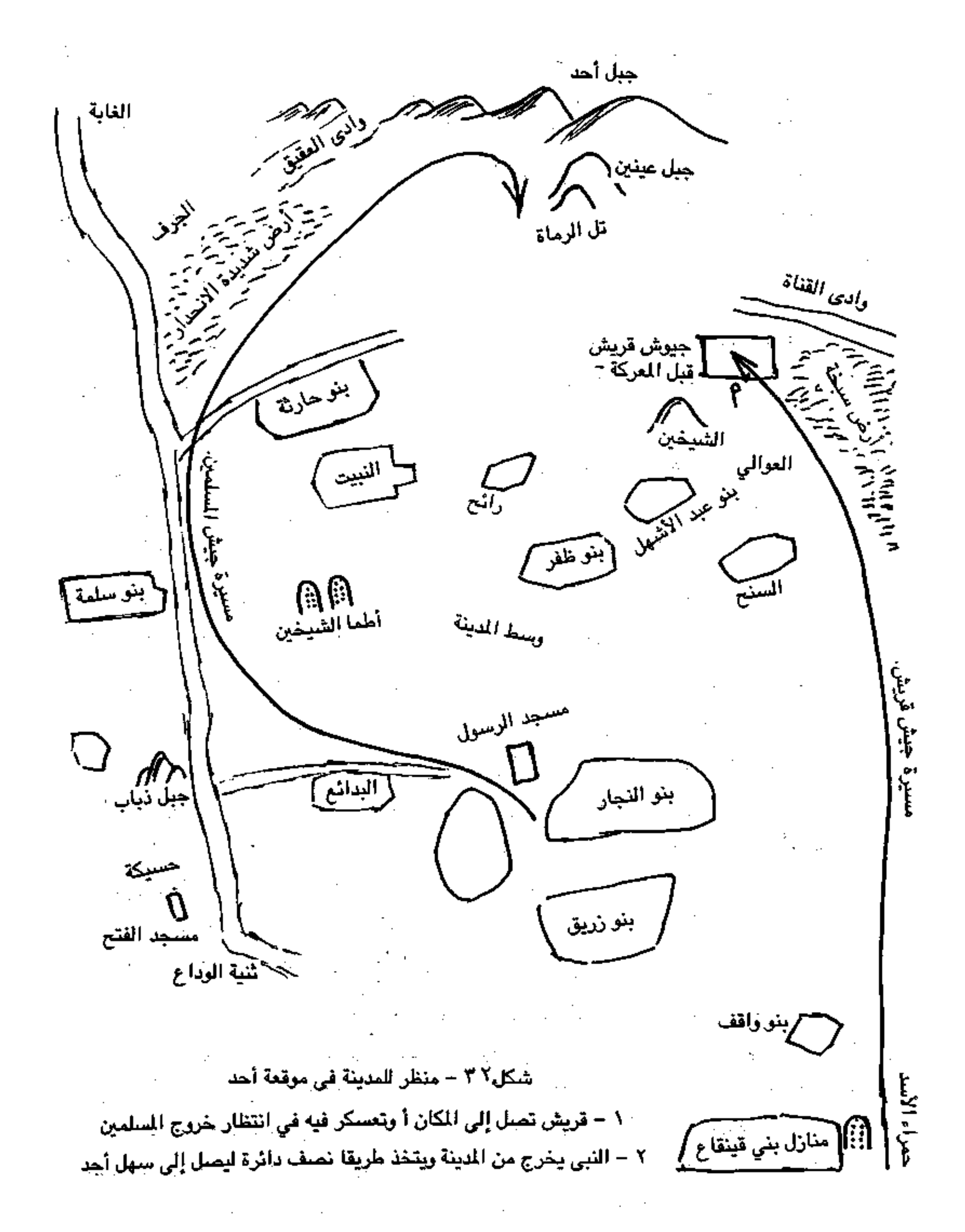
وخرج النبى فى ١٠٠٠ من أصحابه متجها إلى جبل أحد (شكل ٣٢) إذ أن السهل المنبسط بجواره هو المكان الوحيد الصالح للمعركة. وقد أشار القرآن الكريم إلى استعداد المسلمين للقتال وخروجه من أهله أى خروجه من المدينة. فى قوله تعالى:

«وإذ غدوت من أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم» (١٢١ – آل عمران).

فلما كانوا فى منتصف الطريق إلى أُحُد تخاذل عبدالله بن أبىّ بن سلول وقال: أطاعهم وعصانى. ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ورجع ورجع معه ٣٠٠ من أعوانه المنافقين. وناداهم عبدالله بن عمرو بن حِرام السلمى وناشدهم بالله ألا يخذلوا نبيهم فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. وسار رسول الله بالـ ٧٠٠ رجل شمالا ومروا على ديار بنى سلمة وبنى حارثه. وقيل راودت الأفكار بنى حارثة وبنى سلمة أن ينكصوا أيضا أسوة بعبد الله بن أبى بن سلول إلا أن الله ثبّتهما. ونزلت الآيات تشجع المسلمين وتذكرهم بنصر الله لهم فى معركة بدر وكانوا قلة. وتخبرهم أن الله قد أمدّهم بـ ٣٠٠٠ من الملائكة (وهو عدد جيش قريش) ووعدهم إن صبروا فى المعركة بأن يمدهم بـ ٥٠٠٠ من الملائكة ليستأصل الكافرين أو يجعلهم ينقلبوا على وجوهم ويرجعوا خائبين.

«إذ همت طائفتان (بنو حارثة وبنو سلمة) **منكم أن تفشلا** (تتراجعا) **والله وليُّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمدِدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم** (يذلهم بالهزيمة) **فينقلبوا خائبين»** (١٢٢ – ١٢٧).

ثم سار النبى وسلك دربا غير مطروق فى نصف دائرة حتى وصل إلى جبل أحد وجعل



شكل ٣٢ – منظر للمدينة في موقعة أحد

١ – قريش تصل إلى المكان أ وتعسكر فيه في انتظار خروج المسلمين

٢ – النبى يخرج من المدينة ويتخذ طريقا نصف دائرة ليصل إلى سهل أحد

ظهره إلى الجبل وقال للجند: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال. ثم دفع لواء الجيش إلى مصعب بن عمير. ولمَّا رأت قريش أن النبى سار إلى جبل أحد تحركت قواتها غربا لتقطع عليه طريق المدينة. ولم يكن من السهل الالتفاف حول ميمنة جيش المسلمين (إلى الغرب) إذ كانت الأرض هناك شديدة الانحدار إلا إن الميسرة (إلى الشرق) كان يمكن أن تنكشف. ولتأمين هذه الجهة أمرالنبى عددا من الرماة بإرتقاء جبل عينين الذى كان يقع شرقى أرض المعركة وهم ٥٠ رجلا وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير وقال له: انضح عنا الخيل بالنبل. لا يأتوننا من خلف. إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك. لا نؤتين من قبلك. إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم. والخيل لا يخيفها سوى النبل الذى ينهال عليها فى وجوهها وصدورها فتفزع وتتراجع. وبهذا التخطيط أمن النبى من مهاجمة ميمنته وميسرته وكان يمكن للجيش أن يتقدم للالتحام مع العدو فى ساحة ضيقة نوعا ما مما يُمكِّن من الاستفادة من قوة وبسالة رجاله.

وفى صبيحة ٧ شوال (السبت ٢٢ مارس عام ٦٢٥م) وقف الجيشان الواحد قبالة الآخر فى نظام. وقام أبو عامر الراهب - الذى كان قد خرج من المدينة وانضم إلى قريش كما سبق أن ذكرنا (ص ٤٤٠) وتقدم فى نفر من رجاله يحمونه واقترب من جيش المسلمين ونادى على الأوس - عشيرته - يُخذِّلهم فقال: يا معشر الأوس. أنا أبو عامر. وأجابته الأوس بصوت واحد: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق وحصبوه بالحجارة فتراجع هو ومن معه إلى صفوف قريش وقال: لقد أصاب قومي بعدى شر. ولكن نظرات قريش المستهزئة كانت تحيطه من كل جانب.

١ - بعد ذلك بدأ الرماة من كلا الجانبين يسددون سهامهم إلى الجانب الآخر. وكانت مبارزة بين الرماة المائة من قريش والرماة الخمسين من المسلمين. وكان وقوف الرماة المسلمين على التل بمكان مرتفع قد أكسبهم ميزة في الرماية. وفى حماية رماة قريش تقدم خالد بن الوليد بفصيلته - ميمنة جيش قريش - يهاجم ميسرة المسلمين ولكنه عاد أدراجه تحت وقع السهام.

٢ - بعد ذلك بدأت المرحلة الثانية وهى المبارزة بين أبطال الجيشين. فخرج طلحة حامل لواء قريش وصاح: هل من مبارز؟ فخرج إليه على بن أبى طالب والتقيا فضرب علىٌّ طلحة على رأسه فشق هامته حتى انتهى إلى لحيته فوقع طلحة إلى الأرض صريعا. وتقدم أحد المشركين لحمل لواء قريش فقتله حمزة وراح الواحد بعد الآخر يحملون لواء قريش فكان المسلمون يقتلونهم. وخرج أبو سفيان ليقاتل وهو على فرسه. وواجهه حنظلة وكان راجلا وضرب قائمى الفرس فسقط أبو سفيان على الأرض وصاح طالبا النجدة فهرع إليه بعض رجاله وقتلوا حنظلة ونجا أبو سفيان.

٣ – وبعد أن انتهت مرحلة المبارزة اتسعت رقعة القتال واشتبك الطرفان فى معركة ضارية تفوق فيها المسلمون فى استخدام السيف وأبدوا ألوانا من البسالة ولكن دون تقدم كبير لتفوق قريش من ناحية العدد.

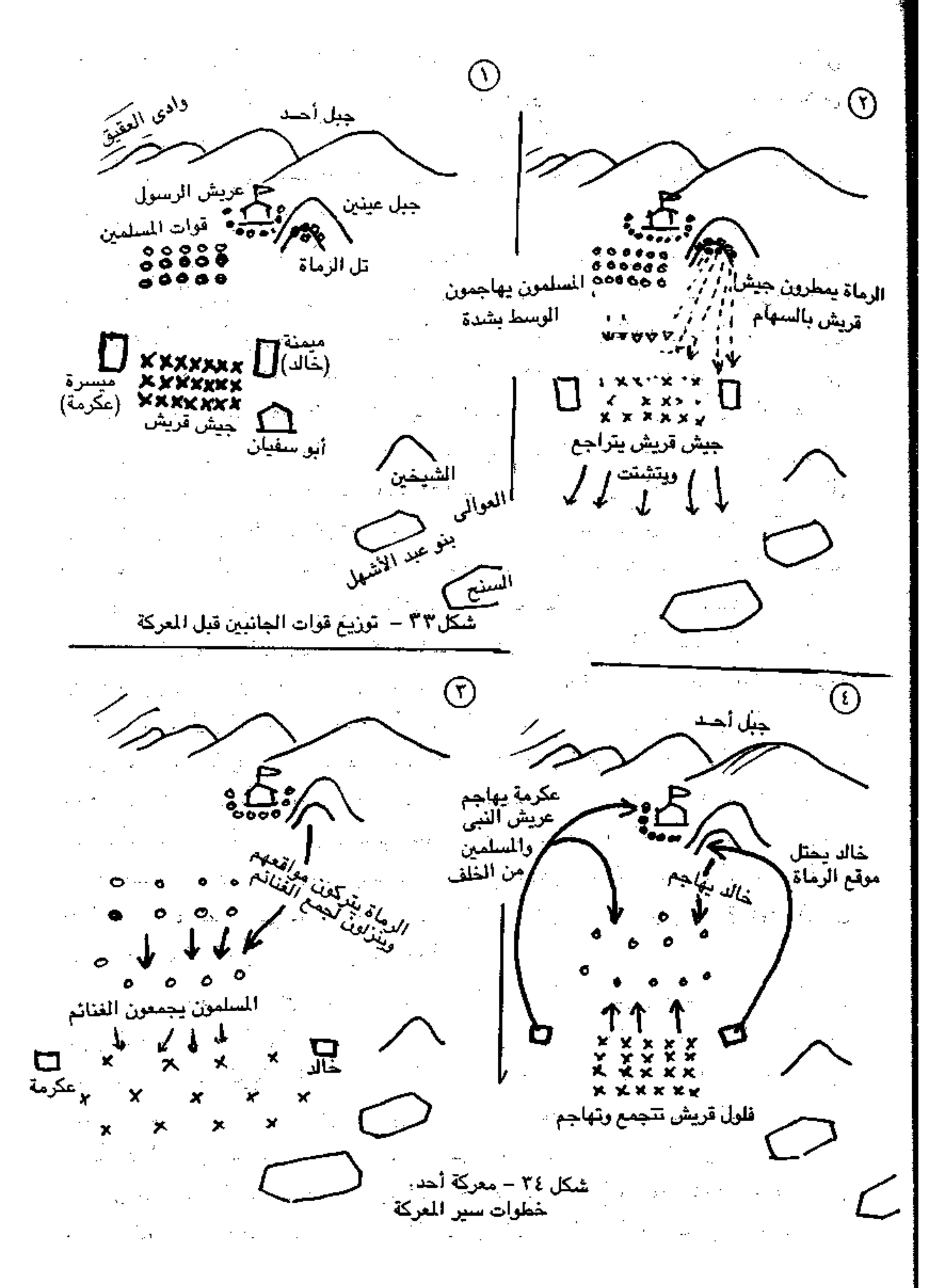
٤ – **مقتل حمزة:** كان حمزة يحارب عند أقصى ميسرة المسلمين وقد قتل أربعة من المشركين. وزحف وحشى من وراء الصخر واقترب من حمزة حتى أصبح على مرمى رمحه ثم وقف وسدد رمحه ورمى فاخترق الرمح بطن حمزه. وتمالك حمزة نفسه وتقدم من وحشى يريده ولكن قوته خارت ووقع على الأرض قتيلا. وانسحب وحشى من المعركة فلم يكن له هدف إلا قتل حمزة.

٥ – وزاد استبسال المسلمين فى القتال وبدأ جيش قريش يضعف أمام شدة هجمات المسلمين وتفككت صفوفه واستداروا يطلبون الفرار فى غير نظام وتعقبهم المسلمون. واندفعوا إلى معسكر قريش ينهبونه. (٣ – شكل ٣٤). وحدث هرج ومرج بسبب النسوة والأرقاء الذين كانوا فى المعسكر وكانوا يجرون طلبا للنجاة من القتل. وظن المسلمون أنهم كسبوا المعركة. ولكن جناحى جيش قريش ظلا صامدين. الميمنة بقيادة خالد بن الوليد والميسرة بقيادة عكرمة بن أبى جهل.

٦ – **الرماة يخالفون أمر رسول الله:** ظن الرماة المسلمون أن قريشا انهزمت وخشوا أن تفوتهم الفرصة فى الحصول على نصيبهم من الغنائم من معسكر قريش. فطلبوا من قائدهم عبدالله بن جبير السماح لهم بالنزول لأخذ نصيب من الغنائم ولكنه رفض طلبهم وذكّرهم بما قاله النبى لهم قبل المعركة. ولكنهم قالوا له: لم يُرِد رسول الله هذا. وقد أذل الله المشركين وهزمهم. واندفع معظمهم إلى معسكر قريش. ولم يبق مع عبدالله بن جبير إلا عشرة رجال.

٧ – ولم تفت هذه الحركة عين خالد المبصرة وانتظر حتى نزل الرماة من على التل وهجم بفرسانه على من بقى من الرماة وأجلاهم واستولى على التل. ولما رأى عكرمة ما فعل خالد والتفافه حول جيش المسلمين من ناحية الشرق. جمع رجاله وهاجم هو من الجانب الغربى وهجمت السريتان على المسلمين من الخلف (٤ – شكل ٣٤). وهجم عكرمة مع جماعة من سريته على الجماعة التى كانت تحيط بالنبى بينما هجم خالد على المسلمين الذين كانوا فى معسكر قريش.

٨ – واستعاد أبوسفيان سلطانه على معظم المشاة. وكان لواء قريش قد سقط فرفعته امرأه اسمها عمرة واستأنف الرجال القتال. ووقع المسلمون بين نارين فقد تعرضت مؤخرتهم إلى هجوم الفرسان وتعرضت مقدمتهم لهجوم المشاة وأصبح الوضع بالنسبة للمسلمين خطيرا وانقسموا إلى جماعات صغيرة راحت كل واحدة منها تحارب على غير هدى لا يهمها إلا أن تصد الهجوم الذى يقع عليها إلا أنهم لم يفقدوا رباطة جأشهم وصمموا على المضى فى القتال حتى آخر نفس فيهم.



شكل ٣٣ – توزيع قوات الجانبين قبل المعركة

شكل ٣٤ – معركة أحد:
خطوات سير المعركة

٩ - كانت هناك مجموعة من جيش المسلمين قوامها ٣٠ رجلا يحيطون بمكان النبى (٥ شكل ٣٥) وكانت تقف بين تل عينين وجبل أحد فى مؤخرة جيش المسلمين. وكان من بين الثلاثين رجلا. أبوبكر وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبدالله وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبو دجانه ومصعب بن عمير. وكان من بين هذه الجماعة امرأتان كانتا تسقيان المقاتلين.

ولما استولى خالد على موقع الرماة وبدأ خيالة قريش فى تطويق المسلمين من المؤخرة أدرك النبى خطورة الوضع. ولم يكن يستطيع الإتصال بقلب جيشه. ثم مالبث عكرمة وفرسانه أن هاجموا من الناحية الغربية وأحيط بجماعة النبى من أمام ومن خلف وتحلّق المسلمون حول النبى يحمونه وحمي وطيس القتال واستخدم النبى قوسه إلى أن انكسرت. ثم عمد إلى سهامه ونبله يعين بها سعدا الذى كان لمهارته أثرها فى المهاجمين من قريش. وكان عكرمة قد اقترب من موقع النبى. ولفت النبى نظر علىّ إلى هذه الجماعة فحمل علىّ عليهم ودفع بهم إلى الوراء بعد أن قتل واحدا منهم. وقدمت جماعة أخرى فتصدى لهم علىّ وقتل واحدا آخر. وبدأ رجال قريش فى رمى جماعة النبى بالسهام. ووقف أبو دجانة يحمى بجسده النبى من السهام موليا وجهه نحو النبى حتى بدا كالقنفذ ولكنه مع هذا ظل يقدم النبل لسعد يرمى بها العدو. وكان طلحة هو الآخر يتلقي النبل بيده فأطاح نبل بأحد أصابعه. ولما رأى المهاجمون صلابة الدفاع تراجعوا ليلتقطوا أنفاسهم ويعاودوا الهجوم. وهجم أبىّ بن خلف وهو يقول: أى محمد. لا نجوت إن نجا. فلما دنا تناول النبى الحربة من أحد الرجال ووقف ساكنا ينتظر أبي بن خلف الذى أذهله أن يرى النبى واقفا وكأنه ينتظره وفى سرعة رفع النبى حربته وسدد إلى صدر أبىّ الذى حاول أن يتفاداها فأصابت كتفه الأيمن قرب العنق. وكانت إصابته غير خطيرة إلا أنه سقط عن فرسه وانكسرت إحدى أضلاعه. وقبل أن يضرب النبى ضربته الثانية استدار أُبىّ وجرى هاربا وهو يرتعد ويقول: قتلنى محمد! ولما حاولت قريش تهدئته صاح مذعورا: سأموت. إنه قال لى بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علىّ لقتلنى. وظل على حاله من الفزع والروع. وفى طريق عودة قريش إلى مكة مات فى «سرف» غير بعيد من مكة.

١٠ - ووقف المسلمون يدافعون عن مواقعهم. وعيل صبر أبى سفيان وخالد وعزما على أن ينهيا المعرمة بسرعة. وقررت قريش أن تشدد من هجماتها وتقتل النبى نفسه. وتقدمت مجموعة من مشاة قريش واستطاع ثلاثة منهم أن يخترقوا الحصار وأن يقتربوا من النبى. وكانوا عتبة بن أبى وقاص. وعبد الله بن شهاب وابن قمئة وراحوا يقذفون النبى بالحجارة. فكسرت الحجارة سنتين فى فكه الأسفل وجرحت شفته وحجر ثالث جرح وجنته وأدخل حلقتين من حلق المغفر فى وجنته. وأمام هذه الضربات سقط رسول الله فى حفرة ولكن طلحة رفعه منها. وهنا قامت القلة من المسلمين الذين بقوا مع النبى بهجوم مضاد عنيف

دفعوا به قريشا إلى الوراء، واستل سعد سيفه واندفع نحو أخيه عتبه يريد قتله ولكن عتبة فر والمشركون من أمامه. وساد الهدوء الموقف مرة أخرى. وأخذ النبى يمسح الدماء من على وجهه وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم. وحاول أبو عبيدة أن ينتزع الحلقتين من وجه النبى واستخدم أسنانه في ذلك فانتزعهما ولكن سقطت سنتان من أسنانه.

وكانت أم أيمن - التى كانت تعنى بالنبى فى طفولته - تقف إلى جواره. فخرج من بين صفوف المشركين رجل سدّد سهمه نحوها فأصابها فعاجله سعد بسهم ناوله النبى له أصاب الرجل فى عنقه فمات.

١١ - ثم بدأت قريش هجوما ثالثا على النبى وضرب ابن قمئة بسيفه ضربة أصابت حلقات المغفر الذى على رأس النبى ثم مالت وسقطت على كتفه وكانت الضربة من الشدة بحيث سقط النبى بعدها. وكانت سقطته فى حفرة غير عميقة. وظن ابن قمئة أنه قد قتل النبى فركض ناحية قريش وهو يصيح إنى قد قتلت محمدا. إنى قد قتلت محمدا. وتردد صوته عبر ميدان القتال وسمعه كل من قريش والمسلمين. وكان لهذا النبأ أثره فى إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين. وهرب معظمهم في اتجاه جبل أحد. إلا أن قلة من المسلمين رأوا أنه مادام النبى قد قتل فلا معنى للحياة بعده. وهجموا على خيالة قريش مصممين على التضحية بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم. وإزاء هذه الجرأة فى القتال تراجع رجال قريش. ورأى النبى الطريق خاليا أمامه فقام من الحفرة. ولجأ هو ومن حوله من الرجال - وكانوا ١٤ فقط - إلى أحد شعاب الجبل. وصاح أحدهم وهو كعب بن مالك: أبشروا. هذا رسول الله. وما إن سمع المسلمون هذه الصيحة حتى هرع عدد كبير منهم إلى أعلى التل وانضموا إلى جماعة النبى (٦ شكل ٣٥).

١٢ - **توقف القتال:** لما سمعت قريش صياح ابن قمئة بأنه قد قتل النبى توقفوا عن القتال إذ اعتبروا المعركة قد انتهت بعد أن حققت هدفها الأكبر وهو التخلص من «محمد» وبالتالى توقف دعوته. ويرتد أتباعه إلى دين الآباء والأجداد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه قبل ظهوره! وراح أبو سفيان يتفقد ميدان المعركة ويبحث بين القتلى عن جثة النبى. غير أنه أُخبر أن النبى حىّ ولم يقتل. وحاول خالد محاولة أخيرة للوصول إلى مكان النبى ولكن كان بعض المسلمين قد اعتلوا مرتفعا من الأرض فرأى خالد أن هجومه لن يجدى فتراجع وتراجع جنود قريش كلهم والتف باقى المسلمين حول مكان النبى وخلت ساحة القتال من الجنود.

١٣ - واندفعت هند إلى حيث سقط شهداء المسلمين وراحت تبحث بينهم عن جثة حمزة. فلما وجدتها أعملت فيها سكينها وأخذت كبده تلوكها. ولما لم تستسغها لفظتها ثم جدعت أنفه

وأذنيه وطلبت إلى النسوة الأخريات التمثيل بباقي القتلي. وجاء وحشي إلى هند فأعطته كل ما كان عليها من حلي ووعدته بعشرة دنانير تعطيها إياه ساعة أن تعود إلى مكة. ولما نزعت حُليّها وضعت مكانها آذان الشهداء وأنوفهم بعد أن عملت منها قلائد وأقراطا.

وبعد أن انتهت هذه المأساة البشعة من التمثيل بجثث القتلي المسلمين أراد أبو سفيان أن يستوثق مما قاله ابن قمئة عن قتل النبي فوقف على صخرة عالية وصاح بأعلى صوته على المسلمين: هل محمد معكم؟ وأشار النبي إلى أصحابه بأن يصمتوا. وأعاد أبو سفيان سؤاله مرتين دون أن يتلقى جوابا ثم سأل عن أبي بكر وعمر ولم يتلق جوابا والتفت ناحية قريش وأخبرهم أن الثلاثة الذين ذكرهم قد قتلوا. واستراحت قريش لهذه المقولة إذ كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ ولم تعد لديهم رغبة ولا قوة على مواصلة القتال. وهنا تقدم عمر وصاح فى أبى سفيان: إنك لتكذب يا عدو الله فإن الثلاثة الذين عددت أحياء وإن منا من سينزل بك العقاب. وأيقن أبو سيفان أن النبى لم يقتل ولكنه أيضا كان موقنا أن المسلمين - بعدما أصابهم - لم يعودوا فى حال يستطيعون فيها أن يواصلوا - هم الآخرين - القتال وأنهم يتوعدونه بمعركة أخرى. فصرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال - يوم بيوم. يشير إلى بدر - ثم قال اعل هبل! فقال رسول الله، قم يا عمر فأجبه. فقال: الله أعلى وأجل. لا سواء: قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار. إلى هنا وأبو سفيان لا يزال يخامره أمل فى أن يكون ابن قمئة مصيبا وأن ما قاله عمر ما هو إلا نوع من الخداع. فاقترب أكثر من جماعة المسلمين وصاح: أنشدك الله يا عمر. أقتلنا محمدا؟. قال عمر: اللهم لا. وإنه ليسمع كلامك الآن. قال أبو سفيان: أنت أصدق عندى من ابن قمئة. ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان فى قتلاكم مُثل. والله مارضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت. وقال قبل أن ينصرف: إن موعدكم ببدر العام القادم. فقال النبى لأحد أصحابه أن يرد عليه: قل نعم. هو بيننا وبينكم موعد.

١٤ - وغادرت قريش ميدان المعركة وتجمعت فى المعسكر القديم الذى عسكرت فيه فى اليوم السابق للمعركة. وبعث النبى أحد الرجال ليستطلع ما إذا كانت قريش قد جنبت الخيل وامتطت الإبل. فذهب وعاد وأخبر النبى أنهم قد فعلوا كذلك فقال النبى: إن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم.

وسارت قريش وقضت ليلتها فى **حمراء الأسد** وكانت تبعد عن المدينة ١٥ كم أما المسلمون فعادوا إلى المدينة (شكل ٣٥).

١٥ - وفي صباح اليوم التالى - بعد أن صحا النبى من نومه - برغم ما كان به من آثار المعركة إذ تورمت وجنته وشفته وفقد سنتين من فمه وجُرح كتفه - فقد لبس لأمته (عدة

الحرب) وأمر بلالا بأن يدعو المؤمنين إلى القتال. وقرر ألا يخرج معه أحد إلا الذى عاد معه بالأمس. فخرجوا جميعا برغم ما كان بهم من جراحات وبعضها بالغ وكانوا نحوا من ٥٠٠ رجلا.

فى نفس الوقت كانت قريش تتحاور فى معسكرها .فقد طلب عكرمة - الذى لم تخمد روحه العدوانية - اغتنام الفرصة والزحف إلى المدينة للقضاء على المسلمين واستئصال شأفتهم قبل أن يستردوا أنفاسهم. ولكن صفوان بن أمية عارضه قائلا: لا تفعلوا، فإن القوم قد حَرِبوا (حرب قال واحرباه كناية عن اشتداد الغضب) وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا ورأى أبو سفيان معبد بن أبى معبد الخزاعى - وكان هوى خزاعة مع النبى - فسأله عما وراءه فقال قد خرج محمد فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على تخلفهم. فأخبره أبو سفيان أنهم ينوون الكرة عليهم فنهاه معبد عن ذلك وحذره من مغبة ذلك.

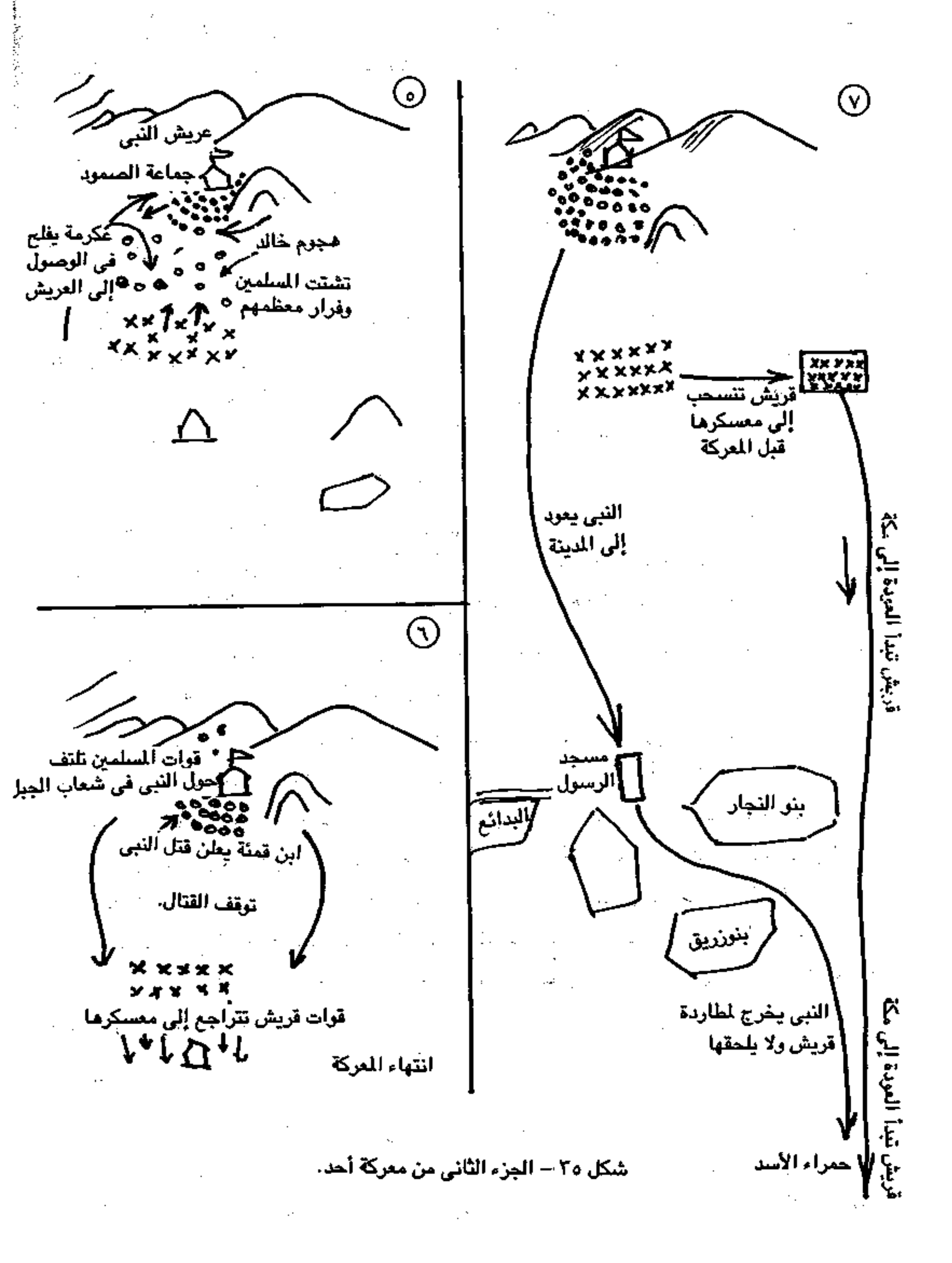
وبينما كان هذا الجدل دائرا أمسك جنود قريش برجلين من المسلمين كان النبى قد طلب إليهما الخروج لاستطلاع ما عزمت عليه قريش. ومع أن هذين الرجلين قد قتلا فى الحال فإن مجرد بعثهما للتجسس أكَّد المخاوف التى كانت تساور صفوان وأبا سفيان من أن المسلمين يريدون استئناف القتال. وفى الحال أصدر أبو سفيان أوامره بالاتجاه إلى مكة.

ووصل المسلمون بعد ظهر ذلك اليوم إلى حمراء الأسد فوجدوها خالية من أى أثر لقريش . وهناك أقاموا معسكرهم ٤ ليال ثم عادوا إلى المدينة.

وبهذا انتهت غزوة أحد وفيها قتل من المسلمين ٧٠ رجلا ومن قريش ٢٢. ومع أن المعركة انتهت بهزيمة المسلمين إلا أن الهزيمة لم تكن فاصلة وكانت غزوة أحد ثانى معركة كبيرة يخوضها المسلمون. وأول معركة يقودها أبو سفيان وأول معركة يشترك فيها خالد بن الوليد. وقد خسر المسلمون المعركة بسبب الرماة الذين عصوا أمر النبى وتركوا موقعهم. وأثبتت المعركة المقدرة الحربية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ونجاحهما فى الاحتفاظ بسيطرتهما على القوات التى كانت تحت إمرتهما لحين الإفادة منها فى الوقت المناسب. فاستغل خالد بن الوليد الفرصة التى سنحت أمامه أحسن استغلال فحوَّل ما كاد أن يحققه المسلمون من نصر تام إلى ما يشبه الهزيمة.

فى قتلى أحد:

قالوا إن النبى قال مَن رجل ينظر لى ما فعل **سعد بن الربيع**. فى الأحياء هو أم فى الأموات. فسار رجل من الأنصار إلى ميدان المعركة فوجد سعداً جريحا وعلى وشك الموت وقال له سعد: أبلغ عنى رسول الله السلام وأبلغ قومك عنى السلام. وقل لهم إنه لا عذر لكم



شكل ٣٥ – الجزء الثانى من معركة أحد.

عند الله إن خَلُصَ إلى نبيكم ومنكم عين تطرف ثم مات. وعاد الرجل وأخبر الرسول بما حدث. ورعى أبو بكر أسرة سعد بن الربيع من بعده وكان يقول: هو خير مني: كان من النقباء يوم العقبة. شهد بدرا واستشهد يوم أحد!

ثم خرج النبى بنفسه يلتمس حمزة بين القتلى فوجده ببطن الوادى وقد بُقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه. وحزن النبى وقال: لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثّلنّ بثلاثين رجلا منهم. وقال: لن أصاب بمثلك أبدا. ما وقفت موقفا قط أغيظ إلىّ من هذا. ثم قال: جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله. وكان حمزة عم رسول الله وأخوه من الرضاعة.

أما عن توعُّد رسول الله بالتمثيل بثلاثين من قريش فى أى معركة قادمة انتقاما لمثلتهم بحمزة فقد نزل قوله تعالى **«وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله. ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون»** (١٢٦ - ١٢٧ النحل). فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة.

وجاءت صفية - عمة رسول الله وأخت حمزة - لترى أخاها فأتته ونظرت إليه فصلّت عليه واسترجعت واستغفرت له ثم أمر به رسول الله فدفن بعد أن سُجِّىَ ببردة. وحمل ناس قتلاهم لدفنهم بالمدينة ولكن رسول الله نهى عن ذلك وقال: ادفنوهم حيث صُرعوا. وقال النبى: أنا شهيد على هؤلاء. إنه ما من جريح يجرح فى سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه. اللون لون الدم والريح ريح المسك. انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر (البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٤١). وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى قبر واحد.

وأثناء عودته إلى المدينة لقيته ابنة عمته حمنة بنت جحش (أخت زينب التى تزوجها النبي فيما بعد) وهى تبكي فقد نعى إليها الناس أخاها عبداله بن جحش وخالها حمزة بن عبد المطلب وزوجها مصعب بن عمير. ومر رسول الله بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنواح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله وبكى. وجاء نسوة على باب المسجد يُعزِّين رسول الله فى عمه حمزة ويبكينه فقال لهن: ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن. ثم لما زاد نواحهن نهاهن عنه.

قيل وجاء على بن أبي طالب بسيفه يوم أحد وقد انحنى فقال لفاطمة: هاك السيف حميدا فإنها قد شفتني ويروى أن رسول الله قال لعلى: لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا.

والمشهور أن عدد قتلى المسلمين يوم أحد بلغ ٧٠ رجلا وأشارت الآيات إلى هذا بقوله تعالى: **«أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا»** (١٦٥ - آل عمران). فقد قتل المسلمون يوم بدر ٧٠ رجلا من قريش وأسروا ٧٠ آخرين أى مثلى ما أصيبوا به يوم أحد.

قيل ونزلت بعد المعركة آية تعلق على ما قاله النبى أثناء المعركة حين شُجتْ رباعيته وسال الدم على وجهه إذ قال: كيف يفلح قوما خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم. وهو ما ذكرناه سابقا (ص ٥٥٣). كما قيل إن النبي كان يخص بعض زعماء قريش - مثل أبى سفيان وصفوان بن أمية والحرث بن هشام - باللعنة. ومن أقوالهم أيضا أنه كان يدعو على قريش ويقول: اللهم اشدد وطأتك عليهم. اللهم سنين كسنى يوسف. اللهم انج المستضعفين من المسلمين منهم. كما أنه كان يدعو علي قبائل لحيان ورعل وذكوان بسبب عدوانهم على جماعة من المسلمين واغتيالهم غدرا. فنزل قوله تعالى:

«ليس لك من الأمر شيء. أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. والله غفور رحيم» (١٢٨ - ١٢٩).

وفى الآيات تنبيه للنبى بعدم قطع الأمل فى الناس إذا وقفوا أحيانا بعض المواقف المتشددة منه فيلعنهم. وقد صدَّق المستقبل ذلك إذ أسلم الزعماء الثلاثة الذين ذكرت أسماؤهم آنفا كما أسلمت القبائل الثلاث أيضا.

تحريم الربـا:

ثم نزلت بعد ذلك آيات فى تحريم الربا لم ير المفسرون سببا لنزولها فى هذا الوقت بالذات. ومن المُرجَّح أن بعض المسلمين - وقد أنفقوا كل ما يملكون للتجهيز الحرب ونفقتها - ولم تكن هناك غنائم تعوض ما أنفقوا - راحوا يستدينون ليستطيعوا العيش. ولعل الدائنين استغلوا الموقف وكانوا يطلبون ربا علي أموالهم فنزلت الآيات. ومن ناحية أخرى فإن استكمال الوحي للتشريعات المنظمة للمجتمع الإسلامى ما كانت لتتوقف حتى فى خضم معركة كبيرة مثل معركة أحد. وكان قد سبق الإشارة إلى كراهية الربا فى القرآن المكى (سورة الروم. آية ٣٩ ص ٢٩٨) فى قوله تعالى: **«وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله»** وقلنا إن تحريم الربا لم يكن مناسبا لمجتمع مكة الذى كانت غالبيته من المشركين الذين يتعاملون بالربا. ولكن فى المجتمع المدنى - وجلُّه من المسلمين - فقد حان الوقت لتحريم الربا تحريما صريحاً فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون. واتقوا النار التى أعدت للكافرين. وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون. وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء (فى اليسر والعسر) **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين»** (١٣٠ - ١٣٦).

والآيات فضلا عن أنها تُحرِّم الربا فإنها تحبذ الصدقات.

تعزية وتسرية:

ثم نزلت آيات متعلقة بمعركة أحد ونتائجها فيها تعزية للنبى فى قتل أصحابه وتسرية عن المسلمين لكثرة قتلاهم وحتي لا تكسر الهزيمة همتهم فوجّهت الخطاب إلى المؤمنين مقررة سنة من سنن الله فى خذلانه للكافرين والمكذبين وأنهم يمكن أن يروا مصداق ذلك لو ساروا فى الأرض. ثم تنهى الآيات عن الشعور بالمهانة وعن الحزن لأنه بالرغم من نتيجة المعركة فهم الأعلون علي أعدائهم. ثم تلفت نظرهم إلى أنه إذا كان قد أصابهم أذى وسوء فقد أصاب أعداءهم مثله وأن الأيام دول وأن ما أصابهم اقتضته حكمة الله ليختبر الناس ويميز المؤمنين الصادقين الذين ينفذون أوامر الرسول بحذافيرها. وقد ثبت أن الرماة – بعصيانهم أمر النبى – كانوا السبب فى ضياع النصر الذى كانت تباشيره قد بدت كما أن الذين قُتلوا فقد أراد الله أن يكرمهم بالشهادة:

«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تَهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القومَ قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليُمَحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» (١٣٧ – ١٤٢).

والآيات ولو أنها نزلت بصدد وقعة أحد إلا أنها قواعد عامة من شأنها أن تكون منبع قوة روحية مستمرة تشد من أزر المسلمين فى كل زمان ومكان يقع عليهم جور وتصيبيهم نكسة أثناء حروبهم.

فى الشهداء:

ثم يتوجه الخطاب إلى المؤمنين وتذكرهم الآيات أنهم كانوا يتوقون إلى الاستشهاد فى سبيل الله. وكان فريق منهم ممن لم يشتركوا فى معركة بدر يتمنون لو تتاح لهم معركة ثانية يثبتون فيها جدارتهم. وقد تحققت أمنيات هؤلاء وهؤلاء ونشب القتال ولاقى بعضهم الموت فليس فى الأمر مفاجأة لهم. ثم نبهت الآيات إلى أن «محمداً» رسول جاء قبله رسل كثيرون وهو محكوم عليه بالموت كسائر البشر كما أنه معرَّض للقتل فى معركة فلا يصح أن يتخاذلوا إذا حدث ذلك. ثم تذكر الآيات ما كان من أمر الأنبياء قبله. فكثير منهم قاتل وقاتل معهم أتباعهم المخلصون وأصيبوا بالأذى والسوء فصبروا ولم يهتموا ولم يضعفوا لما أصابهم فى سبيل الله. بل لجأوا إلى ربهم يطلبون الغفران . إن كانت الهزيمة عقابا على ذنوب وقعت منهم. ويطلبون التجاوز عما يكون قد بَدَر منهم من تقصير فى حق الله. وطلبوا من الله أن

يثبت أقدامهم وينصرهم على الكفار. فكان أن أجاب الله دعاءهم وآتاهم ثواب الدنيا نصرا على الكافرين وثواب الآخرة بأحسن ما يكون والمفهوم أنها جنات النعيم:

«ولقد كنتم تمنَّون الموت من قبلِ أن تلقَوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين. وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا. ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين. وكأيِّن من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وَهَنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين» (١٤٣ - ١٤٨).

تحذير من أراجيف المشركين والمنافقين:

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين» (١٤٩ - ١٥٠).

والآيات تحذِّر من الاستماع إلى أقوال الكفار والمنافقين لأنهم يريدون أن يردُّوهم كفارا خاسرين مثلهم. وتطمئنهم الآيات أنهم بإيمانهم يكون الله مولاهم وهو الذى سينصرهم على الكفار.

ظروف الهزيمة فى أُحُد وأسبابها:

ثم تتطرق الآيات لشرح بعض الظروف التى أحاطت بالموقعة. وتبدأ بالتذكير بأن الله هو الذى صرف المشركين عن متابعة القتال.

«سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم يُنَزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين» (١٥١).

ولعل فى هذا إشارة إلى ما أشار به عكرمة من اغتنام الفرصة والزحف إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين قبل أن يستردوا أنفاسهم ولكن الله ألقى فى قلوب قريش الرعب فنهاهم صفوان بن أمية عن ذلك خشية أن يكون المسلمون أشد ضراوة في القتال فرجعوا.

ثم تستمر الآيات فى وصف تطورات المعركة إذ صدقهم الله وعده بالنصر فمكنَّهم من عدوهم وجعلهم يُمعِنون فيه تقتيلا وأراهم ما أحبوا من بوادر النصر. ثم إنهم تنازعوا على جمع الغنائم وعصى الرماة أمر النبى وتركوا أماكنهم وانقسموا إلى فئتين: فئة كان كل همها الدنيا والغنائم بينما الأخرى أرادت ثواب الآخرة فالتفت حول الرسول تدافع عنه وتحميه:

«ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فَشِلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين» (١٥٢).

فكان سعيهم وراء الغنائم سببا فى ضياع النصر الذى لاحت بوادره وكان ذلك اختبارا من الله وقد عفا الله عن المخالفين لفضله ورحمته وعلمه بمواطن الضعف البشرى. وكان من نتيجة عصيان الفئة الأولى أن انهزموا وفروا مذعورين لا يلوون على شيء ولكن الرسول وقف يهتف بهم من ورائهم ويدعوهم إلى الرجوع إليه. فجازاهم الله حزنا غامرا كالغمة – حتى لا يحزنوا على مافاتهم من الغنيمة ولا ما أصابهم من هزيمة.

«إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون» (١٥٣).

ثم لما هدأ روعهم أنزل الله عليهم نعاسا بحيث تسكن نفوسهم إلا أن فريقا منهم اندفعوا وراء الظنون والخواطر الجاهلية وراحوا يقولون لو كان لهم رأى فى الموقف والتدبير لما قتل الذين قتلوا ولما حلت الهزيمة فلفتت الآيات نظرهم إلى أن الأمر كله بيد الله والأجل موقوت عنده فى كتاب وأن من قتلوا لو ظلوا فى بيوتهم لما كان هذا حائلا بينهم وبين الموت وأن الأمر كان اختبارا من الله ليُظهر ما فى صدورهم وليعرف الناسُ ما فى قلوبهم إذ الله بسابق علمه يعرف ذلك كله.

«ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نُعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يُخفون فى أنفسهم مالا يُبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا. قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحِّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور» (١٥٤).

ثم تبين الآيات أن الذين فروا من المعركة إنما أوقعهم الشيطان في هذه الزلة بسبب ما كانوا قد اقترفوه من خطايا. ولقد علم الله ندمهم. وكفاهم ما أصابهم فعفا عنهم لأن الله غفور حليم:

«إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم» (١٥٥).

ثم تُحذِّر الآيات المؤمنين بألا يكونوا كالكفار الذين ينسون قضاء الله وحكمته فيقولون لمن يخرج متاجرا أو غازيا فيموت أو يقتل أنه لو لم يخرج لما مات أو قتل فليس من وراء هذه الأقوال إلا الحسرة والله هو الذى يهيىء أسباب الحياة ولكل نفس أجل معين وعلى المؤمن أن يعلم أن الموت فى سبيل الله ليس مصيبة تستوجب الجزع والحزن لأن الله يثيب عليه مغفرة

ورحمة تفوق كل ما يمكن لهم جمعه من حطام الدنيا. ومصير الناس جميعا مَن ماتوا ومَن قُتلوا هو الحشر إلى الله فى الآخرة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعلمون بصير. ولئن قُتلتم فى سبيل الله أو مُتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون. ولئن مُتُّم أو قُتِلتم لإلى الله تحشرون» (١٥٦ - ١٥٨).

ترفق النبى بالمسلمين فى هذه المحنة:

ثم تصف الآيات موقف النبى مما بدا من بعض المؤمنين من أقوال فيها تذمر ومرارة وحسرة فقد وسعهم بحلمه. الذى جبله الله عليه فلم يؤنب الرماة على ترك مواقعهم. ولا الفارين لتقديره للضعف البشرى لدى البعض فعامل الجميع باللين والرأفة. وذكرت الآيات أنه لو عاملهم بغلظة لانصرفوا من حوله. ومازاد المسلمين سكينة أن الله أمر النبى أن يعفو عنهم ويستغفر لهم الله. ثم تشير الآيات إلى مشاورته لهم قبل المعركة فى البقاء فى المدينة أو الخروج منها. وعند اكتمال المشورة عليه أن يتخذ القرار متوكلا على الله. وفى هذا تخفيف من شعورهم بالذنب لإصرارهم على الخروج من المدينة:

«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» (١٥٩).

وقد استنتج الفقهاء من هذه الآية أنه على الحاكم المشاورة فى الرأى ولم تحدد كيفية ذلك وتركته لظروف كل مجتمع وتغيرها بتغير الزمان. فقديما كان هناك جمع من ذى الرأى والحكمة والدين يسمون «المستشارون» أو «مجلس المشورة». ثم حديثا تم التوسع فى تطبيق المشورة فانتخبت المجالس النيابية ومجالس الشيوخ بحيث تمثل طبقات الأمة تمثيلا صحيحا. ويرى البعض أن هذه الآية تحبذ النظام الرئاسى الذى يكون فيه رئيس الدولة رئيسا للسلطة التنفيذية وهو الذى يتخذ القرار الأخير فى الأمور المصيرية والمشورة غير ملزمة. ولكن معظم الدساتير تجعل المشورة ملزمة مادامت لا تخالف الشريعة. وهناك مباحث فقهية عديدة فى نظم الحكم ليس هذا مجالها.

النصر من عند الله:

ثم تأتى آية موجهة إلى المسلمين تنبه إلى أن الله إذا كان قد قدَّر لهم النصر فلا أحد يستطيع أن يغلبهم. وإذا قدَّر خذلانهم فما من أحد يستطيع نصرهم. وفى هذا تسرية عنهم فلا ينساقوا وراء لوم أنفسهم على نتيجة المعركة وما يولده هذا من شعور بالإحباط قد يؤثر على أدائهم فى المعارك القادمة وعليهم أن يتوكلوا على الله ويتركوا أمر النصر له:

«إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١٦٠).

نهى عن إخفاء شيء من الغنائم:

وقيل إن بعض المنافقين كانوا قد أشاعوا أن النبى أخذ بعض الغنائم لنفسه، فنزلت الآيات تنفى عن أى نبى – وبالتالى عن رسول الله – إخفاءه لشيئ من الغنائم لأن ذلك لا يتفق مع مقام النبوة. ولا شك أن الآيات قصدت نهى المحاربين عن إخفاء غنائم أخذوها فى المعركة وتبين أن الغلول – وهو ما أخذ خفية – يؤتى به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد فتكون فضيحة وخزى لصاحبه، ثم يجازيهم الله سخطا منه ومصيرا بائسا فى نار جهنم:

«وما كان لنبى أن يغل، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسَخَط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون» (١٦١ – ١٦٣).

وفى حديث أخرجه الإمام أحمد قال النبى: إياكم والغلول، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة. وليس الغلول مقصورا على اختلاس بعض غنائم الحرب إذ هو يشمل كل ما أُخذ بغير حق من مال المسلمين. وسنرى فيما بعد أن رسول الله حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لإحضار الصدقة قال له: لا تصيبنَّ شيئا بغير إذنى فهو غلول ثم قرأ «ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة».

الرسول أعظم نِعم الله على المؤمنين:

«لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» (١٦٤).

وفى هذه الآية تقرير لنعمة الله وفضله على المؤمنين ببعثه رسولا منهم – وهو محمد – يبلغهم آياته وكانوا قبله فى جاهلية وفى ضلال شديد. ولعل المقصود هو أنه تكفيهم هذه النعمة وأن الرسول سالمٌ بينهم ولا يجب أن يحزنوا لما أصابهم فى معركة أحد، إذ الآيات التالية تقول:

«أوَلَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا، قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا (أى دافعوا عن أنفسكم) **قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان. يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين».** (١٦٥ – ١٦٨).

والآيات تقص ما حدث من تساؤل بعض المسلمين يستنكرون ما وقع بهم من مصيبة إذ قتل منهم في يوم أحد ٧٠ رجلا. وتذكرهم الآيات أنهم قد أصابوا من الكفار في بدر ضعف هذا العدد إذ قَتَلوا ٧٠ وأَسَروا ٧٠ - وراحوا بعد أُحُد يتساءلون من أين أصابهم هذا الانهزام. وترد الآيات بأن الانهزام نبع من أنفسهم إذ عصى الرماة أمر الرسول وتركوا مواقعهم ولم تكن الهزيمة إخلافا من الله بوعده بالنصر ولا تأخرا منه عن نصرهم لأن الله على كل شيء قدير ولكنها سنة الله الخالدة في أن من يعصِ الله ورسوله لابد أن ينال جزاءه فكان ذلك لابد منه ليعلم الله - وهو أعلم - بالمؤمنين ويميزهم عن المنافقين وهم عبدالله بن أبى بن سلول الذى انصرف ومعه ٣٠٠ من أتباعه ونكصوا ولما نهاهم عبدالله بن عمرو بن حرام السلمى الأنصارى عن ذلك قال ابن أبيّ: ما أرى أن يكون قتال. ولو علمنا أن يكون قتال لكُنَّا معكم. كما سبق ذكره في ص ٥٤٧. والله أعلم بما كان في نفوسهم من رغبة في هزيمة المسلمين فكانوا حينئذ أقرب إلى الكفر. ولم يكتفوا بذلك بل إنهم بعد المعركة راحوا يثيرون المرارة فى نفوس المسلمين ويظهرون الشماتة ويقولون لهم لو أطعتمونا ولم تخرجوا من المدينة لما أصابكم من القتل ما أصابكم. ثم تأمر الآيات النبي بتحديهم بدفع الموت عن أنفسهم لو كانوا صادقين فيما يقولون فالموت حق على كل العباد.

الشهداء أحياء عند ربهم:

ثم تأتى آيات فيها تعزية للمسلمين حتى لا يظنوا أن الذين قتلوا منهم يوم أحد راحوا سُدى وانتهوا فأخبرتهم الآيات أنهم عند ربهم ولهم التكريم والرزق الحسن. وهم فرحون ومستبشرون بما نالوه من نعمة الله وفضله ويبشرون الذين لم يُقتلوا ألاَّ يخافوا من القتال ولا يحزنوا إن تركوا الدنيا لأن ما سيلقونه عند ربهم من نعمة وفضل هو خير من الدنيا وما فيها وثوابهم لن يضيع:

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين» (١٦٩ - ١٧١).

وقد روى عن ابن عباس أن رسول الله قال لأصحابه: إن الله لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة لئلا يزهدوا فى الجنة ولا يتكلوا (يتقاعسوا) عن الحرب؟ فقال الله أنا أبلغهم فأنزل الآية: ولا تحسبن الذين قتلوا......». وحديث آخر أخرجه الإمام أحمد جاء فيه أن النبى قال: ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى بما يرى من فضل الشهادة. وهناك فى كتب

التفسير أحاديث أخرى كثيرة في فضل القتال والاستشهاد في سبيل الله. والآيات - وإن كانت نزلت بصدد معركة أحد - إلا أنها تنطبق على الشهداء في كل وقت وفي أي مكان. وفيها حث على الثبات على دين الله والجهاد في سبيله ومادام للشهيد هذه الحياة الكريمة عند الله فلا موجب للخوف من القتال ولا للجزع من الموت.

تنويه باستعداد المسلمين لاستئناف القتال:

ثم تأتي آيات تنوة باستجابة المحاربين في صبيحة اليوم التالي للمعركة لدعوة الرسول للخروج لمقابلة المشركين عند حمراء الأسد وهو ما ذكرناه ص ٥٥٤. وكان النبي قد طلب ألا يخرج معه إلا من شهد أحد فخرجوا معه رغم ما بهم من قرح وجراح. ثم تقصُّ الآيات ما قيل من أن جماعة من الأعراب مرُّوا بأبي سفيان فدسَّهم إلى المسلمين ليثبطوهم عن الخروج لملاحقه قريش وهم راجعون وراحوا يخوفونهم من قوة قريش ولكن ذلك لم يزد المسلمين إلا إيمانا وإصرارا على الخروج لملاحقة العدو وقتالهم إن لحقوهم. وكما ذكرنا أنه لم يلحقوهم ولم يمسسهم سوء وعادوا بنعمة الله وفضله سالمين لأنهم استجابوا لدعوة الرسول وفي ذلك رضوان الله:

«الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم» (١٧٢ - ١٧٤).

فضح المنافقين:

ويبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أن المنافقين يخوفونهم من أعدائهم ليجبنوا عن لقائهم. والمنافقون ليسوا إلا أعوانا للشيطان الذي يخوِّف أتباعه ويجعلهم يجبنون عن القتال. وتحث الآيات المؤمنين على عدم الاستماع إلى كلام المنافقين ووسوسة الشيطان وأن لا يخافوا إلا الله إن كانوا مؤمنين حقا. ثم يُوجَّه الخطاب إلى النبي بأن لا يحزن من هؤلاء المنافقين الذين يسارعون إلى الكفر لأنهم لن يضروا الله شيئاً وقصارى الأمر أن الله يريد ألا يكون لهم نصيب في الآخرة وأعد لهم عذابا عظيما. ثم إعادة تأكيد على أن الذين يفضلون الكفر على الإيمان ويبيعون هذا بذاك لن يضروا الله شيئا وأن الله أعد لهم عذابا أليما. ثم يتبع ذلك تحذير وتنبيه للكفار والمنافقين بأن لا يحسبوا أن ما تيسر لهم في الدنيا من أسباب القوة والثروة هو خير بل إن الله يُرخي لهم ليزدادوا انغماسا في آثامهم فيستحقوا العذاب المهين. ثم توضيح بأن ما حدث في موقعة أحد كان هدفه هو ألا يدع الله الطالح مختلطا بالصالح والمنافق ملتبسا أمره فكانت إرادة الله أن يميز الخبيث من الطيب ولم يكن الله ليطلعهم على

الغيب ويخبرهم بأمر المنافقين إلا أن يكون ذلك باختبار عملى بالمحنة التى حدثت. ثم تدعوا الآيات المؤمنين إلى التيقن من حكمة الله فى كل ما يقضى به ليكون لهم الأجر العظيم:

«إنما ذلكم الشيطان يُخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين. ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا. يريد الله ألاّ يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم. إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم. ولا يحسبن الذين كفروا أنَّما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» (١٧٥ - ١٧٩).

نهى عن البخل ومنع الزكاة:

«ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة. ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعلمون خبير» (١٨٠).

وقال المفسرون إن الآية نزلت فى مانعى الزكاة. ولعل المسلمين بعد وقعة أحد - كما ذكرنا سابقا - وقد أنفقوا الكثير من مالهم للتجهيز لها ولم يصيبوا شيئا من الغنائم تعوض ما أنفقوه فقصرت أيديهم فبدأوا يمنعون الزكاة فنزلت الآية تحذر من البخل وتخبر بأن ما يبخلون به سيكون نقمة عليهم يوم القيامة إذ سيكون طوقا من نار فى أعناقهم. وأن المال هو مال الله فهو مالك السموات والأرض وكل ما بها من ميراث وثروات.

اليهود يبخلون عن إقراض المسلمين:

والآيات التالية تقصد اليهود وإن لم يذكروا بالإسم لأن الصفات التى جاءت بها لا تنطبق إلا عليهم:

«لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد. الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتِيَنا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم، فلمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين. فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير» (١٨١ - ١٨٤).

وقد روى أن النبى أرسل أبا بكر إلى جماعة من اليهود يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم أركانه ومن جملتها الزكاة وأورد لهم آية فيها حث على إقراض الله قرضا حسنا فجادلوه وقالوا ما قالوا (تفسير الطبرى). وفى رواية أخرى أن النبى أرسله ليطلب منهم مالاً يستعين به على بعض حروبه فقالوا قولهم هذا.

والآيات تنذر من قالوا إن الله فقير وهم أغنياء بأن الله قد سجّل عليهم قولهم هذا كما سجّل على أجدادهم من قبل قتلهم الأنبياء وسوف يدخلهم عذاب النار جزاء على أفعالهم وأقوالهم والله عادل لا يظلم أحداً. وقد ذُكر قتل الأجداد للأنبياء كأنه صادر من اليهود المخاطبين زمن النبى والهدف مشابهة موقف الحاضرين بموقف السابقين وذلك على سبيل التنديد وبيان عدم غرابة ما يفعله الحاضرون لأنهم سائرون على درب آبائهم السابقين. وقد احتوت التوراة على خبر تحدى جرى بين النبى إيليا - وهو إلياس - وبين أنبياء وكهنة البعل بتقريب كل منهم قربانا فمن هبطت من السماء نار فأكلت قربانه كان هو الذى على حق - وقد نزلت نار من السماء فأكلت قربان إلياس وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الخامس ص ٢٥٨. وتنتهى الفقرة بمواساة النبى بأنه إذا كان اليهود يكذبونه فله أسوة بالرسل السابقين الذين جاءوا بالحق والكتب السماوية العديدة ومع ذلك كذبتهم أقوامهم.

وكما نقول فى عصرنا الحالى لمن يتكالب على الدنيا ويكنز الأموال أن الكفن ليس له جيوب أى نذكره بالموت وأنه لن يأخذ معه شيئا مما اكتنزه. كذلك جاءت الآية التاليه لتذكر اليهود الذين بخلوا بأموالهم - وتذكّر الناس جميعا - بحتمية الموت وأن الفوز الحقيقى يوم القيامة هو لمن أُدخل الجنة وأن الحياة الدنيا ما هى إلا متاع زائل:

«كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (١٨٥).

حث على الصبر على المصائب:

ثم تأتى آيات تنبه المسلمين إلى أنهم معرضون للابتلاء فى أموالهم وأنفسهم خسارة وتقتيلا وأنهم سوف يسمعون من اليهود والمشركين ما يؤذيهم وأن عليهم أن يصبروا ويثبتوا ويتقوا الله:

«لتُبلَوُنّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمَعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا. وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور» (١٨٦).

وقد روى المفسرون أن الآية نزلت بسبب جدال بين أبى بكر واليهود وغضبه لقولهم إن الله فقير وهم أغنياء. كما رووا أيضا أنها نزلت فى مناسبة هجاء كعب بن الأشرف اليهودى للنبى والمسلمين وقد ذكرنا مقتله (ص ٥٢٧). وعلى العموم فالآيات تدعو إلى الصبر وتحمُّل ما قد يصدر من أقوام ملأ الغيظ والحقد قلوبهم ففاضت بها ألسنتهم.

أهل الكتاب يخفون بعض ما فى كتبهم:

«وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون» (١٨٧).

والآيات تقرر أن الله قد أخذ عهدا على أهل الكتاب - والمقصود يهود المدينة - بأن يبينوا للناس ما فى كتبهم من صفات النبى الخاتم فكتموا ذلك وكتموا من الأحكام ما لا يتفق مع أهوائهم فألقوا ذلك كله وراء ظهورهم واستبدلوا به متاع الدنيا وهو ثمن بخس فى مقابل الهداية والإرشاد.

التنديد بمن يحب أن يُحمد بما لم يفعل:

روى أن أناسا من المنافقين كانوا يتخلفون عن رسول الله حتى إذا عاد من الغزو راحوا يتكلمون عن المعركة ليوهموا أنهم كانوا ممن شاركوا فيها:

«لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويُحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنَّهم بمفازة (بمنجاة) **من العذاب ولهم عذاب أليم** (فى الآخرة). **ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير»** (١٨٨ - ١٨٩).

بعض صفات المتقين:

ثم تأتى آيات تلفت النظر إلى أن فى خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار آية لأصحاب العقول الراجحة. ثم تصف هؤلاء بأنهم يذكرون الله فى جميع حالاتهم: قياما وقعودا وعلى جنوبهم وكأنهم يقضون كل وقتهم فى عبادة الله. بعد ذلك تأتى آيات فيها مناجاة رائعة بأسلوب سهل بديع تتكرر فيها كلمة «ربنا» خمس مرات.

«إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهارلآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا فاغفر لى ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا وتوفَّنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك (من نصر وتأييد فى الدنيا) **ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عندالله والله عنده حسن الثواب»** (١٩٠ - ١٩٥).

والآيات من روائع الفصول القرآنية وأقواها تأثيرا فى النفس وبعثا على الخشوع والهيبة من الله. وقد روى أن النبى كثيرا ما كان يتلوها فى جوف الليل وبالأسحار ويبكى كلما تلاها. ومع أن الآيات قصدت الفئة المخلصة التى أخلصت فى إيمانها ولم تتردد وقاتلت فى سبيل الله وتحملت التضحيات إلا أن الأسلوب فيه معنى الشمول والتعميم ويحمل فى طياته دعوة إلى التأسى بتلك الفئة والدعاء بما كانت تدعو به لنيل الدرجة العليا التى نالتها.

نهى عن الاغترار بنعيم الدنيا الزائل:

«لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار» (١٩٦ – ١٩٨).

والخطاب فى هذه الآيات للنبى والمقصود عامة المسلمين وتنبيههم إلى عدم الاغترار بما يتمتع به الكفار من أسباب الغنى فليس ذلك إلا متاع قصير الأمد. ثم مآلهم إلى النار. وفى المقابل فإن للمتقين جنات النعيم.

بعض أهل الكتاب مؤمنون:

«وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا. أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» (١٩٩).

وفي الآية تنويه بفريق من أهل الكتاب يؤمنون بالله وبالقرآن وبالكتاب الذى أنزل إليهم إيمانا مخلصا لا يحرفون ولا يبيعون آيات الله بأى ثمن فلهؤلاء عند الله الأجر الذى يستحقونه والمفهوم طبعا أنها جنات النعيم.

وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ومن آمن من قومه بالرسالة النبوية. فإن النبى لما بلغه موت النجاشى دعا إلى الصلاة عليه فقال المنافقون إنه يصلى على رجل من غير دينه فنزلت الآية. ومنها أنها نزلت فى عبدالله بن سلام. أحد أحبار اليهود وغيره من اليهود الذين آمنوا. ومنها أنها نزلت فيمن آمن بالنبى من أهل الكتاب عامة وبعضهم كتم إيمانه خوفا من بطش قومهم.

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة:

«يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» (٢٠٠).

وفى الآية أمر للمسلمين بالصبر ومغالبة أعدائهم بالصبر والاستعداد الدائم للحرب والمرابطة الدائمة للعدو والالتزام بتقوى الله ضمانا للفوز والفلاح. ولا شك أن الآية تهيىء المسلمين للمعارك القادمة وتحثهم على الاستعداد لها.

أحداث السنة الرابعة للهجرة

محرم		ــــــــ
صفر	٧	تآمر أبى سفيان لقتل النبى.
	١٠	سرية بئر معونة وغدر بنى سليم.

	١٥	يوم الرجيع وغدر بنى لحيان.
ربيـــع الأول		غزوة بنى لحيان.
ربيـع الثانـى		ـــــــ
جمادى الأول		غزوة ذات الرقاع.
جمادى الثانى		وفاة أبى سلمة.
رجب		ـــــــ
شعبان		غزوة بدر الآخرة.
		زواج النبى من أم حبيبة بالوكالة فى الحبشة.
رمضان		مولد الحسين بن علي.
		وفاة عبدالله بن عثمان بن عفان.
شوال		زواج النبى من أم سلمة.
		إجلاء بنى النضير.
ذو القعدة		نزول «سورة الحشر».
ذو الحجة		ـــــــ

تآمر أبى سفيان لقتل الرسول:

روى ابن كثير (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٥) خبر هذه الواقعة وسماها **سرية عمرو بن أمية الضمرى** ومفادها أن أبا سفيان استأجر رجلا من مكة ليأتى المدينة ويقتل «محمدا» غدرا. فلما جاء الرجل إلى المدينة وجد النبى فى المسجد يحدث أصحابه فهابه ولم يتمالك إلا أن أسلم وأخبر النبى بتحريض أبى سفيان له عليه. ورداً على ذلك أرسل النبى عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم إلى مكة حتى إذا أصابا من أبى سفيان غرة قتلاه. ولمّا أتيا مكة وطافا بالبيت سبعا وصلّيا ركعتين التف الناس حولهما واشتما أنهما لم يأتيا فى خير وحاولوا إيذاءهما ولكنهما هربا منهم وعادا إلى المدينة.

قريش ترصد المكافآت:

كانت قريش قد رصدت مكافآت لمن يأتى لهم بمن قتلوا أشرافهم فى أُحد ليقتصوا منهم. فكانت القبائل تتسمّع أخبار من يخرجون من المسلمين من المدينة فى تجارة أو لأى غرض آخر فإن كان فيهم أحد ممن رصدت له قريش مكافأة تبعوه بغية الإيقاع به ليبيعوه فى مكة ويقبضوا المكافأة. وهو ما يمكن تشبيهه بقنّاصى الغرب الأمريكى الذين كانوا يتبعون

ويتصيّدون من رصدت الحكومة جائزة للقبض عليهم. كذلك لجأت قريش إلى تحريض من استطاعت استمالتهم من القبائل على خداع بعض المسلمين ليثقوا بهم ثم يعمدوا إلى قتلهم غدرا، مع مخالفة ذلك للأخلاق العربية الأصيلة.

غدر أبى براء بن مالك وبنى سليم وتسمى سرية بئر معونة:

بئر معونة أرض فى نجد شرقى المدينة بين بنى عامر وبنى سليم (شكل ٣٦) وقد وقعت أحداث هذه السرية فى صفر سنة ٤ من الهجرة بعد أُحُد بأربعة أشهر. وروى ابن هشام (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٠٦) أن أبا براء عامر بن مالك قدم المدينة فعرض عليه رسول الله الإسلام فلم يسلم ولم يرفض واقترح على النبى إرسال رجال من أصحابه إلى نجد يدعون الناس إلى الإسلام لعلهم يستجيبون له فأبدى النبى تخوّفه عليهم من أهل نجد فقال أبو براء: أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث النبى كما يقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٩) ٧٠ رجلا ساروا حتى أتوا إلى بئر معونة ومن هناك بعثوا رجلا بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فقتله عامر ثم استصرخ قبائل بن سليم فأجابوه وأحاطوا بالرجال وقتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد. وكان عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار يرعيان بالقرب من مكان المذبحة فلما علما بها قاتلا حتى قتل الأنصارى ونجا عمرو بن أمية. وفى طريق عودته لقى رجلين من بنى عامر فتحين فرصة نومهما وقتلهما ظنا منه أنهما من القوم الذين قتلوا السرية عند بئر معونة مع أنهما كانا يحملان عهدا من رسول الله. وعاد عمرو كما عاد كعب بن زيد إلى المدينة وأخبرا رسول الله بما حدث فحزن على رجاله حزنا شديدا وقال هذا عمل أبى براء. وقالوا ظل النبى يدعو على القتلة شهرا كاملا فى صلاته. وكان على النبى أن يدفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية. وما نراه أن ما ذكر عن عدد الرجال الذين بعثهم الرسول – فيه مبالغة ولعلهم كانوا سبعة أو سبعة عشر فما كان رسول الله ليبعث ٧٠ من رجاله لمجرد دعوة قبيلة إلى الإسلام. وإن كانوا سرية ومعهم أسلحتهم فهم قادرون على حماية أنفسهم فلا يؤخذون على غرة فيُقتلون عن آخرهم إلا واحدا!

يوم الرجيع وغدر بنى الحيان:

والرجيع على بعد ثمانية أميال من عسفان بين مكة وعسفان (٢ شكل ٣٦): وكانت الوقعة فى صفر سنة ٤ للهجرة. وذلك أن النبى أرسل سريه ليأتوا له بأخبار أهل مكة إذ كان النبى حريصا على معرفة نوايا قريش تجاهه وعما إذا كانوا يستعدون لمعركة أخرى فيستعد لها فأرسل ٦ رجال هم:

١ – مرثد بن أبى مرشد الغنوى.
٢ – خالد بن البكير الليثى.
٣ – عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح.
٤ – خبيب بن عدى.
٥ – زيد بن الدثنة بن معاوية.
٦ – عبدالله بن طارق.

وأمرَّ عليهم عاصم بن ثابت. ووصل خبرهم لبنى لحيان وديارهم شرقي الجحفة. فخرج منهم حوالي مائة رام واقتصوا أثرهم حتى لحقوهم عند الرجيع وأحاطوا بهم وطلبو منهم أن يستسلموا ليأسروهم ليبيعوهم فى مكة. فأما الثلاثة الأول: مرثد وخالد وعاصم فقد أبوا وقاتلوا حتى قتلوا وأما الثلاثة الآخرون فقد رضخوا للأسر فساروا بهم فى طريق مكة حتي إذا كانوا بمرِّ الظهران قبل مكة بـ ٢٠كم (انظر نفس الخريطة) انتزع عبدالله يده من القيد وأخذ سيفه ليحارب فتكاثروا عليه ورجموه بالحجارة حتى مات.

وفى مكة ابتاع **خبيبا** حجير بن أبى إهاب التميمي فقتله بأبيه الذى قتله خبيب فى معركة أحد. وقيل لما أخرجوه إلى التنعيم ليقتلوه قال لهم إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا. فتركوه فصلىَّ ركعتين. ثم قال لهم: أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوَّلت جزعا من القتل لا ستكثرت من الصلاة. فكان أول من استنَّ صلاة ركعتين قبل الإعدام. ولم يقتلوه مباشرة بل احتشد حوله رهط كبير من العبيد والنسوة والأطفال وأمروا صبيانا يحملون رماحا بدفعها فى جسمه حتى تخضَّب جسده بالدماء التى انبثقت من عشرات الجروح فى كل مكان ولكن دون أن تنفرج شفتاه عن صرخة تنم عن ألم. ثم تقدم عبد ودفع رمحه إلى مكان القلب واضعا النهاية لحياته.

وأما **زيد بن الدثنة** فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أميه بن خلف فأخرجوه من حرم البيت إلى التنعيم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا زيد. أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك؟ فقال والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى. فقال أبو سفيان. ما رأيت فى الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتلوه.

لما بلغ نبأ غدر بني لحيان إلى النبى غضب وحزن حزنا شديدا لمقتل أصحابه وعزم على الانتقام من بنى لحيان ولكنه قدَّر أنهم لابد آخذون حذرهم فأرجأ غزوهم إلى وقت أخر حتى يأخذهم على غرة. وتتابعت الأحداث فلم تحن فرصة إلا بعد غزوة الخندق وإجلاء بني قريظة فكانت غزوة بنى لحيان – كما أجمع كتاب السيرة – فى السنة السادسة للهجرة (ص ٦٠٤).

غزوة ذات الرقاع (٣ – شكل ٣٦):

حدثت فى جمادى الأول من السنة الرابعة للهجرة. وقيل سميت كذلك لما كانوا يلفون به أقدامهم من الخرق والرقاع من شدة الحر وسخونة الأرض.

وسار النبى فى أربعمائة رجلا من أصحابه (وقيل سبعمائة) فى اتجاه شمال شرق إلى نجد يريد بطنين من عطفان هما بنو محارب وبنو ثعلبة. قالوا وتقارب الناس ولم يكن هناك قتال.

غزوة بدر الآخرة (٤ شكل ٣٦) :

قلنا سابقا (ص ٥٥٤) إن أبا سفيان قبل انصرافه من معركة أُحُد نادى على المسلمين وقال: إن موعدكم بدرا العام المقبل. فأمر رسول الله رجلا أن يجيبه: نعم هو بيننا وبينك موعد. فلما رجع النبي من غزوة ذات الرقاع أقام بالمدينة جمادى الأول وجمادى الآخرة ورجبا ثم خرج في شعبان سنة ٤ هجرة في ١٥٠٠ رجلا منهم ٥٠ فارسا ووصل الجيش إلى بدر ولكنهم لم يجدوا أثرا لقريش. وكان أبو سفيان لما سمع بخروج المسلمين من المدينة فإنه جمع قريشا وخرج من مكة في ٢٠٠٠ رجل و١٠٠ فارس وكان في الجيش رجال شجعان مثل خالد وعكرمة وصفوان. ولما وصل مجنة قبل عسفان بقليل يبدو أن أبا سفيان وصلته أخبار عن قوة المسلمين وأنهم ١٥٠٠ رجلا وهي أقل قليلا من جيشه إلا أنه يعرف شجاعة المسلمين في القتال لذلك قرر الرجوع فقال لرجاله: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا واحتج صفوان وعكرمة ولكن دون جدوى إذ عاد الجيش كما أشار أبو سفيان. وسمّاهم أهل مكة «جيش السويق» وقالوا لهم: إنما خرجتم تشربون السويق.

وعلم النبي من البدو ما كان من رجوع قريش فرجع هو الآخر إلى المدينة. وكان هذا مكسبا أدبيا كبيرا إذ عُرِف أن قريشا نكصت عن لقاء المسلمين.

في رمضان وقع حدثان:

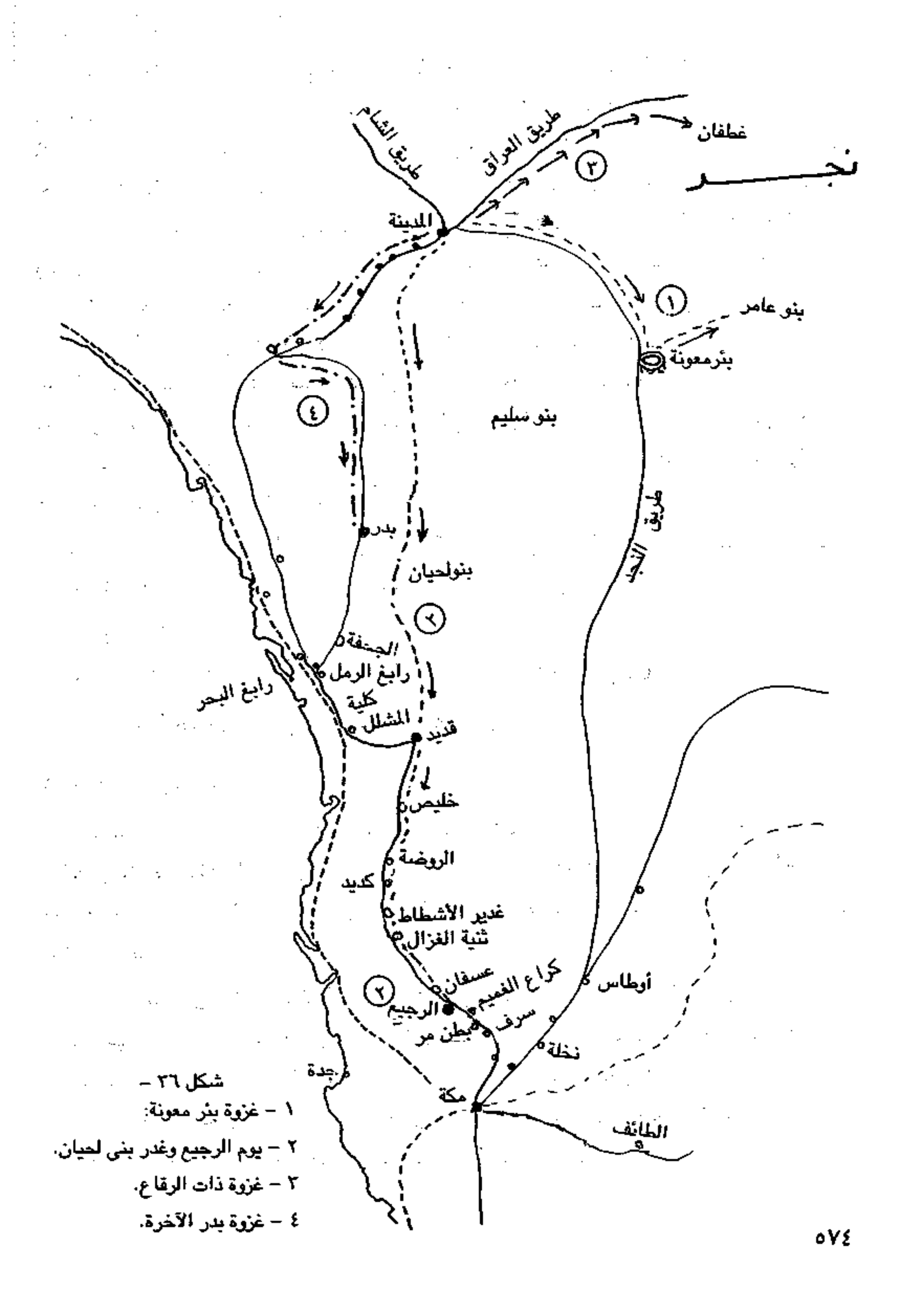
١ – وفاة عبدالله بن عثمان بن عفان من زوجته رقية بنت رسول الله.

٢ – مولد الحسين بن علي من زوجته فاطمة بنت رسول الله.

زواج النبي من أم سلمة:

وأم سلمه هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية. وأبوها أحد سادة قريش واشتهر بشدة الجود والكرم. ولُقِّب «زاد الركب» لأنه إذا سافر لا يترك أحدا يرافقه يأخذ معه زادا بل كان يكفي رفقته من الزاد. وزوجها الذي مات عنها هو أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد ابن عمة النبي.

وقد ذكرنا (ص ٢٤٩) محاولة هجرتها هي وزوجها بعد بيعة العقبة الأولى. وقد احتجزها قومها فهاجر أبو سلمة وحده. وانتزع أهل زوجها وليدها منها فظلت تبكيهما حتى رقُّوا لها وسمحوا لها بالهجرة هي وابنها. وكان زوجها – أبو سلمة – ممن شهدوا غزوة أحد وأبلى فيها بلاء حسنا وجرح جرحا عميقا ظل يداويه عدة أشهر حتى بدا أنه برئ. ثم خرج في سرية فانتقض عليه جرحه فمات في جمادى الثانية سنة ٤ من الهجرة.



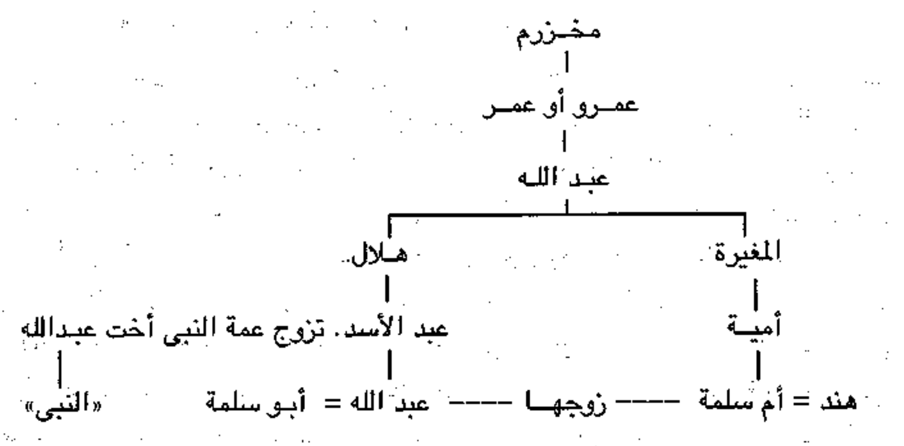
شكل ٣٦ –

١ – غزوة بئر معونة.

٢ – يوم الرجيع وغدر بني لحيان.

٣ – غزوة ذات الرقاع.

٤ – غزوة بدر الآخرة.



وعلم النبى بما آل إليه حالها بعد وفاة زوجها وليس لها معين. فلما انقضت عدتها أرسل إليها عمر بن الخطاب يخطبها له فذكرت له أنها امرأة غيرى وأن لها صبية من زواجها. فكان رد النبى: أما الصبية فإلى الله وإلى رسوله. وأما الغيرة فأدعو الله أن يذهبها. فقالت لعمر: قد رضيتُ وأذنتُ . فتزوجها النبى فى شوال وأدخلها فى بيت خزيمة أم المساكين التى كانت قد توفيت وقد أحدث زواجها غيرة فى قلب عائشة وحفصة لما كانت تتمتع به من جمال. ولكنها كانت تحفظ قدرهما ومنزلتهما من النبى فلم تنافسهما فى ذلك. وأما ابنها سلمة فكان كبيرا فتركته مع أعمامه وبعثت بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة لتتفرغ لواجباتها الزوجية.

ومما يروى أنها كانت صريحة مع عمر بن الخطاب. وفى موقف كان عمر يعاتب حفصة فى مراجعتها للنبى فى بعض الأمور فقالت لعمر منكرة: عجبا لك يا ابن الخطاب. قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ويُروى أن عمر قال: فأخذتنى أخذا كسرتنى به.

ويروى أيضا أنه بينما كان النبى فى بيت أم سلمة جاءت الزهراء ومعها الحسن فضمه إليه وقال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه مجيد. فبكت أم سلمة فسألها النبى عما يبكيها فقالت: خصصتهم وتركتنى وابنتى. فقال: إنك وابنتك من أهل البيت. وكان النبى يهتم بأبناء أم سلمة كلهم: سلمة وعمر والبنتين: درة وزينب. فشبوا فى كفالة النبى ورعايته. وقام بتزويج سلمة من أمامة ابنة عمه الشهيد حمزة بن عبد المطلب. ويروى أن زينب (ابنة أم سلمة) دخلت على النبى وهو يتوضأ فنضح من الماء على وجهها. قالوا فكانت أفقه نساء زمانها ولم يزل وجهها شابا حتى كبرت وعجزت (بنت الشاطىء. تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٢٧).

إجلاء بني النضير

كان عهد النبى مع اليهود والذى وقعه معهم فور وصوله إلى المدينة. وقد سبق ذكره (ص ٤٣٣) يتضمن « .. وأن بينهم (المسلمين واليهود) النصر والنصيحة والبر دون الإثم. وأنه لم

يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم. وإن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم...»

قال ابن اسحق (السيرة النبوية. ابن هشام. جـ ٣ ص ١١٠). وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فأتاهم الرسول ومعه أبو بكر وعمر وعلي يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى. فقالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم إلى بعض وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – والنبى قاعد جنب جدار من بيوتهم – فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال أحدهم وهو عمرو بن حجاش بن كعب: أنا لذلك. فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال. فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام هو وأصحابه من مكانهم وإن هى إلا لحظات حتى سقط حجر كبير على المكان الذى كان يجلس فيه. فخرج من ديار بني النضير ورجع إلى المدينة. وأخبر الناس بما أرادت يهود من الغدر به وأمر رسول الله الناس بالتهيؤ لحربهم.

وكان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبداله بن أبىّ بن سلول وغيرهم من رؤساء النفاق قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنَّعوا. إنا لن نسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم. وأرسل النبى إلى اليهود فى اليوم التالى إنذارا بالجلاء فى ظرف عشرة أيام على أن يأخذوا أموالهم المنقولة ويقيموا وكلاء على أرضهم وبساتينهم. ولكن عبداله بن أبىّ حرَّضهم على الرفض. فاغتروا ورفضوا فحاصرهم النبى وضيق عليهم. وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاما وإرهابا. ولم يف خلفاؤهم المنافقون بما وعدوهم من النصرة. فرضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم وعنادهم وهى تسليم سلاحهم وتنازلهم عن أرضهم وبساتينهم وحمل منقولاتهم فقط.

ومما يروى أن بنى النضير أرادوا إظهار اللامبالاة وهم يخرجون فكانت قيانهم يعزفن ويضربن الدفوف. وأنهم هدموا بيوتهم وحملوا خشبها: الأبواب والنوافذ وما كان فى السقف. وخرج اليهود كلهم بما فيهم سيدهم حيي بن أخطب وابنته صفية ولجأوا إلى إخوانهم فى خيبر وبعضهم لجأ إلى الشام. وأسلم اثنان فرد عليهم النبى داريهما وبساتينهما. ويروى أن المسلمين غنموا ٣٤٠ سيفا و٥٠ درعا و٥٠ بيضه وهى غطاء الرأس فى الحرب.

ونزلت سورة الحشر تروى حادثة خروجهم:

«سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم. هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر (إجلاؤهم إلى خيبر والحشر الثانى كان إلى الشام) **ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يُخرِبُون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله ومن يشاقِّ الله فإن الله شديد العقاب»** (١ – ٤).

«يخربون بيوتهم بأيديهم» إشارة إلى ما كان اليهود يفعلونه من هدم بيوتهم لأخذ عوارضها الخشبية وأبوابها وشبابيكها. وتعبير **«شاقوا الله ورسوله»** واسع المعنى فهو يشمل كل ما من شأنه عداوة الله ورسوله من الصد عن الدعوة والاستخفاف بالنبى والجدل للتشكيك فيما جاء به أو ما كان يفعله كعب بن الأشرف – أحد شعرائهم – من هجاء النبى والمسلمين إلى آخر ما فعلوه من محاولة قتل الرسول.

وكان اليهود – وقت الحصار – وقد قلنا إن النبى أمر بقطع بعض النخيل حتى لا يتسلل إليه بعض اليهود فى محاولة لفك الحصار عن إخوانهم – فنادوا أن يا محمد. قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبُ مَن صنعه. فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فنزلت الآية التالية تبيح ما فعلوه بأنه بإذن الله ولضرورة حربية ولإجبارهم على الخروج:

«ما قطعتم من لينة (نخلة) **أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** (فلا حرج عليهم) **وليخزى الفاسقين»** (٥).

ويروى أن بعض المسلمين طلبوا من النبى قسمة أملاك وبساتين بنى النضير أسوة بغنائم بدر أى بعد إفراز الخمس لبيت المال والمعوزين من المسلمين فنزلت الآيات تقرر أن تكون جميعها لبيت المال ذلك أن المسلمين لم يحاربوا ولم يتكلفوا مشقة أو مؤونة ولم يسيروا مسيرة تحتاج إلى خيل أو ركاب **«فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب»**. ولم يقاسوا ضربا بالسيوف أو رميا بالنبال. بل كان فيئا ساقه الله إلى رسوله. فهو كله لله وللرسول أن يوزعه حسب ما أراه الله سابقا: على ذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وليس للأغنياء نصيب فيه حتى لا يزدادوا غنى وتصبح الثروة محصورة التداول بينهم. ثم تحث الآيات المؤمنين على أن ينفِّذوا ما يأمرهم به النبى وأن ينتهوا عما نهاهم عنه وعليهم بتقوى الله لأنه شديد العقاب على من يخالف أمره:

«وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولَة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. واتقوا الله إن الله شديد العقاب» (٦ – ٧).

وأسلوب الآية يجعل التشريع عاما شاملا لكل ما يدخل فى حوزة رسول الله وخلفائه من بعده من أموال العدو بدون مشقة أو حرب. فجعلت الفىء كله لبيت المال لينفق منه الرسول على فقراء المسلمين ومحتاجيهم ومصالح الإسلام والمسلمين. والجهات التى يصرف فيها الفىء هى التى خصص لها خمس الغنائم فى سورة الأنفال (الآية ٤١ ص ٥١٢). كما أن قوله تعالى **«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»** هو تشريع حاسم وعام وهو جزء من العقيدة الإسلامية. ويعنى طاعة الرسول وتنفيذ أوامره حال حياته والسير على سنته بعد وفاته

وهو شامل لكل زمان ولكن يجب التأكد من صدور الأحاديث فعلا عن الرسول وفقا لما أقره علماء المسلمين من ضوابط لذلك.

ثم تأتي آية تخصُّ بالذكر فئتين من المسلمين هم أحق بالإنفاق عليهم: ١ - فقراء المهاجرين الذين اضطروا للخروج من ديارهم والتخلي عن أموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة دينه ورسوله. ٢ - فقراء الأنصار الذين كانوا فى المدينة من قبل وآمنوا ورحَّبوا بالمهاجرين وأحبُّوهم وآثروهم على أنفسهم كما سبق أن ذكرنا (ص ٤٣٦) بالرغم مما كان ببعضهم من فاقة وحاجة. وهؤلاء قد وقاهم الله من الشح وهم المفلحون:

«للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غِلا للذين آمنوا. ربنا إنك رؤوف رحيم» (٨ - ١٠).

المنافقون يؤازرون اليهود:

ثم تأتي آيات تشير إلى محاولة المنافقين تشديد عزيمة اليهود وقد ذكرنا سابقا (ص ٥٧٦) نُصحَ عبدالله بن أبيّ بن سلول - زعيم المنافقين - لهم بالتمنع بحصونهم ووَعْده لهم بأنهم إذا قوتلوا سيقاتلون معهم. وأن تأييدهم لهم سيبلغ أقصى الحدود لدرجة أنهم إذا أخرجوا من ديارهم سيخرجون معهم. ثم تقرر الآيات أنهم فى هذا كاذبون فلن ينصروهم ولن يخرجوا معهم. وحتى لو قاتلوا معهم لفروا من المعركة. وأنهم سيذوقون عاقبة تعنتهم مثل الذين من قبلهم. وهى إشارة إلى إجلاء بنى قينقاع (ص ٥٢٦). و مَثَلُ المنافقين فى هذا كالشيطان الذى يزين للإنسان الكفر ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه وسيُلقى الاثنان فى النار جزاء لهم على أفعالهم:

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً. وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنَّ الأدبار ثم لا يُنصرون. لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون. لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون. كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم. كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» (١١ - ١٧).

وفي الآيات إشارة إلى طبيعة اليهود في القتال، فهم دائما يحتمون في حصونهم ووراء أسوار مدنهم ولم يخرجوا أبدا للقتال في ساحة معركة. كما أنهم لا ينصرون إخوانهم. فلم يساند يهود بني النضير أو بني قريظة يهود بني قينقاع. وكذلك لم يناصر يهود بني قريظة يهود بني النضير لأن قلوبهم متفرقة.

حث المؤمنين على التقوى

بعد التنديد بالمنافقين في الآيات السابقة جاءت آيات توصي المؤمنين بتقوي الله والتدبر فيما قدموا من عمل للغد أي ليوم القيامة وتحذرهم من أن يكونوا مثل أولئك الذين نسوا الله فأهملهم ولم يوجههم إلى ما ينجيهم. ثم تقرر عدم مساواة أصحاب النار بأصحاب الجنة. فأصحاب الجنة هم الفائزون:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون» (١٨ - ٢٠).

ثم تأتي **الفقرة الخاتمة للسورة** شديدة القوة وبعبارة نافذة تقرر أن هذا القرآن لو نزل على جبل لتصدع خشوعا لله وخوفا منه. وهو مثل لتقريب المسألة إلى الأذهان وتنطوى على تنديد بالذين لا يتأثرون عند سماع القرآن. ثم تأتي مجموعة رائعة من أكثر من ٢٠ اسما من أسماء الله الحسنى لم تجتمع في آيات قليلة مثل هذه مع أنها وردت متفرقة في آيات كثيرة.

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون. هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (٢١ - ٢٤).

وقد أورد ابن كثير (تفسيره جـ ٤ ص ٣٤٤) حديثا أخرجه الإمام أحمد أن النبى قال: من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الآيات الثلاث من آخر سورة الحشر وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة.

ومر ذو القعدة وذو الحجة من ذلك العام (الرابع للهجرة) بسلام لم تقع فيهما أحداث تذكر.

أحداث السنة الخامسة للهجرة

محرم

صفر

ربيــع الأول	غزوة دومة الجندل.
ربيــع الثانــى	سورة الجمعة.
جمـادى الأول	ـــــــ
جمادى الثانى	ـــــــ
رجب	ـــــــ
شعبان	ـــــــ
رمضان	ـــــــ
شـوال	غزوة الخندق و «سورة الأحزاب».
	إجلاء بنى قريظة.
ذو القعـدة	وفاة سعد بن معاذ.
	إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.
ذو الحجة	زواج النبى من أم حبيبة بنت أبى سفيان.

غزوة دومة الجندل (شكل ٣٧) :

كانت قبائل كلب وجذام وقضاعة النصرانية تعتدى على قوافل المسلمين المتجهة إلى الشام والعراق. كما أنها كانت تتجمع من حين إلى آخر لغزو المدينة. فخرج الرسول – قيل فى ألف من المسلمين – من المدينة قاصدا «دومة الجندل» على بعد حوالى ٥٥٠كم شمال شرق المدينة – وكان ذلك فى شهر ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة – قاصدا بث الرعب فى هذه القبائل وفى نفوس الروم. ويقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٧٧) إنه لقى مرعى لبني تميم فاستولى على ما فيه من ماشية. وجاء الخبر إلى هذه القبائل فتفرقوا فى دروب الصحراء وشعاب الجبال. فأقام النبى فى دومة الجندل عدة أيام دعى فيها إلى الإسلام فأسلم الكثيرون. ثم عاد إلى المدينة ولم يكن هناك قتال.

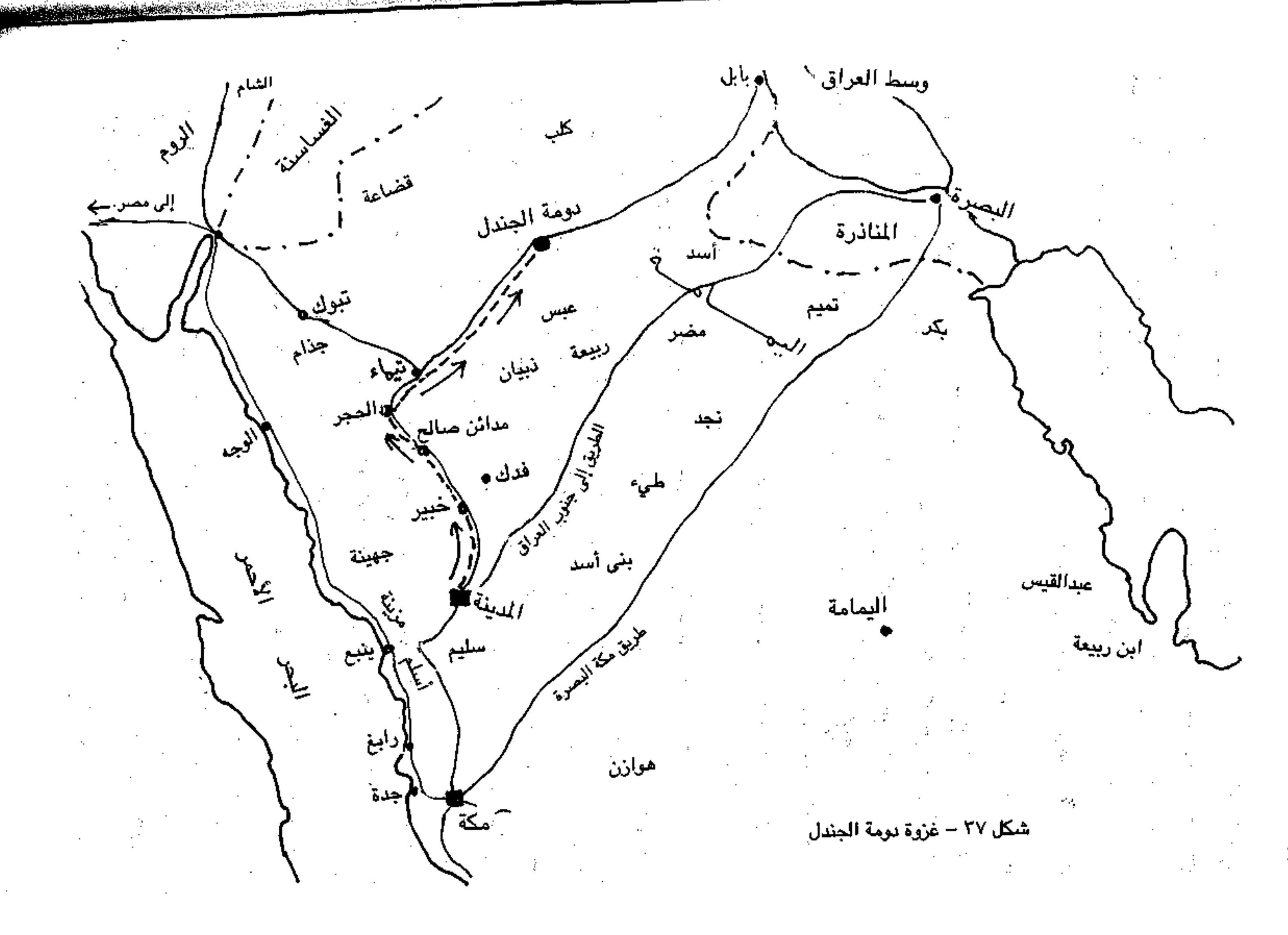
سورة الجمعة :

وفى السورة ثلاثة موضوعات رئيسية:

١ – بيان فضل الله على العرب بإرساله نبى عربى منهم لهدايتهم.

٢ – تنديد باليهود وبتفاخرهم بأنهم شعب الله المختار. ولم يكن قد بقى فى المدينة منهم سوى يهود بنى قريظة.

٣ – تقنين يوم الجمعة باعتباره يوم العبادة الأسبوعى للمسلمين.



شكل ٣٧ - غزوة دومة الجندل

وتبدأ السورة بتقرير أن كل ما فى السموات والأرض يسبح لله:

«يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم. هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين. وآخرين منهم لَمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (١ - ٤).

بعد المطلع التمهيدى الذى يقرر خضوع كل ما فى السموات والأرض لله وتقديسهم له تُبين الآيات فضل الله على العرب بإرساله رسولاً منهم يتلو عليهم القرآن الكريم ويطهر نفوسهم ويعلمهم الكتاب وما فيه من حكمة بعد أن كانوا فى ضلال شديد وأن رسالته ليست قاصرة على الحاضرين بل تشمل الأجيال التالية **«وآخرين منهم لما يلحقوا بهم»** فضلا من الله ورحمة بالعباد.

ثم يأتى تنديد لاذع باليهود لعدم تمسكهم بكتاب الله. فقد آتاهم الله التوراة وأمرهم بإتباعها وتنفيذ ما بها من أحكام. فلم يقوموا بحقها ولم يطيقوا تحمُّل ما بها من أوامر ونواهى فكأنهم مثل الحمار الذى يحمل كتبا ولا ينتفع بما فيها. ثمَ تتحداهم الآيات بأنهم إذا كانوا صادقين فى زعمهم أنهم أولياء الله وأصحاب الحظوة لديه دون سائر الناس فليتمنوا الموت الذى يقربهم من الجنة التى يمنون أنفسهم بدخولها. وتؤكد الآيات أنهم لن يتمنوه أبدا لخوفهم من المصير الرهيب الذي ينتظرهم بسبب ما اقترفوه من آثام وآخرها تكذيبهم بالنبى ثم إنذار لهم بأن الموت الذى يخافونه ويهربونَ منه لا محالة نازل بهم فيرجعون إلى الله عالِم المستقبل المغيَّب وعالِم الحاضر المشاهَد. وحينئذ يخبرهم الله بما عملوا والمفهوم أنه سيحاسبهم على أفعالهم:

«مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا. بئس مثل القوم الذين كذَّبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين. قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبدا بما قدَّمت أيديهم والله عليم بالظالمين. قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالِم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (٥ - ٨).

الجمعة يوم العبادة الأسبوعى للمسلمين:

سبق أن ذكرنا (ص ٤٢٨) أن النبى بعد أن خرج من قباء فى آخر مراحل الهجرة أدركته صلاة الجمعة فصلاّها فى «ذى رانوناء». وهذا يدل على أن صلاة الجمعة كانت قد شُرِّعت قبل ذلك شفاهة. ثم جاءت الآيات الحالية لتعيد التأكيد على أهمية يوم الجمعة كيوم العبادة الأسبوعى لدى المسلمين وضرورة ترك المسلمين ما في أيديهم من أعمال عند سماع الأذان

لصلاة الجمعة ليتسنى لهم سماع الموعظة ثم الصلاة. وقد أباح الله للمسلمين - بعد انقضاء الصلاة - القيام بأعمالهم المعتادة تخفيفا من الله لأمة محمد إذ يحرم على اليهود مباشرة أى عمل آخر في يوم السبت سوى العبادة أو تناول ما يلزم من مأكل ومشرب. ثم تختم السورة بتنديد بالمسلمين الذين كانوا يتركون المسجد والنبى يخطب حينما يسمعون الطبل يعلن بقدوم قافلة للتجارة وتبين لهم أن ما عند الله من الفضل والثواب أنفع لهم من اللهو ومن التجارة وليطلبوا رزق الله بطاعته:

«يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما. قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين» (٩ - ١١).

غزوة الخندق

دور اليهود فى الحشد للمعركة:

سبق أن ذكرنا أن اليهود كانوا يُشكلون عنصرا هاما بالمدينة. ولما قدم النبى المدينة لم يُبد اليهود أى تحفظات على مقامه فيها بجوارهم لأنهم استبعدوا وجود أى تهديد قد يأتيهم من ناحيته ولعلهم ظنوا أنه فى يوم من الأيام سيتبع دينهم ويصبح مجرد نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقوون به على الأوس والخزرج. لذلك عقدت قبائلهم الثلاث: بنوقينقاع وبنوالنضير وبنو قريظة. عهدا مع النبى (ص ٤٣٣) يقضى بعدم تقديم أى طرف من الطرفين أى معونة أو مساعدة لأى عدو للطرف الآخر فى حالة اشتباكه في حرب.

ولكن لما فشا الإسلام فى الأوس والخزرج وآخى النبى بينهما فأصبحوا قوة واحدة تساند النبى بدأ اليهود يخاصمون الدين الجديد. وزادت مخاصمتهم له بعد انتصار المسلمين في موقعة بدر وعندئذ نقض بنو قينقاع عهدهم وآذوا المسلمين كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٢٦). فكان حصارهم ثم إجلاؤهم عن المدينة فهاجروا إلى الشام.

أما بنو النضير فإنهم حاولوا اغتيال النبى (ص ٥٧٥) فكان إجلاؤهم هم أيضا عن المدينة فلجأوا إلى يهود خيبر شمال المدينة وأقاموا معهم. أما القبيلة الثالثة - بنو قريظة - فقد ظلت تعيش بسلام في المدينة وكانت علاقتها بالمسلمين علاقات طبيعية وسليمة. وكان كل من الجانبين يحترم العهد المبرم بينهما ويتقيد بشروطه. ولكن يهود بنى النضير - الذين أبعدوا عن المدينة واستوطنوا خيبر كانوا يحملون في قلوبهم حقدا على المسلمين وراحوا يتحينون الفرصة للكيد للمسلمين. ولما انتهى موعد بدر الآخرة بدون قتال (ص ٥٧٣) قدم وفد من يهود خيبر إلى مكة وكان على رأسه حيى بن أخطب الذى كان سيد بنى النضير بالمدينة ومعهم نفر من بنى

وائل والتقي الوفد برجال قريش وراحوا يزينون لهم مهاجمة المدينة وشرح لهم أخطب خطورة المسلمين على تجارتهم مع الشام. وكانت قريش فعلا قد حولت معظم تجارتها إلى العراق بعيداً عن المدينة حتى لاتقع فى أيدى المسلمين. فراح اليهود يخوفونهم من أنه إذا وصل الإسلام والمسلمون إلى اليمامة فسيقطعون على قريش طريق التجارة مع العراق والبحرين (شكل ٣٧) فلا يبقى لهم إلا التجارة مع اليمن. ورأى أبو سفيان أنه لو حدث هذا لاهتز اقتصادهم وفقدوا صدارتهم للعرب. وسأل أبو سفيان حييّ بن أخطب: إنكم أهل الكتاب الأول وتعلمون ما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. أفديننا خير أم دينه؟ ورد عليه حييّ بن أخطب: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه. وقد أنزل الله فى ذلك الآيات:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنم سعيرا» (٥١ - ٥٥ النساء).

وقد أعجب قول حييّ بن أخطب قريشا واستجابوا لطلبه وراحوا يتأهبون للحرب. ثم ذهب الوفد إلى **غطفان وبنى أسد** ودعوهم إلى حرب محمد فاستجابوا ووافق الجميع على الاشتراك فى حملة كبيرة تخرج لمقاتلة المسلمين واستئصال شأفتهم. وبدأت قريش حشد الرجال فجهزت ٤٠٠٠ رجلاً و٣٠٠ فارسا و ١٥٠٠ بعيرا وجهزت غطفان ٢٠٠٠ رجلا ومن بنى فزارة وبنى أسد وبنى أشجع وبنى مرة وبنى سليم ٧٠٠ مقاتلا. ولما كملت استعداداتهم خرجوا من مكة ومن مناطقهم فى أول شوال سنة ٥ هجرية قاصدين المدينة.

وجاء العيون بأخبار تجمعات الأحزاب إلى المسلمين بالمدينة. وفزع الناس لما سمعوا عن حشد كل هذه الكتائب من مختلف القبائل. صحيح أن عدد المسلمين قد زاد بما يمكنهم من حشد ٣٠٠٠ من الرجال. ألا أنه كان بينهم مئات من المنافقين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم. واستقر الرأى على عدم الخروج من المدينة والبقاء فيها للدفاع عنها.

لم يكن من السهل مهاجمة المدينة من جهة الشرق لوجود صخور بركانية فى **«حرة واقم»** - وهى الحرة الشرقية - فلا تتيح للجنود أو الفرسان القتال وهى بذلك تعتبر خط دفاع طبيعى. كذلك توجد فى الغرب **«حرة الوبرة»** مكونة أيضا من صخور بركانية وعرة وهذا ما أشار النبى فى حديثه وهو يومئذ بمكة قبيل الهجرة (ص ٢٣٨): قد أريت دار هجرتكم. أريت سبخة ذات نخل بين حرتين.

واقترح سلمان الفارسى خطة. قدُم لها بأن شرح أنه حين تورط جيش الفرس فى حرب دفاعية فى ظروف قاسية ضد عدو مهاجم حفر الفرس خندقا واسعا وعميقا حال دون تقدم العدو. وكان هذا الإجراء غير معروف لدى العرب ولم يسبق أن استخدموه فى حروبهم ولكنه

كان الحل الأمثل فى مثل حالهم وقبل النبى الاقتراح وأمر بحفر الخندق. وراح المنافقون - كعادتهم - يثبطون الهمم ويقللون من جدواه. ولكن النبى شجَّع المسلمين واشترك بنفسه فى حفر الخندق ونشط الناس للعمل. وقُسِّم العمل بين المسلمين لكل عشرة منهم أربعون ذراعا أى حوالى ١٨ مترا. وكان حسان بن ثابت يطوف بالعاملين ينشدهم شعره ويبث فيهم الحماس. وامتد الخندق من «جبل شيخين» فى الشرق إلى «تل ذباب» ومنه إلى «جبل بنى عبيد» فى اللامة الغربية (شكل ٣٨). وكان طوله حوالى ٢كم وعرضه ٦ أمتار وعمقه ٥ أمتار.

وتحكى كتب السيرة روايات عن أنه كثيرا ما كان الحفر يقابل صخرة كبيرة - فى القطع المخصص لجماعة - تستعصى على فؤوسهم فكانوا يلجأون إلى النبى الذى كان يأخذ معوله ويضرب ضربة شديدة يتطاير منها الشرور وهو يقول الله أكبر فتتفتت الصخرة. كما يروى أن الرجال كانوا يغنون وهم يحفرون.

نحن الذين بايعنا محمدا ∴ على الإسلام ما بقينا أبدا

ويجيبهم النبى. اللهم لا خير إلا خير الآخرة. فبارك فى الأنصار والمهاجرة. وكان النبى ينقل معهم التراب حتى يغبر وجهه وجسمه.

ويروى أنه أثناء الحفر عرضت لهم صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول فشكوا ذلك إلى رسول الله. فأخذ المعول وقال بسم الله وضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: الله أكبر. أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر. ثم ضرب ضربة ثانية فقطع ثلثا آخر وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض. ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ ٣ ص ١٩٤). وقال المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم.

وأثناء حفر الخندق شعر أحد الصحابة وهو جابر بن عبدالله أن النبى قد جاع فذهب إلى بيته وكان عنده صاع من شعير وماعز صغيرة فأمر امرأته بتجهيزها ليدعو النبى للغداء عنده. ثم جاء إلى النبى وأسرَّ له أنه أعد له غداء ولنفر قليل من أصحابه. ولكن النبى صاح فيمن حوله من الرجال: أن يا أهل الخندق إنَّ جابرا قد صنع وليمة فهيا إليها وعمد النبى إلى البرمة وبارك ثم أكل وأكل جميع أصحابه. قيل وقد قاربوا الألف - وقاموا والبرمة ملآنة لآخرها لم تنقص.

وكان المنافقون يقومون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم النبى فى حين كان الرجل من المسلمين إذا أراد قضاء الحاجة استأذن من رسول الله قبل انصرافه ثم يعود مسرعا إلى العمل رغبة فى الجزاء من الله. ونزل فى هؤلاء:

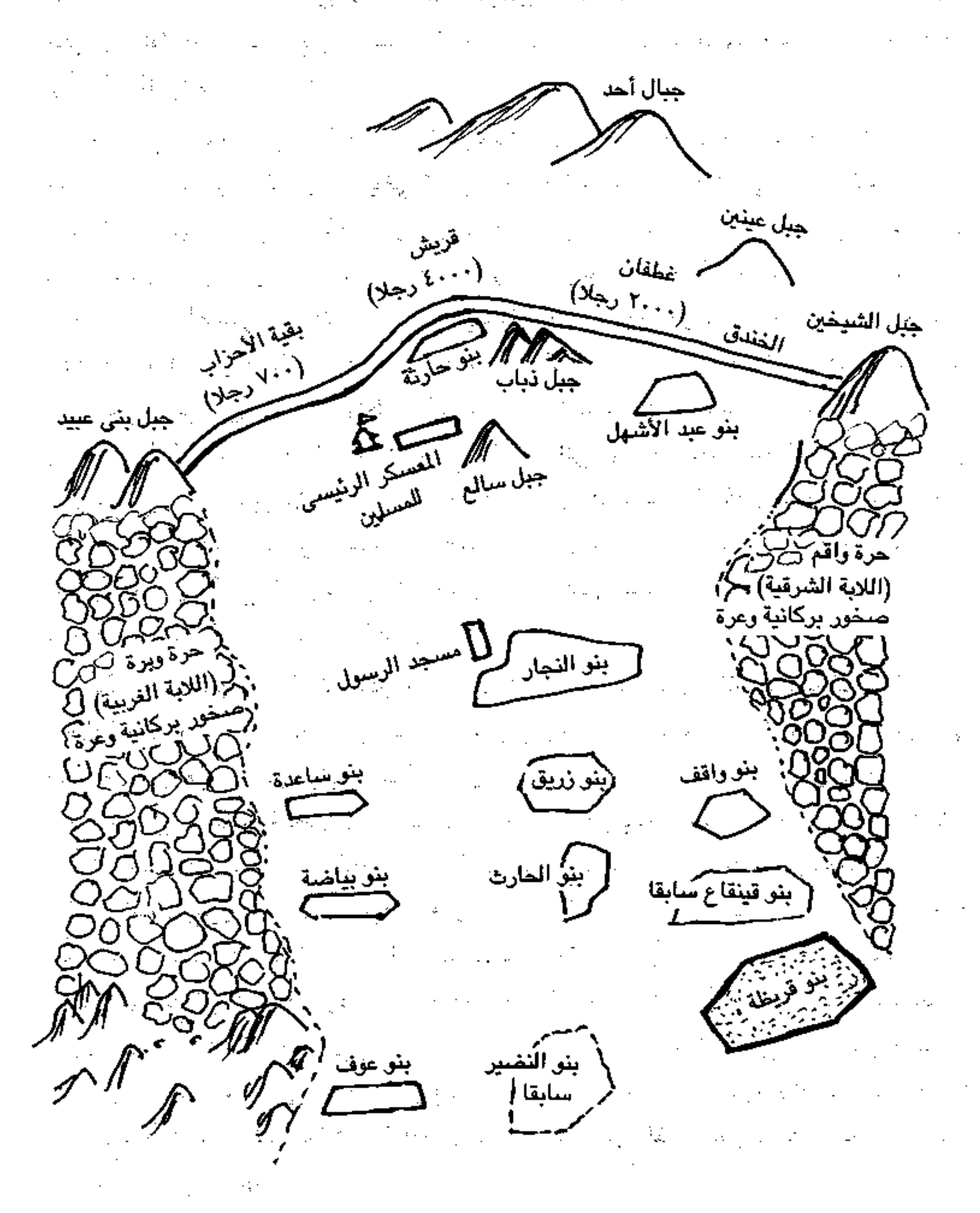
«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه. إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم. لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا. قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِوَاذا (خفية) **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»** (٦٢ – ٦٣ – النور).

ولما انتهى المسلمون من حفر الخندق نصبوا معسكرهم أمام «تل سالع». وكانت الخطة التى وضعها النبى تقضى بأن يقوم أغلب الجيش بالضرب فى أى موقع يمكن للعدو أن يطأه عبر الخندق ووضع النبى على طول الخندق مائتى رجل لتحذير الجيش من أى هجوم مفاجىء وكان عليهم مراقبة التلال التى تشرف على الخندق. وكُلِّفت قوة تتألف من ٥٠٠ رجلا بحراسة مختلف مناطق المدينة لمنع أى شخص قد يتسلل إليها خفية ولحراسة المناطق التى لا يحيط بها الخندق. أما النساء والأطفال فقد وضعوا فى الحصون والدور البعيدة عن جبهة القتال. وكان الاعتماد على أن يمنع يهود بني قريظة – بمقتضى العهد بينهم وبين النبى – أى اختراق من ناحية دورهم الموجوده فى الطرف الجنوبى الشرقى من المدينة.

وكان الوقت شتاء. وكان الشتاء قارس البرد في ذلك العام. ولما رأت قريش الخندق فزعت وعجبت. وقالوا إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. وأدرك أبو سفيان أن الخندق سيعوق تقدم قواته وكان يمنّى نفسه بإحراز نصر سريع لكثرة عددهم وأسلحتهم. وضرب الأحزاب معسكرهم على طول الخندق من الناحية الشمالية والشمالية الغربية. وحاصروا الخندق. كانوا يأتون إليه فى النهار مقابل الناحية التى يقف عندها المسلمون ويتبادلون الرماية بالسهام. كما كان بعض رجالهم يحاولون أن يجدوا ثغرة يستطيعون أن ينفذوا منها إلى المسلمين ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد لمنع أى اختراق. أما أثناء الليل فكان المشركون يعودون إلى معسكرهم تاركين حراسا حول الخندق خوفا من تسلل بعض المسلمين إلى معسكرهم ليخربوه.

ومضت ١٠ أيام منذ بدء الحصار دون أن يقوم أى جانب خلالها بعمل جدى. وبلغ الجهد من الجانبين مبلغه. ولم يكن بالمدينة فائض من الغذاء ولذلك فقد أنقصت مخصصات الفرد من الغذاء إلى النصف. وكانت فرصة اغتنمها المنافقون ليشددوا من نقدهم الصريح للنبي وراحوا يقولون: كان محمدا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. أما المؤمنون فقد ثبتوا وزاد إيمانهم بالله وبنبيهم.

وعلى الجانب الآخر سادت حالة من التذمر بين صفوف الأحزاب لأن الحصار طال وعهد العرب دائما بحروب قصيرة. إذ يحملون زادا للطريق ذهابا وإيابا ثم يومين أو ثلاثة للتجهيز للمعركة ويوما أو يومين للمعركة ذاتها ومثلها بعدها. فلما طال الحصار بدون طائل بدأوا



شكل ٣٨ – غزوة الخندق.

يتخوفون من نقص الطعام. وزادت رداءة الجو من كرب الأحزاب وبدا أنهم فى مأزق وراح أبو سفيان يحاول إيجاد مخرج واستشار حليفة اليهودى حيى بن أخطب وتوصلا إلى خطة جديدة تَوقَّعا لها النجاح.

ذهب حييٌ خفية إلى محلة بني قريظة وتوجه لدار زعيمها كعب بن أسد. وحدَّس كعب أن حييا قد جاء إليه بوصفه يهوديا يبغى تحريضه وإخوانه اليهود ضد النبى فرفض لقاءه إلا أنه أمام إلحاح حيى سمح له بدخول داره. وطلب منه حيى أن ينضم إلى الأحزاب فى حربهم ضد محمد وقال له ويحك يا كعب. جئتك بعز الدهر وببحر طام والمراد كثرة الرجال جئتك بقريش وغطفان وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر. ويحك ياحيى فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حيى بكعب يزين له الأمر ولعله منَّاه بأنه سيكون سيد المدينة بعد القضاء على المسلمين ويكون فى إمكانه أن يعيد بنى قينقاع وبني النضير إلى دورهم فيكون سيد اليهود كلهم. وكان آخر ما فى جعبة حيى أن أعطى كعبا عهدا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه ما يصيبه. فنقض كعب عهده مع رسول الله ورضي بأن يشترك بنو قريظة مع الأحزاب فى شن هجوم واحد على المسلمين ولكن كعباً طلب مهلة قدرها عشرة أيام يُعِدون فيها أنفسهم للقتال.

وتأكد غدر اليهود بحادث صفية بنت عبد المطلب مع اليهودى. كانت صفية قد انتقلت هى وغيرها من النساء والأطفال إلى حصن صغير يقع فى جنوب شرق المدينة (كان من قبل لبنى قينقاع) غير بعيد من دور بنى قريظة. وكان بالحصن رجل واحد هو حسان بن ثابت الشاعر. وذات يوم وبينما صفية تطل من الحصن رأت يهوديا وهو بكامل سلاحه يطوف بالحصن كما لو كان يبحث عن منفذ إليه. وأخبرت صفية حسانا بما رابها من أمر اليهودى وخشيتها من أن يقتحم اليهود عليهم الحصن وطلبت منه أن ينزل ليقتله. فقال لها حسان: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فتركته وأخذت عمودا من حديد وشدّت وسطها ونزلت إلى اليهودى وضربته بالعمود حتى قتلته ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسان: انزل وخذ سلبه فإنه لم يمنعنى إلا أنه رجل. ورد عليها حسان بقوله: مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب. ولما نمي هذا الخبر إلى علم المسلمين لم يعد يساورهم أى شك فى خيانة بنى قريظة وأصبح الموقف أكثر خطورة وخاصة مع نقص المئونة بحيث أُنقص نصيب الفرد من الطعام إلى الربع.

ورأى النبى حرج الموقف العسكرى فرأى أن يلجأ إلى السياسة وأن لا بأس من تقديم بعض التنازلات حفاظا على المسلمين وعلى الإسلام ذاته. فبعث إلى عيينة بن حصين وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وتفاوض معهما على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن

يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه. وكان الهدف هو التخفيف من وطأة الحصار بانسلاخ غطفان من الحلف وما قد يتبعه من حذو قبائل أخرى حذوها فتضعف قوة الأحزاب بعض الشيئ بما يمكن بعده للمسلمين زحزحة قوات قريش عن المدينة بإحدى العمليات الحربية. وجرت المفاوضات وكتب الكتاب ولم يبق إلا التوقيع عليه ليصبح نافذا. ورأى النبى أن يستشير أصحابه فأرسل إلى سعد بن معاذ وهو من الأوس وعبادة بن الصامت من الخزرج فسألا: يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لا بُدَّ لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيئ أصنعه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان. لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك نعطيهم أموالنا. والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال له النبى فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

وزاد موقف المسلمين حَرَجاً. وكان الأمل هو في فك الحصار. وهيأ الله رجلا من غطفان هو نعيم بن مسعود كان قد أسلم وأبقى إسلامه سراً وكان للرجل نفوذ ومكانة لدى الأحزاب الثلاثة المتحالفة: قريش وغطفان ويهود بنى قريظة. وذات ليلة تسلل نعيم إلى المدينة وجاء إلى النبى وأخبره بإسلامه وأن قومه لم يعلموا وطلب أن يأمره بما شاء. فقال له النبى إنما أنت فينا رجل واحد. فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة واجتمع مع كعب وأوضح له خطورة الموقف الذى يواجهه اليهود. وقال له إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم. لاتقدرون أن تحولوا منه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم. فإن رأوا نهزة أصابوها. وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه (السيرة النبوية ابن هشام. جـ ٣ ص ٢٤٠).

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: أنَّا قد ندمنا على ما فعلنا. فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا. ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قاله لقريش. وما إن انتهى نعيم من جولته حتى كانت بذور الشك والفرقة قد انغرست فى نفوس الأحزاب وبدأ القلق يساور أبا سفيان الذى كان يعتمد اعتمادا كبيرا على اليهود وقرر أن

يعجل بالمعركة وأن يختبر نواياهم فبعث بوفد على رأسه عكرمة بن أبى جهل إلى يهود بنى قريظة وقال لهم إنا لسنا بدار مقام. وقد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأجاب اليهود: إن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا. فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه. فعاد عكرمة وأخبر أبا سفيان بما قاله اليهود. فقالت قريش وغطفان. والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحقٌ. وأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. وهكذا خرجت بنو قريظة من الحلف.

وفى اليوم التالى كان قد مضى زهاء ٢٠ يوما على قريش أمام الخندق وبدأ حماس المقاتلين يفتر. فقرر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل أن يتوليا الأمر بنفسيهما بعد أن عيل صبرهما وأيقنا بألا أمل في عمل موحَّد تقوم به الأحزاب مجتمعه. وتوجَّها مع فرقتي فرسانهما إلى موضع قريب من «تل ذباب» عند موضع يضيق عنده الخندق بما يسمح لخيلهم أن تقتحمه ولرجالهم أن يعبروه. وكان هذا الموضع قبالة معسكر المسلمين عند سفح جبل «سالع». وتحركت سرية عكرمة أولا: وقفزت جماعة صغيرة عبر الخندق. وكانت الجماعة مؤلفة من سبعة رجال منهم عكرمة بن أبى جهل. ورجل آخر ضخم الجثة اسمه عمرو بن عبد ود وكان قد جرح في بدر وعاقته جراحه عن شهود معركة أحد فأراد أن يعوض ما فاته بالاستبسال فى المعركة الحالية وتخير مكانا من الخندق ضيقا إلى حد ما وضرب فرسه فقفزت به عبر الخندق وبهت السملمون لرؤيته وتبعه آخرون. أما هو فراح يتفرس في صفوف المسلمين ودعاهم إلى النزال. فتخوف الجميع منه. فراح يتهكم بالمسلمين والإسلام ويتطاول على مقام النبي فاستأذن عليٌ النبى لنزاله فأذن له وأعطاه سيفه المسمى «ذو الفقار» وقال اللهم أعنه عليه (ابن مسعد جـ ٢ ص ٤٩). فقال عمرو بن عبد ود: لم يا ابن أخى؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال له على: ولكنى والله أحب أن أقتلك. وراح عمرو يسدد سيفه إلى صدر عليّ ولكن عليًا كان يتفاداه بحركاته الرشيقة واستمر العملاق يهوى بسيفه في كل اتجاه بلا طائل حتى أخذ منه التعب وانتهزها عليّ فرصة فقفز بسرعة وأمسك بيديه برقبة عمرو الذى فقد توازنه وسقط على الأرض فجثم عليٌ على صدره وهو لا يزال يمسك برقبته ويخنقه بكل قوة. ثم إن عليا دعا عمرو إلى الإسلام فبصق عمرو فى وجهه. وكان فى إمكان عليٍ أن يجهز على عمرو ولكنه قام من فوقه وقال له: لتعلم يا عمرو أنى لا أقتل إلا فى سبيل الله وقد يُظن أنى قتلتك لأنك بصقت فى وجهى ولكنى سأبقى على حياتك. فقم وعد إلى قومك. ونهض عمرو وتظاهر بأنه عائد ثم بحركة مباغتة أخذ سيفه وهجم على عليٍ ليأخذه على غرة. وتلقى عليٌ الضربة بدرعه ثم عاجل الخصم بضربة من سيفه أصابته فى حلقة فتفجرٌ الدم منه غزيرا ثم سقط على الأرض واهتزت جنبات الوادى بتكبيرات المسلمين. وهجم المسلمون فى حماسة على

الستة رجال الباقين فقتلوا واحدا بينما نجح الباقون فى الفرار عبر الخندق إلا أن المسلمين راحوا يرمون بالحجارة أحدهم لم يفلح فى تسلق الخندق من الناحية الأخرى واستمروا فى رجمه حتى مات.

وفى اليوم التالى أعاد خالد بن الوليد المحاولة فقفز عبر الخندق بفريق من رجاله ولكن المسلمين تجمعوا عليهم وتمكن خالد من قتل أحد المسلمين، وكذلك تمكن وحشى قاتل حمزة من قتل مسلم ثانٍ ولكن جموع المسلمين تكاثرت عليهم فأيقنوا أن لا أمل فى الانتصار وعادوا إلى معسكر قريش بعد أن فقدوا رجلين وكان ذلك آخر عمل حربى تم فى غزوة الخندق.

ولم يحدث خلال اليومين التاليين أى نشاط اللهم إلا بعض الترامى بالنبال فى أوقات متفرقة بدون إحداث إصابات فى أى جانب. ومع أن المسلمين عانوا من نقص الطعام إلا أنهم استمروا فى صمودهم. أما معسكر الأحزاب فقد هبطت روحهم المعنوية إلي الحضيض. إذ أيقنوا أن الغزوة التى خططوا لها كل هذا التخطيط وحشدوا لها كل هذه الحشود وتوقعوا لها النصر انتهت إلى لا شيء وساد بينهم التذمر. كان الحصار الآن قد دام ٢٢ يوما وليس هناك من بادرة ولو بسيطة فى استسلام المسلمين. وفى تلك الليلة هبت عاصفة هوجاء واجتاحت معسكر الأحزاب رياح باردة جدا أطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم وقلعت خيامهم وبدا كأن الطبيعة غاضبة عليهم وراحوا يحتمون من الريح تحت الأغطية. فقام أبو سيفان وقال بصوت عالٍ: يا معشر قريش والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخف (الكراع من الغنم والبقر مستدق الساق العارى من اللحم. والخف كناية عن الإبل المسنة التى تذبح للأكل) وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون. ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل (السيرة النبوية. ابن هشام. جـ ٣ ص ١٣٨). وما أن أنهى حديثه حتى قام إلى بعيره وسار مع رجاله فتبعته كل قريش. وعلمت غطفان بما فعلت قريش فحذوا حذوهم. وكذلك فعل جميع القبائل الصغرى المتحالفة. وسار خالد بن الوليد وعمرو بن العاص فى فرسانهما فى مؤخرة جيش قريش يحرسونهم خشية أن يخرج المسلمون من المدينة فى طلبهم.

وعاد أبو سفيان إلى مكة والمرارة تعتمل فى صدره على هذه الحملة الفاشلة التى هزت من هيبته وهيبة قريش بين العرب الذين أيقنوا أن محمدا والمسلمين صاروا ندا قويا لقريش ومن احتمي بهم لن يضام.

ولما أيقن المسلمون أن الأحزاب قد انفضوا وكل رجع إلى دياره تنفسوا الصعداء وحمدوا الله على نجاتهم مما كانوا فيه من كرب. وقد خسر كل فريق فى هذه المعركة أربعة رجال فقط. ولكن الحملة كانت نصرا للمسلمين إذ استطاعوا أن ينقذوا المدينة من هجوم ساحق كان كفيلا – لولا الخندق – بالقضاء عليهم. ولما انصرف الأحزاب قال رسول الله: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم (تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧٧).

إجلاء بنى قريظة:

وفى اليوم التالى كان المسلمون قد اطمأنوا ووضعوا السلاح. قيل فأتى جبريل إلى رسول الله وقال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال نعم قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعدُ. وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإني عائد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله فأُذِّن فى الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلِّين العصر إلاَّ ببنى قريظة!

وسار النبى والمسلمون معه إلى دور بنى قريظة وحصونهم وحاصرهم ٢٥ ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب. وكان حيىّ بن أخطب قد دخل الحصن مع بنى قريظة حين رجعت قريش وغطفان وفاء لما تعهد به لكعب بن أسد فلما أيقنوا بأن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم بعثوا إلى رسول الله أن يرسل إليهم أبا لبانة بن عبد المنذر – وكان قومه حلفاء الأوس الذين كانوا قبل الأسلام حلفاء بنى قريظة – ليستشيروه فى أمرهم فأرسله رسول الله إليهم. فلما رأوه قالوا: يا أبا لبانة. أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم وأشار بيده إلى حلقه. إنه الذبح.

وفطن أبو لبانه أنه قد خان الله ورسوله وأفشى ما انتوى رسول الله عمله فيهم مما قد يمنعهم من الاستسلام ويجعلهم يستأسدون فى المقاومة. ويقول أبو لبانة. فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ثم توجَّه إلى المسجد وربط نفسه فى عمود من أعمدته وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت. ولما تأخر أبو لبانة فى العودة إلى النبى سأل عنه وعلم ما فعل بنفسه فقال: أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له. فأما إذا فعل ما فعل. فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. قال ابن هشام: وظل مرتبطا ست ليال تأتيه امرأته فتحله للصلاة ثم يعود فتربطة ثم لما كان السَحَر والنبى فى بيت أم سلمه نزلت آية فيها التوبة على أبى لبانه: **«وآخرون اعترفوا بذنوبهم. خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم. إن الله غفور رحيم»** (١٠٢ – التوبة). فضحك النبى. فسألته أم سلمة عن سبب ضحكه قال: تيب على أبى لبانة. قالت: أفلا أبشره يا رسول الله. قال بلى إن شئت فقامت على باب حجرتها وقالت: يا أبا لبانة أبشر فقد تاب الله عليك. وأسرع الناس ليطلقوه فأبي وقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده. فلما مر رسول الله خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه.

نعود إلى يهود بني قريظة وقد تعبوا من الحصار وأرادوا الاستسلام. ورغبوا أن يعاملهم النبى كما عامل بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج وكان عبد الله بن أبى بن سلول سيد الخزرج قبل الإسلام – فرضى النبى بحكمه فى بنى قينقاع كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٢٧) وتركهم

النبي يرحلون بأمتعتهم وطمع بنو قريظة فى مثل ذلك فطلبوا أن يوكل أمرهم إلى سعد بن معاذ وهو من الأوس، حلفاؤهم فى الماضي ظانين أنه سيحكم فيهم بأن يجلوا عن ديارهم. ولكن سعد بن معاذ حكم أن يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسَّم الأموال. فقال النبي لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. وتم تنفيذ الحكم. وقتل منهم فى ذلك اليوم ما بين ٦٠٠ - ٩٠٠ رجل وكان من بينهم حييّ بن أخطب وكعب بن أسد رؤساء الخيانة. ولم يقتل من النساء إلا واحدة كانت قد ألقت بحجر الرحى من سطح منزلها على أحد المسلمين فقتلته. وأسلم نفر قليل فعصموا دماءهم وأموالهم. ومما يروي أن ما غنمة المسلمون كان: ١٥٠٠ سيف و ٣٠٠ درع و ٢٠٠٠ رمح و١٥٠٠ ترس وكثير من الجمال والمواشي. ثم إن رسول الله قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد إخراج الخمس. وبعث رسول الله أحد أصحابه بجزء من الخمس فباعه فى نجد واشترى بثمنه خيلا وسلاحا (السيرة النبوية. ابن هشام جـ٣ ص ٢٥٠). وكانت ريحانة بنت عمرو - إحدى السبايا - من نصيب رسول الله فعرض عليها الإسلام ويتزوجها فأبت إلا البقاء على يهوديتها فاعتزلها. وبعد مدة أسلمت. ويقول ابن اسحق: فسرَّه ذلك من أمرها.

وقد انتقد بعض المستشرقين ما اعتبروه «قسوة فى الحكم» على بنى قريظة. ولكن الموقف الذى وقفوه وغدرهم وخيانتهم وانضمامهم إلى الأحزاب كان تآمرا بالغ البغى وهو ما يسمى فى عصرنا الحالى «خيانة عظمى» وكان هدفهم مشاركة الكفار فى استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم. فلا عجب أن يكون عقابهم متناسبا مع عظم جرمهم. وجميع الدول فى عصرنا الحالى تقرر الإعدام كعقوبة لجريمة الخيانة العظمى ولا يُعفِى منه أن يكون مرتكبها فردا أو سرية بكاملها.

شهداء معركة الخندق: قال ابن اسحق: استشهد من المسلمين ٥ :

من الأوس : ١ - أنس بن أوس بن عتيك.

٢ - عبد الله بن سهل.

من الخزرج: ٣ - الطفيل بن نعمان.

٤ - ثعلبة بن غيمة.

من بنى النجار: ٥ - كعب بن زيد.

كان الوحي يسير بالحياة المدنية جنبا إلى جنب مع الأحداث العسكرية. فكانت التشريعات التى تنظم الحياة المدنية تنزل في السور مختلطة بالإشارات إلى ما حدث في المعارك الحربية. وقد نزلت سورة الأحزاب بعد معركة الخندق.

سورة الأحزاب :

وفى السورة عدة مواضيع :

١ – تشريعات لإلغاء جميع القرابات المفتعلة كالظهار والتبنى والأخوة بين المهاجرين والأنصار. واعتبار النبى أبا لجميع المسلمين وبالتالى فإن زوجاته أمهات المؤمنين.

٢ – آيات متعلقة بوقعة الخندق.

٣ – تشريعات خاصة بالزواج والطلاق والعدة.

٤ – تشريع لآداب دخول بيوت النبى.

٥ – تشريع يضمن عدم إيذاء نساء المؤمنين.

وتبدأ السورة بأربعة أوامر للنبى:

«يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما. واتبع ما يوحي إليه من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا. وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» (١ – ٣).

ومن المحتمل أن قريشا – وقد أيقنت أن القضاء على الإسلام أمر مستحيل – رأوا المراوغة وقيل قدم وفد منهم إلى المدينة يعرض حلا وسطا: وهو أن يكف النبى عن تسفيه آلهتهم ويكفوا هم عن حربه. فنزلت الآيات تأمر النبى بالإستمرار على تقوى الله وألا يطيع الكافرين كما أمر أيضا أن لا يقبل رأيا من المنافقين. ولعل ذلك كان أيضا تمهيدا لما سيأتى فى الآيات التالية من إبطال بعض عادات الجاهلية وما سيثيره ذلك من انتقادات فكان الحث على ألاَّ يبالى باعتراضاتهم وتأمره باتباع الوحى وأن يكون توكله على الله وحده.

إبطال الظهار والتبنى:

كانت هاتان أكثر عادات الجاهلية انتشارا وأراد الوحى إبطالهما.

كان **ظهار الزوجات** عادة جاهلية لتحريم الزوج على نفسه المعاشرة الزوجية لزوجته مع إبقائها فى عصمته. بقوله لها «أنت علىَّ كظهر أمى». وكان الأزواج يعمدون إلى ذلك إذا كرهوا زوجاتهم كأن يلدن بنات فقط أو لأى سبب آخر أو أرادوا ابتزاز أموالهن وحملهن على التنازل عن حقوقهن أو لاستبقائهن حاضنات لأولادهن وليخدمن فى بيوتهم. وكذلك لتفادى تطليقهن أنفة من أن يتزوجن غيرهم. وهذا التقليد يشبه من ناحية تقليد الإيلاء الذى ورد ذكره فى سورة البقرة (الآية ٢٢٦ – ص ٤٨٥) وفيه أُعطى الزوج مهلة أربعة أشهر للعودة لمعاشرة زوجته أو يصبح الطلاق نافذا. وكذلك فإن الآيات الحالية من سورة الأحزاب بينت أن الظهار باطل. وضربت مثلا لبطلانه: فكما أنه لا يعقل أن يكون لرجل قلبان فإن زوجة المظاهر لا تكون أمه لأنه لا يكون للرجل أُمَّان:

«ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم.» (٤).

كذلك كان **التبنى** تقليدا شائعا بين العرب. والتبنى هو اتخاذ رجل ما طفلا أو صبيا غريبا عنه ابنا له. وكان المتبنِّى يعلن فى ملإ من الناس تبنى الطفل أو الصبى فيصبح فى مقام ابنه من صلبه فى كل الواجبات والحقوق ويرث أحدهما الآخر ويحرم زواج أحدهما من زوجات الآخر. وكذلك يحرم على المتبنِّى أن يتزوج إحدى بنات متبنية ولا أخواته ولا عماته ولا خالاته ولا يصح الزواج من أرملة متبنِّيه ولا مطلقته. وكان العرب يلجأون إلى التبنى إذا كان فى الأسرة عقم أو كانت الزوجة تلد بنات فقط والزوج يرغب فى ابن يحمل اسمه من بعده.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٣٩) أن زيد – غلام رسول الله الذى أهدته إليه خديجة زوجته – لما استدل عليه أبوه ورغب فى استعادته – خيَّر رسول الله زيدا فى العودة إلى أبيه أو البقاء معه فاختار زيد البقاء مع «محمد». ومكافأة له على ذلك أعلن تبنيه لزيد وصار يدعى زيد بن محمد. وكان فى ذلك ترضية لأبى زيد. وأراد الإسلام رد الأمور إلى طبيعتها وإبطال التبنى. فنزلت الآيات من سورة الإحزاب:

«.. وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمَّدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما» (٤ – ٥).

والمثل الذى ضرب للظهار من أن الرجل لا يكون له قلبان. ولا تكون له أُمَّان . ينطبق أيضا على التبنى فلا يصبح أن يكون للمتبنِّى أبوان. وما يقولونه فى هذه القرابات المفتعلة ليس بحق بل هو مجرد لفظ يقولونه بأفواههم والله يقرر الحق. ثم تأمر الآيات بتسمية الأبناء بالتبني باسم آبائهم الحقيقيين فإذا لم يُعرف آباؤهم فهم إخوان فى الدين لمتبنِّيهم أو موالى له. ثم تنبيه بأن الله غفور رحيم لا يحاسب الناس فيما أخطأوا به وما سبق فعله قبل صدور التشريع وإنما يؤاخذ بما يصدر عنهم عن عمد بعد صدور التشريع. وبعد نزول هذه الآية استعاد زيد اسمه الأصلى «زيد بن حارثة». ولكن هناك حالات لا يعرف فيها أبو الغلام وفى هذه الحالة يصبح «أخا فى الدين» أو «مولى» لمن كان يتبناه.

وكانت «**الموالاة**» شائعة بين العرب قبل الإسلام. وذلك أن يطلب شخص أو عشيرة أن يلتحق بشخص أو بعشيرة أخرى بقصد الحماية أو الاستنصار – أو كما نقول فى العامية «اللى ما لوش ظهر يشترى له ظهر» فإذا قبل الملحَقُ به ذلك أعلنه على الملأ حتى يعرف الناس وحينئذ يدعى الشخص «مولى فلان» ويكون للملحق به سدس مال المولى عند وفاته ثم بعد ذلك تقسم التركة بين الورثة الأصليين. وعند موالاة عشيرة لعشيرة أخرى يصبحون كأنهم من نفس العشيرة لهم مالهم وعليهم ما عليهم. وكلمة «مولى» تطلق أيضا على الملوك. ثم توسَّع معنى اللفظ فأصبح – بعد الإسلام – يطلق على المسلمين من غير العرب فكأنهم بدخولهم فى

الإسلام قد التحقوا بالعرب واندمجوا فى عصبياتهم. إلا أن المعنى الأول هو المقصود بما ورد فى الآية السابقة من سورة الأحزاب. وهو يخص الأبناء بالتبنى الذين لا يعرف آباؤهم فهم يصبحون موالى لمن كان يتبناهم.

أمهات المؤمنين:

تذكر الآيات بعد ذلك أن النبى هو بمثابة أب للمسلمين جميعا ومن هذا المنطلق تصبح زوجاته أمهات للمؤمنين لهن واجب الاحترام والتوقير ويحرم التزوج بهن من بعده. أما فيما عدا ذلك فإن صلة الرحم هى القرابة الوحيدة المعترف بها. وحتى الأخوّة بين المهاجرين والأنصار غير قائمة والتوارث بينهم على أساسها غير جائز لكن يجوز أن يقدم البعض إلى مواليهم فى الدين من غير الأقارب معروفا أى أن يوصى لهم بجزء من ماله:

«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا» (٦).

وكان فى هذه التشريعات إلغاء لبعض التقاليد العربية التي رسخت فى الوجدان على طول الأزمنة. وحتى لايجد النبى حرجا من إبلاغها ذكرت الآيات أن كل الأنبياء السابقين قد أخذ عليهم العهد بتبليغ ما أرسلوا به:

«وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسي وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما» (٧ – ٨).

تعليق على معركة الأحزاب:

بعد هذه الآيات التى تنظم الحياة المدنية جاءت آيات تذكر مشاهد من معركة الخندق وتعلق عليها. ولم تقصد الآيات سرد وقائع المعركة سردا قصصيا وإنما أشير إلى بعض المواقف بقصد الموعظة والتنويه بفضل الله والتنديد بموقف بعض المسلمين وفضح المنافقين واستهجان أقوالهم.

وتبدأ الآيات بذكر نعمة الله فى صرف الأحزاب وإنجاء المسلمين من خطرهم:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا» (٩ – ١١).

وكانت الريح الشديدة التى هبت على معسكر الأحزاب وقلعت خيامهم وكفأت قدورهم من

أهم العوامل المؤثرة فى رحيل قريش وحلفائها. فكانت بذلك أولى الأحداث بالذكر فى أول السرد القرآنى. ولعل الجنود التى لم ترى هم الملائكة الذين ألقوا الرعب فى قلوب الأحزاب وأوحوا إليهم بالرحيل دون أن يتحقق الهدف الذى جاءوا من أجله وحشدوا له حشودهم وحتى دون معركة حقيقية أو اشتباك فعلىّ. ثم وصفت الآيات حالة المسلمين أثناء الحصار: فقريش وحلفاؤها من الشمال وبنو قريظة من الجنوب وفى أسلوب بلاغى معبّر تصور شدة الموقف. فالعيون من شدة الخوف تتحرك زائغة يمينا ويسارا تبحث عن مخرج والقلوب يشتد خفقانها حتى كأنها ترتفع من مكانها إلى موضع الحناجر. ويذهب البعض مذاهب شتى فى إساءة الظن بالله وكأن الله قد تخلى عنهم وتركهم لمصيرهم – وفي مثل موقفهم فليس من مصير إلاّ الهلاك. واستشعر المؤمنون عظم البلاء واضطربت نفوسهم اضطرابا عظيما هو أشبه بالزلزال الشديد.

فضح موقف المنافقين:

وكان ذلك مُهما حتى يمكن تجنب خطرهم فى المعارك القادمة:

«وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وَعَدنا الله ورسوله إلا غُرورا. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا. ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا. ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سُئِلوا الفتنة لأتوها وما تلبَّثوا بها إلا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتُمتعون إلا قليلا. قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا. قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا. أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنه حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا. يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا» (١٢ – ٢٠).

والآيات تذكر أن المنافقين ومرضى القلوب لم يتورَّعوا عن إساءة الظن بالله ورسوله وادعائهم أن وعد الرسول كان تغريرا بهم إشارة إلى ما قاله النبى أثناء حفر الخندق وتكسير الصخرة التى عرضت لهم وقال إنهم سيفتحون الشام وفارس واليمن (ص ٥٨٥). كما كان بعضهم يثبط همم المدافعين بدعوتهم إلى الرجوع إلى بيوتهم. كما أن فريقا منهم كان يستأذن النبى فى الرجوع بحجة حماية بيوتهم لأنها غير محصنّة **«عورة»** ولم تكن بيوتهم كذلك وكل ما كانوا يريدونه هو الفرار وتقرر الآيات أن الأحزاب لو دخلوا المدينة من كل جوانبها **«أقطارها»** وطلوب منهم أن يرجعوا عن إسلامهم **«سئلوا الفتنة»** لاستجابوا لهم ولم يلبثوا إلا وقتا قليلا حتى ينضموا إلى الكفار فى قتال المسلمين مع أنهم كانوا قد عاهدوا الله من قبل أن يثبتوا فى

القتال. وتخبرهم الآيات أن الفرار لن ينجيهم من الموت. وحتى لو نجوا فلن يكون ذلك إلا لفترة قصيرة يتمتعون بها فى الدنيا ثم يأتيهم الموت لا محالة. ثم تقرر الآيات أن الله يعلم **«المعوِّقين»** أى المثبطين عن القتال وهم يظهرون حرصهم عليكم **«أشحة عليكم»** فإذا جاء القتال فزعوا وراحت أعينهم تدور حائرة كالذى يعانى من سكرات الموت. فإذا ذهب العدو وأمنوا راحوا يذمون المؤمنين ويشتمونهم بألفاظ حادة ولا يقدمون لهم أى معروف **«أشحة على الخير»** وهم يظنون أن الأحزاب لا يزالون يحاصرون المدينة. وإذا أعاد الأحزاب الكرَّة تمنوا لو كانوا يعيشون مع الأعراب فى البوادى بعيدين عن القتال **«بادون فى الأعراب»** ويتسقطون أخبار المسلمين. ولو كانوا معهم لم يكونوا ليشتركوا فى القتال إلا تظاهرا ورياءً.

حال المؤمنين فى المعركة: وفى مقابل هذا الوصف الرائع والدقيق لحال المنافقين يأتى وصف لحال النبى: كان رابط الجأش لم يتزلزل ولم يضطرب بل كان إيمانه بالله قويا وثقته بنصر الله لا حدود لها. فراحت الآيات تحث المومنين على أنه كان من الواجب أن يتخذوا من موقفه مثالا حسنا وقدوة وصيغ ذلك فى أسلوب ليكون دعوة لجميع المسلمين فى كل مكان وفى كل وقت لكى يقتدوا برسول الله فى أفعاله ويمتثلوا لأقواله. وتمضى الآيات توضح أن المسلمين لما رأوا محاصرة الأحزاب لهم عرفوا أنها إحدى الشدائد التى وُعدوا بها ويعقبها النصر فزادهم ذلك إيمانا بالله. ومن هؤلاء المؤمنين من عاهدوا الله على الثبات فى المعركة ووفوا بعهدهم واستشهدوا ومنهم من عاش ينتظر أن ينال هذا الشرف وسينال الصادقون أجرا عظيما. أما المنافقون فإن شاء الله عذبهم ومع ذلك فإنه من رحمته ترك لهم باب التوبة مفتوحا ليتوبوا. ولقد حدث ذلك فعلا. وتاب - بعد نزول هذه الآيات - عدد كبير من المنافقين وأخلصوا النية فى إيمانهم وفى مسلكهم فى الغزوات التالية:

«لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً. ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما» (٢١ - ٢٤).

نتيجة المعركة:

ثم تتطرق الآيات إلى بيان نتيجة المعركة:

«وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (حصونهم. جمع صيصة) **وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا»** (٢٥ - ٢٧).

وفي هذه الآيات تلخيص لنتيجة المعركة كالآتي:

١ – قريش وحلفاؤها: ردَّهم الله ولم يحققوا ما كانوا يطعمون فيه فعادوا بغيظهم.

٢ – المؤمنون: كفاهم الله القتال بما سلطه الله على الكفار من ريح شديدة والملائكة الذين ألقوا في قلوبهم الرعب.

٣ – يهود بني قريظة الذين ساندوا الكفار نالوا جزاء خيانتهم إذ راح المسلمون يقتلون الرجال ويأسرون النساء والأولاد واستولوا على دورهم وأموالهم وأرضهم وأراضي كانت ملكا لليهود ولكنها كانت بعيدة عن مساكنهم لم يطأها المسلمون من قبل فاستولوا عليها أيضا.

نساء النبي وتطلعهن لمتع الدنيا:

قال ابن اسحق: ثم إن رسول الله قسَّم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد ما أخرج الخمس. وقسم للفارس ٣ أسهم: سهمين للفرس وسهما لراكبه. وسهما للراجل وكان النبي يصرف الخمس في الأوجه التي بينتها الآية ٤١ من سورة الأنفال (ص ٥١٢): **«واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامي والمساكين وابن السبيل»**. ومع أن الآية لم تبين نصيب كل فئة من هذه الفئات وكان النبي يستطيع أن يحتفظ لنفسه بما يشاء من الخمس إلا أن النبي كان ينفق معظمها وظل يعيش في بيته عيشه غاية في الزهد والشظف. ولكن نساء النبي – وهن يؤمئذ: عائشه وحفصة وسودة بنت زمعة وأم سلمة – ظنَّ أنه أن لهن أن ينعمن بالحياة وطالبن الرسول بالتوسعة عليهن في النفقة. وأزعجت هذه المطالبة النبي وحلف أن يهجرهن واعتزلهن فعلا وفكر في تطليقهن. ومما رواه المفسرون أن أبا بكر وعمر استأذنا على النبي ودخلا فوجداه ساكتا واجما ونساؤه حوله. ويروي عمر: فقلتُ لأكلمنَّه لعله يضحك فقال: لو رأيت يا رسول الله ابنة زيد – يعني امرأة عمر – سألتني النفقة فوجأت عنقها وجأة (أي ضربه بجمع كفه) فضحك النبي حتى بدت نواجذه ثم قال: هن حولي يسألنني النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة وقام عمر إلى حفصة ليضرباهما فنهاهما النبي. وقال نساء النبي: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس شيئا. ونزلت الآيات:

«يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن (أي يعطيهن نفقة المتعة ويطلقهن) **سراحا جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجرا عظيما. يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا. ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما. يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى. وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله**

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا» (٢٨ - ٣٤).

وتوضح الآيات لنساء النبى أن عليهن التأسى بالرسول فى زهده فى الحياة الدنيا وزينتها. أما إذا كنّ يردن متع الحياة الدنيا فالنبى على استعداد أن يفارقهن ليتمتعن بالحياة الدنيا كما يشأن. ثم توضح الآيات أنهن لسن كباقي النساء. فإن أتين بذنب أو معصية فعليهن ضعف ما على النساء الأخريات وكذلك إذا اتقين الله وأطعن الله ورسوله فثوابهن مضاعف أيضا. كما يذكرهن بأنه لا يليق بهن كثرة الخروج والتبرج واللين فى القول فيطمع فيهن من الرجال من فى قلبه مرض. وعليهن أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من القرآن الكريم ففيه فضل يغنيهن عن أي شيء آخر وعليهن إتمام الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله وليعلمن أن الله بهذه التوجيهات والأوامر إنما يريد أن يطهرهن ويجعلهن فوق الشبهات. وتجمع الروايات على أن نساء النبى امتثلن لأمر الله ورضين بالعيش فى كنف النبى بالرغم مما يلاقين من شظف. أما الأمر **«وقرن فى بيوتكن»** فليس معناه عدم خروجهن بالمرة وإنما يعني عدم الإكثار من الخروج علي غير ضرورة. والروايات متواترة عن أن نساء النبى كن يخرجن فى الحاجات والضرورات فى حياة النبى وبعده. ومع أن الآيات متعلقة بنساء النبى وما لهن من خصوصية ومركز حساس إلا أنها تصح أن تكون توجيها لعامة نساء المسلمين لاتباعه بقدر الإمكان وبحسب متطلباتهن فى العصر الذى يعشن فيه.

المساواة بين الجنسين فى العبادات والأجر:

وتروى كتب التفسير مراجعة بعض المسلمات للنبى بشأن اختصاص القرآن الرجال بالذكر والتنويه دون النساء. فنزلت الآيات تبين أن المؤمن والمؤمنة على السواء من أمر الله وأن المرأة مخاطبة كالرجل سواء بسواء بكل التكاليف. وقد اتفق العلماء والمفسرون على أن كل خطاب قرآني موجه للمؤمنين والمسلمين هو شامل للمؤمنات والمسلمات وأن الأجر والثواب متساو أيضا:

«إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» (٣٥).

أحداث السنة السادسة للهجرة

محرم	زواج زيد من زينب بنت جحش، ونزول بقية سورة الأحزاب.
صفر	«سورة محمد وسورة الطلاق وسورة البينة».

ربيع الأول		الفتنة بين المهاجرين والأنصار.
ربيع الثانى		زواج النبى من زينب بنت جحش.
جمادى الأول		غزوة بنى لحيان.
جمادى الثانى		غزوة ذى قرد.
رجب		«سورة المنافقون».
شعبان	٢٥	غزوة بنى المصطلق وحديث الإفك.
		الزواج من جويرية بنت الحارث.
رمضان		———
شوال	٥	نزول براءة عائشة وسورة النور.
ذو القعدة		خروج النبى معتمرا.
ذو الحجة	١	صلح الحديبية.
	٥ - ٢٠	٦ سرايا.
	٢٢	قريش تتنازل عن بعض شروطها.
		«سورة الممتحنة».
	٢٥	رسائل إلى ملوك الروم وفارس ومصر.

زواج زيد من زينب بنت جحش:

سبق أن ذكرنا (ص ٣٩) تبنى النبى لزيد بن حارثة فتغير اسمه إلى «زيد بن محمد». وكان أول من أسلم بعد على بن أبى طالب. وعندما آخى النبى بين المهاجرين والأنصار كان زيد وحمزة بن عبد المطلب أخوين.

ولما بلغ زيد سن الزواج اختار له النبى بنت عمته زينب بنت جحش. من شريفات البيت الهاشمى فهى حفيدة عبد المطلب بن هاشم وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى. وكانت زينب شابة حسناء. وكرهت زينب وكره أخوها عبدالله بن جحش أن تزف الشريفة إلى مولى من الموالى وإن أُعتِق وصار بالتبنى واحدا من أهل البيت. وفزعا إلى ابن خالهما «محمد» يسألانه ألا يلحق بهم مثل هذا الضيم. وقالت زينب فيما قالت يومئذ: لا أتزوجه أبداً! (تراجم سيدات بيت النبوة. بنت الشاطىء ص ٣٣٨). فنزل قوله تعالى:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم. ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» (٣٦ - الأحزاب).

وتزوجت زينب زيدا طاعة لله ولرسوله. ولكن الحياة الزوجية بينهما لم تكن لتصفُ لهما. فما نست زينب قط أن تكون زوجة لمن دخل بيت قومها رقيقا. وقاسى زيد من صدِّها وإبائها وترفُّعها الكثير. ونفذ صبره فشكا إلى النبى أكثر من مرة من سوء معاملة زينب له فكان النبى يوصيه بمزيد من الصبر.

تطبيق عملي لإبطال التبني بزواج النبى من زينب:

ثم نزل إبطال التبنى فى الآيتين ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب (ص ٥٩٥) وعاد زيد بن محمد إلى اسمه الأصلى زيد بن حارثة فزاد ذلك من الهوة بينه وبين زينب. وتحدَّث الناس بالخلافات بينهما وتوقعوا الطلاق. وكان زواج الأب من زوجة ابنه ممنوعا فى الجاهلية – وفى الإسلام أيضا – وبناء عليه فقد اعتقد الناس أن زينب بنت جحش لو طلقت من زيد لا تحل للنبى اعتمادا علي أنها كانت زوجة «ابنه» بالتبني. وكان التقليد راسخا لا يجرؤ أحد على مخالفته فكان لابد من تطبيق عملى لإلغاء هذا العرف وكل ما يترتب عليه من حرمة النكاح وبمثال لا يندثر بمضى الوقت ولا يكون ذلك إلا بأن يتزوج النبى من زينب بنت جحش. وأُوحى إلى النبى أن زينب ستكون زوجته بعد أن يطلقها زيد. وخشى النبى من إظهار هذا الأمر لما فيه من خرق للتقاليد وحرج له. فكان زيد كلما شكا إلى النبى من سوء معاملة زينب له يطلب منه الصبر والتمسك بزوجته ويذعن زيد ويعود ليجرب الاحتمال. ويشير القرآن إلى هذا:

«وإذ تقول للذى أنعم الله عليه (بالإسلام) وأنعمت عليه (بالعتق والتبنى قبل إبطاله) أمسك عليك زوجك واتق الله وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.....»

ولكن زينب استمرت فى تعاليها على زيد وتؤذيه بأقوالها وأخيرا هجرته فطلقها. ولما انقضت عدتها وبينما رسول الله فى بيت عائشة أنزلت عليه بقية الآية السابقة:

«... فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا. ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدروا. الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا. ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما» (٣٧ – ٤٠).

فقال النبى: من يذهب إلى زينب ويبشرها. قيل فحملت البشرى إلى زينب سلمى خادم الرسول. وكانت وليمة عرس حافلة مشهودة ذبح الرسول فيها شاة وكانت زينب بنت ٣٥ سنة وكان اسمها برَّة فسماها النبى زينب (صحيح مسلم جـ٣ ص ١٦٨٧). ودخل النبى ببنت عمه التى زوجه إياها الله. وكانت تتيه بذلك على باقى نسائه وكانت تقول لهن: أنا أكرمكن وليا وأكرمكن سفيرا. زوَّجكن أهلُكن. وزوَّجنى الله من فوق سبع سموات.

وكانت الغريمتان اللتان تتنافسان هما عائشة وزينب بنت جحش وكانت المنافسة أحيانا تحتدم في حضرة الرسول فيدعهما وشأنهما. وقد استطاعت عائشة مرة أن تغلب زينب فتبسم النبي وقال لزينب: إنها ابنة أبي بكر! وكانت زينب خاشعة لله تكثر من الصلاة والتضرع إلى الله، كما كانت كريمة خيِّرة كثيرة التصدق. وكانت أسرع نساء النبي لحاقا بالنبي بعد وفاته. وكان النبي قد سئل فقال: أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا ويقال إن زوجات النبي رحن يقسن أذرعهن ليعرفن أيهن أطول يدا. ثم فطِنَّ إلى أن المعنى هو كثرة التصدق وكانت زينب بنت جحش تفوقهن في هذا المضمار.

تلك هي قصة زينب بنت جحش وظروف زواجها من النبي. وقد ردَّت الدكتورة بنت الشاطيء (تراجم سيدات بيت النبوة، ص ٣٤١ وما بعدها) على ما تقول به بعض المستشرقين ويكفي أن نذكر أن الروايات التي استند إليها المستشرقون في افتراءاتهم لم ترد في كتب ابن هشام وابن سعد والطبري وهي أقدم كتب السيرة، وإنما وردت في كتب متأخرة لاشك في أن كاتبيها قد انساقوا وراء مدسوسات بعض الشعوبيين في القرنين الثالث والرابع الهجري بقصد محاولة تشويه صورة الإسلام ونبيه.

حثٌّ على كثرة العبادة:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبحوه بكرة وأصيلا. هو الذي يصلِّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما. يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبشِّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا، ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» (٤١ - ٤٨).

والآيات تحث المؤمنين على كثرة ذكر الله. وتنبههم إلى ما لهم من كرامة عند الله وما أحاطهم به من عناية **«يصلي عليكم وملائكته»** فأخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان وتشير إلى ما أعدَّ الله لهم من ثواب عظيم. ثم يتوجه الخطاب إلى النبي فتقرر أنه شاهد على أمته ومبشر ونذير وداع إلى الله وتأمره بأن يبشر المؤمنين بأن الله قد أعد لهم مزيدا كبيرا من الخير في الدنيا والآخرة. وأمر ثانٍ بعدم الالتفات إلى أقوال الكافرين والمنافقين وتقدهم لزواجه ممن كانوا يعتبرونها زوجة ابنه مع أن هذا التبني قد أبطل كما سبق أن أوضحنا.

مقتل سلام بن أبي الحقيق:

وسلام بن أبي الحقيق من يهود خيبر وكان له دور هام في تجميع الأحزاب في معركة الخندق والتحريض على حرب رسول الله. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٥٢٧) أن نفرا من الأوس قاموا بقتل كعب بن الأشرف لعداوته للمسلمين. فاستأذن نفر من الخزرج رسول الله في قتل

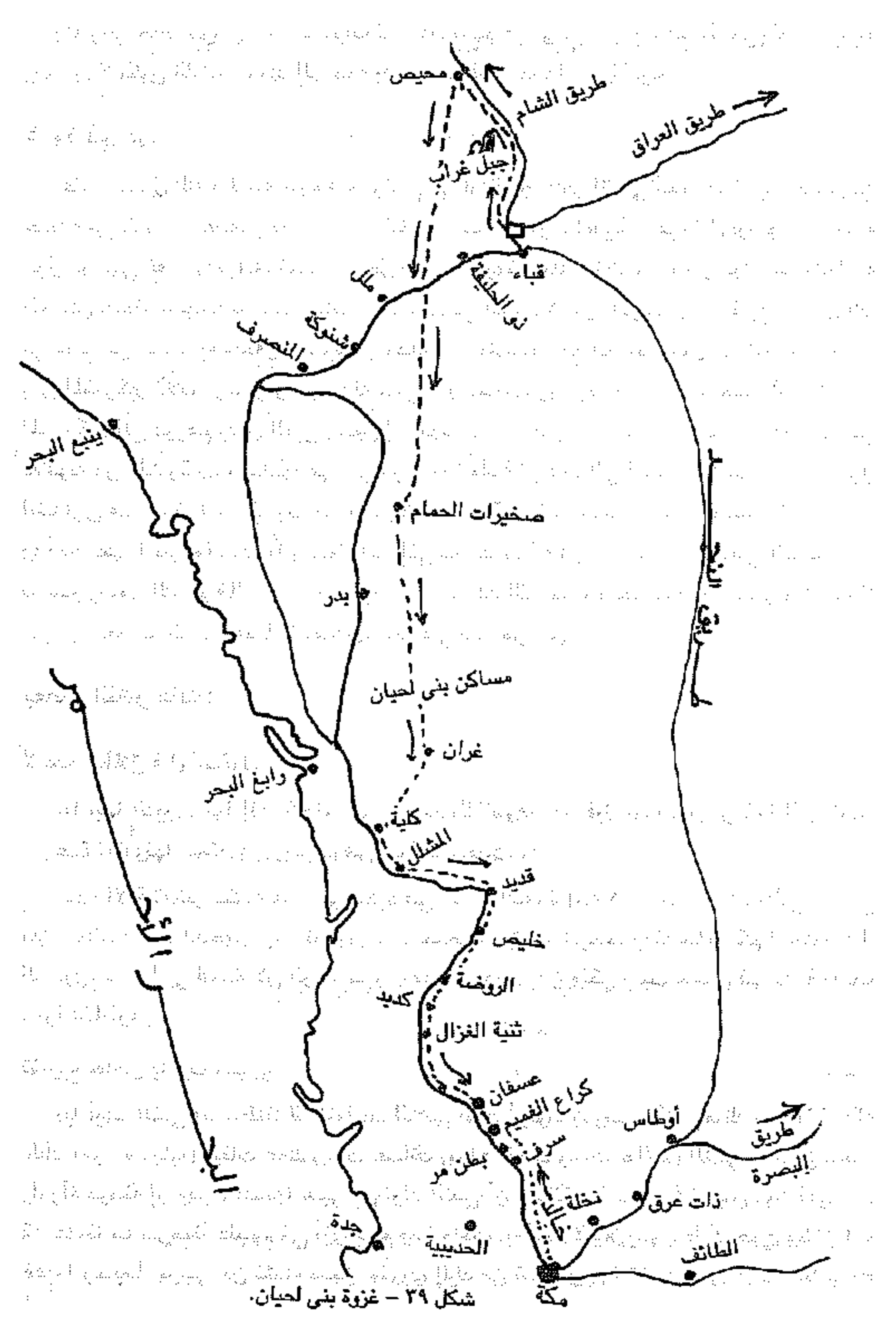
سلام بن أبى الحقيق فأذن لهم وأمرهم ألا يقتلوا وليدا ولا امرأة. فساروا حتى أتوا خيبر واستدلوا على داره وقرعوا الباب ففتحت امرأته وادعوا أنهم غرباء يلتمسون الطعام. وما أن دخلوا حتي أغلقوا الباب ثم هجموا على سلام بن أبى الحقيق بسيوفهم فقتلوه وخرجوا مسرعين ولفهم الظلام فلم يعثر عليهم النفر الذين اجتذبهم صياح امرأته. وعادوا إلى المدينة.

غزوة بني لحيان:

سبق أن ذكرنا (ص ٥٧١) يوم الرجيع وغدر بنى لحيان وأن النبى كان يتحين فرصة للانتقام منهم لمقتل أصحابه. فخرج فى جمادى الأول سنة ٦هـ (ابن هشام. السيرة النبوية جـ٣ ص ١٧٠) وأظهر أنه يريد الشام حتى يأخذ القوم على غرة. قال ابن إسحق. فسلك شمالا إلى جبل غراب إلى محيص ثم انحدر جنوبا إلى صخيرات الحمام قرب بدر ثم أخذ طريق مكة وأسرع بالمشى حتى نزل على غران وهى منازل بنى لحيان (شكل ٣٩) ولكن أخبار مسيرته كانت قد وصلتهم فأخذوا حذرهم وهجروا دورهم واحتموا فى رؤس الجبال. وإذ لم يتحقق الهدف من الغزوة رأى النبى أن يستثمر قربه من مكة فى إرهاب قريش. فسار بأصحابه حتي نزل عسفان ثم سار إلى كراع الغميم فظنت قريش أنه يريدها. فأخرجت إليه سرية عليها خالد بن الوليد لحربهم. وحانت صلاة الظهر والمسلمون لا يتخلفون عن الصلاة مهما كانت الظروف. وظن المشركون أنهم يمكن أن ينالوا المسلمين عند سجودهم. فنزلت الآيات ١٠١، ١٠٢، ١٠٣ من سورة النساء تشرع صلاة الخوف:

«وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم. ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة. ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم. إن الله أعدَّ الكافرين عذابا مهينا. فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم. فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت علي المؤمنين كتابا موقوتا».

قال ابن كثير (جـ ٣ ص ١٥٧) فأمرهم رسول الله فأخذوا السلاح واصطفوا خلفه صفين ثم ركع فركعوا جميعا ثم رفع فرفعوا جميعا. ثم سجد بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم. فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا وهكذا فى باقى الركعات وهى ما تسمى بصلاة الخوف. وقد صلاها النبى مرتين: هذه المرة بأرض سعفان ومرة ثانية بأرض بنى سليم.



شكل ٣٩ – غزوة بنى لحيان.

ولما رأى خالد حرص المسلمين وأنه لن ينال منهم غرة ورأى أن عددهم مكافيء لعدد سريته رأى أن لا يكون اشتباك فعاد إلى مكة وانصرف النبي عائدا إلى المدينة.

غزوة ذي قرد:

أقام رسول الله بالمدينة فترة قصيرة ثم في أوائل جمادي الثاني أغار عيينة بن حصن بن حذيفة في خيل من غطفان على مرعى بالغابة – شمال غرب المدينة – فيه إبل لرسول الله وفيه رجل من بني غفار وامرأته. فقتلوا الرجل وسبوا المرأة وساقوا الإبل. وعلم رسول الله بالواقعة ولم يكن عيينة ورجاله قد بعدوا كثيرا فأرسل في أثرهم ٨ من الفرسان. ثم خرج رسول الله في جمع من أصحابه ولحقوا بالفرسان وكانوا قد تلاحموا مع الغزاة وقُتل من المسلمين واحد ومن المشركين ثلاثة. وسار رسول الله حتى نزل بجبل ذي قرد. وأشار أصحابه أن يلاحقوا المشركين إلى دورهم ولكن النبي رفض إذ أنهم لم يستعدوا لمعركة كبيرة ولا يعلم عدد من يلاقونه من المشركين. فأقاموا في ذي قرد يوما وليلة ثم عاد إلى المدينة. وكانت امرأة الرجل الغفاري قد استطاعت الهرب من المشركين واستقلت ناقة وسارت حتى وصلت إلى المدينة وقدمت على النبي وقالت: يا رسول الله إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها. فتبسم رسول الله ثم قال: بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها. إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين. إنما هي ناقة من إبلي.

بعض التشريعات:

لا عدة للطلاق قبل الدخول:

«يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» (٤٩).

وهذه الآية تعتبر تكملة لما سبق ذكره في سورة البقرة (آية ٢٢٨ ص ٤٨٥) والتي تقضي بأن المطلقات بعد الدخول بهن ينتظرن ثلاث حيضات لإبراء الرحم. وهنا جاء حكم التطليق قبل الدخول. فلا داعي للعدة لأن الرحم مبرأ بعدم الدخول بهن ولكن يثبت حقهن في نفقة المتعة جبرا لخاطرهن.

تشريع خاص بالبيت النبوي:

«يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك (من السبايا) وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك. وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين. قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرجٌ وكان الله غفورا رحيما. ترجي من تشاء منهن وتُؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح

عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنَّ ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما. لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا» (٥٠ – ٥٢).

وفى الآيات خطاب للنبى بشأن ما يباح له الزواج بهن، وهن:

١ – زوجاته اللاتي تزوج بهن وأدّى مهورهن من قريباته المهاجرات معه.

٢ – التي تهب نفسها للنبي خالصة له من دون المؤمنين بلا مهر ويريد النبيّ زواجها.

٣ – نصيبه من السبايا.

كما توضح أن له حرية التصرف بما يتراءى له في المعاشرة فبعض الزيجات كانت لأسباب سياسية أو لأسباب اجتماعية أو غيرها وبعضهن كن مسنات – مثل سودة بنت زمعة، فلم يؤمر النبي أن يعدل بينهن في الليالي. ثم قررت الآيات أنه ليس للنبي بعد الآن أن يتزوج بامرأة زواجا بعقد ولا يترك إحدى زوجاته لتحل مكانها غيرها ولو أعجبه حسنها. في حين أن المسلمين يستطيعون أن يُغيِّروا مع مراعاة الحد الأقصى وهو أربعة. أما ملك اليمين فهو مباح للنبي كما هو مباح لسائر المسلمين.

تشريع لآداب دخول بيوت النبي:

روى المفسرون أن النبي صنع طعاما في مناسبة ما وأمر بدعوة الناس فصاروا يأتون فيأكلون ويخرجون ويجيء غيرهم فيأكلون وهكذا حتى لم يبق أحد لم يأكل فرفع الطعام وبقى ثلاثة رجال في البيت بقصد السمر والحديث مما ثقل على النبي وآذاه ولكنه كان يستحي منهم فلا يصارحهم. فنزلت الآيات تبين للمسلمين آداب الدخول إلى بيوت النبي. وتنهاهم عن دخول بيوت النبي إلا إذا دُعوا إلى طعام. وحتى في هذه الحالة لايجب أن يأتوا مبكرين وينتظروا نضجه **«غير ناظرين إناه»** لأن ذلك يشغل أهل البيت عن إعداد الطعام. فإذا أكلوا فليبادروا بالانصراف دون إطالة مكث مستأنسين بالحديث بعضهم مع بعض:

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا. فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق...»

وكان بعض الناس يأتون إلى بيوت النبي يسألون زوجاته إعارة زوجاتهم آنية ومواعين وأشياء أخرى. فقال عمر للنبي: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر. فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فنزل قوله تعالى تكملة للآية السابقة:

«وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب. ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن....»

والحجاب المذكور لايعني نقاب الوجه وإنما يعني ستار الباب أو حجابه. وكانت بيوت النبي

عبارة عن حجرات في طرف الساحة المسوّرة التي اتخذها النبي مسجدا ولكل حجرة ستار من قماش أو ليف. ولكن بعضاً ممن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم كبر عليهم أن يُخاطبوا أو يعطوا ما طلبوا من وراء حجاب فقالوا على سبيل التحدي: لئن عشنا بعد النبي لنتزوجن نساءه فنزل تمام الآية:

«وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما. إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما» (٥٣ – ٥٤).

وكان ذلك منطقيا فما دام القرآن قد سمّى زوجات النبي أمهات المؤمنين في الآية ٦ ص ٥٩٦. فلا يجوز لهم أن يتزوجوا من هن في حكم أمهاتهم.

ثم استثنى من سؤال زوجات النبي من وراء حجاب بعض الفئات:

«لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن. واتقين الله إن الله كان على كل شيئ شهيدا» (٥٥).

عظم قدر النبي:

«إن الله وملائكته يصلون على النبي. يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليما. إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذابا مهينا» (٥٦ – ٥٧).

والآيات تبين علو قدر النبي عند الله: فالله تعالى يصلي عليه ويشمله برحمته والملائكة يُصلُّون عليه بدعائهم له. وأُمر المسلمون بالدعاء إلى الله أن يصلي على النبي ويسلم عليه. والآية عامة لكل مسلم ومسلمة في كل وقت ومكان موجبة عليهم توقير النبي وتعظيمه والصلاة والسلام عليه عند ذكر اسمه. وفي حديث رواه البخاري: قيل لرسول الله حينما نزلت الآية: أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا. اللهم صل علي محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك علي محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد.. وفي حديث آخر أخرجه الإمام أحمد أن النبي قال: أتاني آت من ربي عز وجل فقال. من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وردَّ عليه بمثلها. واتساقا مع هذا التعظيم جاء النهي عن إيذاء النبي بتحديه والتحريض عليه والكفر به وتُوُعِّد من يفعل ذلك بالطرد من رحمة الله وعذابا أليما في الآخرة.

تشريع لعدم إيذاء المؤمنين والمؤمنات:

ثم جاءت آيات تنهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل من غير ذنب فعلوه وتخبرهم أنهم لو فعلوا ذلك فعليهم أن يتحملوا وزر كذبهم وافترائهم عليهم. كذلك روى المفسرون أن الفُساق كانوا يتعرضون للنساء في الليل حين يذهبن لقضاء حاجاتهن بدون تفريق بين الحرائر

والإماء والعفيفات وغير العفيفات. فنهت الآيات عن ذلك وأمرت بجعل زى خاص لحرائر المؤمنات يميزهن عن غيرهن حتى يَسلمن من التعرض للأذى. وليس المقصود بالجلباب ما يسمى حاليا بالنقاب، بل الجلباب هو الملاءة التى تشتمل بها المرأة. وقيل هو الخمار الذى تغطى به جبهتها ورأسها:

«والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا. يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما» (٥٨ – ٥٩).

إنذار للمنافقين:

«لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلا. سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» (٦٠ – ٦٢).

وهذا إنذار حاسم وصريح لفئات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين بسبب ما كانوا يبدونه من سوء أدب وبذاءة ودس وولوغ فى الأعراض وإثارة الريب والفتنة سواء أكان فى حق رسول الله أم فى حق المؤمنين والمؤمنات. فإذا لم ينتهوا عن أذاهم فإن الله سيسلِّط عليهم نبيه ويعينه على طردهم من المدينة ملعونين مهدري الدم أينما وجدوا دون تساهل. وتذكر الروايات أن هذه الفئات قد وعت الإنذار وخففوا من غلوائهم.

سؤال عن الساعة ومشهد من مشاهدها:

«يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا. إن الله لعن الكافرين وأعدَّ لهم سعيرا. خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا. يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا» (٦٣ – ٦٨).

ومما لا شك فيه أن الكفار والمنافقين كانوا يسألون عن موعد الساعة شاكِّين فى حدوثها. وقد سبق الكلام كثيرا عن الساعة فى القرآن المكى وكانت آيات كثيرة وسور بأكملها تؤكد على حدوث البعث وما أعد الله للكافرين من أنواع العذاب. وتذكر الآيات الحالية وصفا لحال الكافرين في يوم القيامة وتشبيههم بالذبيحة التي تقلب فى النار لتستوى جميع أجزائها كناية عن أن كل جزء من أجساد الكفار سيناله العذاب. ووقتها يندمون على أنهم عصوا الله ورسوله وأطاعوا سادتهم فأضلُّوهم ويدعون الله أن يضاعف عذاب سادتهم ويطردهم من رحمته.

إعادة النهى عن قول ما يؤذى الرسول:

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها. يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا. يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما» (٦٩ - ٧١).

وفى سبب نزول هذه الآيات قالوا إن النبى قسَّم ذات يوم فيئا فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. فلما أخبر رسول الله بذلك احمرَّ وجهه ثم قال: رحمة الله على موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

قبول الإنسان للتكليف وتبعاته:

ثم تختم السورة بآيتين عن سبب خلق الإنسان مُخَيَّرا فى أفعاله:

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما» (٧٢ - ٧٣).

والأمانة هى حرية الاختيار فى الفعل والأهلية للتكليف والخلافة فى الأرض وعبادة الله والتزام أوامره ونواهيه. ومن خطورة التكليف وواجباته أن السموات والأرض والجبال - وهى ما هى من العظمة والسعة - خافت من التقصير فأبت حملها وبذلك ظلَّت على حالها مسخَّرة لا حرية لها فى الحركة فالكواكب والنجوم والشمس والقمر تجري فى أفلاكها خاضعة لسنن الله وقوانينه التى أودعها فى الكون. أما الإنسان فقد قبل بحرية الإرادة. غير أنه لم يرعها حق رعايتها وجَهِل خطورتها فظلم نفسه بتقصيره فى القيام بواجبات هذه الأمانة. وكان اختصاص الله الإنسان بالأمانة وسيلة لاختبار الناس حتى يميز خبيثهم من الطيب. فيعذب الله المشركين والمنافقين. وقالوا وقد نُصَّ فى الآية على المشركات والمنافقات والمؤمنات للإشارة إلى مساواة المرأة للرجل فى أهلية التكليف وفى النتائج المترتبة على حرية الاختيار. وفى ختام السورة يُعْلَن فتح باب التوبة لمن أخطأ فالله غفور للذنوب رحيم بالعباد.

سورة النساء:

وهى ثاني سور القرآن طولا بعد سورة البقرة. وقد تضمنت - على طولها - ثلاثة مواضيع رئيسية.

أ - تشريعات خاصة بالأسرة.

ب - جدال مع اليهود ودعوتهم للإيمان.

جـ - تشريعات خاصة بالمجتمع الإسلامى.

وتحت هذه العناوين الرئيسة تندرج نقاط تفصيلية كثيرة ستُذكر فى حينها.

وتبدأ السورة:

«**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**» (١).

والآية تأمر الناس بتقوى الله وتذكرهم بأنهم جميعا من نسل آدم. ثم تكرر الدعوة لتقوى الله. وكان العرب يناشدون ويستحلف بعضهم بعضا بقولهم: نشدتك الله أو أسألك بالله وبالرحم طالبين إجابة مطلبهم. فأمرتهم الآية بتقوى الله الذى يتساءلون به والأرحام.

أ – تشريعات خاصة بالأسرة:

ومعروف أن الأسرة هى لبنة بناء المجتمع وإذا قامت الأسرة على أسس سليمة كان المجتمع قويا. لذلك اهتم الوحى بالأسرة. ونزلت سلسلة من التشريعات بشأنها بلغت ٢٠ تشريعا مبتدئة بأضعف الحلقات وهو اليتيم.

١ – تشريع خاص بأموال اليتامى:

وهو يوجب أداء أموال اليتامى وحقوقهم وعدم أكلها وعدم إساءة استعمالها ونهى عن التحايل عند رد أموال اليتامى باستبدال الخبيث بالطيب كأن يدفعوا إليهم الهزيل من الأغنام. وكان العرب فى الجاهلية يفعلون ذلك ويقولون رأس برأس فكان النهى عن ذلك. كذلك نُهى عن الخلط بين نفقة الولى ونفقة اليتيم إذ كان الولى فى الجاهلية ينفق من مال اليتيم على نفسه. واعتبرت الآيات ذلك إثما عظيما:

«**وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا** (أى ذنبا) **كبيراً**» (٢).

٢ – تشريع لحماية حقوق البنات اليتيمات:

«**وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاَّ تعولوا**» (أى تجوروا) (٣).

وقد سئلت السيدة عائشة عن هذه الآية فقالت: هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى مالها ويعجبه جمالها ومالها فيريد أن يتزوجها بغير أن يعدل فى صداقها فنهوا عن ذلك إلا أن يدفعوا لهن ما يُدفع لمثلهن من الصداق، وأُمر الرجال أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. وفى حديث آخر عن عائشة أيضا قالت: إن اليتيمة تكون عند الرجل وهى ذات مال فلعله ينكحها لمالها وهى لا تعجبه فيسيء معاملتها، أو يزوجها لابنه ضنًّا بمالها أن يأخذه الغريب. ثم كانت الإباحة فى الزواج بأكثر من واحدة إلى أربع. ثم استدراك فى حالة الخوف من عدم العدل بينهن بالاقتصار على زوجة واحدة أو ملك اليمين من الإماء. وكان للرجل فى الجاهلية أن يجمع فى عصمته أى عدد من النساء قد يصل إلى عشر، وبعض من أسلموا كان

عندهم أكثر من أربع فأمرهم النبى باختيار أربع زوجات ومفارقة الباقيات. أما النبى فقد أحل الله له الاحتفاظ بزوجاته التسع لأسباب خاصة بكل زواج أوردناها فى كل حالة إلا أن بعض فرق الشيعة يرون جواز جمع تسع نساء لعامة المسلمين استنادا منهم إلى مجموع مثنى وثلاث ورباع ٢ + ٣ + ٤ = ٩. مع ما فى هذا من مغالطة!

٣ – تشريع خاص بالمهر:

«وآتوا النساء صدُقاتهن نِحْلَة (عطاء واجبا) **فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا»** (٤).

والتشريع يقضى بضرورة دفع مهر عند الزواج ولا ينقصوا منه شيئا إلا بموافقتهن ورضائهن. فإن تنازلن عن شىء منه فهو سائغ وحلال.

٤ – تشريع خاص بأموال السفهاء:

«ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا» (٥).

والعبارة واضحة وتنهى عن ترك الأموال – التي هى قوام الحياة – فى أيدى ضعاف العقل ممن لا يحسنون التصرف، مع وجوب الإنفاق منها عليهم قدر حاجتهم من طعام وكساء ووجوب معاملتهم بالحسنى.

٥ – فى إدارة أموال اليتامى:

«وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح (سن البلوغ) **فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا. ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف. فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا»** (٦).

وكان ولى اليتيم يرى لنفسه حقا فى أخذ شىء من مال اليتيم القاصر مقابل إدارة ماله وتدبيره فأباحت الآية هذا الأخذ للفقير مع شرط الأكل بالمعروف وعدم تجاوز الحد المتعارف على أنه حق معقول. وأمرت الغنى بالتعفف لأنه ليس فى حاجة. ويروى حديث أن رجلا قال لرسول الله: ليس لى مال ولى يتيم. فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل (أى من غير مساس بأصل المال) ولا أن تفدى مالك بماله. كذلك تنهى الآيات عن السرف فى الصرف من مال اليتيم استعجالاً لأكله قبل أن يبلغ ويسترد ماله **«إسرافا وبدارا أن يكبروا»**. ثم توضح الآية شروط دفع مال اليتيم إليه وهو أن يبلغ سن الحلم. وشرط ثانٍ وهو ثبوت رشده فى التصرف. فإذا لم يثبت رشده مع بلوغه سن الحلم اعتبر سفيها ودخل فى حكم الآية السابقة. وعند دفع أموال اليتامى إليهم يجب أن يتم ذلك بحضور بعض الشهود منعا للخلاف. والله محاسب كل واحد بأفعاله. وقد اتفق الفقهاء على أن سن الرشد هى الثامنة عشرة.

٦ - بعض أحكام المواريث:

«للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا. وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا. وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا. إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا» (٧ - ١٠).

والآيات واضحة وتقرر حق كل من الرجال والنساء فى تركة الأبوين والأقارب كنصيب مفروض من الله. وتوصى بمنح ذوى القربى الذين لا تخولهم درجة القرابة الإرث والمساكين واليتامى عطايا تطييبا لخاطرهم. ثم دعوة قوية إلى تقوى الله فى تنفيذ أوامره وتذكير بأن كل امرىء يخاف على ذريته إذا مات عنها وهى قاصرة ضعيفة أن يصيبها ظلم فالأولى به أن لا يتسبب هو فى هضم حق ذرية ضعيفة قاصرة. ثم عود إلى التنبيه على حرمة مال اليتيم وإنذار شديد لآكلى أموالهم ظلما وبغيا أنهم إنما يأكلون نارا محرقة فى الدنيا ولهم فى الآخرة نار السعير.

وكان من عادة العرب عدم توريث الإناث إذا لم يخلف الميت ذكرا. فيستولى الذكور من عصبة الميت على تركته سواء كانوا إخوته أو أعمامه أو بنى أعمامه وقد أعطت الآية النساء حقا فى تركة الميت تُرِك تحديده لمرحلة قادمة بعد أن يكون قد تم استيعاب التشريع.

٧ - تحديد نصيب كل وارث:

وفى الآيات ١١ - ١٤ تم تحديد نصيب البنين والبنات في تركة أبيهم. وكما هو معروف: للذكر مثل حظ الأنثيين. وكذلك تم تحديد نصيب الزوجة والأم. وما يرث الزوج من زوجته وما ترث الزوجة من زوجها فى حاله وجود أولاد أو عدم وجود أولاد. وكذلك نصيب الإخوة إن لم يكن للزوجين أبناء. وتنتهى الآيات بالحث على الامتثال لأوامر الله:

«تلك حدود الله. ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مُهين» (١٣ - ١٤).

٨ - تشريع فى إثبات الزنا وعقوبته:

«واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم. فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما. إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما. وليست التوبة للذين يعلمون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما» (١٥ - ١٨).

وقد جاء تقبيح للزنا وزجر عنه في سورة الفرقان (الآية ٦٨ ص ١٤٦) **«ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا»**. وفي سورة الإسراء (آية ٣٢ ص ٢١٣) **«ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا»**. وكان هذا متسقا مع ظروف العهد المكي الذي يخاطب مجتمعا غالبيته من الكفار ولم يكن من المقبول تشريع عقوبة لمرتكب هذا الإثم مادامت لن تنفذ. فاكتُفِيَ بتقبيحه وفي ذلك نهي للمسلمين عن ارتكابه. أما في المجتمع المدني – ومعظم أفراده من المسلمين – فقد أصبح من الممكن تطبيق عقوبة على هذا الفعل فنزل التشريع بها. وأول شيء أن يشهد أربعة من المسلمين على وقوع الفعل. وبالنسبة للنساء كانت العقوبة أن يحبسن في البيوت إلى أن يمتن أو يجعل الله لهن سبيلا للحياة المستقيمة والعمل الشريف. أما الرجل الزاني – وهو مضطر للخروج سعيا للرزق – فاكتُفِي بعقوبة الضرب والتعزير. وإن تاب فمن الواجب الإعراض عن هذه الغلطة ولا يُعيَّر بها. وقد استُكمِلَ تشريع عقوبة الزنا فيما بعد في سورة النور (ص ٦٥١).

٩ – تشريع لمنع اعتبار النساء جزءا من تركة المتوفى:

كان العرب قديما إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا لم يزوِّجوها ويتم كل ذلك دون موافقتها أو حتى استشارتها. فنزلت الآيات تنهى عن ذلك وتنهى أيضا عن إمساك الزوجات مع بغضهن بقصد الكيد وابتزاز أموالهن من مهور وغيرها وأمر للرجال بمعاشرتهن بالمعروف وتحملهن حتى في حالة الشعور بكرههن فقد يجعل الله فيما نكره خيرا كثيرا. وتحذير للرجال في حال اعتزامهم تطليقهن للتزوج بغيرهن أن يأخذوا شيئا من مهورهن مهما كان المهر كثيرا ففي ذلك إثم وظلم بعد ما كان بينهما من صلة زوجية وميثاق وعهد واستثنى من ذلك صدور فاحشة مبينة من الزوجة فهذه حالة تسوغ للزوج الكره والفراق ومحاولة استرداد ما أعطى من مهر وهدايا أو بعضه:

«يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرها ولا تعضُلوهن (تمنعوهن من الزواج) **لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعلَ الله فيه خيرا كثيرا. وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»** (١٩ – ٢١).

١٠ – تحريم الزواج من زوجة الأب:

«ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» (٢٢).

وكان من عادة العرب قبل الإسلام – إذا مات الرجل عن زوجة وله ابن بالغ من غيرها.

وألقى عليها ثوبا كان ذلك بمثابة رغبته فيها فإن شاء تزوجها وإن شاء أمسكها فى بيته وإن شاء زوَّجها لغيره وإن شاء سرَّحها مقابل مال تفدي به نفسها. ورووا أن الآية نزلت فى زوجة أبى قيس بن الأسلت الأنصارى. لما مات خطبها ابنه فأتت رسول الله وقالت إنى أعده ابنا لى فنزلت الآية.

١١ – مَن يحرم الزواج منهن:

«حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم (بنت الزوجة) **اللاتى فى حجوركم** (فى كفالتكم مع أمهاتهن) **من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم. وحلائل** (زوجات) **أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما. والمحصنات من النساء** (أى المتزوجات) **إلا ما ملكت أيمانكم** (السبى فى حروب) **كتابَ الله عليكم وأُحِل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين** (زواجا وليس زنا) **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن** (مهورهن) **فريضة** (متفق عليها) **ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما»** (٢٣ – ٢٤).

١٢ – تسهيل الزواج للفقراء من الرجال:

والتشريع يبيح للذين لا قدرة مالية لهم على الزواج من امرأة حرة أن يتزوجوا بإماء مؤمنات. وعلى من أراد ذلك أن يحصل على إذن أهل الفتاة ويؤدى لها مهرها حسب العرف السائد فى المجتمع. وعلى الرجل ألاَّ يتزوج من أمة عُرِف عنها أنها زانية معلنة أو معشوقة لفلان من الناس. والأمة حين تتزوج من حر تكون قد تحصنت ومن واجبها التعفف عن السفاح (الزنا جهرا) والتخادن (الزنا سرا) لأنها أصبحت زوجة شرعية لزوجها فإذا اقترفت فاحشة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة المتزوجة:

«ومَن لم يستطع منكم طَوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض. فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان. فإذا أُحصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم. يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا» (٢٥ – ٢٨).

١٣ - تشريعات متنوعة:

أ - **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم،..**

ب - «**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما. ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا**» (٢٩ - ٣٠).

جـ - «**إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريما**» (٣١).

وهو حث وأمر على اجتناب عظائم الذنوب فيغفر الله ما دونها من السيئات والصغائر.

د - «**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيئ عليما**» (٣٢).

وهو نهى عن أن يتطلع الرجال إلى ما ميز الله به النساء، ولا النساء إلى ما ميز الله به الرجال، فإن لكل فريق تكوينا ملائما لوظيفته فى الدنيا ومهيؤ لما خلق له فليتجه كلٌ إلى رجاء الاستزادة من فضل الله بتنمية مواهبه والاستعانة على ما نيط به، والله عليم بكل شيء وقد أعطى كل نوع ما يصلح له. (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم، ص ١١٣). ويقول الألوسى (تفسيره، جـ ٥ ص ١٩) إن التمنى المذكور كناية عن الحسد، فلا يتمنى امرؤ ما فى يد الغير من نعمة من المال والجاه وكل ما يجرى فيه التنافس. ثم وضَّحت الآيات أن للرجال نصيب في المواريث يختلف عن نصيب النساء، أو أن لكل منهم حظا من الثواب حسب ما كُلف به وما هو مهيؤ له.

هـ - «**ولكلٍ جعلنا موالى (وارثين) مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً**» (٣٣).

فقد جعل الله لكل من الرجال والنساء ورثة مستحقين لتركتهم وهم الوالدان والأقربون والذين عقد لهم المتوفى عهدا وأعطاهم يمينا على النصرة والإرث وهو عقد الموالاة الذي كان شائعا بين العرب قبل الإسلام (ص ٥٩٥). وأوجبت الآيات إعطاءهم نصيبهم المتفق عليه وهو السدس على ما سبق أن شرحنا.

١٤ - قوامة الرجال فى الأسرة:

«**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات (مطيعات) حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا**» (٣٤).

وعلى الرجال القيام بإعالة النساء بما أعطاهم الله من صفات تهيؤهم للكدح لكسب المال، والزوجات الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن حافظات لأنفسهن فى غياب أزواجهن وكما جاء

فى الحديث الشريف «وإن غاب عنها حفظته» أما الزوجات اللاتي تظهر منهن بوادر العصيان فعلى الرجال نصحهن بالقول المؤثّر. ثم الاعتزال فى الفراش فإن لم ينصلح حالهن فيعاقبن بالضرب الخفيف غير المبرح ولا المهين فإذا عُدن إلى الصواب وجب معاملتهن بالحسنى.

١٥ – في حل الخلافات الأسرية:

«وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفّق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا» (٣٥).

١٦ – البر بالوالدين ووصايا أخرى:

وقد أُلحق بر الوالدين وقُرِن بعبادة الله لما للوالدين من فضل:

«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا» (٣٦).

١٧ – حث على التصدق وعدم البخل:

«الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما» (٣٧ – ٣٨).

وتكملة لهذا المعنى تبين الآيات عدل الله وكرمه فهو سبحانه لا يظلم أحداً شيئا ولا يقلل من ثوابه ولو شيئا قليلا مثل الذرّة ويضاعف للمحسن ثواب حسناته. ثم يأتى تعجب من هؤلاء الباخلين والمعرضين عما أمر الله به إذا جاء الله يوم القيامة بكل نبى شهيدا على قومه وجاء الله بالنبى شهيدا على قومه وفيهم المانعون والمعرضون:

«إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما. فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا. يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا» (٤١ – ٤٢).

وفى يوم القيامة يتمني الباخلون والجاحدون والمعرضون لو يُغيبوا فى الأرض كما يُغيَّب الأموات في القبور وتسوى التربة فوقهم وهم لا يستطيعون أن يخفوا عن الله أي شأن من شئونهم.

١٨ – بداية تحريم الخمر:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...»

وقد سبق أن جاء تقبيح للخمر في سورة البقرة (الآية ٢١٩ ص ٤٨٤) وذكر فيها أن إثم الخمر أكبر من نفعها. ثم جاءت الخطوة الحالية تنهى عن الصلاة في حالة السكر لأن السكران لا يعي ما يقول. ولو لاحظنا أن السكران قد لا يفيق من شرب الخمر إلا بعد ٣ أو ٤ ساعات أو أكثر حسب كمية الخمر التي شربها ولاحظنا توزيع الصلوات على مدار اليوم لوجدنا أن هذا النهي لم يترك لشارب الخمر إلا ساعات قليلة بعد صلاة العشاء. وفي وقت لاحق نزلت سورة المائدة (الآية ٩٠ ص ٧١٢) وفيها التشريع الأخير والحاسم في تحريم الخمر وجُمِعَ في الإثم بينها وبين الميسر والأنصاب والأزلام.

١٩ – تحريم وجود الجُنُب في المسجد:

والجنب يحرم عليه دخول المسجد إلا إذا كان لمجرد عبوره – دون استقرار فيه – ليصل إلى الماء ليغتسل:

«ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا...»

٢٠ – تشريع التيمُّم:

وفي حالة المرض الذي يزيد باستعمال الماء أو في حالة السفر فيشق وجود الماء أو يخشى نفاده فلا يبقى ما يكفي للشرب وفي حالة الحدث الأصغر أو الجنابة، أبيح التيمم بأن يقصد المرء ترابا طيبا فيضربه ويمسح على وجهه ويديه فتحدث الطهارة المطلوبة.

«وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عَفُوًّا غفورا» (٤٣).

ب – جدال أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام:

هذا هو الموضوع الثاني الرئيسي التي اهتمت به سورة النساء. وأهل الكتاب المخاطبين في هذه الآيات هم يهود فدك وخيبر وتبوك ومن انضم إليهم من يهود المدينة بعد إجلائهم عنها – والموضوع يحتوي على عدة نقاط:

١ – فضح مسلك من بقي من يهود المدينة:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيلَ. والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيرا. من الذين هادوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا في الدين. ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا» (٤٤ – ٤٦).

بقي في المدينة من اليهود بعد إجلاء تجمعاتهم بعض شراذم متفرقة ارتبطت مصالحهم

بمصالح المنافقين فاحتموا بهم وظلوا فى المدينة يُظهرون أنهم على الحياد ولكنهم فى حقيقتهم اختاروا الضلال ويريدون أن يُضلوا المسلمين. فنزلت الآيات تفضح عداوتهم للمسلمين. وأشارت إلى أنهم كانوا يقولون للنبى كلاما فى ظاهره لا غبار عليه ولكنهم يقصدون به الهزء برسول الله. فقولهم «اسمع غير مسمع» وكان العرب يقولون اسمع غير مسمع مكروها ولكن اليهود كانوا يقصدون الدعاء على النبى بمعنى «اسمع لا سمعت». وكذلك قولهم «راعنا» بمعنى طلب الرعاية ولكنهم كانوا يلوون ألسنتهم لتعطى معنى من الرعونة. وكان الأولى أن يقولوا انظرنا حتى يبعدوا عن هذا الاشتباه. وقد سبق الإشارة إلى هذه الكلمة ونُهِىَ المسلمون عن استعمالها فى خطابهم للنبى – فى سورة البقرة (الآية ١٠٤ ص ٤٥٤) عند شرح قوله تعالى: **«يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا».**

٢ – دعوة اليهود إلى الإسلام:

«يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمِنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا. إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما. ألم تر إلى الذين يُزكون أنفسهم بل الله يُزكى من يشاء ولا يُظلمون فتيلا. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا. ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه وكفى بجهنم سعيراً» (٤٧ – ٥٥).

والآيات واضحة وفيها دعوة ليهود المدينة للإسلام الذى جاء مصدقًا لكثير مما فى التوراة. ثم تبين لهم أن الله – إن شاء – سيغفر لهم ذنوبهم ماعدا الشرك بالله. وحذرتهم الآيات مما حدث لأهل المدينة حاضرة البحر الذين دنَّسوا حرمة يوم السبت فلعنهم الله وهو ما سبق ذكره في الجزء الرابع (ص ١٠٨١). وقال المفسرون إن رجالا من اليهود أتوا بأطفالهم إلى النبى وسألوه هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال لا. فقالوا: ما نحن إلا كهيئتهم، ما عملناه بالنهار يُكفَّر عنا بالليل. وما عملناه بالليل يُكفَّر عنا بالنهار لأننا أحباء الله وهم بذلك يزكون أنفسهم. فلفتت الآيات نظرهم إلى أن الله هو الذى يزكى من يشاء. كذلك أشارت الآيات إلى ما فعله اليهود حين سألتهم قريش بصفتهم أهل علم وكتاب عمَّن هو الأهدى: هم أم محمد؟ فقالوا لهم إنهم هم الأهدى. وما قالوا ذلك إلا لأنهم حسدوا العرب على ما تفضَّل الله به عليهم من نعمة الإسلام. وتندد الآيات بهذا الحسد لأن الله قد آتى إبراهيم – وهو جدهم الأكبر – النبوة وجعل من ذريته ملوكا عظاما مثل داود وسليمان.

٢ - جزاء الكافرين ومقابلته بثواب المؤمنين:

بعد هذه الدعوة لليهود للإسلام جاء تحذير مما أعده الله للكافرين من عذاب أليم وترغيب فيما أعده الله من جنات للمؤمنين:

«إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا (هو ظلال الجنة)» (٥٦ - ٥٧).

ويرى العلماء المعاصرون في الآية الأولى إعجازا علميا فقد ثبت أن الجلد به من أعصاب الإحساس بالألم أكثر بكثير مما فى العضلات، وما يشعر به المريض من ألم عند أخذ حقنة دواء يكون عند اختراق الإبرة للجلد أما بعد ذلك فلا يكاد يكون هناك ألم. وفى الآخرة حينما يحترق الجلد من نار جهنم تحترق معه الأعصاب ويزول الألم. فمن شأن تبديل الجلد المحترق بجلد جديد استمرار الشعور بالألم زيادة في التعذيب.

جـ - تشريعات لصلاح أمر المجتمع والأمة:

وهذا هو الموضوع الرئيسى الثالث الذى احتوته سورة النساء ويتضمن عدة نقاط:

١ - حث على تأدية الأمانات والعدل فى الحكم:

«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا» (٥٨).

والآية واضحة وتأمر الناس بأداء ما ائتُمنوا عليه إلى أصحابه كما تأمرهم بعدم الجور فى الحكم. ونعمت تلك الموعظة التى يعظهم بها الله.

٢ - وجوب طاعة الرسول وقبول حكمه:

«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم. فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» (٥٩).

والآية تأمر بطاعة الله ورسوله والولاة الذين يتولون الحكم. فإذا حدث نزاع حول أمر من الأمور فالمرجع والحَكَم هو كتاب الله وسنة رسوله. ويليهما اجتهاد الفقهاء وأولى العلم الذى تقرره الآية ٨٣ (ص ٦٢٣).

٣ - فى المنافقين:

«ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا

إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا. وإذا قيل لهم تعالَوْا ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدودا. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا. أولئك الذين يعلمُ الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله. ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما. فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (٦٠ – ٦٥).

وقالوا في سبب نزول هذه الايات إن بعض اليهود الذين أسلموا نفاقا اختلفوا مع جماعة من المسلمين فطلب المسلمون الاحتكام إلى النبى ولكن اليهود طلبوا الاحتكام إلى كاهن منهم كان شديد العداوة للمسلمين. ثم تساؤل عما يكون حالهم إذا حلَّت بهم مصيبة من جراء انحرافهم عن الحق فيتراجعون ويأتون إلى الرسول ويحلفون أنهم لم يريدوا إلا الإحسان وطلب التوفيق فى الخصومات. وتقرر الآيات أن الله يعلم حقيقة ما فى قلوبهم من سوء نية وعلى النبى أن لا يلتفت إلى كلامهم وأن يعظهم ويؤنبهم. ثم يقسم الله بذاته العلية بِقَسَم فيه تشريف للنبى **«فلا وربك»** أن إيمانهم لن يكون كاملاً حتى يرجعوا إلى النبى ليحكم فى خلافاتهم ويقبلوا حكمه في خصوماتهم بدون غضاضة. وفى الآيات صورة مما كان النبى يلقاه من مصاعب ومشاكل وخاصة من المنافقين. وقد انطوى أسلوب المعالجة على مزج التهديد بالعظة والإنذار بالرفق ثم استمالة بوعد الاستغفار لذنوبهم ووعد بقبول توبتهم.

ثم يجيء تنديد آخر بمسلك المنافقين من اليهود:

«ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وإذًا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما. ولهديناهم صراطا مستقيما. ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما» (٦٦ – ٧٠).

وقد أورد الإلوسى فى تفسيره (جـ ٥ ص ٧٢، ٧٣) كثيرا مما قيل في سبب نزول هذه الآيات واستحسن رأى البلخى من أن الضمير فى «عليهم» عائد إلى المنافقين من اليهود الذين أسلموا فى الظاهر وعلم الله ما فى قلوبهم فأنزل يذكرهم بأن أجدادهم لما ضلوا فى عبادة العجل كتب الله عليهم أن يقتلوا أنفسهم (انظر جـ ٤ ص ١٠٠٢) ففعلوا وبلغ قتلاهم سبعة آلاف (يقول الألوسى سبعين ألفا!). وأن الله لو أمر اليهود المعاصرين للنبى أن يقتلوا أنفسهم. كناية عن الجهاد فى سبيل الله أو الخروج من ديارهم للقتال (المنتخب فى تفسير القرآن. ص ١٢٠) ما امتثل للأمر إلا عدد قليل، ولو أنهم استجابوا للأمر لكان ذلك خيرا لهم ودليلا على

إيمان ثابت ولكان أجرهم عندالله عظيما. وكانوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في درجتهم العالية في الجنة فضلا من الله. وما أحسن هؤلاء من رفقاء.

٤ – حث على الاستعداد للعدو وتجاهل المعوقين ومناصرة المسلمين في مكة:

«يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثُبات (جماعات متفرقة) **أو انفروا جميعا. وإن منكم لمن ليبطئن** (يتأخر عن القتال) **فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزا عظيما. فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما. وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت. فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا»** (٧١ – ٧٦).

قيل إن قريشا اشتدت في إيذاء المسلمين المستضعفين في مكة والذين تسلط عليهم أقاربهم ومنعوهم من الهجرة. وكذلك بدأت قريش تدعو القبائل للانضمام إليها في محاربة المسلمين فنزلت الايات تستثير حماس المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله وراح المنافقون يعارضون ويثبطون. والآيات تأمر المؤمنين أن يكونوا على حذر دائم من أعدائهم وأن يأخذوا الأهبة لرد كيد المعتدين ويخرجوا للقتال جماعات متفرقة (السرايا) أو يخرجوا جميعا (الغزوات) وعليهم أن يحذروا الذين يُثبطون ويتخلفون عن القتال فإذا انهزم المسلمون قالوا شامتين إن الله أنعم عليهم إذ لم يشتركوا في القتال. وإذا انتصر المسلمون فإنهم يتحسرون ويتمنون أن لو كانوا معهم – كأنه لم تكن هناك رابطة مودة تربطهم بهم – ويقولون ليتنا كنا معهم فنفوز ببعض الغنائم. ثم يأتي حث للمؤمنين الصادقين على القتال وإعلانهم أن من يقاتل في سبيل الله حتى يُقتل أو يتحقق النصر فله أجر عظيم عند الله. ثم سؤال يستنكر عدم القتال في سبيل الله ودفاعا عن الشيوخ المسنين والنساء والأولاد والذين يتمنون الخروج من مكة لظلم أهلها لهم وأن يجعل لهم من يدافع عنهم وينصرهم على ظالميهم، وقطعا سينتصر المؤمنون الذين يقاتلون في سبيل الله على الكفار الذين يقاتلون ظلما وطغيانا ووليهم الشيطان.

٥ – مسلك المنافقين عند الدعوة للقتال:

وتمضي الآيات تندد بموقف المنافقين ومسلكهم. إذ عندما لم يكن هناك قتال كانوا يتمنونه فلما فرض عليهم القتال تخاذلوا خوفا من القتل وتخبرهم الآيات أن عمرهم في الدنيا – مهما طال – قصير. وأن الموت لابد آت حتى لو كانوا في حصون منيعة. ثم راح المنافقون إذا أصابهم خير قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم شر قالوا هذا من سوء تصرف النبي.

وتنبههم الآية إلى أن كلاً من الخير والشر من عند الله: الخير فضل من الله ومنة والشر يكون بسبب ذنب ارتكب:

«ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب. قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا. أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة. وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً» (٧٧ - ٧٩).

ثم تمضي الآيات توضح أن طاعة الرسول هي طاعة لله. أما المنافقون فيظهرون الطاعة لما يأمر به النبي فإذا خرجوا من عنده راحوا يبيتون أفعالا غير التي أمرهم بها. والله عليم بما يبيتون وما يدبرون. والمفهوم أنه سيجازيهم عليها. ولو تدبروا القرآن لتأكدوا أنه وحي من عند الله:

«من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا. ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا. أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (٨٠ - ٨٢).

كذلك كان المنافقون إذا اطلعوا على أمر يتعلق بقوة المسلمين أو موطن ضعف فيهم أو أمر عن قوة العدو يثير الخوف أذاعوه بين الناس لإلقاء الرعب في قلوب المسلمين والواجب إبلاغ المعلومات أولا إلى رسول الله وإلى أولي الأمر من القادة وكبار الصحابة لأنهم أقدر على تحليل المعلومات وتقدير الموقف والتصرف فيه. ولولا فضل الله على المسلمين لأغواهم الشيطان وأشاع الذعر بين صفوفهم. ثم يأتي أمر للنبي بالقتال ليكف بأس الكافرين والله أشد قوة وسينصره وتنكيله بالكافرين سيكون شديدا:

«وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا. فقاتل في سبيل الله لا تُكلَّفُ إلا نفسك وحرِّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا» (٨٣ - ٨٤).

وإذا كان هؤلاء المنافقون يناصرون الفساد وأهل الإيمان يناصرون الحق. فمن يناصر في أمر حسن يكن له نصيب من ثوابه ومن يناصر أهل السوء يكن عليه وزر من عقابه. وقد وضع المعنى في صيغة تجعل منه قاعدة عامة فالذي يدعو إلى الخير عموما ويشجع عليه له نصيب

من عواقبه الحسنة ومن يدعو إلى الشر ويعضده له نصيب من عواقبه السيئة والله قادر على أن يجازى كُلاً بما يستحق:

«من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مُقيتا» (٨٥).

٦ – فى رد التحيـة :

«وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسَنَ منها أو رُدُّوها إن الله كان على كل شيء حسيبا» (٨٦).

والأحاديث النبوية التى تحض على إفشاء السلام كثيرة نكتفى بذكر واحد منها وهو مروى عن أبى هريرة أن النبى قال: والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. وجمهور العلماء متفقون على أن البدء بالسلام سنة مستحبة والرد عليه واجب والممتنع عن الرد آثم. وعلى المسلم أيضا رد تحية غير المسلم بخير منها أو مثلها.

ثم تقرر الآيات وحدانية الله وهو الذى سيبعث الخلق ويجمعهم إلى يوم القيامة:

«الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا» (٨٧).

عود إلى المنافقين:

قيل إن بعض الأعراب أتوا إلى المدينة مسلمين ثم لما أصابهم مرض تركوا المدينة وأقاموا مع القبائل المشركة المجاورة فقابلهم نفر من أصحاب رسول الله وسألوهم عن سبب رجوعهم فقالوا أصابنا وباء المدينة فكرهنا الإقامة بها. فانقسم المسلمون إزاءهم فرقتين: فرقة تريد قتالهم وفرقة ترى عدم قتلهم أملا فى أن يهتدوا يوما ما. والفريق الآخر يرى أن من يضله الله لن يكون له سبيل الخلاص والهداية. بل إن هؤلاء الأعراب كانوا يتمنون أن يكفر المسلمون فيكونوا مثلهم. ثم نهت الآيات عن اتخاذهم أصدقاء وأولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله وينضموا لإخوانهم فى المدينة. فإن رفضوا قتلوهم إلا إذا كانوا من قوم بينهم وبين المسلمين عهد أو أعلنوا وقوفهم على الحياد أى أنهم لا يريدون قتال المسلمين ولا قتال قومهم ففى هذه الحالة لا يحق قتلهم.

وروى أن جماعة من قبيلتى أسد وغطفان كانوا إذا أتوا إلى المدينة يتظاهرون بالإسلام ليأمنوا المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم أظهروا الشرك والعداء للإسلام ليأمنوا قومهم. فكان حكم الله فيهم أن من يطمئنون إلى صدق حيادهم وموقفهم المسالم من المسلمين لا يبادئونهم بالقتال فإذا لم يعلنوا الحياد والمسالمة حق للمسلمين قتالهم:

«فما لكم فى المنافقين فئتين. والله أركسهم (أخزاهم) بما كسبوا. أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم

ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا. إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم. ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم. فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا. ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رُدوا إلى الفتنة أركسوا فيها. فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا» (٨٨ - ٩١).

كان الوحي حريصا على الإكثار من عدد المسلمين بالمدينة فراحت الآيات تحث الذين يتظاهرون بالإسلام من أهل البادية علي الهجرة إلى المدينة ويجاهدوا مع المسلمين حتى يُثبتوا صدق إيمانهم أما قبل ذلك فهم منافقون ونهت الآيات المسلمين عن اتخاذهم نصراء أو أولياء. فإن رفضوا الهجرة وانضموا إلى الأعداء فالواجب على المسلمين قتلهم أنىّ وجدوهم. واستثنى من ذلك أولئك الذين ينتمون إلى قوم بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء. وهناك فريق من المنافقين إذا انتصر المشركون كانوا معهم وإن انتصر المسلمون أظهروا إسلاما. فهؤلاء فى ضلال وإن لم يعلنوا صراحة المسالمة التامة للمسلمين فإنه يحق لهم أن يقاتلوهم.

٧ - حد القتل الخطأ والقتل العمد:

«وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدَّقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما. ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما. يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام (نطق بالشهادة دلالة على الإسلام) **لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا»** (٩٢ - ٩٤).

وحاصل هذا ما يلى :

١ - إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ. فعلى القاتل أن يعتق رقبة مؤمنة وأن يدفع لأهل القتيل دية إلا إذا عفوا وتنازلوا عنها.

٢ - إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ وكان أهل القتيل أعداء للمسلمين. فعلى القاتل أن يعتق رقبة كفارة عن عمله ويتوب إلى الله.

٣ - إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ وكان بين أهل القتيل والمسلمين معاهدة. فعلى القاتل عتق رقبة ودفع دية إلى أهل القتيل.

٤ - إذا لم يجد أو لم يتمكن القاتل من تحرير رقبة مؤمنة فالكفارة صيام شهرين متتابعين.

٥ – إذا قتل مؤمن مؤمنا عمدا فجزاؤه جهنم وغضب الله عليه ولعنه، إلا أن هذا لا يعفى من القصاص الوارد فى سورة البقرة (آية ١٧٨ ص ٤٧٥): **«كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى»** إلا إذا تنازل أهل القتيل عن حقهم.

٦ – أمر المسلمين بالتثبت من حقائق الناس الذين يلقونهم إذا خرجوا للجهاد فى سبيل الله فلا يقتلون إلا العدو الكافر ولا يقولوا لمن أعلن الإسلام أنه ليس بمسلم اجتهادا منهم أنه غير صادق وطمعا فى المغانم التى ينالونها منه.

٨ – حث على الجهاد:

من المحتمل أن بعض المسلمين سألوا النبى عن حكم الذي يقعد عن الجهاد وليس به عذر يمنعه، وهو أيضا مخلص فى إيمانه فبينت الآيات فضل المجاهدين على القاعدين:

«لا يستوى القاعدون من المؤمنون غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكُلاً وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما» (٩٥ – ٩٦).

وواضح أن الآيات قصدت عدم تجريح القاعدين الذين ليس فيهم ضرر من مرض أو عاهة تمنعهم من القتال وتقصد قبول أعذار الناس حتى لو لم تكن قوية ظاهرة ما داموا لم يتهرَّبوا ولم يُثبِّطوا. فليس كل الناس فى كل ظرف مستعدين للقتال. وفى قوله تعالى **«وكلا وعد الله الحسنى»** لفتة ربانية كريمة تُطمئن القاعدين مخلصى الإيمان. أما أولوا الضرر وذووا العاهات فقد نزلت فيهم الآية ١٧ من سورة الفتح (ستأتى فيما بعد ص ٦٩٢). وقول **«فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة»** وفى المرة الثانية **«وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة»** فيه تحبيذ للجهاد لكونه أفضل بدرجات كثيرة ولهم زيادة على ذلك مغفرة من الله ورحمة واسعة.

٩ – حكم المسلمين الذين بقوا فى مكة:

كان بعض المسلمين قد آثروا البقاء فى دورهم فى مكة وسط المشركين. ولعلهم خشوا المجهول وضيق الرزق فى البلدة الجديدة مع أنهم كان يكفيهم أن يكونوا فى جوار رسول الله. ولعلهم أيضا خشوا قتالا قد تشنه قريش على المسلمين فى المدينة فآثروا البعد عنه. وكانوا يعتذرون – كذبا – أنهم كانوا مستضعفين ومغلوبين على أمرهم. فهؤلاء قد ظلموا أنفسهم. وستسألهم الملائكة يوم القيامة سؤال تأنيب لأنه كان بإمكانهم – بوسيلة أو بأخرى – الهجرة وإذ لم يفعلوا فهم كالمنافقين ولهم عذاب جهنم. واستثنى النساء والولدان والضعفاء من الرجال لكبر السن وغيره فهؤلاء حقيقة مغلوبون على أمرهم ولهم عذر واضح فطمأنتهم الآيات بأن الله

سيشملهم بعفوه وغفرانه .

ونوّهت الآيات بما يلاقيه المهاجرون فى سبيل الله من أبواب واسعة للرزق وأن من يهاجر سيجد مساندة من إخوانه المسلمين بحيث يقدر على مراغمة أعدائه ويكون فى منعة منهم. وحتى من يخرج مهاجرا فى سبيل الله فيموت فى الطريق فقد جعل الله أجره حقا عليه وغفر له ورحمه فالله غفور رحيم:

«إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا. ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُراغَما كثيرا وسَعَة. ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما» (٩٧ - ١٠٠).

ويروى أن المهاجرين فى المدينة - حينما نزلت هذه الآيات - كتبوا إلى من يعرفون إسلامهم فى مكة أنه يبق لهم عذر. فخرجوا. ولحق المشركون ببعضهم وقتلوا من قدروا عليه ونجا الباقون. ولعل قريشا رأت أن هؤلاء المهاجرين الجدد سيزيدون مسلمى المدينة قوة فحاولوا منعهم. ويقال إن جندب بن ضمرة - وكان طاعنا فى السن - لما بلغته الآية خرج وهو مريض فمات فى الطريق - وإذا طبقنا هذه الآيات على عصرنا الحالى كان على المسلم - الذى يُضطهد فى بلد أغلبيته غير مسلمة ويخشى الفتنة فى دينه - أن يهاجر إلى بلد مسلم لا يُستذل فيه ويأمن فيه على دينه.

١٠ - صلاة الخوف والثبات فى مواجهة العدو:

وقد نزلت هذه الآيات تشرع صلاة الخوف - فى ظروف غزوة بنى لحيان ووقوف سرية قريش بقيادة خالد بن الوليد للمسلمين بالمرصاد عند عسفان (ص ٦٠٤) فى محاولة للنيل منهم عند سجودهم للصلاة فنزلت الآيات. وكانت هذه أول صلاة خوف صلاها النبى بالمسلمين. وقد وضعت الآيات بتوقيف من النبى فى سورة النساء:

«وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حِذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مُهينا. فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على

المؤمنين كتابا موقوتا. ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما» (١٠١ – ١٠٤).

قيل إنه فى غزوة ثانية خشى المسلمون أن ينال العدو منهم أثناء السجود فى الصلاة فأتى جبريل النبى فأمره أن يقسم أصحابه شطرين فيصلى بفريق فى حين يقوم الفريق الثانى بكامل أسلحتهم يحرسهم ثم يتبادل الفريقان مواقعهم ويصلى بهم النبى الركعة الثانية فيكون لكل فريق ركعة واحدة وللنبى ركعتان وللفقهاء آراء كثيرة فى عدد الركعات التى يصليها المحارب وهل يتمها أم يكتفى بما صلى خلف الرسول – ويمكن الرجوع إليها فى كتب التفسير (ابن كثير – جـ ١ ص ٥٤٧ – تفسير الألوسى جـ ٥ ص ١٣٥ – المنتخب في تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ١٢٨).

والآيات تبين عدم التهاون فى أداء الصلاة فى أوقاتها حتى فى ظروف الحرب والخوف والخطر مع إباحة قصرها فى هذه الظروف. فإذا ذهب الخوف تؤدى الصلاة كاملة. ثم تحث الآيات علي طلب الأعداء وملاحقتهم وتبث فى المسلمين روح الشجاعة ببيان أنهم إن كانوا يصابون بجراح فى المعارك فأعداؤهم ينالهم نصيب أيضا من الجراح والألم مع الفارق وهو أن الله يؤيد بنصره المسلمين ويثيبهم على ثباتهم وليس لأعدائهم مثل ذلك.

١١ – مبادىء فى القضاء بين الناس:

روى أن أحد المسلمين (واسمه طعمة) سرق درعا لمسلم وأودعها عند يهودى وأن صاحب الدرع تعقب الأثر إلى بيت طعمة فسأله فأنكر وأخبره أن الدرع عند اليهودى وهو الذى سرقه فرفع الأمر إلى النبى وكاد إن يحكم على اليهودى فنزلت الآيات وظهرت براءة اليهودى وخيانة طعمة وقيل لما أراد النبى قطع يده فر من المدينة وارتد كافرا:

«إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (مخاصما عنهم أى مدافعا عنهم) **واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما. ولا تجادل عن الذين يختانون** (يخفون خيانتهم) **أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما. يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبَيِّتون ما لا يرضي من القول وكان الله بما يعملون محيطا. ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا. ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما. ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما. ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا. ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمَّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء. وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»** (١٠٥ – ١١٣).

والآيات تخبر النبى أن الله أنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس بما علَّمه الله وينهاه عن الدفاع عن الخائنين وعليه أن يستغفر الله مما كاد أن يقع فيه. وبعد ذلك يأتى نعى على الخائنين الذين يرتكبون الإثم ويستترون من الناس خشية منهم والأولى أن يخشوا الله لأنهم لا يستطيعون أن يستتروا منه فهو معهم ويعلم ما يتآمرون به. ثم يأتى تأنيب لمن دافع عنهم ويخبرهم أنهم إن نجحوا فى الإفلات من عقوبة الدنيا فمن الذى يجرؤ أن يجادل الله عنهم يوم القيامة وينقذهم من عقوبة الآخرة. ثم تخلص الآيات إلى مبادىء ثلاثة.

١ – من يعمل سوءا أو يظلم نفسه باقتراف الإثم ثم يستشعر خطيئته ويندم ويستغفر الله فإن الله يشمله بغفرانه ورحمته.

٢ – من يرتكب إثما فإنه فى الحقيقة لا يضر إلا نفسه لأن الله عليم بكل شىء وعادل فى حكمه.

٣ – من يرتكب إثما – صغيرا أم كبيرا – ثم يلقى بالتهمة على شخص برىء فإنه يكون قد ارتكب إثما مضاعفا: جريمة الذنب وجريمة إلصاقه ببرىء.

ثم تُختم الفقرة بتعقيب إلى النبى بأن الله قد شمله بفضله ورحمته وبصَّره بالأمور إذ كاد بعضهم أن يُضلوه بأقوالهم وأراه الله الحقيقة وعلَّمه مالم يكن يعلم فكان فضل الله عليه عظيما.

وفى حديث عن أم سلمة قالت: سمع رسول الله جلبة بباب حجرته فخرج إلى المتخاصمين وقال: إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم يكون ألحن بحجته (أى أبلغ فى عرضها) من بعض فأقضى له. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو يذرها.

١٢ – عن النجوى:

كان بعض الأفراد يجتمعون فيما بينهم بعيدا عن أعين الرقباء وهذه هي النجوى. فنزلت الآيات تنبه إلى أن كثيرا مما يدور في هذه الاجتماعات لا خير فيه إلا إذا كان الهدف الاتفاق علي إعطاء صدقة أو بذل معونة أو إصلاح بين متخاصمين أو نحو ذلك. فإذا كان الأمر كذلك فلهم عند الله أجر عظيم. أما إذا كان الهدف مخاصمة رسول الله والتحزب عليه فلهم فى الآخرة نار جهنم:

«لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما. ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولي ونُصلِه جهنم وساءت مصيرا» (١١٤ – ١١٥).

١٣ - عدم غفران الشرك بالله:

«**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا. إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا. لعنه الله، وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا. يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا** (بديلا أو خلاصا). **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا**» (١١٦ - ١٢٢).

والآيات واضحة وصريحة فى تقرير عدم غفران الله ذنب الشرك به مع إبقاء الأمل لغفران غيره من الذنوب لأن ضلال الشرك قد ذهب إلى آخر المدى ولا رجاء فيه لأنه يدعو من دون الله «إناثا» أى أصناما ذات أسماء مؤنثة مثل اللات والعزى ومناة ونائلة أو كناية عن الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهن بنات الله. وعلى كل حال فإنهم يتبعون الشيطان الذى تمرّد على الله والذى توعد بنى آدم بأن يُضلهم ويزين لهم بعض عادات الجاهلية مثل شق آذان الأنعام أو خرقها وادعاء أن هذه أوامر ربانية. وسيأتى النهى عن ذلك بتفصيل أكثر فى سورة المائدة (الآية ١٠٣ ص ٧١٥) . كما أن الشيطان يزين لهم الإتيان بأشياء من شأنها تغيير في الهيئة مثل الوشم والتفلّج وغير ذلك من وسائل التجميل غير اللازمة للتدليس علي الناس. وفى حديث مروى عن النبى قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. وزاد بعضهم والواصلة والمستوصلة. ومع أن تزين المرأة لزوجها مستحب وممدوح إلا أن بعض النساء كن يبالغن فيه حتى إنهن كن يُقشرن وجوههن بوضع مواد كاوية عليها لتبدو بيضاء. وهذا ومثله هو المنهى عنه. ثم يأتي بيان عِظم ثواب الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات إذ يعدهم الله وعد الصدق بأن يُدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا.

١٤ - درجات الناس عند الله:

روى أن جدالا قام بين فريق من المسلمين وفريق من أهل الكتاب فى أيهم أقرب إلى الله. فقال أهل الكتاب: نحن الأسبق وقال المسلمون: إننا نؤمن بكتبكم وأنبيائكم وأنتم غير مؤمنين بكتابنا ونبينا فنحن الأولى. وقد وردت سابقا آيات تحكي عن تفاخر أهل الكتاب مثل قولهم فى سورة البقرة (آية ١١١ - ص ٤٥٥) «**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**» وقولهم فى الآية ١٣٥ من سورة البقرة أيضا (ص ٤٦٤) «**وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا. قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين**» فنزلت الآيات لتحسم هذا الموقف الجدلى والتفاخرى:

«ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب. من يعمل سوءا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا. ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا. واتخذ الله إبراهيم خليلا. ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا» (١٢٣ - ١٢٦).

١٥ - تشريع في بعض أمور النساء:

«ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما. وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأُحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا. ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما. وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما» (١٢٧ - ١٣٠).

قال ابن جبير (تفسير الألوس جـ ٥ ص ١٥٩): وكان العرب لا يورثون إلا الرجل البالغ فلما نزلت آية المواريث (الآية ١١ ص ٦١٣) وبينت نصيب كل وارث وأعطت النساء والأولاد نصيبا من التركة، شق ذلك على الناس وقالوا أيرث الصغير الذي لا يقوم في المال والمرأة التي هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل! وأحيل السائلون إلى ما سبق نزوله من آيات في هذا الشأن. ثم عرض لحالة النساء اللاتي يريد من يكفلونهن أن يتزوجوهن ولا يريدون في نفس الوقت أن يدفعوا لهن مهرا. وحالة الأولاد واليتامى: كل هؤلاء يعاملون بالعدل والرحمة وبينت الآيات أن الله عليم بكل ما يفعلون من خير. ثم عرض لحالة ما إذا خافت إحدى النساء أن يعرض عنها زوجها ويهملها فلا مانع من عقد ما يسمى «مجلس صلح» والصلح خير من التمادي في القطيعة والهجر. ثم يأتي لفت نظر الأزواج إلى أن العدل بين الزوجات - في حالة تعددهن - أمر صعب للغاية وتنهاهم عن أن يميلوا كل الميل بقلوبهم نحو زوجة والإعراض عن أخرى فتكون كالمعلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلقة. وفي حالة اليأس من الإصلاح بين الزوجين فلا بأس من أن يفترقا وسييسِّر الله لكل منهما الحياة المستقبلية في غنى عن الآخر.

لله ملك السموات والأرض:

«ولله ما في السموات وما في الأرض. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا. ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا. من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا» (١٣١ - ١٣٤).

ويلاحظ تكرر النص على أن لله ما فى السموات وما فى الأرض ثلاث مرات للتأكيد على أنه هو مالك هذا الكون. وهو غنى عن العالمين وهو الوكيل الذي يتولاهم ويتكفل برزقهم وهو قادر على إفنائهم ويأت بقوم آخرين وهو - ذو الجلال - قدير على ذلك. وأن الناس إذا طلبوا نعيم الدنيا بالعمل الصالح وطاعة الله فإن الله يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة.

أمر بالعدل:

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا. وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» (١٣٥).

ولما كان العدل هو نظام الوجود وبه تنصلح أمور العباد فإن الآية تحث المؤمنين على اتباع العدل ولو كان فيه مساس بأنفسهم أو بوالديهم أو أقربائهم وسواء كان المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا يُراعى الغنى لغناه ولا يُظلم الفقير لرقة حاله فالله أعلم بما فيه صلاحهما وتنهى عن أن يمنعهم الهوى عن العدل وتحذِّر من أن يلووا ألسنتهم عن شهادة الحق أو يتخلفوا أو يرفضوا أداءها لأن الله عالم بما يعملون والمعنى أنه سيجازيهم على أعمالهم.

فى المنافقين:

تنص الآيات على أن من تمام الإيمان أن يؤمن المرء بالله وبمحمد نبيا وبالقرآن الذى أنزل عليه وأن يؤمن كذلك بالرسل السابقين وما أنزل عليهم من كتب وبالملائكة وبيوم القيامة:

«يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله وسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله (أى القرآن) **والكتاب الذى أنزل من قبل. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا. إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا»** (١٣٦ - ١٣٧).

وكان بعض الناس - مشركين أو يهود - قد آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا فهؤلاء لن يغفر الله لهم ولن يهديهم إلى الطريق المستقيم.

ثم تمضى الآيات تقرر بأن هؤلاء المذبذبين منافقون. وعلى النبى أن يبشرهم بأن لهم عذابا أليما. ولاشك أن العذاب الأليم سيكون فى الآخرة وإن كان هذا لا يمنع من عذاب دنيوى أيضا. والبُشرى تكون بما يَسُر. وهنا جاءت للتهكم حيث أنهم كانوا يتوقعون خيرا لظنهم أنهم على حق:

«بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا. وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم. إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا. الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله

قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا. إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا. إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما. ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما» (١٣٨ - ١٤٧).

وكان بعض المنافقين يتخذون من الكافرين أصدقاء حميمين ظانين أنهم سند لهم وتخبرهم الآيات أن العزة لله وحده. وكانوا يجلسون معهم في مجالسهم التي يستهزئون فيها بآيات القرآن. وقد سبق أن أمر المسلمون بترك مجالس الطعن في القرآن في الآية ٦٨ من سورة الأنعام (ص ٢٦١) في صيغة أمر للنبي: «**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره**». وحتى لو جلس المرء في مجلس ودار الحديث بريئا في أول الأمر ثم تطرق إلى هزء بالقرآن فعلى المرء أن يقوم فورا من هذا المجلس وإلا كان مثل المتقولين فيه «**إنكم إذا مثلهم**» أي منافقون مثلهم وسيجمع الله المنافقين والكافرين في جهنم يوم القيامة.

كذلك كان من صفات هؤلاء المنافقين أنهم - عند وقوع معركة - ينتظرون انتظار الحاقد الذي يتمنى السوء. فإن انتصر المسلمون ادعوا أنهم كانوا معهم وإن كان النصر للكافرين قالوا إنهم كانوا معهم يدافعون عنهم ضد المسلمين. وسيحكم الله فيهم يوم القيامة. وفي الدنيا لن يجعل الكلمة العليا للكافرين. وهؤلاء المنافقون يظنون أنهم يخدعون الله بنفاقهم مع أن الله سبحانه وتعالى خادعهم بإمهالهم يترعون في شرورهم. ومن علامة هؤلاء المنافقين أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى وليس عبادة حقيقية بل مراءاة للناس فهم متأرجحون فلا هم من المؤمنين ولا هم من الكافرين. ضلوا فزادهم الله ضلالا. وأنى لهم أن يجدوا سبيل الهدى. ثم في أمر واضح وصريح تنهى الآيات المؤمنين عن موالاة الكافرين حتى لا يكون لله عليهم حجة بينة. والمنافق أخطر من الكافر لأن الكافر كفره صريح ويمكن تجنبه أو توقيه أما المنافق فكيده خفي غير ظاهر وعليه يكون خطره أعظم لذلك فإن المنافقين يكونون في النار في أسفل درجة. وبعد هذا الإنذار القوي تفتح الآيات باب التوبة لمن يتوب منهم ويعمل صالحا فهؤلاء يصبحون من جماعة المؤمنين ولهم أجرهم العظيم. ولن يضير الله شيئا إن كفروا وعذبهم ولا يفيده شيئا إن آمنوا وشكروا بل الله هو الشكور الذي يشكر لعباده عمل الخير ويثيبهم عليه.

نهي عن السباب:

روى المفسرون أن رجلا تهجم على أبي بكر بحضور النبي فسكت أبو بكر طويلا ثم رد

عليه فبدت على النبي أمارات تدل على عدم رضائه فقال أبو بكر: يا رسول الله شتمني ولم تقل شيئا حتى إذا رددتُ عليه قمت! فقال النبي: إن مَلَكا كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان، ثم نزلت الآية:

«لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم وكان الله سميعا عليما. إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عَفُوا قديرا» (١٤٨ - ١٤٩).

فالسباب - مهما كان سببه - شيء قبيح لايحبه الله تعالى ويستثنى من ذلك المظلوم الذى يرد على المعتدى. ومع ذلك فالعفو أفضل.

الإيمان الحق يكون بالله وجميع رسله:

«إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مُهينا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما» (١٥٠ - ١٥٢).

وقد سبق أن جاء فى الآيات ١٣٦، ١٣٧ (ص ٦٣٢) أمر للذين آمنوا بالإيمان بالله ورسله والكتب التى أنزلت من قبل فذلك من تمام الإيمان.

مجادلة اليهود النبى:

أ - قيل إن وفدا من اليهود جاء إلى النبى فى المدينة يجادلونه وطلبوا منه على سبيل التحدى والتعجيز أن ينزل عليهم كتابا من السماء وكان الرد عليهم حملة ربطت بين سؤالهم وما كان من تعنت آبائهم فى الماضى إذ طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة. ثم ذكرتهم بكثرة خطاياهم فى اتخاذهم العجل وعبادته واعتدائهم على حرمة يوم السبت وقتلهم بعض أنبيائهم والافتراء على مريم ورميها بالفاحشة وأخيرا ادعائهم أنهم قتلوا المسيح ثم بينت الآيات أن من صُلب كان شبيها له وأن المسيح رفع إلى السماء. وزادوا على ذلك انتشار الظلم بينهم وصدهم عن سبيل الله وأكلهم الربا وأكل أموال الناس بالباطل. من أجل كل ذلك حرّم الله عليهم فى الدنيا طيبات من الطعام أُحِلّت لغيرهم من الأمم وأعد لهم فى الآخرة عذابا أليما:

«يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء. فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم. ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا

يؤمنون إلا قليلا. وبكفرهم وقولهم علي مريم بهتانا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً. فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما. لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والمقيمين الصلاةَ والمؤتون الزكاةَ والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما» (١٥٣ - ١٦٢).

وقد فصلّنا فى الجزء السادس (ص ١٠٠ - ١٠٤) رأينا فى مسألة القبض على المسيح ومحاكمته ورفعه إلى السماء وصلب الشبيه.

ب - ثم راح اليهود فى مجادلتهم للنبي ينكرون أن الوحي ينزل عليه فردّت عليهم الآيات أن الله يوحي إليه كما أوحى إلى النبيين من قبله:

«إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلا لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما. لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا. إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا. إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا. يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما» (١٦٣ - ١٧٠).

ويلاحظ أن أسماء الأنبياء الذين ذكروا لم يذكروا بترتيبهم الزمني. وهذا دأب القرآن فهو ليس كتاب تاريخ يُستنبط منه ترتيب الأنبياء. ولما كان اليهود هم المجادلون فقد أُفرد موسى بالذكر وذُكر ما اختُصَّ به من تكليم الله له - من وراء حجاب وبلا واسطة.

جـ - **رأى القرآن فى المسيح:** لابد أن اليهود فى جدالهم مع النبى تطرقوا إلى مسألة المسيح. ومن المحتمل أن بعض النصارى قد انضموا إليهم فى هذا الجدل فاليهود ينكرون نبوة عيسى فى حين أن النصارى يبالغون في تقديره فيجعلون منه إلها أو ابنا للإله وأضافوا الروح القدس. فنزلت الآيات لتضع الأمور فى نصابها الصحيح:

«يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة. انتهوا

خيرا لكم. إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا» (١٧١ - ١٧٣).

د - **تنويه بالنبي والقرآن:** وكان لابد أن يُختم هذا الجدل بالتنوية بالنبى وبرسالته ويدعو كلا من اليهود والنصارى إلى الإيمان فجاء الخطاب عاما مُوجًّها إلى الناس جميعا:

«يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا. فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما» (١٧٤ - ١٧٥).

ثم تُختم السورة بآية عن حكم التوريث فى الكلالة أى الذى يموت وليس له ولد ولا والد. فبينت الآيات نصيب الإخوة والأخوات:

«يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد. فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين. يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم» (١٧٦).

والمجمع عليه أن آية الكلالة هى آخر ما نزل من القرآن الكريم وإنما أمر النبى بوضعها فى سورة النساء لتكون ملحقة بالسورة التى وردت فيها أحكام المواريث.

سورة محمد

كان كفار قريش ومن والاهم من القبائل يزدادون عداوة للمسلمين يوما بعد يوم ويستميلون إليهم المنافقين ومرضى القلوب من أهل المدينة. كما أن اليهود بعد إجلائهم عن المدينة وتمركزهم فى خيبر راحوا يحرضون على الإسلام والمسلمين فنزلت سورة «محمد» وتسمى أيضا «سورة القتال» لما فيها من حض على قتال الكفار. وأسلوب السورة النظمى فريد إذ فيها مقابلة متكررة بين «الذين آمنوا» و «الذين كفروا».

«الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم (أى أحبطها) **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** (أى حالهم). **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. كذلك يضرب الله للناس أمثالهم»** (١ - ٣).

ومعنى الآيات واضح وفيه تنديد بالكفار وبصدِّهم عن سبيل الله واتباعهم للباطل فأضل الله أعمالهم. في حين أن الذين آمنوا اتبعوا طريق الحق الذى أنزل إليهم من ربهم. والفرق واضح ومثلهم بيِّنٌ ليعتبر الناس به ويتعظوا.

حثٌ على قتال الكفار:

«فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مَنًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم. ولكن ليبلوَا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يُضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم» (٤ – ٦).

والآيات تتضمَّن أمرا للمسلمين بأن يشتدوا في قتال الكافرين عند ملاقاتهم فى الحرب حتى إذا أكثروا فيهم القتل وضمنوا لأنفسهم النصر فعليهم الكف عن القتل وأسر من بقوا. والمسلمون بعد ذلك مُخيَّرون فلهم أن يمنُّوا ويتفضلوا على بعضهم ويطلقوهم بدون فداء أو يطلبوا الفداء من أقاربهم. ثم تنويه بأن الله قادر أن ينكل بالكافرين بدون حاجة إلى قتالهم ولكن حكمته شاءت أن يختبر المؤمنين بالقتال. ثم تأتى بشارة للذين قُتلوا فى سبيل الله بأن الله سيدخلهم الجنة التى وصف نعيمها فى آيات سابقة فعرفوها.

وعدٌ المسلمين بنصر الله:

«يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبتْ أقدامكم. والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم. إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم» (٨ – ١٣).

والآيات واضحة وتتضمن وعدا من الله للمسلمين بالنصر والتثبيت إذا هم نصروا الله وأحسنوا عبادته لأن الله يكون مولاهم. أما الكفار فهم تعساء لأنهم كرهوا ما أنزل الله فكان أن أحبط أعمالهم ولن يُثابوا على ما كانوا يعملونه من مكرمات مثل قِرى الضيف وإغاثة الملهوف وسقاية الحجيج وغير ذلك. ثم يأتى إنذار بتدمير الله لهم كما دمَّر الذين من قبلهم. ثم بيان لثواب المؤمنين فى جنات النعيم. أما الكافرون فقد شُبِّهوا بالأنعام لأن كل همهم كان التمتع بملذات الدنيا من طعام وغيره ولهم فى الآخرة النار مستقرا لهم. ثم تأتى تسرية عن النبى لإخراج قريش له من مكة بإخباره أن أهل القرى السابقين كانوا أشد قوة من قريش وانتصر الله منهم.

مقابلة بين ثواب المتقين وجزاء الكافرين:

«أفمن كان على بيِّنة من ربه كمن زُيِّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم. مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم» (١٤ – ١٥).

وفى الآيات تساؤل استنكارى عما إذا كان الذين يعرفون ربهم ويتقونه يتساوون مع الذين اتبعوا أهواءهم، ثم يأتى وصف للجنة التي وعدها الله للمتقين يشربون فيها ما يلذ لهم من ماء ولبن وخمر وعسل ويأكلون من كل الثمرات أما الكافرون فيشربون ماء غاية فى الحرارة يقطع الأمعاء.

استخفاف الكفار بالقرآن.

«ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم (كناية عن علماء الصحابة) **ماذا قال آنفا. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءهم. والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم»** (١٦ - ١٧).

وكان بعض الكفار والمنافقين يحضرون مجالس النبى ويستمعون إلى ما يقوله لاهية قلوبهم مُستخفين بما يسمعون، وحينما يخرجون يسألون مستهزئين عما كان يتكلم، كأنه يقول كلاما غير مفهوم. وفي الحقيقة هم الذين فقدوا الفهم والإدراك وانساقوا وراء أهوائهم بعكس المؤمنين الذين كانوا يستمعون إلى النبى بفهم فزادهم الله هداية وازدادوا تقوى.

متى يؤمنون:

«فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطُها فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» (١٨).

وهو تساؤل استنكارى عما إذا كانوا ينتظرون قيام الساعة حتى يؤمنوا؟ وقد جاءت علاماتها، إذ علم اليهود من كتبهم أن «محمداً» هو آخر الأنبياء وبعثه من أشراطها. عن أنس قال: قال رسول الله: بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى. كما أن الساعة لن تأتى إلا بغتة وفى هذه الحالة لن ينفعهم التذكر والإيمان.

«فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم» (١٩).

وفي الآية تسرية عن النبى لما يشعر به من غم وأسف من جراء تكذيب الكفار والمنافقين فالله الواحد الأحد كافٍ وعلى النبى والمؤمنين الاستغفار والتقرب إليه بالعبادة فهو الذى يعرف سعيهم بالنهار **«متقلبكم»** ومأواهم إلى مضاجعهم بالليل **«ومثواكم»**.

المنافقون وآيات الجهاد:

أ - **«ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورة. فإذا أنزلت سورة مُحكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم. طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم. فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى**

الأرض وتُقَطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصَمَّهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» (٢٠ – ٢٤).

وكان المؤمنون يتمنون نزول سورة قرآنية حاسمة تأمر بالجهاد في سبيل الله. فلما أنزلت سورة بذلك استولى الرعب على المنافقين وذوى القلوب المريضة وراحوا ينظرون إلى النبى نظرات مملوءة بالرعب وتدور أعينهم فى محاجرها كما يفعل من يحتضر رفضا لفكرة القتال. وكان الأولى بهم أن يطيعوا ثم يَصْدُقوا الله إذا دُعوا إلى القتال. ثم تساؤل تنديدى مُوجَّه إلى هذا الفريق المتردد عما يُتوقَّع منهم إذا تولوا الأمر والحكم فإنهم سيفسدون فى الأرض ويقطعون الأرحام. وقطع الأرحام من أكبر الذنوب ولذلك قرن بالإفساد فى الأرض، ورد فى ذلك أحاديث نبوية كثيرة منها: «لا يدخل الجنة قاطع رحم». وهذا الفريق أنزل الله بهم لعنته فصاروا كالصم الذين لا يَسمعون وكالعمى الذين لا يُبصرون. ثم يأتى تساؤل استنكارى عن سبب عدم تدبرهم لآيات القرآن كأن على قلوبهم أقفالا تحول دون نفاذ الإيمان إلى داخلها.

ب – ثم تأتى فقرة تندد بالذين ارتدوا عن الإسلام بعد أن وضح لهم الهدى. وتذكر أن الشيطان قد غرَّر بهم. ثم إنهم راحوا يتآمرون مع الكفار ويعِدُونهم بإطاعتهم فى عداوة النبى والقعود عن القتال. فأخبر الله نبيه بأسرارهم، وسيحبط الله مكائدهم فى الدنيا وعند موتهم ستتلقاهم الملائكة أسوأ استقبال إذ يضربونهم على وجوهم وظهورهم. ثم يأتى تساؤل استنكارى عما إذا كان هؤلاء المنافقون يظنون أن الله لن يكشف ما يضمرونه فى قلوبهم من حقد. ثم تنبيه للنبى إلى أن الله لو شاء لدلَّه عليهم بشكلهم وأسمائهم. ومع ذلك فإنه يستطيع أن يميزهم من أسلوبهم فى الحديث وما فيه من مواربة وأمارات كيد.

«إن الذين ارتدُّوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم. ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم. أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم. ولو نشاء لأريناكهم فلعَرَفتهم بسيماهم ولتعرفنَّهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم» (٢٥ – ٣٠).

حكمة الجهاد وحث على الإنفاق فى سبيل الله:

أ – يتوجه الخطاب إلى المؤمنين يبين لهم أن الله يختبرهم بأمرهم بالجهاد حتى يمتاز المجاهدون والصابرون من غيرهم ثم يُخبرهم أن الله سيحبط أعمال الذين كفروا فلن يضروهم شيئا. ثم تدعوهم الآيات إلى طاعة الله وإطاعة الرسول ولا يبطلوا أعمالهم بالاستماع إلى ما يقوله الكافرون الذين يصدون عن سبيل الله والذين إذا ماتوا قبل أن يتوبوا فلن يغفر الله ذنوبهم. ثم تأتى دعوة للمؤمنين إلى عدم التراخى وقت الجهاد وعدم الجنوح إلى السلم لأن الله معهم ولن ينقصهم من ثمرة أعمالهم وسينتصرون ويصبحون هم الأعلون:

«ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم. إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقُّوا الرسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيُحبط أعمالهم. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تُبطلوا أعمالكم. إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم. فلا تَهِنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلَون والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم» (٣١ – ٣٥).

ب – ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة توضح للمسلمين أن الحياة الدنيا لعب ولهو فمتاعها زائل وأمدها قصير. وأنهم إن اتقوا الله حقا سيؤتيهم أجرهم. والله لا يطلب منهم إنفاق كل أموالهم – وهو إن سألهم ذلك على لسان نبيه وألح النبى فى ذلك يبخلوا ويحقدوا وتلك هى طبيعة البشر. وها هو النبى يدعوهم إلى الإنفاق فى سبيل الله فمنهم من يستجيب بدون تردد فينال رضا الله. أما من يبخل فكأنما يريد أن يحرم نفسه ويبخل بها عن رضا الله. والله هو الغنى والناس هم الفقراء. فإن أعرضوا عن الإنفاق فى سبيل الله فإن الله لا يعز عليه أن يستبدل بهم قوما آخرين لا يكونون مثلهم فى البخل:

«إنما الحياة الدنيا لعب ولهو. وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم. إن يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا ويخرج أضغانكم. ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (٣٦ – ٣٨).

سورة الطلاق :

لقد رأينا أن سورة النساء (ص ٦١٠) قد نزل بها كثير من التشريعات المتعلقة بالأسرة من ناحية رعاية اليتامى وضرورة دفع مهر عند الزواج. وأوردت بعض أحكام المواريث وحددت نصيب كل وارث كما نهت عن اعتبار النساء جزءا من التركة كما كان هو العرف السائد عند العرب وقتئذ. ثم جاء تفصيل لمن يحرم الزواج منهن. ثم النص على قوامة الرجل فى الأسرة. ثم أشير إشارة سريعة إلى التحكيم لحل الخلافات الأسرية. ثم جاءت السورة الحالية لتستكمل هذه التشريعات المتعلقة بالأسرة – ولذلك تسمى أيضا **«سورة النساء الصغرى»**. وفيها ما يرسى قواعد الأسرة المسلمة ويؤمنها ضد نزعات النفس البشرية وحتى لا تكون قطيعة أو عداوة بين المسلمين إذا استحالت العشرة بين الزوجين ووقع طلاق. إذ أن الطلاق لايقف أثره عند حد انفصال الزوجين بل يمتد أثره إلى أسرتى الزوج والزوجة فكان لابد من وضع ضوابط حتى لا يكون وقوعه مجالا للتظالم وسببا للقطيعة ومنشأ للعداوات.

وتبدأ السورة بتوجيه الخطاب إلى النبى – والمقصود جميع أمته – دلالة على أهمية التوجيه الذى يحتويه. وقد سبقتها في ذلك أيضا سورة الأحزاب التي بدأت بقوله تعالى: **«يا أيها النبى اتق الله...»** (ص ٥٩٤).

«يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لا تخرجوهم من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا. فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا» (١ - ٣).

والآيات تضع القواعد التالية وتشدد على ضرورة الالتزام بها لأنها «حدود الله» وتنذر من يتعداها بأنه سيتسبب فى ظلم نفسه:

١ - حدد الشارع للطلاق وقتا معينا. فلا يجوز الطلاق فى أثناء الحيض والنفاس ولا يجوز إيقاعه بعد طهر حصل فيه معاشرة بين الزوجين. وإنما يكون في وقت يصلح كبداية للعدة لإبراء الرحم.

٢ - فى فترة العدة لا تخرج المرأة من بيتها إلا إذا كان الطلاق بسبب ارتكاب الزوجة لفاحشة مبينة. أما ما عدا ذلك فإن المطلقة تقضى العدة فى بيت الزوجية والحكمة فى ذلك هو احتمال انبعاث المراجعة عند الزوجين والعدول عن الطلاق. وهذا يبين خطأ ما جرى عليه العرف - وما نراه على شاشة التليفزيون - من خروج الزوجة من البيت بمجرد النطق بكلمة الطلاق.

٣ - إذا انقضت العدة فعلى الأزواج إما مراجعة زوجاتهم وعودة الحياة الزوجية كما كانت أو إنفاذ الطلاق بتسريح الزوجة وإشهاد شاهدين على ذلك الطلاق.

٤ - من يتوكل على الله ييسر الله له المخارج من الضيق - المادى والنفسى - ويرزقه من حيث لم يكن يتوقع.

مدة العدة:

«واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا» (٤ - ٥).

ومفاد ذلك أن:

١ - عدة المطلقات اللاتى انقطع حيضهن لكبر سنهن: ثلاثة أشهر.

٢ - عدة المطلقات اللاتى لم يحضن لصغر سنهن: أيضا ثلاثة أشهر.

٣ - المرأة الحامل تنتهى عدتها بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها. ومن يتق الله وينفذ أحكامه يمح عنه ذنوبه ويضاعف له الأجر والثواب.

واجبات الزوج أثناء العدة:

«أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن. فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى. لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله. لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا» (٦ – ٧).

وقد وضعت الآيات القواعد التالية:

١ – يجب علي الزوج إسكان مطلقته في زمن العدة إما في بيت الزوجية أو سكن مماثل.

٢ – النهى عن مضايقتهن أو التضييق عليهن في السكنى أو النفقة فيلجئوهن إلى الخروج من البيت.

٣ – الإنفاق عليهن إن كن حاملات إلى أن يلدن.

٤ – إذا أرضعت الزوجة تُعطى أجر الرضاعة وإن اختلفا فيجب على الزوج إحضار مرضعة خارجية.

٥ – تنبيه إلى أن تكون النفقة متناسبة مع حالة الزوج المادية يسرا أو عسرا. فالغنى ينفق بقدر غناه والفقير بقدر استطاعته. فالله لا يكلف البشر فوق طاقاتهم. وسيجعل الله بعد ضيق فرجا.

تحذير من مخالفة أمر الله:

وتأتى الفقرة الخاتمة للسورة تستهدف التوكيد على وجوب تقوى الله والتزام حدوده التى أنزلها في مسائل الطلاق والعدة والرضاع ببيان أن كثيرا من القرى التى تجبَّر أهلها وأعرضوا عن أمر ربهم ورسله حاسبها الله حسابا شديدا وعذَّبها عذابا منكرا فعلى أصحاب العقول الراجحة أن يحذروا غضب الله فقد أنزل الله إليهم رسوله يتلو عليهم آياته ليخرجهم من الظلمات إلى النور ووعد لمن يلتزم بأوامر الله جنات النعيم فهو القادر الذى خلق سبع سموات وسبع أراضى وعلمه محيط بكل شيء

«وكأيِّن من قرية عتت (تمردت) **عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا. أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا. رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا. الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما»** (٨ – ١٢).

سورة البينة:

تشرح هذه السورة موقف أهل الكتاب من الإسلام فقد علموا من كتبهم – وعلم منهم مشركو مكة صفات نبى آخر الزمان وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا به إذا بُعث. وكان أهل الكتاب يتوقعونه من ذرية يعقوب فلما جاء من ذرية إسماعيل – وجاءهم ببينة وآية واضحة هى القرآن الكريم – اختلفوا وأخلفوا وعدهم مع أنه دعاهم إلى ما كان الأنبياء يدعون إليه من عبادة الله وحده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتلك هى حنيفية إبراهيم وديانته القيمة:

«لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيِّنة. رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة. وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة. وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة» (١ – ٥).

ثم تمضى الآيات توضح جزاء الذين كفروا وفى مقابله ثواب الذين آمنوا:

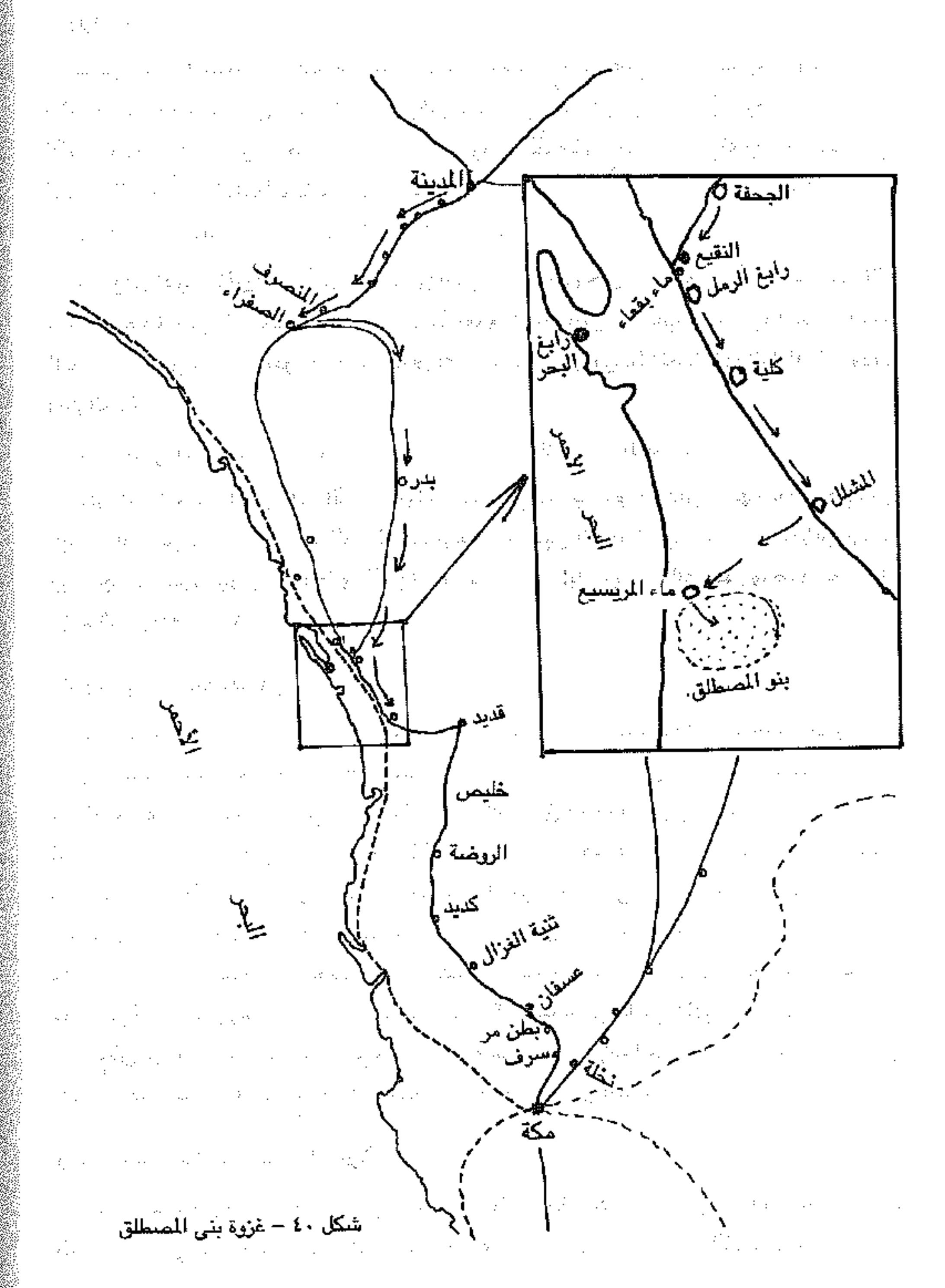
«إنَّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (خير الخليقة) **جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه»** (٦ – ٨).

غزوة بنى المصطلق:

بلغ رسول الله أن بنى المصطلق يجمعون لحربه وكان سيدهم وقائدهم الحارث بن أبى ضرار. فعزم النبى على أن يخرج إليهم فيغزوهم فى ديارهم. فخرج يوم ٢٥ شعبان سنة ٦ من الهجرة وسار جنوبا حتى بلغ المشلل. ثم ترك طريق مكة قبل أن يبلغ قديد وسار متجها ناحية الساحل إلى ديار بنى المصطلق (شكل ٤٠). وفاجاهم على ماء يسمى المريسيع فقتل منهم عشرة رجال وسبى من النساء والصبيان الكثير واستولى على إبلهم وماشيتهم وغنمهم ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد من المهاجرين. قال ابن اسحق. أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه من العدو فقتله خطأ. وجاء «مقيس بن حبابة» أخو القتيل من مكة مظهرا الإسلام فطلب دية أخيه من رسول الله فأعطاه ديته. ثم مكث مقيس أياما فى المدينة يتحين فرصة حتى إذا تمكن من قاتل أخيه فقتله ثم فر إلى مكة مرتدا عن الإسلام لذلك كان مقيس هذا من الذين أهدر رسول الله دمهم يوم فتح مكة وإن تعلقوا بأستار الكعبة (ص ٧٦٧).

زواج النبي من برة بنت الحارث:

كان المسلمون قد غنموا من غزوة بنى المصطلق غنائم كثيرة وكان فى السبايا برة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق. ولما قسم رسول الله السبايا بالقرعة وقعت برة بنت



شكل ٤٠ – غزوة بني المصطلق

الحارث في السهم لثابت بن قيس. فكاتبته على نفسها أي تعاهدت كتابة أن تدفع فدية وتصبح حرة. ولم يكن بيدها مال أو ذهب فراحت إلى النبى تستعين به على أمرها. ويروى ابن اسحق عن عائشة قولها: بينما النبى جالس فى خيمته سمعت امرأة تستأذن فى لقائه فقامت عائشة لترى من تلك وكما تقول عائشة: فإذا شابة في نحو العشرين من عمرها مفرطة الملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. ودخلت الشابة إلى النبى فقالت فى ضراعة تمازجها عزة: يا رسول الله أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على أمرى. فتأثر النبى من مقالتها ورغب فى مساعدتها وإنجائها من مهانة السبى وعار الرق فقال لها: فهل لك فى خير من ذلك؟ فسألت وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضى عنك وأتزوجك. وكما تقول الدكتورة بنت الشاطيء (تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٥٨): تألق وجهها بفرحة غامرة وقالت وهى لا تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان: نعم يا رسول الله. فقال النبى: قد فعلت.

قالوا وكان أبوها قد سمع بسبى ابنته فجاء إلى النبى فى فدائها فقال له النبى: أرأيت إن خيَّرتُها أليس قد أحسنت؟ قال بلى. ثم إن برة قالت: اخترت الله ورسوله. وسمّاها النبى جويرية بدلاً من برة. قيل حتى لا يقال خرج من عند برة. وانتشر الخبر بين الناس أن رسول الله قد تزوج من جويرية بنت الحارث. وإكراما لها أطلق الناس ما بأيديهم من أسرى قومها وهم يقولون أصهار رسول الله. وبلغ عدد من أعتق من قومها حوالى مائة فما علم الناس امرأة أعظم بركة على قومها منها.

المنافقون ومحاولة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج المنافقون في هذه الغزوة فى كثرة لم يخرجوا قط مثلها وعلى رأسهم عبد الله بن أُبّى بن سلول وزيد بن الصلت. لا رغبة في الجهاد ولا طمعاً فى إدخال الفشل على جيش المسلمين - إذ كانوا يوقنون بانتصار المسلمين - ولكن ليصيبوا من الغنائم فخرجوا فى مظهر المؤمنين الصادقين. وقد صدق ظنهم وأنعم الله على المسلمين بالنصر ووفرة الغنائم.

وبينما الناس على ماء المريسيع تزاحم رجلان على الماء السقاء: سنان بن وبر من جهينة حلفاء بنى عوف بن الخزرج. والآخر جهجاه بن مسعود أجير عمر بن الخطاب واشتبك دلو سنان بدلو جهجاه فتنازعا. فضرب جهجاه سنانا فسال دمه فنادى سنان: ياللخزرج وصاح جهجاه: يالكنانة، يا لقريش. فأقبل جمع من قريش وجمع من الأنصار وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة. ولما سمع بها رسول الله خرج إليهم وقال: دعوها فإنها منتنة. أى دعوى الجاهلية وهى قولهم: يالفلان. فترك المضروب حقه وهدأت الفتنة.

وهنا ظهرت الحفيظة الكامنة فى قلب عبدالله بن أبى بن سلول والنفاق الكامن فى نفسه وانفلتت روابط الرياء ورآها فرصة ليؤلب الأنصار على المهاجرين فما إن علم بذلك الخلاف وكان جالسا فى رهط من قومه على شاكلته فقال: أوَقد فعلوها! والله ما رأيت كاليوم مذلة: والله إنى كنت كارها لهذا ولكن قومى غلبونى. نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وأنكروا مِنّتنا. وكما قال الأول سمِّن كلبك يأكلك. والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما هتف به جهجاه وأنا حاضر. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. يقصد بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله والمهاجرين. ثم أقبل على من معه من قومه وقال لهم مؤنبا: هذا ما فعلتم بأنفسكم. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان من بين القوم الذين أطلق ابن أبىّ لسانه أمامهم غلام صغير لم يبلغ أو قد بلغ هو زيد بن أرقم. لم يحسب القوم له حسابا لصغر سنه. وكان الغلام صادق الإيمان فلم يعجبه قول ابن أبىّ فذهب إلى مجلس رسول الله وعنده بعض المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب. فذكر زيد المقالة لعمر الذى نقلها للنبى. فتغيَّر وجهه. فقال عمر للنبى: مر به أحدا فيقتله فقال النبى: ترعد له أنوف كثيرة بيثرب. ثم كيف إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه! ولكن أذِّن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن النبى يرتحل فيها ولكنه أراد أن يشغل الناس حتي لا يكثروا القيل والقال وينخرطوا في فتنة.

ومشى عبدالله بن أبىّ بن سلول إلى رسول الله وحلف له أنه ما قال شيئا. وقال من حضر مجلس النبى من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام (زيد بن أرقم) قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل – يدافعون عن ابن أبّى بن سلول. فقبل النبى عذر ابن سلول. وراح الأنصار يلومون زيدا بن أرقم وكذّبوه. وقال له عمه ما أردت إلا أن كذَّبك رسول الله. وكان معظم الأنصار يقولون إن عبدالله بن أبىّ شيخنا وكبيرنا ولا يصدق عليه كلام غلام مفتون. فاستحيا زيد وصار يبتعد عن رسول الله إلى أن نزلت الآية ٨ من «سورة المنافقون» وفيها تصديقه.

ثم إن أسيد بن حضير – أحد اشراف الأنصار – لقى النبى وسأله عن سبب أمره بالرحيل فى ساعة لم يعتدها الناس فقال له النبى: أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله أرفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه. فإنه يرى أنك قد استلبته ملكا!

لقد لمسنا مدى الخطورة التي كادت تحيق بالمجتمع الاسلامى من جراء إثارة المنافقين الفتنة بين المهاجرين والأنصار فنزلت سورة تفضح المنافقين وتحذر منهم هى:

سورة المنافقون:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله - والله يعلم إنك لرسوله - والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جُنَّة فصدُّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون. ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع علي قلوبهم فهم لا يفقهون. وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مُسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوْا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون. سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين» (١ - ٦).

والعبارات واضحة وتخبر أن المنافقين إذا جاءوا للنبى شهدوا أنه رسول الله وجاءت جملة اعتراضية تخبر أن الله يشهد إنه رسوله. ويشهد أن المنافقين كاذبون لأنهم فى باطنهم ينكرون نبُوة «محمد» وإنما شهدوا «جُنة» أى وقاية لأنفسهم مما قد يؤاخذوا به من جراء تكذيبهم. وكان كثير من المنافقين على وسامة وجسامة تروقان للنظر وما يقولون من أقوال تعجب السامع لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم ولكنهم يجلسون فى مجلس رسول الله بقلوب خالية من الإيمان كأنهم قطع من الخشب تحتاج لما يسندها. ومن وجل قلوبهم وإحساسهم بخطئهم يحسبون كل صيحة - حتى لو كان رجل ينشد ضالته - ظنوا أن فيها إيقاعا بهم. روى عن أبى هريرة أن النبى قال: إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة. وغنيمتهم غلول. ولا يقربون المساجد إلا هجرا. ولا يأتون الصلاة إلا دبرا. مستكبرين لا يألفون. خشب بالليل صخب بالنهار (تفسير ابن كثير. جـ ٤ ص ٣٦٨). وإذا طُلب منهم أن يأتوا إلى رسول الله ويطلبوا منه أن يستغفر لهم الله يلوون رؤوسهم استكبارا ويرفضون. ثم تخبر الآيات أن الله لن يغفر لهم حتى لو استغفر لهم الرسول. وقيل إن الآيات تشير إلى عبدالله بن أبيّ بن سلول إذ أنكر ما قاله فى حق النبى والمسلمين فلما فضحه القرآن طُلبَ منه أن يأتى رسول الله ليستغفر له فرفض. وأخبرت الآيات أن الله لن يغفر له.

«هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا. ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» (٧ - ٨).

وفى الآيات تصديق لزيد بن أرقم وما قاله عن عبدالله بن أبيّ بن سلول. وكان ابنه - واسمه عبدالله أيضا - مخلصا فى إسلامه. فلما تأكد من مقالة أبيه أتى رسول الله وقال: يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه. فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرُّ بوالده منى. إنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأكون قتلت مؤمنا

بكافر فأدخل النار. فقال النبى: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا. وقيل إن عبد الله الابن - عند عودة الجيش من تلك الغزوة وقف علي باب المدينة مستلا سيفه. فلما همّ أبوه بدخول المدينة منعه وقال له. لا تدخل حتى يأذن رسول الله فهو الأعز وأنت الأذل فلما جاء النبى أذن له.

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا من مَّا رزقناكم من قبل أن يأتِيَ أحدكم الموتُ فيقولَ رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدقَ وأكن من الصالحين. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون» (٩ - ١١).

وفى الآيات تحذير للمؤمنين من أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن الصلاة وذكر الله ثم حث لهم علي الإنفاق فى سبيل الله قبل أن يداهمهم الموت فيندموا ويتمنوا علي الله أن يؤخر أجلهم حتى يتصدقوا ويكونوا من الصالحين. ثم تقرير بأن الله لن يؤخر نفسا عن أجلها المحدد لها.

ولعل هذه الآية جاءت ردا على الآية السابقة لها والتى حكت أن المنافقين كانوا ينهون عن الإنفاق علي أنصار النبى حتى ينفضوا من حوله. فجاءت هذه الآيات تحث المؤمنين على الإنفاق. وجدير بالذكر أن التجهيز لأى معركة مع العدو - لم يكن كما فى أيامنا هذه - ينفق عليه من «ميزانية الدولة» بل كان كل محارب يشترى لنفسه السلاح ويأخذ معه الزاد ويترك لأهله ولأولاده النفقة مدة غيابه ومن هنا كان الحث على الإنفاق فى هذا السبيل.

العودة من غزوة بنى المصطلق وحديث الإفك:

لقد ذكرنا الفتنة التى كادت أن تقع بين المهاجرين والأنصار والتى استغلها رأس النفاق - عبدالله بن أبىّ بن سلول - لمحاولة بث الفرقة بين المسلمين. فرأى الرسول بحكمته أن يشغل الناس عن الخوض فى الأمر. فأمر أن يؤذّن للرحيل وكان وقت الظهيرة. وسار بالناس حتى جاء الليل وسار أيضا طوال الليل حتى أصبح وشطرا من اليوم التالى حتى أصاب الناس التعب الشديد فلم يلبثوا أن أناخوا حتى وقعوا نياما. فلم تكن هناك فرصة للقيل والقال وإثارة الخلافات.

وكان من عادة رسول الله عند خروجه لغزوة يُتوقَّع طول مدتها أن يجرى قرعة بين نسائه وأيُّهن يخرج سهمها تصحبه. وعندما تأهب لغزو بنى المصطلق خرج سهم عائشة وكان أن جلست فى الهودج. وكانت نحيفة ضئيلة الجسم. ثم يأتى الرجال فيحملون الهودج ويضعونه على ظهر البعير ويشدونه بالحبال. ثم يأخذون برأس البعير وينطلقون به. ويفعلون ذلك كل مرة حين يُنيخون للراحة.

ثم تابع النبى مسيرة العودة إلى المدينة فسلك الحجاز حتى نزل على ماء يسمى «بقعاء» قرب «النقيع» واستراح القوم يوما ثم تابعوا السير فى اليوم التالى حتى أصبح قريبا من المدينة فنزل منزلا بات فيه بعض الليل ثم استأنفوا الرحلة ولما يطلع النهار بعد.

ونترك السيدة عائشة تروى بنفسها ما حدث فى تلك الليلة إذ تقول إنها خرجت لبعض حاجتها وفى عنقها عقد ثمين فلما فرغت تحسَّست العقد فلم تجده فرجعت إلى الرحل وبحثت عنه فلم تجده فحدَست أنه سقط منها أثناء قضاء حاجتها فرجعت إلى المكان وبحثت طويلا حتى وجدته. وفى هذه الأثناء كان الرجال الموكلون بهودجها قد حملوه ظانين أنها به. ولم يلمسوا فرقا فى ثقل الهودج لنحافتها وخفة وزنها ولم يتنبَّه الرجال إلى غيابها فوضعوا الهودج على ظهر البعير وأخذوا برأس البعير وانطلقوا به. ولما رجعت السيدة عائشة إلى مكان القافلة وجدتها قد رحلت فتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها وهى لاتشك فى أنهم سيفتقدونها ويرجعون لأخذها. ثم تكمل السيدة عائشة: فبينما هى مضطجعة إذ مرَّ بها المعطَّل السلمى وكان قد تخلف عن الركب. فلما رآها قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة - أى زوجة - رسول الله! وسألها ما خلَّفك يرحمك الله؟ فلم ترد عليه حياء. فقرب إليها البعير الذى كان معه قال: اركبى واستأخر عنها. فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعا ليلحق بالقافلة فلم يدركها بالطريق. وكان النبى ومن معه قد وصلوا المدينة وافتقدوا عائشة. وإن هى إلا ساعات حتى طلع المعطَّل يقود الناقة وعليها عائشة فقال أهل الإفك ما قالوا وهى لا تعلم.

ثم إن عائشة مرضت فلم تكن تخرج من بيتها ولم يبلغها شىء مما أثير حولها وحول المعطل السلمى. وكان أكثر من خاضوا فى الحديث عبدالله بن أبىٍّ بن سلول. ومسطح. وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوجة النبى أما زينب نفسها فلم تتكلم عن عائشة إلا خيرا.

وانتهى الحديث إلى رسول الله وأبى بكر وزوجته فلم يذكروا منه شيئا لعائشة إلا أن عائشة لمست جفوة من رسول الله إذ لم يعد يتلطف معها كما كان يفعل سابقا إذا مرضت. فإذا دخل ووجد عندها أمها تمرِّضها يقول: كيف تيكم؟ ولا يزيد عن ذلك. فلما لمست عائشة هذا الجفاء قالت له: لو أذنت لى فانتقلتُ إلى بيت أمى فتُمرِّضنى فقال: لا عليك. فانتقلت إلى بيت أبيها وهى لا تدرى شيئا عما يثار حولها حتى نقهت بعد بضع وعشرين ليلة. وذات ليلة خرجت لقضاء حاجتها فى الصحراء حول المدينة وكان معها أم مسطح خالة أبى بكر الصديق والدها. وبينما هى تمشى بجوارها عثرت أم مسطح فى ثوبها فقالت: تَعِسَ مسطح. فقالت عائشة: بئس لعمرو الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً. فردَّت أم مسطح: أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قالت: وما الخبر؟ فأخبرتها بالذى كان من قول أهل الإفك. فرجعت عائشة وهى تبكى وقالت لأمها: يغفر الله لك. تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا! فقالت أمها: أى بنية. خفِّفى عليك الشأن. فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل

يحبها لها ضرائر إلا وكثّر الناس عليها.

ولما أكثر الناس من القيل والقال في هذا الموضوع قام رسول الله في الناس يخطبهم. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس. ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق. والله ما علمت منهم إلا خيرا. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا. وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي. فلما قال رسول الله ذلك قال أسيد بن حضير - وهو من الأوس - يا رسول الله. إن يكونوا من الأوس نكفهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن نضرب أعناقهم. فقام سعد بن عبادة - وهو من الخزرج - فقال: كذبت لعمرو الله لا تضرب أعناقهم. أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد : كذبت لعمرو الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وتشاجر الناس حتى كادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج.

ودخل رسول الله على عائشة في بيت أبيها. ودعا عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما. فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا. وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله بريرة الجارية ليسألها وقام إليها علي بن أبي طالب وضربها ضربا شديدا وهو يقول اصدقي رسول الله. فقالت والله ما أعلم إلا خيرا. وما كنت أعيب على عائشة إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله. فانصرف رسول الله.

ثم إن رسول الله دخل علي عائشة وعندها أبواها وهي تبكي. فجلس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة. إن كان قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده. وانتظرت عائشة أن يجيبه أبواها فلم يتكلما. فقالت لهما: ألا تجيبان رسول الله. فقالا والله لا ندري بماذا نجيبه. فبكت عائشة بكاء حارا ثم قالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أني منه بريئة - لأقولنَّ ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني. ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، وتقول عائشة: فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسُجِّيَ بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه. فلما سرى عنه جلس وإن العرق ليتحدر منه فجلس يمسحه عن جبينه وقال: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك. فقالت أمها: قومي إليه. فقالت عائشة: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل.

ثم خرج رسول الله إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل عليه من القرآن وهو **«سورة النور»** وفيها حد قذف المحصنات. ولما كان قد نزل في سورة النساء (الآية ١٥ ص ٦١٣) تشريع إثبات جريمة الزنا في قوله تعالى: **«واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا**

عليهن أربعة منكم» ولما كان المتحدثون بالإفك لم يأتوا بالشهداء الأربعة فلم يكن لهم أن يتكلموا به بل كان واجبهم استنكاره أو عدم ترديده. ولكن مسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش كانوا ممن أفصح بالفاحشة وبالغ فى ترديدها وإذاعتها بين الناس فأمر رسول الله بتطبيق الحد على هؤلاء الثلاثة.

سورة النور:

وتتضمن السورة تشريعات لصون الأمة من الآثام وتحصينها من الرذائل:

١ – حد الـزنا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. سورة أنزلناها وفرضناها (أوجبنا أحكامها) **وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون. الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»** (٢١)

وكان الحكم – حسب ما نزل فى سورة النساء (ص ٦١٣) – هو **«فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا»** فلما نزلت سورة النور قال النبي: خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلا. البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم.

٢ – تحريم زواج المؤمنين من الزانيات:

«الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين» (٣).

٣ – حد قذف المحصنات:

«والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» (٤ – ٥).

٤ – اتهام الزوج لزوجته بالزنا واللعان بين الزوجين

«والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسةُ أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذابَ أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسةَ أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم» (٦ – ١٠).

وروى البخارى عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى بشريك بن سمراء

فقال النبى: البينة أو حدٌ فى ظهرك (أى الجلد). فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبى يقول: البينة وإلا حد فى ظهرك. فقال هلال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد. فنزل جبريل بالآيات فأرسل النبى إليهما فشهد هلال فرفع عنه حد القذف. وشهدت هى أيضا فرفع عنها حد الزنا والنبى يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب؟ واللعان إنما يكون فى حالة تعذر إقامة البينة على الزوجة. أما فى حالة إمكان ذلك فليس له محل ويقام الحد.

٥ – حادث الإفك:

«إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم. لا تحسبوه شرا لكم. بل هو خير لكم. لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم (تزعَّم إذاعته) له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا فضل الله علكيم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. إذ تلقَّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم. ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم» (١١ – ١٨).

٦ – نهى عن إذاعة أخبار الفواحش بين المسلمين:

«إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم. يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان (بإشاعة الفاحشة) ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكَى منكم من أحد أبدا ولكن الله يُزكِّى (أى يُطهِّر) من يشاء والله سميع عليم» (١٩ – ٢١).

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لفقره ولقرابته فهو ابن خالته، فأقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليه بعد ما قال فى ابنته عائشة ما قال. فنزل قوله تعالى:

«ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله. وليعفوا وليصفحوا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم. والله غفور رحيم» (٢٢).

فقال أبو بكر: والله إنى أحب أن يغفر الله لى وأعاد إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. والآية وإن نزلت فى حادثة معينة إلا أنها تضع قاعدة عامة فى تغليب الرأفة والجنوح إلى كظم الغيظ والعفو وعدم منع المعرنة عمَّن رتَّب نفسه عليها.

٧ – تحذير لمروّجي الشائعات المسيئة للمؤمنات:

«إن الذين يرمون المحصنات الغافلات (لا يُظن فيهن الإثم) المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين. الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مُبَرَّءُون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم» (٢٣ – ٢٦).

وفى الآيات تحذير للمرجفين ومذيعى الشائعات المسيئة للمؤمنات وخاصة الطاهرات اللاتى لا يُظَن أن يصدر منهن إثم. تحذرهم الآيات من عذاب عظيم يوم القيامة ولن يستطيعوا الإنكار لأن ألسنتهم وباقى أعضائهم ستشهد عليهم بما فعلوا ويومئذ يجازيهم الله بما يستحقونه ويعلمون أن الله يحكم بالحق والعدل. ثم تضع الآيات قاعدة عامة وهى أن الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين. فلا يُتَصوَّر صدور الفاحشة من امرأة طيبة تعيش فى كنف زوج طيب طاهر.

٨ – آداب دخول المنازل:

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتي تستأنسوا وتُسلِّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكَّرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكي لكم والله بما تعملون عليم. ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» (٢٧ – ٢٩).

وروى الزمخشرى أن أبا بكر قال : يا رسول الله إنه قد أنزل عليك آية الاستئذان وإنا نختلف فى تجارتنا فننزل هذه الحانات. أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت الآية الثانية تستثنى منازل السابلة التى يأوى إليها الرجال حينما ينزلون منزلا فى رحلاتهم الطويلة.

٩ – سد ذرائع الفاحشة فى المجتمع الإسلامى:

وذلك يكون بأمرين : ١ – غض البصر من الرجل والمرأة.

٢ – عدم إظهار الزينة وعدم التبرج من النساء.

«قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غيرِ أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن. وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» (٣٠ – ٣١).

وفى الآيات نهى للرجال عن النظر إلى عورات النساء ومواطن الزينة منهن وأن يصونوا فروجهم بعدم الاتصال غير المشروع. وأمرت المؤمنات أيضا بغض البصر وأن يصنَّ فروجهن بعدم الاتصال غير المشروع وألا يُظهرن للرجال ما يغريهم مثل الصدر والعضد وموضع القلادة. إلا ما يظهر من غير إظهار مثل الوجه والكفين. وعليهن ألا يسمحن بظهور محاسنهن إلا لأزواجهن والأقارب الذين يحرم التزويج منهن تحريما مؤبدا كالأباء أو الأبناء أو أبناء أزواجهن من غيرهن أو الإخوة أو أبناء الإخوة أو أبناء الأخوات. أو الرجال الذين لا يوجد عندهم حاجة أو ميل إلى النساء كالطاعنين فى السن وكذلك الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة. كما أن على النساء أن لا يفعلن شيئا يلفت نظر الرجال إلى ماخفى من الزينة مثل الضرب فى الأرض بأرجلهن ليسمع صوت خلاخيلهن المستترة بالثياب.

١٠ - ترغيب فى التزويج حتى لو كانوا فقراء:

«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم. إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم» (٣٢).

والأيامى هم غير المتزوجين رجالا ونساء. وفى الآية أمر ترغيب فى تزويج من لم يتزوج من الرجال والنساء مادامو على دين وخلق وألا يكون الفقر سببا للعزوف عن الزواج منهم أو منهن. والأحاديث النبوية فى ذلك عديدة أشهرها: تنكح المرأة لجمالها أو لمالها أو لدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك.

«وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتي يغنيهم الله من فضله...»

وفى هذا حث لمن لا يجدون القدرة علي التكاليف المادية للزواج باتباع وسيلة تحد من شهواتهم كالصوم والرياضة يعفُّون بها أنفسهم حتي يهيء الله لهم من فضله ما يستطيعون به الزواج. والحديث الشريف معروف: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

١١ - العبد يفتدى نفسه ليصبح حُرا:

«والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم...»

والمكاتبة كانت عادة من عادات العرب وكانت وسيلة لتحرير الرقيق بأن يعقد العبد كتابا مع سيده بأن يدفع مبلغا من المال نقدا أو على أقساط فى مدة تحدد فى الكتاب يصبح العبد بعدها حُرا ولا يجوز لمالكه أن يعود فى مكاتبته أو يتصرَّف فيه ببيع أو هبة فى خلال هذه المدة. وحينما يؤدى العبد ما عليه يتحرر هو وأولاده. أما إذا نكث العبد ولم يف بما تعهد به سقطت المكاتبة. وقد روى حديث عن النبى أنه قال: أيما عبد كاتَبَ على مائة دينار فأداها إلا عشرة دنانير فهو عبد. وبعض الفقهاء يرون أن السيد مخير في قبول المكاتبة من عبده أو

رفضها. وبعض آخر يرون وجوبها لقوله تعالى: «**فكاتبوهم**». إلا أن الفريق الأول يرى أن جملة «**إن علمتم فيهم خيرا**» جعلت الأمر منوطا بتقدير المالك. أى فإن علِمَ أن العبد سيصدق فى الوفاء ويستطيع الأداء، وجبت المكاتبة وعن أبى هريرة أن النبى قال: ثلاث حق على الله عونهم: المكاتب الذى يريد الأداء. والناكح الذى يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله. ويستحب للمالك أن يعين العبد علي الوفاء بالمكاتبة بتخفيف ما اتفق عليه. وقيل يُعطَى من مال الزكاة. واشترط بعض الفقهاء أن يكون للعبد حرفة يتكسب منها حتى لا يُطلق حراً يتسول الناس.

١٢ – عدم إكراه الإماء على البغاء:

«**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم**» (٣٣).

وكان بعض أثرياء العرب يشترون الجوارى وخاصة الجميلات منهن للتكسب من أجر زناهن وبيع أولادهن أو الاستيلاء على مهرهن إن تزوجن. فكانوا يقيمون لهن خياما يعلقون عليها رايات حمر دلالة على أنها مباحة للرجال بعد دفع أجر. وهى بهذا تشبه بيوت البغايا المنتشرة حاليا في كثير من المدن الأوروبية والأسيوية. والآية تنهى عن إجبار الجوارى على هذه الممارسة إن رفضنها. وتروى كتب التفسير (ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٨) أن الآية نزلت فى أمَة لعبد الله بن أبىّ بن سلول كان يكرهها على الفجور فنزلت الآية تقرر حق الأمة فى الرفض وتخبرهن أن الله غفر لهن ما أكرهن عليه.

وبعد نزول هذه السلسلة من التشريعات التي بها يصلح أمر المجتمع المسلم جاء أمر بوجوب اتباعها وتذكير بما حلّ بالأمم السابقة الذين عصوا أمر ربهم ليكون في ذلك عظة لهم:

«**ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين**» (٣٤).

نـور على نـور:

وهى الآية التى أعطت للسورة اسمها «**سورة النور**» وقد احتوت الآية تمثيلا لنوره سبحانه وتعالى بما يمكن أنه يفهمه الناس. فنوره مثل مصباح وضع فى المشكاة وهى كوة البيت المخصصة له لتمنع عنه تيارات الهواء ولتزيد من نوره. والمصباح موضوع فى زجاجة من زجاج غاية فى الصفاء بحيث يلمع المصباح لمعانا شديدا وكان العرب يسمون النجم الشديد اللمعان والسطوع «كوكبا دريا» ووضع فى المصباح زيت من شجرة زيتون مباركة تنبت فى أحسن البقاع وأكثرها اعتدالا فلا هى فى أقصى الشرق عند الهند مثلا المعروفة بشدة حرارة شمسها مما يؤثر بالسلب على ثمارها وزيتها ولا هى فى أقصى الغرب مثل أوربا حيث تشتد البرودة. بل تنمو فى منطقة معتدلة الحرارة فجاء زيتها غاية فى الصفاء. فالزيت الصافى الموضوع فى مصباح مصنوع من زجاج فى غاية الصفاء يكاد أن يضىء من غير نار.. وهذا مَثَل لنور الله. نور على نور يضىء السموات والأرض:

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المصباح في زجاجة. الزجاجة كأنها كوكب درِّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيىء عليم» (٣٥).

وكانت مشاكى بيوت العبادة أكبر المشاكى ونورها أقوى الأنوار فجاءت الآية التالية لتبين أن المشكاة المشار إليها هى كإحدى المشاكى فى المساجد التى تقام فيها الصلوات. وذكرت بعض صفات المؤمنين الذين يعمرونها:

«في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (يوم القيامة وفيه القلق على المصير). **ليجزِيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب»** (٣٦ – ٣٨).

وقد أورد المفسرون أحاديث عديدة فى فضل بناء المساجد والعناية بطهارتها وتنزيهها عما لا يليق بها وفيما يلى بعضها:

- من بنى لله مسجدا يتقى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة.
- إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد قولوا له لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد فقولوا لا ردها الله عليك.
- لا تتخذوا المساجد طريقا ولا يشهر فيها سلاح ولا ينبض.
- ويُكره تزيين المساجد لقول النبى: ما أمرت بتشييد المساجد أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى.

وفى مقابل عُمَّار المساجد الذين لا تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله جاء ذكر الكافرين:

«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب. أو كظلمات فى بحر لُجِّىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب. ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (٣٩ – ٤٠).

ففى مقابل التنويه بعباد الله الصالحين جاء تنديد بالكفار الذين لم يهتدوا بنور الله. فأعمالهم خاسرة كمثل السراب الذى يراه الظمآن بأرض منخفضة «بقيعة» وقت الظهيرة فيظنه ماء فإذا جاءه أصابته خيبة أمل مريرة أو كمثل الذى هو فى بحر عميق «لُجِّىّ» تتلاطم فيه الأمواج بعضها فوق بعض وادلهمَّ وجه السماء بالسحب الداكنة فكانت ظلمات فوق ظلمات بحيث لو بسط يده لا يكاد يراها. والتمثيل بالغٌ فى تصوير الموقف ومن شأنه إثارة الخوف فى نفوس السامعين من الكفار وهو ما استهدفته الآيات.

مظاهر من قدرة الله:

«ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافّات (باسطات أجنحتهن) **كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون، ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير، ألم تر أن الله يُزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يُقلِّب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولي الأبصار. والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير. لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»** (٤١ – ٤٦).

والآيات واضحة تلفت النظر إلى مظاهر من قدرة الله ونواميسه الكونية وكل ما في السموات والأرض يسبح لله ويخضع لإرادته. والطير باسطة أجنحتها وكل شيء قد علم بالفطرة عبوديته لله فراح يصلي ويعبده ويسبح بحمده. ثم تلفت الآيات النظر إلى قدرة الله فى تكوين السحاب ويرى علماء الأرصاد الجوية فيها إعجاز علميا فالمعروف أن السحب الركامية الممطرة تبدأ قطعا متناثرة ثم تتجمع **«يؤلف بينه»** فتتكون السحب الداكنة اللون المحملة بقطرات الماء **«الودق»** وتنمو السحابة فى الاتجاه الرأسى فترتفع أحيانا إلى علو ١٥ أو ٢٠ كم فتبدو كالجبال وتتجمد قطرات الماء فتصبح بَرَدا **«من جبال فيها من برد»** ثم تبدأ مرحلة الهطول إذ ينزل المطر عندما تقابل السحابة سحابة أخرى مختلفة الشحنة فيحدث تفريغ كهربائى هو البرق الذى يخطف الأبصار **«يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار»** أما تقليب الليل والنهار فهو تتابعهما واختلاف أحوالهما طولا وقصرا حسب فصول السنة. ثم لفت نظر إلى بديع خلق الله وتنوعه فالحيوانات – رغم أنها كلها لها أصل مشترك وهو الماء – فهي جدُّ متنوعة فالزواحف تمشي على بطنها والإنسان والطير يمشي على رجلين والأنعام والبهائم تمشي على أربع. وهكذا يخلق الله ما يشاء فهو القادر على كل شيء. وهذه آيات واضحة بيِّنة يؤمن ويهتدى بها من شاء الله له الهداية.

المنافقون لا يرضون بالنبى حَكَمًا:

«ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف (يحيد عن العدل فيظلمهم) **الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون. ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون»** (٤٧ – ٥٤).

وفى الآيات تنديد بفريق من المنافقين كانوا يرفضون التحاكم إلى النبى إذا كان الحق فى جانب خصومهم. أما إذا كان الحق فى جانبهم رضوا بالتحاكم إليه. وتتساءل الآيات عما إذا كانت نفوسهم المريضة قد أصابها العمى أم أنهم يشكون فى عدالة النبى. لاشىء من ذلك طبعا ولكنهم ظالمون فالمؤمنون الصادقون هم الذين يرضون بالتحاكم إلى الله ورسوله ويذعنون لحكمه.

المنافقون يتظاهرون بطاعة الرسول:

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرُجُن. قل لا تقسموا طاعة معروفة. إن الله خبير بما تعملون. قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُملتم. وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين» (٥٣ - ٥٤).

وكان المنافقون يحلفون للنبي أنهم سيطيعونه لو أمرهم بالخروج للقتال. وأُمر النبى بأن يقول لهم ألا يحلفوا. فالمطلوب منهم معروف. وهو طاعة الله وطاعة الرسول فإن رفضوا فهم مسئولون عن أفعالهم والرسول مسئول عما أوجبه الله عليه من تبليغ ودعوة للحق.

بشرى للمسلمين:

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدِّلنهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدوننى لا يشركون بى شيئا. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم تُرحمون. لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير» (٥٥ - ٥٧).

وفى الآيات وعد من الله للمؤمنين باستخلافهم فى الأرض وجعلهم أصحاب السلطان وبتوطيد دينهم الذي ارتضاه الله لهم فيصبحون آمنين في أوطانهم. ثم يأتى حث على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الرسول وعلى النبى - والمسلمين - ألا يظنوا أن الكافرين سيعجزون الله هربا في الأرض فهو محيط بهم قادر على البطش بهم وفي الآخرة لهم عذاب النار.

وجوب الاستئذان عند الدخول على الغير فى أوقات الراحة:

«يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات. من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء. ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوَّافون عليكم بعضكم على بعض. كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم. كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم» (٥٨ - ٥٩).

«ثلاث عورات» أى ثلاث حالات لا تحبون أن يراكم الناس فيها. وروى أنَّ بعض المسلمين

اشتكوا إلى النبى من دخول غلمانهم عليهم فى أوقات خلوة وحرية شخصية وتحلل من لباس الحشمة أو عند تغيير الملابس أو غير ذلك. فهذه الأوقات كانها عورة يجب المرء سترها. فنزلت الآيات تأمر العبيد ذكورا وإناثا بضرورة الاستئذان. أما فى غير هذه الأوقات فلا حرج عليهم فى الدخول بغير استئذان. أما الأطفال الصغار فلا حرج عليهم فى الدخول فى هذه الأوقات أما إذا بلغوا الحلم فعليهم أن يستأذنوا.

التخفيف عن كبار السن من النساء:

«والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم» (٦٠).

وفى الآيات تخفيف عن النساء اللاتى قعدن فى بيوتهن – وليس لهن رجاء فى زواج – فلا مانع من طرحهن ثيابهن الزائدة وعدم التشدد فى التستر على شرط أن لا يكون ذلك بقصد إبراز الزينة والمفاتن من الجسم. وتقرير بأن الاحتشام فى الملبس هو الأفضل. وكانت الآية ٣١ من السورة (ص ٦٥٢) قد أمرت المرأة بتغطية أجزاء البدن وكشف الوجه واليدين فقط وعدم إظهار الزينة وأماكنها لغير المحارم. فجاءت الآية الحالية تستثنى النساء كبيرات السن اللاتى لا يُخاف من الافتتان بهن.

آداب المؤاكلة:

قيل إن الناس كانوا يتقززون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يبصر فيجول بيده فى الطعام ومع الأعرج لانبساط جلسته ومع المريض. وكانت هذه الفئات يمتنعون عن الأكل مع غيرهم تفاديا للحرج .فنزلت الآيات ترفع الحرج عن المسلمين فى مؤاكلتهم وترفع الحرج عن الجميع فى الأكل فى بيوت أقربائهم أو أصدقائهم وتنبه إلى تبادل السلام والتحية عند دخول بيوت الغير:

«ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم. ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا. فإذا دخلتم بيوتا فسلِّموا على أنفسكم (أى يسلم بعضكم على بعض) **تحية من عند الله مباركة طيبة. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون»** (٦١).

وقيل (تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٢١٩) لم تذكر بيوت الأبناء لأنها داخله فى بيوت المخاطبين. والحديث الشريف يقول «أنت ومالك لأبيك». وقالوا إن الخطاب فى الآية مطلق بحيث يشمل الرجال والنساء. ومن المفسرين من يرى أنه ليس من حرج أن يتشارك الرجال والنساء معا فى الأكل من مائدة واحدة فى حدود الآية ٣١ من السورة .

آداب مجلس النبي:

وهذه هي الفقرة الخاتمة للسورة:

«**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع** (اجتماع لأمر هام) **لم يذهبوا حتى يستأذنوه. إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم. لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا. قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا** (متخفين) **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا. والله بكل شيء عليم**» (٦٢ – ٦٤).

وقد سبق أي ذكرنا (ص ٥٨٥) أن المفسرين قد أجمعوا على أن هذه الآيات نزلت أثناء حفر الخندق إذ كان بعض المنافقين يتسللون خفية حتى لا يشتركوا في العمل في حين أن المؤمنين الصادقين كانوا – إذا أرادوا الذهاب لبعض شأنهم – يستأذنون من النبي. ووضعت هذه التعليمات في صيغة قاعدة لآداب السلوك في مجالس النبي عموما. كما نهت الآيات عن مناداة الرسول باسمه العادي كما يخاطب بعضهم بعضا وتنبههم إلى وجوب التبجيل والتوقير في مخاطبة النبي.

وفاة بعض المهاجرين:

لما توفي بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس إن من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات في غير معركة. فنزلت الآية التالية من سورة الحج لتسوي بينهما وتقرر أن الله سيرزقهم جميعا رزقا حسنا.

«**والذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مُدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم** (٥٨ – ٥٩ الحج). وهذا يتسق مع ما جاء في سورة النساء (الآية ١٠٠ ص ٦٢٧): «**ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله**». فمن خرج مهاجرا ومات في الطريق كان أجره على الله. ومن باب أولى أن من هاجر وعاش بالمدينة زمنا ثم مات – في غير معركة – فله أجر حسن عند الله.

ثم استمرت السور تنزل تشرِّع للمجتمع المسلم في المدينه ما يلزم ليكون مجتمعا مثاليا.

سورة المجادلة:

كانت عادة الظهار منتشرة بين العرب. وبالرغم من أن سورة الأحزاب (الآية ٤ ص ٥٩٥) جاء فيها استنكار لهذه العادة «**وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم**» إلا أن الظهار لم يختف كلية فجاءت الآيات الأولى من سورة المجادلة لتكون حاسمة في تشريع

إبطالها وبيان كفّارة مرتكبها. وكانت مناسبه نزول هذه الآيات أن خولة بنت ثعلبة وزوجها - ابن عمها - أوس بن الصامت - أخو عبادة بن الصامت - كانت تصلي. فلما فرغت من صلاتها أرادها زوجها فأبت عليه فغضب وقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. ثم ندم على ما قال وأرادها فرفضت ألا أن تأتي النبي تستشيره. فاستأذنت على النبي وهو في بيت عائشة وقالت يا رسول الله إن زوجي ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه؟ فقال: ما أراك إلا حرمت عليه. فقالت يا رسول الله والله الذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا وإنه أبو ولدى وأحب الناس إليّ. فقال: ما أراك إلا حرِّمت عليه ولم أُومر في شأنك بشيء. فجعلت تراجع رسول الله فلما أخبرها مرة أخرى أنها قد حرمت عليه. قالت: اللهم إنى أشكو إلى الله فاقتى وحاجتى وشدة حالى. وإن هى إلا لحظات وقد نزل الوحي على رسول الله. فلما قضى الوحى قال للمرأة: ادعي زوجك. فلما دعته تلا عليه الآيات ثم قال له: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ فقرر أنه فقير لا يقدر. فسأله إن كان يستطيع صيام شهرين متتابعين فقال إنه مريض ويخشى الهلاك إن صام فسأله إن كان يستطيع أن يطعم ستين مسكينا فقال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله. فأعانه بخمسة عشر صاعا ودعا له بالبركة ورجعت المرأة إلى زوجها. وكانت الآيات التى نزلت في هذا الشأن هى الآيات الأربع الأولى من سورة المجادلة:

«قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهُنّ أمهاتهم إن أمهاتُهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور. والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماساً ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم» (١ - ٤).

بعد ذلك تناولت السورة موضوعات عدة:

نهى عن معاداة الله ورسوله:

«إن الذين يحادُّون الله ورسوله كُبِتوا كما كُبِت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين. يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد» (٥ - ٦).

وفى الآيات تهديد وإنذار لمن يعادون الله ورسوله بأن لهم ذل وخزى «كبتوا» كما كان مصير أمثالهم من قبل. والذين يتمادون فى المعاداة كافرون ولهم عذاب عظيم فى الآخرة إذ يجدون أعمالهم محصاة عليهم فى حين أنهم قد نسوا كثيرا منها.

وكان المعادون للنبى من داخل المدينة هم بعض اليهود الذين أسلموا فى الظاهر. وانضم إليهم من والاهم من المنافقين. وكان هؤلاء يعقدون اجتماعات سرية يتحدثون فيها بإثم ويحثون على معصية الرسول. والحديث بين اثنين هو إسرار أما أكثر من اثنين فهو نجوى وغالبا ما يكون في إثم. ومن علامات هؤلاء المتناجين أنهم حين يأتون إلى النبى يلوون ألسنتهم بالتحية

فكانوا يقولون: السام عليكم بدلا من السلام عليكم. والسام هو الموت. وكان نفر من اليهود – بعد إجلائهم عن المدينة – يترددون عليها لمبادلات تجارية وللإلتقاء بالمنافقين ومناجاتهم وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم عليهم. ويقابلون النبي ويتحدثونه فيما يقول حسب ما رتبوا في نجواهم. وفي حديث عن عائشة قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله فقالوا السام عليك ففهمتها وقالت عليكم السام واللعنة فقال رسول الله: مهلا يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقالت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال فقد قلت وعليكم.

«ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض. ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم. ألم تر إلى الذين نُهُوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. وإذا جاءوك حيَّوك بما لم يُحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول. حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير. يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون. إنما النجوى من الشيطان ليَحزُن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (٧ – ١٠).

آداب مجلس الرسول:

روى المفسرون أن المسلمين كانوا يتحلَّقون حول النبي ويتزاحمون على القرب منه فكان يأتي آخرون فلا يجدون مكانا فيظلون وقوفا. كما كان النبي يرغب في تكريم بعض كبار الصحابة أو رجال بدر في مجلسه فيطلب من أحد الجالسين التفسح ليجلس هؤلاء أو ترك مجلسه لغيره فيستثقل ذلك ويكرهه فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشُزوا (انهضوا) فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير» (١١).

عند استفتاء الرسول:

روى المفسرون أن الناس كانوا يسألون النبي اجتماعا خاصا لبعض شئونهم التي لا يريدون إطلاع الغير عليها. فأكثروا حتى شق عليه وأراد الله أن يخفف عنه فأمرهم بتقديم صدقة قبل القدوم لاستفتاءاتهم ليكون ذلك وسيلة للإكثار من الصدقات للفقراء وللحد من الاستفتاءات. وقد شبهه بعض المفسرين برسوم التقاضي في العصر الحديث. وقد روى أن النبي سأل عليا بن أبي طالب في مقدار الصدقة وقال ما ترى؟ دينارا؟ قال لا يطيقونه. قال فنصف دينار؟ قال عليٌّ لا يطيقونه. قال فكم؟ قال علي: شعيرة. فقال النبي: إنك لزهيد. وقد كان فرض الصدقة على المسلمين شديد الوقع والأثر فتحدثوا فيما بينهم بشأنه فخفف الله

عنهم وأعفاهم منها وعليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله. وقيل إن حكم الصدقة استمر عشر ليال ثم نسخ. وقيل لم يستمر إلا جزءا من نهار:

«يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة. ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم. أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون» (١٢ - ١٣).

تنديد بمن يوالون اليهود موالاة حميمة:

وفى هذه الفقرة الخاتمة للسورة تنديد ببعض من كانوا يصادقون اليهود «**قوما غضب الله عليهم**» صداقة حميمة تؤدى إلى أن يطلعوهم على الأسرار التى لا يجب أن يطّلع عليها غير المسلمين وفى ذلك ضرر بالمسلمين فكأن ذلك النفر قد أصبحوامن المنافقين وتوعدتهم الآيات بعذاب عظيم:

«أم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون. أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون. اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين. لن تغنىَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون. استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. أولئك حزب الشيطان. ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون. إن الذين يحادُّون الله ورسوله أولئك فى الأذلين. كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز» (١٤ - ٢١).

والآيات تستنكر هؤلاء الذين كانوا يوالون ويصادقون قوما لا هم مسلمون ولا هم حتى من عشيرتهم. وإذا عوتبوا حلفوا كذبا لينفوا موالاتهم فجعلوا من إيمانهم ستارا يخفيهم فهم منافقون وقد أعد الله لهم عذابا شديدا. ولن تنجيهم أموالهم ولا أولادهم وسيصلون النار خالدين فيها. وحتى فى الآخرة سيحلفون لله كما كانوا يحلفون للمؤمنين فى الدنيا ولكنهم كاذبون وسمتهم الآيات «حزب الشيطان» لأن الشيطان تسلّط عليهم وضمّهم إلى حزبه فأصبحوا خاسرين ولكن الغلبة ستكون لله ولرسله.

ثم تستمر الآيات فى هذا المعنى:

«لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون» (٢٢).

وفى الآيات تنويه بصادقى الإيمان الذين لا يوالون من عادى الله ورسوله ولو جمعت بينهم أشد روابط القربى أو العصبية الحميمة وتبشرهم بأن الله سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار مخلدين فيها وسمتهم الآيات «حزب الله» فى مقابلة مع حزب الشيطان السابق ذكره. كذلك كان كثير من المهاجرين لهم أقارب مشركون فى مكة. وكان عداء قريش للمسلمين قد بلغ حدا لا يحتمل ملاينة ولا مهاودة ولا أى اتصال يضر بمصلحة الإسلام والمسلمين. ويرى بعض المفسرين أن الآيات تقصد أيضا الأنصار فى صدد علاقتهم ببعض أقاربهم المنافقين.

سورة الحجرات:

وفى السورة جملة من الآداب التى تزين الأمة وتصون كيانها: أولها أدب المسلمين فى حضرة رسولهم ثم تشريعات لحماية المجتمع من الفتن.

أ – التأدب فى حضرة النبى:

وهذه تحتوى ثلاثة أمور:

١ – نهى عن أن يسبقوا النبى بأمر ما قولا أو عملا أو يبدوا رأيا فى أمر ما قبله. بل عليهم انتظار ما يقوله أولا فذلك من تقوى الله:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم» (١).

٢ – نهى عن رفع أصواتهم فى حضور النبى كما تنهاهم الآيات عن مخاطبته كما يخاطبون أقرانهم وتنبههم إلى أن هذه التصرفات من شأنها أن تضيع حسناتهم بدون أن يشعروا. ثم تنويه بالذين يخفضون أصواتهم فى حضرة النبى فهؤلاء أتقياء مخلصون ولهم مغفرة وأجر عظيم:

«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض. أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم» (٢ – ٣).

٣ – نهى عن مناداة الرسول وهو فى حجرات بيوته حينما لا يجدونه فى المسجد فهذا جهل وعدم تعقل منهم والأفضل لهم أن ينتظروا حتى يخرج هو إليهم:

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم» (٤).

ب – تشريعات لحماية المجتمع من الفتن:

وفيها خمس مسائل:

١ – التثبت من صدق الأخبار:

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين. واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتُّم ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم» (٦ - ٨).

والآيات تحث على التثبت من صدق الأخبار التى تأتيهم وخاصة عن طريق المتهمين في صدقهم وإخلاصهم فلا يستعجلوا فى تصديقها والتصرف بمقتضاها فقد يتهموا أناسا أبرياء ويصيبوهم بالأذى ويندموا حين تظهر براءتهم. وعليهم أن يتخذوا من رسول الله أسوة حسنة فلو أنه يصدِّق كل ما يقال له عنهم لنالهم من ذلك مشقة كبيرة وعنت. وليعلموا أن الله قد أنعم عليهم بأن حبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر.

٢ - فى اقتتال طائفتين من المسلمين:

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» (٩ - ١٠).

ويروى أن مسلما فى المدينة بغى على زوجته وانتصر أهل الزوجة لها وانتصر أهل الرجل له وتضارب الفريقان. وحتى لو لم تكن هذه الحادثة قد وقعت فإن حدوث خلاف يؤدى إلى قتال بين فريقين من المسلمين أمر وارد فلزم تشريع لمثل هذه الحالة.

٣ - نهى عن السخرية من الآخرين:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن. ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» (١١).

والآيات تنهى عن سخرية رجال من رجال آخرين أو نساء مؤمنات من نساء أخريات. والسخرية قد تكون بالنعت بأسماء مكروهة أو المناداة بصفات غير مستحبة مثل القصر أو سواد الوجه أو غير ذلك فقد يكونوا عند الله أفضل منهم ولا يجوز للمؤمن أن يرتكب فسقا من ذلك وعليه أن يتوب منه ومن لم يتب فقد ظلم نفسه.

٤ - نهى عن سوء الظن والتجسس والغيبة:

«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا. أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه. واتقوا الله إن الله تواب رحيم» (١٢).

والآيات تنهى عن إساءة الظن بمن لا تُعرف دخائلهم فهذا إثم، كما تنهى عن التجسس وتتبع المسائل الخصوصية للأفراد وتنهى أيضا عن ذكرهم في غيبتهم بما يكرهون وشبه ذلك بأكل لحمه ميتا وهو من أشد ما تكره النفس. وتفتح الآيات باب التوبة لمن ارتكب إحدى هذه المعاصي فالله تواب رحيم.

وفي حديث رواه البخاري قال النبي: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا. وحديث آخر رواه أبو داود جاء فيه: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه. لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته. ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته.

٥ – المفاضلة بين الناس بالتقوى:

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير» (١٣).

والآية واضحة تقرر للناس أن الله قد خلقهم جميعا من ذكر وأنثى هما آدم وحواء. وتكاثر الخلق وتفرقوا إلى شعوب وقبائل مختلفة للتعارف والكل متساوون ومقياس التفاضل هو تقوى الله.

الفرق بين الإيمان والإسلام:

«قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم. وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم (لا ينقصكم) من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون. قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم. يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين. إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون» (١٤ – ١٨).

وكانت جماعة من أعراب بني أسد قد قدمت المدينة في سنة جدب وأظهروا إسلامهم وطلبوا من النبي أن يعطيهم من الصدقات ومنُّوا عليه بدخولهم الإسلام ومتابعتهم له طواعية في حين أن القبائل الأخرى لم تؤمن إلا بعد قتال كبّده المال وبعض الأرواح. وقد دلّ هذا على سوء فهم منهم إذ ظنوا أنهم بإظهار الإسلام قد فعلوا ما عليهم وأنهم قد صار لهم «حق» و«غُنم». وردّت عليهم الآيات لتوضح لهم حقيقة مكانتهم. فهم لم يعلنوا إسلامهم إلا حقنا لدمائهم. وأن الله يعلم سرائرهم ويعلم أن الإيمان لم يتغلغل بعدُ في قلوبهم. ولكن الله رحمة بهم يطمئنهم أنهم لو أطاعوا الله ورسوله فلن ينقص من أعمالهم وسيقبل الظاهر منهم. وتنوّه الآيات

بالمؤمنين الصادقين في إيمانهم إذ هم الذين يؤمنون بالله ورسوله ويتحملون التضحيات والمشاق برضا نفس وطمأنينة قلب. فعليهم أن يعوا الحقيقة وهي أن الله هو الذي يمن عليهم بأن هداهم للإيمان.

الغيرة بين زوجات الرسول:

كان في عصمة النبي في ذلك الوقت سبع زوجات: سودة بنت زمعة وعائشة وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأم سلمة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق. ومن طبيعة النساء الغيرة على أزواجهن. لكن الغيرة كانت أشدها بين الثلاث زوجات الشابات: عائشة وحفصة وزينب بنت جحش. وكان النبي يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويطيل المكوث عندها. فغارت عائشة وحفصة وتواطأتا أن تجعلاه يكره زينب. وكما رُوي عن عائشة: فواطيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير - والمغافير نبات بري ينبت في البادية له طعم العسل ولكن له رائحة غير مستحبة - فلما دخل على حفصة قالت له ذلك فأخبرها أنه شرب عسلا عند زينب بنت جحش. فقالت له: لعل نحلُه وقع على نبات سيىء. فتعهد بألا يعود له وحلف على ذلك وأمرها ألا تخبر أحدا بذلك ولكنها لم تطق صبرا وأخبرت عائشة وفشا الخبر بين نساء النبي أنه قد حرَّم على نفسه شرب العسل في بيت زينب. ثم ظهر أن القصة أساسها الغيرة وأنها مؤامرة لتزهيده في زينب بنت جحش. فغضب النبي على حفصة لإفشائها هذا السر ويقال إنه طلق حفصة تطليقة واحدة. ولما علم عمر بن الخطاب بذلك اغتم غما شديدا وحثا التراب على رأسه وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها. فنزل جبريل يأمر النبي بمراجعة حفصة فراجعها ولكنه رأى أن يعتزل نساءه جميعا وأوى إلى حجرة له فشاع بين المسلمين أن النبي قد طلَّق نساءه جميعا فاستأذن عمر على رسول الله فدخل عليه ورأى أثر الحصير في جنبه فبكى ثم قال للنبي: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. فابتسم له النبي وأخبره أنه لم يطلق نساءه ولكنه هجرهن شهرا. فاطمأن عمر واستأذن ونزل إلى المسجد وبشر المسلمين أن النبي لم يطلق نساءه.

سورة التحريم:

نزلت سورة التحريم تشير إلى هذه الحادثة مع التركيز على أمرين:

١ - **النهي عن تحريم ما أحل الله:** جاء ذلك في صورة عتاب للنبي إذ حرَّم على نفسه طعاما حلالا مرضاة لأزواجه. وتحثه على قضاء الكفارة للرجوع في يمينه. وفي حديث للنبي قال: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفِّر عنها:

«يا أيها النبي لِمَ تُحرِّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحِلَّة (وسيلة للتحلل) **أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم»** (١ - ٢).

ولرب قائل يسأل: وهل يستدعي تحريم النبى على نفسه شرب العسل أن ينزل فيه قرآن؟ والرد هو نعم. لأن المسلمين لابد وأن يقتدوا بالنبي فيحرموا العسل على أنفسهم فترى الأجيال التالية ذلك جزءا من الشريعة. وحسبنا فى هذا ما فعل يعقوب عندما حرَّم على نفسه أكل لحوم الإبل فحرَّم بنو إسرائيل لحوم الإبل على أنفسهم وادَّعوا أن ذلك من شريعة إبراهيم: **«كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل علي نفسه من قبل أن تنزل التوراة»** (٩٣ – آل عمران) وإذا حدث هذا مع العسل لحُرم الناس من خير كثير إذ هو كما وصفه القرآن: **«فيه شفاء للناس»** (٦٩ – النحل).

٢ – نهى نساء النبى عن إفشاء أسراره:

«وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت (زاغت) قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيِّبات وأبكارا» (٣ – ٥).

وقد يظن البعض أيضا أن ما أفشته إحدى نسائه كان أمر تافها لا يستدعي نزول قرآن. ولكن صون السر الصغير يُعوِّد على صون السر الكبير فكانت هذه الوقفة ليتعوَّد نساء النبى حفظ أسراره صغيرة كانت أم كبيرة.

تذكير بيوم القيامة:

«يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون. يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يُكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزى اللهُ النبىَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير» (٦ – ٨).

ووقاية النفس من النار تكون بترك المعاصي وفعل الطاعات ووقاية الأهل أى الأزواج والأولاد بصونهم وتربيتهم على تقوى الله. وقال العلماء التوبة النصوح هى التي جمعت ثلاثة شروط: الإقلاع عن الذنب. والندم علي ما حدث. والعزم على عدم العودة إليه. وإن كان هناك حق لآدمى زيد شرط رابع وهو رد المظالم لأهلها.

حث على قتال الكافرين والمنافقين:

«يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير» (٩).

قيل جهاد الكافرين بالسيف والمنافقين بالحجة والبرهان.

ضرب المثل ببعض نساء الأنبياء السابقين:

والآيات تُذكِّر بحالة ثلاث فئات من النساء ومصائرهن:

١ – زوجات كافرات في عصمة أنبياء. والمثال على ذلك امرأة نوح وقد ذكرنا سابقا (الجزء الأول ص ٩٤) أنها كانت تدل قومها على من يؤمنوا بنوح حتى ينكلوا بهم. أما امرأة لوط فقد كانت خيانتها أنها أخبرت قومه بضيوفه وقد ذكرنا ذلك في الجزء الثاني (ص ٣٢٥).

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين» (١٠).

٢ – زوجة مؤمنة في عصمة كافر والمثال على ذلك امرأة فرعون فقد آمنت بالله على شريعة موسى كما سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ٨٩٨).

«وضرب الله للذين مثلا آمنوا امرأة فرعون إذا قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين» (١١).

٣ – وامرأة ثالثة مؤمنة لم ترتبط بعصمة رجل واعتصمت بالله وأحصنت فرجها فكرَّمها الله بأن جعلها الله أُم نبيه عيسى:

«ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» (١٢).

سورة التغابن:

تبدأ السورة بتمجيد الله عز وجل وبيان قدرته وخلقه للسموات والأرض وما فيهما وخلق الإنسان في أحسن صورة:

«يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير. خلق السموات والأرض بالحق وصوَّركم فأحسن صوركم وإليه المصير. يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تُسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» (١ – ٤).

ثم يأتي تذكير بالكافرين من الأمم السابقة وما نالهم من عذاب أليم نتيجة تكذيبهم لرسلهم واستنكارهم أن يكون رسل الله بشرا وأعرضوا وكان الله في غنى عنهم وعن أن يؤمنوا.

«ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلُ فذاقوا وبال أمرهم (عقوبة كفرهم) ولهم (في الآخرة)عذاب أليم. ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبَشرٌ يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد» (٥ – ٦).

إنكار الكفار للبعث:

كان فى البادية حول المدينة كثير من القبائل التى كانت لا تزال على كفرها. وكثيرا ما كانوا يفدون على المدينة للتجارة ويقابلون النبى ويجادلونه فى الدين فكان يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم أسسه ومنها الإيمان بالغيب وبالبعث فى الآخرة. وتحكى الآيات كيف كان هؤلاء الكفار ينكرون البعث:

«زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا. قل بلى وربى لتبعثن ثم لتُنبؤُن بما عملتم وذلك على الله يسير. فآمِنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير. يوم يجمعكم ليوم الجمع. ذلك يوم التغابن. ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفِّر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» (٧ – ١٠).

والآيات واضحة. فيها إنكار الكافرين للبعث وأمر للنبى بأن يؤكد لهم أن البعث حق وأنه أمر يسير بالنسبة لقدرة الله ثم دعوة لهم للإيمان بالله ورسوله والاهتداء بالقرآن وآياته فهي كالنور الذى يهدى إلى الطريق المستقيم. وسُمِّى يوم القيامة **«يوم الجمع»** إذ فيه يُجمع الناس جميعا. وسُمِّى أيضا **«يوم التغابن»** والغبن هو حط قيمة الشىء وفوْت الحظ. فالكافر مغبون لأنه ترك الإيمان فدخل النار. وغبن المؤمن تقصيره فى العبادة فيتمنى لو اجتهد أكثر لينال منزلة أعلى فى الجنة. ثم يأتى بيان لمصير المؤمن إذ يتجاوز الله عن سيئاته ويكون له الخلود فى الجنة. أما الذين كفروا فلهم الخلود فى النار وبئس المصير.

التصرف عند نزول المصائب:

ولا شك أن مجتمع المدينة كان يجرى عليه من صروف الحياة ما يجرى على غيره من المجتمعات فيصاب بعض المسلمين بمصائب بفقد مال أو أهل. فكان التهوين عليهم بالتذكير بأنها قَدر من الله:

«ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله. ومن يؤمن بالله يهد قلبه. والله بكل شىء عليم. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين. الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١١ – ١٣).

وفى حديث عن النبي قال: عجبا للمؤمن. لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له. إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

عدم تفضيل الأهل عن الجهاد فى سبيل الله:

روى السيوطى (لباب النقول فى أسباب النزول. ص ٢١٥) أن آيات هذه الفقرة نزلت فى

عوف بن مالك الأشجعى كان ذا أهل وولد. فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوه قائلين: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم:

«يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم. وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم. إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم. فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تُقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم. عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم» (١٤ – ١٨).

وروى أيضا أنها نزلت فى رجال من أهل مكة أسلموا فأرادوا أن يهاجروا إلى النبى فى المدينة فأبى أزواجهم وأولادهم فقعدوا عن الهجرة أعواما ثم لما هاجروا وأتوا رسول الله لمسوا ما فاتهم من خير بتأخرهم عنه فرغبوا فى معاقبة أهليهم الذين أخروهم فأمرتهم الآيات بالعفو عنهم. ثم تذكِّرهم الآيات بأن الأموال والأولاد قد تكون فتنة وابتلاء من الله ويجب عدم التكالب عليهما أو التمسك بهما لأن الله عنده أجر أعظم منهما وعلى المؤمن أن يبذل فى طاعة الله قدر استطاعته. وأى إنفاق فى هذا السبيل سيردُّه الله مضاعفا ويغفر لصاحبه فهو وحده عالم ما غاب وما كان حاضرا مشهودا **«عالم الغيب والشهادة»**.

ثم نزلت سورة الصف:

وتسمى أيضا «سورة الحواريين» أو «سورة عيسى» (تفسير الألوسى. جـ ٢٨ ص ٨٣) لذكرهما فى السورة. وهى فى مجملها تتكلم عن المنافقين وأقوالهم. وتبدأ السورة بتمجيد الله وتقدير عظمته وأن كل ما فى السموات وما فى الأرض خاضع لمشيئته ويسبح بحمده:

«سبَّح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم» (١).

توبيخ لادعاء مواقف بطولية لم تحدث:

روى أن نفرا من شباب المسلمين راحوا يقولون فعلنا كذا فى الغزو ولم يفعلوا فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص» (٢ – ٤).

وروى عن ابن زيد أنها قيلت فى بعض ضعاف الإيمان الذين يكونون عند القتال فى آخر الصفوف ومع ذلك يدَّعون أنهم قتلوا من العدو كذا وكذا فنزلت الآيات توبِّخهم. إذ لو كانوا مؤمنين حقا لاتفقت أفعالهم مع أقوالهم ولحاربوا متماسكين كأنهم بنيان محكم ولم يتناثروا فى آخر الصفوف بعيدين عن القتال أو يفروا من المعركة. وَوُضِع المعنى فى صورة توجيه عام

ينهى عن ادعاء مواقف لم تحدث بالفعل فذلك مكروه عند الله. ولاشك أن ذلك كان يؤذى النبى فكانت تسرية عنه أن يُذكر ما لاقاه موسى وعيسى من قومهما.

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين. وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدىّ من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» (٥ – ٦).

تنديد بمن يصدُّون عن سبيل الله:

ثم راحت الآيات تندد بالمنافقين الذين يكذبون على الله ويصدون عن سبيله فكأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ولكن الإسلام سينتشر غصبا عنهم فالله قد أرسل رسوله بالهدى والدين الواضح لتكون له من الغلبة والانتشار ما ليس للأديان الأخرى. وقد تحقق ذلك فعلا في عصور الامبراطوريه الإسلامية الزاهرة وإن كان قد أصاب المسلمين بعد ذلك النكسات وتقطعت أوصال امبراطوريتهم:

«ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (٧ – ٩).

حث على الإيمان بالله والجهاد في سبيله:

وجاء ذلك فى صورة ترغيبية شُبِّهت بالتجارة إذ يُقدِّمون الإيمان بالله ورسوله ويجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وفى المقابل لهم بشارتان: إحداهما فى الآخرة وهى غفران الله لذنوبهم وإدخالهم جنات عدن. وبشارة دنيوية وهى النصر فى الجهاد وفتح يقع قريبا:

«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين» (١٠ – ١٣).

ثم جاءت الآية الخاتمة للسورة تضرب للمسلمين مثالا ملموسا وهو انتشار الديانة المسيحية وقلة اليهود وهوانهم لأنهم كفروا بعيسى:

«يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (١٤).

وفى هذا بشارة ضمنية للمسلمين بأنهم بالمثل سيظهرون على أعدائهم وينتصرون عليهم.

البيت الحرام:

قبل الهجرة، لم تكن هناك مشكلة، فالمسلمون يعيشون في مكة، صحيح أنهم قلة مستضعفة ولكنهم يستطيعون الطواف بالكعبة كما يطوف الناس وإن كانوا يقولون في طوافهم غير ما يقول الآخرون. وإذا أهلّ موسم الحج يمكنهم الحج كما يحج الناس وكما تحج الوفود القادمة من أقاصى الجزيرة العربية وما كانت قريش لتمنعهم عن ذلك. أما بعد الهجرة فقد تغير الوضع. صحيح أن المسلمين أصبحوا فى المدينة قوة يحسب لها حساب ولكن عداء قريش للإسلام والمسلمين ازداد حدة. ووقعت ثلاث معارك كبرى: بدر وأحد والخندق. وزاد حقد قريش «لمحمد» وللمسلمين. وما كان أحد من المسلمين ليأمن علي نفسه لو دخل مكة حتي لو كان حاجا أو معتمرا. ومن كانت تضطره ظروف تجارية لدخول مكة لم يكن ليدخلها إلا فى جوار صديق أو قريب من أهلها ذى مكانة – ليمنع عنه أذى قريش. ومرت الآن ٦ سنوات. ولم يكن هذا الوضع مقبولا. إذ أن الحج ركن من أركان الإسلام. صحيح أن الأولوية كانت لتأمين المجتمع الإسلامى بالمدينة من أى عدوان خارجي وها قد أصبح الإسلام فى المدينة مرهوب الجانب. كما أن التشريعات التى نزلت أرست قواعد العدل الاجتماعى بين أفراده وجعلتهم نسيجا واحدا يحاربون فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص. وظلت الكعبة تراود عقولهم وخاصة بعد أن تحولت القبلة إليها. فنزلت سورة الحج تطمئن المسلمين إلى مكانة البيت الحرام. فكانت الحافز للتفكير فى عمرة الحديبية.

سورة الحج:

وقد اختلف المفسرون حول كون هذه السورة مكية أم مدنية. عن ابن مردويه عن ابن عباس أنها كلها مدنية. وآخرون قالوا كلها مكية. وعن مجاهد عن ابن عباس أنها مكية إلا ثلاث أو أربع آيات. وعن قتادة أنها مدنية غير أربع آيات. والجمهور يرى أنها مختلطة فيها مدنى وفيها مكي وإن اختُلف فى التعيين (تفسير الألوسى جـ ١٧ – ص ١١٠).

والمرجح أن الآيات التى تتحدث عن الساعة مكية إذ أنها موجهة إلى أناس لا يؤمنون بها وهم كفار مكة أما مجتمع المدينة المسلم فهو يؤمن بالغيب ويؤمن بالآخرة وليس فى حاجة للتذكير بهما. وفى المقابل فإن آيات القتال لا شك فى مدنيّتها إذ أن القلة المؤمنة فى مكة لم تكن لتستطيع قتالا. بل لم يكن أمامها إلا الصبر على أذى قريش. أما الآيات التى تذكر الحج ومناسكة فالمرجح أنها مدنية وهدفت إلى تذكير المسلمين بهذه الفريضة.

بدأت السورة بفقرة عن الساعة والبعث ونهى عن الجدال فى الله سواء فى صفاته أو ذاته فهذه أمور لا يحيط بها عقل ولا علم. ولاشك أن هذه الآيات مكية:

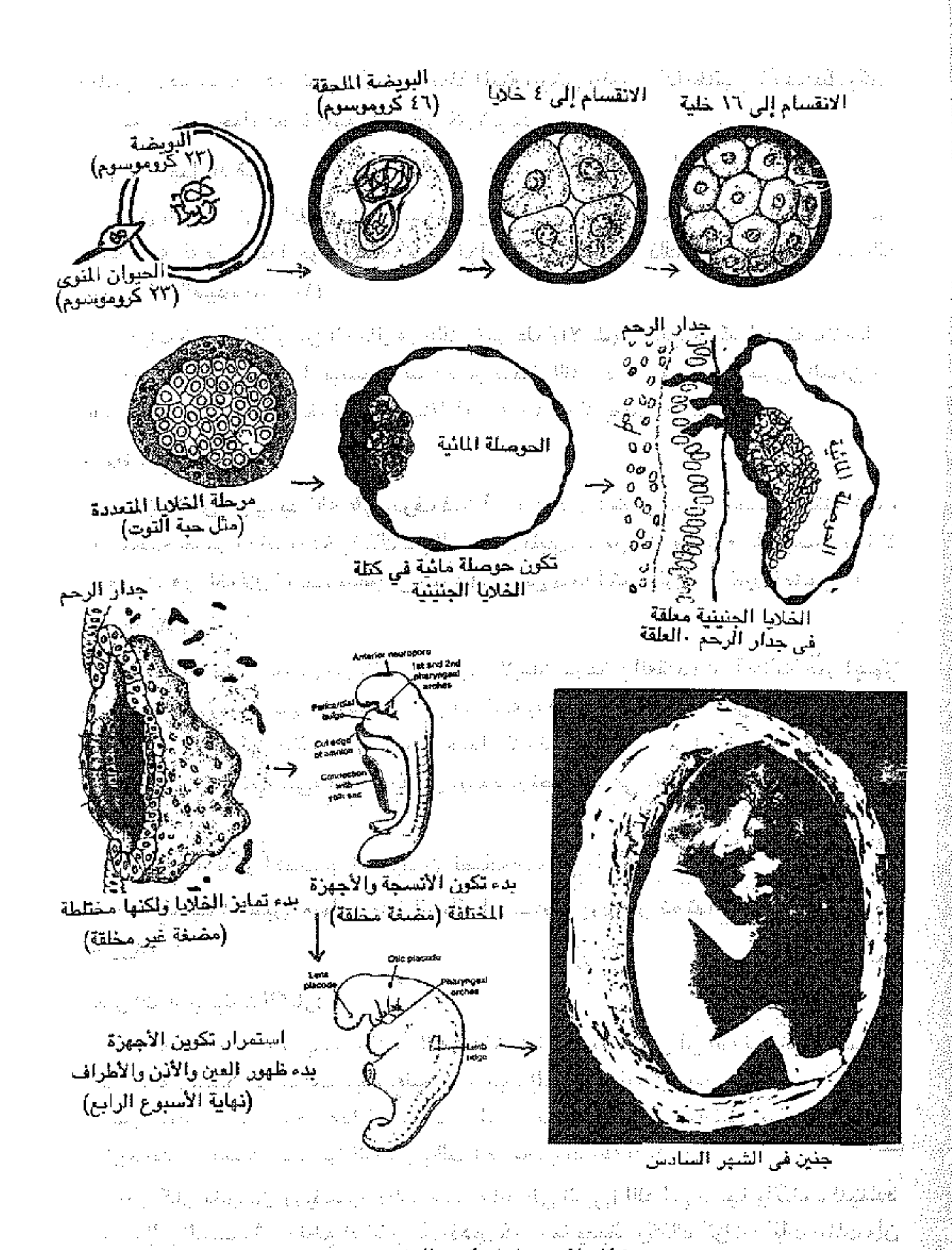
«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد. كُتِب عليه أنه من تولاَّه فأنَّه يُضلُّه ويهديه إلى عذاب السعير» (١-٤).

والآيات تعطى صورة حية لشدة أهوال يوم القيامة من زلزلة الأرض وغيرها من المشاهد الكونية التي وردت في سور أخرى بحيث أن الأم تذهل عن وليدها وتجهض الحامل ويُرى الناس يتطوحون من شدة الهلع كأنهم سكارى. ثم يأتى نهى عن الجدال فى الله. وقيل إنه نزل في النضر بن الحارث وكان يكثر من الجدال ويقول إن الملائكة بنات الله وأن القرآن أساطير الأولين وينكر البعث (تفسير الألوسى جـ ١٧ ص ١١٤).

ثم تستمر الآيات متحدثة عن البعث وتضرب له المثل:

«يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم. ومنكم من يتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من وكل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور» (٥ – ٧).

ويرى أخصائيو علم الأجنة أن هذه الفقرة فيها إعجاز علمى لم يُتوصل إليه إلا فى القرن العشرين أى بعد ١٣ قرنا من نزول هذه الآيات. فالنطفة هي ماء الرجل الذى يحوى الحيوانات المنوية وبعد الجماع يتم إخصاب بويضة الأم بأحد الحيوانات المنوية. وبمجرد اختراق رأس الحيوان المنوى لجدار البويضة يتم اتحاد الكروموسومات الـ ٢٣ من الأب مع الكروموسات الـ ٢٣ الموجودة فى البويضة ليصبح بالبويضة المُلَقَّحة ٤٦ كروموسوما وهو العدد الخاص بالإنسان. وحينئذ تبدأ فى الانقسام. وحينما تصل البويضة إلى الرحم تعلق بجداره كما سبق أن شرحنا فى سورة العلق وهذا هو طور «العلقة» (شكل ١١ ص ٤٥) ثم تتكاثر الخلايا وتبدأ ملامح الأنسجة المختلفة تتكون ولكنها تكون مختلطة مثل لقمة الأكل بعد مضغها وتسمى «مضغة غير مخلَّقة» ثم تبدأ الأنسجة المختلفة فى التمايز فتصبح «مضغة مخلقة». وأول ما يتمايز هو جهاز الدورة الدموية الذى يظهر فى اليوم الواحد والعشرين ثم يظهر فيه النبض فى اليوم الثامن والعشرين ليدفع الدم فى الأوعية الدموية لتغذية الخلايا ثم تبدأ باقى الأجهزة فى الظهور حتى يأخذ الجنين شكله الآدمى فى الأسبوع الثامن أى بعد شهرين ونصف من الحمل (شكل ٤١). ثم يخرج الإنسان طفلا ينمو فشابا قويا شديدا وإن مُدَّ فى عمره أصبح كهلا هرما ويتوقف علمه وإدراكه للأشياء بل وينسى ما تعلمَّه. ثم يأتى الطور الأخير – الملموس لكل



شكل ٤١ – مراحل تكوين الجنين.

الناس – وهو الموت وكما نرى الأرض الجافة الميتة تنبض بالحياة إذا طالها ماء فبالمثل يكون بعد الموت بعث وحياة آخرة والله قادر على كل شيء.

نهي عن الجدل العقيم:

«ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير. ثانيَ عطفه ليُضل عن سبيل الله له في الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق. ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد» (٨ – ١٠).

والآيات تحذر الكفار من الجدال في الله بغير علم وألا يلووا جانبهم تكبرا واختيالا «ثانى عطفه»، مشتدين في الجدل ليصدوا غيرهم عن سبيل الله. فهؤلاء جزاؤهم الخزى والهوان فى الدنيا وعذاب جهنم فى الآخرة جزاء وفاقا لما عملوه فالله لا يظلم أحدا من عبيده.

ضعاف الإيمان:

«ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد. يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير» (١١-١٣).

وفى الآيات تنديد بفريق من الناس ضعيف الإيمان مزعزع العقيدة إن أصابه خير ابتهج ورأى أن الإيمان فيه خير واطمئنان. فإن أصابته بعد ذلك شدة فى ماله أو ولده أو اشتد به أذى الكفار ارتد إلى الكفر وإلى عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع. بل إن ضررها هو الأكثر تأكيدا إذ لن تنفعهم بشيء فى الدنيا ولن تستطيع نصرتهم فى الآخرة وبذلك يكون قد خسر الدنيا والآخرة.

وفي المقابل تذكر الآيات جزاء المؤمنين الصادقين في إيمانهم:

«إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد» (١٤).

نصر الله لنبيه يغيظ الكفار:

ثم تمضي الآيات تطلب من الكفار الذين اغتاظوا وكانوا يظنون أن الله لن ينصر نبيه أن يمد أحدهم حبلا إلى سقف بيته **«فليمدد بسبب إلى السماء»** ويشنق نفسه به حتي يقطع النفس وينظر إن كان بفعله هذا قد أذهب غيظه. وكما نصر الله رسوله فقد أنزل عليه القرآن الكريم آيات واضحة يهدى بها الله من يطلب الهداية ويريد الله له الهداية:

«من كان يظن أن لن ينصره (الضمير عائد إلى النبى) **الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ. وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد»** (١٥ – ١٦).

الله يحكم بين أتباع الديانات المختلفة:

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة. إن الله على كل شيء شهيد» (١٧).

وفي هذه الآية يأتي – لأول مرة – ذكر كلمة المجوس وهم عُباد النار. وكانت بعض القبائل العربية في البحرين والأنحاء الشمالية المجاورة لفارس يعتنقون المجوسية. كذلك كان احتلال الفرس لليمن سببا في اعتناق بعض أهل اليمن لعبادة النار. كذلك ذكرت كلمة «الصابئين» لأول مرة. وقد سبق أن ذكرنا هذه الملَّة بالتفصيل في الجزء الثاني ص ٢٧١ وقد وضع ترتيبهم في الآية بين اليهود والنصارى دلالةً على أنهم كانوا من الموحِّدين إلا أن عقيدتهم شابتها بعض الممارسات الوثنية باعتقادهم أن الكواكب السيارة السبع تعمل كوسائط بين الناس والله. أما المجوس والمشركين فقد كانوا على وثنية صريحة.

ثم تمضي الآيات تمجِّد الله وتبين أن كل ما في الكون يسجد له فهو وحده الجدير بالعبادة:

«ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب. ومن يُهن الله فما له من مُكرم إن الله يفعل ما يشاء» (١٨).

ثم تمضي الآيات توضح أن الناس إزاء قضية وجود الله وعبادته ينقسمون إلى فريقين متضادين: فريق كفر وهؤلاء جزاؤهم يوم القيامة عذاب أليم وفريق آمن ولهم جنات النعيم:

«هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم. يُصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وهُدُوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد» (١٩ – ٢٤).

عن البيت الحرام والحج:

كان قد مضى على المسلمين في المدينة ٦ سنوات لم يتيسر لهم فيها حج أو عمرة فكان لابد من تذكير بهذا الركن من أركان الإسلام والذي أرسى إبراهيم عليه السلام مناسكه. بدءاً ببناء البيت الحرام ثم أذانه في الناس بالحج. فراحت الآيات تذكر شرائع الحج وكأنها تنبه إلى أن صد الكفار عن المسجد الحرام لا يجب أن ينسيهم هذه الفريضة:

«إن الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا

تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق» (٢٥ - ٢٩).

والأيام المعلومات هي العشر الأولى من ذي الحجة ويوم النحر وأيام التشريق التي اختُلف في عددها بين يومين وأربعة أيام. ويُسَنّ فيها التلبية لمن أحرم بالحج. أما النحر فهو لا يكون إلا في يوم العيد وأيام التشريق. كما أن العرب في الجاهلية كانوا لا يبيحون لصاحب الذبيحة أن يأكل منها فجاءت الآيات تُحِلُّ له الأكل منها في حدود قدّرها الفقهاء بالثلث والتصدُّق بالباقي. ثم حثت الآيات على الاغتسال لإزالة ما علق بالأجسام من غبار وعرق أثناء السفر. وإن كانوا قد نذروا شيئا فليوفوا به وليطوفوا بالبيت. ثم تمضي الآيات:

«ذلك ومن يُعَظم حرمات الله فهو خير له عند ربه. وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق» (٣٠ - ٣٣).

وتنص الآيات على أن الأنعام كلها حلال إلا ما ذكره القرآن كالميتة وغيرها. وعليهم اجتناب الأصنام وقول الزور. وتصور الآيات من يشرك بالله كيف يكون هلاكه في صورة بشعة تدفع السامع إلى تجنب هذا المصير. إذ تصوِّره كأنه يهوي من السماء فتتخاطفه الطير وتمزق لحمه قطعا وتأكلها. أو عصفت به ريح شديدة فحملته من قمة جبل إلى قاع وادٍ شديد العمق فهوى وتحطم جسده. أما التقي فهو الذي يعظِّم شعائر الله ومن دلائل تقواه أن يختار من البدن للذبح أسمنها وأحسنها وما ليس بها عيوب أو مرض «يعظم شعائر الله». وأباحت الآيات الانتفاع بلبنها وصوفها ويجوز ركوبها «لكم فيها منافع» إلى أن تنتهي إلى البيت العتيق حيث تذبح.

«ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (الخاشعين). الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» (٣٤ - ٣٥).

والآيات تذكر أن الله جعل لكل أتباع ديانة شعائر وقرابين يقربونها شكرا لله. فالله واحد وإن اختلفت المناسك بين الأديان المختلفة والخاشعون هم الذين تضطرب قلوبهم خضوعا وخشية عند ذكر الله ويصبرون على قضائه وقدَره ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.

«والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافٌ. فإذا

وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبّروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين» (٣٦ - ٣٧).

والبُدن هي الإبل والبقر التي تقدم قربانا يتقرب بها الناس إلى الله لهم فيها خير قبل ذبحها كما جاء في الآية ٣٣ **«لكم فيها منافع»** ويجب ذكر اسم الله عليها وهي **«صواف»** أي واقفات على أرجلهن مصفوفة ومُعدّة للذبح. ويباح لمقدمها الأكل منها كما سبق أن ذكر في الآية ٢٨ **«فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير»** وهنا جاء **«فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر»** لزيادة الأمر توضيحا **«فالقانع»** هو المحتاج المتعفف عن السؤال **«والمعتر»** الذي دفعته الحاجة إلى ذل السؤال. وقد سخرها الله لنا كما سخّر بعض البشر لإطعام البعض كالفقير أو الضعيف. وكان العرب في الجاهلية إذا ذبحوا لأصنامهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فجاءت الآيات توضح أن الله لن يناله شيء من لحومها ولا دمائها بل يتقبل التقوى من مقدم الذبيحة وإخلاصه نيته. ولهذا السبب سخّر الله هذه البدن وشرع هذا المنسك ليعظم الناسُ الله على أن هداهم للإيمان وبشرى لهم بثواب عظيم.

ولا شك أن النبي قد فهم مغزى نزول هذه الآيات من سورة الحج وما فيها من تذكير بتعظيم البيت الحرام وزيارته وتقديم البدن. ولعله رأى بحكمته أن لا يبدأ بحج فقد تمنعه قريش بالقوة وقد يقع قتال في وقت تقدم فيه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة العربية للحج وهو ما لا يريده. لذلك فقد ارتأى أن تكون عمرة. وفعلا أوحي إليه في رؤيا أن يبدأ بعمرة كما سيجيء فيما بعد (ص ٦٨٤).

الإذن بالقتال:

وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٥٨) أن الآيات ٣٨ - ٤١ من سورة الحج قد نزلت في رجب من السنه الأولى للهجرة أي بعد خمسة أشهر من مقدم النبي المدينة - وفيها الإذن بالقتال - ليدفع المسلمون عن أنفسهم أي اعتداء يقع عليهم. وفي ظل هذا التصريح بعث النبي السرايا الأولى لبث المهابة في نفوس القبائل المجاورة.

أخذ العبرة من الأقوام السابقة:

«وإن يُكذبوك فقد كَذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين وكُذّب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير. فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون. وكأيِّن من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتُها وإليّ المصير» (٤٢ - ٤٨).

والآيات فيها تسرية عن النبى إذ تذكر أن تكذيب قريش له هو مثل تكذيب الأمم السابقة لرسلهم وأن الأقوام السابقين قد أخذهم الله بأفعالهم فأهلكهم فصارت قصورهم خاوية وآبارهم مهملة لا يَرِدُها أحد. وفى تسأول استنكارى تنعى على المشركين عدم اعتبارهم بمن سبقوهم إذ لو ساروا فى الأرض لرأوا بأعينهم آثارهم وأدركوا بعقولهم السبب الذى أدى بهم إلى هذا المصير ولكن قلوبهم تتعامى عن هذه الحقائق. ثم هم زيادة فى إنكار البعث والحساب يطلبون من النبى استعجال العذاب الذى يعدهم به ولكن الله يمهلهم. كما أن اليوم عند الله كألف سنة من سنى الأرض. ويرى مؤلفو المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (ص ٤٩٥) أن هذه الآية فيها إعجاز علمى إذ هى تقرر أن الزمن نسبى حسب ما تقرره نظرية النسبية الشهيرة. ثم يأتى بيان أن كثيرا من أهل القرى كانوا – مثل كفار قريش – ظالمين فأمهلهم الله ولم يعاجلهم بالعذاب، ثم لما لم يعتبروا – أنزل بهم نوعا من العذاب لم يُبيِّن واكتُفى بقول **«فأخذتهم»**. وفى الآخرة يصيرون إلى الله **«وإلىَّ المصير»** والمعنى أن لهم عذابا ثانٍ فى الآخرة. وفى كل هذا دعوة للكفار ألاّ يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم ويظنوا أن لا عذاب إطلاقا. بل هو حتما آت. إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة.

واستعجال الكفار لنزول العذاب – تحديا وإنكارا لوقوعه – سبق ذكره فى العهد المكى فى سورة ص (الآية ١٦ ص ١١١): **«وقالوا ربنا عجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب»** وفى سورة الرعد (الآية ٦ ص ٤١١): **«ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة»** مما يدل على أن المشركين فى مكة ومشركى القبائل حول المدينة كانوا كلما حدثهم النبى عن عذاب ينزل بهم راحوا يستعجلونه تحديا وإنكارا.

وردًّا عليهم يؤمر النبى بأن يُذكِّر الناس بجوهر دعوته وأنه نذير لهم من العقاب وليس من مهمته إنزال العذاب بهم كما يطلبون ومهمته أيضا أن يبشر المؤمنين بالمغفرة والثواب الجزيل ويخبر الذين يقفون من الدعوة موقف التعجيز والتعطيل والصد بأن لهم عذاب الجحيم:

«قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم. والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم» (٤٩ – ٥١).

طرق الشيطان للصد عن سبيل الله:

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت (تطمئن) له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم. الملك

يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم، والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين» (٥٢ - ٥٧).

والخطاب في الآيات مُوجه إلى النبي يخبره أن الله لم يرسل قبله من رسول ولا نبي إلا تمنى هداية قومه، ويتصدى الشيطان فيوسوس للكفار حتي يتصدُّوا لدعوة الحق فينسخ الله ويزيل ما يدبرون وتكون الغلبة في النهاية للحق، وما يمكر به الشيطان وأعوانه الكفار هو فتنة يفتتن بها ضعاف الإيمان ومرضى القلوب. ولكن الذين أوتوا العلم صادقى الإيمان يعلمون أن ما ينزل على النبي هو الحق فتخشع قلوبهم فيهديهم الله إلى الصراط المستقيم. أما الكافرون فيظلُّون على شكهم وريبهم حتى تأتيهم الساعة أو يأتي أجلهم بغتة فلا ينفعهم حينئذ إيمانهم. أو ينزل بهم عذاب عظيم في يوم القيامة وسمى «يوما عقيما» لأنه يوم لا مثيل له فهو وحيد وفريد في نوعه. وفيه يقضى الله بين العباد. فالمؤمنون لهم جنات النعيم والكافرون لهم عذاب مهين.

أما قصة الغرانيق فقد فنَّدها معظم المفسرين. فهي واهية سنداً وموضوعاً فلم نشأ أن نذكرها.

جزاء من قتل أو مات في الهجرة:

كان بعض مسلمي مكة الذين لم يهاجروا - يتسللون في جنح الليل فرادى مهاجرين إلى المدينة فكان يتبعهم أحيانا نفر من كفار قريش يقاتلونهم ويقتلونهم قبل أن يبلغوا المدينة. كذلك كان بعض المهاجرين يوافيهم الأجل في المدينة فتساءل الناس عن جزاء هؤلاء وهؤلاء فنزلت الآيات:

«والذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنَّهم مُدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم» (٥٨ - ٥٩).

وقد سبق أن ذكرنا وفاة بعض المهاجرين في المدينة (ص ٦٦٠).

ولعل أقارب بعض من قتلوا أو اعتُدى عليهم قرروا الأخذ بالثأر فنزلت الآية التالية تحث المؤمن الذي يقتص ممن جنى عليه أن يجازيه بمثل اعتدائه عليه دون زيادة. فإذا تمادى الجاني واعتدى عليه ثانية فإن الآية تؤكد أن الله سينصره على المعتدي.

«ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لينصرنَّه الله إن الله لعفوٌ غفور» (٦٠).

بعض نعم الله وآياته في الكون:

وذلك النصر الذي وعد الله به المعْتدَى عليهم في الآية السابقة هين على الله لأن الله قادر على كل شيء ومن آيات قدرته:

١ - **«ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير»** (٦١).

٢ – «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير» (٦٢).

٣ – «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير» (٦٣).

٤ – «له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد» (٦٤).

فالله له كل ما في السموات والأرض ولكنه غنى عن كل هذا وجدير بأن يحمده جميع خلقه.

٥ – «ألم تر أن الله سخَّر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه أن الله بالناس لرؤوف رحيم» (٦٥).

فتسخير الأرض وكل ما أودع فيها من خيرات في خدمة الإنسان. وتسخير البحار لتحمل الفلك وإمساك الكواكب في مداراتها حتى لا تصطدم بالأرض وتفنيها كل ذلك من رحمة الله ورأفته بالعباد.

٦ – «وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم. إن الإنسان لكفور» (٦٦).

وخلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا نعمة كبرى. وإن كان يعقبه إماته إلا أن هناك حياة آخرة. ولكن الإنسان يجحد جميع هذه النعم.

اعتراض بعض أهل الكتاب على بعض شعائر الإسلام:

يقول المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص ٤٩٩) إن الله قد جعل لكل أمة من أصحاب الشرائع السابقة شريعة خاصة بهم تناسب عصرهم يعبدون الله عليها إلى أن ينسخها ما بعدها. ومن هذا المنطلق كان لأمة «محمد» شريعتهم الخاصة. فلا يجوز لأهل الكتاب أن يجادلوا أو يعترضواعلى بعض شرائع الإسلام. وإن أصروا على الاستمرار في المجادلة فيما رسمه الله لنبيِّه فعليه أن يخبرهم أن الله يعلم ما يفعلون وأنه سيحكم بينه وبينهم يوم القيامة والمفهوم أن الله سيؤيد نبيه ويخذلهم. ثم تقرير بأن الله يعلم كل ما يحدث في السماء والأرض لأن كل شيء مدون في كتاب هو اللوح المحفوظ وذلك أمر يسير بالنسبة لله تعالى:

«لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعُنَّك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم. وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون. الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون. ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب. إن ذلك على الله يسير» (٦٨ – ٧٠).

ضيق المشركين عند سماعهم القرآن:

«ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر (الحنق والغيظ) يكادون يسطون (يفتكون) بالذين يتلون عليهم آياتنا. قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير» (٧١ – ٧٢).

والآيات تندد بعبادة المشركين أشياء لم ينزل بعبادتها حجة فى كتاب سماوى وليس لديهم دليل عقلى على استحقاقها للعبادة. ثم إذا تليت عليهم آيات القرآن تتجهَّم وجوههم ويتملكهم الغيظ ويكادون يبطشون بمن يتلونها. ثم يأتى أمر النبى بأن يزيدهم غيظا وحسرة بإخبارهم بما وعدهم الله من عذاب النار فى الآخرة.

لفت نظر الكفار إلى عجز الأصنام:

والآيات تندد وتسفِّه عبادة الأصنام. وفى تحد وسخرية لاذعة تؤكد للكفار أن آلهتهم لن تخلق شيئا ولو تافها مثل الذبابة التي هى من أضعف مخلوقات الله. ولو امتص الذباب شيئا فلن يستطيعوا - هم ولا آلهتهم - استرجاعه منها مع تفاهة ما أُخذ وضعف آخذه. وما كان ذلك من الكفار إلا لأنهم لم يُقدِّروا الله حق قدره وغفلوا عن أن الله قادر على كل شيء، عزيز لا يضيره كفرهم:

«يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز» (٧٣ - ٧٤).

ثم تذكر الآيات أن الله يختار رسلا من الملائكة يبلِّغون كلامه إلى رسله من الناس. والله يعلم جميع أحوالهم: ماضيهم ومستقبلهم ويعلم أنهم سيبلغون رسالته خير تبليغ ولذلك إصطفاهم وإليه وحده ترجع الأمور. ثم أمر للمؤمنين بالركوع والسجود لله وحده وهذا هو طريق الفلاح.

«الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور. يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» (٧٥ - ٧٧).

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة تأمر المسلمين بالجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله والله فضلهم واختار لهم ملة جدهم إبراهيم وهو الذى سماهم المسلمين. وقد جعلهم الله أمة وسطا. وسيشهد النبى عليهم بأنه بلَّغهم رسالته وهم بدورهم سيكونون شهداء على الأمم السابقة بأن دعوة الإسلام قد بلغتهم. أما وقد بلغ المسلمون هذه المكانة فيجب عليهم أن يقابلوها بالشكر وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والتوكل على الله فى كل أمورهم.

«وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم (اختاركم) **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** (أى مشقة فى التكليف) **مِلةَ أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير»** (٧٨).

وبهذا تنتهى سورة الحج التى هدفت – من بين أهدافها – إلى أن يظل البيت الحرام فى مكة ماثلا فى أذهان المسلمين بوصفه قبلتهم – وقد بناه جدهم الأكبر إبراهيم عليه السلام – ولتظل شعائر الحج التى أرسى قواعدها – حية فى نفوسهم كجزء من الحنيفية التى يسيرون عليها – وألا تشغلهم الأحداث أو يثنيهم صد كفار قريش لهم عن الحج أو على الأقل أداء عمرة.

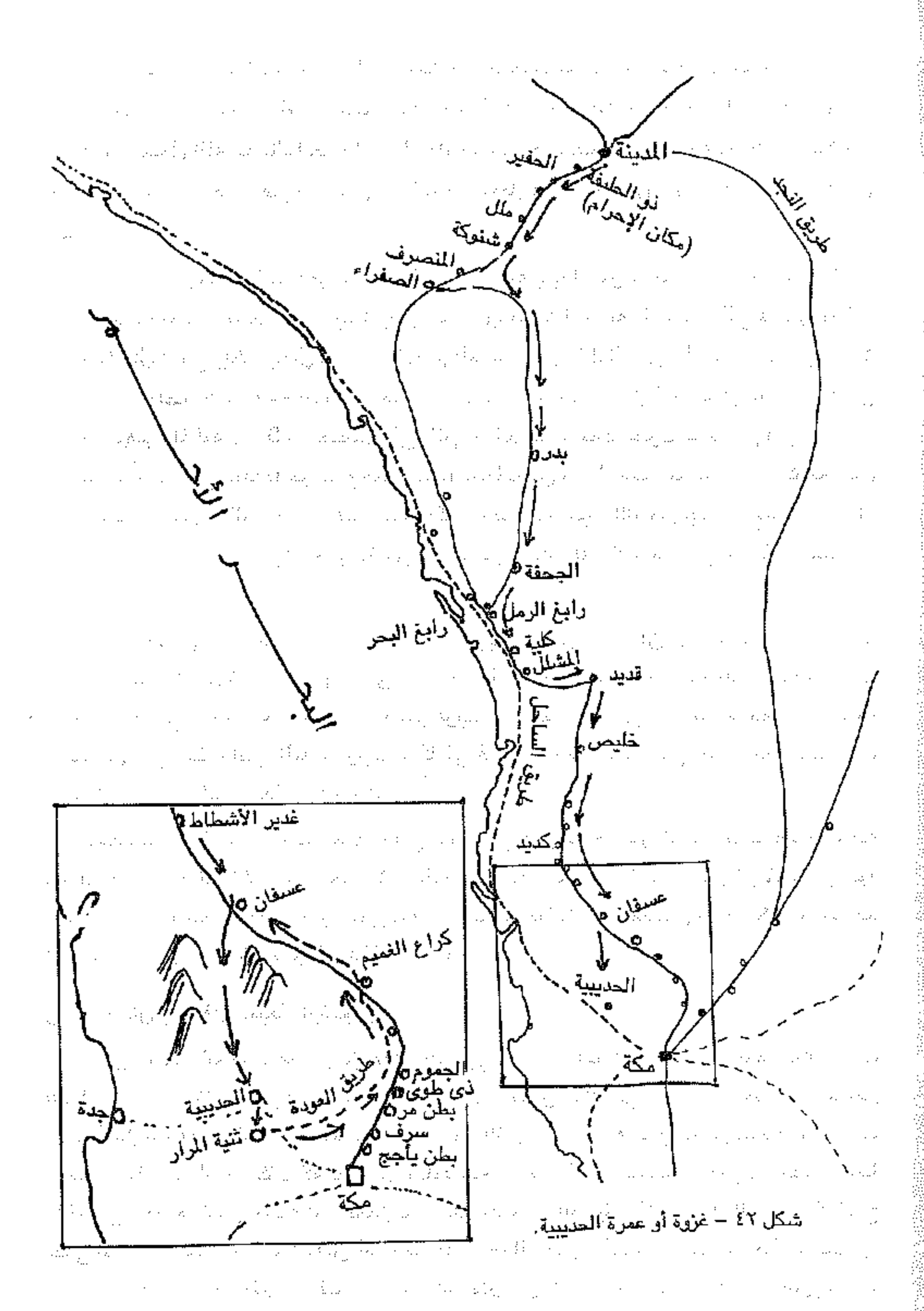
غزوة وصلح الحديبية :

أخبر النبى أصحابه أنه رأى فى منامه أنهم يدخلون مكة معتمرين فاعتزم القيام بعمرة. وقال ابن اسحق (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ ٣ ص ٣١٢) إن النبى خرج فى ذى القعدة سنة ٦ من الهجرة واستنفر مَن حوله من الأعراب من أهل البوادى وهو يخشى أن تعرض له قريش بحرب أو يصدُّوه عن البيت فاستجاب له بعض القبائل وأبطأ عليه كثير من الأعراب لما توقعوه من متاعب أو قتال. وكان من تخلفوا هم قبائل بنى غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم وكان بعضهم على الشرك وبعضهم حديث عهد بالإسلام.

وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار – وقد بلغوا ٧٠٠ رجل وإن كان بعض الرواة قد زادهم إلى ١٤٠٠ بمن لحق بهم من الأعراب. وساق الهدى ٧٠ بدنة فكانت كل بدنة عن عشرة نفر. وأحرم بالعمرة وأعلن أنه لا يريد حربا وإنما خرج زائرا للبيت الحرام ومعظما له. وساروا فى طريق مكة حتى إذا كان عند ذى الحليفة – ٢٠ كم جنوب المدينة – أحرم وأمر المسلمين بالإحرام وأشعر الهدى أى جرحه ليسيل دمه علامة على أنه هدى لله ووضع فى أعناقها القلائد وهى علامة ثانية على أنه هدى لله.

ولما وصلوا عسفان – حوالى ٦٠ كم شمال مكة (شكل ٤٢) – لقيه بشر بن سفيان الكعبى وأخبره أن قريشا قد علمت بمسيرته وخرجوا بأسلحتهم ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا يدخلها عليهم أبدا وأرسلوا خالد بن الوليد فى كتيبة من الفرسان إلى كراع الغميم. فقال رسول الله. ياويح قريش. لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب. فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا. وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام ذافرين (الذَّفر ريح زكية من طيب أو مسك). فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة – مشيرا إلى عنقه كناية عن الهلاك. ثم قال لمن حوله: مَن رجل يخرج عن طريق غير طريقهم التي هم به؟ رغبة منه فى تجنب أى احتكاك معهم. فقام رجل من قبيلة أسلم وسلك بهم طريقا وعرا بين التلال والوديان حتى وصلوا إلى أرض سهلة عند الحديبية حوالى ٢٠ كم شمال غرب مكة.

ورأت خيل قريش بقيادة خالد بن الوليد أن المسلمين قد نجحوا فى الإفلات منهم واقتربوا من مكة. فعادوا إلى مكة ليخبروا قريشا بالموقف. وسار النبى على رأس من معه حتى إذا



شكل ٤٢ – غزوة أو عمرة الحديبية.

كانوا فى ثنية المرار بركت ناقته فقال لأصحابه: لقد حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها. ثم أمر الناس أن ينزلوا. قيل له يا رسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه وأمره أن يغرزه فى منخفض من الأرض ففعل ففاض الماء وشرب الناس وسقوا إبلهم والهدى.

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة بإيعاز من قريش وسألوه عما جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما زائرا للبيت ومعظماً لحرمته. فرجعوا إلى قريش ونقلوا إليهم ما قال النبى ولكن رجال قريش أخذتهم العزة بالإثم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تُحدِّث بذلك عنا العرب. ثم أن قريشا أرسلت رجلا من كنانة – وهم حلفاؤهم – فلما حضر إلى النبى وعلم أنه لم يأت لحرب عاد إلى قريش ولكن قريشا أصرت على موقفها من منع «محمد» وأصحابه من دخول مكة. فغضب سيد كنانة وقال يا معشر قريش: والله ما على هذا حالفناكم. أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء مُعظما له. والله لتُخلُنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بمن معى. فقالوا له: كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

وجاء عروة بن مسعود الثقفى فى وفادة من قريش وأخبر النبى أن قريشا مصممة على ألا يدخل عليهم مكة عنوة. ولمس عروة مدى حب أصحاب النبى له واستعدادهم للذود عنه ضد أى مكروه فعاد إلى قريش وقال لهم: يا معشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا فروا رأيكم.

وبعث رسول الله وسيطا من خزاعة إلى قريش ليبلغهم ما جاء من أجله ولكنهم عقروا جمله وأراد بعضهم قتله ولكنهم فى آخر الأمر خلوا سبيله فعاد إلى النبى. وقيل إن قرشا بعثوا أربعين رجلا ليستطلعوا أخبار النبى ويعرفوا قوته وبينما هم يطيفون بالمعسكر أحاط بهم أصحاب رسول الله وأتوا بهم إليه فخلّى سبيلهم.

وفادة عثمان بن عفان وبيعة الرضوان:

ثم إن رسول الله بعث عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا للبيت ومعظماً له. ولما دخل عثمان مكة لقى أبان بن سعيد بن العاص الذى أعلن أنه قد أجاره. وبلَّغهم عثمان بقدوم النبى للعمرة. فقالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله. واحتبسته قريش عندها. فلما تأخر فى العودة ثارت شائعة أن عثمان بن عفان قد قتل. فلما بلغ ذلك رسول الله قال: لا نبرح حتى نناجز القوم. ثم دعا الناس لمبايعته على القتال حتى الموت وسُمِّيت «بيعة الرضوان» وكانت تحت شجرة. ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة. ثم أتى من أخبر النبى أن ما

ذكر عن قتل عثمان باطل.

والحقيقة أن قريشا كانت في مأزق كبير وفي حيرة من أمرها. فهي لا تريد أن يشيع بين العرب أنها تحول بين فئة من العرب – مهما كانت عقيدتها – وبين زيارة بيت الله الحرام وتقديم القرابين عنده. كما أنها لا تريد أن يقال إن «محمداً» وأصحابه قد «اقتحموا» عليهم مكة. لذلك كثر إرسالها للرسل إلى النبي كسباً للوقت وحتى لا يقع صدام في الأشهر الحرم.

الصلح:

قال ابن اسحق: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله وقالوا له: ائت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تُحدِّث العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً. وواضح من هذا التوجيه أن كل ما كانت تريده قريش هو حفظ ماء الوجه. ولما رأى رسول الله سهيل بن عمرو قادما قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. وأتى سهيل إلى رسول الله وتكلم وأطال الكلام وتراجعا حتى اتفقا على أسس الصلح ولم يبق إلا كتابته. ويبدو أن بعض شروط الاتفاق لم تعجب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر وقال له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال بلى.: أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى. قال أو ليسوا بالمشركين؟ قال بلى. قال: أو ليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى. قال: فلم نُعطَ الدنيَّة (الذل والصغار) في ديننا؟ قال يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم إن عمرا أتى رسول الله وقال له: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال بلى. قال أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى. قال أوليسوا بالمشركين؟ قال بلى. قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا ونرجع قبل أن يحكم الله بيننا؟. فقال النبي: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني. وكان عمر بعد ذلك يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به. وواضح أن عمر لما اتضح له فيما بعد أن صلح الحديبية كان نصراً وفتحا على المسلمين خاف من مغبة كلامه الذي كان فيه تمرُّد ورفض لما قبل به رسول الله والذي لم يكن ليقبله إلا أن يكون برضاء من الله سبحانه وتعالى.

عليٌّ يكتب شروط الصلح:

ثم إن رسول الله دعا علي بن أبي طالب ليكتب شروط الصلح فقل: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم: فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله: اكتب باسمك اللهم. فكتبها. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله. ولكن عليًا لم تطاوعه نفسه في محو اسم رسول الله فأخذ النبي الصحيفة ومحا بنفسه ثم أعطى الصحيفة لعلي ليكمل الكتابة فكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن

فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض. وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله. ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله – والحقيقة أن قريشا كانت تريد هذا الشرط حتى تضمن عودة الأمان لطريقها التجارى إلى الشام بعد حصار خانق كاد أن يقضي عليها. وتمضي الصحيفة فنصّت على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه – وهذا الشرط أغضب كثيرا من المسلمين وعدُّوه تنازلا كبيرا أو تهاونا فيه مساس بكبريائهم فالواجب أن تكون المعاملة بالمثل ولكن النبي رأى أن من يرتدَّ من المسلمين فلا خير فيه فلم يحرص على أن ترده قريش. ولكن من أسلم وفر إليه ثم ردَّه إلى قريش فإنه سيتمسك بإسلامه ويكون شوكة فى جانب قريش وحافزا لأن يظل الإسلام حاضرا فى أذهان القرشيين وقد يسلم غيره – ولعل هذا الشرط – ولم يفهم عمر بن الخطاب الحكمة من قبوله – هو الذى أحنقه وجعله يقول ما قال حسب ما ذكرنا أنفا – ونستكمل الشروط: وإن بيننا عيبة مكفوفة (أى يتوقف ويكف كل فريق عن عيب الفريق الآخر) وأنه لا إسلال (السرقة الخفية) ولا إغلال (خيانة) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه. ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا مع سلاح الراكب. السيوف فى القِرب لا تدخلها بغيرها. وشهد على الصلح أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب كاتب الصلح وبعض كبار الصحابة الحاضرين.

وأسرعت خزاعة بإعلان انضمامها إلى عهد محمد كما أسرع بنو بكر إلى إعلان انضمامهم إلى عقد قريش.

وفور التوقيع على الصلح ولما يجف مداد الكتابة إذ جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو – ممثل قريش فى الصلح – يرسف فى الحديد وكان قد أسلم فقيده أبوه وحبسه ولكنه استطاع الهرب وأتى لاجئا إلى رسول الله فقام إليه سهيل – والده – وضرب وجهه، وطلب من النبى عدم قبول أبى جندل لاجئا وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين. أأُردُّ إلى المشركين يفتنونني فى ديني. وكان هذا أول امتحان للصلح. وقام النبى – حسب شروط الصلح – برد أبى جندل إلى قريش وقال له: يا أبا جندل. اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا. وأنّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وأنّا لا نغدر بهم.

ودخل الناس أمر عظيم إذ كانوا لا يشكوُن فى أداء العمرة للرؤيا التى رآها رسول الله وأخبرهم عنها وهاهم قد مُنعوا من أدائها. وكذلك الشرط الذى يلزم المسلمين برد من جاءهم من قريش مسلما. وبدأ بعض المسلمين يعلن تذمُّره واستفحل الأمر إلى حد خطير إذ أن النبى

أمر الناس أن ينحروا ما معهم من الهدي ثم يحلقوا فما قام منهم رجل. فعل ذلك ثلاث مرات ولم يستجب أحد. فدخل على زوجه أم سلمة - وكانت هي التى رافقته فى هذه الغزوة - فذكر لها ما لقى من الناس. فقالت يا نبى الله. اخرج ثم لا تُكلِّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك. وعمل النبى بمشورتها فخرج ولم يكلم أحدا حتى نحر وحلق فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ، وقال ابن اسحق إن النبى قال: يرحم الله المحلقين. قالوا والمقصرين يا رسول الله قال يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال والمقصرين. فقالوا يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال لم يشكُّوا.

ثم انصرف رسول الله قافلا حتى إذا كان عند كراع الغميم نزلت سورة الفتح.

سورة الفتح :

«إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيا. وينصرك الله نصرا عزيزا» (١ - ٣).

ونزلت السورة بأكملها فقرأها النبى على المسلمين فقال رجل: أى رسول الله أوَ فتح هو؟ قال إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح. وأخرج البيهقى أن رجلا آخر قال: ما هو بفتح. لقد صُددنا عن البيت وصُدَّ هدينا. وبلغ النبى هذا الكلام فقال بئس الكلام هذا. بل هو أعظم الفتوح. وقد رضى المشركون أن يدفعوكم من بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا.

والحقيقة أن صلح الحديبية كان من أعظم الفتوح فى تاريخ الإسلام. فقد اعترفت قريش بالنبى نداً لهم على قدم المساواة. وكثير من حركات التحرر فى وقتنا الحالى تحاور وتناور لتجعل أحد أجهزة الدولة الرسمية تجلس معها على مائدة مفاوضات إذ أن ذلك فى حد ذاته اعتراف من الدولة بهذه الحركة ويعتبره خبراء القانون الدولى إضفاء للشرعية على الحركة بعد أن كانت من قبله تعتبر «تمرُّداً» يجب قمعه.

وكان توقيع صلح الحديبية بدء انطلاق الدعوة على نطاق واسع وزوال العوائق من أمامها. فقد اتسعت دائرة البلاغ وزاد الداخلون فى الإسلام. وحتى الشرط الذى لم يرض عنه كثير من المسلمين واعتبروا قبوله «مهانة» أثبتت الأيام أنه لم يكن كذلك حتى إن قريشا نفسها أرسلت بعد عام واحد تعلن للنبى تنازلها عنه وتطلب منه عدم العمل به. ومن فرَّ من قريش مسلما ولجأ إليه فلا يردَّه. وقد أتاح الصلح الفرصة لتوسيع نطاق دعوة الإسلام فأرسل النبى الرسل إلى مناطق وتجمعات فى أطراف الجزيرة العربية بل وإلى ملوك فارس والروم ومصر وجاء رد إيجابى من أمراء الدويلات العربية مثل الغساسنة وملوك عمان والبحرين وزعماء اليمن. وأخذت وفود العرب ورجالاتهم يفِدُون إلى المدينة من مختلف الأنحاء ليدخلوا فى دين

الله. ودخل في الإسلام رجلان من أهم رجال قريش: هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسنذكر قصة إسلامهما فيما بعد (ص ٧٤٥) فكان صلح الحديبية بحق كما وصفته الآية «**فتحا مبينا**» ثم جاءت جملة «**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**» كي يجتمع له مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة الكاملة وحتى لو لم يكن هناك ما يستدعى الغفران. وفى حديث شريف يحث النبى المسلمين على كثرة الاستغفار لأنه - وهو المعصوم - يتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة.

وبعد البلبلة التى اعترت بعض المسلمين من صلح الحديبية نزلت الآيات تشرح ما حدث بعد ذلك:

«**هو الذى أنزل السكينة** (الطمأنينة) **فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما. ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء** (بأن الله لن ينصر نبيه) **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا. ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما**» (٤ - ٧).

وهكذا فإن الله أنزل السكينة على قلوب المؤمنين وانقادوا لحكم الله ورسوله واطمأنت قلوبهم فازدادوا إيمانا. «**ولله جنود السموات والأرض**» إشارة إلى أنه كان فى قدرة الله عز وجل أن ينزل بعض جنوده ليهلك الكفار ويدخلوا مكة معتمرين ولكن الله أراد اختبار المؤمنين لتكون لهم جنات النعيم. أما المنافقون الذين انتهزوها فرصة لاتهام النبى بالتهاون وراحوا يشككون فى نبوته ويظنون أن الله أراد بهم سوءاً فإن الله غضب عليهم وستدور عليهم الدوائر ولهم نار جهنم وبئس المصير. ويتكرر قوله تعالى: «**ولله جنود السموات والأرض**» بما معناه أن الله قادر على التنكيل بهؤلاء المنافقين.

ثم تذكر الآيات أن الله أرسل رسوله - محمدا - «**شاهدا**» على تصديق المؤمنين لأوامره «**ومبشرا**» لهم بجنات النعيم «**ونذيرا**» للمنافقين من مغبة مسلكهم. وواجب على المسلمين الإيمان بالله ورسوله ونصرته وتوقيره وتسبيح الله صباحا ومساء:

«**إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا**» (٨ - ٩).

إشادة بالذين بايعوا تحت الشجرة:

«**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله. يد الله فوق أيديهم. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما**» (١٠).

والآيات تشيد بالمسليمن الذين بايعوا الرسول على القتال حتى الموت لما نمى إليهم خبر مقتل عثمان بن عفان وتعلن لهم أنهم وقتئذ قد بايعوا الله وهى بيعة على نصرة دين الله وأن من ينكث هذه البيعة ويفعل ما يناقضها فإنه يكون قد أضرَّ بنفسه أما من أوفى بعهد الله فسينال عظيم الأجر.

التنديد بالمتخلفين:

سبق أن ذكرنا (ص ٦٨٤) أن النبى لما خرج قاصداً العمرة استنفر من حوله من الأعراب فمنهم من أجاب وخرج ومنهم من تخلفوا ظناً منهم أن قريشاً لابد ستحارب وأن المسلمين – وهم قلة – لن ينجو من سيوف أعدائهم ولن يعودوا إلى المدينة وإلى أهليهم أبداً. فنزلت الآيات تخبر النبى عما سيقوله له هؤلاء الذين تخلفوا وأنهم سيقدمون له الأعذار الكاذبة لمداراة سوء الظن الذى ظنوا فيدَّعون أن أموالهم وأهلهم هى التى شغلتهم عن الخروج معه وسيطلبون منه الاستغفار لهم. وبعد أن فضحتهم الآيات راحت تنذرهم بعذاب السعير ولكن فى نفس الوقت تفتح لهم باب الأمل ليتوبوا فالله له ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وهو الغفور الرحيم.

«سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا. يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا أن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزُيِّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (فاسدين ومستحقين لسخط الله). ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا. ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما» (١١ – ١٤).

ثم تخبر الآيات عن طمع الأعراب المنافقين إذ يتخلفون عن رسول الله حين يكون الخطر متوقعا – كما فعلوا عند المسيرة للعمرة – أما فى الغزوات التى تكون الغنائم والسلامة مضمونتين فإنهم يطلبون السماح لهم بالخروج معهم. فإذا مُنعوا سخطوا واتهموا مانعيهم بالحسد. ثم تخبرهم الآيات بإتاحة فرصة لاختبارهم إذ سيدعون إلى قتال قوم أشداء البأس من أعداء المسلمين فإن خرجوا وأبلوا بلاء حسنا جزاهم الله جزاء حسناء وإن نكصوا كما نكصوا من قبل وتخلفوا حقَّ عليهم عذاب أليم:

«سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يُبدلوا كلام الله. قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا. قل للمخلفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما» (١٥ – ١٦).

ويقول المفسرون إن المغانم المشار إليها هى مغانم خيبر وأن الله قد وعد بها الذين شهدوا الحديبية تطييبا لخاطرهم إذ مُنعوا من زيارة بيت الله الحرام. وقد أمر النبى أن لا يسير معه إلى خيبر غيرهم.

ولما كانت الآيات قد أنذرت المتخلفين بعذاب أليم جاءت الآيات تستثنى ذوى العذر من عاهة أو مرض من الاشتراك فى القتال وتعيد إنذار المعرضين بعذاب أليم:

«ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما» (١٧).

ثم تعيد الآيات التنوية بالمؤمنين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة عند الحديبية وكانوا مخلصين فى بيعتهم. ولما لم يتمكنوا من دخول مكة اهتزت مشاعرهم بعض الشيىء فأنزل الله السكينة عليهم وأعاد الإطمئنان إلى قلوبهم ثم تعدهم الآيات بالنصر فى معركة قريبة وينالهم منها مغانم كثيرة ويُجمع المفسرون على أن المغانم الكثيرة هى مغانم خيبر.

«لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا. ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما» (١٨ - ١٩).

وهناك أحاديث كثيرة فى فضل الذين بايعوا تحت الشجرة، منها حديث عن جابر: قال النبى حينما بايعه الناس تحت الشجرة: أنتم خير أهل الأرض اليوم. وحديث آخر. قال رسول الله لحفصة زوجته: لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة التى بايعوا تحتها أحد.

ثم راحت الآيات تنوه بالمغانم الكثيرة التى سيغنمها المسلمون مثل فتح خيبر وغيرها من قرى اليهود. وأن الله أعطاهم مغنما عاجلاً وهو صلح الحديبية وكفاهم القتال. وكان عقد الهدنة متضمنا أن تكف قريش يدها عن المسلمين. فكانت تلك آية ومنة من الله على المؤمنين. كما نبهت الآيات إلى نعم أخرى لم يُخبروا بها ولكن الله يعلمها:

«وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما. وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيئ قديرا» (٢٠ - ٢١).

ما كان ينتظر قريشا لو حاربوا المسلمين عند الحديبية:

«ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا. سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا. وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا. هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم

فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليُدخِل الله في رحمته من يشاء لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما. إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما» (٢٢ - ٢٦).

والآيات تخبر أن قريشا كانت ستنهزم لو حاربت المسلمين. فسنة الله أن ينصر جنده. وكان من فضل الله على المسلمين أن صرف قريشا عن قتالهم وصرفهم عن قتال قريش بالرغم من أنها قد صدّتهم عن دخول المسجد الحرام وحبسوا الهدى ومنعوه أن يصل إلى المكان المحدد لذبحه «محله» وألهم الله المؤمنين قبول الصلح وعدم القتال لأنه كان في مكة عدد من المؤمنين والمؤمنات أخفوا إسلامهم خوفا من بطش قريش وكان من المحتمل لو حدث قتال أن يقتلوهم خطأ ظنا منهم أنهم من الكفار فيكون في ذلك عار «**معرّة**» عليهم أن قتلوا إخوة لهم في الدين. ولو أن هؤلاء النفر المؤمنون تميزوا وكانوا في مكان واحد «**لو تزيلوا**» لأنزل الله عذابه على الكافرين بأن سلطكم عليهم. ثم راحت الآيات تندد بتعنت قريش في المفاوضات وإصرارهم على شروط جائرة حفزهم عليها أَنَفه الجاهلية وحَمِيتها ولكن الله أنزل الهدوء والسكينة على النبي وعلى المسلمين فقبلوا هذه الشروط المجحفة حقنا للدماء وعلما من الله بأن الصلح في حد ذاته فتح عظيم وكسب للمسلمين.

ويروى أن عمر بن الخطاب قال للنبي: أوَلست تُحدّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال النبي: بلى أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قال لا. قال فإنك آتيه ومطوِّفٌ به. وكان الصلح يتضمن أن يأتي النبي والمسلمون للعمرة في العام التالي وتترك قريش لهم مكة لمدة ثلاثة أيام حتى يُتِمّوا عمرتهم ونزل تصديق ذلك في الآيات التالية:

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون. فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا» (٢٧ - ٢٨).

وهذه هي المرة الثانية التي يرد فيها وعد الله بإظهار دينه - الإسلام - على سائر الأديان - وكانت المرة الأولى في سورة الصف (آية ٩ ص ٦٧٢). «**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**».

ضرب مثل للنبي وأصحابه:

«محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعا سُجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا. سيماهم في وجوههم من أثر السجود. ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. وَعَد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» (٢٩).

فالآيات تقرر أن محمدا هو رسول الله حقا وأنه هو أصحابه أشداء على الكفار يقاتلونهم ببأس شديد ولكنهم - أى المسلمين - رحماء فيما بينهم وعلاماتهم واضحة فى وجوهم من كثرة السجود: سماحة فى الوجة وصفاء فى النفس وليس المقصود ذلك الأثر فى الجبهة المعروف بـ «زبيبة الصلاة». وتلك هى صفاتهم فى التوراة. أما فى الإنجيل فمثلهم كالزرع الذى أخرج أول نبته لينا ثم نما وقوى فغلظت ساقه وارتفع، ولابد أنه قد أثمر أحسن الثمار مما يعجب الزراع أى المؤمنين ويغتاظ الكافرون من قوة المؤمنين. وقد وعد الله الذين آمنوا أن يغفر لهم ويجزيهم أحسن الجزاء.

والآيات تعطى صورة رائعة لما كان عليه أصحاب رسول الله من ورع وتقوى واجتهاد فى العبادة وأخلاق سمحة وتراحم فيما بينهم مع الشدة بالنسبة لأعدائهم أما جملة «والذين معه» فهى تعنى تلك الفئة الراسخة فى إيمانها والمؤيدة لرسول الله قلبا وقالبا لا يترددون ولا يتأخرون عن أمر أمَر به، وقد وردت أحاديث عديدة فى فضل هذه الفئة المخلصة منها حديث عن أبى هريرة: لا تسبُّوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه. وحديث آخر: الله الله فى أصحابى، الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضا من بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبَّهم ومن أبغضهم فيبغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه.

إسلام قبيلة جذام:

قال ابن هشام (السيرة النبوية جـ ٤ ص ١٥٤): وقد على رسول الله بالمدينة رفاعة بن زيد الجذامى فأهدى لرسول الله غلاما وأسلم وكتب له رسول الله كتابا إلى قومه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد أنى بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله فمن أقبل منهم ففى حزب الله ورسوله ومن أدبر فله أمان شهرين» وعاد رفاعة بن زيد إلى قومه فأسلموا جميعا.

بعد صلح الحديبية وما تهيأ بعده من أمان من ناحية قريش أصبح الأعداء متمثلين فى القبائل المشركة فى المناطق حول المدينة وفى اليهود المتمركزين فى خيبر وبعض القرى على طريق الشام لجأوا إليها بعد إجلائهم عن المدينة.

ولقد رأينا كيف كانت الآيات تنزل على النبى مؤيدة لسياسة اتبعها مع عدو ما أو توجهه لاتخاذ موقف ما، أو تعلق على معركة وقعت، ونزلت سورة المائدة محتوية على موضوعات عدة.

سورة المائدة:

وهي من طوال السور، كما أنها من أواخر السور نزولا إذ لم يبق بعدها إلا ثلاث سور ويكتمل القرآن الكريم، هذه السور هي الممتحنة والتوبة والنصر، وقد بدأت سورة المائدة بحث على الوفاء بالعقود.

«يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود....»

وكان أقرب العقود التى أبرمت هو صلح الحديبية. والعقد هو ما يتم بين طرفين متكافئين وفيه معنى الاستيثاق. أما العهد فينفرد به واحد. كأن يتعهد طرف أن لا يعتدى على الطرف الآخر وغالبا ما يكون الطرف الضعيف هو الذى يطلب العهد من الطرف الأقوى. وكان المسلمون قد أصبحوا قوة لايستهان بها وعلى الند من قريش، ولعل قريشا لما علمت أن الله يأمر المسلمين على الوفاء بالعقد الذى وُقِّع معهم عملوا هم أيضا على التمسك به وتجنب ما يتنافى معه.

يلي ذلك عدة موضوعات رئيسية أهمها:

أ - تشريعات خاصة بالمسلمين.

ب - عن اليهود وأهل الكتاب.

جـ - حث للجميع على الحكم بما أنزل الله.

د - علاقة المسلمين بأهل الكتاب.

هـ - دعوة أهل الكتاب للإسلام.

و - تشريعات دينية.

وغير ذلك من المواضيع. ويلاحظ أنه لا يمكن فصل المواضيع بعضها عن بعض فصلا تاما فالقرآن ليس كتابا مدرسيا يفصل النقاط إلى ١، ٢، ٣،. بل هو كتاب إيمان وعظة، وتحتوى كل فقرة بل وكل آية على أكثر من موضوع ولها أكثر من هدف.

أ - تشريعات خاصة بالمسلمين:

ويمكن إدراجها فى النقاط التالية:

١ - «... **أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم**...» والآية تُحِلُّ أكل لحوم الأنعام من الإبل والبقر والغنم. وهو نفس المعنى الذى ورد من قبل فى سورة الحج (الآية ٣٠ ص ٦٧٨) «**وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم**».

ثم تُستثنى حالة الإحرام «**غيرَ مُحِلِّي الصيد وأنتم حرم، إن الله يحكم ما يريد**» (١). والآية تُحرِّم صيد البر فى حالة الإحرام بحج أو بعمرة.

٢ – ثم تنهى الآيات المسلمين عن استباحة حرمة شعائر الله كالإخلال بمناسك الحج أو انتهاك حرمة الأشهر الحرم بإثارة الحرب فيها أو اعتراض ما يُهدى من الأنعام إلى بيت الله الحرام باغتصابه أو منع بلوغه محله. وألا ينزعوا القلائد وهي العلامات التي توضع في أعناق الأنعام لتدل على أنها ستكون ذبيحة في الحج. وألا يعترضوا من يقصد بيت الله الحرام يبتغون فضل الله ورضاه. ولكن إذا تحللوا من الإحرام وخرجوا من أرض مكة فلهم أن يصطادوا. ثم تحث الآيات على عدم بغض قريش لأنهم صدُّوهم عن دخول المسجد الحرام عند الحديبية وتنهي عن أن يكون ذلك سببا للاعتداء عليهم. ثم تأمر الآيات المسلمين بالتعاون بعضهم مع بعض على فعل الخير وتقوى الله:

«يا أيها الذين آمنوا لا تُحِلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمِّين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا. وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب» (٢).

ولا شك أن قريشا أكبرت عدل الإسلام فها هو القرآن ينهى المسلمين عن الاعتداء عليهم بالرغم من أنهم منعوهم من الطواف بالبيت الحرام.

٣ – ثم يأتي تفصيل **ما حُرِّم من الأنعام**:

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة (مجاعة) **غير متجانف** (غير متعمد) **لإثم فإن الله غفور رحيم»** (٣).

والآيات واضحة وتفصِّل ما حُرِّم على المسلمين من الأنعام وهي: ١ – **«الميتة»** ولعل الحكمة في تحريم أكل الميتة هو أن موتها قد يكون نتيجة مرض أو تسمم فيضر أو يهلك من يأكله. ٢ – **«الدم»** ولا يُتصور أن يقوم إنسان بشرب الدم ولكن الحيوان الذي يموت دون ذبح يتحبس دمه فيه. وقد ثبت مؤخرا أن أول ما يفسد هو الدم لكونه صالحا لنمو الميكروبات فيكون الضرر مضاعفا. ٣ – **أما لحم الخنزير** فقد كثر الكلام حول حكمة تحريمه فالخنزير معرض للإصابة بعدد كبير من الطفيليات التي تصيب الإنسان وتضره. وإن قيل إن الخنازير الآن في أوربا تربى في مزارع هي غاية في النظافة وتتبع فيها قواعد صحِّية صارمة في المأكل أو التخلص من الفضلات تضمن خلو الخنزير من هذه الأمراض إلا أنه قد ثبت مؤخرا أن لحم الخنزير من أصعب اللحوم هضما فضلا عن أنه يسبب أمراض القلب والمرارة وبعض أنواع السرطانات. ٤ – **«المنخنقة»** منع عنها الهواء حتى ماتت وأصبح دمها المحتبس داخلها أزرقا لقلة الأوكسجين وهو أصلح ما يكون لنمو الميكروبات. ٥ – **«والموقوذة»** الميتة من الطعن والضرب. ٦ – **«المتردية»** الميتة بسبب سقوطها من مرتفع. ٧ – **«والنطيحة»** الميتة

بسبب نطح حيوان آخر لها. ٨ - «وما أكل السبع». أى التى نهشها وحش ضار. واستثنى من كل ذلك ما يلحقه الناس ولا تزال فيه حياة وذكر اسم الله عليه قبل أن يموت من الأسباب المذكورة ويتم ذبحه. كما نهى عن أكل ما يذبح عند الأوثان وعن الاقتراع عند الأصنام بسهام للاستخارة. واستثنى من محرمات الأكل الاضطرار فى حالة الجوع التى تنذر بالهلاك بشرط أن يقتصر الأكل على مايدفع الهلاك.

وفى الآية جملتان عليهما إجماع بأنهما نزلتا بعرفة يوم الجمعة فى حجة الوداع وهما: **«اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا»** بل إن الإجماع أيضا على أنهما آخر ما نزل من القرآن الكريم. ومما يروى أن كعب الأحبار قال: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدا. يجتمعون فيه. فقال عمر بن الخطاب قد علمت اليوم الذى نزلت فيه. يوم جمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد. وقد لاتبدو الحكمة فى إيراد هذه الكلمات كجملة اعتراضية فى وسط آية تنص على هذه المحرمات. ولعل الوحى أراد بوضعها فى هذا المكان التأكيد على أن هذه المحرمات المنصوص عليها هى من تمام الدين وأن من خالفها فقد انتقص من دينه وانتقص من نعمة الله عليه.

ثم تعود الآيات لتستكمل بيان الحلال فى المأكل فى حالة الحيوانات المدرَّبة على الصيد مثل الكلاب والصقور:

«يسألونك ماذا أُحِل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علَّمتم من الجوارح مكلِّبين تعلمونهن مما علَّمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه. واتقوا الله إن الله سريع الحساب» (٤).

وقد تعددت الأقوال فى تفسير **«واذكروا اسم الله عليه»** فقيل يُذكر اسم الله حين إرسال الجوارح المعلَّمة حتى إذا أتت بها ميتة جاز أكلها وقيل يُذكر اسم الله حين أكلها وقيل إن كانت لا تزال بها حياة يذكر اسم الله عليها وتذبح.

وأخيرا أُحِلَّ طعام أهل الكتاب فذبائحهم حل للمسلمين إلاّ ما ورد نص بتحريمه مثل الميتة ولحم الخنزير:

«اليوم أحل لكم الطيبات. وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم...»

٤ - **إباحة الزواج من الكتابيات:**

«.... والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين» (٥).

ويرى بعض المفسرين أن حكمة هذا التشريع هى أن القرآن وقد قرر أنه مصدِّقٌ لما بين يديه من

الكتاب ومهيمن عليه فهناك وحدة تجمع بين المسلمين وأهل الكتاب ومن ثم أباح طعامهم وذبائحهم وأباح الزواج منهم بعكس المشركين والوثنيين.

٥ – في الوضوء والتيمم:

«يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين. وإن كنتم جنبا فاطَّهَّروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه. ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون. واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور» (٦ – ٧).

وقد كان الوضوء يمارس في وقت مبكر من العهد المكي لما رآه النبى من جبريل عليه السلام كما سبق أن ذكرنا ص ٤٦ وظلَّ الأمر كذلك طوال هذه المدة ثم نزل الوحي بآية الوضوء ليكون تسجيلا لهذه الفريضة وليضيف التيسير بالتيمم فى حالات الضرورة أو عند عدم وجود الماء.

٦ – حث على العدل في الحكم:

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله (قائمين بحقوقه) **شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم** (أى يحملكم بغضهم) **على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم»** (٨ – ١٠).

ولعل كفار قريش شعروا بالامتنان «لدين محمد» فهذه هى المرة الثانية التى يأمر أتباعه ألا يجعلوا كره قوم حائلا بينهم وبين إقامة العدل. إذ جاء نفس المعنى فى الآية ٢ من نفس السورة (ص ٦٩٦).

حماية الله المدينة أثناء عمرة الحديبية:

روى أن قبائل غطفان وأسد بتحريض من يهود خيبر أزمعوا غزو المدينة أثناء خروج المسلمين للعمرة إذ لم يبق فى المدينة إلا النساء والأطفال وذوو العذر من الرجال وهؤلاء لم يكونوا بالكثرة ولا القوة التى تُمكن من حماية المدينة من أى اعتداء، أما المخلفون والمنافقون فما كانوا ليهتموا بالدفاع عن المدينة ضد أى غزو إن لم يكونوا عونا للعدوان. وكان الموقف خطيرا. ولكن الله صرف نظر الأعداء وثبَّطهم. ولعلهم خشوا ما قد ينزله بهم المسلمون بعد عودتهم من الحديبية. ونزلت الآيات تَمُنُّ على المسلمين بهذا الفضل:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١١).

ب – عن اليهود وأهل الكتاب:

احتوت سورة المائدة علي عدة فقرات عن أهل الكتاب، ومعظمهم في ذلك الوقت من اليهود الذين تم إجلاؤهم عن المدينة فلجأوا إلى خيبر وفدك وغيرها من القرى على طريق الشام وراحوا يعادون المسلمين ويستَعْدون عليهم. أما النصارى فكان معظمهم في دولة الغساسنة على الحدود الشمالية الغربية للجزيرة العربية، ولم يكونوا يكيدون للمسلمين. كانت المسيحية تسيطر على الشام وفلسطين فكانت الدويلات العربية المسيحية تشعر أنها في أمان من الدين الجديد فلم تعاده. كما أن الصراع بين الروم والفرس جعل الجزيرة العربية القاحلة خارج دائرة اهتمام كل من الإمبرطوريتين ولعلهم كانوا يرون أن الصراع الدائر بين المشركين والمسلمين في صالحهم إذ يشغلهم عن الدويلات العربية الموالية لهما. ولكن الإسلام لم يكن ليسكت عن الممارسات الخاطئة لأهل الكتاب فنزلت الآيات فيها ما يتعلق بهم:

١ – تنديد بنقض اليهود لعهودهم:

وبيان أن هذا طبع متأصل فيهم بدءا بمخالفتهم لأمر نبيهم موسى بدخول الأرض:

«ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذُكِّروا ولا تزال تطَّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين» (١٢ – ١٣).

وقد سبق أن ذكرنا بالتفصيل بعثة الاستطلاع التي أرسلها موسى للإتيان بخبر الأرض التي سيدخلونها (الجزء الرابع ص ١٠٤٢ – ١٠٤٧) ونكوص بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة وكان ذلك نقضا لميثاقهم مع الله. ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد لنقض المواثيق إذ أن نقض المواثيق طبيعة متأصلة في نفسية الشعب اليهودي فلا غرابة أن يمارسوا نفس الشيء مع النبي والمسلمين. ويخبر الله نبيه أنه سيكشف له عن خياناتهم فلا يضرونه شيئا. وأُمر النبي أن يعفو عنهم.

٢ – نقض النصارى لعهودهم:

«ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون» (١٤).

وقد أرجع نقض العهد بالنسبة للنصارى إلى نسيانهم تعاليم دينهم فكان عقابهم أن تفرقوا

إلى طوائف وفرق كما سبق أن ذكرنا في الجزء السادس (ص ١٤٠)، وهو ما أدى إلى حروب ستظل قائمة إلى يوم القيامة. ومثال بسيط منها ما يجرى حاليا بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية. وسوف يُذكرهم الله يوم القيامة بخلافاتهم هذه والمفهوم بالطبع أنه سيجازيهم عليها.

٣ – دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان:

«يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم» (١٥ – ١٦).

والآيتان موجهتان إلى أهل الكتاب – اليهود والنصارى معا – وعباراتها واضحة وتدعوهم إلى اتباع النبى والكتاب الذي أنزل عليه لأنه نور ينير لهم طريقهم ويجنبهم العداوة والحروب التى أشارت إليها الآية السابقة. وهم كانوا ينتظرون النبى الخاتم ولكنهم أنكروه لما ظهر في غيرهم.

٤ – نفى ألوهية المسيح:

وهنا تتبدى لنا الكياسة التى تناول بها الإسلام العلاقات مع اليهود والنصارى إذ لم يكن من حسن السياسة استعداء جميع القوى في وقت واحد: المشركين من كفار مكة واليهود والنصارى إذ لو تكاتفوا جميعا لأمكنهم القضاء على الإسلام في مهده. وفى مبدأ الأمر حينما أعلن الإسلام معارضته لعبادة الأصنام وقف اليهود والنصارى على الحياد باعتبار أن تحريم عبادة الأصنام ركن من أركان دياناتهم ورجاء منهم أن العرب إذا تخلوا عن عبادة الأصنام فإنهم قد يستحسنوا الدخول في اليهودية أو النصرانية. إلا أن تخوف اليهود من قوة الإسلام دفع أحبارهم إلى التحريض على الإسلام والمسلمين. ولما انتقل المسلمون إلى المدينة بعد الهجرة بدت عداوة اليهود وأصبح كيدهم للإسلام سافرا فكان الرد على مؤامراتهم هو إخراجهم من المدينة. وكان النصارى في أثناء هذه المعارك على الحياد وقد ذكرنا سياسة المهادنة التى اتبعها الإسلام مع وفد نصارى نجران (ص ٥٢٨ و ٥٣٤) فكانت الآيات التى نزلت تركز على معجزة مولد المسيح وأنه روح الله وكلمته. وتذكر الرفع دون التعرض لمسألة الصلب. وكانت حماية النجاشي المسيحى للمسلمين المهاجرين إلى الحبشة شبه رسالة موجهة إلى باقى النصارى بالوقوف على الحياد.

إلا أنه – الآن – وقد قوى الإسلام وكثر مؤيدوه فقد حان الوقت لمواجهة النصارى بخطأ معتقدهم في ألوهية المسيح وبنوّته لله فنزلت الآيات الحالية تعلن بصراحة وبوضوح لا لبس فيه أن القول بألوهية المسيح كفر:

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن

يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير» (١٧).

٥ – نفي ادعاء اليهود والنصارى أنهم «شعب الله المختار» :

«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم. بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير»(١٨).

والمفهوم أن النبى حين كان يدعو اليهود والنصارى إلى الإسلام كانوا يردون عليه بأنهم شعب الله المختار وأنهم أحباء الله وفى منزلة أبنائه وأنهم بمأمن من عذابه فردت الآيات عليهم بقوة تبين لهم أنهم ليسوا إلا أناسا كسائر الخلق يغفر لهم إن شاء ويعذبهم إذا شاء. وقد سبق أن نعت عليهم سورة الجمعة (آية ٦ ص ٥٨٢) ادعاؤهم أنهم أولياء الله من دون الناس: **«قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين»**. وقولهم فى سورة البقرة (الآية ٨٠ ص ٤٥٠) **«لن تمسنا النار إلا أياما معدودات»** وفى الآية ١١١ (ص ٤٥٥) **«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى»**.

٦ – النبي مرسل لأهل الكتاب أيضا:

«يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيئ قدير» (١٩).

فقد جاء رسول الله بعد حوالى ستة قرون من ميلاد عيسى ابن مريم أى بعد فترة وانقطاع من مجيء الرسل ليجدد عهد الله مع البشر ويبين لهم حدوده ويدعوهم إلى الصراط المستقيم حتي لا يحتجوا بأنه قد طال عليهم الأمد ولم يأتهم رسول فأسقط الله حجتهم وأرسل النبى الخاتم بشيرا ونذيرا.

٧ – نكوص بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة:

وفى هذه الفقرة تفصيل ما ذكر فى الآية ١٣ (ص ٦٩٩) عن نقضهم الميثاق مع الله:

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين. ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلي الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسي إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض. فلا تأس على القوم الفاسقين» (٢٠ – ٢٦).

وقد سبق أن ذكرنا شرح هذا الموقف فى الجزء الرابع (ص ١٠٤٧ – ١٠٥١) وقد جاءت

هنا للتدليل على ما درج عليه بنو اسرائيل من عصيانهم لنبيهم موسى، وتزخر كتب التاريخ بشواهد على عصيانهم أنبيائهم العديدين الذين جاءوا بعد موسى انتهاء بعيسى فليس غريبا أن يعصوا رسول الله حين يدعوهم إلى الإسلام.

٨ – قصة ابني آدم كمثال للاعتداء:

«واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يديَ إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء (تحمل) بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت (زيّنت) له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة (جثة) أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخي فأصبح من النادمين. من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون» (٢٧ – ٣٢).

وكثير من المفسرين يرون أن الضمير في **«واتل عليهم»** عائد على اليهود لتذكرهم بما فعله الحسد في ابني آدم فجعل الأخ يقتل أخاه ثم يندم على ما فعل. وكأن الآيات تحذرهم من أن يجعلهم حسدهم للعرب – لظهور النبي فيهم – دافعا لاتخاذ موقف معاد منه وعدم الإيمان به. وفي الآيات حث على احترام النفس البشرية لأن الاعتداء على نفس واحدة كأنه اعتداء على نفوس جميع البشر. ومن حماها وحافظ عليها فكأنما حفظ الناس جميعا. وفي حديث رواه ابن كثير عن ابن مسعود: لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل.

٩ – جزاء الإفساد في الأرض:

«إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم (من قبل تنفيذ العقوبة) **فاعلموا أن الله غفور رحيم»** (٣٣ – ٣٤).

ويرجح المفسرون أنها نزلت في حادثة نكث فيها اليهود ومظاهريهم من المشركين لعهد سلام مع النبي وعدَوْا على بعض المسلمين وقتلوهم، فخيّرت الآيات النبي في طريقة الاقتصاص منهم، حسب جرمهم وجاءت الخيارات في صيغة تشريع يصلح لكل زمان ومكان ولكل ما يوصف بأنه محاربة لله ورسوله أو إفساد في الأرض. وقالوا إن القتل لمن قتل، والصلب لمن غصب المال وقتل، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف لمن قطع الطريق وغصب المال ولم يقتل، والنفي إذا أخافوا فقط (المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص ١٥١).

حث المؤمنين على فعل ما فيه رضا الله:

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله (باجتناب نواهيه وإطاعة أوامره) وابتغوا إليه الوسيلة (بفعل الطاعات والخيرات) وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون» (٣٥).

والآية تحث المؤمنين على خشية الله وإطاعة أوامره وفعل ما يقرب من ثوابه والجهاد في سبيله فهذا طريق الفلاح.

جزاء الكافرين:

«إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم» (٣٦ - ٣٧).

والآية فيها تصوير لمصير الكافرين في الآخرة فهم مخلَّدون في النار ويتمنون الخروج منها بأى ثمن. وحتى لو كان لهم ضعف ما فى الأرض جميعا ليقدموه فدية عن أنفسهم فلن يقبل منهم.

حد السرقة:

«والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله. والله عزيز حكيم. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم. ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير» (٣٨ - ٤٠).

وفى الوصايا العشر التى أنزلت على موسى وصية تنهى عن السرقة عموما. وكانت سرقة المواشى هى الشائعة. وكان حد السرقة في الشريعة الموسوية أن يَرُدَّ السارق خمسة أضعاف ما سرق من بقر أو أربعة أضعافه إن كان غنما (قاموس الكتاب المقدس. ص ٤٦٥). أو ثمن ذلك ويتحتم تنفيذ الحكم ولو أدى إلى بيع ما فى دار السارق من متاع فإن لم يكن كافيا بيع السارق نفسه. وإن لم يكن له مال مفرز تم استرقاق السارق لمن سُرق أى ألحق به عبدا كما حدث فى قصة يوسف حينما اتهم أخاه الأصغر - بنيامين - بسرقة صواع الملك ليأخذه فى كنفه وإن بدا عبدا «قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين» (٧٥ - يوسف). ثم جاءت الشريعة الإسلامية فجعلت حد السرقة هو قطع اليد اليمنى. والمشهور أن يكون القطع عند الرسغ. أما الشيعة فيقطعون عند أصول الأصابع ويتركون الكف والإبهام.

جـ - حث للجميع على الحكم بما أنزل الله:

تركز الآيات من ٤١ - ٥٠ على الحكم بما أنزل الله وتدعوا أهل الكتاب إلى ذلك. والدعوة تشمل اليهود والنصارى إذ كانوا قد عطلوا كثيرا من أحكام شرائعهم كما أن أحبار اليهود

القدامى كانوا قد أخفوا بعض أحكام التوراة ووضعوا أحكاما من عندهم بدلا منها لهوى فى نفوسهم أو إرضاء لبعض ملوكهم أو تحت إغراء من المال والسلطة. وكانوا يسارعون إلى الكفر بما فى كتبهم ويحكمون بغيره. فنزلت الآيات تحث على العودة إلى ما أنزل الله والحكم به سواء بالنسبة لليهود أو النصارى أو المسلمين.

١ - حث اليهود على الحكم بما أنزل الله:

«يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا. سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يُحَرفون الكَلِمَ (الأحكام التى جاءت فى التوراة) **من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهِّر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. سمّاعون للكذب أكّالون للسُحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين. وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين»** (٤١ - ٤٣).

والآيات فيها تسرية عن النبى إذ لا موجب لحزنه من المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون فى حين أن قلوبهم غير مؤمنة ويسارعون فى إظهار الكفر والشك. ولا موجب للحزن من اليهود الذين يسمعون ويصدقون الأكاذيب التى ينقلها إليهم أقوام آخرون ويحرفون الكلام عن معانيه الصحيحة ويشيرون على الناس بأن يقبلوا حكم النبي إذا قضى بكذا وعدم قبوله إذا قضى بكذا تنفيذا لأهوائهم. وتخبر النبى أن الله قضى عليهم بالضلالة ولهم عذاب عظيم لأنهم يسمعون الكذب ويتناقلونه ويأكلون المال الحرام «السحت». ثم تخبر الآيات النبى أن له الخيار إذا احتكموا إليه فى أمر ما فله أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم. وإذا حكم بينهم فليحكم بالعدل. ثم يأتي سؤال استنكاري على سبيل التقريع لهم عن سبب احتكامهم إلى النبى وعندهم التوراة فيها حكم الله فيما يريدون أن يتقاضوا فيه ولكنهم لا يقبلون به بل يريدون حكما يتفق مع هوى نفوسهم. ويقول الألوسي (تفسيره جـ ٦ ص ١٣٢) إن الآية نزلت بصدد احتكام اليهود إلى النبى فى رجل منهم زنا بعد إحصانه وجعلوا من هذا الاحتكام اختبارا للنبى وقالوا إن حكم بالجلد فهو سيد فى قومه وليس بنبى أما إن حكم بالرجم فهو نبى. فلما عرضت القضية على النبى ناشد كبير أحبارهم أن يخبره بما فى التوراة الأصلية من حكم. وبعد مناشدات عديدة أقر الحبر بأن حكم التوراة هو الرجم فقال لهم إن ذلك أيضا هو حكم الإسلام وتم تنفيذ الحكم.

وتستمر الآيات توضح لليهود أن التوراة فيها حكم ما بينهم:

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروحَ قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» (٤٤ – ٤٥).

والآيات تقرر أن الله قد أنزل التوراة فيها هدى ونور وأوجب على أنبياء بنى إسرائيل ورجال الدين وفقهائهم الحكم بما جاء فيها إذ أنهم بما نالوا من علم ووصلوا إليه من مرتبة قد أصبحوا من حفظتها وعليهم أن لا يخافوا أحدا غير الله ولا يبيعوا آياته وينحرفوا عن شرائعه فمهما عرض عليهم من مال فهو ثمن بخس. ثم تقرير بأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر. ثم يذكر أن الله قد كتب على اليهود فى التوراة قصاص المثل. وأن العفو جائز. ثم تكرار أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم. وقد ورد فى التوراة (خروج – ٢١ : ٢٤): نفس بنفس وعين بعين وسن بسن ويد بيد ورجل برجل وكىٌّ بكىٍّ وجراحة بجراحة ورضٌّ برضٍّ. وكذلك ورد (لاويين ٢٤ : ٢١): من قتل إنسانا يُقتل قتلا. وأى إنسان أحدث عيبا فى قريبه فليصنع به كما صنع. الكسر بالكسر والعين بالعين والسن بالسن. كالعيب الذى يُحدثه فيه الإنسان يحدثه معه.

٢ – حث النصارى على حكم بالإنجيل:

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» (٤٦ – ٤٧).

والآيات تفيد أن الله قد أرسل عددا من الأنبياء إلى بنى اسرائيل وجاء بعدهم أى فى أثرهم عيسى ابن مريم مصدِّقا ومؤيدا للتوراة. والإنجيل الذى أتى به فيه أيضا هدى ونور. وتحث النصارى على أن يحكموا بما أنزل الله فيه ويطبقوا شرائعه وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق خارج عن أمر الله.

٣ – حث النبى على الحكم بما أنزل الله:

وبالمثل أُمر النبى أن يحكم بين الناس – مسلمين وغير مسلمين – بما أنزل الله فالقرآن يصدِّق ما قبله من الكتب ومهيمن عليها:

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا

فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (أي يؤمنون بالشرع ويذعنون للحق)» (٤٨ – ٥٠).

والآيات تخبر أن الله أنزل إلى النبى القرآن وهو الكتاب الكامل ملازما الحق فى كل أحكامه وأنبائه. مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية وتأمر الآيات النبى إذا تحاكم إليه أهل الكتاب أن يحكم بينهم بما جاء فى القرآن ولا يتبع أهواءهم. كما أن الله قادر على أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة ولكن شاءت إرادته أن يجعل لكل أمة شرائع ومنهاجا حسب ظروفهم وزمانهم. ثم يأتى حث للنبى أن يحكم بينهم بما أنزل الله وتحذره من أن يجعلوه ينحرف عن بعض ما أنزل الله ويتساهل معهم. فإن أعرضوا عن حكمه فذلك لأن الله يريد أن يعذبهم. ثم سؤال إلى المتحاكمين إلى النبى فيه توبيخ عما إذا كانوا يريدون منه الحكم بأحكام الجاهلية. ثم سؤال ثان لتقرير أن شريعة الله هى أحسن ما يُحكم به.

د – عن علاقة المسلمين بأهل الكتاب:

والآيات تفصِّل ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – من خلال النقاط التالية:

١ – نهى عن موالاة اليهود والنصارى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لا يهدى القوم الظالمين. فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم (يشتدون فى موالاتهم) **يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة. فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم. حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين»** (٥١ – ٥٣).

والآيات تنهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وأن من يتولاهم من المسلمين يصبح كأنه واحد منهم ويصبح فى عداد الظالمين. ثم يأتى تنديد ببعض ضعاف الإيمان الذين يشتدون فى موالاتهم ويقولون إنهم يفعلون ذلك حماية لأنفسهم فى حالة قيام حرب معهم. وترد عليهم الآيات بأنه فى حالة انتصار المسلمين سيندمون على ما أسرُّوا فى أنفسهم. ويومئذ يوبِّخهم المؤمنون ويسألونهم عن جدوى الأيمان المغلظة التى أقسمها لهم هؤلاء أنهم معهم. وتجيب الآيات على هذا التساؤل بأن أعمالهم قد ذهبت سدى وأصبحوا خاسرين.

٢ – تحذير من الارتداد عن الإسلام:

وتحذر الآيات من أن شدة الموالاة لليهود والنصارى قد تؤدى إلى الافتتان بدينهم والارتداد عن الإسلام:

«يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» (٥٤).

٣ – إعادة النهى عن موالاة اليهود والنصارى والكفار:

ورداً على من قالوا «نخشى أن تصيبنا دائرة» تذكر الآيات أن على المؤمنين أن يعلموا أن وليهم هو الله ورسوله وإخوانهم المؤمنون الذين يؤدون ما عليهم من صلاة وزكاة وهؤلاء هم حزب الله وهم الغالبون. ثم تكرر الآيات النهى عن موالاة أهل الكتاب والكفار وخاصة الذين يهزأون من الإسلام وتعاليمه ويتغامزون إذا قام المسلمون إلى الصلاة:

«إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين. وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» (٥٥ – ٥٨).

٤ – سبب عداوة اليهود للمسلمين:

وكان اليهود هم الأكثر عداوة للمسلمين وأكثر تأليبا للأعداء عليهم فراحت الآيات تستنكر موقفهم هذا بسؤال عما إذا كان حقدهم يرجع إلى أن المسلمين قد آمنوا بالله وبما أنزل من كتب سابقة ويعقب ذلك سؤال يخبرهم بأن أجدادهم هم الأولى بنقمتهم لأنهم فعلوا ما أغضب الله فجعل منهم القردة والخنازير وفى هذه إفادة أن المقصود بـ «أهل الكتاب» هم اليهود دون النصارى.

«قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون. قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» (٥٩ – ٦٠).

٥ – فضح نفاق بعض اليهود:

«وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون. وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون. لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون» (٦١ – ٦٣).

والآيات تندد بما كان اليهود يفعلونه من حضورهم إلى مجلس النبى وادعائهم أنهم قد آمنوا فى حين أنهم قد دخلوا كفارا وخرجوا كفارا أيضا والله يعلم ما تكنه صدورهم، ثم إن هذا ليس بمستغرب منهم فالشر متأصل فيهم فهم يسارعون فى ارتكاب الإثم والعدوان وأكلهم المال الحرام دون وازع من ضمير وبالسوء ما يعملون. وحتى أحبارهم وعلماؤهم لا ينهونهم عن هذه الأفعال فبئس ما صنع هؤلاء أيضا. ومن فضائل أمة محمد أنهم **«يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»**. وفى حديث أخرجه الإمام أحمد أن النبى قال: ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع ولم يغيِّروا إلا أصابهم الله منه بعذاب. وحديث رواه الترمذي: قال رسول الله: والذى نفسى بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعُنَّهُ فلا يستجيب لكم.

٦ – اتهام اليهود لله بالتقتير عليهم:

كان اليهود قد رأوا أن المهاجرين قدموا إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئا فقاسمهم الأنصار معيشتهم وكان اليهود وقتئذ هم مالكو اقتصاد المدينة وأموالها وتجارتها. ورأوا ما صار إليه المهاجرون لمهارتهم فى التجارة فأغناهم الله من فضله. كما أصابوا كثيرا من الغنائم فى غزواتهم فى حين أن اليهود – بعداوتهم للمسلمين – أُجبروا على الجلاء عن المدينة فساءت أحوالهم الاقتصادية وزاد حقدهم على المسلمين بل وامتد غضبهم إلى ربهم ونسبوا إليه التقتير عليهم فسقطوا فى هوة الكفر:

«وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا. وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين» (٦٤).

ولا يخفى ما فى قولهم هذا من سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى. وزاد غضبهم لما رأوا الإسلام ينتشر حثيثا. وقادهم حقدهم إلى محالفة قريش وتأليب القبائل المشركة على المسلمين كما فعلوا فى غزوة الخندق وحاولوا إشعالها حروبا على النبى وعلى المسلمين ولكن الله أفشل كيدهم وسيظلون يؤلبون بعض الأمم على بعض ويثيرون الحروب فى كل مكان وينشرون الفساد فى الأرض. وهناك من المؤرخين من يرى أن أصابع اليهود كانت وراء الحروب الكثيرة التى عمت أوربا فى القرنين الأخيرين وأنهم هم مدبِّرو الثورة الفرنسية ودورهم فى وضع أسس الشيوعية العالمية وقيام الثورة البلشفية فى روسيا ونشر الإلحاد والفساد فى الأرض غير خاف على أحد. بل إن الأصابع تشير إلى دور لهم فى إشعال الحرب العالمية الأولى والثانية. وسيظل هذا دأبهم إلى يوم القيامة.

هـ - دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام:

وقد ركزت الآيات لبلوغ هذا الهدف على عدة نقاط:

١ - ما ينتظر أهل الكتاب من خيرا لو آمنوا:

«ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون» (٦٥ - ٦٦).

وهذا تقرير بأن أهل الكتاب لو آمنوا برسالة النبي واتقوا الله لنالوا رضا الله ولأدخلهم جنات النعيم. ولو أنهم - على أقل تقدير - طبقوا التوراة والإنجيل تطبيقا صحيحا واتبعوا الشرائع التي أنزلت على أنبيائهم لآتاهم الرزق وافرا من كل جهة ومن كل سعي يسعونه ولكن القليلين منهم هم الذين يسيرون بقصد واعتدال وتعقل وأكثرهم أعمالهم سيئة ومنحرفة عما أنزل الله.

٢ - دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان:

وتمضي الآيات وفيها نداء للنبي وأمر بأن يستمر في تبليغ ما أنزله الله إليه وإخباره بأن أي تقصير في ذلك يجعله غير مبلغ لرسالة الله. وعليه ألا يخشى في إبلاغ الدعوة أحدا لأن الله سيعصمه ويحميه من أي أذى ولن يوفق الكافرين فيما يكيدون. ثم تعيد الآيات دعوة أهل الكتاب إلي تطبيق التوراة والإنجيل تطبيقا سليما. ثم تكرر أن ما أنزله الله علي نبيه محمد سيزيد أهل الكتاب إعراضا وبعدا عن الله فلا ينبغي أن يحزن أو يعبأ بموقفهم هذا:

« يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين. قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم. وليزيدنّ كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين» (٦٧ - ٦٨).

ثم تقرر الآيات أن رضا الله لا يُنَال إلا بالإيمان بالله وباليوم الآخر وبالعمل الصالح سواء كان الفاعل مسلما أو معتنقا لليهودية أو النصرانية أو كان من الصائبة:

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٦٩).

٣ - نقض بنى إسرائيل لميثاقهم مع الله:

«لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون. وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمّوا ثم تاب الله عليهم ثم

عموا وصمّوا كثير منهم والله بصير بما يعملون» (٧٠ - ٧١).

والآيات توضح أن الله أخذ على بنى إسرائيل الميثاق والعهد بأن يسمعوا ويطعيوا رسله ولكنهم نقضوا عهد الله فكانوا كلما جاءهم رسول بما لا يحبون وبما لا يتفق مع هوى نفوسهم كذبوه أو قتلوه، وظنوا أنهم لم يرتكبوا إثما ولن يتعرضوا لبلاء الله وفتنته فظلوا في غيِّهم سادرين عَميا عن رؤية الحق وصُمّا عن سماعه حتى عاقبهم الله فثابوا إلى رشدهم وتابوا فتاب الله عليهم ولكن كثيرا منهم عاد إلى سابق فعلهم من التعامي عن رؤية الحق والتصامم عن سماعه. والله بصير بما يعملون ومحصيه ومُجازيهم به.

٤ - تكفير من قالوا بألوهية المسيح:

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد.وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبيِّن لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم. قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلُّوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل» (٧٢ - ٧٧).

والآيات واضحة وصريحة في تكفير من ادعوا ألوهية المسيح مع أن المسيح قال لهم اعبدوا الله - ربه وربهم - وقد ذكرنا في الجزء السادس (ص ٥١) تفسير قول عيسى «أبى الذى فى السموات» وذكرنا أيضا (١٣٦ - ١٤٨) خلافات الفرق المسيحية حول طبيعة المسيح. كما ذكرنا أن بولس هو الذى أدخل التثليث إلى المسيحية (ص ١١٨ - ١١٩). وقد جاء أول تكفير لمن قالوا بألوهية المسيح فى الآية ١٧ من السورة الحالية (ص ٧٠٠) في قوله تعالى: **«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا»**. ثم تعود الآيات فتنهى النصارى عن الغلو في دينهم والغلو فى حبهم للمسيح فيخرجوه عن طبيعته البشرية وتنهاهم عن سلوك قوم قبلهم اتبعوا أهواءهم فضلُّوا عن الطريق القويم وأضلوا من غيرهم الكثير وازدادوا ضلالا وبعدا عن السبيل المستقيم.

٥ - تنديد بموالاة بنى إسرائيل الكفار:

«لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود (أى فى الزبور) وعيسى ابن مريم (أى فى الإنجيل) ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا

يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون» (٧٨ – ٨١).

والآيات تشير إلى ضلال بعض الأجيال القدامى من بنى إسرائيل فاستحقوا اللعنة على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم على شريعة الله وبسبب أن بعضهم كان يسكت عما يرتكبه البعض من آثام ومنكرات مثل الإشراك بالله أو عبادة البعل أو مخالفة الشريعة. كما أن كثيرا من اليهود المعاصرين للنبى كانوا يوالون الكفار ويؤلبونهم على المسلمين وهو يتنافى مع ادعائهم الإيمان فاستحقوا سخط الله عليهم وكان جزاؤهم الخلود فى النار. ولو كانوا مؤمنين حقا ما اتخذوا من الكفار أولياء ولكنهم فى حقيقتهم فاسقون.

٦ – عداوة اليهود والمشركين للمسلمين ومودة النصارى:

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» (٨٢ – ٨٦).

والآيات تقرر أن أشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود والمشركون. أما النصارى فهم أقرب مودة لأنهم متواضعون لا يستكبرون عن الحق ولأن فيهم قسيسين ورهبانا وعند سماعهم آيات القرآن التى تنزل على الرسول تخشع قلوبهم وتدمع أعينهم تأثرا مما يسمعونه ويعلمون أنه حق. وهم – وإن لم يعلنوا إسلامهم – يدعون الله أن يكتبهم مع المؤمنين ويطمعون أن يجعلهم الله من زمرة عباده الصالحين. وقد أثابهم الله جنات الخلد جزاء إحسانهم. أما الذين كفروا وكذَّبوا فهؤلاء من أصحاب الجحيم.

وبهذه الآيات تنتهي هذه المجموعة من الفقرات التي ركزت على أهل الكتاب عامة وعلى اليهود بصفة خاصة ثم تأتى.

و – تشريعات في الدين:

وهى استكمال لما ورد سابقا من تشريعات كثيرة ترسى قواعد الدين:

١ – نهى عن تحريم الطيبات:

« يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» (٨٧ – ٨٨).

وقيل إن بعض المسلمين – بعد نزول الآية السابقة التي تمدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهبانا – حاولوا تقليدهم فحرموا على أنفسهم النساء والطيِّب من الطعام وتفرغوا للعبادة من صلاة وذكر وصوم فبلغ ذلك النبي وكرهه وقال لهم: إنما هلك من كان قبلكم بالتشدد، شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم. وإني لأقوم وأنام وأصوم وأفطر وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقال الذين حرَّموا على أنفسهم الطيبات: ما نصنع يا رسول الله بأيماننا التي حلفناها على ذلك فنزلت الآية:

٢ – كفارة الإيمان:

«لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان (حلفتم لتأكيد النية) **فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون»** (٨٩).

وفي الآيات بيان أن الله لا يؤاخذ على ما يمتزج بالكلام العادي من لغو الأيمان وإنما يؤاخذ بالأيمان التي يُعزم بها على فعل أمر أو الامتناع عن عمل ثم بدا له أن يرجع عنها فعليه أن يقدِّم كفارة. على أنه الأولى أن يحفظ المرء أيمانه. وقد سبق في سورة البقرة (آية ٢٢٤ ص ٤٨٥) ورود مثل هذا المعنى في قوله تعالى **«ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا ....»** وأبيح التحلل من اليمين بالكفارة كما جاء في سورة التحريم (الآية ١ ص ٦٦٧) **«قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم»**. وفي حديث عن أبي موسى. قال النبي: والله إن شاء الله أن أحلف على يمين فأرى خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها . وحديث آخر: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل. وبالطبع لا يجوز لامرىء أن يحلف للامتناع عن خير أو لعمل فيه شر. وما يحلفه المرء كذبا على أمر مضى يسمى يمين الغموس وهو من الكبائر لحديث النبي «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس». وحديث آخر «من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أخيه لقي الله وهو عليه غضبان».

٣ – تحريم الخمر الميسر:

«يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين» (٩٠ – ٩٢).

ويلاحظ التدرج في تحريم الخمر. وكان عمر بن الخطاب قد قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر شافيا. فنزلت الآية ٢١٩ من سورة البقرة (ص ٤٨٤) **«يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما**

إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما. ثم نزلت الآية ٤٣ من سورة النساء (ص ٦١٧): «**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**» فضيقت من الوقت المتاح لشرب الخمر ولكنها تركت الباب مفتوحا أمام شاربها. وقيل قال عمر بن الخطاب مرة ثالثة: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية الحالية من سورة المائدة. فلما قرأها النبى على المسلمين حتى قوله تعالى: «فهل أنتم منتهون؟» قالوا: انتهينا. انتهينا. وهناك أحاديث كثيرة في الخمر، منها: ما أسكر كثيره فقليله حرام. وحديث آخر: كل مسكر خمر وكل مسكر حرام. وحديث ثالث: ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها.

وقد قرنت الخمر بالميسر والأنصاب التى كان الشركون يقيمون عندها طقوسهم الدينية ويقربون قرابينهم عندها دلالة على شدة تحريمها. ويرى علماء اللغة أن التجنب «فاجتنبوه» أبلغ فى الدلالة على التحريم لأنها تعنى تجنب كل ما له صلة بالخمر مثل صنعه وبيعه وشربه وخدمة شاربه.

وقيل إن بعض أصحاب النبى سألوه عن حكم الذين شربوا الخمر قبل تحريمها فنزلت الآية:

«**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين**» (٩٣).

وتكررت كلمة «اتقوا» ثلاث مرات قال الطبرى إن الأولى تعنى تلقى أمر الله بالقبول والتصديق، والثانية تعنى الثبات عليه وعدم تبديله، والثالثة تعنى التقرب إلى الله بالنوافل. وجاء فى المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص ١٦٤) أن الأولى تقصد ما طعموه من المحرمات قبل علمهم بتحريمها والثانية تقصد تجنبهم لها بعد علمهم بتحريمها والثالثة تعنى دوامهم على خوفهم من الله بإحسان العمل.

٤ – الصيد بالنسبة للمُحرِم:

«**يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُم ومن قتله منكم متعمدا فجزاءٍ مثلُ ما قتل من النَّعَمِ يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغَ الكعبة أو كفارة طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام. أُحِل لكم صيدُ البحرِ وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون**» (٩٤ – ٩٦).

والآيات تنبه المؤمنين إلى أن الله سيختبرهم فيجعل فى متناول يدهم ورماحهم بعض الصيد حتى يعلم الله من يطيع أوامره ومن عصى فله عذاب أليم، ثم يأتى نهى عن قتل الصيد فى حالة الإحرام وتشريع الكفارة لمن يفعل ذلك متعمدا وهو تقريب هدى من الأنعام معادل لما قتل

يذبح عند الكعبة أو يهدى للفقراء عند الكعبة أو إطعام بعض المساكين أو صيام بعض الأيام عقابا له وليشعر أنه قد اقترف محظورا. أما صيد البحر فهو حلال للمحرم. والنهي هو في صدد صَيْدِ ما يؤكل من الحيوان وأباحوا قتل الحيوان المؤذى استنادا إلى حديث رواه البغوى قال النبى: خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور. على أنه لا بأس من أكل صيد البر إذا لم يَصِده بنفسه أو يُصَدْ له استنادا إلى حديث عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله يقول: صيد البر لكم حلال وأنتم حرم مالم تصيدوه أو يُصد لكم. أما صيد البحر فهو حلال للمحرم سواء خرج من الماء حيا أو ميتا أو قذفه البحر إلى الساحل. والأنهار فى حكم البحار.

٥ – موقف الإسلام من بعض تقاليد الحج:

كان العرب قبل الإسلام يمارسون فى الحج مناسك وتقاليد قالوا إنها مأثورة عن إبراهيم عليه السلام وبعضها أضافوه لما رأوا فيه من مصلحة إذ كان الحج وسيلة لاجتماعهم في مناسك واحدة ومكان واحد على اختلاف قبائلهم ومعبوداتهم. وجعلوا منها هدنة تتوقف فيها الحروب ويسود فيها الأمن والسلام في تلك الربوع الشاسعة التي تخلو من حكومة مركزية أو سلطة نافذة. فيتاح فيها تبادل التجارة مما يعود على الجميع بالخير. وجاء الإسلام وأقر كثيرا من هذه المناسك وعدَّل بعضها:

«جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس (قوام حياة الناس) **والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شيء عليم. اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم. ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون. قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تُفلحون»** (٩٧ – ١٠٠).

وكان الحج اختياريا. فلما نزلت الآية ٩٧ من سورة آل عمران (ص ٥٤١) **«ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا»** صار الحج ركنا من أركان الإسلام. وسأل بعضهم رسول الله قالوا: يا رسول الله فى كل عام؟ فسكت. فأعادوا السؤال. فقال لا. ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه. ثم نزلت الآية تنهى المسلمين عن سؤال النبى عن أمور لا ضرورة لها لأن الإجابة قد تأتى بتشريع جديد لايطيقونه ولو لم يسألوا لتجاوز الله عنه. وتخبرهم الآيات أن أقواما قبلهم سألوا أنبياءهم عن أشياء فلما نزل تشريع فيها لم يمتثلوا له ولم يطبقوه:

«يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» (١٠١ - ١٠٢).

٦ - تحريم بعض عادات الجاهلية:

«ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون» (١٠٣ - ١٠٤).

من المعروف أن الراعى يفضل الإناث من الحيوان لأنها هى التى تلد وعن طريقها يكثر القطيع وتزداد ثروة صاحبه والذكور للأكل ولا يترك منها إلا ما يكفي لإخصاب الإناث. إلا أنه إذا كبرت الإناث في السن ذُبحت وأُكلت واستثنى العرب من ذلك الناقة أو الشاة التى تكثر من ولادة الإناث تكريما لها فتعفى من الذبح وتوهب لآلهتهم فلا يشرب لبنها إلا ضيف ولا تُمنع عن ماء ولا كلأ ولا تحمل أثقالا ولا تُركب وادَّعوا أن ذلك من شعائر الدين الحنيف. فى حديث أخرجه عبد الرزاق عن زيد بن أسلم أن النبى قال: إنى لأعرف أول من سيَّب السوائب ونصب النصب وأول من غيَّر دين إبراهيم. قالوا ومن هو يا رسول الله؟ قال: عمرو بن لحى أخو بني كعب. لقد رأيته يجر قصبه فى النار يوذى أهل النار ريح قصبه. وإنى لأعرف أول من بحر البحائر. قالوا من هو يا رسول الله؟ قال رجل من بنى مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرَّم ألبانهما وظهورهما وقال هاتان لله. وقد نزلت الآيات السابقة تُسفِّه هذه العادات لما فيها من تحريم الانتفاع بما أحل الله وادعاؤهم أنها من شريعة دين إبراهيم.

وكان أهل الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن كلها إناث شقُّوا أذنها أى بحروها وسميت **«بحيرة»** وتركوها ترعى ولا يستعملها أحد فى ركوب أو نحو ذلك. وكانوا لا يُحلون لحمها ولبنها للنساء. فإن ماتت - من كبر السن - اشترك الرجال والنساء فى أكلها. أما **«السائبة»** - من فعل ساب أى ترك وأهمل - فهى الناقة تلد عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تُركب ولا يُجَز وبرها ولا يُشرب لبنها إلا ضيف ولا تُمنع عن ماء ولا كلأ. **والوصيلة** الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين (**العناق** الأنثى من ولد المعيز والغنم) وكانت الذكور تذبح. فإذا ولدت بعد ذلك عناقا وجديا قيل وصلت أخاها فلا يذبح ولا يشرب لبن الأم إلا الرجال ويحرم على النساء. **و«حام»** من الفعل «حمى» أى منع وهو الفحل إذا لقح ولد ولده فيقولون قد حمى ظهره فيُهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى. وقال آخرون إنه الفحل يعيش عشر سنين عند صاحبه.

وقد ألغى القرآن عادات الجاهلية هذه لأنه ليس من ورائها فائدة يقوم بها أمر الناس بل فيها تعطيل لبعض ما يُنتفع به. ثم تنعى الآيات على الكفار إعراضهم عما أنزل الله واكتفاءهم بما وجدوا آباءهم يفعلونه من عادات حتى لو كان آباؤهم على ضلال.

وبعد ذلك تحث الآيات المؤمنين على إلزام أنفسهم بطاعة الله وأنه لا يضيرهم ضلال غيرهم ما داموا هم على الهدى فالمرجع إلى الله وحده فيخبر الناس بأعمالهم والمفهوم أنه يجازي بها:

«يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون» (١٠٥).

٧ – تشريع بشأن وصية المتوفى:

«يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين. فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين. ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين» (١٠٦ – ١٠٨).

وفي الآيات أمر للمسلمين إن كانوا في سفر بعيد وشعر أحدهم بقرب أجله فعليه أن يشهد على وصيته وتركته شاهدين عدلين من المسلمين أو من غير المسلمين. فإذا توفي الموصي جاء الشاهدان ليسلِّما لأهله تركته أو يُبلِّغا وصيته. وإن ارتاب الأهل في صحة أقوالهما فلهم أن يطلبوا منهما يمينا على صدقهما وعدم كتمانهما شيئا لمنفعة خاصة أو لصالح قريب لهما ويحجز الشاهدان ليؤديا اليمين والشهادة بعد صلاة لتكون أمام جمع من المصلين. فإذا ظهر أنهما كاذبان بأن وجد عندهما مثلا شيئا من تركة الميت وادعيا أنهما ابتاعاه منه أو أوصى لهما به فيصح أن يتقدم اثنان من أولياء الميت ويقسمان بالله أن شهادتهما أصدق من شهادة الشاهدين الأولين وأنهما لم يتعديا الحقيقة وحينئذ تقبل شهادتهما وترد الشهادة الأولى. وفي هذا حث للشهود على الالتزام بالصدق خشية التكذيب والفضيحة من جراء رد شهادتهم. ثم تأتي دعوة للمسلمين على التزام تقوى الله في حقوق بعضهم وأن يسمعوا ويطيعوا أوامره فإن الله لا يوفق الفاسقين.

ثم يأتي تذكير بيوم القيامة وإخبار بسعة علم الله:

«يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم. قالوا لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب» (١٠٩).

فمع علم الرسل بما أجابهم به قومهم إلا أنهم – تواضعا وخشوعا لله ويقينا منهم أن الله يعلم الإجابة قبل أن يسألهم – فإنهم يرجعون العلم كله لله سبحانه وتعالى. ولعل هذه الآية قصد بها حث الشهود في الآية السابقة على التزام الصدق في الشهادة. كما أنها قد تكون تمهيدا للانتقال إلى الموضوع التالي الخاص بعيسى ابن مريم.

معجزات عيسى عليه السلام:

«إذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتُبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين. وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون. إذ قال الحواريون يا عيسى ابنَ مريم هل يستطيع ربك أن يُنَزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابنُ مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني مُنَزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين» (١١٠ - ١١٥).

وجمهور المفسرين يعتقدون أن الله أجاب طلب الحواريين وأنزل عليهم المائدة وأفاض بعضهم في وصف ما نزل بها من طعام من فاكهة ولحم طير.. ويرى آخرون أن المائدة لم تنزل لأن الحواريين خافوا من إنذار الله بالعذاب إذا لم يؤمنوا بعد إنزالها فسحبوا طلبهم.

تنديد باعتقاد النصارى بألوهية المسيح:

«وإذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحق. إن كنت قلتُه فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاَّم الغيوب ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم. قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقُهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم. لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير»

(١١٦ - ١٢٠).

وفي هذه الفقرة الخاتمة للسورة تنديد بعقيدة النصارى بألوهية عيسى وأمه وتبرئته من هذا الإدعاء وتحميل مسئوليته على المعتقدين به وتقرر أن عيسى لم يقل إلا ما أمره به الله تعالى من أنه رسول الله وأنه دعا الناس إلى عبادة الله وحده ربه وربهم وكان رقيبا عليهم في هذا الأمر طوال إقامته بينهم. ولكن بعد أن توفي كان الله هو المطلع عليهم. ثم يكل أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم. فيرد الله عز وجل عليه يخبره بأنه صادق فيما يقول وأن الصادقين لهم جنات الخلد فضلا من الله ومنة فهو مالك السموات والأرض وقدير على إنفاذ ما يريد.

بعض السرايا فى أواخر سنة ٦ هـ:

كانت بعض القبائل والعشائر التى تعيش فى المناطق القريبة من المدينة لا تزال على شركها. وكانت أحيانا تغير على أطراف المدينة ومراعيها. ولا شك أن ذلك كان فى كثير من الأحيان بتحريض من اليهود الذين حزَّ فى نفوسهم إجلاؤهم عن المدينة. كما كان أفراد من هذه العشائر يأتون إلى النبى ويدَّعون الإسلام ويطلبون منه أن يبعث معهم نفرا من المسلمين إلى قومهم ليسلموا على أيديهم ويفقهونهم فى الدين. ولكنهم كانوا يغدرون بهم فى الطريق أو يجرونهم إلى مكين من قومهم ويقتلونهم. وكان الرد على ذلك كله هو سرايا صغيرة يرسلها النبى لتعقب المغيرين واسترداد ما غنموه أو لمعاقبة الغادرين والانتقام لمقتل أصحابه. كما كان هدف السرايا هو إرهاب كل من تسوِّل له نفسه أن يفعل مثل ذلك فى المستقبل (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ ٣ ص ٣٢٨). وقد أرسل النبى سرايا كثيرة فى هذه السنة نكتفى بذكر سبع منها (شكل ٤٣):

١ – **سرية عكاشة بن محصن إلى «غرو مرزوق»:** وكانت السرية مكونه من ٤٠ رجلا. ولما سمع القوم بقدومه هربوا فنزل إلى خيامهم واستولى على ٢٠٠ بعيرا ساقها إلى المدينة.

٢ – **سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى «ذى القصة»:** وكانت السرية مكونة من ٤٠ رجلا ساروا مشاة متخفين حتى أتوا «ذى القصة» – شمال شرق المدينة – فى عماية الصبح فهرب الناس إلى رؤوس الجبال. فأسر منهم رجلا وأتى به إلى المدينة.

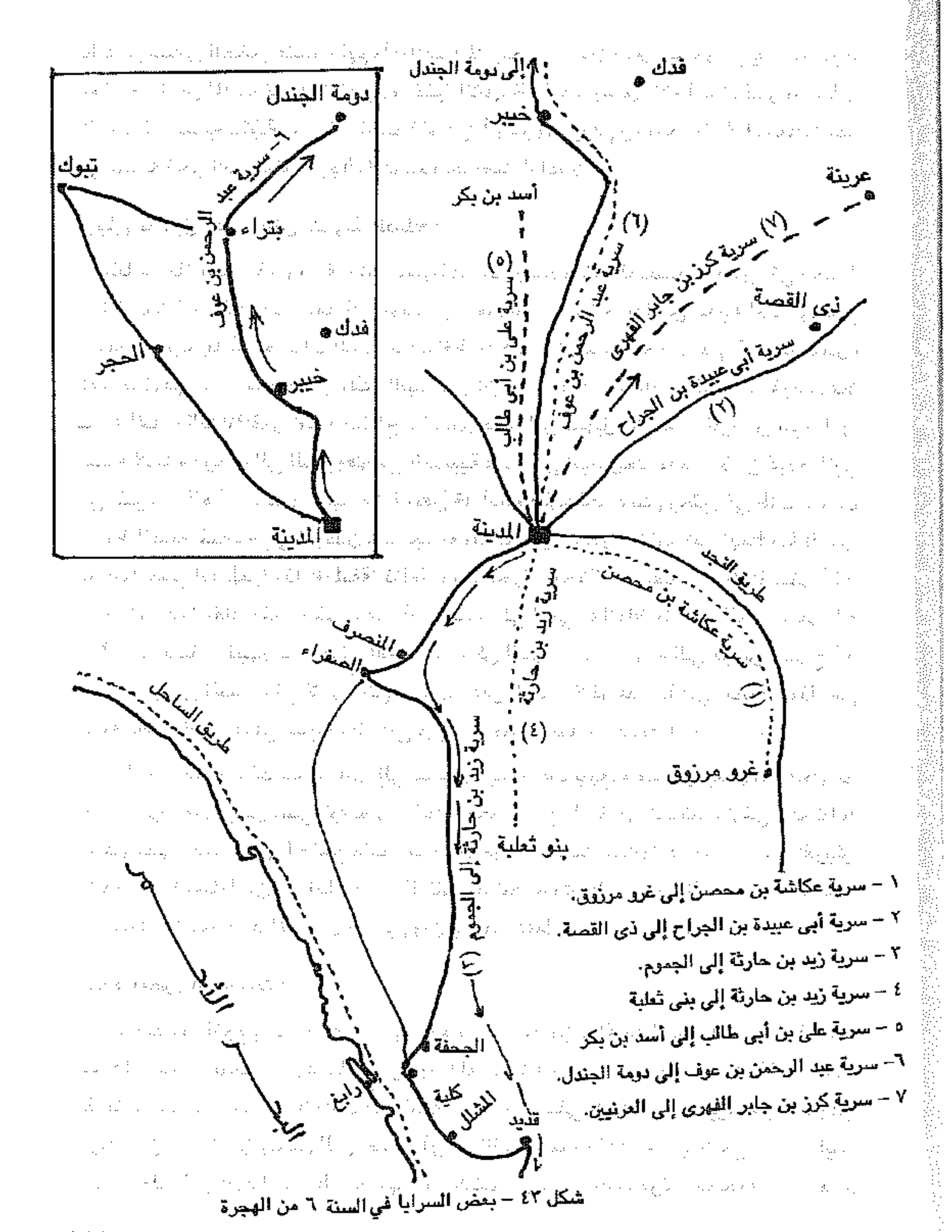
٣ – **سرية زيد بن حارثه إلى «الجموم»:** وأصابت السرية امرأة من مزينة دلتهم على محال «بنى سليم» فأغاروا عليها وغنموا غنما كثيرا وأسروا جماعة من المشركين وكان فيهم زوج هذه المرأة. فلما قدموا بهم إلى المدينة أطلق النبى سراح المرأة وزوجها كما أطلق سراح من أسلم من الأسرى.

٤ – **سرية زيد بن حارثة إلى «بنى ثعلبة»:** وكانت السرية مكونة من ١٥ رجلا وهرب القوم وغنمت السرية ٢٠ بعيرا.

٥ – **سرية على بن أبى طالب إلى «بنى أسد بن بكر»:** فقد بلغ رسول الله أن حيا من بنى أسد بن بكر يزمعون التحالف مع يهود خيبر لغزو المدينة فأرسل إليهم ١٠٠ رجلا يقودهم على بن أبى طالب. فسار إليهم وكان يكمن بالنهار ويسير ليلا حتى بلغ ديار بنى أسد وشتت جموعهم وقيل إن يهود خيبر عرضوا عليه بعض تمر خيبر حتى لا يهاجمهم.

٦ – **سرية عبد الرحمن بن عوف إلى «دومة الجندل»:** فلما سار إليهم أسلموا فلم يقاتلهم وتزوج عبد الرحمن بن عوف من تماضر بنت ملكهم وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

٧ – **سرية كرز بن جابر الفهري إلى «العرنيين»** : ذلك أن نفرا من «عرينة» أتوا رسول الله فأسلموا وبايعوه. وبعد عدة أيام أعربوا عن رغبتهم فى ترك المدينة لأنهم أهل بادية ولا



شكل ٤٣ – بعض السرايا في السنة ٦ من الهجرة

يطيقون سكنى الحضر فسمح لهم وأعطاهم إبلا ومعها راعيين وعين لهم مرعى يقيمون فيه. فلما بعدوا عن المدينة قتلوا الراعيين وأخذوا الإبل. فلما علم رسول الله أرسل كرز بن جابر الفهرى في سرية مكونة من ٢٠ فارسا فاقتفوا أثرهم وأسروهم واستعادوا الإبل وعادوا بهم إلى المدينة فأمر النبى بقتل الرجال لغدرهم وقصاصا للراعيين.

قريش تتنازل عن بعض شروط الصلح:

قلنا سابقا (ص ٦٨٨) إن قريشا اشترطت عند توقيع صلح الحديبية «أنه من أتى محمدا مسلما دون إذن وليه ردّه محمد إلى قريش وأنه من أتى قريشا مرتدا من المدينة لم يردّوه على المسلمين» وذكرنا أن أصحاب النبى قد استعظموا هذا الشرط لما فيه من عدم «المعاملة بالمثل» كما نقول في عصرنا الحالى. ولكن النبى قال إن من ارتد من المسلمين ولجأ إلى قريش فلا حاجة إليه. وقلنا إنه فور توقيع الصلح جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو فارا من أبيه الذى حبسه لإسلامه وجاء إلى النبى وهو فى الحديبية فردّه إلى أبيه. وبعد عدة أيام من عودة النبى إلى المدينة جاءه أبو بصير. رجل من قريش قد أسلم فأرسلت قريش رجلين فى طلبه حسب شروط الصلح فدفعه إلى الرجلين فخرجا به وأظهر أبو بصير استسلامه لهما ولم يقاوم. فساروا حتى إذا بلغوا «ذا الحليفة» نزلوا ليستريحوا. واحتال أبو بصير عليهما حتى أخذ سيف أحدهما وقتله وفرّ الآخر. وعاد أبو بصير إلى النبى وقال له: يا نبى الله قد أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم. ولكن النبى عزم على ردّه إلى قريش فخرج أبو بصير فارا من المدينة حتى لا يُردّ إلى قريش. وكان الرجل الآخر قد لجأ إلى المدينة خوفا على حياته فأمّنه النبى وأخلى سبيله فعاد إلى قريش وأخبرهم بما حدث وبفرار أبى بصير.

أما أبو بصير فقد خرج وأتى إلى ساحل البحر عند ينبع، وعلم أبو جندل بما فعل أبو بصير فهرب من قريش وأتى إليه على ساحل البحر وخرج المسلمون المحتجزون فى مكة تباعا ولحقوا بأبى بصير حتى اجتمع منهم ما يقرب من ٧٠ رجلا. وكانوا لا تمر بهم عير لقريش إلا هاجموها وقتلوا من رجالها وغنموا الغنائم. فكتبت قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها أن يتنازل عن شرط رد المسلمين الفارين وأن يؤويهم. ففعل وعادوا إلى المدينة.

هجرة بعض المسلمات:

أسلمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وخرجت من مكة مهاجرة إلى المدينة فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما إلى رسول الله يسألانه أن يردّها. وحذا حذو أم كلثوم نساء أخريات منهن سبيعة بنت الحارث الأسلمية – زوجة «صيفى الراهب» – وغيرها وجاء ذووهن وأزواجهن فى طلبهن وتمهّل النبى فقد رأى أن النساء ضعيفات وقد يُفتنّ فى دينهن وليس عندهن جَلَد الرجال فاحتمال عودتهن إلى الكفر وارد. فنزلت سورة الممتحنة تأمر بعدم

إرجاعهن وأنهن لا يحلون لأزواجهن الكفار. وعاد الرجال إلى قريش وأخبروهم بالآيات التى نزلت تمنع رجوعهن. وأدركت قريش أنه مادام ذلك أمر من الله فلا سبيل المسلمين بمخالفته. ولما كان المسلمون قد صاروا فى موقف أقوى مما كانوا عليه وقت صلح الحديبية فقد رأت قريش أنه ليس من الحكمة الادعاء أن «محمداً» قد نقض العهد ويعلنوا الحرب. وتلمَّسوا فى شروط الصلح ما يحفظ ماء وجههم. وكان نص الشرط: «لا يأتيك أحد منا بدون إذن أهله إلا رددته» فقالوا إن «أحَد» تعنى الرجال دون النساء!

سورة الممتحنة:

بدأت السورة بالآيات من ١ - ٩ تشير إلى حادثة حاطب بن أبى بلتعه ومحاولته إخبار قريش بمسيرة رسول الله لفتح مكة وسنرجىء هذه الفقرة إلى حين الكلام عن فتح مكة (ص ٧٥٩). بعد ذلك تطرقت الآيات إلى وضع المسلمات اللاتى هاجرن إلى المدينة بدون إذن وليهن:

«يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنَّ حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن. ولا تمسكوا بِعِصَم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا. ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم. وإن فاتكم شيىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» (١٠ - ١١).

والخطاب فى الآيات مُوجَّه إلى المسلمين ويتضمن النقاط التالية:

١ - امتحان من يأتين من المهاجرات للتأكد من صدق إيمانهن.

٢ - نهى عن إعادتهن إلى الكفار وهو ما حدث من رفض إعادة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وأميمة بنت بشر زوجة أبى حسان الدحداحه وسبيعة بنت الحارث الأسلمية.

٣ - المؤمنات لا يحللن للمشركين والمشركات لا يحللن للمؤمنين. مثال ذلك أن أم الحكم بنت أبى سفيان ارتدت عن الإسلام وعادت إلى مكة فطلقها زوجها المسلم وتزوجت مشركاً من ثقيف.

٤ - تعويض الأزواج الكفار عمَّا أنفقوا على زوجاتهم اللائى أسلمن بردِّ ما دفعوه من مهر.

٥ - يحل للمسلمين أن يتزوجوا المؤمنات اللاتى جئن مهاجرات حتى ولو لم يقم أزواجهن بتطليقهن لأن الله هو الذى طلقهن منهم.

٦- أمر المسلمين بطلاق زوجاتهم المشركات ويقال إن إحدى نساء عمر بن الخطاب كانت قد ظلت على شركها فى مكة فقام بتطليقها.

٧ – يحق للأزواج المسلمين أن يطلبوا من مطلقاتهم المشركات رد ما أنفقوا عليهن من مهور وخلافه وإن تعذر ذلك فيحق استيفائها من الغنائم التى قد تقع فى أيدى المسلمين من أموال الكفار وهذا معنى «فعاقبتم».

٨ – يحق للأزواج الكفار أن يطلبوا من مطلقاتهم المسلمات ردَّ ما أنفقوا عليهن من نفقة أى مهر.

٩ – النص على أن هذه الأحكام هى حكم الله الذي يجب أن يسير عليه المسلمون.

ويلفت النظر في هذه الفقرة تبادل الحقوق وتساويها بين المسلمين والكفار فى مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم الكافرات أو المرتدات ومطالبة الأزواج الكفار بتعويض نسائهم اللائى أسلمن وهاجرن إلى المدينة. وفى ذلك إرضاء لغرور قريش حتى لا تكون هذه النقاط مثارا لعدوات وإشعارا لقريش بعدالة الإسلام.

وقد اختلفت المفسرون فى كيفية الامتحان الذى أمرت به الآيات فقالوا إن النبى كان يُحلِّف المرأة بالله أنها ما خرجت من بغض زوج ولا لالتماس دنيا وإنما خرجت حبا لله ولرسوله وفى سبيل الدين. وروى عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بما جاء فى الآية التالية فتقسم أن لا تشرك بالله شيئا ولا تسرق ولا تزنى ولا تقتل أولادها ولا تأتى ببهتان تفتريه بين يديها وأرجلها ولا تعصيه في معروف:

«يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك علي أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم» (١٢).

ثم يأتى ختام السورة ينهي عن موالاة الكفار ثم توضح أن هؤلاء الكفار قد غضب الله عليهم لأنهم ينكرون البعث أى يئسوا من حدوث بعث فى الآخرة وأن إحياء الناس بعد موتهم مستحيل كاستحالة لقائهم لمن مات منهم والمفهوم أنه سيتحقق لهم فى الآخرة خطؤهم فى ظنهم هذا:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور» (١٣).

عودة مهاجرى الحبشة:

بعد صلح الحديبية أصبح المسلمون فى أمان ومنعة ولم يعد هناك مُسوِّغ لبقاء المهاجرين الأول بعيدين فى أرض الحبشة. ويقول ابن هشام (السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤١٤) إن النبى أرسل عمرو بن أمية الضمرى ليأتى بهم. فركبوا فى سفينتين عائدين إلى المدينة مباشرة عن طريق ميناء ينبع فوصلوا بعد شهرين وقت أن كان النبى قد فرغ من غزو خيبر كما سيجىء فيما بعد (ص ٧٣٤).

رسائل النبى إلى ملوك الدول:

بفضل الأمن النسبى الذى حققه صلح الحديبية واستقرار الأمر المسلمين فى المدينة وما حولها. بل أصبح الإسلام قوة تسعى القبائل لعقد العهود معها. بدأ النبى يتطلع إلى تحقيق الجزء من رسالته الذى ورد فى سورة سبأ (الآية ٢٨ ص ٢٨٨) **«وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا»** مما يعنى عدم اقتصار الدعوة علي العرب بل يجب العمل علي نشر الإسلام فى الدول المجاورة. فأرسل إلى ملوكها. واتخذ النبي خاتما من فضة كان مكونا فى ثلاثة أسطر: محمد سطر. رسول سطر الله سطر كان يختم به كتبه. وأهم الرسائل التى أرسلت هى:

١ – كتاب إلى قيصر ملك الروم:

وقد حمل الكتاب دحية الكلبى وكان نصه: «بسم اله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام علي من اتبع الهدى. أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الفريسيين (فلاحى القرى) **«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»** (وهى الآية ٦٤ من سورة آل عمران).

وأحسن هرقل استقبال الوفد وسألهم عن صفات النبى وعن دعوته. ولما اقتنع بأنه النبى المنتظر قال: قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم. وإن كان ما حدثتمونى به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمىَّ. ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت مع المشقة لقيه. وعلت أصوات رجال البلاط وهمهماتهم اعتراضا علي ما قال. وشرد ذهن هرقل فترة وراح يفكر: لقد كانت هناك نبوءة قائلة بأن شعبا مختونا سيسلبه ملكه وكان الظن أن اليهود هم ذلك الشعب ولكن هاهم العرب شعب مختون وظهر فيهم النبى فلماذا لا يكون نبى الإسلام هو النبى الذى بشرت به الأنبياء. وزادت اعتراضات رجال البلاط وخاف من تآمرهم ضده وقتله لما أظهره من لين فى الرد على دعوة الإسلام. واتهمه البعض صراحة بأنه آمن بمحمد. ولكنه رد عليهم قائلا إنه أراد أن يختبر صلابتهم على دينهم. فهدأت نفوسهم إلى ثباته على نصرانيته.

وعاد دحية إلى رسول الله ومعه كتاب هرقل. وقد كتبه بنفسه بعيدا عن أعين رجال البلاط – وفيه يقول «إنى مسلم ولكنى مغلوب» فقال النبى: كذب عدو الله. ليس بمسلم. وقدم دحية هدية هرقل فقسمها النبى بين المسلمين.

٢ – رسالة النبى إلى كسرى ملك الفرس:

وقد حملها عبدالله بن حذافة السهمى وفيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى

الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. إسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

ولما قرأ كسرى الكتاب غضب ومزَّق الكتاب وأمر بإخراج عبد الله بن حذافة من قاعة العرش. فعاد عبدالله بن حذافة إلى النبى وأخبره بما فعل كسرى فقال النبى: **اللهم مزِّق ملكه.**

وكتب كسرى إلى «باذان» عامله على اليمن يقول له: إنه بلغنى أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى، فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إليَّ برأسه.

٣ – رسالة النبى إلى المقوقس حاكم مصر:

وقد حملها حاطب بن أبى بلتعة، وكان المقوقس يحكم مصر باسم هرقل قيصر الروم وكانت الاسكندرية مقر حكمة فقد كانت أكبر مدن مصر. وكان نص الرسالة:

«بسم اله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . إسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. **«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».**

والتفت المقوقس إلى حاطب وقال له: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها؟ فقال له حاطب، ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله؟ فما باله حين أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالي حتى رفعه إليه؟ فقال المقوقس: أحسنت. أنت حكيم جاء من عند حكيم. واستمر حاطب: إن النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى. ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه. فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به.

وأكرم المقوقس حاطب بن أبى بلتعة وأعطاه مائة دينار وخمسة أثواب وأنزله فى ضيافته ودعا من كتب له بالعربية كتابا إلى النبى يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك. أما بعد. فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت به وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبثياب وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك.

كان حاطب قد أقام فى ضيافة المقوقس خمسة أيام. وعندما انتوى الخروج أخذه المقوقس علي انفراد وقال له: القبط لا تطاوعنى على اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحادثتى إياك وأنا أضن بملكى أن أفارقه فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا.

فخرج حاطب عائدا إلى المدينة ومعه «مارية» القبطية وأختها «سيرين» وطيب وبغلة وهدايا المقوقس.

٤ – كتاب النبى إلى النجاشى فى الحبشة:

وقد صحّ أن النبى كتب إلى النجاشى كتابا أرسله مع عمرو بن أمية الضمرى يقول الواقدى كان نصه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى ابن مريم وروح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به فنفخ فيه من روحه وخلقه كما خلق آدم بيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له. وقد بلغت ونصحت والسلام على من اتبع الهدى.

وقيل إن النجاشى أسلم. وقد ثبت أن رسول الله صلّى على النجاشى صلاة الغائب لما أبلغه جبريل بوفاته فى سنة ٩ من الهجرة.

٥ – كتاب النبى إلى ملك الغساسنة فى دمشق:

قال ابن اسحق (السيرة النبوية لابن كثير. جـ ٣ ص ٥٠٦) إن النبى بعث شجاع بن وهب من بنى أسد خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر الغسانى حاكم دمشق. جاء فيه: سلام على من اتبع الهدى وآمن به. وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما وصل شجاع وقرأ الكتاب عليه قال: ومن ينزع ملكى! إنى سأسير إليه. وحشد قواته للزحف إلى المدينة ولكن هرقل دعاه إلى بيت المقدس ونصحه بعدم استعداء النبى.

٦ – كتاب إلى حاكم بصرى:

وكان لواء بُصرى جزءا من دولة الغساسنة فأرسل إلى حاكم بصرى مبعوثا بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام وبينما المبعوث يمر بأرض مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمر أحد كبار الغساسنة وقتله. ولما بلغ النبى الأمر أرسل سرية موتة كما سيأتى فيما بعد (ص ٧٥١).

٧ – كتاب النبى إلى أمير البحرين:

وحمل أبو العلاء الحضرمى كتاب رسوله الله إلى المنذر بن ساومى أمير البحرين:

٨ – كتاب النبى إلى مسيلمة باليمامة:

وحمل عمرو بن أمية الضمرى كتابا من رسول الله إلى مسيلمة زعيم اليمامة يدعوه إلى الإسلام. فردّ مسيلمة بكتاب يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك. أما بعد فإنى أُشركت معك فى الأمر وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون. فرد النبى عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسليمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى أما بعد. إن الأرض لله يورثها من يشاء من

عباده والعاقبة للمتقين».

وأرسل النبى رسلا إلى غير هؤلاء (شكل ٤٤):

٩ – رسالة إلى حاكم أزد عمان الذى أسلم.

١٠ – رسالة إلى أساقفة نجران.

١١ – كتاب إلى يوحنا بن رؤية صاحب أيلة.

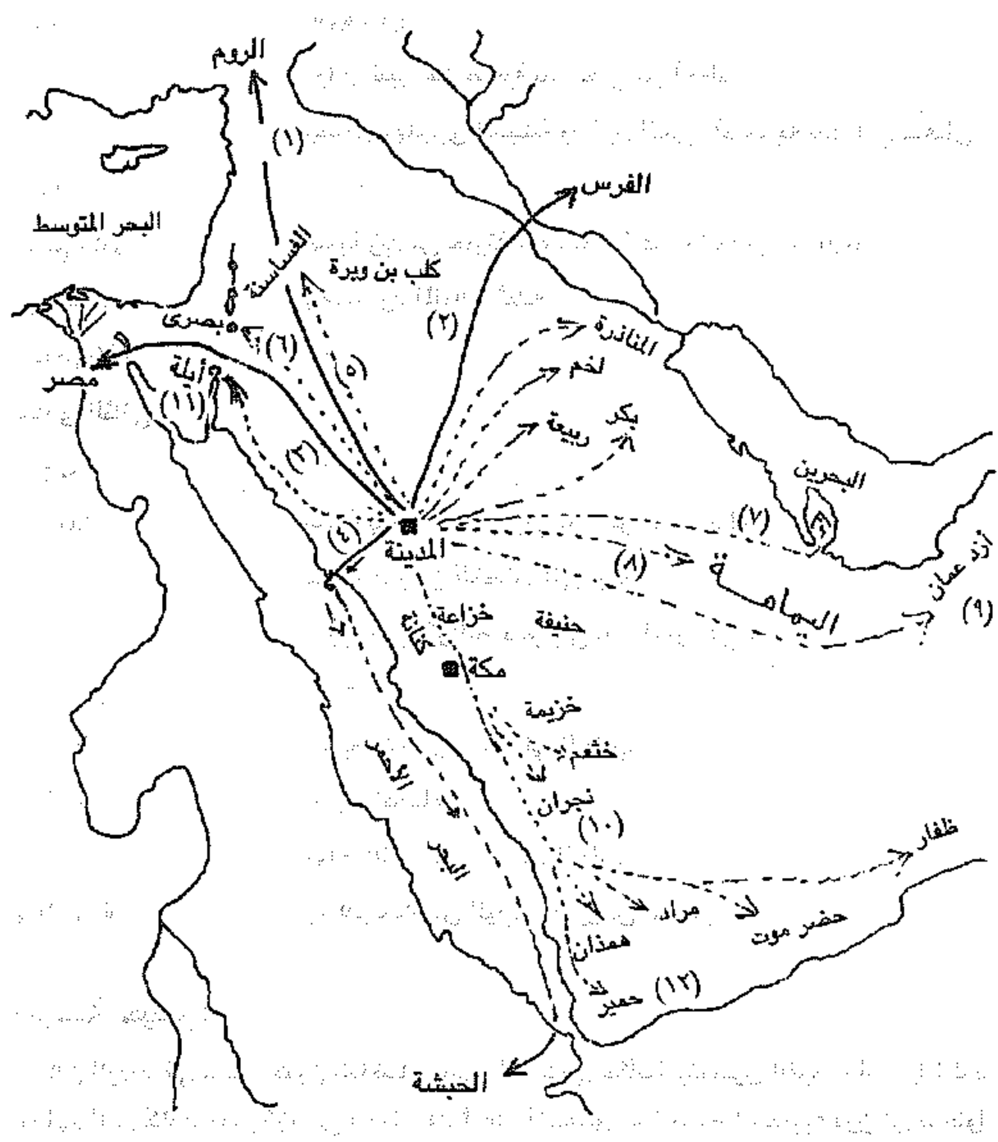
١٢ – رسالة إلى حمير في اليمن.

كما أرسل النبى رسائل إلى غير هؤلاء من روساء الدويلات المحيطة بالجزيرة العربية، ومن آمن أقره على ملكه كتابع للنبى وعليه جمع الزكاة وإرسالها إلى المدينة.

حجاج بن علاط يستخلص ماله فى مكة:

كان حجاج بن علاط قد أسلم وله مال كثير بمكة فقال للنبى، يا رسول الله، إن مالى متفرق فى تجارة بمكة فأذن لى أن أذهب لآخذ مالى قبل أن يعلموا إسلامى فلا أقدر على أخذ شيء منه، فأذن له. فقال يا رسول الله، لابد أن أقول، أى يقول ويذكر غير الحقيقة ليحتال لأخذ ماله فقال له النبى: قل.

فسار حجاج حتى جاء مكة وكان أهلها قد علموا بسير النبى إلى خيبر فسألوه عن الخبر فقال: هُزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسرا وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم. ففرحوا وأعانوا حجاجاً على جمع ماله وأظهر المشركون الابتهاج والسرور. وانكسر من كان بمكة من المسلمين. وسمع العباس بن عبد المطلب فاغتمَّ لهذه الأنباء فبعث إلى حجاج غلاما ليستوثق منه الخبر. فقال له اقرأ علي أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره واكتم عنى. فرجع الغلام بهذه البشرى إلى العباس فسر وأعتقه ونذر أن يعتق عشر رقاب. ولما فرغ حجاج من جمع ماله جاء إلى العباس، وقال له إنى قد أسلمت وإن لى مالا عند الناس ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إليَّ. إنى تركت رسول الله قد فتح خيبر وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروسا بابنة ملكهم حيى بن أخطب وقتل ابن أبى الحقيق. وخرج حجاج من مكة بماله وبعد ثلاثة أيام وبعد أن اطمأن العباس إلى أن حجاج قد أصبح بعيدا عن الطلب، خرج وقد لبس أبهى حلة عنده وأتى مجلس قريش، فقالوا يا أبا الفضل. هذا هو والله التجلد بِحَرِّ المصيبة. فأخبرهم بصحة الخبر وأن حجاج ما قال ذلك إلا ليستخلص ماله منهم بعد أن أسلم. ففرح المسلمون بمكة وعلت الكآبة المشركين وقالوا، انفلت عدو الله. أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن.



شكل ٤٤ – رسائل النبى إلى الملوك

أحداث السنة السابعة للهجرة

محرم	غزوة خيبر.
	زواج النبى من صفية بنت حيى بن أخطب،
	وصول مهاجرى الحبشة ودخول النبى بأم حبيبة بنت أبى سفيان
صفر	ـــــ
ربيع الأول	سرية زيد بن حارثة واعتراضها قافلة العاص بن الربيع.
ربيع الثانى	وصول رد الملوك الثلاثة.
جمادى الأول	ـــــ
جمادى الثانى	ـــــ
رجب	ـــــ
شعبان	سرية بشر بن سعد إلى بنى مرة قرب فدك.
	سرية عمر بن الخطاب إلى تربة.
	سرية أبى بكر الصديق إلى بنى فزارة فى نجد.
رمضان	ـــــ
شوال	سرية بشر بن سعد إلى الجناب.
ذو القعدة	عمرة القضاء.
	زواج النبى من برة بنت الحارث.
ذو الحجة	إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

معركة خيبر:

كان اليهود فى خيبر يكنون البغضاء للنبى وللمسلمين فكانوا يتحينون الفرصة ليثأروا لطرد قبائلهم التى كانت متمركزة فى المدينة. فلما عاد المسلمون من صلح الحديبية دون أن يدخلوا مكة أو يطوفوا بالبيت وقبلوا شروط الصلح وكان فيها بعض الإجحاف بالمسلمين – ظن اليهود أن ذلك لم يكن إلا عن ضعف فأرادوا أن يستغلوا الظروف فبعثوا إلى غطفان ليعاونوهم على حرب المسلمين وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

وكانت خيبر – كما فى شكل ٤٥ – عبارة حصون متعددة فى مجموعات يحمى بعضها بعضا:

أ - **مجموعة حصون النطاة:** وتتكون من حصن النطاة وحصن الصعب بن معاذ وحصن ناعم وقلعة الزبير.

ب - **حصون الشق:** نسبة إلى جبل الشق المجاور وتشمل: حصن أبى الحقيق وحصن النزار.

جـ **مجموعة حصون الكتيبة:** وتقع فى النصف الشرقى من خيبر وتشمل حصن القموص وحصن الوطيح وحصن سلالم وحصن سموان بجوار عين الحمة.

وجاء الخبر إلى رسول الله عما يدبره اليهود وغطفان من غزو المدينة. فلم ينتظر حتى يفاجئوه وقرر أن يغزو خيبر. فاستنفر من الرجال من شهد الحديبية وجاء الذين تخلفوا عن الحديبية ليخرجوا معه إلى خيبر رجاء الغنيمة فقال لهم النبى: لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد. فأما الغنيمة فلا. فخرج من خرج وتخلف من تخلف. ويرى كتاب السيرة أن غنائم خيبر كانت ترضية لمن شهدوا الحديبية تعويضا عن خيبة أملهم فى عدم التمكن من الطواف بالبيت الحرام. ويرى المفسرون أن الآية ٢٠ من سورة الفتح (ص ٦٩٢) تتنبؤ بالغنائم الكثيرة التى سينالونها من غزو خيبر «**وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه**» والمعجَّل هو صلح الحديبية وإن لم ير المسلمون فيه وقتها أنه مغنم - وما دام هناك جزء معجَّل فهناك جزء مؤجل. وهو غنائم خيبر وعليه فالآية تتنبأ بالغزوة والنصر المؤزر فيها.

وخرج رسول الله فى محرم من أول السنة السابعة للهجرة وخرج معه من نسائه أم سلمة. ومرَّ على **الغابة العليا** - ثم **الغابة السفلى** ثم **نقب بردح** ثم **جبل عصر** ثم **الصهباء** ثم **الخرصة** ثم إلى **وادى الرجيع** الذى يقع بين ديار غطفان وخيبر ليمنع التقاء الحليفين. ولما سمعت غطفان بنزول رسول الله فى وادي الرجيع جمعوا الرجال وخرجوا ليظاهروا يهود خيبر. حتى إذا ساروا مسافة سمعوا خلفهم جلبة فخافوا أن تكون إحدى القبائل قد انتهزت فرصة خروج الرجال وأغارت على أهليهم وأموالهم فرجعوا من منتصف الطريق.

ولما أشرف النبى على خيبر أمر جنوده بالوقوف ودعا الله طالبا النصر. وكان الليل قد أقبل فباتوا ليلتهم وفى الصباح فتحت الحصون أبوابها وخرج الزراع إلى حقولهم والرعاة إلي مراعيهم فلما رأوا جيش المسلمين عن بعد رجعوا إلى حصونهم. وقال النبى: الله أكبر. خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

كان اليهود فى حصونهم يرتجفون مع أنهم كانوا حوالى ١٠٠٠٠ مقاتل. وكان عبدالله بن أبيّ بن سلول - كبير المنافقين - قد أرسل إليهم يخبرهم بسير النبى إليهم ليأخذوا حذرهم. ونزل النبى قريبا من «**حصن النطاة**» فجاءه الحباب بن المنذر - أحد المسلمين - وأخبره أن أهل النطاة قوم ليس أبعد مرمى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون مما يعطيهم ميزة أخرى. فعدل رسول الله عن ذلك الحصن إلى «**حصن ناعم**» وراحوا يمطرون اليهود المدافعين عنه بوابل من السهام. وخرج فريق من اليهود من الحصن فقابلهم فريق من جيش

غطفان
جبل الشق
تل النطاة
الرجيع
الصخرة
حصون الشق
الخرصة
وادى الرجيع
حصن القموص
حصن أبى الحقيق
حصن النطاة
حصن النزار
حصن سلالم
حصون النطاة
حصن ناعم
قلعة الزبير
حصن الوطيح
حصن الصعب
حصن مرحب ونصرة
حصن سموان
الدومة
عين الحمة
حصون الكتيبة
الصهباء
العودة فى ربيع الأول
جبل نمار
نقمى
دور بنى نقمة
حرة الشقة
جبل أشمد
وادى الدومة
جبل عصر
نقب بردح
الغابة السفلى
السير فى محرم
الغابة العليا
الزغابة
المدينة

شكل ٤٥ – معركة خيبر.

المسلمين وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ومحمود بن مسلمة (من الأنصار) وغيرهم ودار قتال شديد حتى إذا اقترب محمود بن مسلمة من باب الحصن ألقى عليه اثنان من اليهود من أعلى الحصن حجر الرحى فسقط على رأسه وشجّه فسحبه أصحابه إلى حيث رسول الله الذي عصبه بخرقة ولكن محمود بن مسلمة مات من شدة النزيف. وجاء محمد أخو محمود بن مسلمة يريد الانتقام لأخيه وأراد أن يندفع إلى حصون اليهود. فهدأ النبى من اندفاعه وقال: لا تمنّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية. فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم. فاذا لقيتموهم فقولوا اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك. وإنما تقتلهم أنت. ثم الزموا الأرض جلوسا فإذا غشوكم فانهضوا وكبّروا.

وكانت كتائب اليهود تخرج من الحصون وتقاتل المسلمين حتى إذا اشتد المسلمون عليهم رجعوا إلى حصونهم فدخلوها وأغلقوا بابها. وفى اليوم التالى أفلح المسلمون فى اقتحام «حصن ناعم» واستولوا على ما فيه. ثم رجعوا إلى «حصن النطاة» وهو – كما ذكرنا – من أمنع الحصون فحاصروه ستة أيام كان يتم تبادل الرمى بالسهام والمبارزة بين الجنود. وفى اليوم السادس جاء يهودى إلى معسكر المسلمين وطلب مقابلة النبى ودلّه على موضع ضعف فى الحصن وطلب الأمان لنفسه ولزوجته حتى لا يقتل عند فتح الحصن فأعطاه رسول الله الأمان. وقال رسول الله لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا يولى الدبر ويفتح على يديه. وبات المسلمون ليلتهم كل واحد يتمنى أن يكون هو من يُعطى الراية. فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله فقال: أين على بن أبى طالب. فأخبروه أنه يشتكى عينيه ولزم خيمته فأرسل إليه فأتى وقد أصاب عينيه رمد. فوضع رسول الله يديه الكريمتين على عينيه ودلكهما فبرأ فألبسه الرسول الدرع وشد سيفه في وسطه وأعطاه الراية. وسار علىّ برجاله حتى إذا اقترب من الحصن خرج إليه جماعة من اليهود وتقاتلوا واشتد اليهود فى قتالهم وتقهقر المسلمون بعض الشيء ولكنهم لما رأوا ثبات علي بن أبى طالب تشجعوا وكروا علي اليهود: وأراد عامر بن سلمة بن الأكوع أن يضرب يهوديا فرجع إليه سيفه وجاءت ذبابته فى ركبته فسقط يتلوى من الألم فحمله المسلمون إلى المعسكر. واشتد القتال. وضرب علىّ «مرحبا» أحد قاتلى محمود بن مسلمة وشدّ عليه حتى قتله. وبرز «ياسر» أخو «مرحب» للقتال فخرج إليه الزبير بن العوام – ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول – وكانت قد خرجت فى الجيش لتمرّض الجرحى فأشفقت على ابنها لما تعرفه من مهارة ياسر فى القتال ولكن الرسول طمأنها بأن الزبير هو الذى سيقتل ياسر. وراح الزبير وياسر يتبادلان الضربات حتى تمكن الزبير من ضرب ياسر ضربة قاتلة ألقته على الأرض صريعا. وقال رسول الله: فداك عم وخال. لكل نبى حوارى وحواريّ الزبير.

وجاء إلى رسول الله عبدٌ حبشى مملوك لرجل من اليهود ويرعى غنمه وأسلم وسأل النبى عما يصنع بالغنم فأمره رسول الله بأن يردّها إلى صاحبها. فأخذها العبد ووجّهها ناحية

الحصن ورماها بحفنة من حصباء فأسرعت حتى دخلت الحصن وراح العبد يقاتل مع المسلمين حتى قُتل ولم يسجد لله سجدة واحدة. وسئل رسول الله عنه فقال: لقد كرّم الله هذا العبد وساقه إلى خير وقد كان الإسلام من نفسه حقا.

أما عامر بن سلمة بن الأكوع الذي جرح بذبابة سيفه فقد اشتد عليه مرضه حتى مات. واختلف الناس فيه فمن قائل قتله سلاحه فكأنه قتل نفسه فليس بشهيد فانطلق والده سلمة بن الأكوع إلى رسول الله الذي طمأنه وقال له. إنه لشهيد وصلّى عليه.

وعلم اليهود أنهم إذا لزموا الحصن فسيستمر النبي في حصارهم حتى ينفذ ماؤهم وزادهم فيضطروا إلى التسليم. لذلك فإنهم خرجوا يقاتلون. واشتد القتال وقُتِلَ «الحارث» قائد اليهود وأشجعهم فزلزل ذلك قلوبهم وتراجعوا حتى دخلوا الحصن وأغلقوا بابه. واقترب المسلمون من الحائط وأعملوا فيه المعاول والفؤوس حتى نقبوه ونفذوا إلى داخله واستولوا على الحصن وهم يكبرون الله وقد غمرهم السرور واستولوا على ما فيه من سيوف ودروع. وكان المسلمون – لطول الحصار – قد نقص زادهم وأصابهم الجوع فلجأوا إلى الحُمُر الوحشية فذبحوها ووضعوها في القدور على النار. وبينا القدور تفور جاء داعي رسول الله ينهي عن أكل لحوم الحمر الوحشية فكفوا القدور على وجوهها. ثم دعا النبي قائلا: اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا (الودك الدسم).

بعد أن استولى المسلمون على حصن النطاة المنيع توجهوا إلى «**حصن الصعب**» وحاصروه وخرج منه نفر تبارزوا مع عدد من المسلمين. وقتل بعض اليهود وفر الباقون ودخلوا الحصن ولكن المسلمين أفلحوا في تسلق جدران الحصن وفتحوا بابه وتدفق منه المسلمون وقاتلوا حتى وقع الحصن في أيديهم ووجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت شيئا كثيرا. وبذلك تمت السيطرة على مجموعة حصون النطاة التي كان فيها أشد اليهود.

بعد ذلك توجه المسلمون إلى حصون الشق وبدأوا بأمنعها وهو «**حصن أبي الحقيق**» فاقتحموه واستولوا عليه وأفلت بعض مقاتليه ولجأوا إلى «**حصن نزار**» فتوجه المسلمون إليه فحاصروه واقتحموه وفر كثير من اليهود ولجأوا إلى **حصن القموص** المنيع **وحصن الوطيح وحصن سلالم**. فحاصر المسلمون هذه الحصون الثلاثة مدة ١٤ يوما حتى طلب أهلها الصلح من شدة العطش إذ كانت العين التي يستقون منها خارج الحصن. ثم راحوا إلى الحصون الباقية فاستولوا عليها تباعا.

وفي اليوم التالي رأى المسلمون غبارا في الجو من ناحية المدينة فاتجهت الأنظار إلى الركب القادم فإذا هم سبعون بيتا من دوس وعلى رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسي يرافقهم أبو هريرة. وكان الطفيل – كما سبق أن ذكرنا – قد أسلم على يدي رسول الله في مكة وقال للنبي إن دوسا قد عصت وأبت فادع الله عليهم فقال رسول الله: اللهم اهد دوسا وأت بهم.

فرجع الطفيل إليهم وراح يكرر الدعوة لهم ولكنهم أبطأوا حتى كانت غزوات بدر وأحد والخندق. ثم كان أن أسلموا جميعا وقرروا اللحاق برسول الله فأتوا إليه وهو يحارب في خيبر فجعلهم النبي في ميمنة الجيش.

وكان **حصن القموص** من أمنع الحصون وفيه وضعت كرائم نساء اليهود وأولهم صفية بنت حييّ بن أخطب ملك النضير. وحاصر المسلمون الحصن عشرين ليلة وقاد عل بن طالب هجوم المسلمين على الحصن وانطلقوا لا يبالون بالنبل التي تتساقط عليهم كالمطر. ولما اقترب المسلمون من الحصن راح اليهود يقذفونهم بالحجارة ولكن شجاعة المهاجمين مكنتهم من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه وأُسرت صفية بنت حييّ بن أخطب وبنت عم لها وجاء بلال بهما، فمر على قتلى اليهود. فلما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها. فلما جاءوا النبي قال لبلال: أنُزِعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما! وذهب بلال بهما إلى حيث السبي. فجاء دحية الكلبي وطلب من النبي جارية فصرّح له بأخذ واحدة من السبي فذهب دحية وأخذ صفية بنت حييّ. فجاء رجل إلى النبي وقال له: يا رسول الله أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والنضير ولا تصلح إلا لك. فأرسل النبي في طلب دحية فلما جاء أمره بأخذ جارية أخرى غير صفية ففعل. كانت صفية في السابعة عشرة من عمرها ولكنها كانت قد تزوجت مرتين. تزوجت أولا من «سلام بن مشكم» فارس قومها وشاعرهم. ثم طلقت منه فتزوجها «كنانه بن الربيع بن أبى الحقيق» وقد قتل عند اقتحام الحصن. وجيء بصفية إلى النبي فجاءت في حزنها الصامت على ما حل بقومها وجزعها المكبوت مما ما قد يحل بها. تحاول أن تتماسك في ترفع وكبرياء. ثم أمر النبي بصفية وحيِّزت خلفه وألقى عليها رداءه فكان ذلك إعلاما بأنه قد اصطفاها لنفسه.

ثم حاصر المسلمون حصون سلالم والوطيح وسموان وهي آخر حصون خيبر ومكثوا على حصارها ١٤ يوما. وأيقن اليهود أن لا فائدة من المقاومة فسألوا رسول الله الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية يخرجون من خيبر. فصالحهم على أن لا يكتموه شيئا من متاعهم. فجلوا عن الحصين ووُجد به ١٠٠ درع و ٤٠٠ سيف و ١٠٠٠ رمح و ٥٠٠ ترس. ووجدت صحائف كثيرة من التوراة وجاءت يهود تطلبها فدفعها النبي إليهم. والمعروف أن بني النضير من أغنى قبائل اليهود وعندهم من الذهب والجواهر النفيسة الكثير، ومن شهرته كانت نساء أعيان المدينة تستعير من نسائهم الحلى للتزين بها في الأعياد. وكان حييّ بن أخطب – قبل بدء المعركة – قد وضع جواهر قومه وذهبها في جلد وطمره في الأرض. ولما أُسر حييّ سأله النبي عن مال بني النضير فقال نفذ في النفقة والحرب فقال له النبي: كان أكثر من ذلك. وجاء رجل من اليهود إلى النبي وأخبره أنه رأى حييّ يُطيف بخربة من الأرض عيَّنها له فقال النبي لحييّ: أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال حيّي: نعم. فأمر النبي بالخربة فحفرت واستخرج

منها بعض الأموال والحلي ولكنها أقل مما هو مشهور عن كنزهم، وراح الزبير بن العوام ينخسه بحربة في صدره حتى أقر بمكان باقي الكنز وفيه أساور وخلاخيل وأقراط وخواتم من ذهب وعقود من الزمرد وغيره من الأحجار الكريمة. ثم نُفِّذ حكم الإعدام في حييّ بن أخطب.

وصول مهاجري الحبشة:

كان مهاجرو الحبشة يتابعون ما يحدث في مكة باهتمام. ثم بلغهم هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة. وسُرَّ المهاجرون لانتصار المسلمين في بدر. ثم وصلتهم أنباء الغزوات الأخرى. وأخيرا علموا بصلح الحديبية وما أضفاه من صفة الندِّية بين قريش والمسلمين ووضع الحرب بينهما عشر سنوات. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٢٢) أن النبي رأى أنه لا داعي لبقاء مهاجري الحبشة في الغربة أكثر من ذلك فأرسل عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلي النجاشي ليسمح لمن بقي منهم في العودة. وحملهم عمرو في سفينتين سارتا في بحر القلزم (البحر الأحمر) ونزلوا في ميناء ينبع ثم ساروا إلى المدينة وعلموا بسير النبي إلى خيبر. فلحقوه هناك بعد أن كان قد انتهى من فتح جميع حصونها.

أم حبيبة بنت أبي سفيان:

كانت «رملة» بنت أبي سفيان متزوجة من ابن عمة الرسول، عبيد الله بن جحش أخي زينب بنت جحش أم المؤمنين. وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه رملة وأبوها أبو سفيان على كفره وخشيت أذى أبيها فهاجرت مع زوجها في الهجرة الثانية إلي الحبشة (ص ١٦٣). وجُنّ جنون أبي سفيان أن أسلمت ابنته وليس من سبيل لردها إلي دينه. وكانت رملة عند هجرتها حاملا. وهناك – في الحبشة – وضعت طفلة سمَّتها حبيبة وصارت رملة تدعى «أم حبيبة». ومرت عدة شهور وإذا بعبد الله يدخل النصرانية دين الأحباش وحاول أن يجعل زوجته تعتنق النصرانية ولكنها تمسكت بإسلامها واعتزلت رملة الناس شاعرة بالخزي لما فعله زوجها. وزاد من ألمها أنها لم تكن تستطيع العودة إلى مكة خوفا من أبيها الذي كان يعلنها حربا شعواء على المسلمين ويتفنَّنُ في إيذائهم. ولا شك أنها لو عادت إلى مكة لقام بتعذيبها حتى يردها إلى الشرك حفاظا على كرامته بين المشركين. وكان النبي يتابع بدقة أخبار المهاجرين في الحبشة وعرف حرج موقف رملة – أم حبيبة – بنت أبي سفيان وخاف إن ظلت هكذا وحيدة في الغربة أن ينتهي بها الأمر إلى أن تتبع زوجها في نصرانيته أو تعود إلى مكة ويجبرها أبوها على العودة إلى الشرك. فقرر أن يشد من أزرها في هذا الموقف الحرج فأرسل إلى النجاشي ليتزوجها بالوكالة. فأرسل النجاشي إلى رملة لتحضر للقصر ودعا أيضا كبار المسلمين المهاجرين وقال لهم: إن محمدا بن عبدالله كتب إليَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان. فمن أولاكم بها؟ فأجابوه بأنها قد وكّلت عن نفسها خالد بن سعيد. وتم الزواج أمام النجاشي الذي دفع صداقها نيابة عن النبي ٤٠٠ دينار وقيل ٤٠٠٠. وأولم النجاشي وليمة الزواج. وأتى

المسلمون إلى أم حبيبة مهنئين وأمر النجاشي نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب فتقبلت هداياهم شاكرة واحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى.

وعادت أم حبيبة إلى المدينة مع عودة مهاجرى الحبشة ودخلت أحد بيوت النبى. ولما علم الرجال أن الرسول فى غزوة خيبر انطلقوا بأسلحتهم للّحاق به. فلما اقتربوا وثار غبارهم قال النبى لأصحابه: يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا. وراح المسلمون يتطلعون صوب طريق المدينة. وجاء الركب وهم ٦٢ رجلا من المهاجرين الذين كانوا فى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب. وقام النبى إلى جعفر وقبله بين عينيه وقال: جعفر أشد الناس بى خُلُقا وخَلْقًا. وكانت خيبر قد تم فتحها فقال النبى: لا أدرى بأيهما أنا أسر. بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

غنائم خيبر:

أفرز النبى خمس الغنائم ليتصرف فيها حسب الشرع ثم قسَّم الأربعة أخماس الباقية بين المحاربين. وكان من قُتل من اليهود فى معارك خيبر ٩٣ رجلا وسبيت النساء والذرارى بالمئات واستشهد من المسلمين ٢٠ رجلا.

يهود فدك:

كان رسول الله لما سار إلى خيبر قد بعث أحد رجاله إلى يهود فدك يدعوهم إلى الإسلام فتمهلوا فى الرد ظنا منهم أن النبى لن يقدر علي خيبر. ولكن لما جاءهم خبر سقوط حصون خيبر واحدا وراء الآخر أرسلوا أحد سادتهم فى نفر إلى النبى ليأخذوا لهم الصلح على أن يحقن دماءهم فيخلوا ديارهم ويأخذوا نساءهم وأطفالهم وأموالهم. وتم الاستسلام صلحا. ولما كانت فدك قد أخذت بدون قتال فإن حقولها وبساتينها «فىء» وكلها لرسول الله ينفق منها حسب الشرع. كما حدث مع أموال بنى النضير (ص ٥٧٧).

«وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...» (٦ - ٧ - الحشر).

غطفان:

قلنا (ص ٧٢٩) إن غطفان أرادوا السير لمساندة يهود خيبر حسب الاتفاق الذي تم بينهما ولكنهم لما بدأوا السير سمعوا صوتا وراءهم فخافوا أن تهاجم إحدى القبائل ديارهم فعادوا وخلُّوا بين النبى وبين اليهود. فلما انتصر رسول الله وغنم من خيبر الكثير جاء عيينه بن حصن سيد غطفان وقال للنبى: أعطنى مما غنمت من حلفائى فإنى امتنعت عنك وعن قتالك.. فقال له رسول الله: كذبت ولكن الصياح الذى سمعت أنفذك إلى أهلك. ولم يعطه شيئا.

وادى القرى:

ولما فرغ رسول الله من خيبر انصرف إلى وادى القرى، وكان يهود وادى القرى قد آووا ناسا من مشركى العرب فلما جاء المسلمون استقبلوهم بالرمي بالسهام، وخرج من حصونهم ثلاثة من أحسن فرسانهم فبرز لهم الزبير بن العوام وعلى بن أبى طالب وأبو دجانة الأنصارى وقتلوهم وخرج غيرهم فقتلوا أيضا حتى بلغ قتلاهم ١٢ رجلا. وفى اليوم التالى هجم المسلمون على الحصن وفتحوه عنوة وغنموا أموالهم. وقسم النبى الأموال والسبايا على أصحابه وترك الأرض والنخيل بأيدى اليهود على أن يدفعوا من غلتها.

تيمـــاء:

ولما بلغ يهود تيماء ما كان من أمر خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا النبى على الجزية.

الســبايا:

لما وزعت السبايا على المسلمين قام رسول الله فيهم خطيبا فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره (وهو نهى عن إيتاء الحبالى من السبايا) ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة حتى يستبرئها (أى يتأكد من براءة رحمها بالحيض) ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم. ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها (أضعفها وهزلت) ردّها فيه. ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه ردّه.

الدخول بصفية بنت حييّ بن أخطب:

وانتظر النبى بخيبر حتى هدأت مناحة السبايا على قتلاهم ثم استأنف السير حتى إذا كان بالصهباء بعيدا عن خيبر وقبل المدينة بـ ٥٠ كيلو مترا نزل بخبائه. وكانت أم سليم الماشطة قد جاءت إلى صفية فمشطتها وجمّلتها وعطرتها واستبرأتها. فتزوجها رسول الله بعد أن أسلمت وكان صداقها عتقها. وأقيمت وليمة عرس حافلة وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا ودخل رسول الله بعروسه ورأى عليه السلام بأعلى عينها زرقة فسألها عنها فقالت إنها رأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها فلما صحت من نومها أخبرت كنانة بن الربيع زوجها فقال غاضبا: ماهذا إلا أنك تمنّين إلى ملك العرب ولطمها على وجهها. وبات أبو أيوب الأنصارى تلك الليلة متوشحا سيفه يحرس النبى ويطوف بخيمته حتى أصبح رسول الله فسأله مالك يا أبا أيوب؟ فقال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديث عهد بكفر فبت أحفظك. فقال النبى: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى. وحجب النبى

دومة الجندل
تبوك
تيماء
بنو فزارة
بنومرة
فدك
وادى القرى
غطفان
الجناب
خيبر
الصهباء
المدينة
ينبع
هوازن
تربة
مكة

شكل ٤٦ – خيبر وفدك ووادى القرى.

صفية بنت حييّ بن أخطب وأصبحت من أمّهات المؤمنين. وأقام النبى فى الصهباء ثلاثة أيام ثم استأنف المسير إلي المدينة وكانت الأخبار قد سبقت إلى المدينة بالنصر المؤزر الذى أحرزه النبى على يهود خيبر وانتظر المسلمون عودة النبى ومن معه وكان السرور بالغا بنصر الله وبالغنائم التى غنموها.

أم حبيبة:

واحتفلت المدينة بدخول أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى بيت النبى وأولم خالها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم. ولم يكن قد مضى على زواج النبى من عقيلة بنى النضير «صفية» غير أيام معدودات. واستقبلت نساء النبى أم حبيبة بشيء من المجاملة. ولم تر عائشة فيها ما يشعل غيرتها إذ كانت أم حبيبة تقرب الأربعين من العمر وليس لها سحر أو شباب صفية ولا ملاحة جويرية ولا حسن أم سلمة ولا جمال زينب (بنت الشاطيء، تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٨٥). وعلى العموم فقد ساد الهدوء بيت النبى وساد الوئام بين أزواجه.

قصة الشاة المسمومة:

لما اطمأن رسول الله بالمدينة بعد عودته من خيبر أهدت له زينب بنت الحارث - امرأة يهودية - زوجة سلام بن مشكم - شاة بحجة أنها تجامل صفية بنت سيد النضير وكانت قد سألت عن أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله فقيل لها الذراع فوضعت السم في الشاة وأكثرت من السم فى الذراع. ثم جاءت بها ووضعتها بين يدى رسول الله. فتناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها. ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها فأساغها وأكل منها. أما رسول الله فقد لفظ ما مضغه وقال: إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بزينب بنت الحارث فاعترفت فسألها عما حملها على ذلك فقالت: بلغت من قومى مالم يخف عليك فقلت إن كان ملكا استرحت منه. وإن كان نبيا سيُخبَر وينجو. قيل وعفا رسول الله عنها. وكان المفروض على بشر أن يحذو حذو النبى فيلفظ ما مضغ ولكنه لم يفعل فمات من السم الذى كان بها. بعض المراجع تذكر أن النبى أمر بقتل المرأة قصاصا لقتل بشر.

سرية زيد بن حارثة وإسلام العاص بن الربيع:

ذكرنا سابقا (ص ٥١٦) كيف أسر العاص بن الربيع - زوج زينب بنت النبى - فى معركة بدر وأن زينب أرسلت فداءه مع أخيه عمرو بن الربيع وكيف فك النبى أسر العاص بدون فداء وأخذ عليه العهد أن يترك زينب تهاجر. وذكرنا (ص ٥٢٠) هجرة زينب إلي المدينة فوصلتها وعاشت فى بيت أبيها فى حجرة مجاورة لحجرات زوجاته ولم تفقد الأمل قط فى أن يشرح الله صدر العاص بن الربيع - زوجها - للإسلام فيلحق بها فى المدينة. أما العاص بن الربيع فقد

تابع حياته في مكة بعد هجرة زينب - متاجرا في أموال قريش وكانت أكثر رحلاته إلى الشام. ولم يشارك في أي من الحروب التالية التي وقعت بين قريش وبين المسلمين.

وبعد شهرين من صلح الحديبية أي في المحرم من سنة ٧ للهجرة خرج في رحلة إلى الشام يقود قافلة فيها أموال لرجال من قريش. وفرغ من تجارته وبينما هو عائد في آخر شهر ربيع الأول من السنة السابعة (بعض المؤرخين يعتبر ربيع الأول هذا هو آخر السنة السادسة للهجرة كما سبق أن أوضحنا ص ٤٢٧) لقيته سرية من ١٧٠ رجلا يقودها زيد بن حارثة بعثها رسول الله - فور عودته من غزوة خيبر - إلى ساحل البحر. فأصابوا كل ما معه من مال وهرب هو فارا بحياته حتى إذا وصل المدينة وفي ظلمة الليل لجأ إلى بيت زينب. وأول مارأته زينب خفق قلبها وانشرح ظنا منها أنه إنما جاء مسلما فيجتمع شملهما من جديد ولكن خاب ظنها لما حكى لها حكايته. ولكنها قالت له في رقة: مرحبا بابن الخالة مرحبا أبا علي وأمامة (أولادهما).

وسمعت صوت بلال يؤذن لصلاة الصبح وسمعت خطوات أبيها يخرج ليصلي بالناس فتشجعت وقامت إلى الباب وصاحت بأعلى صوتها: «أيها الناس إني أجرت العاص بن الربيع!» وسمع النبي صوتها. فلما أكمل صلاته أقبل على من معه وقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا نعم يا رسول الله. قال: أي والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. ثم أضاف بعد صمت قصير: إنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت.

ثم انصرف رسول الله فدخل علي ابنته وعندها العاص بن الربيع فما إن رأته حتى هتفت ضارعة: يا أبي إن أبا العاص إن قَرُبَ فابن عم وإن بَعُدَ فأبو ولد وإني قد أجرته. فقال لها: أي بنية أكرمي مثواه. ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له. وفي الضحى بعث النبي من يصحب العاص بن الربيع إلى المسجد حيث كان النبي يجلس في جمع من صحابته بينهم رجال السرية الذين أصابوا القافلة وقال لهم النبي: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم. وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردُّوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك. وإن أبيتم فهو فيئ الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به. فأجابوا بصوت واحد: يا رسول الله بل نرده عليه وأسرعوا وأعادوا له ماله كله لم يُفقد منه شيء. وحان موعد رحيله فودَّعه رسول الله قائلا لأصحابه: حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي. مشيرا إلى تعهده بالسماح بهجرة زينب بعد فك أسره في موقعة بدر.

ومضى العاص حتى بلغ مكة وفرحت قريش بعودته بتجارته رابحة وراح يؤدي إلى كل ذي مال ماله ثم وقف بحيث يسمع صوته وصاح: يا معشر قريش: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ أجابوا لا فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما فقال فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله: والله ما منعني من الإسلام قبل الآن إلا تخوف من أن تظنوا أني

إنما أردت أن آكل أموالكم. فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت وترك القوم واجمين. وانطلق فى طريق المدينة.

وفور وصوله توجه إلى المسجد وبايع النبى فهلّل المسلمون وكبّروا ثم حفُّوا به مهنِّئين ولكنه كان فى شغل عن هذا كله بالتفكير فى زينب وهل يقبل النبى ردَّها إليه. واستجمع شجاعته وتقدم إلى النبى بحاجته فى استرجاع زينب. فأثنى الرسول عليه خيرا وسار به إلى بيته ودعا ابنته وردها على العاص بن الربيع قيل بعقد جديد وقيل بعقد الزواج الأول. واجتمع الشمل.

وصول رد الملوك الثلاثة:

قلنا سابقا (ص ٧٢٣) إن النبى أرسل رسائل إلى ملوك الدول والدويلات المجاورة أهمها ثلاث رسائل: واحدة إلى قيصر الروم والثانية إلى كسرى ملك الفرس والثالثة إلى المقوقس ملك مصر. ولعل رحلة الرسل ذهابا وإيابا استغرقت نحو شهرين أو أكثر عاد الرسل بعدها إلى المدينة ومع كل واحد منهم الرد:

١ - رد قيصر ملك الروم:

عاد دحية الكلبى إلى رسول الله ومعه كتاب هرقل وفيه «إنى مسلم ولكنى مغلوب» فقال النبى كذب عدو الله ليس بمسلم. وقدَّم دحية هدية هرقل فقسَّمها النبى بين المسلمين.

٢ - رد كسرى ملك الفرس:

قلنا سابقا (ص ٧٢٣) إن كسرى غضب ومزَّق كتاب النبى ولما عاد عبدالله بن حذافة أخبر النبى بما فعل كسرى فقال النبى: اللهم مزِّق ملكه.

وقلنا أيضا إن كسرى كتب إلى «باذان» عامله على اليمن يستعديه على النبى وبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى مع وزير كسرى ووزيرين من عنده فذهبوا إلى مكة وسألوا عن النبى فقيل لهم هو فى المدينة فذهبوا إلى المدينة وقابلوا النبى وقالوا له إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك إليه فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك. بما معناه أن يعلن الفرس الحرب على النبى. فقال لهم النبى: ارجعوا حتى تأتونى غداً. وكان فى تلك الليلة أن شيرويه ابن كسرى ثار على أبيه وقتله وجلس مكانه.وفى صباح اليوم التالى جاء وزير كسرى ووزيرا باذان: فقال النبى لوزير كسرى أبلغ صاحبك أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت وأن الله تعالى سلّط عليه ابنه شيرويه فقتله. فعاد وزير كسرى إلى بلده وعاد وزيرا باذان إلى اليمن وأخبراه بما قال النبى فقال إن كان نبيا فسيكون ما قال: وبعد أيام جاء الخبر إلى المدينة بأن كسرى قُتل فى الليلة التي حددها رسول الله فكبَّر المسلمون وقال النبى لتفتحَنَّ عصابة من المسلمين كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض. ووصل الخبر أيضا إلى باذان فى اليمن فأيقن أن «محمدا» رسول الله ولم

يحاول أن يتعرض له بسوء. ولعله مال بقلبه إلى الإسلام، ولكنه ظل على ولائه لفارس. ولكن حينما قاد على بن أبى طالب سرية إلى اليمن ـ كما سنرى فيما بعد (ص ٨٢٧) ـ يبارع اليمن كله إلى الإسلام.

٣ - رد المقوقس ملك مصر:

ذكرنا سابقا (ص ٧٢٤) مسيرة حاطب بن بلتعة برسالة النبى إلى المقوقس حاكم مصر. وأن المقوقس رد رداً لينا وحمَّل حاطب رسالة مكتوبة وأخرى شفوية تفيد إيمانه ولكنه يكتمه خوفا من القساوسة. ولما بلغ حاطب المدينة أعطى النبى كتاب المقوقس وبلَّغ الرسالة الشفوية فقال النبى: ضَنَّ بملكه ولا بقاء لملكه. وأخذ النبى «مارية» لنفسه وأهدى «سيرين» لحسان بن ثابت وقال النبى لأصحابه: إنكم ستفتحون مصرَ فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لكم ذمة ورحما. مشيرا إلى زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر المصرية وكذلك إلى صلة الرحم التى نشأت من اتخاذه مارية سُرِّيَّة له كإحدى زوجاته.

مارية القبطية:

هى مارية بنت شمعون. أبوها قبطى مصرى وأمها مسيحية رومية ولدت في قرية «حفن» قريبة من بلدة «أنصنا» الواقعة على الضفة الشرقية للنيل مقابل الأشمونين فى الصعيد. وكان وصول حاطب بها وبأختها إلى المدينة فى ربيع الثاني من السنة السابعة للهجرة بعد عودة النبى من غزوة خيبر. وطار إلى دور النبى أن شابة مصرية حلوة جعدة الشعر جذابة الملامح قد جاءت من أرض النيل هدية إلى النبى الذى أنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان قرب المسجد. ولم تهتم زوجات النبى بها فى أول الأمر باعتبار أنها جارية. ولكنهن راقبن فى كثير من القلق اهتمام الرسول بها وكثرة تردده عليها ومكثه لديها وقتا طويلا في ساعات فراغه. وبدأت الغيرة تنهش أكبادهن فحوَّل مارية إلى بيت فى «العالية» فى أطراف المدينة (بنت الشاطىء. تراجم سيدات بيت النبوة ص ٣٩٩).

بعض السرايا في السنة السابعة للهجرة

(١) سرية بشير بن سعد إلى بنى مُرَّة بناحية فدك:

فى شعبان أرسل رسول الله بشير بن سعد فى ٣٠ رجلا إلى بني مرة بناحية فدك (شكل ٤٦ ص ٧٣٧) فتمكن من الاستيلاء على إبلهم فى غفلة منهم. فلما علموا بالخبر تتبعوا السرية وأدركوها وقاتلوهم وقتلوا عددا من أفراد السرية وفر الباقون واستردوا إبلهم وكان بشير قد جرح جرحا بليغا حتي ظُنَّ أنه مات. وفي المساء جر رجليه ولجأ إلى فدك وأقام فيها أياما حتى برىء ثم عاد إلى المدينة.

(٢) سرية عمر بن الخطاب إلى تُربة:

وفى شعبان أيضا أرسل رسول الله عمر بن الخطاب فى ٣٠ راكبا إلى بنى نضر وبني جشم بن بكر بن هوازن الذين كانوا فى تُربة وهو موضع قريب من مكة ولكن القوم علموا بمسيرهم فهربوا فى الأودية ولم يكن قتال.

(٣) سرية أبى بكر الصديق إلى نجد:

وفى شعبان أيضا أرسل رسول الله أبا بكر الصديق فى سرية إلى بنى فزارة فى أرض نجد، فأغار عليهم فى صباحٍ باكر وقتل منهم الكثير وأسروا الرجال ومن ضمنهم امرأة حسنة المنظر فلما عادوا إلى المدينة أخذ النبى الأسيرة وأرسلها إلى أهل مكة وافتدى بها بعضا من أسرى المسلمين.

(٤) سرية بشير بن سعد إلى الجناب:

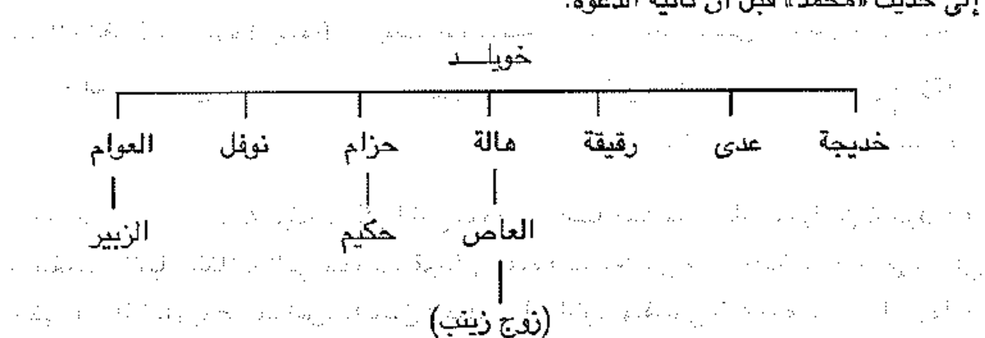
فى شوال بلغ رسول الله أن جمعا من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليغيروا على المدينة، فعقد النبى اللواء لبشير بن سعد في سرية من ٣٠٠ رجل، والجناب تقع شرقى خيبر، فأصابوا كثيرا من الإبل ولكن الرعاء أسرعوا وأخبروا القوم فتفرقوا فى رؤوس الجبال ولم تدرك السرية إلا رجلين أسروهما فلما عادا بهما إلى رسول الله أسلما فأطلق سراحهما، وقد كانت هذه السرية سببا فى أن يفكر عيينه بعمق فى الإسلام، ثم حضر هو وحليفه الحارث بن عوف وفروة بن هبيرة القشيرى إلى النبى وأسلموا وحضروا معه موقعة حنين وكانوا هم وقومهم من المؤلفة قلوبهم (السيرة النبوية، مهدى رزق الله أحمد، ص ٥٢٠).

عمرة القضاء:

كان شهر ذو القعدة قد اقترب ويكون قد مر عام على صلح الحديبية وتجب عمرة القضاء بدلا من العمرة التى صدَّت عنها قريش فى العام السابق، ولاشك أن رسول الله قد أرسل يخبر قريشا باعتزامه العمرة وأمر أصحابه أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو قتل في خيبر، وخرج آخرون ممن لم يشهدوا الحديبية حتى بلغ من خرجوا ٢٠٠٠ سوى النساء والصبيان، وساق البدن، وحمل المسلمون السلاح والدروع والرماح، فقيل يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب، فقال النبى: لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبا منا، وبالطبع كان هذا بعد نظر من النبى، فلو خرج بسلاح المسافر فقط فلا يأمن أن تعمد قريش إلى تحريض قبائل من حلفائها لمهاجمته فى الطريق أو يلجأوا هم إلى الخيانة وينقضُوا عليه قبل منطقة الحرم ويكون المسلمون حينئذ لقمة سائغة.

وسار المسلمون حتى إذا كانوا بمر الظهران – قبل مكة بحوالى ٢٥ كم – قابلهم نفر من قريش فلما رأوا الخيل وسلاحا كثيرا أسرعوا إلى قريش بالخبر ففزعت قريش وقالوا: ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابنا ومدتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه؟ وجاءه نفر من قريش وقالوا له: والله يا محمد ما عُرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر. تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطوا عليك ألا تدخل إلا بسلاح المسافر السيوف فى القرب! فقال الرسول: إنى لا أدخل عليهم بالسلاح. فقالوا: هو الذى تُعرف به، البرُّ والوفاء. وعمد النبى إلى مكان يسمى «بطن يأجج» قبل مكة بـ ١٨كم (شكل ٤٢ ص ٦٨٥) ووضع فيه السلاح وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل يحرسونه.

وخرج كبراء قريش من مكة حتى لا يروا النبى والمسلمين يطوفون بالبيت آمنين فقد كان الحقد ينهش قلوبهم وخاصة أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل وخرج خالد بن الوليد فقد خشى أن لو التقت عيناه بعينى أخيه الوليد بن الوليد – الذى كان قد أسلم – لأسلم مثله . وخرج أيضا صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، وخرج الكثير غيرهم من سادات قريش ومن العامة. وبقى فى مكة حكيم بن حزام وقد أشرف على الستين فهو يحب أن يرى «محمدا» زوج عمته «خديجة» سيدة نساء قريش وراح يتذكر الأوقات التى كان يقضيها فى بيت عمته – يستمع إلى حديث «محمد» قبل أن تأتيه الدعوة.



وقدَّم رسول الله الهَدْىَ أمامه وأبقاه بذى طوى وخرج على راحلته القصواء والمسلمون حوله يلبون ويكبرون وما إن رأى المهاجرين البيت الحرام حتى كادت تخنقهم العبرات أن عادوا – وإن عودة قصيرة – إلى البلد الحبيب مكة، إلى أرض صباهم وشبابهم. وكان عبد الله بن رواحه وهو آخذ بزمام راحلة النبى يرتجز شعرا فقال له النبى: يا ابن رواحة قل: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وأطرق رسول الله تواضعا لله وهو يُلبِّى حتى استلم الحجر الأسود وتبعه أصحابه يستلمون الحجر الأسود ويطوفون بالبيت ويلبون ويكبرون، وقريش على جبل أبى قبيس تنظر وقال قائل منهم: إن المهاجرين قد أوهنتهم حمى يثرب. وأَطْلَعَ الله نبيَّه على ما قالوا، فقال النبى: رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة. وكان المسلمون قد بدأوا السعى بين الصفا والمروة فأمرهم النبى أن يرملوا (يُسرعوا) فى الجزء

القريب من الصفا ليرى المشركون أن لهم قوة. وبعد انتهاء السعى سبعة أشواط نحر الهدى عند المروة، ثم أمر ناسا ليذهبوا إلى بطن يأجج لحراسه السلاح ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا.

وعاد رسول الله وصحبه إلى الكعبة ودخلها ولم يزل بها حتى اعتلى بلال ظهرها وراح يؤذن لصلاة الظهر، وخرج النبى من الكعبة وصفَّ المسلمين صفوفا ثم أمَّهم وصلى بهم الظهر ثم ذهب إلى قبته التى نصبت له بالأبطح ليستريح.

الزواج من برة بنت الحارث:

هى برة بنت الحارث أخت أم الفضل زوج العباس عم النبى وأول من آمنت من النساء بعد خديجة وقد مات عنها زوجها فترمَّلت وهى لم تتعد السادسة والعشرين من عمرها. وظلت فى

الحارث

أخوات غير شقيقات

لبابة (أم الفضل)	برة (ميمونة)	زينب بنت خزيمة	أسماء بنت عميس	سلمى بنت عميس
زوج العباس عم النبى		(زوج النبى)	(زوج جعفر بن أبى طالب)	(زوج حمزة)
				ابنتها عمارة

مكة لم تهاجر إلى المدينة. وكانت تكن للنبى شعورا خاصا وجارفا. وكان عليها أن تتحرك قبل أن تنقضى الأيام الثلاثة التى حددتها قريش لبقاء المسلمين فى مكة. وأفضت بشعورها إلى أختها أم الفضل زوج العباس. فانطلق العباس إلى النبى وأفضى إليه برغبة برة الذى وافق وأرسل جعفر بن أبى طالب – زوج أختها لأمها أسماء بنت عميس – ليخطبها. فما إن خرج جعفر من عندها حتى استخف بها الفرح فركبت بعيرها وانطلقت إلى حيث النبى حتى لقيته وقالت: البعير وما عليه لله ورسوله فجاءت تهب نفسها النبى عملا بقوله تعالى: **«يا أيها النبى إنَّا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما»** (٥٠ – الأحزاب).

ويقول البعض إن هذه الآية نزلت بمناسبة ما فعلته برَّة ولكن الوحى أمر بوضعها فى سورة الأحزاب لوحدة الموضوع وهو زوجات النبى وضُربت لها قبة فى سرف وبنى بها النبى فى

طريق عودته إلى المدينة بعد انتهاء العمرة وسمّاها «ميمونة» قيل للمناسبة الميمونة وهى دخوله مكة لأول مرة بعد ٨ سنوات منذ أن خرج منها مهاجرا. وجاء العباس إلى قبة النبى ليهنئه على الزواج وليرى جعفرا وعليا أولاد أخيه ويطفىء نار الشوق إليهم بعد الغيبة الطويلة.

والتفت النبى إلى الوليد بن الوليد وسأله: أين خالد؟ فقال الوليد: يأت الله به. فقال النبى: ما مثله يجهل الإسلام.

وانساب المهاجرون فى طرقات مكة يسترجعون الذكريات فى مراتع الصبا والشباب وانقضت الأيام الثلاثة التى حددتها قريش للعمرة وجاء إلى النبى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش وقال حويطب للنبى: ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث. وأراد النبى أن يطيل مكثه فى مكة عسى أن يقتنع رجالها ويسلموا فقال: إنى قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها وأصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا؟ وخشيت قريش من أن يزداد عدد من يتبعون النبى فردُّوا بغلظة: لا حاجة لنا فى طعامك. اخرج عنا من أرضنا فالثلاثة قد مضت. فأمر النبى أن ينادى بالرحيل فلا يمسى بمكة أحد من المسلمين وأمر أبا رافع ليأتى بميمونة إلى معسكره خارج مكة. وطاف المسلمون طواف الوداع وانسلُّوا خارجين من مكة. ولما خرج رسول الله من مكة جاءه على بن أبى طالب وكلّمه فى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب - الذى قتل فى معركة أحد - وقد أسلمت وكانت تعيش مع أمها سلمى بنت عميس - أخت غير شقيقة لميمونة (انظر شجرة النسب فى الصفحة السابقة) وقال للنبى: علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين. فبعث النبى إلى أبى رافع أن يأتى بميمونة وعمارة. وفى سرف أقام النبى عدة أيام ودخل بميمونة بعد أن صنع طعاما لأصحابه.

بعد ذلك أخذ المسلمون سلاحهم وساروا راجعين إلى المدينة.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص:

كتب الوليد إلى أخيه خالد كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ويخبره فيه أن النبى سأل عنه وقال: ما مثله يجهل الإسلام. وفكر خالد مليًّا فيما قاله النبى عنه وشعر ببعض الزهو. وراح يفكر فى موقفه وفى المواقع الحربية التى دارت بين قريش وبين المسلمين. ففى معركة بدر كانت كل التوقعات الحربية تشير إلى ضرورة انتصار قريش فقد كانوا ٩٥٠ ضد ٣١٣ ومعهم من الفرسان ٢٠٠ أو ١٠٠ فى حين أن «محمدا» لم يكن لديه إلا فارسان ومع ذلك انتصر المسلمون انتصارا ساحقا إذ قُتل من قريش ٧٠ وأُسر ٧٠ آخرون فى حين لم يقتل من المسلمين سوى ١٤ فقط. وإذا كان رب محمد قد أعانه بألف من الملائكة حسب ما أخبرهم به الوحى **«إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين»** (٩ - الأنفال - ص ٥٩٠) فلماذا لم تهب آلهة قريش لنجدتها! ثم انتقل بتفكيره إلى وقعة أحد. وكيف أنه

أهدى إلى قريش ميزة عسكرية قلما يجود الزمان بمثلها حينما احتل التل الذى أخلاه رماة المسلمين ومع ذلك لم تنتصر قريش. بل إن «محمدا» والفئة القليلة التى ثبتت حوله بعثوا الحماس فى المسلمين الفارين فعادوا إلى ميدان المعركة وأبلوا قدر استطاعتهم فى حين تخاذل جنود قريش فلم يحرزوا النصر المرجو. وفى معركة الأحزاب. كان الخندق عملا رائعا لم يشهدوا مثله من قبل ولكنه كان خطا دفاعيا وكان من الممكن ردم جزء منه أو اقتحامه ولو ببعض التضحيات وكان من الممكن أيضا - لو أطالوا الحصار أن يوهن الجوع والعطش من عزيمة المسلمين ولكن هذه الريح الباردة الشديدة جعلت إطالة الحصار أمرا مستحيلا. لقد كانت «الطبيعة» تحارب مع المسلمين. وإن كان الوحى قد أخبرهم أن «ربهم» هو الذى أرسل هذه الريح بل وأرسل جنودا خفية تؤيدهم **«فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها»** (٩ - الأحزاب. ص ٥٩٦). لقد كان «ربهم» يتدخل دائما لنصرتهم فى حين أن آلهة قريش ثبت أنها عاجزة عن تقديم أى معاونة. وسرح بفكره: كيف كانت هذه الأصنام ستساعدهم! لاشك فى صحة ما يقوله «محمد» عن أنها لا تضر ولا تنفع! ثم راح يستعرض كيف جاء مسالما فى الحديبية لا يريد إلا الطواف بالبيت وتعظيمه فمنعته قريش ووضعت شروطا مجحفة فى الصلح قبلها النبى حفظا لأواصر الرحم. وها هو جاء للعمرة وخرج من مكة فى موعده حفظا لعهده. ووضحت الحقيقة جلية فى ذهنه وسأل نفسه: فيم التأخر عن الحق؟

وخرج خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ليلقى محمدا ويسلم على يديه فقابل عثمان بن طلحة الحجبى. فقال له: أما ترى محمدا قد ظهر على العرب فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا. فقال عثمان. هذا هو الرأى وتواعدا على اللقاء فى فجر اليوم التالى للسير إلى المدينة. فما سارا إلا قليلا حتى لقيا عمرو بن العاص الذى سأل خالدا عن وجهتهما فقال له: لقد استقام الطريق وظهر الأمر وإن هذا الرجل لنبى فأذهب وأسلم فحتى متى! فقال عمرو إنه ما سار هو الآخر إلا ليُسلم.

ووصل ثلاثتهم إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم. وتقدم خالد إلى النبى وقال: السلام عليك يا رسول الله. فرد النبى: وعليك السلام يا أبا سليمان ورحمة الله. فقال خالد: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال النبى: الحمد لله الذى هداك. قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يُسلمك إلا إلى خير. فقال خالد: يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك. فقال: الإسلام يجُبُّ ما قبله. ونطق عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بالشهادتين وعم المسلمون سرور عظيم لإسلام هؤلاء الثلاثة من صناديد قريش لا يماثله إلا فرحتهم بإسلام عمر بن الخطاب فى مكة من قبل خمسة عشر عاما (عمر بن الخطاب أسلم فى السنة الخامسة للدعوة أى قبل الهجرة بثمانية أعوام ونحن الآن فى آخر السنة السابعة للهجرة).

عود إلى مارية القبطية:

قلنا (ص ٧٤١) إن النبى حوَّل «مارية» إلى مسكن فى «العالية» فى أطراف المدينة. وفى أحد الأيام فرغ بيتها من الزاد فنزلت إلى المدينة وانتظرت بجوار المسجد حتى فرغ النبى من صلاة الظهر فقابلته وكان اليوم شديد الحرارة ورأى النبى أن يأخذها إلى بيت إحدى زوجاته حتى تخف شدة الحر. وكانت حفصة فى زيارة لبعض أقاربها فأخذ النبى مارية إلى بيت حفصة. وبعد الغذاء كان بينهما ما يكون بين المرء وأهله وعادت حفصة مبكرة عن موعد عودتها إذ كان المتوقع إن لا تعود قبل أن تخف شدة الحر بعد صلاة العصر. ولما انصرفت مارية قالت حفصة تعاتب النبى: أفى بيتى يا رسول الله. والله لقد سببتنى وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك وانخرطت فى البكاء. وتأثر النبى لبكائها وما كان ليهين بنت عمر ثانى أصدق أصدقائه. وأقبل عليها يترضَّاها وأسرَّ إليها بأن مارية حرام عليه ثم أوصاها أن لا تحدِّث أحداً بما كان وتعتبره كأن لم يكن. ورضيت حفصة ولكنها لم تستطع أن تكتم ما حدث عن عائشة فنبأتها به وذاع الخبر وغضب النبى على حفصة لإفشائها السر الذى أوصاها بكتمانه ويقال إنه طلقها تطليقة واحدة. ويرى المفسرون أن الآيات الخمس الأولى من سورة التحريم قد نزلت فى ذلك:

«يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم. وإذ أسرَّ النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبَّأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض. فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا»

(١ - ٥ التحريم).

والضمير فى **«إن تتوبا»** عائد إلى عائشة وحفصة. **«صغت قلوبكما»** أى مالت عن الواجب. وجواب الشرط محذوف وتقديره: يُعْفَ عنكما. **«وإن تظاهرا عليه»** - وأصلها تتظاهرا وحذفت إحدى التاءين - أى تتعاونا عليه بما يسوءه. فالله مولاه ومؤيده وجبريل والمؤمنون والملائكة يناصرون النبى وذلك لتوهين أمر هذا التظاهر ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من شغل النبى بهذه الأمور.

وتروى الروايات أن عمر بن الخطاب راح يحثو التراب على رأسه لما طلق النبى حفصة وراح يقول: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها. فنزل جبريل فى اليوم التالى يأمر النبى بإرجاع حفصة لعصمته. فأرجعها ولكن عائشة استمرت في ثورتها وحرَّضت نساء النبى الأُخريات فاعتزل النبي نساءه جميعا وقعد في مشربة له ليس فيها إلا حصير وقليل من الزاد. وخرج عمر إلى المسجد فألفى المسلمين مطرقين مهمومين ويقولون: طلَّق رسول الله نساءه: فذهب عمر إلى النبى واستأذن. فأخبره النبى أنه لم يطلق نساءه وإنما هجرهن شهرا. فانطلق عمر إلى

المسلمين فبشرهم وإلى ابنته فطمأنها.

ولقد ذكرت كتب التفسير – كسبب لنزول هذه الآيات – حكاية مغافير التى ذكرناها فى ص ٦٦٧ والتي تتضمن تحريم النبى شرب العسل على نفسه. ولما كان لكل من الروايتين مؤيدوها فليس ما يمنع من صحتهما معا. فبدأت مكايد الزوجات بحكاية شرب العسل ومغافير ثم جاءت بعدها حكاية مارية القبطية وتحريمها على نفسه فكان أن قرر النبى هجر نسائه جميعا شهرا حتى يثُبن إلى رشدهن ويقلعن عن غيرتهن ومكائدهن.

أحداث السنة الثامنة للهجرة

محرم		وفاة زينب بنت النبى.
		١ – سرية ابن أبى العوجاء إلى بنى سليم.
صفر		٢ – سرية عبدالله بن رواحة.
		٣ – سرية أسامة بن زيد إلي جهينة.
ربيــع الأول		٤ – سرية غالب بن عبدالله الكلبي إلى بنى الملوح.
		٥ – سرية محلم بن جثامة إلى إضم.
ربيع الثانى		٦ – سرية كعب بن عمير إلى بنى قضاعة.
		٧ – سرية شجاع بن وهب إلى هوازن.
جمادى الأول		٨ – غزوة مؤتة.
جمادى الثانى		٩ – غزوة ذات السلاسل.
رجب		١٠ – سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى جهينة بسيف البحر.
شعبان		١١ – سرية أبى حدرد إلى الغابة.
		١٢ – سرية أبى قتادة إلى غطفان.
رمضان	١٠	بدء السير لفتح مكة.
	٢٠	فتــح مكــة.
شوال	٦	غزوة حنين والطائف.
ذو القعدة		عمرة الجعرانــة. ثم العودة إلى المدينة.
		«سورة الحديد».
ذو الحجــة		الحج وأميره عقاب بن أسيد.
		مولد إبراهيم ابن النبى من مارية القبطية.

وفاة زينب بنت النبي:

كانت زينب ضعيفة البنية. وزاد من ضعفها سقطتها على الحجر حين طرحتها دابتها بفعل المشركين عند هجرتها وفقدت جنينها كما ذكرنا سابقا (ص ٥٢٠). ثم كان إسلام العاص بن الربيع كما ذكرنا (ص ٧٤٠) واجتمع الشمل بعودته إلى زوجته زينب. ومضت عشرة أشهر كانت زينب خلالها معتلة تعاني من ضعف عام ونزيف يعاودها بين الحين والآخر حتى توفيت في مستهل السنة الثامنه الهجرة.

سرايا السنة الثامنة للهجرة:

كان رسول الله إذا سمع أن قبيلة ما تجمع له تريد حربا يسارع إلى غزوهم في عقر دارهم قبل أن يغزوه وقبل أن يستعدوا فيشتت جموعهم. ويدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا صالحهم وإن أبوا استولى على ديارهم وأموالهم وسبى ذريتهم. وقد كانت السرايا تختلف من حيث عدد أفرادها حسب قوة القبيلة المرسلة إليها. وقد تميزت السنة الثامنة للهجرة بكثرة السرايا التي خرجت فيها (شكل ٤٧ ص ٧٥٤):

(١) سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم:

فور عودة النبي من عمرة القضاء. وفي محرم من أول السنة الثامنة بعث النبي ابن أبي العوجاء السلمي في ٥٠ فارسا إلى بني سليم. وعلم بنو سليم بسير السرية فجمعوا جمعا كثيرا فلما وصلت السرية ودعوهم إلى الإسلام رفضوا وقالوا لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه ورشقوهم بالنبل وأحاطوا بهم من كل جانب وقاتلوهم قتالا شديدا حتى قتلوا السرية كلها إلا ابن أبي العوجاء الذي فرَّ بجراحه وتحامل ورجع إلى المدينة فوصلها في أول صفر وأخبر النبي بما حدث.

(٢) سرية عبدالله بن رواحة إلى يسير بن رزام اليهودي بخيبر:

بلغ النبي أن يسير بن رزام اليهودي بخيبر يؤلب غطفان ويجمعهم لغزو المدينة فبعث النبي عبدالله بن رواحة في ٣٠ راكبا إلى خيبر. وأرادوا أن يبعدوا يسير بن رزام عن أهل خيبر حتى لا تكون معركة كبيرة واحتالوا ليخرجوه بعيدا فقالوا له إن رسول الله أرسل إليه ليستعمله على خيبر فخرج معهم في عدد من رجاله. فلما بلغوا «قرقرة» – على بعد ٦ أميال من خيبر – حاول يسير الغدر بعبد الله بن رواحة ومدَّ يده إلى سيفه ففطن عبدالله إلى حركته وعاجله بضربة من سيفه فقتله وقتلوا أصحابه وعادوا إلى المدينة.

(٣) سرية أسامة بن زيد إلى جهينة:

بعث رسول الله أسامة بن زيد في سرية إلى «الحرقة» بأرض جهينة وكان معهم رجل من

حلفائهم اسمه مرداس كان شديدا فى القتال فأحاط به عدد من رجال السرية فلما تكاثروا عليه وشهروا سيوفهم قال أشهد أن لا إله إلا الله. إلا أن أسامة ضربه بسيفه وقتله. فلما رجعوا إلى المدينة وعلم رسول الله بما حدث قال: يا أسامة، أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله! قال: يا رسول الله إنما قالها تعوذا من القتل. قال النبى: فمن لك يا أسامة بلا إله إلا الله. وظل يكررها فتمنى أسامة أن لو انشقت الأرض وابتلعته.

(٤) سرية غالب بن عبد الله الكلبى إلى بنى الملوح بالكديد:

وكان بنو الملوح يؤلبون القبائل على رسول الله. فبعث بسرية من ١٣٠ راكبا بقيادة غالب بن عبد الله الكلبى حتى إذا كانوا عند «قديد» لقوا الحارث بن مالك بن البرصاء أحد أشرافهم فأسروه فقال إنه إنما جاء ليسلم فأوثقوه حتى يتأكدوا من صدقه ثم كمنوا وأخذوا قومه على غرة فأصابوا منهم وغنموا أبلهم وأغنامهم. فاستنجد بنو الملوح بباقى عشائرهم الذين هبوا لنجدتهم وتكاثروا على السرية ولكن حدث أن نزل مطر غزير جعل الأرض بين الفريقين بركا تنزلق فيها الخيل فتمكن المسلمون من العودة إلى المدينة.

(٥) سرية محلم بن جثامة إلى إضَم:

نمى إلى رسول الله أن قوما من إضم يجمعون ليغيروا على مراعى المدينة فبعث النبى بسرية برئاسة محلم بن جثامة فلما قابلوهم حيوهم بتحية الإسلام فأمسكوا عنهم إلا أن محلم بن جثامة قتل عامر بن الأضبط لثأر قديم بينهما فلما قدموا المدينة وعلم النبي بما حدث غضب. وقيل نزل قوله تعالى: «**يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم** (السلام) **لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا**» وهى الآية ٩٤ من سورة النساء وقد سبق ذكرها فى صفحة ٦٢٥. وقدم أهل عامر يطلبون القصاص فعرض عليهم النبى دية ١٠٠ بعير ومازال بهم حتى رضوا وانصرفوا وظل رسول الله غاضبا على ابن جثامة ويقول «لا غفر الله لك» قالها ثلاثا. ومامكث محلم بعد ذلك إلا سبعة أيام حتى مات (السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٤٢٣).

(٦) سرية كعب بن عمير إلى بنى قضاعة بأرض الشام:

بعث النبى بكعب بن عمير الغفارى فى ١٥ رجلا إلى بنى قضاعة فساروا حتى انتهوا إلى حدود الشام ووجدوا جمعا كثيرا فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وقاتلوهم وتكاثروا عليهم حتى قتلوهم جميعا إلا واحدا نجا وعاد إلى المدينة وأخبر النبى بما حدث فهمّ أن يبعث سرية أخرى لتأخذ بثأرهم ولكنه أُبلغ أنهم ساروا إلى موضع بالشام تحت سلطان روما فلم يشأ أن يستعدى قوات الإمبراطورية الرومانية فترك مطاردتهم.

(٧) سرية شجاع بن وهب إلى هوازن:

بعث رسول الله شجاع بن وهب الأسدى فى ٢٤ نفرا إلى جمع من هوازن فخرج وكان يسير ليلا ويكمن نهارا حتى فاجأوهم وأغاروا عليهم وأصابوا إبلا وغنما كثيرة وساقوها إلى المدينة وقسم النبى الغنائم.

(٨) غزوة مؤتــة:

ذكرنا سابقا (ص ٧٢٥) أن النبى أرسل كتابا إلى حاكم بُصرى يدعوه إلى الإسلام وبينما كان المبعوث يمر بأرض مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو أحد كبار الغساسنة وقتله. وكان العرف أن المبعوثين الدبلوماسيين يتمتعون بحصانة تحميهم من القتل وثارت المدينة لهذا التصرف. وفى جمادى الأول من السنة الثامنة للهجرة جهّز النبى جيشا يتألف من ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة زيد بن حارثة وكان خالد بن الوليد جنديا عاديا فيه وطلب النبى من زيد أن يقتل الرجل الذى قتل مبعوثه وأن يعرض الإسلام على أهل مؤتة فإن أسلموا لا يقاتلهم. وقال رسول الله: زيد بن حارثة أمير الناس فإن قتل زيد فجعفر بن أبى طالب فإن قتل جعفر بن أبى طالب فعبد الله بن رواحة فإن قتل عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم. وكان ظن المسلمين أنهم سيقاتلون الغساسنة. وكانت الروح المعنوية بين المسلمين مرتفعة عند بدء مسيرتهم من المدينة وشيّعهم الناس قائلين: صحبكم الله ودفع عنكم وردّكم إلينا سالمين. وتخلف عبدالله بن رواحة حتى يصلى الجمعه مع رسول الله فلما قضيت الصلاة رآه النبى وسأله عن سبب تخلفه قال: أردت أن أصلى الجمعة معك ثم ألحقهم. فقال له النبى: لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما أدركت غدوتهم. فأسرع عبدالله بن رواحة فى السير حتى لحقهم.

وما إن وصل المسلمون حتى تناهى إلى سمعهم أن هرقل امبراطور الروم قد خف لنجدة حلفائه الغساسنة ووصل إلى الأردن ومعه ١٠٠,٠٠٠ جندى. ولاشك أن هناك بعض المبالغة فى هذا الرقم لأن جيوش الروم فى حربهم مع الفرس كانت تبلغ ١٠٠,٠٠٠ وما كان قيصر ليحشد كل قواته لنجدة الغساسنة ولو انضم إليهم – كما قيل – من الغساسنة ٥٠,٠٠٠ لكان جيش من ١٥٠,٠٠٠ كفيلاً باجتياح كل شبه الجزيرة العربية. لذلك يرى المؤرخون أن جيش الغساسنة كان حوالى ١٥,٠٠٠ وأنجدهم هرقل بمثلهم فتكون جيش من ٣٠,٠٠٠ مقابل ٣٠٠٠ من المسلمين أى عشرة أمثالهم. وبقى المسلمون فى معان يومين يتشاورون فى أمرهم. وكان طبيعيا أن يغشاهم التردد إزاء أعداد عدوهم التى لم يحسبوا لها حسابا واقترح بعضهم أن يرسلوا إلى النبى يستشيرونه أو يرسل إليهم مددا. ولكن عبدالله بن رواحة عارض هذا الرأى على اعتبار أن تأخير الالتحام سيعطى العدو انطباعا بأن المسلمين قد ساورهم الخوف فتزداد روحه المعنوية كما تتدنى الروح المعنوية لدى المسلمين. وقام عبدالله بن رواحه فى جموع المسلمين وحثهم على الاستبسال فى قتال العدو وختم قائلا: يا قوم والله إن التى تكرهون للتى

خرجتم تطلبون. الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة. وأثَّر هذا الكلام فى نفوس المسلمين وزال عنهم التردد فاستأنفوا السير فى اتجاه بصرى العاصمة. فلما رأى زيد بن حارثة – قائد السرية – أن التلال لا تصلح للقتال استدار إلى مؤتة وهناك وقعت المعركة فى الأسبوع الثالث من جمادى الأول من العام ٨ للهجرة.

ونظم زيد قواته حسب الأسلوب المعتاد بأن وضع بعضا منها فى القلب وجناحين. ورأسَ زيد القلب ومعه خالد بن الوليد كجندى عادى. وبدأت المعركة واشتبك الجيشان وكان كل قائد يحارب بنفسه على رأس قواته وقتل زيد بعد قليل من بداية المعركة ولما سقط اللواء من يده التقطة جعفر وواصل القتال إلى أن سقط بدوره فى الميدان. بعد أن أثخنته الجراح وبعد أن كان قد قتل عددا كبيرا من الروم والغساسنة فقد وجدوا به بضعا وتسعين طعنة ما بين ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم.. وقيل لما طُعنت يده اليمنى أمسك اللواء بيده اليسرى فلما طُعنت هى الأخرى احتضنه حتى قتل. والتقط اللواء بعده عبدالله بن رواحة وواصل القتال إلى أن سقط بدوره فى الميدان وهنا حدث ارتباك فى صفوف المسلمين كان من أثره أن هربت قلة منهم من ساحة المعركة أما الباقون فاستمروا فى مقاومتهم للعدو وإن كانوا يحاربون بغير نظام فقد كانوا بغير قائد وكان باستطاعة العدو انتهاز هذه الفرصة وتحقيق نصر مؤزر على المسلمين ولكن لسبب ما لم يفعلوا وظلوا يقاتلون أفرادا والمسلمون مستبسلون. ثم التقط اللواء ثابت بن أقرم وصاح قائلا: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم وتطلَّع إلى خالد وقدَّم إليه اللواء ولكن خالدا رفض إذ كان يدرك أنه حديث عهد بالإسلام وثابت بن أقرم أحق بالقيادة منه ولكن الأنظار كلها تركزت على خالد لما كانوا يعرفونه عنه من شجاعة ومهارة حربية. فأخذ خالد اللواء وتولى قيادة المسلمين.

وكان رسول الله بالمدينة قد صعد المنبر وأمر فنودى فاجتمع الناس فقال: أخبركم عن جيشكم هذا. إنهم انطلقوا فلقوا العدو. فقتل زيد شهيدا. واستغفر له. ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا. واستغر له. ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيدا. واستغفر له. ثم أخذ اللواء سيف من سيوف الله. خالد بن الوليد ففتح الله عليه. ومن يومئذ سُمِّى خالد «سيف الله».

واستعاد خالد سيطرته على جيشه الصغير وصمد حتى المساء وتوقف القتال. وكان على خالد أن ينقذ جيشه. فعمد بالليل إلى ميمنة الجيش فجعلها ميسرته وجعل الميسرة مكان الميمنة ومقدم القلب جعله فى المؤخرة وغيَّر من راياتهم وهيئتهم فلما أصبح الصبح رأى العدو وكأن أمامه جيشا جديدا فقالوا جاءهم مدد وتخاذلوا فهجم خالد بشراسة على طول الجبهة مما أحدث ارتباكا فى جيش العدو وكثيرا من الفوضى فتقهقروا. وظل خالد يحارب وقد تحطم فى يده تسعة سيوف وراح يقاتل بسيف عاشر. ثم أوقف خالد القتال وسحب قواته إلى الخلف

قليلا. وكان كل جانب يبغى وقتا يستعيد فيه أنفاسه. وكانت كفة المسلمين إلى الآن هى الراجحة. فهم لم يفقدوا إلا ١٢ رجلا فى حين كان قتلى العدو يقرب من المائة. ثم ارتأى كل فريق أن ينسحب إلى معركة قادمة. فعاد الروم والغساسنة إلى بصرى. والواقع أن خالدا لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. ويكفي أنه قد أنقذ جيشه من هزيمة متوقعة. فغادر مؤتة عائدا إلى المدينة ولم يكن معه غنائم ولا أسرى وحَدَّس الناس أنهم فروا من العدو فراحوا يحثون التراب ويقولون يا فُرَّار. فررتم فى سبيل الله. فمنعهم النبى من ذلك قائلا: ليسوا بالفُرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى. ولما علم باستشهاد ١٢ رجلا من رجاله أخبر أن لهم مكانة عظيمة عند ربهم وقال: ما يسرنى أو قال ما يسرهم أنهم عندنا! وبعد قليل من الزمن هدأت حدة غضب المسلمين على الجيش وأدرك المسلمون حكمة خالد وحسن تقديره للأمور والشجاعة التى أبداها فى مؤتة وإنقاذه للجيش من فناء محقق، وبقى اسم «سيف الله» عالقا فى ذهنه مما كفل له النصر فى كل معركة تالية.

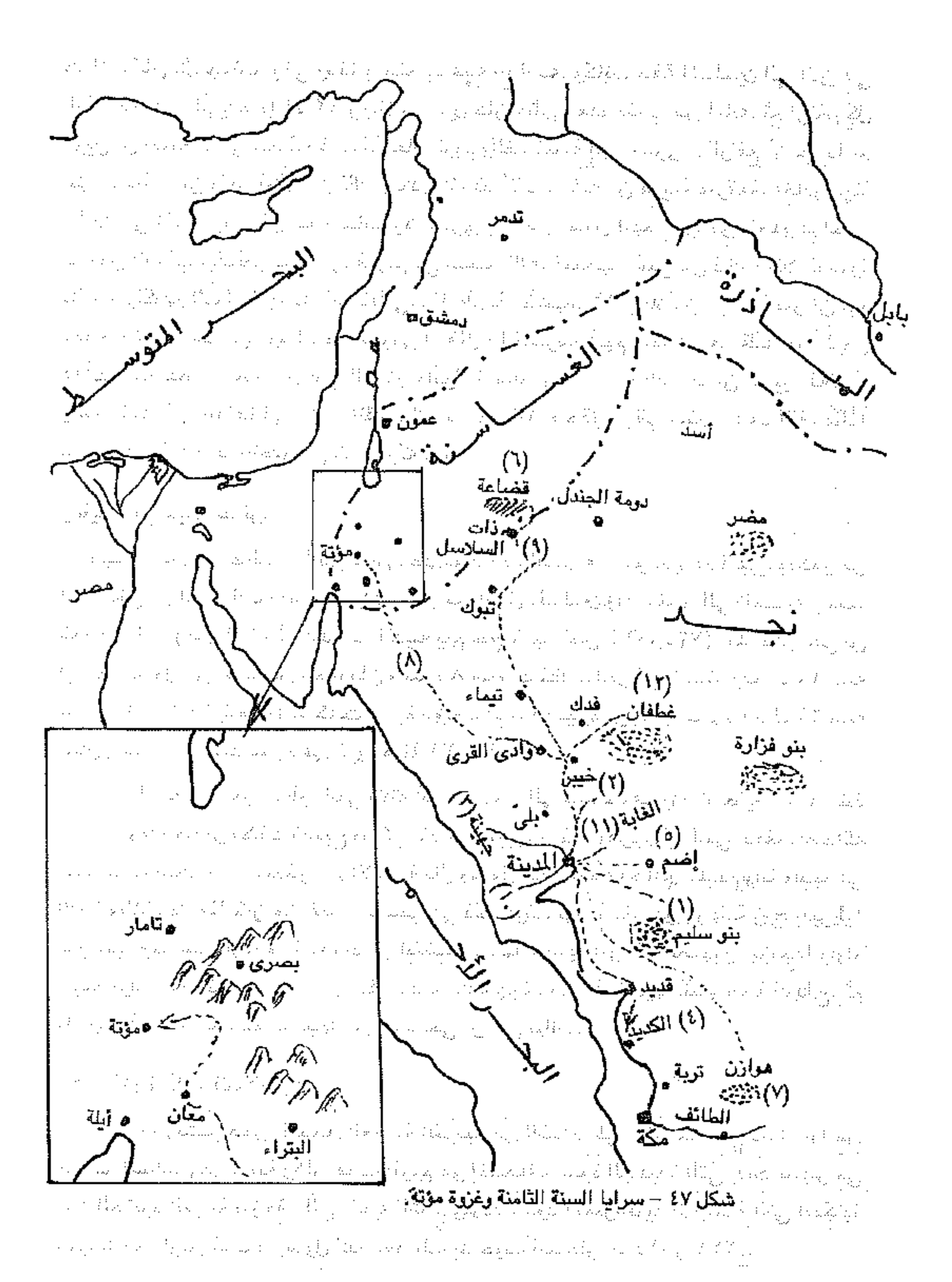
رعاية النبى لابنى جعفر:

وجعفر بن أبى طالب – الذى كان أحد قواد هذه السرية – هو ابن عم النبى. وأكبر من أخيه على بن أبى طالب بعشر سنوات وكان من أوائل المسلمين وقد هاجر إلى الحبشه رئيسا للفوج الثانى (ص ١٦٣) ثم عاد إلى المدينة يوم فتح خيبر (ص ٧٣٤، ٧٣٥). ولما كان على بن أبى طالب أول من أسلم من الصبيان وعمره ٨ سنوات فقد هاجر إلى المدينة وعمره ٢١ سنة (٨ + ١٣ سنة فترة مكة) ثم كانت غزوة مؤتة عام ٨ للهجرة أى كان عمره آنذاك ٢٩ سنة فيكون عمر جعفر عند سيره فى غزوة مؤتة ٣٩ سنة.

ولما جاء نعى جعفر انتظر النبى ثلاثة أيام ثم ذهب إلى بيت جعفر وقام بتعزية أسماء بنت عميس أرملة جعفر وكانت تصيح وتبكى فنهاها النبى عن ذلك وقرَّب إليه ابنى جعفر: عبدالله ومحمد. وراحت أسماء تذكر يتم الأبناء فقال رسول الله: آلعيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة!. ولما كان من غير المستحب فى ذلك الوقت ترك أرملة بدون رعاية زوج يدبر لها معيشتها ومعيشة أولادها فإنه بعد أن انقضت عدتها خطبها أبو بكر الصديق وتزوجها وأولم وليمة فولدت له ابنه محمد بن أبى بكر. ولدته بالشجرة بين مكة والمدينة أثناء حجة الوداع. ثم لما توفى أبو بكر الصديق تزوجها من بعده على بن أبى طالب.

(٩) غزوة ذات السلاسل:

راح الروم يشجعون القبائل العربية القريبة من الشام على غزو المدينة بعدما رأوا من صلابة المسلمين في مؤتة وكان هدف الروم هو إضعاف القوة الجديدة التى بدأت تظهر فى شبة الجزيرة العربية وتزحف إلى ناحية الشام وتهدد حدود الإمبراطوية الرومانية التى أنهكتها حروبها مع فارس (محمد رسول الله. عبد الحميد جودة السحار جـ ١٥ص ٢٢٦).



شكل ٤٧ – سرايا السنة الثامنة وغزوة مؤتة.

وأخذ الروم يغرون قضاعة (شكل ٤٧) على غزو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى ينعموا براحة تمكنهم من التقاط أنفاسهم والخروج من الأزمة المالية التى حاقت بهم نتيجة حروبهم المستمرة مع فارس.

وبلغ رسول الله أن قضاعة قد تجمعوا يريدون غزو المدينة. فدعا النبى عمرو بن العاص وقد مضى على إسلامه عام واحد وعقد له لواء حملة مكونة من ٣٠٠ مقاتل من المهاجرين والأنصار ومعهم ٣٠ فارسا. فسار بهم عمرو فلمّا وصل بليّ قوبل بالترحاب. فجدته لأمه من بليّ وسرَّهم أن النبى أمَّر ابن أختهم فأمدُّوه بالرجال وانطلق عمرو حتى خلَّف **وادى القرى** وراءه واقترب من **ذات السلاسل** وبينها وبين المدينة حوالى ٢٠٠كم. فلما قرب من مكان قضاعة بلغه أن عددهم أكبر كثيرا مما كانوا يتوقعونه ولم يشأ أن يغامر بدخول معركة يخسرها فبعث رسولا إلى النبى يطلب مددا. فبعث النبى إليه أبا عبيدة بن الجراح في ٢٠٠ من الرجال وفيهم سراة المهاجرين والأنصار مثل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب. فلما وصلوا أصرَّ عمرو بن العاص على أن يكون هو القائد. وكان أبو عبيدة حسن الخلق لين العريكة فرضخ لإصرار عمرو.

وكان البرد شديدا وزاد الليل من شدته وأراد الرجال إيقاد النيران ليستدفئوا فمنعهم عمرو من ذلك وشق ذلك عليهم. وفى عماية الصبح أمر عمرو بالهجوم على تجمعات قضاعة وهم غير مستعدين فقتل منهم الكثير وفر الباقون. وأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم عمرو. وضايق ذلك كثيرا من الجند لرغبتهم في زيادة غنائمهم وانتهت المعركة وقد رد المسلمون هيبتهم فى تلك المناطق. وكان في الليلة التالية أن عمرو بن العاص قد احتلم فتيمَّم وصلى بالناس. فلما عاد إلى المدينة اشتكى الناس إلى رسول الله من تصرفات عمرو وإصراره على قيادة الجند فقال النبى يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح. ولما سأله عن أمره بعدم إيقاد النيران للتدفئة أجاب بأن النيران تدل العدو على مكانه وعدد رجاله وأنه كان يريد مباغتة القوم. ولما سئل عن نهيه عن اتباع الفارين من العدو أجاب بأنه خاف من كمين أو مدد يكون مستخفيا فى مكان ما فيوقع بجنده. فأثنى النبى على حسن تفكيره وأخيرا سأله رسول الله: يا عمرو أوَصليت بأصحابك وأنت جُنب؟ فقال: والذى بعثك بالحق لو أنى اغتسلت لمت. لم أجد بردا قط مثله. وقد قال الله تعالى **«ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»**(١٩٥ – البقرة) فتبسَّم النبى ولم يرد.

(١٠) سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى جهينة بسيف البحر:

نمى إلى رسول الله أن جهينة تجمع للإغارة على المدينة فبعث أبا عبيدة بن الجراح فى ٣٠٠ من المهاجرين والأنصار – وفيهم عمر بن الخطاب – إلى ذلك الحى على ساحل البحر الأحمر شمالى ينبع وبينها وبين المدينة حوالى ١٥٠كم. ومرت أيام وليالى وهم يبحثون عن القوم الذين فروا لما سمعوا بسيرهم – دون جدوى حتى كاد التمر – وهو زادهم – أن ينفذ.

ووصلوا إلى ساحل البحر وهم يعللون النفس بأنهم سيقابلون عدوهم ويغنمون منه زادا ولكن قبيلة جهينة كانت قد بعدت عن متناول يدهم. وزاد الجوع بأفراد السرية. ثم ساروا على ساحل البحر فإذا حوت ضخم قد لفظة البحر فهرعوا إليه وأيقنوا أنه رزق ساقة الله إليهم فأكلوا منه ثم لما نفد عاد الجوع إليهم وتراءى لهم شبح الموت. وكان في السرية قيس بن سعد بن عبادة، فقابلوا واحدا من سكان الساحل فراح قيس يقايضه على خمس إبل يأخذها منهم ويدفع لهم ثمنها تمرا في المدينة وأشهد نفرا من أفراد السرية على هذه البيعة. ثم علم صاحب الإبل أن البساتين التي في المدينة هي لأبي قيس وليست لقيس نفسه وأراد أن يلغي البيع ولكن قيسا طمأنه أن أباه يقضي عن الأباعد ويحمل الكَلّ ويَطعم في المجاعة وحريٌ به أن يقضي بيع ابنه وتم البيع وبدأت العودة. وكان قيس يذبح كل يوم جزورا ويطعم السرية حتى وصلوا إلى المدينة بعد خمسة أيام ووفيٌ صاحب الإبل ثمن إبله وكساه وأعطاه ما يركبه (ابن كثير، السيرة النبوية جـ ٣ ص ٥٢١).

(١١) سرية أبي حدرد إلى الغابة:

جاء رجل من جثم إلى الغابة شمال المدينة (انظر شكل ٤٥ – ص ٣١١) ليحرِّض قيسا – شيخها – والناس على حرب رسول الله. ولما علم رسول الله بذلك دعا أبا حدرد ورجلين من المسلمين وأمرهم بالخروج حتى يأتوا بخبر هذا الجمع. فخرجوا ومعهم سلاحهم، وكانوا يتخفون بالنهار ويسيرون بالليل حتى وصلوا موضع القوم وكمنوا حتى ظلمة الليل. وخرج قيس يبحث عن أحد الرعاة تأخر في العودة فرماه أبو حدرد بسهم أصابه في مقتل. وظن القوم أن المهاجمين كثيرون ففروا واستولي أبو حدرد وصاحبيه على غنمهم وما تركوه من أموال وساقوها إلى المدينة. وكانت السرية في شعبان من سنة ٨ للهجرة.

(١٢) سرية أبي قتادة إلى غطفان:

كانت غطفان مستمرة في عداوتها للمسلمين وبلغ رسول الله أن أحد بطونها يقودهم رفاعة بن قيس قد جمعوا له ويزمعون الإغارة على المدينة. فأمر رسول الله أبا قتادة بتجهيز سرية من ١٥ رجلا ليفاجيء الجمع ويفرق شملهم فلا يسيروا إلى المدينة. وخرج أبو قتادة – في شعبان أيضا – حتى أتوا إلى منزل القوم متخفين ينتظرون غرة ليباغتوهم. وتحينوا فرصة إبتعاد زعيمهم رفاعة بن قيس عن باقي الرجال فأردوه قتيلا بسهم. ثم أحاطوا بالمقاتلين الذين كانوا قد تجمعوا – وقاتلوهم ففروا وتشتتوا. وغنم المسلمون ١٠٠ بعير و ٢٠٠٠ شاة وعددا من السبايا عادوا بها إلى رسول الله فقسمها بينهم بعد استبعاد الخمس.

فتـــح مكـــة

كان بين بني بكر وخزاعة عداوة قديمة. فلما كان صلح الحديبية بين النبي وقريش – وكان

من ضمن شروطه «أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده فليدخل ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه» - فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة فى عقد النبى. والحقيقة أن الود بين خزاعة وبنى هاشم كان موجودا من قبل إذ أظهر أبى بن كعب كتاب جده عبد المطلب لخزاعة والذى جاء فيه: «باسمك اللهم. هذا عهد عبد المطلب ابن هاشم لخزاعة إذا قدم عليه شاهدهم أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا. اليد واحدة والنصر واحد».

وحدث أن شخصا من بني بكر راح يهجو رسول الله وسمعه غلام من خزاعة فضربه على رأسه فشجّه. وأثار هذا الحادث العداء القديم بين القبيلتين وطلب بنو بكر من قريش أن يمدوهم بالرجال والسلاح فأمدُّوهم. وكان أكثر القرشيين تلبية هم صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو لعداوتهم لرسول الله. فجاءوا خزاعة ليلا فقتلوا منهم عشرين رجلا. ولما كان ذلك يعتبر نقضا لبنود صلح الحديبية خشوا مغبة الأمر. وتمنوا أن تمر هذه الحادثة دون أن يعلم بها النبى. ولجأوا إلى أبى سفيان يستشيرونه فقال: هذا أمر لم أشهده ولم أرغب فيه وإنه لشر. والله ليغزونا محمد. ولقد حدثتنى هند بنت عتبة - زوجته - أنها رأت رؤيا كرهتها. رأت دما أقبل على الحجون (غربى مكة) يسيل حتى وقف بالخندمة (جبل شرقى مكة). وكرهت قريش ما حدث وندموا على مناصرتهم لبنى بكر. وكان عمرو بن سالم الخزاعى - سيد خزاعة - قد خرج فى أربعين راكبا قاصدا المدينة ليشكو إلي النبى ما فعل بنو بكر وقريش ويستنصره عليهم بمقتضى الحلف.

وكان النبى صبيحة الواقعة قد دخل على عائشة وقال لها: حدث فى خزاعة حدث. فقالت. يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم. قال: ينقضون العهد لأمر يريده الله.

كانت قريش - لما ندمت على فعلتها - رجوا ألا يهب النبى لنصرة خزاعة فجاءوا إلى أبى سفيان وقالوا له: مالها إلا سواك اخرج إلى محمد فكلِّمه فى تجديد العهد وزيادة المدة. فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين وسار أبو سفيان مسرعا لإنجاز المهمة. وتنبأ النبى بما ستفعل قريش فقال لوفد خزاعة: كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه. ارجعوا وتفرقوا فى الأودية. وسُرَّ الوفد بما سمع من النبى وفهموا أنه يضمر أمرا ويريد أن يتكتموه. فعادوا إلى ديارهم. فريق عن طريق الساحل وفريق عن الطريق المعتاد. فلما كانوا بسعفان قابلهم أبو سفيان وسألهم عن أحوال المدينة فأنكروا أنهم كانوا بها وقالوا إنهم كانوا فى مهمة صلح بإحدى قرى الساحل. وانتظر أبو سفيان حتى انصرفوا وفتَّ فى أبعار إبلهم فوجد فيها النوى فعرف أنهم قد جاءوا المدينة وعلفوا بها النوى وقال: أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً. وانطلق مسرعا إلى المدينة راجيا أن ينجح في سفارته. فلما وصل المدينة دخل على ابنته أم حبيبة - زوجة رسول الله - فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله

طوته عنه فقال يا بنية ما أدري أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت بل هو فراش رسول الله وأنت مشرك ولم أحب أن تجلس عليه. فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله وقال له: يا محمد، اشدد العقد وزدنا فى المدة. فقال النبى: ولذلك قدمت؟ هل كان من حدث قِبَلكم؟ فقال أبو سفيان: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نُغيِّر ولا نبدل. فلم يرد عليه رسول الله. فخرج من عنده حتى أتى أبابكر فطلب منه أن يكلم رسول الله فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب وكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله. فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على عليّ بن أبى طالب وعنده فاطمة وابنهما الحسن. فقال: يا عليّ إنك أمسُ القوم بى رحما. وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا. فاشفع لى إلى رسول الله. فقال عليّ: ويحك يا أباسفيان. والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة وقال يا ابنة محمد هل لك أن تأمري بُنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. فقالت. ما بلغ بُنيَّ ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله. فتوجَّه إلى على وقال: يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحنى. قال: والله لا أعلم لك شيئا. ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال أوَ ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً؟ قال لا والله ما أظنه ولكنى لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فى المسجد وقال: أيها الناس، إنى أجرت بين الناس (وذلك مثلما نقول فى عصرنا: أنا مستجير بكم. وهو أخذ عهد على الناس ألا يقتله أحد أو يتعرَّض له). ثم ركب بعيره وانطلق إلى مكة. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال جئت محمدا فكلمته فوالله ماردَّ عليَّ شيئا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو. ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم. وأخبرهم بما فعل وما طلب من النبى فقالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال لا: قالوا ويلك فما يغنى عنك ماقلت قال لا والله ما وجدت غير ذلك.

نحن نعرف الآن أن النبى قرر فتح مكة ولكن ذلك لم يدُر وقتئذ بأذهان قريش فقد كان ظنهم أن النبى سيعمد إلى الانتقام لمصرع العشرين رجلا من خزاعة. ثم يعود لمهاجمة قوافلهم ويشتد فى حصار تجارتهم إلى الشام فيصيبهم أبلغ الضرر وخاصة أن جميع القبائل حول المدينة قد أصبحت تدين بالإسلام. فكان كل همِّ قريش أن يستمر العقد كما كان. ولكن الرسول كان يفكر فى أمر آخر. كان يريد القضاء على الشرك والذى ترأسه قريش حتى يتفرَّغ المسلمون لنشر دين الله فى باقى أنحاء الجزيرة العربية ثم بعد ذلك فيما وراءها.

الاستعداد لفتح مكة:

أمر النبى الناس التجهيز للحرب وأعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالتكتم. وقال: اللهم

جذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. لم يكن النبي يريد قتالا في مكة بل كان يريد أن يستسلم أهلها بدون حرب وذلك لا يكون إلا إذا فاجأتهم قوة لا قِبَل لهم بمقاومتها. ولذلك جهّز جيشا خرج فيه كل المهاجرين والأنصار ومن أسلم من القبائل حول المدينة مثل قبائل سليم وأشجع ومزينة وأسلم وغفار. فمنهم من جاءه وهو بالمدينة ومنهم من لحقه وهو في الطريق إلى مكة فبلغ الجيش عشرة آلاف مقاتل ولم يعلن وجهته لتكون المباغتة.

حاطب يُحذِّر أهل مكة:

أثناء الاستعداد والتجهيز للمسير إلى مكة والرسول يكتم وجهته كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بنيّة النبي في غزوهم وأعطاه لامرأة وجعل لها أجراً أن تبلغه لقريش فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت. وأخبر الله رسوله بما صنع حاطب. فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم. فخرجا حتى أدركا المرأة بذي الحليفة (على بعد ٢٠كم من المدينة) فاستوقفاها وأنزلاها وبحثا عن الخطاب في رحلها فلم يجدا شيئا. فقال لها علي بن طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبنا ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك أو كما نقول في عصرنا «القيام بتفتيش ذاتي» وهذا يستدعي كشف ثيابها فلما رأت الجد منه قالت أعرض فأعرض. فحلَّت قرون شعرها واستخرجت الكتاب ودفعته إليه فأتى به رسول الله. فدعا رسول الله حاطبا وقال له: يا حاطب ما حملك على هذا؟ فقال يا رسول الله. أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت وما بدّلت ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. والمعنى أنه توقع أن تقع معركة عنيفة عند فتح مكة وعند انهزام المشركين قد يعمدون إلى قتل أقارب المسلمين فأراد أن تكون له يد عندهم حتى يحفظوا أهله وولده مع تأكده أن إخبارهم لن يضر المسلمين شيئا. وقد ورد هذا المعنى في رواية أخرى أن حاطب قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله. إني كنت امرءاً من قريش ولم أكن من أنفسهم وكان المهاجرون لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني النسب أن أصطنع إليهم يدا يحمون قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني. فقال النبي إنه قد صدقكم. وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله: وما يدريك يا عمر فلعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وزاد الطبري أن النبي قال: لا تقولوا له إلا خيرا.

ونزلت الآيات الأولى من سورة **الممتحنة** في هذه المناسبة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يُخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في

سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. إن يثقفوكم (يظفروا بكم) **يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم** (بالقتل) **وألسنتهم بالسوء** (بالسباب) **وودُّوا لو تكفرون. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير. قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملك لك من الله من شيئ. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولَّ فإن الله هو الغنى الحميد. عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»** (١ - ٩).

والآيات. وإن نزلت بصدد حادثة حاطب بن أبى بلتعة - إلا أن أسلوبها مُوجَّه إلى عامة المسلمين ويتفق مع ما سبق نزوله فى سورة المجادلة (آية ٢٢ ص ٦٦٣):

«لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم». فإذا كان قد نُهى عن موادة المشركين ولو كانوا ذوى قربى فالنهى أشد إذا لم تكن هناك قرابة. والنهى أشد وأشد لأناس بدأوا المسلمين بالعداوة والأذى ويضمرون لهم الشر فلا يجوز إطلاعهم على أسرار المسلمين ويجب الوقوف منهم موقف الحذر.

أما عن التصرف الذى تصرفه رسول الله حيال حاطب بن أبى بلتعة ففيه حث على الإغضاء عن موقف عارض قد يصدر من بعض الأفراد نتيجة ضعف نفسى إذا ما كان هناك يقين بأن صاحبه غير خائن ولا غادر وله مواقف سابقة تشهد بإخلاصه. ثم راحت الآيات تحث المسلمين على اتخاذ إبراهيم - أبو العرب - أسوة فى كيفية إعلان عدائه للكفار إذ اتبع أسلوبا بالغ القوة شديد الحسم إذ هو ومن آمن معه تبرأوا كلية من المشركين ومن الآلهة التى يعبدونها من دون الله وأعلنوا أن عداءهم لهم مستمر إلى أن يؤمنوا بالله وحده. وإذا كان إبراهيم قد طلب المغفرة لأبيه فذلك كان قبل أن يعلم أنه مُصرٌّ على عداوته له وكان بناء على وَعْدٍ وَعَدَ به إبراهيم أباه حين قال: **«سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا»** (٤٧ سورة مريم) وذلك ما لايُقتدى به لأنه كان حالة خاصة بإبراهيم.

قيل إنه لما نزل فى أول الآيات نهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله أولياء امتثل المهاجرون

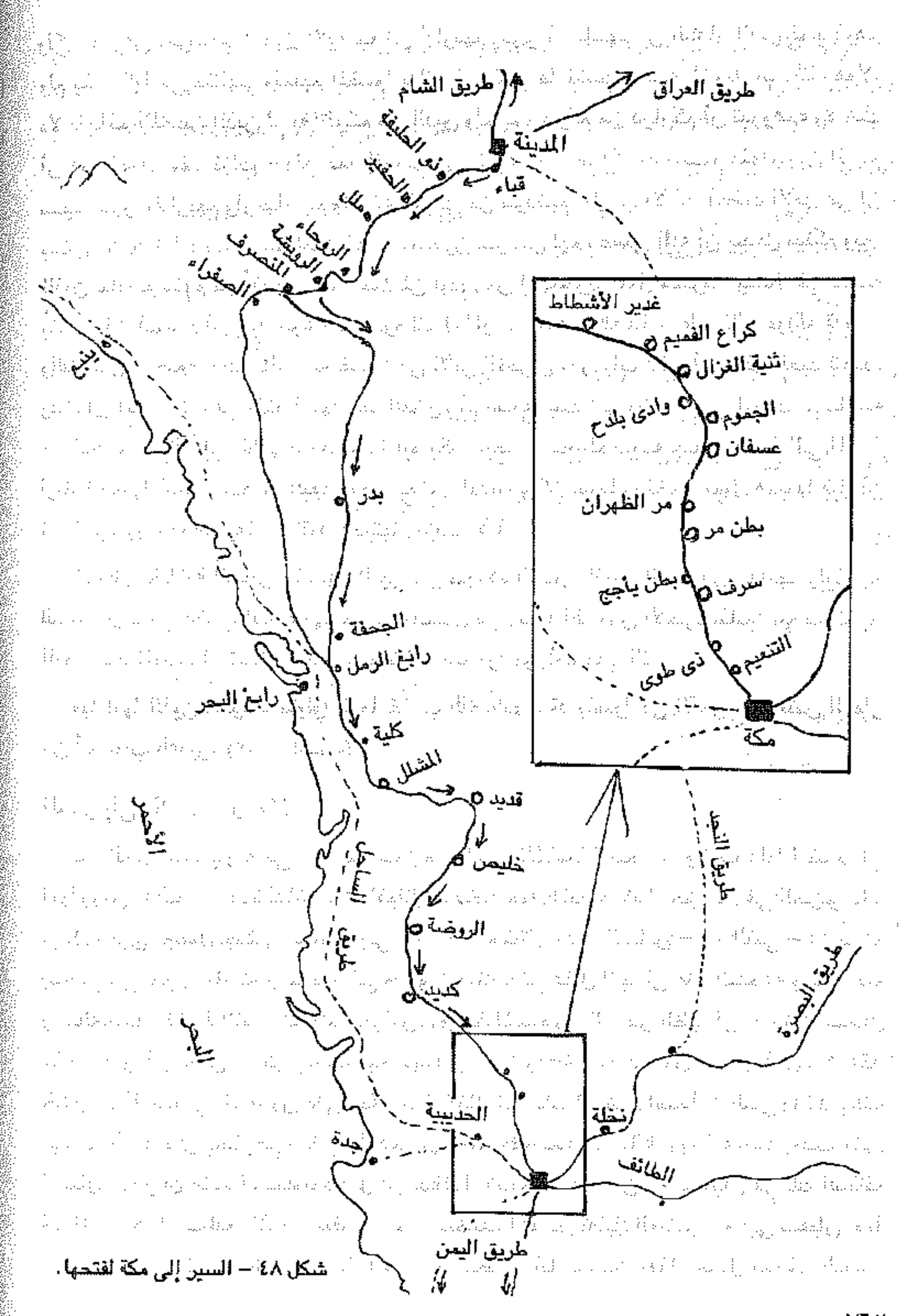
ولكن حزٌّ فى نفوسهم شمول الآية لبعض أقاربهم وذوى أرحامهم من الكفار الذين لم يؤذوهم ولم يشتركوا فى قتالهم. ولعلهم أفضوا بذلك إلى النبى فاقتضت حكمة التنزيل إستثناء هؤلاء **«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم»** ولا شك أن هذه الآيات وقد نزلت – وقد عُقِد العزم على فتح مكة – قد أثلجت صدور المهاجرين إذ هم سيقابلون أقاربهم وأرحامهم ولم تنه الآيات عن مودّتهم. بل إن الآيات أعطت الأمل فى أن بعض من كانوا أعداء للمسلمين قد يصبحون موادّين لهم **«عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة»** وفى هذا حث لمن أوذى من المهاجرين قبل هجرته ويحمل في نفسه بُغضا لمن آذوه – أن ينبذ كرهه لمن آذوه لتحل المودة محله. والله قادر على ذلك: **«والله قدير . والله غفور رحيم»**. فإذا كان الله غفورا أى كثير الغفران فمن باب أولى أن يغفر العبد للعبد. وقيل إن الآية نزلت فى «قتيلة بنت عبد العزى» أم أسماء بنت أبى بكر – وهى ليست أم عائشة – بقيت فى مكة على الشرك ففارقها أبو بكر. وبعد صلح الحديبية جاءت قتيلة إلى المدينة لزيارة ابنتها أسماء وذهبت إليها ومعها بعض الهدايا ولكن أسماء رفضت قبول هديتها قبل أن تسأل رسول الله فأمرها أن تقبل هديتها ونزلت الآية.

ثم تأتى خاتمة السورة بإعادة النهى عن موالاة الكفار الذين بالغوا فى عدائهم وإيذائهم للمسلمين حتى غضب الله عليهم فغدوا يائسين من رضا الله ومن الآخرة ظانّين أنه يستحيل البعث بعد الموت كاستحالة عودة من ماتوا وأصبحوا من أصحاب القبور:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم. قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور» (١٣ – الممتحنة).

المسير إلى مكة: (شكل ٤٨).

بدأ النبى مسيرته فى ١٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وكما قلنا انضم إلى المهاجرين والأنصار عدة كتائب من القبائل المسلمة حول المدينة. كما لحق بهم فى الطريق عدة قبائل أخرى فوصل جيش المسلمين إلى ١٠,٠٠٠ مقاتل. وقرر العباس – عم النبى – أن يُسلم وينضم إلى جيش المسلمين فسار فى طريق المدينة حتى قابل الجيش عند الجحفة ومعه أهله وعياله. وقد اغتبط النبى لإسلام العباس. ووصل المسلمون إلى مر الظهران – ١٠كم شمال مكة – دون أن تحس قريش بمسيرتهم. وساور العباس قلق شديد حول مصير أهل مكة فقد خشى إن استولى المسلمون على مكة عنوة بقتال أن تهلك قريش واستأذن النبى وأخذ بغلته ويمم شطر قريش يحذرهم مما ينتظرهم من عواقب وخيمة إذا ما قرروا المقاومة وطلب منهم إرسال مبعوثين عنهم ليستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكان أبو سفيان في تلك اللحظة قد غادر مكة ليستطلع الأخبار بنفسه. وفى منتصف الطريق تقابل العباس مع أبى سفيان. ولما سأله هذا عما ينتويه المسلمون قال العباس: ويحك يا أبا سفيان. هذا رسول الله فى الناس.



شكل ٤٨ – السير إلى مكة لفتحها.

واصباح قريش والله. فقال أبو سفيان فما الحيلة فداك أبي وأمي. قال العباس: لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك. فركب أبو سفيان على البغلة وراء العباس ويمما شطر معسكر المسلمين ووصلاه بعد هبوط الليل وكان عمر بن الخطاب في هذه الليلة على رأس الحراسة وكان يطوف بالمعسكر فلما رأى أبا سفيان قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم أسرع إلى خيمة النبي. وأدرك العباس ما يهدف إليه عمر فحث بغلته على السير ووصل الثلاثة إلى خيمة النبى في وقت واحد. وثار جدل كبير بين عمر والعباس إذ طلب العباس حماية أبى سفيان لأنه أجاره ولا يجب إلحاق أى ضرر به قبل الاستماع إليه. وصرف النبى الرجال الثلاثة وطلب إليهم العودة فى الصباح. فأخذ العباس أبا سفيان إلى خيمته حيث قضى ليلة ليلاء يفكر أثناءها فيما سيحل به فى الغد. ولما أصبح الصباح غدا العباس بأبى سفيان إلى النبى. فلما رآه النبى قال: ويحك يا أبا سفيان. ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال أبو سفيان: بأبى أنت وأمي. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله آخر غيره لقد أغنى عنى شيئا بعدُ. قال النبى: ويحك يا أبا سفيان. ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ فقال أبو سفيان. بأبى أنت وأمى. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا. وهنا هاج العباس وقال لأبى سفيان: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك. فقال أبو سيفان على عجل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وقال العباس للنبى: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا. فقال النبى نعم: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وفرح أبو سفيان لأن ذلك كان تكريما له. فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: يا عباس احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. ففعل العباس كما قال النبى ومرت القبائل على راياتها. وكلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: يا عباس من هذه؟ فيقول: سليم. ثم تمر قبيلة أخرى فيقول يا عباس من هؤلاء! فيقول: مزينة. وهكذا. فقال أبو سفيان ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما. فقال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة. فقال أبو سفيان: فنِعْمَ إذن.

وكانت راية إحدى الكتائب مع سعد بن عبادة فلما مرَّ بأبى سفيان وحاذاه قال يا أبا سفيان. اليوم يوم الملحمة. واليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشا. فلما مر رسول الله بأبى سفيان قال له أبو سفيان: يا رسول الله. أمرت بقتل قومك؟ فإن سعدا يزعم أنك قاتلنا وردَّد ما قال سعد. واستمر أبو سفيان قائلا: أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم فقال النبى: يا أبا سفيان لقد كذب سعد. اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله قريشا. ونزع الراية من سعد وأعطاها لابنه قيس. وساد السكون لحظة وقال العباس لأبى سفيان: النجاء إلى قومك.

وعاد أبو سفيان مسرعا إلى مكة وتجمع الناس حوله يستطلعون الخبر فصرخ فيهم قائلا: يا معشر قريش. هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وحدث هرج كبير بين القوم وتساءلوا ساخرين: وما تغني عنا دارك؟ فقال أبو سفيان. ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن. واستراح القوم لهذا القول فيما عدا هند بنت عتبة زوجته فقد كانت تعيش على أمل أن تثأر من محمد وصحبه لمقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد. فوثبت وأخذت بلحيته وقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس. قُبِّح من طليعة قوم. وبهت أبو سفيان من عنف زوجته وأبعدها عنه ودخل داره (الحميت = السمين. الدسم = الأغبر. الأحمس = الغضوب أو الكثير اللحم).

دخول مكة :

كان النبي حريصا على ألاَّ تراق نقطة دم في مكة ولكن وجود رجال ذوي عداوة شديدة للمسلمين من أمثال عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية قد يُعقِّد الأمور ويجعل ذلك عسيرا. ومن هنا كان قرار النبي بدخول مكة بقوات من جميع نواحيها. وصام النبي والمسلمون حتى إذا بلغوا كراع الغميم أفطر وأفطر معظم المسلمين ولكن النبي أُخبر أن بعض المسلمين تابعوا الصوم فقال: أولئك العصاة.

وكما هو معروف تقع مكة بوادي وتحيط بها الجبال من كل ناحية وهناك أربع طرق توصل إلى مكة كل منها يمرُّ بشعبة من شعاب التلال. وقَسَّم النبي جيشه إلى أربع فرق ورسم لكل فرقة طريقها الذي تتبعه لدخول مكة (شكل ٤٩):

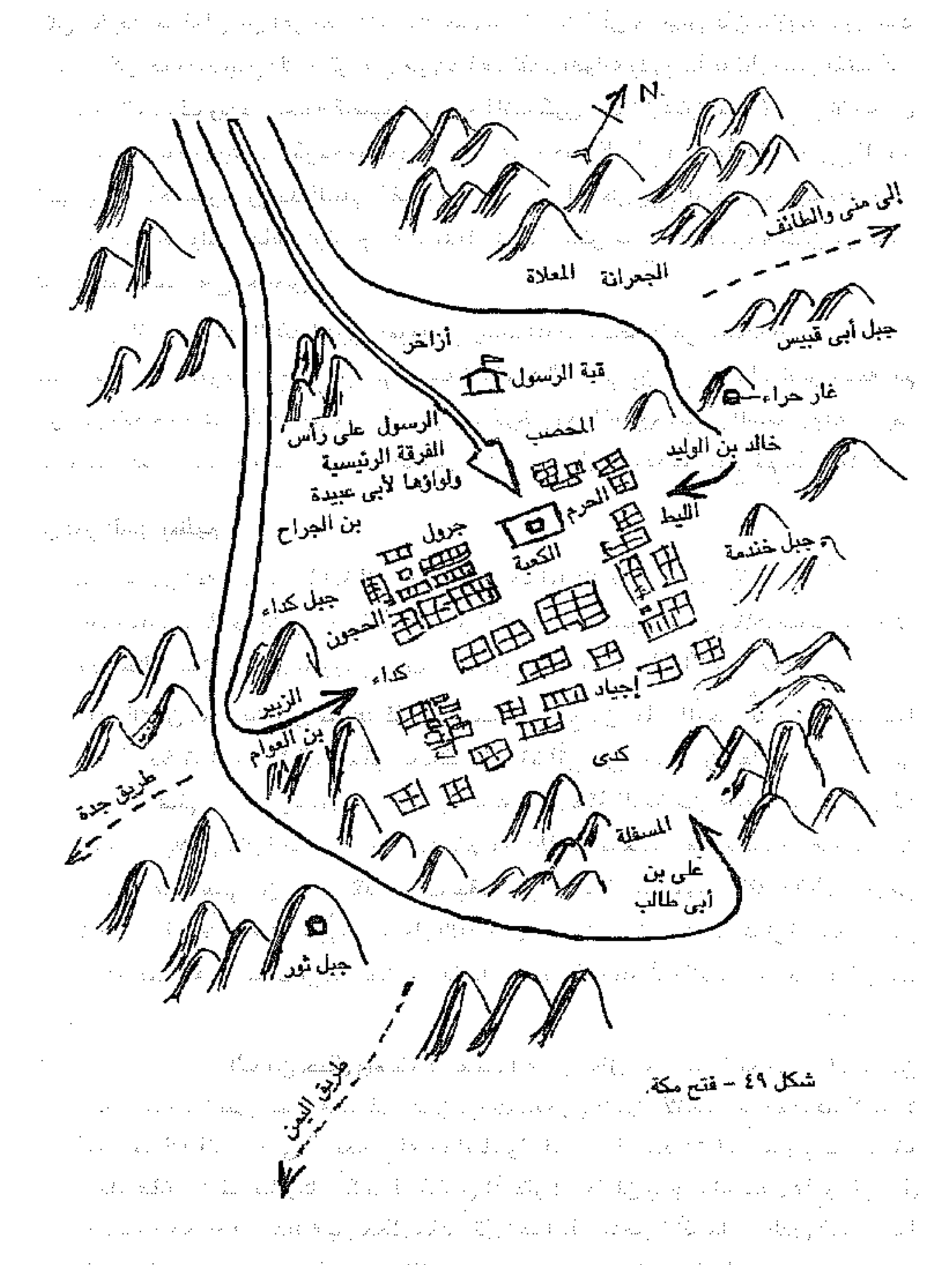
١ – **الفرقة الرئيسة** وعلى رأسها النبي نفسه ولواء الكتيبة معقود لأبي عبيدة بن الجراح ويدخل من الطريق الرئيسي عند مدخل أزاخر من الشمال الغربي.

٢ – **الفرقة الثانية** ويقودها الزبير بن العوام وتدخل من الجنوب الغربي عبر شعبة تقع غربي جبل «كداء».

٣ – **الفرقة الثالثة** ويقودها علي بن أبي طالب وتدخل من «كدى» في الجنوب الشرقي.

٤ – **والفرقة الرابعة** ويقودها خالد بن الوليد فتدخل مكة من ناحية الشمال الشرقي عند الليط عند جبل خندمة ومعظم رجال هذه الفرقة من أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة.

وتقدمت الفرق الأربع في وقت واحد بهدف تشتيت جهود قريش فلا يستطيعون المقاومة ولا يجدون لهم من سبيل إلا الاستسلام. وقد أكَّد النبي على عدم البدء بالقتال مالم تبد قريش مقاومة مسلَّحة. ودخل المسلمون مكة في ٢٠ رمضان أي بعد ١٠ أيام من خروجهم من المدينة وكانت هذه أسرع مسيرة لجيش. وقد عمل معظم رجال قريش بنصيحة أبي سفيان فدخل كل واحد داره ودخل بعضهم إلى المسجد ولم ترق دماء إلا في القطاع الذي أشرف عليه خالد بن الوليد فقد حشد عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية جماعة للقتال وواجه الاثنان كتيبة خالد.



شكل ٤٩ – فتح مكة.

وكان عكرمة وصفوان من أعز أصدقاء خالد قبل إسلامه كما أن صفوان كان متزوجا من أخت خالد، ولكن خالد لم يدع ذلك يؤثر على موقفه فقد تقدم بقواته ولم يبدأ بقتال ولكن المشركين بادروهم بالسيوف وبعد ملحمة قصيرة تراجع المشركون بعد أن قتل منهم ١٢ رجلا مقابل رجلين من المسلمين وهرب عكرمة وصفوان وفر باقي الجند كل إلى داره وأغلقه عليه. ولما علم النبي بأمر هذه المعركة وبعدد القتلى غضب من خالد لأنه لم يكن يريد إراقة دماء ولما يعلمه من حدة طبع خالد. ولكن خالدا أوضح أنه لم يفعل شيئا أكثر من صدِّه لهجوم كان هو هدفه فسكت عنه النبي على مضض.

وتقدم النبي بقواته والتقت الفرق جميعا فى وسط المدينة ودخل النبي ساحة الحرم وهو على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح، وهو يحني رأسه تواضعا لله حتى إن لحيته لتكاد تمس رحله. ثم قال: إن الله حرَّم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض وصاغه يوم صاغ الشمس والقمر وما حياله من السماء حرام وإنه لم يحل لأحد قبلي. وإنما أُحِلَّ لي ساعة من نهار ثم عاد كما كان.

من أمر النبي بقتلهم:

كان رسول الله قد أمر قادة الكتائب أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم. إلا أنه سمَّى أناسا بأسمائهم وأمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة وهم ثمانية رجال وثلاث سيدات ويمكن تشبيههم حاليا بمن يسمَّون «مجرمو حرب» وعقوبتهم الإعدام. وهؤلاء الأفراد هم:

١ – **عبد الله بن سعد بن أبي سرح:** كان قد أسلم وأصبح من كُتاب الوحي فارتد مشركا كما سبق أن ذكرنا (ص ٣٧١). وتخفَّى عبدالله فترة ثم أتى إلى عثمان بن عفان وكان أخاه في الرضاعة فأتى به إلى رسول الله بعد أن اطمأن أهل مكة فاستأمن له وقيل إن رسول الله صمت طويلا ثم قال لعثمان: «نعم» وأسلم عبدالله بن سعد. فلما انصرف عنه عثمان وعبدالله قال النبي لمن حوله: لقد صمتٌ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلاَّ أومأت إليَّ يا رسول الله؟ قال: إن النبي لا يقتل بالإشارة. وقد حَسُنَ إسلام عبدالله بن سعد وولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر.

٢ – ٣ – ٤ – **عبد الله بن خطل وأمتاه:** وعبدالله بن خطل رجل من تميم بن غالب وكان مسلما. فبعثه النبي ليفقه قوما في الدين وبعث معه رجلا من الأنصار يخدمه. فنزلا منزلا وأمر عبدالله الأنصاريَّ أن يصنع له طعاما. ولما استيقظ وجد أن الأنصاري لم يصنع الطعام فقتله وارتد مشركا. وكات له قينتان (أمتان) تتغنيان بهجاء الرسول فأمر الرسول بقتلهما معه. أما عبدالله بن خطل فقد قُتِل أخذا بقصاص الأنصاري الذي قتله. وأما القينتان فقد قُتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله فأمَّنها. وفي عهد عمر بن الخطاب زنت فرجمت حتى ماتت.

٥ – **الحويرث بن نقيذ بن وهب:** وكان ممّن اشتد في أذى رسول الله بمكة. كما أنه لما سارت فاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله مهاجرتين إلى المدينة قام الحويرث بنخس بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض كما سبق أن ذكرنا ص ٤٣٢. وقد قام علي بن أبي طالب بقتله.

٦ – **مقيس بن حبابة:** وكان أنصاري قد قتل أخاه خطأً ودفع النبي الدية. ولكن مقيس عمد إلى الأنصاري وقتله وارتد مشركا وفر إلى مكة ولاذ بقريش. وقد قام رجل من قومه بقتله.

٧ – ٨ – **الحارث بن هشام وزهير بن أمية بن المغيرة** وكانا من أشد الناس إيذاء للمسلمين بمكة. وقد لاحقهما علي بن أبي طالب فدخلا إلى بيت أم هاني بنت أبي طالب أخت علي فأغلقت عليهما الباب وجاءت إلى رسول الله فوجدته يصلي فلما فرغ من صلاته قال: مرحبا وأهلاً يا أم هاني ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وتوعّدَ عليٍّ بقتلهما. فقال: قد أجرنا من أجرتِ وأمَّنّا من أمّنتِ فلا يقتلهما.

٩ – **عكرمة بن أبي جهل:** وقد اختفى عكرمة بعدما انسحب من القتال ضد خالد ثم انسل هاربا إلى اليمن وكان ينوي الإبحار إلى الحبشة. وكانت زوجته قد اعتنقت الإسلام ولجأت إلى النبي تستأمنه لزوجها. فأمّنه فلحقت به في اليمن وعادت به إلى مكة. ولما قدم مكة ذهب لتوه إلى النبي وقال له: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها أو سير وضعت فيه أو مقام لعنتك منه أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه. فقال رسول الله: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها وكل مسير فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك. واغفر له ما نال مني من عرض في وجهي أو وأنا غائب عنه. وقبل النبي إسلامه وانضوى تحت راية الإسلام.

١٠ – **صفوان بن أمية:** وقد خشي على حياته وفر هاربا إلى جدة مزمعا اللجوء إلى الحبشة وجاء أحد أصحابه إلى النبي يستأمنه له فعفا عنه النبي فذهب الرجل إلى جدة وعاد به. وقيل قابل النبي وطلب مهلة شهرين قبل أن يسلم فأعطاه النبي مهلة أربعة أشهر. أعلن صفوان بعدها إسلامه وإن كان المؤرخون يرون أنه لم يكن مخلصا في إسلامه.

١١ – **هند زوجة أبي سفيان:** وقد أسلمت وعفا عنها الرسول.

الرسول في مكة:

نزل رسول الله بقبة ضربت له بالحجون (شكل ٤٩) في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين وهو خيف بني كنانة ويعرف بالمحصّب لأن دار النبي قد أخذها عقيل بن أبي طالب وهو لايرثه لأنه كافر. ولم يرث عليٌ وجعفر شيئا من الدور لأنهما مسلمان وقد مات أبوهما كافرا كما أن عقيل وطالب كانا قد باعا كثيرا من دورهما.

ثم لما اطمأن الناس خرج رسول الله حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم

الركن بمحجن فى يده (عصا غليظة وقصيرة) فلما أتم طوافه دعا عثمان بن طلحة وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ثم وقف على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزام وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعي فهو تحت قدميَّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا الآية: **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعاوفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم»** (١٣ - الحجرات).
ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم. قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم عمد النبى إلى الأصنام التى كانت فى ساحة الحرم والمصطفة أمام حوائط الكعبة من كل شكل ومن كل حجم فما من قبيلة إلا وكانت تجد شرفا لها أن تضع تمثالا لمعبودها عند البيت العتيق. وكان حول الكعبة وداخلها حوالى ٣٦٠ صنما صغيرا منحوتة من خشب أو حجر. وكان بيد النبى المحجن فراح يحطم الأصنام وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. ثم دخل النبى الكعبة وحطم الأصنام التى كانت بداخلها. وأخليت الكعبة من حطام الأصنام. وكان مرسوما على حوائطها صور للملائكة وصورة لإبراهيم عليه السلام وفى يده الأزلام يستقسم بها فقال: قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام. ما شأن إبراهيم بالأزلام. ثم تلا قوله تعالى: **«ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»** (٦٧ - آل عمران). ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست. وبعد أن طُهِّرت الكعبة دخلها وصلى بها ركعتين ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت من غير إحرام وقد لبس عمامته السوداء. وكان يستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الناس فى طوافهم. ثم أمر بلالاً بأن يؤذن. فعلا بلال على ظهر الكعبة وأذَّن. فقال بعض أولاد سعيد بن العاص الذى مات كافرا: لقد أكرم الله سعيدا إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة. وقال بعض زعماء قريش مثل هذا القول.

ثم جلس رسول الله فى المسجد ومفتاح الكعبة فى يده فقام إليه عمه العباس وقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية. فقال رسول الله: أين عثمان بن طلحة؟ فدُعى له فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان. اليوم يوم بر ووفاء وقيل إنه تلا **«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها»** وهى الآية ٥٨ من سورة النساء.

وأحل رسول الله لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح حتى العصر وذلك قصاصا لما فعله بنو بكر من قتل خزاعة قبل الفتح. وعندما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بنى بكر. وعندما قتلت خزاعة رجلا من بنى بكر فى اليوم التالى بمزدلفة غضب النبى غضبا شديداً ودفع دية القتيل وقال إن من يقتل بعد ذلك فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية.

سرايا لتحطيم الأصنام في القبائل المجاورة (شكل ٥٠):

بعد أن أنتهى النبى من أصنام الكعبة أرسل سرايا صغيرة إلى مواضع حول مكة كان معروفا أن بها أصناما. وكان على السرايا أن تدعو أهل هذه القرى إلى الإسلام وتحطيم الأصنام التى بها - وأمر القادة ألا يقاتوا من يستجيب إلى الدعوة. وفيما يلى بعض هذه السرايا:

١ - أرسل النبى **عمرو بن العاص** إلى **هذيل** فهدم معبودها «**سواع**».

٢ - وأرسل **سعد بن زيد الأشهلى** فى ٢٠ فارسا لهدم «**مناة**» بـ**المشلل** من ناحية قديد. وهو صنم كان العرب يعظمونه وخاصة الأوس والخزرج قبل إسلامهم. وكان ذلك فى ٢٤ رمضان أى بعد أربعة أيام من فتح مكة.

٣ - سرية **خالد بن الوليد** لتحطيم «**العزى**»: بعث النبى خالدا فى اليوم التالى (٢٥ رمضان) إلى **نخلة** فى سرية من ٣٠ فارسا. وكان بنخلة صنمان للعزى واحد حقيقى والآخر غير حقيقى وقد عثر خالد أول أمره على الصنم غير الحقيقى وهدمه وعاد إلى النبى الذى أمره بالرجوع ليهدم الصنم الحقيقى. وبحث خالد حتى وجده وكان سادنها قد فر طلبا للنجاة بعد أن علّق سيفا بعنق الصنم ليدافع به عن نفسه. ولما دخل خالد المعبد وُجه بامرأة حبشية شبه عارية تعترض طريقه وتُولول حتى لا يهدم الصنم فقتلها بسيفه ثم حطّم الصنم ورجع إلى النبى وأخبره بما رآه وبما فعل فقال له: تلك العزى ولن تعبد العزى أبداً (الطبرى - جـ٣ - ص٦٥).

٤ - **سرية خالد بن الوليد إلى يلملم وقتله لبنى جذيمة**: وبعث النبى خالد بن الوليد أيضا فى ٣٥٠ فارسا إلى يلملم فى تهامة جنوب مكة وكانت قبيلة بنى جذيمة تقطن أرضها قبل يلملم وقرب ساحل البحر. وكان هناك ثأر قديم بين خالد وبين بنى جذيمة. ففى أيام الجاهلية كانت إحدى القوافل الصغيرة لقريش فى طريق عودتها من اليمن فانقض عليها بنو جذيمة ونهبوها وقتلوا شخصين مرموقين هما عوف بن عبد عوف أبو عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد وحدث فيما بعد أن قتل عبد الرحمن بن عوف قاتل أبيه. أما قاتل الفاكه بن المغيرة فقد ظل حيا. وكان المفروض أن خالد - بعد إسلامه - قد قام بوضع أحقاد الجاهلية جانبا ولكنه لم يفعل ولما وصلت السرية إلى «الغميصاء» قبل يلملم - وطىء خالد قبيلة بنى جذيمة. ولما رأوا سريته شهروا سيوفهم وقالوا لخالد إنهم أسلموا وأنهم يقيمون الصلاة وقد بنوا مسجداً. وسألهم خالد عن سبب لجوئهم إلى السلاح فقالوا إن بينهم وبين بعض العرب عداوات وثارات قديمة والواجب أن يحتاطوا لأنفسهم. فطلب منهم خالد أن يضعوا السلاح لأن القبائل المحيطة كلها قد أسلمت ولا خوف منها. وهنا صاح أحد رجال بنى جذيمة قائلا: ويلكم يا بنى جذيمة. إنه خالد والله ما بعد وضع

طريق النجد
المدينة
النصرف
الصفراء
بدر
الجحفة
(٢) مناة
المشلل
قديد
طريق الساحل
الجموم
طريق البصرة
جدة
إلى اليمن
بنو جذيمة
(٤) يلملم
وادى بلدح
(١) هذيل
سواع
أوطاس
الحديبية
إلى جدة
بطن مرو
ذات عرق
سرف
(٣) نخلة
العزى
ثقيف
الطائف
مكة
إساف
طريق اليمن الساحلى
الغميصاء
تهامة

شكل ٥٠ – سرايا لتحطيم الأصنام.

السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق والله لا أضع سلاحي أبدا (السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٤ ص ٧١) وهاجت قبيلة بني جذيمة على الرجل الذي حذَّرهم من خالد وقالوا له: أتريد أن تسفك دماءنا. إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس. وبعد نقاش وضعوا أسلحتهم. وما إن فعلوا ذلك حتى أمر خالد بأن توثق أيديهم خلف ظهورهم وأن يقتل الرجال. وكان بنو سليم وحدهم هم الذين أطاعوه وقتلوا عددامن الأسرى. أمَّا أفراد السرية من المهاجرين والأنصار، فلم يمتثلوا للأمر. واحتج أبو قتادة وعبدالله بن عمر على خالد وركب أبو قتادة فرسه لساعته وعاد أدراجه إلى المدينة ليخبر النبي بما فعل خالد. وما إن سمع النبي بما فعل خالد حتى جزع ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد. قالها ثلاثا. ثم أرسل عليًا بمال كثير ليدفع دية من قتلوا من بني جذيمة ليرضيهم ويهدىء من ثائرتهم. وأدَّى عليٌ مهمته وكان كريما في العطاء ولم يرجع إلى النبي إلا بعد أن أرضى القبيلة كلها. وبعث النبي في طلب خالد ليستفسر منه عما دعاه إلى عدوانه على القوم وكان رد خالد أنه لم يقتنع بصدق إسلامهم وأنه ما قتلهم إلا في سبيل الله. وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فقال لخالد: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام! ورأى خالد في هذا مخرجا له لتبرير فعلته فقال: إنما ثأرت بأبيك. فرد عبد الرحمن بن عوف قائلا: كذبتَ. قد قُتل قاتل أبي. ولكنك ثأرت بأبيك الفاكه بن المغيرة. وأدى هذا الحوار إلى مشادة بين الرجلين وكانت هذه غلطة أخرى من خالد لأن عبد الرحمن بن عوف كان واحدا من العشرة المبشرين بالجنة وله مكانة في الإسلام قلَّ أن يدانيها أحد في حين أن خالد لم يمضي على إسلامه إلا بضعة أشهر. وتدخل النبي في الجدل بين الرجلين وقال بصرامة: مهلا يا خالد. دع عنك أصحابي فوالله لو كان أُحُد ذهبا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته. وعرف خالد قدره فصمت ولكنه وعى هذا الدرس ورغبة منه في التكفير عما فعل وأغضب النبي فإنه تفانى بعد ذلك في الجهاد مما جعله سيفا من سيوف الإسلام وبطلا عسكريا يشار إليه بالبنان.

البعض أسلم نفاقا:

حدث أن رسول الله دخل الحرم ومعه بلال فأمره أن يؤذن للصلاة، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة. فلما أذَّن بلال وقال الله أكبر الله أكبر قال عتاب بن أسد: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سيفان لا لا أقول شيئا. لو تكلمت لأخبر عني هذا الحصى. فخرج عليهم النبي وقال: قد علمت الذي قلتم ثم ذكره لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله. والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك. وهذه الحادثة تدل على أن بعض من أسلموا يوم الفتح – من الطلقاء – أسلموا لمجرد حقن دمائهم ولكن قلوبهم ظلت مشركة ومنكرة للإسلام وكافرة به.

هذيل وخزاعة:

كان رجل من خزاعة – اسمه أحمر – شديد البأس، وكان إذا حزب قومه أمر صاحوا «يا أحمر» فيهب لنجدتهم وينصرهم على أعدائهم، ولكنه كان إذا نام غطَّ غطيطا شديدا فكان ينام خارج البيوت حتى لا يزعج أهلها. وكان بين خزاعة وهذيل ثارات قديمة. فأقبل جماعة من هذيل وتتبعوا صوت غطيط أحمر حتى وصلوا إلى مكانه وهو نائم فقتله ابن الأكوع الهذلي ثم أغاروا على القوم وسلبوهم. فلما كان الفتح دخل ابن الأكوع الهذلي مكة فرآه نفر من خزاعة وعرفوا أنه قاتل «أحمر» فتكاثروا عليه وقتلوه. وعلم رسول الله بما حدث وقال: يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع، ولقد قتلتم قتيلا. ودفع دية القتيل.

فضالة:

وقيل إن فضالة بن عمير بن الملوح أراد قتل النبى وهو يطوف بالبيت. فلما دنا منه قال النبى: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله. قال النبي: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال لا شىء. كنت أذكر الله. قال فضحك النبى ثم قال: استغفر الله. ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. ويقول فضالة: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِن خلق الله شىء أحبُّ إليَّ منه. (السيرة النبوية لابن كثير. جـ ٣ ص ٥٨٤).

إسلام هند بنت عتبة:

واجتمع الناس لمبايعة رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله. فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء فاجتمع نساء قريش وفيهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة يوم أحد. فلما دنون من النبى لمبايعته قال النبى: تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا. فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال سنؤتيكه. قال ولا تسرقن. فقالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة ولا أدرى أكان حلالا لى أم لا. فقال أبو سفيان وكان شاهدا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حلٍّ. فقال عليه السلام: وإنك لهند بنت عتبة؟ فقالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك. واستمر النبى فى مبايعته للنساء. قال ولا تزنين. قالت هند: وهلى تزنى الحرة؟. قال ولا تقتلن أولادكن. قالت: قد ربيناهم صغارا وقتلتَهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم. وضحك عمر من قولها. ثم قال النبى: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل. قال ولا تعصيننى فى معروف. واستغفَر لهن رسول الله ثم قال لعمر بايعهن وكان رسول الله لا يصافح النساء ولا يمسُّ امرأة إلا امرأة أحلَّها الله له (السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية. مهدى رزق الله أحمد. ص ٥٧٢).

خطب الرسول فى مكة:

أقام النبى فى مكة ١٩ يوما يقصر الصلاة الرباعية وفى أثناء هذه المدة خطب عدة خطب بيَّن فيها أمورا وأحكاما مختلفة (المرجع السابق ص ٥٧٣):

١ – **الخطبة الأولى:** وكانت على باب الكعبة وفيها بيَّن دية القتل الخطأ شبه العمد وألغى مآثر الجاهلية وثأراتها وأقر من أمور الجاهلية سقاية الحاج وسدانة البيت.

٢ – **وفى الخطبة الثانية:** أعلن أن ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام يزيده شدة. والمؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم. يرد سراياهم على قعيدتهم. لا يُقتل مؤمن بكافر. دية الكافر نصف دية المسلم. لا جلب ولا جنب. ولا تؤخذ صدقاتهم إلا فى دورهم.

٣ – **الخطبة الثالثة:** وأعلن فيها تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها وتحريم القتال فيها. وقال إن الله تعالى أحلها له ساعة من نهار وهو وقت الفتح. وقال لا هجرة بعد الفتح ويبقى الجهاد والنية.

٤ – **الخطبة الرابعة:** وبين فيها أنه من قُتِل له قتيل فله الخيار: إما أن يقبل الدية أو يقتص من القاتل.

إسلام أبى قحافة والد أبى بكر:

أتى أبو بكر بأبيه. يقوده – إذ كان كفيفا – حتى جاء به إلى رسول الله فقال النبى: هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت. ثم أجلسه النبى ومسح صدره ثم قال له أسلم فأسلم.

إسلام صفوان وعكرمة:

كانت زوجتا صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل قد أسلمتا فصارتا طالقتين من زوجيهما المشركين. إلا أن الزوجين أسلما قبل انقضاء عدتهما فاعتبر عقد الزواج قائما.

غزوة حنين:

بعد أن بايع أهل مكة النبى وأسلموا وعادت الحياة فى مكة إلى مجراها الطبيعى بدأت قبيلتا هوازن وثقيف تبديان التخوف من تنامى قوة الإسلام وراحتا تحاولان الوقوف ضده وأعدتا العدة للحرب. كانت هوازن تقطن شمال شرقى مكة فى حين كانت ثقيف تقطن الطائف إلى الجنوب الشرقى من مكة (شكل ٥١) وتخوفتا من هجوم المسلمين عليهما بعد أن فرغوا من قريش فقررت القبيلتان البدء بالهجوم ليستفيدا من عنصر المفاجأة. فاجتمعا فى أوطاس قرب حنين حيث انضمت إليهما كتائب من عدة بطون من قبائل أخرى مثل بنو سعد من بنى بكر

وبعض بطون من غطفان وقليل من بنى هلال فاحتشد منهم ١٢,٠٠٠ مقاتل على رأسهم مالك بن عوف النصرى الذى عرف ببسالته وشجاعته رغم صغر سنه التى لم تتجاوز الثلاثين. وقرر أن تخرج كل قبيلة أموالها ونساءها وأبناءها معها ليكون ذلك أدعى لتفانيهم فى الحرب دفاعا عنهم. وكان دريد بن الصمة قائدا آخر من قواد هذا الحلف - وكان متقدما في السن حليما ذا رأى راجح حنكته التجارب وعركته الأحداث - وسمع دريد عند التقاء الحلف بأوطاس الجلبة والصخب اللذين يصاحبان عادة أى تجمع الرجال وركائبهم فقال لمالك: مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء النساء؟ فقال مالك: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. فقال دريد: ولم ذلك؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال دريد: راعى ضأن والله! وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك! أرجعهم إلى مُتمنَّع بلادهم. وعدَّ مالك ذلك امتهانا لمقدرته الحربية فقال لدريد: أنت قد كبرت وكبر عقلك.

وكان النبى قد بعث عبدالله بن أبى حدرد السلمى وأمره أن ينخرط وسط تجمعات هوازن وثقيف ليعلم ما يدبرون. ففعل ثم أقبل على النبى وأخبره وكان عمر حاضرا فقال: كذب ابن أبى حدرد. فرد ابن أبى حدرد: إن كذَّبتنى فربما كذبت بالحق يا عمر فقد كذَّبت من هو خير منى - يعرِّض بعمر لتأخره في الإسلام - فقال عمر فى غضب: يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد. فقال النبى قد كنت ضالا فهداك الله يا عمر.

ولم يكن مستساغا أن يترك النبى هذا التجمع المعادى يهدد مكة ويُضعف من الأثر الذى أحدثه فتح مكة فى القبائل وجعلها تسلم واحدة بعد الأخرى لذلك رأى أنه لابد من مواجهة هذا التحدى بالسير إليهم وسحقهم. فخرج النبى من مكة. فى السادس من شوال سنة ٨ للهجرة - فى جيش تشكل أصلا من العشرة آلاف رجل الذين اشتركوا فى فتح مكة فضلا عن ألفى رجل ممن اعتنق الإسلام من أهل مكة وكان من هؤلاء أبو سفيان وصفوان ابن أمية. وعلم النبى أن عند صفوان بن أمية - وهو لا يزال على الشرك فقد طلب مهلة شهرين قبل أن يسلم فأعطاه النبى أربعة أشهر كما سبق أن ذكرنا ص ٧٦٧ - سلاحا فأرسل إليه النبى وقال له: يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا. فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. قال صفوان: ليس بهذا بأس. وأعطى المسلمين مائة درع وما يكفيهم من السلاح. وكان الجيش - وقد بلغ ١٢,٠٠٠ رجل - هو أكبر جيش إسلامى يخرج في حياة الرسول ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلبوا. وينسب إلى أبى بكر قوله: لن نغلب اليوم من قلة. وقال أناس آخرون مثل هذا القول وبلغ القول رسول الله فشق ذلك عليه. وقد عاتبهم القرآن فيما بعد فى قوله تعالى: **«ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»** (٢٥ - التوبة). إذ أن على المسلمين التوكل على الله وحده فليس النصر بالعدد أو بالعدة فقد كانوا فى بدر قلة **«وكم من**

من غطفان
من بني سعد
هوازن
قوات هوازن
أوطاس
ذات عرق
نخلة
مكان المعركة
حنين
الجعرانة
قوات ثقيف
وادي يلم
ثنية الغزال
وادي بلدح
الجموم
عسفان
مر الظهران
بطن مر
بطن يأجج
سرف
ذي طوى
التنعيم
مكة
منى
عرفات
بحرة الرغاء
وادي ذي المجاز
ثقيف
الطائف
نخب

شكل ٥١ – معركة حنين.

خط سير المشركين.

خط سير المسلمين.

فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

ذات أنواط: وكان لكفار قريش وما سواهم من العرب شجرة عظيمة يأتونها كل عام فيعلقون عليها أسلحتهم تبركا ،جلبا للنصر ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ويسمونها **«ذات أنواط»**. فلما مر المسلمون بشجرة عظيمة خضراء - وكان كثيرون حديثى عهد بالإسلام - قالوا للنبى: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله: الله أكبر. قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى **«اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون»**. إنها السنن. لتركبن سنن من كان قبلكم.

وعندما اقترب الرسول من حنين أرسل أحد الصحابة لاستطلاع عدد العدو من فوق أحد الجبال المطلة على وادى حنين. فلما عاد أخبر النبى أنهم قد خرجوا بأولادهم ونسائهم وإبلهم وشائهم. فتبسم الرسول وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله تعالى. وكانت ساعة النوم فتطوع أنس بن أبى مرثد الغنوى بحراستهم إلى الفجر فأثنى عليه الرسول.

وفى عماية الصبح سار المسلمون قاصدين مباغتة العدو قبل أن يأخذ أهبته للقتال فانحدروا إلى وادى حنين وكان العدو قد سبقهم إليه وكمنوا فى شعابه ومضايقه وفوجئ جيش المسلمين بالسهام تنهال عليهم من كل جانب والرجال يقفزون عليهم شاهرى السيوف فتشتت المسلمون وفرَّ كثير منهم فى كل اتجاه.

كان أهل مكة بعد الفتح أحد ثلاثة: رجل كان يخفى إسلامه خوفا من سطوة قريش فأعلن إسلامه. ورجل أسلم عن اقتناع وكان صادقا فى إيمانه. وفريق ثالث استسلم حقنا لدمه ولم يؤمن قلبه فكان منافقا. وفى المعركة ظهر ما كان يضمره هؤلاء المنافقون من حقد قلوبهم فقد كانوا أول من فرَّ بل وراحوا يثيرون الرعب بين صفوف المحاربين وراح بعضهم يقول لبعض: اخذلوه. هذا وقته. ولكن رسول الله ثبت وحوله بعض المسلمين. وراح النبى يصيح يا أنصار الله وأنصار رسول الله. أنا عبد الله ورسوله. أين أيها الناس. هلمُّوا إلىَّ. أنا رسول الله. أنا محمد بن عبدالله. وكان العباس بن عبد المطلب يأخذ بزمام بغلة رسول الله فلما رأى الناس لا تستجيب صاح فى صوت تردد فى جنبات الوادى: يا معشر الأنصار. يا معشر أصحاب الشجرة. يذكرهم بالشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان. ووصل صوت العباس إلى أذنى أبى سفيان فقال فى شماتة: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر. وصاح كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية: ألا بطل السحر اليوم. وثبت مع رسول الله أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل ابن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن. وبلغ صوت العباس مسامع الأنصار فأجابوا لبيك لبيك. وراح الرجال يهرعون إلى حيث كان رسول الله وراحوا يقاتلون فى شراسة وقال النبى: الآن حمى الوطيس. أنا النبى لا كذب. أنا ابن عبد المطلب.

وكان شيبة بن عثمان بن أبى طلحة يحقد على النبى لمقتل أبيه يوم بدر فانتهزها فرصة ليأخذ ثأره فراح يقترب من النبى من خلفه. فالتفت النبى نحوه وقال له: أعيذك بالله يا شيبة. ويقول شيبة إن فرائصه ارتعدت وشعر أن شيئا يمنعه من تنفيذ ما انتواه. بل ونزل عليه الإيمان فجأة فقال: أشهد أنك رسول الله وأن الله أطلعك على ما فى نفسى وراح يقاتل بحماسة عن رسول الله.

وكان فى هوازن رجل طوال شجاع يحمل الراية ويقاتل ويحمّس الناس للقتال فمال عليه علي بن طالب ورجل من الأنصار فقتلاه. وكانت أم سليم ابنة ملحان زوجة أبى طلحة تدافع عن رسول الله بخنجر فى يدها بينما زوجها يقاتل ببسالة حتى قتل وحده أكثر من عشرين رجلا. ولما رأى الذين فروا فى أول الهجوم ثبات النبى ومن حوله عادوا ثانية إلى مسرح المعركة واشتد القتال وراح مالك بن عوف سيد ثقيف يستميت فى القتال. ولكن القتل استحرَّ فى هوازن وتصدَّعت صفوف المشركين فجعل المسلمون يقتلون من أعدائهم ويأسرون الكثيرين وانهزمت هوازن واشتدت الوطأة على ثقيف ففروا لائذين بحصون الطائف وأغلقوا أبوابها فامتنعوا من المسلمين. وطلبت أم سليم بنت ملحان من رسول الله أن يقتل الطلقاء الذين فروا عنه فقال لها: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن. وعلم النبى أن خالد بن الوليد قد جرح فذهب إليه فى رحله وضمَّد جرحه.

وراح المسلمون يجمعون الغنائم والسلب والسبى. وكان فى السبى الشيماء أخت النبى من الرضاعة فعرَّفت نفسها فعرفها رسول الله وخيَّرها قائلا: إن أحببت فعندى محببة مكرمة وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك فعلتُ. ففضلت أن تعود إلى قومها فأعطاها غلاما وجارية وردَّها إلى بنى سعد معززة مكرمة. وبلغت غنائم المسلمين: الإبل ٢٤٠٠٠ - الغنم ٤٠٠٠٠ ومن الفضة ٤٠٠٠ أوقية والسبى ٦٠٠٠، وقد وضع النبى الغنائم كلها فى الجعرانة تحت حراسة حتى يفرغ من ثقيف.

غزوة الطائف :

وسار رسول الله من حنين إلي الطائف (شكل ٥٢) وعلى رأس الجند خالد بن الواليد. ومرَّ جيش المسلمين بقبر أبى رغال الذى قاد جيش أبرهة إلى مكة لهدم الكعبة كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٧). وتعبيرا عن سخطهم عليه قام بعض المتحمسين بنبش قبره. ثم انطلق الجيش إلى **نخلة اليمانية** ثم **قرن** فى وادى قرن ثم علي **المليح** ثم **بحرة الرغاء** وبنى الرسول بها مسجداً. وكان لمالك بن عوف سيد ثقيف حصن هناك تركه لما لجأ إلى الطائف فقام المسلمون بهدم الحصن. ثم مضى النبى إلى **نخب** شرقى الطائف ثم تقدم لحصار الطائف. وانهالت السهام على المسلمين من أعلى حصن الطائف ونالتهم. ودام الحصار قيل سبعة عشر ليلة وقيل بضعا وعشرين ليلة ولم يستسلم المدافعون عن الحصن. ثم اقترب بعض المسلمين من جدار الحصن

شكل ٥٢– المسير لحصار الطائف ثم عمرة الجعرانة.

تحت ساتر عبارة عن عربة من الخشب مغطاة بالجلد السميك وتسميها كتب السيرة «دبابة» تحميهم من السهام قاصدين نقب الحائط للنفاذ إلى داخل الحصن. فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار أحرقت الساتر ورموهم بالنبل فقتلوا منهم الكثير. واستمر حصار الطائف ولم تستسلم ثقيف. ويروى أن رسول الله قال لأبي بكر (السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٧٨): إني رأيت أني أهديت لي قعبة (قصعة) مملوءة زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها. فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فأيَّد النبي رأيه وأخبره أنه لم يؤذن له في ثقيف. واستشار النبي نوفل بن معاوية الديلمي في الاستمرار في الحصار أو الذهاب فقال: يا رسول الله، ثعلب في جحر، إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك. وحضر عمر بن الخطاب وعلم ما استقر عليه الرأي فقال للنبي: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال النبي: بلى. فأذَّن عمر بالرحيل. وقال رجل من المسلمين للنبي: يا رسول الله ادع عليهم. فقال النبي: اللهم اهد ثقيفا وائت بهم. وفعلا هداهم الله وقدموا على النبي في العام التالي مسلمين.

رد سبايا هوازن

بعد أن انصرف رسول الله عن الطائف عاد إلى الجعرانة التي بها الغنائم التي غنمها من هوازن وثقيف في معركة حنين ثم أتاه وفد هوازن وأعلنوا إسلامهم . وقالوا يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك. فامنن علينا مَنَّ الله عليك. وقام رجل من بني سعد بن بكر (ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبي) وقال: يا رسول الله إن في السبي عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كُنَّ يكفلنك، ولو أنا أرضعنا للنعمان بن المنذر ثم نزل منا مثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا. فقال النبي: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. فقال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله وقالت الأنصار مثل ذلك. وقال بنو سليم مثلهم. فتنازل الجميع عن حقهم في السبايا وردوا إلى هوازن أبناءهم ونساءهم ولم يرد أموالهم.

إسلام مالك بن عوف سيد ثقيف:

ثم سأل رسول الله عن مالك بن عوف سيد ثقيف فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف فقال رسول الله: أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. فلما بلغ ذلك مالكا خرج متخفيا عن قومه خشية أن يمنعوه. ولحق برسول الله وأسلم فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه وهم قبائل سلمة وفهم وثمالة. ولكن غالبية ثقيف ظلوا على كفرهم إلى أن أسلموا بعد حوالي ٦ أشهر كما سيأتي ذكره (ص ٨١٣، ٨١٤).

عطايا المؤلفة قلوبهم:

بدأ رسول الله بالأموال يقسِّمها وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى - أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل، فقال أبو سفيان: وابني يزيد فقال أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل فقال وابني معاوية فأعطاه ٤٠ إوقية و١٠٠ من الإبل فقال أبو سفيان، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت كريم في الحرب وفي السلم، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت.. هذا غاية الكرم، جزاك الله خيرا. - وأعطى حكيم بن خزام ١٠٠ من الإبل فسأله ١٠٠ أخرى فأعطاه أياها ثم سأله ١٠٠ ثالثة فأعطاه إياها وقال له النبي: يا حكيم، هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه طمعا لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها. وقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أسأل أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه فيأبى وكذلك فعل مع عمر.

وكذلك أعطى ١٠٠ من الإبل لكل من صفوان بن أمية وقيس بن عدى وحويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأسيد بن جارية الثقفي والأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن. وأعطى أناسا آخرين ٥٠ من الإبل. وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ فعاتب الرسول بشعر لقلة ما أعطى فقال الرسول اذهبوا به واقطعوا عني لسانه فأعطوه حتى رضي. وأعطى آخرين من قريش ومن أبناء قبائل بني بكر وبني قيس وبني عامر بن ربيعة. وقيل للنبي: لقد تركت جعيل بن سراقة، فقال: إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم جعيل بن سراقة وفرات بن حيان. واجتمع عليه أناس كثيرون من المؤلفة قلوبهم فأعطاهم وقال: أيها الناس، والله مالي من فيئكم إلا الخمس. والخمس مردود عليكم. وشدد على عدم اختلاس شيء من الغنائم قائلا: فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا وشنارا يوم القيامة. من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط. فراح من أخذ شيئا خلسة يرده إلى كومة الغنائم.

ثم بعد ذلك بدأ يقسم الغنائم على المحاربين فكان لكل رجل أربع من الإبل و٤٠ شاة فإن كان فارسا أخذ ١٤ من الإبل و١٠٠ شاة وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد. فلم يعط الزبير إلا لفرس واحد وكان معه أفراس. وقال بعض المنافقين هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله، فأخبر النبي بما قالوا فغضب غضبا شديدا واحمر وجهه وقال: من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحمة الله على أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من العطايا لقريش ولبعض أفراد القبائل ولم يعط للأنصار شيئا إلا نصيب المحاربين وَجَدَ الأنصار في أنفسهم شيئا حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله قومه! وقال آخرون إن هذا لهو العجب يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! وقال آخرون: إن كانت شدة ندعى إليها ويُعطِى الغنيمة غيرنا. إن

كان من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله استعتبناه. فدخل سعد بن عبادة على النبي وأخبره بما في نفوس الأنصار من غضب لعدم إعطائهم من الغنائم فأمر أن يجمع له الأنصار. فلما اجتمعوا قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم (أي ما هذه المقالة التي بلغتني عنكم) وجِدَة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألَّف بين قلوبكم. قالوا بلى الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله. لله ورسوله أمن وأفضل. قال النبي: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم: أتينا مُكذَّبا فصدَّقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعلعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى تبللت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله وتفرقوا.

عمرة الجعرانة:

بعد أن أمضى رسول الله في الجعرانة ١٣ يوما خرج قاصدا مكة معتمرا فلما مر بناحية «مر الظهران» حبس هناك بقايا الغنائم وانطلق بالمسلمين إلى مكة فطاف بالبيت سبعا ثم صلَّى ركعتين خلف مقام إبراهيم. ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا. وتأهب للرجوع إلى المدينة. فجاء أبو سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وسادات بني المغيرة ليودعوه واستخلف على مكة عتَّاب بن أسيد وكان عمره ٢٠ سنه وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس في أمور دينهم. ورزَق أسيدا كل يوم درهما. وقام أسيد خطيبا في الناس فقال: أيها الناس. أجاع الله من جاع على درهم. فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد.

العودة إلى المدينة:

وخرج رسول الله من مكة وخرج أهلها كلهم يودعونه وخرج معه إلى المدينة عمه العباس فلم يعد هناك ما يفعله في مكة بعد أن أسلم أهلها. وكانت أم سلمة في هودج وميمونة أم المؤمنين في هودج آخر. ولما مرَّ بناحية «مر الظهران» ساق الغنائم التي كانت فيها ليوزعها على فقراء المدينة. ولما وصل المدينة ارتفعت صيحات الترحيب بعودته وبما فتح الله عليه. وكانت عودته في ٢٥ ذي القعدة سنة ٨ من الهجرة واقترب موسم الحج. وخرج الناس للحج ورأس الحجاج في ذلك العام عتاب بن أسيد الذي كان قد أبى إلا أن يرافق النبي حتى يصل إلى المدينة فعاد إلى مكة على رأس الحجيج.

سورة الحديد:

وفى السورة آية تفيد صراحة أنها نزلت بعد الفتح: **«لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل. أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا»** (١٠) والمفسرون متفقون على أن الفتح المذكور فى الآية هو فتح مكة.

وكانت الفترة التى أعقبت الفتح فترة اختلط فيها الكثير من المشاعر سواء في مكة أو في المدينة. وكما ذكرنا من قبل – كان في مكة فريق مسلم من قبل الفتح ويكتم إسلامه وفريق ثان اقتنع بعد الفتح بأن «محمداً» رسول الله حقا فأسلم وحسن إسلامه، وفريق ثالث أسلم من باب الخضوع للقوة أى كان استسلاما وشاء الرسول بالإغداق عليهم من غنائم حنين أن يستميل قلوبهم فيدركوا أن الخير كله فى الإسلام بدءا من خير الدنيا فينتهى بهم الأمر إلى الطمع فى خير الآخرة فيحسن إسلامهم. وكان من الواجب التنبيه إلى أن متاع الدنيا تافه وزائل بجانب ثواب الآخرة وأن الإيمان الصحيح يوجب الإنفاق فى سبيل الله لا توقع المغانم.

أما فى المدينة فقد كان البعض قد آلمه أن يروا ما نال «الطلقاء» من المغانم فى حين أنهم – وهم الذين قاسوا شظف العيش وكانوا ينفقون في سبيل الله – مع ما كان بهم من خصاصة – لم يعطوا إلا القليل فكان التنبيه بأن ما ناله غيرهم هو عرض زائل أمًّا هم فلهم الأجر العظيم عند الله وأن من أسلم بعد الفتح وأنفق لن يطاولهم فى ثوابهم عند الله.

وتبدأ السورة بقوله تعالى:

«سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (١).

والتسبيح هو تنزيه الله تعالي عما لا يليق بجلاله. بعد ذلك يأتى تمجيد لله وبيان لبعض مظاهر قدرته:

«له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو علي كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيئ عليم. هو الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور» (٢ – ٦).

فالله مالك السموات والأرض وهو الأول أى الموجود قبل كل شىء والآخر أى الباقى بعد فناء كل شىء والظاهر قدرته فى كل شىء والباطن فلا تدركه الأبصار. وروى أن النبى كان يدعو فيقول: اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيئ فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن. أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته. أنت الأول فلا شىء قبلك. وأنت الآخر فلا شىء بعدك. وأنت الظاهر فلا شىء فوقك وأنت الباطن فلا دونك شىء. اقض عنى الدين وأغننى من الفقر.

والله هو الذي خلق السموات والأرض ويعلم كل ما يغيب في الأرض من بذور وجذور النباتات وما يخرج منها من نبات، وما ينزل من السماء من مطر وما يعرج فيها من دعوات البشر وهو معهم محيط بكل شأن من شئونهم فى أى مكان يكونون فيه؛ ومن مظاهر قدرته أنه يدخل من ساعات النهار فى الليل ومن ساعات الليل فى النهار فتختلف أطوالها صيفا وشتاء.

دعوة للإنفاق فى سبيل الله:

ولعل هذه الدعوة موجهة إلى المسلمين الجدد في مكة والمؤلفة قلوبهم – حتى لا يظنوا أنهم قد بلغوا درجة غيرهم من المسلمين الأولين بل يجب عليهم تأييد إيمانهم هذا بالانفاق في سبيل الله ويكفى أن الله كان بهم رؤوفا رحيما إذ أخرجهم من الظلمات إلى النور. ثم توضح لهم أنهم مهما أنفقوا فلن يتساووا بالمهاجرين الذين أنفقوا من قبل الفتح. الذين أنفقوا وهم في حاجة وفى ظروف بالغة الصعوبة. وإن كان لكل من الفريقين أجر عند الله إلا أن المفهوم أن للمسلمين الأوائل أجر أكبر. ثم تلفت الآيات النظر إلى أن الإنفاق فى سبيل الله هو «قرض» وسيوفَّون ما أنفقوا مضاعفا يوم القيامة. ثم تذكر الآيات بعضا مما سيدور في ذلك اليوم من مناقشات بين الكفار والمسلمين.

«آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه. فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير. وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين. هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم. وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض. لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل. أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم. قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلي ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير» (٧ – ١٥).

وتعطى الآيات صورة رائعة لما سيكون عليه حال المؤمنين يوم القيامة ولهم نور بين أيديهم ينير لهم الطريق ويقودهم إلى الجنة. وقد روى عن قتادة أن النبى قال: إن من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن وصنعاء ومن المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه. وفى حديث آخر يُذكر أن النور على قدرِ العمل. وفى يوم القيامة يطلب المنافقون من المؤمنين أن يفيضوا عليهم بعضا من نورهم فيردون عليهم موبخين يأمرونهم بأن يرجعوا إلى ما وراءهم

من ظلمات علّهم يجدون نورا. والمعنى أن أعمالهم السيئة هى الظلمات التى تحيط بهم. وحيل بين المؤمنين والمنافقين بباب فى جانبه المواجه للمؤمنين ثواب ونعيم. أما الجانب المواجه للمنافقين ففيه عذاب الجحيم. وبالرغم من وجود الباب ينادى المنافقون المؤمنين ويسألونهم ألم يكونوا فى الدنيا معهم أى مؤمنين مثلهم فيردّ عليهم أنهم كانوا مسلمين نفاقا وكانوا يتمنون الهلاك للمؤمنين ويشككون فى أمور الدين وخدعهم طول الأمان حتى جاء الموت وغرّر بهم الشيطان بأن الله لن يعذّبهم. وفى ذلك اليوم لن يُقبل من المنافقين ولا من الكفار فدية لينجوا من العذاب وستكون النار هى مثواهم وبئس المصير.

حث المؤمنين على التفانى فى الخشوع لله:

«ألم يأن (يحن الوقت) للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بيّنّا لكم الآيات لعلكم تعقلون. إن المصّدّقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» (١٦ – ١٩).

والآيات تضمنت سؤالا فيه حث للمؤمنين على الخشوع لذكر الله وأن يحذروا أن يكونوا مثل من سبقهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين عملوا بكتبهم مدة وبمرور الزمن قست قلوبهم فانحرفوا عن الطريق القويم. ومن يجد فى نفسه بعض القسوة فعليه ألا يقنط من رحمة الله وعليه أن ينظر آية الله فى الأرض الجافة الميتة إذ ينزل عليها المطر فينبت الزرع وبالمثل فإن الله يُحيى القلوب القاسية برحمته ومغفرته. فمن صدّقوا بالله وأنفقوا فى سبيل الله لهم ثواب كبير. أما الكفار والمكذبين بآيات الله فلهم نار جهنم.

مثل لتفاهة الدنيا:

«اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٢٠ – ٢١).

ولعل فى الآيات توجيه لمن لم يعطوا من غنائم حنين أن لا يحزنوا على ما فاتهم من متاع الدنيا وحث لهم على طلب المغفرة من الله لما بدر منهم من عدم رضا وحسبهم جزاء الآخرة – جنات النعيم.

حث على التسليم بالقضاء:

«ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتولَّ فإن الله هو الغني الحميد» (٢٢ - ٢٤).

ومعظم المفسرين يرون أن الكتاب المذكور في الآية هو اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل ما كان ويكون قبل أن يكون وسُمِّيَ في سورة الرعد «أم الكتاب»: **«يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»** (٣٩ - الرعد). والله سبحانه وتعالى في غنى عن تثبيت علمه الشامل في لوح مادي والتعبير مستمد من مألوفات الناس في تدوين أعمالهم ومعارفهم في ألواح. والمعنى سَبْقُ علم الله تعالى بكل ما يقع في السماء والأرض من أحداث قبل وقوعها. **«لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»** وليس القصد مصادرة الطبع الإنساني في الإحساس بالألم عند المصيبة أو الفرح عند نزول الخير إنما القصد النهي عن الاستغراق المذهل في كلا الحالين. فإن للفرحة الطاغية نشوة تخرج عن الصواب. وللحزن الجاثم وطأة تسحق الإرادة. والمؤمن هو الذي يُرجع كل ما يصيبه إلى مشيئة الله فلا يتخبط بين هذه الانفعالات فيرفعه الفرح إلى القمة ويخفضه الأسى إلى الحضيض. بل يلوذ بالاعتدال ويسيطر على أعصابه وهذا ثمرة من ثمار الإيمان بالقَدَر. ثم توضح الآيات أن الله يكره من عباده الخيلاء وكذلك ضنهم بأموالهم عن الإنفاق في سبيل الله بل ويأمرون الآخرين بالبخل ويحسِّنونه لهم. ومن بَخِل وأعرض عن الإنفاق في سبيل فإن الله في غِنىً عن ماله فهو غني بذاته ومستحق للحمد والثناء **«فإن الله هو الغني الحميد»**.

إنزال الكتاب وإنزال الحديد:

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب (بمعنى الكتب) والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز» (٢٥).

وفي الآية تقرير بأن الله قد أرسل رسله للناس بالحجج والبينات وأنزل عليهم الكتب التي احتوت على شرائع الدين وهي كالميزان تحقق الإنصاف ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل. وخلق الله الحديد تصنع منه أسلحة الحرب لما فيه من شدة وصلابة كما تصنع منه سائر الأدوات التي تنفع الناس في وقت السلم مثل الفؤوس وعجلات العربات وغيرها. إلا أن بعض علماء الفلك المعاصرين (دكتور زغلول النجار. في حديث تلفزيوني) يرى أن **«وأنزلنا الحديد»** هو إنزال حقيقي ويقول إن الأرض في مرحلتها الغازية أُمطرت بوابل من ذرات الحديد الآتية من خارج المجموعة الشمسية فاستقر بعضها في المركز مكونا اللب الحديدي المنصهر للكرة الأرضية. وبقي البعض قرب السطح وهو ما يستخرج من مناجم الحديد. إلا أن جمهور

المفسرين يرون أن الإنزال هنا بمعنى الخلق كقوله تعالى: **«وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج»** (٦ الزمر). والحقيقة أن الحديد يقع في منتصف الجدول الدوري للفلزات ولا يعقل أن تتكون جميع العناصر - ومنها ما هو أثقل من الحديد وذراته أكثر تعقيدا - بالتخليق أثناء تكوين الأرض ويشذ الحديد بالمجيء من خارج المجموعة الشمسية. ولكن الإعجاز العلمي يأتي من وجه آخر إذ هو إشارة إلى النيازك التي تتساقط وتنزل على الأرض فهي مكوَّنة من حديد نقي. ولما التفت الإنسان إلى صلابتها ثم توصل إلى صهرها بالتسخين أمكنه تشكيلها في أداوت مثل رؤوس الفؤوس والحراب وإلى خناجر ودروع. ولما أصبحت النيازك لا تفي بكل متطلباته من هذا المعدن بدأ يبحث عنه في باطن الأرض فوجده مختلطا بكثير من الشوائب فعمل على تنقيته وبزغ على الإنسان «العصر الحديدي».

تذكير بأقوام الرسل السابقين:

«ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون» (٢٦ - ٢٧).

والآيات تقرر ما اقتضته حكمة الله من إرسال الرسل لهداية الناس فقد أرسل نوحا وإبراهيم ومن ذريتهما جاء أنبياء أنزلت عليهم كتب سماوية فاهتدى بها من اهتدى وانحرف عن أمر الله كثيرون. ثم أرسل الله عيسى ابن مريم وقد فرض أتباعه على أنفسهم الرهبانية وهي شيء لم يفرضه الله عليهم. فتفرغوا للعبادة واعتزلوا الناس وتعففوا عن النساء ابتغاء مرضاة الله ولكن كثيرا منهم لم يستطع التمسك بالتزاماتها وغلبتهم طبيعة الجسد فكانت تتم بعض اللقاءات بين الرهبان والراهبات في أماكن قصية من الأديرة. أما الذي آمن وأخلص فيسؤتيه الله أجره. وقد ذكرنا سابقا أنه لما أثنى الله على النصارى في سورة المائدة (الآية ٨٢ ص ٧١١) **«ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون»**. أراد بعض الأفراد تقليد الرهبان فاقتضت الحكمة عدم تشجيعهم على ذلك لئلا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من قبلهم. ومن الأحاديث النبوية: لا تشددوا على أنفسكم فيُشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ثم تلا الآية «ورهبانية ابتدعوها..».

دعوة لتقوى الله:

ثم تأتي الآية الخاتمة للسورة تحث على تقوى الله والثبات على الإيمان وتبين الثواب الذي سينالونه حينئذ:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين (أي نصيبين) **من رحمته ويجعل**

لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم. لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٢٨ - ٢٩).

مولد إبراهيم ابن النبي:

في أوائل العام الثاني لوجودها في بيت النبي أحست مارية القبطية ببوادر الحمل وأفضت إلى النبي الذي سُرَّ أيما سرور، ورجا - وهو قد أشرف على الستين - أن يرزق ابنا - وفي شهر ذي الحجة من سنة ٨ للهجرة وضعت مارية مولودا ذكرا وتصدق الرسول بوزن شعره فضة وسماه إبراهيم تيمنا بالجد الأكبر إبراهيم عليه السلام، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه. فاختار النبي مرضعة لولده وجعل في حيازتها سبعا من الماعز كي ترضعه بلبنها إذا شح ثدياها.

وحمله النبي يوما بين ذراعيه إلى بيت عائشة لترى الصغير فأحسّت عائشة كأن سهما نفذ إلى قلبها وكادت تبكي من الغيظ ولكنها أمسكت عبرتها وقالت: ما أرى بينك وبينه شبها! وأدرك الرسول مدى ما تكابد من الغيرة فانصرف بولده.

أحداث السنة التاسعة للهجرة

محرم	ـــــ
صفر	ـــــ
ربيع الأول	ـــــ
ربيع الثاني	ـــــ
جمادى الأول	إسلام كعب بن زهير.
جمادى الثاني	ـــــ
رجب	غزوة تبوك.
شعبان	وفاة أم كلثوم.
	الوفود.
رمضان	إسلام ثقيف وهدم اللات.
	موت عبد الله بن أبيّ بن سلول.
	توالي الوفود.
	سورة النصر.

شوال		بعثة خالد بن الوليد إلى اليمن.
		فضح أقوال المنافقين.
		تآمر المنافقين لقتل النبى.
ذو القعدة	٢٠	حج أبى بكر بالناس.
		سورة براءة.
ذو الحجة		مسجد الضرار.
		الثلاثة.
		إبراهيم عمره سنة.

إسلام كعب بن زهير:

كان كعب بن زهير بن أبى السلمى شاعرا يهجو رسوله الله فأخبره أخوه «بجير» أن رسول الله قد أهدر دمه ونصحه إما بالتوجه إلى رسول الله ليتوب فيحقن دمه أو يهرب إلى مكان آخر فى الأرض. وانتوى كعب بن زهير التوبة. فقدم المدينة ودخل المسجد وكان رسول الله قد انتهى من صلاة الصبح واعتذر كعب وتاب عما قال ثم أعلن إسلامه فقبل النبى إسلامه وأمّنه فقال قصيدة من ٥٨ بيتا مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ∴ متيم عندها لم يُفدَ مكبول

وفيها يقول:

نبئّت أن رسول الله أوعدنى ∴ والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ∴ ـقرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنّى بأقوال الوشاة ولم ∴ أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

وختمها بقوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ∴ مهند من سيوف الله مسلول

فقال له الرسول: لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل. فقال كعب ١٣ بيتا يمدح الأنصار جاء فيها:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل ∴ فى مِقْنَب من صالحى الأنصار

ورثوا المكارم كابرا عن كابر ∴ إن الخيار هم بنو الأخيار

غزوة تبوك

كان العرافون قد أخبروا هرقل امبراطور الروم أن ملكه سيزول على يد شعب مختون. وأول

ما يتبادر للأذهان أن الشعب المختون هم اليهود وهم الذين كانوا دائما يقومون بثورات ضد الحكم الروماني لذلك فقد صبَّ الإمبراطور جام غضبه على يهود فلسطين مما اضطر كثيرين منهم إلى الفرار إلى بلدان أخرى.

ولما بدأ الإسلام ينتشر فى الجزيرة العربية وبعد وصول دحية الكلبى يحمل كتاب رسول الله إلى هرقل كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٢٣) عادت النبوءة تؤرقه. فالعرب شعب مختون وها هو قد بدأ يتوحَّد تحت راية الإسلام فبيَّت النية على الهجوم على هذه الدولة الوليدة قبل أن يشتد أمرها. ووصلت الأنباء بأن الروم قد حشدوا قوات كبيرة فى الشام وأنهم بعثوا بطليعة قواتهم إلى شرق الأردن وأن الجيش سار جنوبا حتى أصبح على بعد حوالى ١٥كم شمال تبوك وعسكر هناك.

سـورة التوبــة :

نزلت الآيات الأولى (من ١ – ٢٨) من **سورة التوبة** أو كما تُسمى **سورة براءة** – وأبو بكر الصديق فى طريقه للحج بالناس فى أواخر السنة التاسعة للهجرة وقام على بن أبى طالب بتبليغها إلى أبى بكر لما بها من تعليمات بخصوص عهود المسلمين مع المشركين وأمر بمنع المشركين من ارتياد المسجد الحرام وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد (ص ٨٢٠ – ٨٢٤).

بعد ذلك تأتى آيات تحث على قتال أهل الكتاب والمفهوم أنهم الروم الذين جمعوا لحرب المسلمين.

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ما حرم الله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» (٢٩ – ٣١ – براءة).

وتشرح هذه الآيات أن أسباب قتال أهل الكتاب هى:

١ – **عدم الإيمان بالله**. فقد أهمل هرقل كتاب النبى بالرغم مما هو مكتوب فى الإنجيل من أوصاف النبى الخاتم.

٢ – **«ولا يُحرِّمون ما حرم الله ورسوله»** وفى هذا إشارة إلى ما أعطاه الأحبار والرهبان لأنفسهم من سلطان ادعوا أنهم استمدوه من الله أو من المسيح فراحوا يحرمون أشياء ويحلون أشياء لم ينزل بها شرع الله والناس تطيعهم فكأن الناس قد اتخذوهم أربابا من دون الله.

٣ – **الإشراك بالله**: فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله وهم بذلك يشابهون قول الذين كفروا والذين يقولون إن الملائكة بنات الله.

٤ - **الكيد للإسلام**: ذلك أن أهل الكتاب كثيرا ما كانوا يكيدون المسلمين ويتآمرون مع الكفار للقضاء على الإسلام. فقد رأينا كيف تحالف اليهود مع كفار قريش فى غزوة الخندق. وها هو هرقل يجمع جيشا من الرومان النصارى وضم إليه المشركين من العرب القاطنين فى شمال الجزيرة العربية وانضم إليهم عرب الغساسنة وهم على دين النصرانية - وكان هدف هذا الجمع هو إخماد الدعوة الإسلامية. فكأنهم **«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم»** أى بأقوالهم ودسائسهم. كما أن فيها تشبيه بمن يريد أن يطفىء نارا عظيمة بالنفخ فيها بفمه. وطبعا لن يفلح. وسيتم للإسلام ما أراده الله له من رفعة وعلو وانتشار:

«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق (أى بالإسلام) **ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»** (٣٢ - ٣٥).

وكان الأحبار والرهبان يحصلون من الناس على أموال كثيرة إما نقدا أو عينا كفارات لذنوبهم وكانوا يستحلون لأنفسهم ما يقدمه الناس من النذور فى هيئة أموال أو ذبائح ويكنزون لأنفسهم من وراء ذلك الذهب والفضة والآية تنطبق على البخلاء من كل دين وتشمل المسلمين أيضا. ويقول الشيخ متولى الشعراوى إن أول ما يفعله البخيل عندما يسأله فقير أو مسكين هو أن يعرض عنه بوجهه. ثم يوليه جنبه ثم يعطيه ظهره فكان ترتيب ما يكوى منه هو الجبهة ثم الجنب ثم الظهر. وهذا العقاب ينتظر البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يؤدون عنها زكاة مالهم. وفى حديث روى عن أم سلمة أن النبى قال ما أدى زكاته فليس بكنز. وحديث آخر عن أبى هريرة: إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك. كما أن هذه الآية فى هذا الموقف بالذات - موقف التجهيز لجيش لحرب الروم - فيها حث للمسلمين على البذل فى سبيل الله وتحذير من البخل بأموالهم لأنها ستكون وبالا عليهم يوم القيامة.

ذكرنا أن النبى رأى أن لا ينتظر حتى يغزوه الروم بل استنفر المسلمين ليخرج بهم للقاء العدو. وجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين من البدو والحضر. وبعث إلى أهل مكة يستنفرهم ويحض أهل الغنى على النفقة والإنفاق فى سبيل الله كما بعث رسلا إلى القبائل. فبعث بريدة بن الحصيب إلى الفرع وأبا رهم الغفارى إلى قومه وأبا واقد الليثى إلى قومه وأبا جعدة الضمرى إلى قومه بالساحل ورافع بن مكيث إلى جهينة ونعيم بن مسعود إلى أشجع وبديل بن ورقاء وعمرو بن سالم ويسر بن شعبان إلى بنى كعب. والعباس بن مرداس إلى بنى سليم. واستجابت كثير من القبائل فبلغ ما تجمع من جند ٣٠,٠٠٠ منهم ١٠,٠٠٠ فارس. وقد سمى «جيش العسرة» بسبب كون الوقت كان صيفا قائظا وحالة المسلمين الاقتصادية سيئة والشقة

بعيدة. وقد اعتاد النبي أن يُكنِّى ولا يفصح عن المكان الذى يقصده إلا أنه فى هذه الغزوة صرَّح لهم بقصده ليكونوا على أهبة الاستعداد. فبدأ الناس يتجهزون ويعدون الرواحل والزاد. إلا أن المنافقين راحوا يثبطون الناس ويقولون لا تنفروا فى الحر فنزلت الآية ترد عليهم:

«وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون».

ويلغ رسول الله أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن الجهاد فبعث إليهم طلحة بن عبدالله فى نفر من أصحابه وأمره أن يُحرِّق عليهم مكان اجتماعهم. ففعل طلحة كما أمر النبى. وراح النبى يحضُّ أهل الغنى على الإنفاق في سبيل الله فأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة. قيل إنه جهَّز عشرة آلاف رجل رجل وأمدَّهم بـ ٩٠٠ بعير و١٠٠ فرس والزاد. وفيه قال رسول الله: اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض. ثم جاء عثمان بألف دينار ووضعها فى حجر النبى فقال النبى: ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم. وجاء أبو بكر بجميع ماله ٤٠٠٠ درهم وسأله النبي: هل أبقيت لأهلك شيئا فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية. وتبرع غيرهم من الصحابة بكثير من المال. كما تبرع المسلمون ومتوسطو الحال كل بما قدر عليه وكان من الفقراء رجل اسمه أبو عقيل جاء إلى النبى وقال: أجرت نفسى حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت بأحدهما وأتيتك بالآخر. فأخذ المنافقون يلمزون الأغنياء ويتهمونهم أنهم ما تبرعوا إلا رياء ويسخرون من أبى عقيل ويقولون إن الله ورسوله لغنيَّان عنه وأنه لم يأت بصاعه إلا ليُذكر بين الناس!

ويدأ بعض المنافقين يتحجون بأن سيرهم فى هذا الوقت سيدخلهم فى قتال فى الأشهر الحرم ذلك أن الكفار كانوا في العام السابق قد اعتمدوا على قاعدة النسىء وأخَّروا شهر رجب مكان شعبان فأصبح ترتيب الأشهر هكذا: شعبان. رجب. رمضان. ذو القعدة. ذو الحجة محرَّم. فنزلت الآيات تعيد ترتيب الأشهر إلى أصلها فإن كانت معركة فستقع فى شهر شعبان وهو ليس من الأشهر الحرم:

«إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم. ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم. وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين. إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيُحِلوا ما حرَّم الله. زُيِّن لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين» (٣٦ – ٣٧).

والآيات تُقرُّ ما كان العرب قد فعلوه من تحريم القتال فى أربعة أشهر فَحُرِّم شهر ذو القعدة قبل شهر الحج لأنهم يقعدون فيه عن القتال. ثم شهر ذو الحجة لأنه شهر الحج ثم محرَّم ليرجعوا فيه إلى بلادهم آمنين. وحُرِّم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به والعودة فى أمان.

وبعد أن أزالت الآيات الاعتراض الذى أبداه المنافقون بالنسبة لوقوع القتال فى شهر من الأشهر الحرم. جاء حث للمسلمين للتحمس للجهاد فقد كان بعضهم يعد العدة فى شيء من التثاقل والتباطق. فوبختهم الآيات على ذلك:

«يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير» (٣٨ – ٣٩).

ولإزالة أى تخوُّف من قوة العدو التى بلغت أضعاف جيش المسلمين ذكرتهم الآيات بتأييد الله لرسوله عند خروجه من مكة مهاجرا إلى يثرب وليس معه إلا أبو بكر ولجأ إلى الغار فأيده الله بجنود غير مرئية والمعنى أن تأييد الله قائم وسيكون فى جانبهم وأنهم إذا لم ينفروا يعرِّضون أنفسهم لغضب الله وعذابه:

«إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم. انفروا خفافا وثقالا (أى حاملى سلاح خفيف أو سلاح كامل ثقيل) **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»** (٤٠ – ٤١).

فضح المنافقين:

كان فتح مكة ضربة قاصمة للكفر والكافرين تداعت بعده قلعة الشرك والأوثان وتم هدم جميع الأصنام التى كانت مقامة حول الكعبة وداخلها وأرسل النبى السرارى لهدم الأصنام المشهورة فى القرى المجاورة. وعلى العموم فقد كان الكفار عدوا ظاهرا يسهل تحديده والتوقِّى منه ومحاربته. أما الخطر الحقيقى الذى أصبح يتهدد الإسلام – بعد تداعى الكفر – فكان النفاق والمنافقين إذ هم يُظهرون الإسلام ويبطنون عداوته. وبدأ اليهود – قبل إجلائهم عن المدينة فى استمالة فريق من ضعاف النفوس فتكونت فرقة المنافقين. وقد مرَّ بنا ما قالوه وفعلوه ومواقفهم من المعارك التى خاضها النبى ضد أعدائه: بدر وأحد والخندق. ولما تم إجلاء اليهود عن المدينة أصبح المنافقون طابورا خامسا خفيا يتهدد الدولة الإسلامية الوليدة ويحاول الفتَّ فى عضد المحاربين. ولقد علم الله عز وجلَّ أن غزوة تبوك هى آخر غزوات الرسول فكانت مناسبة لكشف هؤلاء المنافقين وفضح أعمالهم وأكاذيبهم وكشف أسرارهم. فجاءت سورة براءة وفيها تصوير دقيق لصنوف النفاق وأساليبه ولذلك سمَّاها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين وسميت أيضا «المقشقشة و المنقرة والمخزية والحافرة» وكلها أسماء تدور حول معنى كشف النفاق وأيضا سميت «سورة العذاب» لما توعَّدت به المنافقين من عذاب (تفسير الألوسى جـ١٠ ص ٤٠). وفى السورة كشف واسع لطباع اللؤم والخداع والحقد

والحسد عند المنافقين وفيها تحدٍّ ووعيد لهم وشد لأزر المسلمين وعتاب وتوبة لقليل من المؤمنين الذين حادوا عن السلوك القويم.

ولعل وقوع الغزوة في الصيف – وكان صيفا شديد الحرارة – كان امتحانا لقوة الإيمان. إذ هو عسير على النفس أن تترك مقامها وراحتها وطيب الظل للسير في الصحراء القاحلة والحر القائظ إلى سفر بعيد للقاء عدو كثير العدد ولكن من كان إيمانه قويا يتحمل هذه المشاق في سبيل الله ويلبي أمر النبي دون تردد. أما المنافقون فقد راحوا يقدمون الأعذار حتى لا يخرجوا للقتال فنزلت الآيات تفضحهم وتُسجِّل عليهم أنه لو كان ما دعوا إليه غنيمة قريبة المنال أو رحلة قصيرة قليلة العناء لاتبعوه حرصا منهم على المنفعة المادية ولكنهم رأوا المسافة بعيدة والرحلة شاقة والغنم غير مؤكد ورجحان الخطر كبير. وكان كل ذلك امتحانا لقوة الإيمان فراح المنافقون يتثاقلون عن الخروج ويحلفون للنبي أنهم لا يستطيعون الخروج معه في حين أن الله يعلم كذبهم. وكان قبول النبي أعذارهم وسماحه لهم بالتخلف خطأ عوتب عليه النبي عتابا رقيقا بقوله تعالى: «عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم» وكان الأحرى أن لا يأذن لهم حتى تظهر حقيقة أمرهم. ولو كان في نيتهم الخروج معه ثم منعهم عذر طارئ لكانوا قد أعدُّوا عدة الخروج ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك فدلَّ على نيتهم من البدء في التخلف وعدم الخروج فحق عليهم أن يقال لهم – تحقيرا لشأنهم – اقعدوا مع القاعدين العاجزين كالصبيان والنساء والطاعنين في السن والمرضى:

«لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا» (رحلة قصيرة) **لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون. عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون. ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا** (اضطرابا) **ولأوضعوا خلالكم** (مشوا بينكم بالنميمة والإفساد) **يبغونكم الفتنة وفيكم سمَّاعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلَّبوا لك الأمور** (بذلوا جهدهم في الكيد) **حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون»** (٤٢ – ٤٨).

ومن الأعذار التي راح بعض المنافقين يتحجَّجُون بها ماروى من أن الجد بن قيس من بني سلمة الأنصاري حضر إلى النبي فقال له النبي: يا جد. هل لك في جلاد بني الأصفر (يعني الروم) فقال يا رسول الله أوَ تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني وإن لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر. ولكنْ أعينك بمالي. فأعرض عنه النبي ثم قال: قد أذنت لك. ولما علم ابنه عبدالله – وكان ممن شهدوا بدرا وكان

صادق الإيمان - لام أباه. فقال له أبوه: مالى وللخروج فى الريح والحر الشديد والعسرة إلى بنى الأصفر وأنا أخالفهم فى منزلى وإنى عالم بالدوائر أى يتوقع هزيمة المسلمين. ونزل قوله تعالى:

«ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى. ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» (٤٩).

ثم راحت الآيات تفضح حقيقة شعور المنافقين ودخائل أنفسهم وأنهم إذا أصاب المسلمين خير استاءوا واغتاظوا ولو أصابتهم مصيبة وهزيمة حمدوا ما اعتبروه من الحذر والاحتياط بعدم الخروج. وتأمر الآيات النبى أن يخبرهم بأنه لن يصيب أحداً إلا ما كتب الله عليه. وعلى كلٍّ فلا ينتظر المسلمين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر والغنيمة فى الدنيا وإما الاستشهاد فى سبيل الله والفوز بالجنة فى الآخرة وفى المقابل فإن المنافقين ينتظرهم إما عذاب من الله أو ذلة على أيدى المسلمين.

«إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون» (٥٠ - ٥٢).

وكان بعض المنافقين - كما سبق أن ذكرنا - قد طلبوا من النبى أن يأذن لهم بالقعود على أن يعينوه بالمال دون النفس فنزلت الآيات تبين لهم أن ما يودون إنفاقه - إما طوعا أو رغما عنهم بضغط الظروف والموقف - لن يقبل منهم لأنهم كفروا بالله ورسوله ومن علاماتهم أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا كرها عنهم مع كثرة أموالهم والتى ستكون سببا فى عذابهم فى الدنيا لأنهم بخلوا بها ولم ينفقوها فى سبيل الله وسيموتون كفارا والمفهوم أن لهم نار جهنم فى الآخرة.

«قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يُتقبَّلَ منكم إنكم كنتم قوما فاسقين. وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتُهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون. فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» (٥٣ - ٥٥).

وكان فريق من المنافقين يحلفون للمسلمين أنهم معهم وفى الحقيقة أنهم ليسوا كذلك بل دفعهم إلى ذلك خوفهم وأنهم لو وجدوا مكانا يعتصمون به لأسرعوا إليه يختفون فيه:

«ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يَفْرَقون (يخافون). لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلا لولَّوا إليه وهم يجمحون (مسرعون)» (٥٦ - ٥٧).

وراح بعض المنافقين ينسبون إلى النبي محاباة القرشيين في العطايا وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٨٠) توزيع غنائم هوازن وإغداق النبي على المؤلفة قلوبهم وراح المنافقون يوغرون صدور بعض الأنصار ويلمحون إلى أن المحاباة قد تكون أيضا في المستقبل في الصدقات التي تؤتى إلى النبي ليتصرف فيها بما يرى من أوجه الإنفاق. وكان الأولى بالمؤمنين حقا أن يرضوا بقسمة الرسول لأنها بأمر من الله ويكفي ما فضلهم الله به من عودة رسول الله معهم إلى يثرب. ثم بينت الآيات مصارف الصدقات كما فرضها الله سبحانه وتعالى وهي ثمانية:

«ومنهم من يلمزك (يطعن فيك) **في الصدقات** (في طريقة توزيعها) **فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون. ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون. إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب** (فداء الأسير وعتق الأرقاء) **والغارمين** (قضاء دين العاجز عن الأداء) **وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم»** (٥٨ - ٦٠).

والنص على أن ذلك «فريضة من الله» يعني أن إعطاء المؤلفة قلوبهم لم يكن عن محاباة لقريش أو لقومه بل كان بأمر من الله.

كذلك كان بعض المنافقين في مجالسهم الخاصة يقدحون في النبي وحذر بعضهم بعضا من أن يصل خبر هذه المجالس إليه متهمينه بأنه «أذن» أي كما نقول بالعامية «ودني» أي سريع التصديق لكل ما يقال له. فردت الآيات على قولهم هذا بأنه أذن خير وليس ظنّان سوء بالمؤمنين المخلصين بل هو رحمة لهم ويصدق ما قد يقدمونه من تفسيرات لأفعالهم أما الذين يتعمدون إيذاء الرسول فلهم عذاب أليم:

«ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن. قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم. والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» (٦١).

ثم تذكر الآيات مواقف بعض المنافقين الذين كانوا يقدحون ويعيبون في حق النبي في مجالسهم فإذا أطلع اللهُ رسولَه على ما قالوا راحوا يحلفون منكرين ماقالوا ويتنصلون مما عوتبوا عليه إرضاء للنبي والمؤمنين وكان الأولى بهم أن يرضوا الله ورسوله بالكف عن أقاويلهم وافتراءاتهم التي يقولونها في مجالسهم:

«يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين. ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم» (٦٢ - ٦٣).

وكان بعض المنافقين يخشون أن يُطلع الله رسوله - بسورة ينزلها - على ما يقولون في مجالسهم الخاصة، وكان بعضهم إذا جوبهوا بما قالوا يعتذرون بأنهم قالوه على سبيل المزاح وتستنكر الآيات موقفهم هذا الذي ينطوي على استهزاء بالله وبرسوله ثم تخبرهم أن اعتذارهم مرفوض فهم قد كفروا. وتقرر أن الأمر موكول إلى الله فبيده العفو عن التائبين المخلصين في توبتهم أما المجرمون المصرون على موقفهم فلهم عذاب أليم:

«يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم. قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون. ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتهم بعد إيمانكم. إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين» (٦٤ - ٦٦).

وتعقيبا على ما جاء فى الآيات السابقة من مواقف المنافقين ومكائدهم وسوء أدبهم وسوء نواياهم جاءت آيات تصف أخلاقهم بصورة عامة وكونهم عصبة واحدة تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف ويبخلون بما فى أيديهم فلا ينفقون فى سبيل الله لأنهم نسوا الله فنسيهم وأعرضوا عنه فأعرض عنهم. ثم يأتى تحذير مما أعدَّ الله لهم من عذاب خالد فى نار جهنم ثم تقريع لهم وتقرير بأنهم ليسوا بدعا من الأمم لا فى كثرة المال أو الولد ولا فى متاع الدنيا ولا حتى فيما لهم من كيد وخوض فى الباطل. فحبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة. والمعنى أن نفس المصير سيكون من نصيب المنافقين ويكفيهم عبرة ما حدث من أقوام الأنبياء السابقين الذين كذَّبوا رسلهم فنزل بهم العذاب جزاء وفاقا ولم يكن الله ليظلمهم ولكنهم بتكذيبهم ظلموا أنفسهم.

«المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم. نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون. وَعَد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم. كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم (فى الباطل والطعن فى النبى) كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون. ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (٦٧ - ٧٠).

وفى مقابل تكاتف المنافقين على الشر جاءت آيات تبين تضامن المؤمنين وتناصرهم على كل ما فيه خير ونهيهم عن كل ما هو منكر، وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله. ولهذا سيكونون موضع رحمة اله ووَعدهم بالخلود فى مساكن طيبة فى جنات عدن بالإضافة إلى ما يفوق ذلك فى مداه ومعناه وهو رضوان الله عليهم وهو حقيقةً أعظم النعم.

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله. أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم. وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم» (٧١ - ٧٢).

فى حديث رواه الشيخان والترمذى أن النبى قال: إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا

نرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تُعْطِ أحدا من خلقك. فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأى شىء أفضل من ذلك فيقول: أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

ثم يأتى أمر بجهاد الكفار والمنافقين:

«يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير» (٧٣).

وقالوا مجاهدة الكفار بالقتال والسيف والمنافقين بالإغلاظ لهم بالكلام حتى يرتدعوا.

أبو عامر الراهب ومسجد الضرار:

وهكذا مضى النبى يُجَهز للغزوة مجاهدا أراجيف المنافقين ومنددا بتخاذلهم وتثبيطهم لبعض ضعاف الإيمان. وكان بالمدينة – قبل هجرة النبى إليها رجل من الخزرج يقال له «أبو عامر الراهب» كان قد ترك الشرك وتنصَّر وكان له شرف كبير فى الخزرج. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٣٩) أنه لما قدم النبى إلى المدينة قال له أبو عامر: ما الذى جئت به؟ قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم. فقال أبو عامر. أنا عليها فقال له النبى إنك لست عليها. قال بلى ولكنك أنت أدخلت عليها ما ليس فيها. فقال له النبى: ما فعلتُ وقد جئت بها بيضاء نقية. فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدا شريدا وحيدا. فقال النبى آمين. فقال أبو عامر: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلما استقر النبى فى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر لم يطق أبو عامر صبرا فخرج فارا إلى قريش يمالئهم على حرب النبى فقال عنه النبى: هو أبو عامر الفاسق.

وفى وقعة أحد كان أبوعامر هو الذى أشار بحفر الحفائر فيما بين الصفين فوقع رسول الله فى إحداها وأصيب فى وجهه وشُجَّ رأسه. ولما انتهت معركة أحد ورأى أبوعامر أن أمر النبى فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى فوعدة ومنَّاه فأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من أهل يثرب – من المنافقين – يعدهم بأنه سيقدم بجيش يقاتل به المسلمين ويخرجهم من المدينة وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه ويجمعون فيه المنافقين أمثالهم. وحتى لا تثير اجتماعاتهم الشك رأوا أن يكون هذا المعقل مسجدا. وبعد بنائه أتوا إلى النبى وقالوا له: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة وإنَّا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه. فقال لهم إنى على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينّا لكم فيه.

قلنا إن جيش المسلمين بلغ ٣٠,٠٠٠ والخيل ١٠,٠٠٠ فارسا وتجمع الكل فى معسكر عند ثنية الوداع بعد أن استعمل النبى على المدينة محمد بن سلمة الأنصارى وخلَّف على بن طالب على أهل بيته.

ولم يتوقف المنافقون عن بث سمومهم والتثبيط عن الحرب، من ذلك أنّ عبدالله بن أبيّ بن سلول – رأس المنافقين – وكما هو متوقع – لم يشترك في الاستعداد للقتال بل قال في شماتة يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، يحسب محمدٌ أن قتال بني الأصفر لعب، والله كأنما أنظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال. واجتمع نفر من المنافقين يردّدون قول عبدالله بن أبيّ: أيحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا. والله لكأنهم غدا مقرنون في الحبال. وبلغ رسول الله مقالتهم فأمر عمار بن ياسر أن يسير إلى المنافقين ويسألهم عما قالوا فإن أنكروا فيقول لهم بل قلتم كذا وكذا. ففعل عمار كما أمره الرسول فاعتذروا إليه وقالوا إنما كنا نخوض ونلعب.

وجاء نفر من الأعراب يستأذنون النبي في القعود وكانوا ٨٢ رجلا قيل إنهم جماعة من بني غفار وقيل من أسد وغطفان. وقيل إنهم رهط عامر بن الطفيل. وهؤلاء الأعراب ادعوا أن لهم عذرا. والحقيقة أن معظمهم لم يكن له عذر فكانوا من المنافقين.

وتخلف بعض المسلمين أيضا بغير عذر وكانوا ممن لا يُتّهمون في إسلامهم، ولعلهم رأوا أن الجيش وقد بلغ ٣٠٠٠٠ فيه الكفاية وكان من هؤلاء **ثلاثة** أشار إليهم القرآن فيما بعد (ص ٨١٠) وهم: كعب بن مالك ومرارة بن ربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي. وقد ورد في كتب السيرة ما رواه كعب بن مالك عن نفسه إذ أقرّ بأنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر منه في هذه الغزوة وكان عنده راحلتان واحدة لركوبه والثانية لزاده. ولكنه تكاسل ولم يخرج مع الجيش بنية أن يلحق به فيما بعد ولكنه راح يؤجل خروجه يوما بعد يوم.

وتأهب رسول الله للسير فعقد اللواء الأعظم لأبي بكر الصديق ورايته العظمى للزبير بن العوام وراية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر. ودفع لكل بطن من بطون الأنصار ومن قبائل العرب لواء وقطع الجيش ثلاثة أميال ثم نزل **بالجرف**. ولما كانوا بمنزل في الطريق ضلّت ناقة رسول الله فخرج أصحابه في طلبها وكان هناك رجل منافق فقال: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! وعلم رسول الله بما قال المنافق فقال لأصحابه: إن رجلا قال كذا وإني والله لا أعلم إلا ما علّمني الله وقد دلّني عليها وهي في الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني لها فذهبوا وجاءوا بها. وقيل إن هذا المنافق تاب بعد ذلك.

المنافقون يُرجفون بعليّ: قلنا إن رسول الله خلّف علي بن أبي طالب في أهل بيته فقال المنافقون ما خلّفه إلا استثقالا له وتخففا منه. فأخذ عليّ سلاحه وفرسه وسار حتى لحق بالنبي وهو نازل بالجرف وأخبر النبي بما قال المنافقون. فقال النبي كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ فهدأت ثائرة عليّ ورجع إلى المدينة.

وتابع رسول الله سيرة حتى بلغوا **الحجر** ديار ثمود، فقال النبى: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم. ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئا ولا يتوضؤوا به للصلاة. ثم ارتحل حتى نزل علي البئر التى كانت تشرب منها ناقة صالح وسمح لهم باستعمالها. ثم قلَّب وجهه في السماء وأخبرهم أنه تهب عليهم الليلة ريح شديدة وأمرهم بإحكام شد عقال بعيرهم ونهاهم عن الخروج فى تلك الليلة وإذا دعت امرأً حاجة للخروج فيخرج ومعه صاحبه. وخرج واحد منفردا فاحتملته الريح حتى ألقته بجبلى طيئ فبقى هناك حتى أعادته طيئ إلى المدينة - وخرج آخر منفردا فضلَّ الطريق من كثافة الغبار واختنق ومات.

وكان **أبو ذر الغفارى** قد تخلف عن الجيش عند بدء مسيرة ولكنه بعد يومين قرر اللحاق برسول الله فركب ناقته وأسرع يقتفى أثر الجيش ولكن الناقة ضعفت عن السير فأخذ أبو ذر متاعه وحمله على ظهره وسار حتى لحق برسول الله. ولما رآه رسول الله يسير وحده قال: رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده. وتروى كتب التاريخ أن عثمان بن عفان - فى خلافته - نفى أبا ذر إلى الربلة فى جنوب العراق لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه. فلما توفي وضعاه على قارعة الطريق وطلبا من المارة إعانتهم على دفنه. وعلم بعض أهل العراق بذلك فقالوا: صدق رسول الله إذ قال له تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك!

أبو خيثمة وعمير بن وهب يلحقان برسول الله:

قال ابن هشام (السيرة النبوية جـ٤ ص ١٠٠) إن أبا خيثمة رجع من سفر بعد أن كان رسول الله قد سار أياما فوجد امرأتيه قد تهيأتا له. فقال: رسول الله فى الضح والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء! ما هذا بالنَّصَف (العدل) والله لا أدخل عريشى حتى ألحق برسول الله. فهيئتا له زادا وارتحل ليلحق برسول الله. وفى الطريق قابل عمير بن وهب الجمى يريد هو الآخر اللحاق برسول الله حتى إذا دنوا من تبوك وقبل أن يمكن رؤيتهما أخبر رسول الله أصحابه بأنهما أبوخيثمة وعمير بن وهب فلما وصلا دعا الرسول لهما بخير.

ذو البجادين: قال عبد الله بن مسعود إنه قام فى جوف الليل فى غزوة تبوك فرأى شعلة من نار فى ناحية من المعسكر فلما ذهب إليها وجد أن عبدالله ذو البجادين المزنى قد مات والرسول وأبو بكر وعمر قد حفروا له حفرة ودلَّياه فيها. وقال الرسول: اللهم إنى أمسيت راضيا عنه - وقد سمى ذا البجادين لأنه لما أسلم ضيَّق عليه قومه حتى تركوه فى بجاد أى كساء خشن ليس عليه غيره. وفى المعركة شق بجاده وائتزر بنصف واشتمل بالنصف الآخر فسمى «ذو البجادين».

وكان فى الطريق وادى يسمى **«وادى المشقق»** وكان به وَشَل وهو الماء القليل يتقطر من

جبل أو صخرة مرتفعة فلا يتجمع منه إلا ما يروى شخصين أو ثلاثة فقال رسول الله: من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه. ولعل رسول الله أراد أن يبارك هذا الوشل فيزيد ماؤه أو يدعو الله فيتحول إلى عين جارية يستقى منها الجميع، ولكن نفرا من المنافقين سبقوا رسول الله إلى الوشل وشربوا ما كان فيه من ماء فلما وصل رسول الله لم يجد به ماء وأُخبر أن فلانا وفلانا قد سبقوا إليه فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل ووضع يده تحت الوشل فبدأ الماء ينسال منه ودعا رسول الله ربه وازداد انسياب الماء حتى استقى القوم كلهم وقال النبى: لئن بقيتم أو من بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه.

وسار الجيش حتى بلغ مشارف تبوك بعد سبعة أيام من خروجه من يثرب وبعث رسول الله بدحية الكلبى بكتاب إلى هرقل يدعوه إلى اختيارات ثلاثة: أن يسلم أو يدفع الجزية أو الحرب، واستشار هرقل رجال البلاط الذين رفضوا الإسلام فلم يبق إلا الحرب.

تسكت كتب السيرة عما حدث بعد ذلك ولا تذكر إلا أن الروم قد انصرفوا من تبوك عائدين إلى الشام وأن النبي أقام بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا إلى المدينة. وما نراه هو أن الروم لما اختاروا الحرب رأى قواد الجيش أن الروم على غير دراية بحرب الصحراء، ولما كانت تبوك تقع قرب الحدود الجنوبية لدولة الغساسنة وهم من العرب، صحيح أنهم نصارى على ديانة الروم إلا أنه لا يستبعد أن تثور فيهم نخوة القبلية العرقية فينتقضوا عليه وينضموا إلى إخوانهم العرب ويهاجموا مؤخرة جيشه لذلك أشار القواد بأن يقوموا باستدراج المسلمين شمالا حتى يصبحوا داخل أراضى تدين بالولاء الكامل للروم ويمكن إجهاد جيش المسلمين بهجمات سريعة على جوانبه وبعد ذلك يصبح غنيمة سهلة. واستراح هرقل لهذه الخطة وانسحب جيش الروم إلى دمشق. وكان فى ذهن هرقل احتمال آخر وهو أن لا يستجيب المسلمون لهذا الاستدراج فلا تقع حرب، ولعل هرقل - كما تذكر كتب السيرة - قد أيقن أن «محمدا» هو النبى الذى تنبأت كتبهم وكتب اليهود بظهوره ولا شك أنه تمنى أن لا يحاربه. وعلى الجانب الآخر فإن رسول الله اكتفى بمسيره إلى تبوك وانسحاب جيش الروم منها إذ كان ذلك في حد ذاته نصرا معنويا كبيرا أعلا من مركز الإسلام فى شمال شبه الجزيرة العربية وجعل قبائلها تسلم أو تصالح النبى على الجزية.

مصالحة ملوك شمال شبه الجزيرة العربية:

١ - **أيلة**: تقع أيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة، ولما رأى ملكها يوحنا بن رُؤْبة ما انتهى إليه الموقف بين النبى والروم وإحجام الروم عن محاربة النبى - فإنه أتى النبى فى تبوك وصالحه على دفع الجزية وكتب النبى له كتابا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة. سفنهم وسيارتهم فى البر

دمشق
صيدا
صور
البحر المتوسط
الروم
الغساسنة
غزة
العريش
بصرى
مؤتة
البتراء
معان
دومة الجندل
خالد بن الوليد
أيلة
جرباء
تبوك
أذرح
تيماء
الحجر (مدائن صالح)
العلا
فدك
خيبر
الجرف
المدينة
البحر الأحمر
ينبع
رابغ
جدة
مكة

شكل ٥٣ – غزوة تبوك.

والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم ومن أهل البر والبحر وأنه لا يحل أن يمنعوه ماء يَرِدُونه ولا طريقا يريدونه من بر ولا بحر» وبذلك أمن المسلمون على تجارتهم المارة إلى الشام ومصر.

٢ - **أهل جرباء وأذرح فى أرض مدين:** وكتب لهم رسول الله كتابا «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ومائة أوقية وافية طيبة وأن الله عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين».

٣ - **بعثة خالد بن الوليد إلى دومة الجندل:** وملكها هو أكيدر بن عبد الملك وكان نصرانيا وقال النبي لخالد إنك ستجده يصيد البقر. فخرج خالد في ٤٢٠ فارسا حتى أشرف علي حصن دومة وكانت ليلة مقمرة. ورأى أكيدر وهو على سطح الحصن البقر تحك قرونها بباب القصر فأغراه هذا بالإسراع للخروج من الحصن لصيدها دون أن يكون معه إلا أخوه وقليل من الحراس. فلما خرجوا من باب الحصن كان خالد قد كمن لهم خارجه فأحاط بهم وأسر أكيدر والحراس وحاول أخو أكيدر القتال فقُتل. وأتى خالد بالأسرى إلى النبى فحقن دم أكيدر وصالحه على الجزية ثم خلَّى سبيله فرجع إلى قومه.

وبعد أن صالح النبى عددا من القبائل الأخرى قرر العودة إلى المدينة.

تآمر المنافقين لقتل رسول الله:

كان فيمن صحب رسول الله إلى تبوك ١٢ من المنافقين وكان بين تبوك والمدينة عَقَبة عبارة عن طريق ضيق يشرف على الوادى فقال المنافقون: إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى فيموت. وأعلم الله رسوله بذلك فلما وصل الجيش إلى العقبة نادى مناد لرسول الله يخبرهم أن الرسول سيسلك وحده العقبة أما باقى المسلمين فيسلكون بطن الوادى فسلك الناس بطن الوادى. أما المنافقون فتلثموا وسلكوا العقبة. وكان عمار بن ياسر يأخذ بزمام ناقة النبى وحذيفة بن اليمان يسوقها. وفجأة أحدث المنافقون ورواحلهم جلبة شديدة فنفرت الناقة وسقط بعض متاع النبى من علٍ فى الوادى ولكن النبى لم يقع من على ناقته وصاح بهم: إليكم يا أعداء الله فأسرعوا بالنزول إلى الوادى واختلطوا بالناس وضاع أثرهم. فلما هبط رسول الله إلى الوادى سالما سأل عمار بن ياسر إن كان عرف القوم فقال إن الرجال كانوا ملثمين ولكنه عرف رواحلهم.فسألوا إن كانوا يبعثون إلى عشائرهم فتأتى برؤوسهم. فقال لا. أكره أن تتحدث العرب بينهم أن محمدا قاتل بقومه حتى إذ أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. وأعلم الله رسوله بأسماء هؤلاء المنافقين الإثنى عشر. فأسرَّ النبى بأسمائهم إلى حذيفة وأخبره أن الله أمره أن لا يصلى علي أحد منهم. وأمره أن يتكتم أسماءهم فلم يفض حذيفة بسر رسول الله إلى أحد.

وقيل إن أحد المنافقين قال: إن كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وواضح ما في هذا القول من تشكيك في النبوة. فنقلت مقالة المنافق إلى النبي فعاتبه فحلف أنه ما قال فنزلت الآيات تكذّبه كما ألمحت إلى محاولة المنافقين قتل النبي ولكنهم لم ينالوا ما همّوا به. ثم توبخهم على نقمتهم على رسول الله مع أن وجوده بالمدينة أعلى مكانتها وجعلها مركز الدعوة الإسلامية تجبى إليها أموال الزكاة وتجيء إليها غنائم الغزوات فكان ذلك سببا من أسباب الغنى والثروة لأهلها بالإضافة إلى بركة النبي الروحية التي أشاعت الأمن والأمان والسلام بين المؤمنين. ثم تخبرهم الآيات أنهم إذا تابوا فهو خير لهم وإن استمروا على ما هم عليه فلهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة:

«يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله. فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولّوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير» (٧٤).

العودة إلى المدينة:

وأخيرا عاد النبي إلى المدينة وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون وجعلوا يحلفون له ويعتذرون. فقبل علانيتهم وأيمانهم وأوكل سرائرهم إلى الله تعالى.

ثعلبة بن حاطب:

كان ثعلبه بن حاطب قد طلب من رسول الله أن يدعو الله ليرزقه مالا فقال له: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله: اللهم ارزق ثعلبة مالا. فاتخذ ثعلبة غنما فنمت وتكاثرت كما ينمو الدود حتى ضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها ونزل واديا وصار يُقصِّر في واجبات الصلاة. وظل ماله ينمو. ولما عاد النبي من غزوة تبوك أرسل رجلين ليأخذا زكاة المال من ثعلبة فأبى وقال: ما هذا إلا جزية أو أختها فانطلقا حتى أرى رأيي. فعادا إلى المدينة فلما رآهما النبي قال قبل أن يكلماه: ويح ثعلبة بن حاطب ونزلت فيه الآيات:

«ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه (حتى وفاتهم ولقاء الله) بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب» (٧٥ - ٧٨).

وسمع بعض أقارب ثعلبة هذه الآيات فأتاه وقال له: ويحك يا ثعلبه أنزل فيك كذا كذا. فقدم على رسول الله وقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي فقال النبي: إن الله منعني أن أقبل منك. فجعل ثعلبة يبكي ويحثو التراب على رأسه. ولما ولي أبو بكر لم يقبل منه وكذلك فعل عمر بن الخطاب وعثمان.

سبق أن ذكرنا - عند التجهيز للغزوة (ص ٧٩١) - أن عثمان بن عفان وأبا بكر وعمر بن الخطاب تبرعوا بمبالغ كبيرة وكذلك فعل غيرهم من الأغنياء. وحتى الفقراء تبرعوا بما قدروا عليه مثل أبى عقيل. وذكرنا لمز المنافقين لهم يقدحون فى المتطوعين تغطية على بخلهم. فنزلت الآيات تُقَبِّح قولهم وتخبر بأن الله لن يغفر لهم:

«الذين يلمزون (يعيبون) المطّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم (الفقراء الذين تبرعوا بالقليل) **فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم. استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين»** (٧٩ - ٨٠).

وقد سبق أن ندّدت سورة النساء بالمنافقين (آية ١٤٦ ص ٦٣٣) وذكرت أنهم فى قاع الجحيم ومع ذلك فتحت أمامهم باب التوبة: **«إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما»** أما الآيات الحالية فقد أغلقت أمامهم باب التوبة وقررت أنهم حتى لو جاءوا واعتذروا للنبى وطلبوا منه أن يستغفر لهم ولو استغفر لهم النبى سبعين مرة فإن الله يعلم طوية نفوسهم وإصرارهم على النفاق ولن يغفر لهم لأنهم فى حقيقتهم كافرين.

وقد ذكرنا سابقا فى معرض فضح المنافقين (ص ٧٩٤) كيف تخلفوا عن الخروج للجهاد وزادوا على ذلك أنهم راحوا يُثبِّطون الآخرين فكانوا يقولون لهم ألا ينفروا فى الحر وردّت عليهم الآيات بأن نار جهنم أشد حرا ولو كان عندهم عقل وفهم لعملوا على اتقاء نار جهنم بإطاعة الله ورسوله. وإن كانوا قد سُرُّوا وضحكوا واستمتعوا بالقعود فى الظل الظليل فهذا سرور قصير يعقبه ندم وبكاء على أنهم لم يرافقوا رسول الله فى غزوته. وعلى النبى - إذا ما أعاده الله إلى المدينة سالما - واستأذنه المتخلفون ليخرجوا معه فى غزوة قادمة أن يرفض اشتراكهم ويعلنهم أنهم لن يخرجوا معه أبداً لقتال عدو لأنهم رضوا بالقعود فى المرة الأولى - وهى غزوة تبوك - ونُهِىَ النبى أن يُصَلِّ على أحد منهم مات ولا يقف على قبره مستغفرا أو داعيا له لأنهم كفروا بالله وماتوا على كفرهم. وعلى المسلمين ألا يغتروا بما لهؤلاء المنافقين من مال وولد ويظنوا أنها نعمة من الله بل إن ذلك ابتلاء واختبار وستكون سببا لعذابهم فى الدنيا ويموتون على الكفر وسيكون لهم عذاب أليم فى الآخرة.

«فرح المخلفون بمقعدهم خِلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حَرًا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا مَعِىَ أبدا ولن تقاتلوا مَعِىَ عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين.

ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره. إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون. ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» (٨١ – ٨٥).

ثم نزلت الآيات تُذكِّر بما فعله المنافقون إذ استأذنه ذوو القدرة والاستطالة وطلبوا منه أن يبقوا فى المدينة مع المتخلفين من النساء والأولاد والشيوخ والمرضى فى حين أن الرسول والمؤمنين سارعوا إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم فكانوا من المفلحين وبشرتهم الآيات بأن الله أعد لهم جنات الخلد وذلك هو الفوز العظيم:

«وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطَّوْلِ منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون. لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون. أعدَّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» (٨٦ – ٨٩).

ولا يخفى ما فى استعمال كلمة «الخوالف» من تحقير للمنافقين لأنها جمع خالفة وهي المرأة تتخلف لطبيعتها التي لا تتفق مع الحرب فكأنهم ساووا أنفسهم بالنساء.

وقد ذكرنا سابقا (ص ٧٩٨) أن بعض الأعراب ممن حول المدينة – عددهم ٨٢ رجلا – جاءوا إلى النبى وأبدوا أعذارا لعدم خروجهم معه فأذن لهم حسب ما قدموا من أعذار. والحقيقة أن معظمهم كانوا كاذبين وقعدوا بدون عذر فاعتبروا من المنافقين. ومنهم من اشتد فى استنكار الخروج للحرب حتي دخل فى زمرة الكفار فتوعدهم الله بعذاب أليم:

«وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم» (٩٠).

واستثنى من العذاب فئات أربع من المتخلفين:

١ – الضعفاء.

٢ – المرضى.

٣ – الذين لا يجدون المال الكافي ليجهِّزوا أنفسهم بالسلاح والدابة التى تحملهم والزاد اللازم.

٤ – هؤلاء الذين أتوا بالسلاح والزاد ولكن لم تكن عندهم رواحل تحملهم فأتوا إلى النبى وسألوه أن يُجهِّز لهم الرواحل لتحملهم فاعتذر لهم النبى فعادوا وقد تملكهم الحزن وصاروا يبكون لعدم إمكانهم الغزو مع رسول الله وسُمُّوا بالبكَّائين:

«ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله (بعدم تثبيط الآخرين) **ما على المحسنين من سبيل** (ليس عليهم مؤاخذة) **والله غفور**

رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون» (٩١ - ٩٢).

ثم بينت الآيات أن العذاب سيشمل الذين استأذنوا النبى للقعود بالرغم من أنهم أغنياء ويقدرون على نفقة الحرب من سلاح وزاد وراحلة ورضوا بأن يقعدوا مع الخوالف. وحكت الآيات ما كان من الأعراب المعتذرين والقاعدين حينما عاد النبى والمسلمون من الغزوة سالمين إذ سارعوا إلى تقديم الأعذار وأقسموا بالله لتوكيد اعتذارهم طالبين الإغضاء عن تخلفهم وعدم توبيخهم بسببه والرضا عنهم وأمر النبى أن يقول لهم أنه لا داعى للإعتذار لأنهم لن يصدقوهم بعد الآن وأن الله قد كشف حقيقة أمرهم. وأن الله سيحاسبهم حينما يقفون بين يديه فهو الذى يعلم ما يكتمون وما يعلنون. ثم أمر النبى والمسلمون أن يعرضوا عنهم ويقاطعوهم لأنهم رجس ومأواهم النار. وحتى لو قبل المسلمون أعذارهم ورضوا عنهم فإن الله لن يرضى عنهم:

«إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله علي قلوبهم فهم لا يعلمون. يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم. قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون. يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» (٩٣ - ٩٦).

ثم تبين الآيات طبيعة **الأعراب** وهم البدو الرحل الذين يسكنون الصحراء فهم أقسى طبعا وأجفى خلقا وأقل تقيدا بالواجبات من الحضرى وكلما تقدم الإنسان فى سلم التمدن لطف طبعه ودمث خلقه ولان قلبه واتسع أفقه وأقام صلاته مع الناس على أسس الواجبات والحقوق المتبادلة:

«الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله (من شرائع وأحكام) **والله عليم حكيم»** (٩٧).

وقد اتخذ بعض المستشرقين من هذه الآية - وقد فهموا كلمة الأعراب على أنها تعنى العرب - أساسا لذم العرب. فى حين أن كلمة الأعراب تعنى البدو الرحل Nomads ويدخل فيها جميع أعراب الدنيا مثل الغجر في أوربا والهنود الحمر فى أمريكا والتتار فى آسيا الوسطى وغيرهم. وعن ابن عباس أن النبى قال: من سكن البادية فقد جفا.

ثم راحت الآيات تبين حقيقة الأعراب. فهم فريقان. فريق يعتبر ما ينفق فى سبيل الله أو يؤديه إلى النبى ضريبة يتحملها خوفا أو رياء ثم هو يتربص أن تدور الدائرة على المسلمين

ينفق فى سبيل الله أو يؤديه إلى النبى وسيلة للتقرب إلى الله ونيل رضا رسوله ودعائه وهؤلاء سيشملهم الله برحمته:

«ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوْء والله سميع عليم. ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول. ألا إنها قُربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم» (٩٨ – ٩٩).

ثم نوَّهت الآيات بفئات أربع:

١ – المسلمون الأوائل من أهل مكة الذين تحملوا أذى قريش ثم هاجروا إلى المدينة قبل أو بُعيد هجرة الرسول.

٢ – السابقون الأولون من الأنصار الذين بايعوا بيعة العقبة (ص ٢٣٥).

٣ – الذين أسلموا من أهل مكة وهاجروا متأخرين.

٤ – الذين اتبعوا الأوائل من أهل المدينة فأسلموا وناصروا الباقين.

فهؤلاء جميعا رضى الله عنهم وأعد لهم جنات الخلد وذلك هو الفوز العظيم:

«والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم» (١٠٠).

ثم تعود الآيات لتُذكِّر بأنه إلى جانب من كانوا يُعرف نفاقهم هناك أناس آخرون من أهل المدينة ومن الأعراب القاطنين حولها منافقون لا يعلمهم النبي لأنهم برعوا فى إخفاء نفاقهم ولكن الله يعلمهم وتوعَّدهم بعذاب مرتين فى الدنيا وعذاب أعظم يوم القيامة:

«وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم. سنعذبهم مرتين ثم يُرَدُّون إلى عذاب عظيم» (١٠١).

وفى الآيات تحذير وتهديد لهؤلاء المنافقين حتى يقلعوا عن نفاقهم ويتوبوا إلى الله. وقالوا إن العذاب الأول هو فضحهم بين الناس إذ قالوا إن رسول الله قام يوم جمعة خطيبا فقال: قم يا فلان فاخرج فإنك منافق. وعدَّد فى ذلك اليوم وهو على المنبر ٣٦ رجلا (تفسير الألوسى جـ ١١ ص ١١). وقالوا العذاب الثانى هو الجوع والفقر وقالوا هو عذاب القبر. ثم العذاب العظيم المؤجل إلى يوم القيامة.

ولا شك أن هذا التحذير والتهديد قد أتى بنتيجة إذ بدأ بعضهم يراجع نفسه ونزلت الآيات تفتح أمامهم باب الأمل فى التوبة. فهم ليسوا ممن أصرُّوا على النفاق بل كانت لهم أعمال صالحة بجانب أعمالهم السيئة. فجاءتهم البشارة بأنه من الممكن أن يتوب الله عليهم إذا تابوا وأمر النبى أن يأخذ من أموالهم صدقة للفقراء لتكون كفارة عما اقترفوه من ذنوب تطهيرا لهم

وأن يدعو لهم ففى دعائه لهم تطمئن لقلوبهم وعليهم أن يعلموا أن الله يقبل التوبة من عباده ويتقبل صدقاتهم إذا كانت عن إخلاص وصدق نية كما أَمرَ النبى أن يشجعهم على العمل الصالح ليثبتوا إخلاصهم وصدق توبتهم فالله مطلع على أفعالهم وكذلك سيحكم عليهم النبى والمسلمون بأعمالهم. ثم يوم القيامة يقفون بين يدى الله عالم الغيب والشهادة وسيخبرهم بما كان من حقيقة أمرهم:

«وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وَصَلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم. ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (١٠٢ - ١٠٥).

وهناك فريق آخر من المسلمين كانوا قد تخلفوا عن الجهاد ولم يسارعوا إلى الاعتراف بالذنب ولم يبالغوا فى الندم والتوبة كما فعل الفريق الأول. فهؤلاء موكولون لأمر الله فإما أن يراهم مستحقين العذاب فيعذبهم أو يراهم مستحقين للرحمة والمغفرة فيرحمهم ويتوب عليهم:

«وآخرون مُرجَوْن لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوبُ عليهم والله عليم حكيم» (١٠٦).

مسجد الضـرار:

قلنا سابقا (ص ٧٩٧) إن بعض المنافقين بنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء وطلبوا من النبي أن يصلى فيه فوعدهم بذلك عند عودته من الغزو. ونزل قوله تعالى يخبره أن الدافع الحقيقى لبنائهم المسجد هو إيجاد مكان يدبرون فيه الضرر للمؤمنين ومكانا لترصد وتجمع من يحاربون الله ورسوله بالرغم من توكيد من بنوه بأنهم حسنو النية وأرادوا الخير. وتأمر الآيات النبى بعدم الصلاة فيه وتنبه إلى أن المسجد الذى يؤسس على التقوى هو الأحق بالصلاة فيه لأن أصحابه مخلصون وأرادوا ببنائه أن يتطهروا من الذنوب كما كانوا يطهرون أجسادهم. ثم يجى تنويه بمسجد قباء الذى أقيم من أول يوم بقصد التقرب إلى الله - وتنديد بمسجد الضرار الذى أقيم على أساس فاسد ومقصد باطل. وضُرِب مثل لمسجد الضرار هذا ببنيان أقيم على حافة جرف متداع للسقوط فلا يلبث أن ينهار. وقد انهار مسجد الضرار بأصحابه المنافقين فى نار جهنم وستظل أطلال مسجدهم هذا شاهدا على النفاق الذى تمكن من قلوبهم ولن يزول إلا بالموت:

«والذين اتخذوا مسجدا ضِرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين.

أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذى بنوا رِيبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم» (١٠٧ - ١١٠).

ولما نزلت هذه الآيات بعث رسول الله رجالا وأمرهم بهدم المسجد وحرقة ففعلوا ثم أتى النبى مسجد قباء فصلَّى فيه وقال: صلاة فى مسجدقباء كعمرة. ثم سأل النبى أهل المسجد: ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟ قالوا نغسل أثر الغائط والبول. فقال النبى: هو هذا، واقتدى الناس بهم فى الاستنجاء بالماء.

تنويه بالشهداء:

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون. وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين»

(١١١ - ١١٢).

والآيات تؤكد صدق وعد الله للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم فى سبيله بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمنا لما بذلوا فإنهم يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون أعداء الله أو يستشهدون فى سبيله. وقد أثبت الله هذا الوعد فى التوراة والإنجيل كما أثبته فى القرآن وليس أحدٌ أبر ولا أوفى بعهده من الله. ثم جاءت بشرى لهم. وأبهمت البشرى لتشمل الجنة وما هو أكثر: رضوان من الله أو النظر إلى وجهه الكريم. ثم تأتى الآيات ببعض صفات المؤمنين المخلصين وتَعِدُهم مرة ثانية بالبشرى. وكان رجال الدين فى الأمم السابقة يسيحون فى الأرض «السائحون» فى مسوح خشن ليكونوا قدوة للناس فى زهدهم وبعدهم عن زخارف الدنيا. ومن فضل الله على أمة «محمد» أن جعل الصيام مكافئا لثواب هذه السياحة. فى حديث عن أبى هريرة أن النبى قال: السائحون هم الصائمون.

استغفار المؤمنين للمشركين:

مما لاشك فيه أن المنافقين كان لهم أقارب مسلمون مخلصون فى إسلامهم وهؤلاء كانوا يتمنون أن يتوب المنافقون عن نفاقهم وكانوا يستغفرون لهم متمثلين بذلك فى إبراهيم عليه السلام واستغفاره لأبيه الذى كان مشركا. فنزلت الآيات تعاتب برفق النبى والمؤمنين وتنهاهم عن الاستغفار لأقاربهم المشركين وتبين أن استغفار إبراهيم لأبيه كان تنفيذا لوعد قطعه على نفسه بذلك ولكن لما تبين له أن أباه كافر ويعادى الله تبرأ منه وتوقف عن الاستغفار له. ولما ظن بعض المؤمنين أنهم باستغفارهم لأقاربهم المشركين قد ارتكبوا إثما بينت الآيات أن الله

عز وجل لا يؤاخذ مسلما على عمل لم ينه عنه وإنما يؤاخذ بعد بيان حكم الله فيه. وحتى لايظن المؤمنون أنهم قد فاتتهم منفعة من قطع الصلة بذوى قرباهم المشركين أكدت الآيات على أن الله هو وليهم وناصرهم فهو مالك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت:

«ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم. وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يُبَين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم. إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير» (١١٣ - ١١٦).

الثلاثة:

ذكرنا سابقا (ص ٧٩٨) قصة هؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى: تخلفوا عن جيش المسلمين ولم يكن لهم عذر. وأثناء وجوده فى تبوك سأل رسول الله وهو جالس فى أصحابه: ما فعل كعب بن مالك؟ فأُخبر بتخلفه. فسكت. فلما عاد رسول الله من الغزوة وانتهى من الركعتين بالمسجد وجلس للناس مشى إليه كعب بن مالك فقال له النبى: ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك (أى راحلته التى تحمله على ظهرها) فأقر كعب بأنه لم يكن له عذر فقال له النبى قم حتى يقضى الله فيك. وكذلك فعل مع مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ونهى الناس عن كلام هؤلاء الثلاثة فاجتنبهم الناس وتغيَّروا لهم حتى ضاقت أنفسهم فأينما كانوا يتوجهون كانوا يُواجَهون بوجوه عابسة ولا أحد يكلمهم فقعدوا فى بيوتهم. وكان كعب بن مالك أشجعهم فكان يخرج للصلاة مع المسلمين وإذا حدث والتقى برسول الله أعرض الرسول عنه حتى إذا مضت أربعون ليلة أرسل لهم رسول الله يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ومرت عشر ليال أخرى حتى كانت صلاة الفجر من الليلة الخمسين ونزل قوله تعالى:

«لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة (غزوة تبوك) **من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»** (١١٧ - ١١٩).

وقد خصَّت الآية الأولى المهاجرين والأنصار بالذكر لأنهم كانوا هم العمود الحقيقى الذى قامت عليه الدعوة وكانوا يسارعون إلى تأييد النبى والاستجابة له فى كل ظرف وخاصة فى الملمات فكان أن تفضل الله عليهم بالمغفرة وتبَّتهم فى وقت الشدة وصانهم عن التخلف من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد وقد غفر الله لهم

هذا الهم الذى خطر بنفوسهم فهو الرؤوف بعباده والرحيم بهم. ثم أعلنت الآيات توبة الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو وهم كعب ومرارة وهلال. وراح رجل يبشر كعب بتوبة الله عليه وصاح بأعلى صوته. يا كعب بن مالك أبشر! فخر كعب ساجدا لله وجاء الناس يبشرونه ويهنئونه وراح كعب إلى النبى وهو جالس في المسجد وقال له: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله. فقال له: أمسك بعض مالك فهو خير لك. فقال إنى أمسك سهمى الذى بخيبر.

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى «ثم تاب عليهم ليتوبوا» ورد الشيخ محمد متولى الشعراوى على اعتراضهم فقال إنه قبل أن يتوبوا كان عليهم أن يعرفوا أولا إن كان الله سيقبل توبتهم أم لا. فلما شاءت إرادة الله أن تُقبل توبتهم - أى تاب عليهم - أعلمهم بذلك ليتوبوا.

والعبرة المستفادة من قصة هؤلاء الثلاثة هو أن التقصير فى الواجب - ولاسيما إذا صدر من المخلص - شديد الأثر من حيث تذرع غير المخلص به واحتمال انتقال عدواه إلى مخلصين آخرين فيبدأون فى التقصير وهكذا. ومن هنا كان موقف الحزم الذى وقفه النبى من هؤلاء الثلاثة الذين لم يكن لهم عذر وقصَّروا فى واجب الجهاد وتنتهى الفقرة بحث المؤمنين على تقوى الله والاقتداء بالصادقين فى إيمانهم.

ثم تمضى الآيات تحفز أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب على الجهاد فى سبيل الله وتحذرهم من التخلف عن رسول الله أو أن يضنوا بأنفسهم عن نفسه وتُرغِّبهم فى تحمل المشاق وتحمل العطش والتعب والجوع فى سبيل الله. وأنهم حتى لو وقفوا موقفا متميزا فتسبَّب فى إغاظة الكفار - وحتى لو لم يكن هناك قتال أو وقع قتال ونالوا من عدوهم - وأن كل مال ينفقونه فى الحرب - قليلا كان أم كثيرا - ولا يسيرون مسيرة أو يقطعون واديا ... كل ذلك ستُكتب لهم به حسنات وسيثيبهم الله عليها بأحسن ما عملوا:

«ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» (١٢٠ - ١٢١).

قيل إنه بعد نزول هذه الآيات أخذت قبائل البدو التى أسلمت تنتقل إلى المدينة لتقيم فيها أو حولها بحجة الرغبة فى الجهاد والاستعداد له فور سماع الدعوة إليه وأصبحت المدينة تعج بقبائل العرب فضاقت بهم وهدد الازدحام بوقوع مشكلات اجتماعية تهدد استقرار المجتمع. كما أن بعض المسلمين من خارج المدينة رغبوا فى مصاحبة النبى والاستماع له للتفقه فى

الدين، فنزلت الآيات لتحد من هذا التكالب على الإقامة فى المدينة وتوضيح أن المطلوب ليس اشتراك جميع المسلمين فى الجهاد بل يكون الاستنفار على حسب مقتضيات الأمور وكذلك ليس المطلوب أن يكون كل المسلمين فقهاء فى الدين بل يكفى أن تأتى طائفة إلى الرسول ليتفقّهوا فى الدين ويرجعوا إلى أهلهم يفقهونهم وينذرونهم ويحذرونهم من عذاب الله إن هم خالفوا شرعه:

«وما كان المؤمنون لينفروا كافة. فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» (١٢٢).

وبهذا أصبح الجهاد والتفقه فى الدين «فرض كفاية» إذا قام به فريق سقط عن الباقين. وفى الجهاد بالذات يلزم أن يكون الفريق الذى يقوم به كافيا الحاجة وسادًا لها حسب ما يقرره أولوا الأمر فإذا لم يتقدم عدد كاف أثم المتخلفون.

الحث على قتال الكفار:

ثم راحت الآيات تحث على قتال الكفار بدءا من الأقرب مكانا إلى الأبعد كما حثت على الاشتداد فى قتالهم:

«يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين» (١٢٣).

ولاشك أن القبائل العربية التى كانت لا تزال على كفرها – لما سمعت هذه الآية أدركت أن النبى والمسلمين لابد مقاتلوها ولا قِبَلَ لهم على قتاله. لذلك فإن القبائل بدأت ترسل وفودها إلى المدينة لتعلن لرسول الله إسلامها وامتثالها لما يأمر به. حدث ذلك فى أواخر عام ٩ للهجرة والذى سُمِّىَ «عام الوفود» حتى دان معظم أهل الجزيرة العربية للإسلام.

آية أخيرة فى المنافقين:

وإذ اقتربت السورة من نهايتها، عادت لتذكِّر ببعض مواقف المنافقين وأفعالهم. حيث كان بعضهم إذ ما أوحى الله لرسوله بسورة سألوا سؤال المستهزئ عما إذا كان هناك أحد زادته هذه الآيات إيمانا. وترد عليهم الآيات بأن الذين آمنوا يزيدهم ما ينزل من القرآن هدى ويقينا وإيمانا ويجيئهم بالبشرى والمفهوم أنها بشرى من الله بحسن الثواب. وأما المنافقون ذوو القلوب المريضة فيزدادون رجسا وإثما بتكذيبهم حتى يموتوا على كفرهم. ثم سؤال توبيخ لهم عما إذا كانوا لا يدركون أنهم يُختبرون ويُبتلون فى كل عام مرة أو مرتين فتظهر أمارات نفاقهم ويفتضح أمرهم ثم هم لا يتعظون ولا يتوبون. وإذا أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض نظرة المستهزئ ويتغامزون على الانصراف من مجلس الرسول خلسة دون أن يراهم أحد ثم ينصرفون. ثم تختتم هذه الفقرة بالدعاء عليهم بأن يزيد الله قلوبهم انصرافا حتى يزدادوا عمى وضلالا لأنهم قوم لا يفقهون:

«وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون. أَوَ لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون. وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا. صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون» (١٢٤ - ١٢٧).

ثم يأتى ختام السورة بآيتين يصح أن تكونا مُوجهتين إلى المنافقين كإنذار أخير وهى موجهة كذلك إلى عموم المسلمين ويعتبرها المفسرون من روائع آيات القرآن الكريم فى الثناء على رسول الله وتقرير ما اتصف به من كريم الصفات وعظيم الأخلاق فهو مثلهم من قريش بل من أعرق بيوتاتها «بنى هاشم» يشق عليه ما يراه من تعنت البعض ويحزنه ماقد يصيبهم من ضرر وحريص على هدايتهم فلم يضق صدرا بتكذيبهم له وامتلأ قلبه عطفا ورحمة بالمؤمنين. فإن أعرض الكافرون بعد كل هذا فما على الرسول إلا أن يوكل أمره إلى الله فهو مالك الملك ورب الكون وصاحب السلطان العظيم:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» (١٢٨ - ١٢٩).

وبهذا تختتم سورة التوبة ونعود لنذكر باقى الأحداث التى وقعت فى العام التاسع للهجرة.

وفاة أم كلثوم:

فى شعبان سنه ٩ الهجرة توفيت أم كلثوم فـى بيت زوجها عثمان بن عفان عن غير ولد.

الشائعات تنال من مارية القبطية:

ثم نالت الشائعات من مارية وأرجف المرجفون واتهموها إفكا وبهتانا بالعبد «مابور» الذى جاء معها من مصر في هدية المتوقس وكان يتردد على بيتها ليخدمها. وغضب النبى وقال لعلي اذهب فاضرب عنقه. فذهب على فإذا هو فى بئر يغتسل فقال له على اخرج فلما خرج عاريا فإذا هو مجبوب أى خصى وقد قطع أيضا ذكره. فكف عنه وأتى وأخبر النبى.

إسلام ثقيف فى رمضان:

ذكرنا سابقا (ص ٧٧٧) حصار الطائف وفى ص ٧٧٩ ذكرنا إسلام مالك بن عوف سيد ثقيف وانضمامه إلى النبى بالمدينة مع نفر قليل من قومه أسلموا معه. وسبق أن ذكرنا أن رسول الله لما ارتحل عن ثقيف سُئِل أن يدعو عليهم فدعا لهم بالهداية. ولما انصرف رسول الله عائدا إلى المدينة اتبع أثره عُروة بن مسعود الثقفى فأدركه قبل أن يصل المدينة وأسلم وطلب من النبى أن يسمح له بالعودة إلى قومه لكى يدعوهم إلى الإسلام فحذره النبى من أن فيهم

نخوة الامتناع وأنهم سيقتلونه ولكن عروة كان متفائلا وعاد إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فرموه بالنبل وقتلوه.

وبعد عدة أشهد كانت كل القبائل المحيطة بالطائف قد أسلمت ورأت ثقيف أنه لا قبل لها بمحاربة الإسلام فاستقرر رأيهم على إرسال وفد من ستة من كبار رجالهم إلى النبى لمفاوضته فى شروط إسلامهم. فذهبوا إلى المدينة ودخلوا المسجد وجلسوا فى ركن منه وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشى فى التفاوض بينهم وبين رسول الله، وكان مما اشترطوا على رسول الله أن يدع لهم «اللات» ثلاث سنين فرفض فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا فرفض فسألوه ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم فأجابهم إلى هذا المطلب وبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة ليهدماها. ثم سألوا أن يعفيهم من الصلاة. فقال: وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه فقبلوا على كره منهم، ثم إنهم سألوه مطالب أخرى أجابهم إليها بقوله. لكم ألا تُحشروا (تنتدبوا للجهاد) ولا تُعشَّروا (تؤخذ منهم صدقة العشر) ولا يُستعمل عليكم غيركم. وسُمع رسول الله يقول بعد ذلك: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا. فلما أسلموا وكتب لهم النبى كتابا بذلك أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص وكان من أحدثهم سنا إذ زكَّاه أبو بكر الصديق لما رأى من حرصه على التفقه فى الدين. وقال له الرسول: يا عثمان تجوَّز فى الصلاة واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة.

موت عبدالله بن أبىّ بن سلول:

فى شوال سنة ٩ مرض عبدالله بن أبىّ واشتد مرضه ٢٠ ليلة كان رسول الله يزوره فيها، فلما كان يوم وفاته – فى ذى القعدة – دخل عليه رسول الله وقال له: قد نهيتك عن حب يهود. فقال عبدالله: يا رسول الله ليس هذا بوقت عتاب هو الموت فاحضر غسلى وأعطنى قميصك فكفنّى فيه وصلِّ علىَّ واستغفر لى. فأعطى قميصه لابنه ليكفنه فيه حسب رغبته. وقيل لما قام ليصلى عليه قام عمر بن الخطاب وقال له: إنه منافق. أتُصلى عليه وقد قال الله: «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبرة إنهم كفروا بالله ورسوله» وقيل إن رسول الله إنما ألبسه قميصه ردا ما فعل بن أبىّ حين ألبس العباس قميصه لما جاء إلى المدينة.

عـــام الوفـــود

كان العرب ينتظرون ما تفعل قريش ليحددوا موقفهم من الإسلام فقد كانت قريش – أهل البيت الحرام – إمام الناس وقدوتهم. ولما تصدت قريش لحرب رسول الله كان الناس يقولون: اتركوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبى صادق. فلما افتتحت مكة وأسلمت قريش بدأت القبائل من جميع أنحاء الجزيرة العربية تبعث بوفودها إلى النبى بالمدينة لتعلن إسلامها. فسمى عام ٩ للهجرة «عام الوفود». ونذكر فيما يلى بعضا من هذه الوفود:

١ – وفد بنى تميم:

وتكوّن الوفد من عدة رجال من أشرافهم، وتقول كتب السيرة إنهم نادوا على رسول الله ليخُرج لهم من يفاخرهم فأذِن لهم. فقالوا نثرا وشعرا. وردّ عليهم حسان بشعر. فقال رئيسهم: لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا وأسلموا فقبل النبى إسلامهم وأعطاهم هدايا وقال: إن من البيان لسحرا!

٢ – وفد بنى عبد القيس:

قدم وفد بنى عبد القيس على رسول الله فقال: مرحبا بالقوم غير خزايا ولا الندامى فقالوا: يا رسول الله، إنّا حىٌّ من ربيعة وإنا نأتيك من شقة بعيدة وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر. وإنا لا نصل إليك إلا فى الشهر الحرام. فمرنا بأمر فَصْل ندعو إليه مَن وراءنا وندخل به الجنة. فقال رسول الله: آمركم بأربع: آمركم بالإيمان بالله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغانم الخمس.

٣ – وفد بنى حنيفة من اليمامة وفيهم مسيلمة:

جاء وفد بنى حنيفة إلى النبى وكان فيهم مسيلمة الذى قال: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته. فأقبل إليه النبى وفى يده قطعة جريد وقال له: لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنَّك الله وإنى لأراك الذى رأيت ما رأيت وهذا ثابت يجيبك عنى ثم انصرف عنه. فسأل مسيلمة عما رأى رسول الله فقال أبو هريرة إن رسول الله قال: بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمّنى شأنهما فأوحى إلىَّ فى المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا. فأوّلتهما كذابين يخرجان بعدى أحدهما الأسود العنسى (فى صنعاء) والآخر مسيلمة (فى اليمامة).

كان مسيلمة مستحقا أن يضرب عنقه لادّعائه النبوة فى رده على دعوة النبى له للإسلام والتى ذكرناها ص ٧٢٥ ولكنه عند قدومه على رأس وفد بنى حنيفة أظهر إسلامه فحقن دمه. فلما عاد الوفد إلى اليمامة عاد مسيلمة إلى ادعاء النبوة وقال لقومه: إنى قد أشركت فى الأمر معه ثم جعل يسجع السجعات ويقول أقوالا يحاول مضاهات القرآن فقال: لقد أنعم الله على الحبلى وأخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق (جلد البطن) وحشا. وغير ذلك من أقوال ركيكة. وأحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة وهو مع هذا يشهد لرسول الله بأنه نبى. واتبع مسيلمة كثيرون من بنى حنيفة. وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتابا قال فيه: من مسيلمة إلى محمد رسول الله. سلام عليك. أما بعد. فإنى قد أُشركت فى الأمر فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر ولكن قريشا قوم يعتدون. فكتب إليه رسول الله: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإن

الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم سأل مبعوثا مسيلمة: وأنتما تقولان مثل ما يقول؟ قالا نعم. فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

٤ – وفد همدان:

قدم وفد همدان على رسول الله بالمدينة وأعلنوا إسلام قومهم فأعطاهم النبي كتاب موادعة.

٥ – وفد طيئ:

قدم وفد طيىء إلى المدينة وسيد طيىء هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائى ويلقب بزيد الخيل لخمس أفراس كن له. فلما انتهوا إلى رسول الله كلموه وعرض عليهم الإسلام فأسلموا. أما عدى بن حاتم الطيىء فكان قد تنصَّر. فلما بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل قرر أن يلحق بأهل دينه نصارى الشام فسافر إلى الشام تاركا زوجته وابنة له. وكانت سرية لرسول الله قد أغارت على ديار طيىء وأصابتهم وأسرت فيمن أسرت ابنة حاتم الطيىء. فلما عُرِضت علي النبى قالت له: يا محمد إن رأيتَ أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة حاتم الطيىء سيد قومي وإن أبى كان يحمى الذمام (العهد والحرمة) ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويَقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطيىء. فقال النبى: يا جارية. هذه صفة المؤمنين حقا. لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلُّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق. وسمَّاه «زيد الخير» بدلا من زيد الخيل. فلما أطلق النبى سراحها أسلمت. ولما قدم قوم من طيىء متجهين إلى الشام خرجت معهم بعد أن أعطاها رسول الله كسوة ونفقة. فلما وصلت الشام لامت أباها علي تركها وراءه. وسألها عما فعله النبى معها فروت له وقالت له: أرى أن تلحق به. فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله وإن يكن ملكا فلن تزل فى حماه. فخرج عدى حتى قدم على رسول الله بالمدينة ولقيه بالمسجد وسأله النبى: يا عدى بن حاتم الطيىء ما أفرَّك (أى ما دعاك إلى الفرار)؟ أفرَّك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرَّك؟ أفرَّك أن يقال الله أكبر؟ فهل شيئ هو أكبر من الله عز جل؟ لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم. فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف. ولعلَّك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم. وإيم الله ليوشكى أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. يقول عدى: فأسلمتُ (السيرة النبوية. ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٦).

٦ – وفد مراد وزبيد:

وقدم فروة بن مسيك المرادى رئيس قومه «مراد» وكانت «همدان» قد أصابت منهم

وأثخنوهم بالرغم من أن فروة كان يدين بالولاء لملوك كندة إلا أنهم لم ينصروه فأتى فروة إلى رسول الله يعلنه بإسلام قومه فقبل النبى إسلامهم واستعمله على مراد وزبيد. وكان عمرو بن معديكرب – من زبيد – قد سمع عن رسول الله فخرج قاصدا المدينة وقابل النبى وأسلم على يديه وعاد إلى قومه. وكان النبى قد جعل فروة واليا من قبله على مراد وزبيد فسكت عمرو على مضض. فلما توفي الرسول ارتد عمرو بن معديكرب فيمن ارتد وهجا فروة. ثم بعد مدة عاد فأسلم وحَسُن إسلامه.

٧ – وفد كندة:

قدم الأشعث بن قيس رئيسا على وفد كندة وكان الوفد مكونا من ٨٠ راكبا فدخلوا علي رسول الله فى مسجده وعليهم ثياب الحرير. فلما رآهم النبى قال لهم ألم تُسلموا؟ قالوا بلى. قال فما بال الحرير فى أعناقكم! فألقوها عنهم.

٨ – قدوم وفد أزد وإسلام جرش:

قدم صرد بن عبدالله الأزدى على رسول الله فى وفد من قومه فأسلموا وأمَّر رسول الله عليهم صرد بن عبدالله وأمره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من قبائل اليمن المشركة فذهب وحاصر جرش شهرا فلما امتنعوا عليه انصرف عنهم فظنوا أنه قد ولًى عنهم منهزما فخرجوا فى طلبه فعاد إليهم وقاتلهم قتالاً شديدا فأسلموا. ثم جاءوا إلى رسول الله بالمدينة فبايعوه.

٩ – إسلام ملوك حمير ومُرَّة:

فى رمضان سنة ٩ الهجرة قدم علي رسول الله رسل من ملوك حمير ومعهم كتاب بإسلامهم. وكذلك جاء من ملك مُرَّة كتاب بإسلام قومه. فكتب إليهم رسول الله كتابا بيَّن لهم فيه أسس الإسلام وحثهم على تطبيقها ثم أوضح لهم مقدار الزكاة وختم بقوله: ومن أدَّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة ورسوله وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرَدُّ عنها وعليه الجزية على كل حالم (من بلغ الحلم) ذكر أنثى حر أو عبد دينار. فمن أدَّى ذلك إلى رسول الله فإنه له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

١٠ – هدم ذى الخلصة وإسلام خثعم وبجيلة:

كانت خثعم وبجيله قد بنوا كعبة يضاهئون بها الكعبة التى فى مكة التي سمُّوها «الكعبة الشامية» وسموا كعبتهم «الكعبة اليمانية» ووضعوا فيها تمثالا يعبدونه هو «ذو الخلصة».

وكان جرير بن عبدالله البجلى من خثعم قد فتح الله قلبه للإسلام. فركب راحلته قاصدا

المدينة حتي اقترب منها. وكان رسول الله يخطب فى مسجده. فقال للناس: يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة مُلك. وإن هى إلا دقائق ودخل جرير بن عبد اله فجلس حتى انتهى رسول الله من صلاته ثم أقبل عليه وأسلم فقال رسول الله: يا جرير، أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن تؤمن بالله واليوم الآخر والقَدر خيره وشره وتصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة. ثم قال له رسول الله: ألا تريحنى من ذى الخلصة؟ فركب جرير فى ١٥٠ راكبا إلى ذى الخلصة وخرّب بيتها وأحرقه وحطم تمثال ذى الخلصة.

١١ – وفد حضرموت:

كان وائل بن حجر بن ربيعة بن يعمر الحضرمى أحد أقيال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم ويقال إن رسول الله أخبر أصحابه به قبل قدومه فقال: يأتيكم بقية أبناء الملوك. فلما دخل رحّب به وقرّب مجلسه وبسط له رداء وقال اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده. وأعلن وائل إسلامه وإسلام من خلفه من قبائل حضرموت واستعمله النبى على الأقيال من حضرموت وكتب معه ثلاثة كتب إلى قبائلهم.

١٢ – وفد صُداء:

قدم زياد بن الحارث الصدائى حتى أتى رسول الله فى مسجده بالمدينة فأعلن إسلامه وإسلام قومه فأُخبر أن رسول الله قد بعث جيشا إلى قومه فقال: يا رسول الله اردد الجيش وأنا لك بإسلام قومى وطاعتهم. فبعث النبى رجلا فردّ الجيش. وكتب الصدائى كتابا إلى قومه فقدم وفدهم يعلن إسلامهم وأمّر رسول الله عليهم زياد بن الحارث.

١٣ – وفد معان:

كان فروة بن عمرو الجذامى عاملا للروم على معان ومن يليهم من العرب. فبعث بكتاب إلى رسول الله يعلنه فيه بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء. فلما بلغ الروم ذلك قبضوا عليه وحبسوه ثم قتلوه.

١٤ – وفد بنى أسد من حضرموت:

وَفَد على رسول الله وفد بنى أسد وكانوا عشرة منهم طليحة بن خويلد الذى ادّعى النبوة بعد ذلك ثم أسلم وحسن إسلامه. وقال رئيسهم للنبى يمن عليه أن أتوا من أنفسهم مسلمين: يا رسول الله أتيناك بتدرّع الليل البهيم فى سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثا. فتلى عليهم قوله تعالى:

«يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين» (١٧ – الحجرات).

١٥ – وفد نصارى نجران:

جاء هذا الوفد فى عام الوفود (٩ هـ) وبعد أن كانت الدعوة الإسلامية قد استتب أمرها وفُتحت مكة وأسلمت معظم القبائل العربية. وكان وفد منهم قد جاء قبل ذلك (ص ٥٢٨) يستطلعون خبر النبى ويتأكدون من نبوته. أما هذه المرة فقد جاءوا لموادعته ومهادنته ويكفيهم منه قوله إن عيسى ابن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه. فكتب لهم النبى عهدا شهد عليه أبو سفيان أعطاهم فيه ذمته وضمن لهم حريتهم الدينية وبقاء كل صاحب منصب فى منصبه. وفرض عليهم إمداده بالسلاح إن حاربه أهل اليمن ويتضمن ذلك تقديم ٣٠ درعا و٣٠ رمحا و٣٠ بعيرا و٣٠ فرسا كما فرض عليهم تقديم ٢٠٠٠ حلة فى السنة.

١٦ – وفد بنى عبس:

وكانوا تسعة نفر قدموا على النبى وأعلنوا إسلامهم وإسلام قومهم.

١٧ – وفد بنى فزارة:

وكانوا بضعة عشر رجلا جاءوا يعلنون إسلامهم وإسلام قومهم. وشكوا إلى النبى من جدب أصابهم فدعا لهم النبى فنزل الغيث عليهم واخضرت أرضهم.

١٨ – وفد بنى مرة.

١٩ – وفد بنى ثعلبة.

٢٠ – وفد بنى محارب.

٢١ – وفد بنى كلاب.

٢٢ – وفد بنى عقيل بن كعب وبنى قشير بن كعب.

٢٣ – وفد كنانة.

٢٤ – وفد أشجع.

٢٥ – وفد بنى سليم.

٢٦ – وفد بنى هلال بن عامر.

٢٧ – وفد تغلب.

٢٨ – وفادات اليمن وتضمنت وفود تجيب وخولان وجعفى.

٢٩ – وفد السباع.

وهناك وفود أخرى يضيق المكان عن ذكرها جميعا إذ كانت الوفود تأتى من جميع أنحاء الجزيرة العربية تعلن إسلامها حتى عم الإسلام جميع أنحاء الجزيرة العربية ونزلت سورة النصر تشير إلى هذا:

سورة النصر:

«إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» (١ – ٣).

وسئل ابن عباس عن هذه السورة فقال: هو أجل رسول الله أعلمه له. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه السورة قال رسول الله نُعِيَت إليَّ نفسي.

حج أبي بكر بالناس:

أهلَّ ذو القعدة من السنة التاسعة للهجرة. وقيل إن النبي همَّ بالحج ثم ذكر أن كثيرا من الأعراب المشركين يحضرون للحج كعادتهم في كل موسم وكثير منهم يطوفون بالبيت عرايا وكان يكره ذلك ولكن لم يكن له أن يمنعه من تلقاء نفسه. فبعث أبا بكر أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم وأجَّل حجته حتى يقضي الله أمرًا في حج المشركين.

كان معظم من خرجوا للحج مع أبي بكر هم من المهاجرين الذين اشتاقوا إلى مراتع صباهم ورؤية أقاربهم من أهل مكة ولم تمكنهم عمرة القضاء من ذلك لأن أهل مكة تركوها قبل دخول المسلمين معتمرين. كما أن معركة فتح مكة وما تلاها من حرب هوازن وثقيف لم تتح لهم الوقت الكافي للقعود مع أقاربهم وأصدقائهم واجترار ذكرياتهم عن البلد الحبيب.

وبينما كان أبو بكر في الطريق وبعد أن سار عدة أيام نزلت سورة التوبة – وتسمى أيضا سورة براءة – وفيها حملة على الكافرين والمشركين والمنافقين متمثله في تبرؤ المسلمين من عهودهم مع المشركين والحث على قتالهم والنص على أن المشركين نجس فلا يجوز لهم أن يدخلوا منطقة البيت الحرام بعد هذا العام. فبعث النبي عليا بن أبي طالب بالآيات الـ ٢٨ الأولى ليبلِّغها إلى أبي بكر ليعمل بمقتضاها ويبلِّغ محتواها إلى المشركين. وقيل إن أبا بكر لما خطب الناس يوم عرفه التفت إلى عليّ وقال له: قم فأدِّ رسالة رسول الله. فقام علي وقرأ صدر سورة التوبة.

سورة التوبة:

لم تبدأ سورة التوبة – أو سورة براءة – بالبسملة مثل باقي سور القرآن الكريم إذ قيل إن البسملة أمان وسكينة والسورة تعلن براءة الله ورسوله من عهود المشركين وإعطائهم مهلة ثم بعد ذلك يكون إعمال السيف فيهم:

«براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غيرُ معجزي الله وأن الله مُخزي الكافرين. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسولُه فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم

ينقصوكم شيئا ولم يُظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلُّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون. كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين. كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقُبُوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون. اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون. لا يرقُبُون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفَصل الآيات لقوم يعلمون. وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون» (١ - ١٢).

وأرست الآيات القواعد التالية:

١ - براءة الله ورسوله من العهود التي تمت بين المسلمين والمشركين وكانت عهودا مطلقة أي غير محددة المدة - وقام المشركون بنقضها. فهذه تنهى فورا.

٢ - إذا كانت مدة العهد أقل من أربعة أشهر فتمتد إلى أربعة أشهر يسيرون خلالها آمنين ثم بعدها يحل قتالهم.

٣ - تنهى فورا عهود المشركين الذين ينقضون العهد ويحل قتالهم. أما إن رجعوا عن شركهم فهذا خير لهم وإن أصروا على كفرهم فلهم عندالله عذاب أليم.

٤ - من كان لهم عهد مؤقت بمدة ولم يعادوا المسلمين ولم يتحالفوا مع أعدائهم فأجله إلى مدته مهما كانت لقوله تعالى: «فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم» يسيرون في الأرض آمنين.

٥ - من ليس له عهد فمدته هو انتهاء الأشهر الحرم من يوم عرفة - يوم الحج الأكبر - إلى آخر شهر المحرم وبعدها يحل قتالهم حتى يدخلوا إلى الإسلام . فإن أعلنوا إسلامهم فلا يجب التعرض لهم.

٦ - إن أحد من أحد المشركين استجار بالمسلمين فيجب إعطاؤه الأمان. ويُتلى عليه شيئ من القرآن. ثم يُترك ليبلغ دار قومه. والحكمة في ذلك أن كثيرا منهم لم يكونوا قد سمعوا القرآن من قبل وحين يتدبروه بحرية فكر فقد يؤمنوا.

٧ - بطون قريش الذين عاهدوا المسلمين عند المسجد الحرام - في صلح الحديبية - ولم ينقضوا العهد فواجب على المسلمين الوفاء بعهدهم. مثل بني خزيمة الذين استقاموا على عهدهم ولم ينقضوه كما فعلت بنو بكر.

٨ - توضح الآيات أن المشركين المعاهدين الذين نقضوا العهد وظهر منهم الغدر كانوا على درجة شديدة من الحقد على المسلمين والكيد لهم فوجب الحث على مطاردتهم وقتالهم وقتلهم إلا إذا تابوا وأسلموا وفى هذه الحالة يصبحون إخوانا فى الدين - وفى ذلك حث للمسلمين على التسامح وفتح الباب للمشركين لكى يندمجوا فى الكيان الإسلامى وعفا الله عما سلف.

٩ - ثم تعود الآيات لتستدرك ما قد يحدث من البعض من خيانة للعهد ونقضه ويفعلوا ما يُعتبر طعنًا فى الدين وعدوانا عليه فهؤلاء يجب قتالهم وخاصة سادتهم أئمة الكفر لأنهم الأشد عداوة والأكثر كيدا فى الدين.

ثم تستمر الآيات تحث المسلمين على قتال هذه الفئات من المشركين:

«ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة. أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يُعذبهم الله بأيديكم ويُخزِهم وينصركم عليهم ويَشف صدور قوم مؤمنين ويُذهبْ غيظ قلوبهم ويتوبُ الله على من يشاء والله عليم حكيم. أم حسبتم أن تُتركوا ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة (بطانة) والله خبير بما تعملون» (١٣ - ١٦).

والآيات تتساءل عما إذا كان يصح للمسلمين أن يترددوا ويحجموا عن قتال قوم نقضوا عهودهم وراحوا يكيدون للرسول ويتآمرون على إخراجه. ثم تنبيه بأنهم لايجب أن يخشوهم لأن الله وحده هو الأحق أن يخشوه. ثم حضٌ صريح على قتالهم وتطمئن المسلمين بأن الله ناصرهم ومعذِّب الكافرين. وفى ذلك ما يذهب غيظ قلوب المؤمنين ويشف صدورهم. ثم تختم هذه الفقرة بتوبيخ لمن شق عليه القتال من المؤمنين بتوضيح أن هذا الأمر بالقتال هو اختبار من الله لهم لإظهار أهل العزم الصادق من ضعيفى الإيمان. فالمخلص فى إيمانه يسارع إلى الجهاد فى سبيل الله ولا يتلمَّس حجَّة أو ذريعة حتى يقعد عن الاشتراك فى القتال. وقيل «ولمَّا يعلم الله» لبيان خطورة هذا الامتحان. والحقيقة أن الهدف منه هو ليعرف كل مسلم موقعه من الإيمان وإلا فإن الله خبير بما نعمل حتى من قبل أن نعمل به.

ويتبادر إلى الذهن - لأول وهلة - عند قراءة «وهمُّوا بإخراج الرسول» أن المقصود قريشا. ولكن الثابت أن قريشا كانت حريصة ألا يخرج المسلمون إلى أرض أخرى. وكان المهاجرون يتسللون فى خفية عن أعين قريش. وكذلك كانت قريش حريصة على أن لا يخرج النبى إلى يثرب ولذلك دبروا المؤامرة لقتله مخافة خروجه وإلا لكانوا قد تركوه يخرج. أما المنافقون من أهل المدينة فقد ضايقهم ازدياد أعداد المسلمين وراحوا يتحالفون مع المشركين من قريش ومن القبائل الأخرى لمحاربة النبى والمهاجرين وإخراجهم من المدينة وخير دليل على ذلك قول عبدالله بن أبَى **«لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»** (٨ - المنافقون - ص ٦٤٧).

منع المشركين من تولى أمور المساجد:

بعد ذلك جاءت الآيات بمنع المشركين من الاشتراك فى أمور المساجد وألا يتولوا أى أمر من أمورها لأنهم لا يتورعون عن مناوأة المسلمين والكيد للإسلام. وهم مهما عملوا من أعمال يظنون أنهم يتقربون بها إلى الله - مثل السقاية والحجابة - فأعمالهم مرفوضة ومصيرهم الخلود فى النار. ثم تعقيب يقرر أن الذين يحق لهم أن يكونوا من عُمار المساجد هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولا يخافون أحدا غير الله فهؤلاء على هدى من ربهم. وقيل إن بعض رجال قريش قالوا إنهم كانوا يقومون بخدمة بيت الله وصيانته وسقاية الحجيج وهى أعمال تعادل ثواب من سبقوهم إلى الإسلام وهاجروا مع رسول الله إلى المدينة فكان الرد بسؤال إستنكارى ينفى مقالتهم ويبين أن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أعظم درجة ومنزلة عند الله. وهم الفائزون ولهم جنات الخلد جزاء ولهم فيها نعيم مقيم:

«ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله. فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله. لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم» (١٧ - ٢٢).

عدم الركون إلى الدعة:

قلنا إن معظم المسلمين الذين رافقوا أبا بكر فى حجِّه كانوا من المهاجرين وبالطبع كان لهم أقارب فى مكة. بعضهم أسلم وبعضهم ظلَّ قلبه مشركا وإن أظهر الإسلام نفاقا وكان هناك احتمال أن يتواصل المهاجرون مع أقاربهم ويعتبرونهم عصبيتهم فيعودوا إلى مكة بعد أن فُتحت ليعيشوا فى أموالهم ودورهم التى تركوها عند الهجرة والأنس بأقاربهم والمتاجرة معهم. ولعل بعض المهاجرين فكَّر فى ذلك نأيا بأنفسهم عن أى معارك قادمة أو ظنًّا منهم أن الأمر قد انتهى بفتح مكة. فجاءت الآيات تحذر من ذلك وتنهى عنه وتحث على العودة إلى المدينة ثانية لاستئناف الجهاد مع رسول الله وتحذِّرهم «فتربَّصوا» من عذاب الله لأنهم لو تخلفوا لكانوا من الفاسقين. بل إن الآيات راحت تدعوا الذين أسلموا من قريش بعد الفتح أن يهاجروا إلى المدينة ليشدُّوا من أزر النبى ومن أزر المسلمين بالاشتراك معهم فى الجهاد:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن

يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين» (٢٣ - ٢٤).

وتستمر الآيات تطمئن هؤلاء الذين تخوفوا من معارك قادمة تخبرهم أن الله قد نصر المسلمين فى المعارك السابقة وهى كثيرة: معركة بدر. معركة الخندق وآخرها معركة حنين وذكرتهم الآيات بأن كثرتهم لم تفدهم فى معركة حنين وكادت الهزيمة أن تحيق بهم كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٧٦) لولا أن أنزل الله سكينته على رسوله وثبت القلة المؤمنة التى التفت حوله وأيدهم بجند من عنده حتى تم النصر:

«لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» (٢٥ - ٢٧).

منع المشركين من دخول المسجد الحرام:

«يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم. قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون» (٢٨ - ٣٠).

والآية حاسمة فى منع المشركين من دخول المسجد الحرام. وهكذا تطهر البيت الحرام من آخر مظاهر الشرك. فقد كسرت الأصنام يوم فتح مكة والآن منع طواف المشركين - عرايا أو غير عرايا - حول الكعبة بعد هذا الموسم. وكان هذا تمهيدا لحج رسول الله فى العام القادم.

وكان أهل مكة يعتمدون على الحجيج فى تجارتهم ورزقهم وخشوا من ضيق العيش بعد هذا المنع فأوردت الآيات تطمينا لهم بأن الله عز وجل قادر على إغنائهم من فضله فهو العليم بمقتضيات الأمور وحكيم فلا يأمر إلا بما فيه خير العباد. وقالوا إن الله أرسل على أهل مكة المطر مدرارا فى ذلك العام ووفق أهل نجد وجرش فأسلموا وحملوا إلى أهل مكة الطعام وما يحتاجون إليه فى معايشهم.

كثير من المفسرين يرون أن الآية التى تلتها والتى تحض على قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية هى الإغناء المقصود والمعنى أن الله عز وجل جعل الجزية التى قد تأتى من حرب الروم هى التعويض لما يخسره أهل مكة من منع المشركين من ارتياد البيت الحرام. يقول ابن كثير

(السيرة النبوية جـ ٤ ص ٣): أنه لما أمر الله تعالى أن يُمنع المشركون من قربان المسجد الحرام قالت قريش لتنقطعن عنا المتاجر والأسواق وليذهبن ما كنا نصيبه منها فعوَّضهم الله عن ذلك الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية. وهذا التفسير يبخس قيمة الجهاد وينزل به إلى مجرد حرب للحصول على الجزية فى حين أن آيات كثيرة سابقة قررت أن الغنائم ليست - ولا يجب أن تكون - هى هدف القتال. ثم إن غزوة تبوك مع الروم لم يكن فيها قتال ولم تؤخذ جزية ولا غنائم. والعهود التى عقدها النبى مع بعض المدن الواقعة شرقى خليج العقبة كانت عهود مسالمة وموادعة وما تعهدوا بأدائه من مال كان يؤول إلى بيت المال فى المدينة وينفق منه على مصالح المسلمين عامة فى حين أن التخوف المذكور فى الآية هو تعبير عن لسان حال أهل مكة الذين كانت مواسم الحج من أهم موارد رزقهم. لذلك فإننا نرى أن الأمر بقتال أهل الكتاب هو فصل جديد يهدف إلى تشجيع المسلمين فى مجابهة الروم كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٨٩) وبيان مبررات هذا القتال وهو ادعاء اليهود أن عزيرا ابن الله وادعاء النصارى أن المسيح ابن الله محاكاة لقول المشركين إن الملائكة بنات الله. كما أنه أمر بقتالهم فى المستقبل وهو ما فعله أبو بكر أثناء ولايته.

أحداث السنة العاشرة للهجرة

محرم		ــــــ
صفر		ــــــ
ربيع الأول		وفاة إبراهيم ابن النبى.
ربيع الثانى		بعثة خالد بن الوليد إلى نجران وإسلام بنى الحارث.
جمادى الأول		بعثة معاذ بن جبل إلى اليمن
جمادى الثانى		على يخطب ابنة أبى جهل
رجب		سرية على بن أبى طالب إلى اليمن.
شعبان		ــــــ
رمضان		ــــــ
شوال		ــــــ
ذو القعدة	٢٥	خروج النبى للحج.
ذو الحجة		حجة الوداع وعودة على بن أبى طالب من اليمن، سرية أسامة بن زيد إلى البلقاء بتخوم فلسطين.

وفاة إبراهيم ابن النبي:

قلنا سابقا (ص ٧٨٧) إنه فى ذى الحجة من السنة الثامنة للهجرة وُلد إبراهيم ابن النبى من مارية القبطية وسُرَّ به النبى أيّما سرور، ولكن لم تطل سعادة النبى بابنه إبراهيم سوى عام وبضع عام. ففى أوائل عام ١٠ للهجرة مرض إبراهيم وكان عمره سنة وثلاثة أشهر. وجزعت أمه ودعت إليها أختها سيرين وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ولكن بلا فائدة. وجاء النبى وحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بآخر أنفاسه وقال: إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا. ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ويسمع حشرجة احتضاره واستمر يقول: يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنًا عليك حزنا هو أشد من هذا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب. وأقبل الفضل بن العباس - ابن عم النبى - فغسَّل الصغير ثم ساروا به إلى البقيع وأضجعه النبى بيده فى قبره ثم سوّى عليه التراب ونداه بالماء وعاد المشيعون وقد غام الأفق وانكسفت الشمس فقال الناس إنها انكسفت لموت إبراهيم. فقال النبى: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته.

سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث فى شمال نجران:

بعث رسول الله خالد بن الوليد فى ربيع الثانى أو جمادى الأول من سنة ١٠ للهجرة - إلى بنى الحارث بن كعب فى شمال نجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا قبل أن يقاتلهم فإن استجابوا يقبل منهم وإن لم يفعلوا يقاتلهم. فخرج خالد ومعه حوالى ٢٠٠ محارب. وأسلم أناس كثيرون فى الطريق إلى نجران ثم وصل إلى بنى الحارث بن كعب ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وأرسل كتابا إلى النبى يخبره بذلك وأنه مقيم بينهم يفقههم فى أمور الدين. فرد عليه النبى فمدح فعله. ثم ارتأى النبى أن يحل على بن أبى طالب محل خالد بن الوليد فى اليمن فبعث عليا وأرسل معه كتابا بأنه من أراد العودة مع خالد فليرجع ومن أراد البقاء مع علىّ فليفعل. وعاد خالد ومعه وفد من بنى الحارث فشهدوا بالإسلام أمام الرسول وأقاموا بالمدينة يتعلمون من النبى حتى شوال ثم رجعوا إلى قومهم.

بعثة معاذ بن جبل إلى اليمن.

بعث رسول الله معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقههم فى أمور الدين وخرج النبى يودعه وقال له يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا ولعلّك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى. فبكى معاذ من فكرة فراق رسول الله فقال له: لا تبك يا معاذ للبكاء أوان. والبكاء من الشيطان. وفعلا فإن معاذ لم يلق النبى بعدها إذ توفى رسول الله ومعاذ فى اليمن وعاد معاذ فى عهد أبى بكر الصديق.

وقيل إن النبى سأل معاذ: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال أقضى بما فى كتاب الله. قال فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم يكن؟ قال أجتهد ولا آلو. فضرب رسول الله صدره ثم قال: الحمد الله الذى وفق رسول رسول الله لما يُرضى رسول الله.

على يخطب ابنة أبى جهل:

خطب على بن أبي طالب ابنة أبي جهل وعنده فاطمة بنت النبى. فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبى وقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك. وهذا علىٌ ناكحا ابنة أبى جهل. فقام النبي في الناس بعد صلاة فقال: أما بعد فإن أنكحتُ أبا العاص بن الربيع فحدثنى وصدقنى. وإن فاطمة بنت محمد مضغة منى. وإنما أكره أن يفتنوها. وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا. فترك على الخطبة (مختصر صحيح البخارى. ص ٤٣٨).

بعثة على بن أبى طالب إلى اليمن:

ارتأى النبى أن يحل على بن أبى طالب محل خالد بن الوليد فى اليمن وكانت مهمته أن يفقه الناس فى أمور دينهم وفى آخر العام يعود ومعه الزكاة. كذلك كان عليه أن ينشر الإسلام فى القبائل المحيطة. فكان يخرج فى سرايا تعرض الإسلام عليهم فإن أبوا قاتلهم. وفى إحدى المرات أغار على قبيلة مشركة فغنم غُنما وسبى سبيا وكان فى السبى جارية حسناء اسمها وصيفة اختصها لنفسه وبنى بها فاستنكر بعض الرجال منه ذلك. وقالوا يا أبا الحسن ما هذا؟ فقال: إنى قسمت وخمَّست – أى أفرز الخمس المخصص لرسول الله – فلما صارت فى نصيب آل البيت صارت إليه. ولم يقتنع الرجال بهذا الرد وأرسلوا كتابا إلى النبى مع رجل اسمه «أبو بريدة» يخبرونه بما حدث. واشتم الرسول كراهية هؤلاء الرجال لعلى فسأل أبا بريدة: أتبغض عليا؟ قال: نعم فقال له النبى: فلا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حبا. فوالذى نفس محمد بيده لنصيب آل محمد فى الخمس أفضل من وصيفة (الجارية) – (السيرة النبوية – ابن كثير. جـ ٤ ص ٢٠٢).

ولما أخذ علىّ الصدقة وفى أثناء عودته من اليمن طلب منه بعض الرجال أن يركبوا بعضها ويريحوا إبلهم فأبى عليهم ذلك. وقال إن لكم فيها مثل ما للمسلمين. وأمَّر عليهم أحدهم وأسرع هو ليلحق الحج مع رسول الله.

حجـــة الـــوداع

اعتمر رسول الله أربع عمرات ثلاث منهن فى ذى القعدة: عمرة الحديبية والتى لم تتم ثم

عمرة القضاء (ص ٧٤٢) والثالثة عمرة الجعرانه بعد فتح مكة عند عودته من الطائف (ص ٧٨١) والرابعة التي مع حجته في ذي الحجة سنة ١٠هـ.

لما دخل ذو القعدة من السنة العاشرة تجهز النبي للحج وأمر الناس بالجهاز له وخرج معه جميع نسائه حاجّات. وارتحل يوم السبت ٢٥ ذي القعدة بعد أن صلى الظهر أربع ركعات في مسجد المدينة ثم صلى العصر بذي الحليفة ركعتين وذو الحليفة على بعد ٧كم من المدينة وهناك اغتسل وتطيب وأحرم من مسجد ذي الحليفة بحج وعمرة وقضى ليلته بذي الحليفة فلما أصبح أشعر البُدن وقلَّدها أي وضع في رقبتها ما تعرف به أنها هدى. وكان النبي في تلبيته يقول: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لك. لا شريك لك. وقيل إن جبريل جاءه وقال له: مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها شعار الحج.

التمتع والقرآن في الحج:

كان رسول الله قارنا أي أهل بحج وعمرة معا. فلما جاء البيت طاف سبعا واستلم الركن في كل مرة .رَمَل ثلاثا ومشى أربعا. حتى إذا فرغ من طوافه أتي إلى مقام إبراهيم وصلى ركعتين قرأ فيهما «قل هو الله أحد» وفي الثانية «قل يا أيها الكافرون» ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قال: «**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم**» (١٥٨ - البقرة) أبدأ بما بدأ به الله فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت واستقبله فوحَّد الله وكبَّره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم نزل إلى بطن الوادي وسعى حتى أتى إلى المروة فصعدها وفعل عليها كما على الصفا حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة. فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة. وهذا هو فعل المتمتع أما المقرن فقد دخلت العمرة في الحج.

وقدِم عليّ على رسول الله فوجد فاطمة ممن حلّ وعرف من النبي أنها متمتعة وسأله النبي عما قال حين نوى الحج فقال عليّ. قلت اللهم إني أهلّ بما أهلَّ به رسولك. قال النبي فإن معي الهدى فلا تحل.

فلما كان يوم التروية ٨ ذي الحجة توجهوا إلى منى ولبُّوا بالحج وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس. ثم سار وقريش تظن أنه سيقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ولكن رسول الله تجاوزه حتى أتى عرفة فوجد قبة كانت قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا حانت الصلاة خطب الناس (السيرة النبوية. ابن هشام. جـ ٤ ص ١٦١).

خطبة الوداع:

حمد رسول الله اللهَ وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغت. فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع ولكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وإن أولَ دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل). فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس. فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أيها الناس «**إنما النسيء زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرّم الله**» وإن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية: ذو القعدة – ذو الحجة – محرم – ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس. فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا. لكم عليهن أن لا يوطئن فروشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا. وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى. فإنى قد بلّغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بيِّنًا: كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولى هذا واعقلوه. تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلَّغت قالوا نعم. قال اللهم اشهد.

وبعثت أم الفضل زوجة العباس لبنا في قدح شربه أمام الناس فعلموا أنه لم يكن صائما ذلك اليوم. ثم أمر بلالا فأذن الظهر والعصر جمعا للسفر بأذان واحد وإقامتين.

ثم ركب رسول الله راحلته إلى أن أتى ووقف على جبل النور ولكنه خشى أن يتزاحم الناس فى الحج للوقوف عليه فقال: كل عرفة موقف. واستقبل القبلة وراح يدعو الله ما شاء من الدعاء من الزوال إلى الغروب. ومما يؤثر عنه أنه قال: أفضل الدعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيين من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك والحمد وهو على كل شىء قدير. وعن بعض الصحابة أنهم سمعوه يقرأ هذه الآية: «**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم**

قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» (١٨ – آل عمران) ثم قال: وأنا على ذلك من الشاهدين.

وسأله جماعة من نجد: كيف الحج؟ قال الحج عرفة.

ونزل عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى **«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»** وأمر النبي بوضعها في سورة المائدة. الآية ٣ (ص ٦٩٦). قيل ولما سمع عمر هذه الآية بكى فسأله النبي عما يبكيه فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيئ إلا نقص فقال له النبي: صدقت. ويروى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب أثناء ولايته وقال: يا أمير المؤمنين: إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال عمر: وأي آية هي؟ قال قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله والساعة التي نزلت فيها عليه: عشية عرفة في يوم الجمعة وهو عيد لنا.

وبعد غروب الشمس ركب النبي راحلته وسار إلى المزدلفة حيث صلى المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد وإقامتين. ثم أذن للنساء والصبيان أن يرموا ليلا فذهبوا إلى منى بعد منتصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة ولم يأذن للرجال. ثم طلع الفجر من اليوم العاشر من ذي الحجة وهو يوم النحر فصلى الصبح ثم أتى المشعر الحرام فوقف فيه وهو راكب ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وكَبَّرُ وهلَّل ثم سار قبل أن تطلع الشمس. وطلب من الناس جمع الحصى. وسار حتى أتى جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات ثم انصرف إلى المنحر فنحر ٦٣ بدنة بيده ثم أعطى على بن أبي طالب فنحر حتى المائة. ثم أمر من كل بدنة بقطعة فجعلت في قدر فطبخت وأكل من لحمها وشرب من مرقها ثم وقف الناس بمنى وأنزل الناس منازلهم فقال: لينزل المهاجرون هاهنا وأشار إلى ميمنة القبلة والأنصار هاهنا وأشار إلى ميسرة القبلة ثم لينزل الناس حولهم. وقال للناس: خذوا عني مناسككم فلعلِّي لا أحج بعد عامي هذا. ثم قال: أيها الناس. أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. وأعادها مرارا ثم رفع رأسه وقال: اللهم هل بلغت. اللهم قد بلغت. فليبلِّغ الشاهد الغائب فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع. ثم حلق. ودعا للمحلقين مرتين فلما قالوا يا رسول الله والمقصِّرين قال: والمقصرين.

ثم تطيب وركب إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة فصلى بمكة الظهر وأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فناولوه دلوا فشرب منه. ثم رجع إلى منى فمكث بها أيام التشريق الثلاثة يرمي الجمرات إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة.

وسأله رجل نسي أن يرمي الجمار فقال ارم ولا حرج، ثم أتاه رجل آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف فقال طف ولا حرج، ثم أتاه رجل حلق قبل أن يذبح فقال: اذبح ولا حرج، فما سألوه يومئذ عن شيئ إلا قال: لا حرج لا حرج، ثم قال: قد أذهب الله الحرج إلا رجلا اقترض امرءاً مسلما (أخذ قرضا ولم يرده أو اقترض عرضه أى اغتابه) فذلك الذى حَرِج وهلك.

وفى ثالث يوم من أيام التشريق ركب ناقته وسار إلى البيت فطاف طواف الوداع ثم خرج من أسفل مكة من الثنية السفلى وكان قد دخل من الثنية العليا. وقالوا دخل من كداء وخرج من كدى، قاصدا المدينة.

وكان على بن أبى طالب قد عاد إلى رجاله فوجد بعضهم قد أخذ حللا من الصدقة ولبسها فأمرهم بنزعها فغضبوا وتذمَّروا وأسرع علىّ ورجاله حتى لحقوا بركب النبى عند «غدير خم» فى يوم ١٨ من ذى الحجة ووصل إلى سمع النبى ما كان الناس يتهامسون به من شدة علي بن أبى طالب ومنعه رجاله من ركوب إبل الصدقة ولبس الحلل وما فعله من استئثاره بالجارية «وصيفة». فوقف رسول الله وخطب الناس وبيّن فضل على بن أبى طالب وبراءته مما تكلَّم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن وأخذ بيد علىّ وقال: ألستُ بأولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: ألستُ بأولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا بلى، قال فهذا ولىٌّ من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه.

وسار ركب النبى حتى وصل إلى ذى الحليفة فبات فيها لأنه كره أن يدخل المدينة ليلا. ثم لما أصبح الصبح وفى نهاية اليوم دخل المدينة. وكان قد أصاب الناس عند خروجه للحج وباء جدرى منع كثيرين من الحج معه فطيّب خاطرهم قائلا: عمرة فى رمضان تعدل حجة معى.

ويروى عن أبى هريرة أنه قال لنسائه: إنما هى هذه الحجة ثم الزمن ظهور الحصر. وقال النبى لفاطمة ابنته: إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى به العام مرتين وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلى. وأقام النبى بالمدينة ما بقى من ذى الحجة ومحرم وصفر.

جيش أسامة بن زيد:

أمر النبى بتجهيز جيش ليسير إلى تخوم فلسطين والتحق به المهاجرون والأنصار وأمَّر عليهم أسامة بن زيد مع صغر سنه، وتجهز الناس، ولكن مرض رسول الله جعل أسامة يتأخر فى المسيرة للاطمئنان على رسول الله.

مرض رسول الله:

فى صفر خرج رسول الله إلى بقيع الغرقد فى جوف الليل واصطحب معه أبا مويهبة مولاه.

ولما وقف على البقيع قال: السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها. والآخرة شر من الأولى. ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف.

تقول عائشة: رجع رسول الله من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعا في رأسي وأنا أقول وارأساه. فقال بل أنا والله يا عائشة وارأساه. ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك. قالت والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. فتبسم رسول الله. وزاد وجعه. وكان يدور على نسائه كأنه يودِّعهن. فلما زاد به الوجع كان في بيت مأمونة فدعا نساءه واستأذنهن في أي يُمرَّض في بيت عائشة. فخرج رسول الله من بيت مأمونة يسنده الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة. ثم اشتد به وجعه، فقال أريقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. ففعلوا ثم خرج عاصبا رأسه فجلس على المنبر ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم ثم قال: إن عبداً من عباد الله خيرَّه الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عندالله. وفهم أبو بكر ما يعني الرسول فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال: على رسلك يا أبا بكر. ثم قال انظروا في هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدُّوها إلا أبي بكر (أي باب أبي بكر) فإني لا أعلم أحداً كان أفضل الصحبة يدا منه. إني لو كُنت متخذا من العباد خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده. ثم قال: يا معشر المهاجرين. استوصوا خيرا فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد وأنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن سيئهم.

وكان الناس قد تأخروا في تجهيز الجيش الذي أمر به وقالوا: أمَّر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار. فخرج رسول الله عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر وقال: أيها الناس. أنفذوا بعث أسامة. فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليق بها. ثم نزل وزاد وجع رسول الله. وخرج أسامة وجيشه معه حتى نزلوا الجرف على بعد ١٠كم من المدينة. وتنامى إليه اشتداد المرض برسول الله فأقام أسامة والجيش بالجرف لينظروا ما الله قاض في رسوله.

وفاة رسول الله:

ولمَّا اشتد المرض برسول الله قال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس. فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال مروه فليصل بالناس. فلما كان يوم الاثنين الذي قبض فيه رسول الله خرج إلى الناس وهم يصلُّون الصبح

خلف أبى بكر فلما رفع الستر وفتح الباب كاد الناس يفتنون فى صلاتهم برسول الله حين رأوه فَرَحا به ووسَّعوا له فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم وصلى رسول الله قاعداً إلى جانب أبى بكر. فلما فرغ من الصلاة أقبل الناس وقد سرَّهم أن رأوا رسول الله وقد أبَلَّ من مرضه فكلمهم: أيها الناس. سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم. وإنى والله ما تمسكون علىَّ بشىء. إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أُحرِّم إلا ما حرَّم القرآن. فلما فرغ قال له أبو بكر: يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب. وانصرف أبو بكر إلى أهله وعاد رسول الله إلى بيت عائشة. ثم تقول عائشة: وأخذ رسول الله سواكا فاستنَّ به ثم أسند رأسه في حجرها. وبعد فترة وجيزة وجدت رسول الله يثقل فى حجرها ونظرت فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة. فقالت خُيِّرت فاخترت والذى بعثك بالحق وقبض رسول الله وهو فى حجرها. فوضعت رأسه على وسادة وقامت تندب مع النساء وتضرب وجهها. وسمع عمر بن الخطاب بكاء نساء النبى فقال عمر: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى. وإن رسول الله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات.

وأقبل أبو بكر حين بلغه الخبر ودخل على رسول الله فى بيت عائشة ورسول الله مسجًّى فى ناحية البيت وعليه بردة فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه وقبَّله وقال: بأبى أنت وأمى. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا. ثم رد البردة على رسول الله. ثم خرج وعمر يكلم الناس. فقال: على رسلك يا عمر. ثم كلَّم الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس. من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم تلا الآية: **«وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين»** (١٤٤ – آل عمران). فعرف الناس أن رسول الله قد مات.

وقام على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله. هؤلاء تولوا غسل رسول الله وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه من فوق القميص. ثم كُفِّنَ فى ثلاثة أثواب. ثم قال أبو بكر إنى سمعت رسول الله يقول: ما قبض نبى إلا دُفن حيث قبض. فرفع فراش رسول الله الذى توفى عليه فحفر له تحته ثم دخل الناس على رسول الله يصلُّون عليه أرسالا. دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء ثم الصبيان ولم يؤم الناس على رسول الله أحد ثم دفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء. وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله على بن أبى طالب والفضل بن

العباس والقثم بن العباس. وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم يوم ١٢ أو ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٧ أو ٨ يونيو عام ٦٣٢م بعد أن بلغ ٦٣ عاما قمريا كاملا أي أكثر من ٦١ عاما شمسيا بحوالي شهر وأكثر من نصف شهر (محمود الفلكي. التقويم العربي قبل الإسلام. ص٥٢).

وهكذا شاءت إرادة الله أن تُطوى صفحة هي أعظم صفحات الجهاد في سبيل الله. ولم تُطو إلا وراية التوحيد – الذي كان قد اندثر – ترفرف على كل أجزاء الجزيرة العربية.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد. كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

طبت حيا وميتا يا رسول الله. ونشهد أنك قد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت للأمة. فابعثه اللهم مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد.

مراجع

- القرآن الكريم .
- السيرة النبويـة. ابن هشام . ٤ أجزاء .
- السيرة النبوية. ابن كثيـر . ٤ أجزاء .
- البداية والنهاية. ابن كثيـر . ١٤ جزءا .
- السيرة النبوية. محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار ٢٠ جزءا.
- السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية. دكتور مهدى رزق الله أحمد. مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
- تراجم سيدات بيت النبوة. الدكتورة عائشة عبد الرحمن. دار الكتاب العربى. بيروت.
- مسلمات خالدات. سنية قراعة. مكتب الصحافة الدولى للصحافة والنشر.
- النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. إبراهيم على سالم. مطبعة الشعب.
- أطلس تاريخ الإسلام. حسين مؤنس.
- المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- تفسير الألوسى. ٣٠ جزءا.
- تفسير ابن كثير ٤ أجزاء.
- صفوة التفاسير. محمد على الصابونى. ٤ أجزاء.
- تفسير القرطبى.
- تفسير الإمامين الجلالين.
- نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم. الشيخ محمد الغزالى. دار الشروق.
- لباب النقول فى أسباب النزول. جلال الدين السيوطى.
- الانتصارات العربية العظمى فى صدر الإسلام. محمد عبد الحليم أبو غزالة. مطبوعات الشعب.
- التاريخ العربى القديم. تأليف نيلسن وفرتزهومل وآخرين. ترجمة فؤاد حسين على.
- كتاب الأصنام. تأليف هشام بن محمد بن السائب الكلبى (٢٠٤هـ) تحقيق دكتور محمد عبد القادر أحمد ودكتور أحمد محمد عبيد.
- مؤلفات چورچى زيدان الكاملة. جـ ١٠ - طبقات الأمم. دار الجيل . بيروت.
- دراسات تاريخية من القرآن الكريم. دكتور محمد بيومى مهران. الجزء الأول فى بلاد العرب. دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية.
- دراسه الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. موريس بوكاى. دار المعارف.
- مختصر صحيح البخارى. الحافظ المنذرى.
- العرب قبل الإسلام. دكتور حسين الشيخ. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.

تطلب أجزاء هذه السلسلة من :

- دار المجلد العربى – ١١٦ ش جوهر القائد.

أمام جامعة الأزهر – الحسين. آخر شارع الأزهر– ت : ٥٩١٢٥٢٤

- المكتبة الأكاديمية – ١٢١ ش التحرير. أمام سينما التحرير

الدقى – تليفون: ٧٤٨٥٢٨٢ – ٣٣٦٨٢٨٨

- مكتبات الأهرام بجميع فروعها.
- دار حراء – ٣٣ ش شريف ت: ٣٩٢٨٩٦٣
- مكتبة جامع الحامدية الشاذلية ٥٤ ش الحجاز – مدينة المهندسين

٣٤٧٤٧٧٣ يوميا من ٧ – ١٠ مساء ويوم الجمعة من ١٠ – ٢ ظهراً.

- مكتبة بوك سنتر – ٨ ش إبراهيم اللقانى مصر الجديدة. ت: ٠١٢/٣٤٩٧١٩٥
- المكتبة القومية – ٦٣٨١٢٣٤

١٦٥ ش الحجاز – قبل ميدان الحجاز – مصر الجديدة

للاستفسار عن أى نقاط وردت فى الكتب يمكن الاتصال بالمؤلف :

أيام الأحد والثلاثاء من ٩ – ١٠ مساء ت : ٣٤٦٠٨٥٥